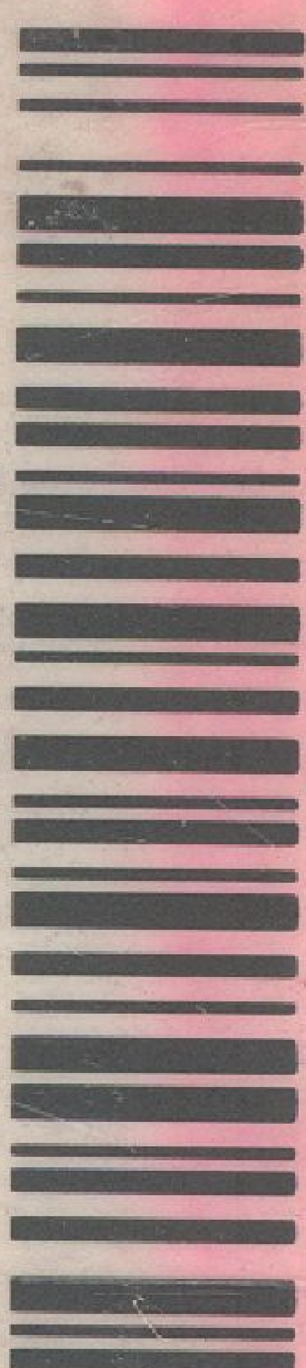



كتاب الهلال ١٠ قروش



كتابات لم تنشر

الدكتور محمد مندور

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير : رجاء النقاش

العــدد ١٧٥ جمادى الآخرة ١٣٨٥ — أكتوبر ١٩٦٥

No: 175 - Octobre 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط) .

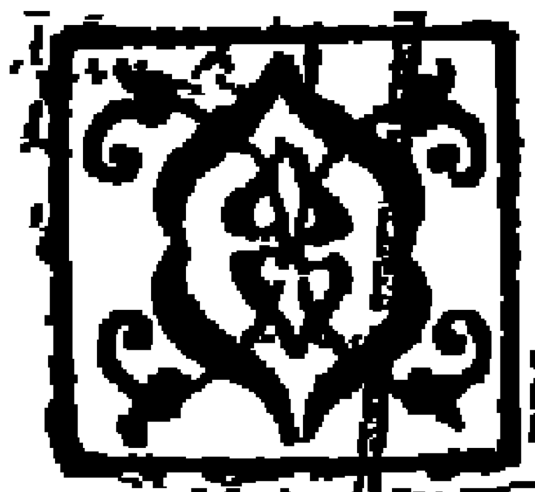
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السـودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشـا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم — فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنـة ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان : حلمى التونى

كتابات لم تنشر

بقلم

الدكتور محمد مندور

دار الهلال

تقــديم

عندما توفي الدكتور محمد مندور في ١٩ مايو سنة ١٩٦٥ شعر الكثيرون أنهم خسروا رائدا عظيما من رواد النضال المخلص فى بلادنا ، فلقد كان مندور رائدا فى الميدان الادبى ، وكان منذ أن بدأ يكتب فى ١٩٣٩ داعية من دعاة التجديد الادبى ، وكان التجديد الذى يدعو اليه هو تجديد الاصالة والعمق ، وليس تجديد « الموضة » ولا تجــديد الذين يحاولون لفت الانظار اليهم بأى وسيلة ممكنة ، على عكس هذا كله كان مندور ، فكانت دعوته الى الشعر المهموس ـ على سبيل المثال ـ هى دعوة الى الصدق •• دعوة الى العودة بالادب العربى الى المنبع الوحيد الاصيل لكل أدب عظيم وهو : النفس الانسانية ، وكانت دعوة مندور الى الهمس هى رد على الادب اللفظى الخطابى ، أدب الزخارف الخارجية اللامعة ، الخاوية فى نفس الوقت من الصدق والاصالة والاقتراب من النفس ، وقد لقيت دعوة مندور الى الهمس تأييدا كبيرا بين الاجيال الادبية الجديدة ، وما تزال هــذه الدعوة أساسا قويا من أسس التجديد الاصيل عند الادباء الشبان ••

ولم يكن مندور ناقدا أدبيا فقط ، بل كان مفكرا تتميز نظرته الى الامور بالعمق والشمول والحرارة ، ولم يستطع أبدا أن يقضى على طبيعته الحية النشيطة الملهمة •• لـم

يستطع أن يفرض على نفسه العزلة والبعد عن مشـــاكل الناس ، والتفرغ للبحث والرهبنة فى ميـدان الدراسات الادبية ، فلقد كان مندور يحب أن يشارك فى الحياة ،وأن يساهم فى تغيير ما فيها من أخطاء وعيوب ، ومن هنااندفع مندور بكل حيويته وحماسه للنزول الى الحياة العـامة ، واستقال من الجامعة حيث كان أستاذا لعشرات من الطلاب، فأصبح خارج الجامعة آستاذا للالاف بل والملايين .. لقد دخل ميدان السياسة ، وأخذ يكتب فى الصحف، ويخاطب الرأى العام باستمرار ، وبذل جهدا لا حد له فى تنوير الجماهير ، وفى تطوير الحياة الســـياسية ، وكان أعظم أدواره ولا شك هو ربطه الواضح بين القضية الوطنيـــة والقضـــية الاجتماعية ، لقـــد وقف منذ البـــداية ليشير وينبه الى أن الاستقلال السياسى ليس هو وحده هدف المصريين ، بل انهم يهـــدفون الى الاســـــتقلال الاقتصادى أيضا ويهـــدفون الى تحقيق العـــــدالة الاجتماعية فى نفس الوقت ، ولا معنى للاستقلال السياسى اذا لم يرتبط بالعدالة الاجتماعية ارتباطا وثيقا أصيلا !

وعندما نقرأ كتابات مندور قبل الثورة ندرك تماما أنه كان أحد الذين يبشرون فى اخلاص وأصالة بقيام الثورة، بل وكان يتنبأ بكثير من الافاق التى سوف تسير فيهـــا الثورة لتحقق احلام الجماهير

فلقد كان مندور من الرواد فى الدعوة الى تدخل الدولة فى الاقتصاد حتى يمكن تحقيق العدل وتطوير الانتاج ، وكان منـــدور من الرواد فى الكشف عن عيـــوب الديموقراطية الغربية التى كنا نقلدها هنا فى مصر ، ولا نظن أن هناك كاتبا قبل الثورة استطاع ان يفضح هذه الديموقراطية ويمزق ما تتخفى وراءه من أستار كما فعل

مندور ، ولقد نادى مندور فى مقابل اعتـــــــراضه على الديموقراطية الغربية بالديموقراطية الاجتماعية ، التى تحفظ للفرد كرامته وحريته وتحقق العدل والمساواة بين الجميع وانطلق مندور من خلال هذه الافكار الرائدة ليحارب استغلال الباشوات ويكشف أسرار هذا الاستغلال بصورة جريئة واضحة مدعمة بالحقائق والوثائق

وعندما قامت الثورة ، ورأى مندور أحلامه فى العدل والحرية تتحقق حلما بعد حلم ، وجه نشاطه الى الميدان الادبى من جديد ، وان كان فى رحلته الادبية الاخيرة بعد الثورة يتحدث باستمرار عن الدور الاجتمــــاعى للادب ويؤكد أن الادب انما هو وسيلة راقية وجميلة من وسائل تغيير المجتمع ومساعدته على التقدم والتطور

وهكذا عاش مندور حياته كلها محاربا لا يهدأ من أجل العدل والحرية والفكر الاصيل الصادق · والحقيقة اننا لو درسنا الرأى العام فى مصر خلال الفترة الطويلـــــة الممتدة من سنة ١٩٣٩ حيث بدأ مندور نشاطه الفكرى الى سنة ١٩٦٥ حيث توفى مندور وهو فى الثـــــامنة والخمسين من عمره ·· اذا درسنا الرأى العام فى هذه الفترة ، فاننا سوف نجد أن مندور خلال هذه المرحلة كان واحدا من الرواد القلائل الذين ساهموا بنصيب كبير فى تكوين هذا الرأى العام تكوينا أساسيا

ومثل هذا التأثير الحاسم على الرأى العام ، يكفى لكى يجعل مندور جزءا عزيزا أصيلا من تاريخنا المعاصر ·· ومن الجانب المناضل المكافح فى هذا التاريخ وهو يندفع الى الامام ··

وهذا الكتاب الذى تقدمه سلسلة « كتاب الهلال » فى هذا الشهر الى قرائها هو مجموعة من المقالات الهامة التى كتبها مندور قبل الثورة ولم تنشر فى كتابه بل كانت مبعثرة

فى مجلات وصحف مختلفة ، فى فترات متباينة .

وقد حرصنا على جمع هذه المقالات المبعثرة ؛ لنقدمها اليوم الى القراء ، حتى يروا فيها صورة من نضال مندور الفكرى والوطنى والاجتماعى ؛ وحتى يروا فيها أيضا صورة من حياتنا قبل الثورة ، سجلها لهم قلم امين صادق عاش فى قلب هذه الحياة ، وعانى ما فيها من فساد وانهيار ، وكافح بأقصى مايستطيع من جهد وثقافة وفهم واحساس ضد المجتمع القديم بكل ما كان يعانيه من أمراض ..

ومن حسن الحظ كان مندور يتمتع بمواهب وفضائل فكرية متعددة جعلت من كتابته وثيقة لامعة متألقة ، فمندور صاحب أسلوب صاف نقى يتميز بالوضوح والبعد الكامل عن أى حذلقة أو تعقيد أو زخرف مفتعل ، ومندور مثقف من الطراز الاول ، جمع بين أعمق ما فى الثقافة الاوربية وأعمق ما فى الثقافة العربية فى وقت واحد ولذلك جاء كتابه بالاضافة الى قيمته التاريخية الكبرى عملا أدبيا لامعا ممتعا

بقيت كلمة قبل أن نترك القارىء مع قلم مندور ، يحكى ويكشف عن صفحات هامة من تاريخنا قبل الثورة ، هذه الكلمة، هى كلمة شكر يوجهها «كتاب الهلال» الى الشاعرة الرقيقة السيدة ملك عبد العزيز زوجة الدكتور مندور فلولا مساعدتها ومعرفتها الكاملة بآثار زوجها الفقيد وقيمة هذه الآثارلما أتيح لهذا الكتاب أن يظهر ..

ونتمنى فى النهاية ان يتبع هذا الكتاب كتب أخرى تجمع كل أثار مندور التى لم تنشر من قبل فى كتب ، والتى ما تزال مبعثرة فى عشرات الصحف المختلفة

وسوف نجد فى هذه الاثار ثروة من الفكر والنضال لا يمكن ان يستغنى عنها أى دارس لتاريخ مصر الحديث

وأى باحث فى الظروف التى عاشتها مصر قبل الثورة ‥ ولعل هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم يكون بدايه لعمـــل شامل فى سبيل نشر كل أثار مندور التائهة فى بطون الصحف والمجلات ‥ فمن كان يكتب مثلمـــا كان يكتب مندور ، ومن كان يعيش مثلما كان يعيش مندور بحماس وحرارة وانتماء كامل الى شعبه ‥ من كان كذلك فـــلا ينبغى ان تفوتنا قراءة ورقة من أوراقه

« كتاب الهلال »

الفصل الأول

فى الثقافة والمجتمع

بعث القديم

ليس من شك في أن ثقافتنا الحديثة تقوم على أساسين : بعث التراث العربي القديم والاخذ عن أوربا ، ولقد كان للحملة الفرنسية في ذلك أبلغ الاثر وذلك لأمرين : نقل الطباعة الى مصر وفتح منافذ بلادنا على العالم الغربي . ولا ريب في أن عودة الفرنسيين الى بلادهم حاملين آلات الطباعة التى كانوا قد أتوا بها الى مصر قد أخر نهضتنا الثقافية ما يقرب من جيل ، وذلك لاننا لم نستطع أن نستخدم الطباعة بعد ذلك الا في سنة ١٨٢٢ أى بعد الحملة الفرنسية بعشرين عاماً ، واذا ذكرنا أن حركة البعث العلمى فى أوربا لم تصب ما أصابت من نجاح فى القرن السادس عشر بعد الميلاد الا بفضل تلك الطباعة ، أدركنا أن نهضتنا الثقافية الواسعة لم تبدأ في حقيقة الامر الا منذ استخدامنا لآلات الطباعة على نحو مطرد أى منذ سنة ١٨٢٢ كما قلنا ، وانه وان تكن الجمعيات العلمية التى ألفت لنشر الكتب لم تتكون فى حقيقة الأمر الا بعد ذلك بكثير ، فجمعية المعارف التى أسسها محمد عارف باشا لا ترجع الى أبعد من سنة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٦/١٩

١٨٦٠ وهى تشبه فى تكوينها الى حد بعيد لجنة التأليف القائمة الآن وشركة طبع الكتب العـــربية التى كان من أعضائها حسن باشا عاصم وأحمد بك تيمور لم تتأسس الا سنة ١٨٩٨ ، الا أن حركة البعث أقدم من ذلك بكثير فهى لم تنتظر تكوين الجمعيات لتبدأ ، ولعل انتشـــار الافكار الاوربية بفضل أعضـــاء البعثـــات كان من أهم الدوافع لذلك البعث ، فرجل كرفاعة الطهطاوى قد فطـن بلا ريب أثناء اقامته بفرنسا الى أن النهضة الاوربية التى رآها قد ابتدأت بحركة بعث قوية للآداب القديمة لاتينية ويونانية ، ولهذا كان يؤمن بأن نهضة بلادنا لا يمكن أن تعتمد على النقل عن أوربا فحسب ، بل يجب أن تعنى الى جانب ذلك ببعث القديم العربى ..

ولقد ظهرت آثار هذا البعث فى الشعر قبل ظهـــورها فى النثر ، وأكبر شخصية تمثل بعث الشعر هى بلاشك شخصية محمود سامى البارودى ، وتلك ظاهرة من اليسير فهمها ، فالنثر الذى كان شائعا عندئذ لم يعد أن يكون : اما نثرا تعبيريا يستخدم فى التأليف العـــــلمى أو فى الصحافة ، واما نثرا شخصيا كالذى نجده فى الرسائل ، والنوع الاول لم يكن يخلو من عجمة فى الصحف ومن نزعة للجدل والتعقيد فى التأليف • والنثر الشخصى ظل نثرا مسجوعا لفظيا متكلفا حتى عند أولئك الكتاب الذين نمت ثقافتهم حتى امتلكوا أفكارا يغنيهم جمالها أو عمقهـا عن تزويق اللفظ كالاســــتاذ الامام الذى ظـــل يكتب بالاسلوبين معا ، أسلوب التأليف وأسلوب الرسائل

وفى الحق اننا لا نعرف أسلوبا يتميز به الادب الحديث بأضيق معانيه غير أسلوب القصة ، فهى أكبر مظهر من مظاهر الادب الحديث ، وليس بخاف أن القصة حديثـة العهد ببلادنا وهى بمجرد ظهورها أخذت تغذى الســجع

بمادة الفكر وتنقله من التفاهة الى الجد ، وهذا واضح فى حديث عيسى بن هشام ، فأسلوب المويلحى رغم حرصه على أوجه العبارة البلاغية لا يخلو من فكر واحساس صادقين ، وذلك لان القصة بطبيعتها تقدم للكاتب مادة ، وكل مادة تحتاج الى التعبير عنها ، فيأتى الاسلوب محملا بتلك المادة

ومنذ أن خطا أسلوب النثر تلك الخطوة أخذ يشيع فى غير القصص حتى امتد الى المقالة أو الموضوع القصير على نحو ما نجد عند السيد توفيق البكرى الذى جمع فى أسلوبه بين الصنعة اللفظية وجمال الصور الخيالية وصدق الاحساس أو أصالة الرأى . ولكننا رغم كل ذلك لانستطيع أن نقول ان النثر قد وصل عندئذ الى ما لم يكن بد من أن يصل اليه ليجارى النثر الاوروبى فيصبح تعبيراً مباشرا عن فكر غنى أو احساس صادق ثم يتسم رغم مباشرته بصفات الادب كعمل فنى ، وتلك مرحلة لم نصل اليها الا فى القرن العشرين . وليس من شك فى أن السيد مصطفى لطفى المنفلوطى هو الذى خطا بنثرنا الى تلك المرحلة الاخيرة . ومنذ ظهور هذا الكاتب العظيم لم يلبث النثر أن استحصد حتى سبق الشعر

واليوم ننظر فى نثرنا فنرى تيارين كبيرين ينطوى فى أثناء أحدهما المويلحى والبكرى ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات على اختلاف فى الامزجة وعمق التفكير أو الاحساس ، ولكنهم يجتمعون معا فى خاصية واحدة ، هى أنهم وان يكونوا أبعد من أن يمثلوا فى شىء اللفظية التى سادت فى عصور مصر الاسلامية المتأخرة ، الا أنهم رغم ذلك يحرصون على تجويد العبارة تجويدا فنيا ، ويخضعون الفكر أو الاحساس لطرق الاداء حتى ليأخذك فى أدبهم جمال الصياغة قبل أصالة

الموضوع ، أو تحس بأن تلك الاصالة قد اضطرتهم اليها أصول الاسلوب التى ينتهجونها

والتيار الثاني يبتدىء كما قلنا بالمنفلوطى ، ذلك الكاتب الذى غذى أجيال الشباب الناهضة أجمل الغذاء ، وبلغ من التأثير فى نفوسهم ما لم يكد يبلغه كاتب آخر • ولقد كان لعدم معرفة هذا الكاتب باللغات الاجنبية معرفة تعمق واحساس ، ما احتفظ لاسلوبه بالسلاسة العربية الصافية • وأما غيره من كتاب هذا التيار فلن تعدم أن تجد فى أسلوبهم آثارا واضحة للتأثر باللغات الاجنبية ، وما نظننا فى حاجة الى أن ندل على ما فى أسلوب كاتب كبير كطه حسين من تأثر واضح بطرق الاداء الفرنسية

وأما الشعر فقد سبق النثر - كما قلنا - الى التحلل من سخافات الصنعة اللفظية وتفاهة المادة ، وسر هذا التحرر يرجع الى بعث الشعر العربى القديم من جهة ، والى طبيعة هذا النوع من الادب من جهة أخرى ، فنحن نلاحظ أن البارودى قد سلك الى تكوين مذهبه الشعرى نفس المسلك الذى سلكه من قبل أبو تمام • فالشاعر العباسى قد كان دائم القراءة للشعر القديم والاختيار منه ، حتى قالوا انه قد ألف ثمانية أنواع من المختارات ، ولا يزال بين أيدينا ديوان الحماسة شاهدا بأن هذا الشاعر كان أحسن اختيارا وتذوقا للشعر منه خلقا له • وكذلك فعل البارودى ، فمختاراته تضم جانبا كبيرا من خير ما خلف العرب • وشعر البارودى نفسه شديد الشبه بشعر المتنبى ، كما أن شعر صبرى باشا يكاد يحكى شعر البحترى ، وفى هذه الحقائق ما لا يدع مجالا للشك فى أن نهضة الشعر الحديث عندنا انما قامت على بعث القديم ومحاكاته

وموضع التساؤل هو : كيف يستطيع شعر يقوم على محاكاة القديم أن يعبر عن حياة جديدة ؟

هذه المشكلة سبق أن واجهها الادب العربى واقتتل حولها النقاد والشعراء ، ففى العصر العباسى سخر أبو نواس من الدمن والاطلال وبكاء دعد واسعادالرفيق والف الناقة ، وظنه تجديدا أن يخرج على تلك الاوضاع ليغازل الخمر ويداعب الغلمان ويصف القصور والحدائق. وهذه النظرية وان تكن لها وجاهة الظاهر ، الا أنها فى الحقيقة لا تعدو أن تكون وجاهة سطحية ، فالفن ليس بهيا كله ، وانما هو بروحه وصياغته ، ولا أدل على ذلك من أننا لا نزال الى اليوم نؤمن بأن خير ما خلف العرب من شعر هو لا ريب الحنين الى الديار ، وذلك لان هذا الحنين وان لم يمت الى تجاربنا الحاضرة بسبب من واقع الحياة ، الا انه يرمز فى حقيقة الامر الى مشاعر انسانية عامة، لاتزال ولن تزال من أجمل ما نحمل من مشاعر ، فهو يثير فى النفس شعور الالف والحنين الى الماضى ، والتعلق بالامكنة وما تحوى من ذكريات ومسرات وآلام من أخصب منابع الادب . ونحن بعد لا نحتاج الى أن نمارس بالفعل كل التجارب التى نتحدث عنها فى أدبنا ، والا كنا فقراء الخيال . ومن يستطيع أن يزعم أن كاتبا أو شاعرا ما قد بلا بنفسه كل ما يتحدث عنه ؟ وهل ننسى أن جانبا كبيرا من آداب العالم أجمع لا يمثل ما عاشه كتابه بالفعل ، بل ما ودوا أن لو عاشوه ؟ والواقع والخيال يرجعان بعد فى الادب الصادق الى منبع واحد ، هو القلب البشرى . وأساس النجاح هو أن يستثير الكاتب فينا احساسا حقيقيا ، سواء أكان ذلك الاحساس التفاتة الى ماض عرفناه أو تلهفا الى مستقبل نود أن نعرفه أو مزيجا منهما واذن فعندما نسمع الشاعر الذى يقول :

ألا أيها الوادى الذى ضم سيله
إلينا نوى ظمياء ، حييت واديا !

لا نملك الا أن نهتز ، ولو لم نر فى حياتنا سيلا ولا واديا ولا عرفنا ظمياء

والشعر القديم أمس قربا بالروح الشعرية بحكم موضوعه وصياغته ، فالطلل والناقة أحب الى النفس من القصر والسيارة . الطلل يستثير معنى الفناء ، ونحن البشر لا يحركنا معنى أكثر مما يحركنا هذا المعنى . وان كان من نعم الله أننا ننساه أغلب الوقت ، وربما كان فى هذه الحقيقة ما يزيده قوة حينما يثار . والناقة حيوان أليف صبور ودود ، ولا كذلك الآلة الصماء ، وصياغة الشعر القديم كموضوعاته ألصق ما تكون بحقيقة الفن . الشعر الجاهلى يجمع على نحو رائع شاعرية الروح وواقعية العبارة ، حتى ترى صورة مادية قريبة مأخوذة من واقع الحياة وقد خلت من كل تكلف فاسد

لقد ابتدأ البعث الشعرى فى بلادنا اذن باحياء القديم ، ولكن هذا الاحياء لسوء الحظ قد جنح الى العصر العباسى حتى اننا لانزال الى اليوم اكثر معرفة ودراسة لادب ذلك العصر منا للادب الجاهلى والاموى ، وذلك فيما يبدو لسهولة الادب العباسى ومشقة الادب القديم ، ثم لاننا فيما أعتقد لم نصل بعد من النضوج الفنى الى حيث نؤمن بتلك الحقيقة الكبيرة التى قال بها من قبل السيد المرصفى من أن خير الادب العربى الجاهلى والاموى

ونحن نعتقد ان الامعان فى دراسة ذلك الادب الجاهلى وتذوقه هو الوسيلة الوحيدة للخطو بشعرنا التقليدى خطوة جديدة او على الاقل لصيانته من ان ينقرض امام تيار الشعر الحديث المستمد من الادب الغربى

الأخذ عن أوربا

يردد بعض الناس هنا وهناك أن الشرق غير الغرب ، وأنه لا سبيل الى التقائهما .. ونحن فى الحق لا نعرف قولا أكذب من هذا وبخاصة فى مجال الثقافة حيث يشهد التاريخ أن التيارات الفكرية لم ينقطع لها مدد بين شطرى العالم ، وان كان من الصحيح أن لكل من هذين الشطرين خصائص مميزة الى جانب ما يجتمعان فيه من حقـــائق انسانية عامة

والناظر فى تاريخ الحضارات يلاحظ أنها لم تتـوقف قط عن التأثر ببعضها البعض ولئن كان من الثـــابت أن الشرق قد كان مهد الحضارات ، فان الغرب لم يلبث أن أخذها عنه واتجه بها وجهات جـــديدة فنشر فى الروح مبادىء العقل واتجه بالنظر الى العمل ، وبذلك وسع من أسس الحياة الروحية كما مكن للانسان من اســـتخدام المادة والسيطرة عليها

ولقد سبق العرب أن اتصلوا بالحضارة الاغريقيـــة القديمة ، وأخذوا عن تلك الحضارة ما أمكن أخذه ممـــا يصح عند العقول كافة كأصول التفكير الرياضى والفلسفى، وأما ما يتصل من تلك الحضـــارة بمقومات الحيـــاة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٧/٣

الاجتماعية والعاطفية ، وهو ما تتميز به الحضارات ، فلم يستطيعوا بداهة فهمه ولا قبوله أو نقله ، ومن هنـــا لم يترجموا الى لغتهم شيئا من شعر الاغـريق وان كانوا على العكس من ذلك قد ترجموا جانبا من أشـــعار الفـــرس كالشاهنامة وغيرها • وربما كان ذلك لان حياة الفـرس التى يصورها ذلك الشعر كانت أقرب الى حيـاة العرب من حياة الاغريق ، ثم أن الدين قد لعب فى هذه المفـارقة دورا حاسما ، فالفردوسى شاعر مسلم وهوميروس وثنى

ولقد تجددت نفس الظاهرة ببلادنا منذ أن أخذنا ننقل عن أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هـذا ، فالشعر بل والنثر الادبى بمعناه الضيق كان آخرما أخذنا فى نقله بينما اتجهت جهود بعثات محمد على وخـــريجو مدرسة الالسن الى نقل العلوم أولا ، ولهذا الاتجاه سبب مزدوج •• فوالى مصر كان رجلا ذا طمـــوح عمـــلى ، وقد رأى الاوروبيين يسـيطرون بعـــلومهم التى تمكنهم من القوة المادية ، ولهذا أرسل معظمأعضاء بعثاتهللتخصص فى تلك العلوم كالهندسة والكيمياء والطب وصناعةالسفن والفنون الحربية المختلفة ، والسبب الثانى هو ما سبقأن أشرنا اليه من بعد الكتابات الادبية شعرا ونثرا عن محيط حياتنا فى الشرق واتصالهاالوثيق بنوع الحياة والاحساس الغربيين

هذا ، الى ما فى نقل الادب من مشقة ، بل من استحالة فى بعض الاحيان وبخاصة الشعر ••

وبعد : لقد سبق فرأينا أن نهضتنا الحالية تقـــوم على أساسين : بعث التراث العربى القديم ثم الاخذ عنأوروبا• ولامراء فى أن البعث لايثير بيننا جدلا ، وكلنا مجمعـــون على وجوبه بدافع قومى وثقافى معا • وليس كذلك أمـــر

الاخذ عن أوروبا فهنا يجب أن نميز بين نوعين مما نأخذ : أخذ مبادىء العلوم المادية والعقلية وهذه لا نظن أن صوتا جديا يرتفع لمقاومتها • وهى فى الحق ليست ملكا للعرب ولا للشرق ، بل ولا من السهل أن نقول أين نبتت وأين نمت ، ومثلها مثل السيل يجتمع من جداول لاحد لهاتأتيه من كافة الآفاق ، وعلى العكس من ذلك أخذ الادب ، فهنا ترتفع الخصومة ويشتد الصخب ، ولتلك الخصومة ما يبررها وهى حقيقة بأن ننظر فيها عن قرب ، وذلك لما للادب من خطورة لا يدانيها شيء ، فالادب وعاء لتقاليد الامة الاجتماعية والاخلاقية ، بل والدينية ، وفيه تتركز روحها بحيث يعتبر بحق مرآة حياة الامم ، ثم انه من أخص المجالات التى تظهر فيها أصالة الشعوب فى الخلق والحساسية وادراك مواضع الجمال والقبح ،ومن الطبيعى أن تحرص كل أمة على مقومات حياتها كما تحرص على أصالتها ••

ولكننا نلاحظ برغم ذلك أننا قد أخذنا فى الربع قرن الاخير ننقل عن أوروبا أدبها شعرا ونثرا ، فهل فى هذا حقيقة ما يهدد كياننا القومى أو يمس أصالتنا كشعب شرقى له مميزاته التى رسبت عن السنين الخالية ، حتى استقرت بروحه ؟

ذلك ما لانراه • فحياتنا الراهنة قد تأثرت بما نقلنا عن أوروبا من علوم وتطبيقات لتلك العلوم أكبر التأثر حتى أصبحت اليوم بلا جدال أقرب الى الحياة الاوروبية منها الى حياة البداوة الاولى • ونحن اليوم نجاهد لنشر هذا النوع الجديد من الحياة بأقصى وسعنا • وهذا شيء من السهل أن يفسره العقل ، فبمواصلة الطرق لابد أن تصبح حدادا • بل انك لتستطيع أن تصل الى الايمان ذاته بالمواظبة على شعائره وحركاته الخارجية

فما بالك بالاثر الخطير الذى تحدثه مظاهر الحياة المادية فى نوع الحياة اليومية التى نحياها ؟ ومن هنا لا يستطيع أحد أن يزعم أن مقومات حياتنا لا تزال بعيدة عن أن تجد فى الادب الاوروبى ما يعبر عنها بل ويغذيها . وليس من شك فى أن هناك الكثير من مبادىء الاخلاق والاجتماع ، بل ومن مبادىء الدين التى نتفق عليها مع الغربيين بحيث لا نكاد نتبين مواضع الخطر على حياتنا القومية فى النقل عن أوروبا . ونحن بعد لا نجهل أن هناك جوانب من الحياة الاجتماعية نخشى محاكاتها بغير حذر واستنارة . وأهم تلك الجوانب مشكلة العلاقة بين المرأة والرجل ، وتلك مشكلة تمد الادب فى الشرق والغرب أكبر المدد . ولكننا وان كنا محمولين بطبعنا على وجوب التبصر الا أننا نلاحظ أن الادب العربى ذاته قد وصل فى تصوير تلك العلاقة الى حد من الحرية بل والاباحة لا نحتمله نحن اليوم ، بل ولا يجرؤ عليه شعراؤنا ، وفى قصائد امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس من ذلك الشىء الكثير . وبالرغم من هذه الحرية وتلك الاباحة لم تثر ثائرة العرب ولاقوضت أركان حياتهم ولربما كان فى الادب متنفس أهون ضررا من الكبت والتزمت . ثم ان الهيئة الاجتماعية بوجه عام وبخاصة الشعراء منهم فى جميع بلاد العالم بشىء كثير من التسامح حتى لنلاحظ أننا فى مصر نفسها كثيرا ما نقرأ للشعراء ما لايجرؤ ناثر أن يقوله . ولقد سبق لروسو عند مناقشته للدور الذى يلعبه المسرح فى الحياة أن أنكر قدرته على تقويم معوج أو اصلاح فاسد ، لان الناس لا يذهبون اليه لتلقى درس فى الاخلاق والاجتماع بل لمجرد التسلية أو المتعة العقلية وفى هذه التسلية وتلك المتعة ما يكفى لانها تهون علينا حمل الحياة . والامر فى الادب عامة كالامر فى المسرح

وأما عن الاصالة فى خلق الأدب والمحافظة على خصائصه المميزة ، فهنا أيضا لا نرى خطرا من المحاكاة ، بل نراها على العكس المدرسة الاولى للاصالة ، ومن ناشئة الادب من يظنون مخطئين أن الاديب يخلق من العدم، وأن الموهبة فى غنى عن القراءة والتحصيل والاستيحاء ، بل والمحاكاة أحيانا ، مع أن تاريخ كبار بعض المؤلفين وكتبهم تشهد بنقيض ذلك . فلافونتين قد أخذ « حكاياته » عن أيزوب اليونانى ، لا برويير ابتدأ « صوره الاخلاقية » بالنقل عن تيوفراست ، بل وشكسبير نفسه قد استقى موضوعات رواياته من « بلوتارخ »و «ناسيت» و «جيرالد دى سنتيو» وغيرهم . ومع ذلك لم يقل أحد أن هؤلاء الكتاب الكبار فقدوا أصالتهم . ولقد يقول قائل فليكن . ولكن لم نحاكى الاوروبيين ونستلهمهم ولدينا تراثنا القديم الخليق بأن يمدنا بما نريد

وجوابنا على ذلك هو أننا لا نريد أن نقتصر على الاخذ من أوروبا . ولقد قلنا فى اكثر من مناسبة أن فى الادب العربى ، بل وفيما نظن أنه قد مات منه مالا يزال ولن يزال حيا أبد السنين كالحنين الى الديار ، وذلك لضربه فى الشعور الانسانى بأعراق عميقة ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أنه ما دامت حياتنا قد تغيرت ، وما دام الاوروبيون قد استحدثوا من الادب أنواعا لم يعهدها أدبنا العربى ، فانه من الحمق أن نزج بالاعتبارات القومية فى هذا المجال ونحرم أنفسنا من أنواع الثقافة والغذاء الروحى . لو أن الاوربيين كانوا مكاننا لما أحجموا عن الافادة منها ، ولقد سبق لهم ان نهبوا تراث الشرق قبل أن يغزوه بأسلحتهم ، فما بالنا نتقاعد تقاعد الكسالى الذين يحتجبون خلف نعرة باطلة ليخفوا ما هم فيه من عجز عن اللحاق بقافلة العالم التى تسير حثيثة الخطى

١ ـ الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية

يذكر القراء ان الاسكندرية كانت فى زمن ماعاصمةعقلية للعالم أجمع ، حتى ليصطلح علماء التاريخ على تسمية القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح بعصر الاسكندرية وهو عصر اغريقى بلغته وثقافته ، ومع ذلك فمن واجبنا نحن المصريين أن نعنى بدراسته لاتصاله الوثيق بتاريخ بلادنا ، وما نظن فهمه يستقيم مالم نلم بملابساته التاريخية لنرى كيف احتلت الاسكندرية هذه المكانة ، ونحدد أهميتها بالنسبة للعواصم الاخرى التى عاصرتها وبخاصة أثينا ، وعندئذ سوف نرى خصائص الادب الاغريقى فى ذلك العصر تتحدد بذاتها متميزة عما عداها ..

ونقطة التحول كانت بلا ريب ظهور ملوك مقدونيا وبخاصة فيليب المقدونى وابنه الاسكندر الاكبر فى القرن الرابع ق . م . فالى ذلك الحين كانت بلاد الاغريق عباره عن مدن مستقلة تكون كل مدينة وضواحيها دولة قائمة بذاتها ، ومع ذلك فقداستطاعت تلك المدن أن تأتى بالمعجزات فى المجال الثقافى والمجال العملى على السواء .. ونخص بالذكر أثينا التى وان لم يبلغ قط سكانها هى وضواحيها نصف المليون ، فقد خلفت من التراث العقلى مالايزال يبهرنا حتى اليوم ، كما استطاعت أن تتزعم المدن الاغريقية

(*) نشرت فى ١٧/٣/١٩٤٤

الاخرى لترد جحافل الفرس وتحمى الحرية فى بلاد اليونان كافة ، ولكنها لم تكد تستوى فى الزعامة بفضل انتصاراتها الباهرة حتى اخذها الصلف فنفرت أسبرطة الابية ، وكان بين المدينتين حروب طاحنة دامت ماينيف على ربع القرن ، وقد اشتركت فيها جميع المدن، وخرجت منها ضعيفة متهافتة ، وعندئذ ظهر المقدونيون الذين امتد طموحهم الى السيطرة على بلاد اليونان ، بل على العالم أجمع فى وحدة شاملة

ولكن العرين كان لا يزال به أسود وبخاصة آثينا حيث صمد الزعيم الوطنى الشهير « ديموستين » لفيليب وابنه، وقد رفض ان يستسلم على الرغم من ضعف مدينته ، وذلك لانه لم يكن يعرف غير الجهاد مهما تكن احتمالات الفوز أو الهزيمة ، وعنده أنه ليس أشرف للرجل من أن يموت وسلاحه بيده

ولاشك ان موقعة كيرونيد التى حدثت سنة ٣٣٨ق.م. بين فيليب المقدونى وجنده من جهة ، وجيوش آثينا وطيبة من جهة أخرى ، قد كانت من المواقع الفاصلة فى تاريخ الانسانية ، فانتصار فيليب على ديموستين هو انتصار عالم على عالم آخر . مضى عالم المدن .. عالم الحرية ، وحل محله عالم الحكم المطلق والروح العالمية . وقتل فيليب سنة ٣٣٦ ق.م. وخلفه الاسكندر، وكان مانعرفه من سيطرة هذا القائد العظيم على الشرق والغرب ومات الاسكندر سنة ٣٢٤ ق . م . وهو يعد العدة لغزو شمال أفريقيا وأسبانيا وبلاد الغال ، ليعود الى وطنه من الغرب بعد أن تركه من الشرق . وكان فى اتخاذه من بابل عاصمة لملكه ما يرمز لفكرته فى توحيد العالم والجمع بين الشرق والغرب

بعد موت الاسكندر تطاحن قواده على إقتسام

امبراطوريته العظيمة ، وكانت عدة معارك وعدة تقسيمات الى أن حدثت معركة ايسوس سنة ٣٠١ ق . م . فكان التقسيم النهائى . وليس يعنينا من تلك المدة المضطربة غير نتائجها النهائية وقد تمخضت عن ثلاث ممالك كبيرة: مملكة أنتيجونوس بمقدونيا وبلاد اليونان ومملكةسليكوس بسوريا ، ومملكة بطليموس بمصر

أما مملكة انتيجونوس فما زال اليونان يناهضونها العداء وتناهضهم ، حتى انتهى الامر بوقوع بلاد اليونان بيد روما الناشئة ، فأصبحت مقاطعة رومانية منذ سنة ١٤٦ ق.م. وانه وان تكن الثقافة الآثينية لم تخب دفعة واحدة الا أن مراكز الثقافة الاخرى أخذت تحتل مكانها، ونحن لا نجد بآثينا خلال القرن الرابع غير الفلسفة والكوميديا ، واما دون ذلك من مظاهر النشاط الروحى فقد ذوى . فالشعر الغنائى قد جفت ينابيعه حتى لم يعد يقصد لذاته ، بل لمصاحبة الموسيقى على نحو ماترى فى الاوبرا كوميك الحديثة . والشعر الهجائى وشعر الوجدان «Elegie» لم يعودا غير عبث باطل أو سخرية مصطنعة «Porodie» . واما الملاحم فكان عهدها قد انقضى بحيث أنه عندما كتب أنتيماخوس ملحمته عن أساطير طيبة ومغامرات هرقل لم يهز شعره نفسا ، لانه شعر مصنوع علم الشاعر فيه أوضح من روحه ، وكذلك الامر فى التراجيديا التى لم يعد لها وجود يذكر

- لم يبق اذن بآثينا من فنون الادب غير الكوميديا ، فهى التى ترعرعت فى ذلك الزمن ، وقد انتهى بها الامر الى ما يسمى بالكوميديا الجديدة على يد فيليمون وميناندروس، وهى الكوميديا الاخلاقية : شىء مغاير للكوميديا القديمة كوميديا أرستوفانس . فهى لم تعد نقدا لنظم الحكم وتيارات التفكير ، بل تصويرا لشخصيات عادية يأخذها

الشاعر من الحياة اليومية ، ولكنها لا تصل الى كوميديا النماذج البشرية أمثال : السث وهرباجون وترنيف لموليير، تلك التى يخلقها كبار المفكرين ، فيهتدى بها الناس الى انفسهم ..

ومع الكوميديا نجد كما قلنا الفلسفة فقد نهضت الى جوار الاكاديميا والليسيه مدارس أخرى : مدرسة الرواق ، وحديقة أبيقور ، ثم مذهب بيرون والمذهب الكلبى ، ونحن وان كنا ننظر عندئذ ، فلا نجدمقراللفلسفة غير آثينا الا فى القليل من نحو ميجارا وبرقة ، الا أننا نلاحظ أن الكثيرين من فلاسفة ذلك العهد قد كانوا غرباء عن أثينا ، فزينون من مستعمرة فينيقية بجزيرة قبرص وكليانتوس من مدينة أسوس بآسياالصغرى،وكريزيبوس ولد بمدينة سوليس بآسيا الصغرى أيضا . وفلسفتهم وان تكن اغريقية بما فيها من تحكيم العقل والربط بينه وبين نظام العالم الا أنها شرقية بروحها الذى يكاد يكون دينيا وقد نادت الرواقيةبالجبر وقال الابيقوريونبالمصادفة وأنكر هؤلاء وجود الروح وأثبتها أولئك وتبلبلت الافكار فانتهى الامر بالشك البيدونى وامتدت كل تلك الآراء الى تعاليم أفلاطون نفسه ، فاذا بالاكاديمية تقول بالاحتمالية ، وقد انهارت المثل فانهار بانهيار عنصر الثبات فى المذهب ومن هنا يتضح كيف أن كل هذه الفلسفات برغم مافى بعضها من نبل كالرواقية لم تكن بلا ريب الا السبيل الذى قاد الى الانحلال ، وفيها انكار للارادة البشرية او استسلام لاحداث الحياة او توقف فى الحكم فيها عنصر سلبى خليق بأن يقوض حياةالشعب

ذلك ما كان من امر آثينا التى لم يعد بها كما رأينا غير الكوميديا والفلسفة ولكن المملكتين الاخريين قد نشأت

بهما مراكز فنية للثقافة ، ففى آسيا الصغرى وسوريا نشأت بمملكة السيليكيين مدن كبيرة كبرجاما وانطاكية، وفى مصر نشأت بمملكة البطالسة الاسكندرية ونيوقراطيس وبتوليمايس . وانه وان تكن كل تلك المدن قد ازدهرت فيها الحياة المادية والروحية الا أن واحدة منها لم تبلغ ما بلغته الاسكندرية ومن هنا يصطلح علماء التاريخ كما قلنا ، على تسمية العصر الذى يقع بين الاسكندر الاكبر وأوغسطس امبراطور روما باسمها

وهو عصر لم يكد يتأثر بالثقافات الشرقية التى عاش بينها بحيث يخيل الينا ان نيتيوس ليفيوس المؤرخ الرومانى الشهير قد أصاب الحقيقة عندما قرر أن المدن اليونانية التى نشأت بالشرق اذ ذاك كانت « كجزر يونانية يضربها من جميع النواحى بحر من البرابرة » ولقد كان الاغريق ينظرون الى شعوب الشرق نظرة الغالب للمغلوب ، نظرة السيد للمسود ، وكانت شعوب الشرق بدورها تمقت أولئك الغزاة وتصدف عنهم ، ولقد وجدنا فى دستور نيوقراطيس ما يحرم على الاغريق الزواج من المصريات ، وكانت مدن الاغريق فى الشرق تعيش على النظام اليونانى، فللكثير منها مجالس تشريعية « اكليزيه وبوليه » ،وحكام كحكام المدن الاغريقية الاوروبية وان تكن اختصاصات تلك المجالس وهؤلاء الحكام قد كانت شكلية استشارية أكثر منها فعلية نافذة ، وكانت السلطة الحقيقية بيد الملك

لم يصبغ الاغريق اذن بلاد الشرق بصبغتهم ولا لقنوه ثقافتهم فى ذلك العصر ، بل ظلوا غرباء عنه لا يكادون يؤثرون فيه أو يتأثرون به وانما تداخلت الثقافات فى العصر الرومانى وبعد ظهور المسيحية حيث امتزج التفكير اليونانى بالايمان الشرقى فى الافلاطونية الحديثة

التى هزت الروح الانسانية كلها فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد ..

عصر الاسكندرية اذن عصر اغريقى بحت ، وهو مجرد اصطلاح تاريخى ، فالحديث عن أدب الاسكندرية يتناول كل ما قيل من شعر ونثر فى البلاد اليونانية كلها خلال ثلاثة قرون . والملاحظ على ثقافة ذلك العهد انهاأصبحت ثقافة علمية محصلة اكثر منها ادبية خالقة ، كما أصبحت عالمية لا قومية وصناعة لا حياة . ولا غرابة فى ذلك ، فقد انتقلت الحياة الفكرية من الساحات العمومية (الاجوار) الى المكاتب والصالونات ، انتقلت من حـــرارة الحيـــاة الى برودة الكتب ، انتقلت من الحاضر الى المــاضى ومن الواقع الى الفكر المجرد ، نمت الدراسات التاريخيـــة : تاريخ عام وتاريخ الفن والفنانين والكتب والكتاب ، تاريخ الفلاسفة والعلماء .. لقد ابتدأ العالم يعيش على ماضيه ، ويجد فى ذلك الماضى خيرا من حاضره . ونمت الدراسات العلمية : رياضة وطبيعة وطب وتاريخ طبيعى وجغرافيا ونحو وفقه ولغة وموسيقى وكل هذه الدراسات مـــع ذلك لم تكن أصيلة ، كانت جمعا لا فلسفة فيه ولا نقد الا بمقدار . امتاز هذا العصر بثقافة موحـــدة سمحت حتى لذوى النفوس التافهة بأن يصبحوا ادباء وشعراء وبذلك أمحت الفروق الشخصية ولم يعد للأســلوب الفردى غير وجود محدود

فى هذا الوسط العلمى نشأ أدب الاسكندرية ، فكان نصف قائليه من العلماء . ولفهم البون الشاسع بين هذا الادب والادب الاغريقى القديم لابد من أن ننظر فى نشأة الفنون الادبية المختلفة نظرة عاجلة

نشأت فنون الادب القديمة نشأة شعبية فالقصص والغناء وان كانا قد ظهرا معا ملازمين فيمـــا يبدو لنشأة

الانسانية ، الا أن القصص الادبى قد سبق الغناء، فأعمال البطولة الماضية أفعل فى خيال الرجل الفطرى من الحاضر والقصص خليق بأن تستجيب له نفوس رجال يعيشون فى نظام ملكى حيث للملك هيبة وجلال يحملان أفراد الشعب على الاعجاب بالابطال السابقين . وكانت الشعوب فى جملتها زراعا وتجارا وعمالا لا يجدون فى عملهم اليومى غير حرارته التى تشغلهم حينا ، ثم ينقضى العمل غير مخلف ما يشغل النفس ، أو يهز الخيال . ولهذا صادفت ملاحم هوميروس ظمأ فى النفوس حتى كان القرن الثامن ق.م. وقد انهارت الملكيات وحلت محلها نظم أرسطوقراطية أو ديمقراطية لا يتخللها الاستبداد الفردى الا من حين الى حين ، وتقهقرت الحياة الجماعية القبلية وأخذت الشخصية البشرية تظهر وسط المجموع ، وأصبح الحاضر يشغل الناس ويتعلقون به ناظرين فيما يحمل من مسرات وآلام ، فظهر الشعر الغنائى بما يحمل من عنصر شخصى ومن أصداء الحاضر • وسارت الحياة وقد اصبح الاغريقى لا يقنع بالقصص او الغناء بل يود لو تصور حياته وحياة آلهته ليراها بعينى رأسه ويشهد احداثها بما فيها من معان فنشأ الشعر التمثيلى فى القرن الخامس ••

وكانت نشأة تلك الفنون موزعة بين الشعوب الاغريقية فالقصص نشأ فى ايوليا بآسيا الصغرى حتى ليكاد ينحصر الخلاف الجدى عن مولد هوميروس بين جزيرة كيوس ومدينة أزمير ، ومن ايوليا انتشر فى ايونيا لينتهى اخيرا الى اتيكا بأوروبا حيث دون بأمريبز يستراتس ، مستبد آثينا فى القرن السادس قبل الميلاد • وأما الشعر الغنائى فقد ظهر موزعا حسب أنواعه • فالاغانى

الشخصية: أغانى الشراب والغرام ولدت وازدهرت فى لزبوس الايولية • جزيرة « الية » و « سافو » تلك التى قالوا ان رأس أورفيوس قد ارست بها فأوت الى احد خلجانها • وشعر الجوقات ، شعر الجماعات ، شعر النصر والمواكب قد نشأ بين الشعوب الدورية الخشنة المحمولة على الجهاد النازعة الى الحياة القبلية والنظم الارسطوقراطية : ففى طيبة ولد بنداروس وباللهجة الدورية كتب أناشيد النصر التى لدينا • والشعر الهجائى وشعر الوجدان ذهبت بهما القبائل الايونية ، وأما الشعر التمثيلى ففن آثينى فى جوهره ••

ولقد كان لنشأة تلك الفنون بين هذه الشعوب ما يبررها ، فالجنس الايولى جنس مرهف الاحساس فنان المزاج مقبل على الحياة متأثر بأحداثها ، والجنس الدورى كما قلنا جنس خشن مولع بالمعارك والانتصارات • والايونيون قوم أغنياء بمالهم وبحياتهم العقلية ، والسخرية والوجدان خصائص تلازم حساسية العقل ولين الحياة • وأما الاثينيون فأهل نشاط عملى واقدام على المغامرات ولا شك أن فى المسرح ما يرضى تلك النزعات

هكذا نشأت فنون الادب ، شعبية اقليمية • ومع ذلك لم تلبث أن أصبحت اغريقية عامة ، فتكونت لغة قصصية مزيج من الايولى والايونى والاتيكى ولغة ايولية للاغانى الشخصية ولغة دورية لشعر الجوقات ثم اللغة الاتيكية للمسرح • وبلغ من ثبات تلك اللغات الادبية وتخصصها أن رأينا شعراء اثينا مثلا يكتبون باللغة الدورية الاجزاء الغنائية من مسرحياتهم • تكونت اذن لغات ادبية مصطنعة ، ولكن ذلك لم ينل من قوة الادب الذى ظل متصلا بالحياة حتى جاء عصر الاسكندرية ، وقد اختلطت

فى المدن الجديدة الاجناس وانهار استقلال المدن القديمة وجفت الحياة العامة فنضبت ينابيع الادب الذى لم يعد يتجه الى الشعوب بل الى نخبة من المثقفين • لم يعد خلقا تلقائيا بل صناعة او تزجية فراغ • لقد حلت فيه المهارة محل العبقرية ، حل العلم محل نبض الحياة ، حل الظرف والكياسة محل وثبات القلب وتأجج القرائح

لقد نشأ أدب الاسكندرية بعيدا عن الشعب ، بعيدا عن الحياة ، فجاء الكثير منه أدبا متكلفا قليل الحظ من الصدق ••

أدب الاسكندرية كنبات فى بيوت من زجاج • ومع ذلك لم يذو النبات كله ••

٢ ـ الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية

خلصنا من المقال السابق الى أن الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية كان كنبات فى بيوت من زجاج ، فهو بمعزل عن الفضاء الطلق حيث تهب نسمات الحياة منبعثة عن الشعب • ومع ذلك فالنبات ـ كما قلنا ـ لم يذو كله وان شحبت نضرته وقل ماؤه ••

ولما كانت ملابسات الحياة لم تدفع الى فن أدبى بذاته ولا غلبت فنا على فن • فقد كتب ادباء ذلك العصر فى كافة الفنون • ولكننى لا أستطيع أن أقف مع القارىء عند كل منها ، ولقد سئمت القبح حتى أعود أستخرجه من بطون الكتب • وأى خير فى أن أطلعك على شعر أو نثر ترى فيه مدح الملوك قد حل محل الوطنية ، والتملق محل حرارة القلب ، والخرافة محل الايمان ، والتعلق بالخوارق محل تبجيل الآلهة ، ثم التفقيه والتبجح بالمعرفة المحصلة المكتسبة محل استطلاع المجهول والحرص على الفهم الصحيح • وانما أقف بك حيث يعود هذا الادب فيتصل بالحياة واذا بالجمال يشرق فى نواحيه • أقف عند نفس تفتحت للحب فتذوقت حياة الريف وأنشدت مع الرعاة أناشيدهم • أقف عند نفس تحن الى الماضى فتستنشق شذاه او تمعن فى الحاضر فترصد أحداثه وقد نطقت بأسرارها

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٧/٣١

شعر المقطوعات

ولنبدأ بشعر المقطوعات Epigramme وهى قطع شعرية صغيرة لا تكاد تعدو العشرين بيتا ، ولكنها كثيرة العدد حتى لتملأ أكثر من مجلة فى المجموعة المعروفة « بالمختارات الاغريقية Greek Anthology » . وهى لاكثر من أربعين شاعرا من شعراء ذلك العصر ، وان يكن معظمهم من ضعاف الشعراء . ومع ذلك فمن بينهم من تطرب النفس لشعره طربا حقيقيا . خذ مثلا الشاعر ألكبيادس الساموسى تجد له ما يقرب من ثمان عشرة مقطوعة شديدة الشبه بشعر ألسيه وسافو :

« اشرب يا ألكبيادس . لم هذه الدموع ؟ أية محنة قد أصابتك ؟!

لست الوحيد الذى اتخذت منه كبريس Cpuis اله الحب » فريسة . لست الوحيد الذى اردته سهام ايروس القاسى . لم تدفن نفسك فى التراب ؟ لنشرب نبيذ باكوس صافيا . ها هو الفجر ينبثق . اذا كان المصباح قد انطفأ أتريد أن تنتظر حتى يستيقظ ؟ لنشرب فى مرح أيام أخرى قلائل ــ أيها المسكين ــ ثم يطويك الظلام الرحب تستريح بين أحضانه »

أو ما تحس فى شعره بجمال الاسرار .. جمال الاعترافات .. نجوى نفس أليفة . شاعر مرهف

وخير من ألكبيادس فيما أظن ليونيداس الترنتى من شعراء القرن الثالث ق . م . ولد فقيرا وعاش مشردا ، فتوثقت معرفته بالحياة . كتب لوحات للمقابر والنذور ومحفورات للتماثيل وصورا للشعراء والفنانين وقطعا فلسفية وأخلاقية ، كتب الكثير منها لصغار الناس : صيادين وغزالات يحملون القربان الى الالهة أو يموتون

لشدة الكد فى الحياة ، ومن ثم واقعية شعره وألفـاظه الملونة بالمهن المختلفة ، ألفاظ دقيقة تشف عن عاطفة حية. لقد عبر فى سحر عن جمال الحياة الفقيرة الجاهدة كما عبر عن روعة الربيع وصفاء الينابيع . استوصى مثـلا الشاعر القديم سيمونيدس فوصف حقارة الحياة . وصف تلك النقطة ، الهروب بين أبديتين : أبدية الماضى وأبدية المستقبل

« لقد انقضى ايها الرجل زمن سحيق قبل أن تأتى الى الحياة وسينقضى زمن سحيق بعد نزولك الى هـاديس « العالم الاخر » . ما هى برهة حياتك ؟ نقطة أو أقل من ذلك ، وهذه الحياة شاقة ، فاللحظة الراهنة ذاتها لا سرور فيها ، بل انها لاشد ايلاما من الموت البغيض . اهـرب اذن من الحياة ، اهرب الى المرفأ »

ولربما كان أقوى الجميع ملياجر الذى جمع مختاراته المسماة « بالتاج » فكانت نواة للمختارات الاغريقية التى بين أيدينا ولنستمع اليه يرثى هليودورا حبيبته :

« لتذهب اليك دموعى هليودورا ، هدية ! لتذهب الى هاديس كأثر مقدس لحبى ! دموع قاسية الاراقة . هأنا أسكب فوق قبرك الذى طالما بكيته ، أسكب الاسى ذكرى لغرامى . أنا ملياجر ، أئن من أجلك أيتها العزيزة الراحلة أئن فى ألم ، ألم مبرح . قربانا للاكيرون ولا خير فيه . وا أسفاه ! أين غصنى الاخضر الذى طالما أحببته ! لقـد سلبنى اياه هاديس ، وهذه الزهرة المتفتحة قد غبرهـا التراب ، آه اننى اضرع اليك جاثيا ، اضرع اليك ايتهـا الارض الكريمة الثمار أن تتقبلى فى رفق هذه الطفلـة المبكية ، تقبليها فى رفق أيتها الأم وضميها الى صدرك ، بين أحضانك »

أغانى الرعاة

وهنا ايضا دعنا نكتفي بتيوقريطس ، فهو أكبر شعراء الرعاة ، بل أكبر شعراء عصر الاسكندرية ، ولعله من كبار شعراء الانسانية ، ولنوجز ما نريد معرفته، لنستطيع بعد ذلك ان ننصت الى شيء من شعره وفيه ما يبعث النضرة فى القلوب

ولد تيوقريطس فى سيراكوسة بصقلية فى السنوات الاخيرة من القرن الرابع ق . م . وأمضى جزءا من حياته بجزيرة كوس حيث تعرف الى الشاعر فيليتياس ومدرسته كما تعرف بأنكبيادس الساموسى السابق الذكر وبأراتوس وعاش جزءا آخر فى اغريقية الكبيرة .. « جنوب ايطاليا» أرسل قبيل ٢٧٠ ق . م . الى هيرون مستبد سيراقوسة قصيدة مدح ليمنحه رعايته ولـكنه لم ينجح فأنصرف بمديحه الى بطليموس فيلادف وعاش فى الاسكندرية بعض الزمن . وأما تاريخ موته فلا نعرفه على وجه التحقيق

لدينا من شعره عدد من المقطوعات الصغيرة ثم ثلاثون قصيدة تسمى « ايدليا «Idyllia» وهذه اللفظة تصغير للفظة ايدوس «Eidos» الاغريقية ، وايدوس معناها قصيدة غنائية اطلاقا واذن فالايديليا هى القصائد أو اللوحات الصغيرة .. لكنه لما كانت قصائد الرعاة تغلب فى المجموعة ، فقد غلب هذا المعنى على اللفظ فى العصور الحديثة

ولكن شعر تيوقريطس فى الحقيقة ليس كله من أغانى الرعاة ، فمن بين الثلاثين قصيدة نسقط خمسا منتحلة واثنتين مشكوكا فيهما ، وننظر فى الباقى فنجد من بينها أغانى الغرام وفصول المحاكاة «Mime» التى تشبه

أشعار هيرونداس • ومنها الريفيات التى تجمع بين الغناء والمحاكاة ، ومنها القطع القصصية ، ومنها الاناشيد ، وأخيرا منها المدائح

كل ذلك الى جوار اغانى الرعاة

لقد تملك تيوقريطس القدرة على الاحساس ، ثم القدرة على خلق شخصيات حية فى اسلوب شخصى • لقد استمر الرجل الطبيعى حيا فيه • استمر فلم يقتله الاديب • فهو يرى العالم •• يرى صيفه وألوانه وعبيره • الكأس لا يزال يفوح فخاره ، وفروة الراعى ليكيداس تشتم منهـا الخميرة ، وروائح الخريف تطفو فى أعياد التاليسيا • وعذوبة الماء والظلال ، ولين المخدع من أوراق الكرم ، كل هذا يدركه تيوقريطس مختلطا بخرير الينابيع وتغريد العندليب

الفكرة المسيطرة عند تيوقريطس هى الحلم بالحياة الريفية • وهذا شعور كثيرا ما يظهر فى عصور الحضارة وموضع المشقة فيه هو أن يأتى طبيعيا • وبهـذا تميز تيوقريطس عن غيره من اللاحقين

الطبيعة عنده ليست الطبيعة القاسية التى عرفهـا هزيودوس ، ولا الطبيعة الحزينة الحالمة ، التى تغنى بها فرجيليوس ، ولكنها طبيعة مشرقة يراها الشاعر دائما فى فصل الضوء بأعلى الجبال حيث ترعى القطعان ـ وما نظن شاعرا قد حملنا على الاحساس بأواخر الصيف وأوائل الخريف مثلما فعل تيوقريطس فى وصف التاليسيا ، العيد الذى اشرنا اليه فيما سبق :

« اعطانى ليكيداس فى ابتسامة عذبة عصاه ، أعطاها رمزا لصداقتنا باسم ربات الوحى ، ثم اتجه الى اليسار

متابعا طريق البسكاء، واما اقريطس وأنا وأمينتوس الجميل، فقد يممنـــا بيت فرازيداموس ، حيث رقدنا فوق أسرة كثيفة من ورق الكرم النضر . وكان كثير من السرو والعبل يترنح فوق رؤوسنا غير بعيد عن الموجـــة المقدســـة التى تخر من كهف النامف «Nynph» وفى الاعشـــاب المحترقة كانت الصراصير التى أحرقتهـا حرارة الشمس تغنى حتى بح صوتها ، والضفدعة الخضراء تصيـــح قصية حت الاشواك المتداخلة . والقبرة وعصافير الجنـة تغرد واليمام يئن والنحل الاصفر يطن حول الينابيع . من كل فج كانت تنبعث رائحة الصيف ، وقد مازجها عبير الخريف ، والكمثرى والتفاح تتساقط وفيرة على أرجلنا والى جانبنا ، وقد ثقلت الاغصان بالبرقوق ، فنزلت حتى مست الارض . وازيل عن الدنان طين عتيق . يانامف «Nynph» كاستاليا : ياساكنة البرناس ، هل قدم كيرون العجوز كأسا كهذه الى هرقل فى كهف الفولوس الخصيب؟ ليتنى أستطيع أن أعود فأضع المذراة فى القمح ، بينمـــا تضحك وقد امتلأت يداها بالسنبل والحبوب »

هذه لوحة ناطقة موحية .. سر جمالها فى بســـاطتها وصدقها ، فالشاعر يسمى الاشياء بأسمائها ، وهو أرهف حسا من أن يصطنع لغة شعرية متجمدة . فالضـــفدعة والصرصار لم يتحولا تحت قلمه الى كـــروان وعندليب ، وكل من يعرف الريف يذكر صدق ماوصف . وبفضل طبيعة أسلوبه نحس بأعقاب الصيف وأوائل الخريف وقد غمرها الشعر ، فاذا هى أفعل فى النفس من الواقع

وما يحبه تيوقريطس من الرعاة هو بساطتهم : شـعر أشعث وحزام من جلد الشجر ، وفتـــاة طبيعية يتغنى بجمالها . وما يعنيه ما يظن الناس بذلك الجمال

« يا ميز Muse ، ببريه ! غن معى أيتها الطفلة الرقيقة :
فكل ما تحسنين أيتها الالهة يصبح جميلا . بومبيـــكا أيتها الفتاة الباسمة الخفيفة الدم ! يدعوك الجميع سورية عجفاء قد أحرقتها الشمس ، ولكنى أنا ، أنا وحـــدى ، أقول أنك شقراء كالعسل .. البنفسج أيضا أسود، والزنبق مجعد . ومع ذلك يجمعان للتيجان قبل غـــيرهما من الزهور . الجدى يجرى وراء شجرة النحل ، والذئب وراء النعجة ، والبجع خلف المحراث ، وأنا مجنون بك . بودى لو كنت غنيا كقارون . اذن لاقمت لنـا تمثـالا من الذهب هدية لافروديت : أنت بالناى ووردة وتفاحـــة ، وأنا بثوب جديد واحذية فخمة . بومبيكا أيتها الباسمة الخفيفة الدم ! اقدامك كعقل الاصبع ، وصوتك كالحلم، واما جمالك فلا أستطيع ان أصفه »

ولقد يحمل السيكلوب بوليفيم فى احدى قصائده على التغنى بجمال معشوقته جالاتيه بقوله :

« جالاتيه أيتها البيضاء ، لمـاذا تردين من يحبك ؟ أنت أنصع بياضا من اللبن المخيض ، أنت أرق وداعـــة من الحمل ، وأشد حيوية من البقر ، وأمعن لذعا من عنقـود العنب الاخضر »

هذه قصائد فيها اهتزاز من انفعال الحب ، فيها نغمة صادقة كأنها من حرارة الحياة

تيوقريطس شاعر الريف . شاعر الغرام . واما مادون ذلك من شعره فى المديح فتافه ..

وهو الى جانب ذلك شاعر المحـاكات Mimes حتى ليعتبر حواره بين نساء سيراقوسة آنموذجا لذلك النـوع من الادب الذى سنتحدث عنه فى المقال التالى ..

٣ ـ الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية

رأينا أن شعر الاسكندرية لا يهز النفوس الا عندما يعود فيتصل بالحياة ، ولقد شهدنا ذلك الاتصال فى المقطوعات الصغيرة وفى أغانى الريف والدعاة . وبانعام النظر فيما سقنا من أمثلة ، يلاحظ القارىء بلا ريب أن ذلك الشعر وان كان نقيا خالصا فانه لم يخل من واقعية ، وذلك لافى الاسلوب فحسب، بل وفى نوع الاحساس والتفكير .ولقد استمعنا الى تيوقريطس ينصت الى الضفدعة الخضراء ، ويتغنى ببمبيكا الباسمة الخفيفة الدم ، وقد جن بهـا عاديا خلفها كما يعدو الذئب وراء النعجـة والبجع خلف المحراث ، وعنده أن جالاتيه ، البيضاء كاللبن المخيض لاذعة كعنقود العنب الاخضر

وهذه الواقعية لا علاقة لها بالمذهب الادبى الذى ظهـر خلال القرن التاسع عشر بذلك الاسم ، فأدباء ذلك القرن وعلى رأسهم بلزاك وفلوبير وموباسان انما كانوا يقصدون بالواقعية الكشف عن الجوانب الوضيعـة فى النفس البشرية ، حتى لقد تطور مذهبهم فانتهى الى الطبيعـة التى نجدها عند زولا حيث لا ترى الا الغرائز الشـاذة والقوى العضوية ومخلفات الوراثة المثقلة تقـود أبطال الروايات . واقعية شعراء الاسكندرية لا غوص فيهـا ولا تحليل ولا التماس للجوانب المظلمة فى النفس ، وانما

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٨/١٤

هى تصوير لواقع الحياة الساذجة ، ولشعور النفس المفطور بأسلوب مباشر

واذا كانت هذه الواقعية قد طالعتنا من ثنايا الاغانى، فانه لم يكن بد من أن تنفرد بنوع بذاته من أنواع الادب وهذا النوع هو ما سميناه فصول المحاكاة Mime

فصول المحاكاة

نشأ هذا الفن بصقلية كما نشأت أشعار الرعاة ، وان يكن أقدم منها تاريخا ، اذ يعتبره النقاد عنصرا من العناصر التى مهدت للكوميديا ، وأكبر الظن أنه نشأ فى القرن الخامس ق.م. على يد سفرون وزيناركوس ، وان يكن ما كتباه قد ضاع . ولهذا لا نستطيع أن نجزم بطريقة بنائهما لتلك الفصول ، وان كان من الراجح أنها كانت على غرار ما وصلنا من اللاحقين لهما ، وبخاصة هيروندس (يسميه البعض هيروداس) الذى نشر له العالم الانجليزى كينون Kenyon سنة ١٨٩١ سبعة فصول عن ورقة من أوراق البردى الموجودة بالمتحف البريطانى . وكل فصل منها عبارة عن حوار بين شخصيتين أو ثلاثة أشخاص أحيانا من النساء وأحيانا من الرجال ، وهو شديد الشبه بفصل من مسرحية ، وان كانت تلك الفصول لم تعد للتمثيل ، بل كتبت للقراءة او الالقاء ، « لقد كان هيروندس هذا فيما يبدو معاصرا لتيوقريطس . وأشخاص الحوار من عامة الشعب أو من الطبقة الوسطى . فتجد معلم المدرسة وبائع الدقيق والقوادة والجزمجى الشهير .. الخ . والشاعر يصورهم فى حياتهم اليومية وهو يلتمس لحواره أى سبب كان : لقاء فى

طريق : او احتكاكا فى زحام ، أو مساومة على سلعة . واذا بنا نشهد ساعة من حياتهم بهمومها الدارجة ، ومسراتها المألوفة ، وشهواتها الصغيرة وثرثرتها الابدية التى نعرفها جميعا فى أفراد الشعب ، وما يتخلل حديثهم من أمثال وتحيات محفوظة ، وشتائم موروثة ومصطلحات لا نفهم لها وضعا ولا معنى . من أمثال : « بلا آفيه » و « يا سيدى لما انت » وما الى ذلك مما يستطيع أن يسمعه القارىء بكل ركن من أركان الحسينية أو البغالة ، فنستمع طورا بعد طور الى القوادة ذات الناب الازرق تنقل الى فتاة مغريات عربيد كبير ، أو بائع الدقيق يقص على المحكمة محنة ويطلب اليها العدل ، أو أب يتحدث الى معلم المدرسة عن ولده « الشيطان الرجيم » ويقص عليه « عفرتته » التى لا تنتهى ، أو نرى بائع الاحذية الشهير يعرض على «مترو» أحذيته الجيدة ويطرى البضاعة

فصول المحاكاة لوحات أخلاقية صغيرة ، لوحات لاعمق فيها ولكنها تصوير صادق للحياة ، وهى ان خلت من عنصر الدراما الا أنها مع ذلك تكون غالبا وحدة لها بعدها ونهايتها . وموضوع الجمال فيها هو سذاجتها وما بها من دقة الملاحظة ، ثم بقاؤها فى مستوى الشعب ، فلن تجد فيها أى تدخل من كاتبها باحساسه الخاص أو آرائه ومثله ، فكأن الشاعر سلبى بحت يستمع الى من حوله ويرصد ما يستمع ، ومع ذلك كم فيها من دقة وصدق وحسن اختيار للتفاصيل الدالة ، وقد تتابعت بها دعارة القول وعفة الحياء ، وقاحة بائع الدقيق وسذاجة نساء الحارات ، مكر بائع الاحذية وتصنع المستهترات

فى هذه الفصول مجموعة كاملة من المشاعر المتوسطة التى نجدها عند عامة الناس ، والشاعر لا يحيد بها الى

التزمت ولا الى التسامح المسرف ، بل يلازم الصدق .. فهو لا يمتدحها ولا يهجوها بل يصورها كما هي غير متجنب ما فيها من قبح ولا مبالغ فيه . وهو لا يخشى العبارة المسفة ولكنه لا يبحث عنها ، كما أنه لا يغدق العطف على ما يحب ولا يصب اللوم على ما يكره . وشخصياته وان لم تخل من رذائل وقسوة الا أن تصرفاتهم لا تصل قط الى حد المآسى الدراماتيكية . وهم بهذا أيضا يظلون في واقع الحياة .. الحياة الحقيقية التى يندر بها الابطال الخارقون كما يندر كبار المجرمين

ثم ان هذه الفصول وان كانت تصور نواحي انسانية عامة الا أنها تضيف الى ذلك حقائق تاريخية خاصة بشعب صقلية فى ذلك الحين ، ذلك الشعب الذى اشتهر منذ القدم بكثرة الحركة وخفة اللسان ومرونة الخلق والنزوع الى الاستطلاع

ولقد كتب تيوقريطس نفسه كما ذكرنا فى نهاية المقال السابق بعضا من تلك الفصول ولعل « نساء سيراقوزه » خير مثل يضرب لها . والحوار يجرى بمدينة الاسكندرية فى يوم من أيام عيد ادونيس وبطلاه امرأتان أتت بهما من سيراقوزة الى الاسكندرية بعض المهام التجارية فذهبتا الى العيد حيث لا تنقضى تعليقاتهما على مايريان ، فالحصان العادى الضخم يخيفهما وكل منهما تشكو من زوجها وان كانتا فى حقيقة الامر أميل الى الطيبة ، وهما لا يغنيان ولكنهما يحبان الاستماع الى الغناء ، وبالفعل ينشد أحد المغنيين نشيدا جميلا لادونيس وبه ينتهى الفصل . وهانحن بعيدون عن رعاة الجبال وقد انتقلنا الى المدن حيث تجرى الحياة المتواضعة التى لا شعر فيها ، ولكننا نجد فى صدق التصوير وسذاجته ما يعوض

عن الشعر ، وأن كان تيوقريطس لم يتمـــالك من أن يختم فصله بنشيد فيه شذا الشعر الجميل

الشعر العلمي « الاكاديمي »

قلنا من قبل أن الكثير من شعر الاسكندرية كان شعرا مصنوعا وضعه العلماء بعيدا عن الحياة ، ولدينـــا من هذا النوع الشيء الكثير ، فأراتوس يتحدث عن ظواهر الطبيعة في كتاب ضخم . وكاليماكوس يقص نسب الآلهة بمغامراتهم وحوادثهم المعروفة في أســـلوب تعليمي في « أناشيده » أو يوضح الاسباب والمسببات في « أصوله » ، بل ومنهم من أخذ في محاكاة هوميروس فحاول أن يضع الملاحم · وأكبر هؤلاء المقلدين هو أبولونيوس الدودسي الذي ألف ملحمة كبيرة يقص فيها رحلة جازون ورفاقه بحثا عن الجزة الذهبية ، ذلك أن جازون هذا كان عمــه قد اغتصب من أبيه العرش ، وعندما حاول استـــرداده طلب اليه العم أن يأتيه أولا بالجزة الذهبية ، وكانت تلك الجزة ببلاد تراقيا النائية حيث يحرسها تنـين ضخـم فضلا عما في تلك الرحـــلة البعيدة من مخاطر · ولقـد استطاع جازون أن يأتي بالجزة ،وذلك بفضل ميديه بنت ملك تراقيا التي أحبت البطل وجنبته بنصائحها وذكائها مواضع التهلكة بل وهربت معه . وهذه هي القصــــة المعروفة بقصة « الارجونوت » أي بحارة « أرجو » وهو اسم السفينة التي ابحر عليها جازون ورفاقه

وابولونيوس وان يكن بلا ريب من الشعـــراء العلماء ، شعراء الصنعة . فانه يعد برغم ذلك شاعرا كبيرا وبخاصة في بعض أجزاء ملحمته التي استرسل فيها مع احساسه الى حدما . ولعل من خير ما كتبه وصفه لغرام ميديه :

« مد الليل ظلاله على الارض وفى البحر نام البحـــارة بسفنهم وهم يتأملون هيليكيه Heleké ونجوم الاريون . وقد هفا المسافرون فى الطريق الى ساعة النوم ، كما هفا الحراس على الابواب . بل والام الحديثــة العهد بمـوت أبنائها قد لفها حذر نوم عميق . وعواء الكلاب لم يعــد يسمع بالمدينة ، لم يعد ثمة همس لصـــوت . لقد تملك الصمت ظلام الليل

ولكن ميديه لم يغزها عذب النوم ، لقد أيقظتها آلاف من الهموم ، هموم غرامها . . وكان قلبها يثب فى صـــدرها بلا انقطاع ، وكأنه شعاع يثب فى غرفة وقد عكسته مياه تصب فى قدر . فهو يهتز دائرا فى سرعة فيقفز هنـــــا وهناك . على هذا النحو كان يدور قلب الفتاة بصدرها

حدثت نفسها حينا بأنها ستعطى المادة الســــحرية الثيران « التى كانت ستفترس جازون » لتهدئها ، وحينا بأنها لن تعطيها . فكرت فى أن تموت ، ثم فى ان لا تموت ، وأن لا تعطى المادة السحرية محتملة المها دون أن تفعـــل شيئا . واخيرا جلست وفكرت ، ثم قالت : ما أشقانى ! لقد تحوطتنى المحن . اين المفر ؟ بكل سبيل شــــكوك لنفسى ! لا دواء لألمى الذى لا يمسك عن احراقى . آه ! ليت أرتميس « الهة الصيد » استطاعت أن تقتلنى بسهامها قبل ان أراه . كيف أستطيع ان اعد المواد الســحـــرية خفية عن اهلى ؟ ماذا أقول ؟ اى حيـــلة اختـــرع لادارى معونتى ؟ هل احادثه سرا بعيدا عن رفاقه ؟ يا للبؤس ! ان موته ذاته لن يدع لى أملا فى الشفاء من آلامى . بعد موته سيحتضننى الالم . وداعا عفافى ! وداعا ضــــياء حياتى ! فلينج على يدى ولينأ من هنا دون جراح . لينأ الى حيث يهوى فؤاده »

ولست أدرى ماذا يظن القارىء بهذه الفقرة التى هى

بلا ريب من خير ما كتبه وان كنته عن نفسي أحس فيها الصنعة بادية والتكلف واضحا ، ولا أدل على ذلك من أن نعم النظر في تشبيهه المعقد لقلب الفتاة بالشعاع الذى يثب في غرفة وفى الغرفة قدر وبالقدر يصب الماء ، والماء يعكس الشعاع ، والشعاع يتطاير شرره في كل ناحية وما الى ذلك من تفيهق العلماء وصنعتهم المرذولة

ذلك عن فن الملاحم . ولقد سبق أيضا ان قلنا ان شعراء ذلك العصر قد حاولوا كافة الفنون الادبية ، فهم لم يقفوا عند الملاحم يحاولون بعثها بعد أن كان زمن الفطرة والطبع السليم قد انقضى ، بل كتبوا أيضا التراجيديات ومن غريب الامر أن أكبر شعراء التراجيديات في ذلك العصر وهو ليكوفون Lycophon لم يرقه ما أحدثه أوربيدس في أسلوب التراجيديا من تطور نحو النثرية . فأراد « كأديب مرهف » أن يعود بها الى اللغة الشعرية القديمة .. فأخذ يحاكى أيسكيلوس وبنداروس ، ولكن التكلف أفسد محاولته كما نتوقع ، وكان في هذا فشل للتراجيديا لايقل عن فشل الملاحم

ونخلص من كل ما سبق عن أدب عصر الاسكندرية الى أنه لم يجد الا عندما عاد الى الحياة ، لقد جاد فى شعر ليونيداس لانه لامس بؤس الحياة وخبر أسرارها ، وجاد في شعر تيوقريطس لانه هاجر الى الريف حيث السذاجة الساحرة ، وجاد في فصول المحاكاة ، لانه صور واقع الحياة ، ولقد صدقت نغماته في شعر الغرام ، لان الحب شعور غلاب ، وأما فيما عدا ذلك فقد جاء شعر علم وتكلف وكتب وصالونات

العمالية الفكرية

نقصد بالعمالية نشوء طبقة اجتماعية جديدة ينزل فيها المشتغلون بالمسائل العقلية منزلة العمال بمالهم من حقوق ومطالب ومشكلات على نحو ما شاهد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بالنسبة للعمال اليدويين ، وبخاصة عمال الصناعة ، وتلك مشكلة ستتمخض عنها الحرب الحاضرة بعد أن مهدت لها الحرب السابقة .. ولفهمها لابد من القاء نظرة عابرة على قيمة العمل الانساني خلال التاريخ ، وتطور تلك القيمة الى يومنا هذا

فى العصور القديمة كان العمل من اختصاص العبيد ، وأما المواطنون فكانوا يرون عارا ان يزاول احدهم بنفسه زراعة أو صناعة ، وقد أثقلت هذه النظرة تاريخ الانسانية، وجاهد المفكرون وطلائع البشر فى رفع هذا الثقل قرونا طوالا وبالرغم من أن الانسانية قد اجتمعت كلماتها على الغاء الرق ، فان العمل لا يزال ينظر اليه الى اليوم نظرة لا تتفق مع قيمته الحقيقية من حيث أنه منبع الثروة الوحيد . ومن غريب الامر ان قدماء الاغريق أنفسهم قد فطنوا الى قيمة العمل ، فحسمها أرسطوفانيس

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٨/٢٨

المؤلف الكوميدى الشهير فى رواية رائعة هى بلوتس ت
اله الذهب وهـذا الاله أعمى قالوا أن الاثينيين ضرعوا الى الاله الطبيب ايسكيلاب أن يشفيه من عمـاه فيقيم بمدينتهم اعترافا بالجميـل - وهذا ما كان . واستوطن الاله بأثينا ، واذا بالسماء تمطر الذهب حتى غصت به الطرق والحارات ، وأمسك جميع السكان عن العمل اكتفاء بهذا الذهب الوفير يغرفون منه لقضاء حاجاتهم - ولكنهم لم يلبثوا بعد أيام أن رأوا المنتجات تنفذ ، واذا بهم يتضورون جوعا والذهب تحت أرجاهم . وهال عقلاءهم الامر ، فخفوا الى الاله الطبيب يرجـونه أن يسكب فى عين اله الذهب ما يذهب ببصره ثانية ، حتى يستطيعوا آسفين معتذرين أن يقودوه خارج مدينتهـم ، لترتفع عنهم تلك المحنـة القاسيـة ، محنـة الذهب ، ويعودوا الى نشاطهم المثمر ، يعودوا الى الـكد وعرق الجبين الذى ينتج من الخيرات ما يشـبع حاجاتهم الحيوية . هذا ما رآه الاغريق القدماء ، أو ما رآه أحـد كبار مفكريهم ، ومع ذلك ظل العمل من اختصاص الرقيق، ولم يسـتطع أن يتمتع بماله من واجب الاحترام ، بل التقديس ، وهذا أمر بديهى ، فأنت تسـتطيع أن تملأ خزائنك بالمال ، وتترك هذا المال بالخزائن طوال السنين، ثم ترى أنه لم ينتج شيئا ، وانما المنتج كد الرجال

وفى خلال القرون الوسـطى لم يتغير الموقف ، فكان الرجال ملحقين بالارض ، تنتقل ملكيتهم بانتقالها من يد الى يد . ولم يتحرر البشر الى حد ما الا عندما أخذت المدن تتكون وتنشأ بها طبقات اجتماعية جديدة من الصـناع والتجار . ومن المعلوم أن نشأة المدن هى التى مهـدت السبيل لمناهضة أمراء الاقطاع ، والقضـاء على نفوذهم القاسى ، وقد اعتمد عليها الملوك فى انتزاع السلطة من يد

الأمراء وتوحيد الممالك . وفى مقـــابل ذلـك كان الملوك يمنحون تلك المدن وثائق بها كثير من مبادىء التحـــرر السياسي والاقتصادى ـ ومع هـذا فان الحريات التى أعطيت للمدن لم يصب العامل منها الا خيرا يســيرا ، وذلك لان رق الاقطاع قد قابله فى المدن تكوين اتحادات عمالية كانت لرؤسائها على أفراد العمال حقوق ثقيلة . وفى الحق انه لم يكن بد لكى يسترد العمل كرامته من أن تظهر الشخصية البشرية أولا فى الهيئة الاجتماعيـــة ، ويسلم لها باستقلالها الذاتى لتستطيع بعد ذلك أن تنضم الى اتحاد أو نقابة راضية مستنيرة . وتحرير الشخصية البشرية من رق المجموع هو الكسب العظيم الذى كسبته الانسانية فى عصر النهضة الذى وضـــــع حدا للقرون الوسطى . فمنذ ذلك العصر نستطيع أن نقول ان فجـر الانسانية قد تنفس ثم أخـذ المفكرون يبحثون فى منابع الثروة ووسائل الانتاج ، وعلاقة الانسان بكل ذلك . ولما كانت الصناعات لم تنشأ بعد ، فقد رأى البـــاحثون فى الاقتصاد عندئذ أن الزراعة هى المصدر الوحيد للثروة ؛ وأما الصناعة فما هى الا تحويل للمواد الاولية التى تنتجها الزراعة ، فهى لا تخلق جديدا ، والتجارة ليست الا نقلا للمنتجات

وجاء القرن التاسع عشر باختراعاته العظيمة وأخذت الصناعات تنشأ ، ففطن المفكرون الى أن الانتـــــاج الاقتصادى ليس تكوين شىء من العدم والعدم لا ينتـج شيئا ، وانما هو خلق لقيم اقتصادية جديدة ، ومقدرة على اشباع الحاجات الانسانية المختلفة ، فالمادة الاولية بتحويلها تصبح قيما جديدة ، وتشبع حاجات جديدة ، وانت كذلك اذا نقلتها من مكان لا يحتاجها فيه أحد الى مكان تطلب فيه تعطيها قيمة جديدة أيضا ، وهكذا دخلت

الصناعة والتجارة فى ميدان الانتاج ، وكان فى المناقشات التى دارت حول منابع الثروة وانتاجها ما انتهى بالمفكرين الى تقدير العمل الانسانى . ولكن التقدير شيء ، والتسليم بحقوق هذا العمل شيء آخر ، ثم انه كان تقدير المفكرين، وهؤلاء فى كل العصور نفر من الخاصة ، والامر لم يكن يوما لسوء الحظ بيدهم ليستطيعوا تحقيق نظرهم عملا ، فهم طلائع البشر ، ولكنهم ليسوا قادته الفعليين . ومع ذلك فقد كان فى سبقهم الى تقدير قيمة العمل البشرى قيمته الحقة ما أيقظ ضمائر العمال ، ولهذا عندما ظل أصحاب رؤوس الاموال متخلفين عن مسايرة العقلية الجديدة لم يلبث التصادم أن نشأ بينهم وبين عمالهم . ورأى العامل انه لا يستطيع أن يقاوم بمفرده فتكونت النقابات ، واجتمعت النقابات فى اتحادات ، واستعرت روح الطبقات واحتدم الكفاح بينها ، حتى انتهى الامر الى الحركات الاشتراكية والشيوعية المعروفة ، وحتى فى البلاد التى حافظت على الملكية الفردية كحافز قوى للانتاج لم تفلت نظمها الاقتصادية ، من أن تتأثر بالكثير من المبادىء الاشتراكية بحيث يمكن القول بأن الديموقراطية ذاتها قد أصبحت فى جميع بقاع الارض ديموقراطية اشتراكية ،أو اجتماعية اذا أردت أن تتجنب اللفظ ..

هذا الجهاد الانسانى الطويل قد انتهى بالاقرار بقيمة العمل اليدوى والتسليم لطبقة العمال ، وبخاصة فى الصناعة ، بالكثير من حقوقها ، وهى لم تمنح تلك الحقوق بل أخذتها أخذا ، بحيث نستطيع أن نقول ان العمال فى معظم بلاد أوروبا كانوا قد وصلوا قبل الحرب الحاضرة الى درجة محمودة من الرخاء لم يصل اليها المشتغلون بالاعمال العقلية . ولقد رأيت فى فرنسا قبيل هذه

الحرب العامل المتخصص يكسب مالا يقل عن ثلاثين جنيها شهريا ، بينما يعطى القاضى الفرنسى ثمانية عشر جنيها. ولقد رأيت فى جميع أنحاء أوروبا أن الطبقة المهضومة لم تعد طبقة العمال ، بل طبقة أولئك العقليين ، فبينهم تفشت البطالة ، وعن حقوقهم سكتت الهيئة الاجتماعية، وذلك لان انتاجهم غير ملموس النتائج وافرادهم لم ينظموا بعد فى نقابات أو اتحادات . هنالك تجد الموظف تحت رحمة الحكومة ، والصحفى مستذلا لصاحب الجريدة ، والكاتب يتحكم فيه الناشر ، والمتعلم يبحث عن عمل فلا يجده . وليس من شك فى أن الانسانية التى لا يمكن أن تفنى ، لابد ملتمسة علاجا لهذه الحالة الصارخة ، ولقد عدت الى مصر فوجدت البلوى أعم : نقابة للصحفيين لم أر لتكوينها مثيلا فى العالم ، فهى تضم العمال وأصحاب العمل ، ومن الطبيعى أن يتحكم هؤلاء فى أولئك . والوضع الطبيعى أن ينفصل كل فى نقابته ، وأن تتفاوض نقابة مع نقابة ، لا أن يجتمعوا سويا كقطط وفيران فى مصيدة واحدة . ورأيت أثرياء يخشون أن تطالبهم الحكومة بما يجب أن يدفعوه من ضرائب فيصيحون بها أن أمسكى عن انصاف المظلومين من الموظفين ، وقد عضتهم الحياة بأنيابها ، مع أن الضرائب فى بلادنا قلما تصل الى أكثر من ١٢٪ بينما هى لا تنحط فى أى بلد أوروبى أثناء السلم عن ٣٦٪ على نسب تصاعدية . ورأيت ناشرين من التجار الجشعين ، يتحكمون فى عقول الكتاب وأقلامهم ، وينزلون بهم الى حد الدعارة العقلية لترويج البضاعة التى يقبلونها منهم . وأخيرا كم بين المتعلمين من عاطلين ؟ ولقد جاءت تلك الحرب فقلبت أوضاع الحياة الاجتماعية ، فاذا بالعزيز ذليل والصعلوك ثرى كبير ، ونمت روح الدجل والنصب والاحتيال

والنفاق حتى لاعتقد مؤمنا أنه لابد لتستقيم الحيـــاة الاجتماعية من أن يعاد اليها اتزانها بأية وسيلة كانت

ليست هناك هيئة اجتماعية تستحق الاحترام اذا لم يقدس فيها الفكر ، وهذا الفكر هو القـوة التى نسيطـر بها لا على النفوس فحسب ، بل على المادة أيضـــا . وهاهى الحرب قد أوشكت أن تنتهى ، وأنا على ثقة من أن العمالية الفكرية ستحزم أمرها ، وهى التى تقـود الرأى العام ، فتطالب بحماية حقوقها وتوفير كرامتهـــا وضمان استقلالها المادى حتى لا يستذلها أحد .. وانه لمن غريب الامر ألا ترى ببلادنا الى اليـوم قانونا يحمى الملكية الادبية والفنية ، ولا نقابات للعقليين الذين يزاولون النشاط الحر والثقافة غـــير المهنية ، واذا أريد لتلك النقابات النجاح ، فمن الواجب أن تنحى عنها السياسة، وأن يكون تكوينها سليما

التـوازن الاجتماعي

هذه ايضا مشكلة كبيرة لابد لرجال السياسـة والاجتماع من مواجهتها فى حزم ، وليس من شك فى أن عدم العناية بها بعد الحروب الكبيرة والثورات القوميـة الماضية ، قد كان دائما من الاسباب القوية التى مهدت لحروب وثورات لاحقة ، ونحن لا نعرف سياسـة أحمق من تلك التى تتناول الامم طبقات وطوائف دون نظـر دقيق الى ما يجب أن يقوم بين تلك الطبقات والطوائف من توازن يكفل سلامة الامة وضمان وحدتها

والطبقات الاجتماعية لم تتكون فى التـاريخ عفوا ، بل قامت دائما على المقاييس العميقة المتغلغلة فى عقليـة الشعوب . ففى العصور القديمة عنـدما نرى افلاطون يقسم جمهوريته الى ثلاث طبقات : حكماء يرأسـون المدينة ، وجند يذودون عنها ، وعمال يوفرون لها وسائل الحياة المادية ، لا نستطيع أن نسلم فى يسر بأنه انما أخذ هذا التقسيم عن قياسه للهيئة الاجتماعية وطبقاتهـا بالفرد وملكاته . ولابد لنا من أن نذهب الى أبعد ممـا زعم لنستطيع فهم الاساس الذى أقام عليه هذا التقسيم . نعم ان الحكماء ينزلون من الامة منزلة الرأس بملكـاته

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٩/١١

العقلية ، والجند منزلة القلب بقوته الغضبية ، والعمال منزلة المعدة بنشاطها المادى ، ولكن أليس من البين أن هذا التقسيم تنعكس فيه المقاييس العامة للاغريق فى ذلك الحين ؟ فالعمال فى هيئة اجتماعية كانت تجمع على ان العمل من اختصاص العبيد ، لم يكن مفر من أن ينزلوا المنزلة الثالثة ، والجند فى بلاد استهدفت لجحافل الفرس وردت بشجاعتها عدوانهم بعد أن هددها فناء محقق ، كان من الطبيعى أن ينزلوا منزلة تسمو على منزلة العمال وتتمتع باحترام المجموع . وأما رياسة الحكماء للمدينة فذلك حلم رآه افلاطون ، وكان هو أول من تنكر له ، اذ لم يلبث أن ترك السياسة بالرغم من وجاهة محتده وقرب اتصاله بالقادة فى ذلك الحين ، وهو بعد حلم لا تزال الانسانية ترتجيه

وهكذا نستطيع أن نستشف عقلية الشعوب من أسس تقسيمها للهيئة الاجتماعية وهى عقلية دامغة تسيطر حتى على كبار المفكرين أمثال افلاطون ، ممن نظن دائما أنهم فوق بيئتهم أو نابين عنها

وفى القرون الوسطى نعثر على نفس الحقيقة . فعندما يحدثنا التاريخ أن الطبقات الاجتماعية قد انتهت خلال تلك القرون الطويلة الى التبلور فى ثلاثة : نبلاء ورجال كنيسة وطبقة ثالثة ، لن نجد مشقة فى العثور على أساس هذا التقسيم ، فقد كانت تلك الازمان ، أزمان العهد الاقطاعى حيث يسيطر كل أمير على مقاطعة تتبعه أراضيها ، وما تحمل من بشر يعملون بها ، وهكذا تكونت طائفة النبلاء ، نبلاء الدم والوراثة . والى جانب هذه الطبقة كان من الطبيعى أن تنهض طبقة رجال الدين فى عصور سيطرت فيها المسيحية على عقلية الشعب ،

وأما العمال والزراع فقد أجمع حمق البشر على انزالهم دائما مؤخر السلم

وأخيرا جاءت الثورة الفرنســية الكبرى ، وانتفضت الانسانية متطلعة الى فجر جديد . ولقــد حطمت تلك الثورة نظام الطبقات الذى تمخضت عنه ، كما رأينــا ، القرون الوسطى ، ولكن الانسانية لسوء حظها لم تهتد ، برغم ما أراقت تلك الثورة المجيدة من دماء ، الى أساس سليم تقيم عليه تقسيمها الاجتماعى . وفى استطاعتنــا أن نفهم سر المأســاة اذا ذكرنا أن تلك الثــورة قد قامت بالمدن ، وأن عصبها كان طائفة الحضريين الذين يعرفون بالبرجوازية ، أى « سكان المدن » ، بل ســكان باريس بنوع خاص ، فهم منبت تلك الثورة وبؤرتها المقدسة . وقيام الحضريين بها لم يكن حدثا طارئا فى التــاريخ . فمنذ قرون كانت المدن العامل الفعال فى مناهضــة النظم الاقطاعية ، وتحطيم سلطة الامراء ، وتمكين الملوك من توحيد الممالك ، ولهذا كان من الطبيعى أن تنشــأ فى مدينة مثل باريس تلك الثورة العــاتية التى أتت على ذلك النظام البائد ...

وبنظرنا فى المبادىء التى قامت عليها التقســيمات الاجتماعية فى العصور القديمة والقرون الوســطى ، نستطيع أن نحصى الاسس التى كانت تمكن من الوجاهة الاجتماعية ، فهى الحكمة والشجاعة ووراثة الدم والزعامة الروحية . جاءت الثورة فحطمت كل تلك الاسس وان لم تمحها محوا تاما من عقلية الشــعوب ، حيث لا تزال تعمل الى اليوم على تفاوت فى النسب ، وننظر فيما أقام هؤلاء الحضريون على انقاضها من أسس جديدة ، فــلا نكاد نتبين غير اساس واحد هو المال ، وهــذا هو سر المأساة التى أشرنا اليها فيما سبق

حاول المال محل غيره من المقاييس ظاهرة واضحة التفسير ، فالثورة الفرنسية هى وأشباهها من ثورات القرن التاسع عشر قد قامت كما قلنا فى المدن على يد الحضريين ، وهؤلاء جمهرتهم العظمى من الصناع والتجار، وهم بتقويضهم لطبقتى النبلاء ورجال الكنيسة قد استطاعوا أن يحلوا محلها فى الصدارة الاجتماعية . وهكذا انتهت الانسانية الى التقسيم المعروف : حضريون «برجوازية» وعمال ، وأصبح المال الاساس العام لتوزيع الهيئة الاجتماعية

قد يقول قائل ان هذا الاساس الجديد خير من بعض الاسس القديمة ، فهو يمكن الهيئة الاجتماعية من مرونة لم تكن تملكها عندما كان النبل مثلا ظاهرة وراثية لا حيلة للبشر فيها . وهذا قول كان من الممكن قبوله لو لم يسد فى تاريخ الانسانية خلال القرن التاسع عشر ذلك الاختلال العجيب الذى لم يكن مفر من أن ينجم عن ظهور ظاهرتين كبيرتين فى ذلك القرن ، ونعنى بهما الحركة الصناعية الكبيرة من جهة ، والاخذ بمبادىء الاقتصاد الحر من جهة أخرى . والثورة الفرنسية السابقة على هاتين الظاهرتين لم تعالج طبعا هذا الاختلال ، بل ولا مهدت لعلاجه ، ولهذا لحقتها بفرنسا نفسها ثورتان أخريان هما ثورتا سنة ١٨٣٠ ، ١٨٤٨

نمو الصناعة وما تبعه من نمو التجارة أيضا ساعد على تكوين طبقات عاتية من الرأسماليين ، وروج علماء الاقتصاد لنظرية : « دع الفرد يعمل ، دع التجارة تمر » وقالوا بترك النشاط الاقتصادى حرا ، فمكنوا بذلك أصحاب العمل من دماء العمال وهكذا بعدت الشقة بين طبقتى الامة مما أثار ما نعرف من حركات ثورية واضطرابات اجتماعية ..

واتخاذ المال أساسا للتقسيم الاجتماعى مصدر لخطر كبير يتهدد الهيئة الاجتماعية فى كيانها . ويزداد هـــذا الخطر وضوحا فى أثنـــاء الحروب الكبيرة . ومظهر هذا الخطر هو الانحلال الخلقى . لمن شـــاء أن يصدع أذنى بقوله أن من الناس العصاميين ، القادرين على جمـــع الثروات الطائلة بمهـــارتهم وحسن فهمهم لحـــاجات النـــاس ، ومـــلاقاة تلك الحـــاجات ، فذلك ما لن أقبله . وعندما انظر حولى فلا أرى الا صعاليك ليس فى عقولهم فكر ولا فى قلوبهم ضمير ينشرون المال كل صوب فى قحة تنفر منها النفس ، لا استطيع الا ان احـــكم بأنهم لا يملكون من مواهب غير الدجل والنصب والاحتيال

ويزيد فى تلك الظاهرة خطورة قيام الحروب الكبيرة ، كما قلت ، فعندئذ ترى النصابين يستغلون مواطنيهم أقبح استغلال ، وترى الاوضاع الاجتماعية وقد انقلبت رأسا على عقب حتى يختل توازن الامة الاجتماعى أعمق اختلال ، ويكثر محدثو النعمة ، وتلك طائفة تجمـــع الانسانية الرشيدة على احتقارها ورد عدوانها

والآن ، وقد استعرضنا المبادىء ، التى وزعت الانسانية على أساسها طبقاتها الاجتماعية ، وانتهينا الى أن الاساس العام القائم اليوم هو المال ، ووضحنا ما فى هذا الاساس من أخطار يجب أن نبحث عن الوسيلة التى نتعهد بهـــا ذلك التوازن ونرد اليه ما يجب ان يلازمه من ســـلامة ، وباستطاعتك ان تقلب أوجه النظر كما تريد ، فلن تجـــد غير وسيلة واحدة هى تدخل الدولة والأخذ بمبـــادىء اقتصاد الموجه Economie dirigée

مبدأ الاقتصاد الموجه يقوم على تدخل الدولة فى الانتاج، وذلك عن طريق التشريع وهو الزم مايكون فى أعقاب الحروب الكبيرة ، وانت عندما تثقل بالضرائب من أثرى بغير وجه

مشروع لا تظلمه ، بل تنتصف للامة منه ، لانك عند النظر الاخلاقى الصحيح لا تستطيع ان تسميه الا مختلسا، وانت عندما تنتصف للعامل من صاحب رأس المال ، وللمستهلك من المنتج وللمريض من الصحيح وللجاهل من المتعلم ، لا تعتدى على أحد ، وانما ترغم المقصر على أداء واجبه عندما تنعدم قيادة الضمير .. لقد حان الحين ، لكى تحزم الهيئة الاجتماعية امرها ، وتشد من عزم حكامها ليقيموا توازنها الاجتماعى على أساس ترضاه انسانيتها الجريحة

مكافحة الشكلية

لا عجب أن نرى مشكلة التعليم من بين المشاكل الكبرى التى تشغل الرأى العام ، لا فى بلادنا فحسب ، بل فى جميع بلاد العالم ، والحرب القائمة عمادها الاول مبادىء العلم ومكتشفات العقول ، وهى حرب ميكانيكية قبل كل شىء

ولقد انتهى الامر ببلادنا الى الفطنة لوجوب مكافحة الامية الابجدية ، وهذا خير نحمد الله من أجله ، ولكننا نطمع الى ما هو ابعد من ذلك . فنود لو كافحنا الامية العقلية ، وما نظن مفكرا يزعم أنك قد أصلحت نفسا أو هذبت خلقا او سددت ادراكا اذا لقنت الفرد مبادىء القراءة والكتابة ، فتلك وسائل لا خير فيها اذا عريت عن غايتها ، وغايتها بلا ريب هى محو الامية العقلية ، ومن هنا كانت راحة النفس عندما رأينا الحكومة تقيم مكافحتها للامية على أساسين : تعليم الابجدية وما يلحق بها ، ثم نشر الثقافة الشعبية بالقاء الدروس المبسطة فى مبادىء العمران والحياة المدنية

وليس من شك فى أن مكافحة الامية العقلية التى هى هدفنا القومى لن نستطيعها الا اذا أعددنا لمكافحتها طوائف من المثقفين ثقافة جامعية صحيحة ولقد اتفق

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٩/٢٥

لكاتب هذه السطور ان لاحظ على تلك الثقافةالجامعية اتجاها نحو الشكلية قد لا يكون منه مفر فى بلاد أخذت تفتح أعينها على العلوم الغربية ، فتود لو تلتهمها متعجلة، ثم تنثرها عن يمين وشمال فجة قبل ان تتمثلها تمثل الهضم ، وتلك آفة من الافــات الكبيرة التى لابد من محاربتها أعنف الحرب ، لانها خليقة بأن تنشر فى نفوس الشباب غرورا كثيفا يحجبها عن الحقائق العميقــة . وأخطر ما تكون تلك الآفة فى العلوم المعنوية ، ونعنى بهـا العلوم التى تتناول الانسان وظواهره البشرية كفــرد وكعضو فى هيئة اجتماعية . وسر الخطورة فى هــذا المجال يأتينا ايضا عن الغرب وان يكن الغرب نفسه قد اخذ يتخلص من تلك الافة التى مكنت لها اتجاهــات العلوم المادية فى اواخر القرن التاسع عشر وأوائــل القرن العشرين

ذلك ان العلوم المادية فى تلك الفترة كانت قــد خطت خطوات كبيرة نحو اكتشاف كثير من القوانين العامة التى شاع فى كل العقول ان العلم ان لم يكن اكتشاف قوانين فهو ليس بشىء ، ونظر الباحثون فى الانسان فاذا بهم لا يكادون يتبينون لظواهره قوانين ، فتطلع طموحهــم الساذج الى أن يصلوا فى معارفهم الى ما وصل اليــه علماء المادة ، فقالوا أن الانسان ما هو الا ظاهــرة من الظواهر العامة ، وهو لابد خاضع فى حياته الفردية وفى حياته الاجتماعية الى قوانين لا مفر من سلطانها ، ومن هنا اتجهت الابحاث النفسية والاجتماعية تلك الوجهــة الشكلية التى نكتب اليوم عن وجوب مكافحتها اذا اردنا ان نقيم مجد هذا الوطن على ارادة ابنائه ، ارادة يجب ان ينتهى كل تعليم صحيح الى تأييد حريتها التــامة وقدرتها على كل شىء

ومكافحة الشكلية ليست بالامر الهين ، فقد اتفق لى ان لاحظت التجربة فى نفسى حيث لم أستطع أن أفطن الى ما أدعو اليه اليوم الا بعد سنين من اقامتى بأوربا ، ولعلى أفدت تلك التجربة من كلمات قاسية سمعتها من شيخ فرنسى أضعاف ما أفدت من أساتذتى ومطالعاتى . وليسمح لى القارىء بأن أقص تلك الذكرى الشخصية ، فقد يفيد منها مثلما أفدت

فى أول عهدى بباريس كنت أتناول الغذاء على مائدة سيدة عجوز مع نفر من الشبان والشيوخ الفرنسيين وبعض الاجانب . وكان من بين الفرنسيين رجل جاوز الخمسين يعمل وكيلا للمحافظة ، وأكبر ظنى انه ينحدر من اسرة كبيرة من الاسر المحافظة ، وكان رجلا جافا فى جسمه وروحه ، أنيقا فى لفظه وملبسه ، ولقد علمت أنه قد ابتلى الحياة وابتلته بهمومها الثقال فتحملها فى بطولة ولقد خرج من نشأته وملابسات حياته بفلسفة قوية تقوم على مبادى الخلق الصارمة كما تقوم على الاعتداد بكرامة الانسان وقدرته على توجيه الحياة واخضاعها لارادته . ومع هذا الرجل تعلق حديثى احد الايام ،ورأيته يبسط مبادىء فلسفته التى ذكرتها فى حرارة المؤمن فدهشت ، واخبرته بأن مبادىء الاخلاق التى يتحدث عنها ان هى الا ظواهر اجتماعية تملى على الافراد دون ان يكون لهم دخل فى بنائها ، او فضل فى الايمان بها ، كما أخبرته ان ارادة الانسان الحرة التى يعتز بها ، ليست الا وهما لان الفرد لا يملك لنفسه شيئا ، وانما هو مسير بغرائز وقوى دفينة وما ان سمع منى الرجل هذا الهراء ، حتى انتفض كالاسد، واستند بمرفقه الايسر على المائدة،ليلتفت الى محدقا فى غضب ، غضب الاستعلاء ، وسألنى من أى بلد اتيت يا ابنى ؟ قلت من مصر . قال وماذا يصنع أبوك

فى مصر ؟ قلت يزرع الارض . قال انى أوصيك مخلصا ان تعود الى بلدك لتحرث الارض مع أبيك هذا أجدى عليك وعلى وطنك مما تتعلمه او تظن انك تتعلمه هنا من هراء ، فتماسكت موهوما وقلت ، ولكن هذه يا سيدى هى الاراء التى سمعتها من اساتذة السربون فى علم الاجتماع وعلم النفس ، فأجابنى : ومن انبأك ان هؤلاء الاساتذة يفهمون شيئا عن حقائق الانسان ؟ أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصاغ نظريات او يكشف عنها التفكير المجرد؟ ثم من قال ان التفكير الفرنسى يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون انهم قد اكتشفوا قوانين الانسان ، عندما زعم كبيرهم دركايم ومن خلفه ليفى بريل وموسى وفوكونيه ومن تبعهم ان الانسان حكمه حكم المادة ، وان هنـــاك ما يسميه هؤلاء الحمقى وعيا اجتماعيا تتمخض عنـــه الحياة العامة كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيــج من العناصر .. احذر يا بنى ان تؤمن بما يقولون . فليس صحيحا ان الرجل المهذب لا يستطيع ان يصل الى قيادة شخصية يهتدى بها الى مواضع الخير والشر والبطـولة والخسة بنفسه ، كما تهتدى الطيور الى اوكارها . وليس صحيحا أن قواعد الاخلاق ليست الا ظواهر اجتماعيـــة لا نستطيع فى علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو ان نرصدها ، كما يفعلون لنستخرج منها قوانين عامة . هذا يا بنى وهم ، بل خداع مبطلين ، ثم اذكر اننا فى مجال المعرفة بالانسان ، ليس لنا الا هدف واحد هو ان نصبح خيرا مما نحن . فبالله ، هب ان هذا الهراء حق ، فأى فائدة ستجنى منه الانسانية ؟ انا أفهم أن نكشف عن قوانين المادة ، لنسيطر عليها ونسخرها فى مرافق حياتنا ، ولكن الانسان ما شأنه بالقوانين ؟ ومن قال ان الانسان مادة فحسب ، وهب أنه كان مادة ، وان الروح لم يكن لهـا

وجود وانها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات بتحطيم الناى ، أليس من الخير ، بل من الواجب على الانسانية أن ترفض علما كهذا لن ينتهى الا بتحطيم حياتنا وشل ارادتنا وتقويض دعائم الهيئة الاجتماعية التى نحيا بينها ؟

هذا هو الدرس القاسى ، الدرس الصارم النافع الذى تلقيته عن الشيخ فى مستهل حياتى ، رويته اليوم راجيا أن تتدبره شبيبتنا الناهضة . ولقد تذكرته اذ قرات فى احدى صحف المساء مقالا لشاب أكبر الظن أنه حديث التخرج من قسم الفلسفة بالجامعة ، ولقد رأيت شابنا المسكين يتحدث عن « مكافحة الاميين فى ضوء علم الاجتماع » فيزعم أن هذه المكافحة ستجرى ضد قوانين علم الاجتماع المزعومة ، وانها لذلك لن تنجح لان عقلية الفلاح ليست عقلية حضارة وعلم ، وانما تصبح كذلك بعد أن تنتشر الصناعة فى مصر ، وذلك لما رواه عن دركايم وتلاميذه من ان لكل شعب عقلية تتكيف بتاريخه ونوع نشاطه الاقتصادى وما الى ذلك مما ينتهى بخلق ما سماه طالبنا نقلا عن هؤلاء العلماء « بالعقل الجماعى » وهذا هو موضع الداء ، فطلابنا يرددون اصطلاحات علمية لا يحسنون فهم مدلولاتها فهم الناقد المستنير ، وتبلغ بهم القحة ان يكتبوا للصحف فيما لا يفهمون غير واعين بما قد يكون فى هرائهم من تثبيط لهمم أفراد الشعب الذين لم يصيبوا من العلم الزائف مثلما أصابوا ، وها أنا ألقى عليه درسا مثل الذى سمعت فى أول حياتى :

لا يا بنى ليس هناك عقل جماعى كما زعمت أو زعم لك دركايم ، وانما هناك عقل فردى ، هناك ارادة حرة ، ارادة يجب أن تستيقظ فى قلوب أمثالك فتهدم الصخر . لا يا بنى ليس هناك جبر تمليه قوانين مزعومة ، وانما هناك

نشاط حر ، نشاط لا يعرف اليأس . وكم أحزنني من شاب مثلك أن يقول بقيام قوانين تقف دون ارادة هـذه الامة ، التي أنت أحد أفرادها ، فتردها عن أهدافهـا القومية . اقلع عن اليأس وبشر بالامل ، واذا سمعت من حولك من يرمي هذه الامة بالسوء فرد قوله ، وآمن بأنه مهما بلغ بنا الفساد فنحن لابد مقوموه ، وان حافزنا الاول الى هذا التقويم سيكون العلم الصحيح الذي يؤمن بأن النشاط الانساني حر ، وان ارادتنا لابد آتية على كافة الصعاب كما أتى مصطفى كمال على صعاب تركيا وستالين على صعاب روسيا ، دون أن يقف أمامهما عقل جماعي او قوانين اجتماعية ..

أمية المتعلمين

نحن فى حاجة الى أن نكافح فى بلادنا ثلاثة أنواع من الامية : الامية الابجدية والامية العقلية وامية المتعلمين. ولابد اذا اريد لهذا البلد الصلاح من أن نكـافح الانواع الثلاثة معا ، وساقا بساق فى شبه ثورة اجتماعية تجند لها جميع القوى قسرا

فأما الامية الابجدية فتلك فى الحقيقة أهونها ، لان تعليم فك الخط ليس بالامر العسير ، وان تكن هناك ظاهرة تستحق النظر . فلقد اتفق لكاتب هذه السطور أن رأى صبية التعليم الالزامى يطالعون دون أن يخطر ببالهم أن المطالعة انما تكون لفهم ما نطالع أو محاولة ذلك الفهم ، وانا بعد لا أدرى سر هذه الغفلة ، وان كنت اميـل الى التفاؤل ، اذ يخيل الى أن محو الامية الابجدية عنـد الاطفال كسب حقيقى ، فهم اذا كانوا عاجـزين عن أن يستفيدوا بما تعلموه من مبادىء القراءة والكتابة فـلا أظن ذلك مانعا لهم عند الكبر وتفتح النفس من أن يهتدوا الى أن القراءة انما جعلت للفهم والالمام بما نقـرأ . وأكبر الظن أن هـذه الظـاهرة لن تحدث عنـد تعليم الكبار الذى تعتزمه اليوم حكومتنا ، فالشـخص

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١٠/٧

الكبير لابد من أن يتحرك تفكيره بما يقرأ ، وبخاصة اذا اختير له من القراءات ما يثير اهتمامه الشخصى ويلابس ظروف حياته فيشعره بفائدة ما يقرأ . وسوف يزداد شغفا الى اجادة القراءة بفضل ما يلقن من مبادىء الثقافة الشعبية التى تشق الحجب عن بصيرته ، فيحس بآفاق جديدة ، تنتشر بها حياته ، حتى لكأنك تفك عنه أغلالا ، سيدرك عندئذ انها توثقه على غير وعى منه ، واذا به يسعى الى أن يتمكن من الوسيلة التى حررته ومن هنا تظهر الصلة المتينة القائمة بين مكافحة الامية الابجدية والامية العقلية وتأثير احداهما فى انجاح الاخرى

والامية العقلية محوها لاريب أشق وابعد مدى من محو الامية الابجدية ، وان خيل الينا عكس ذلك فقد يقول قائل : ان باستطاعتك ان تجمع الاميين وتخاطبهم بلغتهم العامية عما تريد أن يعلموا واذا بك تبدد الجهل من عقولهم وهذا قول لا يصح الا فى ظاهره . فقديما قال مفكرو الاغريق : « ان تثقيف الاطفال . والاميون فى هذا حكمهم حكم الاطفال .. لا يستطيعه غير الفلاسفة » والسبب فى ذلك بين ، فالمعلم لابد له من خيال قوى ليستطيع أن يخرج عن نفسه ليحاذى عقلية من يخاطب ، ثم انه ليس أشق من تبسيط المعرفة ، وذلك لاستهداف المبسط فى أغلب الاحوال لاحد امرين : الغموض والثرثرة . ومن هنا ترى أن كتب التبسيط العلمية الجيدة لا يكتبها عادة فى أوربا غير كبار العلماء الذين هضموا المادة العلمية حتى أصبح حديثهم عنها أشبه ما يكون بذكريات حياتهم الخاصة ..

وأيا ما يكون الامر فهذان النوعان من الامية باستطاعة حكومة حازمة أن تكافحهما أنجح الكفاح ، ولكن ثمة النوع الثالث وهو أمية المتعلمين فذلك ما يحير اللب ، حتى

لاحسب أن تلك الامية من أدواتنا العميقة التى أجمعت لتأصيلها أسباب عاتيـــة لا ندرى كيف السـبيل الى علاجها

ولامية المتعلمين ثلاثة مظاهر : الانتهـــاء من التعليم الدراسى بفائدة ضئيلة ، وعدم تنمية كل صـاحب فن لمعلوماته الفنية بعد التخرج ،واخيرا ضعف الثقافة العامة عند معظم المتعلمين بل واهمالها أحيانا اهمالا تاما

الخروج من التعليم بفائدة ضئيلة له ما يشـابهه فى حياتنا العضوية ، فنحن جميعا لا نتمثل من الغذاء كل مافيه من عناصر القوة ، حتى لترى من الناس الضعيف برغم مافى شهيته من نهم ، ومنهم القــوى على مابه من اقتصاد فى الغذاء . والقدرة على تمثل المعرفة للطبـع فيها دخل كبير ، ولكنه ليس كل شىء فمناهج الدراسة وقدرة الاساتذة تفعـل فى ذلك الاعاجيب . وليس من شك فى أن الثمرة الحقيقية لكل تعليم صحيح هى مايخلف فى النفس من رواسب تمتزج بملكاتنا ، حتى تصبح جزءا منها ، واما المعلومات التى نحملها كودائع نسلمها لاوراق الامتحان تسليما لا رجعة فيه ، فذلك مالا يمكن أن يسدد ادراكا او يهـذب ذوقا أو يرهف احساسا . والمتعلم لن يصل الى ما يجب من تمثل المعـرفة الا اذا أوتى من الخيال ما يستطيع معه أن يتصور فى كل حين مواقف الحياة التى من الممكن ان يستخدم فيها كل نوع من المعرفة التى يتلقاها ، وبفضل هذا الخيال يمد الصلات بين العلم والحياة . ونحن لا نملك هذه القدرة على نسبة سواء فى مراحل حياتنا المختلفة ، ولا أدل على ذلك من ان نعود بعد أن يستوى ادراكنا الى أبسط كتب الدراسة نقرأها من جديد فنجد اننا كنا واهمين عندما اعتقدنا ونحن

صغار اننا قد انتزعنا كل مابها وفهمناه على وجهه . بل ان الكتب التى نقرأها مرة واحدة ونحن كبار نستطيع ان نعود اليها أو الى الجيد منها فنعثر فيها دائما على جديد لم نفطن اليه أو غامض لم نحسن فهمه ، وكل ذلك فضلا عما نستوحيه من تلك الكتب . ومن الثابت ان الكتاب وسيلة للتفكير الاصيل قدر ماهو مستودع للمعرفة ، وياويل قارىء سلبى لايقف من الكتاب الا موقف المتلقى . ولقد اتفق لكاتب هذا المقال ان لاحظ غير مرة فروقا شاسعا بين المتعلم المصرى والمتعلم الاوروبى فشبابنا المتعلمون اغلبهم لا نحس فى حديثهم بمعارفهم ايمانا بما يقولون ، أو على الاصح يرددون حتى ليتضح ان كل ما يذكرون ليس الا رهائن فى نفوسهم لا يعرفون سرا لاحتفاظهم بها ، ولا يرون لها صلة بالحياة أو فائدة من اثرائها بله اخضاعها وتوجيهها . ولقد يكون أحدهم واسع الذاكرة ولكنك مع ذلك لا تعدم أن تحس بضيق ادراكه ، حتى لكأنه حبيس فيما يردد مستعبد له ، وكل تلك مظاهر لأمية اخطر من أمية العوام . والغربى على العكس من ذلك ايجابى فى تفكيره ، معارفه حية لانها وقود لتفكيره ، ومن هنا تتسع حيلته فى الحياة وتشتد ثقته بنفسه ، فلا يرهبه مجازفة ولا يقعده عجز عن البدء فى كبار الامور . يخطط سبلها ويوفر لها أسباب النجاح . عجيب ان يتخرج متعلمنا عالة على الحياة ويتخرج متعلمهم عنصرا فعالا فى خلق تلك الحياة

وذوو المهن منا قل من يتابع منهم سير المعرفة فى مهنته ، وذلك لانهم لا يلبثون بمزاولة العمل ان ينزلوا الى الالية التى لا تستطيع تجويدا ، حتى فى تفاصيل المهنة . والسر فى ذلك ، هو انهم لا يقدرون ـ لكسل او عياء ـ قيمة المعرفة النظرية فى مهنتهم قدرها الحق ، ونحن الان فى

عالم تعقدت فيه وسائل العمل والانتاج ، واصبحت تستند الى اسس نظرية ، لن تتقدم مهنة بدونها ونحن نلقى التبعة كلها على متعلمينا فمنهم المرهق الهموم بتبعات الحياة المادية كالمدرس ، ولكن الى جانب هؤلاء كم ترى من موظفى الدواوين الذين طغى الكسل على حياتهم فتسكعوا كالدواب ، وكم ترى من أطباء ومحامين لم يترك لهم جشع الحياة فراغا ، يطالعون فيه جديدا او يجيدون فهم قديم ، تلقاهم فتدهش لآفاقهم المحصورة ومعارفهم الضامرة لا فى ثقافتهم المهنية فحسب ، بل وفى ثقافتهم الانسانية العامة ، تلك التى لابد ان تستند اليها معارفهم الفنية اذا أريد لها ان تنمى قدرتهم على تكييف النفوس والحكم على مواقف الحياة حكما صحيحا ، وهذه ايضا أمية لاتجد لها مثيلا فى الغرب حيث يؤمن كل ذى مهنة ان توقفه عن القراءة مميت لمهنته مجفف لنفسه ، وانه لن يستطيع المنافسة فى ميدان الحياة مالم يتابع مكتشفات المهنة وثقافتها النظرية متابعة حارة مستمرة

ونصل الى ضعف الثقافة العامة ، وهذا الضعف كما رأينا شديد الصلة بالتعليم وبالثقافة المهنية على السواء . ونقصد بالثقافة العامة كافة انواع المعرفة الادبية والتاريخية والفلسفية التى لا تتصل بمهنة ولا تؤدى الى استغلال مادى مباشر ، وفى هذه الظاهرة ترى ببلادنا ما يفزع حتى لتحسب أننا فى ارض لم تتسرب اليها بعد معانى الحضارة الحقيقية ، ففى اوروبا مثلا من المستحيل ان تلقى موظفا او طبيبا أو مهندسا أو محاميا يجهل مؤلفات كبار المفكرين من الادباء والفلاسفة والمؤرخين . واما فى مصر فمن المستحيل ان تلقى من بين من ذكرنا من يعرف تلك المؤلفات فى غير النادر الذى لا حكم له . ومن أشنع ما يهولك ان ترى سادتنا لا يستحون من جهلهم ، بل يظهرون من

عدم الاكتراث ،٠ان لم يكن الاحتقار ألكاذب لتلك الثقافة الحرة ، ما يحزن ومن عجيب الامر انهم لا يحلمون حتى بما سيجدون فى تلك الثقافة من عون على مزاولة مهنهم مزاولة صحيحة ، وهم يكادون يجهلون أنهم يعيشون فى وسط اجتماعى وانهم يعملون فى صلب الحياة ٠وليس من شك فى أن أحدهم لن يفهم وسطه الاجتماعى أو ينفذ الى نفوس من يحيطون به أو يستطيع علاج مشاكل الحيـاة ما لم يتسع أفقه وتشحذ ملكاته الانسانية بالثقافة الواسعة الحرة ، ولكم من مرة لقينا بأوروبا طبيبا أو محاميا يحدثك ان نجاح مهنته لا يتوقف على معلوماته الفنيـــة فحسب ، بل لابد له من أن ينهض على فهم صحيح لنفسية المريض أو الخصم أو القاضى ، وسبيلهم الى ذلك الفهم هو مواصلة القراءة فى ميادين البحث الانسانى ٠ ثم هب أن الثقافة العامة لن تجدى فى الحياة العمليـــة ، أليست هى المنبع الاول لمتع الحياة ، أليست هى دليل التحضر وارتفـــاع الانسان عن مستوى الحيوان الاعجم ؟ الا فلنذكر قـــول المفكر الفرنسى العميق جورج ديهامل : « المكاتب العـامة لا تكفى حاجات الناس ، ولذا يمتلك كل منهم ــ مهما كان فقيرا ومهما ضعف استقراره ــ مكتبة صغيرة هى كنـزه الذى يعتز به ٠ فكل انسان يشعر بالحاجة الى أن يجـد فى متناوله وتحت بصره وسائل حياته ، وهو يقنيها لا لان الكتاب هو أخص زينات المنزل ولا لانه ينشر فى الاماكن التى يحليها عبيرا اليفا نافذا من الروحية ، بل لانه يجد فيها ما يركن اليه فى ساعة ضلام أو انحلال أو شك أو فراغ نفسى

ولتتصور ماذا تكون حياتك فى بيت مريح ،ولكنه خال من الكتب ، أنك لن تلبث حينئذ أن تحس بالنفرة وضيق الصدر ٠٠

التفكير المذهبى

هناك نوعان من التفكير المذهبى :تفكير تفسيرى ، واخر انشائى ، فالمؤرخ الذى يحاول تفسير التاريخ وتطوره لفكرة موحدة جامعة ، يفكر تفكيرا مذهبيا ، فيقول مثلا : ان تغير وسائل الانتاج وحلول الالة محل الايدى قد غير من توزيع الطبقات الاجتماعية ونقل عقلية الشعوب ، وهذا هوالتفكير التفسيرى . والسياسى الذى يقول بوجوب فصل السلطات الثلاث : تشريعية وتنفيذية وقضائية ، وتحديد علاقاتها بحيث لا تبغى سلطة على الاخرى ، ويرى فى ذلك ضمانا لصلاح الحكم ، يفكر تفكيرا انشائيا ويدعو الى المذهب الذى يؤمن به ، ولقد كنت دائما شديد الحذر من التفكير المذهبى فى مجال التفسير لما لاحظته من أن المذهب عندئذ لا يمكن أن يفلت من الضيق والتحكم . فالمؤرخ فى مثالنا السابق لا بد متعسف فى عرضه . والناظر الحر التفكير لا يمكن أن ينكر أن تغير وسائل الانتاج ، لم يكن بحال العامل الوحيد فى تطور الانسانية ، فثمة النشاط العقلى وتوليد الافكار وارادة البشر ونزوعهم الى المثل وظهور كبارالقادة، وما الى ذلك مما يعمل فى التاريخ قدر ما تعمل وسائل الانتاج ان لم يفقها ..

(*) نشرت فى ١٩٩٤/١٠/٢١

وأنا على العكس من ذلك شديد الحماسة للتفكير المذهبى فى مجال الانشاء والدعوة ، ولقد زادنى ايمانا بهذا النوع من التفكير ما ألاحظ اليوم من تشتت الاخلاق السياسية والاجتماعية بمصر ، وأخشى أن يكون بالشرق كله تشتت يملأ النفس حزنا ، حتى ليصبح بالقلب أمل أننا قد نستطيع علاج هذا المرض النفسى المدمر واذا حاولنا جمع النفوس حول الافكار المذهبية

وأنا بعد لا أجهل ما فى المذاهب الانشائية بالنسبة لبلادنا من مشقات وأخطار ، فنحن بعد لا زلنا بظاهر الحضارة نقرع أبوابها ، وجانب كبير من حياتنا لا يزال محاكاة لحياة الغرب . وما يستطيع عاقل أن يقول اننا قد وصلنا من النضوج الى حد الاصالة . وموضع الخطر هو أن نحسب أن مذاهب الغرب كما هى صالحة لبلادنا مضمونة النجاح فيها . ثم ان كل تفكير انشائى لا بد مصطدم بالكثير من حقائق الواقع عندما تستجيب له النفوس فتأخذ فى تطبيقه . وهنا تظهر الصعوبات ، اذ ترى النفوس متعصبة لما تؤمن به وشهوة الفكر لا تقل عنفا عن شهوة الحس ، ويأتى الواقع فيستعصى ، واذا بالتنافر فى العمل وتبلبل الحياة العامة

هذه لا ريب صعوبات حقيقية ، ولكننى مع ذلك لا أتردد فى الدعوة الى التفكير المذهبى فى حياتنا العامة ، ومن البين أن بلادنا قد أخذت تتهيأ له فى كافة نواحى نشاطها سياسية واجتماعية وثقافية . وكل ما تحتاج اليه لتخطو الخطوة الاخيرة هو التوجيه القوى من رجال ، وبالاصح شباب ناضج على خلق وكفاية . وأكبر ظنى أننا عما قريب سنمل سخائم الاشخاص وتخبط الشهوات وتحلل الاخلاق ، فترتفع قلوبنا الى مستوى التفكير المذهبى الذى ندعو اليه

وليس من شك فى أن خير المذاهب الانسانية ما نستمده من رغبات النفوس ، فالسياسى الحكيم هو من يتحسس اتجاه مواطنيه ، والشعب بغريزة الحياة يلتمس دائمـــا مخرجا من محنه ،فما علينا الا أن نبصره بذلك المخرج جامعين آماله حول فكرة موحدة ، نستمد منها مبادىء العمـــل • ولا بد لنا من أن نروضه على ما ندعو اليه حتى يستقر بوعيه أن الخير لابد آت مما ارتضاه من نظام ، ولنضرب لذلك مثلا بما فى بلادنا من حياة نيابية وضعنا أســـسها وفقا لخير الدساتير • تلك فكرة لا شك أن الامة مجمعـــة عليها اليوم • ولكنك لو أنعمت النظر لوجدت أن هـــذا الاجماع لم يتغلغل بعد فى ايمان الشعب ولا استقرت فوائده بنفوسهم • ولا أدل على ذلك من انعدام ثقة الامة بالانتخابات ونتائجها • ولعل فى موقف أغلبية الناخبين ــ وبخاصة المثقفين منهم ــ من تلك الانتخابات أكبر دليل على صحة ما نقول • فما لقيت من مستنيرى العقلاء الا أخبرنى أنه لم يشترك فى الانتخابات طول حياته مرة واحدة ، بل ولا يعلم أهو مقيد بجداولها أم لا وتلك حالة تستحق النظر لاننا نخشى أن تدل على أن النظم قد سبقت ايمان الشعب وعقليته • ومن هنا اما يكون من الواجب أن نأخذ الافراد بالقسر فنرغمهم على استعمال هذا الحق بل النهوض بهذا الواجب ، فنجعل التصويت اجباريا كما جعلته أسبانيا عندما كانت حديثة العهد بالنظم النيابية ، والا فما فائدة نظام لا يتمتع بثقة ولا يتعلق بايمان ؟

وأنت لابد ملاحظ هذه الظاهرة فى الحياة الاجتماعية ، ومشكلتنا الكبرى اليوم هى توازن الطبقات الاجتماعيـــة ، ولا يستطيع أحدنا أن يفكر أن بالامة قاطبة نزوعا الى عدالة أتم ومساواة أحكم مما نحن فيه الان • ولكنك تنظر فترى التبلبل فى وسائل ما يحقق هذا النزوع ، وقد أتلفت

الشهوات حقائق الاشياء ، فالخصومات السياسية وبالاصح الخصومات الشخصية قد أوشكت أن تعمى عن الامة الحقائق ونحن فى الواقع أمام ثلاث مشاكل لكل منها حلها الواضح : مشكلة الاستغلال السياسى ، ومشكلة أثرياء الحرب ، ثم مشكلة الظلم الاجتماعى المزمنة المتأصلة ، وتلك الاخيرة هى التى يجب أن يجتمع حولها تفكيرنا المذهبى. أما الظاهرتان الاخريان فعارضتان، ومن حق أمة تحترم نفسها أن تحسمها بالعمل العادل لا بالتلطيخ المزرى . فاذا كان هناك استغلال سياسى قد حدث فأمامنا قضاة ومستشارون لا زالت الامة تأمل فيهم الخير ومن حقها عليهم أن يقولوا فى هذا الاستغلال رأيهم فاما تبرئة واما ادانة ، وفى كلتا الحالتين ستبرأ كرامة هذه الامة البائسة ومن الواجب أن نذكر الجميع بأن الاستغلال السياسى لا يمكن أن يكون السبب الوحيد فى اثراء البعض وافتقار الآخرين فنحن الان فى حرب عالمية طاحنة قد غيرت من كافة وسائل الانتاج والتجارة فى جميع أنحاء العالم وفى جميع أطوار التاريخ فقد صاحبت الحروب دائما أكبر اضطرابات اجتماعية ، وآلاف من الصناع والتجار ، بل والعمال قد أثروا دون أن تكون لهم بهذا العظيم أو ذاك صلة قرابة أو نسب ونحن بعيدون عن أن ندعو الى الرفق بهؤلاء المثرين الذين امتصوا دماء الشعب ، ولكننا ندعو الى اجراءات عامة تتناول الجميع كما فى البلاد المتحضرة بدلا من أن نقف عند شخص أو أشخاص بذاتهم متخذين منهم هدفا لصغائر أحقادنا ، ان من حق هذه الامة أن تحاسب جميع أثرياء الحرب عن ثرواتهم وأن يرد ما اكتسب منها بغير وجه مشروع الى خزانة الدولة . ولا يرهبنا فى شىء أن ننادى بفرض ضريبة مستغرقة على رؤوس الاموال التى جمعت أثناء هذه الحرب ، وأما ما سمعناه من فرض

ضريبة على الارباح الاستثنائية فتلك فى الحق مهـــزلة • الواجب هو أن ترد رؤوس الاموال ذاتها لارباحها الخارقة، ترد من الجميع ، لا من هذا الوجيه أو ذاك فحسب، وذلك أكرم على هذه الامة وأعدل فى النظر الانسانى السليم مما نغرق فيه اليوم من مهاترات • وهاتان المشكلتان بعـــد عارضتان كما قلنا وما ينبغى أن تصرفانا عن المشـــكلة الكبرى ، مشكلة العدالة الاجتماعية بين الطبقات ، فهذه هى الفكرة المذهبية التى لابد للامة من التعلق بهـــا ، وسبيل علاجها أيضا هو التشريع واصلاح نظامنا المـــالى والاخذ فيه بنظام التصاعد ، ومما يحزننا ألا تقتصر مهمتنا الحاضرة على اتلاف سياستنا القومية ، فتصرفنا عن الجهاد فى سبيل استقلال الوطن وتحريره تحريرا صحيحا الى محاربة بعضنا بعضا بـــكافة الســـبل ، وكل من ثارت نخوته سنة ١٩١٩ يعرف اليوم فى حزن أننا جميعـــا على ضلال ، نقول أن محنتنا الحاضرة لا تقتصر على هـــذا التلف القومى المحزن ، بل تمتد أيضا الى حياتنا الاجتماعية فتصرفنا عن التفكير فى مشكلتنا العميقة ، مشكلة العدالة الاجتماعية الى مشكلتى الاستغلال والاثراء العارضـــتين ، وبذلك ننحرف أيضا بتفكيرنا المذهبى عن هدفنا الحقيقى • •

والامر فى حياتنا الثقافية مثله كمثل حياتنا السياسية والاجتماعية سواء بسواء فمن الناس نفر كثـــير لا يزال يزج بالنعرات القومية والدينية فى مجال الثقافة ليتلف علينا حياتنا عن جهل فتسمع مقابلات عجيبة بين روحية الشرق ومادية الغرب ، كأن الغرب لا روح فيه والشرق لا مادة به • والمشكلة الحقيقية ليست مشكلة ثقـــافة الشرق وثقافة الغرب ، وانما هى مشـــكلة الثقافة أو الجهل • وهذه أيضا فكرة مذهبية يجب أن يستقر عندها

ضمير الامة ، حتى تستقيم لنا الحياة . هنالك ثقافة انسانية موحدة نشأت فى الشرق ، ثم انتقلت الى الغرب الذى احتضنها دون أن يستنكف من صدورها عن غيره • ثم نأتى اليوم نحن الحمقى فنحاول جدلا عميقا فى وجوب استردادها منه أو رفضها • ومن عجب أن ترانا جميعا آخذين فى هذا الاسترداد بالفعل ، ومع ذلك نجادل فى هل نحن على حق أو باطل ،ان كنا على باطل فلنتخل اذن عن جميع مظاهر الحياة المادية التى تحيطنا من جميع النواحى، فكلها غربية ، بل لنتخل عن مدارسنا وجامعاتنا ومناهج بحثنا ، ولنرجع الى « الكتاب » والحفظ عن ظهر قلب ولنستمر فى « العنقلة » ومناقشة الالفاظ كما عهدها الازهر قديما • وفى هذا المجال أيضا تعمل أمراض النفوس ومركباتها المختلفة أسوأ العمل ، فالجاهلون بلغات الغرب يرون أنفسهم محرومين من وسائل التحصيل ، واذا بالعجز يرتدى فى نفوسهم أزهى الاثواب ، فيناهضون ثقافة الغرب زاعمين أنها مخالفة لروحنا مدمرة لاصالتنا، وهم مع ذلك لا يتعففون عن أن يأخذوا بما يصل اليهم من فتاتها ••

***

لقد حان الحين لان يستقيم تفكيرنا على أساس مذهبى، يرتفع بقلوبنا عن حزازات الاشخاص ومهاترات الشوارع• لقد حان الحين لان يلقى النفر المثقف منا ثقافة حقيقية بنفسه الى المعركة فبئس مواطن يستحوذ على قلبه اليأس• بئس مواطن يغطى يأسه بتعال حقير • الوطن ملك لنا جميعا كما كان ملكا لابائنا وكما سيكون ملكا لابنائنا ، ومصائره اليوم معلقة فى الخارج وفى الداخل وأهول ما نخشاه أن ننصرف عن أهدافنا الحقيقية الى صغائر الامور ••

العقلية المصرية

لست ممن يركنون الى اليأس ، أو يدعون الى التثبيط وبودى لو نفثت فى كل قلب ايمانا بالنفس وامـــلا فى الحياة حتى أرى جميع مواطنينا كالكرات من المطاط ، كلما زدتها صدما ازدادت قفزا ، ولكنى مع ذلك عودت قرائى الصراحة فى علاج مشاكلنا ، ولقيت دائما ممـــن حظيت برأيهم تأييدا حارا صادقا • ثم انى أؤمن بأنـه لا خير فى التعامى عن الواقع ، بل لا خير فى انكاره ، لان انكاره لن يمحوه • وها أنا اليوم أعالج أخص ما نملك كأمة ، وهو العقلية المصرية ولى فى تلك العقلية رأى ثابت استخلصته من احتكاكى الطويل بعقليات الشعوب المختلفة وبخاصة الشعوب الغربية • وسأبسط هذا الرأى ثم أحاول تفسيره لنستنبط ما نستطيع من علاج • كنت أنا وزملائى من المصريين نتلقى العلم سنينا طويلة بالجامعات الاوروبية مع طلبة من كافة الاجنـــــاس ، ولاحظت أن الكثيرين منا كانوا يتفوقون على اخوانهم فى الدرس تفوقا واضحا • ثم عدت وعاد زملائى • فاذا بالقليل منا من يوفق الى اكتشاف جديد فى ميدان المعرفة ، بل الى تجديد فكرة معروفة أو تعميقها ، وعلى العكس من ذلك نسمع أن

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١١/٦

الزميل الفرنسي ، أو ذاك الانجليزى قد اهتدى الى نظرية غير معروفة او كشف الحجاب عن مجهول فى مجال المادة أو مجال الانسان • وأنعمت النظر فى هذا التنـــاقض الواضح فاستقر بنفسي أن العقلية المصرية سلبية قابلة ، بينما عقلية الغربيين ايجابية فعالة • فنحن نستطيع أن نحصل ما يلقى الينا ، ولسنا بلا ريب دون أحد فى قوة الذاكرة ولكننا لا نكاد نتخطى دور التقبل والتحصيل حتى يتبلد حمارنا ، ولقد ينجح بعضنا فى الجدل ولكن مجهوده قلما يعدو فك الافكار الاساسية كما تفك النقود الى وحدات من البرونز ، ولا يقف تأثير تلك العقلية القابلة عند ميدان المعرفة ، بل يمتد الى الحياة العملية ذاتهـــا ، فتـــرى الكثيرين منا حتى المثقفين ضيقى الحيلة سيئى التصرف ، قليلى الاعتماد على النفس والسير على أقدامهم • أو الاهتداء الى السبيل السوى عندما يضطرب حبل الامور وتشتد المواقف ••

هذه الظاهرة لا أظن هناك ما هو أخطر منها فى حياتنا، ولابد من أن نلقى عليها من الضوء ما يظهر مواضع الخلل فى بنائها

لعل من اكبر الاسباب التى كيفت العقلية المصرية على النحو الذى ذكرنا تلك الحقيقة الواضحة ، وهى أنه قد يكون عندنا تعليم ، ولكن مما لا شك فيه أنه ليست لدينا ثقافة ، حتى لقد استطعنا فى احدى المقالات السابقة أن نتحدث عن أمية المتعلمين ، والتعليم شيء والثقافة شيء آخر ، وان كان من الممكن أن يصبح التعليم اذا أقيم على مناهج سليمة ونهض به أساتذة أكفاء ، وسيلة من وسائل التثقيف • التعليم كما نلاحظ عندنا تلقين للمعارف ، وأما الثقافة فتكوين للملكات ، وهذا مالا وجود له بينناتقريبا،

وفى الغرب نستطيع أن نقول أن عملية التثقيف تبدأ مع الميلاد ، وهذا هو ما يعبر عنه المفكرون ان خلف الاوروبيين قرونا من الثقافة يتوارثونها ابنا عن أب . وهذا قول لا يخلو من تجاوز ، ومع ذلك فهو صحيح ولفهمه يلجأ بعض المفكرين الى البحث فى تأثير النشاط الثقافى على مراكزنا العصبية ، وتوارث تلك المراكز مشكلة معقدة ولكن هذا بحث نتركه لانه فى نظرنا لا يقل غموضا ومجازفة عن البحث فيما وراء الطبيعة ، وانما نقف على العكس من ذلك عند أمرين : اللغة ، وطريقة الحياة . فالطفل الاوروبى يحصل بتحصيله لغته اليومية طائفة كبيرة من المعارف التى تملأ سوق الحياة ، وهو يحس بأثر تلك المعلومات الفعالة ، فى كل أموره ويخبر صدقها عن تجربة ، فيتمثلها تمثل الهضم ، واذا بها جزء من تكوينه العقلى وهو يسير فى حياته على طريقة لا تخلو ، مهما بلغت من البوهيمية ، من منهج وغاية . وتنظيم تلك الحياة المادية ذاته فيه ما يرفع عن كاهله الكثير من تفاصيلها حتى ليتكلف أقل الجهد فى اعداد ما يحتاجه من طعام أو كساء وليس من شك فى أنه كلما تخلصنا من تلك التفاصيل وأنزلناها منزلة الالية تحرر الكثير من وقتنا لنصرفه فى النشاط العقلى ، وبخاصة القراءة ، فالام فى بيتها والاب فى عمله يجد كل منهما متسعا لتغذية تفكيره ، واذا بجو المنزل تغمره الثقافة التى تنفذ الى عقل الطفل ان لم تنفذ الى خلاياه

ولقد ناقشنا باحدى الصحف مشكلة الاخلاق ، فرأينا أن التربية لن تجدى فى علاجها قدر ما يجدى اصلاح النظم التى تمكن الفرد من أن يصل الى حقه ويدفع عن نفسه العدوان بوسيلة كريمة غير الرجاء الذى تفشى فى بلادنا كالوباء ، وباستطاعتى اليوم أن أجد فى نفس هـــذا

الاصلاح علاجا للعقلية المصرية • وليس بخاف أن العلاقة متينة بين العلم والخلق ، وقديما قال احد المفكرين ان علما بلا خلق خراب للنفس ، وفى الحق ماذا يستطيع فى مجال العلم رجل لا يملك حتى الثقة بنفسه والاعتـــزاز بكرامته • وعندما تضطرب النفس وتتقاذفها الالام كيف تريدها أن تصبر على كشف مجهول او متابعة حقيقة أو استقصاء رأى •• نعم ان العلماء فى كافة بقاع الارض لا تأخذ نفوسهم شهوة المادة ، وتعلقهم الاول انما هو بجوهر الفكر الخالد ، ولكن هذا لم يمنع الهيئات الاجتماعية التى يعيشون بينها من أن توفر لهم أسباب الحياة ، وتمكنهم من وسائل البحث • أما نحن فمتى وضعنا معملا تحت تصرف عالم ، أو رزقا ضروريا فى متناول أديب • وهبنا أبدينا استعدادا لان نفعل ذلك فكيف السبيل لهـــذا العالم ، أو ذاك الاديب أن يظهر مواهبه في بلاد بلغ فيها التفاوت فى الثراء مبلغا عض معه الفقر ملايينا من البشر الذين لا يمكن أن نعدم ـ لو واتتهم الفرص ـ أن نعثر بينهم على نفر ولو قليل ممن حباهم الله مواهب النفس

اذن فعدم تهيؤ الجو الثقافى الصحيح فى منازلنا ودور تعليمنا من جهة وفساد نظمنا الاجتماعية والاقتصادية من جهة أخرى عاملان كبيران فى تكييف العقلية المصرية • ولربما كان هذا هو السبب فى أن الكثيرين ممن يعودون من أوربا من شبابنا لا يلبثون قليلا قليلا أن يخمد ضغط الوسط ما فيهم من حماسة ويثبط ما فى قلوبهم من عزم بحيث لا نستبعد لو أن احدهم باشر حياته العملية فى أوروبا لحقق نجاحا أكبر مما يستطيعه هنا ، وان كنت لا أنكر أن نفرا غير قليل منهم لم ينزحوا الى الغرب الا بعد أن أخذوا طابعا شبه نهائى ، وكانت أمزجتهم من الصلابة

بحيث لم يستطع ملابسة الوسط الجديد والتشبع بثقافته وطرق حياته فلم تجد فيهم رحلة ولا أجدى أغتراب ..

والان كيف السبيل الى علاج تلك الظاهرة . وهنا قد يصيح بى صائح ، ولكن السبيل واضح تستطيع أن تجده فى ما أسلفت من قول ، فما عليك أو علينا الا أن نصلح نظامنا ، وأن نهيء ما تريد ونريد من جو ثقافى فى منازلنا ودور علمنا ، ولكن هذا الصائح لن يلبث ان يوقعنا فى دوارة فمن لى ولكم بانجاز ذلك ، ولا يبدو الامر هينا الا فى الكتابة ؟ هذه اصلاحات لابد أن يسوق اليها رأى عام قوى وهذا الرأى لن يتكون الا باستنارة العقول . والسبيل الى تلك الاستنارة هو أن نسكت فى نفوسنا النعرات الباطلة والا نستنكف فى الاخذ عمن سبقونا فى الحضارة وألا نمل تكرار ما نأخذه عنهم ، حتى يستقر فى النفوس وينزل منها منزلة الايمان ، فعندئذ يصبح الفكر عملا ، واذا بعقليتنا السلبية القابلة تستحيل ايجابية فعالة . فاليوم الذى نؤمن فيه أن لكل فرد حقا يجب أن يناله بغير رجاء ، فان لم ينله حكم له به قضاء عادل ، واليوم الذى نؤمن فيه بأن لكل فرد أن يستغل ملكاته ، وأن يمكن من وسائل ذلك الاستغلال ، وأن جهده لابد أن يقوته على نحو جدير بمستوى الانسانية ، واليوم الذى نؤمن فيه بأن للفكر الانسانى كرامة لا تدانيها كرامة المال حتى تقر الهيئة الاجتماعية لرجاله بما يستحقون من وجاهة وتقدير هو اليوم الذى سيعتز فيه المصرى بألا تكون عقليته سلبية قابلة ، بل ايجابية فعالة

قـادة الفـكر

منذ القدم والمستنيرون من الناس يقتتلون حول قادة الفكر ، فمنهم من يدعونهم الى الكفاح مع مواطنيهم عندما يدعو داعى الوطـــن ، ومنهم من يود لو نأى بهم عن كل ضجة فانية ليتوفروا على خلق الافكار الباقية ،وصياغة المشاعر التى تتغذى بها الاجيال فى كل زمان ومكان. وتلك قضية تستحق النظر ٠ فمما لاشك فيه ان الكاتب ـ وبخاصة اذا كان انفعالى الطبع ـ لا يملك فى بعض الاحيان ان يدفع احساسه بالمسئولية ، فكلما رأى فسادا من حوله أو أحس ظلما يقع على الناس أو جراحا تصيب وطنه ثارت نفسه ، وكأن سكوته تأمين على ما يرى ان لم يكن مشاركة فيه . ولقد يتساءل الناس من حوله عن سر حماستـــه لهذه الفكرة أو تلك دون أن يحظوا برد يقنع العاديين منهم لان الرد الوحيد هو طبيعة الكاتب وحرارة قلبه

وموضع التدبر هو ان نتساءل عما يستطيع الكاتب عندئذ أن يكتب دون أن يصيب كتابته الفناء ،وليس أشق على نفس الكاتب من أن يحس بأن جهده سيتبدد أنفاسا أنفاسا ، وان كل ما يخط لن يخلف أثرا لانه وليد ملابسات يومية لن تلبث أن تتغير فتفقد كتابته قيمتها . ولكن هذا

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١١/٢٠

قول ليس صحيحا على الاطلاق فالى اليوم لازلت اقـرا خطب ديموستين الزعيم الاغريقى الخالد يوم كان يكافح فيليب المقدونى ويدعو مواطنيه الى مكافحته دون ان يثنيه عن ذلك حتى اليقين بأنه ومواطنيه سـائرون الى الهزيمة مؤمنا بأن الجهاد غاية نبيلة فى ذاتها ، وانه من الخير أن تموت وسلاحك بيـدك عن أن تنفق من فرق الجبان • ولا زلت أقرأ لروبسبير وهو يناهض ما صاحب الثورة الفرنسية الكبيرة من انحلال فى الخلق وتقلب فى العقائد وتيقظ فى الشهوات واستحصاد للضغائن العمياء.
ويدعو الى أن يكون الطموح عملا على اسـتحقاق المجد وتقدير الشعب ، أقول اننى لازلت أقرأ الخطيب الاغريقى او للخطيب الفرنسى فلا استطيع أن اقول مع القائلين ان الكتابات التى تولدها ظروف خاصة سيصيبها الفنـاء • فكل كتابة تستطيع أن تخلد بما تحمله من عناصر انسانية ثابتة ، والانسان هو الانسان فى كافة عصوره . وسيظل أبد السنين يهتز لمعانى الكرم النفسى

هذه اذن قضية الحق فيها واضح ، ولكن ثمة قضية اخرى اشق منها علاجا وهى : أيهما أجـدى على قادة الفكر ، أن يتوفروا على فهم الانسان وشـق الحجب عن أسراره النفسية ام ينصرفوا الى توجيهه وقيادته . وهنا قد يبدو التعارض واضحا ، ولكنه فى الحق تعـارض سطحى . وكبار الكتاب يجمعون دائما بين الامرين دون أن يقصدوا الى أيهما . ففهمك للانسان وتبصيرك اياه بحقائقه الغامضة فيه خير توجيه له . وانه لمن الحمق أن يظن أشباه الاميين أن باستطاعتهم أن يخلقوا أمـة أو يوجهوا رأيا توجيها ثابتا بالالفاظ الخطابية الرنانة او بالجمل المرصعة الجوفاء ، فهذه حماقات موقوته التأثير واما الاثر الباقى ما تستمده من حقائق النفس لترده اليها.

ولكم من مرة يكون من واجبك اذا أردت ان ترفع قلبا أو تحث عزما أن تسلم له بادىء الامر بحقه فى أن ييتئس أو يتوانى عزمه . ولكم من مرة يكون فى هذا التسليم ذاته أكبر ناهض بالنفوس ، واما المكابرة واما التنكر لحقائق النفس البشرية ومحاولة أخذها بالضجيج فذلك تفكير عقيم ..

واذن فمشكلة الفهم أو التوجيه هى الاخرى محلولة فى أعماقها ولعل فى تحديد العلاقة بين رجال الفكر وبين رجال السياسة ثم بين رجال الفكر وبين بيئاتهم مشكلات أشق من السابقين

بعض رجال السياسة ليسوا من قادة الفكر ومنهم من لا يكاد يقرأ كتابا ، وتلك لاريب آفة شديدة الاثر على الحياة العامة ، وقديما رأى افلاطون ان يقود الفلاسفة المدينة . وقادة الفكر بدورهم ليسوا جميعا ممن يطيقون مجابهة الجماهير وخوض المعارك السياسية ومن هنا تنشأ طائفة من السياسيين لا علاقة لها بالفكر وطائفة من المفكرين لا صلة لها بالسياسة ، ومن عجيب الامر ان ترى فى التاريخ مفكرين سياسيين جاء تفكيرهم تقديريا بحتا بحيث لم يدعوا الى عمل ولا نادوا بتغيير ، ولعل من أوضح الامثلة على ذلك كارل ماركس الذى يتخذه الاشتراكيون اليوم زعيما لهم ، فقد كان الرجل مؤرخا عالما لا سياسيا عاملا ، وهو لم يناد بتحقيق مذهب وانما درس الماضى وتنبأ بأن تصيب العالم فى يوم من الايام أزمة اقتصادية تقضى طبيعتها ألا يكون لها حل غير الاشتراكية ، ومع ذلك كم من السياسيين استطاعوا أن يتخذوا من مبادئه التقديرية دعوة الى الثورة ومبادىء للعمل الايجابى — ولقد يتفق أحيانا أن يقول مفكر بنظرية من النظريات فى بلد ما ، ثم لا تطبق الا فى بلد آخر ، ولعل أوضح مثل لذلك

مونتسكيو الفرنسي ونظريته في فصل السلطات ، ففرنسا لم تطبق هذه النظرية على نحو دقيق وانما طبقتها أمريكا • والامر في العلاقة بين رجال الفكر ورجال السياسة عندئذ شديد الشبه بالعلاقة بين رجال العلم ورجال الصناعة • فالعلماء يكشفون عن قوانين المادة التي تمكن من تسخيرها للانسان ويصوغون قوانينهم معادلات جبرية ، ويأتي رجال الصناعة فيستغلون تلك القوانين والمعادلات في الانتـــاج الاقتصادي والاثراء به ، ولكن الوضع بين العلماء والصناع قد يكون مقبولا على نحو ما هو الان ، بينما هو بين المفكرين والسياسيين محفوف بأشد المخاطر على ســـــلامة الامم واستقامة الحكم فيها ، ولقد تعقدت أمور الحياة العامة في العصر الحديث بحيث لم يعد كافيا لقيادة الأمم أن تكون وطنيا مخلصا أو ذا وجاهة اجتماعية ، بل لا بد لك من ثقافة عامة شاملة حتى تعالج الامور على نحو ســـديد

وعندما يصبح السياسيون من قادة الفكر ستتحدد العلاقة بينهم وبين بيئاتهم فالرجل المفكر في وسطه مهمتان : أولاهما أن يبصر قومه بحالتهم الحقيقية ، حتى يعوا ما هم فيه من شقاء وتخلف ، وذوو النظر مجمعون على أن البؤس ذاته لا يحرك الشعوب ، وانما يحركها أن تفطن الى ما هي فيه من بؤس • ولعل في حالة الفلاح المصري أوضح دليل على ما نقول ، ومهمته الثانية هي أن يسبق الامم الى آمالهـــا الغامضة ، ومن هنا ترى أغلبية الكتاب المفكرين من الداعين الى الافكار المتقدمة ، فهم رسل الرجاء • وهذا هو السر في أنهم يعيشون دائما في كفـــاح مع بيئاتهم وكثير منهم لا يستجاب لندائه الا بعد موته بسنين ••

شعب مصر

لاقيت هذا الاسبوع ثلاثة من مفكرينا : احدهم وجها لوجه ، وبيدى مقال استعرض فيه ما نشكوه من مظاهر الانهيار الاخلاقى ، والتمس علاجا لهذا الانهيار فى اصلاح نظمنا السياسية والاجتماعية ، علما منى بأن التربيـة وبث مبادىء الاخلاق فى النفوس لا تكفى وحدها لتقويم النقص . ولقد أخذ محدثى على المقال مافيه من قسوة، وعنده أنه من الخطر أن نجسم للشعب مواضع ضعفه ؛ لان ذلك التجسيم قد يزيده ضعفا ، وانه لأجـدى على هذه الامة أن نحاول رد الثقة اليها ، حتى ولو لم تكن تلك الثقة على أساس سليم ، واما فضح العيـوب ، فذلك مالا ينبغى . واضاف ، وهو من ذوى الامر ، انه كثيرا ما يتجاهل مواضع الضعف الاخلاقى فيمن يعملون معه ، ويردهم الى الاخلاق ، كأنه يستمدها من نفوسهم ذاتها، فاذا نقل اليه احدهم قيلة سوء ، فسرها على انها قيلة خير ، محاولا حمله على أن يكون الى الخير قصده،وعنده أن ذلك أجدى فى معالجة النفوس من هتك ضعفهـا وأخذها بالقسوة

ساقنى هذا الحديث الى النظر فى الحكم على الشعب

(*) نشرت فى ١٩٤٤/١٢/٤

المصرى ووجوب مواجهته بالحقائق أو سترها عنه، واتفق ان قرأت فى هذا الاسبوع كتابين لمؤرخين من رجالنا ، فلاقيتهما على صفحات ماكتبا ، ولمست عند كل منهما اتجاها فى الحكم على الشعب المصرى يغاير اتجاه الآخر، فأما أولهما ، قد استلفت نظرى حكمه فى بعض مواقفــه التاريخية ، حكما لا يخلو من صرامة ، حتى لقد وقع فى نفسى موقع السـيف ، وخشيت أن يكون صـحيحا ، ولاضرب لذلك مثلين : الاول تفسيره لاستقرار الحكم وازدهار المدنية أيام الظاهر بيبرس وغيره من المماليك ، برغم ما كان فى حكمهم من شدة وعسف بقوله تفسـيرا لخضوع المصريين وعدم ثورتهم للحرية : « ان ثمـن الحرية ـ كما يقول الانجليز ـ هو الكدح والدأب والمراقبة ولما كانوا (اى المصريون) يكرهون النصب اكثر ممـا يحبون الحرية ، فقد عاشوا يستبد بامرهم كل ذى همة وعزيمة » ، ومن قوله : « انهم يكرهون النصب اكثر مما يحبون الحرية » ما يملأ النفس رهبة ، فتود لو لم يكن حقيقة . وفى موضع آخر يفسر نفس الكاتب سـخط الشعب المصرى على الفرنسيين وثورتهم ضدهم أيام الحملة الفرنسية ، بمجرد حرصهم على ما ألفوه .. فقــد رأوهم يقلقون عاداتهم ويزعزعون أساليب حياتهم الموروثة، فيكرهونهم على نوع من الحياة لم يألفوه ، فى مقاومـة الامراض وتنظيف الشوارع ، وما الى ذلك ، فثاروا بهم، وهذه أيضا قسوة فى الحكم ، كأن الكاتب لم يشـأ ان ينسب اليهم ما نستشعره نحن اليوم من عاطفة وطنية ، أو تعلق بحرية وذود عن استقلال . وهذا منهج قـد تمليه الروح العلمية التى تلزم المؤرخ بأن يحكم بعقليـة من يكتب عنهم ، لا بعقليته هو ، ولكننى مـع ذلك اخشى أن يكون مؤرخنا قد أسرف فى القسوة وأساء الى نفسه،

هل من الحكمة ، بل هل من العدل ، أن نحكم على الشعب المصرى أحكاما كهذه ؟ ، ونحن فى مجال التاريخ نحرص على الحقيقة أكبر حرص، ولكن ما هى الحقيقة التاريخية ؟ فى كل تاريخ نوعان من الحقائق : وقائع، وتفسير لتلك الوقائع ، فأما الاولى ، فمن الواجب الوصول اليها بجمع الوثائق ونقدها ، على العكس من ذلك تفسير تلك الوقائع، فهذا مالا تحمله الوثائق ، وانما يصل اليه المؤرخ باستنتاجه الخاص ، وهنا يكون تفاوت المؤرخين وتدخل شخصياتهم بحيث ان نناقش احكامهم دون أن يكون فى مناقشتنا خروج على المنهج العلمى السليم

وباستطاعتنا أن نناقش المؤرخ السابق بآراء الكاتب الآخر الذى لاقيناه يتحدث عن زعيم مصرى تركزت فيه يوما نزعات شعبنا ، وهو السيد عمر مكرم . فمؤرخنا شديد الحماسة لتطلع هذا الشعب الى الحرية منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وهو يرى ظهور السيد عمر مكرم كان استمرارا وخاتمة لمحاولات عديدة قام بها زعماء الشعب المصرى الصميم للمساهمة فى الحكم ، وحمل الباب العالى على تعيين من يرتضونه واليا على مصر وعنده أن سنة ١٨٠٧ هى التى وضعت حدا لتلك النزعة الشعبية، وذلك لان محمد على ، وان كان قد وصل الى الحكم بموجة شعبية قوية قادها السيد عمر مكرم ، الا أنه لسوء الحظ رفض عرض السيد عمر مكرم فى تلك السنة مساهمته هو والشعب المصرى فى عونه على رد الانجليز عن رشيد . والرأى عند مؤرخنا أن هذا الرفض قد أثر فى تربية الشعب السياسية ، وباعد بينه وبين الاهتمام بأمور الدولة والمشاركة فيها نحوا من خمسة وسبعين عاما ،

أى من سنة ١٨٠٧ الى ثورة عرابى ، وهنا أيضا لا ندرى الى أى حد قد بلغ عطف المؤلف على الشعب المصرى ، والى أى مدى قادته الرغبة فى تمجيده ؟!

ويقف المرء حائرا ... أى وجهة يوليها فى حديثه عن هذا الشعب الذى نبغى كلنا خيره ؟ هل نمس فى رفق عيوبه ، ونواريها عنه الا بمقدار ، ليظل محتفظا بثقتــه بنفسه ؟ أم نشق عنها الحجب ، ونلقى الضوء كاملا لعله يثيب ؟ واذا عالجنا ماضيه ، هل نقسو فى الحكم ، أم نلين؟ وهل نحابيه أم نزجره ؟

واذا لم يكن بد من ان نفصل فى هــــذه الاتجاهات العويصة ، وجب ــ فيما أظن ــ ان نفرق بين الحاضر والماضى ، فأما الحاضر ، فالحكمة فى أن نحدو فيه البصر حتى لا يأخذنا غرور مميت ــ وباستطاعتنا ان نتجنب الخطر بالا نقف عند تصوير العيوب ، بل نلتمس لهــــا العلاج . وليس من شك فى انك لن تستطيع حمل النفوس على قبول جديد وتغيير قديم ما لم تبصرهم بما فى هــــذا القديم من عيب . والامم لا يمكن أن ترقى مالم يشتد بها النقــد ، وفيم الرغبة فى التغيـــير اذا لم يؤمـــن الناس بضرورته ؟

وأما عن الماضى فلعلنا نكون اقرب الى الروح العلمية الصحيحة كلما كانت نظرتنا أكثر عمقا وأكبر اتساعا. وآفة الاحكام فى تفسير الظواهر كثيرا ما تأتى من التعميم، فالمصريون مثلا اذا كانوا يكرهون النصب ويؤثرون السلامة أكثر مما يحبون الحرية ، فان ذلك لم يمنعهم عنـــــدما يشتد بهم الاستبداد من أن يغامروا بسلامتهم مؤثرين الحرية على كراهة النصب . وفى حركاتهم الثورية أيام الحملة الفرنسية وعرابى ودنشواى وسنة ١٩١٩ أدلة

على صدق ذلك . وهم اذا كانوا بفطرتهم محافظين يكرهون الخروج على ما ألفوهفيثورون ، الا أنه قد لا يخلو من ظلم أن نرد حركتهم كلها الى هذا الباعث ، فهم اذا كانوا لم يتحركوا لفكرة الاستقلال الوطنى بحكم تبعيتهم المتصلة للدولة العثمانية وعدم نشوءفكرة الانفصال عندهم اذ ذاك ، الا أن الشعور الدينى مثلا كان لاريب من الحوافز التى يجب أن تضاف الى نزوعهم الى المحافظة على ما ألفوه . وها هو ذا الجبرتى نفسه يحمد اللهان سخر طائفة من النصارى(الانجليز)لطرد طائفة أخرى(الفرنسيين) من أرض الوطن . وهل من شك فى أن الدافع الدينى كان من محركات سليمان الحلبى مثلا فى قتله كليبر .ثم هل من الحق أو من الحكمة ان نجعل من الشعور الوطنى عاطفة تنهض بذاتها منفصلةعن مصالح الافرادالذين يكونون الوطن ؟ ونحن ممن يعتقدون أن الوطنية ليست شعورا بذاته ، وانما هى مجموعة من المشاعر يستند الكثير منها الى مصالح الناس ووسائل حياتهم ، ولهذا لن نمل تكرار القول بأن الوطنية الحقة لن تملأ نفوس المواطنين الا اذا أحس كل منهم انه عزيز فى وطنه ، ميسور الرزق فى كرامة ، متمتع بحياة تليق بالانسان . وانما يظهر انفصال الشعور الوطنى عن غيره من المشاعر والمصالح عندما يحدث التعارض ، وهنا يكون للمؤرخ الحق فى أن يقسو فى أحكامه أو يلين ..

ونجمل الرأى بأن الخير هو دائما فى اتساع النظرة سواء نظرنا فى الحاضر أو فى الماضى ، فأى أمة لايخلو ماضيها أو حاضرها من مواضع ضعف ومواضع قوة ؟ ومن الواجب ابراز الجميع ليكون فى اظهار الضعف حافز للكمال ، وفى اظهار القوة داع للثقة

الثقافة والأخلاق

هذه مشكلة ما زالت تلح على عقلى منذ أخذت أفكر لنفسى ، ولقد كنت ولا أزال احس ان حلها ضرورة من ضرورات الحياة ، لانها تفسر الكثير من مواقفنا ازاء الناس فالحديث فيها ليس مجرد رياضة عقلية نلهو بها ونلهى القارىء ــ وهذا نوع من الحديث تنفر عنه نفسى بطبيعتها وما أرى فيه نفعا لاحد ــ فمهمة الكاتب لا ينبغى أن تكون الافحام بالجدل ، بل الاقتناع بالقلب ، ولن تصل الى اقناع الا اذا اكتفيت بأن تفرض تجاربك النفسيه داعيا الغير الى مثلها

أول ما اثار تلك المشكلة فى نفسى هو ما قرأته فى صدر الشباب « لافلاطون » ، اذ يعرض نظرية سقراط فى اسس الاخلاق ، ومن المعلوم أن هذا الفيلسوف الجليل كان يرى أن المعرفة هى عماد الخلق وقد زعم انك لا تستطيع أن ترتكب الشر اذا ادركت انه شر ، وانك لابد آت الخير اذا تحققته بنظرك . ولقد ابهج خيالى هذا الرأى ، ولكننى كنت أنظر فأرى نفسى وارى غيرى يدرك الخير والشر ، ثم لا نملك انفسنا من الاندفاع فى أعقاب الهوى فيشاورنى الشك . ووقع بين يدى يوما قول فيلسوف

(*) نشرت فى ١٨/١٢/١٩٤٤

فرنسى معاصر هو بول جانييه يقول فيه : « ان الانسان بطبيعته يفضل الخير المحسوس على الخير المدرك » • ولما كانت شهوات النفس أدنى الى الحس منها الى الادراك المجرد فقد كان من الطبيعى ان تستأثر بالنفس ما دام هدفنا الاخير من الحياة هو التماس السعادة بتحقيق اكبر قسط مستطاع من رغباتنا ، وليس من شك فى أننا نحس أن خيرنا فى هذا التحقيق • وذلك رأى يبلبل الفكر ، ولكنك لن تعدم السبيل لرده اذا تعمقت الامور ، فانه وان يكن من الصحيح اننا نفضل الخير المحسوس على الخير المدرك، الا اننا لن نعجز عن تغليب الخير الاخلاقى اذا انزلناه هو الاخر منزلة الخير المحس • وذلك بألا نكتفى بتحقيقه بالنظر المجرد بل نتعمق به الى مجال الاحساس فندرك بقلوبنا ما فيه من جمال • وجماله تلحظه فى صفات ثلاث يورثها النفس وهى : الحرية والقوة والمرح • فأما الحرية، فأى نشوة يستشعرها الفرد عندما يحس أنه لم يعد عبدا لشهواته ، وأما القوة ، فهل نحن بحاجة الى أن نبصر القارىء بعظمة النفس البشرية عندما تنطلق بقوتها كاملة لا يحدها نفع حقير تحرص عليه ، أو رغبة وضيعة تبغى تحقيقها ؟ وعندما تحس بنفسك حرة قوية أى مرح سيأخذ بالروح عندئذ ؟ ثم هل هناك ما ينشط ملكات الخلق فى الفرد مثلما ينشطها المرح الروحى ؟ واى سعادة فى الحياة تعدل سعادة الخلق ؟

هكذا نستطيع أن نجد حلا للجزئية التى عرضنا لها ، ولكن المشكلة لا تزال قائمة فى عمومها • ولقد لاحظ الكاتب الفرنسى « ديهامل » أن من الكتاب والفنانين من وهبوا ملكات ساحرة دون أن يمنعهم ذلك من انحلال الاخلاق • ولقد قسا بهم الرجل فشبههم بالعاهرات يلهو

الناس بأجسامهن ثم لا يمنعهم ذلك من احتقـــــارهن ·
ولابد لتفسير هذه الظاهرة من أن تفرق بين ثقافة النفس وملكة الخلق ، وليس من الضرورى للاديب ، أو الفنان الخالق ، أن يكون رجلا مثقفا ، بل من الناس من يرى أن ثقل الثقافة قد يعوق الخلق ، وباستطاعتك ان تعرض اسماء الكثيرين من كبار الكتاب أمثال : شكسبير وموليير وروسو وديكنز وبلزاك وفاليرى ، ممن لم يتلقوا تعليما جامعيا منظما ، وانما هم رجال وهبوا القدرة على الخلق ثم جدوا فحصلوا بقرائتهم مواد أولية يعملون فيها ملكاتهم وليس هذا هو المقصود بالثقافة ، وانما الثقـــــافة بأدق معانيها هى تكوين نظام عقلى وغرس روح علميــــــة فى النفس ، وهذا النظام وتلك الروح لا ينموان بالتحصيل أو بجمع المواد الاولية بل هما راسبان يتخلفان بالنفس بعد أن ننسى ما حصلنا وما جمعنا · وعلى هذا النحو نستطيع أن نحل هذا الجزء الاخر من المشكلة ، فنميل الى الاعتقاد بأن ثقافة النفس خليقة بأن تسدد الخلق

ولكن كيف تسدد الثقافة الخلق ؟ وللجواب على ذلك يجب ان نميز بين المعرفة والثقافة : فالمعرفة التى تنحصر فى تحصيل المعلومات لا نظن أن لها تأثيرا ما على الاخلاق، والا فأى أثر تريد أن يكون لعلم بقانون الجـــاذبية وبأن نابليون قد انتصر فى موقعة اوسترلتز أو ما شابه ذلك على ســـلوكك الخــــلقى · وعلى العـكس من ذلــك الثقـــــافة بالمعنى الذى حـــددناه ، فاذا وصــــلت بفضلها الى نظام عقلى وروح علمية ، نمت بنفسك قدرة على تمييز الحقيقة ، ثم محبتها ، وعندئذ ستحـــــس بالحرية الروحية وقوة النفس ، ومرح العقل ، التى ركزنا فيها جمال الخير · ولى على هذا شاهد فى أستاذ تلقيت

عنه العلم هو ، المرحوم الاستاذ أحمد أمين ، وكان رجلا دؤوبا على القراءة واطالة التفكير فيما يقرأ حتى لاحسبه لطول ما قرأ وفكر قد وصل الى ما وصفت من نظام عقلى وروح علمية ، وأكبر ظنى ان هذا النظام وتلك الروح قد أصبحا لديه أساس سماحته الاخلاقية ، وكان من قلائل الناس الذين يسلمون لكل فرد بما ينبغى أن يكون له من كبرياء ، دون أن يلقى هذا الكبرياء على نفوسهم أى شبح من ظلال . أى جمال تحس فى النفس عندما تلوح لك خالية من عتمة الحسد ؟ قديما قال المفكرون : « ان قليلا من العلم يبعد بنا عن الله ولكن كثيرة يعود بنا اليه »

ونترك العلاقة بين الثقافة والاخلاق فى حياة الفرد لنواجهها فى حياة الامة ، وهنا تبدو لنا ظاهرة كبيرة لابد من تفسيرها وهى ما نلاحظه فى التاريخ من أن جميع الامم قد انتهى بها الامر عندما اتسعت ثقافتها النظامية الى الانحلال فالفناء ، وهذا ما تجده عند اليونان والرومان والعرب على السواء فما السر فى ذلك ؟ يخيل الى اننا نجد الجواب فى أمرين : أولهما : ان الامم لا تحيا بالثقافة النظرية فحسب ، وانما تحيا أيضا بتقاليدها . وثانيهما : ان للثقافة النظرية نوعين من النشاط : نشاط هدم ونشاط بناء . فعندما يسبق التفكير الفردى التقاليد ، ويأخذ فى تناولها بالبحث ومناقشة الاسس ، لابد من أن يقوضها ، لما هو معروف من أن كثيرا من التقاليد لا تقوم على أسس نظرية قوية بل تستند فى الغالب الى مواضعات اجتماعية خلفتها عصور موغلة فى الظلام ، واذا كان العقل قادرا على الهدم فهو أقل قدرة على البناء ، وبخاصة بناء التقاليد ، وتلك لا يكفى فى تدعيمها النظر المحمود بل لابد

من أن تطرد بها الحيـــاة حتى تنزل من النـــاس منزلة العادات الآلية ، وهذا أمر يحتاج الى زمن طويل ، وهكذا نفسر انحلال الامة : عقل يهدم ثم لا يستطيع لساعته أن يقيم بناء الانقاض

واذا كان العقل يقوض من دعائم الامم، فان ذلك لاينبغى أن يصرفنا عن تثقيفه ، فهو ليس منبع الشر وانما منبعـه انه لم يثقف عند كافة افراد الامم المنحلة ، بل عند نفر قليل منها هم الذين قوضوا التقاليد . والتقاليد فى الحق ليست من ضرورات الحياة الاجتماعية الا بحكم أنها تحل عند غير المثقفين محل النظام العقلى والروح العلميـــة اللذين أشرنا اليهما ، وعندما تستطيع أمة من الامم ان تدعى أن كل فرد من أفرادها يملك ذلك النظام وتلك الروح فلن يرهبها عندئذ أن تضيع تقاليدها

وهكذا نستطيع ان نخلص الى أن الثقافة الحقيقيـــة دعامة قوية من دعائم الاخلاق فى حياة الافراد وحيـــاة الامم على السواء ، وانما تأتى الكوارث عندما تتخبط فى فهم معنى الثقافة ومدى انتشارها بين الافـــراد الذين يكونون أمة واحدة

الثقافة ضوء ولابد للضوء ان يبدد الظلمات .

دراسة اللغة العربية وآدابها

لا أستطيع أن أصور للقارىء مبلغ دهشتى عندما وصلت الى باريس وسألت فى السربون عن ليسانس الادب الفرنسى فأخبرت أن هذا شىء لا وجود له . فأنت لا تستطيع أن تحصل من الجامعات الفرنسية على ليسانس فى آدابهم وانما هناك شىء اسمه الليسانس الكلاسيكى ، وهو يتكون من أربع شهادات عليا كل منها منفصلة عن الاخرى تمام الانفصال . ولك أن تبدأ بالتقدم لأيها شئت وفى أى سنة تريد بعد تمضيتك للسنة الاولى بالجامعة . وهذه الشهادات هى : شهادة اللغة اليونانية القديمة وآدابها ، وشهادة اللغة اللاتينية وآدابها ، وشهادة اللغة الفرنسية وآدابها ، وأخيرا شهادة فقه هذه اللغات النحوى . واذن فلا يستطيع أن ينال الليسانس، أى اجازة التدريس فى الادب الا من يعرف اللغتين اليونانية واللاتينية وفقههما اللغوى ، وذلك الى جوار اللغة الفرنسية وأدبها وفقهها . وفى الجامعة تلقى الدروس والمحاضرات التى تعد لكل من هذه الشهادات ولك أن تحضر منها ما تريد ، وتتقدم الى الامتحان عندما تحس أنك وصلت الى المستوى وهو مستوى

(*) نشرت فى ١٩٤٥/١/١

رفيــع جدا لا تصل اليــه هونا ، حتى ان قليــلا جدا من الاجانب من يســتطيع أن يجازف فينافس الفرنسيين فىهذا الميدان العويص . وذلك لان الفرنسيين لا يتقدمون اليه الا بعد اعداد طويل بمدارسهم الثانوية حيث يدرسون تلك اللغات جميعا دراسة متينة مفصلة . وكاتب هذا المقال يستطيع أن يتحدث عن يقين عن جدية هذه الدراسات وقد تقلمت فيها أظفاره . ولقد يدهش القارىء عندما نخبره أن الامتحان فى شــهادة الاداب الفرنســية شىء بالغ البســاطة فى صورته بالغ المشقة فى جوهرة . فالامتحان التحريرى عبارة عن سؤال واحد تعالجه فى أربع ساعات ، فاذا نجحت تقدمت الى الامتحان الشفوى أمام ثلاث لجان : اثنتان منهــا لقراءة وشرح نصين أحدهما قديم والاخر حديث ، وأمام اللجنــة الثالثة تسأل فى مسألة من نظريات الادب أو مدارســه أو كتابه . وهم لا يتطلبون منك فى التحــريرى أن تدل على تحصيل فحسب ، بل لابد أن تثبت الى جانب ذلك مقدرة حقيقية على النقد الشخصى والفهم العميق . ثم لابد فوق كل شىء من أن تملك هبة الاسلوب وجمــاله ، وذلك لايمانهم أنه لابد ان تــكون الى حــد ما اديبــا لتصلح مدرسا للاداب ، وعندهم ان الادب من المجالات التى لا يغنى فيها شىء عن مواهب النفس

غادرت مصر بعد أن درست الادب العربى بجامعتهــا وعدت الى مصر مدرسا للأدب العربى بجامعتيها ، ولقد كنت منذ عودتى شديد التبرم بمناهجنا وطرق فهمنــا لآدابنا القومية . ولقــد جاهدت فى سبيل اصــلاحها ما استطعت حتى تركت الجامعة ، ولكن تركى لهــا لن يمنعنى أن أواصــل الجهاد فى خارجها . وذلك لايمانى بأن دراســة الادب هى المدرســة التى يتخرج منها

قادة الرأى فى البلاد . فهى مدرسة الثقافة العـــــامة ومدرسة فن الكتابة ..

وما أريد أن تعترض سبيلنا نزعات مغرضة فنحارب بتعصب لمناهج الغرب التى تكونا بين أحضانها . ولى أمل كبير فى أن يولينى القارىء الثقـــة حيث أننى قد بلوت مناهجنا ومناهجهم فى نفسى وأطلت فيها التفكير بعـــد أن استطعت أن أستقل بالحكم ، ومن واجبنا أن نأخـذ الخير حيث نجده

وفى دراستنا للغة العربية وآدابها عيبان كبيران ، يشق على من لم يدرس اللغات والآداب الاخرى أن يدركهما أو يجد لهما علاجا . ولا بد اذا أريد القضاء عليهما من اعداد جيل جديد من الذين تثقفوابأوربا للنهوض بتلك المهمـة الشاقة ، مهمة تدريس اللغة العربية وآدابها ، وبغير ذلك لن تكون اية محاولة غير ضجة عقيمة ، وهذا رأى يؤمن به من كبار أساتذتنا المصريين من استطاع منهم لرحابة عقله وتخلصه من الهوى الشخصى أن يدرك الحقـــائق فى شجاعة ونبل

أما العيب الاول فهو فهم معنى الادب : فالادب مقصور عندنا على الشعر والنثر الفنى عند العرب . ومن الملاحظ أن الشعر قد غلبت عليه ابتداء من القرن الثـــــالث الهجرى روح المحاكاة حتى أن التجديد فيه لم يعـــد الا بمقدار . وأما النثر فانك اذا قصرته على الفنى منه لم تخرج الا بمحصول ضئيل : خطب ورســـائل ومقامات وتوقيعات وأمثال . ولقد كان ظهور النثر متأخرا ، وكان عمر الجيد منه وهو النثر المرسل الخالى من الصـنعة المتكلفة قصيرا اذ لم يلبث أن طغى البـديع ابتـــداء من القرن الرابع فجرد الكتابة من صدق الاحساس وجوهر الفكر . والاحساس والفكر هما المادة التى اذا خلت منها

كتابة فقدت الكثير من قيمتها . ويا ليت الامر قد وقف عند هذا الحد ، فمعنى الادب حتى على النحو الضيق الذى ذكرنا قد تغير فى عصرنا الحاضر ، وذلك لان العرب لم يعرفوا فى الحقيقة غير الشعر الغنائى والنثر القصير الباع ، وأما الادب المسرحى وأدب القصة فذلك مالا نستطيع أن نقول على نحو جدى انهم قد عرفوه . فالبون شاسع بين أنواع الحوار التى خلفوها من أمثال حوار وفود العرب عند كسرى وغيرها وبين المسرحية بالمعنى الحديث . وكذلك الامر فى البون بين أيام العرب وماشابهها من قصص وبين القصة بالمعنى المعروف اليوم . وها نحن منذ اتصالنا بالغرب أخذنا نكتب القصص والمسرحيات ، وهذا يضعنا فى موضع فريد بين الامم ، فالجامعات فى أوربا لا تتناول عادة بالدراسة الاحياء من الكتاب . وفى فرنسا كلها لا يدرس الادب المعاصر فيما أعلم ، ولا تعطى عن دراسته درجة علمية الا فى جامعة واحدة هى جامعة استراسبورج ، وأما السربون فتقف مناهجها عند أواخر القرن التاسع عشر . ولو أننا فى مصر حذونا حذوهم كما نفعل الآن لكان موقفنا عجيبا • فسيخرج الطالب وهو لا يعرف عن أدب القصة وأدب المسرحية ، وأصولهما ونقدهما شيئا . ومعنى ذلك هو ان الجامعة لن تساعد على خلق بيئة أدبية ورأى عام أدبى ، ينمو فيهما أدبنا الحديث ، ويتجه وجهة جدية تساير تيارات الادب العالمى ، وتدخلنا فى ثناياه . وأمعن من ذلك فى الدلالة ما نلاحظه من أن الشعر الغنائى ، بل وكافة أنواع الشعر حتى المسرحى منه ، آخذ فى التقهقر أمام النثر فى كافة بقاع العالم حتى لاذكر انه لم يعد فى فرنسا كلها غير مجلة واحدة متخصصة بالشعر هى مجلة « أجدرازيل «yggdrasill» وهى مجلة شهرية • وعلى العكس من ذلك النثر ،

فقد احتل موضع الصدارة . ومن بين فنون النثر كلها أصبح للقصة بأنواعها المكان الاول . ومع ذلك فجامعتنا لا تزال عنايتها بالشعر فوق عنايتها بالنثر ، وهذا أمر يفسره ما ذكرنا من قصرها لمعنى النثر على الفنى منه . وباستطاعة القارىء أن يتناول أى كتاب فى تاريخ أى أدب أجنبى كالادب الفرنسى أو الانجليزى أو الالمانى ، وأن يقلب فهرسه ليجد فصولا ممتعة عن التاريخ والمؤرخين والفلسفة والفلاسفة ، وعن كتاب الاخلاق والاجتماع والباحثين فى فلسفة العلوم . ونحن لدينا أمثال هؤلاء : لدينا المؤرخون والفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام ، وفقهاء التشريع ، ورجال الاخلاق والاجتماع . فلماذا لا نوسع من معنى الادب كما يفعل الغربيون فندخل دراسة هؤلاء الكتاب جميعا فى مناهجنا وندرسهم بروح العلم الحديثة ، وننقد مواضع الضعف عندهم وسبل الكمال على ضوء ماوصل اليه الغرب ، وبذلك يخرج طالبنا بمادة فكرية لها قيمتها بدلا من قصره على الدراسات اللفظية التى نأخذه بها اليوم ؟ ..

ولكننا اذا أردنا أن نفهم الادب بهذا المعنى الواسع ، واذا أردنا أن ندخل فيه أدبنا المعاصر الذى نأخذ ألوانه عن الآداب الغربية ، تبين عندئذ صدق ما قلناه من قبل من أنه لن يستطيع عندئذ الاستقلال بتدريسه الا من ثقف ثقافة غربية وتشبع بمناهج الغرب على نحو واسع متين

والعيب الثانى قائم فى منهج الدراسة فهو لا يزال المنهج التقريرى كما عرفته القرون الوسطى مع أن مناهج الدراسة فى كافة الجامعات اليوم قد أصبحت المناهج التاريخية ، ومن واجبنا أن نسلك مسلكهم فنوفر على أنفسنا قرونا من الزمان ، ولو أننا فعلنا لتغيرت دراساتنا كلها رأسا على عقب ، فالنحو عندئذ لن ندرسه على أساس

انه معايير للصحة والخطأ ، فتلك دراسة مكانها فى المدارس الثانوية وانما نتناوله كتطور تاريخى للغة منذ أصولها السامية الى أن انتهت اليوم باللهجات العامية ، وهذه دراسة لا تعرف الخطأ والصواب وانما التحول الطبيعى الخاضع لاعتبارات عضوية واجتماعية ونفسية . والبلاغة علم سنحذفه أصلا من برامجنا كما حذفته جميع الجامعات ونحل محلها دراسة الاساليب وتاريخ تكوينها والتمييز بين اتجاهات الكتاب المختلفين وتحديد خصائصهم الروحية باعتبار أن الاسلوب صورة لملكات الرجل لا وسيلة من وسائل الاداء اللفظى فحسب ... وسوف نفطن عندئذ الى شىء لم نسمع بوجوده بعد فى جامعتنا وهو تاريخ اللغة ، ففى كل الجامعات تجد كراسى لاساتذة كبار يضطلعون بهذه المهمة الشاقة . ولقد أتيح لى أن أتابع سنوات دراسة الاستاذ فرديناد برينو لتاريخ اللغة الفرنسية بالسربون . وكم كان يشجينى أن أستمع الى هذا الشيخ الجليل وهو يقص تاريخ لغته ، فاذا به يكشف لنا بهذا التاريخ عن العقلية الفرنسية كلها وقد رسبت على طول القرون فى مفردات اللغة وتراكيبها ولقد كان يخيل الى عندئذ أن هذا الرجل لا يلقى الينا بعلم ، وانما يقص ذكريات حياته الخاصة ، وذلك لطول معاشرته لتلك اللغة وألفه لها . ولقد أودع الرجل ـ رحمه الله ـ محصول عمره فيما يقرب من عشرين مجلدا فى كل مجلد ما يقرب من ألف صفحة من القطع الكبير ، وأجمع الفرنسيون على أن هذا الشيخ الوقور قد أقام لفرنسا بكتابه هذا عن «تاريخ اللغة الفرنسية» تمثال مجد لن يفنى أبد السنين . وكم كان رائعا يوم وفاته أن تحمل جثته الى ساحة السربون ويأتى الوزراء ورجال الدولة ومعهم فصائل من الجيش وموسيقاه ليحيوا رفاته الطاهرة فى مشهد

وطني رسمي كان من أكبر ما أثر فى نفسى اذ كشف عن عظمة هذه الشعوب التى تعرف كيف تقدس الفكر البشرى ..

والمنهج التاريخي كما سيجدد تدريسنا للغة ، سيجدد أيضا تدريسنا للادب ، فالادب كما نريد أن نفهمه هو مستودع الحضارة،وما أظن أننا نستطيع أننفهم الحضارة العربية فهما صحيحا مالم تكشف عن أصولها ومصادرها، ولك أن تقلب الرأى كيفما شئت فستنتهى الى نتيجة حتمية هى أن الثقافة العربية مزيج من عناصر ثلاثة : العنصر العبرى ، والعنصر الفارسى ، والعنصر اليونانى . ففى القرآن وفى الاسلام ما لا يحصى من مبادىء التوراة وقصص التوراة وأصول التوراة التشريعية ، وفى الحضارة العباسية الكثير من وسائل الحياة الفارسية بذخها ومظاهرها المادية . بل وتياراتها الاخلاقية والفكرية فى بعض الاحايين ، وأما اليونان فأظن أن تأثيرهم فى الفلسفة الاسلامية والمنطق الاسلامى وعلم الكلام بل وفى العلوم اللغوية كالنحو والبلاغة وغيرها أوضح من أن يذكر

والان لو وسعنا من معنى الادب وزدنا من عنايتنا بالنثر وادخلنا فى دراستنا الى جوار الادب القديم الادب المعاصر،ولو أصلحنا مناهجنا فجعلناها تاريخية كيف تظن اننا نستطيع عمليا أن ننظم تلك الدراسة . أليس من الخير لنا أن نأخذ بالنظام الفرنسى فلا نقيد دراسة الادب العربى بسنين بل نجعله شهادات يحضر الطلبة ما يريدون منه ، حتى اذا احسوا بنضوجهم تقدموا الى الامتحان ؟ ونوع هذه الشهادات أمرها واضح فهى لا يمكن أن تكون الا : ١ ــ شهادة اللغة العبرية وآدابها . ٢ ــ شهادة اللغة الفارسية وآدابها . ٣ ــ شهادة اللغة اليونانية وآدابها . ٤ ــ شهادة اللغة العربية وآدابها . وبذلك

يخــرج الطالب مثقفــا ثقافة حقيقية تمكنه من أن يفهم التراث العربى فهمــا صحيحا وأن يســتطيع مقــارنته بغيره من الاداب

ومن البين أنه يجب أن يصلح نظام التعليم فى المدارس الثانوية بحيث توجد به فروع تعد اعدادا صحيحا لهذا النوع من الدراسة الجامعية بحيث يخرج الطالب ولديه العناصر الاساسية لمواصلة دراسته

ولست أجهل ما فى مثل هذه الدراسة من مشقة ،ولكن الاوروبيين يعالجون مثلها فى دراســــــة أصول آدابهم اللاتينية واليونانية ، ولقد تغلبوا على تلك الصــعوبات ، فلماذا يقعد بنا نحن الكسل عن مواجهة الطرق الجدية والسير فى السبل الصحيحة ؟

صفات المؤرخ

كان أدولف تيير A. Thiers (١٧٩٧ : ١٨٧٧) من كبار رجال الدولة فى فرنسا كما هو من كبار مؤرخيها . ابتدأ حياته بالعمل فى المحاماة بمـــدينة اكس ، ثم غادرها الى باريس حيث اشتغل بالصحافة فأصدر ال « ناسونال » سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك بعامين ساهم مســاهمة قوية فى اعادة النظام الملكى وتولى الوزارة بل ورياسة الوزارة عدة مرات كما انتخب للنيابة فى البرلمان . وفى سنة ١٨٧٠ عارض بقوة فى اعلان الحرب على المانيا. وبعد الهزيمة اختير رئيسا للحكومة ثم رئيسا للجمهورية بانتخاب الجمعيــة القومية سنة ١٨٧١ ولقد اتصل اسمه بتحرير فرنسا . ولكن ذلك لم يمنع الملكيين والمحـــافظين من أن يتآمروا لتنحيته عن الرياسة فتركها فى ٢٤ مايو ســنة ١٨٧٣ . ومات تيير والنظام الثورى الذى وضع أسسه يســـتقر شيئا فشيئا . ورجل كهذا ، عرك الحياة العـامة وبلى أسرارها يستطيع بلا ريب أن يجيد فهم التاريخ ، فيقدر العوامل المختلفة التى تعمل فى تكوينه كلا منها قـــدره الحق . ولقد ترك تيير كتابين كبيرين : أولهما عن « تاريخ الثورة الفرنسية » فى عشرة أجزاء ، وثانيهما عن تاريخ

(*) نشرت في ١٩٤٥/١/٩

« القنصلية والامبراطورية » فى عشرين جزءاً . ولقــــد اتفق أن قرأت فى كتابه الاخير صفحات عميقة عن الصفات التى يجب أن تتوفر فى المؤرخ ، ومن بينها ما يجمل بكل مواطن أن يتخذ منها حلية لروحه . وأكبر ظنى أن تدبرها فى أيام كالتى نمر بها الآن لن يخلو من نفع لمن بقيت فى نفوسهم اثارة من ضمير ، وها هى تلك الصفحات

١ ــ العناية بالبحث : هأنا انتهى ــ بعد خمسة عشر عاما أنفقتها فى العمل المتصل من تاريخ «القنصلية والامبراطورية» الذى ابتدأته عام ١٨٤٠ ــ ولم أترك سنة واحدة من هذه الخمس عشرة تمر دون أن أخصص كل وقتى لهذه المهمة الشاقة ــ وذلك مع استثناء تلك السنة (١٨٥١) التى قضت أحداث السياسة أن أعيشها خارج فرنسا (منفيا عند تولى نابليون الثالث) . وأنا أعترف بأنه من الممكن أن نعمل بأسرع من ذلك ، ولكننى أحمل لرسالة التاريخ احتراما بالغا ، حتى ان خوفى من أن أقرر حقيقة غير ثابتة ليملؤنى حزنا . ولهذا لا يقر لى قرار حتى أكتشف الدليل على صحة الواقعة التى يساورنى فيها الشك فأبحث عنه حيث يمكن أن يكون ، ولا أقف حتى أجده أو أطمئن الى أنه غير موجود ، وعندئذ أضع نفسى مضطرا موضـــــع الحــــكم فأقضى بايمانى الداخلى مع رهبتى الدائمة من الخطأ . وذلك لاننى لا أرى ــ عند ما يأخذ المرء نفســـه بأن يقول للناس الحقائق عن حوادث التاريخ الــكبيرة ــ اثما أكبر من أن ينكر تلك الحقائق لضعف ، أو يشوهها لهوى ، أو يفترضها لكســـل ، أو أن يكذب بوعى أو غير وعى وعلى جيله وعلى الاجيال اللاحقة . وتحت سلطان هذه الوخزات قرأت مرة ومــــرتين ، وعلقت بيـــدى على الوثائق التى لاتحصى المودعة بمحفوظات الدولة ، والثلاثين ألف خطاب التى تكون مراسلات نابليون الخاصـــــة ، ثم

خطابات وزرائه التى لا تقل عنها عددا ، وخطابات قواده وأركان حربه بل ورجال البوليس ، ثم معظم المذكرات المخطوطة التى تحتفظ بها العائلات فى بيوتها . ومن واجبى أن أقر بأننى قد لاقيت من جميع الحكومات ـ وقد مرت بى ثلاث منذ ابتدأت كتابى ـ نفس التسهيلات ونفس الكرم فى مدى بالوثائق التى كنت فى حاجة اليها ، وحتى تحت حكم حفيد نابليون ، لم يحجبوا دونى أسرار السياسة الامبراطورية كما لم تحجبها الجمهورية أوالملكية الدستورية .وهكذا استطعت أنأصل لا الى تلك الحقيقة المصطنعة التى تخلقها عادة الاجيال المعاصرة وتنقلها الى الاجيال اللاحقة بل الحقيقة الحقة ، حقيقة الوقائع ذاتها التى لا تجدها الا فى وثائق الدولة وبخاصة فى مراسلات كبار الرجال . وهكذا كنت أنفق أحيانا عاما كاملا فى اعداد مجلد كتبته فى شهرين . ولقد تركت الجمهور ينتظر ، ذلك الجمهور الذى تفضل فعلق أهمية على نتائج أبحاثى

٢ ـ بساطة العبارة : من الحقأن أقرر أنه قد استقرت فى نفسى الى جوار هذا التحرج رغبة فى أن أستقصى البحث عن الطريقة التى أخذ يتحرك تبعا لها كل هؤلاء الرجال ، وهذا المال وهذه المواد فى عصر كان من أكثر عصور الانسانية اضطرابا . فأسرار الادارة والمالية والحرب والديبلوماسية قد جذبتنى اليها واستوقفتنى وأسرتنى . وقد اعتقدت أن هذا الجزء الفنى من التاريخ يستحق عناية من النفوس الجدية مثلما يستحق الجانب الدراماتيكى سواء بسواء . وفى رأيى أن المدح أو الذم اللذين نصبهما على حوادث التاريخ الكبيرة ليسا الا خطبا عقيمة ، وذلك ما لم يستندا الى عرض منطقى موضوعى واضح للطريقة التى تمت بها هذه الاحداث . فالتهابك

حماسة أمام عبور الالب مثلا ، وتكديسك للالفاظ ونترك للصخور هنا والجليد هناك لكى تحمل الغير على مشاركتك حماستك ، ليس فى نظرى الا عبث أطفال بل مصدر ملل للقارىء • فلا جد ولا جدوى فى اثارة اعجاب حقيقى الا بالعرض الدقيق الكامل للاشياء كما وقعت • كم من الفراسخ عبرت خلال الجبال ، وكم من المدافع والذخائر والمؤن حملت دون طرق معبدة الى المرتفعات الخارقة وسط المهاوى المفزعة ، حيث لا تستطيع الحيوانات أن تصعد ، وانما يحتفظ الانسان وحده بقوته وارادته . هذا هو ما يجب أن نقوله بأبسط أسلوب مع الحرص على التفصيلات الضرورية دون غيرها وذلك اذا أردنا أن نقص مغامرة كعبور سان برنار مثلا . وعندما ينتهى القاص من عرض دقيق كامل للوقائع وتفلت من فمه عبارة اعجاب ، لا شك أنها ستذهب رأسا الى قلب القارىء ، وذلك لان الاعجاب كان قد تولد فى نفسه بالفعل ولم تأت عبارة القاص الا استجابة لذلك الاعجاب

٣ ـ ملاحظة الحاضر : لا أعلم من نتاج الروح البشرية ما هو أجل من شعر الملاحم ، ولكننى أحب أن يسلم معى القارىء أن هناك عصورا أقدر على تذوق ذلك الشعر منها على خلقه . فما أظن أن هومير ودانتى قد تذوقهما الناس على نحو أرهف مما نتذوقهما فى عصرنا الحاضر الذى يجمع الى الدقة العلمية القدرة على الانفعال . وبالرغم من أن لدينا الشعراء والمصورين الممتازين ، فان عصرنا لم ينتج مثل ذلك الشعر الساذج القوى الذى أنتجته فلورنسا فى القرن الثالث عشر أو الاغريق الفطرية

فللجماعات أعمارها كما للافراد ، ولكل عمر مشاغله . ولقد نظرت دائما الى التاريخ على أنه الشاغل الذى يلائم

عصرنا بنوع خاص ، وأن لم يكن طبعا التشاغل الوحيد . فنحن لم نفقد المقدرة على الاحساس بكبار الحوادث ، وفى عصرنا ما هو كفيل بردها الينا لو أنها كانت قد فقدت . ثم اننا قد اكتسبنا من التجارب ما يمكننا من تقـــديرها والقضاء فيها . ولهذه الاعتبارات أسلمت نفسى فى ثقة منذ الحداثة للابحاث التاريخية وأنا مطمئن الى أننى أعمل ما يلائم طبيعة هذا العصر . لقد خصصت ثلاثين عاما من حياتى لكتابة التاريخ ، وباستطاعتى أن أقول اننى لم أتخل عن فنى حتى عندما عشت فى غمار الحياة العامة ، وعندما كنت ارى العروش ترنحها ــ وسط المجتمعات المهتزة ــ صيحات الخطباء الاقوياء أو تهددها هتافات الجماهير ، ثم بعد لحظة من التفكير ، كنت لا أرى هذا الرجل الفانى أو ذاك ، بل تلك الوجوه الخالدة التى كانت تتحرك فى كافة الأزمنة والاماكن بأثينا أو روما أو فلورنســا كما يتحرك أولئك الذين يقع عليهم بصرى سواء بسواء . وكان فى ذلك ما يخفف من غضبى أو اضطرابى ، وذلك لاننى لم أوخذ على غرة ، ولا رأيت أحداثا يومية عابرة ، بل مشـــاهد خالدة أقامها الله عندما وضع الانسان فى الهيئة الاجتماعية ووضع فى قلبه ما يحركه من شهوات كبـــيرة أو صغيرة حقيرة أو كريمة . والانسان دائم الشبه بالانسان . تثيره وتقوده نفس القوانين العميقة الخالدة . فباستطاعتى أن أقول ان حياتى ذاتها قد كانت دراسة تاريخية طويلة . وفيما عدا اللحظات العنيفة التى يذهلنا فيها العمـــل ويجتاحنا تيار الحوادث الجارف حتى نعجز عن تبـــين شواطئه ــ أستطيع أن أقول اننى قد لاحظت دائما ما يمر حولى ، ووازنت بينه وبين ما حدث فى غير زماننا ومكاننا لاميز فيه المتشابه والمختلف ، وفى هذه المقارنة الطويلة خير اعداد للنفس عندما تريد كتابة ملحمة التاريخ ، تلك

الملحمة التى لا يمكن أن ينصل لونها لانها دقيقة موضوعية.
وذلك لان الرجل الحقيقي الذى يسمى الاسكندر أو هانيبال أو قيصر أو شرلمان أو نابليون ، له شعره الخاص كما للرجل الاسطورى الذى يسمى أخيل أو انيوس أو رولان أو رينو ، شعره ، وان تميز الشعران

٤ ـ الذكاء في التاريخ : ملاحظة الرجال والحوادث ملاحظة متصلة أو كما يقول المصورون ملاحظة الطبيعة لا تكفى ، اذ لابد لمن يريد كتابة التاريخ من موهبة خاصة ـ ولكن ما هى هذه الموهبة ؟ أهى لطافة الحس أم الخيال أم ملكة النقد أم فن التأليف أم القدرة على التصوير ؟ أجيب ان كل هذه المواهب مرغوب فيها ، وان اى مؤرخ تظهر فيه احدى تلك الصفات النادرة يعتبر مؤلفا جديرا بتقدير المعاصرين والاجيال اللاحقة على السواء • وباستطاعتى أن أقول ان هناك طرقا كثيرة لكتابة التاريخ ، فقد نكتب على طريقة توسيدية أو أكزنفون أو بوليب أو تيتليف أو سالوست أو قيصر أو تاسيت أو كومين أو جوشاردان أو ميكافيللى أو سان سيمون أو فردريك الاكبر أو نابليون • وفى كل حالة يكون تاريخا ممتازا وان اختلف عن غيره • وأنا لا أسأل الله الا أن أكون قد كتبته كأقل هؤلاء امتيازا ، لاضمن بذلك أننى وفقت صنعا ، وأننى سأخلف بعدى ذكرى لحياتى الفانية • ولكل من هؤلاء صفته الخاصة البارزة • فمنهم من يقص فى وفرة تشتاقك ، ومنهم من يقص دون اطراد فيسير بوثب وقفزات ، ولكنه يصور بتخطيطات عابرة وجوها لن تمحى من ذاكرة الرجال ، ومنهم من هو أقل وفرة فى القصص أو مهارة فى التصوير ولكنه أكثر هدوءا وأغزر حياء فينفذ ببصر لا يغيب عنه شىء الى أعماق الحوادث البشرية

ويضيئها بنور خالد . » يفكر تيير هنـــا فى تيت ليف وتاسيت وجوشاردان » . وأيا ما تكون طريقتهم فاننى أكرر أنهم قد وفقوا صنعا . ولكن أليست هنـــاك صفة تفضل ما عداها من صفات حتى ليتميز المؤرخ الذى يملكها تميزا حقيقيا ؟ نعم .. ذلك ما أعتقده .. وأسارع فأقول ان هذه الصفة فى نظرى هى الذكاء

وأنا أستعمل هذا اللفظ بمعنـــاه الدارج وأطبقه على الموضوعات المختلفة حتى يفهمنى القارىء . كثيرا ما نلاحظ عند الطفل أو العامل أو رجل الدولة شيئا لا نستطيع أن نسميه لطافة الحس لان البريق يعوزه ولكننـــا نسميه الذكاء ، وذلك لان من وهبه يدرك لفـــوره ما يلقى اليه ويرى الهمس ويسمعه ، فيفهم اذا كان طفـــلا ما نعلمه ، واذا كان عاملا ما يطلب اليه عمله ، واذا كان من رجـال الدولة فهم الحوادث وأسبابها ونتائجها ، وحدس طبائع الاشخاص وميولهم وما تمليه تلك الطبـــائع والميـــول من سلوك ، حتى لا تراه يندهش لشىء أو يتعثر فى شىء وان أحزنه فى الغالب كل شىء . وهذا هو الذكاء . وهـــذه الصفة البسيطة التى لا تسعى الى البريق لن تلبث عند العمل أن تظهر أعظم جدوى من كافة الصفات فيما عــــدا العبقرية التى ليست فى الحقيقة الا الذكاء مضــافا اليه الاشراق والقوة والاتساع والسرعة

وهذه الصفة ، مطبقة على حوادث التاريخ الكبرى ،هى الصفة الاساسية الواجب توفرها فى المؤرخ . وهى اذا وجدت استتبعت خلفها كافة الصفات الاخـــرى ، وذلك بشرط أن نضيف الى الهبة الطبيعية تجربة الحياة العملية . فنحن بهذه الصفة نستطيع أن نميز الحق من الباطل وألا ننخدع بالكاذب من مسلمات التاريخ التقليدية وضوضائه

الخاوية .. بل نحكم ملكتنا الناقدة فندرك فى دقة خصائص الافراد والعصور ، ولا نبالغ فى شىء تعظيما أو تحقيرا بل نعطى كل شخصية قسماتها الحقيقية وننحى الطلاء الذى لا نعرف أشد منه خطرا على التاريخ . وبالجملة نصور تصويرا صادقا . ندخل فى أسرار الاشياء ونفهم كيف سارت ونعين الغير على هذا الفهم . فالدبلوماسية والادارة والحرب والبحرية نضعها كلها فى متناول جمهرة النفوس وذلك لاننا نكون قد استطعنا أن ندركها ككل قابل للفهم . وعندما نصل الى جمع كافة العناصر التى سنؤلف منها قصصنا الواسع يدلنا تسلسل الحوادث ذاته على الطريقة التى نستطيع أن نعرض بها ذلك القصص ، وذلك لاننا عند ما ندرك الروابط الخفية التى تجمع بين كل تلك العناصر والاسباب التى جعلت بعضها يتولد عن بعض تتكشف لنا طريقة العرض بنفسها ، وتكون أجمل الطرق لانها الطريقة الطبيعية . واذا لم يكن فى تيار حياة الامم جبال من الثلوج استطاع المؤرخ أن يمزج كل تلك العناصر مزجا تاما ، وأن يسلسلها فى يسر وحيوية تاركا لسير الزمن تدفقه وقوته بل وجماله، وذلك لانه لن يحيد قسرا بحركاته عن مجراها الطبيعى ولن يغير شيئا من تثنيه الموفق . وهو أخيرا سيتمتع بأهم وأسمى شرط لازم للمؤرخ وهو العدل ، وذلك لانه لا شىء يقتل فى النفس الاهواء مثل معرفة الطبائع البشرية . ولست أزعم أن هذه المعرفة ستسقط عن النفس كل قسوة ، ولو أن ذلك حدث لرأيته شرا . ولكننا عندما نعرف الانسانية ومواضع ضعفها وندرك ما يسيطر عليها وما يقودها ، نستطيع – مع حبنا للخير ومقتنا للشر – أن نكون أرفق بالانسان الذى تسوقه الى الشر آلاف من الدوافع البشرية ، كما نقدس ذلك الذى استطاع وسط

المغريات الحقيرة وبالرغم منها .. أن يحتفظ بقلبه مرتفعا الى مستوى الخير والجمال والعظمة

هذه هى الصفحات التى حرصت على نقلها للقارىء ، والذى أرجوه هو أن يعود الى قراءتها فسيجد فيها كما قلنا كثيرا من الصفات التى يجدر بكل انسان مؤرخا كان أو غير مؤرخ أن يتحلى بها ، ففيها روح العلم ونزاهته التى هى من معدن الروح الاخلاقية السليمة ، وفيها أسلوب من أساليب الكتابة بل والحياة ، يمتاز بجديته وبساطته وقصده الى الحقائق • وأما الذكاء الذى ينتهى الى فهم الناس والاشياء كما هى ، فتلك هبة من الله قد ينميها التفكير وطول الامعان فيما نشهد ونسمع، وهى اذا وجدت خليقة بأن تقوم الكثير مما فسد فى علاقاتنا العامة والخاصة اذ تنتهى الى التسامح والفهم المتبادل

رسل الثقافة الغربية

لا نستطيع في غير تعصب أحمق أو جهل كثيف أن ندعى أننا فى غير حاجة الى التتلمذ على أوربا ونقل الثقافة الغربية الينا ثم هضم هذه الثقافة وتمثلها حتى نستطيع بعدئذ أن نساهم على نحو جدى فى التقدم بالحضارة الانســـانية الى الامام ..

هذه حقيقة ، ولكنه لا جدوى من الفطنـــة اليها ما لم نعالجها من الناحية العملية لنتبين وسائل التتلمذ والنقل وتلك الوسائل هى ما نسميها رسل الثقافة الغربية ،وهذه الرسل تجتمع في طوائف ثلاث هم : المترجمون من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية والاســـاتذة الأجانب الذين تستقدمهم بنوع خاص جامعاتنا ، وأخيرا أعضاء البعثات الذين نوفدهم لتلقى العلم بأوربا وأمريكا

أما عن الترجمة والمترجمين فهذا موضوع يقوم بذاته ، ومن المعلوم فى تاريخ نشوء الحضارات أن الترجمـــة قد نهضت دائما بدور أساسى فى نشأة كل حضارة جديدة ويكفى أن نذكر فى هذا المقام أخذ الرومان عن الاغريق ، والعرب عن الاغريق والفرس ، واليابان عن أوربا وأمريكا

(*) نشرت فى ١٩٤٩/٥/١٩

ونحن الآن فى حاجة الى عصر كعصر هارون والمأمون يثير حركة ترجمة واسعة النطاق تحت اشراف الدولة وبمالها لنقل أمهات الكتب الغربية قديمها وحديثها الى اللغة العربية ، فهذه الكتب هى الاساس الصلب الذى تقوم عليه حضارة الغرب مادية كانت أم معنوية . ومالم نبدأ بهذه الحركة ، فسيظل انتاجنا الثقافى فى جملته رقيعا قصير النفس خاليا من الاصالة الحقيقية ، وذلك لانعدام رقابة الرأى العام على هذا الانتاج ، وكيف له أن يفرض هذه الرقابة وهو يجهل أمهات المؤلفات الغربية التى يسطو عليها بعض كتابنا معتمدين على جهل الرأى العام وعدم درايته . ولكم من مرة يأخذ أحدهم « قرشا » غربيا ثم يفكه الى « ملاليم » يشنشن بها ليوهم بالثراء مع أنه ثراء وهمى بل ثراء مختلس . وفى هذا من الضرر على خلق ثقافة مصرية أصيلة أو المساهمة فى الثقافة الانسانية العامة مالا يدرك مداه ، وذلك لاننا لا نعرف آفة أخبث فى الحياة الثقافية بل الحياة بوجه عام من النصب العقلى ، ولقد قال « رابليه » المفكر الفرنسى القديم : « علم بلا ضمير خراب للنفس » فماذا نقول عن الجهل بلا ضمير

والاساتذة الاجانب وأعضاء البعثات المصرية الى الخارج هما الآن موضع الجدل بين من يشرفون على مصير الثقافة فى بلادنا ، فهناك من يزعم أننا قد أصبحنا اليوم فى حاجة الى أولئك وهؤلاء ما دامت عندنا جامعات وليست لدينا أساتذة ، وفى هذه الجامعات تدرس اليوم كافة فروع الثقافة ، وهناك من يزعم أننا فى حاجة الى أساتذة أجانب نتدبهم من الخارج . ومن الواجب أن نكتفى بهذا الانتداب ولا نكلف الدولة نفقات ايفاد البعثات الى الخارج ، وأخيرا يزعم فريق ثالث أن فى أساتذتنا المصريين ما يغنى عن انتداب الاجانب ، ولتكن البعثات رسلا تسعى بيننا وبين

ثقافة الغرب ..

وفى الحق أننا لسنا فى حاجة الى أن نطيل فى الرد على أولئك الذين يزعمون أننا فى غنى عن الاســــاتذة الاجانب وعن ايفاد البعثات على السواء ، فمثل هذا الزعم السخيف لا يدل الا على جهل أو غرور كلاهما مرذول ، وما يستطيع أحد أن ينكر أننا فى أمس الحاجة الى التوسع فى توثيق الصلات الشخصية بيننا وبين ثقافة الغرب لان الكتب لا تكفى ولا يمكن ان تكفى ، والاستاذمكتبةمتنقلة بل عصارة مكتبة ، وعضو البعثة الناجح لا يعود بكمية من المعلومات فحسب بل يعود بحضارة تدب بين جوانحه

وانما تقوم المفاضلة بين التوسع فى انتداب الاساتذة الاجانب أو التوسع فى ايفاد البعثات .. والذى لاشك فيه أن استقدام كبار الاساتذة أمر بالغ الاهمية وذلك لاننا لن نتلقى عن هؤلاء الاساتذة علما وثقافة فحسب بل نتلقى ما هو خير منهما ونعنى به مناهج البحث ووسائل الكشف عن المجهول ، وهذه هى أدوات خلق الثقافة الاصيلة التى نتطلع اليها فى لهفة . والشىء الوحيد الذى يدعونا الى التريث فى مثل هذا الانتداب هو ما بلوناه بأنفسنا عندما لاحظنا أن بعض الاساتذة الاجانب ينظرون ــ معذورين أو غير معذورين ــ الى الطلبة المصريين نظرة خاصة ، ويأخذونهم فى تلقين المعرفة وشرح مناهج البحث مأخذا خاصا ، ظانين أو معتقدين أنهم لا يقوون على التعمق والجلد ، وأنه من الحكمة أن يقتصر فى تعليمهم على بســــائط الامور حتى لاينوء كاهلهم ، وترهق عقولهم ، وتكون النتيجة أن لاتتم الاستفادة من أولئك الاساتذة الكبار الذين جاءوا الى بلادنا مثقلين بما يترامى اليهم من مزاعم رجال السياسة المغرضين الذين سممت نزعة الاستعمار نفوسهم فراحوا يذيعون أن

الافريقيين مثلا أقل استعدادا بحكم الطبيعة من الاوربيين .. الخ

وهذه الملاحظة الاخيرة من شأنها آن تعزز رأى أولئك الذين يتحمسون للتوسع فى ايفاد البعثات المصرية الى الخارج حتى نستغنى بهم عن انتداب الاساتذة الاجانب ، ولهذا الرأى وجاهته البالغة وذلك لا لان أخذ الثقافة من مصادرها هو اقرب السبل واسلمها وردا فحسب ، بل ولان اعضاء البعثات يعودون بكسب آخر مزدوج لا يقل قدرا عن كسب المعرفة ، بل نؤكد أنه يفوقها ، ونعنى بهذا الكسب المزدوج معرفة الحياة الاوربية أولا ، ثم معرفة الحياة المصرية ثانيا

فأما عن الحياة الاوروبية فمن البديهى أن خير وسيلة للوصول الى هذه المعرفة هى أن يحيا المصرى بالفعل هذه الحياة بين بنيها فاذا به يحصل مع هذه الحياة الثقافية الغربية بل والحضارة الغربية كلها بعد أن رسبت فى تلك الحياة وتبلورت وأصبحت عملا ووسائل حياة لا نظريات وسفسطة لسان . والثقافة فى مرجعها النهائى نوع من الحياة وضرب من السلوك ، وكل هذهأمور لا تحتويها كتب ولا يلقنها أساتذة لانها تراث عام شائع بين كل شعب متحضر ، وهى لا تؤخذ الا بطول الممارسة وعلى غير وعى ممن تسمو اليها نفسه

ولقد يبدو غريبا أن نقول ان عضو البعثة سيعود ليعرف الحياة المصرية ، ولكنه لا محل لمثل تلك الغرابة فقد قال «رديارد كبلنج»بحق : « ماذا يعرف عن انجلترا من لم ير غيرانجلترا » والذى لا شك فيه أن عضو البعثة يعود دائما من الخارج بعينين أقوى ابصارا وأحد ملاحظة ، وذلك لانه قد رأى حياة غير الحياة المصرية فأصبح قادرا على أن يتبين ما فى حياتنا من مواضع النقص أو مواضع الكمال،

وقد انقشعت عن ناظريه تلك الغشاوة التى يضر بهـا طول الالف واطراد العادة ، ونحن لا نعرف شيئا أخطر من الالف والعادة على قتل روح الملاحظة حتى لترانا نؤمن ايمانا قويا بصحة ما قاله ذلك الفيلسوف الفرنسي المتجول «جان جاك روسو» عندما قرر أنه «يلزمنا كثير من الفلسفـة لنلاحظ مانراه كل يوم»

واذن فالرأى الصحيح هو أن نجد فى الترجمـة وأن نواصل انتداب الاساتذة الاجانب ولو الى حين ، ثم نضع من بين أهداف نهضتنا الاساسية التوسع في ايفاد البعثات ولا نكون من قصر النظر بحيث لا نوفد أحدا للدراسـة فى الخارج الا فى المواد التى يقولون انها لا تدرس في مصر ، وذلك لان الامر كما أوضحنا ليس أمر دراسة فحسب ، وانما هو قبل كل شيء أمر معرفة بالحيـاة الاوربية والمصرية على السواء وكل ذلك على شرط أساسى وهو أن تدرك الدولة أن أعضاء البعثات هم عماد وطننا الحديث وان من واجبها أن لا تثبط لاحد منهم عزما أو تميت همة أو تحد حماسة بأن تلقيهم عند عودتهم بين براثن طائفة من الموظفين الاداريين الذين يمرغونهم فى الاوحال أو تمكن من رقابهم نفرا من الفنيين أو شبه الفنيين القدماء الذين وصلوا الى مراتب الرياسة فى أزمان الجهل البائد وأصبحوا يستشعرون مرارة حمقاء فى أن تدفعهم الاجيال الناهضة المستنيرة بالمناكب • ولا تقبل أن تترك قافلة الوطن تسـير وئيـدا ، وكأنهـا تحمـل الجنادل وتدفعهم تلك المـرارة الى أن يقصروا كل همهـم فى كسر شوكة أولئك المبعوثين الذين يرمونهم بالغرور ويدعون انهم يريدون اعطاءهم دروسا فى الحياة والله يعلم انهم لا يبغون غير شقاء نفوسهم المريضة وهم أناس لا يعملون ، ومع ذلك يؤذيهم أن يعمل الغير ، وهذا خلق لايبارك الله فيه

وحدة الأمة ووحدة الثقافة

ليس من شك فى أن لمصر وضعا خاصا من الناحية الثقافية وذلك بحكم وقوفها بين حضارتى الشرق والغرب وجمعها بين المدنيتين الاسلامية والمسيحية ثم امتزاج الرواسب التاريخية فيها بتيارات العلم الحديث

ولقد يقال على ضوء هذا الوضع ان توحيد الثقافة فى مصر توحيدا يدعم وحدتها القومية ويتخذ أساسا لها أمر غير مستطاع . ولربما أضيف الى ذلك استفسار عن معنى وحدة الثقافة فى عالم يسير اليوم نحو التفرع فى التخصص والتنوع فى سبل المعرفة

وفى الحق ان كل هذه الاعتراضات انما تأتى من انواع من اللبس الذى يقوم بين الموضوعات والمناهج فى الحضارات المختلفة وفى مناحى التخصص العلمى المتباينة

ان الدول الاوربية قلما تقل عنا تنوعا فى منابع ثقافتها، وهى بلا ريب تفوقنا فى تنوع التخصص ومع ذلك نجحت تلك الدول فى توحيد ثقافتها توحيدا يعزز وحدتها القومية ويقيم بين أفرادها نوعا من التجانس العقلى والخلقى يسهل التفاهم بين أفرادها وييسر التعامل بينهم . ويكفى ان نشير فى هذا السبيل الى ان الحضارة

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٧/١٩

الاوربية تنهل من مصدرين يبدوان متضـــاربين وهمـــا الحضارة اليونانية الرومانيـة والحضـــــارة المسيحية ، وأولاهما وثنية وثانيتهما دينية موحدة ، ومع ذلك تمتزج الحضارتان في ثقافة موحدة هي مبعث قوة العالم الغربى ..

وهكذا يبدو كيف أن تباين مصادر الثقافة لا يمنـــع من وحدة تلك الثقافة وبذلك يتضح كيف أننا نســتطيع فى مصر رغم جمعنا بين الشرق والغرب وبين الاســـلام والمسيحية وبين الماضي والحاضر أن نوحد ثقافتنا على نحو يتضمن لامتنا وحدة قومية أوضح وأقوى من وحدتهـــا الحالية ..

نستطيع اذن ان نوحد الثقافة فى أمتنا والسـبيل الى ذلك نجمله في أمرين كبيرين : أولهما وحدة التعليم العام وثانيهما وحدة المنهج فيما يلي التعليم العام من دراسات

فأما وحدة التعليم العام فاننا نقصد بها وحدة التعليم الاولى الذى نص الدستور المصرى منذ سنة ١٩٢٣ على انه اجبارى وبالمجان . فهذا التعليم لو انه نفذ لما وجدنا مصر اليوم وعدد المتعلمين فيها لايعدو العشرين فى المائة . وليس باســتطاعتنا في مثل هذه الحالة ان نتحــدث عن وحدة الثقافة ما دام ٨٠٪ من الامة المصرية أميين

وفى الحق انه لمما يوجب الاسف ان يمضي على تقرير الدستور المصرى لتعميم التعــليم الاولى ما يزيد على ٢٧ عاما ومع ذلك لا يزال العدد الذى يمكن أن يجد له أماكن لتلقى هذا التعليم فى كافة المدارس المصرية أميرية وحرة أولية وابتدائية لا يتجاوز النصف من الاطفال الذين يقعون بين السادسة والثانية عشرة من عمرهم . وآخر احصـاء دقيق لدينا يقول أن عدد هؤلاء الاطفـــال يبلغ المليـونين ونصف المليون وان الذين يتلقون بالفعل هذا النوع من

التعليم لا يتجاوزون ١٢٨٤٢٢٣ منهم ٥٩٣٣٨١ بالمدارس الاولية التابعة لمدارس المديريات ، ٢٠٧٨٤٢ بالمدارس التابعة لوزارة المعارف فى المحافظات ، ٢٣٣٠٠٠ فى مدارس التعليم الحر ، والباقى فى مدارس الرياض والمدارس الابتدائية حرة وأميرية

مصر اذن لم تمهد حتى اليوم أماكن لتعليم الاطفال التعليم الاولى العام بحيث يشملهم جميعا هذا التعليم بل كل ما وصلت اليه هو اعداد أماكن لتعليم نصف أولئك الاطفال ومن البديهى أن تعميم التعليم الاولى الناجح هو أول خطوة بل هو الخطوة الاساسية نحو وحدة الثقافة وذلك لما هو واضح من أن الجهل والعلم لا يمكن أن يجتمعا فى وحدة

تعميم التعليم العام هو اذن أول عنصر فى وحدة الثقافة ، وما نحن بحاجة الى ان ندلل على التباين الواسع بين عقلية الرجل المتعلم وعقلية الرجل الجاهل وتنافر العقليتين تنافرا يؤدى الى تصدع وحدة الامة وعدم تيسير سبيل التعامل بين أفرادها

ولو اننا تركنا تعميم التعليم الاولى الى توحيد المنهج فى الدراسات التالية لهذا التعليم كعنصر من عناصر الوحدة الثقافية لوجب أن نلاحظ انه لا عبرة فى التعليم من حيث تكوين الشخصية البشرية بموضوعات ذلك التعليم كالطب أو القانون أو الهندسة أو الادب أو الدين أو غيرها وانما العبرة بالمنهج الذى تعالج به تلك الموضوعات. ووحدة المنهج هى التى تكون وحدة الثقافة أى وحدة العقلية وطريقة تناولها للناس والاشياء

ولكى نقرب من الاذهان معنى وحدة المنهج نستطيع أن نشير الى منهجين مختلفين تعرفهما مصر حق المعرفة وهما المنهج الازهرى القديم على نحو ما كان معروفا فى

القرون الوسطى والمنهج العلمى الحديث على النحو الذى يطبقه اليوم العالم الغربى

فالمنهج الازهرى يقوم على شرح النصوص القديمة وتحليلها واستنباط الاحكام منها وتخريج المعانى ، وهو منهج جدلى أكثر مما هو منهج انشائى يكشف عن الجديد أو يشق الحجب عن المجهول . ومع ذلك فله مكانته من حيث تدريب الملكات على الدقة فى التحليل والمناقشة

وأما المنهج العلمى الحديث فانه يبدأ بغربلة القديم فلا يستبقى منه غير الذى لا يزال حيا ثم يسير قدما الى الامام معتمدا على الخيال اعتماده على المنطق أو الجدل . وبفضل هذا الخيال يتصور القوانين التى تفسر ظواهر الوجود والانسان وتكشف عن غوامضه وتسخر قواه . وبالوسائل التجريبية تتحقق صحة تلك القوانين التى يصورها الخيال أو عدم صحتها ، وهكذا يستمر المنهج الحديث فى وضع الفروض وصياغة القوانين على أساس ما يصح من تلك الفروض الى أن ينتهى الى اكتشاف الحقائق العلمية الجديدة ، وتلك رياضة للملكات تختلف اختلافا كبيرا عن رياضة المنهج المنطقى الجدلى لها ، وذلك لما فيه من اطلاق أجنحة الخيال وتسخير وسائل التجربة والبعد عن اللفظية والتعمق فى فهم الواقع والسيطرة عليه

هناك اذن مناهج مختلفة للدرس . ومهما تنوعت موضوعات هذا الدرس فان باستطاعتنا ان نتناولها جميعا بمنهج موحد . وتوحيد هذا المنهج هو العنصر الثانى من عناصر الوحدة الثقافية للامة . ويا حبذا لو اضفنا هذا التوحيد الى تعميم التعليم الاولى فاننا بذلك نكون قد خطونا خطوة جدية نحو توحيد الثقافة

القسم الثانى

من آفات النفوس

سهام ماضية

هناك ثلاث رذائل كبيرة تنخر فى أخلاق الكثـــير من المصريين على نحو لم أر له شبيها فى بلد من بلاد العالم على كثرة ما رأيت من بلاد وقابلت من بشر ، ولابـــد من أن نفضحها لعلها تخفى عن نواظرنا شبحها المرذول فقـــد سئمت لقياها فى كل سبيل وبمنحنى كل نفس

أما أولاها فهى محاولة كل انسان أن يوهمك أنه أكبر وأفضل وأعلم مما هو • ولقد كان من عادتى الصبر فكنت أتلقى هذه الدعاوى بصدر رحب ، ولكننى لم أكن ألبث أن أحس بنوع من اختلاس الثقة يحاوله من يتخطى حـــدود نفسه • وليس أمر على النفس ولا أهيج للحفيظة من خيبة الامل • وانه لمن اليسير على من أوتى شيئا من الفراســة وسداد الرأى أن يحكم على الناس وينزلهم منازلهم الحقة ، وانه لمن الخير لنا جميعاً أن نحاول دائما احتلال المـــكان الذى نستحقه فى النفوس دون تطاول أو انحطاط ، وأما الاقحام فما نظنه يعقب أثراً باقيا حتى ولا بنفوس البله • ولست فى الحق بواثق من أن أمثال هؤلاء الناس الذين نشكو منهم الآن مر الشكوى يعون ما يفعلون ، أم هم فى غفلة الغرور • ولكننى لاحظت فى الغالب الاعم أنهم مشربون

(*) نشرت فى ١٩/٣/١٩٤٥

بحقارتهم ، وأنهم يبذلون مجهودا اراديا لتغطية تلك الحقارة بالابهام • وذلك لما نلاحظه من هياج فى الحركات وضغط على مخارج الحروف وتصنع للانفعال وارتفاع فى الصوت وهلهلة فى ملامح الوجه وتنطع فى السكون والحركة ••

وثانيتها غيرة مسرفة وحقد عجيب • ولكم ساءلت نفسى لماذا يشغل الناس أنفسهم بغيرهم الى هذا الحد المدمر ، وتلك مشاعر خليقة بأن تنزل بالنفس الخراب • والذى عهدته فى النفوس القوية هو نزوعها المستمر الى التسامى بذواتها • فهى تسعى لأن تكون فى يومها خيرا من أمسها، وأن تعمل فى غدها ما يبز عملها فى حاضرها ، فاذا عـز التسامى كان الاستجمام فى ثقة وتوثب • وأما أن يفنى المرء بياض يومه وسواد لياليه فى التفكير فيما وصل اليه هذا الشخص أو ذاك ، أو الخوف من أن يسبقك زيد أو بكر فهذا شعور صغير لا تعرفه الا نفس صغيرة ،وهو دليل عدم الثقة بالنفس كما هو دليل على انهيار الشخصية ، وان كان هناك شعور قبيح من مشاعر البشر فأجدر به أن يكون هذا الشعور ••

وثالثها فساد عميق فى تربية الناس الاجتماعية ، فقد تلاقى صنوفا من الافراد بعضهم صغير وبعضهم كبير ،ولقد تتلطف مع الصغير بدافع انسانى برىء ظانا أنك بعملك هذا تدخل السرور على نفس بشرية ، فاذا بك وقد سقطت هيبتك من قلبه ، واذا به يتطاول الى المساس بك فى غير ذوق ولا حياء •• ولقد تفسح فى صدرك ، ثم يأتى يوم يتحرك دمك فاذا بك ترد فى عنف ، واذا بالمسكين يصحو بعد غفلة ، واذا به يشكو دون أن يفهم شيئا أو يدرك له محنة • واذا كان كبيرا ولكنه صغير النفس وعاملته فى

رفق وتأدب ظن معاملتك ضعفا ، أو خيل اليه وهمه ذلك، فاذا جاء يوم وصفعته صفع الأقوياء لانك رجل عزيز النفس حامي الدماء أسقط في يده وأخذه اما عناد الحمقى واما انهيار الاذلاء • ولست أدرى لذلك من سبب غير فساد التربية الاجتماعية ، فسادها في المنزل وفي المدرسة وفي الوظيفة وفي الشارع وفي الدكان وفي المصرف وفي كل مكان ، حتى لكأنك تسير في بلد كله أرقاء ، سيان في ذلك سيدهم ومسودهم ، رئيسهم ومرؤوسهم ، بلاد منكودة وأخلاق مسفة ! أي عذاب نفسي في أن تراك مضطرا الى تقدير كل لفظ تقول وكل حركة أو ابتسامة أو تقطيب جبين ! أناس لا فهم لهم ولا تقدير ، لا يعرفون حدا يبدأون منه ولا حدا ينتهون اليه .. ترى باستطاعتك ان تخلق لنفسك عقلية جديدة وذوقا جديدا وتربية جديدة تماشي بها الناس ، أم تأخذك العزة فتثبت كما أنت محاولا أن تنقل العقول وتحول الاذواق وتسدد التربية ! تستطيع أن تتفاهم مع الناس أو أن تقبلهم أو تطيق عليهم صبرا • هذه أسئلة لا يستطيع الاجابة عليها غير الله فاليه نفوض الامر

الغــــرور

قلت لصاحبى بودى لو حاولت أن أحلل فى بضع مقالات بعضا من الآفات التى نلمسها كل يوم عند من نلقى من مواطنين ، فأجابنى وماذا أنت قائل بعد هذا التحليل وهل لديك علاج لما ستعرض له من تلك الافات ؟ وكان ردى سريعا اذ أخبرته بأن هذا التحليل سيحمل العلاج فى حناياه وذلك لأن المرضى بتلك الآفات لا بد أن يفيدوا مما يقرأون من تحليل اذ يتبينون تلك الافات ومسالكها الخفية وما لها من تأثير فى حياتهم واذا بهم يكافحون تلك الافات التى خرجت من الظلام الى النور ولم تعد تعمل فى نفوسهم عملها الهدام على غير وعى منهم ..

وقلت لصاحبى دعنا نبدأ بالغرور ولكنه ود أن لو بدأنا بالنفاق الذى يرى فيه أكبر آفة نفسية منتشرة فى بلادنا ولكننى لم أقره على هذا الرأى وذلك لاننى لا أرى النفاق الا تفريعا عن ظاهرة نفسية أكثر عمقا وعموما وتلك هى ظاهرة الغرور . والغرور أمارة ضعف فى النفس وانهيار فى الثقة الذاتية وتفاوت واسع بين القدرة والطموح ، وبين الامل والواقع وبين الحقيقة والخيال

وآية ما نقول انك لن تعدم العثور على رجال من ذوى

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٨/١٥

الشخصية القوية والعقل الراجح لا يرون بدا من استخدام النفاق مع علمهم بما يفعلون وتألمهم له أو سخريتهم الدفينة منه وذلك عندما يلقى أحدهم فى الحياة رجلا أو شابا مغرورا تقضى الضرورة باستئناسه فلا يرى صاحبنا بدا من أن يتملق غروره وأن يرضى كبرياءه الكاذب بألفاظ كأنها لم تخلق الا لاخفاء رأيه الحقيقى أو احساسه الدفين

وللغرور مظهران أولهما ايجابى وثانيهما سلبى

فأما المظهر الايجابى فهو ذاك الذى يطالعك عندما ترى صاحبه وهو الحدث الغض ، أو الكهل التافه يتحدث عما وهب من ملكات أو أوتى من قدرة أو رزق من جرأة وهو لا يدرى مبلغ ما يثيره حديثه عند الأذكياء من سامعيه من سخرية قد يجابهونه بها اذا امنوا جانبه وقد يكتمونها على مضض اذا دعت الضرورة

لقد لقيت يوما شابا رخو الاهاب قضت تصاريف الحياة ان الاينه وأنا الشرس الملمس لان بين يديه حياة أناس عهدوا الى بالدفاع عنها،وما كادت تمضى دقائق حتى ينهض فتانا وكأنه الغضنفر الهصور الى جوار مكتبه الذى يتكىء على حافته براحتيه ويحنى الى الامام قليلا قوامه المشوق أو غير المشوق ويصيح بأعلى صوته لمن يحدثه بأن الرجل الذى يستطيع أن يخدعه لم يخلق بعد،وأنه الآمر الناهى فى هذه الساحة لو شاء أحيا ولو شاء أمات ، ولو شاء أبقى ولو شاء ...؟ ثم يعود الى الجلوس بعد أن يكون زبده قد تطاير كثغاء البعير وكل ذلك يجرى وبالنفس ابتسامة مرة دفينة .لا تبلغ حد الغضب وان تكن أبعد الاشياء عن الرضا ، وهى ابتسامة اشفاق لا تحمل غير الاحتقـار . وليس هذا الاحتقار دفاعا عن النفس ، وانما هو حـكم

عقلى صارم على نقص فاضح فى ذكاء هذا الفتى وما هـــو الذكاء أن لم يكن الاحساس الصادق بما يمكن ان تحـدثه تصرفاتنا أو أقوالنا من أثر لدى الغير ؟!

ولقد يتخذ هذا الغرور الايجابى مظهرا خبيثا فاذا بك ترى صاحبه المنهار يبدى نوعا من الاستهتار أو الاستخفاف أو الاحتقار لكل ما يحيط به وكأنه لا يعبأ بشىء ولا بأحد مع أن النملة تقض مضجعه ، والظل يضنى خياله ،واللفظ يكوى شغاف قلبه وهذا هو النوع العميق المدمر لانه يبدو كاليأس وهو لوعة أو كالتجرد وهو حرص أو كالراحة وهو ألم دفين لا تهدأ له نار ، وأمثال هذه النفوس تحزن ولكنها لا تثير ، وذلك لانك لا تكاد تخالفها فى الرأى حتى تسلم قيادها وتلزم الصمت ان لم تقرك على ماترى من قيم تستحق الاعجاب بدلا من الاستهتار أو الاستخفاف أو التحقير

وأما المظهر السلبى للغرور فهو ذلك الذى تلمسه عند بعض النفوس عندما تطريها بلفظ أو تطريها بحركة أو تهدهدها بايماءة فاذا بها تنتفض كالعصفور المبلل لتطلق أجنحة من زغب تحسبها أجنحة النسور الضارية وهى فى الحق كزعانف السمك • وانه لمن الشاق أن ينجو المرء من هذه الافة وما يستطيع ذلك غير ذوى العقول المهيمنـــة والشخصيات الدامغة أولئك الذين لا يؤذيهم فى شىء ان يقول عنهم الغير ما يريدون من قدح ولا يغويهم ما ينثرون من اطراء لعمق ثقتهم بأنفسهم وتحصنهم فى هذه الثقة حتى لتراهم لا يقنعون بالتواضع بل يهاجمون أنفسهم وكأنهم يداعبونها ولو أنك استطلعت ما يكمن فى حناياهم لوجدت ايمانا راسخا بأن سامعيهم لن يصدقوا شيئا مما يقولون • وموضع النقص عند هذا الصنف القـــوى من الرجال

هو أنهم يفترضون الذكاء عند الغير مع أن ســـوء الظن عصمة ..

وطرب الغرور هو مصدر التملق وبمقدار انتشار هذا الغرور فى احدى البيئات ينتشر التملق لان التملق لا يكون الا ارضاء لغرور الغير ولكم من مرة يعبث الخبثاء بهـــذا الغرور وان تفاوت هذا العبث تبعا لقدرة العابث فى اخفاء صنعته أو تبعا لمدى غباء من ينصب عليه ذلك العبث

الغرور تمشدق مضحك أو طرب ساذج للتملق ، وهو آفة يمكن القول بأنها تطرد اطرادا عكسيا مع نضج النفس وقوة الشخصية والتعمق فى الثقافة

الاســـتهتار

وأصر صاحبى على أن يكون حديثنا اليوم عن الاستهتار ،*
وحسبته يقصد بذلك الى الناحية الاخلاقية ، اذ يستعمل لفظ الاستهتار بمعنى التبذل والعربدة والانحلال فيقال شاب مستهتر وفتاة مستهترة ، ولكننى أكبرته عندما رأيته يتعدى هذا المعنى الدارج الى ما هو أعمق منه أثرا وأشد فتكا بالنفوس ونعنى به الاستهتار الذى يفيد عدم الاحساس بالمسئولية والتهاون فى الدقة سواء أكان ذلك فى الحياة العملية أم فى الحياة العقلية ، وان يكن مرده فى الحالتين الى حالة نفسية تنم عن انعدام النظام العقلى الذى يسيطر على العمل والفكر معا

وفى الحق ان الاستهتار بالمعنى النفسى خطر على الافراد والامم كالاستهتار بالمعنى الاخلاقى وذلك لانه يتناول الحياة بشقيها جدها وهزلها ، ولربما كانت هذه الآفة هى السبب الاول للفشل فى الحياة وذلك لانه كثيرا ما تأتى أضخم النتائج عن أتفه الاسباب ، ولقد يطيح تهاون يبدو خفيفا بثمرة العمر ، والتهاون الاخلاقى قد يشفيه الزمن ان لم يشفه البشر .. واما التهاون النفسى فلا يزيده الزمن الا رسوخا

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٨/٢٩

حتى يصبح طبيعة ثانية وحتى يقوض الحياة من أساسها

ولطالما اضنيت الفكر لكى أتعرف سبب انتشار هذه الآفة فى العالم الشرقى على نحو فادح لا نجده عند الغربيين حتى لرأيتها تلاحق الكثيرين ممن يرحلون من مواطنينا الى بلاد الغرب بالرغم من البيئة المحيطة التى تستنكرها أشد الاستنكار وتسميها لينا حينا وميوعة حينا آخر

والذى يبدو لى هو أن هذه الافة ترجع الى عدة عوامل بعضها اجتماعي وبعضها الاخر نفسى

فالاستهتار ضرب من اليأس والرهبة من الحياة وعدم السيطرة عليها وذلك لان الامل والاقبال على الحياة وروح الاستبشار خليقة بأن تعطى لكل شيء قيمة وأن تدعو الى الاهتمام بكل أمر كما تشحذ الهمة وتثير النشاط وتخلص العزم من الكسل الذى يكمن فى كل استهتار نفسى ..

واما عن سبب ذلك اليأس فانه وان يكن للعوامل الطبيعية كالحرارة وطبيعة الارض المنبسطة أثرها فى تكوين هذه الظاهرة النفسية الا أننى أعتقد أن العوامل الاجتماعية أشد تأثيرا فى تكوين هذه الظاهرة ويكفى أن نشير فى ذلك الى اختلال سلم القيم نتيجة لرواسب كثيفة من عهود الظلام والى اتساع الهوة بين المثل الروحية التى تسبح فى الشرق وبين واقع الحياة المر وفى هذه الهوة تتساقط النفوس حيث يتلقفها يأس قاتم، ولكم من شاب تصطدم نزعته الخيرة بصخرة شرسة فيتحطم الامل فى نفسه واذا بالاستهتار يفترسه

***

الاستهتار اذن يأس نفسى ولهذا اليأس أسبابه التى تلعب فيها الحياة الاجتماعية الدور الاول ولكنه أيضا انعدام للنظام العقلى وتلك ظاهرة يفسرها فساد التربية

وفساد التعليم معا وما نريد أن نتمهل عند فساد التربية لوضوح الامر فيها ويكفى أن نذكر فى هذا السبيل أن الاباء والامهات لا يعرفون فى تنشئة أبنائهم معنى التربيـــة الاستقلالية التى تلقى على الطفل مسئولية الحيـــاة منذ نعومة أظفاره فيعودونه على العناية بجسمه وغـذائه ولباسه وترتيب كل ذلك وتنظيمه وتحمل عبئه ، ولعـل فساد التعليم أشد حاجة الى الايضاح وكل هذا الفساد أو معظمه يرجع الى ظاهرة واحدة وهى عدم الدقة فى المقابلة بين الالفاظ والمعانى ، وعدم الفطنة الى أن كل لفظ لابد أن يحمل قيمة محددة حتى يربى الفكر على وضوح الرؤية العقلية فلا يعود يرى ألفاظا بل يرى معانى ومجسمات

ان عدم المقابلة الدقيقة بين الالفاظ ومدلولاتها تعـود العقل نوعا من التهاون وهو ذلك الاستهتار النفسى الذى نرى فيه آفة مدمرة من آفات النفوس ، وفى اليوم الذى يخيل الينا اننا نستطيع أن نستعمل هذا اللفظ بدلا من ذاك دون أن نحس بأننا قد خنا أنفسنا يمكن القول بأننا لن نستنكف من أن نتهاون فى أداء هذا العمل أو ذاك وفى التعبير عن تلك الفكرة أو ما يقاربها وبمجرد أن تولد فى النفس بذرة الاستهتار لن تلبث أن تنمو وتتفتق

لقد يقول قائل ان اللغة وطريقة استخدامها لا تكون العقلية ولا تخلق الحالة النفسية ولكن مثل هذا الاعتراض لا يمكن أن يوصف بغير السذاجة وذلك لان اللغة هى فى الواقع مستودع الحياة البشرية وليس من شك فى أن اللغة تسمو وتنحط بقدر ما لاهلها من نظام عقلى ودقة فى الرؤية وصلابة فى السلوك وليس من شك فى أن الرجل الامى فى بيئة ذات لغة منظمة قد يصل مستواه العقلى الى

أعلى مما يصل اليه رجل يسمى متعلما فى بيئة ذات لغة غير منظمة

اننا لا نشكو في الشرق من الاستهتار الاخلاقى بقدر ما نشكو من الاستهتار النفسى • والاستهتار النفسى أصعب علاجا من الاستهتار الاخلاقى ، هو الداء العضال وهو كما قلنا الافة المستقرة فى الكثير من الحيوات الفاشلة

ان العقل المهيمن هو ذلك الذى يستطيع أن يقول الاشياء الكبيرة بألفاظ صغيرة وكذلك الخلق القوى هو ذلك الذى يدرك أن كبائر الامور قد تترتب على صغار الاسباب فيعطى لكل شيء الاهمية الواجبة حتى ولو لم يتبين للنظرة الاولى نتائجه بل ودون أن يبحث عن هذه النتائج وبذلك تصبح العناية ويصبح الاهتمام والشعور بالمسئولية نظاما عقليا وسلوكا فى الحياة مكتفيا بذاته جامعا بين بواعثه وأهدافه ••

الإغماء العقلى

الاغماء العقلى عبارة نود أن نسجل بها تلك الظاهرة النفسية التى نشاهدها كل يوم عندما نرى السيارات تدق فى الشوارع آلات التنبيه على مسافة خطوات من بعض المارة ومع ذلك لا يتنبه أولئك المارة ولا يفيقون من غفلتهم، أو عندما تحس وسط الزحام فى الترام أو القطار أن جارك قد وضع قدمه فوق قدمك دون أن يحس هو بشيء أو يفطن الى شيء ، ثم تأخذ فى سحب قدمك وهو مستمر فى شرود لبه وكأن جهادك لا يحرك أى عضل من عضلاته • أو عندما يقف الترام أو القطار وتحاول النزول فلا يتحرك جار ولا يفسح سبيلا ، وذلك لا عن عمد ولا شراسة ولكن لانه ذاهل عما حوله غارق فى نفسه ، أو متبلد رغم فراغ تلك النفس من كل ما يمكن أن يشغلها

الاغماء العقلى هو اذن تلك الحالة النفسية التى تصرف الافراد عن الفطنة الى ما حولهم والتنبه الى الاخطار التى تحيق بهم أو المضايقات التى ينزلونها بغيرهم وهى حالة كثيرا ما تلوح عضوية بحتة حتى لكأنها مجرد نقص فى قوى الافراد العصبية وفى قدرتهم على بذل ما تتطلبه يقظة

(*) نشرت فى ١٩٥٠/٩/١٢

الذهن وملاحظة العالم الخارجي من مجهود

ولقد ترددت فى أن أتحدث عن هذه الحالة النفسية فى مصر كآفة من آفات النفوس ، لان دخل الارادة فيها لا يبدو واضحا وهى أقرب الى أن تكون آفة ولكنها مع ذلك مصدر شقاء لاصحابها ولغير على السواء

لقد قلنا ان الاغماء العقلى يكاد يتخذ مظهرا عضـــويا والسبب فى ذلك هو أنه وان يكن ناشئا عن ضعف جثمانى راجع للامراض ولسوء التغذية أو الى تسلط الهموم وطغيان الافكار الثابتة الا انه لطول ملازمته للافراد ينتهى به الامر الى أن يصبح عادة أو صفة طبيعية ملازمة على نحو ما يتصف الماء بالميوعة مثلا أو الحجر بالصلابة

والذى لا شك فيه أن للضعف الجثمانى أثرا بعيد المدى فى تلك الحالة النفسية المحزنة وذلك لما يحدث هـــذا الضعف من تأثير على الجهاز العصبى الذى تصدر عنه اليقظة العقلية ، ولا أدل على ذلك من أنك لو فاجأت أحد أولئك الذاهلين بسؤاله عما يشغله لما استطاع أن يعطيك جوابا محددا ،فهو ذاهل دون أن يعرف سبب ذهوله ولا مصدره. ولقد يخيل اليه أحيانا أنه يفكر فى شىء بينما هو لا يستبين فى وضوح ذلك الشىء وانما يغشى عقله ضباب يشله عن الرؤية .. انه فى نوم أو حلم يقظة .. انه فى حالة اغماء عقلى ..

الاغماء العقلى مرتبط اذن ارتباطا وثيقا بالجهاز العصبى وليس من شك فى أن هذا الجهاز يبدو أقل قوة فى البلاد الحارة منه فى البلاد الباردة كما أن لنظام المعيشة ووسائل الحياة وغنى أو فقر التغذية وسلامة الجسم من الامراض أو اصابته بها أثرا بالغا فى قوة ذلك الجهاز أو ضعفه

وضعف الجهاز العصبى يحرم الفرد من السيطرة على

ما يشغله من هموم فتراها تستغرقه حتى لتستبد به الفكرة وتلازمه ملازمة الظل للعود ، لا يستطيع منها فكاكا واذا به فى اغماء عقلى فلا يقظة فى عقله ولا ملاحظة لما يحوطه بل ولا احساس ، ولعل لكثرة الهموم التى تسوقها الحياة فى بلد كمصر نتيجة للصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التى يلقاها الافراد دخلا كبيرا فى تفشى تلك الحالة النفسية التى كثيرا ما تؤدى الى أنواع من سوء التفاهم بين الافراد اذ يظن المرء بأخيه غلظة فى الطبع أو سماجة فى الخلق أو ضعفا فى الذوق أو وقاحة فى المعاملة بينما الحقيقة هى ذلك الاغماء العقلى الذى قد لا يستحق المصاب به غير الرثاء والاشفاق ..

والاغماء العقلى بعيد الاثر فى حياة الافراد والجماعات وذلك لا لأنه يسىء الى العلاقات الاجتماعية بين النـــــاس فحسب بل ولانه يحرم الافراد والامم المصـــــابة به من السيطرة الحقيقية على العالم الخارجى .. اذ أن الوسيلة الاولى لتلك السيطرة هى القدرة على الملاحظة . وماالادوات العلمية الا وسائل لمساعدة تلك القدرة التى بفضلهـــــا يكتشف العلماء قوانين الطبيعة وقوانين المادة،وبواسطةتلك القوانين تسيطر الانسانية على قوى العالم المادى والروحى

***

وليست الفنون الجميلةبأقل تعرضا للتأخر بينالمصابين بالاغماء العقلى من الحياة المادية وذلك لأن مصدر ازدهار تلك الفنون انما هو الفطنة الى العالم الخارجى وما يحوى ذلكالعالم من آياتالجمال ، ثم القيام بنوع منالاستطراف بين النفس البشرية وآيات ذلك الجمـــال . وكيف لنفس مصابة بالاغماء أن يجرى الاستطراف بينها وبين ما يحوطها لقد قال الفيلسوف الفرنسى « جان جاك روســـــو »

انه لا بد لنا من كثير من الفلسفة لكى نلاحظ ما نراه كل يوم واننا لنود ان نكون أكثر تواضعا لنقول اننا فى حاجة الى شىء من يقظة العقل والحواس لكى نلاحظ ما يحيط بنا ولكى نكيف سلوكنا على أساس تلك الملاحظة

ان باستطاعة من يشاء أن يقف فى زاوية أى طريق من طرقنا ليتفرس فى أوجه المارة ولسوف يرى عندئذ مدى انتشار تلك الظاهرة المحزنة التى نسميها بالاغماء العقلى وله بعد ذلك أن يبحث عما شاء من أسباب وانه لن يهتدى الى غير ما ذكرنا من عوامل طبيعية وصحية واقتصادية واجتماعية تجتمع وتتداخل لتولد تلك الظاهرة التى نظن أنها قـــد وصلت من الاستفحال الى حد لا مثيل له فى أوربا مثلا

لقد يصح أن يقال ـ كما أسلفنا ـ أن الاغماء العقلى ليس آفة نفسية ولكنه محنة ، ومع ذلك فان الكشف عن حقيقته قد يؤدى الى نوع من التسامح فى معاملة الافــراد بعضهم لبعض . ولو أننا انتهينا من هذا الحديث القصير الى هذه النتيجة المتواضعة لاطمأنت النفس الى أن الجهد لم يضع هباء

أزمة الضمير

يتحدث جميع المصريين فى هذه الايام عن عدة أزمات يهتز لها كيان الوطن ومصيره ، فهناك الازمة الوطنية والازمة الاقتصادية ، والازمة الدستورية . وحدثنا أخيرا عميد الادب العربى الدكتور طه حسين عن أزمة الادب .

وانه ليحزننا أن نلفت النظر اليوم الى أزمة أخرى لا تقل عن الازمات السابقة فداحة ولا عمقا وهى أزمة الضمير التى قد تكون سببا وقد تكون نتيجة للازمات السابقة كما أنها قد ترجع الى عوامل أخرى تنفعل بها أو تؤثر فيها .

فأما عن وجود تلك الازمة فذلك ما يلاحظه كل فرد فى كل بيئة ، وما تكاد تمر ساعة من ساعات النهار حتى تسمع الشكوى ترتفع من انعدام الضمير عند معظم من تلقاهم ، فالمواطن يشكو من الموظف والموظف يشكو من زميله والمشترى يتخون البائع والبائع يود أن لو افترس المشترى وكذلك الامر بين المريض وطبيبه والمحامى وموكله وصاحب العمل وعامله والمالك والمستأجر .. ألا ترى أحدا يطمئن الى ضمير الاخر ويكتفى برقابته حتى ليكاد المرء يحس أنه

(*) نشرت فى ١٩٥٢/٨/١٥

يتخون نفسه ولا يطمئن الى سلامة قيامه بواجبه نحوها ، وتلك حالة خليقة بأن تقوض الحياة الاجتماعية من أساسها

ولو أننا حاولنا أن نشخص أسباب تلك الازمة الخطيرة لتشعبت بنا السبل .. فالروحانيون ورجال الاخلاق يزعمون أن سببها الاول هو ضعف سلطان الاديان ومبادىء الاخلاق على النفوس ، ولكنك مع ذلك لن تعدم السماع عن اللصوص الذين يزاولون عملهم فى دور العبادة ذاتها كما لا تعدم سماع من يردد آيات الكتب المقدسة ووعد الله ووعيده ومع ذلك لا يلبث من يرددها أن ينقلب الى سب جاره أو تمزيق عرضه وأحيانا السخط والتمرد على القدرة الالهية ذاتها اذا مسه الضر ـ وازاء هذا التناقض يرى بعض المفكرين الاجتماعيين أن القدوة والمثل الصالح هما اللذان يغرسان قوة الضمير فى النفس البشرية عن طريق اثارة الاعجاب وذلك لان النفس البشرية نزاعة بطبيعتها الى التسامى والطموح بحكم حبها لذاتها ومن هنا يرون فى تدريس حياة عظماء الرجال ذوى الضمائر الصلبة وسيلة فعالة لتنشئة الشباب

ومن المفكرين الماديين من يرى أن قوة أو ضعف الضمائر لا ترجع الى الروحانيات ولا المثل المقتداة ، وانما تكيف تبعا للنظم الاقتصادية والسياسية السائدة فى الامم المختلفة فحيث تستقر تلك النظم وتتحقق العدالة التى تكفل لكل ذى حق حقه بالطرق المشروعة تستقيم الضمائر ولا يتساق الافراد الى النفاق والفساد والالتواء لمواجهة أعباء الحياة ومع ذلك يأبى بعض المفكرين الاخرين أن يأخذ بهذا الرأى أيضا فيزعم أن النظم مهما كانت سليمة فى ذاتها لن تلبث ضمائر المواطنين الفاسدة أن تتلفها عند التطبيق وتحيلها شرا مستطيرا . وكم من سياسى ينادى بأن العبرة ليست

بالنظم فى ذاتها وانما العبرة بسلامة ضمائر المواطنين وصرامتها وانك مالم تصلح الضمائر فلا جدوى فى اصلاح ..

وفى الحق أنك قد تلتمس شيئا من العذر للرجل الذى يفسد الظلم أو الفقر ضميره ولكنك مع ذلك لا تدرك كيف تفسر فساد ضمير الظالم المسيطر أو الثرى المترف واذا كان الرجل الفقير أو الضعيف يكذب أو ينافق خوفا من الاذى أو جلبا للمنفعة فلماذا يكذب أو ينافق الغنى عن الناس أو المسيطر بجاهه وسلطانه . وكم من مرة تسمع الوعود والامانى من اناس لا يضطرهم الى بذلها شىء ولا أحد ثم تتمخض الايام عن كذب وعودهم دون أن تتبين سببا جديا لعدم الوفاء غير سوء الضمير ، وانهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ولهوان ذلك التصرف على نفوسهم وضعف رقابة الضمير على أقوالهم وأفعالهم ..

هذه بعض مظاهر أزمة الضمير التى تنخر فى عظام الامة وتلك بعض أصولها المتشعبة فى جميع نواحى نشاطنا البشرى وهى تستحق بلا ريب البحث والعلاج بقدر ما تستحق الازمات الاخرى وان كنا نعترف بأنها أكثر تلك الازمات تشعبا وأشقها علاجا دون أن يمنعنا ذلك من الدعوة الى امعان النظر فيها لعلنا نخفف من حدتها ويكون فى هذا التخفيف ما يساعدعلى حل الازمات الاخرى التى وان تكن مظاهرها أكثر مادية ووضوحا من أزمة الضمير الا أنها لا تفوقها أذى ..

القسم الثالث

فى السياسة والاقتصاد

وظائف الدولة

قرأت فى مجلة «الثقافة» مقالا عن تدخل الدولة يقول كاتبه انه راجع تاريخ الهند والصين واليونان فى العصور القديمة ، فوجد أن تدخل الدولة فى حياة تلك الامم أدى الى انحطاطها ، ولكننى لا اعرف فى تاريخ تلك البلاد انه قد قامت بها فى العصور القديمة حكومات موحدة ، وانه قد كان هناك تدخل من تلك الحكومات . وانا اترك جانبا الهند والصين ، فتاريخ تلك البلاد القديم لا أعرفه على وجه واسع دقيق على نحو يمكننى من الحكم على علاقة الدولة بالفرد ، واما اليونان فأنا أعلم انه لم يكن بها قديما غير مدن كأثينا وأسبرطة وطيبة ، وكانت كل مدينة تكون دولة . وفى أهم تلك المدن وهى أثينا كان الشعب هو الدولة ، فالشعب كان الحاكم لنفسه المتدخل فى أمر نفسه ، وكان فى هذا مجد أثينا وقوتها لا ضعفها وانحلالها .

واما القرون الوسطى فأمرها معروف ، اذ فيها ساد النظام الاقطاعى فلم تكن هناك دول ، واذن فلست أفهم كيف تدخلت تلك الدول التى لم توجد فى حياة الشعب؟ وانما الذى نعرفه هو ان « اتحادات المهن » هى التى

(*) نشرت سنة ١٩٤٣

وجدت وتحكمت فى الافراد

بقيت العصور الحديثة ، ومن الغريب ان يقول الكاتب انه لم يوجد « مؤلفا ولا مشرعا ولا كاتبا » دعا الى تدخل الدولة بصراحة . وانا طبعا كنت أتمنى أن أكون المجلى فى هذا الميدان ، ولكننى لسوء الحظ قد سبقت اليه . سبقنى اليه عشرات بل مئات من كبار المفكرين . سبقنى شفلييه ، ولويس بلان ، وكورنو ، ورودبرتس ، ولاسال وفنجر ، وكثيرون غيرهم ممن يجدهم الكاتب الفاضل فى جميع الكتب التى تتحدث عن تاريخ المذاهب السياسية والاقتصادية (١)

وانا بعد لست بحاجة الى أن ألفت النظر الى مافى الاراء المبتسرة من خطر ، وليس أقتل لنهضتنا الحالية من النقل عن الاوربيين فى غير فهم واضح لاعتبارات التاريخ والبيئة . فما قاله جوستاف ليبون من سر تقدم الانجليز السكسونيين وتخلف الشعوب اللاتينية كلام قديم قلما تجد فى أوروبا اليوم من يؤمن به ، فالزمن قد تغير ، وجميع الدول تسير الان راضية أو كارهة نحو التدخل فى كافة مرافق الحياة . حتى الانجليز أنفسهم فى سبيل العدول عن مبدأ الحرية ، حتى لنستطيع ان نقول ان حزب الاحرار قد مات فى انجلترا حيث ولد ، وان نظريات سمث وريكاردو وغيرهما قد دخلت فى حكم التاريخ . ثم اننا غير تلك الدول : تاريخنا غير تاريخهم ، وتربيتنا غير تربيتهم ، وأخلاقنا غير أخلاقهم ، وليس الامر أمر مناقشات نظرية وتعميمات لا حق لنا فيها ، وانما الامر أمر حقائق واقعية

(١) « تاريخ المذاهب الاقتصادية » Histoire des doctrines économiques par Ch. Gide et Ch. Ritst حيث توجد من صفحة ٤٨٥ الى صفحة ٥٣٥ فصل من «اشتراكية الدولة» التي سميت تدخل الدولة

وانه وان يكن من المفهوم ان المجلات كالثقافة او غيرها ليست منابر للتدريس ، الا انني مع ذلك سأحاول ايضاح معنى تدخل الدولة في حدوده وغاياته ، ولعله يكون من واجبنا وواجب غيرنا من المشتغلين بالمسائل العقلية ان يوضحوا السبل ويحذروا من الاخطاء ، حتى لا تفسد الغرائز والشهوات الفطرية حياتنا العامة

مبدأ تدخل الدولة لم يعرف الا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد كان ظهوره كرد فعل لمذهب الحرية في الحياةالاقتصادية . ولكي نخرج من الجدل النظري الذياشتبك فيه أنصار وخصومكلمن المذهبين، دعنا ننظر في بساطة الى وظائف الدولة لنحدد موضوع الخصومة ..

هناك وظائف ثلاث لا ينازع أحد في وجوب نهوض الدولة بها وهي : (١) الامن الذي يحققه البوليس والخفراء (٢) سلامة الوطن التي يحميها الجيش (٣) تطبيق القوانين باشراف القضاء

ولكن هذه الوظائف ليست كل شيء في حياة الامة ، فثمة الحياة الثقافية التي ينهض بها التعليم ، والحياة الاجتماعية بما تتبع من اقامة التوازن بين الطبقات المختلفة ورعاية حقوق كل طبقة ، واخيرا الحياة الاقتصادية من انتاج وتداول واستهلاك

فأما الحياة الثقافية ، فلستأدري من الذي يستطيع أن يدعو الحكومة المصرية الى عدم التدخل فيها حتى لا تنحط الامة ؟ ! يقول الكاتب ان الجامعات في انجلترا من عمل الشعب . قد يكون . ولكن ماذا يريد أن نعمل في مصر ؟ هل ندعو حكومتنا الى أن ترد جامعة فؤاد(١) الى حالتها الاولى لتظل جامعة أهلية ؟ هل نطالبها باغلاق

(١) جامعة القاهرة الآن

جامعة فاروق (١) لتترك الشعب يفتحها متى شاء ؟ ولقد استشهد الكاتب برأى لوزير الشئون الاجتماعية عن وجوب نهوض الشعب بحركة التعاون .طبعا يجب على الشعب أن يكون تلك الجمعيات ، ولكن أما ترى أن الوزير شديد الاهتمام بقانون التعاون وببنك التعاون ، وبتنظيم التعاون ، وبمجلة التعاون التى يحاجنا الكاتب بآرائها ؟! وما معنى كل هذا ؟ أليس هو تدخل الدولة الذى سبقتنى اليه الحكومة ؟ ! ثم أو ما ترى أن الحكومة الحاضرة سياستها كلها تقوم على التدخل فى كافة مرافق حياتنا التى أصابها ركود الاهمال الحكومى ؟ والتعليم بنوع خاص ، ألسنا نرى الدولة تهم بأن تتدخل فيما يفزعنا أن تتدخل فيه . لقد اعتزمت دولتنا ان توجه الاجيال القادمة الى ميادين النشاط المختلفة التى يصلحون لها، فمنهم من سيوجه الى مدرسة ثانوية صناعية او تجارية او زراعية أو نظرية ، وهذه خطوة شهدت الكتاب والسياسيين بل الأفراد العاديين يقتتلون حولها فى فرنسا أيام الوزارة الاشتراكية وزارة ليون بلوم ، التى لم تجرؤ ان تجعل « التوجيه المهنى » اجباريا مكتفية بجعله مجرد نصيحة تسدى للأولاد والآباء . واذا كنا قد وصلنا من التدخل فى التعليم الى هذه الدرجة او سنصل فهل يأتى اليوم أحدنا فيقول ان أحد وزرائنا يحث الشعب على العمل ، وبذلك تكون سياستنا الآن عدم التدخل ؟! هذا فهم غريب وفقر فى ملاحظة التيارات العامة فى سياستنا . وأما فى انجلترا أو أمريكا ، ففى البلاد الأولى اذا كانت وزارة المعارف لم تنشأ الا سنة ١٨٩٩ فليس معنى هذا انه لم تكن هناك هيئات حكومية تشرف على التعليم العام ، وكذلك الامر فى البلاد الثانية فليست هناك

---

(١) جامعة الاسكندرية الان

وزارة المعارف لأنهم تركوا التعليم لاختصاص السلطات المحلية فى كل ولاية . ثم ماألنا وانجلترا أو أمريكا . لنكن فى بلادنا . ماهى حالتنا وكيف نقوم الفاسد فيها ؟ أنتركه للشعب أم ندعو الحكومة الى العمل ؟ هل نترك الشعب يمحو الأمية وينشر التعليم المهنى ويؤسس الجامعات ؟ أى عاقل يقول هذا القول !

وفى الحياة الاجتماعية نرى أن مصر بلغ فيها الظلم الاجتماعى حدا كبيرا ، وما أنا بحاجة الى ان أثير القارىء بوصف حالات الفقر وحالات الثراء التى نلاحظ جميعا ما بينها من تفاوت مؤلم ، واذا كان العالم كله قد سار نحو التدخل لانصاف الطبقات المظلومة ، أنأتى نحن اليوم ونقول للدولة خذى بمبدأ الحرية ، مبدأ سمث وريكاردو ودعى الفرد يعمل والتجارة تمر ؟! لقد أسفرت تلك النظرية عن الحالة التى يعانيها كثير من الشعوب ، وياليت القوى كان قويا بنفسه ولكنه قوى بالوراثة ، فصاحب رأس المال يستغل العامل ، والمالك يستغل الفلاح ، والناشر يستغل الكاتب ، وليس لهؤلاء الا أن تحميهم الدولة . لقد وضع العالم المتحضر تشاريع العمال ، وهذا هو التدخل ، واستخدم نظام الضرائب لتحقيق العدل الاجتماعى ، وهذا هو التدخل ، وأقام الهيئات تفصل بين صاحب العمل والعامل ، وهذا هو التدخل . والدولة بعد لم تعد حاكما مستبدا بل اداة تنفيذ لارادة الأمة . ثم من الذى سيضمن للفرد علاجه من المرض وقوته اذا أدركته الشيخوخة ، او العاهة او البطالة ، أنترك ذلك للشعب ؟ عجيب هذا المنطق ، منطق يكذبه الواقع ويكذبه العقل السليم

بقى النشاط الاقتصادى ، وهنا تدور المعركة ، ولكل فريق حججه التى تستحق النظر . فأصحاب

الديمقراطية الحرة يرون أن المنفعة الشخصية هى أهم ضامن للنجاح فى الحياة الاقتصادية ، والدولة كشخصية معنوية ينقصها هذا الحافز ، وهم يريدون أن يتركوا الفرد ينمي فى نفسه روح المباداة والقدوة على تحمل المسئوليات حتى يربى تلك التربية الاستقلالية التى أشار اليها الكاتب ، ولكن المصلحة الفردية مصلحة أثرة مدمرة ، فهناك مصلحة الأمة ومصالح الافراد الآخرين ، فاذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد مع مصلحة فرد آخر ، من يوفق بين هذه المصالح ان لم تكن الدولة ؟ انظر مثلا الى شركات الاحتكار كشركات الماء والكهرباء ببلادنا ، ماذا يكون مصيرنا اذا لم تتدخل الدولة لحماية مصالحنا نحن المستهلكين ؟ ثم من قال ان المصلحة المباشرة اذا انعدمت فشل كل مشروع اقتصادى . أو ما ترى الى الشركات المساهمة كيف يديرها عضو منتدب بمكافأة ، ويصل بها الى ذروة النجاح بل أو ما ترى الى جمعيات يديرها رئيس لا يكسب منها شيئا يذكر ومع ذلك نجحت أى نجاح ! فكر مثلا فى لجنة التأليف (١) وأبعد من ذلك دلالة الجمعيات الخيرية ، وها هنا الى جوارى مستشفى المواساة الذى تفاخر به الاسكندرية مدن أوروبا الكبرى. أو ما تعلم أن الذى بناه رجل خير طيب الله ثراه كان وكيلا بالجمرك بالاسكندرية ؟! وبقيت حجة أخيرة ، تقول ان الأفراد أو الشركات أقدر على الادارة من موظفى الدولة ، ولكن ها هى السكة الحديد فى مصر ، وها هى شركات النقل ، من يستطيع ان يزعم أن شركات النقل أنجح من السكة الحديدية عندنا ؟

(١) المقصود لجنة التأليف والترجمة والنشر التى انشأها المرحوم الدكتور احمد امين مع عدد من الادباء

والآن فلننظر الى أحوالنا الداخلية . ألدينا ثروات معدنية ، وأراض يمكن ان تستصلح ، وقوى كهربائية يمكن أن تولد ، ومشروعات عامة من ترع وطرق ومصارف وما اليها ، أنترك كل ذلك للشعب وننتظر حتى ينهض بها ؟! وهل نسينا مآسى كهربة مساقط أسوان ؟

وبعد كل ذلك نرى من يفكرون فى الهواء فيقولون : لا ، ان دعوة الدولة الى التدخل معناه عدم ثقتنا كأفراد بأنفسنا ، معناه أننا ضعاف ، وما الى ذلك من كلام فارغ . وأفرغ منه ما يجأر به البعض من حرية الفرد ،

لقد قلت فى مقال سابق لى أن من واجب الدولة أن تحمى الفرد من الدولة ذاتها بأحد أمرين ، فأما أن تعطى القضاء العادى حق حمايته من الحكومة حماية فعالة ، وأما أن تنشىء قضاء اداريا يختص بتلك الحماية (١) لاننا كما هو معلوم لا نملك الان هذه الحماية ولا تلك ..

لقد حان الحين لان نصحو الى الواقع الذى يحوطنا ، وكفى تخبطا فى نظريات غريبة لا نجيد فهمها

---

(١) انشىء القضاء الادارى ومجلس الدولة سنة ١٩٤٦

الميزانية والعدالة الاجتماعية

أثارت الميزانية فى داخل البرلمان وخارجه مناقشات حادة ولا غرابة فى ذلك فالميزانية صورة لسياسة الدولة العامة وذلك لانها بتعيينها لابواب الايرادات ونسبها وللطبقات الاجتماعية التى تدفعها من جهة وبتوزيعها للمصروفات على نواحى الحياة العامة المختلفة والمفاضلة بين هذه النواحى من جهة اخرى ، بهاتين الناحيتين ناحية الايرادات وناحية المصروفات تكشف الميزانية عن الاسس التى تستند اليها سياسة الحكومة القائمة

ونحب بادىء الامر ان نستبعد من المبادىء التى ثار حولها الجدل ذلك العنصر الذى سماه مكرم عبيد وغيره من المعارضين بالعنصر السياسى فهم يزعمون ان الحكومة القائمة قد حاولت ان تتآلف الانصار وانه لم يكن عيبا على اية حكومة فى ان تحرص على ارضاء المحكومين الا اننا مع ذلك نرى ان الهوى الحزبى هو الذى يملى هذا العنصر محاولا ان يضعه فى المكان الاول من بين الاعتبارات التى أخذت بها الحكومة ، ومن الخير لهذه البلاد ان ترتفع عن هذا الهوى وان نقتتل حقيقة حول المبادىء التى تستحق ان يجاهد فى سبيلها شعب على ابواب تطور خطير فى حياته ..

(*) مناقشة آراء مكرم « باشا » نشرت فى ١٩٤٤/٤/٦

ومن واجبنا أن ندل القارىء على موضع الخصومة الكامنة وهو مستقر فى التعارض بين سياستين : سياسة الديمقراطية الاجتماعية التى تحرص على سلامة التوازن بين طبقات الامة الاجتماعية المختلفة ، وسياسة الجشع المادي والحرص على الاسلاب والوصول بالتفاوت الصارخ بين البؤس والثراء فى هذه البلاد الى اقسى مراحله مما نخشى معه أن تضطرب حياتنا الاجتماعية أخطر اضطراب .»

يخشى مكرم باشا وصدقى باشا تضخيم الميزانية ويشفقان أن تضطر الحكومة الى ضغط هذه الميزانية بعد الحرب ضغطا قد لا تستطيعه وان استطاعته ففى مشقة واخطار وهذا فى الحق تفكير عجيب فميزانيتنا لا تزال ابعد بكثير عما ينبغى ان تصل اليه ووزير المالية نفسه ينبئنا «أن الضرائب عندنا تتراوح بين ١٢٪ و١٣٪ و ١٤ ٪ ، فلو وازنا بين حالنا وحال البلاد الاخرى لحمدنا الله ، فان الضرائب عندنا مرنة ونستطيع أن نرفعها من ١٢ ٪ الى ١٥ ٪ الى ٢٠ ٪ الى ٢٥ ٪ دون ان نثير الممولين » وهنا موضع الخصومة فصدقى باشا ومكرم باشا وامثالهما يخشون فرض ضرائب جديدة وفى ذلك يقول مكرم باشا نفسه : « ليس مفهوما ان تلجأ الحكومة الى زيادة الضرائب والرسوم فى حين تبين أن لديها وفرا فى الميزانيات الاخيرة يتراوح بين ثمانية وعشرة ملايين جنيه سنويا » ولقد فكروا فى مقاومة الغلاء فاقترح صدقى باشا عقد قروض عامة واقترح مكرم باشا بيع املاك الحكومة على نحو واسع سريع مع دفع الثمن كله فورا ، ومن الغريب ان يغيب عنهما معا ان رفع نسبة الضرائب الى مستوى لا نقول مماثلا لمستواه فى البلاد الاوربية بل مقاربا أو شبه مقارب من الوسائل الفعالة لامتصاص ما فى

السوق من وفرة فى النقد المتداول وهى من اقوى الاسباب فى غلاء المعيشة وفى اختلال التوازن بين حياة الطبقات الاجتماعية المختلفة حيث نرى العجز عن ضروريات الحياة بين الطبقات ذات الدخل الثابت من جهة والتبذير عن سعة عند محدثى النعمة الذين اثروا من دماء الناس فى المحنة الحاضرة (١) من جهة أخرى • فالنقود لا ريب سلعة كغيرها من السلع كلما كثرت ضعفت قيمتها ، ولقد رأينا بعض الحكومات تهلك جانبا من منتجاتها عندما تنزل كثرة تلك المنتجات بقيمتها ، ونحن الان لا نقول طبعا باعدام النقود وانما نقول بسحبها من التداول عن طريق الضرائب العادلة المعقولة ، ولا يجوز أن يمنعنا عن ذلك عدم استطاعتنا استخدام حصيلة تلك الضرائب فورا فيما نريد من مشروعات ، بل لعله يكون من الخير أننا لا نستطيع ذلك• فالذى نبغيه الان هو ان نحجز جانبا من الاموال المتداولة عن السوق ، وليكن هذا الحجز بايداعها احتياطى الدولة حتى اذا انتهت الحرب وجدنا لدينا من الرصيد ما نريد

ولكن هذا الحل لا يرضى صدقى باشا لانه لا يقبل دفع ضرائب جديدة ويفضل على ذلك عقد قروض تمكنه هو وأمثاله من استغلال أموالهم المكدسة بالبنوك ، ويكون هذا الاستغلال من دماء الشعب لان الدولة هى التى ستدفع لهم أرباح قروضهم ، وهى ستدفعها عن أموال تكدسها فى خزائنها بحكم أنها لن تستطيع الانتفاع بها الان ، وظروف الحرب تحول بيننا وبين تنفيذ مشروعاتنا المرجوة ، واما مكرم باشا فكل ما يحرص عليه هو ان تبيع الحكومة جميع املاكها وهو يشترط ان يدفع الثمن كله فورا ومعنى ذلك هو ان كبار الاثرياء هم الذين سينتهون بامتلاك اراضى

(١) أثناء الحرب العالمية الثانية

الحكومة أيضا ، وهذا فى الحق تفكير اثم فنحن فى بلاد يعلم الكل ما فيها من تفاوت بين فقراء الناس واغنيائهم ولقد جاءت الحرب فبالغت فى هذا التفاوت وافسدت من توازن الامة فكم من عزيز ذل وكم من حقير عز

وأعجب العجب أن ترى مكرم باشا الذى كان فيما مضى يفتخر بأنه ابن الشعب ، يناهض ذلك المبدأ العادل الذى يأخذ به جميع العالم المتمدين والذى يجب أن نقر الحكومة فى أخذها به بل ونطالبها بهذا الاخذ اذا توانت وهو مبدأ الضريبة التصاعدية على أن تطبقه الحكومة على كافة أنواع الضرائب بعد أن تقيم بينها نسبا سليمة وبعد أن تصل الى أوعيتها الحقة وتضمن صحة الجباية واقتصادها بفضل هيئة من الموظفين الشرفاء الاكفاء ، لا يريد مكرم باشا أن يطبق مبدأ التصاعدية على الضرائب العقارية فيقول « أما عن الضرائب العقارية فهناك صيحة بوجوب جعلها تصاعدية على نمط ضريبة الايرادفى أوربا ،وفى اعتقادىأن هذا القول على اطلاقه ليس صحيحا من الوجهة الفنية كما هو ضار باقتصادنا الاهلى » وذلك لانه لا يريد فيما يزعم أن يرهق ملاك الاراضى بحجة أن الاطيان الزراعية لا تعتبر أموالا مرنة كالاموال المستثمرة فى التجارة والاموال المنقولة التى تحتمل الضرائب أكثر من غيرها وهذه حجج مردودة وبخاصة فى بلادنا حيث يعلم الجميع أن كثيرا من الملكيات الكبيرة لا تستند الى سند تملك مشروع فقد أعطيت ضياع ومنحت اقطاعيات يوم كان والى مصر يمتلك جميع الاراضى كما هو معروف فى تاريخنا ، ونحن فى الحقيقة لا نعرف ببلاد العالم المتمدين كافة ضرائب مباشرة لا يؤخذ فيها بمبدأ التصاعد الذى يحقق العدالةالاجتماعية علىأصحوجه، واذا كانت الاطيان الزراعية غير مرنة بحكم أنك لاتستطيع

أن تزيد غلتها الا الى حد لا تعدوه بعد أن تصل فى انفاقك عليها الى درجة ما تمشيا مع القانون المعروف فى الاقتصاد بقانون « الغلة غير المتناسبة » فهناك فى اتساع تلك الاراضى اتساعا غير معقول بين يدى المالك الواحد ما يعوض هـذا القانون ، ويجعل التصاعدية مبدأ عادلا مشروعا من الاثم أن تناهضه ..

ومن الغريب أن يصدر مكرم باشا فى مقترحاته لمقاومة الغلاء عن نفس الروح التى تتجاهل مبدأ العدالة الاجتماعية فاقتراحه الاساسى الذى قد يغرى القارىء هو انشـاء صندوق خاص تستخدم الدولة موارده فى دفع الفرق بين الثمن الذى تشترى به المنتجات والثمن الذى تبيعهـا به للمستهلكين ، ومعنى هذا هو أن الدولة ستتحمل عن جميع الطبقات الاجتماعية نفقات باهظة . ونحن نعلم ما تتكلفه الدولة من شراء القمح على نفس النحو الذى يقترحه مكرم باشا . ولقد عارض هذا الرأى فى البرلمان نفر من النواب نراهم على حق ، وذلك لان من يستحق عون الدولة ليسوا جميع الناس بل من مستهم الحرب بأذاها فحسب واما من أثروا على حساب غيرهم فلسنا نرى على الدولة واجبا فى عونهم بل واجبها على العكس من ذلك أن تحملهم بنظـام الضرائب العادل على تخفيف بؤس البائسين

ولقد كنا نفهم أن يماشى مكرم باشـا وغيره المنطق الى نهايته فهم يثورون لرفع الحكومة لبعض الضرائب غـير المباشرة كضريبة الجمارك وضريبة الانتاج وأجور المواصلات اذا جاز اعتبارها ضريبة ولكنهم فى الحقيقة لا يعارضـون فى هذا الارتفاع لانه يمس الطبقات الفقيرة بل يعارضون فى الارتفاع لذاته بحكم أنه سيمسهم هم أيضا والا لو أنهم كانوا مخلصين لوجب أن ينادوا بمبدأ رفع الضرائب المباشرة

الى جانب مناداتهم بخفض غير المباشرة ، فعلى هذين النوعين من الضرائب وعلى نسبة كل منهما فى ميزانية الدولة تقتتل الاحزاب في أوربا، فالاحزاب الديموقراطية تهاجم الضرائب غير المباشرة لان دافعها فى النهاية هو المستهلك اذ يحصلها المنتج ان كانت ضريبة انتاج كما يحصلها التاجر ان كانت ضريبة تداول من المستهلك باضافتها لثمن البيع ، واما أحزاب كبار الممولين فتناهض على العكس من ذلك الضرائب المباشرة كضرائب الارباح التجارية وضريبة الدخل وغيرها ..

ولقد يعترض القارىء بقوله ولكن كيف ترفع اذن الحكومة بعض الضرائب غير المباشرة بينما هى لا تريد أن ترفع الان الضرائب المباشرة ؟

وللجواب على هذا الاعتراض الوجيه نلفت النظر الى أن وزير المالية قد أجاب هو نفسه فى بيانه الذى ألقاه بمجلس النواب .. فلقد قال عن رفع بعض الضرائب : « ردى على ذلك ان الضرائب التى زيدت اما أنها واردة على كماليات وارتفاع السعر فيها ليس من شأنه أن يكون له أثر غير محمود العاقبة فى مستوى الاسعار بوجه عام . واما أنها واردة على وجوه يتعذر فيها نقل الضريبة من المنتج الى المستهلك ، اما لشدة ضآلة الزيادة فى حد ذاتها بالنسبة لسعر السلعة واما لتحديد السعر الذى تباع به للجمهور السلع المفروضة عليها الضريبة »

ذلك عن الرفع ، وأما عن عدم زيادة الضرائب المباشرة فقد أجاب بقوله مخاطبا النواب « أشار بعض حضراتكم الى وجوب تحقيق العدالة الاجتماعية فى فرض الضرائب والى عدم التناسب بين الضرائب المباشرة وغير المباشرة . وردى على ذلك أن سياسة الحكومة كما يتضح مما تضمنه مشروع

الميزانية المعروض على حضراتكم يرمى الى تحقيق هـــذه العدالة وهذا التناسب • وقد خطونا خطوة أخرى فى هـذه السبيل بعد تقديم هذا المشروع بمناسبة الغاء ضريبـــة الصادر • وستوالى الحكومة السير فى هذا الطـريق حتى تتحقق هذه العدالة كاملة فى نظام الضرائب بحذافيره » ثم أضاف « على أنه يجب أن يلاحظ أن عهدنا بنظام الضرائب المباشرة بمعناه الشامل لا يزال قريبا ، اذ هو لا يرجع الى أبعد من سنوات تعد على الاصابع وانه لم يكن يسعنا أن نصل اليه طفرة واحدة بل لابد من التدرج ليألف الناس هذا النوع الجديد من الضرائب ولتستوفى أداة الجبـاية ما ينبغى لها من نظام ومران لا يمكن أن يتوافرا الا مع الزمن » وهذا قول صحيح فمن الواجب قبل أن نصلح من نظام ضرائبنا المباشرة أن نضعها على أسس فنية سليمة وأن نضمن تنفيذها فى شرف وأمانة • ولكى نقرب الى القارىء معنى ما نقصد ، نضرب مثلا بضريبة المهن الحرة التى نادى الشمسى باشا باصلاح أساسها فهى تجبى الان من الطبيب والمحامى والمهندس مثلا بنسبة ايجار المسكن ومحل العمل فتكون ٧ر٥ ٪ اذا كان السكن غير محل العمل ، ١٠ ٠/٠ اذا كان السكن ومحل العمل فى مكان واحد • وهذا أساس أو كما يقول علماء المالية وعاء واضح الفساد • ومن الواجب أن يكون الاساس أو الوعاء هو مقدار الدخـــل الحقيقى لصاحب المهنة • ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ أو ما يحس القارىء بما فى الامر من صعوبة ، وهـــلا يرى مع وزير المالية أن من الواجب أن نستوثق أولا من أداة الجباية أى من موظفين أكفاء شرفاء يضمنون للدولة ما تستحق من ضريبة بزياراتهم التفتيشية الدقيقة النزيهة كما يحدث فى انجلترا الان ؟

خطوة جديدة نحو العدالة الاجتماعية

نشر صدقى باشا منذ أيام كلمة عن الضريبة التصاعدية يقول انها هادئة بعيدة عن كل مرمى سياسى ولكنها فى الحق هادئة هدوء الماء الراكد • ومن عجب ان يهاجم صدقى باشا هذه الضريبة باســـــم العدالة الإجتماعية ونحب بادىء الامـــــر أن نشـــــق الحجب عن دوافع صدقى باشا الحقيقية لان من واجبنا ان نهدى القارىء الى كلمة الحق : دافع صدقى باشا دافع مزدوج شخصى وسياسى فأما الشخصى فلانه من كبار الاثرياء وقد أخذت بنفسه شهوة المال فهو يقاوم مبدأ الضريبة التصاعدية لان الحكومة ستأخذ من ماله ومال أمثاله ، ما ترده على البائسين فى هذه الامة وما اكثرهم ، وقد حـــان الحين لتنتصف لهم حكومتهم من الحياة التى عضتهم بأنيابها • وأما الدافع السياسى فخصومة صدقى باشا للحكومة • والخصومة السياسية شىء مقبول بل لعله واجب فى حياة الامم ، ولكنها عندما تصبح هوى يغالط لشهوة حزبية ، من الواجب ان نرد فى قوة ما ينشأ عن هذا الهوى وتلك الشهوة من خطر يهدد الحياة الكريمة العزيزة العـــادلة

(*) نشرت فى ١٩٤٤/٤/١٥

التى نبغيها لسكان هذا الوطن

يهاجم صدقى باشا مبدأ الاخذ بالضريبة التصاعدية فى ضريبة الاطيان الزراعية مع أن هذه الضريبة خطوة جديدة نحو العدالة الاجتماعية ، التى يطالب بها الرأى العام كله فى حرارة وايمان لن يقف دونهما شىء

يسلك صدقى باشا فى محاجته طريق المغالطة فهو لا يريد أن يؤخذ بمبدأ التصاعد الا على أساس الدخل العام، وما دامت ضريبة الدخل العام غير موجودة فى بلادنا ، فهو لا يسلم للحكومة بأن تأخذ بهذا المبدأ فى أنــواع الضرائب المختلفة وتلك مغالطة بينة • فما الذى يمنع أن نأخذ به فى أنواع الضرائب القائمة ما دمنا نقيم التوازن العادل بين دافعى هذه الضرائب المختلفة • ولكن صدقى باشا يغالط ايضا فى حكمه على هذا التوازن ، فيدعى أن الضريبة التصاعدية قد فرضت على الاطيان الزراعيـــة فحسب ولم تفرض على غيرها من الضرائب ناســيا أو متناسيا أن ضريبة الارباح الاســتثنائية تجبى عن كل ربح تجارى أو صناعى بنسبة تصاعديه تصل الى ٧٥ ٪ وانها ستغل هذا العام ثلاثة ملايين جنيه على الاقل بينما الضريبة التصاعدية على الاطيان الزراعية لن تغل الانصف مليون • وبمجرد ان تناسى صدقى باشا هذه الحقيقة ، وبمجرد ان حاول اقامة فرق نظرى بحت بين ضريبـــــة الارباح الاستثنائية والضريبة الاضافية على الاطيان ، أخذ يستحل لنفسه مهاجمة مبدأ التصاعد فى ذاته من جهة ، ومبدأ الاخذ به فى ضريبة الاطيان دون غيرها من جهـة أخرى • ومع ذلك فلنناقش آراءه ••

يزعم صدقى باشا ان الضريبة انما تفرض فى مقابل شتى الخدمات التى تؤديها الحكومة للمالك الزراعى وهى

خدمات لا تختلف باختلاف ضخامة الملك او قلته بل قد تكون أوفى أو أكثر نسبيا فى حالة المالك الصغير منها فى حالة المالك الكبير • وأنا بعد لا أعرف مبلغ كفاية صدقى باشا النظرية فى فلسفة التشريع وان كنت أعلم أنه من كبار الاثرياء ، ولكننى أعلم علم اليقين أن أحدا من ذوى النظر الذين لم يفسد الهوى نظرهم لم يقل ما يقوله صدقى باشا الان • فالضرائب لا تؤدى مقابل خدمات ، وبخاصة مقابل الخدمات الشخصية التى يقدرها كل دافع لها ــ الضريبة مساهمة فى الحياة العامة وتبرع اجبارى من الفرد للهيئة الاجتماعية التى ينتمى اليها وأساسها الحق ليس الخدمة المقدمة للفرد وانما هو تحقيق العدالة الاجتماعية ، وذلك لان الغنى انما يثرى من جهد الفقير ، والعمل هو منبع الثروات ، فالارض فى ذاتها لا تنتج شيئا ، ومن الواجب أن تكون المساواة فى دفع الضريبة لا مساواة عددية نسبية بل مساواة نفسية تصاعدية • يجب ان تكون المساواة فى الاحساس بما يشعر به الفرد من حرمان باستقطاع جانب من دخله ، وأنت اذا استقطعت من رجل ايراده السنوى عشرة جنيهات جنيها واحدا أشعرته بحرمان لا يحسه رجل آخر دخله مليون جنيه تستقطع منها نصف مليون لان ما يبقى له فيه ما فوق الكفاية ليحيا حياة مسرفة البذخ • ونحن حتى لو سلمنا جدلا لصدقى باشا بأن أساس الضريبة هى الخدمة لما استطعنا ان نفهم كيف أن المالك الصغير يستفيد من خدمات الدولة اكثر من المالك الكبير • هل للمالك الصغير تشق الترع وتعبد الطرق وتحفر المصارف ويرعى الامن ويذاد عن حياض الوطن حتى لا يغتصبه معتد هو وما فيه من ثروات ؟!

وصدقي باشا يدعي ان الكثير من الأراضي لم تزدد غلته أو أنه مثقل بالديون وهذه أيضـــا حجج لا تنهض • فالديون قد تثقل كل ثروة مهما كان نوعهـا منقولا أو عقارا • وأما عن الغلة فلسنا بحاجة الى ان نلجـأ الى احصائيات عن نفقات الانتاج وغلة الارض والموازنة بينهما لان هناك دليلا لا يدفع عن زيادة تلك الغلة وهو زيادة الايجارات • فالمستأجر لا يمكن ولا يستطيع أن يدفـع اليوم خمسة وعشرين جنيها ايجارا للفدان العادى بدلا من عشرة جنيهات اذا كانت نفقات الانتاج قد ارتفعت بحيث تستغرق الغلة

وصدقي باشا يشفق من أن تؤدى هذه الضريبـة الاضافية التصاعدية الى انخفاض اثمان الاراضى الزراعية وهذا تفكير عجيب من رجل اقتصادى كصدقي باشا • ومن مصلحتنا جميعا ان تنخفض الاثمان ، لا أثمـان الاراضى الزراعية فحسب بل وأثمان كل شيء فى بلادنا • ولقد وصلت أثمان الاطيان الان الى حد المضاربة وارتفاع تلك الاثمان معناه انخفاض قيمة النقود ، وسياستنا كلها ترمى الان الى رفع قيمة النقود ، ومحاربة الغلاء فى كافة مواده ••

وصدقي باشا يتساءل لماذا لم تفرض ضرائب تصاعدية اضافية على المبانى والأسهم والسندات كما فرضت على الاطيان الزراعية مع أن الاجانب هم المالـكون للكثير من المبانى والاسهم والسندات بينما يملك المصريون معظم الاراضى الزراعية وهذا فى الحق مكر سياسى ومغالطة يجب ان نكشف عنهما • فربح الاسهم خاضع لضريبـة الارباح الاستثنائية والسندات يتكون الجانب الاكبرمنها من سندات القرض الوطنى وهذه من المعلوم انها معفاة من

الضريبة فما هذه المغالطه اذن . وبقيت المبانى ، وهنا ينسى صدقى باشا ان ايجار المبانى لم يزدد الا بنسبة ضئيلة بسبب الامر العسكرى الذى يقضى بذلك . واذا كانت هناك مخالفات لهذا الامر فذلك ما قد يوجب الاسف ولكن كل حكومة تحترم نفسها لا تستطيع ان تدخل فى حسابها حالة تنشأ عن مخالفة لاوامرها . ونحن مع ذلك لا ندعى أن الحكومة ستقف بالاخذ بمبدأ التصاعد عند الاطيان الزراعية اذ لا ريب أن هذا بدء ، وللمبدء ما يليه

ومن عجب أن يدعى صدقى باشا ان زمن الحرب ليس زمن التجارب فى اصلاح نظام الضرائب مع أن هذا هو الزمن الذى يجب أن يستخدم فيه المشرع سلطته فى فرض الضرائب ليقوم على حفظ توازن الامة والعلاقة بين طبقاتها المختلفة فالحرب كما قلنا فى مقال سابق قدانزلت الاضطراب بحياتنا الاجتماعية حتى جعلت عاليها سافلها ، ومن الواجب ان نعيد اليها كيانها السليم بنظام صالح للضرائب

رد صدقى باشا وتعليقنا عليه :

مسألة الضرائب التصاعدية

ـ على الرغم من أننى صرحت بأن مناقشتى لموضوع الضريبة التصاعدية بعيدة البعد كله عن أى مرمى سياسى أو شخصى يصر الدكتور محمد مندور على اتهامى بأنى مدفوع فى هذا الموضوع اولا بشهوة المال لاعتقاد حضرته بأنى من كبار أصحاب الاطيان الذين سيقع عليهم أكثر من غيرهم ، عبء الضريبة الجديدة وثانيا بالشهوة السياسية لما يعتقده من خصومتى للحكومة الحاضرة ، وقد ضرب حضرته صفحا عن ان المناقشة كانت فى حدود الفن لا أكثر ولا أقل فكان من حقى أن أطالبه بعدم تخطى هذه الحدود

ـ ومع ذلك لا أرفض المناقشة حتى فى الدوافع التى يقولون اننى خضعت لحكمها فأقول ان ما أملكه من ثروة ـ تبعد عما يتصوره الدكتور من ضخامة ـ هو على نوعين ، مال منقول ومال زراعى ثابت وربما كان الاول يربى على الثانى ، فاذا كنت ممن يجعلون للمال الشأن الاول فى تصرفاتهم وتفكيرهم لما نبهت الحكومة فى حديثى الى انه ليس من العدالة الاجتماعية فى شىء ان لا يطالب صاحب المال المنقول بمثل ما يطالب به المالك الزراعى

(*) هذا المقال كتبه صدقى باشا ردا على المقال السابق ، ونشر بتاريخ ١٩٤٤/٤/١٧

وبديهى أن من شأن العمل بنصيحتى تحمل أعباء ضريبتين بدلا من ضريبة واحدة ، اما انى مدفوع بشهوة حزبية ، فأظن ان من حقى ـ وقد سلم الدكتور بأنى لست الغريب عن الموضوع الذى نعالجه ـ ان اساهم فى مناقشة موضوع مالى اقتصادى ربما يرى غير الدكتور أن عدم أدلائى فيه برأى قد يعد من التقصير فى حق بلادى وليعلم الدكتور مندور أن احترامى للفن مانع من استخدامى اياه فى منفعة الجدل السياسى الذى لا تنقصنى مع ذلك مادته فى مثل ظروفنا الحاضرة

ـ وأود كذلك أن يعلم الدكتور مندور اننى لست من اولئك الذين لا يرون ان الوقت قد حان لتنصف الحكومة البائسين من هذه الامة الذين عضتهم الحياة بأنيابها ، فاذا ما رجع حضرته للماضى لتبين انى عملت من زمن لا فى الوقت الحاضر فقط على ان يؤخذ بيد البائسين وان يسعى الى اصلاح حالهم ، ومع ان المركز المالى للحكومة كان فى الوقت الذى توليت فيه الحكم من أسوأ ما يكون بسبب الازمة العالمية الطاحنة ، ألغيت بجرة قلم عوائد الدخولية التى كان عبئها واقعا على الفقراء قبل الاغنياء وكانت تدر على الحكومة ما يقرب من المليون ، ولو كنت كما يظن الدكتور ممن لا يعنون بالبائسين لما تقدمت فى سنة ١٩٣٨ بوصفى وزيرا للمالية فى عهد وزارة محمد باشا محمود باقتراح تخفيف الضريبة على صغار الملاك الزراعيين بما اضاع على الخزانة مليونا من الجنيهات زادته الحكومة الحاضرة نصف مليون فأصبح مليونا ونصف مليون ، ولو رجع الدكتور مندور الى حديث لى نشرته اخيرا احدى المجلات لرأى انى اخذت على الحكومة انها لم تطالب كبار الملاك بما ضاع على الخزانة بسبب الاعفاء الاخير ، فهل يرى منصف ان الحنين فى نفسى مقصور على

الاغنياء لانني منهم دون الفقراء وهم سواد الامة ؟

ـ من الظلم أن يقـــال عنى أننى أهاجم الضرائب التصاعدية لانها تسيء الى الاغنياء ، فلقـــد ذهبت الى أبعد مما ذهبت اليه الحكومة فطالبت بفرض ضريبـــة تصاعدية على الدخل العام وهى تلك الضريبة التى وضعت فى البلاد المتحضرة ، ومن أغراضها الرئيسية أن تكون اداة للتوازن بين الطبقات وان تحقق العدالة الاجتماعيـة من أقرب طرقها وأسهل وسائلها ، وغريب ان يرد على بأن هذه الضريبة غير موجودة فى بلادنا ، يا سبحان الله فهل هناك مانع ما دام الاجماع قد انعقد فى البلاد الاخرى على انها الضريبة المثلى التى تصلح اداة للعدل الاجتماعى وليس يعدلها فى هذا المضمار غير ضريبة التركات التى نشاهد انها هى أيضا محل لتقاعس ملحوظ فى أمر تقريرها .. أقول هل هناك مانع من المضى فى بحث ضريبة الدخل والعمل على تطبيقها ؟ أظن ان الامر لايحتاج الى اكثر من مراجعـة الانظمة المعمول بها فى غير بلادنا وتطبيقها على أحـوالنـا الخاصة

انما اذا اردنا ان ننشد العدالة وان نحققها من أقرب سبلها فليس أمامنا غير ضريبة الدخـــل التى تدل على الحقيقة من أمر كل ممول والتى تسوى بين الجميع لا كما هو الحال فى الاجراء الذى لجأت اليه الحكومة مما بينته .. ولقد طلبت أن يدلونى على بلد واحد طبق فيه التصاعد على الضريبة الزراعية فلم يجبنى أحد على الرغم من كثرة ماوجه من انتقاد

ـ يعترض الدكتور مندور على قولى أن الضريبـــة تفرض فى مقابل شتى الخدمات التى تؤديها الحـــكومة للمالك الزراعى ويقول حضرته ان الضرائب لا تؤدى مقابل خدمات بل هى مساهمة فى الحياة العامة وتبرع اجبارى

من الفرد للهيئه الاجتماعية الخ ، انه لقول صحيح اذا ما انصب على الضرائب العامة كضريبة الدخل التى اشرنا اليها وضريبة التركات وهما المجال الحق للخدمات الاجتماعية ولكنه لا يصدق على باقى الرسوم والضرائب الخاصة فضريبة الخفر مثلا موضوعة لتأدية نوع خاص من الخدمات المتعلقة بالامن والرسوم البلدية معدة لاصلاح شئون المدن ورسوم مجالس المديريات قد ارصدت للتعليم ولباقى الشئون المعروفة كذلك الحال بالنسبة لضريبة الاطيان الزراعية فقد روعى فى وضعها انها تمكن الحكومة من القيام بالخدمات التى يحتاجها الزراع ، ولا يصح فى عقل عاقل ان تكون الضريبة المذكورة محل صعود او هبوط تبعا لاعتبار اخر غير ما تقدم فان لهذه الاعتبارات مجالها من الموارد العامة اللهم الا اذا استحال وجود هذه الموارد وعندها وجب ان يكون التدرج التصاعدى فى كل مطالب الدولة من الافراد وقد قضى الاجراء الجديد بما هو عكس ذلك على خط مستقيم كما بيناه فى حديث سابق

ـ ويرمينى الدكتور مندور فى هذه المناسبة بالمغالطة لانى ناديت بضرورة التساوى بين دافعى الضرائب من أى مورد جاءت ولانى قلت ان ليس من العدل ان يدفع صاحب الارض ما لا يدفعه صاحب الاسهم والسندات ، ويستند حضرته على أن أرباح الاسهم والقراطيس خاضعة من ناحيتها لضريبة الارباح الاستثنائية وهى ضريبة تصاعدية بحسب دعواه ـ واذا كانت هناك مغالطة فليست على كل حال من ناحيتى ـ أما أن الضريبة الاستثنائية تصاعدية فلا ، لان صاحب الملايين يدفعها بنفس النسبة التى يدفعها صاحب العدد الضئيل من الاسهم اذ المرجع فيها للربح أيا كان مقارنا بما كان عليه قبل الحرب ، والضريبة الاستثنائية من هذه الناحية لاعلاقة

لها بالتوازن الاجتماعى بل هى أتاوة الحرب يدفعهـــــا المنتفعون من ظروف الحرب كبارا كانوا أو صغارا ، امـــا الضريبة الجديدة التصاعدية فهى بمعنى الكلمة الضريبة ذات الصفة الاجتماعية البحتة اذ هى ترمى الى الاقتطاع من موارد ذوى الثروة تدرجا مع ثروتهم لافادة المحرومين من هذه الثروة ـ وهذا شيء طيب لا خلاف فى صحة المبدأ الذى يقوم عليه ، ولكن الخطأ البين الذى وقعت فيـــــه الحكومة هو انه قد قصر تطبيقه على المزارعين وقــــــد اوضحنا فى حديث سابق ما فيه من ظلم على طائفة جديرة قبل غيرها بعطف المجموع لظروفها السيئة الخاصة التى يعرفها كل من عالج الزراعة ولا يجهلها نوابنا المحترمون وجلهم من اهل الريف

اسماعيل صدقى

تعليقنا على رد صدقى « باشا »

يسرنا طبعاً ان نسجل لصدقى باشا استعداده لان يدفع ضرائب تصاعدية عن دخله العام عقارا او منقولا ونرجو ان نسجل مثل هذه الاريحية لغيره من كبار الاثرياء الذين حان الحين لان يقروا مبدأ التضامن الاجتماعى بل وذلك المبدأ الانسانى السليم الذى ينادي بأن مصدر كل ثروة انما هو العمل ـ عمل الفقير المكدود وان رءوس الاموال منقولة او عقارا لا تنتج فى ذاتها شيئا وما دمنا لم نصل بعد الى ان يكون نصيب العمل جزءا من الربح لا اجرا يوميا او شهريا فلا اقل من ان يعم مبدأ التصاعد نظامنا المالى كله

نحن نغتبط بما يراه صدقى باشا من تعميم مبدأ التصاعد ولكننا لا نفهم لماذا اذن يقاوم الاخذ به فى ضريبة الاطيان الزراعية واذا كانت الحكومة قد ابتدأت بهذه الضريبة فلماذا نقاومها اذا كنا مخلصين وكنا مؤمنين بمبدأ العدالة الاجتماعية ، ومن عجب أن يقاوم صدقى باشا مبدأ التصاعد فى ضريبة الاطيان بحجة ان الضريبة مقابل خدمة وان المالك الصغير قد يستفيد من هذه الخدمات اكثر من المالك الكبير ولقد رددنا بأن الضريبة ليست مقابل خدمة شخصية لدافعها بل هى تضامن اجتماعى ومساهمة من الفرد فى القيام على مرافق الدولة العامة وأضفنا انه حتى بفرض ان الضريبة مقابل خدمة فليس

صحيحا ان المالك الصغير يستفيد من خدمات الدولة اكثر من الكبير وضربنا الامثلة بالطرق والترع والمصارف التى قد تمد أو تشق كلها فى تفتيش أحد الاغنياء ولكن ها هو ذا صدقى باشا اليوم يعود فيقول ان من الضرائب ما يدفع مقابل خدمة ، ونعود فنقول ان هذا ليس صحيحا والا لكان معناه ان دافع ضريبة الخفر كان يدفعها بمعدل اعلى اذا كان كثير الخصوم ، ومن ثم فى حاجة امس الى خفر الخفراء وان دافع الرسوم البلدية او رسوم مجالس المديريات يرتفع معدل ما يدفعه بحكم ان له ولدا سيتعلم فى مدارس مجلس المديرية أو ليس له ولد ، وهكذا فى غير ذلك من المرافق العامة ، هذا قول لا يعقل ولم نسمع به من احد

وصدقى باشا لا يسلم بأن ضريبة الارباح الاستثنائية تصاعدية ونحن فى الحق لا نريد ان نماحك فى الالفاظ والموقف هو ان هناك طوائف اجتماعية تشتغل بالصناعة والتجارة وهذه الطوائف قد اثرت بسبب الحرب فرأت الحكومة من العدل ان تقتطع جزءا من ارباحهم تردها على من افقرتهم تلك الحرب وضيقت من ارزاقهم بحكم الغلاء الطارىء ففرضت هذه الضريبة رغم معارضة صدقى باشا وجعلتها على طبقات مع ازدياد نسبتها من طبقة الى طبقة فالربع الاول من هذه الارباح يدفع ضريبة بنسبة كذا والربع الثانى بنسبة كذا الى ان تصل على الربع الاخير الى ٧٥ ٪ ولقد جعلت الحكومة هذه الضريبة لمدة الحرب فقط ثم جاءت ففرضت ضريبة تصاعدية على الاطيان لان غلة الاطيان هى الاخرى قد زادت وجعلت هذه الضريبة لمدة عام واحد ، او ما يرى معى القارىء ان النتيجة النهائية واحدة وهى استقطاع جزء من الربح او الغلة الطارئين

والتدرج فى معدل هذا الاستقطاع تبعا لضخامة الربح او الغلة ..

ولقد سبق ان قلنا ان ضريبة الاطيان الزراعية الاخيرة لن تغل الا نصف مليون جنيه بينما الضريبة الاستثنائية ستغل على الاقل ثلاثة ملايين

بقيت المشكلة التى يظهر فيها حقيقة مكر صدقى باشا السياسى وهى تساؤله عن السبب الذى من اجله لم تأخذ الدولة بمبدأ الضريبة التصاعدية على الدخل العام

قلنا ان هذه الضريبة غير موجودة وصدقى باشا يرى ان فرضها أمر سهل وهنا يريد صدقى باشا أن يمكر بنا لاننا فى الحق لا ندرى لماذا لانأخذ بالتصاعد فى الضرائب القائمة واحدة بعد الاخرى الى ان نفرض ضريبة عامةعلى الدخل اذا كان لابد من محاكاة الدول الغربية فيها وكان لفرضها ضرورة

واذا سلم معنا القارىء بأن من حقنا ان نأخذ منذ اليوم بالتصاعد فى الضرائب القائمة لا يكون لسؤال صدقى باشا عن وجود ضرائب تصاعدية على الاطيان الزراعية فىالبلاد الاخرى محل ، هذا دور منطقى من صدقى باشا ، فنحن نقول بالاخذ بالتصاعد فى الضرائب القائمة ما دامت ضريبة الدخل العام التصاعدية غير موجودة عندنا ومن هنا لا تكون هناك محل لتساؤلنا عن وجود ضريبة تصاعديةفى البلاد الاخرى على الاطيان او غير الاطيان لان كل هذه الضرائب تخضع للتصاعد ضمن ضريبة الدخل العام .

قد يكون صدقى باشا ماهرا فى الجدل السياسى ولكننى أظن ان مغالطته هنا لن تخفى على احد

الرأى العام

لا يستطيع الناظر فى حياتنا العامة أن يطمئن الى وجود رأى عام بالمعنى المفهوم فى بلاد الغرب ، وتلك ظاهرة ترجع فيما يبدو الى عاملين كبيرين : أولهما اقتصادى، وثانيهما ثقافى ..

ولسنا فى حاجة الى التدليل من جديد على فساد توزيع الثروة فى مصر ، وتلك آفة قديمة ستلقى هذه الامة فى علاجها مشقات كبيرة ، ولكنها ستعالج يوما ما . وانما نكتفى بايضاح نتائجها فيما نحن بصدده من وجود رأى عام او عدم وجوده . وامتنا تنقسم فى جملتها الى طبقتين : أغنياء وفقراء ، واما الطبقة الوسطى فلا تزال فى بدء تكوينها . وكبار الاغنياء بطبيعتهم قوم مترفون انانيون يسخرون من الاهتمام بالمسائل العامة التى لا تعنيهم الا فيما يمس مصالحهم المباشرة . وأفراد الشعب تشغلهم مهام العيش ومشقاته حتى لا تترك لهم فراغا للتفكير الجدى فى الامور العامة : والفقر ينال من قوة نفوسهم فلا يستطيعون ان يتحرروا من ارادة الاغنياء . وعندما يكون المرء فى قبضة غيره ، والحاجة

(*) نشرت فى ١٩٤٥/١/٢٢

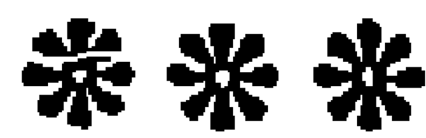
الى الكفاف من العيش تلاحقه ، كيف تريد أن يكون حر الرأى . والملاحظ فى الامم الغربية أن الطبقات الوسطى هى التى تكون الرأى العام وتقوده ، وذلك لانها الطبقة الطموح ، ثم لانها قريبة من الطبقة الدنيا التى تكون جمهرة الامة ، وهى بحكم هذا القرب تعرف آلام الشعب وآماله كما تفهم عقليته . وهى طبقة جادة لا تعرف الاستهتار، تتمتع بقسط من الاستقلال المادى يعطيها القدرة على الصلابة فى الرأى ومواصلة الكفاح من أجله . ثم انها طبقة مستنيرة تستطيع بمالها من ثقافة الا تقف عند الرضا او السخط ، بل تستنبط الوسائل الكفيلة بتحقيق الخير لعامة الناس . وليس من شك فى أن نهاية هذه الحرب ستشهد صراعا قويا بين تيارين من التفكير: التيار الاقتصادى ، والتيار الاجتماعى ، ونحن على تمام الثقة من أن سفسطة الاقتصاديين لن تقف عند حد ، فسيحاولون ايهام الشعب أن علاج الفقر الصحيح هو زيادة الانتاج بتنمية الصناعة وحمايتها من المنافسة الاجنبية . والاجتماعيون لا ريب يسرهم أن يزيد الدخل العام للامة ، وهم ليسوا من خصوم الصناعة ، ولكنهم سيحرصون على أن تكون وسائل الانتاج ملكا للأمة جميعا ولو بطريق التساهم ، لا لفرد من الافراد . وذلك لانهم لن يستطيعوا صبرا على التفاوت القائم اليوم ، ولابد انهم سيمنعونه من ان يستفحل بظهور أثرياء الصناعة الى جوار اثرياء العقار . واذا كتب للاجتماعيين الغلبة فلن يتركوا مشكلة توزيع الثروة تغيب عن الاذهان تحت ضباب مريب من الحرص على تنمية الثروة القومية وتعزيز استقلال اقتصادى موهوم ، لو حدث ذلك لتحررت عندئذ ارواح ملايين من البشر ، وارتفع مستواهم النفسى ، فكان لهم صوت فى تكوين الرأى العام

والعامل الثقافى يطالعك فى دور العلـــــم وفى فنون الصحافة . والذى لا شك فيه أنه لا مدارسنا العامة ولا صحافتنا بقادرة فى وضعها الحـــاضر على أن تكون رأيا عاما . والمدرسة العامة روحها المدرس ، وباستطاعتك أن تقلب البصر فيمن تلقى من مدرسين ، فما أظنـك واجدا الكثيرين بينهم ممن لهم فلسفة خاصة فى الحياة . ولسنا نقصد بالفلسفة الخاصة آراء بعينها فى الاقتصاد او الاجتماع او الادب ، بل نرمى الى حالة من النضـوج الفكرى والعاطفى تمكن صاحبها من أن يتخذ له موقفا محددا من الناس والاشياء ، فيعتقد مثلا أن المـــادة هى عصب الحياة ، أو أن الروح هى محركها الخفى ، ويكون من المؤمنين باطراد التقدم فى الانسانيـــة او القـائلين بتراوحها بين المد والجزر . وقد يعالج مشاكل الحيـاة بالجد الحار او بالسخرية الباسمة ، وقد يتناولها بالثقة المتفائلة أو الحذر المتشـــــائم ، ونحو ذلك من أنواع الفلسفات الشخصية التى لابد ان تتصف باحداها كل نفس ناضجة . وهذه الفلسفة الشخصية هى التى تمكن المدرس من التأثير فى تلاميذه تأثيرا باقيـــا ، وذلك لانه يستطيع عندئذ أن يعطيهم ضوءا هاديا فى الحياة ،وبفضل هذا الضوء يستطيعون بدورهم أن يحكموا على مختلف الامور . ومن البين أن الرأى العام يتـــكون من تفاعل مجموعة الاحكام الفردية . واذن فما دام معلمنا لا فلسفة له ، وما دام كبار مفكرينا وأساتذتنا لا يعـــرفون كيف يزودون هذا المعلم بتلك الفلسفة ، فما أظننا مستطيعين أن نجعل من مدارسنا بؤرات لتكوين الرأى العـــــام . واهول ما اخشاه الا نجد من بين اساتذتنا وكبار مفكرينا انفسهم نفرا كافيا يصدرون عما نتحدث عنه من فلسفة شخصية ، وما على القارىء الا ان يستعرض الاسمـاء

المعروفة ليحاول ان يحدد فلسفة كل منهم . ولقد يجد لاغلبهم مجموعة من الكتب او طائفة من الابحاث ، ولقد يكون فى تلك الكتب وتلك الابحاث جمال ومتعة ، ولكنه سيجد مشقة فى ان يستخلص منها روحا عامة وفلسفة جامعة . وعندما يخرج التلاميـــذ من المدارس ، وليس لكل منهم اتجاه روحى معلوم ، لن تجد غـــرابة فى ان يعجزوا عن حمل الصحافة على تقـــديم غذاء صالح للشعب ..

والصحافة كما هو معلوم صحافة اخبارية أو صحافة رأى . والاولى وان لم تخل من اثر على الرأى العام بحكم تخيرها لنوع الاخبار التى تنشرها وتاوينها لتلك الاخبار، الا انه فى نهاية الامر أثر محدود . وعلى العكس من ذلك صحافة الرأى التى تتـكون فى بلادنا من بعض الصحف اليومية ثم معظم المجلات الاسبوعية . وما دامت الصحف ملكا لافراد او شركات وكان هدفها الاول هو الربح المادى، فما أظن اننا نستطيع ان نرجو من ورائها خيرا كثيرا فى تكوين رأى عام سليم ، وذلك لان حرصها على الانتشار يدفعها الى اللعب على غرائز القراء ، فلا تجد فيها الا فتنا سياسية تدور حول كبار الشخصيات ، ولا ترضى فى القارىء غير حب اســـتطلاع خبيث ، أو تهريجـــا ديماجوجيا يولول لالام الشعب ويلوح له بآمال خادعة دون أن يدرس مشاكله دراسة جدية ، ويقترح لعلاجها الوسائل المجدية . واخيرا ترى اثارة الغرائز الجنسية اعتمادا على ما تنزله حياتنا الاجتماعية بنفوس الشبان من كبت . وانه وان يكن من الثابت ان اكثـر الصحف انتشارا فى مصر ، ليس اكثرها تأثيرا فى الرأى العام بحكم انه كلما ازداد جمهور الصحيفة كان جمهور تسليـــة وتزجية فراغ ، الا انه مما لاشك فيه ان امثال هـــذه

الصحف تقوم بعملية هدم كبيرة ، فهى تقوض الجدية فى النفوس ، كما تفسد الاخلاق وتعود العقول الكسل . وأنت اذا وجدت الى جوار أمثال تلك الصحف ، صحفا أخرى قليلة الانتشار ولكنها جدية مؤثرة باعتبار ان قراءها ممن يلتمسون غذاء لارواحهم الا انك — لسوء الحظ — قلما تجد لاحداها قيادة عامة واتجاها روحيا واضحا وانما هى طائفة من الاقلام والمعلومات لايجمع بينها غير غلاف الصحيفة ، ولهذا قلما تكون صحيفة منها مدرسة خاصة فى الحياة . واذا كنا لم نصل بعد حتى فى مجال السياسة الى خلق صحافة تعبر عن مذاهب الحكم المختلفة وتناضل دونها ، مع ان السياسة أمر يهم الملايين من البشر ، فانه لا ريب يكون من تعجل الامور تعجلا مسرفا ان نتطلع الى صحافة ثقافية موحدة الاتجاه ، مع ان الثقافة بطبيعتها ميدان الخواص ، ولكننى مع ذلك لا أفهم لماذا لا تكون لدينا مجلات تتحمس لتيارات التفكير المختلفة ، وتحاول ان تجمع حولها النفوس . ولكم من مرة يسألك احد الغربيين عن الاتجاه الذى تتميز به هذه المجلة عن تلك ؟ فلا تستطيع جوابا . ونحن لا نقصد بذلك الى المجلات الخاصة، بل نصب القول على المجلات العامة ، فهذه هى التى تزعم ان من الممكن بل من الواجب ان تكون لها روح عامة برغم تنوع موضوعاتها. وعندما تعدد أمثال تلك المجلات وتتفاعل تياراتها المختلفة سيبدأ الرأى العام فى أن يتكون



الرأى العام وليد لفلسفات فردية تشيع فى المجتمع . والمجتمع بدوره لا يستطيع أن يتمثلها الا اذا تركت له الحياة الإقتصادية من الراحة والفراغ ما يمكنه من تأملها . وتلك

الفلسفات لن تنمو الا عن طريق المعلم أو الصحافة ، واصلاح الإخيرين لابد لتحقيقه من سنين طويلة تتضافر فيها جهود الافراد والحكومات • ولابد لنا من أن ننتظر ، مع أستمرارنا فيما نحن بسبيله اليوم من فتح المدارس والجامعات ومناقشة مناهج الدراسة والتعليم وحسن القيام على دور التمثيل والسينما ومحطات الاذاعة وما شابهها من وسائل نشر الثقافة بين الشعب . وان يكن هناك ما نستطيعه لساعتنا فهو تعويد الجمهور أن يتجرع ما ينفعه والصمود له عندما تدفعه غرائزه الدنيا الى التماس اللذات الرخيصة

الرأى العام لم ينضج بعد فى بلادنا ، ولكن لا محل لليأس فنحن سائرون الى الامام ، وما علينا الا أن نواصل السير فى ثقة وشجاعة

أجور أم مساهمة في الأرباح ؟

لا شك أن القراء استفزهم جميعا منطق « دولة » اسماعيل صدقي «باشا» عند حديثه عن العمال ، وقد انتقد «الباشا» رفع الحكومة لمرتبات عمالها ، ورأى في ذلك خروجا على مبدأ المساواة اذ أصبحوا يتقاضون أكثر مما يتقاضى عمال الشركات والافراد ، وعنده أن واجب الحكومة كان يقضي بأن تحتفظ بأجورهم في مستوى منخفض لتتحقق المساواة وهذا هو المنطق الراسمالى العجيب

واما ان يطالب الشركات والافراد بأن ينصفوا هم أيضا عمالهم لتتحقق المساواة في الارتفاع لا في الانخفاض فذلك ما يأباه « الباشا » ، وحجته أن العمل سلعة من السلع تخضع لقانون العرض والطلب ، فمادام العمال متوافرين ، ومادام في الامكان استغلالهم بأتفه الاجور ، فأى داع لرفع مبلغ ما يتقاضونه .

ولقد ردت الحكومة على هذه الاقوال الآثمة ، وابت أن تعتبر العمل البشرى سلعة من السلع ، ولكننا نتساءل : هل من المعقول ان يظل نظام الاجور قائما بعد أن استنارت الانسانية وتهذبت مشاعرها وتفتحت أعينها على معاني الحق والعدل ، وما نظن أحدا يماري في

(*) نشرت في ١٩٤٥/٢/٢١

أن العمل هو مصـــدر الانتاج الوحيد ، فملايين الجنيهات اذا كدست أكواما ولم تعمــل بها يد الانسان لا يمكن ان تنتج شيئا ، وانما المنتج هو كد الرجال ، ومن ثمرات هذا الكد يجمع الرأسماليون المال

لسنا نشك فى أن النظام الطبيعى الذى ستنتهى اليــه الانسانية فى بلادنا ، وغير بلادنا سيكون المساهمةفىالارباح، وما ينبغى أن يأخذ الراسماليين الهلع من ذلك ، فهذا نظام موجود فى ريفنا وان تكن نسبة مايتقاضاه الفلاحون أقل بكثير مما ينبغى

ولابد من تدخل الدولة بالتشريع ليتحقق العدل فى تحديد تلك النسبة ، ففى بلد كاتب هذه السطور مثلا (مديرية الشرقية) يأخذ المزارعون ربع الذرة وسدس القطن واربع كيلات عن كل فدان من القمح وقيراطا من البرسيم ، ثم يقتسمون فيما بينهم ما يأخذون ، وهذه كما ترى نسبة ضئيلة جدا ومن مصلحة أصحاب الاراضى أنفسهـــم أن يرفعوها والا فسوف ينقرض الزراع ، أقول ينقرض ولا أبالغ فى شىء ، فقد لاحظت فى السنين الاخيرة ظاهرتـــين عجيبتين : أولاهما ان الفلاح الحالى قلما يتجاوز من العمر خمسة وثلاثين عاما ، والثانية أن معظمهم لم يعد يعقب أبناء فان أعقب لم يعد الطفل الواحد ، ولا غرابة فى ذلك فسوء التغذية وضعف الصحة وارهاق العمل جيلا بعد جيل قد أوشك ان يستأصل هذه الطبقة بحيث أصبح حتما ان يتدخل المشرع لاصلاح هذه الحال ، وذلك بأن يفرض نظام المساهمة فى الارباح ، ويحدد نسبة تلك المساهمة بما يضمن للفلاح حياة جديرة بالانسان ، وأما أن يستمر الملاك على استغلاله فى غير رحمة كما نشاهد اليوم فذلك مايأباه الحس الاخلاقى وتنفر منه معانى العدل

وانه وان يكن العمال قد أصبحوا اليوم أحسن حالا من

الفلاحين الا أنه قد حان أيضا الحين لنمكنهم من المساهمة في الارباح بدلا من الاستمرار في نظام الاجور الذى تفوح منه رائحة الاستعباد ونظام المساهمة لن يرد للعمل البشرى اعتباره فحسب ، بل أحسبه أيضا خليقا بأن يعزز الانتاج فاخلاص الشريك وحرصه على نجاح العمل يعنى اخلاص الاجير وحرصه ، واذا كانت طبيعة الحياة في المدن وكثرة نفقاتها اليومية لا تمكن العامل من الانتظار حتى يأخذ نصيبه في الارباح كما يفعل الفلاحون بالريف اذ ينتظرون جنى المحصول ، فهناك طريقة معقولة عادلة للتوفيق بين مبدأ المساهمة وطبيعة حياة العامل ، وتلك هي التعجيل للعمال بمرتبات تمكنهم من حياة معقولة على أساس الارباح السنوية التى تجنيها الشركة أو المؤسسة الفردية ، على أن يدفع للعمال على فترات معينة من العام أو في آخر العام حسبما تقضي طبيعة الاستغلال الاقتصادى ما يبقى من نصيبهم ..

لسنا نعرف، حرية من الحريات التى نادى بها ميثاق الاطلنطى أجدر بالرعاية والتحقيق في بلادنا من التحرر من الفقر ، كما أننا لا نعرف ، رقا أقسى على النفس هو أمر من رق الفقر ، فهو آفة الآفات ، لانه يستتبع خلفه المرض والجهل وضعف الخلق وانعدام الوطنية، ومالم نعمل في عزم على الوصول الى ذلك التحرر لن يرجى لبلادنا تقدم حقيقى . ونستطيع ان نؤكد ان تحرير الوطن ذاته لن يغنى عن وجوب تحرير الفرد ، وأى جدوى في أن أعيش أنا وأنت ذليلا في وطن عزيز

رأسمالية أم عدالة اجتماعية

لقد كانت معركة حامية تلك التى نشبت بين دولة اسماعيل « باشا » صدقى ، ومعالى مكرم عبيد « باشا » فى مجلس النواب أول أمس ، كانت معركة بين الرأسمالية والعدالة الاجتماعية وذلك مع تفاوت عميق فى الصفة بين الاتجاهين ، فقد كان للرأسمالية جوهرها ، واما العدالة الاجتماعية فلم يكن لها غير مظهرها ، وذلك لان « دولة » صدقى « باشا » دعا الى الحماية الجمركية فى حرارة بالغة وذلك ليحمى الصناعة كما دعا الى ضغط الميزانية بضغط اعتمادات الموظفين والعمال ، بل واعتمادات التعليم والصحة وغيرها ، كما دافع عن الشركات وبخاصة شركة السكر دفاع الابطال المجاهدين

وصدقى « باشا » كما قلنا غير مرة بالغ اللباقة فى تقديم ارائه المجحفة بعامة الشعب المنصفة انصافا مسرفا لاصحاب رؤوس الاموال تحت ستار من الوطنية الفاقعة وهو من المهارة بحيث يسكت دائما عن الوسائل التى يمكن أن تستنبط للتوفيق بين مصالح المنتج والمستهلك ولزيادة ايرادات الدولة بدلا من المطالبة بانقاص مصروفاتها بحق وبغير حق ، ولبسط نفوذ الدولة على

(*) نشرت فى ١٩٤٥/٣/٧

الشركات وتغليب الجانب المصرى فيها ، والاتجاه بهذا وجهة شعبية ..

ولكننا رغم ذلك نلاحظ ان صدقى « باشا » يريد ما يقول وان أغراضه الحقيقية ليس من الصعب على من أوتي قدرا بسيطا من الفطنة أن يكشف عنها مسفرة وفى هذا ما يكفى لتنبه الرأى العام وبخاصة رأى الشعب الذى يجب أن يدافع عن حقوقه

وعلى العكس من ذلك « معالى » مكرم « باشا » فقد دافع دفاعا مجيدا عن الطبقات المكدودة وفى هذا ما يدل على رغبته فى كسبها كرجل سياسة ، ولكن الشعب يطلب أعمالا ، والاعمال لابد ان تغضب الاغنياء و «معالى» الباشا يود لو كسب الكل ، وهنا الصعوبة ، والسياسة الحقة تتطلب استعدادا للكفاح الى جانب الرغبة فى كسب انصار ووزير المالية هو الذى يستطيع ان يعمل عملا ايجابيا لتلافى ما ضج به مفكرو المصريين والغربيين على السواء من سوء توزيع الثروة فى البلاد وفساد نظام الضرائب عندنا ، وما نريد أن نعيد القول فيما سبق أن قلناه وقاله غيرنا من وسائل الاصلاح الاقتصادية والمالية فقد اتضح الامر ولم يعد لاحد عذر اذ ان الموانع التى تقوم الان دون ذلك هى موانع سياسية كما قال بحق الاستاذ شوميكر ، فالخوف من معارضة الاغنياء ورجال الشركات واصحاب رؤوس الاموال هو الذى يمنع وزير المالية من أن يبشرنا بمشروعات محددة لاصلاح نظام الضرائب كتقرير مبدأ التصاعد فى الضرائب المباشرة مع الحرص على المباينة فى نسبتها بين دخل العمل ودخل رؤوس الاموال ، وتدعيم ضريبة الايلولة ورفع مستواها التصاعدى الى درجات جدية باعتبارها الضريبة الوحيدة

التى يمكن ان تعيد توزيع رؤوس الاموال الموروثة واصلاح نظام الضرائب المفروضة على المهن الحرة حتى تتنـــاول الدخل الحقيقي بدلا من تقريرها على قيمة ايجار العيادات والمكاتب وما شابهها

وأخيرا ، وهذه نقطة جوهرية ، اعادة النظر بصفة عامة شاملة في النسبة بين الضرائب المباشرة وغير المبـــاشرة فليس بمعقول ولا مقبول ولا عادل أن تحصل الدولة ثلثي أيرادها تقريبا من الضرائب غير المباشرة ، مع انها هى التى يدفعها فقراء المستهلكين مضافة الى اثمان ما يشترون من سلع والذى نعرفه ويعرفه الجميع فى بلاد العالم كله ، ان الاتجاه الان ، وقبـــــل الان قد كان لتغليب جـانب الضرائب المباشرة التى يدفعها الملاك واصـــــحاب رؤوس الاموال ، ومن العجيب الذى يكاد يفقد الصواب ، أن يقول صديقى « باشا » ان رعاية المستهلك وغيره من الطبقـــات المكدودة نغمة قديمة ، مع ان العكس هو الصحيح الذى لا يستطيع أحد ان يمارى فيه ، فجميع العالم الان متجه نحو رعاية ذلك المستهلك ومن فى حكمه من الطبقـــات المحرومة ، والقـــراء لا ريب يذكرون نظم الضرائب فى اوربا العادلة المعقولة ، كما يذكرون تشريعات العمـــال ومشروعات بيفردج وغيرها من الضمانات الاجتماعية

ومن غريب الامر أن يجأر الرأسماليون بأن المطالبـــة بتحقيق العدالة الاجتماعية سير نحو الاشتراكية مع انه لو صح ذلك لوجب ان نقول ان العالم كله ، بما فى ذلك انجلترا وأمريكا ، سائر نحو ذلك المذهب

والاشتراكية ، بعد ، مذهب لا يخيف فى شيء ، وانما هى الدعايات التى شوهت مدلولها وما دمنا لا نتعــرض لحق الملكية الفردية فى شيء ، فنحن بعد ذلك فى حل من

ان ندعو الى كافة المبادىء الانسانية الاخرى التى تدعو اليها الاشتراكية ، وليست هذه المبادىء الا ما اجملناه فى لفظة « العدالة الاجتماعية » وطرق تحقيقها واضحة

لقد تكلم اذن صدقى باشا فى جوهر الرأسمانية ، وتكلم مكرم باشا فى مظهر العدالة الاجتماعية ونحن نحارب الرأسمالية عن ايمان ، وأما العدالة الاجتماعية فندعو الى جوهرها ، ولا تكفينا الفاظها وذلك لان الامة قد حان الحين لنرفع مستوى الفقراء فيها ، فيرتفع بذلك مستواهم الخلقى والوطنى على السواء ..

مشكلة الفلاح

كتب سعادة « مراد » باشا وهبة مقالا يدعو فيه كبار الاغنياء الى التبرع لفتح مطاعم شعبية تقدم للفلاحين المعوزين وجبة من الطعام ، وأثار هذا الاقتراح مناقشات استمرت أياما

ونحن لا نحارب روح الخير ، ولكننا لا نريد ان توضع مشاكل البلاد الكبيرة فى غير وضعها الصحيح الجدير بكرامة الانسان ، فالمشكلة ليست مشكلة احسان ، وانما هي مشكلة اجتماعية كبيرة لا يجوز ان نصرفها عن وجهتها ..

والاساس العام لحل مشكلة الفقر فى البلاد ، هو العدالة فى تمكين مختلف الافراد من وسائل الانتاج ، وكسب كل رجل قوته اليومى بعرق جبينه

وما كنا نريد ان ندخل فى هذه المناقشة التى وفاها الكاتبون لولا ما ذكره سعادة « الباشا » من ان اصلاح توزيع الثروة فى مصر لا يمكن ان يعالج مشكلة الفقر عندنا ، وحجته في ذلك ان خمسة الملايين والنصف من الافدنة المزروعة فى مصر لو وزعت على السبعة عشر او الثمانية عشر مليونا ، لخرج كل فرد بثلث فدان تقريبا ،

(*) نشرت فى ١٩٤٥/٤/١١

وليس فى هذا ما يكفي ليقوت ، وهذه حجة كثر ترديدها على ما فيها من خطأ التبسيط ، فثروة البلاد لا تقدر بالاراضى الزراعية فحسب ، بل هناك العمارات والمصانع والمناجم ، وليس من شك فى ان غلة هذه المصادر تفوق بكثير غلة الاراضى الزراعية ، ولا أدل على ذلك من ميزانية الدولة نفسها فايراد ضريبة الاطيان لا يعدو خمسة ملايين من الجنيهات ، بينما تصل حصيلة الضرائب على الارباح التجارية والصناعية والمهن الحرة ، ما يزيد على ثمانية عشر مليونا

بل ان دخل الامة العام لا يقدر الا بقدرتها على خلق القيم الاقتصادية ، ومن الغريب أن تظل عند ما كان يزعم قديما « الفيزيوقراط » من أن الارض هى مصدر الثروة الوحيد ، مع أن من الواضح أن مصدر الثروة هو العمل بصرف النظر عن نوعه أو المادة التى ينصب عليها، فاخراج معدن من جوف الارض ، أو تحويله من مادة خام الى آلة يعتبر انتاجا ، وهذه كلها حقائق أصبحت بديهيات

ان الحل الطبيعى لمشكلة الفقر فى البلاد سيحتاج بلا ريب الى استغلال أتم لمصادر ثروتنا ، وتنمية لانتاجنا العام ، ولكنه أيضا متعلق أشد التعلق بمشكلة التوزيع ، ولهذا لا نستطيع الا أن نؤيد الاقتراح الذى تقدم به الشيخ المحترم محمد « بك » خطاب الى المجلس لوضع حد أعلى للملكية ، كما أننا ما زلنا نطالب باتمام تشريعات العمال والفلاحين بوضع حد أدنى لاجورهم وتنظيم وسائل التأمينات الاجتماعية التى تقيهم شر التعطل والشيخوخة والمرض وذل الاحسان ..

ثم اننا قلنا ونكرر أنه لم تعد فى بلاد العالم المتمدين أمم لا تأخذ اليوم فى نظمها المالية بمبدأ التصاعد فى الضريبة ،

غير مصر ، وهذا المبدأ هو الذى سيمكن الحكومة من أن تنمى مواردها لتنهض بمرافق هذا الشعب المسكين

وثمة ضريبة التركات ، وهى الضريبة الوحيدة التى تتناول رأس المال باعادة التوزيع فلماذا لا تقرر فى نسب تصاعدية كافية لاعادة توزيع الملكية فى بلاد لا يستند فيها حق الملكية تاريخيا الى كسب الانسان وعرق جبينه

هذه هى السبل فليسلكها وليدع اليها من يريد فى شجاعة حل مشكلتنا الاجتماعية ، وأما الاحسان ، واطعام الانسان لاخيه وجبة طعام شفقة به ، فذلك شعور جارح لكل احساس انسانى ، وهو خليق بأن يميت فى نفوس أبناء هذا الشعب الكريم ما فيها من كرامة

ان الانسان لا يعيش بالاحسان ، ولا ينبغى أن يعيش بالاحسان ، وانما الواجب أن نقرر له حقوقا ترتبها الدوله للافراد ، وان يمكن من يستطيع العمل منهم من ذلك ، وأن يكون من عمل كل فرد ما يكفى ليقوته ويقوت عياله ، على نحو جدير بكرامة الانسانية التى نشارك فيها جميعا ..

حصن الاستعباد

- ١ -

ليس هذا الحصن كما قد يتبادر الى الذهن بثكنات قصر النيل أو قصر الدوبارة ، ولكنه أخطر من هذين شأنا وأشد بأسا على حياتنا ، وهو البنك الاهلى الذى يسمونه مصريا سخرية منا وعبثا بعقولنا ، ولقد يبدو غريبا أن نستهل الحديث فى هذه السلسلة من المقالات عن البنك الاهلى على هذا النحو من الشدة ولكننا معذورون ، ونود لو يسايرنا القراء فى علاج هذه المشكلة الخطيرة التى لا تقل أهمية عن تعديل المعاهده أو تسوية مسألة السودان ، أو ما شابه ذلك من أمور قد نصل فيها الى بعض الترضيات التى لا تخرج عن القشور الزائفة ، وكلنا ـ لا ريب ـ يذكر كيف سخروا بعقولنا فى تلك المعاهدة المشهورة وقالوا أن لنا حق الطيران على أراضى انجلترا ، كما لانجلترا حق الطيران على بلادنا سواء بسواء ، وأمثال ذلك من سخافات تندى لها صفحة العقل

البنك الاهلى هو حصن الاستعباد فى مصر ، وتلك حقيقة لابد من تبسيطها وشرحها وعرضها،وتكرار القول فيها حتى يدركها رجل الشارع فيصحو الى حياته والى قوته وقوت عياله الذى يهدده هذا البنك بالفناء فى غير رحمة ولا حياء

(*) نشرت فى١٩٤٥/٧/١٦

في سنة ١٨٩٨ صدر « دكريتو » بالقانون الاساسي للبنك الاهلي ، وقد نص فيه على أن لهذا البنك حق اصـــدار أوراق البنكنوت ، وذلك بشرط أن يكون لهـــذه الاوراق مقابل في خزائنه ، فهي بمثابة ايصالات على البنك وهـــذا ما يسمى غطاء البنكنوت ، وقد نص في « الدكريتو » على أن يتكون ذلك الغطاء :

أولا : لغاية النصف على الاقل ذهبا

ثانيا : والنصف الاخر سندات تقوم بسعر لا يتجـــاوز السعر اليومي وعلى الاكثر بحسب قيمتها اســـــمية بشرط أن تكون مملوكة للبنك أو أن يحتفظ للحـــكومة وحدها بأمر أختيـــارها وتعيينها دون ان يترتب عـــلى استعمال هذا الحق في اية حالة من الاحـــوال او في أي وقت مسئولية على الحكومة

واذن فقد اعطى البنك حق أصـــدار اوراق البنكنوت بشرط أن يحتفظ في خزائنه بذهب يساوي نصف قيمتها وســـندات تساوي النصف الاخـــر ، ونص على أنه للحكومة المصرية حق أختيار هذه السندات وتعيينها

ولكن حق الحكومة المصرية كان في الواقـــع حقـــا نظريا فنحن لم نسمع ان البنك قد قبل سندات الـــدين الموحد أو الدين الممتاز مثلا كغطاء للعملة على نحو ما قيل ولا يزال يقبل السندات الانجليزية ، ولهذه المســـألة قصة عجيبة سيأتي خبرها بعد حين

وعلى أي حال فقد احترم شروط الغطاء في جملته الى سنة ١٩١٦ وتمتعت اوراق البنكنوت المصرية في الاسواق الداخلية والخارجية بثبات قيمتها باعتبارها ايصـــالات مضمونة بغطائها

ثبتت اذن قيمة أوراق البنكنوت المصرية ، وكـــــان

باستطاعة كل فرد أن يتقدم بالورقة ذات المائة قـــرش الى البنك ليستبدلها بجنيه من الذهب ، وهذا مايسمى قابلية أوراق البنكنوت للاستبدال بالذهب ، وظـــلت الحال على هذا النحو الى أن كانت سنة ١٩١٦ كمـــا قلنا ، ففي هذا العام المشئوم صدر اعلان من وزارةالمالية المصرية هذا نصه :

« ليكن فى علم الجمهور انه من جهة النظر الى الزيادة الكبيرة التى لا تزال تحدثها احتياجات موسم القطـــن فى الطلب على أوراق البنكنوت ، ولما كان من جهــة ثانية يحسن الا يجمع من احتياطى الذهب مبلغ يزيد عــــلى الحد الذى تقضى به الحكمة فى الاحوال الحاضرة ، لذلك تقرر أن يتسامح مؤقتاً بعض التسامح فيما هو معروض على البنـــك الاهلى من ابقـــاء كمية من الذهب فى الخزانة تعادل على الاقل نصف قيمة أوراق البنـــكنوت المصدرة

« وقد رخص للبنك الاهـــلى ان يستبدل ببـــونات الخزانة الانجليزية التى الى أجل قصير المقـــدار الذى يلزم من احتياط الذهب لجعل الاحتياطى المذكور معادلا لنصف الاوراق المصدرة طبقا لقانون البنك »

ومعنى ذلك بلغة سهلة بسيطة هو أن وزير الماليـــة المصرية قد أباح للبنك الاهلى ابتداء من سنة ١٩١٦ الحق فى أن يصدر أوراق بنكنوت مصرية دون أن يكون ملزما بالاحتفاظ فى خزائنه بما يعادل نصف قيمتها من الذهب ، فله أن يصدر ما يشاء مقابل أذونات علىالخزينة البريطانية، ولقد نص فى ذلك القرار المشئوم على أن ذلك انمـــا هو من باب التسامح

ومن غريب الامر أن هذا التسامح لا يزال مستمرا الى الان وانه هو السبب فى بلوانا الحاضرة ، فبفضـــــله

استطاعت انجلترا أن تسحب من البنك الاهلى ٣٥٠ مليونا من الجنيهات أثناء هذه الحرب وأن تشترى بها من بلادنا ما تريد وتنفق قواتها كما تبغى ، وكل ذلك مقابل أذونات على الخزينة البريطانية ، وها نحن اليوم عاجزون عن المطالبة بسداد هذه الاذونات أو اعطائنا سلعا وبضائع بقيمتها كما سيأتى البيان

منذ سنة ١٩١٦ أذن تخلص البنك من شرط الذهب ، وترتب على ذلك انه لم يعد يقبل استبدال أوراق البنكنوت بجنيهات ذهبية ، ولقد سار بنك انجلترا نفسه على هذه السنة ، وما البنك الاهلى الا تابع لبنك انجلترا وذيل له، واستمر الحال على هذا النحو الى أن كانت سنة ١٩٢٥ حيث قررت انجلترا ان تعوذ الى قاعدة الذهب وعادت معها مصر ، فأوصى المجلس الاقتصادى فى سنة ١٩٢٦ بأن تعمل الحكومة المصرية على أن يصعد الغطاء الذهبى الى ثمانية ملايين ، ولم يكن فى ذلك التاريخ الا ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وقد صعد فعلا الى ٦٫٢٤٠٫٠٠٠ جنيه فى سنة ١٩٣٢ واستمر كذلك تقريبا الى اليوم ، وقد أوصى المجلس الاقتصادى ايضاً حينذاك بأن تستعمل السندات المصرية فى الغطاء بمقدار ثلاثة ملايين من الجنيهات ، ولكن البنك الاهلى لم يستعمل منها حتى الان الا ما قيمته ١٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه

واذن فالبنك الاهلى لم يقبل ان يعطى المصريين أوراق بنكنوت مقابل سندات مصرية كسندات الدين المتاز والموحد قبل عملية التحويل التى تمت منذ سنوات ، أو سندات القرض الوطنى الموجودة الان فى أيدى حامليها . .

ومع ذلك ففى الوقت الذى لم يقبل فيه البنك غير مليون ونصف من السندات المصرية كغطاء لاوراق

بنكنوت يرسلها فى التداول ، نقول فى نفس هـذا الوقت نرى المسمى مصريا يقبل أذونات على الخزينة البريطانية بما يساوى الرقم المخيف وهو ١١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيـه ، ولما كان هذا المبلغ الضخم يكفى لان تصل المعاملات المالية الى عدة مئات من الملايين باعتبار ان تلك المعـاملات ليست الا حسابات جارية فى البنوك وودائع مرصـودة وليس من الضرورى طبعا أن تكون مبالغها كلها حاضرة فى خزائن البنك أو فى أيدى الناس فقد استطاع هـذا البنك العجيب أن يقدم لانجلترا الى الآن ٣٥٠ مليـون جنيه اخذتها على دفعات ثم عادت هذه المبالغ المأخـوذة بحكم التعامل الى البنك وأخذتها انجلترا من جـديد أو أخذت ما يساويها ، وهكذا الى أن تكون لنا هذا الدين الفاحش الذى لا تضمنه غير أذونات على الخزينـة البريطانية والذى نحاول الان جاهدين استخلاصه من الحليفة العظمى

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هـو كيف أن الحكومات المصرية التى تتابعت اثناء هذه الحرب لـم يستخدم وزراء ماليتها حقهم الثابت فى دكريتو سـنة ١٨٩٨ الذى بمقتضـاه يستطيعون أن يختـاروا نوع السندات والاوراق المالية التى يجوز للبنك ان يقبلهـا كغطاء للبنكنوت ، نعم كيف لم يستخدموا هـذا الحق ليوقفوا هذا البنك عند حده ويمنعوه من أن يسـلم لانجلترا ٣٥٠ مليون جنيه بدون مقابل فعلى عاجـل ، كما فعلت ايران عندما أصرت على آن يدفع لها مقـابل من الذهب عما أعطت قوات الحلفاء الموجودة فى بلادهـا من أوراق بنكنوت ايرانية

هذا هو السؤال ، وبالرغم من اتضاح الامر الان أمام البرلمان وامام الامة وامام الحكومة، وبالرغم من استعراض

لجنتى المالية بالنواب والشيوخ لهذه الحقـــــائق التى سردناها لا يزال البنك الاهلى الى اليوم مستمرا عـــلى خطته حتى لقد زادت كمية البنكنوت المتداولة فى الشهرين الاخيرين نحو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه اخرى ، وهنا يصح لنا أن نسأل الحكومة ماهو موقفها ؟ وان نسأل وزير المالية لماذا لا يستخدم حقه الثابت فى دكريتو سنة ١٨٩٨ فيتقف هذا السيل الذى سيجتاح البلاد ويدمر ثروتها ويشـــل تجارتها ؟

- ٢ -

رأينا فى المقالة السابقة كيف انه قد صدر من وزير المالية المصرية فى سنة ١٩٢٦ تصريح يجيز للبنك ان يصدر أوراق البنكنوت دون أن يحتفظ فى خزائنه بما يساوى نصف قيمتها ذهبا كما يقضى بذلك دكريتو تأسيسه الصادر فى سنة ١٨٩٨ ، وذلك اكتفاء بأن يكون الغطاء أذونات على الخزينة البريطانية ، ولقد بينا كيف أن هـــذا التصريح المشئوم قد ظل معمولا به الى الآن ، فاستباح البنك لنفسه الحق فى قبول مايساوى ١٠٠ مليونات من الجنيهات أذونات على الخزينة البريطانية ، وبفضل هذا التصرف الجرىء اعطى البنك لانجلترا ٣٥٠ مليون جنيه مصرى اشترت بها من بلادنا ما أرادت وانفقت جنودها كما اشتهت ، ولقد يتساءل القارىء كيف ان الحكومات المصرية المتعاقبة لم تحاول ان تستخدم حقها المنصوص عليه فى دكريتو سنة

(*) نشرت فى ١٩٤٥/٧/١٧

١٨٩٨ فتقف البنك عند حده وذلك بأن يرفض وزير المالية المصرية قبول أذونات الخزينة البريطانية كغطـــاء لاوراق نقدنا ، وبخاصة اذا ذكرنا أن هذا البنك الاهلى لم ينفـذ الى الان الطلب المتواضع الذى تقدم به المجلس الاقتصادي فى سنة ١٩٢٦ عندما قرر ان يقبل البنك سندات مصرية تساوى ثلاثة ملايين من الجنيهات ضمن غطاء نقدنا ، فانه من الثابت أن هذا البنك لم يقبل الى اليوم من السندات المصرية غير ما يساوى مليونا ونصف

وعلى القارىء ان يسأل وزراء المالية المتعاقبين عن جواب لهذا السؤال المؤلم

والذى نعلمه تاريخيا هو أن الحكومة المصرية قد حاولت فى سنة ١٩٤٠ أن تنشىء بنكا مصريا مركزيا يكون له هو حق اصدار أوراق البنكنوت بدلا من البنك الاهلى الذى هو فرع لبنك انجلترا ، ولكن هذه المحاولة لامر مالم تنجح وكانت سنة ١٩٤٠ هى سنة تجديد أو مد مدة امتيازالبنك الاهلى . فلما أثبتت الحكومة المصرية أنها عاجزة عن انشاء بنك مركزى مصرى اتجهت جهودها الى تمصير البنك الاهلى مادام لم يكن بد من مد امتيازه الى سنة ١٩٤٨

والآن نتساءل عن هذا التمصير وأثره ؟ لقد كان مداه هينا وأثره أهون ، أتدرى أيها القارىء ماذا كان هـــذا التمصير ؟ لقد كان أن اتفق على ان يـكون مجلس ادارته مصريا منذ سنة ١٩٤٠ وعلى أن تصبح أغلبية أعضاءمجلس الادارة مصرية أيضا فى سنة ١٩٤٥ ، ولقد تحقق هـــذا بالفعل كما اتفق على أن يقصر التوظيف على المصريين ابتداء من سنة ١٩٤٠ الا فى أحوال استثنائية حددت فى الاتفاق ، ولكن ماذا كان أثره ، اللهم لاشىء الا تعيين نفر من المصريين رئيسا وأعضاء لمجلس الادارة يتقاضون مكافآت ضـخمة

ولا يملكون من النفوذ شيئا

واما السلطة الحقيقية فقد بقيت فى يد محافظ البنك الانجليزى من جهة ، وفى يد الجمعية العمومية للبنك من جهة أخرى ، والجمعية العمومية لا يمكن أن تتجه سياستها نحو مصلحة مصر الا عندما تكون أغلبيتهامصرية، وليس من سبيل الى التحقق من ذلك الآن لامر بسيط هو أن أسهم البنك لن تصبح كلها أسمية كما اتفق عند مد امتياز البنك الا ابتداء من ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٨ ، وعندما يتحقق ذلك سيصبح من الممكن مراقبة تلك الاسهم والوقوف على حركة تداولها ، وفى اليوم الذى سيكون فيه بيد المصريين أغلبية تلك الاسهم سيحق لنا أن نقول ان البنك الاهلى قد تمصر

ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نقف مكتوفى الايدى أمام هذا الحصن الاستعمارى المخيف ، ومن واجب الحكومة المصرية أن تبادر فتأمر وزير ماليتها الهمام بأن يستخدم حقه فى وقف هذا البنك عند حده ، والا استفحل الامر ووقعت البلاد فى خراب محقق ، ومن المعلوم أن حركة الاصدار الحالية قد وصلت بالقوة الشرائية الموجودة فى التداول الآن أو المثبتة فى دفاتر البنوك كحسابات جارية وودائع وفى صناديق التوفير كأمانات وما الى ذلك ، قد بلغت الان أربعمائة مليون ومائتين وخمسة عشر جنيها ، وهذا المبلغ الضخم خليق بأن يرتفع بالاسعار فى أطراد ، وذلك حتى بفرض توفر السلع ، ومن المعلوم أن النقود وحكمها حكم السلع فاذا كثرت ضعفت قيمتها وستزدادهذه القيمة ضعفا اذا لم تشأ انجلترا ان تأخذ فى سدادالـ ٣٥٠ مليون جنيه المدينة بها لنا وذلك لان معظم الاربعمائةوسبعة مليونات الموجودة بين أيدينا الآن ستصبح بمثابة ايصالات لن تسدد ، هذا هو الوضع المدمر الذى وصلت اليهبلادنا

الان ، ولننظر فى النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الكارثة فنرى ما يأتى :

أولا : ان مبلغ الثلاثمائة وخمسين مليونا التى أخذتها انجلترا من البنك الاهلى هى المبالغ التى اشترت بها جميع ما اشترته من مصر أثناء الحرب ، والتى انفقتها جنودها فى بلادنا ، فكأنها اذن قد اشترت وأنفقت من مالنا الخاص وهذا المال ليس ملكا للحكومة المصرية وانما هو ملك للافراد المصريين وذلك لانه يمثل أوراق البنكنوت المصرية التى بين أيدينا وأرقام الحسابات الجارية والودائع ومبالغ صندوق التوفير التى أشرنا اليها ، فهى اذن تمثل الجانب الاكبر من الثروة النقدية الموجودة فى مصر كلها وفى هذا ما يزيد المأساة خطورة ، وذلك لان دين انجلترا على مصر هو فى الواقع نقدنا المتداول أو المرصود فى الدفاتر وفى هذا ما يسلمنا الى الجانب الثانى من المأساة وهو تجارتنا الخارجية

ثانيا : اتضح اذن أن معظم نقدنا لا تضمنه الا أذونات على الخزينة البريطانية ، فهو دين على انجلترا والدين لايقبل الغير أن يحول اليه الا اذا كان مضمون السداد ، ولما كنا لا نعلم الى اليوم ماذا تنوى انجلترا بصدده فقد رأينا الدول الاجنبية ذات العملات السليمة مثل أمريكا والسويد والبرتغال وسويسرا ترفض أن تقبل الجنيه المصرى أو الاسترلينى سدادا لما نشترى منها من بضائع وتحتم علينا أن ندفع لها الثمن بعملتها هى وفى هذا ما يشل تجارتنا معها ..

ولقد كان الامر يهون بعض الشىء لو انه ترك لنا الحق المشروع فى أن نستولى على مايصل الى ايدينا من عملات هذه البلاد لما نبيع لها من بضائع أو نؤدى من خدمات أو

تنفقه قوات كالقوات الامريكية فى بلادنا من دولارات، ولكن الحكومة الانجليزية أبت أن تجردنا حتى من هذه العملات فوقعت مع مكرم «باشا» اتفاقا عجيبا هو اتفاق الاستيراد والعملة .. وبموجبه التزم وزير ماليتنا أن يقوم بعملية المحصل لبنك انجلترا ، واصدار أوامر عسكرية توجب على كل مصرى يصل اليه شىء من عملات البلاد التى ذكرناها أن يقدمها لوزارة المالية المصرية ، والوزارة تحولها الى البنك الاهلى ، والبنك الاهلى يحولها بدوره الى بنك انجلترا ، وفى مقابل كل ذلك تعهد بنك انجلترا بأن يعطينا فى خلال سنة ١٩٤٥ من تلك العملات السليمة ما يساوى ١٥ مليونا من الجنيهات

واليوم وقد مضى نصف العام تسأل اللجنة المالية بمجلس الشيوخ عن المبلغ الذى أعطى لنا بالفعل فاذا به لا يتجاوز ما يساوى ٣٫٢٢٢٫٤٤٠ جنيها انجليزيا أى ما يزيد قليلا على خمس المبلغ المقرر لهذا العام ، مع أننا قد جاوزنا اليوم نصف هذا العام ، ولقد يسأل سائل السؤال الآتى :

هل من الممكن ان نعرف مقدار المبالغ التى كانت مصر تستطيع أن تحصل عليها من معاملاتها مع تلك الدول ذات العملات السليمة لنعرف هل غبنا بتحديد انجلترا لها بمبلغ الـ ١٥ مليونا من الجنيهات أم لا ؟

والجواب على ذلك يستطيع ان يجده القارىء فى تلغراف نشرته منذ يومين احدى صحفنا اليومية وعلقت عليه تعليقا قيما . والتلغراف يحمل ملخصا لمقال نشرته جريدة «نيويورك جورنال أوف كومرس» لكاتبة تعتبر حجة فى المسائل الاقتصادية وفيه تردد الكاتبة شكوى المصدرين الامريكان المرة من تحكم انجلترا فى تجارة الشرق الاوسط وقد جاء فيه « يقول المصدرون ان مدى التجارة الامريكية فى الشرق الاوسط لايمكن ظهوره على وجه التحقيق الا اذا كان قائما

على أسس وطيدة وغير مرتبط بأى نظام من شأنه جعل الدولارات تتسرب الى صندوق مشترك توزع منه انجلترا حصصا على بلاد الشرق الاوسط ويوجه هؤلاء المصدرون الامريكيون الى انجلترا انتقادا مرا لعدم توفير الدولارات التى تحتاجها بلاد الشرق الاوسط التى تمكنت ابان الحرب من أن تكون لنفسها أرصدة كبيرة من الاسترلينى بلندن »

واما عن كمية الدولارات التى باستطاعة الشرق الاوسط بما فيه مصر ـ أو كان باستطاعته ـ أن يحصل عليها لو ترك حرا فقد جاء عنها فى التلغراف « انه من المعتقد أن التجارة العامة بما فيها الارصدة غير المتطورة التى تدخل فيها نفقات الامريكيين فى تلك البلاد ستزودها بكميات وافرة من الدولارات تستعين بها على زيادة مشترياتها من أمريكا »

ومعنى ذلك هو أن الامريكان أنفسهم يشكون من انجلترا مثل ما نشكو وانهم يدركون أن المبالغ التى يمكن أن تحصل عليها لاشك تفوق الحصة التى تفضلت انجلترا فجادت بها علينا مما سنحصله لها بفضل وزير ماليتنا الهمام

ثالثا : لم يقف الامر فى شل تجارتنا الخارجية عند حد عرقلتها مع البلاد التى تنتج الآن بالفعل والتى تستطيع أن تسعفنا بما نحن فى مسيس الحاجة اليه لاستهلاكنا اليومى أو لتنمية صناعتنا ، نقول لم يقف الامر عند هذا الحد بل امتد الى غيرها من البلاد المحررة مثل فرنسا ذاتها ومنذ أيام قرأنا فى احدى الصحف الصباح أيضا ان هذه الدولة تريد ان تشترى كميات من القطن المصرى ولكنها لا تستطيع الحصول على ما يلزمها من الاسترلينى لدفع الثمن ، واذن فالبنك الاهلى أو بنك انجلترا لا يريد أيضا أن يعطيا دولا مثل فرنسا ما يلزمها

من الاسترليني لتشترى منا جزءا من القطن الذى لايزال يكون محصولنا الاساسى

والآن وقد اتضحت تلك الاثار البعيدة التى نتجت عن جراة البنك الاهلى وضعف الحكومات المصرية واصبح من البين أن حياتنا الاقتصادية كلها مهددة أكبر تهديد فى الداخل وفى الخارج بتلك الكارثة ، يحق لنا أن نتساءل ماذا تنوى الحكومة المصرية ان تفعل ازاء هذا الحصن الاستعمارى الشنيع ؟

ثم متى يصبح لنا بنك مركزى مصرى (١) ينقذنا من حصن الاستعمار الذى يسمونه البنك الاهلى المصرى ؟!

(١) بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو تحققت كل هذه الاحلام التى نادى بها الدكتور منذور منذ عشرين سنة واصبح لنا بنك مركزى واصبحت كل البنوك الاخرى تحت سيطرة الشعب المصرى تعمل لمصلحته ومن أجل اهدافه

حدث خطير

اتصال المثقفين بالعمال

لقد بدت بمصر فى هذه الايام ظاهرة تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخنا الحديث ، ويظهر هذا التحول من المقارنة بين الحركة الوطنية فى سنة ١٩١٩ والحركة الوطنية الحالية ، ففى سنة ١٩١٩ ، كانت الامة لا تتحرك الا اذا طلب اليها الزعماء الحركة ، وخبطوا فى جموع الشعب وساروا فى المظاهرات ، اما اليوم ، فقد نضج التفكير السياسى حتى رأينا جموع الشباب من « طلبة وعمال » يقررون بأنفسهم خطوات الجهاد العملى وينفذونها ، وتستجيب الامة لنداءاتهم

وفى سنة ١٩١٩ ، كانت الحركة سياسية بحتة فلبس لها الا هدف واحد ، هو الغاء الحماية وتحقيق الاستقلال ، واما اليوم ، فقد اصبح من الواضح ان الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التى يقف عندها الجهاد ، وذلك لان الفرد قد اصبح يدرك ادراكا واضحا انه لا خير فى الغاء الرق الخارجى اذا دام الرق الداخلى جاثما على صدره ، وانه لا جدوى من

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٣/١

أن يصبح الوطن عزيزا ، اذا ظل الفرد ذليلا ، بل ان التخلص من الاستعمار نفسه ليس الا وسـيلة لرفع مستوى الحياة بين طبقات الشعب ، وذلك بمنع الاجنبى من أن يستغل مصادر الثروة فى بلادنا

وليس بكاف ان ندافع عن قوتنا وقـوت أبنائنـا ومواطنينا ضد الاجنبى بل لابد من ان ندافع عنه أيضا ضد المستغلين من المصريين والاثرياء الجشعين حتى تتحقق العدالة بين الناس ، وتتاح الفرص لكافة المواهب ،ويفسح المجال لكل نشاط انسانى منتج

وهذا التفكير هو أقصى ما كنا نطمع فيه ، والبـلاد كانت بلا ريب سائرة نحوه ، ولكنه قد ظهر أخيرابصورة واضحة وما نظنه سيقف بعد اليوم قبل ان يبلغ أهدافه التى تتلخص فى الديمقراطية السـياسية والعدالة الاجتماعية الى جوار استقلال وادى النيل

والشىء الذى يستحق التسجيل هو أن هـذا التفكير قد خرج من حيز الفكر والاحساس الى حيز العمـل والتنظيم ، وقد أتت الخطوة الاولى اليه من شباب الجامعة المثقفين القلقين على مستقبلهم قلقهم على مستقبل بلادهم ، فهم الذين سعوا الى العمال بدافع ذاتى يريد المغرضون الكاذبون أن يشوهوا جماله فيتحدثون عن أيد خفية فيه ، وهم لا يكذبون عندئذ فحسب بل ويأثمون

والذى لا شك فيه هو ان الامر لم يعد يحتمل تسويفا، فجموع الامة عاقدة العزم على تغيير الاوضاع الاجتماعية القائمة واعادة النظر فى الهوه السحيقة التى تفصل بين الغنى والبؤس فى مصر ، وان الشعب لم يعـد يقنع بالوعود الخاوية والاصلاحات الهزيلة التى تقـرب من الاحسان ، وانه يتطلب اليوم سياسة جريئة لا لمحاربة

الفقر والمرض والجهل فحسب ، فتلك واجبات الحكومة البديهية ، وانما لخلق ظروف للعمل تتفق وكرامة البشر، ولا تحرمهم من ثمرة مجهودهم الكاملة ، كما تفتح أمام المواهب الطريق واسعا لا تقوم فيه حواجز مصطنعة ولا عوائق ظالمة باغية ..

ولسنا نحن الذين نردد هذه الافكار ، وانما نلتقطها من ألسنة الشبان جميعا في الجامعة ، بل ومن ألسنة اساتذتهم ، كما نلتقطها من أفواه جميع موظفى الدولة الذين يزيد عددهم عن المليون ونصف ، وذلك فضلا عن عمال الحكومة وصغار موظفيها الخارجين عن الهيئة ، واما عمال الشركات والمصانع الاهلية فقد اصبحت هذه الاراء نشيدهم المستمر

واذا كانت هناك طبقة كبيرة من الامة وهى طبقة الفلاحين لم تدرك بعد مدى ما هى فيه من بؤس ولا تحركت للخلاص منه ، فان ذلك آت عما قريب ، وذلك لان هذا التفكير لم يعد قاصرا على العواصم بل قد امتد الى المراكز ، وأخذ يتسرب الى القرى التى لم تعد تخلو اليوم احداها من الطلبة والمثقفين الذين يترددون عليها من حين الى حين اثناء الاجازات ويخالطون الفلاحين ويخالفون اباءهم في الرأي وينشرون التفكير الجديد فى كل مكان

سياسة الرأسمالية

أحست حكومة صدقي باشا أن العالم كله بما في ذلك انجلترا يسير نحو تحقيق العدالة الاجتماعية ، وأدرك بدهائه الثاقب أن طبقات الشعب المصرى قد وصلت من البؤس حدا ينذر بالخطر بعد أن تيقظت العقول وصحت الافهام ، فلم تر بدا من أن تعلن عزمها على رفع مستوى الشعب ، ولكنها لم تكد تطلع علينا بأول خطوة عملية نحو رفع مستوى هذا الشعب المنكود حتى ظهرت سياستها الرأسمالية سافرة واضحة .

فقد قال دولته في خطاب تأليف الوزارة ، انه سيرفع مستوى الشعب بتنمية الانتاج وهذا خير ، ولكن دولته لم يشر أية اشارة الى مشكلة توزيع الثروة في مصر مع أن العالم كله متمدينا وغير متمدين يعرف أن مصر تعانى من تفاوت الثروة فيها تفاوتا بلغ حدا لا يطاق

وبالامس طلعت احدى الصحف الصباحية بنبأ مشروع كبير لدولة صدقي باشا الرأسمالى يقضي بعقد قرض وطنى بمبلغ خمسين مليونا من الجنيهات لمحاربة الفقر والمرض والجهل . وهذه هى السياسة الرأسمالية كما يعرفها الخاص والعام وذلك للاسباب الآتية :

(*) نشرت في ١٩٤٦/٣/١٧

أولا : قرض لا ضريبة : ان بلادا لا تبلغ فيها الضرائب مهما علت حدا يتجاوز ١٢٪ لا يفهم أحد كيف نلتجىء الى القروض اذا أرادت تنمية ميزانيتها لمواجهة أمراض قتالة مزمنة كالفقر والمرض والجهل . وفى جميع العالم تبلغ ميزانية أفقر البلاد رقما يساوى عدد سكانها مضروبا فى عشرة جنيهات

ومصر يبلغ عدد سكانها ١٨ مليونا فكان من الواجب أن تصل ميزانيتها بمواردها العادية الى ١٨٠ مليونا على الاقل

ولكن كيف السبيل الى ذلك وها نحن نرى أمورنا تليها وزارة رأسمالية على غير ما نراه فى بلاد العالم قاطبة ؟

نعم كيف السبيل الى ذلك اذا كانت أمورنا تليها وزارة تبدأ عهدها بتخفيض الحد الأعلى للضرائب الاستثنائية التى يدفعها التجار الجشعون الذين يمتصون دماء الشعب من ٧٥٪ الى ٥٠٪ وتقر الغاءها فى سنة ١٩٤٨ حتى ولو ظلت حالة الغلاء والاستغلال السائدة الآن مستمرة ؟

ولو أن حكومة صدقى باشا كانت حكومة ديمقراطية حقا وأرادت أن تعالج الفقر والمرض والجهل وأعوزها المال اللازم لذلك لاقدمت فورا على تغيير نظامنا الحالى وفرض ضرائب تصاعدية جديدة تستطيع أن تحصل بها ، لا على ٥٠ مليونا بل على ١٠٠ مليون دون ارهاق حقيقى لكبار الاثرياء الظالمين

ثانيا : استثمار رؤوس الأموال : ان مصر تطفح الان برؤوس الأموال المكدسة المعطلة بين أيد قليلة من كبار الأثرياء ولا أدل على ذلك من أن نرى شركة كشركة

الحرير الصناعى التى تكونت منذ اسابيع تفتح اكتتابا بمبلغ ٧٥٠ الفا من الجنيهات فتنهال عليها ١٦ مليونا وكسورا أى أن الاكتتاب قد غطى بما يساوى قيمته ٢٢ مرة

وتعطيل مثل هذه الاموال لا يرضى الرأسماليين الذين يريدون استثمار أموالهم ليحصلوا على ربح له من دماء الشعب ، ولهذا يفكر صدقى باشا فى عقد قرض بمبلغ ٥٠ مليونا من الجنيهات وتبلغ به الجراة ان يقرر فرض ضرائب جديدة لدفع فوائد هذا القرض . وهكذا حتى الضرائب الجديدة التى يريد فرضها يحرص على ان تذهب الى جيوب المموليين . ولا يظن صدقى باشا أنه سيغطى حقيقة سياسته بما يقوله من ان القرض يستخدم لمحاربة الفقر والمرض والجهل . فالأمة وان كانت حريصة على محاربة هذه الأدواء الا أنها لا تريد ان تمكن الرأسماليين من زيادة أموالهم بأرباح يأخذونها من ميزانية الشعب المسكين ، كما انها ترى ان السبيل العادل لتدبير المال اللازم هو سبيل الضرائب التصاعدية التى فيها بعض العلاج للحالة الاجتماعية التى تدعو الى الأسى العميق

ثالثا : الميزانية والقروض : على أن رجال المال والاقتصاد من أمثال صدقى باشا أنفسهم يعرفون حق المعرفة ان القروض لا تعقدها الحكومات لتصرفها فى الأبواب التى تغذيها الميزانية العادية كمسائل الفقروالمرض والجهل ، وانما تعقد القروض للأعمال الانتاجية التى تستفيد منها الأجيال اللاحقة الى جوار الاجيال الحالية، ويكون فى هذا ما يبرر تحملها لسداد تلك القروض على مدى السنين . واما ان يعقد قرض لعلاج أمراض جيل بالذات ثم تحمل الأجيال اللاحقة عبئها ، فذلك مالا يمكن أن يقول به أحد ..

ولكن صدقى باشا قد نسى أو تناسى كل ثقافته الاقتصادية والمالية والذى يهمه هو ما يظن من أنه سيصيب بسياسته هذه عصفورين فيرضى الرأسماليين بأن يفتح لهم بابا لاستثمار أموالهم المعطلة ويوهم الشعب بأنه يعمل على رفع مستواه

ولكن الامة لن تنخدع بهذه السياسة بعد أن استيقظت عن بكرة أبيها وأصبحت تطالب فى جد وعزم بالخروج من حالة البؤس التى يعيش فيها الشعب اليوم والتي لا يمكن أن تدوم ..

واذا كانت هناك نصيحة نستطيع ان نسديها الى صدقى باشا واخوانه الرأسماليين فهى أن يسايروا الزمن ويعرفوا بأن الشعب اذ لم يعد يطيق الاستعمار الخارجى فهو من باب أولى لن يصبر على الاستعمار الداخلى الذى يمس قوته وحياته اليومية عن قرب ..

اتجاه المفاوضات

يطالع القراء فى غير هذا المكان برقية لوكالة « روتر » تفيد أن المستر بيفن قد صرح فى مجلس العموم أمس بأن الحكومة البريطانية قد ألفت برياسته وفدا للمفاوضة مكونا منه هو واللورد ستانسجيت وزير الطيران والسير رونالد كامبل السفير البريطانى فى القاهرة تساعدهم هيئة من المستشارين

وإننا وان كنا لا نريد أن نسبق خطى الزمن ولا أن نتعجل الحكم على النتائج الا اننا نرى من واجبنا أن نلفت النظر الى الاتجاه الذى يطالعنا من ثنايا البرقية المشار اليها ..

ونلخص ظواهر هذا الاتجاه فيما يلى :

جاء فى تصريح المستر بيفن « أن الحكومة البريطانية قد وافقت على القيام بهذه المفاوضة على ضوء تجاربنا المتبادلة ومع مراعاة نصوص ميثاق الامم المتحدة لضمان السلام والامن الدولى » ولقد أوضح مستر ريتشارد لو من المحافظين ووزير الدولة السابق معنى التجارب المتبادلة اذ قال : « ان المجلس بأجمعه يرحب بالفرصة التى هيأتها هذه المفاوضات لتؤكد من جديد معاهدة التحالف الانجليزية المصرية ، وذلك التحالف الذى كان

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٤/٢

ذا فائدة عظيمة لكلا البلدين والذى ربما كان اكثر نفعا لمصر منا »

واذن فالانجليز لا يزالون عند رأيهم الذى عبروا عنه فى الرد الذى أرسلوه على مذكرة النقراشى « باشا » انهم قد قبلوا المفاوضة على أساس التحالف الثنائى وميثاق سان فرنسسكو معا

ونحن أبناء مصر لا نفهم ماذا يريدون من الجمع بين التحالف وبين نظام سان فرنسسكو ، وبخاصة بعد أن عرفنا معنى هذا التحالف الذى لا يمكن فهمه بين انجلترا وبيننا الا على أساس أنه وسيلة للحد من سيادتنا وتحميلنا بالتزامات نحو انجلترا لا قبل لنا بها

وأما ما ذكره المستر لو من أن هذا التحالف ربما كان اكثر نفعا لمصر منه لانجلترا ، فذلك ما لا يراه المصريون ، بل هو ما يحذرونه

ومصر ترى أن باستطاعتها أن تدافع عن نفسها ، وأن قدرتها ليست أقل من عشرات من الدول المتوسطة والصغيرة الاوربية والامريكية بل والشرقية التى لن ترغمها الدول الكبرى على التحالف معها ولن تلقى فى روعها بالقوة أن هذا التحالف فى مصلحتها

اننا نؤمن أن زمن التحالف مع انجلترا أو غير انجلترا من الدول الكبرى قد انقضى بانقضاء زمن الاستعمار وقد أصبحنا نعتقد أن هذا التحالف مرادف للاستعمار وان التمسك به بعد تنظيم السلام تنظيما دوليا انما يخبىء تحت طياته التمسك بالنزعة الاستعمارية القديمة ، تلك النزعة التى قال مستر بيفن نفسه فى خطابه فى بريستول انها نزعة القرن التاسع عشر التى يجب أن تزول

ونحن نذهب الى أبعد من ذلك لاننا لا نريد أن نتخلص من الاحتلال من الباب فيأتينا من النافذة ، وذلك لان اشارة المستر بيفن الى ميثاق الامم المتحدة نخشى أن تكون متجهة نحو محاولة استبقاء انجلترا لجزء من قواتها البرية أو البحرية أو الجوية ببلادنا ، والاحتفاظ بنقط استراتيجية فى أرضنا أو موانينا أو مطاراتنا ، وذلك باسم مجلس الامن ونحب أن نلفت نظر مواطنينا فى هذه المناسبة الى أن ميثاق سان فرنسسكو نفسه لا يفرض على أية دولة ذات سيادة كمصر قبول قوات أجنبية فى أراضيها ، وانما يجوز ذلك في البلاد غير المتمتعة بالسيادة

وموضع الخطر الذى يجب أن ندفعه بكل ما نملك من عزم هو أن يحاول الانجليز تبرير استبقاء بعض قواتهم فى بلادنا او الاحتفاظ بنقط استراتيجية فيها باسم التحالف الثنائى اذا جمعوا بينه وبين تنظيم سان فرنسسكو

هذا الخطر يجب ان نصحو له وان نطالب المفاوض المصرى بأن يدفعه فى يقظة وعزم والا كان مفرطا فى قضية البلاد مخيبا لامالها وعندئذ ستناله الامة بسخطها البالغ

ويلاحظ القراء من تكوين الوفد البريطانى أن الانجليز يتجهون بالمفاوضات وجهة عسكرية اقتصادية بدلا من الوجهة السياسية التى كنا نبغى ولا نزال نبغى أن تظل المفاوضات فى حدودها

منذ يومين صرح الزعيم غاندى باسم الهند بأن ما يطلبه الهنود هو الاستقلال بلا ثمن أو مقابل لان الاستقلال حق طبيعى وهو يرفض كل مساومة فيه حتى ولو كان الثمن والمقابل مجرد الصداقة لبريطانيا ومن باب أولى

التحالف الذى لا يقبل الزعيم الهندى على أن يملى على بلاده

ذلك ما يراه الزعيم الهندى مع أن الهند لم تتمتع بعد بسيادتها فكيف بنا نحن ؟!

على أننا نوجس خيفة من أن يكون الاتجاه الانجليزى مناهضا لاتجاهنا الوطنى مناهضة تامة ، فمنذ حين والبرقيات الخارجية تتوالى علينا بتوجيه المفاوضة وجهة عسكرية قبل كل شىء ، وفى كل يوم نسمع ونقرأ أن الانجليز يرون أن المشكلة المصرية مشكلة خبراء حربيين ، وها هو تأليف الوفد يترجم عن هذا الاتجاه ، فان الرئيس الذى سيتولى المفاوضة هو وزير الطيران ، ومعظم الاعضاء من رجال الحرب ، ويكفى أن من بينهم قواد الوحدات البرية والبحرية والجوية ، وهؤلاء الحربيون لا يمكن أن نتوقع منهم خيرا لقضية استقلالنا، بل على العكس نخشى منهم التفتت والافتنان فى تبرير احتلالنا والحد من سيادتنا باسم الاعذار الواهية من نوع ما يرددونه عن حماية مواصلات الامبراطورية وضرورة الدفاع عنها ضد الدول الاخرى ، وما شاكل ذلك من حجج لا تنهض ضدنا أو تظاهر بغيرة باطلة على سلامتنا

والى جانب هؤلاء العسكريين سيضم الوفد طائفة من الخبراء الاقتصاديين وفى هذا ما يشعر بأن المفاوضات ستجمع بين المسائل السياسية والعسكرية وبين المسائل الاقتصادية ، وأهول ما نخشاه هو أن يعود الانجليز فيستغلوننا ببعض الالفاظ والترضيات الوهمية مقابل الجوهريات التى سيأخذونها منا

ولقد سبق لهم أن صرحوا بعينة من هذا الاستغفال عندما رددوا وجوب انزال العلم البريطانى عن ثكنات

قصر النيل ، أو اخلائها بالطبل والزمر ، وعندما قالوا أيضا بوجوب ابعاد الجنود البريطانيين عن نظر المصريين معتقدين أن فى هذا ما يكفى حتى ولو انتقلوا من القاهرة الى قليوب

ولمصر مصالح اقتصادية ومالية خطيرة عند انجلترا، وهى لا تقبل المساومة فيها مقابل ترضيات سياسية أو حربية شكلية لا تغير من الواقع شيئا

ولقد مدت الحكومة المصرية منذ أيام لسوء الحظ اتفاق العملة والاستيراد الخانق لحياتنا الاقتصادية والمشل لتجارتنا الخارجية والمقيد لعملتنا بأقسى القيود الى نهاية هذا العام بينما لم نسمع انها قد حركت مسألة الدين المصرى على انجلترا الذى بلغ الان ٤٥٠ مليونا من الجنيهات ، بل لم نسمع أنها فكرت فى ايقاف تزايد هذا الدين الذى أصبح نزيفا مميتا للبلاد

وها هى المفاوضات مقبلة ، والانجليز لاشك سيطالبون فيها بامتيازات تجارية ومالية واقتصادية كما سيثيرون مسألة معاهدة الاقامة التى تعطى جاليتهم فى مصر ، ومن يريد أن ينضم اليها من أبنائهم حقوقا ونخشى أن نقول امتيازات كتلك التى تخلصنا منها بمعاهدة مونتريه بعد شق الانفس

والذى نريد أن نحذر منه المفاوض المصرى ، بل ونحذر منه البلاد هو أن تكون هذه المسائل الاقتصادية والمالية العظيمة الخطر ثمنا لترضيات شكلية يجود بها الانجليز

ان مصر تريد أن تستخلص ديونها وحريتها الاقتصادية من انجلترا ، وعندما يكون هذا شأنها ، فان غضبها سيكون عظيما اذا رأت الانجليز بدلا من أن يردوا الينا حقوقنا ينتزعون منا لانفسهم حقوقا وامتيازات جديدة وذلك ما يجب ان يتدبره المفاوض المصرى • ان الاتجاه

بالمفاوضات كما يدل تكوين الوفد البريطانى اتجاها عسكريا واقتصاديا بدلا من الاتجاه السياسى ينذر بالخطر ويدعو الى اليقظة ..

ولقد أدهشنا ما عاد الانجليز يلوكونه من ادخال الممتلكات البريطانية الحرة فى مشكلة مصر اذ قال المستر بيفن ردا على سؤال خاص بذلك « ان القرار بالموافقة على فتح باب المفاوضات لتعديل المعاهدة قد أبلغ للممتلكات المستقلة وأنه سيبلغهم أسماء الممثلين الذين سيتولونها »

والانجليز طبعا احرار فى أن يبلغوا ما يشاءون لمن يشاءون حتى ولو كان تبليغهم لسكان المريخ ولكننا حريصون على أن ننبه الى خطر ما قد يستفاد من مثل هذا التصريح

ان مصر ليست داخلة فى نطاق الامبراطوريات البريطانية ولا هى حريصة على ذلك بعد أن أفنت مايزيد على نصف قرن فى المطالبة عبثا باستقلالها ، وأراقت فى سبيل هذا الاستقلال العزيز من دماء شهدائها دون أن يستطيع الانجليز التسليم بأن ما تطالب به مصر انما هو حقها الطبيعى وأن المصريين الذين خلقهم الله احرارا لم يعودوا يطيقون صبرا على الاستعمار أو استغلال

أسّ الفســـاد

شكت الينا بعض الجهات الحكومية من تعضيدنا لحركة العمال ، وكان من بين حججهم ما قالوه من ان الكثير من العمال أكثر فطنة الى حقوقهم منهم الى واجباتهم

ولسنا نريد مناقشة هذا الرأى لانه يحتـــاج الى تحقيقات قد نصل اليها يوما ولكنها ليست الآن تحت أيدينــا

الا أننا من جهة إخرى نطالع كل يوم فى الصحف ونشهد من تصرفات الحكومة ومناقشات البرلمـان ما يقطع بأن السياسة التى تسير عليها حكومة صدقى «باشا» سياسة مسرفة فى الرأسمالية على نحو خطر يخشى أن تكون له أسوأ العواقب

ولقد انتقدنا وننتقد كل يوم الكثير من تفاصيل تلك السياسة وكلياتها ، واليوم لفت نظرنا الى خطورة تلك السياسة اعلان نشرته كافة الصحف عن تكوين شركـة باسم « شركة الصناعات الكيماوية المصرية » برأسمـال قدره أربعة ملايين من الجنيهات دفع ٥٥٪ منها ــ أى أكثر من مليونين من الجنيهات ــ ستة «باشـوات» هم أعضاؤها المؤسسون وفتح باب الاكتتاب لعامة المصريين وغير المصريين فى الباقى

(*) نشرت فى ١٩٤٦/٤/١٧

وقبل ذلك بأيام قرأنا اعلانا آخر عن شركة أخرى تسمى « شركة الشمس » تأسست على نفس المنوال

وقبل ذلك ايضا بأيام تكونت شركة للحرير الصناعى على نفس النحو ، وفى كل هذه الشركات تطالعنا اسماء نفس « الباشوات » كأنها قاسم مشترك اعظم فى استغلال ثروة البلاد والسيطرة عليها

وفى هذا ما يفسر وقوف أمثال صدقى «باشا» وسابا حبشى «بك» فى وجه المشروع بالقانون الذى تقدم به أحد النواب للحد من استغلال «الباشوات» الوزراء السابقين واللاحقين لنفوذهم السياسى داخل الشركات التى يسرهم دائما ان يكونوا أعضاء فى مجالس ادارتها

وبالرغم من ان هذا المشروع بقانون قد كان سخيا جدا اذ أباح الجمع بين عضوية خمس شركات ورياسة شركتين ، وبالرغم من أنه لم يحرم الوزراء السابقين من العمل كمديرين أو أعضاء مجلس ادارة أو مستشارين أو خبراء فى الشركات المساهمة الا فى مدة الثلاث سنوات التى تلى تركهم للوزارة ، نعم بالرغم من كل هذا السخاء فان سابا حبشى «بك» قد غضب واحتج على هذا القانون فعملت الترتيبات اللازمة فى اللجنة المالية بمجلس النواب ليقرر المقرر ان مثل هذا المشروع لا ضرورة له لان بعض احكامه من الواجب أن تكون ضمن القانون التجارى العام والبعض الآخر ضمن قوانين التوظف

وبالطبع لن يعدل القانون التجارى العام فى هذا المعنى، ولن تعدل قوانين التوظف ، وكل هذه حيل للتخلص من مشروع القانون الذى يضايق السادة الوزراء والسادة الماليين من رجال التشريع

ولما كان حفنى محمود « باشا » قد جد واجتهد فى الوزارة السابقة عندما كان وزيرا للتجارة والصناعة وقبل

ان ينقله صدقى «باشا» الى وزارة المواصلات وينحيه من احدى وزارات المال التى يلوح أن اتجاهه فيها ليس مرضيا للسادة المولين

نعم لما كان حفنى «باشا» قد جد واجتهد فوضع قانونا عاما للشركات ضمنه احكاما تشبه الاحكام التى وردت فى مشروع القانون السالف الذكر فان عددا كبيرا من النواب الذين يسوؤهم هذا الانحلال السياسى والاخلاقى كما يسوؤنا قد طلبوا الى الوزير سابا حبشى «بك» بشدة أن يتقدم اليهم بهذا القانون (قانون حفنى «باشا») فى ظرف خمسة عشر يوما على الاكثر

ولقد رفض الوزير الاكتفاء بهذه المهلة واراد مهلة أوسع ، ولكن المجلس لم يوافقه لانه خشى التسويف والهروب ولو أننا كنا فى بلد دستورى صحيح لوجب ان يستقيل عندئذ الوزير ولكن الوزير لم يستقل بل ازداد مضيا فى سياسته التى يستند فيها طبعا الى رئيسه ويستمد منه كل عون وتأييد

هذه الحالة وهذه السياسة أصبحت شيئا لا يطاق واكبر الظن ان هؤلاء « الباشوات » وأولئك الساسة الحكام لا يحسون على الاطلاق ان الحالة فى مصر لم تعد تسمح بمثل هذه السياسة لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية السياسية

وانه لمن اعادة القول ان نصور ما قد بلغه الشعب المصرى من بؤس نتيجة لتفاوت الثروات تفاوتا قليل النظير فى بلاد العالم اجمع

وانه لمن اعادة القول أيضا أن نصور ما نرى الشعب آخذا فيه من اليقظة والفطنة الى حقوقه فى الحياة

والذى لا ريب فيه هو أن مصر تجتاز الان من الناحية

الاجتماعية مرحلة أشبه ماتكون بالمرحلة التى اجتازتها في أعقاب الثورة الوطنية سنة ١٩١٩

فقبل سنة ١٩١٩ كان حكم البلاد تتبادله حفنة من الباشوات الاتراك وما عدا ذلك من المصريين لم يكن لهم الحق فى أن يكونوا شيئا غير مجرد مرؤوسين ، ولكن الثورة غيرت هذا الوضع فرأينا فلاحين يتزعمون الامة المصرية ويلون الحكم فيها . وكان سعد زغلول أول فلاح حاز هذا الشرف والان نرى الشركات تؤلف كل يوم ولا يخرج أعضاؤها المؤسسون عن حفنة من « الباشوات » تنتقل أسماؤهم من شركة الى أخرى وليس لمن عداهم من المصريين ان يؤسسوا شيئا أو يسيطروا على شيء ، فهم لم يخلقوا لذلك ، وهم ليسوا فى كفاية هؤلاء «الباشوات» وان كنا فى الحقيقة لا نعلم ماذا يفعل هؤلاء «الباشوات» عندما يعملون كأعضاء فى مجالس ادارة تلك الشركات التى يتقاضون منها مكافآت تقدر بالآلاف

وبالطبع مثل هذه السياسة تستوجب من سابا حبشى «بك» بل من صدقى «باشا» أن يفتيا بأنه لا محل الان لفتح بنك صناعى يمول الشركات عند انشائها ، وبخاصة اذا ذكرنا أن ٥١ ٪ من رأسمال هذا البنك كان من المقرر أن يكون ملكا للدولة

نعم ، ان مثل هذه السياسة كانت لابد مستوجبة ايقاف انشاء هذا البنك حتى يستطيع «الباشوات» الممولون تأسيس ما يريدون من شركات وهذا ما كان ..

يخيل الينا ان هؤلاء « الباشوات » فى نوم عميق وان يقظتهم ستكون مزعجة ..

كيف تستغل الشركات نفوذ بعض الباشوات

جاء فى مذكرة المسيو جيانوتى التى نشرتها « صوت الامة » بالامس فى معرض الحديث عن صلة صـــدقى «باشا» بشركة الغاز المصرية Sep ما يأتى :

« تحصل صدقى «باشا» عند تكوين الشركة على ٢٥٠ سهما يدفع ثمنها بالتقسيط من حصتــــه فى الارباح المستقبلة »

ومن هذا الاعتراف الخطير نستخلص مايأتى :

١ ـ ان صدقى «باشا» قد أعطيت له ٢٥٠ سهمـــا دون أن يدفع مليما واحدا من ثمنها بل يخصم هـــذا الثمن من أرباح الاسهم نفسها فى المستقبل ..

٢ ـ أنه قد اعطى ٢٥٠ سهما بالذات ليكون مقـــدار اكتتابه الرسمى فى الشركة ١٠٠٠ جنيه باعتبار أن ثمن السهم الواحد الاسمى هو ٤ جنيهات

٣ ـ انه لما كان القانون يشترط لكى يكون الفـــرد عضو مجلس ادارة امتلاكه لاسهم تســـاوى على الاقـــل ١٠٠٠ جنيه فقد أصبح لصدقى « باشا » بموجب هـــده الـ ٢٥٠ سهما ان يصبح عضو مجلس ادارة

٤ ـ انه مادام لصدقى «باشا» الحق فى أن يصـــبح

(*) نشرت فى ١٩٤٧/٥/٤

عضو مجلس ادارة ـ وقد أصبح بالفعل ـ فيكون له الحق فى أن يصبح ايضا رئيسا لمجلس الادارة وهذا ما حدث بالفعل ..

وهذه هي الطريقة التي تحتال بها الشركات لكى تضم اليها ذوى النفوذ من رجال السياسة عندنا لكى تستغل ذلك النفوذ ـ وهى طريقة تنافى بلا ادنى شك كل مبادىء الشرف

والآن ، هل يعرف القراء مدى ماربحه صدقى «باشا» من هذه العملية ؟

لقد ربح صدقى ما يأتى :

١ ـ ربح ثمن هذه الاسهم الذى ارتفع من ٤ جنيهات الى ١١٠ جنيها اليوم ، وبذلك صارت الالف جنيه التى لم يدفع منها شيئا ٢٧٥٠٠ جنيه

٢ ـ مكافأة رياسته لمجلس الادارة وهى مكافأة سنوية كبيرة

٣ ـ ربح الـ ٢٥٠ سهما السنوى

٤ ـ سيطرته على الشركة ، وتوصله الى محاولة ما أراد أن يفعل مع غيره من شراء أسهم المسيو جيانوتى (١) وما فى هذه الصفقة من ربح لا يخطر على الخيال

ولكى نزيد الامر وضوحا ونبين مدى هذا الاستغلال المعيب نسرد للقارىء بعض المعلومات الرسمية عن هذه الشركة فنقول :

انها تأسست بالقاهرة عندما كان صدقى «باشا» رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٣٢ لمدة ٥٠ سنة ومجلس ادارتها يتكون من اسماعيل صدقى «باشا» رئيسا ، ومحمد طاهر «باشا»

---

(١) صاحب الشركة الاصلى وعضو مجلس ادارتها المنتدب وهو ايطالى الجنسية

نائبا للرئيس ، والمرحوم ايلى عدس عضوا منتدبا بعـد المسيو جيانوتى وعطا عفيفى «بك» واحمد صديق «باشا» وموريس اندريو وقسطنطين سلفاجو وجاكو دى كومب والفريد بونافو اعضاء

وأما أعمال الشركة فهى التجارة على وجه عام فى مصر والخارج وعلى الاخص تجارة البترول والبنزين والمازوت وجميع المنتجات الاخرى المماثلة

وللشركة أن تمثل أى مشروع تجارى أو صناعى أو تستغل اى امتياز وان تقوم بجميع العمليات التجارية والصناعية والعقارية والمالية والبحرية التى تتصـل مباشرة او غير مباشرة بغرض الشركة الاساسى وقـد تملكت هذه الشركة كل رأس مال شركة الغاز الاهليـة وقدره ١٠٠٫٠٠٠ جنيه — كما عقدت اتفاقا بينها وبين شركة « كاليفورنيا تكساس أويل » وحصلت على توكيل بتمثيل شركة « أومينوم » الفرنسية للبترول وهى شركة لها عمليات مهمة فى رومانيا

وأما راس مال هذه الشركة فقد كان ابتداء من سنة ١٩٣٨ ، ٧٢٫٩٠٠ جنيه ممثلا فى ١٨٫٢٥٥ سهما قيمة كل منها ٤ جنيهات ، وبالرجوع الى ميزانيتها السنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥ وجدنا ان احتياطياتها المتنوعـة قـد بلغت ١١٩٫٠٨٨ جنيها ، وأن صافى أرباحها قد كان ٨٤٫٠١٦ جنيها • هذه هى شركة الغاز المصرية ، وذلك هو نشاطها ومبلغ ربحها ، ومنها يتضح ما بلغه ربح صدقى «باشا» وأمثـاله منها

ولقد سبق أن رأينا كيف مكن صدقى «باشا» من هذه الارباح دون أن يدفع مليما واحدا مقابلا لها

ومن الغريب بعد ذلك أن ترتفع أصـوات قائلة بأنه لاضير فى أن يشترك «الباشوات» أو بعضهم فى نشاطنا

الصناعى أو التجارى ، وأن يربحوا من وراء ذلك المال الوفير ، نعم ، من الغريب أن ترتفع مثل هذه الاصوات للرد على من ينادون بضرورة ايقاف استغلال النفوذ ، فهانحن أمام حالة ناطقة ، وذلك لان صدقى «باشا» رجل من ذوى الثراء ، وقد كنا نفهم أن يشترك بماله الفعلى فى هذه الشركة او غيرها ، وأما أن نراه لايدفع مليما واحدا ، ثم تعطيه الشركة رغم ذلك ٢٥٠ سهما وتجعله عضو مجلس ادارة بل ورئيس مجلس ادارة فهذا شيء لا يستطيع فهمه انسان ولا يمكن تفسيره على أنه مساهمة مشروعة فى استغلال مورد الثروة فى البلاد

واذا لم يكن هذا هو استغلال الشركات لنفوذ بعض « الباشوات » فماذا يكون استغلال النفوذ ؟ .. الامر بين وانه لمن الواجب القضاء على مثل هذا الفساد الذى يهدد مصالح مصر العادلة وشعبها البائس أشد التهديد بأن يمكن هذه الشركات من السيطرة على البلاد وأهلها بل والادارة الحكومية فيها أقبح السيطرة وأعظمها جرما

ارتفاع أسعار القطن

اكبر شاهد على ان الحياد

هو المحقق لمصالح مصر

لقد أصبح الحياد السياسة المقررة لا لشعب مصر وحده بل وللغالبية العظمى من الشعوب العربية الاخرى التى اخذت تعلن فى وضوح انها ترفض الانضمام الى أية كتلة دولية وذلك لكى تتخلص من الاستعمار الانجليزى العتيق، والاستعمار الامريكى الناشىء ، ثم لكى لا تنزلق الى حروب دولية لا دخل لها فيها ولا مصلحة . هذا هو ما استقر عليه اجماع تلك الشعوب ، ولذلك أصاب الاستعمار الانجليزى بنوع خاص مايشبه السعار فأخذ يشن حملات عاتية لتخدير اعصاب الشعب المصرى وغيره من الشعوب العربية مستعينا فى ذلك بأذنابه ومأجوريه ، وذلك بنشر أخبار خيالية عن الحرب المقبلة وقيامها حتما فى سنة ١٩٤٨ ثم عن الشيوعية وغزوها المزعوم لبلاد الشرق الاوسط وغيرها .

هذه الحملات لابد من تحطيمها لانها حملات مجرمة مغرضة ولن ترهبنا اراجيف ولا دسائس عن أن نهتك

(*) نشرت فى ١٩٤٨/٢/٨

سترها ونحرقها بنار الايمان

لدعاة الاستعمار بل لخونة الوطن أن يدعوا ما يشاءون ولكننا نرفض ان نمكن حرب الاعصاب التى يشنونها من أن تنال من غيرتنا على هذا الوطن وحرصنا على استقلاله الصحيح ومصالحه الفعلية شيئا على الاطلاق

اننا نرفض التحالف مع انجلترا والدفاع المشترك لاننا نريد استرداد سيادتنا الخارجية كاملة ولان السنين الطويلة الماضية علمتنا ان هذا التحالف ليس الا الحماية بعينها ..

على اننا نود ان يذكر أولئك الذين قد يكونون حسنى النية ممن يرون عقد تحالف مع انجلترا الى ان مثل هذا التحالف لا يراد منه الا تقييدنا وارهاقنا بمختلف الالتزامات الاستعمارية . وأما الانجليز فلن يلتزموا بشيء ولا ضرورة لان نلزمهم بشيء لان مصالحهم هى التى تربطهم فما الداعى اذن لان نرتبط بمعاهدات اذا لم يروا هم مصلحة فى تنفيذها فلن ينفذوها وما العهد باتفاقية ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٧ الخاصة بالارصدة ونقضهم لها بعد اقل من شهرين من توقيعها عندما تعارضت مع مصالحهم ببعيد

وبقيت الشيوعية وتلك فرية كاذبة ولن يدفعها عن مصر أو غير مصر التحالف مع الانجليز وانما يدفعها تحقيق العداله الاجتماعية ورفع مستوى الانتاج العام فى البلاد

على ان الايام الاخيره قد قدمت للمصريين دليلا لا يدفع على أن مصلحتنا الاساسية لن يحققها غير الحياد والتعامل مع كافة الدول على أساس المنافع المتبادلة وان احتكار دولة كانجلترا أو غيرها لحياتنا السياسية او الاقتصادية او الثقافية فيه اكبر الضرر ببلادنا

لقد كان الانجليز يحتكرون شراء قطننا وقد بخسوه

اكبر البخس منذ قيام الحرب حتى الآن وذلك حرصا منهم على افقارنا وخوفا من غنانا حتى لا ننتعش ونهب فى وجوههم مطالبين بحرياتنا كما حدث فى سنة ١٩١٩ اذ ظنوا ان الرواج المالى الذى حدث عندئذ قد كان الدافع لنا الى الثورة الوطنية الكبرى وحرصا من هؤلاء المستعمرين على التحكم فى قطننا رفضوا ، رغم انتهاء الحرب ، فتح بورصة ليفربول الخاصة بالقطن وبورصة مانشستر ومدوا العمل بالنظام الذى وضعوه أثناء الحرب وهو القاضي بأن لا يشترى القطن الا مجلس التجارة المساوى لوزارة التجارة عندنا على أن يوزع هذا المجلس القطن على المصانع المختلفة بأثمان محددة وذلك لكى لا يترك المصانع تشترى بنفسها هذا القطن أو تتنافس فى شرائه فترتفع أسعاره فى البورصات وخارجها ، وكان من نتيجة ذلك أن ظلت أسعار قطننا بالغة الانخفاض.

ثم أضافوا الى ذلك أن أخذوا يعرقلون تجارتنا الخارجية بشتى الوسائل السياسية والمالية وذلك حتى لا نستطيع أن نبيع لغيرهم

ولكنه حدث اخيرا تحت ضغط الرأى العام الوطنى وثورته على احتكار الانجليز لبلادنا سياسيا واقتصاديا أن أخذت الحكومة المصرية تفاوض كافة الدول لتصريف القطن حتى انتهى بها الامر الى مفاوضة الروسيا نفسها تلك المفاوضة الدائرة اليوم والتى ازعجت الانجليز ايما ازعاج فشمروا عن ساعدهم ودخلوا السوق مشترين حتى لقد قالت احدى الصحف الصباحية أمس ما يأتى :

« تشير اكثر من ناحية من النواحى القطنية المتصلة بالسوق الى أن السبب الحقيقى فى الارتفاع يرجع الى تدخل انجلترا بواسطة مجلس التجارة مشترية فى السوق

حتى أنها كلفت ٢٤ بيتا من بيوت التصـــــــــدير بالشراء لحسابها كوسيلة لمنع الاتفاق بين مصر وروسيا التى تريد شراء ١٧ ألف طن من القطن المصرى ، لان الاكثار من الطلب مع قلة المعروض سيؤدى حتما الى رفع السعر الى مستوى ترفض معه روسيا الشراء ، ولذا تؤكد بعض الدوائر ان الاسعار ستستمر فى الارتفاع فى الاســـــبوع المقبل »

هنا ما قالته الصحيفة ، ومن ثم يتضح كيف أنه بمجرد ان فتحنا باب التنافس بين الدول المختلفة على قطننـــــا دون أن تثنينا عن ذلك صيحات المجرمين الذين يحاربون بلادنا باسم الشيوعية والروسية وما الى ذلك من أراجيف مغرضة ارتفعت أسعار محصولنا الاساسى هـــذا الارتفاع العظيم

ان فى هذه الحادثة الدليل القاطع من الناحية الاقتصادية على أن سياسة الحياد ومعاملة الجميع هى التى تحقق مصالح بلادنا كما أن نفس الحيـــاد هو الذى سيحقق من الناحية السياسية استقلالنا الحقيقى

منطق الدعاية

اشتدت فى الايام الاخيرة حركة الدعاية باسم الحرب واحتمال نشوبها عما قريب حتى اخذت أعصاب القارىء العادى تتوتر وأخذ تفكيره يترنح وكل تلك الدعاية من الملاحظ أنها انما تأتى الينا فى مصر وفى الشرق الأوسط كله من معسكر واحد هو المعسكر الانجلو امريكى ، الذى ربطنا به الاستعمار وتدور بيننا وبينه اليوم معركة تحرير لا يريدون أن يسلموا الينا فيها بحقوقنا المشروعة فى استكمال استقلالنا وفك القيود الموضوعة على سيادتنا السياسية والاقتصادية

وهذه الدعاية العنيفة نود اليوم ان نسلم جدلا بأنها تقوم على أساس .. وان يكن رأينا الحقيقى أنها حملة تضليل وحرب اعصاب .. نعم فلنسلم جدلا بأن لتلك الحملة أساسا ثم نتساءل عما يمليه المنطق السياسى السليم على انجلترا وأمريكا من جهة وعلى مصر والعالم العربى من جهة أخرى نتيجة لتلك الحالة الدولية التى يصفونها بالخطورة

فاذا كانت الحرب تهدد العالم وكان الانجليز والامريكيون يريدون أن يطمئنوا الى عون العالم العربى

(*) نشرت فى ١٩٤٨/٣/٢٢

فيها او على الأقل ان يأمنوا شره فان السبيل أمامهم انما هو ان يسلموا بحقوق ذلك العالم العربى وان يتخلصوا من عداوته لهم تلك العداوة التى لها ما يبررها من استعمار الانجليز لاراضينا عشرات السنين دون ان يبروا بوعد أو تصدق لهم كلمة . وأن يدركوا أنه ما دامت الشعوب تعاديهم فلن تجديهم شيئا أية معاهدات او محالفات يملونها على تلك البلاد بواسطة أذنابهم وبخاصة اذا ذكرنا ان تلك الشعوب قد وقفت فى الحربين العالميتين الاخيرتين الى جانب ما يسمونه الديمقراطية موقفا شريفا ، ثم لم تكد الحرب كل مرة تنتهى حتى تنكرت تلك الديمقراطية العجيبة لهذه الشعوب وأذاقتها المر فاستذلت رقابها ونكلت بأبنائها وحصدت شهداءها وتكالبت على استعمارها وتنكرت لكافة الوعود

وفى الحق ماذا يمكن أن يجدى حلف يفرض فرضا مادام الشعب لا يقبله والذى لاشك فيه أن فرض مثل هذا الحلف لن يكون له غير أثر واحد وهو زيادة عداوة الشعب لمن فرضه وتربصه للخلاص منه بل والانتقام ممن فرضه عندما تسنح الفرصة وستكون تلك الفرصة نشوب الحرب حيث يرى المستعمرون الشعب الذى ظنوه قد قيد بمحالفة يطعنهم من الخلف انتصافا لعزته المجروحة وكرامته المهانة ..

هذا هو ما يمليه المنطق السياسى الصحيح ، وهو ما يجب أن يتدبره الانجليز ومن خلفهم الامريكيون الذين يناصرونهم واما ترويعنا باسم الحرب لكى نقبل معاهدة لا نريدها أو حلفا لا نرضاه ، فهذا هو الخوف بعينه

اننا شعب مسالم لا مصلحة له فى الانضمام الى أولئك او هؤلاء واننا لا نبغى الا استكمال استقلالنا وتبادل

المنافع بعد ذلك مع الجميع فاننا عندما تشتد علينا الدعاية باسم الحرب لا يمكن الا أن نزداد نفورا من الدخول فى محالفات ستضطرنا عما قريب الى خوض حروب يشنها أناس جشعون ولن ينالنا منها غير الاذى دون أن نحصل منهم على اية فائدة

وهكذا يتضح ان الضغط باسم الحرب لن يحملنا على مالا نريد من تحالف وان الاجدر بالانجليز والامريكان اذا كانت دعايتهم صحيحة أن يتدبروا منطقها بأن يسلموا لشعبنا وللشعوب العربية الاخرى بحقوقها المشروعة فى الحرية والاستقلال الكاملين

فهرس

تقـــديم ٦

القسم الاول : فى الثقافة والمجتمع

بعث القديم ١٢
الاخـذ عن أوربا ١٨
الادب الاغريقى فى عصر الاسكندرية ٢٣
العمالية الفكرية ٤٦
التوازن الاجتماعى ٥٢
مكافحة الشكلية ٥٨
أميـة المتعلمين ٦٤
التفـكير المذهبى ٧٠
العقلية المصرية ٨٦
قادة الفكر ٨١
شعب مصر ٨٥
الثقافة والاخلاق ٩٠
دراسة اللغة العربية وأدابها ٩٥
صفات المؤرخ ١٠٣
رسل الثقافة الغربيـة ١١٢
وحدة الامة ووحدة الثقافة ١١٧

القسم الثانى : من آفات النفوس

سهام ماضية ١٢٢
الغرور ١٢٥
الاستهتار ١٢٩
الاغماء العقلى ١٣٣
أزمة الضمير ١٣٧

القسم الثالث : فى السياسة والاقتصاد

وظائف الدولة ١٤٢
الميزانية والعدالة الاجتماعية ١٤٩
خطوة جديدة نحو العدالة الاجتماعية ١٥٦
مسألة الضرائب التصاعدية ١٦١
تعليقنا على رد صدقى ١٦٦
الرأى العام ١٦٩
أجور أم مساهمة فى الارباح ١٧٥
راسمالية أم عدالة اجتماعية ١٧٨
مشكلة الفلاح ١٨٢
حصن الاستعباد ١٨٥
حدث خطير اتصال المثقفين بالعمل ١٩٧
سياسة الرأسمالية ٢٠٠
اتجاه المفاوضات ٢٠٤
أس الفساد ٢١٠
كيف تستغل الشركات نفوذ بعض الباشوات ... ٢١٤
ارتفاع الاسعار ٢١٨
منطق الدعاية ٢٢٢

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحـرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سـنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلتـــــرا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هذا الكتاب

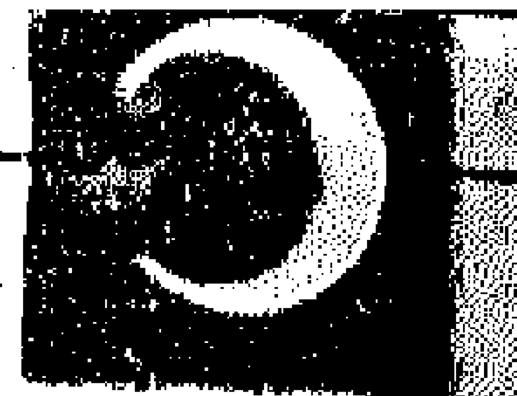
يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الهامة التى كتبها الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ – ١٩٦٥) قبل ثورة ١٩٥٢ . وهذه الدراسات لم تظهر من قبل فى كتاب ، بل كانت مبعثرة بين عشرات الصحف والمجلات التى كان الدكتور مندور يعمل فيها قبل الثورة

وعندما نقرأ هذا الكتاب الهام ندرك أن الدكتور مندور كان احد كبار المبشرين بقيام ثورة ٢٣ يوليو . فالكتاب فى دراساته المختلفة هو وثيقة أدانة علمية وثورية للباشوات الذين تحكموا فى مصر واستغلوا شعبها اسوأ استغلال ، وهو وثيقة ادانة للاستعمار الاقتصادى وكشف عن أساليبه ودهاليزه التى كان يحاول أن يختبىء فيها عن العيون والانظار ، وهو وثيقة ادانة لصحافة الاثارة التى حاولت ان تحيط بالضباب كل القضايا الهامة للشعب .. خدمة للمستعمرين والباشوات

ان هذا الكتاب هو وثيقة ادانة كاملة لمجتمعنا القديم .. وهو ادانة مدعمة بالاسماء الصريحة والارقام والوقائع والتصرفات .. وقد اتيح لهذه الوثيقة الهامة ان يكتبها قلم فيه عذوبة الفن ووضوح العلم وامانة الضمير الوطنى النقى المؤمن بالشعب ..

10 قروش

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

ثورة الزنوج في أمريكا

الدكتور عبد الملك عودة

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٦ رجب ١٣٨٥ – نوفمبر ١٩٦٥

No. 176 — Novembre 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمه الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليماً ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال

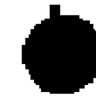


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف : بريشــــــة
الفنان بهجت عثمان

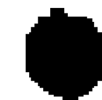
ثورة الزنوج

في أمــــريــــكا



تأليف

الدكتور عبد الملك عودة



دار الهــــلال

مقدمة

٢٠٠ يوم في امريكا

كان آخر ما قرأته استعدادا للسفر الى أمريكا في سبتمبر عام ١٩٦٤ كتاب « شعب من الغنم » للكاتب الأمريكي هارت ليدلر ، وكتاب « الوجه الآخر للصورة الأمريكية » لمايكل هارنجتون سكرتير الحزب الاشتراكي الأمريكي ..

وفي الصباح المبكر ركبت الطائرة الى نيويورك لأول مرة في حياتي وقبل أن يمر يوم كامل كانت الطائرة قد عبرت البحر الوسيط فأوروبا ، ثم بحر الظلمات نحو العالم الجديد ، وأخيرا استقرت فوق أرض المطار الكبير في ضواحي مدينة نيويورك وما ان خرجت من المطار حتى توقفت لأستجمع قواي العقلية والنفسية فقد شعرت

بأعراض اغماء عقلى . لقد خشيت أن أنهار أمام الاطار الخارجى للصورة الامريكية التى أواجهها لأول مرة فى الواقع وعلى الطبيعة . انه اطار براق يبرز أمام الانسان فجأة فى صورة ضخمة حتى ليوشك الانسان ان يشعر بضآلته التى تتحول الى ضعف وانهيار نفسى وما يتولد عنهما من مرارة وسخط . ان كل شىء ضخم كبير فى أمريكا وبشكل ملفت للنظر .. العمارات والشوارع والمدن ، والماكينات ، وأنواع الصحف وحجمها ، وكميات البضائع وأصنافها وألوانها فى المحلات الكثيرة ، اعداد الناس فى الشوارع وميزانية الحكومة والشركات وأرقام الأرباح والانفاق ، احصاءات الانتاج ، ومساحات الأراضى المنزرعة والبور ... الخ ..

وتبينت سر جاذبية أمريكا التى يقع فيها الكثيرون من القادمين من آسيا وافريقيا والبلاد المتخلفة . ان السر يكمن فى هذا الاطار الخارجى البراق . لقد صنعه الأمريكيون وأبدعوا فيه ليكون عنوان حضارتهم ومجالا للتباهى والتفاخر أمام أفراد الشعوب الأخرى ،

ان الخطر يكمن فى هـذه النظرة الأولى وهـذه الخطوة الأولى حين تأتى من بلاد العـالم الثالث حيث مستويات الحياة منخفضة ، وحيث العمـل الشـاق لرفع انقاض هـذا الظلم وهـذا التخلف الطويل ، وليس البنـاء عمـلا هينـا لينـا فى ظروف النصف الثانى من القرن العشرين . وفى مرات كثيرة كنت أردد آيات بينـات من شعر ابن الرومى أستعيـذ بهـا من الشيطـان الوسـواس ، لأتزود بالثبـات وأحافظ على توازنى العقـلى والنفسى ، وكانت تنير بصـيرتى وأنا أردد :

ولى وطن آليت الا أبيعـه
وألا أرى غيرى له الدهر مالـكا

وحبب أوطان الرجـال اليهمو
مآرب قضاها الشبـاب هنالكا ..

ومرت الأيام والشـهور حتى اكتملت ٢٠٠ يوم ، وكلمـا توغلت فى حيـاة المجتمع وعلاقات النـاس ، ولاحظت الأمور تجرى ، والقيم والمثـل تعمـل ، حتى اكتشفت اننى دخلت أمريكا من باب الأبيض الثرى ، انه الباب الرسمى لدخول الولايات المتحدة الأمريكية ، وما ان يعبر الانسـان هـذا البـاب حتى تشهد عيناه

الصـورة التى أبدعت فى الايحاء بها أفلام السـينما وكتب الاعلام وأرقام الانتـاج واحصـاءات التقـدم المادى ، وقصص الحياة فى أرض الفرص .. جنة الله فى أرضه ! .. وعلى الجانب الآخر توغلت فى دنيـا الفكر وفى ميـدان الحقيقة فقربت من الوجه الآخر للصـورة الأمريكية كما يقول مايكل هارنجتون . ان هذا يقودك الى خلفيـة الاطـار الأمريكى . وما ان تدخـل من البـاب المؤدى اليهـا حتى تجد نفسك قـد عبـرت الخط الفاصل بين أهل الغنى ، وأهل الفقر ، وعبرت الخط الفاصـل بين الأبيض والأسـود . وهكذا يصل الانسـان الى قلب الحيـاة الأمريكيـة ومركز الدائرة الاجتماعيـة . وهنـاك ترى الحقيقة وينكشف عنـك الغطـاء ويزول القلق وتشفى من نوبات الاغماء العقلى

اهل الفقر واهل الغنى

فى الولايات المتحـدة ثراء ضـخم لا تستطيـع ان تصـدق أرقامه بسـهولة ، وفيهـا فقـر مدقـع لا تسـتطيع أن تصـدق وجوده وتقوم آثاره المدمرة بسهولة ، ان الدراسـات الحديثـة تثبت ان بهـذه البـلاد فقراء يتراوح عددهم ما بين ٢٥ مليـونا و ٤٠

مليونا ، ولقد أصبحت قضية الفقراء فى أمريكا قضية سياسية ترفع فى معارك الانتخابات وتسن من أجلها التشريعات وترصد من أجل اجتثاث هذا الفقر بملايين الدولارات ، ولقد أعلن الحزب الديموقراطى فى معركة انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٤ ؛ ان مهمته الرئيسية عند فوز مرشحه بهذا المنصب هى الحرب ضد الفقر ..

فى الولايات المتحدة بطالة دائمة وبطالة مؤقتة عارضة ، تقدرها المصادر الحكومية بحوالى خمسة ملايين ونصف مليون من الأفراد ، ويقدرها الاقتصادى السويدى جنرميردال بنسبة ٦ ٪ من مجموع الأفراد العاطلين والقادرين على العمل فى المجتمع . ويضيف لهذا انه بحساب الذين يعملون نصف الوقت أو وقتا أقل من قدرتهم على العمل ، ترتفع النسبة الى ٩ ٪ من المجموع . وقد تبدو الأرقام صغيرة فى نظر بعض الناس اذا تذكروا أرقام البطالة فى الدول الأخرى . ولكنها فى الحقيقة كبيرة ومخيفة فى مجتمع له هذه القدرات والطاقات وبه هذا الثراء من موارد أولية وأرض زراعية وتقدم

تكنولوجى ..

فى الولايات المتحدة ثورة ضخمة تتمثل فى التوسع المستمر فى استخدام الاوتوماتية والعقول الالكترونية فى الانتاج ، وهذا يرسم أمام المجتمع امكانيات تفوق كل التصور فى تزايد أرقام الانتاج والتقدم المادى . ومع هذا فالاحصاءات الرسمية للحكومة الفيدرالية تقرر ان البطالة خلال الأعوام الستينيات سوف تتراوح بين ٥ر٥ ٪ و ٦ ٪ من مجموع العاملين. فاذا حللنا هذه النسبة لوجدناها ترتفع الى ١٥ ٪ بين مجموع الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة و ٢٠ سنة ، واذا حسبنا البطالة بين هؤلاء الشبان من غير بيض اللون لوجدناها ترتفع الى ٥٠ ٪ وبالنسبة لقطاع الزراعة انخفضت نسبة العمال الزراعيين من ٦ر١٢ ٪ الى ٥ر٨ ٪ من مجموع العاملين فى أمريكا نتيجة لادخال الوسائل التكنولوجية فى العمل الزراعى ..

وهذه العينات من احصاءات الحياة الأمريكية تؤدى بنا الى ان الأغلبية العظمى من الفقراء هم الزنوج والملونون . فاذا أضفنا اليهم المهاجرين القادمين

من بورتوريكو ، والمكسيك ، وجزر الهند الغربيــة ، والشرق الأقصى ، ثم أدخلنــا فى حســابنا العــائلات البيضــاء الفقيرة خاصــة فى منــاطق جبــال الأبلاش فى شرق أمريكا .. ارتفع العــدد الى ٤٠ مليــونا من الأفراد فى مجتمع يصــل تعداده حاليا « عام ١٩٦٥ » الى حوالى ٢٠٠ مليون من الأفراد ..

الوجه الاسود فى الصورة البيضاء

تدل الدراسات الامريكية على ان الخط الفاصل بين أهل الفقر وأهل الغنى والخط الفاصــل بين الأســود والأبيض ــ خطــان متلازمان ــ ففى داخــل المجتمع الامريكى تعيش مجموعة ســوداء اللون يبلغ تعدادها طبقــا لاحصــاء عام ١٩٦٠ ، حوالى ١٨٫٨ مليــونا ، وتزايد عددها لتصــل حاليــا الى ٢٠ مليــونا ، أى حوالى ١٠ ٪ من مجموع السكان فى البــلاد . ولقــد هبط الرجل الأبيض أرض أمريكا الشمالية وفى عقــله صــورة مزرية للرجل الأسود حملهــا معه من القصص والأخبــار التى انتشرت فى أوروبا منــذ الكشــوف الجغرافية التى بدأها الأمير هنرى الملاح ورجوع احدى

سفنـــه عام ١٤٤١ حاملة عشرة من الافريقيين كرقيق ، وتراكمت انعكاســات الصــورة وازدادت ســوءا مع توسع تجارة الرقيق الأوروبية فى جزر الهند الغربية ، حتى جاء عام ١٦١٩ ، وهبــط أول فوج من الرقيــق الافريقى على شاطىء ولاية فرجينيا ليباع فى أسواق مدينــة جيمستاون . وجاءت من بعده ألوف الألوف تســاق كالحيوانات لتقف أمام الدلال فى المزاد العلنى ، ثم تســاق بعــد ذلك كالمــاشية للعمــل فى حقــول القطن ، وقصب السكر ، والارز فى الجنوب ، وتزايدت أعدادهم وتضخمت عقدتهم حتى جاءت الحرب الأهلية فى الأعوام الستينيات من القرن الماضى لتجد أربعة ملايين عبــد أســود اللون فى الولايات المتحــدة ، فلما تم الاعلان القانونى برفع قيــد الرق عن رقابهم لم ينعكس هــذا الاعــلان على الوضــع الاجتمــاعى والفكرى والنفسى المتراكم فى نفسية الرجل الأبيض جيــلا وراء جيل ، ولم يغير شيئا من تركيب وبنيان السلطة وهيكل العــلاقات الحكومية وأدوات الردع المعترف بهــا فى المجتمع. وجرت أحداث التطور بالمجتمع الأمريكى وأصابت وضعية الزنوج الأمريكيين الاقتصادية فهجروا الجنوب

فى حالات فردية وفى موجات بشرية متتالية ، الى الشمال فى الولايات المتحدة حيث بيئة الصناعة الرأسمالية والمناخ الفكرى والاجتماعى للمدينة الحديثة ، وتغير ميزان القوى البشرية بين الريف والمدينة . وعلى الرغم من هذا التطور العميق فان هذه الأقلية سوداء اللون ظلت خارج المجتمع لا يعترف الرجل الأبيض بوجودها. انها تعيش فى قلب المجتمع اذا حسبنا قطرات العرق والجهد الانسانى فى البناء والحياة ، وتعيش على هامش الدائرة الخارجية للمجتمع اذا حسبنا كيان الفرد وكرامته ، وتوزيع السلطة ، وتركيب البناء الحكومى ، وتطبيق مبادىء الأمة مصدر السلطات وحق الاقتراع العام وصوتا لكل مواطن فى الانتخابات العامة الخ ..

ومن أعماق هذا التركيب الاجتماعى ترتفع صيحة ٢٠ مليونا من المواطنين الأمريكيين يجمعهم رباط اللون الأسود وتجمعهم الحياة فى قاع المجتمع ومستوياته السفلى ، يعلنون رفضهم لدوام هذا الوضع التقليدى الذى أرساه البيض على أساس :

« اذا كنت أبيض اللون فتقدم للأمام ، واذا كنت ملونا فقف جانبا ، أما اذا كنت أسود اللون فتراجع

الى الخلف » ..

ان الزنوج يرفضون هـذه الحياة فهم أقدم أقليـة ظهرت فى الحيـاة الأمريكية مع الانجلو سـاكسون البيض البروتستانت ، ولقـد اكتسبوا لغة الانجلو ــ ساكسون وفقـدوا لغاتهم الأصليـة ، واعتنقوا ديانة الانجلو ــ ساكسون البروتستانت ولم يبق منهم انسان يذكر ديانتـه الافريقية ، وفقـدوا أسماءهم الأولى ، واكتسبوا أسماء سادة المجتمع البيض ، وتلاشت نهائيا ثقافاتهم الافريقية وأصبحوا يعيشون قلبا وقالبا فى ثقافة الولايات المتحدة الامريكية ..

خـلال اقامتى فى الولايات المتحـدة انتقيت بعض الموضوعات وعكفت على دراستها فى أثناء وجودى أستاذا زائرا بجامعة انديانا (بلومنجتون) . ومن بين هـذه الموضوعات دراسة عن الانتخابات الأمريكية عام ١٩٦٤ وقد نشرتها جريدة « الأهرام » ومجـلة « الطليعة » ، ودراسة عن الحرب ضد الفقر ووثيقة الثورة الثـلاثية وقد نشرتها مجلة السياسة الدولية بعددها الأول فى شهر يوليو عام ١٩٦٥ . وأقدم فى هذا الكتاب « كتـاب الهلال » دراسة عن قضية الزنوج فى أمريكا

الفصل الاول

مـــن أنـــا..؟!

أنا الرجل الخفى ... « رالف ايليســون »
لأحد يعرف اسمى.. « جيمس بالدوين »

تبـدأ دراسـة القضيـة بعقـدة تمثل قمة الأزمة فى حيـاة هـذه المجمـوعة البشرية التى تصـل الى ١٠ ٪ من مجموع تعداد السكان فى الولايات المتحدة ، وان كانت بعض الدراسات الأخيرة استنادا الى ارتفاع نسب المواليد بينهم تقول بأن تعداد الزنوج الامريكيين يصـل الى ٢٢ مليـونا عام ١٩٦٤ . وهـذه العقـدة هى انه لا اتفـاق حتى الآن على اسـم يميز ويعرف هـذه المجموعة البشرية . وليس الاختلاف قاصرا على ذوى اللون الأبيض بل تشتعل نيران هـذا الاختلاف بين الكتاب ذوى اللون الأسـود وأيضا بين المنظمات

السياسية والاجتماعية العاملة منهم .

وتنعكس هذه القصة على جميع نواحى وارتباطات الحياة الاجتماعية لهـذه المجموعة البشرية وأفرادها . والاسم ضرورى لتحديد معالم هـذا الفرد وشخصيته ومكونات ذاته . ويجمل ايزاكس وصف هـذه العقدة بقوله : « ما دام هـذا الفرد الأسـود لم ينـدمج ولم يذب نهائيا فى هذا التركيب الاجتماعى . فلا بد أن يسأل هو ونسأل نحن لمـاذا ؟.. ومن هو ؟.. وان عدم الوصـول الى اجابة حاسمة فى الموضوع ملأ حياة هـذا الفرد بالاضطرابات والقلق والتوتر ، وأصبحنا جميعـا نحن وهم لا ندرى ماذا يشـكل شخصيـاتهم ويرسـمها . وقد صـدق الكاتب الزنجى حين قال : لا أحد يعرف اسمى . فهذا معنـاه ان النجرو ـ كما يدعى ـ كفرد ضائع مفقود فى وسط عالم أبيض اللون يعرفه باسم نجرو . وفى الحقيقة هـذا الاسم « نجرو » يمثل قناعا لبسه هـذا الانسان كرها فى أول الأمر ثم قبله بعـد ذلك طواعية كدفاع شرعى عن النفس . ان هـذا الاسم يمثل كراهيـة واحتقـار ومخاوف وازدراء العـالم الأبيض ، ويمثل كل علاقات الصراع من أجل

الحصول على لقمة العيش والاحتفاظ بها ان وجدت .
انه قناع مصنوع من خرافات قديمة توارثتها الأجيال وأنماط تخيلتها عقول ذوى اللون الأبيض . وفى هذا كانوا يرضون أنفسهم ويشبعونها بصورة الرجل الأسود الراكع الخانع الدنىء الحقير الغبى العبد الرقيق ... ليس هناك من يعرف من هو النجرو ، حتى هو لايعرف نفسه اليوم » ..

وها هى ذى قائمة بالأسماء التى تتداول للتعريف بهذا الانسان أسود اللون :

العم توم ـ سامبو ـ نجرو ـ نيجر ـ نيجرا ـ جيم كرو ـ بلاك أمريكان ـ افرو أمريكان ـ افريكان ـ ملون ـ اتيوبى ـ المسمى نجرو ـ نجرو ساكسون ـ نيجريس ـ اكس سليف ـ بلاك ـ نجرو أمريكان ـ أفريكان نجرو ..

وقد انعقدت مؤتمرات لمناقشة هذا الاسم ، ولم تصل الى اتفاق عام حول التعريف ، ومن أشهرها ما تم عام ١٩٠٠، وعام ١٩٣٠، وعام ١٩٦٠. ومن أغرب ما ظهر فى هذه المؤتمرات ما حدث عام ١٩٣٠ ، حين أصر المجتمعون على ضرورة كتابة حرف النون فى كلمة

« نجرو » بالحروف الكبيرة فى اللغة الأنجليزية بدلاً من العرف السائد فى تلك البلاد وقتذاك وهو كتابة حرف النون بالحروف الصغيرة فى اللغة الانجليزية . وكانت الاضافة الايجابية التى قدمها مؤتمر عام ١٩٦٠ ، الذى انعقد فى نيويورك برئاسة المحامى هوراس جوردون هو انه نشر الابحاث والمناقشات التى دارت حول أصل كلمة نجرو وسوء استعمالها فى الحياة والتاريخ الأمريكى . فى كتاب أشرف على طبعه ريتشارد مور ..

وهناك اجماع بين الزنوج الامريكيين على الرفض البات العنيف لاستعمال كلمات نيجر ونيجرا ونيجريس وسامبو واكس سليف وجيم كرو . فهذه الكلمات لها دلالة تاريخية تأتى من واقع التاريخ الامريكى وتجربة الحياة فى أمريكا ذاتها . اذ انها ترتبط بعهد الرق والعبودية حينما كانت هذه المجموعة البشرية تباع وتشترى كالماشية وتعمل كالحيوانات فى الانتاج والخدمات . وأشد هذه الكلمات اثارة للرجل الأسود فى أمريكا (اهانة لا يقابلها الا الدم) كلمة نيجريس ، اذ هى الكلمة التى استعملها جميع تجار

الرقيق أثناء المزاد العلنى لبيع هؤلاء البؤساء . وتماثلها على مستوى أقل كلمات : نيجر ، ونيجرا ، واكس سلاف . أما كلمة جيم كرو ، فالدراسات الخاصة بها لم تصل الى اجماع حول أصل الكلمة وهل هى اسم عبد زنجى انتشرت لتدل على جميع من يشبهه فى الوضع والمركز ؟ .. أم هى اسم مكان كان من الأمور التقليدية ان تعيش فيه أو تعمل فيه هذه المجموعة البشرية ؟ .. أم هى اسم قانون صدر فى فترة ما فى الولايات الجنوبية فى عهد مشروعية الرق ؟ .. ومن مجموع هذه الدراسات نصل الى انها صارت تعبيرا عن وضعية اجتماعية ومدنية واقتصادية تقوم على أساس تفرقة عنصرية تستند الى اللون الأسود ، والجنس الزنجى ، ومن ثم فكل من تنطبق عليه هذه الحالة يصير جيم كرو .

ويختلف الكتاب ذوو اللون الأسود حول كلمة نجرو وما يلحق بها من كلمات مثل : امريكان نجرو ، ونجرو أمريكان .. الخ .. وحول كلمة بلاك ، وما يلحق بها من كلمات مماثلة لما سبق . والاختلاف يأتى من محاولة الاجابة على هذا السؤال : هل جميع

أفراد هـذه المجمـوعة البشرية من سـلالات الرقيق الذى عاش تجربة الرق فى الولايات المتحدة . ومن ثم فلهم اسم واحد يتم به التعريف ؟ .. أم ان الولايات المتحدة بها سـلالة هـذه المجموعة البشرية وأيضا بهـا جمـاعات زنجية هاجرت الى أمريكا من أمريكا الوسطى ومن جزر الهند الغربية . فمثلا احصاءات عام ١٩٣٠ تقـرر ان ١٧ ٪ من النجرو مولودون خـارج الولايات المتحدة وانهم مضـافا اليهم عائلاتهم يمثلون ٢٥ ٪ من المجموع العام للنجرو ، والنقطة الاساسية فى المناقشة هى ان الميراث الفكرى والقانونى فى الولايات المتحدة حتى الحرب الأهلية ومابعدها فى فترات متعددة وفى ولايات جنوبية عدة ، يقرران كلمة النجرو تساوى فى المعنى عبد رقيق (سليف) ، وهـذا موجود فى القواميس اللغـوية حتى عام ١٨٢١ ، وهنـاك أحكام صـدرت من المحـاكم فى ولايتى فرجينيـا ، ونورث كارولينا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقرر ان النجرو هو العبد الرقيق . ولم يتم هذا الميراث نهائيا حتى اليوم ومن هنا كانت الاعتراضات ..

أضف الى هـذا الاختـلاف حول معنى كلمة نجرو

(زنجى) . هل تدل على الرجـل اسـود اللون ذى التقاطيـع المعينـة والشعر المعين وأوصـاف الجسـد المعينة التى تحدث عنهـا علمـاء الأجناس والجغرافيا البشرية ؟ .. أم هى تدل على الرجـل غير أبيض اللون الذى لا يصـل لون وجهـه وبشرته الى اللون الأبيض المعروف فى شمال أوروبا ؟ .. والنقطـة الأسـاسية فى المناقشة هى ان الاتصـال الجنسى بين الرجـل أبيض اللون والمرأة سوداء اللون قد أنتج أجيـالا عديدة من الخلاسيين . وهؤلاء الخلاسيون يختلفون عن الصـورة التقليـدية التى رسمها علمـاء الأجنـاس والجغرافيا البشرية للجنس الزنجى . واستطرادا وجدت فى اللغة العربية ترتيبا لدرجات ومستويات اللون الأسود مثل الأسمر والأصحم والآدم والأسحم والأدلم ... الخ .. ولقـد دخل ميدان هـذه المناقشة علمـاء أمريكيون مثل هرسكوفتز ، وفرازير (الأول أبيض اللون والثانى أسـود اللون) .. الخ .. والرأى الراجح عندهم ان الخلاسيين يكونون ما لايقل عن ٧٥ ٪ من تعداد هذه المجموعة البشرية حاليا . ويذكر مؤلف كتاب « دور النجرو فى بناء أمريكا » ان الخلاسيين موجودون منذ

زمن طويل فى حياة هذه المجموعة البشرية ويقدم أرقاما لتـأكيـد ما يذهب اليه . فمثـلا فى منتصف القرن التـاسع عشر وجـد ان الخلاسـيين كانوا ٥٨١ فردا من كل ١٠٠٠ عبـد اسـود . ويذهب لوماكس مؤلف ثورة النجرو الى ان هـذه الأرقام تدل على ان هـذه المجموعة البشرية لم تخلق كما هى وانما الذى خلقهـا وصنعهـا تحالف قام بين السـادة البيض والنسـاء الرقيقـات . ومع ان هـذه الحقيقة لا جـدال فيهـا من الوجهـة البيـولوجيـة الا ان لوماكس يرى ان جنـون التعصـب العنصرى دفع الولايات الجنوبيـة الأمريكية الى انفـاق ملايين الدولارات للوصول الى تحديد من هو النجرو . ويضرب مثـلا بولاية فرجينيا التى اسـتقر الرأى فيهـا قبـل عام ١٩١٠ على ان النجرو هو من يجرى فى عروقه مقـدار الربع أو أكثر من الدم ميراثا عن أحـد الجدود النجرو . ولكن بعد عام ١٩١٠ تغير القـانون الى ان النجرو هو من يجرى فى عروقه ١ ÷ ١٦ من الدم ميراثا عن أحـد الجدود النجرو . وفى عام ١٩٣٠ قررت الولاية ان النجرو هو من يجرى فى عروقه أية كمية ولو قدر نقطة واحـدة

من الدم ميراثا عن أحد الجدود النجرو ..

وقد أدت هـذه المناقشـة الى التسـاؤل عما اذا كان النجرو هو الافريقى ؟ .. وكان هـذا فى فتـرة تاريخيـة انتشرت فيهـا الدعوة للعودة الى افريقيـا وروجهـا البيض المتعصـبون وأيدها زنوج عديدون هربا من اليـأس والاضطهاد والضيـاع الذى يعيشون فيه . ولمـا كانت صـورة افريقيـا فى ذلك الوقت صـورة سيئة كما رسـمها المؤلفون البيض وكانت صـورة الافريقى هى صـورة البـدائى المتـوحش العـارى الوثنى ... الخ .. فقد رفضت فئات عديدة من بين الزنوج الأمريكيين ان يعرفوا أنفسهم باسـم افريقى أو افرو أمريكان ... الخ .. وأن يرفضـوا كل مشروعات التهجير الجمـاعى الى افريقيـا على الرغم من انشاء ليبريا عام ۱۸۲۱ ، وجهود الجمعية الأمريكية للاستعمار التى تبنت الدعوة وأبدت استعدادها لتمويل العودة الى افريقيا . والأغلبية التى عارضت دعوة العودة ابتـداء من عام ۱۸۱٦ ، وعام ۱۸۱۷ ، هى التى بدأت تروج لاستعمال كلمة أمريكى فى التعريف عن نفسها . ولمـا كان المجتـمع الأمريكى فى ذلك الوقت يرفض

رفضا باتا الاعتراف بأن هؤلاء أمريكيون فقـد بدأت تظهر فى الاستعمال كلمات ملون وملونين . ومع ذلك اسـتعملت كلمة « افريقى » فى وصف كنائس النجرو المنفصـلة عن كنـائس البيض ابتـداء من عام ١٧٧٩ بظهور أول كنيسة خاصـة بالنجرو بعد طرد عدد منهم من كنائس البيض

والذى منح كلمات ملون وملونين والشعب الملون.. الخ .. فرصـة الذيوع والانتشـار هو ان الطبقـة البورجوازية سـوداء اللون كانت لأصـلها الخلاسى ولوضعها الاقتصادى الأحسن نسبيا عن باقى المجموعة البشرية سـوداء اللون ، ولاقامتها فى المدينة واشتغالها بالمهن والحرف والخدمات .. هـذه الطبقة البورجوازية رفضت نهائيا أن تصف نفسهـا بالزنجية وبالافريقية ، واستعملت كلمة ملون لتعبر بها عن نفسها . أضف الى هـذا ان الولايات المتحدة منـذ القرن التاسـع عشر عرفت بشكل واضـح دور أقليـات ليست بيضـاء اللون وليست زنجيـة الأصـل ، مثـل اليـابانيين والصينيين والقادمين من المكسيك ... الخ .. وهؤلاء آثروا استعمال وتداول كلمة ملون ومشتقاتها ما داموا

لا يستطيعون الحصول على الاقرار بأنهم جزء من الشعب أبيض اللون ، وفى نفس الوقت كانوا يحملون فى تفكيرهم ومواريثهم احتقارا لصفة اللون الأسود وكلمة النجرو. وفى هذا يقرر ايزاكس ان كلمة ملون هى وليدة أفكار ورغبات البورجوازية العليا والبورجوازية المتوسطة سوداء اللون . وتشير دراسة جنرميردال عن النجرو فى أمريكا بأن هذه الطبقة البورجوازية كانت تعرف ماجرى عليه التقسيم القانونى فى المستعمرات الفرنسية والأسبانية من التمييز بين الملونين وبين باقى الشعب الزنجى «Gens de couleur» أسود اللون ..

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر دعا توماس فورتشن وهو صحفى زنجى الى استعمال كلمة افرو أمريكان وعدم استعمال كلمة نجرو لما فيهما من احتقار ومهانة . ولكن بوكر واشنطن دعا الى استعمال كلمة نجرو . وفى فترة الصراع الفكرى بين بوكر واشنطن والدكتور ديبويس رفض الأخير استعمال كلمة نجرو واستعمل كلمة بلاك . ولكن على الرغم من ذلك عندما تألفت حركة نياجار فى عام ١٩٠٥ ، بزعامة

الأخير ثم تطورت الى قيام الجمعية القوميـة لتقـدم الملونين عام ١٩٠٩ كتحالف بين الليبراليين بيض اللون والمثقفين الزنوج . استقر الرأى على اسـتعمال كلمة ملون ومشتقاتها ..

وبانتهاء الحـرب العـالمية الأولى ظهـر ماركوس جارفى صاحب الدعوة للعودة الى افريقيا وألف الجمعية العالمية لتقـدم النجرو . وثار نزاع عنيف بين الجمعية القوميـة لتقـدم الملونين والجمعيـة العالمية لتقـدم النجرو . كمـا نشب صراع فكرى حاد بين ماركوس جارفى والدكتور ديبويس وكان من التهم المتبادلة بين الجانبين ان جارفى اتهم ديبـويس بأنه ملون ويقصـد بهـذا تحقيره على أساس ان فى عروقه يجرى دم مختلط غير نقى ، وكان جارفى يشترط فى أعضاء جمعيته النسب الزنجى النقى ويحارب الزواج المختـلط . وفى هـذه الفترة دعا ويليـم فيريس الى التخلص من كل هـذه الكلمات واستعمال كلمة نجرو ساكسون على أسـاس انها تمثل الخلاص من كل سيئات المـاضى وانها تفتح الباب للدخول فى مجموعة الانجلو ــ ساكسون البيض البروتستانت أقدم مجموعة بيضاء فى الولايات المتحدة

(يشتهرون باسم واسب)

ومع كل هـذا استمرت كلمتا نَجرو وملون فى طليعة الأسماء التى تطلق وتتداول للتعريف بهذه المجموعة البشرية . وازداد استعمالها بعد الحرب العالمية الثانية بانتشار وتوسع العمل السياسى من أجل المساواة فى الحقوق المدنية ، وهـذا يتفق مع كثرة تكوين الجمعيات والهيئات العاملة فى هذا الميدان ، ولكن نلاحظ ان كلمة « نجرو » هى التى أصابها الانتشار والذيوع فى وسائل الاعلام والاتصال الفكرى أكثر من كلمة « ملون » . حتى يمكن القول ان كلمة ملون ومشتقاتها اقتصرت على اسم الجمعية القومية لتقدم الملونين فى هذه الفترة . وظهرت كلمة نجرو فى جميع عناوين وأسماء الكتب والدراسات التى ظهرت فى الأعوام الستينيات من هـذا القرن بما فى ذلك الكتب والدراسات التى ألفها الكتاب من الزنوج الامريكيين

وفى ميدان الفكر اليسارى الامريكى بمختلف شعبه وفئاته وجماعاته نجد ان بعضهم يستعمل كلمة نجرو مثل مجلة ديسنت ومجلة نيوبوليتكس ومطبوعات الحزب الاشتراكى والحزب الشيوعى الامريكيين..الخ

وهناك بعض المجلات والمطبوعات تستعمل كلمة « افرو أمريكان » مثل مجلة « فريدم وييز » ، وترفض جماعة أمة الاسـلام استعمال هـذه الكلمات الثلاث السالفة الذكر، ويستعملون عبارة «المسمى نجرو» و«المسمون بالنجرو » وأحيانا يستعملون كلمة « بلاك » . وبالنسبة للجماعات الصغيرة التى ما زالت تتبع ميراث جارفى أو تعتنق الدين الاسلامى خارج نطاق العضـوية والولاء لجماعة أمة الاسلام . نجد استعمال كلمة نجرو وكلمة افرو أمريكان وكلمـة بلاك بدون التزام منتظم لكلمة واحدة ، وهناك قلة منهم تستعمل كلمة اتيوبى نقلا عن الانجيل وهؤلاء أتباع الكنائس الارثوذكسية فى امريكا

نصـل من هـذا العـرض الى ان الأزمة ما زالت تعيش فى داخل هذه المجموعة البشرية وان كان الاتجاه العام فى الولايات المتحدة اليوم يستعمل كلمة «نجرو» ، ولقد حاولت مرارا فى أثناء مناقشاتى مع الطلاب سود اللون بالجامعات الامريكية أن أستعمل كلمة أفريكان ، ولكننى باستمرار لاحظت رفضهم لاستعمـال الـكلمة تعبيرا عنهم ، لأنهم يعتبرونها تعريفا بالطـلاب سـود اللون القادمين من افريقيا سواء أكانوا من دول افريقية

مستقلة أم كانوا من منـاطق افريقية ما زالت خاضـعة للاستعمار . وأيضا فى الوقت نفسه يرفض الافريقيون باباء وشـمم ان يعرفوا بكلمة نجرو التى يستعملونها للاشارة الى الامريكيين سود اللون ..

وفى هذه الدراسة التى نقدمها باللغة العربيـة سوف نستعمل كلمة أمريكان نجرو وكلمة الزنوج الامريكيين بنفس المعنى للدلالة على هـذه المجمـوعة البشرية . واستعمال هاتين الكلمتين سوف يجعلنا من وقت لآخر نستعمل كلمة أسود ومشتقاتها ..



الفصل الثاني

التاريخ يصنع الأزمة ..

٣٥٠ سنة من الرق إلى الضياع الاجتماعي

يدل الاجماع بين الدارسين على ان أول شحنة من الرقيق نزلت على شواطىء ما أصبح بعد ذلك ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ كان عام ١٦١٩ حين رست سفينة هولندية على شاطىء فرجينيا وباعت عشرين عبدا من النساء والرجال . ثم توالت بعد ذلك شحنات الرقيق . ومع ذلك فقد أثبتت هذه الدراسات ان عددا من الافريقيين شاهد أمريكا الشمالية قبل هذا التاريخ فقد حضر عدد منهم مع بعثات وجيوش فرنسية وأسبانية ، وكانوا يعملون خدما وأدلاء . ومرجع هذا أن أوروبا عرفت تجارة

الرقيق الافريقى منذ عام ١٤٤١ ۰ وفى قول آخر قبل عام ١٤٤١ ميلادية

والأرقام تعطينا صورة لنمو أعداد الزنوج فى عهد مشروعية الرقيق وما بعد الغائه حتى اليوم كالآتى :

السنة	عدد الزنوج	عدد البيض
١٧٩٠	٧٥٧ر٢٠٨	٣ر١٧٢ر٠٠٠
١٨٠٠	١ر٠٠٢ر٢٣٧	٤ر٣٠٦ر٤٤٦
١٨٣٠	٢ر٣٢٨ر٦٤٢	١٠ر٥٣٧ر٣٧٨
١٨٥٠	٣ر٦٣٨ر٨٠٨	١٩ر٣٣٥ر٠٦٨
١٨٦٠	٤ر٤٤١ر٨٣٠	٢٦ر٩٢٢ر٢٣٦
١٩٠٠	٨ر٨٣٣ر٩٩٤	٦٦ر٨٠٩ر١٩٦
١٩٢٠	١٠ر٤٦٣ر١٣١	٩٤ر١٢٠ر٣٧٤
١٩٥٠	١٥ر٠٤٢ر٢٨٦	١٣٤ر٩٤٢ر٠٢٨
١٩٦٠	١٨ر٨٧١ر٨٣١	١٥٨ر٨٣١ر٧٣٢

ونلاحظ على هذه الاحصاءات أنهــا تبدأ من عام ١٧٩٠ وهو العــام الذى تم فيه أول احصاء رسمى لسكان الولايات المتحدة الامريكية ۰ والعينة الرقمية تدلنا على أن النسبة المئوية للزنوج فى عام ١٧٩٠ كانت ١٩ر٣ ٪ من مجموع الســكان وأنهــا انخفضت عام

١٨٦٠ الى ١٤٫١ ٪ وتوالى انخفاضها عام ١٩٦٠ الى ١٠ ٪ من المجموع الكلى للسكان الذى يبينه الاحصاء المشار اليه مضافا اليه ١٫٦١٩٫٦١٢ نسمة يسميهم الاحصاء « آخرون » غير النجرو والبيض . واذا كنا نعرف ان نسب المواليد بين النجرو أكثر ارتفاعا من مثيلاتها بين البيض ، فيكون سبب التزايد فى اعداد البيض هو قوانين الهجرة التى تفتح أبواب أمريكا للشعوب الأوروبية وتكاد تقفلها أمام الزنوج والملونين . وهناك ملاحظة أخيرة هى ان احصاء عام ١٧٩٠ يسجل عدد الزنوج بحوالى ثلاثة أرباع المليون ، فيجب أن نعرف ان هذه هى أعداد الأحياء منهم الذين تحملوا كل أنواع الوحشية والتعذيب والاستغلال ولم يموتوا . ودليلنا على هذا أن لويس هاريس وزميله فى كتابهما « ثورة النجرو فى أمريكا » يقولان ان تجارة الرقيق الاوروبية نقلت من شواطىء أفريقيا ٤٠ مليون نسمة فى أغلال الرق ، ويقول مؤلف كتاب « الرأسمالية والرق » ان الرقم يرتفع الى حوالى ٦٠ مليونا ، بينما يرى الدكتور بوسيا ان أفريقيا خسرت حوالى ١٠٠ مليون نسمة تم نقلهم كرقيق

خارجها قبل الكشوف الجغرافية وبعدها وثم تصديرهم الى جميع نواحى العالم

والدراسات الخاصة بمشكلة الزنوج الامريكيين ترى ان جذور المشكلة العويصة انما تمتد الى هذه الفترة ، وفى هـذا يقول الاستاذ ستانلى الكينز فى مؤلفه عن الرق كمشكلة فى التنظيم والحيـاة الامريكية من أنه توجد نقاط تمـاثل بين معسكرات الاعتقـال النازية وآثارها العميقة فى تغيير شخصيات المعتلقين الذين أفرج عنهم منها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وبين الطرق والأوضـاع التى أكلت شخصية الزنجى القـادم من افريقيا وخلفت بدلا منها شخصية النجرو الموجـود فى الولايات المتحدة والمولود على أرضها • ويقول أنه فى الاطار العام تتماثل التجـربتان فى أن الفـرد الأسود الأمريكى صار طفلا مهما تقدم به السن ويعيش عالة على المبادءة من الفرد الأبيض فى العمل والحيـاة والعيش والتنظيم والقيادة والتوجيـه ، انه فى طفولته النفسية والعقلية ونضوجه فى العمر والبناء الجسدى يشـبه الذين خرجوا من المعتقلات النازية . ويضيف ان النجرو الأمريكى خضع لنظـام حطم طموحـه وقتـل ذاتيته

وشخصيته وانتزع ذكاءه لمدة ٣٥٠ عاما باستمرار

ولقد دعا هذا الاستاذ سيلبرمان مؤلف كتاب « أزمة الأسود والأبيض » الى مناقشة هذه النقطة بحثا عن اجابة السؤال التالى : ماذا حوّل هذا الافريقى الشجاع الى هذا العبد المستسلم الخاضع الذليل ؟.. ولهذا ناقش أوضاع افريقيا قبل هجوم تجار الرقيق الاوروبيين وعرض تاريخ الاسلام وتاريخ الدول والممالك غير الاسلامية أيضا وأثبت ان المتعلمين والشجعان والرجال والقواد والاداريين كانوا اعدادا وفيرة فى هذه البلاد والمناطق . فما ان اقتنصهم تجار الرقيق وحملوهم على السفن عبر المحيط وباعوهم فى جزر البحر الكاريبى وسواحل الولايات المتحدة حتى اختفت شخصياتهم وحل محلها هذا النمط المعروف فى التاريخ الأمريكى .. ويجمل الأسباب فيما يلى :

١ — ان تجارة الرقيق قد عزلت القنيصة عزلا جذريا عن ينابيع حياته الثقافية والاجتماعية وعن التنظيمات والمؤسسات التى عاش فى ظلها واكتسبت منها خطوط هذه الشخصية القوية على أرض القارة الافريقية . وقد أدى هذا العزل الى تحطيم كامل لكل أحاسيسه بالذات

والكيان . أضف الى هذا آثار وآلام الرحلة الطويلة التى قطعها من الشاطىء الافريقى الى الشاطىء الإمريكى ، وهناك مؤلفات عديدة تصف هذه الرحلة مثل « الشحنات السوداء عبر الاطلنطى » تأليف دانيل مانيكس الذى يقرر ان الرحلة كانت تستغرق شهورا طويلة على سفن شراعية ويكدس العبيد فى مناطقها السفلى مكبلين بالأغلال وبدون أية رعاية غذائية أو صحية وبدون اعتبار لحاجاتهم الانسانية نساء ورجالا وأطفالا . وفوق هذا يضربون بالسياط وتكوى أجسادهم، وأحيانا اذا تذمروا أو أثاروا جلبةتلقىأعداد منهم فى مياه المحيط ... الخ . ومن هذه الحقائق يصل المؤلف الى ان بذرة اليأس والضياع نبتت فى نفوس العبيد وأيقنوا انه لا مخرج ولا مهرب وانما الاستسلام المطلق ..

٢ ـ ان هذا العبد منذ أن يتسلمه تاجر الرقيق الاوروبى حتى يبيعه لا يعيش الا فيما يشبه حظائر المواشى أو معسكرات الاعتقال ، فالتعذيب مستمر والخوف هو المناخ السائد الذى يتنفسه الجميع ويستنشقونه صباح مساء ، وعملية نقله من مكان لآخر

هى العذاب المر لأنه لا يعرف المجهول الذى ينقلونه اليه • وبمرور الأيام أصبحت عملية الانتقال من مكان لآخر لا تعنى عند العبيد أى أمل أو شعاع من أمل ، بل هى موت جديد أو طريق الى وضع جديد أقسى وأمر من الموت والعذاب الذى يعيش فيه

٣ ــ خلال هذه الرحلة يضيع اسمه ويتحول الى رقم أو عدد • ولقد تطرق الى هذه النقطة أساتذة الدراسات النفسية فقالوا ان تحول الفرد من انسان له اسم ونسب وكيان متميز وشخصية مُعَرَّفة الى رقم معناه الموت، لأنه أصبح جزءا أو قطعة من مجموعة لا كيان لها ولا اسم ولا تاريخ ولا حاضر ولا ماضى ولا مستقبل ... وهذا ماحدث للرقيق الافريقى فقد ألغيت اسماؤهم واصبحوا مجرد أرقام حتى نزلوا على الشاطىء الامريكى حيث اشتراهم السادة البيض فى المزاد العلنى كمجرد أرقام أو أعداد ، ثم نقلوا الى المزارع والحقول حيث منحوا أسماء بواسطة سادتهم الجدد . واستطرادا نشير الى ان جماعة أمة الأسلام تطلب من أعضائها بمجرد الانضواء فى صفوفها أن يخلعوا عن أنفسهم أسماء العبودية والرق التى وسمهم بها السادة البيض وأن يتخذوا لأنفسهم

أسماء جديدة مثل مالكولم اكس (X)

٤ ـ فى الولايات المتحـدة تلاشت نهائيـا كل آثار وعلاقات افريقيا التى حملها هـؤلاء الرقيق معهم الى الشاطىء الامريكى . فقد تركوا دياناتهم واعتنقوا ديانة البيض الانجلو ساكسون أو غيرهم من الأوروبيين ؛ وتركوا أسماءهم وحملوا أسماء السادة ، ونسوا لغاتهم وتكلموا لغة السادة ، وماتت أغانيهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليـدهم . وتحولوا كما يقـول البعض الى سامبو ووضعيه سامبو وعقلية سامبو . وفى هذا يقول فرازير ان الميراث الاجتماعى الافـريقى الزنجى تحطم وتلاشى نهائيا فى الولايات المتحدة ، وان نماذج الثقافة الزنجية الحالية انما هى نتيجة تفاعل وتزاوج جميع العنـاصر التى صنعت المجتمع الأمريكى المعاصر . وان النجرو انقطع نهائيا عن حياته وتقاليده وتاريخه الافريقى وضاع بفعل الزمن وسيطرة سادة الولايات الجنوبية الامريكية كل ما تبقى ، وان الدنيا الموجودة فى الولايات المتحدة والتى يسمونها دنيا حياة النجرو ليس لها أى أسـاس أفريقى بالمرة . وكان فرازير فى هذا يعـارض ما قاله هرسكوفتز من انه وجد صفات وخصائص اجتماعية

زنجية ما زالت فى حياة وثقافة النجرو الامريكى وان هذه الصفات والخصائص لها أصول أفريقية . وقد قرر هرسكوفتز بعد هذا ان هذه الخصائص والآثار قليلة العدد وليس من اليسير رؤيتها واكتشافها وتحقيقها الا للمتخصص فى هذا الميدان من الدراسات الاجتماعية

٥ ـ عاش الرقيق فى نظام مغلق ليس له باب يمنح الأمل أو يعطى الثقة فى يوم من الايام تتغير فيه أحوالهم. فقد نُظِّمت السلطة فى هذا النظام من أعلى الى أسفل ، وليس له فيه كيان أو وجود من ناحية الحقوق أو اثبات الذات . فللسيد حقوق اغتصاب زوجة الرجل الرقيق أو ابنته كيفما يشاء ووقت ان يشاء ولو كان أبوها او زوجها واقفا على رأسها ، وليست هناك على هذا العبد عقوبات اذا مارس علاقة زنا مع امرأة سوداء أخرى أو تزوج بأكثر من زوجة .. الخ . وبهذا التنظيم القانونى الفكرى أصبح الرق نظاما أبديا لا نهاية له . واستطرادا من هذه النقطة وجدت دراسات تعقد المقارنات بين نظام الرق تحت الحكم الاسبانى ونظام الرق تحت الحكم الانجلو ــ سكسونى . ومرجع هذا الى آثار الحياة الإفريقية وما بها من عادات وتقاليد وأديان ما زالت

موجودة فى امريكا اللاتينية التى خضعت للحكم الاسبانى واعتنقت الكاثولبكية بينما انقرضت هذه الآثار نهائيا فى الولايات المتحـدة التى عاشت طبقـا لمفاهيم وقيم الانجلو ـ ساكسون واعتنقت الديانة البروتستانتية

٦ ـ على أرض المجتمع الأمريـكى أصبحت تربية الرقيق مثل تربية المواشى والدواجن ، تتم فى حظـائر خصصت لهذا الغرض ، فقـد ذكر مؤلف كتاب ثورة الزنوج فى أمريكا ان حظائر تربية الزنوج انتشرت على أساس المحافظة على صحة بعض الرجال الزنوج الذين يمارسون دورا شبيها بدور الثيران المخصصة لتحسين النسل ثم تترك لهم حرية الاتصال الجنسى مع النساء حتى اذا حملن منع الرجال عنهن حتى يضعن آولادهن ، ويربى الأطفال حتى سن معينة ثم يفصلن عن أمهاتهن ويرسلن الى المزاد العلنى • ويعود الرجال من جـديد للاتصال الجنسى بالنساء • ويروى المؤلفان أنه فى الفترة ما بين الحمل والوضع كان من التقاليد الشائعة بين ملاك الرقيق أن يتمتعن بأجساد النساء ، ويعبران عن هـذا بأنه كان نوعا من الرياضة المستحبة . واستطرادا سوف نجد آثار هذا فى تكوين فئات الخـلاسيين وفى الآثار

الهدامة فى البنيان الأسرى وانهيار علاقات ودور الأب والأم فى الأسرة الزنجية

٧ــ ان حصيلة هذه السنين الطويلة التى تقرب من أربعــة قرون هى ان الرق صار مرتبطا بالجنس واللون الأسود • وصار الجنس واللون الأسود مرتبطا بوضعية الدونية والتحتية والوضاعة واندمج الاثنان فى الفــكر الأمريكى والقيم الشعبية المتداولة فى هــــذا المجتمع فأصبح الأسود وضيعا حقــيرا مكانه فى قاع المجتمع ، وأصبح الوضيع الحقــير الذى يعيش فى قاع المجتمع ومراتبه السفلى هو الأسود

الليل فى الجنوب والشمس فى الشمال

خلال الفترة التاريخية التى تمتد منذ تنظيم المجتمع الامريكى على أساس عمل الرقيق الى بداية القــرن التاسع عشر ــ بدأ ينمو بين الرقيق احساس بأن ليل الاستعباد والضياع يكمن فىالجنوب بتركيبه الاجتماعى والاقتصادى ، وان رياح الأمل وشمس الصباح انمــا هى فى الشمال . وقد ظهر نمو هذا الاحساس فى فترة حرب الاستقلال الامريكية واصدار الدستور الامريكى

الفيدرالى بعدها ، ولهذا نلاحظ ان النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل نشوب الحرب الأهلية الامريكية شهد نشاطا كبيرا بشأن قضية الرقيق والدعوة لالغاء الرق ..

وان هذا الوهم الكبير الذى تسلط على عقول الرقيق وانتشر فى أوساطهم ، مرجعه الى أسباب كثيرة أدى تراكمها البطىء على فترات زمنية طويلة الى تحول هذا الاحساس الى نوع من الايمان ، وفى مقدمة هذه الأسباب ان بعض الجماعات الدينية فى الشمال الشرقى كانت ترى ان الإيمان بالمسيحية يتعارض مع استرقاق البشر أصلا ، وكانت بعض الجماعات الأخرى ترى ان قيد الرق يجب أن يسقط باعتناق المسيحية ، وهذه الجماعات الصغيرة والمنشقة كانت تعمل فى بعض الولايات الشمالية وقد ساعدت عددا من الخلاسيين والزنوج الذين قطنوا هذه المناطق بالتعليم واكتساب الخبرة الحرفية . ومن الأسباب الهامة فى هذا المجال دور الخلاسيين والزنوج المقيمين فى الشمال والشرق ، فمع هذه العواطف الدينية والانسانية النبيلة الا أنهم أحسوا أنها ما زالت على نطاق فردي أو نطاق ضيق ،

لذلك اسهموا مرارا فى عمليات تهريب وترحيل للزنوج من الجنوب الى الشمال ، وتعاونوا فى هذا مع مجموعات من البيض اشتهروا باسم دعاة الغاء الرق . وأشهر هذه العمليات التى ظهرت قبل الحرب الأهلية الامريكية هى ما أطلق عليها سكة الحديد السرية « تحت الأرض » التى بموجبها تبدأ عمليات التهريب من الجنوب والولايات الواقعة بين الشمال وأقصى الجنوب الى شمال الولايات المتحدة أو الى كندا ، ويذكر جنر ميردال انه خلال الأربعين سنة التى سبقت الحرب الأهلية هرب ٧٥ ألف زنجى من الجنوب الى الشمال الأمريكى وكندا

ومن بين هذه الاسباب أيضا ان الدارسين قدحصروا حتى اليوم حدوث ٢٥٠ ثورة زنجية فى الجنوب ، وأن هذه الثورات أخمدت بكل قسوة وعنف لم يسمع لها التاريخ مثيلا الا فى معاملات الشعوب والقبائل البدائية غير المتحضرة . وان آثار اخماد هذه الثورات ولد الخوف القاتل فى نفوس البيض واليأس المطلق فى نفوس الزنوج . لذلك فكر كثيرون فى الهرب نهائيا من الجنوب حيث لا أمل فى البقاء وحيث لا أمل فى التغيير . ومن ناحية أخرى كانت الاقامة فى الشمال تعرض وضعا

اقتصاديا أحسن نسبيا عما يجرى عليه الوضع فى الجنوب

وأهم هـذه الأسباب هى نشوب حرب الاستقلال الأمريكية ، فقـد ملأت الجـو العام أفكار الحـرية والاستقلال والديموقراطية • ولم يتقاعس الزنوج عن الاسهام فى المعركة ، فكتب التاريخ تثبت ان كريسبوس أتيكوس الزنجى كان أول من قتله الجنود البريطانيون فى مظاهرة بوسطون الشهيرة يوم ٥ مارس ١٧٧٠ • ومع تطورات القتال بين الامريكيين والجيوش البريطانية ظهر دور الزنوج فى المعركة . فلقد حاولت القيادة البريطانية اثارتهم ضد سادتهم البيض • كما أن فرقا منهم أسهمت فى الحرب بجانب الامريكيين فى البر والبحر • ولقد كان موقف الامريكيين فى أول الأمر هو رفض تجنيد الزنوج للقتال ضد البريطانيين ، ولكن طول مدة الحرب والشعور بتبعات الموقف الثقيلة أدى الى تحديد حصة لكل ولاية عليها ان تقدمها من الافراد للانضمام للجيوش الامريكية. وقد وافقت الولايات على تجنيد النجرو بدلا من الأفراد بيض اللون وذلك فيما عـدا ولايتى جورجيا وسوث كارولينا اللتين تخوفتا من آثار اعلانات الحـرية التى اصـدرها الثوار الامريكيون . وتحتوى الدراسـات

الخاصة بهذه الفترة بيانات متنوعة عن اسهام الزنوج في الحرب واعدادهم وأسماء من أظهروا البطولات أو قتلوا في الحرب . واستطرادا نذكر ان عددا من الزنوج انضموا الى القوات البريطانية أثناء الحرب على أساس انوعود البريطانية بالتحرير من الرق . وعند عقد الصلح النهائى بين الجانبين تمسك البريطانيون بعدم اعادة الزنوج الذين تعاونوا معهم وبعد ذلك قاموا بترحيلهم الى خارج أمريكا خاصة الى سيراليون وغيرها من المستعمرات الانجليزية

وفى الفترة التى تلت انتهاء الحرب شهدت أمريكا معركة صياغة الدستور الأمريكى ، وقد صدم الزنوج والرقيق صدمة عنيفة اذ تمخضت المعركة عن بقاء الأوضاع على ما هى عليه . فلم يحتو الدستور على أى اشارة لكلمة نجرو أو كلمة رقيق ، كأنما لا يعرف المجتمع الامريكى هاتين الكلمتين ولا يحس بآثار وجود نظام الرقيق والأفراد سود اللون . وفشلت كل الجهود للنص على الغاء الرق فى الدستور . بل أكثر من هذا احتوى الدستور على ثلاث مواد تختص أولاها بالأشخاص الملزمين بالخدمة أو العمل فى ولاية ما بمقتضى قوانينها ، وان هؤلاء الأشخاص اذا فروا الى ولاية أخرى لايعفون

من الخدمة أو العمل تطبيقا لقوانين الولاية الأخرى أو نظمها ، بل يجب تسليمهم بنـاء على طلب الولاية الى الجـانب الذى يجب أن يؤدى فيه عمله أو خـدمته (الفقرة الثانية من المادة الرابعة) وتنص الثانية على أن عدد النواب يوزع بين الولابات المختلفة المنضمة الى الاتحاد بنسبة عدد سكان كل منها ، وسيقدر بأن يضاف الى مجموع السـكان الأحرار ثلاثة أخمـاس جميع الأشخاص الأخرى ، ولم يوضح الدستور من هم هؤلاء الاشخاص ولم يعين لهم اسما او تعريفا (الفقرة الثانية من المـادة الأولى) وتنص الثالثة على أن الكونجرس الأمريكى لا يمنع أى ولاية أمريكيـة من اسـتيراد او استقدام أشخاص غير المهاجرين اذا ارتأت ذلك وذلك لمدة عشرين سنة من وضع الدستور عام ١٧٧٨ حتى عام ١٨٠٨ (الفقرة التاسعة من المادة الأولى)

وتأثير هذه المعركة انعكس على نشاط دعاة الغـاء الرق فى الولايات المتحدة ونشاط عمليات تهريب الرقيق من الجنوب الى كنـدا خارج سلطان نصوص هـذا الدستور الفيدرالى . وقد أدى تزايد هذا النشاط الى اصدار قرار من الكونجرس عام ١٨٠٧ بعدم مشروعية

التجارة الخارجية فى الرقيق ابتداء من يناير عام ١٨٠٨ وقد انصب القرار على التجارة الخارجية الخاصة باستيراد الرقيق الى موانى الولايات المتحدة • وأما التجارة الداخلية فى الولايات فقد استمرت بواسطة تجار يحملون رخصا قانونية وأصبحت مدينةنيوأورليانز هى المركز الرئيسى للبيع بالمزاد العلنى فى الجنوب • ويقدر أحد الدارسين ان التجارة الداخلية فى الرقيق من عام ١٨٢٠ الى عام ١٩٦٠ تعاملت فى ٧٥٠٠ زنجى رقيق سنويا • وعلى الجانب الآخر لم يستسلم السادة بيض اللون اصحاب المزارع والمصالح فى الجنوب لقرار الكونجرس بل حاولوا مرارا الحصول على قرار بالغائه على أساس عدم دستوريته من المحكمة الفيديرالية أو الضغط على الكونجرس لإعادة النظر فى قراره سالف الذكر • وكانت أشهر هذه المحاولات عام ١٨٥٠ أمام المحكمة الفيديرالية العليا

وفى هذه الفترة ظهر نشاط ودور الخلاسيين والزنوج المتحررين من الرق فى مدن الشمال والولايات الواقعة خارج نطاق الجنوب الزراعى • وتأثروا كثيرا بأخبار ثورات الزنوج فى منطقة البحر الكاريبى وثورة هاييتى

وقيادة توسان الفاتح فى أغسطس ١٧٩١ وهزيمة جيوش فرنسا واسبانيا وبريطانيا عام ١٨٠١ ثم اعلان استقلال أول جمهورية زنجيــة فى ٣١ ديسمبر ١٨٠٣ . ويذكر كوارليز مؤلف دور النجرو فى بناء امريكا انه فى هذه الفترة لم يكن كل الزنوج عبيدا ففى عام ١٨٥١ كان فيه ٥٨١ خلاسيا من كل ١٠٠٠ فرد أســود اللون فى داخل مجموعة الزنوج المتحررين من الرق بينما كان فيه ٨٣ خلاسيا من كل ١٠٠٠ فرد أسود اللون فى داخــل مجموعة الزنوج الرقيق ، ويذكر أيضا انه فى عام ١٨٦٠ كان بالولايات المتحدة ٤٨٨ر٠٧٠ من الزنوج المتحررين من الرق يمثلون ١١ ٪ من اجمــالى تعداد الزنوج بالولايات المتحدة ، ويذكر فرازير فى كتابه عن النجرو بالولايات المتحدة ان عدد الزنوج المتحررين من الرق عام ١٧٩٠ بلغ ٥٩ر٥٥٧ فرد وفى عام ١٨٦٠ وصــل عددهم الى ٤٨٨ر٠٧٠ وانهم بهذا كانوا يمثلون ١٢ر٣ ٪ من اجمالى تعداد الزنوج عام ١٨٦٠

وظهور هذه الفئة من الزنوج والخلاسيين المتحررين من الرق لم يمنحهم وضعا قانونيــا مســاويا للمواطن أبيض اللون ، فقد كانت هناك قيود وضوابط قانونية

شديدة على نشاطهم وحياتهم من أمثلتها عدم توظيفهم فى وظائف عامة وعدم قبول شهادتهم فى المحاكم وعدم السماح لهم بحمل الاسلحة أو استعمالها وعدم السماح لهم بشراء الخمور من المحال العامة . وكانت أغلبيتهم فى الجنوب تعمل فى الحرف الصغيرة وتربية الماشية ، وان كانت بعض المصادر تذكر ان قلة منهم وصلت الى مستويات الثراء بامتلاك الأرض والرقيق أيضا ، وبالنسبة للشمال كانت القيود أخف نسبيا مما فى الجنوب ومع ذلك فلم يكن لهم حق التصويت فى الانتخابات بمختلف درجاتها وقيدت حركات انتقالهم الى الولايات المتحدة الأخرى ، وكانت هناك وظائف معينة يمنعهم القانون من شغلها

وفى هذه الفترة تداولت كلمة « جيم كرو » فأصبحت منذ عام ١٨٣٨ علما على كل شخص أسود اللون فى الحياة العامة وفى المسارح والمؤلفات بجوار ما سبقها من كلمات متداولة أخرى . وقد حدث فى عام ١٧٨٧ أن رفض الحضور بيض اللون فى أحد الكنائس الاستماع الى قسيس أسود اللون يلقى موعظة الصلاة وطردوه من الكنيسة ، فخرج وانضم اليه بعض زملائه وكونوا أول

كنيسة منفصلة وسماها الكنيسة الافريقيــة الحــرة .
وتتابع انشاء الكنائس المستقلة للزنوج ، وعند مصدر آخر أن الكنائس الافريقية المستقلة للزنوج الامريكيين بدأت تظهر فى الفترة ما بين عام ١٧٧٣ وعام ١٧٧٥ .
وما زال الانقسام فى الكنائس موجودا حتى اليوم فقد ذكر لويس هاريس فى كتابه ثورة النجرو فى أمريكا انه فى عام ١٩٦٣ وجد ان بالولايات المتحدة ٥٥ ألفا من الكنائس للزنوج مقابل ٢٦٥ ألفا من الكنائس للبيض وان كنائس الزنوج تنقسم الى ٦٥ ٪ تتبع البابتيست و ٢٢ ٪ تتبع الميثوديست ، ويتوزع الباقى بين الديانات المتعددة فى الولايات المتحدة

ولقد وجدت أن أغلبية الدراسات الخاصة بالتكوين السيكولوجى للنجرو ومواريث هذا التكوين تهتم بهذه الفترة وآثارها فى تكوين نفسية الزنجى الأمريكى .
وترى هذه الدراسات ان نظام المزارع الكبرى والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التى تولدت عنهـا وعلاقات السلطة ودور طبقات الملاك الزراعيين البيض ـ قد خلق انماطا من السلوك وردود الفعـل السيكولوجية وخلق اطارا اخلاقيا وتصـورات وقيما ومثلا وقيمة هـذه

الدراســات انهم استخدموها لتفســير وشرح مواقف الزنوج الأمريكيين واتجــاهاتهم الفكرية والســلوكية وانماط حياتهم وعلاقاتهم بعد الحرب الاهلية الامريكية وصدور قانون الرق فى الولايات المتحــدة • وسوف نناقش هذه النقطة فيما يلى من الدراسة

الحرب الاهلية صراع بين البيض

فى كل الدراسات التى رجعت اليها تبينت آثار الحرب الاهلية فى تعقيدات والتواءات مشكلة الزنوج الامريكيين. ان أحداث ما بعد الحرب وتطــورات الحياة الامريكية حتى اليوم تؤكد ان الحرب الاهلية ما كانت الا صراعا بين فئتين من الامريكيين بيض اللون لأسباب اقتصادية حديثة وأســباب تاريخية اجتماعية قديمة ، وان قضية النجرو قد دخلت فى المعركة بدون أن يؤخذ رأى هؤلاء الزنوج وبدون ان يعرف أحد ماذا يريدون ، ولهذا يجمع الدارسون على ان النجــرو لم يحرروا أنفسهم وانما حررهم غيرهم ، ولذا فهم اليوم ليسوا الا نتاج صراع بين فئتين من بيض اللون ، وكلتــا الفئتين لم تؤمنا بمساواة الابيض بأسود اللون . ففى عام ١٥٨٧

أعلن رئيس القضاة فى المحكمة الفيدرالية العليا بأن النجرو ليست له حقوق فى هذه البلاد حتى يحترمها الرجل أبيض اللون • وفى عام ١٨٥٨ خطب الرئيس لينكولن فقال :

« لست فى صف القائلين بالمساواة بين الجنس الأبيض والجنس الأسود ، فهناك اختلاف طبيعى بين الجنسين يمنعهما من العيش سويا فى المجتمع على قدم المساواة السياسية والاجتماعية ، وطالما يعيش الجنس الأبيض والجنس الأسود فى المجتمع معا فلابد أن يحتل أحد الجنسين المركز الأعلى ويحتل الجنس الآخر المركز الأدنى •• وأنا فى صف المحافظة على المركز الأعلى للجنس الأبيض »

ولذا يؤكد سلبرمان بأن اعلان الغاء الرق حرر الرقيق وتجاهل النجرو كفرد ومواطن ، وان لينكولن وصل الى هذا القرار بعد تردد شديد ولأسباب تكتيكية خاصة بتطورات الحرب والصراع بين الشمال والجنوب . وانه كان يؤمن بأن هذا القرار سوف يدفع الزنوج الى العودة لافريقيا حلا لمشاكلهم . وانه فى أثناء فترة القتال فكر فى وضع خطة لاعادتهم وتهجيرهم

نهائيا الى افريقيا ، ولكن ظروف الحرب منعته من اعداد الخطة اعدادا نهائيا وأنه تركها حتى تنتهى الحرب . ويجمل المؤلف قوله فى أن لينكولن وباقى دعاة الغاء الرق فشلوا فى فهم أبعاد المشكلة . لأنهم لم يروها مشكلة اجتماعية اقتصادية سياسية ثقافية فى الحياة الامريكية ، انما رأوها تجريدا أخلاقيا ومثاليات مسيحية انسانية ..

ويؤكد جنرميردال فى دراسته عن « مشكلة النجرو معضلة امريكية» بأن تحرير الرقيق لم يرتبط بأية تغيير فى عقلية الرجل أبيض اللون ، بل فرض هذا القرار على الجنوب اثر هزيمته فى الحرب الاهلية ، ولكن الجنوب حارب ضد هذا القرار فكريا وتنظيميا وقانونيا . وظل أهل الجنوب متمسكين برفض قبول المساواة والجلوس وتناول الطعام مع خدمهم السابقين ، وحرموا على نسائهم الاتصال الجنسى بالأسود أو الزواج منه . ويقرر جنرميردال ان التحريم انصب أساسا على العلاقات الشخصية المتبادلة بين اسود اللون وأبيض اللون . ولهذا يقول لوماكس ان الشمال كسب الحرب وخسر السلم ، وان الزنوج خرجوا من المعركة الدامية

صفر اليدين . ويزيد كوارليز بأن لينكولن حاول تحرير الرقيق بالتعويض المالى وتهجيرهم الى افريقيا أو أمريكا الوسطى أو جزر البحر الكاريبى ، وان قرار تحرير الرقيق تأخر صدوره حتى يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٦٢ على ان يكون نافذ المفعول على جميع الرقيق فى الولايات المتحدة يوم أول يناير ١٨٦٣ ، وانه فى نهاية الحرب الأهلية كان الملونون (غير بيض اللون) يمثلون حوالى ١٠٪ من مجموع المحاربين فى كلا الجانبين . ويذكر نفس المؤلف اثباتا على أفكار لينكولن الخاصة باعادة الزنوج الى افريقيا أن الكونجرس منح الجمعية الأمريكية للاستعمار وهى التى تبنت فكرة العودة الى افريقيا ــ منحها ــ ١٠٠ ألف دولار مساعدة على تحقيق أهدافها ، وهذا بجانب ماحصلت عليه من أرصدة كثيرة تبرع بها الأثرياء بيض اللون ومؤسساتهم المالية والتجارية والصناعية

وبدون أن نخوض فى أسباب الحرب الأهلية التى ينكر كثيرون اليوم من أنها قامت بسبب الرق . نقول ان انتهاء الحرب الأهلية أوجد فى المجتمع الأمريكى موضوعين للمناقشة . وأول هذين الموضوعين هو

صدور التعديلات الدستورية المعروفة باسم التعديل ١٣ والتعديل ١٤ والتعديل ١٥ . وهى تنص على الآتى :

المادة ١٣ : « لايباح الرق ولا السخرة فى الولايات المتحدة أو فى منطقة خاضعة لسلطانها الا كعقاب على جرم وقع على مقترفه بعد ادانته ، وللكونجرس سلطة تنفيذ هذه المادة باصدار التشريع اللازم »

المادة ١٤ : « جميع الاشخاص الذين يولدون فى الولايات المتحدة أو يصبحون من مواطنيها ويخضعون لسلطانها ، هم مواطنون للولايات المتحدة وللولاية التى يعيشون فيها ، ولا يحل لولاية أن تضع قانونا من شأنه أن ينتقص من المزايا والحصانات التى يتمتع بها مواطنو الولايات المتحدة ، ولا يحل لأية ولاية أن تحرم شخصا الحياة أو الحرية أو الممتلكات بدون تطبيق القانون تطبيقا كاملا ، ولا يحق لها أن تحرم أحدا خاضعا لسلطانها من المساواة فى الحماية أمام القوانين ..

. . . . .

يقتسم النواب بين الولايات المختلفة ، بنسبة عدد سكان كل ولاية ، بعد احصاء عدد جميع السكان فى كل ولاية ، باستثناء الهنود من غير دافعى الضرائب ..

ولكن اذا أنكر حق الاقتراع فى أى انتخاب سـواء لاختيار ناخبى رئيس الولايات المتحدة أو نائب الرئيس أو لاختيار النواب فى الكونجرس أو الموظفين التنفيذيين أو القضائيين فى ولاية ما ، أو أعضاء المجالس التشريعية لها ، اذا أنكر حق الاقتراع على أى من الذكور من سكان مثل هـذه الولاية الذين يكونون قد بلغوا الحادية والعشرين من عمرهم وهم مواطنون للولايات المتحدة ، أو اذا انتقص من هذا الحق بكيفية ما الا فى حالات الاشتراك فى عصيان أو فى جريمة أخرى ، فان أساس التمثيل فى الولاية يجب خفضه بنسبة مايكون هناك من تأثير لعدد مثل هؤلاء المواطنين الذكور فى مجموع عدد المواطنين الذكور الذين بلغوا الحـادية والعشرين من عمرهم فى مثل هذه الولاية

... ... تكون للكونجرس سلطة تنفيذ نصـوص هذه المادة بالتشريع اللازم »

المادة ١٥ : « لاتنكر الولايات المتحدة ولا ولاية من الولايات على مواطن للولايات المتحدة حق الاقتراع ، ولا تنتقص منه بسبب الجنس أو اللون أو لأن المواطن كان عبدا

للكونجرس سلطة تنفيذ هذه المادة بالتشريع اللازم »

والموضوع الثانى هو تنفيذ هذه التعديلات وذلك عن طريق ارسالها الى الولايات لاقرارها طبقا لنص الدستور الفيدرالى ، وما يترتب على هذا من تعديلات فى دساتير الولايات وقوانينها . وهذه الفترة التاريخية فى حياة الولايات المتحدة تعرف باسم « فترة اعادة بناء الجنوب » وفى اختصار مفيد وبدون أن نخرج عن هذه الدراسة الخاصة تتلخص فى أن جميع الولايات الجنوبية التى حاربت ضد الشمال رفضت التعديلات خاصة التعديل ١٤ عام ١٨٦٦ والتعديل ١٥ عام ١٨٦٩ ولذلك قرر الحزب الجمهورى الحاكم والذى كان يتمتع بالسيطرة على الكونجرس ان يفرض الحكم العسكرى على هذه الولايات وان يحكمها القواد العسكريون للجيش المنتصر . وهذا يمهد لاعادة بناء الحكومات الاقليمية فى الولايات بواسطة اعادة التنظيم والتسجيل فى دفاتر قيد الناخبين بما فى ذلك قيد الناخبين الزنوج . وبعد هذا تجرى الانتخابات لتكوين الجمعيات التشريعية فى الولايات التى تعدل مايلزم من مواد

الدساتير القائمة ومن نصوص التشريعات السارية ، وتنتخب المسئولين الجدد فى الولايات . فاذا تم كل هذا بنجاح أمكن انهاء الاجراءات الاستثنائية باعادة قبول هذه الولايات فى الاتحاد الأمريكى وقبول عضوية ممثليها فى الكونجرس « المجلس الفيدرالى »

وبجوار هذا أصدر الكونجرس تشريعا بمقتضاه ينشأ تنظيم أو ادارة ترعى شئون الرقيق المتحرر من الرق ، وتشرف على شئون الأرض الزراعية التى هجرها أصحابها أو أصبحت بدون مالك معروف ، وتقدم خدمات صحية ورعاية طبية وتعليمية واسكانية لهؤلاء المتحررين من الرق ، كما تقوم بتوزيع الاراضى المصادرة نتيجة اجراءات الحرب الأهلية وتبنى المدارس للنجرو المتحررين من الرق .. الخ . ونشاط هذه الادارة يمتد الى جميع مناطق الولايات التى حاربت ضد الشمال فى الحرب الأهلية . وقد نشأت تعقيدات دستورية متعددة خلال هذه الفترة نذكر من بينها أن رئيس الجمهورية اعترض على توقيع قرار الكونجرس الخاص بالتعديل ١٤ والقوانين الخاصة باقرار الحريات للزنوج الأمريكيين ، فكان ان اجتمع الكونجرس مرة

ثانية وأقر التعديل بأغلبية خاصة طبقا لنص الدستور الاتحادى وحتى يصبح القرار ساريا بدون توقيع الرئيس ، وكذلك قوانين اعادة بناء الجنوب

وفى خلال هذه الفترة يقرر لوماكس (مؤلف زنجى) وجنرميردال وسلبرمان (مؤلفان أبيضا اللون) ان المحالفات السياسية التى ظهرت والصراعات الفكرية وجماعات الضغط والمناورات السياسية فى الكونجرس وفى الأداة التنفيذية وفى الشمال وفى الجنوب ... كل هذا كان يتم بين البيض ولم يكن للنجرو أى دور قيادى فى كل هذه الاجراءات . بل يذهب جنرميردال الى القول بأنه بعد مرور عشرين سنة من الحرب الاهلية وخلال ما اطلق عليه «عهد اعادة بناء الجنوب» ـ اكتشف الزنوج الأمريكيون انهم لن يتحرروا وأنهم مازالوا في حياة الجهل والعبودية والتبعية وانهم لم ينتقلوا الى طبقات الملاك ولايزاولون حرفة أو يعرفون صنعة ـ انما مصيرهم هو الموت نتيجة للحاجة والفاقة والمرض ..

وبدون أن نسترسل فى تطورات التاريخ الأمريكى نقرر أنه فى انتخابات رئيس الجمهورية عام ١٨٧٦

ظهر انقسام الحزب الجمهورى حول الاستمرار فى هذه السياسة التى تبناها الحزب منذ لينكولن وبعد مصرعه تجاه الجنوب واعادة تنظيم بنائه الحكومى والاجتماعى وكان الانقسام حول اختيار المرشح حتى كاد المرشح الجمهورى أن يفشل فى الفوز بالأغلبية المطلوبة للنجاح فى الانتخابات لولا دخـوله فى تفـاهم مع الزعامات الجنوبية التى تنحاز للحزب الديموقراطى المعارض ، وبمقتضى هذا التفاهم حصل المرشح الجمهورى على منصب الرئاسـة وحصل زعمـاء الجنوب على اقرار مطالبهم وهى انهاء الوضع العسكرى وانهاء التنظيمات المفروضة على الجنوب بسحب الجيوش من الولايات الجنوبية . وقد وجدت هذه التسـوية السياسية كل الدعم والتأييد من الصناعيين والبنكيين فى الشـمال الذين بدأوا فى هجر الحزب الجمهورى والذين رأوا مستقبل ازدهارهم الصناعى الرأسـمالى فى انتشـار السلام والهدوء والاتجاه نحو استثمار موارد البلاد . وكان شعارهم فى هـذه الفترة « ارفعوا أيديكم عن الجنوب » ..

وهكذا استيقظ النجرو الامريكى من وهم الفجر

الجديد والشمس الطالعة فى الشمال وجاءه الرد صدى أجوف على سؤاله وآماله التى حركته طوال هـذه الفترة وهى :

« هل للزنوج مكان فى قمة بناء المجتمع بعد الغاء الرق؟» .. لقد اكتشف الزنوج الامريكيون ان القمة مازالت للأبيض فقط وتأكد هذا بعد التسوية السياسية التى أشرنا اليها والتى أنهت كل ماسبق من اجراءات عام ١٨٧٧ . وأصبح الزنجى الأمريكى من يومها يعرف أين القاع فقط . فقد عاش فيه وسيموت فيه جيلا وراء جيل ..

عهد النكسة والهبوط الى الحضيض

أطلق الاستاذ رايفورد لوجان على هذه الفترة اسم الهبوط الى الحضيض ، وتبعه جميع الدارسين الذين استعملوا الكلمة التى اختارها . ومرجع هذا الى أن جميع الآمال والتوقعات قد انهارت وتلاشت نهائيا . ووجد النجرو الامريكى نفسه مرة ثانية بدون رجولته وشـخصيته . بل أكثر من هـذا بدأ يذوق كل آثار الانتقام والتعذيب والكراهية التى يصبها عليه الرجل

الابيض ، ويقول سلبرمان ان المجتمع الأبيض لم يسمح لهذا الانسان اسود اللون أكثر من مكان وشخصية وذاتية نصف رجل . لدرجة أن الزنوج الأمريكين بدأوا يتساءلون فى شعرهم وكتاباتهم

« هل النجرو موجود فعلا فى الحياة الأمريكية » ؟

فى هذه الفترة تكونت جمعية كوكلوكس كلان وهى جمعية سرية من البيض تعمل على دوام سيطرة الرجل الأبيض وقيمه ومثله ووضعه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى المجتمع ، وان يظل الزنجى الاسود خارج دائرة التأثير الاجتماعى والسياسى فى البنيان الامريكى . واتسع نشاط هذه الجمعية، وازدادت عملياتها الارهابية حتى وصلت الى جميع ولايات الجنوب وظهرت فى بعض ولايات الوسط والولايات الفاصلة بين الشمال والجنوب ، وصاحبتها موجة فكرية تؤجج من حمى الكراهية والاحتقار لذوى اللون الاسود . مع ارتفاع صيحات هنا وهناك تنادى بمقترحات تهجير السود الى افريقيا أو البحر الكاريبى حتى تصفو الدنيا وتخلص أرض الولايات المتحدة ميراثا وحقا للبيض دون غيرهم وفى هذه الفترة التى يذهب أغلب الدارسين الى

تحديدها بالربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حتى ان لوجان نفسه يحددها على عنوان كتابه من ١٨٧٧ الى ١٩٠١ ، ومرجع هذا عندهم هو أن هذه الفترة التاريخية هى التى شهدت قمة سيادة الرجل الأبيض على مقدرات الكون، وبالذات سيادة الانجلوساكسون على خريطة العالم ، فبعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٧٠ كان الاستعمار الاوروبى فى أوج زحفه وطغيانه على شعوب الارض خارج غرب اوروبا . وقد شهد عام ١٨٨٤ وبداية عام ١٨٨٥ انعقاد مؤتمر برلين الذى جرى فيه تنظيم استعمار افريقيا وتبعه تقسيم القارة بين قوى الاستعمار الأوروبى ، وفى الشرق الأقصى كان التقسيم الاستعمارى قد تم منذ أمد وحاولت الصين أن تتماسك فى وجه هذه الموجة الاستعمارية ، الا أنها فى هذه الفترة ركعت وأصبحت مقاليد أمورها فى يد الغزاة والمغامرين وأصحاب مناطق النفوذ والامتيازات . ويضيف الاستاذ لوجان انه فى هذه الفترة أصبحت جرينتش هى مركز ضبط الوقت فى العالم . وهذا كان اعلانا على سيادة الرجل الانجلو ساكسونى وأنه محور ومركز حياة العالم كله

وقد شهدت هذه الفترة ازدهار الأفكار الداروينية في ميدان تفسير الحياة الاجتماعية التى تقول بسيادة الكفء القادر وأنه لا مجال للضعيف الا أن يخضع ، وروج هذه الأفكار مؤلفون أمثال باجهوت وسبنسر وهكسلى الذين دقوا الطبول لسيادة الرجل الأبيض ورسالته وعبء المدنية والتحضير الذى يحمله على كتفيه ، واختصوا الانجلو ساكسون وحدهم بالنصيب الأكبر من هذا الدور وهذه المسئولية . ولقد نشر الاستاذ ريتشارد هوفستادتر كتابه الذى أسماه «الداروينية الاجتماعية فى الفكر الأمريكى» حلل فيه عناصر تكوين المجتمع الأمريكى الفكرية والمادية ، ووجد أن هذه الأفكار الداروينية والعنصرية المنحازة للبيض بدون عقل وتدبير هى التى بنت الموقف الفكرى الأمريكى وهى التى صنعت الصورة الأخيرة للهيكل الاجتماعى الامريكى لدرجة قوله ان الولايات المتحدة اصبحت النموذج الاجتماعى للصراع الداروينى

ويجب أن نقدر قيمة هذه الفترة لا من ناحية موقف البيض فقط ، بل من ناحية موقف السود أيضا ، فقد أظلمت الدنيا فى أعينهم لدرجة أنهم رأوا المعركة صراعا

بين الألوان المختلفة ، أو بمعنى أدق صراعا بين البيض والسود فى معركة طويلة ، ظنها البعض أزلية فانهار فى اعماق اليأس فى داخل الولايات المتحدة أو هرب منها الى خارج الولايات المتحدة ، وظنها البعض عداء الألوان فنادى بتمجيد اللون الأسود ونسب اليه جميع الفضائل ونسب الى اللون الأبيض جميع الرذائل . وبين هؤلاء وهؤلاء ظهرت دعوات وجماعات وقامت تنظيمات متنوعة فى داخل كتلة ذوى اللون الأسود . وسوف نشهد كل هذا فى دعوة بوكر واشنطن الذى دعا الزنوج الى ان يقروا الوضع الراهن ويعيشوا فى داخل اطاره ، وفى صراع الدكتور ديبويس الذى دعا الزنوج الى معركة سياسية اجتماعية فكرية فى داخل المجتمع الأمريكى حتى يفوزوا بالاعتراف بمواطنتهم على قدم المساواة فى جميع الحقوق والواجبات والمسئوليات ، وفى حركة ماركوس جارفى الذى دعا الزنوج الى العودة الى افريقيا بلاد الآباء والأجداد . وغير هذا من الدعوات والحركات السياسية والفكرية

وفى هذه الفترة تحرك العنصريون البيض فى ولايات الجنوب ولاية بعد أخرى فأصدروا من القوانين وأجروا

من التعديلات الدستورية مايقطع الطريق على أى تقدم ممكن للزنوج ، فقد أصدرت الولايات الجنوبية قوانين تحدد الشروط الواجبة فى المواطن الذى يقيد اسمه فى جداول الانتخابات ومنها شرط الاقامة الدائم ودفع ضريبة الرءوس وقراءة دستور الولاية أمام اللجنة المختصة بقيد الأسماء ، وتفسير هذا الدستور أو مواد معينة منه ، واشتراط التمتع بالاخلاق الحسنة عن طريق شهود مضمونين معروفين للجنة وتقبل شهادتهم . وأخيرا أقدمت هذه الولايات على اشتراط مايعرف فى التاريخ باسم « شرط الجد » ومعناه أنه يشترط فيمن يقيد فى جداول الانتخابات ان يثبت ان جده قد صوت أو اقترع فى الانتخابات فى فترة حياته . وقد ظل هذا الشرط ساريا حتى فترة الحرب العالمية الأولى حين تقرر الغاؤه عام ١٩١٥ ..

وفى هذه الفترة ظهرت فى أمريكا ماتسمى باسم ثورة الفقراء وثورة الحزب الشعبى وهى اضطرابات الفلاحين الصغار من ذوي اللون الأبيض . فقد أحسوا بالآثار القاسية للنمو الرأسمالى فى الصناعة وفى تحول الزراعة الى صناعة رأسمالية على نطاق واسع «المزارع الكبيرة»

وتأثير محصول السوق . الأمر الذى انعكس على هؤلاء الفلاحين الصغار والمتوسطين فى تراكم الديون ونزع الملكية وعدم ضمان أسعار المحاصيل . وهذه الاضطرابات أخذت شكلا عنيفا ضد الدائنين وضد السلطة الحكومية . وانتهت الى تكوين الحزب الشعبى الذى عبر عن موقف هؤلاء الفلاحين . وقاد الحزب الشعبى حملة ناجحة فى السيطرة على الرأى العام فى الولايات التى تتكون غالبيتها من أسر الفلاحين الصغار والمتوسطين . ثم حدث بعد ذلك تحالف بين هذا الحزب والرأى العام للزنوج الأمريكيين ، اذ رأى قادته امكانيات النجاح فى الاعتماد على أصوات الزنوج الأمريكيين فى الانتخابات . وعندما تيقن العنصريون البيض والرأسماليون الاحتكاريون ان الحزب الشعبى قد عبر خط اللون وأنه على وشك اقامة قاعدة شعبية ترتفع عن خط اللون الفاصل وتبنى نفسها على أساس اقتصادى يفصل بين أهل الفقر وأهل الغنى . تحرك الجميع وتم تحطيم هذا الحزب وهذه الثورة قبل أن يأتى عام ١٩٠٠ وكان السلاح فى هذا الاجراء هو التشديد من ضغوط قوانين التفرقة العنصرية ومطاردة

الزنوج الأمريكيين وسـلبهم كل امكانية للوجود السياسى فى المجتمع ، وتوج هـذه المطاردة الحكم المشهور باسم « حكم بليسى ضد فيرجسون » وهو قرار أصدرته المحكمة العليا فى قضية مشهورة بهذا الاسم . ويقضى القرار بدستورية ومشروعة التفرقة بين الأبيض والأسود بشرط المساواة أو فى قول آخر نصت المحكمة على ضرورة المساواة بشرط أن يفصل بين الجنسين . وتم تطبيق هذا فى جميع نواحى الحياة الأمريكية حتى فى السجون

وأكثر من هذا انعكس المناخ السياسى الخارجى على قضية الزنوج الأمريكيين ، ففى هذه الفترة تحرك الاستعمار الامريكى فاستولى على الفيليبين وكوبا وجزر هاواى وتدخل مرارا فى منطقة البحر الكاريبى وأمريكا الوسطى . وظهر أمام الجميع خضوع هؤلاء الملونين فى جميع هـذه المناطق تحت سيطرة الرجل الأبيض . ويعلق كوارليز على هـذا بأن الشماليين والجنوبيين البيض تعاونوا بدون خلاف أو شقاق على حكم هذه الشعوب الملونة

ويرى سلبرمان أنه فى هـذه الفترة نمت وتبلورت

ظاهرة كراهية الذات وعقدة الهروب من الذات التى سيطرت على تفكير ونفسية الزنوج الامريكيين. وبدأت تتأصل فى حياة الزنوج معانى الهروب من اللون الأسود والزنوجة والميل والشغف الى التحول الى البياض فى القيم والمعانى والأهداف والشخصية حتى فى اللون ، بواسطة الاتصال الجنسى مع الأبيض . وتعلم الطفل الأسود أن يكره نفسه وأن يكره كل شىء حوله يذكره بالسواد أو بحقيقة لونه ، ومن هنا جاء الشعور بالسلبية تجاه النفس وتجاه المجتمع وتجاه أى قضية . ويؤكد المؤلف بأن ٣٠٪ من الأطفال الذين أجرى عليهم دراسته يشعرون بالخزى والحزن نتيجة لونهم الاسود ، وأن ٨٠٪ من مجموع هؤلاء الاطفال اصدروا على انفسهم احكاما ووصموا انفسهم بصفات ترتبط بمعانى الذلة والضياع والتدهور فى المركز الاجتماعى . ومن هنا يرى المؤلف أن عقدة الزنجى الأمريكى هى الاحساس بالعجز وعدم امتلاك القوة الأمر الذى حطم رجولته وذكورته ، فضلا عن التبلد والهروب النفسى والاجتماعى المستمر

واستنادا الى سلبرمان فى مؤلفه « أزمة الاسود

والأبيض » أن الأزمة تأتى من أن الزنوج الأمريكيين لم يحرروا أنفسهم فقد حررهم غيرهم من الرق ، وأنه عقب الحرب الأهلية الأمريكية لم يكونوا كجماعة بشرية مستعدين لتحمل تبعات ومسئوليات الموقف الجديد . فلقد أذهب الرق رجولتهم ووصمهم بأوضاع عدم المسئولية وألغى دورهم كآباء مسئولين عن بناء أسرى ، ودورهم كأمهات يمثلن سيدات هذه الأسر . فقد عاشوا أجيالا يعتمدون على ارادة طرف آخر يمتلك كل ارادة وكل أمر وكل قوة . لقد خرجوا من عهد الرق بلا تنظيم أسرى ثابت له قواعد وله قيم ، ولم يعرفوا من قبل معنى الروابط العائلية ، ولهذا فبمجرد الغاء الرق هاموا على وجوههم من مكان لآخر ومن وظيفة لأخرى ومن امرأة لأخرى . ويجمل المؤلف من كل هذا السمات الأساسية التى كونت شخصية الزنجى الأمريكى فى هذه الفترة ميراثا عن عهد الرق السابق فيما يلى :

١ ـ الزنجى الأمريكى أستاذ بارع لايشق له غبار فى فن النفاق و « مسح الجوخ » وابداء الضعف والمسكنة والذلة واثارة الاشفاق . ويتخذون هذا الموقف باستمرار وسيلة للدفاع عن أنفسهم ، ولاينتظرون

مطلقا من أنفسهم المبادءة ، وانما باستمرار يتوقعون المبادءة من الرجل الابيض ، وينتظرون منه ان يقرر كل شيء وأن يبت في كل موضوع

٢ ـ يجد الزنجي الأمريكي لذة عميقة دافقة في أن يقول الرجل الأبيض انه يعرف طبيعة وحقيقة هذا الزنجي . وهذه اللذة الدافقة العميقة تأتي من أن الزنوج في أعماق تفكيرهم يعرفون انهم في داخل نفوسهم شيء آخر غير هذا الخلط الذي يردده الرجل الأبيض باستمرار

٣ ـ يخفي الزنجي الأمريكي أفكاره وعواطفه وشهواته وأحقاده ورغباته خلف قناع سميك متين من الاستسلام والذلة والمسكنة أو الضعة أو السلبية أو الاستعباط أو الابتسام . وفي كل استعمالات هذا القناع لا يبدي الزنجي الأمريكي طموحا أو ذكاء أو ما يثير ريبة الرجل الأبيض مطلقا . ولكن الشيء الهام الذي لاحظه جميع الدارسين ان عيون الزنوج الامريكيين دائما قلقة لاتثبت على شيء مطلقا ، وباستمرار تجدها في وضع الهروب والشرود حتى لايضبطها احد في وضع إستقرار

٤ ـ الزنجي الأمريكي مريض بالازدواجية أو ثنائية الشخصية . وعلة هذا تأتي من آثار نظام الحياة في

المزارع الكبرى الأمر الذى طبع نفسيتهم وخلق لهم انماطا من السلوك وردود الفعل السيكولوجية ، وكذلك خلق لهم اطارا أخلاقيا له قيمه ومفاهيمه الخاصة

وفى هذه الفترة أيضا برزت خطوط التفرقة بين الخلاسيين والزنوج ، فقد جاء الخلاسيون الى عهد ما بعد الرق ومعهم ميراثهم من منازل السادة البيض فى الجنوب حيث تمتعوا بوضعية اجتماعية واقتصادية ونفسية تختلف عن الزنوج الرقيق الذين عملوا فى الزراعة . وبين هؤلاء الخلاسيين من كان يعرف القراءة والكتابة ومن كان يمارس مهنة كالخدمة فى المنازل وقيادة عربات الركوب وغير هذا من المهن . وهؤلاء يصدق عليهم القول « البيض ذوو البشرة الملونة » ، وسوف نلاحظ ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية سوف تدفع هؤلاء الى مقدمة المجموعة البشرية السوداء وسوف يتولون زعامتها ، الأمر الذى انعكس على باقى المجموعة فى التشبه بهم ومحاولة التغير حتى يكونوا منهم . وبالتالى التلهف والاندفاع ليكونوا جزءا من قيم ومفاهيم وسلوك وانماط الحياة فى المجموعة بيضاء اللون

وان اخطر نتائج هذه الفترة هى ان الزنوج الأمريكيين بدأوا يكيفون حياتهم على أساس التفرقة القانونية المفروضة باسم القانون وأدوات الردع فى المجتمع ، خاصة وان الاوضاع الاقتصادية الرأسمالية ـ المزدهرة فى تلك الفترة ـ لم تمنحهم أى أمل فى امكان تغيير هذه الأوضاع القانونية المفروضة . ولهذا ساد حياتهم الخوف واعتراهم الفزع والذعر وأصبحوا جميعا لا هم لهم الا المحافظة علي الذات أمام سطوة هذا البناء القانونى الضخم ، وهذا البناء الاقتصادى الجبار ، وامام أدوات الردع وأذرعة السلطة القوية الفعالة فى المجتمع . ولهذا نجد ان الجنوب سوف يتصف بالخضوع والطاعة وان الحركة سوف تأتى من الشمال خاصة بعد الهجرة الى بيئة المدينة الجديثة والصناعة الرأسمالية

ويلحق بهذه النتيجة ان الزنوج الامريكيين يفقدون الأمل نهائيا فى أى تحسين أو تعديل لأحوالهم بواسطة الأدوات الحكومية فى الولايات ، أو عن طريق جماعات وهيئات الوعظ والذكر الحسن ودعاة الانسانية المعذبة. وانهم بهجرتهم الى الشمال سوف يعرفون الطريق الى

الاحتكاك بالأداة الحكومية الفيديرالية التى سوف يتطلعون اليها وتصبح أحد أدواتهم فى معركتهم فى داخل المجتمع الامريكى . لقد وثق الزنوج الامريكيون فى دور الكونجرس الأمريكى بصدور التعديلات الدستورية التى أشرنا اليها من قبل ، وزادت ثقتهم بصدور التعديل الخامس عشر ولكن بانتصار الفكر الجنوبى وأنصاره وحلفائهم انتهت هذه الثقة ثم ماتت حين نسيهم الكونجرس كأداة التشريع الديموقراطى فى الولايات المتحدة ، وتحولوا بعد هذا الى القضاء الذى نص عليه الدستور حاميا للحريات مدافعا عن الضعفاء أمام أى عدوان على حرياتهم ، فلما صدر قرار بليسى ضد فيرجسون الذى أقر أوضاع الفصل بين الأجناس على أساس المساواة ـ بدأ اليأس ينتشر فى داخل المجموعة البشرية سوداء اللون ، فتحول البعض عن انتظار العدل عن هذا الطريق وان ظلت الأكثرية متمسكة بدور القضاء والأمل فى الحل الجذرى عن طريقه ، وأخيرا وضعوا ثقتهم فى دور الرئيس الأمريكى وخاصة بعد عام ١٩٠٠ حينما تولى الرئاسة تيودور روزفلت الذى جمعته صداقة مع بوكر واشنطن الزعيم الزنجى فى تلك الفترة

الفصل الثالث

إلى المدينة..

الوجه الأسود في الصورة البيضاء

عرف الزنوج الأمريكيون الحيـاة فى المدينة الحديثة فى أمريكا منذ زمن سابق كما أشرنا من قبـل ، ولكن فى هذه الفترة التاريخية التى بدأت بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية بدأ الزنوج فى الهجرة من الريف حيث كانت تعيش الكتلة الرئيسية من هذه المجموعة البشرية الى المدينة فى اعداد متوالية وبشكل منتظم حتى أصبح وجودهم فىالمدينة شيئا لايمكن اغفاله ، أو فى قول آخر اصبح وجودهم شيئا أساسيا فى تركيب المدينة الحديثة فى أمريكا ، وهذه المدينة التى نقصدها هى جميع المدن الامريكية فى الشمال والوسـط والغرب والجنوب . وقيمة هذا الانتقال انه تم مع ارساء القواعد الأساسية فى

بناء الهيكل الاقتصادى الرأسمالى الأمريكى الذى يجعل المدينة هى عصب الحياة الاجتماعية والاقتصاد الصناعى وشبكة الخـــدمات والتيارات الفـــكرية والقيادات السياسية والاعلامية والتعليمية..الخ. وفى الوقت نفسه تحولت الزراعة الى نوع من الصنـــاعة الحديثة نتيجة الاســتخدام الكامل للتقــدم الفنى والتكنولوجى فى الآلات وانتقاء المحاصيل والتسويق الحديث وميكانيكية السوق العالمى .. الخ

واذا أخذنا فى الحسبان تزايد التعداد العام للزنوج الامريكيين حتى وقتنا الحــاضر ، والتوسع فى فرص الحياة والعمل فى المدينة الحديثة الأمر الذى أتاح الفرص لظهور فئة عريضة من هؤلاء الزنوج من ذوى الياقات البيضــاء والموظفين بجــوار ما يطلق عليهم عموما اسم البورجوازية السوداء . أمكن أن نفهم معنى الاحصاء القائل بأنه فى عام ١٩١٠ كان توزيع التعداد العام للزنوج الأمريكيين فى بيئة المدينة والحضر ٢ر٧ مليون نسمة وفى بيئة الريف والزراعة ١ر٧ مليون نسمة ، وتغير هــذا التوزيع فى عام ١٩٣٠ الى ٢ر٥ مليــون نسمة من بيئة المــدن والحضر و ٦ر٧ مليــون نســمة فى بيئة الريف،

والزراعة . وان هذا الانتقال يتم فى داخل تيار اجتماعى كبير فى الولايات المتحدة يسجل زيادة النمو السكانى والاتجاه القـوى المتواصل للانتقـال الى المدينة حيث امكانيات العمل والصناعة والمدرسة والنوادى .. الخ . ولقد قدر الدارسون انتقال ما يقرب بين ٢٧ مليـون نسمة من المناطق الريفيـة الزراعية الى منـاطق المدن والتجمعات الحضرية فى الفترة التى تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٦٤ وان هذا الانتقال تم فى الفترة التى زاد فيها التعداد العام للولايات المتحـدة بحوالى ٥٠ مليون نسمة

وقيمة هذا فى التحليل السياسى الاجتماعى هى ان التغير الاجتماعى بالانتقـال والهجـرة الداخلية يحطم الولاءات السابقة والارتباطات القديمة ، كما ان كتل المهاجرين الأول الكبرى فى المدن والمناطق التقليدية فى الولايات المتحدة تتناقص قوتها نتيجة لنشـوء مراكز ومدن جديدة تقـوم على أساس عمـل وآثار الماكينة والآلة والخدمات ولا يربط بينها الرباط العقائدى أو الدينى الذى دفع المهاجرين الأول فى الانتقال الى الدنيا الجديدة ، وهـذا له معنى سياسى آخر وهو الانهيار

المستمر فى قيمـة زعامات المدن التقليـدية التى كونت لنفسها اسما سياسيا واجتماعيا خلال الفترة التـاريخية السابقة ، فهذه المـدن اما تتناقص قيمتهـا وتأثيرها فى الموقف السياسى العام واما تغزوها جيوش من النازحين من قلب أمريكا الزراعى بحثـا عن العمـل والوظيفـة والشـهادة وهؤلاء لايدخلون أوتوماتيكيا فى داخـل اطار الولاء التقليدى الموجود نتيجة الحيـاة التاريخية المشتركة السابقة

وهذه المقدمة تنطبق على كتلة الزنوج الامريكيين فقد هاجروا الى المدن بحثا عن العمل أو أملا فى المستقبل أو هربا من الواقع المظلم ، وقد هاجروا أفرادا وجماعات ، وهذه الهجرة المنظمة ترجع الى عام ١٨٧٩ فقد ظهر فى مناطق الجنوب زنجى ادعى المهدوية والنبوة يدعى بات سنجلتون واستطاع أن يقود جموعا بشرية من الرجال والنساء والأطفال الى ولاية كانساس أملا فى اقامة مجتمع أسود حر هناك خارج نطاق الجنوب المتعصب ، وقـد فشلت هذه الهجرة وأصابت المهاجرين باضرار وكوارث فظيعة ، ولكن هذا لم يمنعهم مرارا وتكرارا من الهجرة الى الغرب والوسط ، وحاليا فى ولاية تكساس وولاية

أوكلاهوما توجد مدن تكاد تكون سوداء (١٠٠ ٪) نتيجة لهذه الهجرات

ومن ناحية أخرى نجد انه طبقا لاحصاء عام ١٩٦٠ شهدت ولاية نيويورك زيادة فى عدد الزنوج بمقدار ٢٩٠ ألفا من الأفراد فى السنوات الأربعينيات و ٣٤٠ ألفا من الأفراد فى السنوات الخمسينيات من هذا القرن . واذا راجعنا الأرقام الخاصة باحصاءات المدن وجدنا الزنوج يشكلون النسب المئوية التالية فى المدن الكبرى كالآتى :

١٥ ٪ من التعداد العام لمدينة نيويورك
٢٤ ٪ من التعداد العام لمدينة شيكاغو
٢٥ ٪ من التعداد العام لمدينة فيلاديلفيا
٣٥ ٪ من التعداد العام لكل من مدينة ديترويت ومدينة كليفلاند

وفى عام ١٩٦٠ يعيش ٩ مليون زنجى خارج الولايات الجنوبية التى حاربت فى الحرب الأهلية ضد ولايات الشمال بينما كان هذا الاحصاء عام ١٩٤٠ هو ٤ ملايين زنجى — وفى عام ١٩٦٠ تبين ان ١/٣ تعداد الزنوج الامريكيين يعيش فى ١٢ مدينة كبيرة فى الشمال والوسط

والشرق طبقا للمفهوم الامريكى

وفى دراسة أخرى نجد ان الزنوج الامريكيين يشكلون ١٠ ٪ من مجموع التعداد العام للولايات المتحدة عام ١٩٦٠ ، وانه فى السنوات الستينيات (١٩٦٠/١٩٧٠) سوف يولد ٤٠ مليونا من الاطفال ، ومن هذا العدد سيكون ٦ ملايين من الاطفال للزنوج الامريكيين فقط . وانه من المقدر عام ١٩٧٠ ان تعداد الزنوج الامريكيين فى المدن وبيئة الحضر سيصل الى ١٨ مليونا من الأفراد فى مقابل ١٣ر٨ مليونا طبقا لاحصاء عام ١٩٦٠ ، وقد سجل لويس هاريس وزميله هذه الأرقام فى دراستهما عن ثورة الزنوج فى أمريكا فيما يختص باحصاءات الزنوج فى المدينة والريف كالتالى :

اعوام	فى بيئة المدن والحضر بالملايين	فى بيئة الريف والزراعة بالملايين
١٩١٠	٢ر٧	٩ر١
١٩٢٠	٣ر٥	٦ر٩
١٩٣٠	٥ر٢	٦ر٧
١٩٤٠	٦ر٢	٦ر٦
١٩٥٠	٩ر٤	٥ر٦
١٩٦٠	١٣ر٨	٥ر١

هذه الأرقام هى التى تكشف أبعاد الموقف الحالى سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، فبالنسبة للسياسة ظهرت الزعامات الجديدة فى المدينة وتكلم المثقفون وتكونت المنظمات وجماعات الضغط وانتشرت الدعوات والآراء بحثا عن الحل الأمثل للمشكلة وسوف نؤجل دراسة هذه النقطة للفصول التالية فيما بعد ، وبالنسبة لمشكلات الاسكان سوف نجد ان الزنوج يصلون الى ما يسمى فى الفكر الامريكى باسم « قلب المدينة » أى منطقة الوسط فى المدينة الامريكية حيث يسكنون فى منطقة « الغيتو الأسود » أو ما نسميه نحن فى مصر باسم « حارة » عملا بالكلمة الشعبية المتداولة . والمقصود من الكلمة ان الزنوج يتكدسون فى منطقة معينة فى وسط المدينة وكل وافد جديد يصل اليها حتى يحصل على مساعدة الأقارب أو الأصدقاء أو المشتركين معه فى لعنة اللون طبقا لمقاييس المجتمع الأمريكى . وفى هذه المنطقة المنبوذة يتكدس العاملون والعاطلون والشرفاء والمنحرفون والرجال والنساء فى أوضاع سكنية سيئة للغاية وينتشر فى وسطهم الفقر والحاجة والجهل والانحرافات ، كما تتعقد علاقاتهم مع الأقليات والأجناس والألوان الاخرى

فى المجتمع ، وسوف نثير فيما بعد مشكلة علاقاتهم مع اليهود وما انتشر من رأى بأن الزنوج يعادون اليهود وان الحـركة السياسية للزنوج موجهـة ضد السامية واليهود ..

واذا كان هذا القـول ينطبق على الزنوج كمجموعة بشرية فان مشكلات عديدة تواجههم كأفراد ، فالرجـل الأسود تواجهه مشكلة البحث عن العمل وهنا يصطدم بأوضاع النقـابات العمـالية التى لا تأخذ حتى الآن بالاندماج بين جميع العمال فى تنظيم عمالى واحـد ، ويترتب على هذا ان متوسط أجر العامل الاسود أقل من متوسط أجر العامل أبيض اللون ، وان نسب البطالة والتشرد بين الزنوج أكثر ارتفاعا من مثيلاتها بين بيض اللون . واذا كان الرجـل الزنجى من ذوى اليـاقات البيضاء أو من البورجوازية السوداء فله أيضا مشكلاته وأوضاعه التى تميز بينه وبين من يماثله فى الوضع من بيض اللون . وقل مثل هذا على المرأة الزنجية فيما يتعلق بعلاقات العمل . وبجانب هذا تحدث مضاعفات هـذا الوضع عند الرجل حينما ينحـدر الى جيش البطالة الدائمة وشبه الدائمة كما سنوضح بالارقام الواردة فى

الاحصاءات الرسمية ، وان هذا يقود العدد الأكبر منهم الى الجريمة والى تجارة المخدرات وتعاطيها والى العالم السفلى عالم الجريمة . أما المضاعفات عند المرأة الزنجية فتظهـر فى الانضمام الى جيش البغاء وتجـارة الدعارة والمواليد غير الشرعيين ... الخ . أما مشكلات الاطفال فتبدأ مبكرة فى سن الطفولة حينما يبحثون عن المدرسة فتواجههم مشكلات التفرقة وعدم الاندماج فى المدارس، أو يتكدسون فى مدارس كل طلابها سود اللون ولهـا مشكلاتها الخاصة لسوء مستويات التعليم والنقص فى مستلزمات البناء والـكتب والأدوات .. الخ . وتشير الاحصاءات الرسمية الى ارتفاع النسب المئوية للطلاب سود اللون المفصولين والراسبين فى سنوات التعليم ، وهؤلاء يخرجون مبكرين الى سوق العمل فيجـدون البطالة . وهذه البطالة نوع خاص بهم اذ أنها بطالة فى سن الشـباب فيـدخلون جيش العـاطلين ويشعرون بمضاعفات هذا الوضع فى مظاهر التشرد وتفكك الأسرة بجوار ما سبق ان أشرنا اليه من مضاعفات يشعر بهـا الرجل والمرأة ..

وهاهى ذى عينات من الارقام الرسمية المنشورة تشرح

ما أجملناه من قبل وهى مأخوذة من الاحصاء العام لسنة ١٩٦٠

البطالة : ١٠ ٪ من مجموع تعداد الزنوج فى حالة بطالة دائمة فى مدينة نيويورك

١٧ ٪ من مجموع تعداد الزنوج فى حالة بطالة دائمة فى مدينة شيكاغو

٢٠ ٪ من مجموع تعداد الزنوج فى حالة بطالة دائمة فى مدينة كليفلاند

٣٩ ٪ من مجموع تعداد الزنوج فى حالة بطالة دائمة فى مدينة ديترويت

وبالنسبة للولايات المتحدة كلهـا نجد النسبة المئوية للبطـالة بين الزنوج الامريكيين تتراوح بين ١٤ ٪ ، ١٥ ٪ من تعدادهم الكلى

الاجور : متوسط أجر الرجل العامل الزنجى يساوى ٦٨ ٪ من متوسط أجر الرجل العامل أبيض اللون

متوسط أجر المرأة العاملة الزنجية يساوى ٩٣ ٪ من متوسط أجر العاملة بيضاء اللون

متوسط مجموع الأجـر الذى تحصل عليه العـائلة الزنجية يساوى ٧٣ ٪ من متوسط مجموع الأجر الذى

تحصل عليه العائلة بيضاء اللون ـ علما بأن عدد الأفراد العاملين فى العائلة سوداء اللون أكبر من عـدد الأفراد العاملين فى العائلة بيضاء اللون

الدخول : زاد دخل العامل الزنجى بنسبة ٣٧ ٪ من الزيادة التى تمت فى دخل العامل ابيض اللون منذ عام ١٩٣٩ ، وفى عام ١٩٥٢ ارتفعت نسبة الزيادة فى دخل العامل الزنجى الى ٥٧ ٪ ، ومع توقف الحرب الكورية هبطت النسبة المئوية للزيادة من ٥٧ ٪ عام ١٩٥٢ الى ٥٣ ٪ عام ١٩٦٢

المهنيون : فى عام ١٩٠٠ كان عدد الأطباء من الزنوج الأمريكيين ٣٤٠٠ طبيب ، فارتفع الرقم طبقا لاحصاء عام ١٩٦٠ الى ٤٠٢٦ طبيبا ..

التعليم : ٥٠ ٪ من تعداد الزنوج البالغ عمرهم أكثر من ٢٥ عاما حصلوا على تعليم أولى فقط بينما ٢١ ٪ من تعداد البيض البالغ عمرهم أكثر من ٢٥ عاما حصلوا على تعليم أولى مماثل .

حياة الاسرة : طلقت زوجـة من كل ثلاث زوجات زنجيات من اللائى عمرهن فوق ١٤ سنة أو انفصلت عن زوجها بينما طلقت زوجة من كل خمس زوجات بيض

اللون من الذين عمرهم فوق ١٤ سنة

ـ طفل زنجي من بين كل خمسة اطفال مواليد يولد نتيجة وضع غير شرعى (بدون زواج) بينما يوجد طفل ابيض من بين كل خمسين طفلا يولد نتيجة وضع غير شرعى (بدون زواج)

ـ عدد الاطفال المواليد غير الشرعيين الزنوج أكبر من أمثالهم بين البيض بمقدار ١٥ مرة

ـ فى نيويورك عـدد جرائم انحـراف الشباب بين الزنوج أكبر من مثيلاتها بين البيض بمقدار ١/٢ ٢ مرة

ـ فى نيويورك عدد حالات الامراض التناسلية بين الزنوج أكبر من مثيلاتها بين البيض بمقدار ٥ مرات

ـ فى نيويورك عدد حالات وفيات الاطفال بين الزنوج اكبر من مثيلاتها بين البيض بمقدار مرتين

ـ فى نيويورك عدد حالات الانفصال والطلاق بين الزنوج أكبر من مثيلاتها بين البيض بمقدار ٦ مرات

ـ فى نيويورك عـدد حالات ولادة الاطفال غـير الشرعيين بين الزنوج فى هارلم تمثـل ١/٣ عدد حالات الولادة

الانفاق والتعليم : المتوسط اليومى لنفقات تعـليم

التلميذ الواحد فى المدارس الابتدائية والثانوية للبيض والسود وهى تشمل مصروفات مهايا المدرسين والعاملين والمكتبة والأدوات .. الخ . بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية وبدون تفرقة لونية بين الأبيض والاسود كان المتوسط اليومى للانفـاق عام ١٩٤٠/٣٩ هو ٦٦ر٦٣ دولارا وارتفع عام ١٩٥٤/٥٣ الى ٥٢ر١٧٧ دولارا . واذا تم التوزيع على الولايات مع التمييز بين ما ينفق على تعليم التلميذ أبيض اللون والتلميذ أسود اللون ، وفى الحسبان النسبة المئوية للزنوج فى الولاية وجدنا الأرقام فى بعض الولايات كالتالى :

الولاية	١٩٣٩	١٩٤٠	النسبة المئوية للزنوج فى الولاية	١٩٥٣	١٩٥٤	النسبة المئوية للزنوج فى الولاية
كارولينا الشمالية	٤٣ر٢٧	٢٤ر٨٩	٧٢ر٦	١٣٢ر٤٦	١٢٤ر٨٥	٩٤ر٣
فلوريدا	٥١ر٨	٢٣ر٠٩	٤٤ر٦	١٧٥ر٩٢	١٦٠ر٩٢	٩١ر٣
المسيسيبى	٣١ر٢٤	٦ر٦٦	٢١ر٣	٩٨ر١٥	٣٤ر١٧	٤٤ر٠
الباما	٣٤ر٩٠	١٢ر٦٨	٣٦ر٣	١١١ر٩٩	١٠٥ر٠٢	٩٣ر٨
اركنساس	٢٤ر٨٧	١٢ر١٨	٤٩ر٠	٩٩ر٠٨	٧١ر٧٨	٧٢ر٤
لويزيانا	٥٤ر٣٧	١٦ر١٣	٢٩ر٧	١٦٥ر٠٨	١٢٢ر٠٧	٧٣ر٩

توزيـــع العـــاملين فى المهن والخدمات المتعددة فى أمريكا

طبقاً لاحصاء عام ١٩٦٠ كانت النسب المئوية لتوزيع العاملين رجالا ونساء طبقا لكونهم سود اللون أو بيض اللون كالآتى :

نوع المهنة أو العمل	رجال النسبة المئوية أبيض	رجال النسبة المئوية اسود	نســاء النسبة المئوية بيضاء	نســاء النسبة المئوية سوداء
فنيون مهنيون متخصصون	١١ر٣	٤ر٠	١٤ر٠	٥ر٨
اداريون صناعيون	١٤ر٦	٢ر٧	١ر٥	١ر٨
كتبـــة	٧ر٣	١ر٥	٣٢ر٦	٨ر٩
عمال بيع	٦ر٣	١ر٩	٨ر٨	١٠ر٥
عمال فيما عدا عمال المزارع والمناجم	٦ر٣	٢٣ر٣	٠ر٤	٠ر٣
عاملون فى الخدمات العامة	٥ر٧	١٤ر٦	١٣ر٨	٢٢ر٨

معدلات الزيادة فى تعداد الزنوج

أثبت احصاء عام ١٩٦٠ ان معدل الزيادة الطبيعية بين الزنوج وصل الى ٢٥ / بينما معدل الزيادة الطبيعية بين البيض وصل الى ١٨ ٪ ، وأنه ترتيبا على هذا يعيش

٧٢ ٪ من التعداد الكلى للزنوج فى بيئة المدينة والحضر بينما يعيش فى نفس هذه البيئة ٧٠ ٪ من التعداد الكلى للبيض • وبمقارنة هذه الأرقام بما كان عليه الحال عام ١٩٥٣ نجد ان النسبة الخاصة بالزنوج كانت ٦٣ ٪ والنسبة الخاصة بالبيض كانت ٦٤ ٪ • وهذه الارقام تكشف لنا أحد الأسباب الأساسية فى انتقال الاضطرابات الى المدينة الامريكية مع تزايد المخاوف التى تملأ عقول البيض والتى ينشرها دعاة التفرقة العنصرية هناك

البورجوازية السوداء

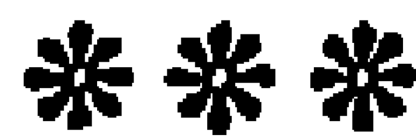
يطلق هـذا اللفـظ على الزنوج الامريكيين الذين ارتفعت مستويات دخولهم الى مستويات البيض ومن ثم فقدوا كل علاقات الكفاح والتأثر بالقضية المشتركة مع جماهير الزنوج الأمريكيين الـذين يعيشون فى قـاع المجتمع • والارقام التى يعرضها لوماكس لسنة ١٩٦٥ نقلا عن تقرير خاص بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للنجرو فىالولايات المتحدة نشرتهجماعة العمل فى البيئة الحضرية فى يناير ١٩٦١ ـ تدل على ما يلى :

يوجد حوالى ٢٥ فـردا فقط ينطبق عليهم وصف مليونير من بين مجموع الزنوج

يوجد حوالى ٤٠٠ فرد فقط يبلغ متوسط دخل الفرد خمسين ألف دولار سنويا أوأكثر من بين مجموع الزنوج ..

يوجد حوالى عشرة آلاف من الأفراد يتراوح متوسط دخل الفرد من ١٥ ألفا من الدولارات الى ٥٠ ألفا من الدولارات سنويا بين مجموع الزنوج ..

وبعد هذا تأتى مجموعة الزنوج من الموظفين فى الأداة الحكومية وفى النشاط الصناعى والتجارى والخدمات ، وهكذا رويدا حتى نصل الى الحضيض حيث الفقر الدائم والبطالة المستمرة • وقيمة هذه الأرقام تبدو اذا تذكرنا مجموع تعداد الزنوج الذى يتراوح ما بين ٢٠ و٢٢مليونا من الافراد، ولكن معناها السياسى هو ان اقساما هامة من أقلية الزنوج الأمريكيين قد انفصلت فكريا وماديا عن القسم الأكبر من هذه الأقلية الزنجية وان ظلت تشاركهم فى آثار اللون الاسود



ويذهب فرازير مؤلف كتاب «البورجوازية السوداء» الى أبعد من هذا فى دراسة وتحليل هـذه الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية فيقول ان ظهور هـذه الفئة

يرتبط أساسا بالتغيرات الضخمة التى شهدها الوضع الاقتصادى الامريكى عامة . وان هذا ترتب عليه تغيير عميق الاثر فى علاقة الزنجى بالمؤسسة الاقتصادية والهيكل الاقتصادى الرأسمالى عامة فى المدينة الصناعية والخدمات يصل الى نتائج منها زيادة اعداد ذوى الياقات البيضاء ، واختلاف الوضعية الاقتصادية والنفسية والاجتماعية للزنجى المقيم فى مناطق الغرب والوسط والشمال . مع اقراره بأن وضعية النجرو بشكل عام أدنى من وضعية الابيض من حيث الأمن والاستقرار الاقتصادى ونقص التعليم ونقص الخبرات وقفل ابواب التقدم وتكافؤ فرص المنافسة مع الابيض فى جميع المستويات وميادين الحياة

ويعرض المؤلف هذه الأرقام التى توضح الأوضاع الاقتصادية عام ١٩٥٠ بالنسبة للدخول التى يحصل عليها الأبيض والأسود فى الولايات المتحدة وهى كالتالى :

الدخل السنوى بالدولارات	النسبة المئوية للزنوج	النسبة المئوية للبيض
من ٦ آلاف فأكثر	٣ر	٦ر٤
من ٥ آلاف الى ٦ آلاف	٢ر	٢ر٣

من ٤ آلاف الى ٥ آلاف	٨ر	٥ر٦
من ٣ آلاف الى ٤ آلاف	٧ر٤	٤ر١٥
من ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ دولار	٦ر٥	٥ر٩
من ٢٠٠٠ الى ٢٥٠٠ دولار	٨ر٩	٦ر١١
من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ دولار	٦ر١١	١ر١٠
من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ دولار	٩ر١٤	٤ر١٠
من ٥٠٠ الى ١٠٠٠ دولار	٣ر٢١	٤ر١٢
أقل من ٥٠٠ دولار سنويا	٦ر٣٠	٩ر١٥

وفى تعليقه على هـذا يرى ان آثار ودور التركيب الرأسمالى اقتصاديا وسياسيا قد أدت الى ظهور تركيب اجتماعى ترك أثره على علاقات الأجناس لدرجة انه لايمكن اليوم فصل الآثار عن بعضها البعض ، مع ما تسرب الى هذا الوضع الرأسمالى المادى والفكرى من مواريث فترة الاقطاع والرق السالفة والتى تداخلت فى هذا التركيب الجديد وأصبحت جزءا لايتجزأ منه. وفى التحليل الذى يقدمه المؤلف يستعرض نماذج من السلوك وقواعد الضبط الاجتماعى والمراكز والقيم والمفاهيم فى الحياة العامة والخاصة ، ويؤكد ان ميراث نظام المزارع الجنوبية فكريا واجتماعيا ما زال موجودا

فيما انتقل من ثقافة الى الزنوج والبيض وعلاقات التعامل بينهما ، وما يقال عن الوضع الطبيعى للزنجى وما يطالب به من التزام لتقاليـد وسلوك معينة ، وما يشعر به البيض عامة من عدم الامن الاجتماعى أو الاقتصادى اذا غير الزنجى من وضعية هذا الميراث

واجمال القول عنـد فرازير فى مؤلفه « النجـرو فى الولايات المتحـدة » ان التـكوين الطبقى للزنوج الامريكيين تأتى جذوره أصلا من تفرقة تاريخية قامت على أساس أفكار وأوضـاع وتفـرقة روحية اجتماعية ملأت عقول البيض منذ أول ظهور الزنوج فى الولايات المتحدة • وان هذه الافكار والاوضـاع تحولت الى تمييز اجتماعى اقتصادى أولا فلما ألغى الرق تحولت الى تمييز وتفرقة وظيفية فى الحياة • وازدادت آثار هذه التفرقة الوظيفيـة فى المجتمع الأمريكى مع ظهور آثار التعليم والمهنة والعمل فى الحكومة أو فى النشاط الخاص الرأسـمالى • وامتـدت آثارها لا بالنسبة بين البيض والسود فحسب بل امتدت الى ما بين الاقلية الزنجية أيضا • فظهرت فيما بينهم تفـرقة على أساس درجـة السواد وهذه التفرقة امتداد للوضع الاقتصادى فى

الجنوب الذى فرق بين عمال المزارع والعمل البدنى الشاق وبين خدم المنازل وعمال الخدمات فى حياة الأسر البيضاء المترفة . وكما سبق أن قلنا ان الغالبية العظمى من الخلاسيين جاءوا من هذا الصنف الثانى اعنى خدم المنازل ، وظهرت أيضا تفرقة جديدة بين الزنوج بعد التحرير والهجرة الى المدينة وقامت على أساس الوظيفة ومصدر الدخل ودرجة التعليم ونوع المهنة .. الخ . ومن داخل هذه التفرقة الجديدة نشأت البورجوازية السوداء التى أتيحت لها فرص تاريخية لتولى زعامة الزنوج والتحدث باسمهم ، وهذه الفئة البورجوازية اتخذت انماط معيشة البيض وعلاقاتهم وقيم حياتهم نموذجا ، وأوغلت فى التعلق والتطلع الطبقى والفكرى والاجتماعى . ويذكر فرازير ان الفارق الاساسى بين البورجوازية البيضاء والبورجوازية السوداء ليس فى اللون فقط وانما هو فى قيمة الدخل والمدى الذى يتراوح فيه هذا الدخل ، وكما عرض فى أرقام الاحصاء السالف نجد الفرق ظاهرا . واستطرادا لدراسته يشير الى ان هذه القلة الزنجية من الطبقات المتوسطة تسيطر عليها الرغبة فى أن تصبح بيضاء اللون والفكر والقلب والمركز

الاجتماعى وفى رأيه أنها أمريكية فى كل شيء ما عدا اللون الذى يفصلها عن البورجوازية الامريكية البيضاء • وان هذه البورجوازية السوداء تنقصها الثقافة وليس لديها شوق للمعرفة ، وأقصى ما تريده هو المركز الاجتماعى والظهور فى مجالات ووسائل الاعلام والسينما والأماكن العامة

القبيلة التائهة

يتكون الشعب الأمريكى من جماعات متتالية من المهاجرين ذوى الأصول القومية واللغوية والعرقية المتعددة والمتنافرة • ولقد وصلت هذه الجماعات والأقليات الى القارة الأمريكية على فترات تاريخية متعددة ، الامر الذى جعل مركزها الاجتماعى ومكانها فى السلم الاجتماعى مختلفا نتيجة لهذا الميراث التاريخى، وقد تخيل بناة هذا المجتمع الأبيض صورة مثالية له ، فقد افترضوا أن وصول المهاجرين الجدد الى الشاطىء الأمريكى سوف يدخلهم دائرة ثقافية نفسية اجتماعية تدعمها وضعية اقتصادية جديدة • ومن ثم تذوب فيها هذه الجماعات وتنصهر ثقافيا ونفسيا واجتماعيا ، فاذا

ما عبر المهاجرون الجدد دائرة التذويب والانصهار خرجوا من الجانب الآخر فى صورة وهيئة ونفسية المواطن الأمريكى الجديد ، وقد سموا هذه العملية « دائرة التذويب » . والحقيقة ان هذه الصورة الافتراضية تواترت فى الكتب ومخيلة الكتاب والجيل الأول من البيض الذين يطلق عليهم فى أمريكا اسم « الآباء الأول »

ولم تنجح هذه الصورة الا فى حالة الصنف الأول من المهاجرين من ذوى الأصل الانجلو سكسونى البيض البروتستانت والذين يسمون « واسب » ، واذا شئنا الدقة قلنا ان هذا الصنف الأول من المهاجرين وصل الشاطىء الامريكى وأقام هناك ثم افترض ان كل موجة بشرية تصل من بعده يصبح حتما عليها ان تذوب وتندمج فيه طبقا لما أرساه هؤلاء المهاجرون الأول من صفات وقيم ومثل وعلاقات اجتماعية ومفاهيم . وقد يكون السبب ان هؤلاء المهاجرين الأول توقعوا ان لا يصل الى الولايات المتحدة الامريكية الا امثالهم من ذوى الاصل الانجلو سكسونى والديانة البروتستانتية. وعلى كل حال فان ما حدث هو ان أقليات عديدة وصلت

مهاجرة من ألمانيا وأيرلندا وايطاليـا وشرق أوروبا ، وجاءت أقليات من الكاثوليك واليهود .. الخ . فلما حاول المجتمع ان يأكل صفاتهم القومية والدينية الموروثة عبر دائرة التذويب ـ فشلت التجـربة . وظل المجتمع الامريكى حتى اليوم مجتمعات وأقليات وطوائف أشبه ما تكون بالقبائل الاجتماعية التى تتعايش بطريقة أو ما فى داخل اطار التنظيم الاقتصادى للحياة الامريكية

ومن أعماق هذا التركيب الاجتماعى التاريخى المعقد ترتفع صيحة القبيلة السوداء التى يصل تعدادها الى ٢٠ مليـون نسمة أو ما يزيد اليـوم ويربطهم رباط اللون وميراث الحياة فى قاع المجتمع ومستوياته السفلى وهم يعلنون رفضهم لدوام هذا الوضع التقليدى الذى أرساه البيض على أساس القول الشائع فى أمريكا :

« اذا كنت أبيض اللون فتقدم للأمام ، واذا كنت ملونا فقف جانبا ، اما اذا كنت اسود اللون فتراجع للخلف » ..

ويرتب الزنوج موقف الرفض على اساس انهم اقدم أقلية ظهرت فى الحياة الامريكية مع الانجلو ساكسون البيض البروتستانت . بل يزيدون على هذا انهم انجلو

ساكسون مثلهم تماما فيما عدا اللون الاسود لبشرتهم فقد عبروا دائرة التذويب واكتسبوا لغةالانجلوساكسون وثقافتهم وفقدوا نهائيا لغاتهم الأصلية . واعتنقوا ديانة الانجلو ساكسون البروتستانت ولم يبق منهم انسان يذكر ديانته التى جاء يحملها من أفريقيا ، كما فقدوا أسماءهم الأولى واكتسبوا أسماء سادة المجتمع البيض، فلماذا بعد هذا لا يصبحون جزءا من الحياة الأمريكية ؟ هل اللون هو المانع والحاجز بعد كل هذا الذوبان الثقافى والاقتصاى والاجتماعى ؟ .. بل أكثر من هذا يقولون ان قبيلتهم التائهة فى أرض الضياع الاجتماعى هى أثر حى على التحالف الذى قام بين السادة البيض والنساء السود . فلماذا ينكر المجتمع الأمريكى وليده البكر بهذا الشكل الرهيب ؟

ويرى فرازير فى كتابه «النجرو فى الولايات المتحدة» ان النظرية الخاصة بدائرة التذويب قامت أساسا على دور المدرسة العامة التى تمولها الأدوات الحكومية المتعددة . وفيها تتم تربية وتثقيف الأجيال الصاعدة جيلا وراء جيل بحيث يذوبون فى وضعية جديدة تقطع كل صلاتهم كأمريكيين بالمواريث التاريخية والنفسية

والاجتماعية التى حملهـا آباؤهم من أماكنهم الأصلية التى جاءوا منها . ويرى المؤلف الذى ننقل عنه ان الفصل بين الأجناس والقوميات فى المدارس وفى الحياة هو أحد العقبات التى شلت فعالية هـذه الصورة الافتراضية وبمرور الزمن تراكمت آثار الشلل والفشـل فأوصلت المجتمع الى ما هو عليه اليوم . واستطرادا لدراسته يرى ان هناك أكثر من عالم وأكثر من قيم وأكثر من تصور يملأ حياة الزنوج الأمريكيين . ويرى ان جذور هـذه الأوضاع تعود الى عهد الرق وتحطيم كل المواريث عند الفرد الزنجى وما تم من نسيان كامل لكل الأوضـاع العائلية والاجتماعية والقومية الافريقية ، وان ما جاء بعد ذلك من الغاء للرق لم يمنح هؤلاء الزنوج شيئا كجماعة بشرية . ولهذا نجـد الأغلبية أفرادا وعائلات ليست لها تقاليد أو قيم أو مثل العائلات البيضاء ، ونجد ان الاقلية البورجوازية السوداء انما تحاول ان تدخل فى اطار هذه البورجوازية البيضاء وان كان ميراث اللون يقف فى وجهها حتى اليوم . ويجمـل دراسته فى ان الزنجى الامريكى ما زال يحمل وصمة الرق وعلامة الاضطهاد فى نفسه حتى اليوم وهذا يشده الى الابيض

وفى الوقت نفسه يدعوه الى الهرب منه ومن نفسه التى تمتلىء احساسا بالضعف والضيق وكراهية الذات والعداء الدائم للأبيض. وهذا فى رأيه هو الأساس العلمى لتفسير كل الظواهر المنحرفة فى حياة الزنوج فى المدينة وبيئة الحضر من جريمة ودعارة وعربدة وانحراف سلوكى وانهيار فى القيم الاخلاقية وتفكك فى التركيب الأسرى الزنجى ..

المرأة فى اطار التفرقة العنصرية

أصابت الاحكام الصادرة عن المحكمة الفيدرالية العليا البناء القانونى للتفرقة بضربة شديدة وكان استنادها فى هذا الى التعديل ١٤ للدستور الامريكى . ولكن على الرغم من ذلك ظلت دائرة العلاقات الجنسية بين المرأة والرجل بعيدة عن هذا النشاط القضائى . وقد أثير هذا الموضوع بعنف منذ عام ١٩٦٣ عندما نظرت المحكمة العليا فى قضية اتصال جنسى بين امرأة بيضاء ورجل اسود أصدرت فيها محاكم فلوريدا حكما عنصريا

والأصل فى الفكر السائد بين البيض هو التخوف باستمرار من نتائج السؤال التالى : هل تحب ان تتزوج

ابنتك من رجل زنجى اسود ؟ وقد تعرض جنرميردال فى دراسته المنشورة عام ١٩٤٤ عندما وجد أن أى مناقشة لصالح الغاء التفرقة العنصرية تنتهى بتوجيه هذا السؤال واستدعى هـذا جنرميردال ومساعديه ان يتعمقوا فى بحث هذا الموضوع فوجدوا أن بناء التفرقة العنصرية يقوم على منع أى اتصال جنسى بين البيضاء والأسود ، وان كل الجهود مبذولة لسد طريق المساواة الاجتماعية التى لابد أن تؤدى الى الزواج المختلط . وترتيبا على هذا أصبح الجنس موضوعا شائعا فى حديث الزنوج عن التفرقة العنصرية . وقد رأى جنرميردال ان هناك تبريرات لمحاولات منع الزواج المختلط على أساس ان تنفيذه والسماح به معناه قبول مبدأ المساواة الاجتماعية . وعلى الرغم من هذه التبريرات فالتناقض موجود اذ أن الزواج المختلط والعلاقات الجنسية المختلطة تظهر فى تركيب المجموعة الزنجية الحالية فى أمريكا . ويقول جنر ميردال ان الأبيض الجنوبى لا يمانع فى الاتصال الجنسى مع المرأة السوداء ولكنه يثور ضد فكرة الزواج منها كما انه يرفض أى اتصال جنسى بين ابنته البيضاء ورجل اسود ..

وعلى هذا فالمشكلة هى السور الذى اقامه البيض حول المرأة البيضاء لمنع الاسود من الاقتراب منهـا جنسيا ، بينمـا اسـتباحوا الاتصـال الجنسى بالمرأة السوداء • ومن القواعد القانونية المقررة عرفا فى الجنوب أن يشنق الاسود لمجرد اقترابه أو محاولته الاتصـال جنسيا بالمرأة البيضاء ، حتى ولو كان هذا بناء على دعوة شخصية من المرأة البيضاء • وهناك نظريات لتفسير هذا الموقف يشير اليها جنرميردال ، فمنهـا ما يدور حول نقاء وطهارة المرأة البيضاء ومنها ما مرجعه الضمير المتألم بين جنبى الرجل الابيض والذى يخاف ان تعامل امرأته معاملة المرأة السوداء وان تلاقى مصيرها . ومنها من يرى انه ثبت ان المرأة البيضـاء تميـل الى الرجـل الاسـود ولهـذا يمنعهـا الرجل الابيض من هـذا الشغف والضعف نحو الأسود • ومنها ان الرجل الاسود به احساس عميق نحو المرأة البيضاء ولو كان ثمن هذا اللقاء هو الموت • ولهذا يخشى البيض على نسائهم ، ومن ناحية أخرى جرى الأمر فى بعض الولايات على أن تمتد أوضاع المنع لا بالنسبة للزنوج فقط بل الى أجناس أخرى مثل أبناء الملايو وأبناء منغوليا .. الخ

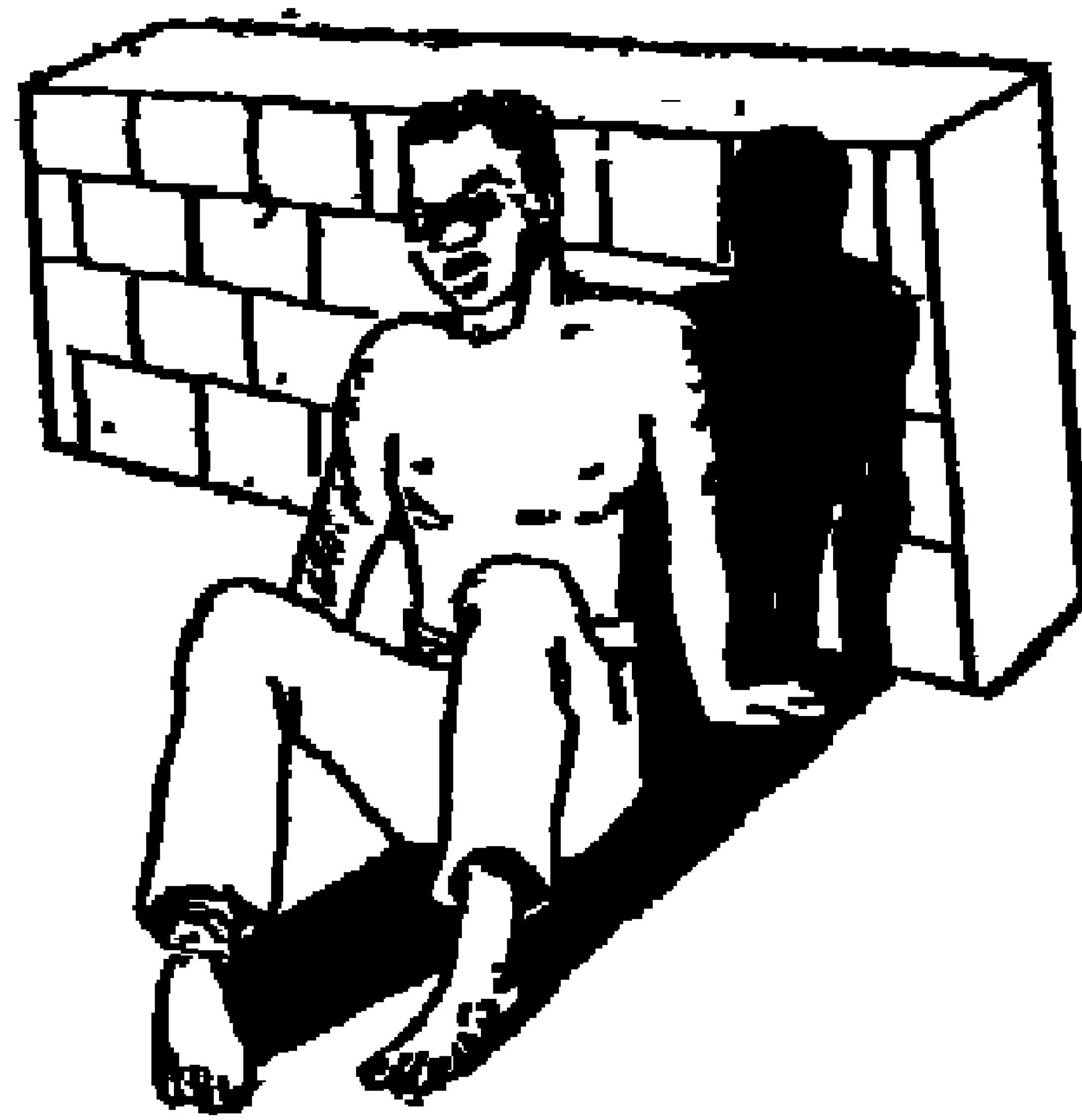
وهناك ١١ ولاية تحتفظ بمثل هذه القوانين اليوم وهى ولايات الاتحاد الجنوبى الذى حارب ضد الشمال فى الحـــرب الأهليـــة • أضف اليهم ولايات ديلاوير وماريلاند وفرجينيا وكنتكى وميسورى وأوكلاهـــوما وأنديانا ووايومنج • وكانت بعض الولايات تتخذ مثل هذا الموقف ولكنها وافقت على الغائه قانونا مثل نبراسكا وأريزونا وأوتا • وقد أثير هذا الموضوع عام ١٩٥٥ فى ولاية فرجينيا حينما أصدرت احدى المحاكم آمرا بالغاء زواج مختلط ، فلما عرض الموضوع على المحكمة العليا أعادت الموضوع لاستكمال البحث والاجراءات • وأمام عدم امكان القيـــام بواســطة محكمة استئناف الولاية بالمطلوب قررت المحكمة العليا اسقاط القضية من جدول أعمالها ..

وقضية فلوريدا هى ان احدى مالكات المنازل فى شاطىء ميامى شكت فى وجود رجل اسود فى شـــقة تستأجرها امرأة بيضاء ، فلما استدعت البوليس حضر ووجد بداخل الشقة بحار أسود أصله من هندوراس البريطالية ، وأقرت المرأة البيضاء فى محضر البوليس انه يعيش معها وتمارس معه علاقات جنســـية . وطبقا

لقانون ولاية فلوريدا يعتبر هذا جريمة طبقا للنص القائل بأن اشتراك أبيض وسوداء أو أسود وبيضاء فى حجرة فى أثناء فترة الليل هو جريمة . وقضت المحكمة بسجن كل منهما شهرا مع دفع غرامة مالية

وسارع المستشارون القانونيون للجمعية القومية لتقدم الملونين (صندوق الرصيد القانونى والتربوى) الى مساعدتهما وقدموا استئنافا أمام محكمة الاستئناف . ولما كان القانون يضع عقوبة الزواج المختلط على قدم المساواة مع العلاقات الجنسية المختلطة بدون زواج فقد تحول الموضوع الى المحكمة العليا على أساس هل من حق الولاية أن تطبق قواعد واجراءات خاصة بالمواطنين تختلف من شخص لآخر ومن لون لآخر . خاصة ان القانون لا يعاقب على اشتراك رجل أبيض وامرأة بيضاء فى حجرة واحدة فى أثناء الليل ولو بدون زواج قانونى، وكانت وجهة نظر الولاية ان المحكمة فى قضية سابقة أقرت الأخذ بالقانون السارى فى ولاية ألباما منذ عام ١٨٣٣ والذى يضع عقوبات شديدة على الاتصال الجنسى والعلاقات الجنسية بين شخصين من لونين مختلفين . وكان تبرير المحكمة لهذا الموقف هو انه لاتوجد تفرقة

عنصرية فى تطبيق القانون ترتيبا على أن تشديد العقوبة فى مثل هذه الحـــالة يسرى على الابيض والسوداء أو الاسود والبيضـــاء المشتركين فى الجـريمة على قـــدم المساواة • وكانت وجهة نظر المحامين ان المحكمة فى عام ١٩٥٩ رفضت الأخذ بقانون ولاية لويزيانا القاضى بعدم مشروعية اقامة مباريات الملاكمـــة المختلطة التى يتبارى فيها ملاكم أسود وملاكم أبيض • وكان منطق المدافعين فى قضية اريزونا هو نفس المنطق والتبرير الذى سبق انأخذت به المحكمة فىقضية ولاية الباما . وقد رفضت المحكمة قبولهذا التبرير وأصدرت قرارا ضد اجراءات ولاية اريزونا . ولقد تركت الولايات المتحدة فى منتصف عام ١٩٦١ ولم يكن قرار المحكمة العليا قد صدر فيما يختص بقضية ولاية فلوريدا



الفصل الرابع

وميض النيران ..

الأنبياء فى أرض التيه

أوصلتنا الفصول السابقة الى البيئة الجديدة لحياة الزنوج الامريكيين فى المدينة والحضر وهذا صاحب التغير فى الوضع الاقتصادى الامريكى الى الاقتصاديات الرأسمالية القوية فى الصناعة والزراعة فى الداخل وفى التجارة فى الخارج . وجاءت أحداث الحرب العالميـة الأولى لتعلن رسميا ما تم اقتصاديا منذ القرن التاسع عشر . ومنـذ بداية القرن العشرين أو ما قبـل ذلك بسنوات قليلة كانت الزعامات الكبرى فى حياة الأقلية الزنجية قد بدأت فى الظهور والاصـطدام . وفى خلال النصف الأول من القرن العشرين سوف يظهر فى حيـاة هذه الأقلية ثلاث زعامات كبرى تمثل ثلاثة تيـارات

أساسية فى تفكير الحياة الراهنة والحياة المستقبلة بين الزنوج . وفى هذه الفترة سوف تتكون أولي المنظمات القومية العاملة فى داخل هذه الأقلية ..

وقبل ان نشرح أحداث هذه الفترة أضيف ايضاحا لمــا قلت . لقــد عرف الزنوج دور الزعامات ونشاط المنظمات قبل هذا التاريخ . ولكن الرأى الراجح عند جميع الدارسين للمشكلة سواء أكانوا سود اللون أم كانوا بيض اللون . ان الزعامات والمنظمــات السالفة لهذه الفترة كانت اما اقليميــة أو طائفيــة ، بمعنى إنها ظهرت لتعمل بين مجموعة بشرية تسكن فى منطقة معينة أو مدينة معينة أو اتباع كنيسة أو طائفة معينــة . وان الاجمــاع بينهم هو ان هــذه الزعامات والمنظمات لم ينعكس نشاطها ويظهر أثرها على نطــاق قومى يشمل جميع ولايات وبلاد وأراضى الولايات المتحدة كلها . وان كانوا لاينكرون أثرهــا الفكرى فى ميراث تطور الكفاح من أجل قضيــة الزنوج الامريكيين . كما ان الاجماع على ان هذه الفترة حملت فى تركيبها وأوضاعها ما هيأ الفرصة لظهور دور هذه الزعامات ونشاط هذه المنظمــات على نطاق قومى أحس به جميع الزنوج أو

غالبيتهم فى الولايات المتحدة . ومن الأسـباب انتشار طرق المواصلات والاتصال بين مدن الولايات المتحدة ، تركز الفئات المتعلمـة فى المدينـة الحديثة ، ظهور دور العامل الزنجى والطبقة المتوسطة السوداء ، بدء الاجيال المتعلمة فى الظهور بين الزنوج ، انعكاسات الموقف الدولى ومتطلبات الفترة الجديدة التى ترغب الولايات المتحدة فى النشاط فيها دوليا ، تراكم آثار فشل الحرب الاهلية فى حـل مشكلة الزنوج الامريكيين ، طاقات وقدرات الزعامات الزنجية الجديدة ... الخ ..

وأقدم هذه الزعامات والتيارات الفكرية ظهورا هو بوكر واشنطون الذى بلغ أوج زعامته وتأثيره فى حياة الأقليـة الزنجية مع بداية القرن العشرين ، فكان ان تصدى له وصارعه حتى غلبه الدكتور وليم بورجهاردت ديبويس الذى شارك فى قيادة جماعة نياجارا ثم فى تأليف الجمعية القومية لتقدم الملونين «NAACP» عام ١٩٠٩ وفى قول آخر عام ١٩١١ . وفى هذه الفترة ذاتها تألفت الرابطة القومية للعمـل فى البيئـة الحضرية «N.U.L.» عام ١٩١٢ وفى قول آخر عام ١٩١٠ . وما ان نشبت الحرب العالمية الأولى حتى وفد الى الولايات المتحدة

ماركوس جارفى قادما من جامايكا . وبانتهاء الحرب العالمية الأولى كان قد ارتفع الى مركز الزعامة فى نيويورك ثم فى امريكا وألف الجمعية العالمية لتقدم النجرو ونادى بدعوة العودة الى افريقيا . وثارت المعركة عنيفة بين الدكتور ديبويس والجمعية القومية لتقدم النجرو من جانب آخر. وساهم فى جانب الدكتور ديبويس والجمعية القومية زعيم عمالى ذو نشاط فى الحزب الاشتراكى الامريكى وهو فيليب راندولف الذى سنشهد آثار زعامته العمالية بين الزنوج فى فترة ما بين الحربين العالميتين وما بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ نظم عام ١٩٢٥ رابطة عمال عربات النوم . وخلال فترة الحرب العالمية الثانية هدد بالزحف على واشنطون عام ١٩٤١ ؛ ان لم يصدر الرئيس روزفلت تشريعات الفرصة المتكافئة للعمل فى الصناعات المتعلقة بالحرب بدون تفرقة لونية وفى عام ١٩٤٢ تكون مجلس المساواة العنصرية «Care» ثم توقف تأليف الجماعات والمنظمات الجديدة الى السنوات الخمسينيات والستينيات من هذا القرن فظهر مؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين «SCLC» بزعامة مارتن لوثركنيج ، ثم ظهرت لجنة تنسيق العمل الطلابى السلمى

«SNCC» . وبجوار هـذه المنظمات ظهرت منظمات عدة سوف نشير اليها . منها ما ظهر نشاطه فى نيويورك على هيئة أحزاب يسارية للزنوج ، ومنها ما ظهر فى جمعيات وحركات سوداء . وكل هـذا غير جماعة أمة الاسلام الزنجية التى سنفرد لها فصلا خاصا ..

وقبـل ان نستطرد فى تفاصيـل النشاط والخلافات الفكرية بين هذا العديد من المنظمات والزعامات نذكر ان الفروق الاساسية بين هذه المنظمات تظهر فى موقفين أولهما : تحديد من يشترك فى تنظيم وعمـل المنظمة ، فجميع المنظمات تقوم على أسـاس عمـل مشترك بين الامريكيين البيض والسود من ناحية التنظيم ومن ناحية التمويل فيما عدا ماركوس جارفى وجمعيته وايليا محمد وجماعة أمة الاسلام . وثانى هذه المواقف هو ما يتعلق بالتكتيك والاسلوب والهدف الخاص بالعمل السياسى السلمى وغير السلمى ، القانونى وغير القانونى .. الخ . من ناحيـة الهدف هل هو الاندماج أم الفصـل بين الأجناس .. الخ . وسوف تبدو مناقشة هـذا الموقف فيما يلى من الدراسة ..

كان بوكر واشنطون قد ارتفع الى مركز الصدارة فى

الربع الاخير من القرن التاسع عشر بين الزنوج الامريكيين من حيث المركز الاجتماعى والمركز الاقتصادى ، ومن ثم انعكس هذا على علاقاته بالمسئولين فى الحكومة الفيدرالية وفى دوائر المسئولين فى ميادين الاعلام والحكم عامة ، وأسهم فى انشاء معاهد دراسية للزنوج خاصة فى ولاية جورجيا ، وتوطد مركزه بصداقته مع البيت الابيض الامريكى ، وألف كتابا يؤرخ فيه لحياته باسم « الارتفاع الى أعلى من مستوى الرق » ويقدم فى كتابه صورة حية لكل زنجى يريد أن يرتفع من القاع الى الطبقة البورجوازية ويصبح ذا شأن وأوضاع مالية مريحة . وارتبط اسمه بالدعوة الى أن يتعلم الزنجى حرفة أو يتقن مهنة يدوية أو نصف يدوية الأمر الذى يتيح له ولأولاده من بعده مستوى معيشة عادية . وكان يرتب على أفكاره هذه ان تعليم الزنوج الحرف والتدريب المهنى انما يجعلهم فى أمان من ثورة وغضب البيض واضطهادهم اذ كانوا يرفضون قبول أية وسيلة تؤدى بالزنجى الى ان يخرج من وضعه الطبيعى الذى تصوروه ميراثا عن أسلافهم . وله عبارة مشهورة فى ان التقدم الامريكى يشبه اللعب على البيانو لابد لابداعه من

استعمال الأصابع السوداء والأصابع البيضاء عند العزف . فاذا تم تطبيق هذا على الواقع الاجتماعى الامريكى أصبح معناه اقرار الوضع الراهن فى المجتمع الامريكى ، وان مستقبل الزنجى هو فى تقديس العمل اليدوى والحرفة والتدريب على استعمال الآلة الميكانيكية مع تربية اخلاقية روحية . وحينما أنشأ معهد تاسكجى فى ولاية جورجيا أعلن ان المعهد يعلم القلب واليدين فقط ولايعلم الفكر. ونادى الزنوج الامريكيين فى خطابه المشهور الذى ألقاه أمام البيض قائلا : « ضعوا احمالكم حيث أنتم وقفوا للعمل » ..

ويعلق فرازير على تحمس البيض لبرامج يوكر واشنطون وتأييدهم لمناهجه التربوية ، فيقول :- ان هذا دليل على نظرتهم الاحتقارية للزنجى . فهم يرونه فى وضع أدنى من أبنائهم ولهذا يتحمسون لتعليمه التدريب المهنى والحرف الصناعية ، على حين ان مدارسهم ومؤسساتهم التعليمية لا تتطلب من أبنائهم هذا النوع من التعليم ، وفى هذه الفترة من العمر بالذات ، ويزيد الدارسون الآخرون من بين الزنوج للقضية على ان يوكر واشنطون بحصوله على تأييد البيض وتحمسه

لدوام هذا التأييد كان يعبر عن آمال ودور البورجوازية السوداء وما ترسمه لنفسها من دور ومستقبل فى المجتمع الامريكى . ويحكم البعض على حركته بأن ما أصابها هو نفس الضعف الذى أصاب كل المنظمات السوداء الأخرى حين تعاونت مع البيض ، وان هذا التعاون زرع فى قلوب الجماهير الزنجية بذور الشك والخوف من دور هؤلاء البيض . ويضيف البعض ان بذور الشك والخوف والكراهية كانت موجودة وليست فى حاجة الى زراعة جديدة أو نمو جديد . ولهذا علق عليها رالف بانش حينما كان يساعد جنرميردال فى دراسته عن النجرو فى امريكا بأنه لم تكن لها قاعدة جماهيرية ومثل هذا قاله أيضا فى ذلك الوقت على الجمعية القومية لتقدم الملونين . ويعلق جنرميردال على هذا الموقف عامة (التعاون بين الزنوج والليبراليين البيض) بأن التركيب الابيض للسلطة قد امتص فى داخله زعامات الزنوج وطاقاتهم بأن أظهر اهتمامه وعنايته الخاصة ببعضهم دون البعض الآخر ، ومن ثم فشعور اليأس هو الجو الغالب فى محيط القضية ، وانه ما دام العمود الفقرى للعمل لقضية الزنوج لا يصل الى أكثر من مساومات ومهادنات

مع البيض الراغبين فى الحلول النصفية فسيظل الزنوج طول العمــر يحتلون دور الشريك الأصــغر الضعيف الصامت فى تحالف زنجى ليبرالى ، يظهر على قمته العليا شخص أسود اللون ولكنه فى الحقيقة خاضع خضوعا مطلقا لأحكام البيض وخططهم التكتيكية والاستراتيجية ويضيف الأستاذ جيمس ويلسون فى كتابه عن «سياسات النجرو » بأن هؤلاء الزنوج هم أغراض وأهداف العمل المدنى فى الولايات المتحدة . فالأشياء تصنع لهم وبواسطة غيرهم ، وسبب هذا هو انهم نجرو وانهم لا يصنعون شيئا لأنفسهم وبأنفسهم ..

وفى مطلع القرن الحالى أعلن الدكتور ديبويس رفض هذا الاتجاه الذى نادى به بوكر واشنطون ناعتا اياه بأنه مهادنة للبيض وأكثر من هذا اعتبره خيانة للقضية السوداء . واعتبر دعوة بوكر واشنطون دعوة لخلق بورجوازية سوداء وتأكيد وجودها وسيطرتها ، وان هذه البورجوازية السوداء تقف حيث هى فى وســط الزنوج تعمل وتستثمر وتكسب وبهذا تغرق فى أطماعها الخاصة وتنسى القضية . وبهذا دعا ديبوا الى تعلم الفكر ومناقشة النظريات والفلسفات وأكد ان أى تقــدم فى

حياة الزنوج الامريكيين لن يكون الا بالغاء التفرقة العنصرية ومنحهم المساواة المطلقة وتمتعهم بالحقوق والحريات الأساسية المماثلة لحريات وحقوق الرجل الأبيض ، وقال : ان الطريق هو الاندفاع الى التعليم والثقافة بين شباب الزنوج الامريكيين . وكان بوكر واشنطون يرى المعركة فى داخل امريكا على أساس أفكاره التى عرضناها وكان ديبوا يراها أيضا فى داخل المجتمع الامريكى على أساس أسبقية مبادىء العمل السياسى . ولكنه زاد على هذا بأن روّج لفكرة الجامعة الافريقية (بان افريكانزم) على اساس تضامن الجنس الزنجى فى العالم أجمع للوقوف ضد التفرقة العنصرية وعلى أساس منحهم حق المساواة والفرص المتساوية مع غيرهم من الأجناس . وترتيبا على هذا حضر الدكتور ديبويس مؤتمر الجامعة الافريقية الأول فى لندن عام ١٩٠٠ ثم دعا باسم الجمعية القومية لتقدم الملونين الى عقد مؤتمر الجامعة الافريقيــة فى باريس عام ١٩١٩ ، وتوالت بعد هذا المؤتمرات حتى انعقد آخرها عام ١٩٢٧ , وحالت الأزمة الاقتصادية العالمية دون توالى عقد المؤتمرات ، حتى عقد مؤتمر الجامعة الافريقية فى

مانشستر عام ١٩٤٥ وحضره بجوار الزنوج الامريكيين زعماء شباب وطلاب افريقيا لأول مرة ..

وقد أثرت أفكار الدكتور ديبويس فى خلق حركة نشاط فى أوساط المثقفين الزنوج فى مطلع هذا القرن . الأمر الذى جعله يدعو الى عقد مؤتمر بجوار شلالات نياجارا عام ١٩٠٥ . واطلقت الجماعة التى حضرت المؤتمر على نفسها اسم حركة جماعة نياجارا . وتوالى عقد المؤتمرات عام ١٩٠٦ وعام ١٩٠٧ ، ثم حدث اتصال بين هذه المجموعة وجماعات من الليبراليين البيض فتألفت منهم جميعا الجمعية الوطنية لتقدم الملونين عام ١٩٠٩ ، وفى قول آخر عام ١٩١١ . والجمعية تمثل تحالفا بين الليبراليين البيض والمثقفين السود . وأول نقد لتكوين الجمعية هو إن كل اعضاء اللجنة العليا فى تنظيمها او ما يشبه مجلس الادارة كانوا من الليبرالبين البيض فيما عدا الدكتور ديبويس الذى تولى رئاسة تحرير مجلة الجمعية المعروفة باسم الأزمة « كرايزز » ..

وقد التزمت الجمعية القومية لتقدم الملونين منذ يومها الأول خط العمل القانونى فى المحاكم لالغاء تشريعات معينة أو مساندة قضايا للحصول على أحكام معينة

تتعلق بتحسين أوضاع الزنوج . وفى الفترة التى شارك فيها الدكتور ديبويس فى نشاط الجمعية (استقال من عضويتها عام ١٩٣٤) تكون لها رأى عام بين المثقفين وذوى الياقات البيضاء . وقد دخلت الجمعية فى صراعات فكرية عنيفة مع ماركوس جارفى وجمعيته العالمية لتقدم النجرو ، ومع الحزب الشيوعى الأمريكى . وقد وجه نقد عنيف وطويل الى هذه الجمعية ودورها فى حياة الزنوج الامريكيين خاصة فى سنواتها الأخيرة . وقد أشرنا الى رأى رالف بانش بالنسبة للجمعية فى السنوات الاربعينيات من هذا القرن بأن سبب ضعفها فى رأيه هو تنظيمها على أساس اختلاط الأجناس الأمر الذى دعاها الى القناعة برد فعل العمل الأبيض . وان الدور الأعظم فى نشاطهـا يأتى نتيجة مبـادءة البيض من ليبراليين ومبشرين ووعاظ كنائس ، مع تمسك شديد بأن تظل المنظمة فى دائرة هيبة الاحترام والمسئولية بمعنى عدم الخروج عن القواعد الاساسية للسلوك التى رسمها البيض للمجتمع والعمـل السياسى فيه . ومن الأمور المثيرة للعجب فى شخصيات الزعامات الزنجية ان رالف بانش تخلى عن آرائه فأصبح عضوا فى مجلس ادارة

الجمعية ولما هاجمها آدم كلايتون باول النائب الزنجي لنيويورك عام ١٩٦٣ بنفس المنطق رد عليه بانش ردا عنيفا متهما اياه بأنه عنصري التفكير وألعوبة في يد دعاة الحرب العنصرية بين الناس

وقد تعرض لوماكس وهو زنجي أيضا لهذه الجمعية وانتقدها قائلا بأن كثيرا من زعاماتها والمسئولين فيها لا يلتزمون بخطهما السياسى العام ، وانهم يفتقدون القاعدة الجماهيرية وليس لهم كزعماء للمنظمة اى عمل جماهيرى وقال ان المعارك القانونية والسياسية التى خاضتها الجمعية جعلتها اليوم ساكنة راكدة النشاط يتزعمها المحافظون . ويسيطر على جميع فروعها فى الولايات المتحدة البورجوازيون السود والليبراليون البيض . كما ذكر لوماكس فى كتابه « ثورة الزنوج » ان اليهود يشكلون النسبة الكبرى من هؤلاء البيض العاملين فى المنظمة وتساءل : لماذا ينضم اليهود الى الجمعية على حين ترفض جميع الجمعيات اليهودية قبول عضوية أو زعامة أمريكى غير يهودى الدين . وضرب مثلا بما حدث عام ١٩٦٠ حين اعتزل ثيرجود مارشال عمله كرئيس لصندوق الرصيد التربوى والقانونى التابع للجمعية (وهو من ناحية

الوضع التنظيمى والقانونى منظمة قائمة بذاتها منذ عام ١٩٥٥) فقد خلفه جاك جرينبرج وهو يهودى الدين . وأثار هذا انتقادات عدة على أساس ان هناك من الزنوج من يصلح لشغل هـذا المنصب . ويذكر لوماكس ان الرئيس القومى للجمعيـة هو آرثر سينجارن يهودى الدين وفى هيئة مجلس الادارة يوجد أعضاء كثيرون من اليهود . وكذلك فى هيئة صندوق الرصيد التربوى والقانونى ، كما أثار الكاتب الذى نستند الى أقواله ان النقابات العمالية البيضاء والجمعيات الطائفية المتعددة للأقليات فى الولايات المتحدة تمول الجمعيـة القوميـة لتقـدم الملونين . ومن ثم يكون لها دور فى نشـاط وسياسة هذه الجمعية . ويختتم لوماكس مناقشته هذه بأن اليهود ضد مبـدأ الاندماج والتذويب فى المجتمع الامريكى على حين ان الزنوج يطلبون هذا الوضع وهذا المبدأ . وان مفهوم الزنجى عن الوطن يتناقض مع مفهوم اليهودى الصهيونى عن الوطن . وانه توصـل الى ان حركة الحقوق المدنية من وجهة نظر اليهود قضية انسانية وليست قضية خاصة بالزنوج . ولذلك فهو يتساءل : كيف يتم هذا التعاون ؟ .. ولمصلحة من ؟ .. وما هى

أهدافه ؟ ..

وعموما لايوجد خلاف فكرى أو تنظيمى بين الجمعية القومية لتقدم الملونين وبين عدد من الجمعيات والهيئات الأخرى وهى الرابطة القومية للعمل فى البيئة الحضرية ومجلس المساواة العنصرية ومؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين ولجنة تنسيق العمل الطلابى والسلمى. وفيما غير هذا يتناقض عمل هذه الجمعيات والهيئات مع غيرها من الجماعات الراديكالية واليسارية وجماعة أمة الاسلام . وأخيرا تم تكوين نوع من التنظيم الذى يضم زعامات هذه الجمعيات المتفاهمة مع الجمعية القومية لتقدم الملونين ويشغل منصب سكرتيره العام بايارد رستين محرر مجلة ليبريشن ، والسكرتير العام الحالى للجمعية القومية لتقدم الملونين هو روى ويلكنز ..

واذا انتقلنا بعد ذلك الى الرابطة القومية للعمل فى البيئة الحضرية نجدها أيضا قامت على أساس تحالف زنجى ليبرالى أبيض . وعملها أقرب الى نشاط الخدمة الاجتماعية والارشاد الاجتماعى وحل مشاكل الاسكان والعمل والعلاقات الاجتماعية . وهى معنية أولا بالبحث عن وظائف للزنوج وحل مشكلاتهم عندما يصلون

للمدينـــة لأول مرة ويمولها البيض . ولم يظهر لها أى نشاط قانونى مطلقا كما ان نشاطها السياسى معدوم . ومن ناحية مجالهـــا المتخصص تعتبر أكبر الجماعات فى هذا الميدان . ويحكم عليها لوماكس بأنها فقدت دورها السياسى واقتصرت على ما يشـــبه مكتب التوظيف . وسكرتيرها العام هو وايتنى يونج

ننتقل بعد هذا للحديث عن ماركوس جارفى ودوره فى تاريخ حركة الزنوج الامريكيين ولقـــد أرخ لحياته الكاتب الامريكى دافيد كورونون تحت اسم « النبى موسى الأسود » . وجميـــع الدراســـات الأخرى مع اختلافها مع بعضها ومع هذا المؤلف ، فان الاجماع هو ان اسم ماركوس جارفى هو أقوى الاسماء وأشهرها فى حركة الدعوة للعودة الى افريقيا . هذا مع انه لم يضع قدمه مطلقا على أرض افريقية ولم ينجح فى تهجير أية مجموعة بشرية من الزنوج الامريكيين الى افريقيا أرض الآباء والأجداد كما كان يسميها . ولقد منح جارفى نفسه لقب الرئيس المؤقت لافريقيا وبعد نفيه من أمريكا عاد الى جامايكا ثم استقر فى لندن حيث مات عام ١٩٤٠ ، وهناك منح نفسه لقبا جديدا هو أسد نوميديا . ويمكن

القول بدون خطأ ان حركة جارفى ودوره قد انتهيا بخروجه من أمريكا وان ظلت جماعات متناثرة فى أمريكا وفى البحر الكاريبى تدين له بزعامتها ويؤمن بعضها بعودته على نمط المسيح المنتظر أو المهدى المنتظر فى المسيحية والاسلام . وسوف نناقش انعكاس آثاره الفكرية فى فصل قادم عندما ندرس فكرة القومية السوداء فى أمريكا والجماعات الداعية لها ..

ولقد أثار ظهور جارفى وعمر حركته القصير فى أمريكا عدة موضوعات تتعلق بالدعوة للعودة الى افريقيا ومغادرة الأرض الامريكية التى لا مستقبل فيها للرجل الأسود . وأول هذه الموضوعات هو انه ادخل المواطن العادى فى النشاط السياسى الزنجى لأول مرة . فلقد وصل عدد أنصاره فى أوج نشاطهم الى ستة ملايين عضو وكانت غالبيتهم الساحقة من سكان المدن ومن الزنوج البسطاء ذوى المهن والحرف الصغيرة والذين كانوا يعيشون فى جيوش البطالة مددا طويلة . وكان سلاح جارفى فى اجتذاب هؤلاء الزنوج فى هذا الشكل الواضح الى ميدان العمل السياسى ، هو انه قدم اليهم أملا يشفيهم من اليأس المرير القاتل الذى لف حياة الزنوج

بانتهاء الحرب العالمية الاولى . فقد عاشوا أياما متفائلة مع وعود ويلسون وأمانى عالم الديموقراطيـة والحرية بعد الحرب وأحلام المساواة وانقضاء مظالم العنصرية والتفرقة . فاذا بالحرب تنتهى ويجتـمع المنتصرون فى فرساى لتقسيم العالم ، واذا بالمجتمع الامريكى يعود سيرته الأولى قبل الحرب ، وتشتد حملة التفرقة العنصرية وتشهد مدن الشمال الامريكى حوادث اضطهاد الزنوج والاضطرابات العنصرية خاصـة عام ١٩١٩ ، وتعـاود جمعية كلوكس كلان نشاطها فى ارهاب الزنوج وقتلهم مع غيرها من الجمعيات العنصرية البيضاء ..

والذى هيأ لجارفى هذه الامكانية فى تجنيد الأنصار على نطاق جماهيرى هو الهجرة الزنجية من الجنوب الى مدن الشمال والوسط والغرب قد ارتفعت كما أشرنا من قبل ، وفى نفس هذه الفترة كانت زيادة عددهم فى بيئة المـدن والحضر قـد أثارت مشكلات العـلاقات الاجتماعية والاسكان والعمل وتربية الأطفال .. الخ . وكانت الجمعية القومية لتقدم الملونين وجمعية العمـل فى البيئة الحضرية قد باشرت نشاطها مع بداية العقـد الثانى من هذا القرن ..

أما الموضوع الثانى فهو ان جارفى اشترط فى أعضاء جمعيته أن يكونوا من الزنوج ذوى الدم النقى أى انه رفض عضوية الخلاسيين . واقتضاه هذا أن يرفع شعار الدم النقى والجنس الخالص وأن يهاجم ذوى الدم المختلط على أساس انهم صورة باهتة للرجل الأبيض ورمز جريمته نحو الجنس الزنجى . وان هذه التفرقة ضرورية كمقدمة للتفرقة بين الرجل الابيض وظله الخلاسى وبين الجنس الأسود الذى يجب ان تكون له أرض خاصة يعيش فيها منفردا . وان هذه الأرض هى افريقيا التى تتكون فيها أمة سوداء لها وطن خاص . وهذا الموضوع الثانى أثار على جارفى الهجوم من جانب الخلاسيين وهم كما سبقت الاشارة يكونون الطبقة البورجوازية وفئات المثقفين بين الزنوج . وقد تبادل الطرفان شتائم مقذعة واتهامات عديدة ، وقاد الهجوم ضد جارفى الدكتور ديبويس ، وفيليب راندولف بجوار الجمعية القومية لتقدم الملونين وجمعية العمل فى البيئة الحضرية . واتهموا جارفى بأنه مغامر انتهازى لايعرف شيئا عن حقائق التكوين البيولوجى والتاريخى للزنوج الإمريكيين ، وانه يقدم مخدرا لهؤلاء الزنوج فى صورة

الوعد بأفريقيا وطنا خالصا للجنس الأسود ، وان المستقبل الحقيقى أمام الرجل الأسود هو أن يكافح فى أمريكا وأن ينتصر ضد التفرقة العنصرية لا أن يهرب الى عالم خيالى لايمكن تحقيقه ، ورد عليهم جارفى بأن الزنجى لن يتحرر الا اذا كون أمة لها حضارة ، وانه ليست هناك حدود لأزمة الزنوج المعاصرة وقتذاك الا اذا تحررت افريقيا ..

وقد أدخل جارفى افريقيا فى حياة القضيـــة الزنجية بشكل أوضح وأعنف مما حاوله من قبله دعاة الهجرة الى افريقيا وفى مقدمتهم الجمعية الامريكية للاستعمار التى أنشأها الليبراليون البيض عام ١٨١٦ وأسهمت فى انشاء ليبريا فى افريقيا . ولقد أدخلها جارفى بقوة لأنه كان يحلم بجنس اســود نقى فخور بســواده لايشعر بالنقص تجاه نفسه ولا يشعر باحتقــار أحد له بسبب لونه الاسود . لقد كانت صيحته المــألوفة فى جماهير أنصاره هى :

« انهضوا أيها الجنس المختار .. انكم تستطيعون تحقيق ما تريدون اذا ما تحركتم وامتلــكتم الارادة الحرة » ..

ولقـد أوغل جارفى فى التخيلات والتهيؤات وجمع أموالا عديدة أنشـأ بها شركة ملاحيـة تحمل اسم « النجمة السوداء » وهى الشركة التى سوف تحمل الزنوج الى افريقيا . كما صنع لجمعيته علما اسـود وألف فرقا من أنصاره أطلق عليها أسماء فيها صـفة السواد . ومنح أنصاره ومسـاعديه ألقـابا للتعظيم والتشريف تحمل أسماء افريقيا وصفة السواد . وكان يستعرض أنصار مؤيديه فى شوارع هارلم فى تشكيلات شبه عسكرية مع أنواع من الموسـيقى الحماسيـة . وعلى الرغم من كل هـذا فقد انهارت أحلامه حينما رفضت ليبريا استقبال بعثة أوفدها لتبحث امكانيات تهجير الزنوج الامريكيين اليها . وبعـد ذلك اتهمـه أعداؤه بتبـديد الأموال التى جمعهـا . وفعلا أثبت القضاء الاتهام وذهب جارفى الى السجن . وعفـا عنه الرئيس الامريكى عام ١٩٢٧ بشرط مغادرة الولايات المتحدة وفعلا غادرها الى جامايكا وانتهى أمره سياسيا بعد حين ..

وقد كثرت التعليقات على حركة جارفى ودعوته . فيراها الدكتور رالف بانش دعوة للهروب المطلق وقد

أثبت رأيه فى دراسة جنرميردال عن الزنوج الامريكيين، وعلى نقيضه اشاد الرئيس نكروما بدور جارفى فى تأريخه لحياته الذى نشره باسم « غانا » فقد ذكر انه تأثر به حينما كان يطلب العلم فى أمريكا . وقد ظل الدكتور ديبويس مصرا على موقفه فى معارضة جارفى على أساس ان افريقيا للافريقيين وليس على اساس العودة الى افريقيا كما دعا جارفى . وهناك اتهامات عديدة حول جارفى تقول بأنه تسلم أموالا بصفة سرية من جمعيات عنصرية بيضاء يهمها نجاح حركة العودة الى افريقيا وتهجير الزنوج الامريكيين من الولايات المتحدة ..

وسنعود مرة ثانية الى مناقشة آراء جارفى الخاصة بالقومية السوداء فى امريكا عندما نناقش أفكار جماعة أمة الاسلام فى دعوتها الى الفصل بين البيض والسود فى امريكا ..

وفى دراسة هذه الفترة لابد من الاشارة الى آثارها الأدبية والفكرية بوجه عام ، فقد انعكست آثارها بظهور جماعات من الأدباء والكتاب والشعراء والرسامين والذين يطلق عليهم اسم مدرسة « البعث

والنجرو الجديد » . « رينسبانس اند نيو نجرو » .
وهذه المدرسة لم تشترك مطلقا فى النشاط السياسى والصراع التنظيمى الذى أشرنا اليه فى فترة النصف الأول من القرن العشرين . وأفراد هذه المدرسة أشادوا بافريقيا وغنوا للزنجى وترنموا بروعة اللون الاسود . وهذه المدرسة هى المدرسة الرومانسية التى غنت للماضى وللأحلام الرومانسية وأعلنوا مولد الزنجى الجديد . واستخدموا أساليب جديدة فى الكتابة والتعبير وطرقوا موضوعات عدة منها تعظيم البدائية ودور الزنجى الحضارى ومشكلة الزنجى المعاصر ... الخ . ونذكر من بينهم رينشارد رايت ، ورالف ايليسون ، ولورين هانزبرى ، وجيمس بالدوين ولانجستون هيوز ، وكلود ماكاى ... الخ ..

واحتراما لعدم تخصصى فى الدراسات الأدبية والفنية لا أستطيع الاشارة اليهم بأكثر من هذا وأدعو الدارسين المتخصصين الى تناول الموضوع ، خاصة وان الاستاذ سانت كليردريك (زنجى امريكى متخصص فى الدراسات الافريقية الاجتماعية) يرى ان جذور الدعوة للزنوجة (الزنجية فى بعض التراجم العربية)

ـ أى نجرتود ـ تأتى من ان المثقفين فى جزر الهند الغربيــة وبالــذات فى هاييتى تأثروا فى الســنوات العشرين فى هــذا القرن بموجة البعث الفكرى التى اجتاحت الزنوج الامريكيين فى سنوات الحرب العالمية الاولى وما بعدها . وقد حدث بعد ذلك تغير جذرى فى المناخ الفكرى الامريكى وبالذات لعــدد كبير من هؤلاء الادباء والشــعراء الذين أشرنا اليهم . ولكن ظل المنــاخ الثقــافى والفكرى فى هاييتى والمارتينيك وجواديلوب كما هو حتى ورث الدعوة المثقفون الزنوج فى باريس ثم عبرت البحر الأبيض لتنتشر فى افريقيــا الناطقة باللغة الفرنسية . وهو فى اشارته الخاصة بأمريكا انما يقصد الفترة التاريخية التى تعرضنا لها بالدراسة فى هذا الفصل . ومن ناحيــة أخرى أشــار الرئيس سنغور الى هذا عام ١٩٦٢ عندما زار الولايات المتحدة فى حفل أقامه الرئيس الراحل كيندى فقال ان شعراء وكتاب فترة الانبعاث فى السنوات العشرينيــات من زنوج امريكا هم رواد وملهمــو القــائلين بدعــوة النجرتود حاليا . وقيمة هــذه الدعوة من الوجهــة الفكرية انها اصبحت علما على مجموعة من الافريقيين

الناطقين باللغة الفرنسية ..

وبالنسبة للمعركة الثانية الكبرى التى شهدتها هذه الفترة ، وهى المعركة الفكرية والتنظيمية التى ثارت بين الجمعية القومية لتقدم الملونين وقسم هام من المثقفين الزنوج من جانب وبين الحزب الشيوعى الامريكى من جانب آخر . وبدون اغراق فى التفاصيل نجمل الاطار العام للمعركة فى النقاط التالية :

ان اتصال الزنوج بالفكر الاشتراكى سابق على الحرب العالمية الاولى . فقد كان الحزب الاشتراكى الامريكى يمارس نشاطا واسعا ، وهذا قد اجتذب بعض المثقفين الزنوج مثل : فيليب راندولف ، وشاندلر اوين ثم انضم اليه الدكتور ديبويس عام ١٩١١ . ولكن جماهير الزنوج الامريكيين لم تسهم فى النشاط الجماهيرى للحزب ، ومع هذا كانت المنظمات الزنجية والزعامات الزنجية تعمل بجوار هذا الحزب ، ولكن قيام الثورة البلشفية فى روسيا القيصرية عام ١٩١٧ ، أدى الى انشقاق هذا الحزب تماما كما حدث فى باقى العالم وظهر الحزب الشيوعى الامريكى . وفى عمل الحزب الشيوعى لتجنيد الانصار من بين جماهير

الزنوج الامريكيين تصادم مع المنظمات والجمعيات الزنجية وفى مقدمتها الجمعية القومية لتقدم الملونين وأيضا اصطدم الحزب بقيادات الجمعية وخاصة الدكتور ديبويس ..

وثارت نقط خلاف عديدة يمكن ان نجملها فى موضوعين : اولهما وحدة الطبقة العاملة ، وثانيهما اقتراح انشاء ولاية زنجية خاصة بالزنوج الامريكيين. وفى كلا الموضوعين فشل الحزب الشيوعى ومرجع فشله فى الموضوع الاول ان ميراث الفصل والتفرقة بين الابيض والاسود لم يكن شيئا هينا فى المجتمع الامريكى كما ان النقابات البيضاء لم تقبل مبدأ الاندماج ، ومن جانب آخر كانت الاداة الحكومية الامريكية باطشة فى عنفها وفى مطاردتها للشيوعيين خاصة وان عددا كبيرا من زعمائهم كانوا من الاقليات القادمة من وسط وشرق اوروبا ، وهؤلاء تم ترحيلهم خارج البلاد فى أوائل السنوات العشرينيات وفى اوائل السنوات الثلاثينيات . وبالنسبة للموضوع الثانى اقترح الحزب انشاء الولاية الزنجية ورفعوا هذا الشعار عاليا خاصة عام ١٩٢٨ ، وقد تصدت لهم

قيـادات الحركة الزنجية التى اشرنا اليهـا من قبـل وعاركوهم عراكا فكريا شديدا . وقد انعكس هـذا العراك فى صورة اتهامات متتالية للدكتور ديبويس اذ نعته الشيوعيون بالبورجوازية وانه من النخبة المثقفة المنفصلة عن الجماهير . وسبب هذا ان الدكتور ديبويس هاجم نظرية الصراع الطبقى قائلا ان العمال الامريكيين البيض يكرهون العمال الامريكيين الزنوج ويمنعونهم من الانتظام فى المنظمات والنقابات العمالية ، وان ثورة البروليتـاريا البيضاء لا تحل مشكلات البروليتـاريا السوداء وانه لابد من الاقرار بوجـود تقسيم طبقى وتقسيم لونى ..

وعلى الجانب الآخر من الصراع نجد زعيما زنجيا آخر هو جورج بادمور ينضم الى الحزب الشيوعى عام ١٩٢٠ وذهب الى الاتحاد السوفييتى وترقى فى داخل المنظمات الشيوعية الى ان اصبح رئيس مكتب النقابات العمالية التـابع للكومنترن (البروفينترن) واصبـح سكرتير اللجنة الدولية للنقـابات العماليـة السوداء ورئيس تحرير مجلة العامل الزنجى . ولكن بادمور بدأ يشعر باختلافات فكرية مع الشيوعيين منذ عام ١٩٣٠

حتى انفصل عنها عام ١٩٣٥ . واصدر بيانا فى الصحف اثر تصفية هذه اللجنـــة الدولية يتهم فيـــه ستـــالين بتصفيتها اثر تفاهم بينه وبين الدول الغربية صاحبـة المستعمرات فى افريقيا وجزر الهند الغربية تمشيا مع تكتيكات الجبهة الشعبية التى نادى بها الشيوعيون فى تلك الفترة ضد النازية والفاشية . وقد ذكر بادمور فى بيانه المنشور فى مجلة الازمة التى تصـــدرها الجمعية القومية لتقدم الملونين ان هـــذه التصـــفية تمت بدون استشارة العاملين فى اللجنة والقيادات الزنجية فىالحركة الشيوعية والنقابية الدولية ..

وقد شرح بادمور موقفـــه فى انه تبين ان الحركة الشيوعية قد ضحت بقضية اثيوبيا ومقاومتها للعدوان الايطالى فىسبيل المحافظة على مصالح الوطن الاشتراكى الأب وهو الاتحاد السوفييتى . وهذا قد أدى به الى استنتاج ان الاتحاد السوفييتى يتخلى عن تأييدشعوب المستعمرات ما دام هذا فى مصلحته الدولية . وايضا وصـــل به الاعتقاد الى ان الماركسية هى الابنة البكر لتجربة غرب اوروبا فى التطور التاريخى الاجتماعى ، وانها عموما لا تصلح للتطبيق فى المســائل والمشكلات

الاستعمارية التى تتصل بالشعوب السوداء والصفراء

ونحن نذكر الدكتــور ديبويس وجــورج بادمور لأنهما مارسا تأثيرا هاما فى التفكير الاشتراكى لدى عديد من زعماء افريقيا الناطقة باللغة الانجليزية وفى مقدمتهم الدكتور نكروما وزعماء نيجيريا وتنجانيقا وكينيا ..

وايضا ظهرت آثار موقف بادمور فى انضمام عـــدد من الزعماء الزنوج اليه مثل ماكونين من غيانا البريطانية وهاريسون من الولايات المتحدة وكينياتا من كينيا ، وجيمس من ترينيداد ، وقد أنشأوا فى لنــدن حركة تقوم على اساس الايمان بالفكر الماركسى بدون التزام بالتجربة الســوفييتيــة والخط الســياسى للحكومة السوفييتية والحزب الشيوعى السوفييتى . وكان هذا قبل انعقاد مؤتمر مانشيستر عام ١٩٤٥ وهو المؤتمر الذى تقابل فيه كل هؤلاء الزعماء مع زعماء الشباب والطلاب القادمين من افريقيا ، والذى انعقد تحت اسم مؤتمر الجامعة الافريقية وتفصيل هذا الموضوع بكتاب « فكرة الوحدة الافريقية » الذى نشرته بالقاهرة عام ١٩٦٥

الفصل الخامس

استيقظوا أيها الموتى..

الثورة على الأبواب

آثار الحرب العالمية الثانية وما بعدها من أحداث على المسرح العالمى وفى داخل كل دولة ـ تظهر أيضا فى قضية الزنوج الامريكيين ، فهم بشر كغيرهم من الناس فى العالم ، ومجتمعهم الذى يعيشون فيه قد أحس آثار هذه الحرب وعاش أحداث عالم ما بعد الحرب ونجمل هذه الآثار فيما يلى بالنسبة لدراستنا الحالية :

أولا : نتج عن دخول الولايات المتحدة الحرب ان أرسلت قواتها العسكرية فى اعـداد ضخمة الى جميع ميادين الحرب ، كما ان صناعاتها قد نمت نموا ضخما ، وقد عبأت كل قواها ومواردها لصالح هذه الحرب .

ترتب على هذا ان اعدادا كبيرة وفى صورة مستمرة من الزنوج الامريكيين دخلوا دائرة هـذه الحـرب اما كمقاتلين فى الجيوش واما كعاملين فى الخدمات المطلوبة للحرب خارج أمريكا واما كعمال يشتركون فى سـد حاجة هذه الصناعات وهذه الطاقات الى قوى بشرية لتشغيلها . وقد سبق ان شرحنا هجرة الزنوج من الريف والبيئة الزراعية الى المدينة والحضر ودلت الارقام على انهم هاجروا الى المدن الحديثة فى الجنوب وفى خارج الجنوب . وهذه الهجـرة قد أوجدت من المشـكلات الحديثة ما بدأت آثاره تنمو وتتعصر فى هذا المجتمع الامريكى الذى كان فى أعماقه يؤمن بالتفرقة ويحتقر الزنجى ويرى قدراته وطاقاته فى صورة منحطة ، وكان فى نفس الوقت مضطرا تحت ضغط الحاجات العسكرية والاقتصادية التى تتطلب الأيدى العاملة والقوى البشرية الى ان يعترف بدورهم فى العمل والانتاج .

وكما قلنا فان الزنوج الأمريكيين تكدسوا فى قلب المدينة « الغيتو الأسود » ، وترتب على هذا مشكلات الاسكان والتعليم والتـدريب ورفع مستوى المعيشة وزيادة الدخل وبجانب هذا مشكلات البطالة والانحراف

.. الخ . وفى هذه البيئة وهذا المناخ لم يحمل هؤلاء الزنوج ابناء المدينة المقيمين فيها أى ولاء سياسى لأى منظمة زنجية من التى اشرنا الى تكوينها فيما سبق من التاريخ . كما ان تفكيرهم والضغوط التى عانوها لم تقبل الانتظام والانضباط اللازمين للولاء لهذه المنظمات القديمة ، ومن هنا فكر فريق من الشباب الزنجى مع فريق من الليبراليين الامريكيين فى أن يواجهوا الموقف بخطوة أكثر راديكالية مما سبق ، ولهـذا تألفت عام ١٩٤٢ منظمة زنجية جـديدة باسم « مجلس المسـاواة العنصرية » وتحمل هذه المنظمة كل سـمات المنظمات السابقة ولكنها تزيد عليها فى ان الذين اقاموها يؤمنون بامكانيات الأخذ بنماذج من المقاومة السلمية فى سبيل الغاء التفرقة العنصرية . ويقول جيمس فارمر الرئيس القومى لهـذه المنظمة (بعـد أن انفصل عن الجمعية القومية لتقـدم الملونين) انه يؤمن بفعالية وسـائل المقـاومة السلمية نقـلا عن غاندى الهنـدى وثورو الامريكى ، وان هذه الفلسفة « المقاومة السلمية » تتيح تربية أجيـال من المكافحين الزنوج يتصفون بنضـوج عاطفى وتدبير عقلى لا تهزهم الاستفزازات والتهجمات

من جانب البيض ويمثلون نماذج ناجحة أمام باقى المجموعة البشرية سوداء اللون . وبهذه الفلسفة الجديدة تمثل المنظمة خطوة تقدمية عما سبقها من منظمات ، ولكن كما سنلاحظ ان هذه الفلسفة فى النصف الثانى من الاعوام الخمسينيات والنصف الأول من الاعوام الستينيات لم تعد خطا سياسيا يملأ عقول ونفوس الزنوج الذين طالبوا بتخطيها والأخذ بأساليب العمل السياسى المباشر

وقد أسهمت هذه المنظمة فى أعمال التربية والعلاقات الاجتماعية والتوعية الثقافية وتهيئة السبل لمعالجة الانحراف الاجتماعى والسلوكى بين مجموعات الزنوج ، وتستمد تمويلها من الامريكيين بيض اللون بجانب ما تجمعه من الامريكيين سود اللون .

ثانيا : أسهم الزنوج فى أعمال القتال فى جميع مسارح الحرب كما اشتغلوا فى جميع الخدمات المتعلقة بمهمة الحرب خارج الولايات . وهذا الاسهام قد أنتج آثارا ضخمة فى تفكير هؤلاء الجنود والعاملين فى خدمات الحرب. فقد أحسوا بالدنيا خارج أمريكا عن كثب وعن تعامل وشاهدوا كيف يعامل الناس باحترام فى أماكن كثيرة ، كما ان المرتبات فى فترة الحرب كانت كبيرة الامر

الذى أتاح لهم فرصا عديدة فى الحيـاة الاجتماعية فى أوروبا وآسيا وأفريقيا

وتنعكس آثار هذا الدور فى أمور كثيرة منها ان الضغوط داخـل البناء العسـكرى الامريكى ضـد استخدام الزنوج وتجنيدهم فى عمليات الحرب وخدماتها قد انهارت رويدا حتى تم تجنيد الزنوج ، وبعد معاناة وشكاوى واضطرابات أمكن شغلهم لوظائف الضباط فى الفرق المتعددة بحيث يرأسـون البيض • ومنها ان التفرقة بين الجنود والضباط فى مسائل السكن والمطعم والخدمات طبقا لألوانهم قد تهاوت رويدا رويدا حتى اضطر الرئيس ترومان فى اثناء حرب كوريا ان يصدر قرارا بالغاء هذه التفرقة فى القوات المسلحة بوصفه القائد الأعلى للجيوش الامريكية . ومنها ان عددا كبيرا من هؤلاء المجندين قد سرحوا بعد الحرب وعادوا الى امريكا فوجـدوا ان المجتمع لم يتغير من حيث الفكر الاجتماعى والنظرة الاجتماعية للزنوج ، وانه ترتيبا على هذا عليهم ان يهبطوا للحياة فى القاع حيث الازدراء والضياع واليأس والبطالة ، ولما كانوا قد عاشوا حياة الفخر والاعتزاز فى خارج امريكا فقد ثاروا على هـذا

الوضع وامتلأت حياتهم بالاضطراب النفسى والاجتماعى ومنها ان عددا كبيرا من هؤلاء المجندين سمع فى أوروبا وآسيا عن الأفكار الاشتراكيـة وعن الدعوة الشيوعية وعن حروب المقـاومة ضـد النازية والفاشية الايطالية واليابانية وان هـذه الأفكار تركت فيهم آثارا فكرية سوف نلحظها فيما بعد

وقد ترتب على هذا ان عاد هؤلاء المجندون وليس فى نفوسهم أو عقولهم أى ولاء للنظـام القـديم أو للطرق والأساليب المقررة فى حياتهم للوصول الى المساواة بالغاء التفرقة العنصرية . ومن بين أفراد هـذا الجيل وما جاء بعده من أجيال سوف تبرز القيادات الجديدة الراديكالية النظرة ، وسوف تبرز أيضا القيادات الجديدة اليسارية النظرة . ولكن فى نفس الوقت ستظل هذه القيادات تشكو من الميراث الفكرى الفردى الذى عاناه المجتمع من قبل والذى تدعمه كل أفكار الفلسفة الفردية الرأسمالية . والذى نتج عن هذا هو ضعف منظماتهم وتعددها مع كثرة السخط والشكوى والقلق من القديم والبحث عن الجديد

ثالثا : فى هذه الفترة التاريخيـة التى تلت الحـرب

العالمية الثانية ظهرت أزمة خطيرة فى القضية الزنجية ، وهذه الأزمة تتعلق بدور ومفهوم القيــادات البيضاء الليبرالية التى يسجل التــاريخ مشــاركتها فى العمل السياسى الزنجى طوال النصف الأول من القرن العشرين، والتى احتلت بلا منــازع مراكز التوجيــه والتخطيط والتمويل .وهذه الأزمة هى تعبير عن أن السخط والقلق والشكوى والتبرم الذى ملأ حياة جماهير الزنوج قــد نضج وبدا واضحا أمام المجتمع

ومن ثم فقد تبلورت الأزمة فى ان النجرو يريد ان يعامل كانسان كامل قادر له حق التصرف ، بينما يدل التاريخ السابق على ان الليبراليين البيض قد صنعوا له كل شىء من أجله ولم يتركوا له أى فرصة أومناسبة لكى يعمل لنفسه شيئا . ان النجرو كما يقول الدكتور ديبويس يريد الآن ان يقف وان يمارس بملء حريتــه ومطلق ارادته حق ممارسة رجولته . وقد علق على هذا الاحساس والتفكير جنرميردال فى دراسته المنشورة عام ١٩٤٤ فقال : ان الاغلبية البيضاء تحدد مركز النجرو ومكانه . وليس هناك أى تفسير علمى يشرح لماذا يقف النجرو هكذا ؟ ولماذا يعيش هذه الحياة فى داخل هذا

الأطار ؟ اللهم الا تفسيرا واحدا هو ان الرجل الأبيض أراد هـذا ولا راد لارادته وقضـائه . ولقد ثبت من التاريخ انه فى كل معركة وفى كل خطوة كان رأى الرجل الابيض قاطعا حاسما ، ولهذا فالحقيقة هى ان حيـاة النجرو وآراءهم عن مشـكلتهم هى رد فعـل ثانوى لضغوط الاغلبية البيضاء ..

ان موقف الليبرالى الأبيض اليوم موقف حـرج ، فالزنوج يعتقدون اعتقادا جازما ان وجوده فى منظماتهم هو سبب سيرهم البطىء نحو تحقيق أهدافهم ، ولهذا يرى لومـاكس أن دور الليبرالى الأبيض له جـذور اقتصادية فهو الذى امتلك القدرة على التمويل المالى للمنظمات الزنجية منذ بداية ظهورها وان وجودهم كما يتصورون يمنع تحول ثورة الزنوج الى ثورة عنصرية ويقولون انهم يتكلمون لصالح السود وليس لمصلحة البيض . وفى تيار الهجوم العنيف الذى توجهه جماهير الزنوج الى قياداتها القديمة يتطاير أيضا الهجوم على القيادات البيضاء فى داخل المنظمات الزنجية ولهذا يقول سلبرمان ان ثورة الزنوج هذه هى رد فعل مكبوت طوال زمن طويل سابق . وان رد الفعل هذا موجه ضد

وضع عدم التوازن فى هيكل القوة الاجتماعى : وهذا الوضع هو الذى ارتضاه البيض ودعموه واستكان له النجرو وقبلوه . واليوم يأتى التناقض فى ان النجرو الامريكى يريد أن يعرض قضيته بنفسه وأن يتكلم فيها بلسانه وعقله ، ولكنه يجد حتى اليوم من يقومون بالحديث نيابة عنه ، ويتخذون من القرارات بارادتهم الخاصة وكأنما هذا الزنجى لا وجود له مع انه صاحب القضية ، ويثور الزنوج لهذا ويقولون : لقد تدخلوا فى حياتنا حتى موعد وشكل تحررنا لقد حددوه وصنعوه كما أرادوه هم . لقد جعلونا لانمتلك الاحساس بذواتنا ولا نمتلك حياتنا ولا نمارس دورا فى بناء مستقبلنا

ويعلق الكاتب الذى نستند اليه فى أنه من المستحيل على جماعة تعيش فى وضع اجتماعى عاجز أن تنضج وتمارس فعاليات وجودها الاجتماعى بدون أن تعالج بما يشبه الصدمة الكهربائية ، وهذا يجعلها تحس بصورتها الحقيقية فى المجتمع والتى لايراها هذا المجتمع على حقيقتها . ولهذا يطالب النجرو أن تعترف بهم السلطة البيضاء فى المجتمع فتفاوضهم وتحادثهم وتشعر بحركتهم اما سخطا واما رضاء . أى ان تعتقد ان الزنوج شركاء

على قدم المساواة وليسوا قاصرين لم يبلغوا سن الرشد بعد ..

لذلك يتردد باستمرار هذا الهجوم على الليبراليين البيض مع الهجوم على القيادات الزنجية القديمة لدرجة انقول ان تركيب السلطة الابيض قد امتصّ فى داخله زعامات النجرو وطاقاتهم . وقد تزايد الهجوم بعد أن تحولت حركة الزنوج الى عمل سياسى واحتجاجى فى الشوارع والرأى العام فقد انتقد الليبراليون البيض وحلفاؤهم من البورجوازية السوداء دور هؤلاء الزعماء السود غير المسئولين ولم يؤيدوهم فىعملهم السياسى فى الشوارع . ويرى لوماكس أن سبب هذا هو أن الليبراليين البيض انما يعيشون فى داخل اطار حياة الطبقة المتوسطة البيضاء وينتظمون فى تيار قيمها ومثلها ولهذا فهم يريدونبقاء الوضعالقائم فىالمجتمعالامريكى ويعملون على المحافظة عليه واقرار السلام الاجتماعى فى اطار الحياة الأمريكية الراهنة . وعلى نقيض هذا لاتشعر جماهير الزنوج بأى احترام لهذه الاقوال أو الاوضاع لأنهم يعيشون خارج اطار هذه الحياة البورجوازية وقيمها . ولذلك فالقادة الزنوج الجدد حينما يقول لهم

الليبراليون البيض والبورجوازيون الســود : كونوا مسئولين . يتساءلون باستمرار «مسئولون» أمام من ؟ ولحساب من؟ ــ وخلاصة القول انالزنوج يريدون أن يأخذوا فى أيديهم المبادءة فى العمل السياسى ، وأن يعملوا لأنفسهم ، ويريدون من الليبراليين البيض ان يتخلوا جانبا ويتركوا الزنوج يتكلمون بأنفسهم عن أنفسهم

رابعا : أدت هذه المعركة السابقة تجاه دور الليبراليين البيض .. الى توتر فى العلاقات والنظرة تجاه الاقليات الأخرى وبالذات الأقلية اليهودية فى المجتمع الامريكى . وقدظهرت دراسات خاصة بالعلاقاتالاجتماعية الداخلية فى مجموعات الأقليات والطوائف فى المجتمع . ولعــل أحداث هارلم فى صيف عام ١٩٦٤ هى السبب المبــاشر الذى جعل العلاقة بين اليهود والزنوج محل دراسات متعددة . وأعتقد أنه من الواجب أن تتعــرض لهــذا الموضوع استطرادا لبحث النقطة السابقة خاصة وقد أشرنا من قبل الى دور اليهود فى الجمعية القومية لتقدم الملونين وغيرها من صور نشاط الحركة الزنجيــة فى الولايات المتحدة ..

انأحداث هارلم وبدفورد وهىأحياء زنجية فىمدينة

نيويورك فى صيف عام ١٩٦٤ ، وكذلك أحداث فيلاديلفيا أصابت كثيرا من المحلات والمؤسسات التجارية والاقتصادية اليهودية بأضرار . ومن هنا ارتفعت صيحة تقول : ان ثورة الزنوج تعادى السامية واليهود، وحاول البعض الصاق هذه التهمة بواسطة تخيل علاقات بين بعض قادة الزنوج وبعض قادة البلاد العربية ، وبعضهم حاول لمس الفكر النازى فى أفكار بعض قادة الزنوج ، وبعضهم ألقى التهمة على عاتق المسلمين السود .. الخ. ومن ناحية أخرى حاول البعض ايجاد تفسير اقتصادى لهذه الأحداث بواسطة القول ان حى هارلم وحده يسكنه حوالى نصف مليون اسود ومع ذلك فالزنوج لايمثلون سوى ١٣ ٪ من مجموع ملاك المحلات والمؤسسات التجارية والاقتصادية ومحلات التوزيع والخدمات والأسواق فى هذا الحى

واذا كنا نسلم بوجود آثار لهذا العامل الاقتصادى ، فان الدراسة تثبت أن هناك عوامل متعددة لهذا التوتر ، وان التوتر بين اليهود والزنوج ليس طارئا وليس نتيجة حركة الحقوق المدنية فقط . بل هناك ظاهرة تاريخية ليس لها حتى الآن تفسير كامل نهائى وهى أن

اليهود حينما استقروا فى نيويورك أقاموا فى وسط المدينة وقاموا بنشاطهم التجارى فى قلبها ، ولأسباب تاريخية أخرى حينما وصل الزنوج الى الشمال قادمين بكثرة من الجنوب اتجهوا الى وسط مدينة نيويورك وأقاموا بجوار مناطق اقامة اليهود ، ومن ثم نشأت بينهم علاقات تمثلت فى التجارة والاستخدام والتعامل فى بنك السلفيات والتوظف واستئجار المساكن .. الخ ، ولهذا فالشكوى من جانب الزنوج ليست طارئة ، ومن ناحية أخرى فان الليبراليين والاشتراكيين والشيوعيين من اليهود قد أسهموا بصورة أو بأخرى فى حركة الحقوق المدنية مثل غيرهم من البيض من أبناء الطوائف الأخرى ، وهذا الاسهام فى صورة عمل سياسى أو تثقيفى أو تمويل مالى ..

وعلى غير مايتخيل هؤلاء الليبراليون البيض جميعا ، فان نمو حركة الزنوج وتحولها الى العمل السياسى قد صاحبته ظاهرتان الأولى هى ظهور القيادات الزنجية التى بدأت تستقطب الجماهير السوداء ومن ثم ينكمش دور القيادات الليبرالية البيضاء واليسارية أيضا ، والثانية هى نمو الشك وعدم الثقة فى دور أى قيادة ليبرالية

بيضاء من جانب الزنوج ، الأمر الذى أوجد منطقة من عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين ، مع نمو هذه المنطقة من عدم الثقة باستمرار . وترتيبا على هذا فان الشكوى من الوضع الجديد الذى تتطور اليه حركة الزنوج هى شكوى عامة من جانب الليبراليين البيض ومن بينهم الليبراليون اليهود

ولكن لماذا أصبح اليهود أكثر حساسية من غيرهم بالنسبة لهذا الوضع الطبيعى فى نمو حركة الزنوج ؟

الرأى الصحيح يعود الى عدة عوامل منها نمو الطبقة المتوسطة والمهنية وذوى الياقات البيضاء من الموظفين بين الزنوج . وهؤلاء حينما دخلوا سوق العمل فى نيويورك بالذات وجدوا أن عددا كبيرا من اليهود يقفون أمامهم مباشرة فى السلم الاجتماعى . ويقرر الأستاذ ناثان جلازر الأستاذ بجامعة كاليفورنيا فى دراسة نشرتها له مجلة كومنترى وهى لسان المجلس اليهودى الأمريكى ـ انه منذ الثلاثينات دخل اليهود بكثرة ساحقة ميدان التعليم والوظيفة والعمل المهنى ، وان أحداث التاريخ وضعت اليهودى أمام الزنجى فى العمل أو فوقه مباشرة فى السلم الوظيفى ، ففى المدارس يجد المدرس الزنجى أن الناظر

يهودى ؛ وفى العمل الاجتماعى يجد الأخصائى الاجتماعى الأسود أن المشرف عليه يهودى ، وهناك تقرير مشهور باسم هاريو عن أحوال العمل وعلاقات الجماعات والأقليات فى نيويورك يقول أنه من بين ٨٠٠ ناظر مدرسة يوجد ناظر واحد من الزنوج ، وفى الادارة العليا فى السلم الوظيفى يوجد أربعة من الزنوج من بين ١٢٠٠ موظف كبير ، وفى الوقت نفسه نجد أن الأغلبية الساحقة من هذه الأرقام هى من بين اليهود

وبجانب هذا العامل المثير للتوتر ، نجد أن الأقلية اليهودية كغيرها من الأقليات الأمريكية قد وصلت من الناحية الاقتصادية ومستوى الدخل ما يؤهلها الى الانتقال من وسط المدينة الى الضواحى . وقد تم هذا منذ فترة الحرب العالمية الثانية ، وتأخر انتقال الطبقة المتوسطة الزنجية الى الضواحى حتى أواخر الأعوام الخمسينيات وأوائل الأعوام الستينيات . فلما بدأت البورجوازية السوداء فى الانتقال قوبلت بمعارضة شديدة من سكان الضواحى ومن بينهم اليهود ،والسبب هو أن انتقال الزنوج للسكنى فى منطقة يجعل البيض يهجرونها ومن ثم تنخفض أسعار وأثمان الأرض

والعقارات . وأيضا تتم عملية الانتقال الزنجية فى فترة نمت فيها حركة الحقوق المدنية أى أن انتقالهم معناه المطالبة بالاندماج الاجتماعى فى المدارس والمستشفيات والنوادى والزواج المختلط ... الخ

اذن فالذى حدث فى العلاقات بين الليبراليين والاقليات البيضاء من جانب وبين الزنوج من جانب آخر هو أن الموقف ترتب على حقيقتين : الاولى هى ان صـــورة المجتمع الامريكى الحقيقية هى انه ليس مجتمعا واحدا مفتوح العلاقات الداخلية على مختلف الاتجاهات بل انه مجتمع اقليات وطوائف وجماعات تندمج الى حد ما وتبقى بعد ذلك كل فى اطارها الدينى أو العنصرى أو القومى السابق . وهذا واضح من المقاومة الاولى التى ابدتها الاقلية الانجلوسكسونية البيضاء البروتستانتية الديانة امام ضغط اليهود والكاثوليك وغيرهم فى سبيل الاندماج الاجتماعى . فقد نبذتهم أولا ثم قبلتهم ثانيا على أساس أن تبقى بين كل منهم خطوط فاصلة . وكان هذا هو ما تبغيه هذه الاقليات الجديدة فى ذلك الوقت فهم يطلبون الاندماج والمساواة والاعتراف بهم على اساس ان تبقى لهم شخصياتهم الطائفيــة المتمثلة فى

الكنيسة الخاصة والمدرسة الخاصة والنادى الخاص والتجمع السكنى الخاص الى حد ما والصحف والمجلات الخاصة ، ولما كان اليهود آخر الأقليات التى اندمجت فى المجتمع الامريكى فقد وجدهم الزنوج اول الطوائف أمامهم وآخرهم فى السلم الاجتماعى

والحقيقة الثانية هى أن حركة الزنوج الحالية هى ثورة بالمفهوم العميق للمصطلح ، انهم لايطلبون الاعتراف بهم كأقلية أو جماعة لونية ذات وضع ومدارس ونوادى وثقافة خاصة فى داخل المجتمع ، وهذه هى غلطة الليبراليين البيض فقد ظنوا أو توهموا منذ البداية أن الموقف سوف ينتهى الى هذا الوضع الذى تصوروه ، بينما ان الزنوج الامريكيين للأسباب التى سبق شرحها فى تكوينهم التاريخى قد أصبح لهم وضع خاص وهو عدم وجود ثقافة قومية أو ديانة خاصة أو مدارس خاصة . انهم يطلبون وضعا جديدا هو دخول جميع الكنائس والنوادى والمدارس والمستشفيات والأحياء السكنية والوظائف الحكومية والشركات والاعمال الخاصة . ان حركتهم لا تعرف خطا فاصلا تريد أن تبقى عليه بينهم كأقلية وبين باقى الاقليات الاخرى فى هذا

المجتمع . انهم لا يعترفون بامكان حياتهم بجوار عدة مجتمعات وطوائف واقليـات موجودة تحتـرم الخط الفاصل بينهما تقليديا ، انهم يريدون عبور هذا الخط بالنسبة لجميع هذه الاقليات ودخول دائرتها الخاصة لأنه ليست لهم دائرة يريدون المحافظة عليها أو يطلبون الاعتراف بها ..

ومن هنا يبدو التهديد الثورى الزنجى فهو ليس ضد السامية وليس ضد اليهود وليس ضد البيض وليس ضد فرد ما بصفته الفردية بل انه ضد الوضع الاجتماعى التقليدي . ولهذا أصبح من المتداول أن توصف ثورة الزنوج بأنها حركة راديكالية وليست حركة ليبرالية طبقا لمعانى المفاهيم السياسية المتداولة فى امريكا . انالزنوج يطلبون الغاء خطوط وعلامات الحدود المقبولة عرفا وضمنا بين جماعات وأقليات المجتمع الأمريـكى . ولم يسبق لجماعة أو أقلية فى أمريكا أن طلبت هذا ، والسبب هو أن نبذ الزنوج وطردهم التاريخى من المجتمع كان قاسيا متطرفا . وعلى هذا فرد الفعل اليوم هو عدم قبول الأمر الواقع مطلقا ، وان الزنوج يصارعون ضد كل الفواصل والحدود الفاصلة فهم يريدون دخول الكنائس

والمدارس والنوادى واحياء السكن الخاصة ومحلات التجارة .. الخ. ان ثورة الزنوج لاتكتفى بطلب المساواة القانونية فى ميدان الاقتصاد وميدان التعليم .. الخ ، انهم يطلبون المساواة فى نتائج هذه الفرصة المتساوية . ومعنى هذا أن يكون لهم قدم ثابتة ومدخل قوى فى جميع خيرات وثمار الحياة الامريكية بدون اعتبار لأوضاع طائفية أو علامات فاصلة بين الجماعات . ان هذا المطلب لايعترف بالعرف والتقاليد الخاصة بأوضاع الجماعات والأقليات ، لأن هذا قد ترتبت عليه حقوق وامتيازات ومغانم خاصة بكل طائفة وجماعة وأقلية أقامت حياتها عليه منذ زمن سابق . ولهذا فحينما يطالب الزنوج بمطالبهم السياسية فهم ليسوا ضد اليهود كأفراد أو ديانة وليسوا ضد الكاثوليك كأفراد أو ديانة وليسوا ضد البيض عموما كأفراد أو لون، انما هم ضد الأوضاع والامتيازات والتركيب الاقتصادى والاجتماعى والثقافى الذى طردهم طردا عنيفا لمدة طويلة . وهم اليوم يريدون الدخول العنيف فى هذا المجتمع بدون مبالاة أو مراعاة لأى وضع أو امتياز يحرمهم من نتائج وثمار المساواة في الحقوق والواجبات والفرص فى المجتمع الأمريكى

اذا أخذنا منطق غالبية الـكتاب الزنوج وجدناهم يذهبون الى أن مولد وبداية الفترة الثورية الحالية التى يحياها الزنوج الأمريكيون — هو يوم أول ديسمبر ١٩٥٥ . ففى هذا اليوم رفضت مسز روزا باركس من مونتجمرى بولاية ألاباما ان تطيع أمر سائق الاتوبيس فتترك مقعدها ليجلس فيه رجل أبيض . ولما اعتقل البوليس هذه السيدة بتهمة مخالفة القوانين الأساسية للولاية والخاصة بالتفرقة بين الابيض والاسود — حدثت اضطرابات بين الزنوج أدت الى اعلان مقاطعة عامة لاستعمال الأوتوبيس فى مدينة يشكل الراكبون الزنوج حوالى ٧٥٪ من مجموع الذين يستعملون هذه الخطوط وتطورت المقاطعة الى تنظيم شعبى فى المدينة وتزعم العملية القساوسة الزنوج ومن بينهم برز قسيس اسمه مارتن لوثر كنج . وعلى الرغم من القبض على قادة الحركة من القسس ورجال الكنائس الا أنها استمرت حتى خضعت الشركة لمطالب الزنوج وألغت قواعد التمييز بين الركاب فى خطوط الاتوبيس الداخلية فى

المدينة وذلك بعد أن استصدر المحامون المدافعون عن المتهمين والتابعين للجمعية القومية لتقدم الملونين أحكاما من المحاكم الفيديرالية بعدم شرعية هـذه القـواعد وتناقضها مع الدستور الأمريكى

وخرج مارتن لوثر كنج من هذه الأزمة زعيما فدعا الى تأليف مؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين المشهور باسم «Selc» واتخـذ مقره فى مدينـة اتلانتـا بولاية جورجيا حيث انتقل ليمارس واجباته الكنسية . وظهور هذه المنطقة الزنجية جدير بالدراسة والانتباه ، فهى أول منظمة فى فترة الخمسين سنة الأخيرة تقوم فى الجنـوب وتحظى بعضوية وتأثير على نطاق قومى فى الولايات المتحدة بعد يوكر واشنطن . ومع ان عصب نشاطها الأساسى فى الجنوب (الريف والمدن) الا أن هذه المنظمة لها نشاط خارج الجنوب . وثانيا هـذه أول منظمـة يتزعمها رجال الدين الزنوج زعامة كاملة وتعمل بطريقة منظمة مقبولة فى الحقل السياسى . ومن الأمور الجديرة بالذكر أن رجال الكنائس الزنجيـة مارسوا نشـاطا سياسيا مستمرا فى حياة الزنوج الأمريـكيين وأنهـم انضموا الى نشاط جميع المنظمات السياسية الزنجية قبل

ذلك . الا أنه من الملاحظ أنهـم لأول مرة يتـكتلون وينظمون تنظيما جماهيريا سياسيا ويقودونه ويصبحون مسئولين عنه ويدينون فيه بالولاء لزعيم من بينهم . وخلاصة القول أنه لأول مرة منذ ظهور المنظمات الزنجية القومية فى أمريكا نجد الجنوبيين من الزنوج يمتلكون المبادءة السياسية ويشكلون تنظيما سياسيا يتزعمونه ويقودونه بدون أن يكون للزنوج الشماليين فيه الدور الاساسي. وفى هذا القول نحن تتذكر ماتشكل قبل هذا من منظمات قومية زنجية فى مدن الشمال

والحركة السياسية التى قام بها الجنوبيون من الزنوج أثارت دراسات ومناقشات عدة فى امريكا ، لأنه كما لاحظنا أن العمل السياسي وأهدافه الليبرالية والراديكالية كان باستمرار يبدأ من خارج الجنوب فى مدن الشمال والوسط والغرب ، وقد أفرد لوماكس مؤلف كتاب « ثورة النجرو » فصلا كاملا لمناقشة دور مارتن لوثر كينج وآثار تربيته الدينية على مفاهيمه السياسية وعلى نشاطه العام . وخلاصة القول أنه انتقد مارتن لوثر كنج على أساس انه يفتقد الصفات اللازمة للقائد الادارى الناجح الذى يقود تنظيما جماهيريا وانه ليس مثقفا

فهو يعيش فى اطار فكرى جامد ، كمـا أنه يدعو الى مبادىء عدم العنف أخذا بميراث غاندى الهندى وثورو الامريكى . ويزيد لوماكس على هذا النقد بأن مارتن لوثر كنج لم يتخلص من ميراث التعاون مع الليبراليين البيض فقد أصـــبحوا هم الممولون لنشاطه ماليا والمستشارون لنشاطه فكريا ، كما أن لوماكس يرى أن ادخال الكنيسة رسميا فى تنظيم وقيادة النشاط المدنى للحركة السياسية فيه خطورة وفيه تنـاقض . ويرى لوماكس انه بمرور الزمن بعد عام ١٩٥٥ بدأت الحركة تعمل فى الجنوب بصفة أساسية بينما لايزيد تأييدها فى مدن الشمال والوسط والغرب عن مجرد دور هامشى

وقد تناول سلبرمان دراسة ظاهرة زعامة مارتن لوثر كنج ومؤتمر القيادات الجنوبية المسيحية فقال ان مارتن لوثر كنج هو زعيم وقائد الطبقة البورجوازية السوداء أو الفئات الاجتماعية التى تتطلع تطلعا فكريا وماديا الى الدخول فى فئات الطبقات المتوسطة . وان اقساما هامة ذات وزن من جماهير الزنوج والطبقات الدنيا السوداء تعارضه ولا تقبل منطقه القائم على فلسفة عدم العنف

وان الجهود والتأييد والدعم الذى يلقاه مارتن لوثر

كنج من الأوساط البيضاء التى توصف فى أمريكا بأنها مسئولة وعاقلة ــ هذه الجهود والدعم تثير شكوكا حول الهدف من ابرازه وتنمية صورته وتثبيتها فى الحياة العامة بواسطة أجهزة الاعلام والاتصال المتعددة فى أمريكا

ولقد أثيرت هذه الشكوك حينما قررت لجنة منح جائزة نوبل أن تمنحه هذه الجائزة لعام ١٩٦٤ . ولقد ناقش كثيرون حتى من بين المثقفين الزنوج أنفسهم ــ أسباب منحه الجائزة والدوافع التى حدت الى اتخاذ هذا الاجراء لأول مرة فى تاريخ منح الجائزة . وأذكر ان مجلة ليريشن ومجلة نيوبوليتكس قد تحدثتا عن هذا الموضوع . وذهب كتاب فى هذا المجال الى القول بأن دوافع سياسيةخاصة بالمجتمع الامريكىتقف وراء فوزه بالجائزة . وانالدوافع السياسية تتلخص فى ان مارتن لوثر كينج يؤمن بالنظام الأساسى الأمريكى القائم ويدعو الزنوج الى عدم الثورة عليه أو محاولة تحطيمه ، كما انه ضد العنف أو أى أسلوب ثورى وبهذا ينطق باسم البورجوازية السوداء والبيضاء معا . وفوق هذا هناك محاولة لسد الطريق على نشاط جماعة أمة الاسلام أو المسلمين السود ــ باستخدام مارتن لوثر

كينج وتاريخه كقسيس فى الكنائس الزنجية ومعه رجال الدين الآخرون ..

تقول ان هذا الحدث البسيط الذى تم فى مونتجمرى ألباما قد هز الرأى العام الزنجى وتلته أحداث عديدة فى ولايات أخرى .. كما ان عددا من القضايا رفعت فى المحاكم ضد اجراءات التفرقة العنصرية فى المدارس والمستشفيات ووسائل المواصلات ومناطق الاسكان .. الخ. وقد قامت الجمعية القومية لتقدم الملونين بتمويل العدد الأكبر من هذه القضايا، أو قدمت خبرات رجالها القانونيين فى هذه المجالات وقامت بدور جماعات الضغط فى اوساط الرأى العام والاعلام الامريكى . وقد تمت أحداث هامة وخطيرة فى النصف الثانى من الاعوام الخمسينات فى عهد رئاسة ايزنهاور للولايات المتحدة ، وكلها أثارت الرأى العام الزنجى مثل ما حدث فى مدينة ليتل روك بولاية اركنساس عام ١٩٥٧

وما أن تولى الرئيس الراحل كيندى رئاسة الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ حتى بدأت حركة الحقوق المدنية للزنوج تجد دفعا قويا للعمل ، ففى عام ١٩٦٠ بدأت فى مدينة جرينزبورو بولاية نورث كارولينا حملة

« الجلوس احتجاجا فى الأماكن العامة » والمعروفة باسم «Sit-ins» .. وأسرعت جميع المنظمات الزنجية الى ارسال دعاتها والمسئولين فيها الى المدينة لمساعدة الطلاب الذين بدأوا الحركة . وتدخل البوليس باسم منطق القانون السائد فى الولاية . وتمت اعتقالات كثيرة . وعلى الرغم من هذا انتشرت الحركة وتناقلت وسائل الاعلام أخبارها وانتشرت موجة الجلوس احتجاجا وأسرعت المنظمات الزنجية الى المحاكم تطلب استصدار احكام بالافراج عن المسجونين والمعتقلين واحكام تدمغ الاوضاع القائمة بمنافاة الدستور الامريكى . وفى غمار هذه الأحداث تألفت أحدث المنظمات الزنجية عمرا ، أعنى لجنة تنسيق العمل الطلابى السلمى والمعروفة باسم «SNCC» .. وتنطق فى أمريكا بـ « سنيك » . ويتزعم هذه اللجنة شباب من الزنوج يأتى فى مقدمتهم جيمس فورمان وجون لويس . وقد انتشرت فروعها بسرعة فى الجامعات والمعاهد الدراسية وفى مناطق تجمعات الشباب ومع أن الحركة نشأت فى مدينة جنوبية الا أن عددا هاما من زعماتها جاء من مدن وجامعات الشمال والوسط وعلى الرغم مما تتميز به الحركة من راديكالية تنتج عن

عنف الشباب ومتوسط اعمار قياداتها وأعضائها ، الا أنها أيضا تقوم على مساندة وتبرعات أقسام هامة من البيض الأمريكيين . والملاحظ أن مؤيديها من الأمريكيين البيض هم الطلاب والشباب والمنظمات الراديكالية الأمريكية . ودور هذه المنظمة ونشاطها فى الجامعات هو الذى أدى الى أزمة عام ١٩٦٣ فى جامعة كاليفورنيا بركلى، اذ فصلت الجامعة زعماء الطلاب الذين يعملون ضد التفرقة العنصرية والذين يجمعون تبرعات مالية لتمويل المكافحين من أجل القضية ، فلما ثار الطلاب وأعلنوا الاضراب تدخل بوليس ولاية كاليفورنيا وقبض على أعداد ضخمة وطردت الجامعة ٧٦٩ طالبا منها . وقد تطورت الأزمة خلال عام ١٩٦٤ فأقام الطلاب منظمة حرية التعبير والكلام بزعامة الطالب ماريو سافيو « من الأمريكيين البيض » دفاعا عن حقوقهم فى النشاط الطلابى داخل حرم الجامعة . وخلال العام الدراسى ١٩٦٤ كانت الاضطرابات مستمرة والتوتر قائما ، ودفع هذا رئيس الجامعة الدكتور كلارك كير ومدير الجامعة لشئون الطلاب الى الاستقالة من عملهما فى الجامعة عام ١٩٦٥

وما مر عام من مدة رئاسة الرئيس كيندى حتى أحس

جيمس فارمر الرئيس القومى لمجلس المساواة العنصرية (كور) أنه لابد من عمل ايجابى أكثر راديكالية ليهز المجتمع الأمريكى . فقرر أن يبدأ عملية سماها « مسيرة الحرية » «Freedom Rides» والأصل فى الفكرة أن هناك أحكاما قضائية سابقة من المحاكم الفيدرالية تمنع تطبيق قواعد التفرقة العنصرية فى محطات وصول الأوتوبيس التى تخدم خطوط السيارات العامة التى تعمل بين الولايات المتعددة والمعروفة باسم Inter State Travel Terminals وعلى الرغم من صدور هذه الأحكام فان عددا من الولايات لم تنفذها خاصة فى الجنوب . ولذلك فكر جيمس فارمر فى أن يبدأ مسيرة شعبية لتحطيم هذه القيود. وفعلا قام بالاتصالات اللازمة قبل بدء المسيرة وتكونت فرق من المسافرين السود والبيض. وركبوا الاتوبيسات وتحدوا الأوضاع القائمة فى المحطات ، وتدخل الجمهور والبوليس فى الولايات الجنوبية بوحشية ضد هؤلاء الركاب ، الأمر الذى أثار ضجة كبرى وتدخل روبرت كنيدى المدعى العام فى عهد الرئيس كينيدى . وأسرعت المنظمات الزنجية الى دخول ساحات المحاكم وبدء ضغوط على

الرأى العام ووسائل الأعلام لكسب جولة ضد التفرقة العنصرية فى أمريكا . وقد استفادت منظمة « كور » من هذه الحركة فقد أكسبتها اسما شعبيا وتزايد عدد أعضائها وبرز اسم رئيسها كمنظم لحركات شعبية على أساس فلسفة عدم العنف .

كل هذه المقدمات والخطوات سبقت الزحف الكبير الى واشنطون عام ١٩٦٣ . وهى التى دفعت المنظمات الزنجية الى الحركة خوفا من ان يفوتها القطار ويهجرها اعضاؤها . نتيجة لتزايد السخط والقلق العام بين جماهير الزنوج من الاوضاع المحافظة والتفكير المحافظ الراكد الذى يجثم على قلب هذه المنظمات القديمة . ولا بد من كلمة تقدير للدور الذى قام به الرئيس الراحل كيندى وشقيقه روبرت كيندى فى مد يد العون لهذه الخطوات المناهضة للتفرقة العنصرية . وهذا يبدو فى الكتاب الذى ألفه صحفى أمريكى يدعى هارى جولدن باسم « المستر كيندى والنجرو » ويسجل الاجراءات التى تمت فى عهد رئاسة الرئيس الراحل جون كيندى والاتصالات التى أجراها المؤلف مع زعامات المنظمات الزنجية وما أبدوه من آراء وما قاموا به من دور وما حققته منظماتهم

من خطوات ..

الزحف الكبير :

هناك عديد من المطبوعات تصف ما حدث يوم ٢٨ أغسطس عام ١٩٦٣ . ولنختار منها الكتاب المصور الذي أصدرته مؤسسة جونسون للنشر بشيكاغو وهي مؤسسة زنجية مشهورة في الولايات المتحدة . واسم الكتاب « يوم الزحف » . ويقول ان الزحف كان بداية لميلاد شيء جديد وانه كان النهاية لشيء قديم . فقد جاء اليوم بمناسبة مرور مائة عام و ٢٤٠ يوما على توقيع اعلان التحرر من الرق . وان اليوم المحدد كان بمثابة الدوامة العاصفة في بحر هادئ وقد شاهدها وأحس بها ملايين الناس في أمريكا ، وأنها كانت علامة ذات معنى . ولقد جاء الناس في هذا اليوم في جميع أنحاء أمريكا واتجهوا الى واشنطون وساروا حوالى ميل ليقفوا أمام تمثال لينكولن ليقولوا له ان الزنوج الأمريكيين انتظروا مائة عام و ٢٤٠ يوما ليحصلوا على حريتهم ولكنهم لم يحصلوا عليها ..

وأصل الفكرة هي من بنات أفكار فيليب راندولف

البالغ من العمر حاليا ٧٦ عاما ، والذى يرأس حاليا رابطة عمال عربات النوم ويشغل حاليا منصب نائب رئيس اتحاد النقابات الأمريكى ، وهو الرجل الذى هدد الرئيس روزفلت عام ١٩٤١ بالزحف على واشنطن ان لم يصدر الرئيس قرارا بالغاء قواعد التفرقة العنصرية فى صناعات الحرب وان تحل محلها قواعد المنافسة المتكافئة ، ولقد اقترح أن يتم الزحف الشعبى عام ١٩٦٣ ووافقت المنظمات الزنجية الخمس على مقترحاته ، وهذه المنظمات هى الجمعية القومية لتقدم الملونين «NAACP» ، ومؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين «SCLC» والرابطة القومية للعمل فى البيئة الحضرية «N.U.L.» ومجلس المساواة العنصرية «Core» ولجنة تنسيق العمل الطلابى السلمى «SMICK» وأيدتهم منظمات كاثوليكية ويهودية وقيادات عملية . وتم تنظيم العمل باختيار راندولف مديرا للزحف وبايارد راستين نائبا له وهو رئيس تحرير مجلة ليبريشن الراديكالية الزنجية ..

وفى أثناء مهمة التنظيم والاعداد للزحف توالت الاتهامات ضد حركة الزحف من العنصرين ، وهذا جعل

منظمو الزحف يتخذون اجراءات أمن داخلية لمنع الاضطرابات والشغب ، كما امتنعوا عن الاتصال بالمنظمات الشيوعية ، وأعلنوا أن هدفهم هو لفت نظر الكونجرس لاصدار قانون الحقوق المدنية . وفعلا بدأ توافد الناس من جميع أنحاء امريكا بواسطة جميع وسائل النقل المتعددة ، وكان المشتركون من جميع فئات وعناصر وطبقات الشعب الامريكى . وتوالى وصول المشتركين فى الزحف الى واشنطون حتى وصل عددهم مابين ٩٠ ألفا و١٠٠ ألف من الافراد ، وساروا عبر الشوارع الى تمثال لينكولن وتكلم الزعماء هناك ثم انصرف الجميع فى هدوء

والذين تكلموا هم فيليب راندولف عن العمال الزنوج ، وروى ويلكنز السكرتير العام للجمعية القومية لتقدم الملونين ، ووايتنى يونج المدير التنفيذى للرابطة القومية للعمل فى البيئة الحضرية ، وجيمس فارمر الرئيس القومى لمجلس المساواة العنصرية ، وجون لويس رئيس لجنة تنسيق العمل الطلابى السلمى ، ومارتن لوثر كنج رئيس مؤتمر القيادات المسيحية الجنوبية ، وبجانبهم تكلم مؤيدا والتر رويتر نائب

رئيس اتحاد نقابات العمال الامريكى وماتيواهمان المدير التنفيذى للمؤتمر الكاثوليكى من أجل العدالة بين الأجناس وأوجين كارسون بلاك نائب رئيس لجنة الدين والأجناس التابعة لمجلس الكنائس القومى ، وجواشيم برنز رئيس المجلس اليهودى الامريكى

وقد رفع المشتركون فى الزحف شعارا هو :

« الزحف الى واشنطن من أجل الوظائف والحرية يوم ٢٨ أغسطس ١٩٦٣ »

وقد أصدر الرئيس كنيدى بيانا عقب استقباله بالبيت الأبيض للزعماء الذين قادوا الزحف الكبير ، قال فيه ان أمريكا شاهدت فى هذا اليوم عشرات الألوف من الامريكيين الزنوج والبيض يعبرون عن حقهم فى التجمع الحر ولفت الأنظار الى قضيتهم ، وان مطلبهم المساواة والعدل فى المعاملة والفرصة بصرف النظر عن اللون والجنس والدين والقومية .. هو مطلب عادل مفهوم للجميع . وان الوعى العام بهذا المطلب يلمسه الجميع بشكل ظاهر ، وعلى الرغم من أن صيف عام ١٩٦٣ شاهد تقدما فى ترجمة مبادىء الحقوق المدنية الى واقع تطبيقى ، الا أن أمامنا طريقا طويلا لابد أن

نجتازه ، وان الادارة التنفيذية الفيدرالية سوف تواصل جهودها لانهاء التفرقة فى اجراءات التوظف والعمل بجانب جهودها لتقديم تشريع للكونجرس يحوى قانونا للحقوق المدنية ، ويحوى أيضا مقترحات لتنمية الاستفادة من القوى البشرية وتدريبها وبدء مشروع لدراسة برامج العمل وتوسيع فرص التعليم

وأمام تمثال لينكولن أقسم المشتركون على التزامهم التام بالكفاح من أجل تيسير الوظائف والعمل والحريات لجميع الأمريكيين بدون تفرقة ، وان لا يهدأ الكفاح حتى يتم اقرار مطالبهم . وان يتم هذا الكفاح فى اطار التقليد الديموقراطى وبواسطة وسائل عدم العنف وخلال الاجهزة القضائية والتشريعية للبلاد • كما أعلنوا ان أهدافهم هى :

١ ـ قانون للحقوق المدنية يحتوى على ضمانات للمساواة فى الاستفادة من الخدمات العامة والاندماج فى المدارس وحماية حق التصويت فى الانتخابات العامة ، وتحسين أحوال الاسكان ، وحق المدعى العام فى أن يحمى حقوق المواطنين الدستورية من أى انتهاك

٢ ـ ايقاف التمويل الفيدرالى لاى برنامج يتمسك بالتفرقة العنصرية

٣ ـ الغاء التفرقة العنصرية من جميع المدارس ابتداء من عام ١٩٦٣

٤ ـ تخفيض عدد المقاعد المخصصة فى الكونجرس لاى ولاية تمنع المواطنين من المشاركة فى التصويت والاقتراع العام

٥ ـ اصدار قرارات فيدرالية ضد التفرقة فى برامج الاسكان ..

٦ ـ برامج فيدرالية واسعة للتدريب المهنى بالنسبة للعاطلين من العمل

٧ ـ رفع الحد الادنى للاجور بواقع دولارين للساعة الواحدة بدلا من دولار وربع للساعة الواحدة

٨ ـ اصدار تشريع بامتداد قواعد المعاملة العادلة المتكافئة ليشمل جميع قطاعات العمل فى البلاد

٩ ـ قرار فيدرالى يمنع أى نوع من التفرقة فى جميع المستويات الوظيفية

قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤ :

وقدمت حكومة الرئيس كنيدى مشروع القانون الى الكونجرس لاقراره، وعلى الرغم من اغتيال الرئيس كنيدى فقد أعلن الرئيس جونسون انه يلتزم بالعمل على اصدار القانون . وتم اصدار القانون قبل الانتخابات العامة لمنصب رئيس الولايات المتحدة التى تمت فى نوفمبر ١٩٦٤

والقانون يعالج مشكلات عديدة فى حياة النجرو ، وفى مقدمتها حق التصويت وعدم المساواة فى المعاملة بين الاسود والابيض حين التقدم للقيد فى دفاتر الناخبين بواسطة الانتخابات . وأيضا يعالج مشكلات التفرقة فى الخدمات العامة والتفرقة فى المدارس ويقضى بتأليف لجنة فيدرالية للحقوق المدنية ويقر مبدأ الفرص المتساوية فى العمل ... الخ

وقد قابل الزنوج الامريكيون صدور القانون بابتهاج شديد ، وشاركوا فى الانتخابات عام ١٩٦٤ . ولكن بمضى الوقت تبين أن القانون مازال عاجزا عن حل جميع المشكلات الماسة التى تهدد حياتهم ، كما أن عددا كبيرا من الولايات الجنوبية قد أساء تطبيق النصوص . الامر الذى أوجد من جديد الاضطرابات بين الزنوج . اخرها ماحدث فى كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس عام ١٩٦٥ . وقد دعا هذا الرئيس جونسون للتقدم الى الكونجرس طالبا استصدار تشريع يقضى بانشاء دفاتر جديدة لقيد أسماء الناخبين فى الانتخابات الفيدرالية على أساس المساواة وعدم وضع قيود وعراقيل أمام الناخبين . وكان هذا محاولة لايجاد حل جزئى للمشكلة التى يعانيها الناخبون الزنوج فى الولايات الجنوبية حيث يشكلون فى مناطق عديدة أغلبية تستطيع أن تتحكم فى نتائج الانتخابات

الفصل السادس :

القومية السوداء..

جماعة أمة الإسلام

دراسة ظاهرة القومية السوداء وما يرتبط بها من ظهور منظمات زنجية مثل جماعة أمة الاسلام — تنتشر فى جميع الكتب والمؤلفات الخاصة بقضية الزنوج الامريكيين . وقد لاحظت ان العديد منها يفرد باستمرار فصلا لهذه الظاهرة أو أكثر ، هذا بخلاف الكتب الخاصة التى تتناول هذا الموضوع ، وبجوار ما استندنا اليه من مؤلفات فى الفصول السابقة نستعين بثلاثة مؤلفات خاصة بهذا الموضوع كتبها مؤلفون من بين المثقفين الزنوج ، وهى كتاب « المسلمون السود فى امريكا » تأليف اريك لينكولن ، وكتاب « القومية السوداء » تأليف ايسيين اودوم ، وكتاب « عندما اعطيت الكلمة » تأليف لويس لوماكس . ونلاحظ ان الكتابين الاول والثانى هما فى الاصل دراسات جامعية اعدت لنيل درجة الدكتوراه فى جامعتى شيكاغو وبوستون ..

وسبب هذه الدراسات ليس اهتماما اكاديميا بما ظهر فى حياة النجرو من منظمات وحركات فحسب ، بل ان

جماعة أمة الاسلام تزاول نشاطها الذى ينمو بشكل ملفت للنظر ولانها تتخذ موقفا من الحـــــركات الزنجية التى أشرنا اليها فيما قبل ، وكما لاحظنا انها لم تشترك فى حركة الحقوق المدنية ولا ساهم اعضاؤها فى الجلوس احتجاجا فى الاماكن العامة ولا فى الزحف الـــكبير على واشنطن ، ويقول اريك لينكولن انهـــا اكبر الجماعات السوداء نموا فعدد اعضائها يبلغ حوالى ١٠٠ الف عضو . ويمتد نشاطها الى حوالى ثلاثين ولاية امريكية وقد قال هذا الكلام فى الطبعة الاولى من كتابه عام ١٩٦١ وأكده بعد ذلك فى الطبعة الخامسة « التى نستند اليها فى الاشارة » عام ١٩٦٤ . ولا يختلف عنه المؤلفان الاخران الا فيما يتعلق بعدد الاعضاء اذ يراه ايسبين أودوم قريبا من ٢٥ الف عضو . ومرجع الاختلاف ان كل ما يتعلق بالجماعة يعتبر سرا من أسرارها لا تنشره ولا تبوح به ..

الانبياء السود :

تبدأ هذه الدراسات ببحث أسباب ظهور هذه الظاهرة بين الزنوج الامريكيين ، واجمال البحث هو ان كل ما سبق تقريره عن تاريخ النجرو وصورته ودوره وسد جميع المنافذ امامه ، أدى الى احساس باللون فى حياتهم وهذا الاحساس انقلب الى وعى بدور وكيان جماعة سوداء فى وسط أبيض معاد . وهذا الوعى بالذات الجماعية يتمثل فى رفض الوضع والتعبير بالاحتجاج الدائم على فرضـــه بالقوة البيضاء ، وهذا الاحتجاج الدائم نما كأى شىء فى الوجود من همس الى مظاهرات الى هروب الى عنف .. الخ . من الصور النفسية والواقعية المعـــروفة فى علم النفس الجماعى . وقد قامت فكرة القومية السوداء على

رفض النمط الابيض لشخصية النجرو ودوره في الحياة. ولهذا يعتبرها الدارسون أكثر من ثورة وأكثر من شجاعة لانها تريد اعادة تقييم الحياة وحقائقها ومراجعة التاريخ واعادة كتابته ، ورفض التعاون في الوضع الادنى اقتصاديا ونفسيا مع التطلع الى امتلاك السلطة او السـيطرة على ادارتها . وكثيرون يرون في قول ماركوس جارفي عام ١٩٢٠ رمزا وتعبيرا عن هذا التفسير . لقد قال : « منذ اليوم يجب ألا يتوقع الرجل الابيض ان دماء النجـرو ستسيل ، انما الذى سيسيل هو دم الابيض لان هذا هو طريق تحرر النجرو » . ويضيف اريك لينـكولن بأن عبقرية النجرو مدفونة فى أعماق الازمة التى يحياها ..

ويرى أيسبين أودوم أن القومية السوداء هى البحث عن تحقيق الذات واثبات الشخصية فى امريكا ، وانهـا نتيجة اجتماعية نفسية لما درسه ببراعة وشمـول جنر ميردال فى تقريره عن « المعضلة الامريكية » ، وان دراسته قد دلته على اشتعال نيران الصراع النفسى فى داخل الكيان الذاتى للنجرو ، وان المؤسسات والمنظمات الزنجية فى ضعف مستمر ، مع نمو التناقض فى القيم والمثل والنظم التى يطلب من الزنجى احترامها والاخذ بها . ولذلك فهو يرى أزمة ويأس النجرو من الوضع الراهن . والزنجى الذى يعنيه فى دراسته هو الجماهير السوداء الضـائعة التى لا جذور لها فى التركيب الاجتماعى الامريكى . وان هذه الجماهير يظهر فى حياتها ثلاثة عوامل تـدل على الاحساس بالانفصال والوعى بالذات اللونية العنصريـة السائد فى أعماق هذه الجماهير ، وهذه العـوامل هى الافتراق عن البورجوازية السـوداء وقد بدأت الجماهير السوداء تحدد موقفها من البورجوازية السوداء تماما كما فعلت من قبل مع البورجوازية البيضاء ، وهى اعادة تحديد

وتقويم الموقف تجـــــاه المؤسسات والمنظمات الزنجية والقيادات القديمة ، وهى تجديد وتنمية احساس قـوى بافريقيا المعاصرة في الميدان الدولى ودورها العالمى ..

ويقول اريك لينكولن ان كل حركات ودعوات القومية السوداء لها جذور ثلاثة هى : تزايد ونمو الاســـتهانة والتحقير من قدر الرجل الابيض وثقافته وقيمه ومثلـه السائدة والمفروضة عليه ، وهى رفض وانكار النمط المقرر لشخصية النجرو وكيانه الاجتمـــــاعى ، وهى التلهف والتشوق نحو تملك شعارات ومثل الثقافة الاســيوية الافريقية ومحاولة اثبات وجودها فى الميراث التـاريخى والفكرى للزنوج الامريكيين . ويضيف الى هذا ان محاولة جماهير النجرو الهروب من هذه الانماط والنمـــــاذج المفروضة مع تمسك البورجوازية السوداء بها ودأبهـا المستمر على التطلع الى البورجوازية البيضاء والالتصاق بها ، أدى هذا الى نمو الانشقاق فى داخل كتلة الزنوج الامريكيين وجعل مظاهر التركيب الطبقى والتقســيم الطبقى تدخل فى معركة الزنوج . ولقد لاحظ فى دراسته كما سنشير فيما بعد ان الغالبية العظمى من انصار هذه الدعوات والمنظمات يعيشون فى المدن بعد أن هاجروا من الريف والبيئة الزراعية والمدن الصغرى فى الجنـوب . وانهم فى المدن يمثلون الطبقات المحرومة والفئات الضائعة فى شوارع وحوارى هذه المدن الضخمة . كمـــا لاحظ المؤلف ان متوسطات الاعمار بين هؤلاء الانصـــار ليست كبيرة كغالبيتهم ما زالوا فى العشرينيات والثلاثينيات . وانهم ذكور من بين الزنوج الامريكيين أصلا ومولدا ..

ويضيف بعض الدارسين الى ان الظـــاهرة الواضحة فى حياة هذه المجموعة البشرية السوداء هى ان الطبقات المتوسطة والعليا تهرب من الارتبـــاط بجماهير الزنوج

فى امريكا وان الارتباطات بين الطبقات العليا والمتوسطة الممتازة وبين الطبقات الدنيا الضائعة من الزنوج ـ قد ذبلت اليوم ، ولذلك فلم يصبحوا زعماء الطائفة او المتحدثين باسم الجماعة ، وهذا ما دفع الجماهير الى البحث عن قيادات أخرى من بينهم فلم يجدوا حتى الآن سوى دعاة القومية السوداء . وقد أثار أيسبين أودوم مناقشة هل تنطبق ظاهرة وفكرة القومية على هذه الجماعة البشرية السوداء فى امريكا ، ووصل الى ان المناقشة الاكاديمية وحدها لن تصل بالبحث الى حل .. اذ أن الواقع التاريخى والواقع المعاصر يفرضان أنفسهما على أى بحث . وأدى هذا به الى القول بأن كلمة « نجرو » انما هى ترتيب وتوصيف اجتماعى فى معناه الواسع للشخص اسود اللون فى امريكا ، وليست وصفا عنصريا أو شيئا يتعلق بالسلالة والاصل فى امريكا ..

ويجمل اريك لينكولون المناقشة فى أن الدين والوضع السياسى والوضع الاقتصادى وفكرة الدولة أو القومية المنفصلة كلها عوامل وأسلحة تدخل فى النقاش والمعركة . وان هذه العوامل والاسلحة قد تستخدم كلها أو يستخدم بعضها ، وهذا واضح من مراجعة سريعة للجماعات الداعية الى القومية السوداء ومن أمثلتها جماعة أمة الاسلام والحركة الافريقية القومية المتحدة وجماعة رأس تفاريانز فى الكاريبى ، وحركة نوبل درو على وحركة ماركوس جارفى .. الخ . فكلها حاولت تغيير الواقع بطرق ووسائل غير الطرق والوسائل التى تدعو بها الجماعات والقيادات الزنجية الاخرى . لقد حاولوا تغيير الواقع بتغيير الاسم وتغيير الدين وتغيير النماذج الثقافية وتغيير الموطن بالعودة الى افريقيا وتغيير الموطن باقتراح انشاء ولاية أمريكية سوداء .. الخ . وسواء تحققت هذه الدعوات والتغييرات

أم لم تتحقق فهى اتجاهات وحقائق موجودة وليست ظواهر منعزلة ..

نوبل درو على :

فى عام ١٩١٣ انشأ المعبد الاسلامى فى نيوجرسى ، وبذلك بدأ حركة انتشرت فى مدن الشمال والوسط وامتدت الى مدن الجنوب ، ووصل عدد أتباعه الى رقم يتراوح ما بين ٢٠ الفا و ٣٠ الفا فى أثناء حياته وزعامته للمنظمة . وتقول الدراسات الخاصة بنشاطه انه تحول من المسيحية الى الاسلام ، وان الاسلام الذى عرضه على اتباعه ومؤيديه كان خليطا من القيم والمثل الاسيوية التى تأخذ من عيسى وموسى ومحمد وبوذا وكونفوشيوس . ولهذا فقد سمى اتباعه بالاسيويين أحيانا وبالمسلمين السود والمسلمين أحيانا أخرى . ونلاحظ انه استعمل الكلمة الاجنبية « المورز » ولم يستعمل كلمة «مسلم» . وقامت حركته على أساس عدم العنف والتمسك بالمثاليات الاخلاقية والسلوكية . ورفض رفضا مطلقا قبول عضوية ذوى الاصل الابيض الاوربى « الجنس القوقازى » . واستعمل كلمة « الاسيوية » للدلالة على جميع الملونين والزنوج . وانتهت حياته بقتله فى احوال غامضة لم يكتشف احد سرها حتى اليوم . وبعد وفاته انقسم اتباعه فما زال بعضهم يتمسكون بدعوته ، وانضم البعض الاخر الى جماعة امة الاسلام . وكان هذا «النبى» كما اطلق على نفسه يرى ان الزنوج الامريكيين امتدادا لاسيا وافريقيا وانهم لابد ان يكونوا امة ولا بد لهذه الامة من أرض تعيش عليها فى كيان مستقل وذات واضحة ..

ماركوس جارفى

فى فترة مقتل نوبل دورملى عام ١٩٢٠ ، ارتفع نجم

ماركس جارفى ، وكان الزنوج على استعداد لتقبل دعوته . فقد انتهت الحرب العالمية الاولى وتعقدت حياتهم فى فترة الحرب وفى الفترة التى تلتها . لقد هاجروا للمدينة بحثا عن العمل فلما وجده بعضهم نتيجة لمتطلبات التوسع فى احتياجات اقتصاديات الحرب ، فوجىء العاملون بتسريحهم بانتهاء هذه الحرب طبقا للمبدأ السائد فى دوائر الاعمال بأن النجرو آخر من يستخدم وأول من يفصل . وهام الجميع فى شوارع المدن الكبرى ، ولما عاد المجندون الزنوج من مسارح الحرب فى فرنسا قوبلوا بكل احتقار واساءة . ولم يذكر لهم أحد انهم حاربوا وماتوا دفاعا عن مدنية الرجل الابيض فى اوربا . ففى العام الذى تلى انتهاء الحرب قام البيض بشنق ٧٠ زنجيا علنا فى الميادين العامة ، وكان بعضهم ما زال يلبس الملابس العسكرية ، وبجانبهم حرق ١٤ زنجيا وهم أحياء فى شوارع وميادين مدن الجنوب . وشهدت الولايات المتحدة صيف عام ١٩١٩ الذى تسميه كتب التاريخ الصيف الإحمر . فقد ثار فى امريكا ٢٥ اضطرابا عنصريا . واستمر اضطراب واشنطون ثلاثة أيام وكانت فيه حرائق ومذابح . أما اضطرابات شيكاغوا فقد استمرت ١٣ يوما وانتهت بقتل ٣٨ وجرح ٥٣٧ شخصا بجانب التخريب والحرائق والتدمير الفظيع الذى عانته المدنية . وقد نشطت جمعية كوكلوكس كلان فى الجنوب والوسط والشرق والشمال بشكل واضح ..

وظهر جارفى فى هذه الفترة لينادى الزنوج قائلا : « انهضوا أيها الجنس المختار » ، واحتوى البيان الاساسى لانشاء جمعيته الزنجية العالمية على ان مهمة الجمعية هى تنمية الاحساس بالفخر باللون الاسود . وتقوية الدعوة لحق تقرير المصير للدول الافريقية المستقلة ، والدعوة

لانشاء معاهد وكليات لتعليم الشباب الزنجى ، وأعلن البيان ان شعار الجمعية هو « رب واحد وهدف واحد ومصير واحد » ..

ولقد بنى ماركس جارفى دوره ودعوته على أساس أن زعماء الزنوج والمنظمات الزنجية العاملة فى ذلك الوقت ليس لهم جميعا برامج عمل ، وانهم انتهازيون يعيشون على استغلال الجماهير الرابضة فى قاع المجتمع وقد استنتج جارفى من هذا ان السبب هو أن الزعماء ملونون وليسوا زنوجا أنقياء الدم ولذا وضع برنامجه على أساس عدم الثقة فى هؤلاء الخلاسيين . وقد أصدر جارفى مجلة تنطق باسمه بلغات ثلاث هى : الاسبانية ، والفرنسية ، والانجليزية ، وقال ان انصاره قد وصلوا الى مليون ..

وقد سبقت الاشارة الى بعض مظاهر دعوة جارفى وكيف تصور أفريقيا وما توقعه من مستقبل للجنس الزنجى عامة ، وزاد على هذا بأن أنشأ كنيسة جديدة لاتباعه وربط بينها وبين الكنيسة الاورثوذكسية السورية . وبهذا دخلت الاورثوذكية فى حياة المسيحية الامريكية ، وغالى جارفى فرسم صور المسيح والعذراء بلون اسود وكذلك صور الملائكة وجميع شعارات الكنيسة . وكما قلنا قد فشلت جميع أحلامه وتكاثر أعداؤه وخاصة من بين الزنوج الامريكيين ، وقد تم اغتيال أحد المنشقين على جارفى وهو جيمس ايسون وكان من كبار معاونيه . وللآن لم يكتشف احد اسرار الجريمة . وسوف نتذكر ايضا جريمة اغتيال مالكولم اكس عام ١٩٦٥ . ولعل هذا احد المظاهر الواجب دراستها فى حركة الزنوج الامريكيين وفى المجتمع الامريكى بصفة عامة ..

وحينما تقرر العفو عن جارفى عام ١٩٢٧ بشرط مغادرته امريكا ، لم تمت دعوته نهائيا حتى بعد موته عام ١٩٤٠ فى

لندن . ولكن الضعف أصابها ، وما زال له اتباع وأنصار خاصة فى ديترويت وشيكاغو وان كانوا قد انقسموا على بعضهم بعضا ، وما زالت الكنائس الارثوذكسية التى أنشأها تعمل فى أمريكا ..

والشيء الذى لفت نظرى وأرجو أن أدرسه فى المستقبل هو أن جارفى تقابل مع رجل مصرى فى لندن عام ١٩١٢ وتأثر به ، وكان هذا الرجل يدعى طبقا للمراجع الانجليزية ديوس محمد على وكان يصدر مجلة أفريكان تايمز وأورنيت ريفيو ..

فرض محمد على

مات نوبل درو على وظهر جارفى ، وطرد جارفى من أمريكا وتحطمت منظمته الزنجية فظهر فى الثلاثينيات النبى « فرض محمد على » . وكان المسرح الامريكى يشهد آثار الازمة الاقتصادية الضخمة التى هزته وهزت معه العالم . قد ظهر هذا الرجل فى ديترويت عام ١٩٣٠ ، والاقوال متضاربة عن أصله هل هو عربى أم آسيوى ؟.. هل جاء من جامايكا أم من الحجاز .. لا أحد يستطيع البت فى هذا الموضوع وكان الرجل بائعا متجولا يمر على المنازل ويقابل ربات البيوت ليبيع لهم الاقمشة والادوات التى يحملها . وبواسطة هذا الاتصال اليومى بدأ يحدث الزنوج عن الاسلام والنبى محمد وان المسيحية ليست دين الزنوج بل لهم دين آخر فى آسيا وافريقيا . ونما عدد المؤيدين لدعوته فأنشأ معبدا واستطاع أن يضم الى انصاره عددا من بقايا اتباع نوبل دروعلى . وانضم اليه أحد الزنوج المسيحيين المهاجرين من الجنوب واسمه ايليابول . وأصبح اسمه ايليا محمد الذى رأس الجماعة بعد اختفاء فرض محمد على الغامض عام ١٩٣٤ والذى لم يكتشف سره أحد حتى اليوم ..

يرى سلبرمان فى دراسته عن أزمة الاسود والابيض ان « المسلمون السود » مهمون جدا فى ميزان القوى الموجودة فى داخل كتلة الزنوج الامريكيين وانه لابد من ملاحظة تزايد عددهم . وان الجماعة تعد أنصارها بالثأر من الرجل الابيض . ويشير الكاتب الى نداءايليا محمد الى الرجل الزنجى أينما كان قائلا : « انهض ونظف نفسك وقف فى صلابة » ، كما يشير الى مالكولم أكس وكان فى ذلك الوقت الساعد الايمن لزعيم الجماعة الذى قال : «ان أكبرجريمة ارتكبها الرجل الابيض هى أنه علمنا أن نكره أنفسنا» . وكان هذا فى معرض حديثه عن ان الحل لازمة النجرو وقضيتهم انما يأتى من داخل كيان الفرد الزنجى ومن داخل كيان المجموعة البشرية السوداء . ويتفق معهم جيمس بالدوين فى مؤلفه « النار .. فى المرة القادمة » بأن اعظم ما فعله ايليا محمد ولم يستطع أحد من القيادات الزنجية ان يفعله قبله ، هو أنه عالج المنحرفين وشفاهم من أزمتهم النفسية والضياع الذى تدهوروا اليه ، وانه أخرجهم من سجنهم واطلقهم ليتطهروا ويمتنعوا عن ارتكاب الجريمة واحتراف القوادة ، كما خلص النساء الزنجيات من آثار جريمة الرجل الابيض . ويضيف لوماكس فى كتابه « ثورة الزنوج » ان ايليا محمد ومالكولم اكس هما أحسن من يعرف حقيقة ونفسية النجرو فى امريكا حتى الآن بين جميع الزعامات والقيادات الزنجية ..

وفى هذه الدراسة التى نقدمها عن أمة الاسلام لانتعرض لمضمون تعاليمها الدينية الفقهية الاسلامية ، ولا عن توافق هذه التعاليم أو عدم توافقها مع تعاليم الدين الاسلامى الذى يعرفه المسلمون من أهل السنة وكماأخذها المسلمون جميعا عن نبى الاسلام . ففى هذه النقطة

دراسات عدة تبرز تناقضا واختلافا ، وهناك جمعيات ومؤسسات اسلامية فى الولايات المتحدة وكندا تقول بهذا وقد شرحوه فى كتب ودراسات مقارنة . وسبب موقفي هذا هو ان الدراسة الحالية ليست دراسة دينية فقهية لانتشار الدين الاسلامى أو لتعاليم ودعوة الفرق والطوائف الاسلامية . انما هى دراسة سياسية فى الاصل وفى الهدف عن قضية الامريكيين السود وعن تطورها السياسي ومشكلاتها المعاصرة فى داخل اطار الحياة الامريكية الداخلية وانعكاسات هذا الموقف الخارجى وتأثره به ..

وأيضا لن أتناول بالتفصيل الاتهامات الخيالية والقصص التى تنتشر فى بعض ما يكتب أو يذاع عن هذه الجماعة فى أمريكا . وهذا فيما يتعلق باتهامها بأنها من صناعة البلاد العربية الاسلامية عامة ومن صناعة الرئيس جمال عبد الناصر خاصة . وأحيانا يقال عنها انها جماعة يمولها الشيوعيون وأعداء أمريكا عامة . والذى يروج لمثل هذه الاتهامات هم جماعة يهودية أو دعاة صهيونيون فى داخل بعض المنظمات الزنجية الاخرى أو فى خارجها . وفى ترويجهم لمثل هذه الاتهامات الخيالية يتلمسون الدليل فى تلغراف تسلمه رئيس الجماعة من الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٨ ، أو فى زيارة لمالكولم أكس الى الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٩ ، ثم فى زيارة ايليا محمد للبلاد العربية فى طريقه الى الحجاز والاراضى المقدسة . ومن جانب آخر تبدى مجلاتهم وصحفهم رأيها فى أحداث الوطن العربى وافريقيا وتأخذ جانب التأييد للقضايا العربية والافريقية وهذا يتخذه مروجو الاتهامات دليلا على وجود العلاقات التى يتقولون بها . وفى احدى المرات اصدر الشيوعيون الصينيون نداء الى جميع الشعوب والجماعات

الملونة فى العالم الى تأييد حركة الكفاح ضد التفرقة العنصرية فى امريكا وكان هذا فى عام ١٩٦٣ وحيا المسلمون السود هذه المبادرة فى جرائدهم . فكان ان هاجت الدنيـــــا وهاجمهم زعماء المنظمات الزنجية وفى مقـــدمتهم روى ويلكنز الذى اتهمهم بالعمالة للشيوعية الدولية ..

والعلامة الاولى فى دراسة حركة المسلمين السود هى انهم ورثوا بصـــدق اهتمـامات نوبل دروعلى وماركوس جارفى بالجماهير السوداء فى امريكا . الجماهير المنسية الضائعة فى شوارع المدن الكبرى ، الجماهير التى انفصلت عنها البورجوازية السوداء فى جريها وسعيها الحثيث وراء الاندماج فى البورجوازية البيضاء ، ومع ذلك ما زالت تقابل بالصد والاحتقار من جانب البيض . الجماهير التى لا ترى الدنيا الا فى صورة الابيض والاسود ، ويمتلك الابيض كل شىء من الاقتصاد والمستقبل والســـــلطة السياسية ولا يمتلك الاسود شيئا وليست عنده ادنى بادرة من الامل فى امتلاك شىء فى المستقبـل القـريب أو البعيـد . الجمـــاهير ألتى تردت فى هوة ســحيقة من الانحلال ومن الجريمة ومن اليأس ، فلا تجدها الا فى السجون والمصحات وجيوش البطالة ودور الدعارة وأماكن بيع وتعاطى الخمور وفى الغيتو الأسود فى قلب المدينـة حارة الزنوج » ..

وبذلك وترتيبا على هذا عاش دعاة الجمـــاعة والداعين للانضمام اليها فى أوساط الجماهير طوال حياتها منـــذ البداية أيام فرض محمد على حتى اليوم . وبذلك ارتفعت عضويتها من ثمانية الاف أيام هذا النبى الاول الى ١٠٠ الف او ٢٥٠ الفا أيام زعامة وقيادة الرسول ايليا محمد . وأحست الجماعة بعقلية الجماهير والتوترات التى يعيشون فيها فاتخذت من المظاهر والشعارات والتنظيمات ما يجذب

أنظار الجماهير ويستأثر بولائهم مثـل المعـابد والمجلات والجرائد والتنظيمات شبه العسكرية والمدارس • ويقول الدارسون لنشاط هذه الجماعة انها تأخذ الزنجي فتجعله يغير اسمه ويغير دينه ويغير لغته ، وتمنحه اطارا اخلاقيا سلوكيا يجعله متميزا عن غيره في حياته اليومية ، وبذلك يشعر بكيانه وذاتيته وحياته وتصبح له قيم ومثل وأهداف جديدة ليست لها صلة بالماضي الذى جنى عليه . ولذلك فنشاط دعاتها واضح بين المسجونين ورواد المصـحات والبارات وفى الاماكن العامة وإركان الشـوارع • وفى الوقت نفسه نجد ان برنامجها لا يلقى قبولا من الطبقات البورجوازية العليا السوداء وفئات المثقفين بنفس الشكل الواسع الذى يلقاه من الجماهير السـوداء • ويفسر المسلمون هذا الموقف بأن كراهية الطبقات السوداءالممتازة وفئات المثقفين لهم مرجعها الى ان هذه الطبقات والفئـات تعرضت لنوع من غسيل المخ الذى قام به المجتمع الابيض بحيث اصبحوا بعيدين كل البعد عن معـرفة حقيقتهم الزنجية السوداء ••

ويستكمل المسلمون هذا التركيب الاجتماعى الجديد بسلسلة من المدارس الابتدائية والثـانوية وعـدد من المراكـز التربوية والتعليمية والمهنيـة تحت شـعار تعلموا شيئا لانفسـكم وعن أنفسـكم . ولهم جامعتـان فى شيكاغو وديترويت معروفتان باسم جامعة الاسـلام وفى هذه المدارس يعلمون اللغة العربية والتاريخ الافريقى والاسلامى • ولهم عدد من الصحف والمجلات والمطبوعات التى تتكلم كثيراً فى هذه الموضوعات ••

والعلاقة الثانية المميزة للجماعة هى انهم يرفضون أن يطلق عليهم كلمة « نجرو » ويرون ان الخطورة ليست فى حروف الكلمة أو تركيبها فقط انما كل الخطـورة فى

تاريخها واثارها النفسية • ولذلك يطلقون على انفسهم كلمة « المسمون نجرو » أو « السود » ويرون ان استعمال هذه الاسماء والكلمات الجديدة انما هى اعلان عن رفضهم للعبودية العقلية والفكرية التى ما زالت الجماعة البشرية سوداء اللون ترزح تحتها فى امريكا • ويشرحون أسباب أسقاط أسماء السادة بمجرد اسلامهم واستبدالها بأسماء جديدة أو بحرف اكس ، ان اسماء السادة هى عنوان جريمة حب الجنس الابيض التى ورثوهـــا عن أبائهم واجدادهم ، وانهم يريدون التحرر منها ومن اثارها ..

ويرتبط بهذه العلامة المميزة الايمان بأنهم قبيلة أو أمة تائهة فى هذا المجتمع الابيض ، جاءوا من افريقيا واسيا ، واخيرا عثروا على انفسهم واكتشفوا حقيقة كيانهم بعد أن جاءهم النبى فرض محمد . وان الرسول الحالى يساعدهم فى الاستعداد وفى الاعداد النفسى لمواجهة مسئوليات يوم المصير الذى لابد من قدومه • ولهذا فعليهم ان يعملوا وان يجدوا بصفة فردية وصفة جماعية ولا يخافون من أحد فى سبيل ان يشفوا الجماعة كلها من مرض وجريمـــة غسيل المخ الذى تعرضت له الجماعة البشرية السوداء • واستطرادات هذا الايمان تذهب الى ان فرض محمد على جاء من الجزيرة العربية باسم والاس فرض عام ١٩٣٠ ثم اصبح عام ١٩٣٣ نبيا باسم والاس فرض محمد • وانه الان يختفى فى مكان لا يعرفه الا الرسول ايليا محمد • وان صورة الكمال الانسانى هى فى شخص الله وان الله رجل أسود لان السواد هو صورة الكمال الانسانى .. الخ ، وأيضا تتفرع الاستطرادات الى ان الرجل الاسود هو الاصل فى خلق الكون الحالى لانه موجود منذ بــدء الخليقة ، بينما الرجل الابيض موجود منذ ٦٠٠٠ سـنة فقط ، وأن المسمون نجرو فى أمريكا هم سلالات هـذا

الرجل الاسود • وهنا يستخدمون فقـــرات عديدة من التوراة والانجيل والقرآن وكتب التـاريخ لتأكيد هـذه الاقوال • وللتأكيد على ان الرجل الابيض سرق من السود دينهم ولغتهم وتاريخهم وحولهم الى عبيد له ••

والعلامة الثالثة المميزة للجماعة هى المستويات المرتفعة فى الاخلاقيات والسلوك الفردى والجماعى • وهـذا أمر لفت أنظار جميع الدارسين أصدقاء وأعداء ، وهـــذه المستويات تتعلق بأمور دينية مثل الصلاة والنظافة وطرق المعاملة وتناول الطعام والعلاقة بالاخرين والنظـــرة الى أوضاع الحياة ، مع قائمة من المحرمات يجب تطبيقها بكل دقة ، وفوق هذا فهناك مسئوليات واحساس بالتضامن الجماعى • ولهم تنظيمات واوضاع خاصة فى العمـــل والسعى على الرزق وعلاقة المرأة بالرجل ودور المرأة فى حياة الجماعة •• الخ ••

والعلامة الرابعة فى الدراسة هى ان للحركة أهـدافا وغايات يؤمن بها أتباعها ، وعلى أساسها يقيمون علاقاتهم مع الجماعات الزنجية الاخرى ، ويمكن تلخيصها فى الاتى :

١ ـ الدعوة الى جبهة متحدة من كل السود فى أمريكا تقاتل من أجل العدالة والحرية ، وباستمرار يرون أن توحيد السود هو الطـريق والخطوة الى الانتصار • ومن هنا تأتى خلافاتهم مع المنظمات الزنجية الاخرى ويشتد هجوم الجماعة عليهم • ومع الايمان بهذا الهدف يقول الدارسون ان ايليا محمد لا يعلم أنصاره التمرد على السلطة ولايدفعوهم الى التآمر على الحكومة القائمة..

٢ ـ الفصل العنصرى بين البيض والسود ، وان هذا الفصل لايتم فجأة بل يجب ان يأخذ مراحل عدة ويبدأ بالفصل الاقتصادى ثم يتلوه الفصل السياسى ، ويبنى دعاة الجماعة منطقهم هذا على أساس أن دعاة الاندماج غير واقعيين لان الطرف الاخر فى عملية الاندماج « وهـو الابيض » يرفض هذا الاندماج حتى الان • وليست العبرة بالقبـول قولا انما العبرة بالقبول واقعا وتنفيذا ، وانه اذا كان الزعمـــاء الحاليون بين الزنوج ينادون بالاندماج فالواقع أن الجماهير السوداء لا تفهمه ولا تريده ولا ترى امكانية تطبيقه •••

٣ ـ الانفصال الاقتصادى يقوم على أساس وضع ضمانات اقتصادية

وتهيئة أوضاع اقتصادية لتشغيل الزنوج وأسهامهم في الانتاج بدور رئيسى ، ومن الناحية الفردية فتعاليم الجماعة تدعو كل عضو الى أن يصبح ذا مهنة أو ذا عمل وأن يتمسك بالقواعد الدينية التي ترفض الاسراف والاستدانة والجري وراء المظاهر الفارغة . والجماعة لا تمنع أنصارها من العمل لحساب الابيض مادام يدفع الاجر كاملا ولا يتناقض هذا مع تعاليمها الاخلاقية الاساسية . وقد شجعت انصارها على افتتاح محلات للبيع والتجارة ودعتهم الى التعامل مع بعضهم بعضا . وأقامت معارض سنوية لتشجيع الانتاج الزنجى ..

٤ ـ ان هذا الانفصال الاقتصادى والسياسي يتم على أرض الولايات المتحدة ذاتها ، فهم يطلبون قيام أمة في داخل الاطار السياسى الامريكى ، ويطلبون أحيانا أن تكون لهم أرض طيبة في أمريكا . ويتحدثون عن حقهم في هذا بأن الارض الامريكية اصلا أرض مسروقة من الهنود الحمر وهم ملونون وبهذا يكونون اخوة الزنوج . كما أن الزنوج قد اراقوا عرقهم ودماءهم في صناعة هذا الكيان الامريكى ..

وجماعة أمة الاسلام تتحاشى باستمرار أن تتهم بالتمرد والتآمر على كيان الولايات المتحدة ، وهى التهمة التى وجهت الى غيرهم مثـــل جارفى من قبل ، واستخدمتها السلطة البيضاء في تحطيمهم . ولذلك يقولون أن كل مايربطهم بخارج أمريكا هو آخوة للمسلمين وأخـــوة للزنوج وليس ولاءسياسيا أو ولاء تنظيميا . وفى هذا يشرحون معنى « العودة الى افريقيا » بأنه في نظرهم شعار ورمز لمعانى التجمع واكتشاف الماضى والتاريخ والكيان الحاضر وانهم يطلقون اسم افريقيا على مفهوم واسع يشمل بلاد العرب والاسلام وافريقيا .. ولا يريدون به شـــيئا آخر.

٥ ـ يطلبون أن تكون المبادءة من السود لحل القضية الراهنة وان يتوقف كل اعتماد وكل مساندة من البيض ، وان يتم اشتراك الزنوج في توزيع وتسيير شئون السلطة في الولايات المتحدة على قدم المساواة حتى يمكن الوصول الى حل مقبول وعادل للقضية والازمة الراهنـــة في داخل المجتمع الامريكى ...

وتتعرض الجمـــاعة بشـــكل عام لانشـــقاقات تنظيميـــة وفكرية ، فقد خرج كثيرون على أيليا محمد في أثناء الفترة الاولى لتركيز سلطته وتوجيه الجماعة . واخر هـــــذه الانشقاقات خروج مالكولم اكس الذى كان مرشحا لخلافة ايليا محمد في الزعامة ، كما أن اغتياله علنا في اجتماع عام قد وجه الاتهام الى جماعة امة الاسلام وان كان هذا لم يثبت قانونا حتى الان واصبحت القضية لغزا مثـــل حوادث الاغتيال السابقة لبعض الزنوج . وعلى الرغم من

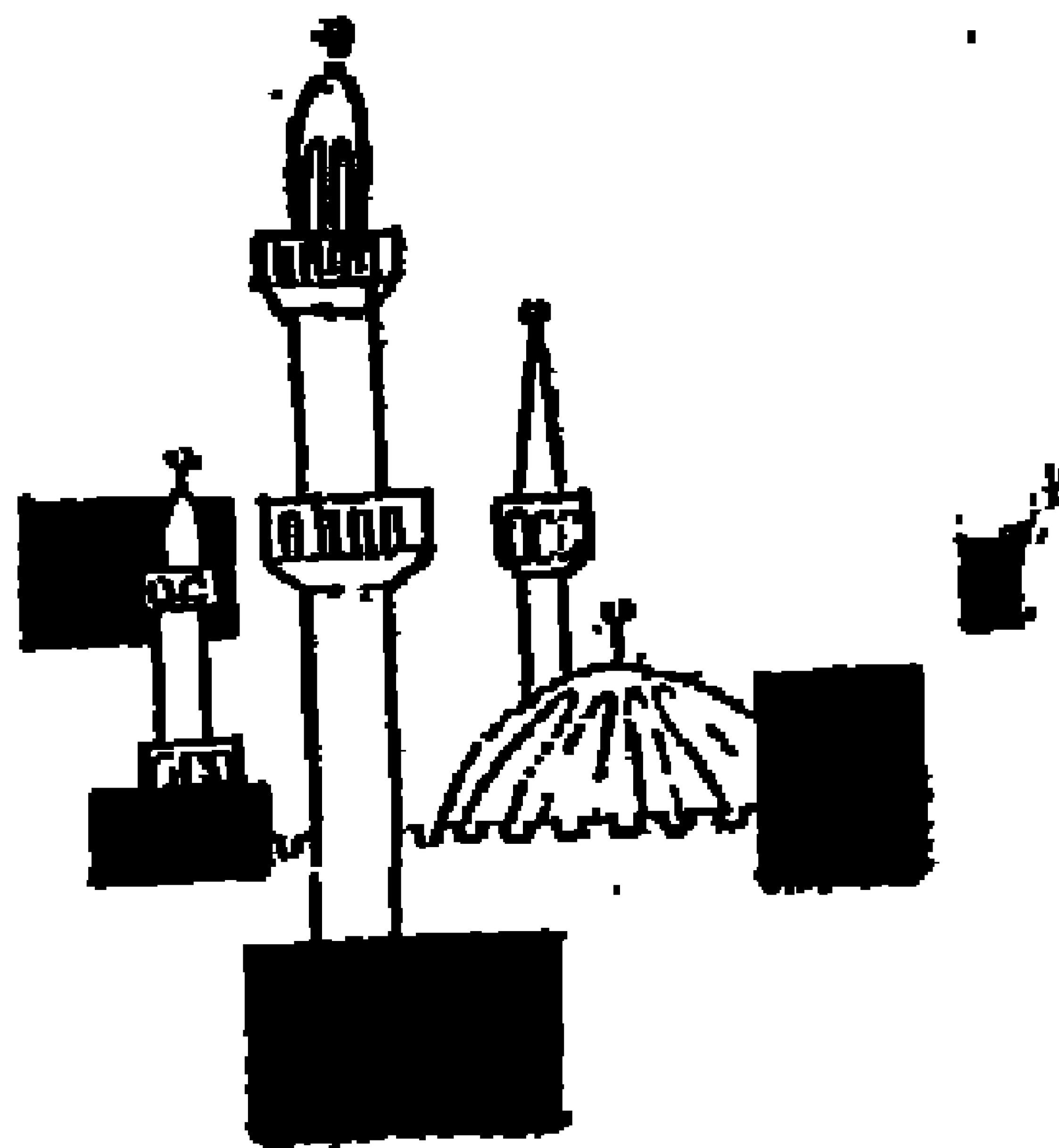
وجود اتصالات ومقابلات سياسية بين أمة الأسلام وزعماء الجماعات الزنجية الاخرى ، الا ان الجماعة تحمل احتقارا وكراهية لهذه الزعامات وتحمل عليهم باستمرار لسبب تعاونهم مع الليبراليين البيض ونتيجة لموقفها الخاص تجاه قضايا العرب وقضايا المسلمين والافريقيين ، كما انها تتهم هؤلاء الزعماء بالبورجوازية من أمثال روى ويلكنز سكرتير عام الجمعية القومية لتقدم الملونين ، ويتركز هجوم الجماعة الشديد على مارتن لوثر كينج الذى يهاجمونه باستمرار وبعنف ، ويرفضون أساليبه فى المقاومة السلبية وعدم العنف . ولقد تحداه مالكولم اكس فى أن يحضر لنيويورك وان يحاول الحصول على تأييد وولاء جماهير زنوج هارلم كما هاجمت الجماعة دور اليهود ووجودهم فى المنظمات الزنجية العاملة فى الولايات المتحدة

وقد بدت فى حياة الجماعة ظواهر جديدة مثل السماح للبيض بحضور اجتماعاتهم ومواكبهم بعد أن كانوا يرفضون رفضا باتا قبولهم فى هذه المناسبات . واخيرا سمح ايليا محمد لانصاره بالاسهام فى الانتخابات وعمليات الاقتراع اذا رغبوا فى ذلك . وقبلا كان موقف الجماعة الرسمى هو الرفض الصريح للمشاركة أو الاسهام فى التسجيل فى دفاتر الانتخابات او الاقتراع أو الاشتراك فى الانتخابات بالولايات المتحدة ..

وخلاصة القول أن أمة الاسلام جماعة سياسية لم تدخل الميدان السياسي بصورة ايجابية حتى اليوم . ولهذا يتخوف كثيرون من الدارسين من نشاطها على أساس ما تبديه اليوم من آراء وما تعلنه من مبادىء وأهداف • وعلى أساس استقطابها لتأييد جماهيرى واسع من بين الفئات والطبقات الدنيا فى المجموعة

البشرية سوداء اللون . وعلى أساس أنها ترفض الاتجاه الاندماجى التذويبى الذى تتبنـاه وتعمل على أساسه الجماعات والمنظمات الزنجية الآخرى ..

ولهذه الجماعة أثر هام فى أنهـا دفعت الى ميدان المعركة دفعـا عنيفـا واضحا الاتجاهات والاحساس بانفصال البورجوازية السـوداء عن جماهير الزنوج . وان هذا أيضا وسع من الهـوة التى تنمو بين القيادات والزعامات الزنجية القديمة وبين الجماهير ، وما فى هذا من خطـورة انتزاع القـواعد من تحت أقدامهـا ومن عضوية منظماتها . وفوق كل هذا فجماعة أمة الاسـلام هى التى زرعت بشـكل واضـح ملموس الاحساس بوجود افريقيـا ودورها فى حيـاة الزنوج الآمريكيين وذلك بمـا تنشره عن الميراث التـاريخى وما ينعكس من الارتبـاط الدينى بالاسـلام وما تقوله من أن الاسـلام هو دين الافريقيين والـزنوج والملونين وأن المسـيحية هى دين الرجل الابيض . وهـذا القـول يبرز فى غلاف الصراع اللـونى بين الاسـود والابيض ، وفى غـلاف الصراع العنصرى ذى الجـذور الاجتمـاعية والثقـافية والسياسية والاقتصادية العميقة فى التركيب الاجتمـاعى وبناء السلطة فى الولايات المتحدة ..



الفصل السابع

انتخابات عام ١٩٦٤

الأقلية الصاعدة في المجتمع الأمريكي

في عام ١٩٦٤ خاضت الولايات المتحدة معركة انتخابية لفتت نظر كل الناس بسبب ضخامتها وتنوع وسائلها وتعدد الموضوعات التي أثارها المرشحون . ونتائج هذه المعركة تنعكس حاليا ومستقبلا على العالم أجمع ، ومرجع هذا أن الولايات المتحدة هي احدى الدولتين الكبيرتين في العالم المعاصر ، وأنها ترسم استراتيجيتها السياسية والاقتصادية والعسكرية على نطاق عالمي ، ولهذا فان أي حركة من جانب صانعي السياسة فيها ومنفذيها تنعكس بطريق مباشر أو غير مباشر ، بالسلب أو بالايجاب على باقي دول وشعوب العالم

ولم تكن المعركة مقصورة على انتخاب الرئيس الامريكي ونائبه فقط ، انما هي حركة أكبر من هذا ، فقد دارت المعركة الانتخابية لاختيار عدد يصل الى ١٥٨٠ مسئولا على مختلف المستويات التنفيذية والتشريعية في الحكومة الفيدرالية وفي حكومات الولايات . فبجانب رئيس الولايات المتحدة ونائبه يتم انتخاب ٤٣٥ عضوا لمجلس النواب ، ٣٥ عضوا لمجلس الشيوخ ، ٢٥ حاكما للولايات

٣٥٣ موظفا تنفيذيا فى ٢٥ ولاية ، ٦٨٠٠ عضو فى المجالس التشريعية المتعددة فى ٤٤ ولاية من الولايات الخمسين ، ٢٥٠٠ موظف محلى فى المراكز والاقاليم

وقد اشترك فى عمليات الانتخاب عدد يصل الى حوالى ٧٥ مليون ناخب ، فاذا قورن بعدد الناخبين فى معركة عام ١٩٦٠ وجدناه اكبر بسبب الزيادة فى تعداد السكان ونتيجة لقوانين ١٩٦٤ الخاصة بالحقوق المدنية التى اتاحت لعدد من الامريكيين السود والملونين القيد فى جداول الانتخاب ، وكان عدد الناخبين عام ١٩٦٠ هو ٦٨٫٩ مليون ناخب

ولقد اهتم الدارسون بقيمة الاقلية الزنجية فى الانتخابات ، وقد منحهم قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٤ فرصا للتاثير فى المعركة الانتخابية نتيجة تزايد اعدادهم فى جداول الانتخاب • وعلى هذا فهم يبرزون كاحدى جماعات الضغط أو جماعات المصالح فى داخل المجتمع وخاصة أن نسبتهم المئوية فى تعداد بعض الولايات تصل الى ٥٤ ٪ فى ولاية اريزونا ، وتصل الى ٣٩٪ فى ولاية سوث كارولينا ، و ٣٢٪ فى ولاية الباما ، و ٣٣٪ فى ولاية لويزيانا ، و ٣١٪ فى ولاية جورجيا ... الخ ، ومن ناحية أخرى فانه من الملاحظات الهامة فى المعركة الانتخابية ان الامريكيين السود كانوا يصوتون للحزب الجمهورى منذ الحرب الاهلية ، ولكن مع الازمة الاقتصادية الخانقة عام ١٩٣٠ بدأوا فى التحول للحزب الديموقراطى ، وبلغ هذا التحول أوجه فى انتخابات عام ١٩٦٤ . وهذه الملاحظة ترتبط بالاحصاءات الخاصة بالناخبين ومنها انه يوجد فى داخل كتلة الناخبين الامريكيين حوالى ١٢ مليون ناخب غير أبيض منهم ١٠ ملايين زنجى أو حوالى ٨ ٪ من مجموع هؤلاء الناخبين

ومن ناحية أخرى كان موضوع الحقوق المدنية والغاء التفرقة العنصرية القائمة على اللون ، أحد الموضوعات الاساسية فى المعركة الانتخابية بين المرشحين للرئاسة الامريكية . ويذهب القول الى أن أمريكا شهدت أهم معركة سياسية بالنسبة لهذا الموضوع منذ لينكولن والحرب الاهلية . وقد ظهر للجميع أن المرشحين فى أثناء المعركة قد اختلفوا بعمق فى هذا الشأن .

ومن ناحية أخرى فالموضوع يشغل بال جميع الناس سواء أكانوا يرفضون المساواة أو كانوا يؤمنون بها . وقد تبنى مرشحا الحزب الديموقراطى الخط الرسمى للرئيس السابق كيندى وزاد عليه دور الرئيس جونسون فى اقرار القانون وتوقيعه ، ولهذا فقد كرر جونسون القول دائما بأن أغلبية الحزبين فى الكونجرس وافقت على القانون وانه بحكم منصبه يتعهد بتنفيذه ، كما ان له دورا اكبر فى المستقبل ، وان فرصا أكبر تنمو أمام كل أمريكى تحت ظل مبدأ الفرص المتساوية . وعلى النقيض كان جولد ووتر يقر أحيانا مبدأ المساواة وأنه لو فاز بالرئاسة فذلك معناه الالتزام بتنفيذ القانون . ولكن فى الوقت نفسه كان يهاجم السلطة القضائية الفيديرالية ويرى أن خطواتها وأحكامها بشأن تنفيذ القانون يجب أن تتصف بالبطء وأن تقلل من سرعتها وتسرعها ، وكان باستمرار يقول ان ازدياد عدد الجرائم وحالات الخروج على القانون والانحراف انما سببه هو فرض الاندماج الاجبارى بقوة القانون ولهذا كان موقفه هو رفض الموافقة على قانون الحقوق المدنية فى الكونجرس

ولقد اكتشف الحزب الديموقراطى نشرة اعلامية إعدها انصار جولد ووتر للتوزيع فى الجنوب حيث الاغلبيات السوداء ، فلما علم الحزب الديموقراطى بأمر النشرة

وتحدث عنها سحبها الحزب الجمهورى رسميا من التوزيع ، وتقول النشرة على لسان جولد ووتر انه شخصيا يؤمن ويؤيد حقوق الزنوج . ويرى ان اشتراك التلاميذ البيض والسود فى مدرسة واحدة انما هو مطلب عاقل وعادل ، وقال الحزب الديموقراطى ان هذا نوع من الاستغلال والتلاعب الانتخابى غير الشريف

وفى دراسة عنيفة اللهجة تقول مارجريت هالسى فى مجلة ليبريشن عدد نوفمبر ١٩٦٤ تعليقا على دور الزنوج فى الانتخابات ومطالبتهم بالمساواة والعدالة . ان الزنوج يريدون العدالة والمساواة ، ولهذا يجب أن يتوقف « البيض » عن هذا التساؤل المريب المستمر ماذا يريد الزنوج ؟ ويصبح المنطق الواضح المعروف للبيض والسود جميعا ، كيف يتصرف البيض لكى يحقق السود مطالبهم وحقوقهم ؟ ان مطلب المساواة مرتبط بمطلب العدالة ، وان العدالة فى المساواة هى التى تحفظ الاستقرار الاجتماعى والنظام الاجتماعى . فلقد عرف الرومان هذا منذ أمد بعيد فقالوا : دعوا العدالة تتحقق ولو سقطت السماوات على الارض

وقد لوحظ فى المعركة الانتخابية أن الخط العام لاغلبية الزنوج كان مطلب الاندماج الاجتماعى فورا بكل ما يترتب عليه من آثار ونتائج قانونية واقتصادية وفكرية واجتماعية ، وما يتصل بها من قيم وموازين وأوضاع وعلاقات . وقد ظهرت آثار حركة الزنوج الامريكية فى الانتخابات الأمريكية . فقد حصل الرئيس جونسون على ٩٦ ٪ من أصواتهم فى الانتخابات ، واذا قورنت هذه النسبة المئوية بما حصل عليه الرئيس كيندى فى انتخابات عام ١٩٦٠ وجدناها أكبر اذ انه لم يحصل عام ١٩٦٠ الا على ٥٥ ٪ من أصوات الناخبين الزنوج . وقد

اقترن هذا التحول بالموقف التكتيكى الذى اتخذه زعماء المنظمات الزنجية فى أوائل المعركة الانتخابية اذ تعاهد بعض الزعماء على وقف مؤقت لعملهم السياسى وضغطهم السياسى لزيادة اقرار حقوق الزنوج والتوسع فيها ، وكان السبب فى هذا هو أن دعاة التفرقة العنصرية وأعداء المساواة المدنية استغلوا مطالبة الزنوج بحقوقهم وبدأوا فى اثارة مخاوف البيض خاصة العمال والطبقات المتوسطة البيضاء من أن الزنوج سوف يحلون محلهم فى أعمالهم وأنهم متطرفون يطالبون بأكثر مما يستحقون ، وقد عمد جولد ووتر وأنصاره الى اثارة هذه النغمة ، والهدف من كل هذا هو اثارة رد فعل منعكس بين الناخبين البيض والاقليات المتعددة يؤدى الى منح أصواتهم لجولد ووتر وهذه الظاهرة هى ما تسمى باسم « بلاك لاش » باللغة الانجليزية . وقد نجح هذا الموقف التكتيكى فى التحول العام ضد جولد ووتر ودعاة التفرقة العنصرية ، ونجح الرئيس جونسون فى ولايات لم يسبق الحزب الديموقراطى أن نجح فيها مطلقا ، وكان سبب هذا هو أصوات الزنوج الامريكيين ..

ولقد أثار هذا الاجراء من جانب بعض الزعامات الزنجية مناقشة واسعة ووجهات نظر متعارضة ، واعتقد أن عرض صورة هذه المناقشات توضح لنا كثيرا مما أشرنا اليه من حقيقة العلاقات بين المنظمات الزنجية العاملة فى الولايات المتحدة . ونحن نستند فى هذا الى المناقشة التى أجرتها مجلة نيوبوليتكس عام ١٩٦٤ حول هذا الموضوع

فى يوم ٢٩ يوليو ١٩٦٤ أجتمع قادة الحركات السياسية الزنجية فى نيويورك وهم : روى ويلكنز عن الجمعية القومية لتقدم الملونين ومارتن لوثر كينج عن

مؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين ، وهوايتنى يونج عن الرابطة القومية للعمل فى البيئــة الحضرية ، وجيمس فارمر عن مجلس المساواة العنصرية ، وجون لويس عن لجنة تنسيق العمل الطلابى السلمى ، وفيليب راندولف عن رابطة عمال عربات النوم ، وبايرد راستين محــرر مجلة ليبريشن ، وكان هدف الاجتماع هو اصدار بيان عن انتخابات عام ١٩٦٤ . وأخيراً صـــدر البيان الذى يدعو دعاة حركة الحقوق المدنية وقادتها الى ايقاف مؤقت وتأجيل تام لكل المسيرات الشعبية والمظاهرات الجماهيرية حتى بعد يوم ٣ نوفمبر ١٩٦٤ . وباعلان البيان صرح روى ويلكنز بأن كل الحضور وافقوا على البيان ، وأن الزعماء وقعوا فيما عدا جيمس فارمر وجون لويس يدعوى ضرورة استشارة منظماتهم والرجوع اليها قبل التوقيع . ولكن فى اليوم التالى أصدر فارمر ولويس بيانا عارضــا فيه فكرة التأجيل والايقاف

والبيان يدعو الى ايقاف تكتيكى وان تنصرف الجهود الى تنظيم ومساعدة الزنوج فى التسجيل والقيد بدفاتر الانتخابات لهزيمة جولد ووتر الذى لا يؤيد منح الزنوج الحقوق المدنية والمساواة المنشودة . وخوفا من ان يستغل نشاط الزنوج السياسى فى اثارة البيض وتخويفهم وهو ما أشرنا اليه من قبل باسم «بلاك لاش» . وما حدث يوضح اختـــلافا فى المفـــاهيم الاســـاسية للحركة وللموقف بين المنظمات الزنجية . فالمنظمات التى وقعت انما ترى أن الحل للأزمة والقضية انما يأتى بالتمسك بالتحـــالف مع الليبراليين البيض وهم فى احسن صورهم يتمثلون فى الحزب الديموقراطى ورئيســه ليندون جونسون ونائبه هيوبرت همفرى بينما رأى ممثـــلا المنظمتين الاخريين أن التحالف يجب أن يتحول الى الراديكاليين وهـــؤلاء

يظهرون فى خط عريض يضم التقدميين واليساريين والاشتراكيين عموما . كما علقا على موقف راستين وراندولف بأنهما تراجعا عن موقفهما الراديكالى الى قبول التحالف مع القيادات القديمة والبورجوازية السوداء والبيضاء العتيقة التى قادت وسيطرت على الحركة السوداء زمنا طويلا ؟

من هذه الحادثة نستنبط وجود تذبذبات والتواءات عديدة فى تفكير القيادات الزنجية ، وعدم التزامهم او عدم امكانهم التزام خط سياسي واضح معروف . ونستنبط أيضا أن القضية الاساسية التى تواجه جميع هذه القيادات الزنجية هى معرفة من هم حلفاء الحركة الزنجية فى معركتها اليوم بالولايات المتحدة . هل هم العمال ونقاباتهم ؟ أم هم البورجوازية البيضاء ؟ أم هم القيادات اليسارية ؟

ان ثلاثة خطوط تظهر فى المناقشة ولم تصل هذه الجماعات الى رأى نهائى قاطع بشأن التزام احدها . ولم تظهر ايضا كتلة أو أغلبية ترى التزام أحد هذه الخطوط الثلاثة .. واولها هو تحالف زنجى عمالى ليبرالى وثانيها تحالف زنجى عمالى راديكالى وثالثها موقف زنجى منفرد بدون تحالف مع اى جماعة أو اتجاه . والملاحظة الاولى هى ان استعمال كلمة ليبرالى وراديكالى يتم فى الجو الامريكى السياسى بمعنى خاص فيه آثار تاريخ امريكا ومفاهيمها السياسية . والليبراليون من وجهة نظرنا هم دعاة المحافظة على الواقع والامر الراهن ومحاولة حل مشكلة الزنوج فى اطاره بتؤدة وبصبر مع الشعور بالمسئولية والتعقل . والراديكاليون هم دعاة تغيير هذا الواقع الراهن ومحاولة حل مشكلة الزنوج فى نفس الوقت الذى يتم فيه بناء الوضع الجديد . ولكن مع ذلك فمن الصعب تحديد حدود دقيقة للفئات وللجماعات وللطبقات

الاجتماعية التى تدخل فى اطار الليبرالية واطار الراديكالية. وان كان الامر يستلزم باستمرار استعمال تحديدات واسعة ومفاهيم عامة بشأن هذا التعريف

والجماعات السابقة كلها تؤمن بالتحالف مع البيض أو تحالف زنجي أبيض ولكن يختلفون حول مدى هذا التحالف فيما يتعلق ببيض اللون وان كانت الجماعات الثلاث التى اعلنت عن تأجيل الحركة قبل الانتخابات هي أشدها محافظة واستسلاما للوضع الراهن . بينما نحن لانستطيع القول أن الجماعتين الاخريين اللتين رفضتا هما اكثر راديكالية وتقدمية بشكل ملحوظ . ولكن من وجهة النظر الامريكية هما جماعتان بهما اتجاهات راديكالية تقدمية . واذا تذكرنا جماعة أمة الاسلام والجماعات القومية السوداء الاخرى وجدناهم يؤمنون بالخط الخاص بحل القضية على أساس جهد الزنوج منفردين بدون تحالف مع البيض

وفي نفس الوقت فان فشل البورجوازية البيضاء وحليفتها البورجوازية السوداء فى تقديم الحل الامثل فورا للزنوج ، هذا ـ يدعو الجماعات الزنجية الاخرى الى البروز والتقدم فى الميدان ، ومن بين هؤلاء جماعة أمة الإسلام وحزب الحرية الان . وينطبق هذا على الجماعات اليسارية الزنجية مثل حزب العمال الاشتراكيين وجماعة مجلة منشلي ريفيو والجماعات الشيوعية المختلفة حول التمسك بالاتجاه السوفييتى او التمسك بالاتجاه الصينى. وكل هذه الجماعات تقدم حلولا ثورية او تقترح اوضاعا تنظيمية تراها كفيلة بحل الازمة اوانضاج الموقف الثورى. وفيها ـ من وجهة نظرنا ـ مقترحات خيالية بالنسبة للوضع الراهن والتركيب الحالى للمجتمع الامريكى مثل اقتراح بدء حرب عصابات مسلحة فى داخل الولايات

المتحدة تشنها الاقلية الزنجية لتحرير نفسها وتغيير بناء المجتمع الراسمالى.

وتعلق مجلة دراسات فى اليسار الامريكية عدد صيف ١٩٦٤ على الموقف الزنجى فى الولايات المتحدة بأن الحوادث التى شهدها عام ١٩٦٤ من مظاهرات واعتداءات قام بها البوليس وبطالة وانخفاض فى الاجور .. الخ هى التى اخرجت جماهير الزنوج الى الشارع وجعلت الجميع يحس بهم . وان دخول هذه الجماهير فى العمل السياسى المباشر ليس نتيجة نشاط هذه الجماعات التى تدعى تزعم هذا العمل وتدعو اليه الجماهير . ان ما حدث دليل على أن الحلم الاشتراكى فى العدالة والمساواة والفرص قد انهار وليس هناك امل فى احيائه مرة اخرى . وفى نفس الوقت هذا دليل على انهيار ما يسمى بحركة الحقوق المدنية التى يتكلم عنها هؤلاء الزعماء والتى يرون فيها حلا لأزمة ومعضلة النجرو فى امريكا ..

ان الزنوج فى الشمال يعيشون فى المدينة، ومنهم انبثقت فئات متتالية من البورجوازية السوداء . ومن بين هذه البورجوازية السوداء خرجت القيادات الزنجية التى عاشت تطلب الاندماج الاجتماعى وترسم التكتيك والاستراتيجية للوصول اليه . ولكن عام ١٩٦٤ وما بعده يكشف بوضوح التناقض بين مواقع هذه القيادات ومطالبها وبين مواقع الجماهير ومطالبها والسبب هو ان القيادات قد أصبحت سجينة واقعها الطبقى ومستواها المعيشى وارتباطها بالوضع الراهن فى أمريكا .

والحل اليوم هو أن يرتبط الزنوج بجميع الفقراء فى أمريكا وتصبح لهم زعامة وتنظيم واستراتيجية وتكتيك فى مواجهة المجتمع الامريكى

الازمة المالية فى المنظمات الزنجية

فى نهاية عام ١٩٦٤ اعلنت المنظمات السياسية الزنجية انها تواجه عجزا ماليا عنيفا يهدد كيانها . هذا فيما عدا منظمة واحدة وهى الرابطة القومية للعمل فى البيئة الحضرية • ومرجع هذا انهم انهمكوا فى اعمال جماهيرية والتزموا بالتزامات قانونية نتجت عن العمل فى سبيل قانون الحقوق المدنية وحركات الجلوس احتجاجا فى الاماكن العامة ومسيرة الحرية ، وما ترتب على هذا من رفع قضايا فى المحاكم ودفع غرامات وكفالات

وقد اعلنت الرابطة القومية للعمل فى البيئة الحضرية ان ايراداتها زادت عام ١٩٦٤ بمقدار ٢٢٥ ألف دولار عن ايراداتها عام ١٩٦٣ التى بلغت ١ر٦ مليون دولار والرابطة كمنظمة مختلطة العضوية والتمويل « ابيض اسود » تسهم فى اعمال الخدمة الاجتماعية والاسكان والتربيةوالتدريب المهنى والدفاع عن حق المساواة فى الفرصة • ولا تشترك فى عمليات سياسية فى الشوارع فى المدن . ومن ناحية اخرى فاعضاؤها من الطبقة العليا الثرية السوداء والبيضاء القادرين على امدادها بالتمويل فضلا عن جذبها لتبرعات من البنوك والمنظمات العمالية والجمعيات الاجتماعية الكبرى

اما الجمعية القومية لتقدم الملونين والمنظمة المشابهة لها فى الاسم والتى تمثل صندوق الرصيد القانونى والتربوى ـ فقد بلغت قيمة العجز عندها عام ١٩٦٤ حوالى ٥٠٠ الف دولار . كما لوحظ انخفاض عدد اعضائها من ٥٥٣ الف عضو الى ٤٥٠ الف عضو . وان اسهامها الواسع فى حركة الحقوق المدنية ودورها فى نطاق المحاكم والقضايا قد اديا الى تزايد انفاقها عام ١٩٦٤ الى

مبلغ ٦ر١ مليون دولار . وقد أدى هـــذا الى ان تطلب المنظمة تبرعات وأعانات من جميع الراغبين فى مساعدتها على العمل والوجود من البيض والسود على قـــدم المساواة ..

وبالنسبة لمجلس المساواة العنصرية فقد بلغت ايراداته عام ١٩٦٤ ٥٠٠ ألف دولار وهذا يقل عن ايرادات عــام ١٩٦٣ بحوالى ٥٨ الف دولار ، الامر الذى أدى الى توقفه عن دفع مرتبات الموظفين التنفيذيين به ومن بينهم جيمس فارمر الرئيس القومى للمجلس ، وهذا العجز قد حدث على الرغم من اشتراكات العضوية والاعانات التى يحصل عليها المجلس من جمعيات وهيئات عديدة فى امريكا

وبالنسبة للجنة تنسيق العمل الطلابى السلمى فقـــد اصيبت بعجز مالى شديد على الرغم من نشاطها الواسع واستفادتها من خدمات ومعونات الزنوج فى كل مســـارح نشاطها . وعلى الرغم من استنادها ايضا مثل غيرها على معونات الهيئات والافراد من البيض الامريكيين . ولــكن هناك اتجاها فى امريكا يرى هذه اللجنة تنظيما يميل للعنف وللتسرع والعمل غير المسئول . ولهـــذا فالهيئـــات والجماعات التى تصف نفسها فى امريكا بأنها مســـئولة وعاقلة لا تمد لها يد العون المالى بالتبرعـــات والاعانات مثل غيرها من الجمعيات السابقة

الفصل الثامن

سقوط القيادات القديمة

العنف طريق المستقبل

اوصلتنا الدراسة الى عام ١٩٦٤ ، وقد شهد هذا العام قمة تناقضات الازمة الزنجية فى الولايات المتحدة ، فهو العام الذى شهد صدور قانون الحقوق المدنية وشهد وضوح اثر الاقلية الزنجية فى موازين القوى الانتخابية ، ومع ذلك شهد عام ١٩٦٤ حوادث العنف التى أثارت امريكا وفى مقدمتها حوادث هارلم وبدفورد فى نيويورك ، وحوادث العنف ليست جديدة على الحركة الزنجية ، ولكن مع ذلك فقد اثارت هذه الحوادث الدراسات المتعددة ، ومرجع هذا ان العنف عام ١٩٦٤ يتم ويحدث فى العام الذى تصورت فيه البورجوازية الامريكية البيضاء والسوداء أن حدة الموجة قد انكسرت ، وان فرص العمل والنشاط أمام المتطرفين قد تضاءلت او انتهت وان الزنوج — على حد تعبير مارتن لوثر كينج — على وشك تحقيق الحلم . وان الاقلية الزنجية اصبحت على شاكلة غيرها من الاقليات لها زعامات وقيادات تدين لها بالولاء وتأتمر بأمرها ، وان هذه القيادات عاقلة مسئولة وتعيش

فى داخل اطار العمل السياسى المتعارف عليه بامريكا بالنسبة للنشاط السياسى والتعبير عن الاهداف والمطالب

ولكن على الرغم من هذه التصورات والتى وصلت عند البعض الى حد اليقين ، نشبت حوادث العنف مرارا فى عام ١٩٦٤ ، وشهدها ايضا عام ١٩٦٥ فى مدن متعددة بأمريكا فى الشمال والوسط والجنوب والغرب . وثبت من متابعة هذه الحوادث ان الجماهير الزنجية خرجت من الحوارى السوداء التى تقطنها هائمة على وجوهها تحرق وتحطم وتقاتل البواليس وتشعل النيران بدون خطة مرسومة وبدون قيادة متطرفة «!!» وبدون تنظيم سرى متآمر «!!» واندفعت فى الشوارع تثير الفزع وتعلن سخطها واحتجاجها وتفرج بهذا عن عقدها النفسية وآلام الكبت الطويل المرير . ولم ترتدع هذه الجماهير بمقابلة رجال البوليس بل قابلته بالطوب والزجاجات والاسلحة والادوات التى تمكنت من تحطيمها واستعمالها فى العراك واستمرت الحوادث والاضطرابات العنيفة مددا زمنية طويلة تعد بالايام والليالى . وحينما هدات الحوادث واحدة تلو الاخرى بحثوا عن السبب فلم يجدوا شيئا سوى ما يقال عن حوادث او استفزازات فردية لا يتصور عقلا ان تكون هى السبب الاساسى لكل هذا العنف وهذا الاضطراب ، والتعليل الوحيد الذى تداول بين الناس هو ان هذه الحوادث البسيطة تشبه ما يقال فى اللغة العربية عن « القشة التى قصمت ظهر البعير »

ولقد انزعج القادة والزعماء الزنوج الذين ذكرنا اسماءهم مرارا فى اثناء الحديث عن حركة الحقوق المدنية ، وكان انزعاجهم شديدا لدرجة ان بعضهم استعدى البوليس والحكومة على بنى جلدته ووجه سبابا واتهامات متناثرة للزنوج عموما .. بل ذهب بعضهم الى

ابعد من هذا حين طالب الحكومة والسلطات المسئولة بمعاقبة الزنوج والضرب على أيديهم بشدة

وبرزت أمام الجميع الازمة من جديد ، وثارت الاسئلة بعد هذا الشوط الطويل الذى قطعه الزنوج فى الولايات المتحدة . وكان اول سؤال ضخم هو : هل تمـــارس القيادات والزعامات الزنجية دورها وتضبط سلوك اعوانها وانصارها السياسي أم لا ؟

وقيمة هذا السؤال انه اذا قررنا او تصورنا ان جماهير الزنوج ترتبط بالولاء لهذه المنظمات وتدين لهـا بالولاء وتنضبط سياسيا بالخط السياسى الذى ترســـمه القيادات ، اذن فمن اين يأتي المشاغبون والمتمردون ؟

واذا عرفنا ان جماعة أمة الاسلام وأمثالها من الجماعات السوداء لا تؤمن بحركة الحقوق المدنية وتعتزل العمـل السياسى . اصبح علينا ان نعرف من اين جاء هؤلاء ؟ او نقرر فى صراحة ان الزعامات والقيادات التى تصورت او تخيلت وهما انها سيدة الموقف وان ولاء الجماهير لها شيء ثابت اكيد ـ هذه الزعامات والقيادات واهمـــة وان جذورها لا تمتد فى اعماق التركيب الاجتماعى الزنجى . وانها لا تسيطر فقط الا على أقلية أو أقليات بينما الكتلة الجماهيرية السوداء فى المدن وهم ســــكان الحوارى والقابعون فى قاع المجتمع ـ هذه الكتلة لا تــدين بالولاء السياسى لاحد وليس لها حاليا زعيم او قيادة تســيطر عليها . ومن ثم فهذه الكتلة الزنجية الجماهيرية تنفجـر لاسباب عدة تؤثر فيها بدون ان يدخل هذا الانفجـار فى تقدير الزعامات والقيادات المقررة فى وسط الزنوج

هذه هى الحقيقة التى ابرزتها السنة الأخـــيرة والتى تبحث عن حل . ان الجماهير الزنجية القابعة فى الحوارى والتى تضم السواد الاعظـــم فى المدن لا تدين بالولاء

السياسى المنظم المنضبط لهذه الزعامات وهذه القيادات ومن ثم يتفرع عن هذه الحقيقة بحث آخر هو معرفة لماذا تم هذا ؟ وكيف تحطم الولاء السياسى وخرجت هـــذه الجماهير من اطار قيادة هذه الزعامات الزنجية ؟

ويجرنا هذا الى سؤال آخر :

لماذا لا نقول ان هذه الزعامات والقيادات الزنجية قد استنفدت اغراضها او انها سقطت فعلا من أعين الجماهير الزنجية اذ لم تستطع ان تمثلها وتعبر عن اهدافهـــا

وسواء قبلنا اجابة هذا السؤال الاول او اجابة السؤال الثاني ، فنحن أمام معضلة تتطلب الحل فى الولايات المتحدة ولا يأتى هذا الا ان نعرف حقيقة الزنوج ومطـــالبهم وأهدافهم . فقد تكون الصورة التى رسمت لهم وتداولت صورة وهمية غير حقيقية ، وان ما بُنى على اساسها وما رسم من خطط وما راج من نظريات وبحوث انما بنى على باطل لان الزنوج فى حقيقتهم غير ما تصورته هذه النظريات

وقد تكون الازمة فى سقوط الزعامات القديمة وتضاؤل فعاليتها الايجابية فى حياة هذه الجماهير ، على الرغم من كثرة كلام واحاديث هذه الزعامات والقيادات وتهيؤاتها بالسيطرة والانضباط فى المنظمات السياسية والمجتمع الزنجى

وقد تكون الازمة فى الكيان والتركيب الاجتمـــاعى الامريكى نفسه ، اذ وصل من الجمود الى درجة لا تسمح له اذا اراد البقاء حيا على ما هو عليه ان يقبل من جديد توزيع السلطات وتغيير المستويات الاجتماعية والمفاهيم والقيم والمثل . واته لكى يتم هذا التغيير فلابد من ثورة تهزه وتغير من قواعده الاساسية فى كل ميادين الحياة

والرأى الراجح عندى من الدراسات والقراءات التى قمت بها فى هذه القضية ان الازمة نتجت عن هـــذه العوامل كلها وانها تعقدت لدرجة مخيفة ، فالقيادات فعلا

سقطت لانها عبرت عن الطبقات المتوسطة والعليا السوداء وما ارتبط بهم من فئات المثقفين والموظفين وذوى الدخل المرتفع نسبيا . وانها فى حياتها وبحثها عن السند السياسى ارتمت فى احضان البورجوازية البيضاء ومن ثم فقد أصبحت فكريا جزءا لا يتجزأ منها

ومن ناحية اخرى نجد ان جماهير الزنوج قد تغيرت نفسياتها ومثلها واهدافها ، فقد شعروا بتزايد الهوة بين البيض والزنوج نتيجة للتقدم التكنولوجى الضخم الذى يشهد المجتمع الامريكى آثاره ، لدرجة ان بعض الدارسين يصف الموقف بأنه يشبه الهوة التى تفصل بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، فعلى الرغم من أن الدول الفقيرة تعمل جاهدة لرفع مستوياتها بوسائل العلم الحديث الا ان الدول الغنية لم تتوقف هى الاخرى عن التقدم وعن الاستفادة بنتائج آخر مبتكرات هذا العلم الحديث . ولما كانت الدول الغنية ترتفع وتتقدم من مستويات عليا ، ولما كانت الدول الفقيرة ترتفع وتتقدم من مستويات الصفر او ما فوق الصفر ، فستظل الهوة موجودة وتزداد اتساعا وهذا يثير مشكلات اكبر وتعقيدات جديدة طارئة

ومن ناحية ثالثة يجب ان نعرف أن هذه الازمة تعيش فى فراغ ، انما تعيش فى أعماق المجتمع الامريكى وتنعكس عليها كل أحداثه وحركته فى الداخل وفى الخارج . وان مشكلات هذا المجتمع قد تضخمت لدرجة ان عددا من المفكرين الامريكيين قدم مذكرة للرئيس جونسون فى مارس ١٩٦٤ يدعوه فيها الى تدبر الموقف وهذه الجماعة معروفة باسم « جماعة الثورة الثلاثية » . والثورة الثلاثية التى يرى هؤلاء المفكرون خطرها هى ثورة استخدام العقول الالكترونية فى الانتاج الامر الذى يؤدى الى طاقات انتاجية لا حد لها مع التقليل المتزايد من

الجهد البشرى المبذول فى الانتاج ، وهى ثورة التسلح الحديث التى أدت الى اختراع أشكال رهيبة من الاسلحة تؤدى الى القضاء على الحضارة والحياة الانسانية نهائيا ، وهى ثورة الحقوق الانسانية التى تنادى بمطلب الحقوق الانسانية الكاملة والمتساوية لجميع البشر بدون تمييز بسبب الدين والعقيدة واللون والجنس ، وان حركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة جزء من حركة عالمية واسعة

وحقائق المجتمع الامريكى توضح الازمة فعلا ، فالباحثون عن عمل من بين الشباب ازدادوا بنسبة ٧ر٢٪ من عام ١٩٥٠ الى عام ١٩٦٠ ، بينما سترتفع نسبة الزيادة الى ٤٥ ٪ من الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ . وبالنسبة للبطالة تراوحت معدلات البطالة حول ٥ ٪ فى الاعوام الستينيات عموما ، ولكن فى عام ١٩٦٣ وصلت معدلات البطالة بين الشباب الامريكى الى ١٧ ٪ على حين انه بين الشباب الزنجى الامريكى يصل المعدل الى ٢٧٪ واذا نظرنا الى الاقليات بوجه عام التى تسكن مناطق وسط المدن الكبرى « الغيتو » وجدنا البطالة بين الشباب ترتفع الى ٥٠ ٪ ، وهناك حوالى ٨ مليون امريكى يبحثون عن العمل عام ١٩٦٤/١٩٦٥ . والارقام كثيرة ومخيفة وأن ما نعرضه هو عينة مما احتوته هذه المذكرة الشهيرة

اضف الى هذا انه يجب معرفة ماذا تريد جماهير الزنوج حاليا بالضبط ، لانه اذا قيل انها ارادت منذ أول القرن العشرين الاندماج والاقرار بمساواتها وحياتها على قدم المساواة مع كل المواطنين البيض ، فليس حتما أن يكون هذا مطلبها فقط فى النصف الثانى من القرن العشرين . والدراسات فى هذا الشأن ترى أن جماهير الزنوج أصبحت تطلب شيئا أعمق وأكبر من المساواة

السياسية والاقرار الاجتماعي بوجودها ، انها اصبحت تنادي بمطالب اقتصادية على أساس ان التغيير الاقتصادي هو الذى سيقرر امكانيات دخولها فى ميدان السلطة السياسية على قدم المساواة مع البيض • ومن ثم تصبح شريكة فعلا وقولا فى السيطرة على مقدرات المجتمع وعلى ادوات الحكم والردع فيه . وتأمن من ان هذه الادوات وهذه المقدرات لن تستخدم ضدها فى يوم من الايام القادمة . ولها فى هذا عذرها لان هذه الادوات والمقدرات استخدمت ضدها طوال ٣٥٠ سنة . كما ان مفهوم الزنوج عن المطالب الاقتصادية ليس مجرد مشروعات الضمان الاجتماعي أو الخدمة الاجتماعية . فهناك فى المدن الكبرى خاصة نيويورك ثورة ورفض لما يسموه امبريالية الإعانات الاجتماعية • والمقصود من العبارة هو أن رأيا زنجيا ناميا يرى فى مشروعات الاعانات والضمان الاجتماعي نوعا من الاستعمار • والتشبيه هنا مأخوذ من موقف الرفض الذى أعلنته دول كثيرة فى آسيا وافريقيا تجاه المعونات الامريكية التى تأخذ ثوب المساعدات وتخفى فى طياتها وضع الاستعلاء والمواقف المشروطة

كل هذا يتم فى النصف الثاني من القرن العشرين الذى شهد نهوض الدول الملونة والزنجية فى العالم الثالث وحركات التحرر المسلحة فى المستعمرات وانهيار الاستعمار العالمي وازمة المعسكر الغربي . وهذا قد انعكس على حياة الاقلية الزنجية وترك فيها آثارا عدة . وهناك صورة واقعية قد تبدو بسيطة فى نظر البعض ولكنها تركت اثرا قويا فى نفسية واوضاع الزنوج الامريكيين • وهذه الصورة الواقعية هى منظر أول رئيس دولة أفريقى أسود اللون يزور الولايات المتحدة زيارة رسمية بعد استقلال بلاده عقب الحرب العالمية

الثانية وانضمامها للامم المتحدة . لقد أشارت دراسات كثيرة ودوريات صحفية الى البساط الاحمر المفروش فى المطار الذى سار عليه هذا الرجل الزنجى فى ثقة واعتداد ومن احتشد لملاقاته من المسئولين البيض وعلى رأسهم رئيس الولايات المتحدة ، وكيف انشغلت أجهزة الاعلام المتعددة بالتحدث اليه والترحيب به والاشارة بفضله ودوره فى السياسة الافريقية والعالمية . وبعدذلك تكررت الصورة مرارا بازدياد الدول الافريقية المستقلة وتوافد الزعماء الافريقيين الى اجتماعات الجمعية العامه للامم المتحدة فى نيويورك وما ظهر من مطبوعات وكتب أصدرها الزنوج الامريكيون عن حياة وسياسة هؤلاء الزعماء

وتزايد عدد الدبلوماسيين الافريقيين فى العمل الدبلوماسى لدى الحكومة الامريكية ولدى الامم المتحدة واجهزتها المتنوعة ، وكثرت حفلات البيت الابيض ووزارة الخارجية الامريكية وظهر فيها الدبلوماسيون الزنوج ودعى لحضورها عدد من زعامات وقيادات الزنوج الامريكيين وعدد من المثقفين الزنوج . وكان السؤال الملح باستمرار على عقلية الزنوج الامريكيين هو :

« هل تغيرت الدنيا وانتهى عهد الاضطهاد وبدأ عهد المساواة والحرية ؟ » وهل أخطأ الدكتور ديبويس فى آخر حياته حين هجر امريكا نهائيا وذهب الى غانا ليقيم فيها ويحمل جنسيتها بعد هذا الكفاح الطويل ؟ وفى طريقه الى غانا مر بموسكو وبكين وهناك احتفل بعيد ميلاده التسعين فى فبراير ١٩٥٩ وتكلم من إذاعة بكين فقال «لمدة تقرب من قرن عشت فى بلدى ولم أزد عن نيجر»

ومع اتساع نطاق الحرب الباردة والصراع الدولى ازداد تردد اسم الدول الافريقية ، وتزايدت عروض الصداقة والمعونة والتحالف من جانب الولايات المتحدة

وغيرها من الدول الكبرى ، وفى عام ١٩٥٥ عقد مؤتمر الدول الاسيوية الافريقية وهى جميعا شعوب ملونة ، وفى هذا المؤتمر صدر قرار بادانة التفرقة العنصرية فى كل مكان فى العالم المعاصر • وأسهم الكتاب الزنوج فى تأليف الكتب عن هذه النهضة فألف ريتشارد رايت كتابه عن باندونج باسم « الستار اللونى » وألف دكتور هنتون كتابا عن افريقيا وعدم الانحياز باسم « القرار فى أفريقيا » . أضف الى هذا الاحتفالات والمواكب التى شهدتها شوارع هارلم وأمام مبنى الامم المتحدة عام ١٩٦١ عندما حضر الرؤساء الافريقيون دورة الجمعية العامة للامم المتحدة

وقبل ان نختتم هذه الدراسة نشير الى المؤتمر الاول لمنظمة الوحدة الافريقية بأديس أبابا فى مايو ١٩٦٣ الذى استنكر التفرقة العنصرية ضد الشعوب والافراد ذوى الاصل الافريقى الذين يعيشون خارج القارة — وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية . واعتبر استمرار سوء المعاملة نذيرا بتدهور العلاقات بين شعوب وحكومات افريقيا وبين شعب وحكومة الولايات المتحدة الامريكية (الفقرة الخامسة من القرار الخاص باستنكار وادانة التفرقة العنصرية فى افريقيا وفى العالم اجمع بجميع صورها واشكالها)

وخلاصة القول أن الازمة قد بلغت مرحلة الاشتعال وان الانفجارات التى شهدتها الولايات المتحدة عام ١٩٦٥ تؤكد أن وميض النيران يرتفع من أعماق هذا المجتمع الثرى الكبير ، وأن الثورة والعنف والدم هى علامات واضحة فى طريق المستقبل ، وان البديل الاوحد هو حل جذرى فى تركيب المجتمع وفى توزيع القوة والسلطة فيه ليعيش الانسان أسود اللون كما يعيش البشر الاخرون على أرض الولايات المتحدة الامريكية

المراجع

اولا : الكتب

Clarke (John) : Harlem.
Citadel Press, U.S.A. 1964.
Frazier (Franklin) : 1) Back Bourgoisie.
Collier Books, U.S.A. 1962.
2) The Negro in the United States.
Macmillan Press, U.S.A. 1949.
Galazer (Nathan) : Beyond the melting pot.
M.I.T. Press, U.S.A. 1963.
Gittler (Joseph) : Understanding Minority Groups.
John Wiley & Sons, U.S.A. 1956.
Golden (Harry) : Mr. Kennedy and the Negroes.
Crest Books, U.S.A. 1964.
Handlin (Oscar) : The crisis in Civil Rights.
Beacon Press, U.S.A. 1964.
Harrington (Michael) : The other America.
Penguin Books, London 1962.
Harris (Louis) : The Negro Revolution in America
Simon & Schuster, U.S.A. 1963.
Isaacs (Harold) : The New World of Negro Americans.
Viking Press, U.S.A. 1963.
Lincolin (Eric) : The Black Muslims in America.
Beacon Press, U.S.A. 1963.
Lomax (Louis) : 1) The Negro Revolt.
Signet Books, U.S.A. 1963.
2) When the word is given.
Signet Books, U.S.A. 1963.
Mannix (Daniel) : Black Cargoes
Viking Press, U.S.A. 1962.

Myrdal (Gunner) : 1) An American Dilemma
Harper & Brothers, U.S.A. 1944.
2) The Challenge to Afluence.
Beacon Books, U.S.A. 1964.
Parkes (Henry) : The American Experience.
Vintage Books. U.S.A. 1961.
Quarles (Benjamin) : The Negro in the marking of America.
Collier Books, U.S.A. 1964.
Rose (Arnold) : The Negro in America.
Harper & Row Inc., U.S.A. 1964.
Saunders (Doris) : The Day they Marched.
Johnson publishing Co., U.S.A. 1963.
Silberman (Charles) : Crisis in Black and White.
Rancom House, U.S.A. 1964.
Thompson (Daniel) : The Negro leadership class.
Spectrum Books, U.S.A. 1963.
Udom (Essien) : Black Nationalism.
Dell publishing Co., U.S.A. 1964.
Williams (Eric) : Capitalism and Slavery.
University of North Carolina Press, U.S.A. 1944.

ثانيا : المجلات

1 — Liberation. (Monthly, U.S.A.)
2 — Monthly Review. (Monthly, U.S.A.)
3 — New Politics. (Quarterly, U.S.A.)
4 — Dissent. (Quarterly, U.S.A.)
5 — Studies on the left (Quarterly, U.S.A.)

ثالثا : مؤلفات عربية

١ ــ فكرة الوحدة الافريقية ــ دكتور عبد الملك عودة ــ مكتبة النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٦٥
٢ ــ رياح الثورة فى البحر الكاريبى ــ دكتور عبد الملك عودة مجلة السياسة الدولية ــ عدد يوليو ١٩٦٥ ــ القاهرة
٣ ــ صورة أفريقيا والمنظمات الامريكية السوداء ــ دكتور عبد الملك عودة مجلة السياسة الدولية ــ عدد أكتوبر ١٩٦٥ ــ القاهرة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـة : السيد نخلة سكاف

جـدة : السيد هاشم بن علي نحاس – ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص.ب ٢١ .

البـرازيل :

Sr. Miguel Maccul Crry,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة :

Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

هذا الكتاب

يروي هذا الكتاب قصة ٢٠ مليونا من البشر سود اللون يعيشون فى قلب المجتمع الامريكي ويمثلون اقليـــة لايعترف المجتمع بوجودها ..

ولكن صيحة هؤلاء البشر ترتفع من اعماق التركيب الاجتماعى الامريكى تعلن رفضهم دوام هذا الوضع التقليدى الذى ارساه البيض على اساس : « اذا كنت ابيض اللون فتقدم للامام ، واذا كنت ملونا فقف جانبا ، اما اذا كنت اسود اللون فتراجع الى الخلف ».

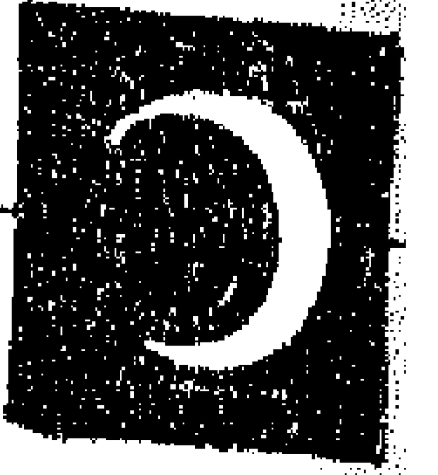
وترفض هذه الاقلية السوداء هذه الحياة . فهم اقدم اقلية ظهــرت فى الحياة الامريكية مع الانجلوساكسون البيض البروتستانت ، واكتسبــوا لغتهم وثقافتهم واديانهم . ومع ذلك فبعد ٣٥٠ سنة من اقامتهم على ارض الولايات المتحدة الامريكية ، مازالوا يمثلون قبيلة سوداء تائهــة فى ارض الضياع الاجتماعى الابيض

ولعل هذا هو التعبير الوحيـــد الذى نفهم به حديث الدكتور وليـــم بورجهاردت ديبويس الذى القاه من اذاعة بكين فى عيد ميلاده التسعين فى فبراير ١٩٥٩ :

« لمدة تقرب من قرن كامل عشت فى بلدى ولم ازل مطلقا عن نيجرالعـ..

ومؤلف الكتاب هو الكاتب الجامعى المعروف الدكتور عبد الملك عـو.. وهو عالم اشتراكى مثقف ، وقد قضى فى امريكا مائتى يوم ، اقترب فيها من مشكلة الزنوج الامريكيــين وعاش فى قلبها ، واحس بكل مافيهـــا من الحقائق المفجعة المؤسفة .. وهـــذا الكتاب القيم هو خلاصة تجربة الدكتور عبد الملك عودة مع معرفة علمية واسعة بالقضية الزنجية الامريكية

كتاب الهلال ١٠ قروش



سلسلة ثقافية شهرية

معارك فكرية

محمود أمين العالم

١٧٧

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٧ شعبان ١٣٨٥ — ديسمبر ١٩٦٥
No. 177 — Décembre 1965

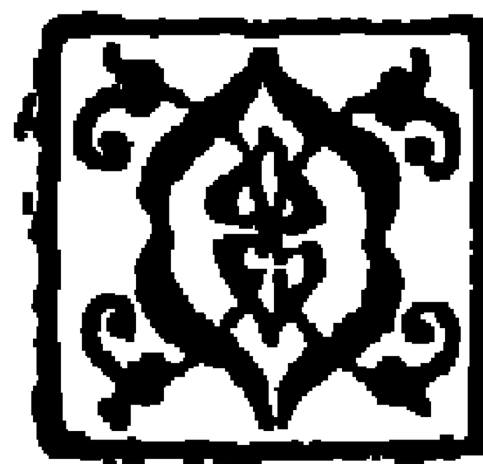
مركز الادارة
دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات
قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم — فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليماً ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال

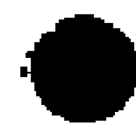


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف : بريشـــــة

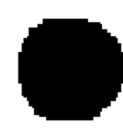
الفنان حلمى التونى

معارك فكرية



بقلم

محمود أمين العالم



دار الهلال

مقـــدمة

لا الفترة الزمنية المحددة ، ولا الموضوع المحدد ، ولا المنهج المحدد ، يجمع بين هذه المقالات !

ان حياتها تمتد عبر خمسة عشر عاما ، من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٦٥ • وهى تتنوع تنوعا شـــديدا من حيث الموضوع فقد تكون فى الفلسفة ، أو فى العلم التجريبى ، أو فى علم النفس ، أو فى فلسفة التاريخ ، أو فى التراث القديم أو الحديث • وهى تختلف كذلك اختلافا شديدا من حيث منهج كتابتها • فقد تكون مقالة تحليليـــة وقد تكون تقديما لكتاب أو تعليقا عليه ، وقد تكون ردا سريعا على مقال ، وقد تكن تأملا عابرا فى قضية من القضايا ••

وبرغم هذا كله ، برغم الفترة الزمنية غير المحـددة ، وبرغم هذا التنوع والاختلاف فى الموضوع ومنهج المعالجة ، فان هذه المقالات جميعا ـ فيما اعتقد ـ يكاد يضمها معنى واحد ، ويحركها هدف واحد • انها فى جوهرها دفاع عن العلم ودفاع عن الحرية الانسانية كذلك • انها محـاولة لتوكيد ألا تناقض بين العلم والحرية ، بل لا علم بغـير حرية ولا حرية بغير علم

وهى محاولة لتوكيد موضوعية النظرية العلميـــة فى مواجهة محاولات التشكيك فى هذه الموضـــوعية ، وهى محاولة كذلك لتوكيد الدلالة الاجتماعية والانسانية لهذه النظرية العلميـــة

وفى هذه المرحلة من حياتنا ، التى نسعى فيها لبنـــاء مجتمع اشتراكى على أساس علمى ، أرجو أن تسهم هـذه المقالات ـ على تنوعها واختلافها ـ فى بلورة الفكر العلمى واشاعته بين جماهير شعبنا

في الفلسفة

- بلاش فلسفة
- دفاع عن الفلسفة
- دفاع آخر عن الفلسفة
- ما وراء المدرك الحسي

بلاش فلسفة

حذار أن تصدق هذا العنوان – أيها القارىء العزيز – حذار أن تنخدع به فما أزدرى فى حياتى تعبيرا كما أزدرى هذا التعبير ، بل ما أعرف شيئا أخطر على مجتمعنا الجديد وثورتنا من سيادة هذا التعبير : بلاش فلسفة

حقا ، اننا نلوك هذا التعبير كل يوم • ورغم هـذا ، فلكل منا فلسفته ، ولك أنت أيها القارىء العزيز فلسفتك الخاصة أردت هذا أم لم ترد ، ذلك أن لكل منا مسلكه فى الحياة ، ازاء عائلته ، ازاء عمله ، ازاء مجتمعه ، لكل منا نظرته الى الناس والكون ، لكل منا قاعدته التى يزن بها الامور ، وزاويته التى يحكم بها على أحداث الحياة • والفلسفة – ببساطة – ليست الا هذه النظرة الشاملة • ولعلك قد امتصصت هذه الفلسفة ، هذه النظرة الشاملة منذ الدقائق والساعات والايام الاولى من حياتك ، امتصصتها من وضعك الاجتماعى ، ومن قراءاتك العفوية ، ومن خبراتك العلمية ، ومن ملابسات عملك وحياتك الخاصة ، من السينما والمسرح ، من الاحزان والمباهج ، من الاصدقاء والخصوم ، من الانتصارات والهزائم ، من تيار الحياة المتدفق حولك بغير انقطاع • انك تمتص

---

(١) المصور : يونية ١٩٦٤

الفلسفة وتتنفسها وتعيشها كل دقيقة من حياتك بنوعي أو بغير وعى . والمشكلة هى .. أى نوع من الفلسفة تتنفسها وتعيشها ؟ . قد تكون - دون أن تدري - من أنصار سارتر ، أو وليم جيمس ، أو برجسون ، أو ماركس ، أو محيى الدين بن عربى، او ابن رشد . قد تكون وجوديا مثل الدكتور عبد الرحمن بدوى ، أو «جوانيا !» مثل الدكتور عثمان أمين ، أو « وضفيا منطقيا » مثل الدكتور زكى نجيب محمود أو « تكامليا » مثل الدكتور يوسف مراد أو فرويديا مثل الدكتور مصطفى زيور . وقد تكون تواكليا وقد تكون ايجابيا ، وقد تكون من أنصار الشطحات الصوفية ، أو من أتباع الموضوعية العلمية ، وقد تكون رؤياك الفلسفية رؤيا متناقضة ، هى خليط من هنا وهناك وهذا وذاك ، لا يجمعها وحدة واضحة .. وقد تكون .. وقد تكون ..

ألست فى حاجة الى أن تقف موقفا نقديا واعيا من هذه الفلسفة التى تتنفسها كل يوم ؟ .. وأن تسأل نفسك .. ماذا وراء مسلكى اليومى ، ماذا وراء أحكامى المتناثرة التى ألقيها جزافا هنا وهناك .. ماذا يجمعها .. ماذا يوحدها .. ما قيمتها .. ما حقيقتها ؟ هذا الموقف النقدى من نفسك وفكرك .. أنت وأنا والناس جميعا مطالبون به دائما . انه ضمان لتجديد الفكر بل لتجديد الحياة نفسها .. وهو انتقال بالفلسفة التى تتنفسها الى مرحلة الوعى والوضوح والنضوج

ولكن ماذا وراء بلاش فلسفة ؟! كيف شاع هذا التعبير ؟ . الحق أن هناك ما يغذيه دائما فى وجداننا . فما أكثر الفلسفات التى ينبغى أن نقول ازاءها : بلاش فلسفة !

ولكن هناك فارقا كبيرا بين أن تقول بلاش هذه الفلسفة

وبين أن تقول بلاش فلسفة أصلا ! نعم بلاش فلسفة اذا كانت الفلسفة ترفا عقليا خالصا ،أبعد ما يكون عن الصدق الموضوعي وحياة الناس • بلاش فلسفة اذا كانت الفلسفة تعقيدا لغويا ، ، وخلافات شكلية ، وتهميشا على تهميش التهميش الى غير حد والى غير حل ، بلاش فلسفة حقا اذا كانت الفلسفة هى التنكر للانسان ، هى العزلة عن الحياة ، هى التناقض مع التقدم البشرى ، هى التعالى على المصير ، وهى التغرب عن مسئوليات العصر وحقائقه • من فلسفات كهذه نشأت كلمة بلاش فلسفة فى حياتنا ، ان تراثنا العربى الاسلامى يزخر بأرقى ما وصل اليه الفكر البشرى من اضافات فكرية وفلسفية • لقد استطاع وهج الفلسفة العربية الاسلامية أن يضيء أوروبا فى عصور الظلام ، وأن يفجر عصرا جديدا للنهضة الفكرية والفلسفية والعلمية والادبية والفنية فى أوربا • ما كان أروع عالمنا وفيلسوفنا القديم وهو يقطع آلاف الفراسخ ويواجه الاف العقبات يعاني الفاقة والمحن ، ونزوات الحكام وتداول السلطان ، دون أن يكل أو يمل عن مواصلة طريق الحقيقة . ما أعظم ما وصل اليه من حقائق باقية لا فى الفلسفة التأملية الخالصة فحسب بل فى العلوم التجريبية كذلك ، فى البصريات والفلك والطب والرياضة والاجتماع • بل كاد أن يطل بأشواقه الفكرية على العقول الالكترونية !؟ أين آثار هذه الفلسفة العريقة فى حياتنا المعاصرة ، أين امتدادها الحى فى ضمائرنا ووجداناتنا وأفكارنا ؟ • ان ما تبقى منها رغم مياه دجلة ، وحملات النهب والاغارة والاهمال والتشتت ، كنوز غالية عزيزة • ولكنها مطمورة خلف الدراسات الفقهية ، والتهميشات الشكلية والتفسيرات البعيدة عن روح الجديد الدائم فيها • حقا ، هناك جهود عظيمة موفقة

قام بها المستشرقون وأساتذتنا وعلماؤنا من أبناء شعبنا العربى ، من أجل احياء هـــذا التراث وتحقيقه ونشره . الا أنه لم ينل بعد ما يستحقه من تفهم عميق وتفســـير حضارى سليم . فالحقيقة أن الفلسفة العربية الاسلامية ليست مجرد صدى لفلسفة اليونان والرومان كما يقول البعض ، وليست مجرد توفيق بين الدين والفلسفة كمـا يقول البعض الآخر ، وانما كانت تعبر عن أشواق عصر ، واحتياجات حضارة ، وقيم مجتمع جـــديد ، الى جانب تأثرها بالروافد اليونانية أو الرومانية أو الهنـــدية أو الفارسية . كانت الفلسفة العربية الاسلامية ، صــــدى للحياة العربية الاسلامية أساسا ، وكانت معـــركة من معارك هذه الحضارة الجديدة . أين هذه الفلســـفة من تاريخنا المعاصر ، من بنائنا لحياتنا الجديدة . لم تصبح غذاء لها ـ وما أقدرها على ذلك . بل أصبحت صنوا لـكل ما هو مغرب ملغز ، لكل ما هو معقد وشكلى ومعزول عن الحياة . فاذا عرضته على الناس كان من حقهم أن يقولوا بلاش فلسفة !

ما أحوجنا الى احياء تراثنا الفلسفى القديم لا بتحقيق النصوص فحسب ، بل باكتشاف ما هو جوهرى وانسانى وجديد فيها . ما أحوجنا أن يصبح هذا التراث رافدا من روافد فكرنا المعاصر ، وغذاء لوجداننا الجديد

على أن المأساة ليست مأســـاة تراث قـــديم لم يتم « تقييمه » واشاعته بين الناس وانما هى مأساة هـــذا التراث الفلسفى الحديث كذلك

ان عالم اليوم يزخر بالعديد من الفلسفات . ولهذه الفلسفات اصداء فى مجتمعنا ، واصــــداء فى أفكارنا ، واصداء فى ضمائرنا واصداء فى مسلكك الشخصى أيهـا القارىء العزيز ، أردت هذا أم لم ترد ، كما ذكرت لك من

قبل . هناك فلسفات روحية واخرى علمية ، فلسفات وجودية وأخرى نفعية . ألخ . ألخ .. وهناك تفريعات لا حد لها على هذه الفلسفات . وهناك أزياء علمية تتزيا بها فلسفات أبعد ما تكون عن العلم كالوضعية المنطقية ، والبرجماتية ، وهناك فلسفات تتزيا بأزياء الحرية وهى لا تصلح سلاحا بشريا للكفاح من أجل الحرية ، بل لعلها فلسفة تفتت هذا الكفاح وتشتته كالوجودية ، وهنـــاك فلسفات ثورية وأخرى تسد الطريق فى وجه الثـــورة وهناك وهناك . وفى جامعاتنـــا اصـــداء لهذا كله ، فى التربية والتاريخ والاقتصاد والادب والفن والعلوم الطبيعية والرياضة والطب وعلم النفس والاجتماع .. الخ . الخ

فأين أنت من هذا كله ، أين نحن من هذا كله ، وأين هذا كله من مجتمعنا وثورتنا ، وفلسـفتنا الانســانية الشاملة ..

السنا فى حاجة كذلك الى مراجعة هذا التراث الفلسفى الحديث فى ضمائرنا وجامعاتنا ومسلكنا اليـومى ، وأن نقف منه موقف التمحيص والنقد ، وأن نقيم لانفســنا وجهة نظر شاملة متجانسة موضوعية عن الحياة والانسان والعالم ، حتى لا نقع فى التخبط والتلقائية ، حتى لانتورط فى نظرات جزئية قاصرة ، حتى لا تخنقنا فلسفات مريضة زائفة ، من حيث ندرى ولا ندرى

مع بداية ثورة ٢٣ يولية كانت هناك بوصلة فكرية هى فلسفة الثورة والاهداف الستة . ثم سرعان ما تطـورت هذه البوصلة الفكرية بالممارسة والتطبيق والخبرة الحية ومعالجة مشكلات الواقع ، تطورت الى بوصلة فكرية أخرى أكثر وعيا واعمق تأصيلا للامور وأرحب استشرافا لافاق التقدم ، ان ميثاق العمل الوطنى يستند أساسا الى بوصلة

فلسفية فى فهم التاريخ ، والاقتصاد والانتاج والديموقراطية والسياسة الدولية والوحدة العربية ، وبدون هذه البوصلة الفلسفية تتشتت أهداف العمل الوطنى ..

ومع حركة الحياة ، وتجدد المسئوليات ، تزداد هذه البوصلة دقة وخصوبة وعمقا .. ان الميثاق دعوة جادة الى الفلسفة ، ما أحوجنا أن نعممها فى جوانب حياتنا المختلفة . . ما أحوجنا الى التأصيل والتعمق واعمال الفكر وسيادة روح الانتقاد فى الاقتصاد والادب والعلم والفن والفلسفة ذاتها .. ما أحوجنا الى الفلسفة فى حياتنا اليومية .. ما أحوجنا الى الفلسفة لا الى كراهيتها . ما أحوجنا الى اشاعتها وتعميمها ، وما أريد أن أختتم كلمتى بالدعوة الى اصدار مجلات فلسفية ، فى تاريخ الفلسفة والمنطق وعلم الجمال ، والحضارة ، وفلسفة العلوم .. الخ . الخ . كما فعلت فى كلمة سابقة عن العلم ، ذلك لان مثل هذه المجلات الفلسفية تحتاج أولا الى وضوح فكرى كامل وتخطيط علمى دقيق .

ولكن حسبى هنا اليوم أن أستأذنك أيها القارىء العزيز فى أن أعود اليك بين الحين والاخر تحت هذا العنوان : بلاش فلسفة ، لنتفلسف معا ، فى أمور كثيرة ، بعضها فى تراثنا العربى الاسلامى القديم ، وبعضها فى مشكلاتنا الفكرية المعاصرة ، ولكن .. كن على ثقة أنه لن يكون تفلسفنا غربة عن الحياة والانسان والارض ولن يكون تعقيدات أو شطحات ، وانما سيكون من أجل مزيد من الوعى والمشاركة والثقة فى الارض والانسان والحقيقة

دفـاع عن الفلسفـة

للدكتور زكى نجيب محمود مدرسة فلسفية يثابر على اثرائها وتدعيمها منذ سنوات فى اخلاص ودأب وأناة ولسنا نعدو الصواب او الدقة ان قلنا انه الصـوت الوحيد الذى يعبر عن الفلسفة الوضعية المنطقيـة فى شرقنا العربى

ولقد استطاع الدكتور زكى نجيب محمود أن ينمى حوله تيارا فكريا مستمدا من أصول هذه الفلسفة ، وأن يدعمه بالمقالات والمحاضرات والكتب

ولن اتعرض فى مقالى هذا للفلسفة الوضعية المنطقية او لتعبير الدكتور زكى نجيب عنها فى لغتنا العربية ، وانما اقتصر على مناقشة بحث اخير كتبه الدكتور فى العـدد الاخير من « المجلة » بعنوان « ثورة فى الفلسفة الحديثة »(*)

ومن الافضل اولا أن أبدأ بتلخيص مقال الدكتور زكى نجيب محمود ..

يقصر الدكتور مهمة الفلسفة على تحليل معارف الناس الشائعة فى حياتهم اليومية ، وتحليل التعابير التى تنتهى اليها العلوم التجريبية . فالفلسفة تأخذ هذه المعـارف المشتركة بيننا جميعا أو بين الكثرة الغالبة منا ، تأخذها لتسأل عنها بعض الاسئلة التى لا تقع فى هذا المجال او ذلك

(*) الرسالة الجديدة ـ مايو ١٩٥٧

من مجالات العلوم الخاصة ، وهي تسأل أسئلتها . لتبلغ بمعارف الناس التحديد والدقة . وكذلك الشأن فيما يتعلق بالتعابير العلمية ، وان الفلسفة عند الدكتور زكي نجيب لاتنافس العلوم الطبيعية ـ مثلا ـ في الموضوعات التي تبحثها هذه العلوم ، وانما هي تنصرف الى تحليل ما تقوله العلوم فحسب ، « تحلله لتعرف أين يجوز القول وأين لا يجوز ؟ وأين الصواب وأين الخطأ ..

ولهذا تسمى هذه الفلسفة بالفلسفة التحليلية . ولكن ماهي الثورة التي أحدثتها هذه الفلسفة التحليلية ؟ ان هذه الثورة ترجع فيما يرى الدكتور زكي نجيب محمود الى أمور ثلاثة :

(١) الى أن هذه الفلسفة تترك العلوم لاصحابها ، فلا تتدخل فيها شأن الفلسفة التقليدية

(٢) وهذه الفلسفة كذلك لاشأن لها بالمبادىء العامة. انها تنفض يدها مما يسميه الدكتور زكي نجيب محمود بالميتافيزيقا ، وهي عنده البحث في المبادىء العامة التي تنطبق على الوجود كله باعتباره كلا واحدا . والعلم الحديث فيما يرى الدكتور زكي نجيب لا ينظر الى الكون كله باعتباره حقيقة واحدة بل ينظر اليه باعتباره كثرة وباعتباره متحركا متطورا فكيف يجوز لفليسوف معاصر أن ينسلخ عن علم العصر انسلاخا فيبحث عن حقيقة واحدة ..

(٣) ان هذه الفلسفة يقتصر دورها على التحليل اللغوي

« انه حيث يكون المجال مجال الحديث عن العالم وحقائقه فليس للفيلسوف ان ينبس ببنت شفه ، أما عمل الفيلسوف المعاصر فهو توضيح العبارات العلمية »

وموضوع الخلاف بين الدكتور زكي نجيب محمـــود وبيني انني أرى ان هذه ليست الفلسفة المعاصرة ، وانما هي تمثل فحسب جانبا ضيقا للغاية من الفكر الفلسفي المعاصر ، يعبر عنه حفنة من المفكرين في أمريكا وانجلترا، ولا تكاد تتنفس منه نبضة صادقة واجدة عما في حياتنـا الانسانية المعاصرة من ايجابية وجهود مبذولة من أجـل التقدم .

ولهذا لا أرى في هذه الفلسفة ثورة على الاطلاق ، بل أعدها ارتدادا نحو اشد عصور الفكر الانساني ضـــحالة وجدبا واعدها تعبيرا عما يعترض تقدمنا البشرى مـــن عقبات وعراقيل

ماذا تريد هذه الفلسفة ان تلقنه للانسان المعاصر .. انها باسم الدفاع عن العلم تقول له اترك العلم للعلماء ، وباسم نبذ الميتافيزيقا والغيبيات تقول له دعك من المبادىء العامة والنظرات الشاملة والسعي وراء الحقيقة الواحدة ، وباسم الصدق تقول له دعك من الوقائع في العـــالم الخارجي ، ولتعكف على تحليل اللغة التي تعبر عن هذه الوقائع

وبهذا تماما يستحيل العالم الطبيعي والانساني عـلى السواء الى طائفة من العناصر غير المترابطة التي لا يجمعها نسق موحد ولا يدفق في كيانها مفهوم عام ولهذا تمـــاما تتساقط المبادىء العامة والمفاهيم الشاملة التي اكتسبتها الانسانية خلال تمرسها الطويل بالحياة وخلال نضالها من أجل المعرفة والتقدم ، وبهذا تماما لايكون ثمة موجود حقيقي الا ما هو جزئي محسوس . وبهذا تماما تنعـــدم الحقيقة الموضوعية الشـــــاملة ويصبح المدرك الحسي الجزئي هو الحقيقة الوحيدة وبهذا تماما يفقد العقـــل البشري فاعليته التأليفية الابداعية ، ويســـتحيل الى

مبضع بارد للتحليل والتشريح اللغوى المجدب ..

وبهذا تماما ينعزل الفيلسوف عن حياته وعن حياتنا ، عن مجتمعه وعن مجتمعنا الانسانى ، عن المشاركة الفعالة المثمرة فى موكب الحياة ، وتصبح فلسفته ادراجا خشبية محشوة بالعمليات المنطقية الشكلية التى لا دلالة لها

هذه هى ما يسميها الدكتور زكى نجيب محمود بالفلسفة المعاصرة وبالثورة .

ولنضرب مثالا أو مثالين لنبين الفارق فى النظر الى معنى الفلسفة ونختار المثالين من مقال الدكتور زكى نجيب نفسه

يضرب الدكتور نجيب مثالين للتدليل على صحة فلسفته ولبيان منهجها فى التحليل . مثاله الاول مأخوذ من الرياضة والثانى من الاحكام الاخلاقية والجمالية أما المثال الرياضى فمعادلة جمع بسيطة هى ٢ + ٣ = ٥ . ويعقب الدكتور زكى نجيب محمود على هذه المعادلة بأن نتيجة المعادلة يقينيه ، لماذا .. لان المعادلة لا تقول شيئا ، شيئا جديدا . فطرف المعادلة ٢ + ٣ هو نفسه الطرف الاخر أو النتيجة ٥ : لاجديد اذن ، ولكن من هذا نفسه ، من عدم الجدة هذه ينبع يقين النتيجة ٥ . وعلى هذا فاليقين فى الرياضة مصدره تحصيل الحاصل

اما مثال الاخلاق وعلم الجمال فيتمثل فى هاتين الجملتين : الشجاعة خير ، وغروب الشمس جميل . ويفتش الدكتور زكى نجيب محمود عن مقابل موضوعى فى العالم الخارجى لهاتين الجملتين فلا يجد . وبهذا يعدهما تعبيرين ذاتيين لا صدق فيهما ولا خطأ . وهكذا شأن كافة الاحكام الاخلاقية والجمالية

ولنتأمل هذه الامثلة

اننا نلاحظ أولا هذا الفهم الشكلى الجامد لليقين

باعتباره نتيجة لتحصيل الحاصل . على أننا نعبر هذه القضية لأنها أكبر من ان يتسع لها هذا المقال . ثم نلاحظ ثانيا أن القول بأن هذه المعادلة الرياضية لم تقل شيئا وكأنها تحصيل حاصل فيه اغفـــال للمعنى الحقيقى « التأليفى » للعملية الرياضية حقهـــا ان « ٢ + ٣ » لا تختلف عن ٥ ، الا أن عملية الجمع هذه تتضمن جهدا عقليا ، كما تتضمن تاريخا انسانيا من العمل والممارســة والتجريب ، والمعادلة الرياضية هى ثمرة هذا التـاريخ الانساني ، الذى يتعانق فيه العقل البشرى والتمرس على العمل لبلوغ هذه المعارف الرياضية المنضبطة . والحكم على قيمة العمليات الرياضية وطبيعتها ينبغى الا يغفل ابـدا هذا التاريخ العملى الطويل لانه بهذا الاغفال ينكر فاعليـة العقل البشرى وقدراته الابداعية ، كما يغفل ارتبـــاط النتائج الفكرية بالتجريب والتمرس الانسانى العملى ، وهذا ما تفعله الوضعية المنطقية تماما عنـدما تؤكد بأن العملية الرياضية تحصيل حاصل ولا تقول شيئا

انها تنظر نظرة تحليلية الى المعـــادلة وعناصرها التى تتألف خارج هذه المعادلة ولا تربط هذه المعادلة بتاريخها الرياضى والانسانى ، ولهذا تنتهى بالضرورة الى الا جديد فى الفكر الرياضى وانه لا شىء غير تحصيل الحاصل

فاذا انتقلنا الى الاحكام الاخلاقية والجمالية وجـدنا أمرا مماثلا

ان الدكتور زكى محمود لا يجد للحكم الاخلاقى مقابلا حسيا فى العالم الخارجى ولهذا ينكر على هذه الاحـكام موضوعيتها ويعدها أحكاما ذاتية خالصة لا صدق فيهـا ولا خطأ . ان الوضعية المنطقية قد فتشت داخل هذه التعابير فلم تجد ما يقابلها فى الواقع الحسى من وقـائع محسوسة جزئية محدودة ، فحكمت عليها بأنها تعـــابير

ذاتية • وسبب ذلك هو تلك النظرة التحليلية المغرقة التي تفصل الاحكام الاخلاقية والجمالية عن تاريخها ونسيجها الحي • فلو انها نظرت الى هذه الاحكام نظرة موضوعية تأليفية ، وتعرفت عليها كوظيفة حيةفي مجال حي لتكشفت قانونا موضوعيا للاخلاق ولادركت اساسا موضوعيا للتذوق الجمالي • ولكن منهج التحليل الخالص يعزل الظواهر عن سياقها الحي ، انه يحيلها أولا الى عبارات لغوية ، ثم يسعى للكشف عن الصدق فيها بالتحليل بدلا من ربط العبارة اللغوية بسياقها الاجتماعي والموضوعي ، بدلا من اتخاذ النظرة التاريخية التأليفية

وفارق بين أن أقول كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود ان « الشجاعة خير » حكم ذاتي لا مقابل موضوعي له ، وبالتالي ليس فيه خطأ أو صواب ، وبين أن أقول أن « الشجاعة خير » حكم ذاتي ولكنه حكم منبثق من ملابسات نفسية واجتماعية موضوعية هي كذا وكذا وأن له قانونا نستطيع ان نتبينه بمعرفة هذه الملابسات

ولكن الوضعية المنطقية لا تستطيع ان تنتقل من العبارة اللغوية الى وظيفتها التاريخيه والاجتماعيه ، لانها تعامل اللغة لاباعتبارها ظاهرة اجتماعية بل باعتبارها مجرد نسق من الالفاظ والعلامات والرموز ، وتسعى الى معرفة الصدق فيها بتحليل هذه الالفاظ والعلامات والرموز تحليلا منطقيا جامدا يعزل اللغة عزلا كاملا عن سياقها الاجتماعي الحي

وبهذين المثالين يتبين لنا أي انفصال عن الحياة تفرضه الفلسفة الوضعية المنطقية على التفكير الفلسفي وعلى الفيلسوف المشايع لها ، وأي تجريد أجوف تفرضه على تعابيرنا اللغوية واي قصور وضيق تختنق به احكامها ونتائجها ••

مرة أخرى أتساءل ماذا تريد هذه الفلسفة أن تلقنه للانسان المعاصر . ماذا تخدم عندما تسعى لاقناع هذا الانسان المعاصر بأنه لا توجد حقيقة موضوعية ، ولا مبادىء عامة ، ولا قوانين عامة ، ولا قيم عامة وانه لا يوجد اساس موضوعي للخير والشر والحب والامان والشرف والجمال والخيانة والوطنية

ماذا تخدم عندما تسعى لتدير ظهر الفيلسوف المعاصر عن الحياة ولتحنى رأسه فوق العبارات اللغوية ؟

انها بهذا تحرمنا فى الحقيقة من الفلسفة باسم الفلسفة وما اشد حاجتنا الى الفلسفة ، الفلسفة بحق التى تهبنا النظرة الشاملة للحياة ، التى تربط بين أفكارنا واعمالنا وتعمم خبراتنا الانسانية ، كما تعمم نتائجنا العلمية ..

ان للفلسفة فى وجداننا القومى تاريخا عريقا . ولكن الاحداث قد قهرت هذا التاريخ ، وتركت لنا ميراثا مفككا من الافكار والمشاعر غير المترابطة . على اننا خلال العمل والانتاج والتمرس بالحياة قد اخذنا نصوغ لانفسنا فلسفة عامة ، نصوغ لانفسنا نظرةشاملة للكون وللطبيعةوللانسان وللتاريخ ، نظرة شاملة نوحد بها صفوفنا ونرتب أفكارنا ومشاعرنا ونتخذها سبيلا لدفع عجلة التقدم وازالة العقبات من طريقنا ..

ونحن كل يوم نختبر موضوعية القوانين الانسانية بنضالنا وتضحياتنا وبما تنتجه أيادينا من ثمار خصبة للبشرية ونحن نتعرف كل يوم على النتائج الجزئية للعلوم المختلفة ونسعى لتعميمها وصياغة نظرة شاملة منها ، ونحن نسعى فى دأب للتعرف على القوانين فى حركة الاشياء ، الاشياء المادية والاشياء النفسية والاجتماعية .. ونسعى للسيطرة على هذه القوانين ، لان السيطرة عليها ضمان للتقدم وضمان للحرية ونحن ندرك ان معرفتنا

بالقوانين وأن استكمال الوعى بالحياة لايتحقق بمجـــرد التأمل الاجوف او التحليل البارد للعبارات اللغوية ، وانما بالمساهمة والمشاركة فى بناء الحياة وبحمل اعبائها ومواجهة مشكلاتها وصعابها فى شجاعة وصبر ، وبالعمل الدائـــم الدائب ، العمل المتبصر الرشيد . ونحن ندرك أنه بالنظرة الشاملة ، وبالفلسفة الموضوعية لا نزداد وعيـــا ومعرفة فحسب ، بل نزداد كذلك قدرة على تطوير مجتمعنـــــا البشرى ..

هذه هى فلسفتنا الانسانية المستمدة من واقعنـــــا ووجداننا القومى واحتياجاتنا الملحة ، فلسفة موضوعية فيها بساطة وصفاء وتواضع ، فيها الكلمة والانســـان ، فيها المعرفة والعمل ، فيها جهدى وجهدك وجهود الناس جميعا ، فيها احترام العقل البشرى واحترام العمـــل البشرى وفيها تفاؤل موضوعى غامر بالمستقبل البشرى

دفاع آخر عن الفلسفة

تعليقا على المقال السابق ، بعث الى الاستاذان احمد حسن راشد ومحمد عدس رسالتين يدافعان فيهما عن الوضعية النطقية

وأحب أولا أن اشكر للاستاذين الفاضلين ردهما الموضوعى على مقالى واعبر لهما عن صادق تقديرى لحماسهما لقضية الفلسفة واتطلع الى اليوم الذى تصبح فيه هذه القضية موضع اهتمام لجماهير شعبنا

فالفلسفة فى بلادنا تكاد تقتصر على معاهد الدراسة ولم تجد لها بعد مكانا فى بيوتنا وشوارعنا وصحافتنا الوطنية ان سنوات التخلف التى فرضها الاستعمار على بلادنا وعلى شعبنا جعلت من الفلسفة شيئا غامضا كريها فى كثير من الاحيان واصبحت مرادفا للكلام الفارغ الذى لا غناء فيه ولا جدوى منه ــ وللفلسفة فى الحقيقة ركن بالغ الاهمية فى تراثنا الثقافى العزيز ولقد ازدهرت على ايدى مفكرينا المسلمين الاجلاء فى اوج حضارتنا الاسلامية العربية ــ وعندما اخذت هذه الحضارة تنهار وتتحلل بدأت تبرز الدعاوى المعادية للتفكير الفلسفى تحت شعار الفهم الضيق للدين

واليوم تعود الفلسفة الى مكانتها فى وجداننا الثقافى

(*) الرسالة الجديدة : يونية ١٩٥٧

الحديث تعود بارتفاع الوعى بين مواطنينا وبوضوح الرغبة الملحة في امتلاك ناصية حياتنا والسيطرة على مقدراتها وتوجيهها لصالح امتنا العربية

والفلسفة تعنى تألق الوعى النظرى بالواقع المادى وبمواضع الانسان العربى فيه ـ كما تعنى الحرص على مواجهة هذا الواقع مواجهة واعية مستنيرة كما تعنى زوال التخبط والتلقائية فى مسلكنا العلمى والاجتماعى والوطنى على السواء ..

واذا كنا نثير اليوم قضية الفلسفة بنقد الوضعية المنطقية ، فذلك لما نجده في هذه المدرسة الفلسفية خاصة من معاداة صريحة للفلسفة والوعى النظرى ، ولما نلمسه من سيادة هذه المدرسة الفلسفية فى بعض اروقتنا الجامعية ، فضلا عن ادراكنا بأنها تعبر عن الجوانب المتخلفة فى حياتنا الاجتماعية وعن القوى الرجعية فى العالم . فهى تعمل على تجريد الانسان المعاصر من أسلحته النظرية التى يتسلح بها للقضاء على عوامل التخلف ولتوحيد صفوفه ودفع التاريخ البشرى الى الامام

وعندما اخذت على الدكتور زكى نجيب محمود أنه يقصر حديثه على الوضعية المنطقية فى مقاله « ثورة فى الفلسفة المعاصرة » فانما أردت أن أبين وجود تيارات أخرى فى الفكر المعاصر غير الفلسفة الوضعية المنطقية بعضها يدحض الميتافيزيقا كالمادة الجدلية وبعضها يعتبر امتدادا لها كالوجودية والبرجماتية والوضعية المنطقية نفسها مهما أخفت وجهها خلف ستار الدفاع عن العلم ودحض الميتافيزيقا

فالوضعية المنطقية تزعم كما يقول السيد حسن احمد راشد تأكيدا لما يقوله الدكتور زكى نجيب محمود انها تسير فى تيار العصر ـ تيار العلوم الطبيعية التجريبية ـ ولكنها

فى الحقيقة تدير ظهرها لهذه العلوم وتفرض عليها منهجا منطقيا ضيقا قاصرا للغاية فهى أولا لا تحترم فى هـذه العلوم نظرتها الشاملة وقوانينها العامة بل تتمسك بنظرة ذاتية خالصة هى القول بأن العالم مؤلف من معطيات حسية وجزئيات متفردة وان العلم انما يقوم على صياغة هذه المعطيات والجزئيات وتحديد العلاقات الملائمة بينها والوضعية المنطقية لا تؤمن بموضوعية القوانين العلمية بموضوعية الضرورةبقيام هذه الضرورة فىاستقلال تام عن الذات الانسانية المتأملة وبامكانية معرفة هـذه الضرورة والسيطرة عليها والتنبؤ بها • وانما تفترضهذه الفلسفة وجودا مكونا من كثرة الوقائع والاحـداث الجزئية غير المترابطة وتقصر دور العالم على تحـديد الروابط الملائمة بينها ـ وهى تتغافل عما فى الواقعالمادى والتاريخ الانسانى من حركة متصلة وتداخل دائم شامل وهى فى الوقت نفسه تعزل الفلسفة عن تأمل نتائج العلم وتقصر مهمتها على تحليل عباراتها تحليلا يقوم على صيغ منطقية يفرضها المحلل المنطقى فرضا تعسفيا ـ والوضعية المنطقية فضلا عن هذا لا تهتم بالمضمون الواقعى لنتائج العلم وقوانين حركة الواقع وانما تهتم فحسب بالاشكال الفارغة المجردة للعلاقات والروابط التى يحددها العالم فى تعابيره بين معطيات الحس وجزئيات هذا الواقع

وهى بهذا لا تعزل الفلسفة فحسب عن المضمون الواقعى للعلم وتسعى لتجميد حركة الواقع وتمزيق التداخل بين عناصره واحداثه ، بل تعزل الفلسفة عن التجربةالانسانية المرتبطة بتاريخ العلم وتطور وسائله الفنية وتقف من هذا العلم ومن هذه التجربة الانسانية موقفا متعاليـا ميتافيزيقيا ••

والاستاذ الفاضل احمد حسن راشد يخطىء عنـدما

يخلط بين المبادىء والقوانين العامة وبين الميتافيزيقا . فلا علم بغير مبادىء وقوانين عامة أما الميتافيزيقا فهى محاولة لفرض مبادىء عامة على الواقع الطبيعى والانسانى تنبع أساسا من الذهن الانسانى والذات المتأملة دون ان تكون انعكاسا صادقا للواقع الموضوعى ـ طبيعيا كان أم انسانيا ـ ولقوانين حركته وتطوره . والفيلسوف التأملى القديم فى جوانب كثيرة من مذهبه الفلسفى فيلسوف ميتافيزيقى بهذا المعنى لانه يتعسف لاخضاع الواقع الخارجى وتفسيره بمقتضى هذه المبادىء الجاهزة فى ذهنه والتى تعبر عن رغبات واتجاهات ذاتية لا عن استبصاد موضوعى بقوانين حركة الواقع وهو يستمد منطقية مذهبه من المنطق الداخلى لهذا المذهب

انه يقيم المقدمات الاولى ثم يستخلص منها كافة عناصر مذهبه دون احتفال بالحقيقة الموضوعية الجارية تحت بصره وفى اعماق نفسه

والوضعية المنطقية تتخذ هذا الموقف نفسه رغم ماتزعمه لنفسها من معاداة ودحض للميتافيزيقا ـ فهى تعتبر الواقع الخارجى جزئيات متناثرة وهى تحدد للعلم مهمة ضيقة هى اقامة الروابط الملائمة بين هذه الجزئيات ثم هى تحدد للفلسفة مهمة أشد ضيقا هى تحليل عبارات العلم تحليلا يقوم على صيغ وقواعد منطقية جاهزة يفرضها المحلل المنطقى فرضا ..

والوضعية المنطقية بهذا المعنى الذى نتبينه عند « رسل » و « كارناب » و « فتجنشتين » وعشرات غيرهم فلسفة ذاتية مثالية او بتعبير ادق ميتافيزيقا تتعالى على التجربة الانسانية وعلى النتائج الموضوعية للعلم ـ وهى نظرة جامدة ضيقة للعلم وهى بهذا كله فلسفة معادية للتطور أما الادعاء بالدفاع عن العلم وتطهيره من أدران الميتافيزيقا

والسير في تيار العصر فادعاء باطل من اساسه

واعتقد ان في كلامي هذا ما يرد على ما جاء في تعليقي الاستاذين الفاضلين أحمد حسن راشد ومحمد عدس اللهم الا فيما يتعلق بنقطتين أثارهما الاستاذ محمد عدس الاولى تتعلق بطبيعة التفكير الرياضي وما اعتقد ان المجال يسمح بهذا واتطلع الى مجال اخر لمناقشة هذه القضية المهمة بتوسع ـ أما النقطة الثانية فهي القول بأن الوضعية المنطقية لا تنكر المبادىء والحقيقة الموضوعية والقوانين العامة ، وانا ارجو للاستاذ الفاضل محمد عدس ان يراجع نفسه في هذا القول ، فمن الاسس الاولى للوضعية المنطقية انكارها لهذه الحقيقة الموضوعية ، ولامكانية المعرفة الدقيقة لمبادئها وقوانينها العامة ، وقصرها المعرفة العلمية على معرفة المعطيات الجزئية ، واعتبارها نتائج العلم قواعد جزئية ملائمة للسلوك . وفي مقدوره ان يراجع في هذا كتاب كارناب « الاسس المنطقية للاحتمال » وكتاب واينبرج « دراسة للوضعية المنطقية »

وبقي بعد ذلك ان اجيب على مسألة بالغة الاهمية اثارها السيد محمد عدس هي : عما تتحدث الفلسفة اذا كان ليس لها موضوع تتحدث عنه . والقضية مردود عليها منذ البداية . فللفلسفة موضوعها الاصيل لا الموهوم ، وللفلسفة مهمتها الموضوعية كذلك لا الشكلية . . والفلسفة التى نؤمن بها ليست نظرية تحليلية خالصة للعبارات كما تزعم الوضعية المنطقية بل هى نظرة تأليفية يعتبر التحليل احدى عملياتها الفرعية التى تدفع بعملية التأليف وتغذيها ..

وهذه الفلسفة ليست موقفا متعاليا على العلم ، ونسقا ذهنيا مفروضا على الحقيقة الموضوعية يقوم منطقة على الوحدة الداخلية البحتة لمقدماته ونتائجه . وهى ليست

كذلك موقفا تأمليا خالصا من قوانين الطبيعة وحـــركة التاريخ البشرى . بل هى أولا فلسفة علمية موضوعيـــة تحترم العلم ، وتدرك الحركة الشاملة فى الواقع المـادى والتاريخي ، وتحترم قوانينها الموضوعية . بل ان الموضوع الاصيل لهذه الفلسفة هو الحركة فى الـــواقع المادى والبشرى على السواء . وهى تتبين فى هذه الحركة القوانين التى يستخلصها كل علم على حدة بوسائله التكنيكيــة الخاصة ، ولكن الفلسفة تسعى لتعميم هذه القـــوانين واستخلاص القواعد العامة منها

وهى الى جانب هذا لا تقتصر على مجرد المعــرفة بل تتسلح بهذه المعرفة العلمية المنضبطة ، وبهذه التعميمات لتحقيق مهمة جديدة غير منفصــلة عن مهمتها العرفانية هى مهمة تغيير العالم

فاذا اكتشف العلم قانونا للوراثة ، سعت هـــذه الفلسفة الى تعميم هذا القانون واختباره اختبارا شاملا وامتحان اسسه العامة ثم التسلح به اذا ثبتت صحته فى تحسين السلالات فى النباتات والحيوانات على السواء . واذا اكتشف العلم علاقة بين شكل الانتاج والازمــة الاقتصادية ، وعلاقة بين الملكية والعمل ، وعلاقة بين شكل الدولة واتجاه الانتاج ، سعت هذه الفلسفة الى اختبار هذه العلاقات والقوانين اختبارا شاملا ، والتسلح بهـــا لتغيير العلاقات الانتاجية القائمة ، اذا كانت تعوق التطور وهكذا . ولهذا كذلك تتمكن هذه الفلسفة بنظرتها العامة الشاملة ان تكون اساسا نقديا للعلم نفسه ، تتبين على ضوء تعميماتها ونظرتها الشاملة ، وتطبيقاتها العامة مدى الصدق فى هذه القوانين . فقانون مثل قانون مالتس فى العلاقة النسبية بين عدد السكان وتفـــاقم الازمات الاقتصادية ، وقيام الحروب والمجاعات ، قانون ثبت بطلانه ،

على ضوء النظرة الشاملة ، وربط حركة الانتاج بطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة . وكذلك الشأن بالنسبة لتفسير مبدأ عدم التحديد أو اليقين فى الفيزياء الحديثة ومبادىء فرويد فى التحليل النفسى . ان النظرة الشاملة لقوانين الحركة فى العالم الفيزيائى ، واضافة العامل الاجتماعى فى تحديد الظواهر النفسية كانت سبيلا لدحض هذه التفاسير والمبادىء ، وتخليص النظرة العلمية فى مجال الفيزياء او النفس من التعميمات السريعة المجتزأة ، والتفسيرات الالية المحدودة ، والنظريات الذاتية القاصرة . هكذا تكون الفلسفة معرفة شاملة مستمدة من التعميم الموضوعى والنقد الواعى للقوانين العلمية، وتكون فى الوقت نفسه سلاحا للسيطرة على هذه القوانين وتوجيهها لخدمة التقدم البشرى

وللاستاذين الفاضلين عميق تقديرى وخالص شكرى .

ماوراء المدرك الحسي (*)

تسود اليوم في بعض الاوساط الاكاديمية اتجاهات اطلاقية تزمتية تذكرنا باتجاهات مماثلة كانت سائدة في القرن الثامن عشر نتيجة لسيادة النظرية الجبرية الميكانيكية في العلم آنذاك . الا أن هذه الاتجاهات الحديثة يمكن أن ترد الى عاملين :

١ ـ عدم هضم النتائج الفيزيائية الحديثة

٢ ـ المتناقضات في مجتمعاتنا البورجوازية الحديثة وما تثيره لدى الفرد من اتجاهات فكرية نكوصية . ومن أخطر هذه الاتجاهات شأنا المدرسة المسماة « بالوضعية المنطقية » التي تكاد ان تصبح دينا جديدا لدى طائفة من الشباب في بعض جامعات انجلترا خاصة ، حتى لقد أصبح كتاب الاستاذ آير ـ وهو من كبار مشايعي هذه المدرسة ـ المسمى « اللغة والصدق والمنطق » انجيلا فلسفيا بين شباب جامعة أكسفورد منذ نهاية الحرب الاخيرة ..

ولهذه المدرسة هدفان أساسيان ومنهج .. أما الهدفان فهما :

١ ـ تحديد أساس سليم للمعرفة العلمية

(*) مجلة علم النفس : فبراير ١٩٥٠ (رد على مقال « المدرك الحسي » للدكتور زكي نجيب محمود)

٢ ـ استبعاد كافة العناصر الميتافيزيائية من قضايا التعبير اللغوى

ومنهجها الى ذلك التحليل المنطقى لكافة القضايا والتصورات التعبيرية . ولنعرض أولا لهذا المنهج عرضا سريعا خاليا من رموزه الاصطلاحية الرياضية ثم نتبين بعد ذلك مقدار صدق محاولته فى تحقيق هدفيه

٢ ـ فى سنة ١٨٥٤ أصدر العالم الانجليزى Boole كتابه «قوانين الفكر» وعلى الرغم من ان Boole لم يقصد بكتابه هذا الى ابعد من التعرف على قوانين الفكر الا أنه اعتبر أول كتاب كتب بحق عن الرياضيات البحتة ، وان يكن خاصا بالمنطق الصورى . وهنا تجثم خطورته باعتباره المبشر الاول بمدرسة المنطق الرياضى أو الرمزى التى تستمد منها الوضعية المنطقية منهجها التحليلى كما سنرى . وحول هذا الترابط الذى كشف عنه كتاب Boole بين المنطق والرياضة بدأت سلسلة من الدراسات استطاعت أن تنتهى بنجاح الى أن جميع فروع الرياضة من حساب وتحليل وهندسة انما تقوم على ترابط الافكار الاولية للمنطق الصورى . وبهذا أمكن استخلاص كافة القضايا الرياضية من البديهيات المنطقية العامة مثل القياس وقواعد الاستدلال الاخرى . ولا نقصد بالمنطق هنا المنطق الصورى القديم كما خلفه لنا أرسطو . وانما نقصد منطق الاضافات عامة كما عرضه شارل بيرس وأرنست شرودر . فنحن نعرف أن الاضافة الوحيدة بين قضايا المنطق القديم كانت اضافة اندراج ذات صورة واحدة هى صورة (الموضوع ـ المحمول) ، وكانت الرابطة بينهما رابطة الكينونة (التى لا يعبر عنها فى القضية العربية) . الا أن رواد المنطق الحديث تبينوا أن الاقتصار على هذه الاضافة الوحيدة فيه تحديد وتعسف

لما يمتلىء به الواقع من اضافات أخرى متعددة . والمهم هنا أن نذكر أن هذه التطورات المنطقية المصاحبة لتطورات أخرى رياضية قد أدت الى تكشف أساس واحد لكلا المنطق والرياضة ، فتحقق بهذا قول ليبنتز من أن الرياضة ليست الا استدلالا من مبادىء منطقية بمبادىء منطقية . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعداه الى تكشف الصياغات والأشكال الرئيسية لكافة قضايا المنطق والرياضة على السواء ثم رد هذه القضايا الى طائفة محدودة من الصيغ الاولية ذات الصبغة المنطقية . ونقصد بالصبغة المنطقية هنا «الصورية المحضة» التى يتحقق صدقها فى داخل تركيبها الداخلى وبدون التعبير عن أى واقعة من وقائع العالم الخارجى ، ومن هذه الصيغ الاولية حددت قواعد مثل التركيب والتعريف وتحصيل الحاصل يمكن بواسطتها تحديد دلالة أى قضية لغوية مركبة بردها الى قضايا أولى بسيطة . واعتبرت هذه القضايا الاولية البسيطة — ثمرة التحليل المنطقى — القضايا الوحيدة التى يمكن أن تكون لها دلالة حقيقية موضوعية ، لأنها وحدها — لبساطتها وأوليتها — يمكن أن تشير الى المعطيات الخارجية . أما ما عداها من القضايا العامة فليست الا تجميعات وتركيبات مهجنة مخلطة لا سبيل الى التحقق من صدقها الخارجى الا بتحليلها تحليلا منطقيا — بحسب قواعد النظم التى قررتها هذه المدرسة — وردها الى قضايا أولية لمعرفة مقدار انطباقها على المعطيات الخارجية . فالقضية السليمة صورة للواقعة الخارجية التى تمثلها وتعبر عنها . لو وجدت الواقعة صدقت القضية والا فهى كاذبة . فدلالة أى قضية اذن مرتبطة بمنهج تحقيقها تحقيقا تجريبيا مباشرا كما يقول أصحاب هذه المدرسة . ولما كانت وقائع

التجربة المباشرة لا تقوم الا فى المعطيات الحسية ,كان من الضرورى لتحقيق أى قضية من القضايا العامة تحقيقا تجريبيا ، أن ترد الى قضاياها الاولية التى تمثل وحدها هذه المعطيات الحسية تمثيلا مباشرا

والتعابير اللغوية تحفل بالقضايا العامة التى لا سبيل الى التأكد من صدقها الموضوعى الا بتحليلها الى عناصرها الاولى ومواجهتها بالمعطيات المباشرة لمعرفة مقدار انطباقها عليها . وعلى هذا ، فامكانية التحقيق التجريبى المباشر هى المحك الوحيد على صدق القضية . والقضية الفاسدة هى التى يتبين لنا بتحليلها منطقيا — بحسب القواعد النظمية — أنها اما :

١ — متناقضة أو

٢ — لا تشير بحال الى معطيات خارجية بمباشرة أو

٣ — تتعارض مع قواعد النظم المنطقى . وعلى هذا ، فكافة قضايا التعبير اللغوى ، ينبغى أن تخضع للتحليل المنطقى لردها الى عناصرها الاولى واستبعاد كل مايخالطها من ملابسات سيكولوجية أو من اشتراك لفظى أو معنوى أو من مغالطات ميتافيزيائية

على هذه المقررات تألفت فى سنة ١٩٢٨ مدرسة أسمت نفسها باسم « حلقة فيينا » تحمل لواء هذه الوضعية المنطقية وتتقدم بمنهجها التحليلى لتحقيق هدفين هما كما اشرنا من قبل :

١ — اقامة أساس سليم للعلم

٢ — استبعاد التعبيرات الميتافيزيائية واثبات بطلانها وخلوها من الدلالة والصدق الموضوعى

والحق ، أن هذا الاتجاه ليس جديدا فى تاريخ الفكر بل يعد امتدادا للنزعة التجريبية الساذجة وان تذرعت هذه المرة لا بأسلحة التحليل السيكولوجى أو النقدى

وانما بأسلحة التحليل المنطقي ، واتخذت موقفا أكثر تطرفا ومغالاة . فكافة مذاهب التجربة الساذجة او البسيطة تقف عند حدود المعطى الحسي ولا تتعداه ، فهو عندها الحد النهائي لكل معرفة صادقة بل هو « الاول والاخر والظاهر والباطن » على حد تعبير الدكتور زكي نجيب محمود . وقيمة الصدق في قضايا التعبير هي مقدار انطباقها على معطيات حسية . الا أن المدرسة الوضعية المنطقية تستلزم — فوق هذا — رد كافة القضايا الى قضايا أولية بسيطة بالتحليل المنطقي . وهكذا نجد انفسنا داخل هذه المدرسة محدودين بحدود تعبير لغوى يتميز بالاولية والبساطة ويشير الى معطى حسي مباشر . أما خارج هذه الحدود فلا توجد مقولة صدق . تلك هي الخطوط الرئيسية لهذه المدرسة . والواقع أن وجهة نظر كهذه لا بد أن تكون لها نتائج في مختلف الابنية الانسانية من دين وأخلاق وفن وعلم ، وعلى الرغم من أننا نريد أن نقصر هذا المقال على النتائج العلمية ، الا أننا مضطرون أولا الى الاشارة بصورة عابرة الى نتائجها فيما يتعلق بالمجالات الاخرى التي ذكرناها

٣ — ولكن ، قبل التعرض لهذا ينبغي ان نعرض أولا للمدرسة من حيث تماسكها الداخلي . فلقد سبق ان ذكرنا ان لهذه المدرسة هدفين ، الاول ، اقامة اساس سليم للعلم . وهذا ما سنؤجل مناقشته الى ما بعد . والثاني : استبعاد كافة العناصر الميتافيزيقية من التعبير . ولنبحث الان في مقدار تحقيق هذا الهدف الثاني فيما يتعلق بالمدرسة نفسها . فالواقع ان المدرسة الوضعية المنطقية لا تستطيع ان تقضي على الميتافيزيقا بدون أن تقضي على نفسها كذلك ، لتداخل أكثر من العناصر الميتافيزيائية في صميم منهجها وجهازها التحليلي .

ويتضح لنا هذا من امور اربعة :

١ ـ بهذا المنهج التحليلي المنطقي وبهذه المواجهة المباشرة لمعطيات الحس ، تجهد هذه المدرسة لتلافي كل تفكير قبلي ، الا ان منهجها على الرغم من ذلك يسلم بوجود انماط معينة من القضايا تلعب دورا رئيسيا في صياغته . غير ان هذه الانماط لا تقبل التحقيق التجريبي فهي صورية بحتة ، صيغ لا دلالة لها ، ولا تشير بشيء الى معطيات خارجية ولا تتدخل المعطيات في تحديدها . فهي ليست الا قضايا أولية نظمية ، لا محتوى لها ، لا تؤكد شيئا ولا تثبت شيئا بل مجرد تحصيل حاصل . الا انها الاساس الذي يقوم عليه جهاز التحليل المنطقي . والواقع، ان هذه الصيغ الصورية لا تفترق في شيء عن القبليات التقليدية . هذا الى جانب الوسائل الاصطلاحية الاخرى التي تقوم عليها عملية التحليل كالتعريف والتجريد والتركيب .. الخ .. عمليات لا تحددها طبيعة المعطيات وانما هي عمليات مفروضة من العقل وحده . فاشياع هذه المدرسة على الرغم من انكارهم ان الانسان يولد ولديه افكار وتصورات قبلية ، فانهم يسلمون بأن الانسان يولد ولديه قدرات معينة على التجريد والتعريف وصياغة الرموز . الخ . الا ان هذه القدرات ليست من المعطيات وانما هي جزء من الذات العارفة ، ولا تكاد تختلف في طبيعتها ووظيفتها عن القبلي التقليدي

وهكذا نجد أنه على الرغم من ان اشياع هذه المدرسة يقررون أن دلالة اي قضية في منهج تحقيقها تحقيقا تجريبيا ، فان القضايا الاساسية التي يقوم عليها جهازهم التحليلي قضايا لايمكن اثباتها اثباتا تجريبيا . فاذا كان اشياع المدرسة يعدون كل قضية غير قابلة للتجريب قضية فاسدة ميتافيزيائية،اتضح لنا تأصل العناصر الميتافيزيائية

فى جهازهم المنهجى نفسه

(ب) تقوم هذه المدرسة على مصادرة قبلية وان لم تعترف بها صراحة هى قابلية الواقع الخارجى للانطباق على قواعد المنطق الشكلى وصياغاته. وهى مصادرة ميتافيزيائية مثلى تذكرنا بالرأى التقليدى القديم القائل بأن هناك اتفاقا طبيعيا بين الفكر والواقع. والمدرسة الوضعية المنطقية لاتقول بالطبع بأن هناك اتفاقاً طبيعيا بين الصياغة المنطقية والواقع، لأن كلمة «طبيعيا» كلمة ميتافيزيائية وفيها تسليم بالقبلية، الا ان منهجها يتضمن القول بأن السلامة المنطقية فى التركيب اللغوى ضمان على الصدق الموضوعى. والاختلاف طفيف بين الرأى القديم والمصادرة الجديدة وان كانت الاخيرة اكثر تطرفا، اذ انها تقصر قيمة الصدق الموضوعى على سلامة الصياغة النظمية وتحدد الموضوع الخارجى بحدود التعبير المنطقى. وهذه مصادرة قبلية فى حاجة الى تحقيق تجريبى لا سبيل اليه

(ج) تقوم هذه المدرسة بتحليل اللغة تحليلا منطقيا بحسب قواعدها النظمية ونتائج هذا التحليل نتائج سليمة وقيمة الا أنها قاصرة. اذ أن اللغة كائن وظيفى فى مجال سيكلوجى واجتماعى الى جانب انها عناصر وعلاقات. والاقتصار على الجانب التحليلى من اللغة فيه عدم استبصار بوظيفتها الحية كعامل أساسى للتكامل الاجتماعى. ولا تقف هذه المدرسة عند حدود هذا التناول القاصر للغة وانما تتعداه الى اقامة بناء مذهبى فى طبيعة الواقع الخارجى على أساس هذا التناول القاصر. وطبيعة الشيء ــ أيا كان ــ ليست فى عناصره الداخلية التحليلية فحسب، وانما فى وظيفته التركيبية كذلك. فالمقولات النحوية مقولات منطقية بالتحليل، وهذا حق، ولكنه ليس الحق كله. لان اللغة الى جانب هذا ظاهرة حية تتجاوز حدود

عناصرها وعلاقتها الداخلية . وديناميكية اللغة حقيقة أخرى غير صوريتها التى هى احدى مظاهرها المتعددة . والاقتصار على مظهر دون مظهر موقف ميتافيزيائى فيه تعسف ، باعتبار ان احدى مفهومات الميتافيزياء انها منهج للدراسة بحسب خطة واحدة . والمدرسة الوضعية المنطقية بمنهجها التحليلى لا تدرس اللغة الانسانية وانما العناصر الداخلية فى تركيب هذه اللغة ولا تحفل بدلالتها كوظيفة فى مجال ترتفع فوق عناصرها الداخلية ، وذلك راجع الى أن منهجها لا يصلح لتناول ظاهرة اللغة فى حقيقتها التركيبية . الا أن هذه المدرسة كما قلنا لاتقف عند هذا الحد بل تتخذ من نتائجها التحليلية سندا لاقامة موقف مذهبى بازاء الواقع الخارجى ، وذلك بتحديدها قيمة الصدق فى القضايا اللغوية — كما رأينا من قبل — بحدود التجريب البسيط المباشر ..

وهذا ينقلنا الى المأخذ الرابع

(د) تعتبر هذه المدرسة ان قيمة الصدق فى التركيب اللغوى تتوقف على امكانية التحقيق التجريبى المباشر . ولا يقف الامر عند هذا الحد بل انها بمنهجها التحليلى المنطقى وموقفها التجريبى البسيط لا تستطيع ان تقدر وجود شىء لا يمكن وصفه بحدود تجريبية . وعلى هذا فمالا يمكن وصفه بحدود تجريبية لا وجود له . وهذه النتيجة — كما سنرى — الى جانب مجانبتها للصواب فيما يتعلق بالنظرية العلمية وطبيعة حقائقها نتيجة تعسفية تكاد أن تكون من قبيل المسلمات القبلية التى لاسند موضوعى لها . فما ليس بقابل للتحقيق التجريبى المباشر فى حدود المعطيات الحسية خرافة ميتافيزيائية ، والقضايا اللغوية غير قابلة للتحليل المنطقى قضايا ميتافيزيائية فاسدة ، وهذا اطلاق تزمتى لا موضوعية فيه . وبدلا من ان تقف

هذه المدرسة موقفا منهجيا سليما بأن تعتبر أن منهجها التحليلي يحد من مجالات المعرفة ، تقصر هي مجالات المعرفة على حدود منهجها التحليلي ، وتعد كل ما هو خارج موضوعات هذا المنهج حقائق مزورة . وبدلا من القول بأن المنهج التحليلي يضيق من حدود الواقع الخارجي ، تذهب هذه المدرسة الى القول بأن الواقع الخارجي له من الضيق ما لمنهجهم التحليلي المنطقي . وهذا كما نرى موقف ذاتي مثالي يرتكز على حركة ميتافيزيائية مثلى ، الى جانب انه يختلف مع طبيعة المعرفة العلمية ونتائجها . فالنظرية العلمية تحفل بالحقائق السليمة على الرغم من انها غير قابلة للتحقيق التجريبي المباشر في حدود المعطيات الحسية ، وعلى الرغم من انها لم تكن ثمرة مواجهة هذه المعطيات مواجهة مباشرة بل كانت نتيجة استدلال تجريدي . فاكتشاف السيار « نبتون » عن طريق تعليل عدم الانتظام في حركة السيار « أورانوس » (١) . واكتشاف أجسام جديدة نتيجة للخانات الخالية في جدول « مندليف » ، وفرض المكان ـ زمان ، وفرض البناء الداخلي للذرة . . الخ . الخ . كلها حقائق علمية لم تسمح المعطيات الحسية المباشرة بالتأكد منها قبل صياغتها بل أن بعضها لا سبيل الى التحقق منه تحققا تجريبيا بسيطا على الرغم من تحقق صدقها الموضوعي

وهكذا يتضح لنا ان المدرسة الوضعية المنطقية بحدودها المنهجية قد جعلت من المستحيل التعبير عن القوانين العامة والتصورات العلمية التي لا يمكن أن تشير مباشرة الى معطيات حسية . وعلى هذا فمحاولة هذه المدرسة للتخلص من العناصر الميتافيزيائية في المعرفة قد دفعها الى التعثر في موقف ميتافيزيائي كامل لا يقل تطرفا عن المواقف

---

(١) جاءت هذه الحقيقة على نحو معكوس في مقال « المدرك الحسي »

الميتافيزيائية المعروفة وذلك نتيجة لتحديدها للمعرفة العلمية بحدود القضايا الاولية المنطقية والمعطيات الحسية

ويتساءل الدكتور زكى نجيب محمود فى سياق مقالته هل يجوز الاستدلال على حقيقة موضوعية بصرف النظر عن امكانية ادراكها ادراكا حسيا . ويجيب على هذا التساؤل جوابا « بسيطا وهاما » هو جواز هذا لو كان من شأن القول بهذه الحقيقة الموضوعية ان يغير من شكل العالم. والواقع أن هذا الجواب فيه ادخال لمصادرة برجماسية لا تتفق والمبادىء الاساسية لمدرسة الوضعية المنطقية . يقول الدكتور « انك اذا فرضت وجود شيء ثم تبين أن العالم لا تتغير صورته اذا ثبت فرضك او اذا اخطأ ، فالفرض « لغو باطل لا معنى له » ، فاذا قلت لى ــ مثلا ــ ان وراء هذا الستار رجلا مختبئا ، كان قولك ذا معنى ، لان العالم تتغير صورته اذا صدق قولك عنه ان كذب .. ولكن ما الذى يتغير فى العالم اطلاقا أن صدق أو كذب افتراضنا بأن وراء ظواهر البرتقالة برتقالة فى ذاتها ؟ » وهذا قول لا يتفق كما قلنا مع المبادىء الاساسية للمدرسة . فقيمة الصدق عندها انما تتحقق بامكان التحقق التجريبى ، أما المفاضلة بين الموضوع الذى يغير شكل العالم والموضوع الذى لا يغيره فمفاضلة ذاتية لا تحتكم الى أساس موضوعى . فالرجل المختبىء خلف الستار ، او وجود البرتقالة فى ذاتها ، أو قيام علاقة فنية بين عناصر لغوية ، او حلم يقظة او حركة سبابة فى الهواء أو الفواصل المكانية الزمانية كلها موجودات لا مجال للمفاضلة بينها على أساس تغير شكل العالم او عدم تغيره ، وانما تقوم المفاضلة على مقدار تحققها بحسب شروط المعرفة العلمية لا التجربة الساذجة المحدودة بحدود المعطيات الحسية أو مجرد المصادرة على تغير شكل العالم بها

من هذه النقط الاربع التى عرضنا لها يتبين لنا مقدار ما تورطت فيه هذه المدرسة من انحرافات ميتافيزيائية فى داخل جهازها المنهجي نفسه الذى تجهد به لاستبعاد كافة العناصر الميتافيزيائية من التعبيرات اللغوية

٤ ـ ذكرنا من قبل أن لهذه المدرسة نتائج فى الدين والاخلاق والفن والعلم وقلنا أننا سنعرض بالتفصيل لموقفها من النظرية العلمية خاصة ، ولكننا سنعرض أولا عرضا عابرا لما تلقيه هذه المدرسة من ظل على التعبيرات الدينية والاخلاقية والفنية

يهاجم بعض المفكرين المعاصرين المدرسة الوضعية المنطقية على أساس أنها تهدر من قيمنا الدينية والاخلاقية والفنية على السواء ، فهى بتحديدها لقيم الصدق بحدود التجريب المباشر تجعل من كافة هذه القيم لغوا باطلا . والحق ان الاساس الذى يستند اليه هؤلاء المفكرون اساس تقويمى غير علمى ، والمأخذ الحقيقى الذى نأخذه على هذه المدرسة فيمايتعلق بالتعبيرات الدينية والاخلاقية والفنية هو مواجهتها لهذه التعبيرات مواجهة قاصرة من الناحية المنهجية ، فالتعبيرات الدينية والاخلاقية ليست مجرد علاقات بين عناصر تخضع لقوانين النظم المنطقى الصورى وانما هى ظواهر حية وكائنات وظيفية فى مجال . ونقدنا لهذه المواجهة القاصرة لا يختلف عما سبق أن قلناه فيما يتعلق بموقفها من اللغة عامة . فالتعبيرات الدينية والاخلاقية بصرف النظر عما تشير به الى صدق موضوعى أو لا تشير ، دلالات حية تتضمن شحنات وجدانية واجتماعية تتجاوز حدود العلاقات المنطقية التى تكشفها هذه المدرسة بمنهجها التحليلى فى القضايا اللغوية . وكذلك الحال بالنسبة للتعبيرات الفنية ، فالتعبير الفنى اللغوى فى الحقيقة ليس الا خلقا لعلاقات جديدة بين عناصره .

وهذه العلاقات الجديدة لا تخضع للنظم المنطقى ولا تقف عند حدود الدلالة اللغوية القاموسية أو الدلالة البلاغية بل وتتجاوز ــ وقد تتجانف مع منطق الشعور العادى ، وترتفع فوق كل هذه الحدود لتكون بنفسها « موقفافنيا» يشيع فى عناصره اللغوية الاصطلاحية دلالات مجالية مستحدثة . فالحقيقة الفنية مرحلة على مبعدة من أى تحديد منطقى او دلالى قاموسى بل سيكلوجى قاعدى . فالوقوف عند حدود التحليل المنطقى للتعبيرات الفنية فيه مجانبة تامة لطبيعة الظاهرة الفنية

الا أن هناك مسألة جديرة بالتدبر . فنحن نعرف ان الفن الحديث خاصة تقوم مشاكله الاساسية على ماسمى بالصياغة . فالفن الحديث فى الحقيقة مغامرة لكشف صياغات . والصياغة الفنية ضرورة صورية بين عناصر . الا أن هذه الضرورة الصورية فى الصياغة الفنية ضرورة نسبية لانها تتعلق بمجال كل عمل فنى على حدة أو مدرسة فنية بعينها . فهل يمكن بواسطة المنهج النظمى للمدرسة الوضعية المنطقية تحديد طبيعة الصياغة الفنية ــ فى الشعر مثلا ــ تحديدا رياضيا منطقيا ، مادامت هذه الصياغة تتحقق قيم الصدق فيها تحققا داخليا نتيجة لصوريتها . والحق ، انه لو قامت هذه الدراسة ــ ولعلها قائمة بالفعل وان لم أعرف عنها شيئا ــ فانها ستساهم مساهمة جدية فى تفهم كثير من المشكلات الفنية المعاصرة ؛ الا انها ــ على الرغم من هذا ــ ستكون دراسة محدودة لانها ستعجز عن مطاولة « الابداع التلقائى » الذى تتميز به الصياغة الفنية . ولكن حسب هذه الدراسة أن تؤدى الى تحديد الانواع المختلفة للصياغات الفنية وتبين طبيعة مقوماتها الصورية

٥ ــ اما موقف المدرسة الوضعية المنطقية من النظرية

العلمية فهو هدفنا الحقيقى . رأينا فيما عرضناه من منهج هذه المدرسة انها تقف عند القضايا الاولية القابلة للتجريب المباشر فى حدود المعطيات الحسية . ورأينا كيف أنها تعتبر القضايا العامة تجميعات عقلية مخلطة تتداخل فيها عناصر غير موضوعية ، ولهذا تجرى عليها تحليلها المنطقى تبعا لقواعدها فى النظم لتردها الى وحدات أولية تصلح للتجريب البسيط الذى هو المحك الوحيد لصدقها . من خلال هذا تتضح لنا الحدود المقفلة التى تضعها للنظرية العلمية. فالقوانين العامة كما نعرف ، صياغات عامة تجريدية لاتشير الى معطيات حسية مباشرة . وعلى هذا فمثل هذه القوانين ــ بحسب بروتوكول هذه المدرسة ــ لا تعتبر ذات دلالة صدق موضوعى . فهى ليست ذات مضامين واقعية لطابعها التجريدى وعدم تصويرها تصويرا مباشرا للمعطيات . وهى ليست اذن صادقة أو كاذبة ، ولا تقول شيئا عن العالم الخارجى ، بل ليست ذات فحوى أو مضمون خارجى . والدلالة الوحيدة للقوانين عند أصحاب هذه المدرسة أنها اتجاهات أو قواعد للسلوك أو مجموعة من التعليمات العامة التى يمكن منها صياغة قضايا جزئية أولية صالحة للتجريب المباشر . اذ فى مقدورنا أن نحقق القضية الجزئية الاولية المستخلصة من القانون ، ولكن لا سبيل الى التحقق تجريبيا من القانون نفسه ، وعلى هذا فهو لا يشير الى اى واقعة موضوعية . والقصد الوحيد للقوانين انها تخطيطات أو نماذج يمكن بواسطة المناهج التحليلية أن تستخلص منها تقريرات ذات معنى واقعى . وهكذا تنتفى عن القانون صفته باعتباره وصفا للوقائع ويصبح فحسب تركيبات تصاغ منها القضايا القابلة للتجريب ، وبتعبير آخر تنتفى عن القانون صفته التقريرية ويصبح أداة للبحث وتقترب دلالته من دلالة

التجربة نفسها باعتبارها هي أيضا أداة للبحث

والنتيجة الطبيعية لهذا الموقف أن تحدد النظرية العلمية بحدود القضايا الجزئية الاولية ـ ثمرة التحليل المنطقى ـ الصالحة للتجريب البسيط ، وأن تصبح الحقيقة العلمية خارج حدود المعطيات الموصوفة بالقضايا الاولية خرافة ميتافيزيائية

بهذه الخطوط العامة يتضح لنا موقف المدرسة الوضعية المنطقية من النظرية العلمية كنتيجة طبيعية لجهازها التحليلى المنطقى

والحق ، ان هذا الموقف ليس جديدا فى تاريخ الفكر ـ كما سبق ان ذكرنا ـ بل هو امتداد لمدرسة التجريب البسيط متذرعة هذه المرة بأسلحة من التحليل المنطقى الرمزى بدلا من التحليل السيكلوجى او النقدى كما فعلت المدارس السابقة . وعلى الرغم من امكان رد هذه المدرسة الوضعية المنطقية من الناحية المذهبية الى غالبية المدارس التحليلية منذ القرن الثامن عشر الا انها فى الحقيقة تنتسب مباشرة الى مفكرى أواخر القرن التاسع عشر من نقاد النظرية الفيزيائية من أمثال ماخ وبيرسون ودوهم وغيرهم ، وان اعتبر ماخ الاب الحقيقى لهذه المدرسة من الناحية المذهبية . الا اننا نعرف ان امثال هؤلاء المفكرين لم يكن موقفهم المذهبى الا رد فعل للاخطاء التى تورطت فيها النظرية التقليدية فى الفيزياء . فلقد تكشف لهؤلاء المفكرين ما تشتمل عليه تلك النظرية من عناصر تشبيهية انسانية وما تعتمد عليه من أصول نسبية وقيم لاهوتية . الا أن خطأهم الاكبر يتلخص فى انهم بمحاولتهم تخليص الفيزياء من هذه الاخطاء العلمية قد حددوا النظرية العلمية بحدود قاصرة . فماخ وبيرسون مثلا قد قصرا المعرفة العلمية على حدود التجريب البسيط والمدرك الحسى ، ودوهم قد

دمغ النظرية العلمية بطابع النسبية والرمزية والمواضعة . وكان ماخ يعبر عن أمله فى اختفاء الذرات اخيرا عن نظرية الحرارة لانها تتجاوز الحدود التجريبية البسيطة التى حدد بها النظرية العلمية ، وما كان بيرسون ليقبل حقيقة تتعدى حدود التأثير الحسى المباشر ، ويرى أن الجسيمات والذرات أمور غير حقيقية ويسخر من القول بوجود ماوراء الحسى ، ولا يرى فارقا بين القول بوجود « الاشياء فى ذاتها » وجودا حقيقيا وبين القول بوجود الذرات والجسيمات . على اننا نعرف أن هذه النزعات الفكرية كما قلنا — كانت رد فعل للاخطاء التى تورطت فيها النظرية الفيزيائية التقليدية

أما فيما يتعلق بالنتائج الفيزيائية الحديثة فان الموقف يختلف برمته . واذا كنا قد قلنا ان المدرسة الوضعية المنطقية تستند مذهبيا الى نتائج ابحاث تلك النزعات الفكرية ، فائنا نرى مقدار مجانبة هذه المدرسة للمفهوم الحديث للعلم بانكارها للمضامين الحقيقية فى المعرفة العلمية ..

٦ — العلم الفيزيائى الحديث فى صورته العامة محاولة جدية للتخلص من كافة العناصر التشبيهية الانسانية والاصول اللاهوتية والحدود النسبية التى كانت تنوء بثقلها الفيزياء التقليدية . وعلماء الفيزيا فى القرن العشرين بزعامة اينشتين وبور وهيزنبرج وغيرهم قد كشفوا لنا الى أى حد اصطبغت الفيزياء التقليدية بالصبغة الذاتية ، وليست الفيزياء الحديثة — كما قلت — الا محاولة لتخليص النظرية العلمية من « منظارنا الانسانى » ومواجهة الحقيقة الموضوعية « فى ذاتها » . وان تكن هذه المحاولة قد دفعت الى تغيير طبيعة الموضوع الفيزيائى او اعطائه طابعا غير الطابع القديم . فبدلا من « الشيئية » التى كانت

تميز موضوعات الفيزياء القديمة ، اصبحت موضـوعات الفيزياء الحديثة هى العلاقات المجالية نتيجة لقيام الفيزياء الحديثة على أساس رياضى جديد ، فضلا عن طبيعة هـذه الموضوعات نفسها ..

ولقد تحققت الاهداف الاولى للفيزياء الحديثةفى النظرية النسبية . والدلالة الحقيقية لهذه النظرية تعنى موت كل مذهب ظاهرى نسبى فى المعرفة العلمية فمبدأ النسبيـة هو مبدأ عدم نسبية الحقيقة الواقعية التى هى موضوع العلم . فالواقعة العلمية فى النظرية النسبية حقيقة كونية ووجود مستقل فى ذاته ، مستقل عن وجهة النظر الجزئية المباشرة . ولقد استطاعت النظرية النسبية ـ كما نعرف ـ ان تصوغ قوانينها صياغة بحيث تكون مســـتقلة عن مواضع وحركات الملاحظ وذلك باستخلاص علاقات ثابتة لكافة التغييرات والتعديلات التى تلحق بالاحداثيـــات الاربع . وبهذا استطاعت لاول مرة فى تاريخ العلم ان تقدم لنا طبيعة خالصة من ملاحظاتنا الشخصية ومقاييسـنا النسبية . فالظاهرة العلمية فى النظرية النسبية صحيحة لا بالنسبة الى الملاحظ النائم على الارض أو على الشـمس او بالنسبة الى ملاحظ خيالى قائم فى منطقة ما من المكان المطلق ويعتبر ثابتا « وهذه وجهة نظر نيوتن التقليدية » وانما هى صحيحة بالنسبة لكل ملاحظ ممكن او متخيل على السواء . وهكذا اصبحت الظاهرة العلمية متحققـة خارج الملاحظ بطريقة مطلقة وتم الفصل بين ما هو خاص بالملاحظ الانسانى وما هو خاص بالطبيعة الخارجية . فلو قارنا مثلا بين نظرية المكان والزمان عند كل من نيوتن وكانط واينشتين ، لوجدنا المكان والزمان عند كانطقالبين للفكر ، ووجدنا المكان والزمان عند نيوتن مصـــــادرة ميتافيزيائية تقوم على مسلمات لاهوتية متوارثة ، اما عند

اينشتين فالزمان ـ مكان حقيقة علمية مرتبطة بالكـــون باعتباره مستقلا عن الانا المدركة . فهو اذن زمان ـ مكان موضوعى يكاد ان يكون « الشيء فى ذاته » بالمصـــــطلح الفلسفى

واذا كانت نظرية النسبية تقتصر على الهندســة العامة للكون ، فان نظرية الكم تتعلق بالتركيب الداخــــلى للموضوعات الكونية ، وتعتبر فى الحقيقة خطوة أبعد من النسبية فى طريق الواقعية والموضوعية .. ويهمنا هنـــا من هذه النظرية امران : ـ

(١) قضائها على المعنى الجبرى العلمى القديم للقوانـين العلمية ، هذا المعنى الذى كان يؤذن ببقايا انسانية فى قلب الصياغات العلمية . أما القوانين فى حدود هذه النظرية فقوانين احصائية . والفرق بين القانون الجبرى القديم والقانون الاحصائى ان الاخير لا يسمح لنا بالتنبؤ بعناصر جزئية محددة وانما يعرض فحسب للنتيجة الكلية المتعلقة بطائفة من الظواهر المتماثلة. والنتيجة الاحصائية لاترتبط بواقعة محددة او معطى معين وانما هى تحديد تقـــاربى لمجموعات كبيرة من الظواهر . وهذا لايفقد الجبريةالعلمية موضوعيتها ، ولكنه يعطى لها مدلولا آخر غير المدلول الالى القديم ..

(ب) الامر الثانى يتصل « بمبدأ عدم التحديد »اوعدم اليقين الذى أثار كثيرا من الجدل حول مدلوله الحقيقى ، وكان له صدى عند كل من كتب عن الفيزياء الحديثة . ولكنه مبدأ سيىء الحظ اذ حمل من التفسيرات ما أخرجه عن مدلوله الحقيقى . فلقد اتخذ كثير من العلماء دليلاعلى ايغال العناصر الذاتية فىالنظرية العلمية كما اتخذهآخرون دليلا على أن الكون لايمسكه نظام معين . وحقيقة هــذا القانون ليست الا توكيدا حاسما للواقعية الموضوعية التى

تتسم بها الفيزياء الحديثة ، هذه الواقعيــة التى تتحقق بمعزل عن ملابسات الانسان المدرك ووسائله الادراكية . ففى الفيزياء التقليدية كان من الممكن القول بأن جسيما ماله فى وقت معين موضع محدد وسرعة محددة يمكن معرفتهما . فلو عرفنا مواضع وسرعات الجسيمات فى لحظة معينة أمكن أن نحسب بدقة مواضعها وسرعاتها فى أى لحظة اخرى . الا ان فيزياء الكم تعارض هذا كله وتنتهى الى انه لايمكن تحديد موضع وسرعة جسيم مافى وقت واحد . ذلك لان أى عملية دقيقة تجرى لتحديد موضع الالكترون تغير من سرعته . وبالعكس ، العملية التى تحدد سرعته تؤدى الى تغيير موضعه . وكلما زادت الدقة فى قيــاس كل من الموضع والسرعة ، كلما زاد عدم اليقين فيما يتعلق بكليهما. ويتبع هذا ان سرعة الالكترون وموضعه فى لحظة معينة لا يمكن توكيدها توكيدا دقيقا ، وانما يقال انها قابلة لان تحدد فحسب بدرجة من عدم التحديد أعطيت لها قيمة عددية تسمى باسم « ثابت بلانك هـ » وليس الامر هنا نتيجة لنقص فى ادواتنا القياسية ولا عدم تحديد الجسيمات نفسها فيما يتعلق بمواضعها وسرعاتها ، وانمــا الدلالة الوحيدة لهذا المبدأ انه لا معنى للقول عن جسيم ما بأن له موضعا محددا وسرعة محددة فى وقت واحد . وبهذه الدلالة يتضح لنا عدم جواز أى تفســير ذاتى أو لاهوتى لهذا المبدأ اذ أنه ليس غير تقرير عن ظاهرة طبيعية فى المجال الميكروفيزيائى . والنتيجة التى نستخلصها منه انه اصبح من الممكن فى المجال الميكروفيزيائى أن نحدد الدور الذى تلعبه ادواتنا القياسية فى مواجهة ظواهر موضوعية خالصة وان نفصل بينهما فصلا يمكن تحديده تحديدا قياسيا . وهكذا يتبين لنا مقدار الموضوعية الواقعية لهذا المبدأ على الرغم من أن موضوعاته ليست فى التناول الادراكى المباشر

وباستعراضنا للخطوات السابقة يتبين لنا أن النظرية الفيزيائية الحديثة باستبعادها للمواقف النسبية «نظرية النسبية » وبتوغلها فى الظواهر الميكروفيزيائية وبتحديدها للقوانين بحدود احصائية « نظرية الكم » وبقيامها على اساس رياضى محض من ناحية المنهج ، تتميز بأمور ثلاثة

١ ـ انها تتعلق بموضوعات خارجية خالصة

٢ ـ أن هذه الموضوعات تختلف اختلافا تاما عن الموضوعات الادراكية المباشرة

٣ ـ ان هذه الموضوعات لا تتسم بطابع « الشيئية » الذى كان يطبع موضوعات الفيزياء التقليدية وانما تتسم بأنها موضوعات علاقية مجالية

واذا كانت هذه هى الخطوط العامة للفيزياء الحديثة واذا كنا نعرف ـ كما عرضنا من قبل ـ ان المدرسة الوضعية المنطقية تحدد المعرفة بحدود القضايا الاولية ـ ثمرة التحليل المنطقى الرمزى ـ وبحدود المعطيات الحسية المباشرة ، اتضح لنا الى اى حد عجزت هذه المدرسة عن وضع أساس سليم للعلم ، بعد أن اتضح لنا من قبل تضمن كثير من العناصر الميتافيزيائية فى جهازها المنهجى . وبهذا يصح القول بأن المدرسة الوضعية المنطقية لم تحقق شيئا من أهدافها الى جانب استنادها على منهج قاصر

٧ ـ اذا كان الفكر المعاصر يواجه مشكلات عصية لا حصر لها ، فان الارتماء فى أحضان الوضعية المنطقية لا يعنى الا الهروب من مواجهة هذه المشكلات . فالوضعية المنطقية بعزوها المشكلات الرئيسية المعاصرة الى عدم الدقة فى استعمال التعبيرات اللغوية انما تدعى ادعاء قبليا بأن طبيعة الواقع الخارجى ينبغى أن تتفق مع تعريفاتنا المنطقية المحدودة . الا ان الوجهة العلمية الصحيحة ليست فى البحث عن الدقة الداخلية فى التعبير وانما فى

مواجهة الظواهر الخارجية مواجهة شاملة تقتضى مراعاة كافة الجوانب والمجالات على الرغم من خروجها على حدود المنطقية الصورية

والهدف الحقيقى للعلم هو محاولة تكشف العلاقات الكامنة وراء المدرك الحسى المباشر . فخلف الظواهر الحسية عالم كامل يفقده التقدم العلمى انسانيته شيئا فشيئا ويجعل منه مع الزمن موضوعا واقعيا خالصا . والوضعية المنطقية باصرارها على الدقة الداخلية لقضايا التعبير وبوقوفها عند حدود المعطيات الحسية انما تقيم مذهبا ميتافيزيائيا ذاتيا يقصر عن مواجهة الظواهر العلمية ان لم يكن يلغيها ، ولا يستطيع أن يقدم لنا شيئا عن الحقيقة القائمة فيما وراء المدرك الحسى المباشر

والخطأ الاكبر فى مدرسة الوضعية المنطقية هو وضعيتها المنطقية ، أى اعتبار ان العلاقة بيننا وبين الواقع الخارجى انما تتحقق دلالة الصدق لها بكمال الصياغة المنطقية الصورية

ولقد قلت فى بداية هذا المقال ان من عوامل نشأة هذه المدرسة متناقضات حياتنا البورجوازية المعاصرة ، ولكنى أؤجل الحديث عن هذه الناحية الى مقال قادم

فى العلم

- السيبرليطيقا
- العلم والحرية
- التفكير العلمى عند العرب
- دفاع عن التاريخ

السيبرنيطيقا

نحن اليوم على أبواب ثورة صناعية ثانية ، ليست ذرية كما قد يتبادر الى الذهن ، وان تكن الطاقة الذرية احدى مقوماتها ، ولكنها ثورة تقوم على أكتاف عملاق جديد.. هو السيبرنيطيقا

والسيبرنيطيقا ليست آكسيرا للحياة ، وليست عنصرا جديدا ، وانما هى علم ، علم للسيطرة والترابط والاتصال، بها عرفت الانسانية الرادار ، والآلات الحاسبة الالكترونية والجهاز الذى يلعب الشطرنج فيهزمك ، والآلة القارئة التى تغنى مكفوفى البصر عن أبصارهم ، والمصانع الضخمة التى تنتج بدون عمال ، والنموذج الذى يكشف لنا أسرار ادمغتنا المفكرة وأجهزتنا العصبية ، والسبيل الى ازالة الثنائية الزائفة بين الفكر والمادة وضمهما فى عملية وظيفية ذات مدلول متطور

والسيبرنيطيقا كلمة يونانية معناها موجه الدفة وقائدها، ومنها اشتقت الى اللغات الاوربية الحديثة كلمات متعددة تحمل مدلول الادارة والحكومة والسيطرة

ولكنها لم تستخدم للدلالة على هذا العلم الجديد قبل صيف سنة ١٩٤٧

١ ــ منذ منتصف القرن التاسع عشر أخذ بناء نيوتن

(١) مجلة علم النفس : فبراير ١٩٥٣

العلمى يتصدع ، لا لانه يحتوى على أخطاء فى تركيبه المنطقى ، وانما لانه يقف عند ظواهر محدودة الحركة ، هى التى يمكن تحديد مواضعها وسرعاتها الاصلية كشرط للتنبؤ باتجاهاتها المستقبلة . وقد اقتصرت آليات القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر على هذه الحدود حدود الموضع والسرعة ، وتمثلت فى آليات الساعات والروافع

وعندما ثار شعراء القرن الثامن عشر والتاسع عشر على ميكانيكا نيوتن دفاعاً عن الانسانية وتلقائيته ، كان لديهم بعض الحق ، لا فى ثورتهم على مادية العلم ، وانما على ميكانيكية نيوتن القاصرة . ولكنهم أخطأوا اذ ظنوا هذه الميكانيكية والآليات المرتبطة بها هى العلم

وثورة العلم الحديث هى ثورة على هذه المكانيكية وآلياتها المرتبطة بها ، وذلك بقصد استيعاب ظواهر جديدة للحركة وصياغة آليات مرتبطة بها غير محدودة بالحدود الميكانيكية النيوتونية

وظواهر العلم الحديث ظواهر ليست ذات موضع أصلى محدد أو سرعة أصلية محددة ، وانما هى ظواهر غير منعزلة بل هى مجاميع متداخلة متشابكة تتحرك فى وسط نشيط .

وآليات العلم الحديث أقرب الى حرية الانسان من آليات التروس والروافع لانها اليات فى مقدورها أن تتذكر وأن تهدف وأن تتنبأ وأن تتكيف

والسيبرنيطيقا علم هذه الآليات المتكيفة ، هذه الاليات التى تشارك فى صياغتها العلوم الحديثة جميعا من فيزياء وكيمياء وعلم حياة وطب عقلى وعلم نفس وعلم اجتماع وعلم اقتصاد وغير ذلك من سائر العلوم

والسيبرنيطيقا بهذه المشاركة دلالة على وحدةالنظرية العلمية الحديثة ، الى جانب أنها ثورة صناعية ضخمة

وانتصار للفلسفة المادية غير الميكانيكية

٢ ـ كلنا يعرف هذا العملاق الحديدى ، الذى طالما أثار فينا الرعب فى الافلام الأمريكية ، هذا الانسان الآلى الذى يحركه خالقه بأن يضغط علىأزرارمعدودة،فيندفع هذا الانسان يحطم الحوائط ويجتاح العقبات ويأتى بالمعجزات ثم ينتهى عادة بأن يقضى على هذا الخالق الذى يحركه بأن يضغط على أزرار معدودة . ولقد استمدت السينما الامريكية هذه الشخصية الحديديةمن بعض المؤلفات الادبية . على أنه توجد محاولات جدية لصياغة مثل هذا الانسان الآلى وترجع أولى هذه المحاولات الى القرن الثامن عشر . ولكن لم تستكمل أول صياغة جديةلهذه المحاولات الا فى سنة ١٩٣٠حين ولد أول انسان آلى وتسمى باسم السيد تيلفوكس ، صاغه المهندس ونسلى Wensley لشركة وستنجهاوس للاعمال الكهربائية (١) . وللسيد تيليفوكس القدرة على تلقى الاوامر عن طريق التليفون والاستجابة لها فى حدود شفرةصوتية معينة . وقد استخدم السيد تيليفوكس فى حراسة منسوب المياه فى خزانات وزارة الحربية بواشنطون . فعندما كانت مصلحة مراقبة مناسيب المياه ترغب فى معرفة المنسوب ، تقوم بالاتصال تليفونيا بحضرة السيد تيليفوكس الذى يسارع فورا بصياغة الرقم المطلوب وابلاغه . ثم استخدم السيد تيليفوكس بعد ذلك فى مراقبة مناسيب المياه لنهر الرون فى اقليم تاليه كما استخدم فى مناطق أخرى عديدة (٢)

وأخذت تظهر أشكال متعددة للانسان الآلى ، منها

---

(١) Les automates. A. Chapuis et E. Droz Neuchatol. éd. du Griffon P. 389.

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٠

السيد « الكترو أو الرجل الحديدى » و « منصوروس» و « فوكاليت » و « مارصولوس » و «المرأة الثرثارة» و « الموسيقية » والسيد صابور الرابع وغير ذلك (١)

وتختلف هذه الاشكال المتعددة وتتفاوت فيما بينها من ناحية القدرة على العمل ومواجهة الإخطاء والعقبات. ولهذا كانت المسألة الرئيسية هى مقدرة هذه التركيبات الآلية على التصرف ازاء المواقف الجديدة غير المتوقعة والتكيف معها والتنبؤ بجانب منها أن أمكن

وفى خلال الحرب العالمية الثانية استخدمت بعض الآلات التى تحقق جانبا من هذه الوظائف . ومن أهم هذه الالات الرادار والآلات الحاسبة الالكترونية . فجهاز الرادار لا يقف عمله عند تحديد موضع الطائرة تحديدا مستمدا من موجاتها الصوتية ، بل هو يقوم آليا كذلك بتوجيه المدافع المضادة للطائرات لا الى موضع الطائرة بالفعل ، وانما الى الموضع المحتمل أن توجد فيه عند وصول القذيفة. اما الآلات الحاسبة الالكترونية فهى مرحلة متطورة للغاية فى هذا السبيل . كان العلماء خلال الحرب يواجهون — وهم يقومون بتصميم الآلات والاجهزة الحربية — بضرورة اجراء عمليات حسابية طويلة معقدة يستنفد أجراؤها بالقلم والورقة أشهر بل سنوات . ولهذا طورت الآلات الحاسبة وأعدت بحيث تستطيع ان تقوم آليا بهذه الحسابات الطويلة مهما بلغت من التعقيد والتجريد . وأصبح فى مقدور هذه الآلات أن تحسب فى دقائق معدودات معادلات معقدة قد تستلزم الاسابيع والاشهر لو استخدمت الورقة والقلم . ولولا هذه الآلات لما تحققت الانتصارات الصناعية الضخمة فى مجال توليد

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٠ — ٣٩٢

الطاقة الذرية • ولهذه الآلات الحاسبة القدرة على (١) :

١ ــ أن تتغذى بالمعلومات

٢ ــ أن تختزن فى شكل أو آخر النتائج التى تحصل عليها من المراحل الحسابية الاولية

٣ ــ أن تستخدم هذه النتائج استخداما سليما فى الوقت المناسب ، أى أن تختار منها ما يتفق والمرحلة الحسابية الخاصة

٤ ــ أن تفيد عن النتائج النهائية

وهذه العمليات ــ كما نرى ــ ليست مجرد عمليات حسابية بل هى عمليات منطقية . فالجهاز يتحرك بحسب خطة ، ويحققها . انه يتلقى المعلومات ويختزنها ثم يتذكر منها ما يلائم كل مرحلة بعينها ثم يختار من بينها ثم يربط بين النتائج الجزئية المختلفة المرتبطة بمراحل حسابية سابقة ثم يحمل اليك النتيجة الاخيرة التى تريدها . فلو اخذنا مثلا احدى العمليات الجزئية البسيطة كعملية الضرب ، وهى احدى العمليات الكثيرة المعقدة التى تجرى داخل الجهاز ، فهذه العملية نفسها تشتمل على عمليات جزئية وهى حواصل الضرب الفرعية التى تساهم فى صياغة النتيجة الاخيرة لعملية الضرب هذه ، فهى مراحل مؤقتة فى عملية الضرب ، ولهذا ينبغى للجهاز أن يمحوها بمجرد القيام بها ، ويستبقى على النتيجة الاخيرة لعملية الضرب ليربط بينها وبين نتيجة أخرى لاجراء عملية ضرب اخرى او قسمة أو ماشابه ذلك من مختلف التفاعلات الرياضية داخل الجهاز . وهناك بعض النتائج التى تعلق لفترة تطول أو تقصر الى أن يأتى دورها المنطقى فتتفاعل فى أى شكل من الاشكال مع نتيجة اخرى لتفرز نتيجة

(١) The Hypothesis of Cybernetics: L.O. Wisdom. jrn. of Phil. Of science. Vol. II N. SP.

ثالثة تنتظر دورها من العملية الرياضية الكبيرة التى يقوم بها الجهاز ككل

والحق ان مثل هذه الاجهزة تحقق كل العمليات المنطقية الصورية مما يجعلها أجهزة منطقية لا أجهزة حاسبة

وتقوم هذه الاجهزة أساسا على آلية خاصة ليست من قبيل آليات الروافع والتروس وانما هى آلية ضابطة، Feed-back mechanism ويمكن توضيح هذه الالية الضابطة(١) بمثالين بسيطين للغاية • الاول هو الجهاز المنظم للحرارة• ووظيفة هذا الجهاز انه يحتفظ بالحرارة فى حدود معدل معين . فعندما ترتفع الحرارة فى الاماكن المستخدم فيها هذا الجهاز ارتفاعا يفوق كثيرا هذا المعدل، فان شدة الحرارة نفسها تعمل على وقف عمل المصدر الذى تتولد منه الحرارة مما يقلل من درجتها . ويتم هذا بشكل آلى وبلا انقطاع مما يحتفظ بالحرارة فى معدل ثابت . ولكن ليس معنى هذا أن تظل الحرارة فى درجة ثابتة وانما هى تتذبذب حول هذه الدرجة ارتفاعا وهبوطا .. ولكنها بنفسها ـ عن طريق جهاز منظم الحرارة ـ تقترب دائما من المعدل . وهذه الآلية أنموذج بسيط للغاية الآلية الضابطة • ونسوق المثال الثانى • لنفترض أن جهاز تفريخ البيض الذى يسخن بالغاز تمر بداخله أنبوبة غاز ، وأن بالونا صغيرا منتفخا فى قاع هذه الانبوبة . عندما يسخن جهاز التفريخ الى درجة معينة يتمدد البالون وبهذا يتناقص الغاز المار خلال الانبوبة فتصل الى فرن الجهاز كمية أقل من الغاز ، فتهبط درجة الحرارة ، وهذا مما يجعل البالون يتقلص فتزداد

---

(١) أفضل اليوم ان تترجم بآلية التغذية العكسية ، فهذه ترجمة اكثر دقة وتعبيراً عن المقصود .

كمية الغاز التى تمر فى الانبوبة الى الفرن فيعود الجهاز الى سخونته السابقة وهكذا • ودرجة حرارة جهـــاز التفريخ ليست ثابتة ثباتا مطلقا وإنما تتذبذب ارتفاعا وهبوطا حول معدل

وهذان المثالان (١) يوضحان لنا ما يسمى بالآلية الضابطة السلبية . ووظيفتها كما رأينا أن تقف فى وجه الآلة المولدة حتى لا تتجاوز معدلا معينا وتظل محتفظة بهذا المعدل . وتسمى الآلية بالسالبة « لان الشغل الذى تبذله هـذه الآلية يعترض عمل القوة الموجهة الرئيسية » (٢)

وترتبط بالآلية الضابطة السلبية آلية ضابطة ايجابية، وتؤدى عكس نتيجة الآلية السابقة . ففى مثال جهـاز التفريخ ، لو ان البالون كان خارج الجهاز ومثبتا بشكل يجعله كلما امتد واتسع نتيجة لارتفاع درجـة الحرارة ضغط على مقبض صنبور وفتحه جزئيا ، وبهذا يضاعف من حرارة جهاز التفريخ فيزداد اتساع البالون وضغطه على الصنبور أكثر من ذى قبل وبهذا يضاعف من حرارة جهاز التفريخ ، وهكذا تستمر العملية . فنجد أن جهاز التفريخ تزداد درجة حرارته « لا لانه يستهلك مقدارا ثابتا من الغاز ولكن لان الآلية الضابطة الايجابية تضاعف من تدفق الغاز » (٣)

ان الآلية الضابطة السلبية ـ كما رأينا ـ تســتخدم لاعادة توجيه جانب من الطاقة المستمدة من مصدر القوة ضد بقية هذه الطاقة ، والآلية الضابطة الايجابيـــة تستخدم فى اعادة توجيه جانب من الطاقة الى مضاعفة الطاقة المستمدة من مصدر القوة (٤)

---

(١) المثالان المذكوران فى المرجع السابق ص ٢
(٢) المرجع السابق ص ٢ (٣) المرجع السابق ص ٣
(٤) المرجع السابق ص ٤

وكلا هاتين الآليتين تسميان بالآلية الضابطة البسيطة . وهناك أشكال أخرى من هـذه الآلية تتفـاوت من حيث تعقدها ولكن حسبنا هذين المثالين البسيطين لتوضـيح هذه الآلية

والمهم أن نذكر أن السيبرنيطيقا تفترض :

أولا ـ ان هذه الآلية الضابطة السلبية هى الآليـة الرئيسية فى الجهاز العصبى

ثانيا ـ اننا بها يمكن تفسير التكيف تفسيرا ماديا

٣ ـ ذكرنا من قبل ان درجة الثبات التى نحصل عليها بالاليات الضابطة السلبية ليست درجة مطلقة ، وانما هى معدل لذبذبات تتراوح بعدا أو قربا من درجة الثبات. ومهمة الآلية الضابطة هى دوام الاقتراب من هذه الدرجة . وفى حالة فساد الآلية الضابطة نجد هذه الذبذبات تأخذ مدى واسعا ، فتتراوح بين درجات قصوى من القرب والبعد من المعدل . ففى حالة منظم الحرارة مثلا نجد ان فساد الآلية الضابطة يعنى اندفاع الطاقة فى ذبذبة حرارية بين درجتيها القصوى والدنيا ..

والقول بأن الآلية الضابطة هى الآلية الرئيسـية فى الجهاز العصبى قول يحتاج الى بينات . ولهذا اتجـه علماء السيبرنيطيقا لتأييد دعواهم الى أمراض الجهـاز العصبى ، وخاصة مرض الـ ataxia أو العجـز عـن تنظيم الافعال . فهذا مريض لا يشكو شـللا ويستطيع أن يحرك ساقيه لو تلقى أمرا بذلك . ولكنه عندما يمشى يتحرك حركة غير متثبتة . عينـاه الى الارض ، على ساقيه . يستهل كل خطوة بأن يضرب الارض بقدمه ، ملقيا ساقا بعد الاخرى فى تتابع أمامـه . ولو أغمضت

لهذا المريض عينيه ، لما استطاع أن يقف ، ولترنح وسقط على الارض

وهذا مريض أخر ، عندما يجلس مستقرا على كرسيه ، لا يلوح أنه مصاب بشيء . فلو قدمت له سيجارة ، لطوح بيده عبرها محاولا أن يمسك بها ، ثم لعاد يطوح بيده مرة أخرى فى الاتجاه الاخر ، ثم يتلو ذلك بأن يطوح يده مرة ثالثة الى أن تصبح حركته اهتزازا عنيفا عقيما . ولو قدمت له كوب ماء لسكبها قبل أن يستطيع حملها الى فمه (١)

والمريضان مصابان . بشكل أو آخر بمرض ال ataxia ان عضلاتهما قوية ، وصحتهما موفورة ، ولكنهما يعجزان عن تنظيم حركاتهما (٢)

ولقد استؤصلت بعض أجزاء الجهاز العصبى لبعض الحيوانات كالسمك المسمى ال Cuttlefish والقطط . فكانت النتيجة أن أندفعت هذه الاسماك تسبح وهذه القطط تجرى الى أن ماتت (٣)

لقد أدى الاستئصال الى العجز عن تنظيم الحركة والسيطرة عليها ، أو على حد تعبير السيبرنيطيقا الى توقف الآليات الضابطة السلبية . لان الاليات الضابطة هى المنظم للحركة . وتوقفها يؤدى الى خلل فى قدرة أخرى هى القدرة على التكيف ، لان التكيف مرتبط بالحركة المنتظمة . وبدون الحركة المنتظمة لا سبيل الى التكيف ..

ولكن الحركة المنتظمة ليست مفهوما عاديا انما تحتاج الى بيان . وينبغى التفرقة أولا بين الاتزان والانتظام

---

(١) Cybernetics: Norbort Wiener. Wiley & sons New York P. 113

(٢) المرجع والموضع نفسه ص ١

(٣) J.O. Wischen المرجع السابق ذكره ص ١٠ — ١١

فى الحركة . فالاتزان الحركى كما نشاهده فى أبسط صوره ــ فى حركة البندول ، درجة من الثبات يمكن أن نعدها مطلقة . أما الحركة المنتظمة فدرجة من الثبات ترتبط بالمتوسط العام للحركة . ففى المثال الذى سبق أن ذكرناه عن منظم الحرارة ، لا يمكن أن نعتبر هذا المنظم جهازا للاتزان الحركى ، لانه لا يأخذ شكلا ثابتا من الحركة ، وان يكن فى متوسط حركته يحتفظ بدرجة من الثبات . ولكن هذه الدرجة هى متوسط الدبذبات المتراوحة التى يتعرض لها قربا أو بعدا عن درجة الثبات تلك . وعلى هذا فمنظم الحرارة يتصف بالحركة المنتظمة لانه يحتفظ بمعدل ثابت معين من الحرارة ، على الرغم من العمليات الجزئية التى تبتعد أو تقترب من هذا المعدل ، بلا أنقطاع ..

والآليات النيوتونية ــ بوجه عام ــ مثال على الاتزان الحركى ، أما الاليات الضابطة فهى مثال على الحركة المنتظمة . وعلماء السيبرنيطيقا يفسرون التكيف بهذه الحركة المنتظمة .. فالكائن العضوى ذو الطبيعة المتكيفة ليس مثالا على الاتزان الحركى لان انتظام حركته لا يأخذ شكلا جامدا مطلقا من الثبات ، وأنما هو ثبات لمعدل حركاته جميعا أو لتفاعلاته مع الوسط الذى يعيش فيه . وأنتظام حركته هو محصلة لما يتبادله مع هذا الوسط الذى يعيش فيه . وانتظام حركته هو محصلة لما يتبادله مع الوسط من مادة وطاقة ، « بحيث تبقى الكميات المميزة له فى نهاية الامر غير متغيرة (١) » مع قيام هذه العمليات التبادلية الدائمة . ودرجة حرارة الدم مثال على ذلك . فالدرجة المعينة لحرارة الدم ليست حالة أتزان حركى ، بقدر ما هى معدل لدرجات متعددة من

(١) المرجع السابق ذكره صفحة ٧

التذبذب حول هذا المعدل . هى اذن درجة ثبات تخضع لحركة منتظمة وليست حالة اتزان . « والكائن العضوى فى حالة التكيف يعتبر على وجه التقريب فى حالةحركة منتظمة مثل منظم الحرارة (١) » . وعلى هذا فحـالة التكيف هى حالة من الحركة المنتظمة التى هى محصلة لطائفة من العمليات التبادلية مع الوسط المحيـط . ولا شك أن مثل هذه العمليات ليست بسيطة ، وانما تواجه أشكالا متعددة من العقبات مما يجعلها فى « محـاولة وخطأ » دائمين . وحالة التكيف فى الحقيقة انمـا تقوم ماديا على « المحاولة والخطأ » كعملية دائمة يتحقق بها الانتظام ..

ولكننا اذا كنا بهذا المفهوم للحركة المنتظمة نستطيع ان نوضح المفهوم المادى للتكيف «كحالة» ، فما نعتقد أن آلية الحركة المنتظمة وحدها فى مقدورها ان توضـح التكيف « كعملية » . ولا شك أن الامر يحتاج الى آلية أخرى ..

على ان المهم أن نخلص هنا الى أن هذا المفهـوم الفيزيائى للتكيف يصدق سواء بسواء بالنسبة للجهـاز الآلى ذى الالية الضابطة السلبية والكائن العضوى . على ان هناك امرا آخر يصدق عليهما الى حد معين هو القدرة على التذكر ..

فالذاكرة الانسانية كما نعرف ليست مخزنا للذكريات المتجمعة فى منطقة مـا من المخ وليست من الناحيـة التشريحية مرتبطة بموضع معين . وعلى هذا فهى ليست موضعية . وهى بهذا المفهوم احدى الوظائف الرئيسة للجهاز العصبى ، وهى كذلك احدى الوظائف المهمةفىالآلات الحاسبة . فالذاكرة هى « المقدرة على حفظ العمليـات

---

(١) المرجع السابق ص ٩

السابقة واستخراجها فى المستقبل (١) وتأخـــــذ فى تركيب هذه الآلات أشكالا متعددة تتفق مـــع الوظائف المختلفة . وأبسط أنواع الذاكرة فى الالات الحاسبـــة هى تلك المرتبطة بفترة زمنية قصيرة . ويمكن تركيبهـا بالاحتفاظ بتتابع من المحركات تنتقل فى مدار مقفل (١) ، وتظل فى حركتها الدائرية الى أن يتم تدخل من خـارج المدار فيتخلص من محتوياته وبهذا تنتهى مهمة هـــذه الذاكرة الجزئية .. على أن الذاكرة داخل الاجهزة تتركب من مدارات أكثر تعقيدا وذلك لما تؤديه من وظائف معقدة، وما تقوم به داخل الجهاز من أرتباطات خاصـــة تتفق ولحظات معينة تساهم فى العملية الكبيرة التى يقـوم بها الجهاز ..

والقول بأن الذاكرة الانسانية غير موضعية يحمـــل مليها جانبا كبيرا من هذا المفهوم الآلى للذاكرة . فهى نوع من العمليات الدائرة المتداخلة مع عمليات وآليات أخرى. الا أن الفارق الرئيسى بين الذاكرتين الانسانية والاليـــة هى أن الاولى مرتبطة لا بمعلومات فحسب وانمـــــا بشحنات وجدانية كذلك ، قد تكون هى أهم مقـومات الذاكرة الانسانية . على أن لهذه الشـحنات الوجدانية آلياتها التى يسعى علم النفس التحليلى للكشف عنها . وهنا يحلو لعلماء السبرنيطيقا أن يربطوا بين التحليـــل النفسى وهذا المفهوم الآلى للذاكرة

فالمحلل النفسى يعرف أولا أن المعلومات مختزنة على أبعاد متفاوتة وانها ليست جميعا على مســـتوى واحد من التناول (٣) . ويحاول المحلل بوسائله المختلفة ان

---

(١) N. Wiener المرجع السابق ذكره ص ١٤٢ - ١٤٣
(٢) المرجع السابق ص ١٤٣
(٣) المرجع السابق ص ١٧٤

يكشف عن الذكريات المختزنة ليرفعها الى درجـة وعى المريض ويكشف له عن علاقاتها المختلفة ، فيقبلها المريض او ليخفف على الاقل من مضمونها الوجدانى (١) والمحلل النفسى يقوم فى بعض الحالات التى تستـوجب ذلك باستخدام الصدمات الكهربائية أو الاستعانة بالانسـولين والمترازول ولها جميعا تأثير قوى على المختزنات القديمة، ويتضح هذا مما تحدثه الصدمات من أضـعاف للذاكرة فى بعض الاحيان ومن تأثير ضار بها فى بعض الاحيـان الاخرى لو أسىء استخدامها

وبين طريقة العلاج النفسى وطريقة معـالجة الآلات الحاسبة التى أصابها عطل معين ، مشابهات يقف عندها كذلك علماء السيبرنيطيقا . ففى حالة عطل أحـدى الآلات الحاسبة الالكترونية مثلا كأن تندفع احـدى عملياتها الدائرية بلا توقف فأن أول ما نحاوله معها هـو أفراغها من كافة المعلومات على أمل أن لا يعاودها هـذا العطل لو استهلت عملها بمعلومات جديدة . ولو لم تنجح فى هذا وكان العطل فى موضع بعيد عن متناول الالية التى نفرغ بها الجهاز ، فاننا نعرض الجهاز لصـدمة كهربائية هائلة على أمل ان نوقف الحركة الدائرية . ولو فشلنا فى هذا كذلك يفصل الجزء الفاسد من الجهـاز ، اذ من الجائز أن الجانب المتبقى من الجهاز يحقق غرضنا تحقيقا ملائما (٢)

اننا لا نقول بأن الآليات داخل الآلات الحـاسبة هى نفسها آليات النفس البشرية ولا أن الذاكرة الانسـانية هى ذات العمليات الدائرية التى تدور فى مدار مقفـل بالمعلومات داخل الالات الحاسبة ، وأنما أن هذه الاليات

---

(١) المرجع السابق والموضـع نفسه
(٢) المرجع السابق ص ١٧٢

وبما تضيفه من دلالات مادية على الذاكرة والتكيف نماذج تحمل بعض جوانب آلياتنا الانسانية ، وأن دراسة هذه النماذج يساعدنا على تفهم كثير من مشكلاتنا النفسية والعقلية ، بل قد لا يقف الامر عند هذا الحد بل يتعداه الى المجال الاجتماعي والاقتصادي بل والفني كذلك

٤ ـ لقد تحدثنا عن الالات الحاسبة . ولكن الالات الحاسبة ليست هي التعبير النموذجي عن السيبرنيطيقا بل هي اول محاولاتها الضخمة . فالالات الحاسبة محدودة ـ مهما يكن من شيء ـ بحدود الخطة التي صممت بمقتضاها وكذلك شأن الجهاز الذي يلعب الشطرنج فهو محدود كذلك بحدود القواعد المنطقية التي تنتقل بمقتضاها القطع ولكن الهدف الاكبر للسيبرنيطيقا هو أن تصوغ الآلة التي تستطيع أن تعيد تنظيم نفسها عندما تواجهها عقبة ، الالة التي لا تقف عند حدود الخطة التي وضعها لها مصممها وانما تتجاوز هذه الخطة فيما وراء معرفة مصممها نفسه ، الالة التي تحاول وتخطيء ، والتي تستجيب استجابة لا سبيل الى أن نتنبأ بها تنبؤا مطلقا

ولقد صممت السيبرنيطيقا آلات تستطيع أن يكون لها جانب غير ضئيل من هذه المميزات . وهكذا استطاعت الصناعة أن تهزم الفلسفة النظرية التقليدية . ذلك ان مثل هذه الالات تدحض مبدأ ديكارت المشهور القائل بأن العلة والمعلول ينبغي أن يحتويا ـ على الاقل ـ على مقدار واحد من الحقيقة والكمال .. أي ألا يكون المعلول متفوقا على العلة في حقيقته ودرجة كماله

على أنه يبدو أن هذه ليست هي المعركة الوحيدة التي هزمت فيها الفلسفة النظرية القديمة ، فان التفرقة التقليدية بين الفكر والمادة تفرقة تتجه السيبرنيطيقا الى ازالتها لا على حساب الفكر ولا على حساب المادة ولكن

لصلحتها معا عن طريق مركب يجمع بينها فى عملية متفاعلة فالعملية المنطقية التى هي من أخص مميزات الفكر اصبح من الممكن صياغتها صياغة صناعية بكل ما فيها من كليات واستخلاصات وأشكال ، وان هذا لا يعنى الوحدة النهائية بين المادية والذهنية ، وانما يجعل الذهنية وظيفة عليا للمادة بل ويجعل المادة نفسها امكانا دائما مفتوحا للذهنية ان المسألة الرئيسية لم تعد هذا العنصر المنعزل الذى نسميه مادة وهذا العنصر المنعزل الذى نسميه فكرا أو نفسا ، وانما العملية المنتظمة التى تقضى وظيفتها على عناصرها • ان هذا الدرس الصغير الذى تؤدبنا به السيبرنيطيقا يضىء لنا افاقا جليلة فى مجال الدراسات الانسانية كالانثروبولوجيا والاجتماع والنفس • ان العنصر الفردى والعينى المنعزل ليست قواعد الوجود وركائزه • انما القاعدة العملية هى التنظيم هى الارتباط المتجه الذى يفرز بطبيعته المنتظمة النشاط ويعلو على حدوده الضيقة • ولا تتحقق لهذه العمليات ولهذه التنظيمات وحدتها العليا السليمة ولا يتحقق لها الاستعلاء والتطور الا بسلامة الترابط بين تنظيماتها وعملياتها جميعا وتماسكها تماسكا لا يفرض آلية على آلية أخرى ولا تنظيما على تنظيم ولا يفضل عملية على عملية ، وانما يجعل من التنظيم الاعلى ـ وهو المجتمع ـ محصلة انتاجية ثمرة الارتباطات السليمة بين مختلف التنظيمات الجزئية القاعدية المتفاعلة

ان السيبرنيطيقا التى تعلمنا أسرار السيطرة على البيئة المادية التى نعيش فيها ، تكشف أمامنا الطريقة لمعرفة أنفسنا ومجتمعاتنا وتاريخنا ، تكشف لنا أن العملية الانتاجية هى قاعدة الوجود وأن هذه القاعدة لا يتناسج منها تنظيم شامل هو المجتمع الواحد أو الحضارة الواحدة

الا اذا قام بين هذه القواعد وبين هذه العمليات الانتاجية ترابطات سليما متماسكة لا جور فيها ولا تعسف

ان السيبرنيطيقا تلقننا درســــــا في الديمقراطية الكوزمولوجية · ان الديمقراطية وظيفة مادية انتاجية تقوم على الترابط والتفاعل بين مختلف القـــواعد وهى شرط لقيام الجهاز الالى السليم والكائن الحى الصحيح والمجتمع العادل · ان الحرب والتنافس والتباعد ـ كما تعلمنـــا السيبرنيطيقا ـ انعدام للترابط السليم بين القـــواعد والتنظيمات المكونة للوحدات الحية · وعلى الرغم من أن السيبرنيطيقا قد ساهمت فى كسب الحرب العالميـــة الثانية ، ساهمت فى تطهير الارض من أدران النـــازية والفاشية ، فانها تحمل مسئولية اخلاقية كبرى من جراء هيروشيما وناجازاكى · هل كان من الضرورى لكسب الحرب ان تدق هيروشيما ، وأن تطوح بسكان ناجازاكى فى الهواء ··

ان السيبرنيطيقا كفاح انسانى للســـيطرة والتنظيم والترابط ، فلتكن وسيلتنا المادية وفلسفتنا النظـــرية للدفاع عن الانسان لا لتحطيم حضارته والقضـــاء على تاريخه المجيد

ان كلمة السر التى تمنحنا اياها السيبرنيطيقا هى أن الترابط بين الوحدات الانتاجية ضمان للتطور والخلـق والاستعلاء · والحرب عملية غير ترابطية لانهـــا تحطيم وعزل وتفكك ··

ان الالات الحاسبة الالكترونية والمصانع الذاتية التى تنتج بدون عمال ، تستطيع أن تحرر الانسان العامل من ملالة الاعمال الرتيبة ، ليتفرغ لمهام انسانية أكثر رفعة وسموا .. انها لا تجعل منه اذن عبدا للالة .. فيـكون تحطيمها هو تحرره ـ كما يدعو الى ذلك اشبنجلر ، وهى

لا تخلق كما يدعى القصاص الفرنسى جـــورج برنانوس حضارة غير انسانية ، لان الآلة نفسها ضمان لحـــرية الانســـان لانها ضـــمان لسيطرته على البيئة ، ثم ان الآلة ليست الا امتدادا طبيعيا لقدرات الانسان الفــــكرية ولاعضائه الحسية . فالتطور الالى فى حقيقته تطـــور بيولوجى للانسان . ان الذى يتطور ليس هو الانســان نفسه ، ولكنه الانسان خلال هذه الالات الجديدة التى هى امتدد لبصره وامتداد لسمعه وامتداد لذاكرته وامتــــداد لجهازه العصبى . ان التطور الالى تطور بيولوجى للانسان تطور لم يصب الانسان نفسه وانما أصاب الاشياء التى صاغها بنفسه (1) ان الاليات الصناعية ليست الا صياغات خارجية لعمليات ووظائف انسانية يستعين بها الانســان لتحقيق أهدافه الكبرى

والسيبرنيطيقا بما تتيحه للانسان من قدرات بالغة هى سبيل الانسان لكى يعلو على نفسه ، لكى يكافح كفـــاحا حقيقيا من أجل السيطرة على الواقع المادى وتنظيم الواقع الاجتماعى بما يتفق وأهدافه ومثله العليا

---

(1) Le Cybernetique et l'avenir de l'Homme par B. Vallée. Science et société: Vol. III No. 3. Automare 1952 p. 176.

دفاع عن العلم

.. ما أخطر الدور الذى يقوم به العلم فى بناء حياتنا الجديدة فبالعلم نقيم مشروعاتنا الانتاجية ونؤسس نظمنا الاجتماعية وبالعلم نخطط اقتصادنا وتجارتنا ونواجه مشكلاتنا مواجهة واعية مستنيرة وبالعلم نسيطر على واقعنا ونحمى تراثنا الماضى ونؤمن حاضرنا ونفتح نوافذ رحبة على مستقبلنا المزدهر . على أن العلم ليس مجرد عمليات تجريبية تخطىء وتصيب بل هو منهج منضبط ونظرة شاملة للكون ومفهوم عام عن الحقيقة الموضوعية وسبل الوصول اليها والسيطرة عليها وتوجيهها لصالح الانسان

وفى قلب العلم تدور اليوم معركة حادة بين مفهومين للعلم وهى ليست معركة معزولة عن المعارك التى تخوضها البشرية اليوم من اجل أهدافها الوطنية والديمقراطية والاجتماعية بل هى معركة جادة عميقة الجذور تشارك فى النضال التاريخى الدائر بين قوى التخلف وقوى التقدم وفى الاسابيع الماضية اصدرت دار التحرير فى سلسلتها كتب للجميع كتاب صناع الحياة للاستاذ احمد شكرى سالم والكتاب سجل حافل بتاريخ العلم وتطور مفاهيمه عبر الجهود الخلاقة التى بذلها طائفة من العلماء الاجلاء ولقد ذكرتنى قراءة هذا الكتاب القيم بكتاب آخر

(*) الرسالة الجديدة يولية ١٩٥٧.

أصدرته مؤسسة فرانكلين الامريكية وهو كتاب « مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » تأليف الدكتور جيمس برينت كونانت مندوب أمريكا السامى فى ألمانيا الغربية وترجمة الدكتور أحمد زكى

والكتابان كما ذكرت يعالجان قضية واحدة هى دلالة العلم ودور العلماء فى دفع التقـــدم البشرى ولكنهما يختلفان اختلافا عميقا فى هذه الدلالة وفى طبيعـة الدور الذى يقوم به العلماء

ولنبدأ بالكتاب الاول ..

يعرض كتاب الاستاذ احمد شكرى سالم لسيرة طائفة من العلماء الاجلاء الذين ساهموا فى كشف قوانين العلم وفى السـيطرة عليها وفى انارة طريق الانســان نحو الحقيقة الموضوعية ..

ويتميز هذا الكتاب بعدة فضائل ..

فهو لا يعزل جهود العلماء فى البحث عن الحقيقـة الموضوعية عن الملابسات الاجتماعية المحيطة بهم فعندما يعرض مثلا لارشميدس أو كوبرنيقس أو نيـوتن أو داروين أو اينشتين أو بافلوف أو تيمريازيف أو عشرات غيرهم يحرص على بيان احتياجات عصرهم ولضروراتـه الاجتماعية وللابساته العامة ثم دور هذه الاحتيـاجات والضرورات والملابسات فى الهام العلماء بحقائق هـذا العصر ـ وبهذا يفسر كشوفهم العلمية لا باعتبارها كشوفا فردية بل كشوفا اجتماعية ـ فنظرية نيوتن العلمية مثلا تتفق كما يبين المؤلف الفاضل فى جلاء مع أيديولوجيـة الرأسمالية النامية التى كان نيوتن يعيش ويعمـل فى عصرها وتنطبق مع طريقة تفكير الرأسمالية الصـناعية فضلا عن أنها تحترم مصالح هذه الطبقة المزدهرة أو بالاحرى تتجاوب مع النظريات التى سادت اذ ذاك ...

ونظرية دارون فى التطور تستجيب كذلك لملابسات عصره الاجتماعية وتعبر عن احتياجات هذا العصر فلقد عاصر دارون الثورة الصناعية فى انجلترا - تلك الثورة التى بلغت قمتها فيما بين سنة ١٨٥٠ و سنة ١٨٨٠ تقريبا والتى كانت تهدف الى السيطرة الانتاجية والتجارية على العالم • وكانت هذه الفترة تتميز أشد ما تتميز بالمنافسة الحرة والصراع بين الرأسماليين •كانت المنافسة هى حياة الحرفة - فلماذا لا تكون أيضا حرفة الحياة ؟ ولقد تأثر دارون كثيرا بهذه الظروف الاقتصادية ولو بدون أن يشعر وهو يضع نظريته عن الانتقاء الطبيعى والكفاح من أجل الحياة والبقاء للاصلح

وهكذا الشأن فى بقية النظريات العلمية التى عرض لها الاستاذ الفاضل أحمد شكرى سالم فى عمق وبساطة معا . انه يعرض لها فى اطار من الضرورات والاحتياجات الاجتماعية للعصر الذى يعيش فيه العلماء ويبدعون ويبين كيف انبثقت هذه النظريات انبثاقا ضروريا منها وكيف ساهمت فى الوقت نفسه فى تطوير هذا العصر وفى التعجيل بالتقدم على أن المؤلف الفاضل لا يغفل دور الفرد العالم فى الابداع والمشاركة الخلاقة داخل اطار ملابساته الاجتماعية السائدة فالنظرة الاجتماعية للعلم لا تذهب أبدا كما يقول المؤلف الفاضل الى حد « انكار دور الفرد فى الحياة الاجتماعية » بل انه يؤكد ان هؤلاء العظماء الذين تفهموا التاريخ حقا وعرفوا الى اين يتجه واستطاعوا أن يعبروا عن أمانى البشرية ومصالحها البعيدة وقدموا أجل الخدمات وأعظمها ، قد دفعوا بالتاريخ وكانوا عقولا تجمعت فيها خبرة من سبقهم وكانوا قلوبا أحست باحتياجات مجتمعهم وكانوا عيونا استشفت المستقبل ولعبت دورا فى صنع حياة الناس •• ولهذا يحرض

المؤلف الفاضل كذلك على أن يعرض للصراع المحتدم بين النظريات العلمية التى ينادى بها العلماء المبشرون بالجديد والتقدم وبين العلماء الذين يتخلفون عن ركب التاريخ ويتمسكون فى عناد بالنظريات الجامدة • وهو يعرض لهذا الصراع فى مظاهره العلمية والاجتماعية المختلفة ويبين ما بذله العلماء المجددون من نضال وتضحيات بالغة وما لقيه هؤلاء العلماء من عنت واضطهاد فى سبيل نظرياتهم وهو يفسر هذا النضال تفسيرا اجتماعيا صحيحا يكشف فيه عن حقيقة القوى المتناحرة فى قلب التاريخ البشرى .
ويحرص المؤلف الفاضل فى الوقت نفسه على بيان الرابطة الخصبة بين الفكر العلمى والتطبيق العملى لهذا الفكر ـ فالقيمة الحقيقية للنظرية العلمية تقوم على الممارسة التطبيقية وعلى القدرة على التنبؤ بقوانين الواقع والسيطرة عليها ••

وهو حين يعرض لهذه الرابطة بين النظرية والتطبيق فانما يستلهم مفهوما رئيسيا يسود الكتاب كله هو قيام الحقيقة الموضوعية قياما مستقلا خارج الذهن الانسانى ومقدرة هذا الذهن على معرفة هذه الحقيقة والتنبؤ بها والسيطرة عليها وتوجيهها لصالح الانسان .

ولهذا كان من الطبيعى أن يتوج كتابه القيم بفصل كامل للاشادة بدور العلم فى دفع التقدم البشرى ، ولادانة المحاولات الرجعية الاستعمارية لاستخدام أرقى ثمرات العلم البشرى وهي الطاقة الذرية والهيدروجينية لشن حرب عالمية ثالثة وتدمير الحضارة • ويعرض المؤلف فى هذا الفصل لنضال العلماء المعاصرين لوقف هذه المحاولات التخريبية ولتوجيه الطاقة الذرية والهيدروجينية لخدمة السلام والتقدم • وهكذا يتكامل هذا الكتاب الذى يعتبر بحق مساهمة قيمة فى تغذية وجداننا العصرى

بالمفاهيم السليمة عن العلم ودوره فى حياتنا الاجتماعية الجديدة فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ شعبنا العربى

وقبل أن أنتقل الى الكتاب الثانى الذى أصدرته مؤسسة فرانكلين الامريكية أعرض لبعض الملاحظات العابرة على الكتاب الاول

وأول هذه الملاحظات أن كتاب الاستاذ أحمد شكرى سالم يعرض للرابطة الوثيقة بين النظرية العلمية والتطبيق العملى من حدود فردية ، ولا يعرض لاهمية الممارسة الاجتماعية الشاملة للعلم كأساس دافع للكشف والتطور العلمى نفسه

فتاريخ العلم فى الحقيقة ليس مجرد ملابسات اجتماعية وليس مجرد علماء مبدعين طبقوا نظرياتهم المنبثقة من واقعهم الاجتماعى تطبيقا عمليا بل ان مصدر الالهام الاول لكل كشف علمى هو الممارسة الاجتماعية الشاملة للحقائق والخبرات العلمية المجمعة عبر التاريخ البشرى قبل أن تبلورها النظرية العلمية • وتاريخ العلم هو تاريخ ممارسة الشعوب الخلاقة للنظرية العلمية فى حياتهم اليومية . والكشوف العلمية تنبثق فحسب فى أفراد علماء من احتياجات مجتمعهم ــ بل وتجمعت كذلك من الخبرة العلمية التطبيقية الطويلة للشعوب وهى فى الوقت نفسه تتأكد وتتنوع وتعمق بهذه الممارسة نفسها بعد أن تتبلور النظرية العلمية ••

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالفصل الذى عقده المؤلف الفاضل عن العلماء العرب فالملاحظ أن فصول الكتاب فى أغلبها تعرض لدور كل عالم من العلماء فى جانب من جوانب النظرية العلمية أما هذا الفصل فعرض عام لما قام به العلماء العرب من مساهمة جدية فى اثراء النظرية العلمية ••

وهو فصل قيم حقا ولكنى كنت أفضل كمنهج عام في الكتاب ان يعرض المؤلف الفاضل للنظرية العلمية عند العرب خلال عالم أو عالمين كجابر بن حيان أو ابن الهيثم دون أن يفتقد في هذه الدراسة المتخصصة النظرة الشاملة العامة للعلم العربى ..

فلعل هذا أن يتيح له مجالا أرحب وأعمق لعرض النظرية العلمية عند العرب ..

أما الملاحظة الثالثة : فتتعلق بالفصل الذى عقده المؤلف الفاضل عن اينشتين ـ وانا أسلم مع الاستاذ احمد شكرى سالم بأن نظرية اينشتين في النسبية تعد تعميما أشد رحابة وعمقا من نظرية نيوتن في تفهم أسرار عالم الطبيعة ذات الابعاد الشاسعة الا أن فلسفة اينشتين العلمية عامة يشيع فيها هذا الفهم الميكانيكى ويجنح اينشتين الى هذا الفهم خاصة فى موقفه من نظرية الكم والميكانيكا الموجية في الفيزياء الذرية فلقد كان اينشتين ينظر الى النتائج الاحصائية لهذه الفيزياء باعتبارها نتائج موقوته قاصرة مرجعها عجز الانسان وعجز مقاييسه عن تحرى الدقة والانضباط التى تتميز بها الفيزياء التقليدية ولم يكن يدرك الطبيعة الخاصة لهذا المجال الجديد الذى تعمل فيه الفيزياء الذرية وكان يعبر دائما عن ايمانه بأن منهج نيوتن الميكانيكى في تحديد موضع الجزء الفردى وسرعته سوف يسود مستقبلا لهذا من الصعب أن أتفق مع المؤلف الفاضل فى قوله بأن مذهب اينشتين ومنهجه يتفق تماما مع المفاهيم العلمية الجديدة ..

ومن الهنات الاخيرة فى هذا الكتاب ما جاء فى صفحة ٧٩ من أن هربرت سبنسر من العلماء الذين مهدوا لنظرية التطور التى قال بها دارون فالعكس هو الصحيح فسبنسر من تلاميذ مدرسة دارون وتعتبر نظرياته تعميما

فلسفيا لنظرية دارون فى التطور

على أن هذه ملاحظات عابرة لا تقلل من القيمة الجدية لهذا الكتاب الذى نستطيع أن نلخصه فى الكلمات القليلة الاتية تمهيدا للانتقال للكتاب الثانى

« ان العلم ثمرة المجتمع وهو بدوره يؤثر في المجتمع وهذا لا يلغى الدور الفردى للعلماء فى الكشف والابداع والعلم انعكاس فى الذهن البشرى لحقيقة موضوعية مستقلة عن هذا الذهن حقيقة موضوعية فى مقدور هذا الذهن معرفتها والتنبؤ بها والسيطرة عليها ، والعلم فضلا عن هذا معرفة وعمل ـ نظرية وتطبيق والعلم أخيرا باعتباره ثمرة المجتمع ينبغى أن يوجه لخدمة هذا المجتمع وحماية أمته وسلامته ودفع التقدم البشرى الى الامام »

فاذا انتقلنا الى الكتاب الثانى تبينا مفهوما مختلفا كل الاختلاف عن العلم فمؤلف هذا الكتاب الدكتور كونانت سفير أمريكا فى ألمانيا الغربية يرى أن العلم ظاهرة غير قابلة للتعميم ، بل هو نشاط فردى وليس نشاطا اجتماعيا نابعا من الممارسة الجماعية والضرورات الاجتماعية انه كما يقول الدكتور كونانت ثمرة جهود علماء هواة • وهو فضلا عن هذا ليس معرفة بقوانين موضوعية خارج الذهن البشرى بل هو سلسلة من التصورات الذهنية والمشروعات التصورية ، وهو مغامرة رائدها الظن والتظنن • ». وليس العلم مطلبا للبحث عن اليقين غاية ، ولكنه على الاصح مطلب نجاحه يتوقف على درجة استمراره واطراده واتصاله » ص ٥١ •• ولهذا كان من الطبيعى أن ينكر المؤلف الامريكى الضرورة والسببية أساسا للعلم ولا علم كما نعرف بغير سببية أو عليه ـ لا علم بغير هذا الرباط الذى يربط بين الاشياء

فى نسيج من الضرورة الموضوعية والشمول والمؤلف ينكر على العلم هذا الاحساس بانكاره مبدأ العلية ويقول « ان العله والمعلول عبارة يعمل فى نطاقها صاحب التجربة ما نفعت وهى قد لا تنفع ولا يكون منها الا اختلاط واختباط » ص ٣٤٢ – ويؤكد هذا المفهوم نفسه الدكتور أحمد زكى فى تهميشه على هذه المسألة حين يفسر مبدأ هيزنبرج المسمى بعدم التحديد أو عدم اليقين – فيؤكد الدكتور احمد زكى أن هذه الدنيا المختفية وراء ما نعلم من ظواهر ليست معروفة ، وهذه الدنيا المختفية ليست فقط غير معروفة وليست فقط غير قابلة للعرفان بل هى ايضا غير قابلة للتصور – هامش صفحة ٣٤٣

وهكذا تفضى مقدمات المؤلف الامريكى الى هذه النتائج المسرفة فى مثاليتها الى حد انكارها امكانية معرفة الحقيقة الموضوعية فضلا عن انكار مبدأ العلية الذى بدونه تصبح المعرفة العلمية فوضى وتلقائية وخرافة

والنظرية العلمية عند المؤلف الامريكى كما ذكرنا لاتعبر عن ضرورة موضوعية ، بل هى مجرد فروض ذهنية ميسرة للعمل . انها أنظمة من صنع الذهن أو عكازات ذهنية تساعده على السير بين الاشياء وليست بحال من الاحوال انعكاسا لحقيقة موضوعية خارج هذا الذهن ..

وبمثل هذا المفهوم كذلك يتحقق الاختباط والاختلاط وتسود التلقائية والفوضى وتعم الخرافة والمغامرات الفردية فلا مقدرة على تنبؤ صحيح ولا امكان للسيطرة على شىء ولا سبيل لمعرفة منضبطة ولا أمل فى تصور لحقيقة والامر لا يعدو أن يكون عالما من صنع أذهاننا ومغامرة نضرب فيها بعكازاتنا التى نسجناها من اخيلتنا الفردية الخلاقة وفى هذا بغير شك اهدار للضرورة الموضوعية التى يقوم عليها العلم وطمس لمقدرة الانسان على المعرفة

والسيطرة على ما يعرف واحتقار لتاريخ الجهـود البشرية المتطورة فى سبيل المعرفة العلمية الدقيقة ولما حققته هذه الجهود من انتصارات مشرقة تتعاظم يوما بعد يوم ويزداد بها اقتراب الانسان من الحقيقة . وفى هذا كذلك محاولة متعمدة لالقاء الانسان فى غمرة من التشـــكك والتظنن والشطح وفقدان للاتجاه وفقدان للثقة فى العقل البشرى وفى مقدرته على معرفة الحقيقة وامكانية السيطرة عليهـا لصالح السلام والبناء والتقدم

ولهـذا كان من الطبيعى أن يختتـــم المؤلف الامريكى كتابه هذا بدعوة سافرة الى التسلح والحرب والدمار فهو يدعو الى الاستفادة من خبرات التكنيك العلمى لخـــدمة أغراض حفنة من المحتكرين تجار السلاح فى أمريكا وهو يقول فى صراحة مريرة ــ وانى لاخشى ألا يظهـر هـــذا الكتاب الا وقد قامت حرب عالمية ثالثة ــ قال هـــذا عام ١٩٥٠ ــ فان صح هذا فكل الذى اقول لا موضع له أما اذا صح ما ارجحه وهو ان تبقى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى سلام أسمى فسنبقى نواجه هذه الضرورة الملحة ــ ان نبقى العالم الحر مسلحا افضل تسليح . وحتى اذا نحن بلغنا الهدف الذى عنده نطمئـــن على الدفاع عن أوروبا الغربية فلن تقف النفقة عندنا على التسليح أنه لابد من استمرار النفقة وأن ننفقها هائلة وذلك على عتـاد للحرب جديد ــ وهذا العتاد الجديد هو بغير شك القنـابل الذرية والهيدروجينية ونحن ندرك النتيجة المنطقية لهذا الاغراق فى التسلح انها الحرب والدمار

وكان من الطبيعى كما ذكرت أن ينتهى سفير ايزنهاور فى كتابه عن النظرية العلمية الى هذه النتيجة التى تعبـر تعبيرا دقيقا عن مصالح الاحتكار الامريكى الذى يريد أن يغرق العالم بالسلاح تمهيدا لاشعال حرب عالمية ثالثة

والنظرية العلمية شأنها شأن كل بناء ثقافى آخــر ـ مسرح يدور فيه اليوم صراع انسانى بين طرفين طرف يعبر عن القوى المحبة للسلام والرخاء والتقدم ـ وطرف يعبر عن القوى المتخلفة الساعية الى الدمار الشامـــل والسيطرة الباغية .

والكتاب الاول الذى عرضنا له يعبر عن القـــوى الانسانية المتفائلة بمصيرها المشرق ، الساعية الى تجديد حياتها ، المناضلة من أجل تقدمها ، المؤمنة بارادة شعوبها وحقها فى السعادة والمحبة والرخاء ، الداعية بأن البشر تاريخ عميق صاعد أبدا وبأن الواقع الطبيعى والتـاريخ البشرى تنتظمه قوانين ضرورية وأن الجهـــود البشرية الجماعية والعقول البشرية الواعية قابلة لادراك هـــذه الحقائق والسيطرة عليها وتوجيهها لصالح السلام والرخاء والتقدم

أما الكتاب الثانى كما ذكرت فيعبر عن مصالح حفنة من الاحتكاريين تجـار السـلاح والدمار الذين يحتقرون ارادة البشر ويخشون أن يكون الامر فى أيديهم ويجهدون للاحتفاظ بمقدرات البشر ومصـــائرهم بين اصابعهم الصفراء ويعملون فى عناد للسيطرة على أسواق العــالم وثروات أرضه واكتناز الارباح الطائلة الهائلة من جهود الشعوب ومن تضحياتهم الغالية وعلى حساب حيـاتهم وسعادتهم . ولهذا يبذرون فى كل مكان بذور التشـكك والتظنن فى عقول البشر حتى تدين لهم ارادتهم يوجهونها كيفما شاءت رغباتهم الباغية . وهم يتسللون الى الثقافات الوطنية للشعوب المتطلعة يفسـدونها بالدلالات والأفكار الخائرة البائرة التى تفقـد الثقة فى الانســان والعقـل وتطمس الابصار الواعية حتى لا ترى الحقيقة الموضوعية وحتى لا تبصر طريقها الظفر وتضل السـبيل فتسقط

فريسة هينة لينة فى أيدى هذه الحفنة المغامرة المتآمرة من تجار السلاح — وما أحوجنا فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ بلادنا العربية أن نختبر هذه الافكار الدخيلة على وجداننا الثقافى فى أناة وحذر وأن نتكشف ما فيها من سموم وأن نتسلح لها باليقظة والوعى المستنير وما أحوجنا أن نطهر ثقافتنا الوطنية منها وأن نعمل فى صبر ودأب لاحياء تراثنا القومى القديم وابراز قسماته الخلاقة . وأن نناضل فى غير وهن لانضاج ثقافة وطنية عربية نستطيع بها أن نؤمن استقلالنا وأن نحميه وأن نقيم بها قلاعا قوية فى مواجهة الثقافات الاستعمارية الدخيلة وأن نهزم بها الاستعمار ثقافيا كما هزمناه عسكريا وسياسيا فى بورسعيد

العلم والحرية

ما أكثر ما يوضع العلم فى مقابل الحرية ، لا استقلالا بموضوع العلم عن موضوع الحرية ، وانما انفصالا وتناقضا بينهما

فاذا قال العلم بأن كل شيء يجرى وفق نسق محدد ، وفق قانون ثابت ، وأن الضرورة والحتمية تحكم الوجودين الطبيعي والانساني على السواء ، كان معنى هذا عند طائفة من المفكرين أن العلم يقيد الوجود بما ليس فيه ، ويحد من انطلاقه وتدفقه وتلقائيته . وكان معنى هذا أن العلم نقيض للحرية . ولهذا فانهم ان اعترفوا بالعلم فاعترافا شكليا . فهو عندهم ليس تعبيرا عن حقيقة موضوعية خارج الذهن البشرى ، وانما هو محاولة لفرض قوالب اصطلاحيه أو قيود نظرية على الواقع الخارجي ، لتحقيق أهداف عملية خالصة ..

والقوانين التى يزعم العلماء انها مستخلصة من الطبيعة انما هى آثار الانسان نفسه ، بصمات أصابعه الذهنية على الطبيعة ذاتها . انها ليست انعكاسا للواقع الموضوعى فى ذهن الانسان ، وانما هى اسقاط لذهن الانسان على الواقع الخارجي • وقد يلعب الفرض الخلاق ، وقد تلعب العادة ، وقد يلعب التكرار فى اقتران

(*) الهلال : ابريل ١٩٦٥

حدوث الاشياء ، قد تلعب جميعا دورا حاسما فى صياغة القانون العلمى ، أكثر مما يلعبه الواقع الخارجى نفسه !

ان القانون العلمى والضرورة العلمية والحتمية ، الى غير ذلك من صفات العلم ومفاهيمه الاساسية أنما هى مخلوقات ذهنية ، أما الحقيقة الخارجية ـ ان اعترفوا بها ـ فهى اكثر غنى وتعقيدا وتنوعا وخصوبة وتحررا . هكذا قال الغزالى ، وهيوم وبرجسون وادنجتون وهسرل ، وعشرات غيرهم مهما اختلفت نظريتهم من حيث الاساس وزاوية الرؤية والبناء العام والنتيجة

واذا صح هذا بالنسبة لعالم الطبيعة والوجود المادى ، فما بالك بعالم الانسان ، والوجود الحى ! اذا كان هؤلاء المفكرون يجدون فى القانون العلمى قيدا على الطبيعة الصماء العجماء ، فما بالك بالمجتمع والنفس . ماذا يفعل العلم ، عندهم بالوجود الانسانى الحى ، غير أن يخنقه بقوانينه ، ويمزقه بمشارطه . لا قوانين للتاريخ ـ كما يرون ـ بل تدفقا عشوائيا فى غير اتجاه محدد ، ولا قواعد للمجتمعات غير ما تفيض به الملابسات الخاصة المتنوعة الطارئة ، التى لا حكم لها أو عليها ، ولا حدود للنفس البشرية الا ما تختاره ارادة الانسان

واذا كان العلم ـ كما قال أرسطو منذ مئات السنين ـ هو علم بما هو عام ، فان حياة الانسان فى جوهرها ذات طبيعة خاصة ، ولهذا فلا علم بها ! ولا مجال للعلم كذلك فى الادب والفن ، هذا الخلق الذاتى الخالص الذى لا يخضع لغير عبقرية خالقه

وفى مقابل هذا كله ، يقف العلم بمشارطه ومباضعه وقوالبه الذهنية وتجريداته العامة ، يقف باعتباره مغامرة انسانية للحد من غنى الوجود المادى ، وتقييد الانطلاق الحى للحقيقة البشرية

على أن هناك من وجد فى العلم صنوا للحرية ، بل دعامة لها ، فى غير خلاف مع الرأى السابق الذى يجعل من العلم نقيضا للحرية ! أهذا ممكن ؟ نعم .؟ انهم هؤلاء الذين يجدون فى النظرية العلمية الحديثة ، ما ينقضون به النظرية العلمية ذاتها ، هؤلاء الذين يفسرون منجزات الفيزياء الذرية تفسيرا يخرج بها من مفهوم العلم ذاته

انهم يستندون الى مبدأ هيزنبرج المسمى بمبدأ عدم التحديد أو عدم اليقين ، والذى يعبر عن حقيقة من حقائق البناء الداخلى للذرة ، ولكن ما أكثر ما يساء تفسيره . فلقد كان المنهج النيوتونى لقياس أى جسم هو تحديد موضعه وتحديد سرعته . وبهذا يمكن التنبؤ بكل مساراته المقبلة

على أن منهج القياس فى الفيزياء النووية الحديثة ، اثبت أنه لا سبيل الى القيام بذلك التحديد المزدوج للسرعة والموضوع فى وقت واحد .. ذلك أن تحديد موضع الالكترون مثلا يؤدى الى تغيير سرعته ، كما أن تحديد سرعته يؤدى الى تغيير موضعه

ولهذا فلا سبيل الى تحديد سرعته وموضعه معا ، وبالتالى لا سبيل الى قياسهقياسادقيقا على النهجالنيوتونى

ولقد سميت هذه الحقيقة بمبدأ عدم التحديد أو عدم اليقين . ورغم انها تنسب الى منهج القياس الذى يقوم على الاصطدام بين الفوتون والالكترون مما يسببه هذه القلقلة فى وضعه أو سرعته ، فانها اعتبرت لدى طائفة كبيرة من المفكرين والعلماء تعبيرا عن عدم اليقين فى نتائج الفيزياء النووية عامة ..

ولقد سبقت هذه الظاهرة ظواهر أخرى أثبتت عجز المنهج النيوتونى عن قياسها كذلك . وفضلا عن هذا فان الظواهر العلمية الجديدة لم تعد تلك الظواهر

الفردية التى يمكن عزلها بسهولة عن بقية الظواهر الاخرى ، وانما أصبحت مجاميع متشابكة ، متداخلة ، متفاعلة ، متصادمة ، دائمة التغير .

ولهذا أصبح المنهج الاحصائي هو السبيل الوحيد لدراستها . وجاءت نتيجة هذه الدراسة الاحصائية دراسةاحتمالية . وبمبدأ عدم التحديد والظواهر العلمية الاخرى المشابهة التى سبقته ، وبهذه النتائج الاحتمالية للعلم ، فقد العلم عند طائفة من المفكرين طابع اليقين ، طابع الحتمية والضرورة ، وأصبح فى ظنهم تعبيرا عن حرية الوجود وانعتاقه من قيود العلم القديمة ، وتوكيدا لعجز الانسان عن تقييد حركة الاشياء أو تحديدها ..

وهكذا راحوا يثبتون حرية الانسان بانهيار الحتمية العلمية ؛ فلما كان جسم الانسان من لحم ودم واعصاب ومخ يتكون من ذرات ، ولما كانت هذه الذرات متحررة من قيود الحتمية العلمية ، فان الانسان الذى يتألف من هذه الذرات حر كذلك ! هكذا راح يقول العالم الانجليزى المشهور جيمس جينز وآخرون .

وسوف نناقش هذا الرأى فيما بعد ، ولكن حسبنا ان نؤكد هنا انه لا فارق فى النتيجة بين من يقيم تناقضا بين العلم والحرية بالمعنى الذى اشرنا اليه فى البداية ، أو الذى يزيل هذا التناقض بازالة الطابع الحتمي للعلم ؟ حسبنا .. ما هو المخرج ؟ ما العلاقة بين العلم والحرية ؟

وعندما نبدأ حديثنا بالعلم ، فلن نسعى إلى اثبات موضوعيته من ناحية ، أو علمية الواقع من ناحية اخرى . فما أكثر الوقائع التى لا تترك مجالا لاثبات ذلك .

ان الانسان لم يبصر تضاريس النجوم ولم يتأمل الوجه الاخر للقمر ، بأحلامه وقوالبه الذهنية ، ولم يدر باقماره الصناعية مستخدما أجنحة ايكاروس

الشمعية ، وانما حقق هذا بسيطرته على قوانين الحركة الموضوعية ، وبقيامه برحلة مجيدة فى قلب الوجـود . ولم يقض الانسان على كثير من الامراض ، ولم يغير مجارى كثير من الانهار ، بالرقى والتعاويذ ، وانما بادراكه قوانين الواقع الطبيعى والانسانى على السواء .

ان القوانين العلمية التى يصوغها الانسان قد لا تكون تعبيرا مطلقا نهائيا عن الحقيقة الموضوعية ، ولكنها تعبير عن يقين ، عن حقيقة موضوعية ، هو تعبير نسبى بغير شك ، ولكنه موضوعى كذلك . وهو مرحلة من مراحل الاقتراب البشرى المتصل من الحقيقة المطلقة .

والعلم معرفة بشرية لا يصوغها فرد ، وانما يصوغها المجتمع كله ، وان تسمت فى النهاية باسم فرد . انها ثمرة العمل الاجتماعى الشامل عبر التاريخ . وهى تختبر بالممارسة والتطبيق الاجتماعيين ، فتتعدل أو تتطور أو تثبت وتتدعم .

والقانون العلمى ـ كما يقـال ـ هو القـدر اليونانى القديم . لا شىء يخرج من ارادته وسلطانه . كل شىء يسبح فى بحر من العلل والمعلولات ، فى نسيج من الضرورة والحتمية . لا شىء بغير علة وبغير معلول ، لا شىء خارج الضرورة الشاملة التى تعبر عنها القوانين الاساسية لمختلف العلوم .

ومهمة العلوم هى اكتشاف هـذه القوانين المختلفة ، وباكتشافها يتم للانسان السيطرة على الطبيعة نفسها ، وتوجيهها لخدمته .

وتاريخ الحضارة البشرية هو تاريخ مواجهة الطبيعة ، واكتشاف قوانينها ، والسيطرة عليها . والآلات التى اخترعها الانسان عبر تاريخه هى فى الحقيقة تجسيد لنظريات عملية متطورة نامية عبر التاريخ

ان الآلة قانون علمى ، سيطر عليه الانسان ، وراح يوجهه لمزيد من القوانين ، مزيد من السيطرة على البيئة المحيطة به . والتكنولوجيا ، والصناعة عامة هي العلم في التطبيق ، هى اختبار للنظرية العلمية بالممارسة . وهى توكيد لموضوعية العلم

ومنذ الرمح القديم الذى كان يستخدمه الانسان للسيطرة على عدوه انسانا كان أو حيوانا ، حتى العقول الالكترونية التى يستعين بها الانسان للسيطرة على أعقد العمليات الطبيعية ، بين هذين مسيرة طويلة من المحاولة والخطأ ، من أشكال السيطرة والتحكم خلال التعرف على القوانين الاساسية فى الوجود الطبيعى

ولم يكن كفاح الانسان من أجل التعرف على قوانين الوجود الانسانى ، بأقل من كفاحه من أجل التعرف على قوانين الوجود الطبيعى . وما أكثر الترابط والتشابك بين كفاحه فى هذين المجالين

ولقد ادرك الانسان كذلك قوانين الحركة فى مجتمعه ، ادرك ان التاريخ والمجتمع لا يتحرك حركة اعتباطية عشوائية ، وانما تحكمه كذلك ضرورات ، قد تختلف عن طبيعة الضرورات فى عالم الطبيعة ، ولكنها لا تقل عنها موضوعية كذلك

ولقد كانت معرفة الانسان بقوانين حياته الاجتماعية والتاريخية من أشد العوامل دفعا لتطور حياته وتجديدها . وما أكثر الثورات الاجتماعية التى تحققت متسلحة بهذا الوعى العلمى بضروراتها وقوانينها

وليس ما نسميه بالوعى الثورى الا العلم بقوانين الثورة الاجتماعية ، وربط هذا العلم بالعمل والنضال من أجل السيطرة على قوانين الواقع الاجتماعى وضروراته وتوجيهها لخدمة الانسان

حتى الادب والفن ، لا نستطيع أن نخرجهما من اطار العلم كذلك • ولسنت اقصد بهذا ما يسمى بالادب العلمى أو الفن العلمى ، وانما أقصد الادب والفن عامة . انهما لا يخرجان من الاطار العلمى العام لعصرهما ، مستفيدين من كل ما يقدمه العلم من وسائل وأساليب وقيم • بل ان كثيرا من الاشكال الفنية والادبية تدين بوجودها ذاته للتقدم التكنولوجى .

ان تاريخ السينما والتليفزيون والأذاعة والباليه والموسيقى والمسرح ، انما هو جزء من تاريخ العلم والتكنولوجيا بل لقد نشأت بعض الفنون او تطورت بفضل الاكتشافات العلمية وتطورها .

ولا نجد اثر العلم فى شكل التعبير الادبى والفنى فحسب ووسيلته ، وانما نجده كذلك فى مضمون هذا التعبير • ان قصيدة « لوكريتس » هى تعبير دقيق عن النظرية الذرية فى العالم القديم . ولم يكن شعر جيته وشللى بمعزل كذلك عن الثورة العلمية الجديدة

وقد نجد ردود فعل مناهضة للعلم فى كثير من الاعمال الادبية عند ووردزورث أو اليوت أو هكسلى ، ولكنها على اية حال تعبير عن انفعال بالعلم مهما كانت طبيعة هذا الانفعال . ما اكثر ما نجده فى الرواية من اثار علمية واضحة سواء فى الروايات العلمية أو فى المدارس الروائية المختلفة ، مثل مدرسة د.هـ. لورنس ، أو مدرسة جيمس جويس أو المدرسة الحديثة المضادة للرواية

ما أسهل ما نجد فى الرواية الحديثة من آثار لنتائج علم النفس الفرويدى او النظريات العلمية المختلفة كالنسبية ، وقد نجد هذا فى مضامين هذه الرواية أو فى وسائل التعبير الفنى نفسه . هذا فضلا عن اثر العلم

فى نشر هذه الاعمال الفنية والادبية واشاعتها على أوسع نطاق

فاذا تركنا الادب والفن الى الفلسفة وجدنا كذلك ان الفلسفة رغم استقلال العلوم عنها لم تنفصل أبدا عن العلوم ، تأثرا بها أو تأثيرا فيها . وتعود الفلسفة فى ايامنا هذه لتلتقى بالعلوم على نحو جديد ، فتصبح تعميما نظريا لنتائج العلوم المختلفة ، وتعبيرا عن القوانين العامة الاساسية المشتركة بينها

وهكذا يرتبط العلم بأشكال النشاط البشرى ، على تنوعها ، سواء كانت متجهة الى الطبيعة الخارجية ، أو معبرة عن الطبيعة الخاصة بالانسان فردا كان أو جماعة أو تاريخا . والعلم فى هذه المجالات جميعا محاولة موضوعية لتحديد القوانين الاساسية للظواهر الطبيعية والانسانية . وهو بهذا التحديد لا يشل الوعى بل يغذيه ، ولا يقيد الواقع بل يتيح بمعرفته مزيدا من الانطلاق به ومعه

على ان هذا القول ليس على اطلاقه بغير شك . فلقد تطورت النظرية العلمية وتخلصت من بعض مما كان يشل حركتها واصبحت أكثر تعبيرا عن الحقيقة الموضوعية ، أكثر سيطرة عليها

وما يزعمه بعض المفكرين والعلماء من أن العلم قد تخلى عن حتميته وضرورته بنتائجه الاحتمالية الجديدة ، وبمبدأ عدم التحديد انما هو وهم كبير . ان النظرية العلمية فى واقعها الجديد انما تعبر فى الحقيقة عن مزيد من العلمية فى فهم الواقع والسيطرة عليه كما ذكرنا ، لقد تحرر العلم من كثير من القيود التاريخية ، وأصبح أكثر انطلاقا وموضوعية وحيوية

لقد كانت فيزياء نيوتن تعنى بدراسة الظواهر الفردية المنعزلة ، وتحديد قوانينها الميكانيكية ، التى تقوم

ماسا على الموضع والسرعة
على انه منذ منتصف القرن التاسع عشر ، أخذت تضح ظواهر جديدة غير قابلة للمعالجة العلمية بحسب ظرية نيوتن . ولعل القانون الثانى للديناميكا الحرارية وهو المعروف بقـــانون كارنو أن يكون بداية الازمة فى الفيزياء التقليدية تلك ، ولكن سرعان ما أخذت تتكشف ظواهر علمية جديدة تؤكد هذه الازمة وتدعمها ، وذلك مثل النظرية الحركية للغازات ، والحركة البراونيـة ، والتحلل التلقائى لذرات الراديوم ، الى غير ذلك

ثم كانت الظواهر الجديدة الخاصـة بالبناء الداخلى للذرة ، واخطرها ما يعبر عنه بمبدأ عدم التحديد الـذى أشرنا اليه من قبل

ان هذه الظواهر جميعا لم تستبعد الموضـــــوعية العلمية ، ولم تقض على الحتمية والضرورة كما يقال ، وانما قضت على المنهج التقليدى فحسب الذى تسوده النظرة الميكانيكية الخالصة . وكان هذا إيذانا بمنهج علمى جديد أكثر تعبيرا عما يزخر به الواقع من ظواهر غـير ميكانيكية كتلك الظواهر

كانت النظرة التقليدية تقول ، بحسب صياغة العالم لابلاس اننا لو حددنا المواضع الاصلية والسرعات الاصلية لكل جزء فى الكون فى لحظة معينة ، لامكن التنبؤ بالمستقبل بكل تفاصيله . وهكذا لا يصبح المستقبل بحسب هذه النظرة ، الا مجرد وضع يحدده الحاضر تحديدا حاسما ونهائيا . انه بهذا المعنى حقيقة جاهزة يمكن تحديد كل تفاصيلها منذ الآن لو توفرت المعرفة الدقيقة

ولقد طغت هذه النـظرة طغيانا شـــديدا على العـلم الطبيعى وامتدت الى العلوم الانسانية ووقفت بالفـكر العلمى عن اكتشاف الجديد فى مختلف المجالات . ولكن

سرعان ما أخذت تلك النظرة تتداعى أمام الظواهر الجديدة ، وعجزت الحتمية الميكانيكية عن تفسير هذه الظواهر ، وبهذا أفسحت السبيل لنظرة علمية أخرى ، اكثر رحابة واستشرافا وموضوعية

إن الواقع لا يتكون من أشياء فردية يتحدد مسارها المقبل بتحديد سرعاتها ومواضعها الاصلية فى لحظة معينة ، وانما يتكون من أحداث وعمليات متداخلة ، متشابكة متصادمة أبدا ، متغيرة أبدا . وبهذه النظرة الديناميكية الجديدة للواقع ، كان من الطبيعى أن يكون للعلم منهج جديد للكشف والدراسة واستخلاص القوانين. وكان هذا المنهج الجديد هو حساب الاحتمالات

ان الثورة العلمية الجديدة ليست فى الانتقال من فيزياء نيوتن الى فيزياء اينشتين ، وانما فى الانتقال من النظرة الميكانيكية الى النظرة الديناميكية ، من القياس الفردى للظواهر ، الى القياس الاحصائى لها

ولم يعد الاحتمال مجرد قياس خارجى للظواهر الجديدة ، بل أصبح كذلك تعبيرا عن طبيعة النسيج الموضوعى لهذه الظواهر نفسها ، تعبيرا عما تتميز به من امكانية مفتوحة ، من تغير دائم ، من تفاعل وتشابك وتداخل وصدام لا ينقطع . انه نسيج هذا الواقع الغنى وهو منهج معرفته كذلك . والمنهج الاحتمالى تحديد علمى دقيق لقوانين الحركة والتفاعل والتداخل والتناقض والتغير . انه ليس حدا لجهلنا أو عجزنا عن قياس الظواهر الجديدة بالمنهج الميكانيكى التقليدى . انما هو أداة للمعرفة تتفق مع موضوع المعرفة نفسه . ولهذا فهو ليس تعبيرا عن جهل او عجز . بل هو اقتراب اعمق من الحقيقة الموضوعية ، وسيطرة اشد على قوانينها .

والغريب ان كثيرا من العلماء الاجلاء ــ نذكر منهم

اينشتين على سبيل المثال – لم يستطيعوا ان يتبينـــوا هذا الاتجاه الثورى الجديد فى العلم ، رغم مشاركتهم فى نتائجه مشاركة فعالة خلاقة . لقد عدوه مجرد اتجاه مؤقت سرعان ما يزول ليعود الاتجاه الميكانيكى القديم

والى جانب هؤلاء العلماء ، نجد نفرا آخر مثل جيمس جينز يرى فى هذا المنهج الجديد ، وفى الظواهر العلمية الجديدة ، خروجا بالعلم عن حتميته وضرورته الموضوعية، وتوكيدا للحرية فى قلب الوجود كما اشرنا من قبل

والحقيقة أنه ليس تخليا عن الحتمية العلمية ، وانما عن الحتمية الميكانيكية . وافساح السبيل الى حتميـــة جديدة هى الحتمية الاحتمالية . وهى حتمية لا تناقض الضرورة والعلية بل تؤكدهما على نحو أكثر تعبيرا عن الواقع بكل ما يزخر به من تغير وتفاعل وحركة وصدام هذا هو جوهر الثورة فى العلم الجديد

ولعلنا بهذا المفهوم الديناميكى للعلم ، يمكننا أن ننتقل الى مفهوم الحرية ، ولن يطول حديثنا فى هذا الموضوع ، فلقد سبق أن تعرضنا له فى مقال سابق . ولهذا فحسبنا أن نؤكد ان الحرية ليست التحرر من كل قيد ، بقدر ما هى السيطرة على القيد بمعرفة أسراره وقوانينه !

وما اكثر ما يضرب المثل بالطائرة ، التى هى تحرر من قانون الجاذبية الارضية ، لا بتجاهله ، وانما بمعرفته والسيطرة عليه . ان الحرية الحقيقية هى معرفة الضرورة ســواء فى الطبيعة أو المجتمـــع أو النفس ، وهى كذلك السيطرة على هذه الضرورة

ان معرفتنـــا بقـــوانين الفســـيولوجيا ، بالـــكيمياء ، بالتشريح ، تتيح لنا التحرر من الامراض . وان معرفتنا بقانون الاستغلال يجعلنا نتبين طريقنا للتحرر منـــه . ومعرفتنا كذلك بقيم التعبير الادبى والفنى ووسائلهمـــا

تجعلنا أقدر على التعبير .. أن معرفتنا عامة بالقوانين الطبيعية او الاجتماعية او النفسية تجعلنا اقدر على الحد منها ، أو ابطال مفعولها او توجيهها الوجهة التى نريدها

وعلى هذا فالعلم هو سلاحنا لتحقيق الحرية . هو قوة تحررية فى يد الانسان . استطاع به الانسان خلال تاريخه الطويل ان يغير من بيئته ومن مجتمعه ومن نفسه

حقا قد يصبح العلم أداة تدميرية لا تحريرية عندما تسيطر عليه قوى الشر والرجعية والاستغلال . على ان هذا كذلك قانون علمى ، يبطله قانون علمى آخر هو الثورة التى تضع العلم فى يد الملايين من الشعوب العاملة ، فتحرر العلم لكى يحررها هى كذلك

واذا صح هذا على المستوى الاجتماعى العام ، فهو صحيح كذلك على المستوى النفسى الخاص . فلا حرية لانسان فرد ، فى عزلة عن قوانين وجوده الفسيولوجى ، والبيولوجى ، والنفسى ، فى عزلة عن ثقافته العامة ، وأوضاعه الاجتماعية

ان الانسان الاكثر صحة ، الاكثر ثقافة ، الاكثر قدرة على العمل ، الاكثر تحررا من الضرورات الاجتماعية المعوقة لطاقاته ، هو الاكثر حرية كذلك بغير شك

وعندما يتحدث الوجوديون عن الحرية باعتبارها الاختيار المعبر عن جوهر وجود الفرد ، فانما هم فى الحقيقة يعبرون عن بعد من أبعاد الحرية . وهو بعد على جديته ينقصه الاحتفال بالملابسات الموضوعية لهذا الوجود ولهذا الاختيار

هل هناك اختيار حر فى ظل جهل وأمية ، هل هناك اختيار حر فى ظل استغلال بشع ، هل هناك اختيار حر فى ظل انتشار أمراض البلاجرا وسوء التغذية بين الفلاحين ؟ !

حقـا ، ان كل فعل انما يصدر عن اختيار حر ، ولكن الاختيـار الحر له شرائطه الاجتماعية وملابسـاته النفسية والوجودية التي ينبغي أن تكتمل ليتوافر لهذا الاختيـار حريته الحقيقية

ان الحرية غير منفصلة عن الوعي بكل هذه الشرائط والملابسات ، غير منفصلة عن السيطرة على كل هـذه الشرائط والملابسات ، ان ارتباط العلم بالحرية ، تماما كارتباط الحرية بالعلم ، مسألة ضرورية لكليهما معـا

فالحرية ليست مجرد علم ، وإنما هي علم وواقع اجتماعي ، واختيار نفسي ، والتزام ارادي . والعـلم كذلك انما يتضمن هذا المفهوم الحار للحرية .. انه ليس مجرد مشارط ومباضع وقواعد وقوانين باردة .. انه جهد بشري

ان العامل النفسي والاجتماعي غير منفصل عن العامل العقـلي العـلمي ، ورجـل العـلم وهو يبحث ويدرس ويكتشـف انمـا يحقق هذا كله خلال واقع اجتمـاعي وخلال واقع نفسي كذلك وخلال عصر كامل من المعارف والمنجـزات والقيم ، خـلال أدوات وآخـرين وتاريـخ وأوضاع ومجتمع . خلال هذا كله ، وبهذا كله يبحث ويدرس ويكتشف . وبغير توفر الحرية له ، وللعـلم ذاته ، وللمجتمع المحيط به ، سيتعرض عمله العـلمي لقيود غير علمية ..

وهكذا يرتبط مفهوم العلم بمفهوم الحرية ، ارتباطا متبادلا ، بل يصبحان عملية مشتركة . فلا علم بغير حرية ، ولا حرية بغير علم . فالعلم بغير حرية يصـبح سخرة ، وأداة للتجميد والتدمير تنتهي بالقضـاء على العلم نفسه . والحرية بغير علم تصبح فوضى وتخبطـا يقضي على الحرية نفسها

وبهـذا المفهوم للعلم وبهـذا المفهوم للحرية ، وبهـذا

الارتباط بينهما كذلك ينبثق معنى الالتزام العلمي

ان العلم هو ثمرة للحرية ، وهو أداة لتحقيقها كذلك . وهو بهذا المعنى أداة تحريرية للسيطرة على الضرورة الطبيعية والاجتماعية وتوجيهها لمصلحة الانسان . هذه هي حريته وهذا هو التزامه ، وهذه هي حياته كذلك . فبغير هذا يصبح ترفا عقليا سرعان ما يجف ويموت ، أو يصبح أداة تدمير ، اذا قضت على الحياة البشرية فانما تقضى على ذاتها كذلك

ولعل السيبرنيطيقا أن تكون نموذجا فذا لتلك العلاقة الديناميكية بين العلم والحرية

والسيبرنيطيقا هي تلك القوة الكامنة وراء العقول الحاسبة الالكترونية ، ووراء مختلف المخترعات الحديثة مثل الرادار والمصانع الذاتية والمدافع الآلية ، والقذائف الموجهة والاقمار الصناعية . والسيبرنيطيقا كلمة يونانية الاصل تعنى قائد الدفة فى السفينة . ومن هذه الكلمة تشتق كثير من الكلمات الاوروبية مثل التحكم والحكومات والادارة . ولهذا فالسيبرنيطيقا يمكن ان تترجم بعلم التحكم ، وان تكن الكلمة أصبحت مصطلحا عاما فى مختلف لغات العالم

وتقوم الاجهزة السيبرنيطيقية المختلفة على قاعدة آلية معينة هي ما تسمى بالآلية الضابطة ، أو آلية التغذية العكسية ، وهي نفس الآلية التى يعمل بمقتضاها الجهاز العصبى الانسانى

وما أكثر الصفات الانسانية الآخرى التى تتسم بها هذه الاجهزة السيبرنيطيقية ، مثل الذاكرة ، والقدرة على التكيف والتصرف ازاء العقبات الطارئة ، والتصحيح الذاتى للاخطاء

وقد يجد العلماء تشابها بين الامراض التى تصاب بها

هذه الاجهزة وبعض الأمراض العصبية ، مثل مرض الباركنسون (الشلل الرعاش) ، وقد تعالج هذه الاجهزة عند حدوث خلل مرضى بها كما تعالج بعض الامراض العقلية اى باستخدام الصدمات الكهربائية

ولهذا يسارع كثير من المفكرين الى القول بأن الانسان سيفقد ذاته فى مواجهة هذه الاجهزة السيبرنيطيقية فى المستقبل . ان المستقبل سيسيطر عليه فرانكشتين مخيف من صنع الانسان نفسه . ولن يكون الانسان فى المستقبل غير عبد ذليل للآلة التى يصنعها

والحقيقة أن هذا شكل جديد للقول القديم بالتناقض بين العلم والحرية الانسانية . وهو يعود هذه المرة على مستوى أبشع وأشد اثارة

والقول بأن هذه الاجهزة سوف تسيطر على الانسان لانها اكثر فاعلية منه ، قول سفسطائى . فالطائرة اسرع من الانسان ، والميكروفون أعلى صوتا من الانسان ، ورغم هذا فالانسان هو الذى يتحكم فيها ، هو الذى يصنعها وهو الذى يوجهها الوجهة التى يريد

والاجهزة السيبرنيطيقية انما تتصرف وتسلك بحسب المعلومات التى غذاها بها الانسان . وهى فى الحقيقة شأن الآلات عامة ، تجسيد لثقافته العلمية ، وامتداد لقدراته البيولوجية والفسيولوجية والعقلية كذلك

على أن هذه الاجهزة الجديدة تعبر عن تجسيد صناعى لقوانين علمية تنتسب الى مختلف العلوم الفسيولوجية والعصبية والفيزيائية والكيميائية . وهى بهذا تعبر عن وحدة النظرية العلمية ، وتضافر العلوم المختلفة فى تحديد صيغة علمية وعملية موحدة . وهى فى الحقيقة توفير للجهد العقلى وتحريره من العمليات الرتيبة كالحسابات المعقدة التى قد تستنفد السنوات لاتمامها

ان هذه الاجهزة تحسب للانسان فى دقائق ما يحسبه الانسان فى سنوات . وبهذا فهى تسلح الانسان بقدرات خارقة للسيطرة على واقعه . انها بمثابة محطة تقوية لقدراته العقلية والعصبية . فضلا عن انها تحرير لجهده العضلى من كل العمليات البيروقراطية والمكتبية ، وضمان للدقة الخارقة فى العمل والانتاج ، وللوفرة والسرعة فى انجاز ما يريد

ان السيبرنيطيقا ليست وحشا كفرانكشتين يهدد حرية الانسان . وانما هى سلاح ثورى من أسلحة الحرية الانسانية نفسها

والقضية ليست فحسب أن يتمكن الانسان من أن ينتقل من مكان الى مكان لا بالقطار او بالطائرة وانما ينتقل تلغرافيا كما يتخيل نوربورت فينر ـ أخطر العاملين فى السيبرنيطيقا وواهبها اسمها كذلك ـ وانما القضية فى جوهرها هى أن تتضافر العلوم المختلفة من أجل السيطرة على الواقع الطبيعى والاجتماعى ، والتخلص من كل المعوقات التى تحول دون حرية الانسان وسعادته

ولا شك ان هذا لن يتحقق بالآلة وحدها ، مهما بلغت هذه الآلة من كفاءة سيبرنيطيقية عالية ، وانما بتحرير هذه الآلة أساسا من سيطرة هؤلاء الذين يوجهونها لتحقيق الارباح الاحتكارية ، وشن الحروب العدوانية ، وتثبيت الاستغلال والاستعباد

ان السيبرنيطيقا نموذج رائع للعلم باعتباره قوة ثورية تحررية للانسان . على أنه لا سبيل لتحقيق هذه القوة التحريرية ، الا بتحريرها هى نفسها وجعلها فى خدمة الانسان . ان العلم والحرية معركة مشتركة كما ذكرنا . وما أحوجنا ونحن فى مرحلة الانطلاق لبناء

الاشتراكية فى بلادنا ، الى هذا الوعى الديناميكى للعلم والحرية على السواء

لقد استطعنا بحق بتحررنا أن نحرر العلم ، من ربقة الجمود والتخلف والسطحية ، وخدمة طبقة محدودة من الناس ، وأصبح العلم ملكا مشاعا للشعب العامل .

وبقى أن يصبح هذا العلم المتحرر ، أداة تحريرية فى يد الشعب العامل كذلك

ان العلم هو سبيلنا لبناء حياتنا ، للقضاء على المعوقات فى طريقنا ، وسيلتنا للسيطرة على قوانين التقدم والانطلاق

ولهذا ما احوجنا ان يصبح العلم أداة وعى واستبصار لدى كل مواطن . أن يصبح أداة العامل والفلاح والمثقف، فى السيطرة على واقعه ، على مهنته ، على عمله ، على حياته

ما أحوجنا ان تقوم حياتنا العامة والخاصة على روح العلم والتخطيط ، روح الثقافة الاحصائية ، روح المتابعة العلمية ، روح النظرة الديناميكية الى الامور

ما أحوجنا ألا يقتصر العلم على المعامل المتخصصة والدراسات الاكاديمية ، بل يخرج كذلك الى المصنع الحقل ، والمؤسسات العامة ، والتنظيمات الشعبية .

ما أحوجنا أن تصبح كل وحدة انتاجية ، وحدة علمية، أن تصبح كل وحدة تنظيمية وحدة علمية

ما أحوجنا أن تشيع الثقافة العلمية ، والوعى العلمى، لنسلح بها ثورتنا ، لنسلح بها حركتنا الجماهيرية ، وتنظيمنا السياسى ، لنسلح بها عملياتنا الانتاجية ، وحياتنا الاجتماعية ، وتقيمها جميعا على أسس راسخة

بهذا نكون قد حررنا العلم من ربقة الاستغلال والاستعباد ، وجعلناه كذلك أداة ثورية تحررية فى يد الشعب العامل . هذا هو ضمان انطلاقنا فى السنوات المقبلة الى آفاق لا حد لها من التقدم والرفاهية والازدهار

التفكير العلمي عند العرب

فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ شعوبنا العربيـــة التى نخوض فيها أشرف معركة لتوطيداستقلالناوتثبيت أركانه على أسس من الصناعة الثقيلة والتعايش السلمى بين شعوب العالم ، ما أحرانا أن نلتفت الى تراثنا القديم ، لا نكوصا عن معركة الحاضر ، بل تثبيتا لاقدام هذاالحاضر وعيا بينابيعه العميقة ، وتقييما جديدا لهـذا التراث الماضى ، على ضوء خبراتنا الانسانية والعلمية الجـديدة واستلهاما للعبرة منه فى انطلاقنا نحو المستقبل

والحق ان تراثنا العربى القديم ــ مع مابلغتهالدراسة من تعمق وشمول وعناية ، ما زال منفصلا عن وجداننا الحاضر ، وما زلنا محرومين من ان نعيشه ونتحد به فى حركتنا الفكرية ، فهو جزء فحسب من مناهج الدراسة الاكاديمية المتخصصة ، وانها لمسئولية جليلة ان يصبح غذاء يوميا فى المعركة الفكرية والوطنية الراهنـــة التى تخوضها شعوبنا العربية

ولن يتحقق هذا الا بأن نضع هذا التراث موضعـــه الصحيح من حياتنا ومن تاريخنا . فما أكثر المحاولات التى قامت لاستلاب هذا التراث منا ، وتشكيكنافى قيمته، وحرماننا من ثمرة جهود علمائه الاجلاء ومن السعى فى

(١) مجلة كتابات مصرية : يوليه ١٩٥٦

تطويره والامتداد به . فما أكثر ما نعرف من محاولات كثيرة من المستشرقين لانتقاص الفلسفة العربية الاسلامية والغض من قيمتها ، كهذه المحاولة القديمة التى تنسب الى المفكر الفرنسى رينان الذى كان يزعم أن الساميين لا يعرفون الفلسفة الا اقتباسا وتقليدا للفلسفة اليونانية .. وقد أخذ بهذا الرأى كثيرون وان لم يتفقوا مع رينان فى الاساس العنصرى لهذا الرأى ، ولكنهم يجمعون فى نهاية الامر على انعدام الاصالة والابداع فى الفكر العربى الاسلامى • على أن هناك من الدارسين ، عربا كانوا أم مستشرقين من وجد الاصالة عند المفكر العربى المسلم فى بعض الجوانب الجزئية على هامش الفلسفة اليونانية التى قام بترجمتها وشرحها . كمسألة التوفيق بين الحكمة والشريعة •• ولكن بعض هؤلاء الدارسين تبينوا بالفعل الابداع الحقيقى للفكر العربى الاسلامى فى التفكير العلمى الا أنهم لم يوحدوا بين هذا التفكير العلمى وبين بقية الاشكال الاخرى من التفكير الفلسفى خلال نظرة شاملة للحضارة العربية ••

ولهذا كان من الواجب ان تطرح قضية الفلسفة العربية الاسلامية طرحا جديدا •• ونقطة البداية فى هذا هى الا نفرق فى تاريخ الفلسفة العربية بين الفكر التأملى الخالص وبين البحث العلمى ، فان مثل هذه التفرقة هى التى دفعت الى تلك النتائج المتسرعة فى الحكم على تراثنا الفكرى ، فهى فى الحقيقة تمزق من وحدة التفكير ، لافى العصر الواحد ، بل عند الفيلسوف والمفكر الواحد ، فكيف نميز مثلا بين ابن سينا الفيلسوف وابن سينا الطبيب ، وكيف نتجاهل الرابطة بين الجاحظ الاديب والجاحظ العالم المجرب •؟ اننا لو فعلنا هذا فاننا نمزق من وحدة الفكر العربى الاسلامى ، وليس معنى هذا كذلك ان نذكر صفة

الطبيب الى جانب صفة الاديب ، بل المهم أن نقيم ما بينهما من رابطة وتفاعل ووحدة .. فالعالم العربي ، والفيلسوف العربي كانا انسانا واحدا .. كانوا جميعا اطباء ، وكانوا جميعا فلاسفة ، وكانوا جميعا رجال دين ، فدراستهم كأطباء فحسب ، أو فلاسفة فحسب ، أو رجال دين فحسب ، يفضى الى نتائج غير سليمة

وما أحوجنا اذن الى أن ننظر الى الفكر العربي الاسلامي كوحدة مترابطة ، اذ بهذا سنتبصر معا بمدى ما فيه من اصالة وابداع . ومن خلال هذه النظرة سنكتشف الرابطة التى توحد بين المدارس النحوية والبلاغية والمنطقية والعلمية والفلسفية فى رباط حضارى واحد

هذا أولا .. وهناك أمر ثان لا يقل عن هذا أهمية ، ذلك هو فهمنا لحقيقة استجابة الفكر العربى الاسلامى وتأثره بالفلسفة اليونانية

فترجمة الفلسفة اليونانية كانت نتيجة لاحتياجات اجتماعية فرضتها الدولة العربية فى ذلك الوقت . ولم تكن الترجمة نتيجة حاجة فردية ، أو ثمرة هوى شخصى ، أو مصادفة عرضية ، وانما كانت الدولة العربية الجديدة التى كونتها العقيدة الاسلامية وخرجت بها من حدود العلاقات القبلية فى شبه الجزيرة العربية الى رقعة واسعة من الارض تضم أجناسا وشعوبا مختلفة ، هذه الدولة الجديدة ، التى كانت تمثل علاقات انسانية واسعة ، ومصالح تجارية جديدة متطورة ، وقيما فكرية ودينية واخلاقية متصارعة ، ومشكلات ادارية واقتصادية وفنية ، تتعقد يوما بعد يوم مع تعقد المجتمع واتساع رقعة الدولة . هذه الدولة كانت فى حاجة الى خبرة الامم الاخرى الى جانب خبرتها الذاتية لتواجه بها كل هذه الشئون والمشكلات . وكان نقل الفلسفة اليونانية وغيرها

من المعارف الهندية والفارسية صدى لحاجة هذه الدولة الجديدة الى فلسفة شاملة تطل منها على الكون العريض وتتيح لها خدمة مصالحها وتطويرها

الا أن لكل نظام اجتماعي فلسفته المعبرة عنه،الخادمة لمصالحه • ولهذا ما كان للفلسفة اليونانية المترجمة أن تكون فى ذاتها مصدر قيمة تذكر مالم تكن تحتوى علـــى عناصر تخدم الواقع العربى نفسه

وفلسفة أفلاطون وارسطو كانت تعبر بدقة وبعمـــق عن طبيعة المجتمع اليونانى فىمرحلة انهياره ،وكانمجتمعا عبوديا • كان الفكر والتأمل والمتعة فيه من نصيب السادة والعمل والفاقة من نصيب العبيد •• وكانت فلســـفة أفلاطون وارسطو تعبر عن هذا الوضع تعبيرا دقيقـــا ، كانت فلسفة غير عملية ، فلسفة تأملية خالصة تقوم على الماهية والكيف والتجريد

ففلسفة أرسطو تقوم على مقولات ثابتة اوليةتستخلص منها استخلاصا قياسيا دقيقا نتائج محددة . ولهذا كان المنطق الشكلى هو أداتها ومنهجهـــا الرئيسى . وكانت نظرتها الى الطبيعة نظرة غائيـــــة صرفة ، فكانت تفرق بين الصورة والمادة تفرقة حادة ، اما المادة فهى غــــير محددة ، ولا وجود لها كقوام بغير الصورة .والصورةهى التى تهبها حقيقتها . ولهذا كانت العلة الصـــورية اهم وأسبق من العلة الفاعلية . ولهذا كذلك لم تــكن للعلوم اليدوية أهمية تذكر ولم يكن ثمة اهتمام كـذلك بعلوم العدد والمقدار كالرياضة ، وانما كان الاهتمام الاكبـــر بالكيف . وكانت هذه الفلسفة بشكل عام تعبر تعبـيرا دقيقا عن المجتمع اليونانى العبودى وانقسامه الى سادة يتأملون وعبيد يعملون . السادة هم الصورة والعبيـد هم المادة ، وعلى رأس هؤلاء جميعا يقبع اله ، يحـرك

ولكنه لا يتحرك ، وهو يحرك بحركة غائية هي العشق ، دون أن يمس ما دونه من كائنات ، تماما كالمفكر اليونانى والسيد اليونانى ، متعال عن كل ما هو مادى ، مفارق لكل ما هو تطبيقى ، يحرك ولا يتحرك ، يتأمل ولا ينتج

وانتقلت هذه الفلسفة اليونانية الارسطية أساسا مع امتزاجها امتزاجا أفلاطونيا ، خلال أفلوطين ، انتقلت الى الحضارة الاسلامية الجديدة .

ولكن المجتمع العربى الاسلامى كان يختلف اختلافا كبيرا عن المجتمع اليونانى العبودى ، كان دولة مليئة بالامكان والتفتح والامتداد والانطلاق على رأسها طبقة تجارية ناشئة وكانت كذلك تحتوى على شعوب متعددة ، لها مشكلاتها ومتطلباتها وكفاحها من أجل التحرر • وكانت هذه الدولة الجديدة بمشكلاتها دولة طامحة • لم تكن حضارة سحرية كما يقول شبنجلر وانما كانت فى جوهرها حضارة علمية وعملية حتى داخل اطار الدين الاسلامى • لان الدين الاسلامى دين عبادة ونظر ومعاملات معا • وكانت الدولة الجديدة دولة شامخة ، تمتد من المحيط الاطلسى حتى جدود الهند والتركستان وأطراف الصين ، كانت زاخرة بالامكانيات والمسئوليات والتبعات والمشاريع والمصالح النامية ، وكانت تبحث لها عن فلسفة تعبر عن كل هذا تعبيرا صادقا موجها

وعندما ترجمت الفلسفة اليونانية ، كان من الطبيعى للفكر الاسلامى العربى فى البداية أن يعكف على مناقشتها ومدارستها ، والتفاعل معها تلخيصا وحفظا • ثم كان من الطبيعى بعد ذلك أن يختلف موقف الفكر العربى المسلم منها اختلافا بينا . وهذا هو ما تحقق بالفعل

فى البداية كان الفكر العربى الاسلامى يحاول التوفيق بين الفكر الكيفى الغائى لارسطو والاتجاه الافلاطونى عامة

والرياضي خاصة ، ثم قامت محاولة ثانية للتوفيق بين القيم الشكلية الجامدة لفلسفة أرسطو ومنطقه وبين الشريعة الاسلامية • ثم أخذت المعارضة لفلسفه أرسطو تنمو وتتضح ، وكانت معارضة تشمل كافة جوانب الفكر العربى الاسلامى وكانت معارضة فكرية نابعة من جوهر المجتمع الاسلامى العربى نفسه ، وحقيقة مصالحه ،وكانت امتدادا للفكر العربى الاسلامى نفسه منذ ينابيعه الاولى فى الفقه والاصول والنحو والبلاغة حتى شمل الفلسفة والفكر بصورة عامة

وكان من الطبيعى كما ذكرت أن يتحقق هذا ، فالفكر العربى الاسلامى منذ بدايته لم يكن يفرق بين النظرة العقلية التأملية ، وبين الممارسة العملية ، بل كان الجانب الاكبر من الفلاسفة أطباء ، ورجال أعمال يتمرسون بمسئوليات فعلية فى جهاز الدولة ، ويقومون بأنفسهم بأشكال متنوعة من التجريب العلمى • ولم يكن الامر يقف عند الفلاسفة فحسب من أمثال الكندى وابن سينا والرازى مثلا ، بل كان كبار الادباء كذلك من المتبصرين بشئون التجربة والتطبيق العلمى • كالجاحظ مثلا كما نجد فى تجاربه التشريحية فى كتابه الحيوان • ومن خلال هذا التمرس العلمى أخذ المفكر العربى المسلم يكتشف قصور المذهب الارسطالى الشكلى وأخذ ينتقد فى أرسطو عدم اهتمامه بالتجربة

وكان من الطبيعى كذلك ان يكون الفلاسفة العرب المسلمون رجال عمل وتجربة ، فلم يكن مجتمعهم مجتمعا عبوديا كالمجتمع اليونانى ، وانما كان مجتمعا اقطاعيا تنمو فى داخله طبقة جديدة من التجار واصحاب الحرف

كان نظاما من الحكام والولاة والعملاء المستبدين وجماهير الشعوب المستعبدة • لم يكن نظاما عبوديا ،بل كان

نظاما اقطاعيا فى اتجاهه الى التطور التجارى فالصناعى لو أتيح له ذلك

وكان كثير من الفلاسفة يقومون بأشكال حرفية بسيطة من التجارة ، كالعطارة مثلا لارتباطها بعلومهم ، وكانوا يمارسون صناعة الطب ، ويكتشفون الاحماض المختلفة للصناعات المختلفة كصناعة النسيج

وكان الفلاسفة فى الوقت نفسه من عامة الناس من امم مختلفة ، داخلة فى الدولة العربية الاسلامية ، وكان فى توحيدهم بين النظر التأملى وبين الممارسة العملية خروج مباشر على صميم فلسفة أرسطو ، فلسفة اليونان فى عصره العبودى

على ان التوحيد بين التأمل والممارسة العملية دفعت بالمفكر العربى المسلم الى نتيجة أخرى بالنسبة لفلسفة ارسطو ، هى أنها خرجت به عن حدود النظرة الكيفية الغائية الى التحديد الكمى . وأصبح المفكر العربى المسلم يدرس الظاهرة الموضوعية دراسة علمية لتحديدها تحديدا كميا . ويبرز هذا الوعى العلمى الجديد فى صورة كاملة عند كثير من المفكرين من أمثال البيرونى وجابر بن حيان

وفى هذا الاتجاه الى الكم والتجربة خروج مباشر كذلك على مفهوم أساسى فى منطق أرسطو هو التعريف

فالتعريف او الحد الارسطى بالنوع والفصل مثلا تعريف يتفق مع النظرة الكيفية الى الاشياء

وخرج المفكرون المسلمون على هذا المفهوم الارسططالى للحد والتعريف ، وخاصة رجال الاصول والفقه ، وانتهوا الى نظرة جديدة للتعريف تقربه الى حركة الواقع . وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا بشكل عام الى الخروج عن حدود القياس الارسططالى أى الحصول على نتيجة عملية استخلاص شكلية من مقدمات ، وأصبحت عملية

التجريب العملى لا عملية الاستخلاص المنطقى سبيلا من سبل المعرفة

ولعل أدق ما يعبر عن هذا ما نسوقه عن ابن خلدون فى نقده لقياس أرسطو قوله « ان الاقيسة المنطقية احكام ذهنية والموجودات الخارجية متشخصة ،فالتطابق بينهما غير يقينى لان المادة قد تحول دونه ، اللهم الا مايشهد له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين المنطقية »

ولا يعنى هذا ـ فى الحقيقة ـ كما ذهب بعض الكتاب، القضاء نهائيا على القياس المنطقى . ذلك لانه لاتجربة بغير قياس ، وعمليات التجريب تتضمن فى داخلها عمليات قياسية جزئية .

والى جانب ذلك كان الفكر الارسططالى بوجه خاص يرى أن العلم لا يكون الا بالكلى ، أما العلم بالجزئى فليس علما . الا أن النزعة التجريبية عند المفكر العربى المسلم دفعته فى بعض الاحيان الى ان يتطرف كما يتطرف الاسميون فيقصر العلم الحقيقى على ماهوجزئى مشخص ويعتبر ان المجردات لا وجود لها

وقد توج هذه الاتجاهات جميعا ، ادراك عميق بأهمية الرابطة العلية بين الاشياء كأساس للمعرفة العقلية ، فعلى هذه الرابطة العلية بين الاشياء تقام التجارب ، وتتحقق النظرة الموضوعية الى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على السواء

وبهذه الرابطة العلية فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية ، وبهذه الرابطة العلية ، اقام البيرونى والرازى وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم

وفى ظل هذه القيم التجريبية والكمية الجديدة ، وفى ظل حركة الحياة فى الدولة العربية وما يتنازعها من صراع

وتقدم برزت فى الفكر الاسلامى العربى نظرة الىالكون والكائنات فيها نواة نظرية التطور ، تطور الكائنـــــات وتداخلها ، ونجدها فى وضوح عند اخوان الصفا وابن خلدون

والمهم أن نذكر أنه بهذا المنهج التجريبى وبهذه القيم العلية والكمية ، وبهذا التوحيد بين النظر والعمل ،وبهذه النظرة المتطورة للكون والانسان ، بهذا كله اختلف الفكر الاسلامى العربى اختلافا كبيرا عن الفكر اليونانى المترجم وتناقض معه فى مختلف فروع الثقافة من علم أصـــول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة الى الانسان . ولم يكن هذا الاختلاف عابرا أو طارئا أو مصادفا أو عفويا .. وانمـــا كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعى للـــدولة العربية وللحضارة اليونانية التى عبرت عن نهايتها فلسفة أرسطو

وعلى هذا يمكن القول بأن جوهر الحضارة العربيـــة الاسلامية ، جوهر عقلى ، عملى ، تجريبى ، حسى .. على ان هذا الجوهر العملى التجريبى كما سبق أن ذكــرت لا يعنى أبدا الخروج نهائيا على القياس المنطقى ،فلا تجربة بغير استدلال عقلى ، ولكن التجربة تستفيد من القياس المنطقى فى مراحلها دون أن تنغلق فى داخـــــل عايتها الاستخلاصية الضيقة . فنحن حتى اليوم على الرغم من هذا التطور البالغ للفكر الانسانى ما نزال نجد فى المنطق الشكلى أساسا لدراسة بعض اللحظات الثابتة فى حركة الطبيعة

ولعل هذا يفسر لنا قيام المنطق الشكلى والاستفادة منه استفادة كبرى فى الحضارة العربية حتى فى المجـــالات التجريبية وعند العلماء الذين قاموا بنقده واتهامـــــه بالقصور والضيق . ولهذا من الخطأ أن نقول ان المفكرين المسلمين العرب قد رفضوا المنطق القياسى الشـــكلى

رفضا قاطعا ، لان رفضه رفض لاسس ثابتـــة للفكر الانسانى . انما هم استفادوا منه ، وخرجوا على حدوده الى حدود أرحب وأوسع هى حدود التجربة والــكم والتطبيق العملى

والمهم أن نذكر كخلاصة لهذا كله ، ان الفكر الاسلامى العربى ، قد تمثل الفلسفة الارسطية وعلى رأسها المنطق الشكلى الارسطالى ، وحاول ان يوفق بينها وبـــين الافلاطونية والاتجاه الرياضى ولكنه خرج من هذا الخليط غير المتجانس خلال تمرسه العملى بالتجربة ، خرج بعقل تجريبى يحترم الرابطة العلية ، ويحرص على الـــكم والمقدار . وبهذا توج انتصاراته كفكر ذى خصـــائص مختلفة عن الفلسفة اليونانية الغائية الكيفية

ولقد لمس هذا الاتجاه بحق الدكتور سامى النشار فى دراسته القيمة لمناهج البحث عند مفكرى الاســلام ، ونقد المسلمين للمنطق الارســطاليسى ، الا انه قصر الدراسة على نقد علماء الاصول والمتكلمين والفقهاء للمنطق الارسطاليسى . ولكن لا تبرز هذه النتيجة فى صورة كاملة الا بدراسة الجانب التطبيقى العملى للفيلسوف العربى ، والتوحيد بينهما ، وربط هذا كله بواقع المجتمع العربى فى ذلك الوقت

الا أن هذا الواقع الاجتماعى للدولة العربية كان زاخرا بالصراع ، كأى واقع اجتماعى ، وتطوره انما هو ثمـــرة للعوامل المتصارعة فيه ، ولهذا ففى الوقت الذى نلمس فيه هذ الاتجاه العلمى ، الذى يمثل جوهر الفلسفة العربية التى تتفق مع الدولة الناشئة الطامحة . نجـــد كذلك اتجاها اخر متناقضا كل التناقض ، ولكنه كذلك ليس اتجاها ارسطاليا غائيا ، بل هو اتجاه صـــــوفى اشراقى مغرق يقيم الحدس مكان العقل ، والمعرفة اللادنيـــة او

النفث فى الروع مكان التحديد الكمى ، وأحوال النفس ورياضتها ومجاهدتها مكان التجربة الحسية . وهو اتجاه معاكس تماما ، يمثل الصراع داخل المجتمع العربى الاسلامى ، ويمثل عناصر النكوص والتخلف

ولم يكن هذا الصراع يقوم فى المجتمع على رحابته فحسب ، بل كان يقوم كذلك عند الفيلسوف الواحد نفسه ، كما نجد عند ابن سينا اتجاها حدسيا اشراقيا واتجاها عقليا تجريبيا ..

وكان هذا الصراع مظهرا للقلقلة الاجتماعية العنيفة التى كانت تعانيها الحضارة العربية ..

فكانت تعانى من ثورات الفلاحين ، وخيانات الولاة ، ومؤامرات القصور والبذخ والتحلل والتفسخ ، والفاقة ، والضرائب المجحفة والمظالم البشعة ، والشعوب المستغلة والنظام العبودى ، الذى كان مايزال قائما فى المجتمع العربى الاقطاعى المتطور ، ويعيش جنبا الى جنب مع نمو الطبقة التجارية والحرفية الجديدة

كانت الشعوب العربية والاسلامية تستغل أبشع استغلال ، وتفرض عليها أفدح الضرائب ، وكان الولاة وعملاء الخلفاء ، يستقلون بالولايات وينسلخون بها عن الدولة ، وكانت قصور الخلفاء بؤرة من التحلل والمؤامرات والدسائس وكان المفكر العربى العظيم يعانى أسوأ مايعانيه مفكرو العالم من اضطهاد وحرمان وتعسف ، بعضهم عاش مشردا طريدا وبعضهم مات مسموما وبعضهم سجن وبعضهم عذب وحرقت كتبه . وكان علماؤنا الاجلاء ينتجون تحت رحمة الاهواء المتقلبة للخلفاء والوزراء والولاة

وخلال هذه القلقلة الاجتماعية والثورات والمؤامرات ، والغارات الخارجية ، اخذ المجتمع الاسلامى فى المغرب

والمشرق ينهار ، وأخذت تنهار معه كل القيم التجريبية والعقلية ، وتتسع وتتعمق القيم الصوفية الحدسية

ثم سقط المجتمع الاسلامى الكبير ، وسقط معـــه فلاسفته وعلماؤه ، لان رجال العلم والفلسفة كانوا مرتبطين بالخلفاء والامراء ، وكان هذا يدر عليهم ثروة تتيح لهم التفرغ للبحث ، الا أن ذلك فى الوقت نفسه كان يجعلهم فى مهب نزواتهم ، ويربط مصيرهم بهم ، ويحرم الشعوب الاسلامية من الاستفادة بعلمهم وفلسفتهم ، وكان يقصر الدراسة العلمية على دوائر محدودة من الناس ، وان كان ينجح أحيانا فى أن تقوم حوله حركات شعبية دافقة كحركة القرامطة ، التى قامت لاعادة توزيـــع الاراضى ، واعطاء المرأة حق المساوة مع الرجل

على انه ــ كظاهرة عامة ــ أدى ارتباط الفلاسفة بالخلفاء والامراء الى ضعف ارتباطهم بالشعوب الاسلامية ، فلم تلعب الثقافة العلمية الجديدة دورا كبيرا فى تثبيت قواعد الدولة ، بل سقطت بسقوطها . وكانت الدولة تقوم على السيطرة العسكرية أساسا ، لا التنظيم الاقتصـــادى أو السياسى ، فما أن قامت حركات عسكرية مناهضة ، حتى تحللت أمامها الدولة العريضة وسقطت

وضاع جانب كبير من التراث العربى الاسلامى ، الا أن المتبقى منه كان عظيم الاثر فى اضاءة الفـــكر فى أوربا المسيحية ، وفى بعث الفكر العلمى التجــــريبى فى عصر النهضة والتنوير فى أوربا بعد ذلك

ولقد بلغت الحساسية العلمية عنـــد بعض المفكرين العرب مبلغا كبيرا فلقد نادى جابر بن حيان مثـــلا بامكانية التكوين الصناعى للانسان ، أى امكانية ايجـاد كائنات حية بالصناعة . واسمى هذا بعلم « التـــكوين الصناعى » . ويذكرنا هذا بعلم انسانى جديد ظهر حوالى

عام ١٩٤٧ يسمى السيبر نيطيقا يهـــدف الى تكوين بعض الوظائف العقلية تكوينا صناعيا . ويقول جابر « ان هذا العلم ممكن لان الكائن الحي نتيجة لتضافر القوى الطبيعية . والطبيعة فى انتاجها للكائنات تخضع لقوانين سيكشف عن سرها علم الميزان » وعلم الميزان هو العلم بالقوانين الطبيعية الكمية التى يجرى عليها الكون والفساد فى الطبيعة . وبهذا العلم كان يؤمن جابر بن حيان بامكان قياس كافة المظاهر الطبيعية والانسانية بالكم والعدد

كما نجد نفس هذا الحس العلمى المرهف عند البيرونى ، ففى كلمة له عن ان قوانين الطبيعة قوانين ثابتة لا تخطىء ، أشار الى أن ما يفسره بعض الناس بأنه خطأ فى خلقـــة الكائنات انما ينشأ عن خروج المادة عن حد الاعتـــدال فى المقدار أى أن التغير فى المقدار وفى الكم هو الذى يؤدى الى هذا التغير أو الاختلاف الكيفى الذى يســميه بعض الناس بالخطأ

هذه ملامح عابرة لنتاج التفكير العلمى عند العـرب ودلالته ، وعلى ضوء هذا ، الخص ما سبق بأن الفـــكر العربى الاسلامى كان فى جوهره فكرا تجريبيا ، دون أن أعنى بهذا انه كان ضد القياس ، لان التجربة نفسهـــا تتضمن القياس . وانما أعنى فحسب أنه تجاوز الحدود الصورية لمنطق أرسطو وأطل على التجربة العمليـــة واتخذها مصدرا لعلمه وفلسفته . وأن هذا كان تعبيرا دقيقا للحضارة العربية الاسلامية فى توسعها وتطورها . وكان هذا الفكر التجريبى العلمى يربط بين التأمل النظرى والممارسة العملية ويتجه الى التحديد الكمى وانه بهذا كان صفحة جديدة كل الجده بالنســـبة للفلســـفة الارسطالية والافلاطونية

الا أن الفكر الاسلامى كان له اتجاه اخر غـــير علمى ،

اتجاه حدسى صوفى ، وكان هذان الاتجاهان يمثـــلان ما تصطرع به الدولة العربية الاسلامية من عوامل تقـــدم ونكوص . وعندما تهاوت الفلسفة العربية الاسلامية فى المشرق والمغرب توقفت الفلسفة العقلية التجريبيـــة مما يدل على انها جوهر الحضارة العربيـــة وعنصرها المتطور الفعال ، ولكن بقيت حتى اليوم مواكب المتصوفين

على ان الشىء الجدير بالذكر هو ان الفكر العـــربى العلمى هو جوهر الفلسفة الاسلامية . وان الفلسفـــة الاسلامية بهذا ليست امتدادا للفكر اليونانى بل كانت اضافة جديدة اليه ذات طابع تجريبى كمى ، كمـــا كانت نقطة انطلاق ـ عبر روجر بيكون وديكارت وفرانسيس بيكون وجاليليو ـ الى نشأة العلم التجريبى الحديث

هذا هو الوضع الحقيقى ـ فيما اعتقد ـ للفلسفـــة العربية الاسلامية فى تاريخ الفكر الانسانى

اليسار العربي والنظرية العلمية

ما أكثر ما يكتب عن حاجتنا الى وضوح فكرى

ما أكثر الدراسات والتفسيرات لازمة اليسار العربى بأجنحته المختلفة . ما أكثر الداعين الى فلسفة جديدة ، الى نظرية أصيلة غير مسبوقة

وما أقل ما يحققه هذا من وضوح فكرى حقيقى !

لست اتعالى على ما يكتب ، ولست أتجنى عليه ، ولكنى أقول صادقا ان جهودا كبيرة جادة تبذل فى هذا السبيل ، الآن كثيرا مماينشر فى مجلاتنا الثقافية وخاصة اللبنانية ، يثير بلبلة أكثر مما يحقق وضوحا .

باسم البحث عن فلسفة أصيلة جديدة ، تكاد تختنق كثير من المقالات ، بالعبارات الضخمة ، والتحليلات المعقدة ، والتركيبات الذهنية التى لا صلة لها بواقع الحياة . وباسم البحث عن طريق فكرى ثالث بين المادية والمثالية ، تروح مقالات أخرى تنتقى من هنا وهناك ،من مدرسة الظواهر تارة ، أو الواقعية الجديدة تارة أخرى أو الوجودية تارة ثالثة ، فلا تعود بغير صورة أخرى من صور أزمة الفكر المثالى في أوربا . وباسم البحث عن فلسفة جديدة ، تقوم مقالات أخرى على نقد الماركسية، ومحاولة احتوائها أو تخطيطها وتجاوزها الى فلسفة أشد

(*) الهلال : يناير ١٩٦٥

احكاما ، فلا نظفر منها كذلك بغير الفتات الماركسى نفسه ، او الترديد لعبارات لوففر أو سارتر فى تهميشاتهما الاخيرة على الماركسية

وهناك مدارس فكرية عربية ، تلبس مسوح الاشتراكية ولكنها لا تستند الى نظرة علمية الى الاشتراكية ، بل تزدحم نظرتها بأفكار غيبية وميتافيزيقية ، وتكادتصدر عن خليط انتقائى غير متوازن من النيتشوية ، والبرجسونية والفوضوية والوجودية

ما احوجنا بالفعل الى وضوح فكرى . ما احوجنا الى فلسفة أصيلة حقا ، معبرة تعبيرا خلاقا عن واقعنا الثورى الجديد

ولسنا بالطبع نأمل فى عودة المذاهب الفلسفية على النحو القديم ، التى كانت تدلى بالرأى فى كل شىء .لقد انتهى عصر هذه الفلسفات الشاملة . واحتلت العلوم المختلفة كثيرا من ساحاتها وموضوعاتها . ولكننا نأمل أن نقيم بناء نظريا ، فى غير تناقض مع العلم ، او تجانف مع واقعنا الاجتماعى ، بل يكون فى الحقيقة صدى لهما ، وتعبيرا عنهما ، وفى الوقت نفسه أداة لهما وسلاحا لحمايتهما وتطويرهما

وما نريد أن نفتعل الامور افتعالا — أو نخططها تخطيطا تجريديا . ان الفلسفة تعبير خلاق ينبع ويتبلور خلال عملية الممارسة الاجتماعية والحضارية . ونحن بغير شك فى الطريق الى هذا . قد نتبين عناصر فكرية هناأوعناصر هناك . وسوف تنضج بغير شك الىوضوح فكرىونظرى شامل غامر ، لا يقف عند حدود بعض المثقفين ، وانما يحتضن الجماهير الشعبية كلها بل ينبع منها

وما اكثر الاتجاهات الفكرية والفلسفية التى صاحبت وغذت تاريخنا الحديث . فى مفتتح القرن كان هناك

الفكر الارسطالى يتأثر به لطفى السيد ، ويعبر به فى كثير من توجيهاته السياسية والتعليمية ومواقفه العلمية

ثم كان هناك الفكر الديكارتى يبشر به الدكتور طه حسين منهجا عقليا للدراسة والبحث • وكان هناك قبل ذلك وبعده فكر تطورى ينتسب الى الداروينية ، يبشر به شبلى شميل ، وينشره اسماعيل مظهر ، ويطوره سلامه موسى الى آفاق أشمل من الفكر العلمى.

ثم برزت بعد ذلك اتجاهات فكرية متنوعة كالتعادلية لتوفيق الحكيم والتفسير البيولوجى للتاريخ للدكتور محمد كامل حسين والتكاملية للدكتور يوسف مراد والوجودية للدكتور عبد الرحمن بدوى والوضعية المنطقية للدكتور زكى نجيب محمود •• الى آخر هذه المدارس والاتجاهات ••

ولاشك أن سرد هذه المدارس والاتجاهات المختلفة لا يعنى انها كانت سواء فى تعبيرها عن واقعنا ، أو تأثيرها فيه . بل يختلف هذا التعبير والتأثير ويتفاوت من اتجاه الى اتجاه ، لقد أثر الاتجاه الارسطى بغير شك ، كما أثر المنهج الديكارتى ، وكان سلامة موسى تعبيرا تبشيريا عن حقائق عصر العلم والصناعة • وكانت التعادلية صياغة ذكية لبعض جوانب من واقعنا • والوجودية وان لم تنجح محاولة الدكتور عبد الرحمن بدوى فى امتداد بها من تراثنا القديم واشاعتها كفلسفة شاملة لنا الا أنها بغير شك تعبر عن تجارب انسانية معينة فى واقعنا وان تكن محددة معزولة. والوضعية المنطقية ، قد تجد بعض الاصداء فى الجامعة، ولكنها لا تعبر عن حقيقة اجتماعية أصيلة

ولست أدعى أن هذه الاتجاهات الفكرية كانت مجرد أصداء لفكر أوربى ، حقا كانت تتأثر فى كثير من قسماتها بهذا الفكر ، ولكننا لا ننكر ما فى كثير من جوانبها من اجتهادات خاصة ، فى الفكر أو التطبيق . وليست

هذه قضيتنا هنا ، وانما القضية أن هذه الاتجاهات الفكرية جميعا لم تعد تعبر عن حقائق حياتنا الجديدة

فماذا نريد اذن ؟ ان نجلس للبحث عن فلسفة جديدة! أن ننتقى من ماركس وهسرل وميرلى بونتيه ولوففر وسارتر والكسندر صمويل ، ثم نقيم فلسفة مرقعة ، لا تنبثق من واقعنا ولا من تجاربنا وانما من بطون الكتب ومن عقول مفكرينا المعزولين عن الواقع !

هل نكتفى بالميثاق ، ميثاقنا وميثاق الثورة الجزائرية، ونعتبرهما خلاصة للفلسفة العربية الجديدة ؟

انهما بغير شك يتضمنان نظرة اجتماعية وسياسية كما يتضمنان عناصر وقيما فكرية ، ولكنهما لا يعبران عن فلسفة شاملة تناقش قضايا المعرفة والوجود والجمال والمصير البشرى و .. و .. الخ

الا أن هذين الميثاقين يتضمنان شيئا اخر غير هذه النظرة الاجتماعية والسياسية والفكرية العامة ، هو فى تقديرى أخطر مافى الميثاقين ، منطقهما العلمى فى تناول القضايا الاجتماعية والتاريخية والسياسية . وقد تختلف نصوص الميثاقين غدا فى هذه القضية او تلك ، قد تتغير بعض تفسيراته التاريخية ، أو توجيهاته الزراعية ولكن سيظل هذا المنهج العلمى ، هذا المنطق وراء هذا التغيير والتجديد والتطوير

وفى تقديرى أنه لو اهتمت المدارس والمعاهد بابراز منطق الميثاق ، ومنهجه فى تناول الاشياء ، لخدمت الفكر الثورى ولخدمت الاشتراكية ، أكثر من تحفيظ نصوصه والاستفادة به فى دروس تحسين الخط ، والاملاء والاعراب !

ان الوضوح الفكرى بالميثاق يمكن أن يتم باستيعاب منطقه العلمى ، ونظرته الموضوعية الحية الى مختلف القضايا ، افضل مما يتم بحفظ نصوصه

وفى تقديرى كذلك ، لو عدنا الى موضوعنا الاصلى ، ان كثيرا من الخلافات بين طوائف اليسار العربى تنبع عن انهم لا يتسلحون بمنطق فكرى واحد ، بمعايير عقلية متقاربة لقياس الحقيقة واختبار الواقع،وامتحان الافكار . والاخطر من هذا كله ، ان جماهير الشعب العادى ، بل جماهير المثقفين ، من مدرسين وطلبة ، غير مسلحين بمنطق علمى ، عامة أو فى فهمهم للميثاق على سبيل المثال، وان كانوا يتبنون نصوصه ويؤمنون بأفكاره وفلسفته العامة ، ولهذا فكثيرا ما يرددون هذه النصوص ثم يقومون بتفسيرها على نحو مخالف ومتناقض مع نظرة الميثاق العلمية ، وبهذا يخربون الميثاق مستخدمين الميثاق نفسه ! حسنا ..

ماذا أريد أن أصل اليه ؟

أريد ان أؤكد حاجة اليسار العربى ، حاجة الفكر العربى عامة ، حاجة الثورة العربية الى منطق علمى جديد

ولست انتقل من البحث عن فلسفة جديدة الى البحث عن منطق علمى جديد ، لا ، فان المنطق قائم وموجود بالفعل . موجود فى حياة الناس ، فى خبرتهم ، فى كثير من تعابيرهم العفوية ، موجود فى ميثاق القاهرة وميثاق طرابلس ، ولكنه ما زال احوج ما يكون الى التوعية والتوضيح والاشاعة بين المثقفين عامة وجماهير الشعب خاصة . ولن يحقق وحدة الفكر العربى ، لن يحقق وحدة اليسار العربى ، وحدة الثورة العربية ،ولن يدعم ويضاعف من فاعليتها مثل هذا التوضيح وهذه التوعية بهذا المنطق العلمى

ولست مغاليا فى قولى هذا . فلعل التراث أن يهدينا

فى توضيح هذه القضية

الحقيقة اننا لو تأملنا الحركة الفكرية الاسلامية العربية فى أوج ازدهارها لادركنا ان جوهر هذه الحركة هو تسليحها بمنطق واضح محدد ، وكان هذا المنطق هو منطق ارسطو ، المنطق الصورى او الشكلى . ولقد كان منطق أرسطو - فيما أعلم - أول ما ترجم من كتبه . وكان أكثر مؤلفاته تأثيرا فى الفكر العربى عامة فى مختلف اتجاهاته وعلومه وبحوثه ومدارسه . ما اكثر ما اختلف المفكرون المسلمون مع أرسطو حول قضايا فلسفية مثل قوله بأن العالم قديم غير محدث ، بل لعلهم لم يعرفوا ارسطو معرفة صافية نقية ، بل عرفوا فلسفته مختلطة ممتزجة بفلسفة أفلاطون . وقصة كتاب « الربوبية » المنسوب الى أرسطو ومحاولات التوفيق بين الحكيمين أرسطو وافلاطون ، مشهورة فى تاريخ الفلسفة الاسلامية

المهم أن الفكر العربى رغم اختلافه مع جوانب متعددة من فلسفة أرسطو ، فانه قد تأثر تأثرا عميقا للغاية بمنطق أرسطو

ولم يقف التأثر بمنطق أرسطو عند حدود الفلسفة أو علم الكلام ، وانما شمل مختلف مجالات الدراسة والبحث كما ذكرنا ، فأثر فى الفقه والتفسير والبلاغة والنحو وغير ذلك من تصانيف العلوم • ألم يدخل الجاحظ بشكل القياس المنطقى فى أساليب البلاغة ؟ ألم يستعن به الخليل بن أحمد فى دراساته اللغوية عامة . ألا تستشعر المنطق الارسطالى اطارا محكما لمفصل ابن يعيش فى النحو ، بل ألا نجد الاختلاف بين مدارس النحو المختلفة من بصرية وكوفية الى غير ذلك يرجع الى خلافات حول المنهج المنطقى • ألا يدور أغلب الجدل الفقهى حول الاسس المنطقية •• ألم يصبح القياس أصلا من

أصول الاحكام مع القرآن والسنة والاجماع ؟

هل معنى هذا أن منطق أرسطو قد خلق الفكر الاسلامى العربى خلقا ؟!

لا بالطبع . لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهللينية ، أو الفارسية أو الهندية قد خلقت الفكر الاسلامى العربى . انه ثمرة أصيلة بغير شك لواقع الخبرة الاسلامية العربية ، لحقائق الحياة الاسلامية العربية . ولكنه تأثر بغير شك كذلك بهذه الروافد الثقافية والحضارية المختلفة وتمثلها تمثلا يتفق واحتياجاته وملابساته . أخذ منها ما يتفق مع طبيعته ، بل طبعه كذلك بطابعه الخاص . والحقيقة أنه لو لم تكن الثقافات الاخرى تعبيرا ملائما لاحتياجات الواقع العربى ، لما ترجمت ولما كان لها هذا التأثير الكبير

وفضلا عن هذا فان الفكر الاسلامى العربى ليس هو مجرد تأثر بهذه الثقافات المختلفة ، أو مجرد توفيق بينها وبين العقيدة ــ كما يقال ــ بل هو فكر أكثر أصالة وابداعا من هذا كما أشرنا فى بحث قديم . وما يهمنا هنا أن نؤكده ان منطق أرسطو لم يخلق الثقافة الاسلامية العربية ، وانما كان دعامتها لكى تتبلور وتتحدد . وما أحوجنا كذلك ان ندرك ماذا نعنيه بقولنا منطق ارسطو . فهذا المنطق رغم نسبته الى مفكر مثل أرسطو ، فانه فى الحقيقة لا ينسب اليه من حيث انه خالقه ومبدعه ، وانما من حيث أنه هو الذى قام بتحديد قواعده وترتيبها وتنسيقها .

اما المنطق فمتحقق فى حياة الناس ، وفى أفكارهم ومسلكهم ، وممارستهم الحية . وأرسطو انما جعل هذه الممارسة قواعد وأقيسة نظرية . وليس هذا عملا هينا .. بل انه سبيل لتسليح الممارسة نفسها بالوعى

النظرى ، وتعميقها وتطويرها نتيجة لهذا • تماما كما فعل الخليل بن احمد فى مجال العروض . ما انتظره الشعراء حتى يضع كتابه كى ينظموا الشعر ، ولكنه استطاع بتأمل اشعارهم ان يضبط قواعدها ويحدد بحورها ويصنفها، الى اخر ذلك

ان منطق أرسطو اذن ، أو المنطق الشكلى كان تعبيرا عن واقع خبرة بشرية عامة وخبرة اسلامية عربية خاصة ، وكان كذلك تعبيرا عن مرحلة حضارية معينة . وكان هـذا المنطق أداة نظرية للمعرفة ، ولهذا كان يسمى بالاورجانون، اى الاداة . أنه جهاز من العمليات العقلية التى تساعدعلى استخلاص المجهول من المعلوم . وهو تنظيم معين للفكر البشرى فى مرحلة من مراحل نمو هذا الفكر . ولكنـه رغم طابعه المحدود ، النابع من شكليتـه ، فانه عنصر أساسى وباق فى الفكر البشرى ، وصدى لمستوى معين من مستويات ادراك الواقع الموضوعى

المهم أن نوضح أن الفكر الاسلامى العربى اسـتطاع بفضل هذا المنطق الشكلى ، بفضل هذا الاورجانون ،هذه الاداة الفكرية أن ينظم خبرته ، وينمى ثقافتـه ، ويقيم بناء فكريا شامخا ، أصيلا ، يعبر عن ملابساته الحضارية ، وخصائصه المتميزة

حقا ، هناك من ثاروا على هذا الاورجانون الشكلى ، سواء بطريقة فكرية مناقضة مثل بعض علمـاء الفقه ، أو بخروج عن المنطق العقلى نفسه والتذرع بالحدس مثل المتصوفة ، أو بالمواجهه التجريبية للواقع مثل كثير من العلماء والاطباء

بل لعل عالما عربيا كبيرا مثل ابن الهيثم أن يكون معبرا عن أورجانون علمى جديد هو أورجانون الاستقراء والتجربة الذى صاغه فرانسيس بيكون فيما بعد ، متخطيا بهـذا

أورجانون أرسطو ، ولكن دون أن يدرك هذا ، بل لقد كان يتصور هذا المفكر العربى العظيم أنه يتحرك فى اطار ارسططالى بحت

وليس يعنينا أن ندخل فى تفاصيل هذه الامور الان ، فهذا مبحث اخر . وانما يعنينا أن نؤكد أن حضارتنا الاسلامية العربية كانت تتحرك فى اطار منطق عقلى محدد ، كانت تسير معه فى أغلب الاحيان ، وكانت تقف ضده أحيانا ، وتتجاوزه الى ما هو أرقى منه فى أحيان أخرى . وكان هذا المنطق العقلى المحدد معبرا عن وحدة ابتاعها الفكرى ، كما كان أداتها كذلك لتحقيق نتائجها الحضارية الشامخة فى مختلف مجالات الفلسفة والاخلاق والتشريع والفقه واللغة والنحو الى غير ذلك

وفى مستهل الحضارة العلمية الجديدة تبلور بالضرورة اورجانون علمى جديد على يد بيكون . حقا لقد أحسسنا به فى طب ابن سينا ، ورياضيات الخوارزمى وبصريات ابن الهيثم وكيمياء جابر ، كما أحسسنا به فى تجارب جاليليو وتأملناه فى فلسفةديكارت العقلية بدرجات وزوايا مختلفة ومتفاوتة . الا انه عند بيكون أخذ سمتا من الانتظام والتحديد والدقة

واذا كان المنطق القديم فى جوهره منطقا قياسيا،يقوم على الاستخلاص الشكلى ، فان المنطق الجديد علمى فى جوهره . وهو ثمرة الحضارة العلمية الجديدة كما ذكرنا ، تعبير عنها وأداة فى يدها كذلك . ولكن أورجانون بيكون فى الحقيقة كان قواعد للسلوك فى التجربة العلمية أكثر منه أسسا عامة لمنطق علمى جديد ، دون أن يخلو بالطبع من هذه الاسس . ولهذا فان الاورجانون الجديد بحق ، المعبر عن خلاصة الحضارة العلمية الجديدة ، قد تبلور فيما بعد نضج الخبرة العلمية وتطور الاوضاع

الاجتماعية كذلك . هذا الاورجانون هو المنطق الجدلي، وهو الوجه الاخر للمنطق الشكلي القديم . فاذا كان المنطق القديم يقول بأن الشيء هو هو وان الشيء لا يمكن أن يكون نقيضه ، وانه لا لقاء بين المتناقضات ، بل انفصال وتميز بين الاشياء ، فضلا عن انه يقوم على الاستخلاص الشكلي لنتائجه من مقدمات عامة .. الى اخر هذا .. فان المنطق الجدلي ـ دون ان ندخل هنا فى تفاصيله ـ يقوم على ان التناقض هو نسيج الاشياء ، وأن الشيء يمكن أن يكون هو ونقيضه فى نفس الوقت وأن التغيير هو أساس الوجود وأن الاشياء تتداخل وتتشابك وتتفاعل، وأن نتائجه ليست عملية استخلاص شكلي من مقدمات وانما هى تعبير عن القوانين الاساسية للفكر والواقع على السواء

ان منطق أرسطو مثلا لا يستطيع أن يفسر التغير ، ولا أن يعبر عنه . لايستطيع مثلا ان يفسر العملية الانتقالية من وضع الى وضع . لان الاشياء عنده موجودات قائمة بذاتها ، فهى اما (أ) أو لا (أ) ولا يمكن ان تكون تداخلا أو انتقالا بين (أ) ولا (أ) فى وقت واحد . ولهذا كان الامام ابو حامد الغزالي ـ على سبيل المثال ـ متسقا تمام الاتساق مع هذا المنطق ، عندما كان يقول ان التغير أمر لا يمكن ادراكه . اذ كيف يتحول الشيء الى غيره . ولعل رفضه للعلية المادية بين الاشياء أن يكون صدى لهذا المنطق الشكلي كذلك

وليس معنى هذا ان المنطق العلمي الجديد ، الذى يتخطى المنطق القديم ويتجاوزه ، يعبر كذلك عن الغاء كامل لذلك المنطق وتخطئة له ، لا ، انه يعبر فحسب عن نظرة اشمل ، أفسح للوجود والكون وحركة المجتمع، عن صدى أكثر دقة للممارسة العملية والواقعية والعلمية للحياة البشرية

وهو سواء بسواء كالمنطق الشكلى ليس من خلق أحد. ليس من خلق هيجل أو ابداع ماركس أو انجلز • وانما هو تعبير عن الواقع الاجتماعى والعلمى الجديد . بل لعلنا نجد فى التجربة البشرية منذ أقدم العصور تعابير تنبع من هذا الحس الواقعى الحى ، وان لم تبلغ مرتبة النضج ، نتيجة لتخلف الظروف الاجتماعية والوعى العلمى آنذاك. ولم تكن بلورة هذا المنطق على يد هيجل الا صدى للظروف الاجتماعية الجديدة وسيادة الوعى الجديد كذلك ، ثم كانت تطبيقاته وتطويراته المختلفة بعد ذلك . لقد استطاع ان يزداد واقعية وحيوية على يد ماركس ، ولكنه تحول الى جثة محنطة على يد ستالين ، ثم تحول الى منهج فضفاض مائع عند كروتشه أو جونزيت وأصحاب نظرية الظواهر وعند كثير من الوجوديين

والحقيقة أن هذا المنطق على خلاف المنطق الشكلى، لم تتم حتى اليوم معالمه الاساسية تحديدا حاسما . لاتزال قواعده الاساسية موضع مناقشة . ولا تزال تتنازعه المدارس المختلفة المتناقضة مثل المثالية والمادية • وما زال يفتقر الى الدراسة الجادة العميقة الشاملة التى تعبر به بحق عن حقائق العصر فى مجالاته المختلفة العلمية والفكرية والاجتماعية

واذا أعتبرنا المنطق الشكلى منطق تماثل وثبات وسكون ، منطقا استاتيكيا كما يقال ، فان هذا المنطق هو منطق التغير والتناقض والتجدد ، هو منطق ديناميكى كما يقال كذلك • ليست له أشكال ثابتة وقواعد جامدة مثل المنطق الشكلى ، انما هو تعبير عن الحركة الدائبة والتغير المتصل . ولكنه أحوج ما يكون الى تحديد مبادئه وقواعده العامة . وهذه كذلك فى حاجة بدورها أن تكون على اتصال دائم بواقع التجربة البشرية المتجددة ابدا،

وان تحرص على بلورتها واستخلاص قوانينها الاساسية المتجددة أبدا كذلك

وفى تقديرى أن النتائج العلمية الاخيرة فى مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية لم تبلور بعد بلورة كافيـة بحيث تغذى المنطق الجدلى وتنميه وتطوره . وان تكن النتائج العلمية المختلفة للنظريات العلمية الحديثة تعد فى الحقيقة توكيدا له .. ان النظرية النسبية بمزاوجتها بين الزمان والمكان ، ونظرية الكم والميكانيكا الموجية ، والطبيعـة المزدوجة للضوء ، وقانون عدم التحديد فى البناء الداخلى للذرة ، والصراع الدائر فى المجتمعات البشرية اليوم على النطاق المحلى ، والعالمى ، هذه وغـيرها من مختلف الظواهر والحقائق ، تؤكد سلامة هذا المنطق وموضوعيته . وهى ظواهر وحقائق لا يستطيع المنطق القديم أن يفسرها . ورغم هذا فهذا المنطق العلمى الجديد فى حاجة الى مـزيد من البلورة والتحديد والدراسة الخلاقة ، التى لم تتوفـر له بعد

وما أريد ان اتجه بمقالى الى بحث أكاديمى ــ وانمـا حسبى أن اوضح حاجتنا الى هذا الاورجانون الجديد ؛ هذا المنطق الموضوعى الحى ، كأداة للحـوار والبحث والتثقيف والنضال الثورى

وكما استندت حضارتنا القديمة الى المنطق الشكلى ، ما أحوج حضارتنا الجديدة الى منطق موضوعى

وما أشرت الى الحضارة القديمة الا لاثبت أهميـة المنطق كأداة فكرية لارساء القواعد الفكرية الاساسية ، وتوحيد حركة التفكير من الناحية المنهجية والعمليـة . واليوم نحن نحتاج الى وضوح هـذه الاداة الفكرية . نحتاج الى منهج للرؤية والعمل العلمى فى مجال المعرفة والمجتمع على السواء

وقد يقول قائل : أليست هذه دعوة صريحة الى تبني المادية الجدلية .. والمادية معادية لديننا ، متناقضة مع تراثنا الروحي ، فكيف نقبل هذه الدعوة ؟!

وهذه قضية أحب أن أناقشها بوضوح وصراحة ، أحب أن أناقش العلاقة بين المادية والدين والقيم الروحية عامة . الا أن المادية فلسفة نظرية تقول نتائج فكرية معينة، نناقشها ، فنتفق معها أو نختلف معها ، أو نتفق في أشياء ونختلف في اشياء ، أو نصل من مناقشتنا لها الى الاضافة والتطوير . وهذا موضوع اخر ، أرجو أن يكون مجال حوار خصب بالفعل في مقال آخر . ولكن القضية التي أعرض لها قضية منهج علمي . ليس هو المنهج الشكلي الذي يقول به المنطق الشكلي القديم ، انما هو منطق جدلي حي ، منطق علمي موضوعي ، هو خلاصة الخبرة البشرية الجديدة في مجال المعرفة العلمية والنضال الاجتماعي معا . وهو منطق حي ، نتنفسه ، ونحياه ونفكر بمقتضاه ما دمنا نعيش هذا العصر ، ونتحرك فيه ومعه ، ونحرص أن نكون فعالين في بنائه وصياغته وتطويره

والقضية هي أن نخرج هذا المنطق من مجال الكمون والظل والتلقائية الى مجال الوضوح والوعي والارادة . فبهذا ــ كما ذكرت في البداية ــ نتيح أرضا أكثر تحديدا ، لامكانية الحوار المثمر بين المثقفين الثوريين ، في لقاء عميق جاد مع جماهير الشعب العربي كذلك

أليس غريبا ان يدرس المنطق الشكلي القديم وقواعد منطق بيكون في مدارسنا الثانوية ومعاهدنا وجامعاتنا ؟ ولا يدرس على الاطلاق هذا المنطق الديناميكي الموضوعي ، ولا يصدر فيه كتاب واحد حتى اليوم

وليست هذه بالطبع دعوة الى الغاء المنطق الشكلي ، انه تراث انساني عزيز بل هو كذلك يعبر عن حقيقة

جزئية من حقائق الفكر والواقع الى جانب الحقيقة الاكثر شمولا التى يعبر عنها المنطق الموضوعى ، تماما كما تعبر الرياضة الاقليدية عن حقيقة محدودة بالنسبة لحقائق الرياضة غير الاقليدية ، وكما يعبر علم الحساب عن حقيقة محدودة بالنسبة الى الحقائق التى تعبر عنها قواعد حساب الاحتمالات مثلا ، وهكذا

ما أحوجنا الى جانب المنطق الشكلى أن ندرس المنطق الموضوعى فى مختلف مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ، وفى مختلف أوجه الثقافة والعلم بغير استثناء . انه اداة الفكر العلمى الجديد أداة للوضوح والتوعية • وهو سلاح الجماهير النظرى ، فى مواجهة المشكلات الواقعية جميعا

ان ميثاقنا كما ذكرت من قبل لا يتحرك فكريا فى اطار منطق شكلى جامد ، وانما يتخطاه الى منطق الحركة والعلم والتغير وأن أروع ما يتميز به الميثاق هو هذا المنطق الديناميكى الذى يمد تحليلاته ونتائجه بالموضوعية والواقعية والثورية

وما أكثر ما كنت أتأمل الرئيس عبدالناصر وهو يخطب فى مؤتمر عدم الانحياز الاخير ،مؤكدا ان السبيل الموضوعى لاقرار السلام ليس هو التوازن الذرى،بل هو القضاء على الفقر والتخلف الاجتماعى وتوفير الرخاء البشرى •• ووراء هذه الكلمات الكبيرة كنت احس بالنظرة العلمية الموضوعية المتحركة ، الفعالة ، التى تجعل من الحقيقة نضالا ، ومن المعنى الذهنى عملا ثوريا ، وتقيم الروابط المتفاعلة بين عناصر اجتماعية وسياسية قد تكون بعيدة مستقلة عن بعضها البعض فى ظاهر التحليل الشكلى

وفى حديث الرئيس عبد الناصر الاخير فى مجلس الامة راح يواجه المشكلات الملحة العاجلة ،فى التموين والتمويل والتنمية الى غير ذلك ، وكنت أحس انه لا يقدم حلولا

جاهزة ونهائية لهذه المشكلات جميعـــــا وهو يخاطب الجماهير ، بقدر ما كان يعلم أساسا منهجا علميا فى مواجهة هذه المشكلات ومعالجتها . وعندما وقف منذ أيام فى عيد العلم ، لمس أعمق أعماق قضية العلم بكلمات سريعة مركزة وقد كشف بوضوح أن العلم ليس مجرد معرفة بقـــوانين الواقع المادى والاجتماعى أو التاريخ وانمـــا هو كذلك سيطرة على هذه القوانين وتوجيه لها توجيها جماعيا لمصلحة المجتمع . ولهذا جعل عبد الناصر العلم مرادفا للعمـــل الاجتماعى ، مرادفا للتقدم البشرى ، مرادفا للثـــورة ، مرادفا للحرية . وعندما تكلم عن الالتزام الاجتماعى للعلم . أبرز أن هذا الالتزام ليس انتقاصا من قيمة العلم ولا حدا من علميته وانما على العكس تماما هو توطيد للعلم وتوكيد لقيمته وضمان لتطوره وازدهاره

وهذه جميعا ليست حقائق علمية فحسب ، وانما هى اساسا رؤية علمية موضوعية ،منهج علمى ثوري فى تناول الامور ، فى فهمها ، فى التعامل معها . وهذه هى القضية

ان هذا المنهج العلمى الثورى ، هذه الرؤية الحيـــة الايجابية ،هى التى نريد أن نشيعها وان نعممها . فجوهر العلم ليس ما ينتهى اليه من نتائج فحسب ، ان ما يتدرع به كذلك من أدوات ومناهج ومفاهيم نظرية عامة

وما أكثر ما نجد من علماء أبعد ما يكونون عن العـــلم من حيث المنهج والرؤية الشاملة . قد نجـــد الطبيب الذى يعالج الانسان باعتباره جثة مادية ، لا باعتبـــاره جسدا عضويا حيا متعدد الروابط النفسية والاجتماعية . هكذا يفعل كثير من علماء الاقتصـــاد واللغة والنفس والاجتماع والتاريخ . انهم يدرسون الظواهر المعزولة فى غير ترابط ، فى غير حركة، فى غير نظرية ديناميكية شاملة . وقد نجد بعض العلماء على درجة عالية من التفهم العلمى

والرؤية الموضوعية فى معمله ، ولكنه خارج هذا العمل ـ ـ فى الحياة النفسية أو الاجتماعية أو السياسية ؛ او الفكرية ، ابعد ما يكون عن المنهج العلمى والرؤية الموضوعية

ونحن نريد أن نشيع روح العلم ، روح المنطق الحى ؛ روح النظرة الموضوعية . فما أكثر ما تستفيد الرجعية من تخلف النظرة العلمية لتنفث سمومها . انها تقبل الشعارات العلمية ، ولكنها تخربها دائما باشاعة منهج غير علمى فى تفهمها وفى تطبيقها . ولنتأمل على سبيل المثال بعض القضايا الجزئية والعامة ، مثل قضية الجمعيات التعاونية الاستهلاكية ومشكلة الكم والكيف والتخطيط والمعادلة الصعبة والتضامن العربى والسلام العالمى

ان المنطق الشكلى يقول لك ان الشىء أما أبيض واما أسود ولا سبيل للجمع بين النقيضين أو التعبير عن حالة انتقالية بينهما . حسنا . كيف نصدر حكما على الجمعيات التعاونية الاستهلاكية ؟انها أما أبيض واما أسود ، اما خير وأما شر اما ايسودها الفساد أو تسودها الامانة اما مفيدة واما مضرة . هكذا يقول المنطق الشكلى ـ وهذا ما تستفيد به الفلسفة الرجعية المعادية للتقدم الثورى . اذ لما كان هناك فساد فى الجمعيات التعاونية ، ولما كان هناك نواقص وسلبيات ، اذن فنظام الجمعيات التعاونية نظام فاسد ناقص ، سلبى . وهكذا تحسم القضية على هذا النحو الشكلى الخالص لمصلحة التخلف والرجعية . ولكن النظرة العلمية الموضوعية ، تتبين ان الجمعية التعاونية الاستهلاكية يمكن أن تتضمن فسادا دون أن يمنع هذا من أن تكون نظاما صالحا بل ثوريا . وتدرك النظرة العلمية الموضوعية ، طبيعة الاوضاع الانتقالية التى نعيش فيها ،

ونتبين الصراع بين القديم والجديد ، بين الجامد والمتغير ، بين الرجعى والثورى فى حياتنا عامة ، وبهذا تسلح الجماهير برؤية سليمة للقضاء على ما هو فاسد وتنمية ما هو صالح ، القضاء على ما هو متخلف وتدعيم ما هو متقدم وهكذا

المعادلة الصعبة مثلا هل هى مجرد توازن سلبى ساكن بين طرفين هما الانتاج والخدمات . لا . اننا بهذا الفهم الشكلى نعادى التطور ولا نفهمه . ان جوهر المعادلة الصعبة جوهر ديناميكى متحرك ، ان زيادة الانتاج شرط أساسى لزيادة الخدمات باطراد ، ولو توازنت الخدمات نفسها ، مع الانتاج تماما لما تحقق تطور ، بل لما توفرت الخدمات نفسها ولهذا تضيف المعادلة شعبة ثالثة وهى شعبة الادخار ، والادخار بغير شك هو اقتطاع من الاستهلاك لمصلحة الانتاج . والتخطيط مثلا ليس تراكما لمشروعات ، وانما هو تشابك عضوى وظيفى بينها جميعا ، يحركه هدف وايقاع مشترك . هل يمكن فهم التضامن العربى والسلام العالمى بغير نظرة علمية شاملة نتبين بها العلاقات المتفاعلة المتشابكة بين الاشياء ، فندرك مثلا ان الدفاع عن صنعاء هو دفاع عن القاهرة ، وان حماية الثورة الجزائرية هو تدعيم للثورة العربية كلها ، والعكس صحيح وضرورى — وان السلام لا يتحقق ويتدعم إلا بالاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى لشعوب العالم جميعا ؟ ..

وهكذا .. وهكذا ، عشرات القضايا بل هى قضايا العصر جميعا ، لا يمكن فهمها ، والتحمس لها ، وتوجيهها وحل مشكلاتها بغير هذه النظرة الثورية ، هذا المنطق الموضوعى الديناميكى

نحن لا نريد لجماهير الشعب عامة ، ولجماهير المثقفين

خاصة أن يتناقلوا الميثاق نصوصا ما أسهل ما تخرب في التطبيق العملى ، مالم تدرك اسسها العلمية الصحيحة، نحن لا نريد أن ترتفع الشعارات العلمية ، والقيم الثورية . ثم لا يلبث سوس التواكل والنظرات الجزئية والفردية والاصلاحية والعادات المتحجرة ، والاطارات الشكلية : تنخر فيها وتحرمها من الفاعلية والحيوية وسلامة التطبيق

نحن نبنى . هذه هي قضيتنا الاساسية . والبناء يحتاج الى وضوح فكرى ، وضوح صادر عن وعى ، عن حماسة ، عن ادراك شامل ، عن رؤية سليمة لا عن حفظ لنصوص ، أو ترديد لمقتبسات . حقا ، ان التقدم الصناعى وممارسة الانتاج الجماعى ، ومواجهة مشكلات الواقع ، والحياة والحوار العميق داخل التنظيم السياسى الثورى ، سوف تنمى بغير شك هذا الوضوح وتغذى الضمائر والعقول بهذا المنطق الموضوعى ، بروح الفهم والتخطيط والرؤية الثورية الحية

ولكن ما أحوجنا جميعا الى التوعية الادارية المخططة ، الى التغذية الفكرية المدروسة ، بهذا المنطق الجديد

هذا هو السبيل في تقديرى لتوحيد الفكر اليسارى العربى ، وتحقيق اسس للوضوح الفكرى وتسليح الجماهير الشعبية بسلاح حاسم فعال في مواجهة معارك التصنيع والتنمية الاقتصادية والبناء الاشتراكي ، وهو السبيل كذلك لتنظيم خبراتنا وتجاربنا فى فلسفة شاملة تنمو وتتكامل وتتجدد مع تكامل وتجدد حياتنا الثورية

دفاع عن التاريخ *

منذ اسابيع فاز الدكتور محمد كامل حسين بنصف جائزة الدولة فى الادب عن روايته « قرية ظالمة » . والدكتور محمد كامل حسين فى الحقيقة مفكر أكثر منه أديب ، يغلب الطابع الفكرى الخلاق على كل ما يكتب ، لاتشذ عن هذا روايته فله منهج محدد فى التفكير يستلهمه من ثقافته العلمية ، وله مذهب واضح القسمات يستوعب جانبا كبيرا من اشكال التعبير والنشاط الانسانى ويعد كتابه الاخير « التحليل البيولوجى للتاريخ » تعبيرا متكاملا عنه

والواقع أن الابداع الثقافى فى بلادنا العربية يكاد يقتصر اساسا على الادب الخالص دون سائر الجوانب الثافية الاخرى ..

وفى ثقافتنا العربية تيارات فكرية بعضها يبرز خلال المذاهب النقدية للادب ، وبعضها الاخر يبرز فى الدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، الا أنها جميعا لم تتكامل فى مذاهب واضحة القسمات ، محددة القيم

وما احوجنا فى هذه المرحلة من تطورنا أن نعمل على دراسة الجانب الفكرى من ثقافتنا وأن نسعى الى تحديده وتقييمه

وكتاب الدكتور محمد كامل حسين «التحليل البيولوجى

(*) الرسالة الجديدة : عام ١٩٥٧

للتاريخ » جهد فكرى قيم ومحاولة جادة لوضع تخطيط لفلسفة شاملة للتاريخ الانسانى على أسس بيولوجية ، نتبين بعض ينابيعها الاولى فى مقالاته ومحاضراته التى سبق ان جمعها فى كتابه « متنوعات »

وفى الصفحات الاولى من هذا الكتاب الجديد يفصح لنا المؤلف عن ايمانه بامكانية الدراسة العلمية للتاريخ ،ويتبين السبيل لتحقيق ذلك . فالحقائق التاريخية « لا تصبح علما حتى تكشف عن القوانين التى تنتظم هذه الحقائق بعضها ببعض » وانه « لا غنى للتاريخ عن فهم القوى التى تعمل فى حياة الناس » والدراسة العلمية لا تفرض نظريات جامدة جاهزة ، بل تقوم على « المشاهدة الدقيقة، والمقارنة الصادقة ، والاستنتاج الحق »

ولكن المؤلف عندما يبدأ فى اختيار نقطة البداية لتحقيق هذه الغاية ، تجده ــ للأسف ــ يتجنب تماما هذه الحقائق الاولية للعلم . ففى السطر الاول من كتابه يقرر « أن التاريخ هو أثر الزمن فى كل كائن حى بعينه هو الانسان» ويقرر كذلك أن « هذا التحديد للتاريخ يجعل الزمن محور بحوثه كلها » ثم يؤكد بعد ذلك ان « البحث فى القوانين التى تحدد نظام الاحداث التاريخية يدعو حتما الى البحث فى الزمن من حيث أثره فى الكائنات الحيةعامة والانسان خاصة ويدعو الى البحث فى الانسان من حيث تأثره بالزمن » ثم يؤكد اخيرا « ان مطلق الزمن عامل قوى فى تكييف الاحداث التاريخية وتحديد أسلوبها ونظامها »

ولكن .. كيف يتجنب المؤلف بهذا المنهج الحقائق الادبية للعلم ؟

انه أولا يتجنب ــ الدراسة الموضوعية لحركة الاحداث التاريخية . فالدراسة العلمية للاحداث التاريخية لا تدعو

حتما ـ كما يقول المؤلف ـ الى البحث عن الزمن ، بل تهيب أولا بتحليل الاحداث ودراسة ما بينها من علاقات ، وتحديد قوانين حركتها . فعندما ندرس ظاهرة تاريخية كالاقطاع مثلا تهيب بنا الدراسة العلمية أن نكشف أولا عن عناصر هذه الظاهرة من قوى انتاجية وعلاقات انتاجية ونظم سياسية ومؤسسات فكرية ، وملابسات تاريخية عامة ، ثم أن نكشف ثانية عما بين هذه العناصر جميعا من تفاعل وتداخل وصراع . وليس هناك منهج علمى يحتم ـ كما يرى المؤلف ـ ان ننحرف عن هذا النهج لندرس أثر الزمن فى الاقطاع مثلا . ان هذا الحتم الذى يراه المؤلف حتم ذهنى غير موضوعى ولا يمت بسبب الى منهج الدراسة العلمية

فلاذا انتقلنا الى مفهوم الزمن ، وجدناه مفهوما خاليا تماما من الدقة العلمية . والزمن بغير شك حقيقة موضوعية ، ليست من صنع عقولنا كما يزعم المفكرون المثاليون ، ولكنها فى الوقت نفسه ليست حقيقة منفصلة عن حركة الاشياء والاحداث . بل الزمن شكل موضوعى لهذه الحركة . وعندما نفصل الزمن عن حركة الاشياء ، فاننا نفقده مضمونه ودلالته ونجعل منه قوة سحرية غامضة

والمؤلف يقوم بالفعل بهذا الفصل بين الزمن وحركة الاشياء ، ويجعل منه حقيقة مطلقة قائمة بذاتها . فيتحدث عن « مطلق الزمن » ويجعله عاملا يكيف الاحداث التاريخية ويحدد اسلوبها ونظامها . وبهذا يخرج المؤلف عن النهج العلمى الى النهج المثالى الميتافيزيقى . فلا شك اننا عندما نواجه ظاهرة تاريخية كظاهرة الرق مثلا ونسعى لدراستها علميا فاننا نبحث عن العوامل الاجتماعية التى اوجدت هذه الظاهرة ، والتى جعلت لهذه الظاهرة

اشكالها وقوانينها المختلفة ، ثم نبحث كذلك عن العوامل التى جعلت الظاهرة تتلاشى تاريخيا ولو تجنبنا هـــذا المنهج وتساءلنا عن اثر مطلق الزمن فى ظاهرة الرق لمـا استطعنا أن نكشف شيئا من قوانين هذه الظاهرة ، ولا ان نحدد مضمونها الاجتماعي ولا أن نصـــل الى نتيجة علمية دقيقة ، بل لانتهينا الى موقف يفسر قيام ظاهرة الرق وتلاشيها تفسيرا تلقائيا خالصا

وفضلا عن هذا فان مطلق الزمن عامل متجـــانس ، فكيف يمكن ان نفسر به ظواهر تاريخية غير متجانســـة متناقضة . كيف نفسر بمطلق الزمن ظاهرة الرق ، كمـا نفسر به ظاهرة التحرير ، كيف نفسر به النظام الراسمالى كما نفسر به النظام الاشتراكى

ان المؤلف فى الحقيقة قد فصل الزمن عن مضـــمونه الموضوعى وهو حركة الاشياء ، وبهذا الفصل الـــذهنى الخالص جعله قوة سحرية غامضة المدلول ، لا تستطيع ان تكشف لنا عن القوانين الداخلية لحركة الاشياء بـل تعمل على طمسها واخفاء معالمها

يرى المؤلف أن الزمن التاريخى — تمييزا له عن الزمن الكونى الرياضى والزمن الطبيعى — يعمل عمله فى الانسان على اوجه ثلاث :

١ — الحياة الداخلية ممثلة فى طباعه وغرائزه

٢ — الحياة الخارجية ممثلة فى مظاهر النشـــــاط الاجتماعى الانســانى

٣ — الحياة العقلية ممثلة فى التفكير والعلوم

أولا — الحياة الداخلية : ويقرر المؤلف انه لا اثر للزمن فى هذه الحياة الداخلية . فطبائع الانسان وغرائزه قـد ظلت على ما هى عليه منذ أقدم العصور التاريخية . ولا يرجى لها اى تغيير الى بضع آلاف اخرى من السنين . ثم

يمتد بهذا المفهوم الى الجماعات والمدنيات • فلها كذلك طبائع وغرائز • وهى كذلك ثابتة ثبوت الغرائز والطبائع فى الافراد

وفضلا عما فى مفهومى الطبائع والغرائز الثابتة من تخلف عن نتائج العلوم الحديثة وخاصة البيولوجى التى يسعى المؤلف للاستفادة من نتائجها ، فان الامثلة التى يسوقها عن هذه الغرائز لا تعد - فى العلوم القديمة - من الغرائز فى شىء • فمن أمثلته على الغرائز الفردية ، الخير والشر والكفر والايمان ، ومن أمثلته على الغرائز الاجتماعية العدالة والحرية والشرف ومن أمثلته على غرائز المدنيات ، الخلقية كغريزة للمدنية الصينية والميتافيزقية للمدنية الهندية والدينية لمدنية الشرق الاوسط والطبيعة التجريبية للمدنية الغربية الى غير ذلك

فالواقع أن الخير والشر والعدالة والحرية والشرف والكفر والايمان كلها قيم اجتماعية تختلف بحسب الملابسات الاجتماعية المختلفة فهى فى المدينة غيرها فى الريف وهى فى المجتمع الرأسمالى غيرها فى المجتمع الاشتراكى وهى عند القبائل المتوحشة غيرها عند المجتمع الانسانى المتحضر وهكذا

ولهذه القيم تاريخها المتطور ودلالتها التى تختلف باختلاف الاوضاع الاجتماعية والتاريخية المختلفة

ولهذا فليس لها صفة الثبات والجمود التى يصفها بها المؤلف • وكذلك الشأن فيما يسميه بغرائز المدنيات • فالطبيعة التجريبية مثلا ليست غريزة المدنية الغربية وانما هى ظاهرة فكرية تقوم على أسس اجتماعية وتاريخية انها ثمرة للثورة الصناعية وللنظم الرأسمالية وهى لا تقف عند حدود الغرب وانما تصاحب هذا النظام

الاجتماعى سواء تحقق فى الهند او فى الشرق الاوسط ، وهى تتطور وتنمو كذلك فى ظل النظم الاشتراكية سواء تحققت هذه النظم فى الشرق أو الغرب

وعلى هذا فلا ثبات ولا جمود فيما يسميه المؤلف بغرائز الافراد والجماعات والمدنيات ، انها حركة دائمة وتدفق متصل وتنوع خصب ، ولا حوائط مقفلة بين ما يسميه المؤلف بالحياة الداخلية والحياة الخارجية ، فالقيم الاجتماعية لها انعكاساتها فى داخل النفس والاحاسيس الداخلية للنفس تتكيف بالملابسات الاجتماعية الخارجية وتتغير بها ..

لا ثبات ولا جمود فى ظاهرة انسانية ، ولا فواصل مطلقة بين الاشياء ، بل نمو دائم وتغير متصل وتداخل شامل

ومهمة العلم ان يدرك القوانين الداخلية لهذا النمو وهذا التغير وهذا التداخل

ولكن المؤلف بفصله الزمن عن حركة الظواهر النفسية عجز عن أن يتبين حركتها المتناسجة ، مع حركة الظواهر الاجتماعية ، واصبح مطلق الزمن عامل اخفاء وطمس لقوانين هذه الظواهر لا عامل تحديد وتنظيم وكشف

ويبلغ هذا المنهج غايته من التعسف ومجانبة الموضوعية عندما يبدأ المؤلف تطبيقه على الفنون فالفنون عنده هى التعبير الخارجى الذى يعبر به الانسان عن غرائزه وطبائعه ..

ولهذا فالفنون ــ موضوع واحد ، لا أثر للزمن فيه . لان الغرائز والطبائع لا تتأثر بالزمن . ولما كانت الفنون تعبيرا عن حياة الانسان الداخلية فتاريخها كذلك قليل التغير ولا يتقدم تقدما مطردا على الزمن . ولهذا فان

« تاريخ الفن ـ كما يقول المؤلف ـ يكاد كله يسير على نهج واحد .. »

أما الذى يتغير فى الفن فهو الاسلوب وحـــده ، لان الاسلوب يخضع لتطور الحياة الانسانية « والتغيير الذى تراه فى فنون الافراد كما يقول المؤلف يرجع الى زيادة خبرتهم بوسائل الاداء وتحسن أسلوبهم وليس هذا تغييرا حقيقيا »

ويقصد المؤلف بالاسلوب المدارس الفنية المختلفة ،التى تقتصر التفرقة بينها على وسائل التعبير وأســــاليبه كالكلاسيكية والرومانطيقية والرمزية وغيرها من المدارس الفنية . ففى البداية تبدأ المرحلة الكلاسيكية التى تعبـر عن اكتمال وسائل التعبير عن غرائز الانسان وطبائعه . ثم تتلوها مرحلة الصنعة والتقليد ثم تبرز مرحلة جديدة للثورة على الكلاسيكية هى المرحـــلة الرومانطيقية او الكلاسيكية الجديدة ثم تعقب هذه المرحلة مدارس اخـرى لا ترتفع ابدا الى مستوى الكلاسيكية والرومانطيقية . ويتم هذا التغيير فى صورة زمنية هى الدورية . وعاملها المحرك هو الملل . وهذا ما سنعرض له بالتفصل فى الفقرة التالية ...

وعلينا هنا أن نتريث قليلا عند هذا الفهم الالى لتاريخ الفن . فنلاحظ ان المؤلف يجمد مضمون الفن فيجعله ثابتا لا يتغير نتيجة لنظريته السابقة فى الغرائز والطبائع .

ونلاحظ ثانيا أنه يفصل فصلا آليا بين مضمون الفن واسلوب ادائه ، وبهذا يقصر تاريخ الفنــــون على تاريخ أساليب أدائها

والواقع ان مضمون الفن الكلاسيكى يختلف تماما عن مضمون الفن الرومانطيقى الذى يختلف بدوره عن مضمون

الفن الواقعى ، وكل مدرسة من هذه المدارس الفنية تعبر عن تجارب اجتماعية مختلفة ترتبط بملابسات تاريخية خاصة . فالرومانطيقية ليست خروجا على ملل الاسلوب الكلاسيكى كما يقول المؤلف بل تعبر فى مضمونها عن ثورة اجتماعية كاملة تبرز فيها معالم الفردية الانسانية المتحررة من اسار الاقطاع ، المتطلعة الى مرحلة تاريخية جديدة من حياة الانسان . واسلوب الاداء الرومانطيقى نابع من هذا المضمون الثورى الجديد للفن الرومانطيقى

وعندما نقول بأن الزمن لاأثر له فى مضمون الرومانطيقية نخطيء خطأ كبيرا لان الرومانطيقية استجابة فنية لملابسات اجتماعية ومحصلة لعوامل تاريخية سواء فى مضمونها او فى اسلوب ادائها

وعندما نقول كذلك ان الرومانطيقية نتيجة لاثر الزمن، وثمرة للملل الذى اصاب النفس البشرية من مرحلتى الكلاسيكية والتقليد فاننا نتكلم كلاما خاليا من الدلالة الموضوعية نضل به السبيل عن كشف القوانين الاجتماعية التى عملت على ابراز المدرسة الرومانطيقية كمرحلة تاريخية فى حياة الفنون . فمطلق الزمن لا يمكن ان يكون عاملا فى نشأة المدارس الفنية ، والملل لا يمكن ان يصلح اساسا موضوعيا لتفسير اختلاف هذه المدارس وتنوعها

لقد فرض المؤلف منذ البداية على النفس البشرية صفات ثابتة لا تتغير ولم يقم بدراستها دراسة موضوعية مستأنية تكشف قوانين حركتها ، بل قام بفصل الزمن عن حركة الاشياء وجعله قوة متعالية خارجها ، فطمس قوانين هذه الحركة وافقد النفس البشرية وفنونها تاريخها الحى وجعل من دراسة الفنون دراسة شكلية خالصة تجمد مضمون الفنون وتقصر الحركة على اساليبها

ثانيا ـ الحياة الخارجية :

ويقصد بها المؤلف مظاهر النشاط الاجتماعى الانسانى ويقرر المؤلف أن أثر الزمن فى هذه الحياة الخارجية أثر دورى ، وتاريخها سلسلة متعاقبة من العلو والهبوط على اختلاف فى درجات كل منها • ويرد المؤلف هذه الصفة الزمنية الى البيولوجى • فهذه الدورية كما يقول « ليست غريبة عن القوانين البيولوجية فحياة النبات دورية صريحة وكثير من حياة الحيوان وخاصة الاناث دورية واصل هذه الدورية صفة كائنة فى المادة الحية نفسها

فهذه المادة لها صفتان هما قابليتها للتأثر بالعوامل الخارجية وقابليتها لمقاومة هذه العوامل

والتوازن الذى نراه فى المادة الحية ليس توازنا ثابتا وانما هو توازن قلق ينشأ من تعادل هاتين القوتين » وتتخذ هذه الدورية كما يرى المؤلف « مظاهر مختلفة فهى دورات عامة كالامواج تختلف سرعة وبطأ ، علوا وانخفاضا وهى مركبة بعضها فوق بعض • فهناك دورة عامة تشمل الجزء الاكبر من العهد التاريخى كله • وفى اثنائها دورات اصغر منها وفى اثناء هذه دورات اقل »

على أن المؤلف لا يكتفى بالزمن فى تفسير نشأة هذه الدورية وانما يضيف عاملا اخر هو الملل • وينسبه ايضا الى اصول بيولوجية فكما يقول « المادة الحية تتأثر بالعوامل الخارجية وتستجيب لها الى حد كبير • فاذا استمر عامل منها مدة طويلة اصاب المادة الحية منه التعب او الملل فيصبح هذا العامل اقل اثرا فيها » هكذا يفسر المؤلف كافة الظواهر التاريخية والاجتماعية انها مجرد دورات كبرى أو صغرى يحكمها قانون عام هو الملل

ونلاحظ اولا على هذا التخطيط العام ان المؤلف قد انتهى اليه نتيجة لمنهجه الاصلى وهو فصله للزمن عن حركة الاشياء التاريخية ، مهما أدى به الى تجنب البحث عن القوانين الداخلية لحركة هذه الاشياء . والى فرض عامل خارجى معزول هو مطلق الزمن لتفسير هذه الحركة ، كما ادى به الى قصر حركة التاريخ البشرى على هذا الشكل المحدود الذى يسميه المؤلف بالدورية

والملاحظ ثانيا على هذا التخطيط ان المؤلف يدرك عجز مطلق الزمن وحده فى تحديد مسار حركة التاريخ وتفسيرها ، فلا ينظر فى قوانين هذه الحركة نظرة موضوعية ، وانما يلجأ الى عامل اخر هو الملل لتفسير هذه الحركة ..

وفضلا عما فى هذا المنهج من مجانبة كاملة للروح الموضوعية للعلم ، ففيه خلط واضح بين ظواهر تاريخية هى حركة المجتمع البشرى وعامل نفسى خالص هو الملل ، يجعل منه القوة المحركة للتاريخ ، الموجهة لمساراته

والملاحظ ثالثا ان استفادة المؤلف بالبيولوجى لا تستقيم مع المفاهيم الجديدة لهذا العلم ، ولا نستفيد من حقائقه فى تحديد نظرة علمية سديدة

فلا شك ان الدورية صفة لكثير من الظواهر البيولوجية فهى صفة لكثير من الظواهر الحية فى النبات والحيوان والانسان ولبعض الظواهر الاجتماعية ، ولا شك كذلك أن الدورية ثمرة توازن قلق — على حد تعبير المؤلف « صفحة ١٦ » — بين عوامل داخلية وعوامل خارجية ، على أن المسألة ليست كما يرى المؤلف مجرد تعادل بين هذه العوامل ، وهنا نلمح أثرا لنظرية توفيق الحكيم ، انها هى فعل وتفاعل وامتصاص وبذل وهدم وبناء وتعويض

واكتساب وصراع ونمو .. وهى عمليات متشـــابكة فى الكائن الحى .. ولكن المؤلف يتجنب الاستفادة من هـــذه العمليات الداخلية جميعا ، مكتفيا بظاهرة عامة هى الدورية التى لا تبرز بوضوح قوانين الحركة الداخلية للظواهر الحية بقدر ما تقدم صفة عامة لهذه الظواهر

وعندما يطبق المؤلف هذه الصفة تطبيقا آليا على حياتنا الاجتماعية ، يطمس بهذا الرؤيا الموضوعية للقـــوانين الداخلية لحركة هذه الحياة ، ويؤدى به هذا - بالضرورة - الى نتائج يعوزها الصواب والدقة

ولنضرب على ذلك مثالا :

يقسم المؤلف التاريخ السياسى القومى الى عهود أربعة : العهد الاول هو عهد تفوق الفرد على الجماعة ، والعهـــد الثانى هو عهد تغلب الجماعة على الفرد ، والعهد الثالث هو استعادة الفرد لتفوقه على الجماعة ، والعهد الرابع هو العهد الذى تنتصر فيه الجماعة من جديد على الفرد «صفحة ٥١ - ٥٢ »

ويطلق المؤلف على العهد الاول العصر الذهبى .. ومن الامثلة التى ساقها نتبين أنه عصر الاقطاع ، ولا شك أن هذا العصر لا يقوم فيه الحكم الفردى على الحكم الزمنى المطلق ، وانما نتيجة لسيادة شكل معين من أشكال الانتاج . والدورية لا تقدم لنا تفسيرا موضوعيا لهذا العصر ولا تكشف لنا عن قوانينه الداخلية ، فاذا انتقلنا الى العهد الثانى وجدنا المؤلف يسوق أمثلة عليه من الثورة الفرنسية وثورة روسيا عام ١٩١٧ جنبا الى جنب كتعبير عن عهد واحد، على الرغم من الاختلاف الكيفى بين هاتين الثورتين . فالثورة الفرنسية

ثورة بورجوازية والثورة الروسية ثورة اشتراكية والثورة الفرنسية قضت على الاقطاع واقامت حكم الرأسمالية النامية والثورة الروسية قضت على بقايا الاقطاع وعلى النظـــام الرأسمالى وأقامت حكم الطبقه العاملة • والثورة الفرنسية تعبر عن انفجار بين علاقات الانتاج وقوى الانتاج يختلف فى طبيعته عن الانفجار الذى تحقق فى الثورة الروسية

ولكن المؤلف بزمنه المطلق وبرؤيته الخالية من الدلالة الاجتماعية لا يتبين شيئا من هذا الاختلاف الوظيفى بـــين الثورتين ولا يكشف عن قوانين حركتهما ، وانما يضعهما فى مستوى واحد وفى دورة تاريخية واحدة

وكذلك الشأن فى العهد الثالث الذى يتفوق فيـــه الفرد على الجماعة نجد خلطا بينا بين مراحل مختلفة من تاريخ الانسانية فهذا العهد الثالث يضم على سبيل المثال نابليون وهتلر وستالين وما أعمق الاختلاف بين هؤلاء الثلاثة ، لو نظرنا الى الوظيفة الاجتماعية لكل منهم • فنابليون يمثل الثورة البورجوازية الصاعدة وهتلر يمثل الاحتكار ويعبر عن المرحلة الاخيرة لانهيار النظـــــام الرأسمالى ، وستالين يمثل ثورة اشتراكية ويعبـــر عن سيطرة الطبقة العاملة على وسائل الانتاج وعلى جهـــاز الدولة ومن الخطأ الاكبر أن نضع هؤلاء فى عهد تاريخى واحد • اننا بهذا نطمس القوانين الداخلية للتـــاريخ ، ونكتفى بمظاهر سطحية لها • حقا هناك غلبة للاتجاه الفردي عند كل من نابليون وهتلر وســـتالين • ولكن ما دلالة هذا الاتجاه وما قانونه الاجتماعى الذى نستطيع أن نفسر به الوظيفة التاريخية لكل منهم • لقد كان هتـــلر فرديا ولكن حكمه لم يكن مثل حكم نابليون الذى كان فرديا كذلك • حكم نابليون هو حكم البورجوازية الناشئة ، أما

حكم هتلر فحكم طبقة من الاحتكاريين الساعين للحـــرب والتوسع وكان لستالين أخطاء فردية ، ولكن أخطـــاءه الفردية لم تخرج النظام الاجتمـــــاعى الذى يمثله عن وظيفته التاريخية • وهكذا

وفى العهد الرابع نتبين نفس هذا الخلــط بين نظم اجتماعية مختلفة لا يجمعها عند المؤلف الا مظهر سطحى لا يصلح اساسا لنظرة موضوعية سلبية الى حقيقة هـــذه النظم الاجتماعية

وهكذا يتبين لنا ان مطلق الزمن والدورية لا تصلحان منهجا علميا لكشف القوانين الداخلية لحركة التـــاريخ البشرى • بل بهذا الزمن المطلق وهذه الدورية يفــرض المؤلف على حركة التاريخ اطارا شكليا خاليا من الدلالة يعجز به عن تفسير الظواهر التاريخية ويؤدى الى اخفاء معالم قوانينها الموضوعية

ثالثا : الحياة العقلية :

وتمثل كما يرى المؤلف الفكر والعلوم وتتعلق بكل ما يمكن البرهان عليه عقلا ، وهى كما يؤكد المؤلف من الامور التى لا يعترى المادة الحية منها تعب أو ملل • وهى لهذا أكثر الاشياء تأثرا بالزمن • وأثر الزمن فيها أنه يزيدها نموا على الدوام • وهى ليست خاضعة للملل الذى هو اصل الدورية • والحياة العقلية تنمو فى الفرد كما تنمو فى الجماعات وتنمو كذلك في المدنيات • وهى تعد أهم ظواهر الحياة فى المدنيات • ولكن هذا لا يعنى ان المدنيات ليس لها نهاية • فلكل مدنية نهاية • ولكنها تنقرض ولا تموت ولا تضعف بعد قوة وانما تقف • ويكون وقوفهـــا فى أغلب الاحيان نهائيا • ويرجع هذا الى أن لكل طريقة تفكير حدا لا تستطيع بعده أن تزيد فى علم الناس فنراهم

عند ذلك ينصرفون عنها يبحثون عن طريقة تفكير أخرى تفتح افاقا جديدة . كذلك كانت نهاية المدنية اليونانية . فقد وقفت عندما أصبحت طريقتها فى العلم وهى الطريقة الاستنتاجية عاجزة عن أن تزيد فى علوم الناس ولكنها لم تمت بل توقفت » صفحة ١٣ «

ونلاحظ اولا على هذا الرأى ان المؤلف يعرض للحياة العقلية بمعزل تام عن الحياة الاجتماعية . والحقيقة أن التفكير تعبير عن الحياة الاجتماعية وانعكاس لعملياتها الانتاجية وثمرة للممارسة الاجتماعية

فالتفكير اليونانى هو انعكاس لطبيعة العلاقات الاجتماعية فى اليونان والتفكير فى العصور الوسطى تعبير عن طبيعة العلاقات الاجتماعية فى ذلك الوقت .. وهكذا ..

والنظريات العلمية نفسها تخضع للملابسات الاجتماعية للعصر الذى نشأت فيه . فنظرية نيوتن مثلا تحتضن كافة القيم الفكرية التى كانت سائدة فى عصره ، وتعبر عن الملابسات الاجتماعية الجديدة فى ذلك العصر

ولا ينفى هذا موضوعية هذه النظرية بحدود التطور الاجتماعى وبملابساته . وهذا لا ينفى فى الوقت نفسه الاصالة الفردية فى التفكير ، ولكنه يقيم الاسس الاجتماعية لبروز هذه الاصالة الفردية . بهذا الفهم المتكامل للحياة العقلية نستطيع أن نتبين قوانينها ومساراتها وأن نفسر مذاهبها واتجاهاتها المختلفة

أما القول بمطلق الزمن عاملا موجها دافعا للحياةالعقلية فلا ننتهى منه الى معرفة موضوعية بهذه الحياة ، ونلاحظ ثانيا ان المؤلف يجعل الحياة العقلية اهم ظواهر الحياة فى المدنيات . وبهذا ينتهى الى أن المدنية لا تنقرض ولا تموت

بل تتوقف والحقيقة ان الحياة العقلية مظهر من مظاهر المدنية ، ولكن المدنية تقوم أساسا على شكل الانتاج السائد فيها وعلاقاته . وبتحول هذا الشكل وتغير علاقاته تنتقل المدنية الى شكل جديد وعلاقات جديدة ، وتنقرض المدنية القديمة وتقوم مدنية جديدة فهكذا انقرضت المدنية التى كانت تقوم على النظام العبودى ، وهكذا تسير النظم الاقطاعية والرأسمالية فى طريق الانقراض ولا شك ان المظاهر العقلية والمادية للمدنية تظل باقية كتراث انسانى كمرحلة من مراحل التطور التاريخى للانسان . .

ونلاحظ ثالثا أن المؤلف يجعل الانتقال من مدنية الى مدنية أخرى مشروطا بانصراف الناس عن المدنية الاولى بحثا عن طريقة اخرى للتفكير

وما هكذا يكون التفسير الموضوعى لقوانين التقدم الاجتماعى فالانتقال والتطور من مجتمع الى اخر انما يتحقق بتغيير نظمه الانتاجية اساسا وتغيير مظاهره العقلية نتيجة لذلك فالتغيير العقلى نتيجة للتغير الاجتماعى وليس سببا له ، على أن هذا لا يعنى أن التفكير العقلى مجرد انعكاس للاوضاع الاجتماعية ، فله كما ذكرنا من قبل اصالته الفردية ، وهو كذلك قوة دافعة فى تطور المجتمع نفسه ، لانه بمعرفة قوانين الحركة الاجتماعية والسيطرة عليها يمكن للانسان أن يعجل بتقدمها

ولكن المؤلف فصل الزمن عن حركة الحياة العقلية وجعل منه عاملا مطلقا فى توجيهها ودفعها

وفصل الحياة العقلية عن واقعها الاجتماعى فجعل منها خطا ناميا لا نتبين لنموه قانونا ولا نعرف لمراحله ومذاهبه واتجاهاته المختلفة تفسيرا

وهكذا ينتهى النهج الذى اختاره المؤلف لنفسه فى

تحليل التاريخ الى مذهب يغرق التاريخ فى مفاهيم ذهنية غامضة ، ويفرض عليه نتائج مغلوطة ، ويقتصر على تقديم صورة خارجية جامدة للتاريخ تخفى قوانينه الموضوعية وتفشل فى تفسير احداثه تفسيرا علميا دقيقا

على أن الكتاب يحتـــوى الى جانب ذلك على كثير من الاخطاء فى تفسير بعض الظواهر التاريخية التفصيلية ، كتفسيره لظاهرتى الثورة والحرب وتفرقته بين قوة المال وقوة القتل وتحليله لطبيعة النازية والفاشية ولطبيعـة الرأسمالية والشيوعية والاستعمار الى غير ذلك . مما لا سبيل الى مناقشته لضيق المقام

الا انه لا يسعنى مع اختلافى الكامل مع هذا الـكتاب منهجا ومذهبا الا أن أشيد بما يتميز به مؤلفه الدكتور محمد كامل حسين من اطلاع واسع ونظرة جادة وفـكر عميق وحرص على مواصلة رسالته الفكرية فى تـؤدة وتواضع جديرين بالاعجاب

دفاع عن حضارة الطين*

ما أعنف مخاطرات رجال الفكر .. انهم لا يلبسون الاقنعة ، ولا يتلفعون بالاوشحة ، ولا يمتطون الجياد ، ولا ينطلقون فى الليل الى شعاب الجبل

ولكنهم يفعلون شيئا يشبه هذا احيانا ، وأحيانا يفعلون هذا نفسه

فمخاطرتهم قد تكون مجرد فكرة طريفة .. أو تعبير رائق ، ولكنها فى كثير من الاحيان معارك انسانية شريفة ، قد تقتصر على الصفحات البيضاء ، وقد تمتد فتربط الكلمة المكتوبة بالتراب وحوافر الخيل وعجلات المدافع ، وبهذا يشارك المفكر بدمه فى كتابة تاريخ البشرية ودفع تقدمها

والمفكرون نماذج مختلفة ..

منهم من يكتفى بالمخاطرة فى ذاتها .. دون أن يكون وراءها شيء غير متعة المخاطرة .. متعة التعبير الرائع والفكرة الطريفة .. ثم لا شيء !

ومنهم من تصبح مخاطرته ، عملية تخلى عن الحياة ، وخلاص من متعها وأعبائها ، وتسليم امام محاريب المتصوفين والزهاد ..

ومنهم المحلق فى السماء يتأمل الزرقة الصافية ، ومنهم القابع المتربص وراء « متروليوزه » على أرض أسبانيا ،

(*) الهدف مايو : سنة ١٩٥٧

يشارك فى حربها الاهلية ..

ومنهم .. ومنهم نماذج مختلفة ..

ولكنهم جميعا ـ ارادوا أم لم يريدوا ـ يحملون رسالة اجتماعية يقفون بها مع عصرهم الذى يعيشون فيه .. او يقفون ضده

والمفكر والاديب قد لا يقول : أنا مع العصر .. أو أنا ضد العصر ، ولكن انتاجه ، هو الذى يقول هـذا بدلا منـــه

وكل مفكر وأديب كبير يصوغ عصره فى مثال ، فى شخصية فى علاقة ، فى نموذج انسانى ..

قد يكون هذا النموذج الذى صاغه لعصره .. عاشقا مغامرا مثل دون جوان ، أو فارسا بغير بطولة مثل دون كيشوت ، أو مغامرا بنفسه من اجل المعرفة مثل فاوست أو مترددا مثل هاملت ، أو قد يكون مواطنا عاديا . مثلك ومثلى

ولكل عصر نموذج انسانى يمثله .. ويعبر عن صراعه وفلسفته الغالبة .. والمفكرون يختلفون حول هـــذا النموذج

وفى عصرنا هذا يسعى كثير من المفكرين الى اختيار النموذج الذى يعبر عن فلسفـــة هـذا العصر .. كما يرونها ..

فبعضهم مثلا يقول : ان عصرنا هذا .. عصر الحضارة الاوربية .. هو عصر « فاوست »

وبعضهم يقول : بل .. انه عصر هاملت

وبين فاوست المغامر من اجل المعرفة وهاملت المتردد الخائر يقف جيل كامل من ملايين البشر يتســـاءلون بدورهم : ولكن لمـاذا «فاوست» .. ولمـاذا «هاملت» .. لماذا نختار بين فاوست وهاملت .. ألا توجد نماذج

اخرى لعلها أكثر اشراقا وأشد حيوية واعمـــق تعبيرا عن حياتنا

ولم يكن عبثا اختيار فاوست ، ولا اختيار هاملت ، ولم يكن عبثا أيضا هذا الرفض الـــــذى يلاقيه فاوست وهاملت من ملايين البشر ، وهو رفض يتمثل فى واقـــع حياتهم اليومية ، فى أسلوب ممارستهم لقيمهم العـــادية البسيطة

فالمسألة .. معركة من معارك الفكر الحـــديث .. ومخاطرة من مخاطرات مفـــكريه .. سنحـــاول ان نتلمسها بأنفسنا ..

مع بداية حضارتنا الصناعية تفتحت عيون فاوست ، وكانت مخاطرته الاولى فى انجلترا مع الشاعر مارلو .. ثم عاد فقام بمخاطرة أخرى فى المانيا مع الشاعر جيته . وعلى الرغم من اختلاف النهاية فى المخـــاطرتين .. فان فاوست كان يمثل عندهما نموذجا واحدا

كان يحمل تراثا مكتنزا من المعرفة .. من الوعى المحيط بكل شىء .. ولكنه كان يتطلع الى مزيد من المعرفة .. كان يتطلع الى سر الاسرار ، الى المعـــرفة المطلقة .. الى السحر والغيب . ومن أجل هذه المعرفة كان مستعدا ان يبيع كل شىء .. حتى روحه ، لاى كائن .. حتى الشيطان . ولقد كان

وللمعرفة أبعاد وأعماق . فمواقـــع البلدان معرفة ، والخطيئة معرفة . واللاهوت معرفة ، وقوانين الملاحـــة معرفة . والرقص معرفة

والمعرفة ليست تأملا أجوف .. بل هى تأمل وعمـــل .. بل هى عمل فتأمل .. ففى البدء كان العمل .. كما يقول جيته

واندفع فاوست يعمل ويعرف .. بجسده وحسيته

وعقله . وكانت المعرفة بالنسبة اليه مخاطرة .. مخاطرة فردية .. ولا شيء غير هذا !

وفي أوربا كان الاقطاع ينهار .. ويتحرر عبيد الارض، وتتكون المدن الكبيرة والقوميات الموحدة

وكان فاوست مندفعا في مخاطرته .. ومعه كل ابناء عصره الذين تحرروا من ربقة الاقطاع .. وعلى راسهم التاجر الجديد .. ورجل الصناعة . اندفعوا جميعا من أجل العمل والمعرفة .. في مخاطرة حادة يستخدمون فيها كل الوسائل من أجل تحقيق اهدافهم . في الصين تاجروا في الافيون ، وفي الهند حطموا انوال النسيج ؛ وفي قناة السويس دفنوا الاف العمال المسخرين تحت التراب الرطب .. وفي أواسط افريقيا باعوا الخرز الملون بالحرية ، وفي كل مكان اخذوا ينتشرون ، وينشرون الخراب والامبراطوريات الواسعة ويجمعون الثراء العريض .. وكانت المعرفة مخاطرتهم الكبرى من أجل الكشف والاستغلال والملكية الفردية على حساب كل القيم القديمة

كان فاوست فردا .. ممعنا في فرديته .. وكان تاجرا في عصره .. لا في مسرحيته ، ثم اصبح صاحب مصنع ، فمصانع ، فبنك . ثم انطلق الى العالم كله يقتسمه بين ابنائه واشقائه واحفاده واحفاد احفاده . ووراء الراية الدامية راية السلب والنهب والاغتصاب راح يتاجر بالاخلاق والتوابل والمذاهب واللؤلؤ .. ويرسى دعائم امبراطوريات شاسعة

وكان العصر .. عصر مخاطرة .. مخاطرة في الادب باسم الرومانطيقية .. ومخاطرة في الاقتصاد باسم «دعه يعمل .. دعه يمر » ومخاطرة في الاخلاق باسم النفعية وحساب اللذات .. وكان رجالها بيرون وبودلير وسمث وبنتام وستيوارت ميل وغيرهم ..

وامتلأ فاوست ثراء ، وتضخمت أوداجه بالاسواق والشركات والاتحادات الاحتكارية ٠٠ واقتيسم العالم بينه وبين نفر قليل من المغامرين الاشداء ٠ ثم وقف فاوستفي بداية القرن العشرين يتأمل وجهه فى المرآة ٠٠ وارتعب!٠٠ انه لم يعد محتاجا الى هذا الوجه ٠٠ ان وجهه المغـــامر أصبح خطرا يهدد كيانه ٠٠ ان المعرفة المتزايدة أصبحت سلاحا يهدد امبراطوريته بالانكماش والتقلص ! ذلك ، لان المعـــــــرفة لم تعـــد ملكا له ٠٠ بل أصبحت معرفة عامة للملايين التى استيقظت ٠٠ ولم تعـــــد المعرفة مخاطرة .. منذ أن أصبحت ملكا للناس .. بل أصبحت اداة لتنظيم الحياة ودفعها الى الامام ٠٠ وفى كل مكان أخذ البشر يتجمعون .. سلاحهم المعرفةوالعلم .. ليدافعوا عن حقوقهم ازاء جشع فاوست ، ويسعون الى تقويض امبراطوريته

وهكذا أصبحت المعرفة خطرا يهدد البطل القــديم ولم يعد من الممكن أن يظل بطلا فرديا متعاليا فى عصر استيقظت فيه الملايين المنتجة . ولم يعد من الممكن أن تظل المعرفة مخاطرة فردية فى عصر أصبحت فيــــه هذه المعرفة ملكا للملايين وأداة فى يدها للتقدم

واحتاج اصحاب الامبراطوريات والاحتكارات الى نموذج جديد يقف الى جانب فاوست فى محنته

كان النظام الاقتصادى قد أستهل مرحلة جديدة من الاحتكار .. مرحلة من الازمات الدورية والحـــروب الشاملة ، وكانت أسواق العالم ومستعمراته قد استكمل تقسيمها بين الاحتكارات الكبيرة .. واخذ الصراع يشتد ويعنف بين الفئات الوطنية الديمقراطية من شعوبهـــا من جهة والفئات الرجعية المرتبطة بالاحتكار العالمى من جهة أخرى ٠٠وكانت النظرة العلمية قد سادت واتسعت

آفاقها وشملت المجتمع نفسه فحددت قوانينه واتجاه تطوره . وتسلحت الشعوب بهذه النظرة العلمية الغامرة .. فى صراعها ..

وتواثب المفكرون الذين تنعكس أزمة الاحتكار ـ لا صراع الشعوب ـ فى نفوسهم .. تواثبوا لتقديم حلول .. وانهالت الفلسفات الجديدة التى تسدد كل طعناتها ضد خصم واحد رئيسى هو « العقل » والمعرفة العلمية .. .. ونشأت البرجسونية والوجودية .. كاتجاهات مختلفة لحركة واحدة هى : معاداة النظرة العلمية الموضوعية ، وامتدت الى مختلف ألوان النشاط البشرى كالفن والعلم والادب والسياسة ..

ونشأت فى الادب والفكر نماذج انسانية متعددة ، الا أن نموذجا قديما استطاع أن يحتضنها جميعا وان يعبر عنها وأن يحقق الهدف منها .. ذلك هو هاملت ..

فهاملت المتردد والمتشكك الحائر هو النموذج الذى احتاج اليه النظام الاحتكارى فى أزمته .. ليواجه به انتشار المعرفة العلمية .. انه نموذج مفيد له .. فهو دعوة الى التشكك فى العقل .. وفى قيمة العلم . وهو المؤامرة الفلسفية التى تبذر بذور القلق والضيق وفقدان الثقة بين البشر ، وهو التردد وتعليق الحكم .. وهو التوقف عن القطع برأى فى شىء .. وهو أن تنحصر مشاكل البشر فى هذه المسألة وحدها « أكون ... أم لا اكون » ..

هذا هو هاملت .. ان ينعزل الانسان عن واقعه المتحرك .. أن يصبح متأملا أجوف .. متأملا فى مصيره .. دون ان يصل بتأمله الى قرار قاطع ! ..

وعندما التقى فاوست بهاملت ارتاح بال النظام الاقتصادى المرتجف .. فمن المعرفة باعتبارها مخاطرة

فردية عند فاوست .. ومن المعرفة باعتبارها حكمـــا معلقاً عند هاملت .. يتكون مزيج مخدر .. عبأه هـذا النظام الاقتصادى فى قصص قصيرة ومسرحيات ومقالات وروايات ومذاهب فلسفية ، وراح يملأ بها الاسواق .. وارتفعت الابواق الرسمية تهتف بالناس « كونوا هاملتيين اتقياء .. تذرعوا بالقلق والتردد ، وحذار أن تصلوا الى قرار حاسم ، ليكن كل منكم وحده على قمة مأساته ، وأزمته الفردية .. ففى قلب فرديته يمكن خلاصـــه الوحيد . .أما العلم فبطلان .. بطلان »

وكان من الواضح أن الهاملتية مؤامرة ضد الحضارة العلمية ، ضد أن يصبح العلم قاعدة صلبة تقف عليهـا ملايين البشر .. وتتحرك منها نحو بناء نظام اقتصادى واجتماعى جديد .. فان أخوف ما يخاف منه النظام الاحتكارى أن تمتلىء الملايين من البشر ايمانا بالعلم .. ومعرفة بقوانينه .. ايمانا بأن الحياة يحكمها قوانين ، فللاقتصاد قوانينه ، وللادب قوانينه ، وللمجتمع قوانينه ، وللطبيعة قوانينها .. وأن فى مقدور الانسان أن يعرف هذه القوانين ، وأن يسيطر عليها .. وأن يوجهها لمصلحته .. وأن يحقق لنفسه بهذا .. الحرية !

لهذا أراد فلاسفة النظام الاحتكارى أن يسددوا ضربتهم الى العلم وأن يشككوا فى قيمته ، سواء فى تطبيقه على الطبيعة أو على المجتمع الانسانى ..

ولهذا نرى علم الطبيعة اليوم مسرحا لمعركة فكرية بين أفكار تسعى الى اهدار القيمة الموضوعية للقـــانون العلمى ، او التشكيك فيها ، وافكار أخرى تؤكد هـذه الموضوعية وتفتح آفاقا أرحب للاستفادة منها وتعميمها .. آفاقا أرحب للانسان .. وللتقدم ..

ولقد انتقلت هذه المعركة الى قارئنا العربى ، ولكن

انتقل فحسب الجانب الذى يشكك فى القيمة الموضوعية للعلم ، انتقل خلال الكتابين اللذين ترجمتهما مؤسسة فرانكلين الامريكية عن العالم وهما «مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » و «العالم واينشتين »

ولم يلبث الكتاب الثانى من هذين الكتابين ان أصبح سبيلا لتضليل مفكر مصرى شاب هو محيى الدين محمد فدفعه الى أن يقول فى مقال له ظهر أخيرا فى مجلة الآداب البيروتية « مال معظم علماء الطبيعة الحديثين الى الاعتقاد بأنه لا يمكن معرفة حقيقة أى شىء .. ! »

ثم يقول أيضا استنادا لكتاب مؤسسة فرانكلين نفسه « ان الطبيعة الكمية تهدم أساسين من أسس العلوم المعروفة منذ زمن هى « أساس التعليل وأساس التحديد » ثم يقول : « ان العلم يبتعد رويدا رويدا عن الواقع الانسانى (وسوف) يصبح تطبيقه على واقعنا الارضى مستحيلا»

وهذه الاحكام للاسف لا تعتبر خطأ فى فهم نتائج العلم الحديث فحسب بل تعتبر تضليلا وزيفا

على أن الامر لايقف عند مقال فى مجلة ، بل ماكتبت هذا منذ البداية الا ردا على كتاب تفضل مشكورا باهدائه الى الكاتب السورى الكبير الاستاذ شاكر مصطفى وعنوانه « حضارة الطين » والكتاب محاولة جاهدة لتوكيد فشل الحضارة العلمية والعقل البشرى ..

فحضارتنا فشلت فى كل شىء .. لقد فشل العلم وفشل العقل وفشل المنطق وفشلت العقائد وفشلت القيم .. انها حضارة قلق .. ومعظم النظريات والقوانين التى طالما اشاد العلماء بصحتها المطلقة قد انهارت فى الفترة الاخيرة .. والعلم فشل كذلك . كموقف أخلاقى .. وأزمة الحضارة تنعكس فى كل شىء فالادب ، أدب أسود ، وفن التصوير يميل الى نبذ القواعد ، والعلم

لم يعد غير مجرد احتمال . والحضارة الحديثة أهملت الانسان الفرد وعادت الى الانسان القطيع . ثم يختتم الاستاذ شاكر مصطفى هذا بقوله «فاوست الذى كان يريد ان يعرف كل شىء بأى ثمن اصبح فى ذمةالتاريخ.. مات .. أما الانسان اليوم فهو هاملت ، الذى استوت عنده جميع القيم والحدود فما يدرى أين الطريق .وهنا مأساته الكبرى »

والاستاذ شاكر مصطفى غير منفصل عن المأساة فهو يقول عن نفسه « أما أنا فأعيانى البحث عن نفسى وعن طريقى .. لقد كنت أعرف أشياء كثيرة وكنت أعرف لها دربا قبل ما فكرت فيها . وأحسبنى ازداد بعدا عن نفسى وعن طريقى كلما ازددت ركضا وراءها .. وها أنذا أرتجف خجلا من جهلى . ولعلى سأظل طويلا حيث أنا عند مفترق السبل ، كقول أوديب ، اسأل كل عابر من أنت ؟ لعلى أعرف فى شفة احد العابرين من أنا »

انه هاملتى اصيل ! ..

على أن الاستاذ شاكر مصطفى لا يتشكك فحسب فى العلم .. بل يتشكك كذلك فى التقدم الانسانى .. والشك الاول يفضى الى الثانى بالطبع .. على أنه يفتح فى نهاية كتابه نافذة ضئيلة .. من الامل .. يقول منها « ولئن لم يكن هذا الكائن الانسانى قد تقدم الى اليوم ، فان فى امكانه دون شك ان يتقدم أن ينتصر على حيوانيته ، وأن يبرهن انه انسان » . والاستاذ شاكر مصطفى يعبر فى الحقيقة عن موجة فكرية تعلو وتتعاظم فى شرقنا العربى ما أجدرنا أن ننتبه لها دفاعا عن حق شعوبنا فى النظرة العلمية الصائبة ..

والاستاذ شاكر مصطفى مفكر عربى نابه وكتابه « حضارة الطين » مرحلة فى تاريخه الفكرى ، مرحلة

ما أجدر الاستاذ شاكر مصطفى أن يتجاوزها ويتخطاها الى مرحلة جديدة من الايمان بالعلم

والواقع ان الملايين البسيطة من الشعوب ذوى النوايا الطيبة ، يؤمنون بالعلم ، ويزداد ايمانهم بالعلم يوما بعد يوم ؛ يؤكده لهم تمرسهم بالحياة والانتاج والكفاح .. فهم يتمرسون بالعلم فى الحذاء الذى يلبسونه،وفى الدواء الذى يتعاطاه مرضاهم ، وفى النظام الاجتماعى الذين يكافحون من أجله ، وفى الرابطة المهنية التى تجمع مصالحهم وقلوبهم . وأن هؤلاء المواطنين من آباء طيبين وأمهات طيبات ، من طلبة وعمال وفلاحين ومنتجين ومفكرين .. جميعا يحبون الحياة ، ويتفاءلون بالشمس ، ويغنون فى الظلام ، ويتمتعون بالطعام الجيد والشراب الجيد ، ويستمرئون الحديث ، ويحبون ويكرهون ، ويعملون ويبنون ، ويدركون أن حياتهم متعة وكفاح .. ولا يعنيهم أن تكون حضارتهم حضارة طين .. لان الطين فى تجربتهم ينتج أشهى الفاكهة ، ولهم تراث عزيز يتذكرونه ،وحاضر مضىء مليء بالمجاهدة والانتاج ، ولهم مستقبل يبنون جدرانه حجرا حجرا

وفى سواعدهم وقلوبهم وعقولهم ايمان غامر بالانسان والعلم والتقدم ..

واذا لم يكن الحاضر كله لهم .. فان المستقبل كله .. مستقبلهم ..

في الحرّية

- معنى الحرية
- معنى الحرية فى مجتمعنا الجديد
- الديمقراطية والماركسية

معنى الحرية

عندما نختلف اليوم حول معنى من المعانى . لم نعـد نجرى الى المعاجم والقواميس نستنجد بها لتضع حـدا لخلافاتنا .. وانما ننظر حولنا فى الحياة الاجتماعية المحيطة بنا ، وفى التاريخ الاجتماعى المنحدر الينا من مئـات السنين ..

وعلى ضوء الاوضاع الاجتماعية المختـلفة .. وعلى ضوء التطبيق العلمى والتجربة الانسانية العميقة نختبر خلافاتنا ونصل الى الحقيقة ..

الحرية مثلا : ماذا تعنى بالنسبة اليك . وماذا بالنسبة لمختلف المفكرين فى مختلف العصور . لماذا قسم ارسطو الناس الى طبقتين احرار وعبيد .. الاولى حرة بالطبيعة . والثانية مستعبدة بالطبيعة . ولماذا قـال روسو على العكس من ذلك ان الناس يولدون أحرارا .. ولماذا قامت فى عصرنا فلسفة كاملة للحرية هى الفلسـفة الوجودية تنادى بأن « وجود الانسان » هو حريته وبأن الحرية هى الفعل المطلق المجرد من كل قيد او الزام . ولماذا تنعقد المؤتمرات اليوم فى اوربا لتحـديد معنى الحرية . وتثور الخلافات ويدور الصراع حـول معنى الحرية ومن اجلها .. وفى الاسبوع الماضى شهدت « روز

(*) روز اليوسف : يوليه سنة ١٩٥٦

اليوسف » جانبا من هذا الصراع بين احسان وبهاء ..
احسان يرى ان المبادىء قيد على الحرية . وأنه كلما
اصبحت المبادىء تهدف الى مصالح طبقة اوسع واعرض
من المجموع كلما ازداد القيد المفروض على حرية الفرد .
ولهذا فالفرد فى الدولة الرأسمالية اكثر حرية من الفرد
فى الدولة الاشتراكية .. وبهاء يرى على العكس من هذا
تماما ان تطور المجتمع الى الاشتراكية يوسع من حرية هذا
الفرد ..

وسر هذه الخلافات جميعا .. أنه لا يوجد معنى واحد
للحرية — بل هناك أكثر من معنى وان المعنى الذى
نتكلم عنه يختلف باختلاف فلسفتنا وأوضاعنا الاجتماعية
— فتعريف أرسطو للحرية مثلا .. ينبثق من النظام
الاجتماعى الذى كان يعيش فيه وتعبر عنه فلسفته ..

كان المجتمع اليونانى يقوم على التفرقة بين الطبقة
المنتجة وهى طبقة العبيد وبين طبقة السادة مالكة العبيد
وكان ارسطو — تعبيرا عن هذه الاوضاع الاجتماعية — يرى
انه من العدل والخير لهذا الانسان ان يكون عبدا ، ولهذا
الانسان الاخر ان يكون مالكا للعبيد، لان جسد العبد يسيطر
على نفسه .. أما الحر فنفسه تسيطر على جسده ..
ولهذا فمن الخير والعدل أن يخضع العبد لسيده كما
يخضع الجسد للنفس . ولم يكن الأمر مجرد مذهب
فلسفي ينبع من ذهن ارسطو .. فالمذاهب الفلسفية
انعكاس للاوضاع الاجتماعية . وكان فهم أرسطو للحرية
نابعا من مجتمعه الذى يحتقر العمل اليدوى .. ويجد
فيه استعبادا — وكان فهم روسو للحرية كذلك نابعا من
أوضاع اجتماعية أخذت تسود أوروبا — كان الاقطاع ينهار
والنظام الرأسمالى الجديد ينمو — وكان الاتباع وعبيد
الأرض وأصحاب الحرف والتجار يتخذون سبيلهم للسلطة

الجديدة ـ وكان النظام الرأسمالى الجديد يقوم فى جوهره على التنافس الفردى . وعلى حرية العمل . ولهذا كـان التعبير الفكرى عنه تعبيراً بمجد الحرية والانطلاق ٠٠ نجد فى الادب اتجاها رومانطيقيا ، وفى الاخــــلاق اتجاها نفعيا فرديا . وفى الاقتصاد مبدأ « دعه يفعل دعه يمر » وفى الفلسفة اتجاها حسيا ٠ وكانت الحرية تعبر عن معنى مجرد هو التخلص من القيود ٠٠ والاتجـــاه الى العمل والانتاج . وفى نهاية القرن التـــاسع عشر انتقل النظام الرأسمالى الى مرحلة جديدة من الاحتكار وتركزت الثروة العالمية فى يد حفنة ضئيلة من الرأسماليين وانعكس هذا فى كثير من الاوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية

وانبثق للحرية معنى جديد ٠٠ لم تعد الحــرية هى العمل والانتاج ٠ انما هى الفعل المطلق مجرد « الفعل » ان تفعل اى شىء دون ان تلتزم بقاعدة او قانون ٠٠ وفى الادب عبر اندريه جيد عن هذا بمناداته بالفعل العشوائى ٠٠ أى « خبط عشواء » وكانت هذه المعـــانى جميعا تتفق مع مصلحة الاحتكار الجديد ٠٠ كانت الحرية فى بداية النظام الرأسمالى دعوة الى العمل والانتاج وتخطى العقبات والتخلص من العلاقات الاقطاعية ، وبناء المجتمع الجديد ٠٠ مجتمع التنافس والصراع الفردى ٠ وفى مرحلـــة الاحتكار تحول معنى الحرية الى دعوة للتفسخ والتحلل وفقدان الارتباط والاتجاه ٠٠ وكان هذا المعنى الجـــديد للحرية يخدم النظام الاحتكارى ـ لانه يسعى الى تشتيت القوى الاجتماعية التى تحاول القضاء عليه ـ فلـــو نجح الوجوديون فى أن يجعلوا طائفة كبيرة من الناس تؤمن بهذا المعنى للحرية ، وان يصبحوا جميعا مثل « ماتيو » أحد أبطال سارتر المشهورين ، لتحللت الروابط المهنيـــة والاحزاب والهيئات المناضلة ٠٠ وفقد الناس اتجـــاههم

وأمتلأت نفوسهم « باللامبالاه » وعدم الاكتراث والتفسخ والهزيمة .. ولهذا يعتبر هذا المعنى فى اساسه معاديا للثورة العالمية .. الثورة على الاحتكار والاستعمار ـ وهو معنى سلبى خالص ـ يعني مجرد التخلص من القيودسواء أكانت طبيعية أم اجتماعية ، أخلاقية ام علمية ـ ولقد ساد هذا المعنى السلبى للحرية فى العالم « الحر » حيث يسود فورد ، وروكفلر وماكارثى وغيرهممن رجالاتالاحتكار وعلى ضوء هذا المعنى السلبى للحرية يصبح الحيوان الضارى اكثر حرية من الانسان . ويصبح انسان الغابة اكثر حرية من الانسان المتحضر .. وتصبح الحضارة قيودا والتقاليد وورقة التوت التى اخفى بها آدم عورته حوائط فى وجه الحرية .. ولكن فى مواجهة هذا المعنى السلبى للحرية ارتفع معنى اخر . ارتفع منذ بداية النظام الرأسمالى نفسه . ومنذ أن انقسم المجتمع الجديد الى اصحاب عمل وعمال اجراء ـ نما هذا المعنى مع نمو الطبقة العاملة وتعاظم صراعها ـ وهو معنى جديد للحرية معنى موضوعى ايجابى .. معنى لا يرى الحرية فى ان تتخلص من ورقة التوت او ان تطلق العنان لغرائزك او أن تفعل أى شىء دون قيد أو حد ..

وانما يرى الحرية وظيفة نشأت من المجتمع الانسانى نفسه . بدأت مع ورقة التوت . بدأت مع القوانين والالتزامات والقواعد والقيود ـ يرى أن الحرية بدأت مع الحضارة ونمت وتنمو معها وتزداد عمقا واتساعا كلما ازدادت الحضارة عمقا واتساعا ـ وبهذا المعنى لا تعد ورقة التوت اول قيد على حرية الفرد . بل هى اول تعبير عن حريته . وأن كل قيد يوضع على أنانيتنا وجشعنا وجهلنا وغرائزنا انما هو مظهر جديد لحريتنا .. وأن

الاقفاص الجديدة التى يحيط بها الانسان الحيوانات الضارية هي قيود صنعتها غرائز الحيوانات .. ولم تصنعها يد الانسان ـ وعندما تضع الحيوانات لغرائزها قيودا بأن نستأنسها تبدأ مرحلة حقيقية من حريتها ـ كما تبدأ الغرائز الانسانية حريتها كذلك عندما تلتزم بالتقاليد وتخضع لقيم الجماعة . وان الفرد المنعزل ليس حرا ـ لان الحرية مسئولية اجتماعية . والفرد تزداد حريته بازدياد ارتباطه بمجتمعه وبازدياد تحضره وازدياد وعيه .. لان الانسان قبل ان يعى ـ لم يكن حرا انما بدأت حريته عندما بدأ وعيه . عندما بدأ وعيه بالضرورات الاجتماعية والطبيعية ـ ولكل شيء في الوجود ضرورات وقوانين .. المجتمع ضرورات وقوانين .. والفرد ضرورات وقوانين ـ والطبيعة ضرورات وقوانين ـ والانسان الفرد يزداد حرية كلما أراد معرفة ووعيا بهذه الضرورات والقوانين .. عندما اكتشف النار لاول مرة ازدادت حريته .. وعندما صنع الاسلحة الحديدية للصيد ازدادت حريته .. وعندما اكتشف الزراعة ازدادت حريته ـ وهكذا كلما ازداد حظه من المعرفة ازداد حظه من الحرية .. مثلا ـ اذا القينا حجرا من ارتفاع سقط الى الارض ـ وهذه ضرورة طبيعية ـ ضرورة تفسرها قوانين الهواء والجاذبية ، وعرف الانسان قوانين الهواء والجاذبية واستطاع بهذه المعرفة ان يصنع طائرة لا تسقط الى الارض بل ترتفع الى السحاب .. وهكذا كانت معرفته سبيلا للسيطرة على الضرورة وتطورها وتطويرها لصالحه وهذه هي حريته ـ والحضارة البشرية هى قصة تطور المعرفة الانسانية، وقصة سيطرة الانسان على الضرورات، على الطبيعة وعلى الظلمات . والبحار .. والمسافات الشاسعة والابعاد الشاهقة .. والامراض والوحوش والجبال ..

وهى قصة سيطرة الانسان على الضرورات الاجتماعيه والنفسية . كذلك ، سيطرته على نفسه وسيطرته على غرائزه سيطرته على الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها وقدرته على تغييرها وتطويرها .. فالانتقال من العبودية الى الاقطاع ومن الاقطاع الى الرأسمالية ليس انتقالا بالصدفة وانما ثمرة نضالات تسلحت بالوعى والمعرفة ثمرة مئات الثورات التى قام بها العبيد وقام بها الفلاحون والعمال .. والاف البطولات النادرة للمفكرين الثوريين ـ بفضل هذا كله يتطور المجتمع البشرى ويزداد اتساعا وعمقا . وتزداد الانسانية رخاء وعدالة وحرية ـ واليوم يمارس العالم اجمع مرحلة الثورة الاشتراكيه . والاشتراكية هى فهم علمى للواقع وادراك بأن الطبقة الاحتكارية التى تسيطر اليوم على وسائل الانتاج تعرقل نمو الحضارة .. وتقف فى وجه حرية الانسان وثقافته وتخفض من مستوى معيشته .. وتستعمر الشعوب وتدير الحروب . وتهدر الانتاج البشرى . وتسعى الى الحصول على اقصى ربح لفئة محدودة من الاحتكاريين على حساب رفاهية شعوب العالم وامنها وثقافتها .. ولهذا أصبح الواجب التاريخى الذى تكافح من أجله كل الاحزاب التقدمية فى العالم هو القضاء على طبقة الاحتكاريين ووضع مصير الحضارة فى يد الطبقة المنتجة التى تصنع الحياة الطبقة العاملة ـ ولقد تحقق هذا اليوم فيما يقرب من ثلث شعوب العالم ـ تحققت الاشتراكية وتحققت معها الحرية الحقيقية لهذه الشعوب ـ الحرية الحقيقية التى هى ادراك للضرورات وسيطرة عليها من اجل التقدم البشرى .. ولكن هل ينطبق هذا على الفرد كذلك . أوبنهايمر ، ومكارثى مثلا ـ كلاهما أدرك الضرورة أوبنهايمر عرف اسرار الطاقة الذرية ولكنه رفض ان تكون أداة لتدمير

الحضارة .. وماكارثى وضعت فى يده السلطة التنفيذية فراح يحرق الثقافة ويسجن بناة التقدم ودعاة الديمقراطية - أوبنهايمر رجل حر - حرية موضوعية لانه ادرك الضرورة واراد ان يتخذها من اجل الانسان - وماكارثى عبد - لانه استعبد طاقاته لخدمة فئة محددة من البشر هم رجال الاحتكار الامريكى لخدمة مصالحهم الاستغلالية ولعرقلة نمو الحياة الانسانية

وبذات المقياس - الرجل الذى يلقى بنفسه من أعلى «المجمع» ليس حرا . والمريض - مرضا عقليا ونفسيا ليس حرا تماما .. لان الحرية ليست مجرد الفعل . مجرد ان تفعل او لا تفعل كما يزعم الوجوديون - انما الحرية وعى ونمو وصحة وتقدم . وعندما تتعرى كاملا فى الشتاء القارص فليس معنى ذلك انك حر . لانك معرض للاصابة فى صدرك اصابة تؤدى الى موتك - وعندما تلبس ملابسك كاملة وتنزل بها البحر لست حرا ما لم تكن تتفكه . لان ملابسك ستعوق من حركتك وقد يؤدى ذلك الى غرقك . هذا لان الحرية ادراك ووعى بالضرورة من اجل التقدم الانسانى .. ومن الحرية ان تضع الوحوش فى اقفاص حديد - ومن الحرية ان تقيد الغرائز وتعزل الخونة والمجرمين - وعندما يقال ان هذه قيود على الحرية يكون الجواب - ان المسألة ليست مسألة قيود - ولكنها مسألة وظيفة القيود . فى أمريكا تمتلىء السجون بدعاة الديموقراطية والتقدم - وفى الصين تمتلىء السجون بالمخربين من عملاء أمريكا - سجون أمريكا قيود على الحرية - وسجون الصين قيود تنبع منها الحرية - لماذا - لانه من. واجبنا ان نسأل من الذى يقبع خلف الاسوار - هل هو الوحش المفترس ام بطل من ابطال الكفاح الوطنى - بهذا ندرك المعنى الموضوعى للحرية . وبهذا لا تتعارض

الحرية مع القيود والضرورات بل تنبع منها ـ فمثلا ـ النقابية قيد ـ والتزام وقواعد ومسئوليات ـ فهل انت حر اذا اصبحت عضوا فى نقابتك المهنية ـ أم انت اكثر حرية ان فضلت البقاء خارجا عنها ـ أين تكمن حريتك هنا ـ الحرية بمعناها السلبى بالمعنى الوجودى تقول لك حذار ان تسلم نفسك للقيود والقواعد ـ أما الحرية بالمعنى الموضوعى فترى الحرية فى صميم القيود وفى قلب القواعد ـ ففى ظل النقابية يزداد الفرد تحررا فهو يضمن حقوقه المهنية وهو يرتبط بزمالة جماعية ترفع من روحه المعنوية وتؤازره فى كفاحه اليومى ـ أما الفرد المنعزل فهو اقل حرية على خلاف ما يقال .. لانه اقل قـــدرة على ادراك الضرورة والسيطرة عليها واستخدامها فى صـــالحه كانسان .. أن الفردية ليست توكيدا للحرية . بـــل اهدارا لها ـ فالفوضويون ليسوا احرارا .. والرجل الوحيد فى الصحراء على حد تعبـــير كودويل ـ ليس حرا ـ لان حريتنا ظاهرة اجتماعية تنبثق من القيود والقـــواعد والالتزامات والواجبات التى تحيط بنا ـ تنبثق من معرفتنا بهذه القيود وكفاحنا من اجل السيطرة عليها وتطويرها لصلحتنا الجماعية .. والانسان فى المجتمع العبودى اقل حرية من الانسان فى المجتمع الاقطاعى اقل حـــرية من الانسان فى المجتمع الرأسمالى . والانسان فى المجتمـــع الرأسمالى اقل حرية من الانسان فى المجتمع الاشتراكى ـ لا لانه يتمتع بحقوق اجتماعية اكبر واعمق كحق العمل والثقافة مثلا ـ وانما لانه بممارسته لهذه الحقوق انمـــا يتاح له مزيد من الادراك والسيطرة والتقدم . مزيد من الحرية . مزيد من التألق الانسانى . والانطلاق الخصب لكافة طاقاته الابداعية الكامنة . الا ان ظلالا سوداء تلقى

على هذا الفهم الموضوعى للحرية فيتســاءل البعض اين حرية تأليف الاحزاب مثلا فى ظل الاشتراكية ـ فى الصين الشعبية أحزاب رأسمالية تعبر عن مصالح طبقية وعندما تزول هذه المصالح بتطور المجتمع وتقدمه ستزول الحاجة الى الاحزاب التى تمثلها • ولن يكون انعدام الاحزاب الرأسمالية قيدا يفرضه المبدأ الاشتراكى • وانما هى ظاهرة اجتمــاعية طبيعية لانعدام الطبقة الرأسمالية • وعندما يسعى أحـد لاقامة أحزاب رأسمالية • فهو بالتالى يسعى الى اعـادة النظام الرأسمالى وعرقلة التطور الاجتماعى • وهى محاولة ضد الحرية وان تسمت باسمها ـ والحرية الشـخصية فى المجتمع الاشتراكى أكثر اشراقا وتألقا منها فى المجتمع الرأسمالى ـ ففى المجتمع الاشتراكى تزول كافة العقبات التى تقف أمام الشخصية ـ أمام نموها وتطورها • فالفرد يمارس العمــــل الذى يتفق تماما مع ميوله ـ ويتزوج المرأة التى يحبها ويبلغ من الثقافة الحد الذى تتيحه له كفاءته ويطور كافة الملكات الكامنة فى نفسه ـ وهو بهذا يتفجر حيوية وانسانية ووعيــا • وعلى العكس من ذلك تماما فى المجتمع الرأسمالى الاحتكارى • فالنظام الاحتكارى يسعى الى الحصول على أقصى ربح ممكن •• وبهذا الهدف يتحقق مصير كل شيء • مصير الثقــافة والتعليم والفن والحريات العامة والخاصة ـ فهى جميعا تخضع لتحقيق هذا الهدف وتتفق مع مصالحه وحـدود ميزانيته • وبهذا الهدف كذلك يتحدد مصيرى ومصيرك ـ فاليوم تلبس حلة زرقاء وتعمل فى المصنع • وغدا تخلع الحلة الزرقاء وتلبس حلة صفراء لتحارب ضد الشعوب فى الجزائر أو فى كينيا أو فى قبرص • وبعد غد تعود عاريا مجهدا تبحث بلا جدوى عن عمل فأين حريتك فى هذا كله ـ أين حرية الجندى

الفرنسي فى قتل المواطن الجزائرى . انه يحمل السلاح ويحدد الهدف ويضغط على الزناد ـ ولكن أهذه هى حريته . حريتنا الانسانية جميعا . أم هى عبودية لمصلحة فئة من المحتكرين الذين يريدون أن يحتفظوا بالجزائر مستعمرة لهم ، فيسوقون الملايين من أبناء الشعب الفرنسي والملايين من ميزانيته وثمرة انتاجه لتشن حرب ابادة قذرة ضد شعب الجزائر الذى يدافع من أجل استقلال بلاده ـ ان معنى الحرية يكمن فى فهمنا لتاريخنا الانسانى ـ ان حرية الجندى الفرنسى تنبع من ادراكه لقضية فرنسا ولقضية السلام العالمى ولقضية مستوى معيشة الشعب الفرنسى وحق الشعب الجزائرى فى الاستقلال ولادراكه للازمه الطاحنة للاقتصاد الرأسمالى ، ان حريته تنبع من كيانه كله عندما يدرك هذه الحقائق جميعا وعندما يهتف مع شعوب العالم الواعية المدركة ـ لا ـ لن نحارب الجزائريين . وعندما يقف مع شعوب العالم من أجل تقدم البشريه ومن أجل سلامتها ومن هنا ينبع المعنى الحقيقى لحريته ـ ولهذا كانت ازاحة الاكاذيب عن وجه الحرية ـ كما يقـول جارودى ـ هى احدى واجبات الكفاح من أجل السلام

معنى الحرية في مجتمعنا الجديد

ما تزال الانسانية تختلف حول معاني كلمات بسيطة للغاية . ولا يقف الخلاف عند حدود الصدام اللغوي ، وانما ينتقل الى صدام المدارس الفكرية والنظم الاجتماعية بل والصدام المسلح كذلك . ذلك ان الخلاف في الحقيقة ليس خلافا لغويا تحسمه المعاجم ، وانما هو خلاف في فلسفة الحياة نفسها ، خلاف في تفسير التاريخ

والحرية كلمة بسيطة للغاية ، حبيبة للغاية ، يتنفسها الانسان كل يوم ، وفي كل بقعة من بقاع الارض وفي أي وضع من أوضاع الحياة . وما أشد الخلاف وأحد الصدام حولها . فعلى جانبي المتاريس الفكرية والاجتماعية والعسكرية ، يرتفع شعارها . ولكن .. مع أي جانب من الجانبين تقف الحرية بحق ؟! وما هي حقيقة الحرية ؟ هل الحرية هي المنافسة الحرة في النظام الرأسمالي ، أم الحرية هي التوجيه الاقتصادي في النظام الاشتراكي ؟ هل الحرية اختيار مطلق من أي قيد ، وانفصال كامل عن قيم الجماعة .. كما يقول بعض الوجوديين ، أم هي اتصال ومسئولية اجتماعية ؟ هل كان حي بن يقظان وربنسون كروزو أكثر حرية وهما متوحدان في

(*) الهلال : يوليه سنة ١٩٦٤

جزيرتيهما ، أم اكتسبا مزيدا من الحرية بلقاء ستلامان وابسال وجمعه ومجتمع الجماعة ؟

ما معنى الحرية ؟

هل لها معنى ثابت محدد ، أم هى مفهوم عام تتغير دلالته باختلاف الظروف التاريخية والاجتماعية ؟!

ما أحوجنا الى الاجابة عن هذه الاسئلة ، فنحن فى مرحلة انطلاقنا أشد ما نكون حاجة الى شحذ أسلحتنا الفكرية ..

والحرية من أخطر هذه الاسلحة

ان الحرية في الميثاق محور لابوابه جميعا لا مجرد باب من أبوابه العشرة ، وهى فى مجتمعنا الجديد ،ليست مجرد قيمة معنوية ، وانما هى قيمة مادية وعملية كذلك .. تتدفق بالحرارة والحيوية والحماس والوعى فى مختلف مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء

على أن كثيرا من المواطنين ما زالوا يفتقدون المعنى الحقيقى للحرية ، ويتعلقون بمفهوم ليبرالى لا يتفق مع ملابساتنا الثورية الجديدة . وفضلا عن ذلك فان أسواق الكتب تزخر بعديد من الكتب التى تقيم تناقضا بين بناء الاشتراكية والاستمتاع بالحرية ، بين التحرر الاقتصادى والتحرر الاجتماعى والسياسى ، بل ما أكثر الكتب التى تروج للمفاهيم الوجودية عن الحرية ، باعتبارها الفعل المنعتق من كل قيد ، وما أكثر الكتب كذلك التى تروج للمفهوم الليبرالى للحرية ، حرية المجتمعات الرأسمالية . ولعل الميثاق أن يكون أنضج ما كتب حتى الان عن المفهوم العلمى الصحيح للحرية

الا أن الحرية فى بلادنا معركة بغير شك . معركة فكرية من أجل اشاعة مفهومها العلمى بين المواطنين جميعا

وهي عملية من أجل حسن تطبيق روح الميثاق وممارسته وتطويره ، في مختلف المجالات السياسية والاقتصـادية والاجتماعية والثقافية جميعا

ان الحرية مفهوم اجتماعي تختلف دلالته ووظيفتـه باختلاف الملابسات التاريخيه والاجتماعية •• فالحرية في ظل المجتمع العبودي ، غير الحرية في ظل النظم الاقطاعية، غير الحريه في النظام الرأسمالي ، غير الحرية في النظـام الاشتراكي ، غير الحرية عندما تزول النظم السياسـية وتختفي الدولة وتقوم حكومة الاشـياء ، ويتحقق أرقى وأرفع مستوى للحرية الانسانية

ولعل من أنضج التعاريف القديمة للحرية تعـريف فيلسوفنا العربي العظيم ابن رشد ، الذي اسـتطاع أن يتبين فيها لقاء بين ضرورتين ، ضرورة انسانية وضرورة طبيعية ، وكذلك تعريف الفيلسوف العظيم الهولنـدي اسبينوزا الذي وقف على نفس أرضية ابن رشد تقريبا • الا أن تعريف هيجل للحرية كان هو بغير شك أنضـج وأرقى التعريفات جميعا ، وكان اساسا لمفهومها العـلمي الصحيح •

يعرف هيجل الحرية بأنها معرفة الضرورة • حقـا ان معرفة الضرورة والسيطرة عليها وتوجيهها لصـالح الانسان هو جوهر الحرية ، والضرورة اما ضرورة طبيعية أو اجتماعية أو نفسية ، فالجاذبية الارضية مثـلا ضرورة طبيعية • ولهذا فان معرفتنا بقوانينها وسيطرتنا عليها ، هو جوهر تحررنا منها • ان الطائرة والصاروخ والقمـر الصناعي تعد تعبيرا رائعا عن حرية الانسان ، عن سيطرته على الضرورة الطبيعية وتوجيهها • والثورات الاجتماعيـة وإنجازها لتغيرات حاسمة في النظم الاجتماعيـة تعني

فى جوهرها سيطرة الانسان على الضرورة الاجتماعيـــة وتوجيهها لصالحه ، ولهذا فهى تعبير عن الحرية ٠٠ وهكذا

وفى كل مرحلة من مراحل التاريخ ضرورة اجتمـاعية معينة ٠ والضرورة الاجتماعية فى مجتمع العبيـــــد غير الضرورة فيما تلاه من مجتمعات ونظم ٠ ولهذا اختـــلف مفهوم الحرية كما ذكرنا ، باختلاف النظم الاجتماعيـــة

كانت الحرية فى العصر العبودى هى أساسا حـــرية السادة ، حرية مالكي العبيد ٠ وكانت الحـــرية تتسع لك بمقدار اتساع ملكيتك للعبيد ٠٠

وكانت الحرية فى النظم الاقطاعية محدودة بهـــذه النظم ٠ وفى منطلق النظام الرأسمالى ، منطلق الثـــورة البورجوازية ، كان شعار « دعه يعمل ، دعه يمر » هـــو جوهـــر الثورة والنظام الجـــديد . كانت الضرورة الاجتماعية هى تغيير علاقات الاقطـاع ونظام الريع الى علاقات انتاج رأسمالي وعمل مأجور . وكانت حـــرية العمل والملكية الفردية حرية السوق ، حرية المنافسة : هى الوسائل الاولى الاساسية للسيطرة على هذه الضرورة ثم تحولت النظم الرأسمالية من المنافسة الحرة الى الاحتكار والاستعمار والحروب الشاملة ، وبلغت فى بعض البلاد الى حد الالغاء السافر أو المقنع للحرية التى بدأت بها هذه النظم انطلاقها

وبنضج الافكار الاشتراكية أخذ ينضج المفهوم الجديد للحرية ، النابع من الضرورة الاجتماعية الجـــديدة ، ضرورة الغاء الاحتكار والاستغلال وبنـــاء مجتمع بشرى خال منهما . ولهذا كان التوجيه الاقتصادي والتأميـــم والملكية العامة لوسائل الانتاج فى المجتمع الاستراكى بعد!

جديدا من أبعاد الحرية ، يتيح لها مضمونا أكثر رقيـــا ونضجا

ولقد صاحب هذه المفاهيم المختلفة اشكال سياســـية كذلك . فلكل نظام من نظم المجتمع ولكل مفهوم من مفاهيم الحرية ، أشكالها الديمقراطية المعبرة عنها ، والملائمـــة لها والمحدودة بحدودها

الحرية فى انجلترا مثلا .. انها فى جوهرها حـــرية الاحتكارات البريطانية فى السيطرة والربح والاســتغلال على حساب المستعمرات البريطانية الباقية ، والفئـــات الكادحة من الشعب البريطانى . حقا ، هناك حرية تعبير ، حرية تكوين احزاب من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، حرية أن تقول وان تفعل فى هايدبارك ما تشاء ، وهنـاك بغير شك ضمانات دستورية وديمقراطية طيبة استطاع الشعب البريطانى أن ينتزعها بكفاحه الطويل . ولـــكن رغم هذه الاشكال الديمقراطية ، فان المضمون الجوهرى للحرية فى بريطانيا هو حرية المالكين ، حرية أصـــحاب رءوس الاموال . وبتعبير آخر ، من يسيطر على الضرورة الاجتماعية فى انجلترا هل الشعب العامل ، أم الارستقراطية المالكة ؟

لا شك أن الشعب العامل لا يتبقى له غير الفتات ، وهو وأن كان فتاتا وفيرا احيانا فهو فتات ، أما ثمرات العمل الذى تنجزه شعوب المستعمرات البريطانيـــــة والشعب البريطانى ففى جيوب هذه الارستقراطية المالكة اساسا . وعلى هذا فالحرية هناك برغم كل تشكيلاتها وضماناتها هى فى الجوهر حرية النهب والاستغلال والاستعمار

وفى بلادنا ..

اى الوضعين اكثر حرية ، مصر قبل ثورة ٢٣ يولية ٥٢ أم مصر بعدها ؟!

فى مصر قبل ١٩٥٢ كانت هناك أحزاب ، ومعـــارك دستورية ، وبرلمان وانتخاب ووزارات تقوم واخـــرى تقعد ، وجرائد ومجلات مملوكة للاحزاب أو للافـــراد ، ومعارضة برلمانية و . . و . . و .

وفى مصر الثورة ليست ثمة أحزاب ولا صراع حزبى ، ليس ثمة معارضة برلمانيـــة بالمعنى التقليدى ولا ملكية فردية للجرائد والمجلات .. الخ . الخ

فأى الوضعين أكثر حرية ؟

لا شك أنه رغم النشاط الديمقراطى المجيد ، والمكاسب الدستورية والديمقراطية التى كان ينتزعها الشعب انتزاعا فى مصر ما قبل الثورة فان مضمون الحرية فى ذلك الوقت كان يعنى فى جوهره حرية الرجعية والاقطاع وكبـــار الرأسماليين والاستعمار . لم تكن البرلمانات تمثل الارادة الحقيقية للشعب ، رغم ما كان يحيط بها من كفـــاح شعبى ، ولم تكن تمثل سيطرة الشعب عـــلى الضرورة الاجتماعية فى البلاد .. وكانت السيطرة على مقـدرات الحيـــاة فى بلادنا فىأيدى الرجعيين والاســـتغلاليين والاستعماريين . ولهذا كانت الحرية اساسا هى حريتهم لا حرية الشعب ، برغم كل المظاهر والاشكال الخارجية

وعند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تحققت أسس أرقى للحرية ، وأن لم تتضح مظاهرها واشكالها منذ البداية

ان انتقال السلطة فى مصر يوم ٢٣ يوليـــه ١٩٥٢ من أيدى الرجعية والاستعمار ، الى الايدى الوطنية ، يعـــد فى ذاته تغييرا فى المضمون العام للحرية فى مصر . وبانتقال العمل الثورى فى بلادنا من مرحلة الثورة الوطنيـــة الى مرحلة الثورة الاجتماعية ، من التغيير الثـــورى الـذى بدأ بجهاز الدولة الى التغيير الثورى فى العــــلاقات الاقتصادية والاجتماعية نفسها ، من التغيير الذى يحققه

فى البداية الجيش بقيادة الضباط الاحرار ، الى التغيير الجذرى الذى يشارك معهم فيه الملايين من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين ، من الانتقال من سلطة مجلس الثورة الى سلطة الشعب العامل فى مختلف القيادات والمجالس المحلية والشعبية والادارية والانتاجية والتشريعية ، والى نسبة العمال والفلاحين المقررة فى مجلس الامة والمجالس الشعبية ، ومجالس الانتاج ، من سيادة الملكية الخاصة الى ملكية الشعب لوسائل الانتاج من مصر الوطنية الى مصر الاشتراكية ، يتطور كذلك مفهوم الحرية ويتخذ ابعادا وأعماقا أخصب وأرحب ، رغم غياب كثير من الاشكال الديمقراطية التقليدية ، التى عرفتها المجتمعات الراسمالية وعرفتها مصر ما قبل الثورة

ان اجراءات يولية الثورية عام ١٩٦١ وما تلاها كانت أسسا راسخة لمضمون جديد للحرية . وما كان تحويل مجرى النيل الا تجسيدا ماديا لهذا المضمون الثورى الجديد للحرية . لم يكن مجرد تحويل لمجرى نهر ، لم يكن مجرد معرفة لقوانين الحركة والبناء والتحويل ، بل كان فضلا عن هذا توجيها لهذه المعرفة لخدمة الانسان . هذا هو المعنى الثورى لاجراءات التأميم ولتحويل مجرى النيل ، وللتقدم العلمى والتكنولوجى فى بلادنا ، ولاطلاقنا للصاروخ والاقمار الصناعية ، انها جميعا تجسيد للمعنى الجديد للحرية المسيطرة على القانون الاجتماعى والطبيعى وتوجيهه لصالح الانسان العربى ، والتقدم الانسانى

وكما تختلف الضرورة الاجتماعية من مجتمع الى مجتمع ومن ثورة الى ثورة ، تختلف كذلك أشكال تحقيق الحرية ، التى هى سيطرة على هذه الضرورة

فاذا كانت الحرية فى المجتمع الراسمالى تتخذ شكل

تعـدد الاحزاب ، والجمعيـات التأسيسية ، والمعارضة البرلمانية ، والصحافة الفردية . الخ الخ .. فان ذلك ينبع بغير شك من تعدد الطبقات الاجتماعية ، ويعبر عن صراع السلطة فيما بينها . وعلى ذلك فان هذا الشكل قد لا يصلح تعبيرا للحرية فى مجتمع اشتراكى ذابت فيه الطبقات الى شعب عامل موحد الارادة والمصلحة ، أو فى طريقه الى هذا . بل قد تكون الدعوة الى تعدد الاحزاب وتنظيم المعارضـة ، الخ .. دعوة فى الحقيقة الى اعادة احيـاء الطبقـات المصـفاة وتسليحها تسليحا تنظيميـا وسياسيا ، تمهيدا لاحيـائها اقتصاديا كذلك . وهكذا تصبح هذه الدعوة ، دعوة الى الثـورة المضـادة ، دعوة مناقضة للحرية وان تزيت بزى الحرية

عندما انتصرت الثـورة الجزائرية ، قامت دعوتان الى الحرية ، دعـوة الى الحريات الليبرالية ، حـرية تكوين الاحزاب ، والمعارضة المنظمة و.و.و وكان يتزعم هـذه الدعوة عباس فرحات وكانت هناك دعوة أخرى يتزعمهـا بن بيللا ، وكانت تدعو الى التنظيم الثورى الواحد لقوى الثورة الجزائرية لوحدة كل القوى الاشـتراكية فى جبهة التحرير . فأى الدعوتين هى دعوة الحرية حقا !؟

انها دعوة بن بيللا بغير شك . ذلك لان الدعوة الى الحرية الليبرالية فى الجزائر كانت تعنى تعبئة وتنظيم كل القوى الاجتمـاعية الرجعيـة والعميلة الى جانب تفتيت القوى الثـورية وتشتيت طاقاتها . وكان هـذا يعنى بالدقـة التمهيد لصراع طبقى حاد غير موجه يمكن أن يعرقل البناء الاشتراكى .. ان لم يشل الثـورة الجزائرية نفسـه وينتكس بها

ان الملابسات الخاصة بالثورة الجزائرية ، قد حددت لها هذا الطريق الخاص الذى اكده ودعمه المؤتمر الاخير

لجبهة التحرير .. طريق وحدة كل القوى الثورية فى اطار جبهة التحرير ، هذا هو طريق بناء الاشتراكية هناك وهو طريق الحرية الحقة للشعب العربى فى الجزائر

***

وفى بلادنا ..

هناك شكلان من أشكال الحياة البرلمانية ، هناك الشكل التقليدى ، الانتخابات العامة المباشرة ، من غير قيد طبقى ، اللهم الا قيد السن والنصاب المالى ، وهناك الشكل الجديد المقيد بنسبة معينة للعمال والفلاحين هى نصف المقاعد على الاقل . فأى الشكلين أكثر تعبيرا عن ارادة الشعب ، وأوفى تجسيدا للحرية ؟! انه بغير شك الشكل الجديد رغم قيود النسبة ، بل بفضل قيود النسبة !

وهكذا ينبغى أن نفهم الحرية ونمارسها ونطورها

ولكن هناك من الكتاب من يصدر فهمهم للحرية فى بلادنا وتقديرهم لها عن رؤية عاطفية ليبرالية خالصة

ان الدعوة الى تعدد الاحزاب الاجتماعية ، أو الى تنظيم المعارضة البرلمانية ، واستقلالية الصحافة عن التنظيم السياسى ، انما هى دعاوى ليبرالية حقا ، لا تتبين الظروف الموضوعية الخالصة التى تمر بها بلادنا . انها دعوة فى الحقيقة الى اعادة تنظيم الطبقات الاجتماعية تنظيما سياسيا وفكريا رغم تصفية مصالحها الاقتصادية. انها دعوة فى الحقيقة الى الثورة المضادة مهما اتسم قائلها بالاخلاص والامانة العقلية والجدية وحسن النية

ان طريق الحرية فى بلادنا ليس طريق البرلمانية الليبرالية ، ليس طريق تعدد الاحزاب ، وانما هو طريق التحالف الثورى لقوى الشعب العامل والتنظيم الثورى القائد ؟ انه طريق البرلمان الشعبى والمجالس الشعبية ،

طريق اغلبية العمال والفلاحين ، طريق القيادة الجماعية والرقابة الشعبية ، طريق النقد والنقد الذاتى ، طريق سيطرة الشعب الواعيــة على قوانين حيــاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومشاركته الفعالة فى توجيهها ، طريق التنمية الاقتصــادية الى غير حــد ، طريق تخطى معدلات الانتاج بالوعى والحماس ، طريق المبادرة الخلاقة فى مجالات الانتاج والثقافة والخدمة العامة والبناء

وهذا الطريق ــ كما ذكرت فى البداية ــ معركة !

ان مفهوم الحرية بين الجماهير مازال غامضــا تشــيع منه بقايا ليبرالية • ان قيم الحرية فى الميثاق ما تزال ــ فى كثير من المجالات ــ شعارات أكثر منهــا حقــائق حية . وما تزال العــادات القــديمة وروح الفردية والاجهزة البيروقراطيــة والسـلبية حوائط عالية فى وجــه القيم الجديدة

انها معركة ينمو خلالها وبفضلها التعــاون والاندماج الثورى بين كل القوى التقدمية البانية فى بلادنا ، فى اطار الاتحاد الاشتراكى وفى تنظيمه الطليعى ، كما ينمو خلالها وبفضلها مضمون الحرية نفسها ويرقى الى غير حد

ان المفهوم الثورى للحرية ينبغى أن يشيع وينطلق فى المصنع والحقل والمؤسسة الاقتصادية والجمعية التعاونية والمدرسة ودور الثقافة ومعاهد التعليم . .

فهذا هو المعنى العميق لمرحلة الانطلاق

وهذا هو المعنى الذي نحتفل به في أعياد ثورة يوليــه المجيدة

الديمقراطية والماركسية

ما أكثر الحديث هـذه الايام عن أزمة الديمقراطية فى العالم أجمع ، بمختلف نظمه الاجتماعية ومذاهبه الفكرية. فهناك الازمة التقليدية الديمقراطيه فى النظم الرأسمالية ، وهناك أزمة الحرية عامة فى البلاد التى لا تزال رازحة تحت نير الاستعمار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وهناك أزمة الديمقراطية المتخلفـة عن فترة عبـادة الفرد فى النـظم الاشتراكية وما تثـيره من خـلافات بين بعض البـلاد الاشتراكية . وهناك البحث عن أشـكال جديدة ملائمة الديمقراطية فى الدول الحديثة التحرر ..

وتكاد الديمقراطية ان تكون المعركة الاساسية اليـوم فى مجال الفكر والتطبيق العملى بين النظم الاجتماعيـة والاوضاع السياسية المختلفة وليس هذا غريبا فى عالم يحتدم بالتغيرات العميقة الحادة ، وتشارك فيـه لاول مرة الملايين من البشر مشاركة واعية مريدة فى اختيـار مصيرها وصناعته

ولكن ما أكثر ما تزيف معركة الديمقراطية ، وتطمس معالمها الحقيقية

ان النظم الرأسمالية مثلا تتسمى باسـم النظـم الديمقراطية وتسمى عالمها بالعالم الحر ، وهى بنظامها الاستغلالى أبعد ما تكون عن الديمقراطية ، وهى بنظامها

(*) الهلال : يونيه سنة ١٩٦٥ .

الاستعمارى اعدى أعداء الحرية والديمقراطية والانسانية عامة ..

ولهذا تخوض هذه النظم الرأسمالية معركتها الفكرية حول الديمقراطية بطريقة شكلية للغاية . انها تناقش الشكل الديمقراطى فحسب وترفض الاعتراف بأى مضمون اجتماعى لها وتنجح للاسف فى تضليل كثير من البسطاء بمنطقها القاصر المزيف

والحقيقة ان الديمقراطية ليست قضية حزب أو حزبين ، ليست قضية معارضة برلمانية أو انعدام هذه المعارضة ، ليست قضية صحافة حرة أم صحافة موجهة، وانما هى فى المحل الاول شكل من أشكال التنظيم السياسى المجتمع يخدم أهدافا ومصالح معينة

ولهذا فالقضية دائما هى أى الاهداف والمصالح تخدمها هذه الديمقراطية او تلك بصرف النظر عن الشكل الذى تتخذه لخدمة هذه الاهداف والمصالح

والحقيقة أن النظرية الماركسية هى انضج النظريات واعمقها وأصرحها كذلك فى فهم الديمقراطية وتقييمها . انها النظرية الوحيدة التى تعترف بالاساس الاجتماعى الطبقى للديمقراطية ، وتحدد السبيل العملى لتوفير أرقى مستوى من الديمقراطية للمجتمع البشرى

ومهما اختلفت الاراء حول التطبيق الديمقراطى فى البلدان الاشتراكية وحول مفهوم دكتاتورية البروليتاريا فان النظرية الماركسية للديمقراطية ، تكاد تكون النظرية العلمية المسلم بها عند المناضلين فى جميع أنحاء العالم على اختلاف تجاربهم الاجتماعية ، بل وعلى اختلاف مواقفهم من النظرية الماركسية نفسها !

والنظرية الماركسية للديمقراطية هى فى الحقيقة تعميم علمى لتجربة المجتمع البشرى عبر تاريخه الطويل ، وهو

يتمرس بأنماط متنوعة من علاقات الانتاج ، واشـــكال الحكم ..

ان الماركسية تؤكد منذ البداية أن الديمقراطية ليست مفهوما مجردا ، متعاليا ، فليس ثمة ما يسمى بالديمقراطية المطلقة ، أو بمجرد الديمقراطية • فكل ديمقراطيـــة هى ديمقراطية مشروطة بشروط تاريخية وطبقية معينـة . كل ديمقراطية هى ديمقراطية طبقة من الطبقـــات ، أو مجموعة من الطبقات المتحالفة . وكل ديمقراطيـــة هى بالضرورة ذات طابع مزدوج ، انها ديمقراطية لهذه الطبقة أو تلك الطبقات وهى فى الوقت نفسه دكتاتورية ضـــد طبقة او طبقات أخرى معينة

ان الديمقراطية كما تقول الماركسية هى الشـــكل السياسى للدولة ، وهى كالدولة سواء بسواء جـزء من البناء العلوى للمجتمع ، الذى يعكس ويعبر ويخـــدم علاقات الانتاج السائدة فى هذا المجتمع . ولهذا فتـؤرخ الماركسية نشأة الديمقراطية بنشأة المجتمع الطبـــقى ، بنشأة الدولة التى قامت لحماية الملكية الفردية ، النظـام الطبقى الجديد .

أما قبل ذلك ، فكانت هناك الديمقراطية البدائية ، الخالية من المضمون السيـــاسى ، والتى كانت نوعا من التنظيم الادارى للعمل الاجتماعى ، تشارك فيه المجموعة البشرية مشاركة جماعية ، ولا ينجم عنه أى شـكل من اشكال السلطة المركزية العليا ، أو القهر الاجتماعى لصالح فئة من الفئات

وبنشأة الملكية الفردية ، وانقسام المجتمع الى طبقات ، نشأت الدولة كما ذكرنا ، ونشأت معها الديمقراطية كشكل سياسى لها يعبر عن علاقات الانتاج السائدة هكذا كانت الديمقراطية فى العصر اليونانى العبودى ، ديمقراطيـــة

لمالكي العبيد ودكتاتورية ضد هؤلاء العبيد ، وهكذا كانت الديمقراطية كذلك خلال العصور الوسطى خلال سيادة النظم الاقطاعية ، ديمقراطية لكبار ملاك الاراضي الاقطاعية، دكتاتورية ضد الاتباع من عبيد الارض

وعلى الرغم مما تطنطن به الثورة البورجوازية من شعارات الحرية والاخاء والمساواة ، ورغم شعارات دعه يعمل ، دعه يمر فى الاقتصاد ، ورغم الاشكال المختلفة للحياة النيابية ، والاقتراع العام والصحافة الحرة ،وتعدد الاحزاب ، والمعارضة البرلمانية ، فان الديمقراطية البورجوازية ، هى الشكل السياسى للدولة البورجوازية، وهى الوجه الاخر لدكتاتوريتها الطبقية . انها ديمقراطية للاقلية البورجوازية الغنية ، ودكتاتورية ضد اكثرية من الشعب العامل الفقير

وليست عملية الانتخابات التى تتم مرة كل بضعة أعوام — على حد تعبير ماركس — الا وسيلة يسمح بها البورجوازيون للجماهير التى يستغلونها أن تقرر من سوف يذهب الى البرلمان من هؤلاء البورجوازيين لتمثيلهم وسحقهم !

على أن البرلمانات البورجوازية ليست الا اماكن للثرثرة، وخداع الجماهير ، أما العمل الاساسى للدولة البورجوازية فانه يتم وينفذ فى مجالس ادارة الشركات الكبرى ، وفى هيئات أركان الحرب ، وفى أجهزة الدولة التى يسيطر عليها ممثلو الطبقة السائدة

ورغم هذا فان الماركسية ، لا تقلل من اهمية النضال البرلمانى ، بل تجد فيه فى السنوات الاخيرة — نتيجة لتغير علاقات القوى العالمية — امكانية للانتقال السلمى الى الاشتراكية .

فاذا انتقلنا الى الديمقراطية الاشتراكية وجدنا كذلك أنها تقوم على أساس طبقى محدد ، كما تقوم كذلك على

ذات الطابع المزدوج . انها ديمقراطية للاغلبية الساحقة من الشعب العامل ، ولكنها كذلك دكتاتورية ضد الاقلية المستغلة

فكما كان للبورجوازية دولة للقهر والاكراه الطبقى لتحقيق مصالحها ، فكذلك البروليتاريا ، لابد من جهاز دولة للقهر والاكراه الطبقى لتحقيق مصالحها ، هذه هى ديمقراطيتها وهذه هى دكتاتوريتها كذلك

واذا كان للبورجوازية دولة للقهر والاكراه الطبقى والقهرى لدولتها ، وتزعم لنفسها ديمقراطية لمجموع الشعب ، فان البروليتاريا على لسان نظريتها الماركسية تصرح بالطابع الدكتاتورى لدولتها الجديدة . ان دكتاتورية البروليتاريا هى دولة الطبقة العاملة لتحقيق أهدافها التاريخية . وهى الشكل الديمقراطى المعبر عن سيادة هذه الطبقة

على أن الطبقة العاملة وهى تقيم دكتاتوريتها هذه ، فانها تقيمها بصفة مؤقتة بقصد الاجهاز أولا على بقايا دكتاتورية البورجوازية والقضاء ثانيا على علاقات الانتاج الاستغلالية واقامة علاقات انتاج اشتراكية جديدة ، وهى بهذا تقضى على الاسس المادية لكل دكتاتورية ولكل ديمقراطية ، وبهذا كذلك تقضى على الاسس المادية للشكل السياسى للدولة

وهناك من الفوضويين ممن يختلفون مع الماركسية فى اقامتها لجهاز جديد للقهر الطبقى هو دكتاتورية البروليتاريا ، ويرون الاكتفاء بتحطيم جهاز الدولة البورجوازية فحسب ، دون اقامة جهاز دولة اخر بدلا منه . والماركسية تتفق مع هذا الهدف العام ، هدف الغاء الدولة نهائيا ، دولة القهر الطبقى . ولكنها تؤكد أنه لاسبيل الى تحقيق ذلك بغير الغاء الاستقلال الطبقى والغاء

الطبقات ، ولا سبيل لتحقيق ذلك بغير جهاز جديد للقهر هو دكتاتورية البروليتاريا . بشرط أن يكون جهازا مؤقتا سرعان ما يمهد للهدف الاكبر ، هدف القضاء على الدولة وتلاشيها نهائيا . والقضاء على الدولة هو قضاء على الديمقراطية كذلك بمعناها الطبقي السياسي كما اشرنا من قبل

فالديمقراطية ليست مرادفة لخضوع الاقلية للاكثرية كما يقول انجلز ، وانما الديمقراطية هي الدولة المعترفة بخضوع الاقلية للاغلبية ، وهي بالضرورة دولة تنظيم القهر الطبقي لمصلحة طبقة من الطبقات وضد طبقة أخرى من الطبقات ولهذا فعندما تتلاشى الدولة وتذبل تتلاشى الديمقراطية كذلك وتذبل . وينتهي الشكل السياسي لادارة المجتمع ، وينشأ شكل آخر غير سياسي يطلق عليه انجلز اسم « حكومة الاشياء » ، ويقتصر دورها على نوع من التنظيم الاداري الخالص للشئون الثقافية والتكنولوجية والصناعية وغير ذلك

وفي هذه المرحلة من تطور المجتمع التي ينتهي فيها الاستغلال نهائيا ، وتتلاشى الدولة وتذبل الديمقراطية كشكل للتحكم السياسي ، يشارك البشر جميعا في ادارة الشئون العامة كأنما هي شئونهم الخاصة ، ويتعود البشر على مراعاة القواعد الاساسية للحياة الاجتماعية ، دون حاجة الى جهاز للقهر والاكراه

أما المخالفات الفردية ، فما أسهل ان تعالج بغير حاجة الى هذا الجهاز . وحينئذ ــ كما يقول انجلز ــ يمكن الحديث عن الحرية

ان دكتاتورية البروليتاريا اذن هي الوسيلة الضرورية لالغاء كل دكتاتورية ،للقضاء على الاسس المادية لكل قهر طبقي . وهي وسيلة مؤقتة ينبغي ان تتلاشى وتذبل

وهى فى طريق تحقيق أهدافها

ولهذا رأينا دكتاتورية البروليتاريا فى الاتحاد السوفييتى تصبح دكتاتورية لمجموع الشعب العامل ، بعد ما حققت كثيرا من المنجزات وقضت على كثير من الاسس المادية للدكتاتورية الطبقية ، وانفتح السبيل لالغاء السلطة السياسية المركزية ونقل مهام الدولة تدريجيا الى مجموع السكان فى شكل حكومات ذاتية تقوم بالمهام الادارية للنظام الاجتماعى

على ان هذه عملية ليست هينة ، ولن تتحقق تماما الا بتوفر المساواة التامة بين جموع الشعب العامل

والمساواة فى الماركسية هي احدى معانى الديمقراطية كذلك . وهى ليست المساواة بالمعنى الدارج ، كتكافؤ الفرص ، والاجر المتساوى على العمل المتساوى ، الى غير ذلك

ان تكافؤ فرص العمل ليس أساسا للمساواة الحقيقية ، لان البشر سيختلفون دائما فى قدراتهم واستعداداتهم على العمل . ولهذا فان المساواة الحقيقية لن تتحقق الا فى مجتمع الوفرة ، حيث لا يأخذ الانسان بحسب جهده ، وانما بحسب حاجته . هنا تتحقق المساواة الحقيقية ، وتتوفر الديمقراطية الحقيقية ، التى هى الغاء للديمقراطية ، بمعناها السياسي كشكل من أشكال دولة القهر والاكراه الطبقى

ولا سبيل لتحقيق هذا كذلك كما تقول الماركسية بغير دكتاتورية البروليتاريا

على أن دكتاتورية البروليتاريا تتضمن من المعانى أكثر مما توحى به كلمة الديكتاتورية . حقا ، انها تتضمن العنف ، فى مواجهة خصومها الطبقيين ، العنف فى تحطيم جهاز الدولة البورجوازى واقامة جهاز دولة بروليتارى جديد .

ولكنها فى جوهرها تعنى النظام والانضباط والخضوع

ودكتاتورية البروليتاريا من ناحية أخرى لا تعنى بالضرورة كذلك انفراد طبقة البروليتاريا بالحكم وسلطة القهر ، وانما تتضمن كذلك التحالف الطبقى . وما اكثر اشكال دكتاتورية البروليتاريا التى تقوم على هذا التحالف فى الدول الاشتراكية فى آسيا وأوربا . بل ان الدولة السوفييتية ذاتها كان من الممكن ان تبدأ على هذا النحو من التحالف الطبقى . فلقد دعا لينين الاحزاب المعبرة عن مصالح البورجوازية الصغيرة فى الريف والمدينة الى المشاركة فى السلطة ، ولكنها رفضت وانضمت الى قوات الثورة المضادة ، مما اضطر لينين الى التحالف مباشرة مع قاعدتها الشعبية

وتتنوع اشكال دكتاتورية البروليتاريا تنوعا لا حد له بحسب تبعية كل مجتمع وملابساته الثورية

ودكتاتورية البروليتاويا لا تعنى بالضرورة حكم الحزب الواحد ، ولا تتناقض مع امكانية تعدد الاحزاب فى مرحلة بناء الاشتراكية ، ما دامت لا تعبر عن طبقات وفئات استغلالية . ان التنظيمات السياسية لصغار المنتجين امكانية متحققة فى عدد من البلاد الاشتراكية

ودكتاتورية البروليتاريا ، هى سلطة قهر واكراه ضد بقايا الطبقات الاستغلالية فحسب ، ولكنها تدعم علاقتها بجماهير الشعب العامل على أساس التفاعل والثقة والاقناع والنقد والنقد الذاتى . ولهذا فهى فى المحل الاول اداة تربوية وتنظيمية للجماهير وهى لا تعنى توكيد مركزيتها واستقلالها وعزلتها فى مواجهة حركة الجماهير بقدر ما تحرص على توسيع مشاركة الجماهير العاملة فى مختلف عمليات الادارة والحكم ، تمهيدا تدريجيا لذبولها وتلاشيها ، كدولة للقهر والاكراه

ولعل جوهر المرحلة الستالينية هو تجميد هذا المبدأ الماركسي فى مفهوم الدولة . فلقد تركزت الدولة على أيامه واصبحت جهازا متعاليا للقهر ، اكثر منه شكلا سياسيا للمجتمع الاشتراكى الجديد

ولقد استند ستالين على زعم قائل بأن بناء الاشتراكية يؤدى الى تفاقم حدة الصراع الطبقى ، لا الى التخفيف منه ولهذا راح جهاز الدولة يبطش بكل من يشتم منه خروجا على الاشتراكية . ولكنه لم يضرب أعداء الاشتراكية فحسب بل ضرب كذلك اخلص المناضلين من أجلها . وأدى هذا الى توقف قانون أساسى من قوانين الحركة الاجتماعية وهو قانون التناقض ، وما يحتمه من نقد ونقد ذاتى وقيادة جماعية

وهكذا فقدت الديمقراطية الاشتراكية مشروعيتها واصبحت تجسيدا مثاليا جامدا لقيم الثورة الاشتراكية. فكانت بهذا أقرب الى مفهوم الدولة فى فلسفة هيجل الاخيرة التى دحضتها الماركسية ، لجمودها وخروجها على النظرة الجدلية الحية للتاريخ

وعلى خلاف هذه التجربة الستالينية فى مضاعفة سلطة الدولة وتركيزها ، اتجهت التجربة اليوغوسلافية الى خلخلة هذه السلطة واتاحة الفرصة لمشاركة الجماهير فى أعبائها . وقامت باشاعة ما يسمى بالديمقراطية المباشرة ، ديمقراطية الانتاج ، والحكم المحلى والادارة الذاتية ، واللامركزية . فكانت بهذا — من الناحية النظرية على الاقل — فما اعرف نتائج التطبيق — اقرب من تجربة ستالين الى روح الماركسية ونظريتها فى الديمقراطية

ولعل خطأ ستالين يكمن كذلك فى تغليبه للمضمون الاقتصادى والاجتماعى للديمقراطية على شكلها السياسى .. فالديمقراطية بحسب النظرية الماركسية كماذكرناهى

شكل سياسي لجهاز الدولة يعبر عن علاقات الانتاج السائدة فى المجتمع ، وعلى هذا فالمهم هو تغيير علاقات الانتاج كأساس مادى لهذه الديمقراطية . ولكن دون اغفال كذلك للشكل السياسي ولقد تغيرت بالفعل علاقات الانتاج فى المجتمع السوفييتى بالغاء الاستغلال وتحقيق الملكية العامة لوسائل الانتاج وتوفر بهذا الاساس الاقتصادى والاجتماعى للديمقراطية الاشتراكية ، الا أن الشكل السياسي لهذه الديمقراطية لم يتوفر على نفس المستوى ، حتى كان المؤتمر العشرون وماتلاه من مؤتمرات واجراءات ، أعادت المشروعية الديمقراطية الى التجربة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى .

وعلى نقيض هذا الموقف الستالينى فى النظرة الى مضمون الديمقراطية لا الى أشكالها السياسية ، نجد فى شرقنا العربى موقفا لبعض الماركسيين العرب يهتمون بالشكل السياسي للديمقراطية ويغفلون عن مضمونها الاجتماعى فيعجزون بذلك عن الرؤية الماركسية السديدة للديمقراطية ويتورطون فى أخطاء سياسية بالغة

فعندما صدرت الاجراءات الثورية فى الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ كانت الديمقراطية السياسية متخلفة الى حد كبير . ومن هذا التخلف فى الاشكال السياسية للديمقراطية ، راحوا ينظرون الى تلك الاجراءات الثورية ويدينونها بالتخلف كذلك . ولم يبصروا فى تلك الاجراءات أساسا ماديا ـ كما تقول الماركسية الحية ـ لتغيرات محتومة فى الشكل السياسي للدولة والمجتمع على السواء

بل لقد اعترض بعضهم على الجانب من تلك الاجراءات الذى يمس الراسمالية المتوسطة . لماذا ؟ لان الراسمالية المتوسطة حليف من حلفاء الجبهة ، ولهذا فينبغى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية !

وهكذا بدلا من تعديل الشكل السياسى الديمقراطى للنضال حتى يتفق ومقتضيات الثورة الاجتماعية ، أصبح هذا الشكل السياسي عاجزا عن ادراك هذه المقتضيات ، بل قوة معادية لها ! وكان ذلك بسبب الوقوف عند حدود الشكل السياسى للديمقراطية دون الحرص على مضمونها الاجتماعى بحسب ما تقول به النظرية الماركسية نفسها

ولعل النضال الذى يشنه الحزب الشيوعى الايطالى من أجل تحقيق اصلاحات فى الهيكل العام لبناء المجتمع الايطالى يعد من ارقى صور النضال المؤسس على الفهم العميق للنظرية الماركسية فى الديمقراطية

ان قادة الحزب يؤمنون بامكانية بناء الاشتراكية فى ايطاليا بالطرق السلمية وهم يتساءلون ماهو السبيل الموضوعى الى تحقيق ذلك ؟ .. هل التأكيد على تحقيق الديمقراطية السياسية ؟ . ويجيبون بالنفى !

أما السبيل الموضوعى فهو النضال من أجل تحقيق تغيرات واصلاحات فى الهيكل الانتاجى والاجتماعى العام للمجتمع .. انهم يقدمون الحلول لمختلف القضايا الاقتصادية والتكنولوجية والادارية والتعليمية والثقافيه، وهم بتحقيقها يضمنون أولا تدعيم الديمقراطية السياسية ، بل يمهدون لتغيير المضمون الطبقى للدولة نفسها وتطوير المضمون الاجتماعى والشكل السياسى للديمقراطية كذلك

لم يقف الحزب الايطالى عند المضمون الاجتماعى والاقتصادي للديمقراطية ، ولم يقف كذلك عند الشكل السياسي لها ، وانما خطط لنضال واع يجمع بين المضمون والشكل بطريقة خلاقة

والحقيقة انه اذا كانت الديمقراطية فى النظرية الماركسية تقوم على أساس اقتصادى ، فان هذا لا يقلل

من فاعلية شكلها السياسي في تطوير هـذا الاسـاس الاقتصادي نفسه . فالديمقراطيةالاشتراكيةليستمجرد انعكاس سياسي لعلاقات الانتاج الاشتراكية ، وانما هي كذلك بالضرورة نشاط جماهيرى خلاق ، ومشاركة فعالة في التطور الاجتماعي

انها ليست حقوقا للجماهير فحسب ، بقدرماهي كذلك مسئوليات نضالية على عاتق الجماهير

وهكذا فان الماركسية لا تحلل الديمقراطية تحليـلا اكاديميا جامدا ، وانما تعيها وعيا ثوريا ، وتسـعى الى تسليح الجماهير بها

ان الماركسية تعترف بالمضمون الطبقي للديمقراطيـة وتناضل بصراحة من أجل اقامة دكتاتورية البروليتاريا، التي هي ديمقراطية الاغلبية الساحقة للعاملين ، وهي بهذه الدكتاتورية تسعى الى توفير الاساس المادي لالغاء هذه الدكتاتورية نفسها ، وذلك بالغاء عـلاقات الانتـاج الاستغلالية واقامة علاقات انتاج اشتراكية . وهيلاتجعل من الدكتاتورية قلعة معزولة عن البناء الاجتماعي ، بل تعمل على توسيع مشاركة الجماهير في اجهزة السلطة، حتى تفقد تلك الاجهزة شيئا فشيئا مضمونها السياسي وحتى يتوفر الحكم الذاتي للمجتمع كله ، يشارك فيـه جميع السكان ، فتزول بهذا دولة القهر وتزول معهـا الديمقراطية ، باعتبارها الشكل السياسي لهذه الدولة، ويتعود الناس على ممارسة قوانينها في غير حاجة الى دولة القهر

وهكذا تحمل الماركسية راية الدكتاتورية لتحقيـق اكبر قدر من الديمقراطية بالغاء الديمقراطيـة ذاتها ، بالقضاء على كل شكل من أشكال الحكم السياسي المركزي، بجعل الحكم والادارة هما الحوار اليومي والعمل اليومي

والغذاء اليومي للناس جميعا ، فى غير آكراه أو استغلال أو فوضى

هذه هي الملامح القريبة والرؤية البعيدة للديمقراطية كما تراها الماركسية .. على أنها — بحسب الماركسية نفسها — ليست ملامح جامدة ، وليست رؤية نهائية . ان الماركسية تستمد مفاهيمها من حركة الحياة ومن نضال الجماهير ، وخبراتهم الحية ، وهى تجددمفاهيمها دائما مع تجدد الحياة

ولاشك أن الانتصارات الثورية التى يحققها التاريخ البشرى ، تتيح للتاريخ البشرى نفسه اشكالا غيرمتوقعة لانتصارات ثورية جديدة . انانتصارالاشتراكيةوتحولها الى نظام عالمى فيما يقرب من ثلث العالم ، فيظلدكتاتورية البروليتاريا ، قد ادى الى تغير ميزان القوى العالمى بحيث أتاح لكثير من البلاد الحديثة النمو امكانيات خلاقة للسير فى طريق التطور الاشتراكى بغير دكتاتورية البروليتاريا ، كما أتاح لها تحقيق كثير من التحولات الثورية العميقة ، فى المجتمع وجهاز الدولة بطريقة تطورية سلمية

وعندما يتم القضاء النهائى على النظام الاستعمارى، ويستقر السلام والاشتراكية فى الارض ستحدثتحولات وانفجارات ثورية لا نستطيع التنبؤ بها اليوم . ولكنها ستفتح بغير شك أشكالا لا حد لتنوعها وخصوبتها من العلاقات الديمقراطية بين البشر جميعا ، سواء فى المجال القومى او فى المجال الدولى ، وستعجل بتحقيق ارقى وانبل اشواق الانسان الى الثقافة الشاملة والرفاهية الكاملة والحرية الحقيقية

فى التطبيق الاشتراكى

- أكثر من طريق الى الاشتراكية
- قضايا فكرية فى طريق البناء الاشتراكى
- قضية الوضوح الفكرى

أكثر من طريق إلى الاشتراكية

هل هناك طريق ثالث بين الرأسمالية والاشتراكية ؟
بالطبع لا .. فلا طريق ثالث بينهما
لا طريق ثالث بين الاستغلال والغاء الاستغلال ..
لا طريق ثالث بين الملكية الفردية والملكية العامة لوسائل الانتاج ..
لا طريق ثالث بين سيطرة حفنة من الرأسماليين ، وسيطرة الشعب على جهاز الدولة

لكن بعض الكتاب يخلطون بين هذه الحقيقة ، وبين حقيقة أخرى هى : انه لا طريق واحد نحو الاشتراكية ، وانما عشرات الطرق ، بل طرق لا حصر لها ، بل طرق الى الاشتراكية بعدد الشعوب والامم والتجارب الاجتماعية والخصائص القومية والملابسات التاريخية

انهم يخلطون بين تنوع الطرق المفضية الى الاشتراكية ، وبين الطريق الثالث بين الاشتراكية والرأسمالية ، فيجعلون من تنوع الطرق الى الاشتراكية ايهاما بتنوع الاشتراكية نفسها من حيث الجوهر ، بل ايهاما بطريق ثالث بين الاشتراكية والرأسمالية !

وهناك من المفكرين من يحلو لهم الدعوة الجهيرة الى الطريق الثالث .. الدعوة الى التقارب الفكرى والعملى بين الاشتراكية والرأسمالية ، لاستنبات شىء جديد ،

(*) الهلال اغسطس ١٩٦٤

تخفف فيه الاشتراكية من ملكيتها العامة وسلطتها الشعبية وتخفف فيه الرأسمالية من فرديتها واستغلاليتها ، ويتم اللقاء والتقاح بين الاطراف المتباعدة المتباغضة !

انها دعوة الى نظرية متعادلة متوازنة بين الاشتراكية والراسمالية ، وهى فى الحقيقة دعوة الى تغطية سوءات الراسمالية والسعى الى اطالة عمرها بالاصلاحات المؤقتة، وهى دعوة الى خديعة الجماهير الشعبية عن حقيقة الاشتراكية !

وما اكثر النظريات التى سعت وما تزال تسعى لتحقيق هذه الخديعة تحت ستار الاشتراكية نفسها

هكذا كانت الاشتراكية الوطنية التى أقامها النظام الهتلرى فى المانيا . لم تكن غير ثورة مضادة حرفت الشعب الالمانى عن ثورته الحقيقية . فلم يكن تأميم بنك الرايخ ولم تكن كل مظاهر الاشتراكية الزائفة التى ادعاها هتلر الا تنظيما لابشع اشكال الاستغلال والقهر الطبقى لمصلحة الاحتكارات الالمانية

ولم تكن ملكية الدولة لبعض قطاعات الصناعة فى نظام موسولينى ، ولم تكن النقابات المشتركة من العمال واصحاب الاعمال ، وغيرها من المظاهر الاشتراكية الزائفة فى ايطاليا الفاشية ، لم تكن طريقا ثالثا بين الاشتراكية والرأسمالية ، بل كانت تدعيما مباشرا للاحتكارات الايطالية وتعبيراً عن مصالحها الاستغلالية

وليست الدعوة الى الراسمالية الشعبية عند بعض مفكرى أمريكا غير شعوذة نظرية لتحقيق الهدف نفسه اخفاء حقيقة الاستغلال الراسمالى ، وصرف جماهير الشعب عن معركة القضاء عليه ببعض الاصلاحات المؤقتة

وكذلك شأن الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى اوربا

.. ماذا تدعو اليه ، وماذا حققته بالفعل عندما تولت السلطة ؟!

لا شيء خارج نطاق النظام الراسمالى ، لا شيء خارج اطار القهر الطبقى ، والاستغلال

ان قادة هذه الاحزاب يعبرون فى الحقيقة عن مصالح الاحتكارات الاوربية ، انهم يتعاملون مع حلف الاطلنطى وينفذون خططه ويشاركون فى الحروب الاستعمارية ، كما فعل حزب جى موليه الاشتراكى الفرنسى . بل لعل المعنى الوحيد « لاشتراكية » جى موليه هذا هو « اشتراكه » فى العدوان الثلاثى على بلادنا !؟

ماذا قدمت هذه الاحزاب الى شعوبها عندما تولت السلطة ؟

بعض الضرائب التصاعدية ، تأميم بعض المرافق العامة ، والمشروعات الموشكة على الافلاس ، اصدار بعض التشريعات الاجتماعية النافعة ؟! حسنا .. لسنا ضد هذا .. بل نرحب به . ولكنها جميعا اجراءات اصلاحية لا تغير من الطبيعة الاستغلالية للنظام الاجتماعى السائد ولا تحرم حفنة من كبار الاحتكاريين من الانفراد بحصيلة الوعاء العام للثروة القومية

انهم لم يقدموا طريقا ثالثا ..أن كان ثمة طريق ثالث .. وانما واصلوا طريق التنمية الرأسمالية نفسها بوسائل اكثر ذكاء ومهارة

وفى وطننا العربى الكبير ــ فى مشرقه ومغربه ــ تلوح راية الاشتراكية فى أيدى بعض المغامرين ، ولكنها اشتراكية خالية من أى مفهوم نظرى علمى للواقع ، اشتراكية عاجزة عن أن يكون لها برنامج ثورى مدروس ، اشتراكية تثبت فى التطبيق انها ضد الاشتراكية العلمية ، ضد

التقدم الاجتماعى والتوحيد القومى

فعندما وقع الانفصال الرجعى فى سوريا فى سبتمبر ١٩٦١ لم يكن هذا الانفصال الا رد فعل رجعى فى مواجهة الإجراءات الثورية التى صدرت فى يولية ١٩٦١ ، ورغم هذا رفع قادة الانفصال اعلام الوحدة والاشتراكية

وفى الجزائر كذلك حاول نفر من المغامرين اخفاء عدائهم للثورة الاشتراكية ولاجراءاتها الثورية ، وقيادتها الرشيدة الحازمة ، تحت ستار من الاعلام الاشتراكية المتطرفة الزائفة . ولكنهم سرعان ما أسفروا عن وجه عمالتهم للاستعمار ، وخيانتهم للاستقلال

ان هذه الدعوات الاشتراكية لا تقدم اذن طريقا ثالثا ، بل تسير فى طريق الرجعية والاستغلال ، وتعتبر بهذا ثورة مضادة وان اتخذت مظهرا اشتراكيا زائفا شأن كل الثورات المضادة !

وهكذا ..

لا تعادل ولا توازن ولا توسط بين الاشتراكية والراسمالية . كل محاولة للتعادل والتوازن والتوسط بينها هى فى الحقيقة محاولة راسمالية ، لخدمة الراسمالية واطالة ايامها المحدودة

وفى بلادنا وفى الجزائر وفى بلدان اخرى من افريقيا ، تتحقق نظم اشتراكية جديدة ، وهى اشتراكية حقيقية غير زائفة ، تصدر عن تجارب ثورية أصيلة ، ليست وسطا بين الاشتراكية والراسمالية

والحق انه رغم محاولات التزييف الفكرى والعملى ، فان الانتقال الى الاشتراكية هى السمة الجوهرية لعالم اليوم بل هى أعظم حقائق عصرنا الراهن . ان العالم اجمع بمختلف مجتمعاته ونظمه ومستوياته الاقتصادية والقومية والثقافية ، ينتقل الى الاشتراكية

فى المجتمعات الرأسمالية الشديدة النمو ، كما فى المجتمعات المستقلة الحديثة النمو ، فى المجتمعات القبلية والاقطاعية ، فى المجتمعات التابعة للاستعمار ، المناضلة من أجل تحررها الوطنى تتحقق هذا الرحلة التاريخية وتتخذ اشكالا مختلفة من الصراع السياسى والاجتماعى والطبقى والتحريرى

وهى اشتراكية واحدة ، ينتقل اليها عالم متنوع الملابسات والمستويات والقوميات !

ولهذا كان من المحتم ان يتم هذا الانتقال بمختلف الوسائل والاساليب والطرق التى تنبع أساسا من طبيعة كل مجتمع ، وكل قومية ، وفقا لمستوى تقدمهاالاجتماعى وملابساتها السياسية والاقتصادية السائدة

وليس هذا سمة للانتقال الى الاشتراكية فحسب ، بل هى السمة العامة للظواهر الاجتماعية كلهاكماسيتضح لنا بعد قليل

فالثورة البورجوازية تحققت فى فرنسا على غير ما تحققت به فى انجلترا أو المانيا أو ايطاليا أو روسيا ، وعلى غير ما تحققت به فى دول آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية فى ظل السيطرة الاستعمارية ، وخلال نضالها التحريرى. وتحققت فى منطاق النظام الرأسمالى بطريقة تختلف عن تحققها فى ظل سيادة النظام الاستعمارى أو فى مرحلة تفككه وانهياره ، وقيام النظام الاشتراكى كنظام عالمى فى مواجهته

بل ان الاوضاع الاقطاعية السابقة على الراسمالية تختلف وتتنوع من مجتمع الى آخر ، ومن ملابسات اجتماعية وطبيعية الى ملابسات اجتماعية وطبيعية أخرى

ان العلاقات الاقطاعية فى سهول أوربا التى تعيش على

الامطار ، أو فروع الانهار ، تختلف عن العلاقات الاقطاعية التى تقوم على جوانب الانهار الكبيرة كنهر النيـــل وما يستلزمه نظام الرى من سلطة مركزية موحدة

وهكذا .. ظاهرة اجتماعية ذات سمة عامة ، تختلف فى التطبيق والممارسة باختلاف الظروف الاجتماعيـــة والملابسات القومية

ولكن ..

لماذا نحرص على تأكيد هذه السمة العامة للاشتراكية، لـماذا لا نكتفى بالقول باشتراكية عربية وأخرى أفريقيـة وثالثة آسيوية ورابعة أوربية ، وخامسـة و .. و ..الى غير ذلك بحسب مختلف القارات والبلدان والملابسات ؟

ليس هناك ما هو أخطر من الاقتصار على هذه السمة العامة للاشتراكية ، والسعى الى تطبيقها تطبيقا آليا ، بغير مراعاة للابسات محلية أو صفات قومية ، بغير أن تكون تعبيرا عن احتياج او ضرورة اجتماعية خاصـــة . فهذا هو معنى استيراد الثورات الاشتراكية،أو تصديرها والقانون الاســاسى لكل ثورة انها لا تستورد ولا تصــدر وانما تنبع من قوانين المجتمع نفسه ، وضروراته الباطنة، وملابساته القومية الخاصة ، فى اطار الظروف العامـــة للعصر . والثورات التى تفرض من الخارج أو تقلد غيرها من الثورات تقليدا آليا أو تطبق القسمات العامة للثـورة دون مميزاتها النوعية الخاصة ، ثورات فاشلة بالضرورة ان اعتبرت ثورات على الاطلاق

ولكن الاقتصار على السمة العامة للثورة الاشتراكيـــة لا يقل خطرا عن اغفال هذه السمة العامة ، وتجاهلهـــا تماما ، تحت ستار الحرص على السمات الخاصيـــة ، واحترام التجربة المحلية والتمسك بالخصائص القومية .

فباسم هذا كله يفتقر العمل الثورى الى التوجيه والتخطيط النظرى ، ويصبح فريسة للتلقائية وفقدان الاتجاه

والحق ان القانون الاجتماعى يختلف عن القانون الطبيعى . كلاهما بغير شك له صفة الموضوعية والضرورة . ولكنهما يختلفان فى الطبيعة لانهما يعبران عن ظاهرتين مختلفتين . فالقانون الطبيعى تعبير عن ظواهر مادية .. اما القانون الاجتماعى فتعبير عن ظواهر انسانية حية متميزة بالارادة والوعى . وتتحقق القوانين الاجتماعية ، رغم موضوعيتها، عن طريق الارادات الطبيعية والاجتماعية ولهذا يختلف مجرى تحقيق القانون الاجتماعى ، ويتنوع بتنوع الارادات والملابسات المحيطة بها . ويختلف القانون الواحد باختلاف الملابسات التى يتحقق فيها . ويصبح له جانبان : جانب عام وجانب خاص. والاشتراكية كظاهرة اجتماعية لها قوانينها العامة ولها كذلك قوانينها الخاصة فى التطبيق والممارسة الثورية فى البلد المحدد والملابسات المعينة

ولاشك أن الاقتصار على السمة العامة للقانون الاجتماعى جمود وتوقف وافراغ للقانون الاجتماعى من طبيعته الاجتماعية الحية . ولا شك كذلك ان الاقتصار على الصفة الخاصة للقانون الاجتماعى دون الاسترشاد بسمته العامة ، موقف تجريبى ، يفتقد البوصلة النظرية فى العمل الثورى

ولسنا بالطبع ضد النظرية العامة فى تفسير حركة التاريخ وفى صياغة هذه الحركة ، ولكننا ضد الجمود النظرى ، ضد اتخاذ الصيغة النظرية الواحدة فى مختلف العمليات الاجتماعية المتنوعة دون مراعاة للمميزات الخاصة لكل عملية . ان هذا خلط بين طبيعة القانون

الاجتماعي وطبيعة القانون الطبيعي

ولسنا كذلك ضـــد اعتبار التجربة الاجتمـــاعية ، والتطبيق الاجتماعي ، مصدرا أساسيا وحيدا ، للنضارة الدائمة والخصوبة المتجددة لكل فكر نظرى . فالحيـــاة بغير شك اغنى من أى تعريف نظرى . ولا قيمـــة لاى تعريف نظرى مالم يكن تعميما لتجربة حية وانعكاســـا لها . ومالم يختبر دائما فى حركة الواقع المتجدد . ولكن ثمة فارقا بين الالتجاء الى التجربة لاختبار النظرية العامة، واستخلاص السمات الخاصة ، خلال الممارسة والتطبيق، بالمحاولة والخطأ ، وبين الاقتصار على العمل والممـــارسة دون التخطيط الفكرى والاستخلاص النظرى

فكما ان التجربة الخاصة دون نظرية عامة تخبـــط وتلقائية فى العمل الثورى . فان النظرية العـــامة دون التجربة الخاصة جمود وعزلة عن الحياة والثورة معا

والحقيقة ان الذين يصفون التجربة الثورية فى بلادنا بالتجريبية أو البراجماتيـــــة ، انما يسيئون اليها ، ويغضون من قيمتها من حيث لا يريدون . ان معالجـــة الواقع بالمحاولة والخطأ لم يكن أبدا فى تاريخ ثورة يولية بغير أسس نظرية عامة مهما كانت محدودة فى البداية

(مثل الاهداف الستة والدوائر الثلاث فى فلسفة الثورة)

كانت هناك دائما نظرية عامة تثرى وتتطور وتتعمق بالتجربة ، بالمحاولة والخطأ ، لتبلغ مستـــــوى أرقى فى الفكر النظرى ، ثم تعود بدورها الى الواقع والتجـــربة لتتجدد وتثرى وتتعمق من جديد وهكذا . والتجريبية او البراجماتية نزعة عملية بحتة ، نفعية خالصة ، ليس فيها حرص على الاستخلاص الفكرى والتعميم النظرى . وهذا نقيض الحركة النظرية المتجددة المتطورة فى تراث

وكل عمل ثورى ، يحتاج دائما الى النظرة العامة ،كما يحتاج الى تبين الملابسات الخاصة . ولا ينبغى أن تفتعل هذا التعارض .. بل ينبغى ان نحرص على الالتقـــاء والتفاعل بينهما

والواقع ان من يقيمون التنازع والتعارض بين النظرة العامة للاشتراكية وبين مميزاتها القومية الخاصة ، انما يغذون الجمود النظرى من ناحية كما يغذون التلقائيـــة العملية من ناحية أخرى. ولا يخدمون تطور العمل الثورى

والآن ، ما هى القوانين العامة للاشتراكيـــة وما هى سماتها الخاصة فى تجربتنا العربية ؟

نستطيع ان نلخص تلك القوانين العامة تلخيصاشديدا فى النقاط التالية :

أولا : انها الملكية الجماعية لوسائل الانتاج فى مقابـل الملكية الفردية فى النظام الرأســـمالى . فبدلا من القلة التى تملك وسائل الانتاج والاغلبية التى لا تملك غــير قوة عملها ، تتحقق الملكية للشعب العامل . ولا تبقى من الملكية الفردية غير تلك الخالية من الاستغلال ، غير الملكبة غير الانتفاعية . ان جوهر الاشتراكية هو الغاء الاستغلال

ثانيا : ولكن لكى نضمن الغاء الاستغــلال فينبغى ان تتوفر السلطة السياسية لمن آلت اليهم الملكية أى للشعب العامل ، وطليعته الثورية المعبرة عن مصالحه

ثالثا : يصبح العمل لا الملكية هو القاعدة لتوزيع الناتج القومى . وليس معنى هذا طبعا المساواة المطلقة بين دخول المواطنين العاملين . وانما يقوم التفاوت على أساس نوع العمل وكميته ، على أساس المهارة والكفاءة لا على أساس الاصل الطبقى او الملكية

رابعا : العلم هو أساس التنظيم الاجتماعى والتخطيط

الاقتصادي وهو علم موجه لخدمة البناء الاشتراكى بجانبيه الانتاجي والانساني . فهو اذ يسعى لتحقيق زيادة الانتاج فانه يسعى كذلك لرفع مستوى معيشة الشعب ماديا وثقافيا . ولهذا فان التنمية الاشتراكية تحقيق للتوازن بين الانتاج والاستهلاك ، واعتبار الانسان الهدف الاسمى لكل تنمية وتقدم انتاجي

هذه هي السمات العامة المشتركة فى كل التجارب الاشتراكية بما فيها تجربتنا . ولكن ما هى المميزات الخاصة بتجربتنا الاشتراكية ؟ :

اولا : تحقيق الانتقال الى الاشتراكية بطريقة تطورية . حقا لقد كانت اجراءات يولية ١٩٦١ اجراءات ثورية حاسمة الا ان هذه الاجراءات مهدت لها اجراءات ومواقف أخرى وفضلا عن هذا فان الانتقال الى الاشتراكية لم يتحقق بتنظيم سياسى ثورى ، ولا بتغيير جذرى فى جهاز الدولة . وانما تحقق الانتقال بالتشريع السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وبذات السلطة السياسية والقيادة الثورية التى حققت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . لقد انجزت هذه القيادة الثورية التحرر الوطنى للبلاد ، كما حققت الاستقلال الاقتصادى ثم أخذت تنتقل الى الاشتراكية ، نظريا وتطبيقيا تعبيرا عن مصالح الجماهير الشعبية ، واستجابة لضرورات التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى ، وتمشيا مع حركة التاريخ . ولقد أدى هذا الوضع الخاص الى سمات أخرى ، منها :

أ ـ سلمية الانتقال الى الاشتراكية . فلقد استطاعت قيادة الثورة منذ معاركها المبكرة من أجل تثبيت سلطتها السياسية وتحقيق الاستقلال السياسى والاقتصادى أن تنتزع من الطبقات الرجعية سلاح المبادرة والتنظيم السياسى ، وان تقضى على سيطرتها على اجهزة الدولة

الاساسية . ولهذا لم تلق اجراءات يوليـة ١٩٦١ ردود فعل طبقية عنيفة : وتحقق الانتقال الى الاشتراكيـة بطريقة سلمية

ب - نتيجة لعدم توفر التنظيم السياسى الثورى اللازم لحماية الاجراءات الاشتراكية ، سـارعت قيادة الثورة الى الاستعانة بالقوى الشعبية ، وبالعمال والفـلاحين بطريقة مباشرة . فوفرت لهم الاغلبيـة فى مجلس الامة ومختلف المجالس الشـعبية • ومثلت العمال فى مجلس ادارة المؤسسات الانتاجية ، ودعمت نظام الحكم المحلى ، وجمعت بين مركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ فى مشروعات التنمية . .

الا ان ذلك لم يلغ الادراك الثورى بأهميـة التنظيم السياسى لقوى الشعب العامل ، لضمان السـلطة السياسية له ومواجهة بيروقراطية الاجهزة التنفيذية ، فكان الاتحاد الاشتراكى وطليعته الثورية

ثانيا : استبقت الثورة معالم للملكية الفردية فى بعض المجالات مثل مجال التجارة الداخلية والصناعات الخفيفة الخ ، الا انها استعانت بالجمعيات التعاونية الاستهلاكية واشراف القطاع العام للحد من الاستغلال فى هـذه المرحلة من الثورة . الا انها فى مجال الزراعة ، ونتيجـة للحرمان الطويل الذى عاناه الفلاحون ، ولتعطشهم للارض والملكية الفردية ، لم تتخذ الثورة طريق الملكية العـامة للارض الزراعية كما حدث فى الجزائر مثلا نتيجـة لملابساتها الخاصة . الا أن الثورة أدركت ان الملكيـة الفردية للارض ، وتفتيتها لا يتيح تخطيطا سليما للانتاج الزراعى ، ولا يحقق ارتفاع مستوى الكفاية الانتاجية ، ولا يتماشي مع التخطيط الاقتصادى العام . ولهذا سارعت باشاعة النظام التعاونى انتاجا وتسويقـا وهى فى الوقت

نفسه تحرص على الاستفادة من تجارب الملكية العامة فى الزراعة ، ولعل النية تتجه الى عدم توزيع الاراضى الزراعية الجديدة التى ستنجم عن مياه السد العالى

ثالثا : يختلف موقف الدين فى عالمنا العربى ، من الحركة الوطنية والثورة الاجتماعية ، عن موقف الدين فى أوربا . فلم يرتبط الاسلام أو المسيحية بالاقطاع كما ارتبطت المسيحية فى أوربا ، بل ارتبط الدين فى عالمنا العربى بالحركة الوطنية والنضال من أجل التوحيد القومى . ولهذا لم يكن الدين مجرد قيمة روحية وانما كان كذلك قيمة قومية . فالاسلام فى الجزائر معنى أساسى من معانى الوطنية والقومية والصمود البطولى . وكانت معركة الكنائس فى لبنان فى منتصف القرن التاسع عشر معنى من معانى الوعى القومى العربى . وكانت دعوة جمال الدين الافغانى « أيها المسلمون » دعوة نضال وطنى وقومى الى جانب انها دعوة تساند وجدانى ومعنوى . وكان الازهر الشريف منذ بداية القرن التاسع عشر ترسانة للكفاح الوطنى والنضال الثورى وانضاج الملامح القومية . وكان علماؤه الاجلاء حملة مشاعل الثقافة الجديدة والمقاومة والديمقراطية . وما زال الازهر حتى اليوم نقطة تجمع فى الأزمات الوطنية والاجتماعية . ان الدين فى العالم العربى – برغم ما يتسم به بعض رجال الدين من تخلف وجمود – قوة معنوية كبرى ذات مضمون توحيدى شعبى ، معاد للاستعمار والرجعية . حقا ما اكثر ما حاولت الرجعية أن تستخدم بعض رجاله ، وتنسج باسمه الخرافات لعرقلة الثورة العربية التقدمية ، ولكن ما اكثر ما كان الدين كذلك سبيلا لاحراجها وكشفها ودفعها الى مواقف وطنية على الرغم منها ولعل معركة النضال العربى ضد اسرائيل أبلغ دليل على ذلك

وهكذا فان الدين بتراثه النضالى ضد الاستعمار والرجعية وفاعليته الشعبية ودعواه الى العمل والعقل والفضائل ، سمة من سمات تجربتنا الاشتراكية الخاصة

رابعا : يرتبط الانتقال الى الاشتراكية فى بلادنابحركة التوحيد القومى العربى .. حقا انها ترتبط ككل حركة وطنية أو تقدمية بحركة السلام العالمى ، وبمعركة تصفية الاستعمار ، ولكنها فى علاقتها بحركة التوحيد القومى ترتبط ارتباطا مباشرا عضويا

ان حركة التوحيد القومى العربى ، تجعل من تجربتنا الاشتراكية مسئولية عربية شاملة ان البناء الاشتراكى فى بلادنا لا ينفصل عن معركة تصفية أسرائيل قاعدة العدوان الاستعمارى ، بل هو معنى من معانى هذه المعركة . ان البناء الاشتراكى فى بلادنا لاينفصل عن معركة تحرير الوطن العربى والقضاء على الرجعية العربية . ان البناء الاشتراكى فى بلادنا هو البعد الاجتماعى الاساسى لحركة التوحيد القومى . فالوحدة العربية لا تتحقق بالعواطف القومية وحدها وانما بالتحرر الوطنى والتحرر الاقتصادى والتحرر الاجتماعى . وهكذا تصبح الاشتراكية عندنا معنى من معانى الوحدة العربية الشاملة

هذه فى تقديرى — هى المميزات الاساسية الخاصة لتجربة الاشتراكية فى بلادنا . فهل تتناقض هذه المميزات الخاصة مع القوانين العامة للاشتراكية ؟

هل نقيم تناقضا مفتعلا بين المميزات الخاصة والقوانين العامة ، أم نسعى الى التفاعل بينهما تفاعلا خلاقا يتيح اكبر واروع نجاح لتجربتنا الاشتراكية ؟

ان غاية الاشتراكية هى الغاء استغلال الانسان لاخيه الانسان ، فلتتنوع الاساليب والطرق والقسمات القومية ما دامت تفضى جميعا الى تحقيق هذه الغاية ، اشرف غايات الانسان وانبلها

قضايا فكرية فى طريق البناء الاشتراكى

ما هى أهم القضايا الفكرية التى يثور حولها الجدل فى بلادنا هذه الايام ؟ وما صلة هذه القضايا بما تواجهه ثورتنا من مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية مثل العلاقة بين الانتاج والاستهلاك ، ومثل بلورة القيم الجديدة لمجتمعنا ، ومثل صياغة هيكل سياسى لاتحادنا الاشتراكى الى غير ذلك من مشكلات البناء الاشتراكى فى بلادنا ؟! ..

هناك بغير شك مقالات تكتب حول هذه الموضوعات وان كانت تكتب فى الحقيقة بروح التقرير والتسجيل أكثر مما تكتب بروح العمل والنضال والبحث عن حلول جديدة

الا أن هناك طائفة من المثقفين لا تزال تشغلهم قضايا فكرية أبعد ما تكون عن خدمة احتياجات واقعنا الثورى بل لعلهم يشغلون بها الناس عن هذه الاحتياجات نفسها ، بما يثيرونه من بلبلة فكرية وبما ينتهون اليه من نتائج مغلوطة

والغريب أن أغلب هذه القضايا انما يفتعلها أصحابها بدعوى مناهضة الفكر المادى ، وتنمية فكر جديد منبثق من واقعنا . والغريب كذلك أن أغلب هذه القضايا كذلك

انما هى صدى لبعض الكتابات الفرنسية والالمانيـــــــة والامريكية

ولست أعترض على التفاعل بل التـــــأثر بمختلف الثقافات البشرية ، ولكنى اعترض على ادعاء الاصـــالة فى غير أصالة . وسأعرض هذه المرة لقضـيتين من أكثر هذه القضايا اثارة للجدل فى حياتنا الفكرية :

القضية الاولى حول ذلك التناقض المزعوم بين القــول بالحتمية التاريخية والقول بحرية الارادة الانسانية . اما القضية الثانية فتتعلق بالقول بالاشتراكية العربيـــة فى مواجهة القائلين بالطريق العربى أو التطبيـــــق العربى للاشتراكية

أولا :

اما القضية الاولى فيثيرها الدكتور زكى نجيب محمود فى مجلة « الفكر المعاصر » فى مقاله « الماركسية منهجا » ، ولا تكاد تنقطع المناقشات حولها حتى الان . ويعـرض الدكتور قضيته على النحو التالى :

ان هناك تناقضا فى القول بهاتين الفكرتين « فكرة التغير الذى لابد للمجتمع ان يتطور به صاعدا من ادنى الى أعلى، فى مراحل تجىء كل مرحلة منها بجديد لا يكرر ما قد كان قائما فى المرحلة السابقة ، وفـكرة الجبرية التى لابد من افتراضها لو قبلنا مبدأ السببية الصارمة فى سير التاريخ بحيث يتحتم للسبب أن ينتج نتيجته الضرورية التى تلزم عنه . لان جبرية التاريخ معناها أن الماضى يحمل الحاضر فى جوفه ، وأن الحاضر يحمل المستقبل بحيث لو حللنا أية لحظة من لحظات التاريخ ، استطعنا ان نقرأ فيها كل ما هو آت على مراحل الزمن .. فاحدى اثنتين :

« اما ان يكون التاريخ محتوم المسار ، وبذلك لا يكون

فى خطواته «جديد» يبديه ، واما أن يكون فيه « الجديد» يظهره مرحلة بعد مرحلة ، ولذلك لا يكون محتوم المسار

« ان « الحتمية » لاتتفق مع (ارادة التغيير) . لانه مع الحتمية لا تكون ارادة من جانب الانسان ازاء تطور التاريخ الا ان « يتفرج » على ما يحدث له وللمجتمع وللطبيعة على حد سواء »

هكذا ينتهى الدكتور زكى نجيب محمود الى وضع الحتمية فى تناقض مطلق مع ارادة التغيير بل مع حرية الارادة

والحقيقة ان الدكتور يعرض للقضية بطريقة شكلية خالصة ، فهى اما حتمية واما ارادة للتغيير ، ولا لقاء بين هذه وتلك . وما أبعدهذا العرض عن حقائق العلم والحياة معا

ان الدكتور زكى نجيب محمود يرى فى الحتمية مفهوما ميكانيكيا لم يعد يقول به احد فى مجال الطبيعة الصماء : فما بالك فى مجال التاريخ البشرى . ان الطابع الاغلب اليوم لقوانين الطبيعة هو الطابع الاحتمالى الاحصائى ، وهذا لا يقلل من علمية هذه القوانين ، ولا ينتقص من حتميتها . انما يخرج بها فحسب من تلك الحتمية الميكانيكية التى صاغها لابلاس فى كلمته المشهورة ، والتى تجعل من معرفة موضع أى شىء وسرعته أساسا للتنبؤ بمساره الى أبد الآبدين

والغريب ان يستعير الدكتور زكى نجيب هذه الصورة الميكانيكية القاصرة للحتمية فى مجال الطبيعة ليفرضها فرضا على مفهوم الحتمية فى مجال التاريخ البشرى

حقا ان التاريخ البشرى يسير بمقتضى قوانين ضرورية ، انه تحكمه الحتمية كذلك .. الا ان الضرورة والحتمية فى مجال التاريخ تتميز بصفة نوعية خاصة لا تتميز بها الحتمية الطبيعية ، هى الوعى والارادة البشرية

ان القول بالوعى والارادة فى مجال التاريخ البشرى لا ينفى ما يتسم به التاريخ من مسار ضرورى وحتمى . بل لعل هذا الوعى وهذه الارادة جزء من هذه الحتمية وهـــذه الضرورة هى ثمرة التفاعل بين الارادة البشرية من ناحية وبينها وبين الملابسات المحيطة بها من ناحية أخرى

والوعى البشرى لقوانين الضرورة والحتمية ، وسيطرة الارادة البشرية عليها ، انما يعجل بتحقيق هذه القوانين ويتيح الحرية الحقيقية للانسان

هل معنى هذا ان دور الانسان هو مجـــرد التعجيل الزمنى بحركة التاريخ ؟!

لا .. ان الوعى بقوانين هذه الحـــركة ، وان السيطرة عليها وتوجيهها ، هى عملية ابداع وخلق

ان الانسان اذن لا يتفرج على الحتمية التاريخية ـ كما يقول الدكتور زكى نجيب ـ وانما يسيطر عليها ويوجهها توجيها خلاقا . ذلك أن تحقيق القانون التاريخى نفســه انما يخضع لملابسات لا حصر لها ، مما يتيح للعمل الانسانى ان يكون بحق عملا خلاقا

وكما ان مسار التاريخ ليس على هذا النحو الميكانيكى الذى صوره الدكتور زكى نجيب، فكذلك الحرية ، وارادة التغيير ليست على ذلك النحو العفوى الخالص الذى توحى به كلماته

ان حرية الانسان ليست مجرد فعل ، اى فعل ، بل هى فعل مشروط بحتمية القوانين الاجتماعية والتاريخية . وبحسب المنطق الشكلى للدكتور سيقول ، كيف تكون الحرية مشروطة ، انها اذن ليست حرية . ان الحرية هى التخلص من كل قيد أو ضرورة أو حتمية !

وهذا مفهـــــوم سلبى للحرية . ان الحرية ليست فى التخلص من القيود والضرورات والحتميات ، وانما فى

ادراكها والوعى بها والسيطرة عليها . وعلى هذا فلاتناقض بين القول بالحرية وارادة التغيير الخلاق ، وبين القول بحتمية الحركة الاجتماعية أو التاريخية

ان الذى قاد الصاروخ حول الارض ، قد خضع فى قيادته لقوانين طبيعية ، ولكنه خضع لها عارفا بها ، ومسيطرا بخضوعه ومعرفته عليها

وبهذا الخضوع العارف المسيطر — لو صح التعبير — يتحقق ارقى شكل للحرية البشرية ، بل تنفجر قدراته الارادية الخلاقة كذلك

وعلى هذا فان القول بالحتمية التاريخية ، لا يتنافى ابدا مع القول بقدرة الارادة البشرية على التغيير الاجتماعى والتاريخى ، بل ان ارادة الانسان — كما رأينا — تمكن للحتمية أن تتحقق ، كما أن الوعى بالحتمية يمكن للارادة ان تكون اكثر فاعلية وحرية

والغريب ان الدكتور زكى نجيب اراد بمقاله هذا ان يكشف خللا فى منهج الماركسية كما يزعم ، ولكنه وجد نفسه يواجه فصلا فى الميثاق يقول بحتمية الحل الاشتراكى . ما العمل ؟ كيف يوفق بين رفضه للحتمية التاريخية وقبوله ما جاء فى الميثاق حول هذه الحتمية ؟ ما هو المخرج من قول الميثاق :

« ان الحل الاشتراكى لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر — وصولا ثوريا الى التقدم — لم يكن افتراضا قائما على الانتقاء الاختيارى ، وانما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع وفرضتها الامال العريضة للجماهير »

ماذا يرى الدكتور فى هذا التوحيد الرائع بين قانون الواقع الحتمى وبين ارادة الانسان الحرة ؟ !

ولا يجد الدكتور من مخرج الا فى القول بان الحتمية التى

قال بها الميثاق هى حتمية وسيلة !وليست حتمية ممتدة على مراحل التاريخ . كيف ؟

لقد نشأت حتمية الوسيلة ـ كما يقول ـ أى حتمية الحل الاشتراكى من مصادفة حرماننا من الحرية الاجتماعية ، فكان لزاما علينا أن نتصدى لها . وكان من الجائز الا يتسلل الى حياتنا المستبدون والمستغلون والمستعمرون ، فلا ينشأ فى حياتنا الحرمان الذى سلبنا حريتنا الاجتماعية .. وعندئذ تختفى ضرورة الوسيلة نظرا لتحقق الهدف »

وتأسيسا على هذا يفرق الدكتور بين ما يسميه ماركس « حتمية الثورة » وما يسميه ميثاقنا « ضرورة الثورة »، ذلك ان الحتمية تخضع التاريخ كله لمراحل حتمية ، تحتم تتابع المراحل على صورة معينة ، أما الضرورة فقد نشات بحكم ظروف طارئة كان يمكن الا تقع ..

وبتعبير آخر ، ان الاشتراكية ليست حتمية ، ليست ضرورة ، بل هى مجرد وسيلة لظروف طارئة مرت بها بلادنا لو لم نتخلف ، لو لم يحتلنا محتل ، ويستغلنا مستغل ، ويستعمرنا مستعمر

ومعنى هذا كذلك ان الاشتراكية ليست حقيقة من حقائق العصر ، ليست مرحلة من مراحل التاريخ البشرى، ستتحقق فى البلاد التى كانت متخلفة مستعمرة مثل بلادنا كما ستتحقق فى البلاد التي لم تتخلف بل كانت دولا استعمارية متقدمة من الناحية العلمية كانجلترا وفرنسا وامريكا ..

***

ان الدكتور زكى نجيب يفهم من الاشتراكية ضرورة املتها ظروف طارئة ، وهكذا يفقدها طابع الضرورة التاريخية الشاملة . وهكذا يفضى المفهوم الشكلى الميكانيكى

الحتمية عنده الى مفهوم غير علمى للاشـــتراكية ، الى مفهوم غير علمى لحركة التاريخ ولحقائق العصر

وهذا من حقه بغير شك . .

ولكن من واجبنا ان نقف ضد هذا المفهوم وان نرفضه تفســيرا لاشتراكيتنا وثورتنا وميثاقنا . وان نؤكد ان التاريخ يتحرك بمقتضى قوانين موضوعية ضرورية ، وان ارادة الانسان جزء من حركته ، ففى وعيها بهذه القوانين وسيطرتها على هذه الضرورة يندفع التاريخ اندفاعا ثوريا ، وتتضاعف كذلك حرية الانسان

ثانيا :

اما القضية الثانية فتتعلق كما ذكرنا بالاشــتراكية فى مقابل الطريق العربى أو التطبيق العربى للاشتراكية

وما اكثر ما يكتب فى هذا الموضوع من مقالات وكتب وكتيبات . ولكن لعل اعمق دراسة كتبت فيه هى كتاب « اسس الاشتراكية العربية » للدكتور عصمت سيف الدولة . ففى أكثر من اربعمائة صفحة رحت اتابع بناء فلسفيا متراكبا ، زاخرا بالمعارك الفكرية الحادة ، مثقلا بالتحليل الذكى

انه كتاب بالغ العمق ، ولكنه للاسف وللغـــرابة بالغ العقم كذلك . أن مقتل الكتاب فى تعاليه واستعلائه ، فى تعسف احكامه ، فى اجتزائه لرأى الخصوم ، فى نزعتــه المغالية فى التجريد

والرد على مئات الحجج والافكار فى هذا الكتاب يحتاج الى كتاب أو كتيب . ولهذا حسبى هنا ان اعرض لاهم قسماته وأفكاره

ماذا يريد ان يقول فيلسوفنا العربى الجديد ؟

انه يسعى لاثبات ان اشتراكيتنا ليست طريقا عربيا ، ليست تطبيقا عربيا . وانما هى اشتراكية عربية سواء من

حيث النظرية أو من حيث التطبيق . وهو لا يصـل الى هذه النتيجة مبتدئا بالواقع الحى لتجربتنا الاشتراكية ، لقضاياها ومشـــكلاتها ، ومنجزاتها . أبدا ، بل لعله يبدو فى نهاية الكتاب وكأنه لا يعترف بشىء من هذا

انه يتعرض أساسا للمادية الجدلية والمادية التاريخية. وهو يحرص أولا طوال كتابه على تسمية المادية الجدلية باسم الجدلية المادية . ولا ادرى لماذا ؟ فالجدلية صـفة للمادية لا العكس . هذا هو معناها بل هذه هى ترجمتها كذلك فى لغات العالم جميعا

المهم أنه يبدأ طريقه لاثبات عروبة الاشتراكية نظريا وتطبيقا بدحض المادية الجدلية . وخلاصة هذا النقد ان الطبيعة لا تعرف الجدل . فقد نجد بعض قوانين الجدل فى الطبيعة . مثل قانون التأثر والتأثير وقانون الحـركة وقانون التغير . أما القـانون الرابع قانون التناقض ، فيرفضه فيلسوفنا العربى ، وينكر وجوده فى الطبيعة . ولما كان هذا القانون هو جوهر الجدل ـ كما يقول لينين ـ فان انكاره هو انكار للطابع الجدلى للطبيعة ، ولهذا يقصر الدكتور سيف الدولة الجدل على الانسان وحده . ولهذا يسميه جدل الانسان

ونحن نعرف أن الوجوديين الذين يؤمنون بالجـدل ينكرونه على الطبيعة كذلك . ونذكر مناقشـة خصبة اشترك فيها سارتر حول هذه القضية ، على ان الاسس التى يبنى عليها الوجـوديون حججهم فى رفض جـدل الطبيعة تختلف عن حجج فيلسوفنا العربى

المهم انه يؤكد لنا ان الطبيعة لا تعرف الصراع ، لاتعرف التناقض ، فلا شىء داخل الذرة غير التوازن ، ولا صحة لما يقال عن قانون للمصادفة أو مبدأ اللاحتمية أو عـدم التحديد فى الطبيعة

والحقيقة ان مناقشة الدكتور سيف الدولة لهذه القضايا العلمية تكشف عنده عن مفهوم ميكانيكى خالص للعلم ، لعله يؤمن به ، أو لعله يتمسك به ليدحض بمقتضاه راى خصومه !

على ان عرضه للحقائق العلمية الجديدة يكشف عن بعد شاسع بينه وبينها . انه لا يدرك فى مفهوم الصادفة واللاتحديد الا نقيضا مباشرا لمفهوم الضرورة والحتمية ، ولا يبصر فيها مفهوما جديدا غير المفهوم الميكانيكى القديم لهذه الضرورة والحتمية . وهو يتسرع بالقول بالتوازن فى البناء الداخلى للذرة متجاهلا كل ماتتسم به حركة الاشياء الطبيعية سواء داخل الذرة أو فى الطبيعة أو فى الكون الفسيح من صدام وتناقض وصراع

بل هو لا يتساءل عن سر الحركة والتغير والتأثير المتبادل بين الاشياء . وهى مبادىء يسلم بها ولكنه لا يسعى لتفسيرها

كيف نفسر هذه المبادىء بغير التسليم بالطابع الصراعى لنسيج الاشياء ؟!

انه يحدد ان الجدل خلق واضافة ، وخروج من دائرة الماضى الى افاق المستقبل . ولما كانت الطبيعة لا تتسم بهذا فهى اذن ليست جدلية . وكل ما حاوله انجلز لاثبات جدلية الطبيعية وهم وتعسف . انما الجدل وقف على الانسان وحده

والحقيقة ان الدكتور سيف الدولة يناقش حقائق العلم مناقشة يغلب عليها التعسف واعتصار الاحكام الزائفة ، تحقيقا لمخططه الذهنى المسبق الذى يهدف الى قصر الجدل على الانسان

ان قوانين الجدل فى الطبيعة هى نفسها قوانين الجدل فى الحياة الانسانية . الا ان قوانين الجدل الانسانية تتخذ

طابعا نوعيا خاصـــــا لتوفر الوعى والأرادة فى التجربة الانسانية . وهذا ما يميزه تمييزا نوعيا عن جدل الطبيعة. وكان فى مقدور الدكتـــور سيف الدولة ان يكتفى بهذا التمييز النوعى بدلا من افتعال رفض الجدل فى الطبيعة ، وخاصة وقد سلم بالقوانين الثلاثة الاولى لهذا الجدل

وننتقل بعد ذلك معه فى رحلته الفــكرية الى مرحلة اخرى يسميها جدل الانسان . ويؤكد فيها ان الجدل هو خاصية انسانية نوعية ، ويحدده بأنه التناقض بين الماضى والمستقبل ، والانطلاق المتصل نحو الحرية ، كما يحدد له صيغة ثلاثية المراحل على النحو التــالى : التعرف على المشكلة ، انبثاق رأى لحل هــذه المشكلة ، حل المشكلة بالعمل ، بين المشكلة والرأى والحل بالعمل يتحرك جدل الانسان فى انطلاقه نحو الحرية

هذه هى الصيغة التى يستبدل بها كل الصيغ الاخرى بل يسفه بها كل الصيغ الاخرى من تناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، أو صراع بين الطبقات . انه يجد فى هذه الصيغ المادية قصورا عن الشمول الانســانى والحتمية العلمية ، ولا يجد الشمول والحتمية الا فى صيغته التى ذكرناها

والحقيقة ان تلك الصيغة ليست الا تجريدا مخلا يعبر عن كل شىء ولهذا فهو لا يعبر عن شىء !

اننا نستطيع مثلا ان نحدد بها مسلك القردة فى تجارب كوهلر المشهور ، كما نحدد بها مسالك الفئران فى متاهات علم النفس المعروفة ، كما نستطيع ان نصور بها ــ كما فعل فيلســوفنا ــ حركة التاريخ البشرى . ولكننـــا لا نستطيع بها شيئا أن نحدد عينيا فى هذا التاريخ . بل ستصبح هذه الصيغة سبيلا لطمس حقائق التاريخ العينية وقوانينه الخاصة ، كما تحقق فى الصورة التى يقدمهـا

الدكتور سيف الدولة للتاريخ البشرى ان تغافله أو أهماله للصراع الطبقى ، وان تعاليه فوق التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، قد أتاح له أن يجعل حركة التاريخ مشاعا بين الناس جميعا بغير تمييز . فاذا اشار الى تناقضات طبقية بينهم كانت أشارته عرضية، وثانوية ، واذا استعان بالدولة فانه يجعل الدولة مجرد ادارة للمصالح المشتركة بين الناس جميعا ، دون أن يكون لها دلالة طبقية أو أجتماعية معينة

وهكذا جعل الجدل الاجتماعى فى صيغته الثلاثية بدبلا للصراع الاجتماعى ، وجعل تلك الصيغة هى التفسير الوحيد لحركة التاريخ الى الامام على حين رأى فى الصراع الاجتماعى عاملا معوقا لحركة التاريخ . ومن هذا كله راح يطل على التجربة الاجتماعية فى وطننا العربى.

وهو يبدأ بمناقشة موقف الماركسية من القومية ، وينتهى الى ادانة هذا الموقف . والدكتور سيف الدولة يخلط فى ادانته لموقف الماركسية من القومية بين موقفها من القومية البورجوازية وبين موقفها من القومية عامة . ان الماركسية تفضح القومية البورجوازية وتدينها ولكنها توفر ــ فى الاتحاد السوفيتى مثلا ــ ارقى شكل لتحقيق القوميات على إساس اشتراكى

ثم ينتقل الدكتور سيف الدولة بعد ذلك الى تحديد معالم أشتراكيتنا العربية بعد كل ما تقدم ..

انه يوحد بين اهدافها الثلاثة من تحرر ووحدة واشتراكية ، حريصا على هذا الترتيب نفسه لهذه الاهداف الثلاثة ، مسفها أى رأى يدعو الى اقامة الاشتراكية اساسا للوحدة ، مؤكدا انه لا اساس للاشتراكية ولا قيام لها بغير الوحدة القومية . ويكاد يدعو الى الثورة العربية الواحدة الشاملة التى تحقق التحرر

والوحدة تمهيدا للاشتراكية الشاملة كذلك . وأن أعترف بتنويع التجارب الاشتراكية بتنويع المجتمعات العربيـــة وتفاوت نموها

وفي معرض التمييز النظرى بين قيم اشـــــتراكيتنا العربية والاشتراكيات الاخرى ، يشير اشارات سريعة الى قيم الدين الاسلامى مصدرا لقيم هذه الاشتراكية ، كما يبرز أن اشتراكيتنا تدعو الى الغاء استغلال الانسان لأخيه الانسان ، على حين تدعو الماركسية الى الغاء الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، أما اشتراكينا فتستبقى الملكية الفردية ما دامت غير مستغلة

والحقيقة انني انتهيت من الكتاب ورحت أسائل نفسى : هل اقنعنى الدكتـــور عصمت سيف الدولة من الناحية النظرية بالاشتراكية العربية ؟!

ووجدتنى اتوه فى دوامة من الاحـــــكام المتسرعة ، والتعميمات المخلة ، والدعوات العاطفية

ولقد احسست ان كل المقدمات النظرية التى انتهى منها الى انكار الجدل فى الطبيعة ، والى قصره على الانسان ، كان من الممكن الا تكتب على الاطلاق ، لانها لم تحدد لى اسسا ضرورية للنتيجة الاخيرة التى وصل اليها . انهـا ليست اسسا نظرية ضرورية للاشتراكية العربية بحسب نتائجه نفسها

لقد انتهى الى هذه الاشتراكية العربية فى النهاية بغير حاجة الى تلك المقدمات النظرية العميقة . بل لقد أحسست ان الدكتور سيف الدولة لا يقدم دراسة لواقع الاشتراكية العربية، بقدر مايقدم رؤيا نظرية لاشتراكية ولاسس يؤمن بها ، أو يتصورها . ولكنها لا تشكل اساسا علميا لما يمكن ان نسميه بالاشتراكية العربية

ولعـــل السمات المباشرة التى ترتبط بتلك التسمية

الخاصة هي تلك السمات التي توحد بين الكفاح من اجل التحرر والوحدة القومية والاشتراكية . ولكن هـذه السمات الموحدة لا تشكل سمات نوعية خاصة بالتجربة العربية وحدها ، بل هي سمات لكل البلاد النامية ، الممزقة قوميا ..

اليست هذه هي سمات الحركة التقدمية في الصومال مثلا ، هناك الحرية مفتقدة ، والوحدة القومية مفتقدة ، والمعركة من أجل الاشتراكية مرتبطة بالحرية والوحـدة كذلك • وكذلك الشأن في كثير من البلدان الافريقية •وعلى هذا فهي ليست سمات خاصة نوعيـة ـ كما ذكرنا ـ بالتجربة العربية بحيث تمثل اساسا نظريا لاشـتراكية نوعية خاصة

ان اشتراكيتنا ، في الحقيقة ، وببساطة ، هي اشتراكية علمية . والاشتراكية العلمية في جوهرها هي الغاء استغلال الانسان لاخيه الانسان

وليس صحيحا أن الماركسية لا تجعل من الفـنـاء الاستغلال أساسا للاشتراكية ، وتقصر الاشتراكية ـ كما يقول الدكتور سيف الدولة ـ على الغاء الملكية الفردية انها عندما تقول بالغاء الملكية الفردية فانما تسعى لالغـاء المصدر الاساسي للاستغلال • وعلى هذا فالهدف هو الغاء الاستغلال

واشتراكيتنا من حيث هذا الجوهر لا تختلف عن أي اشتراكية اخرى . الا أن التطبيق النوعي للاشتراكية في بلادنا ، وفي ظروف وطننا العربي يضيف الى ذلك الجوهر العلمي للاشتراكية قيما نظرية جديدة ، وهي اضـافات خلاقة بغير شك . لعل ابرزها مفهوم التطور الثـوري ، ومفهوم التحول السلمي لجهاز الدولة ، وعدم قيـام دكتاتورية البروليتاريا كشرط للانتقال الى الاشـتراكية

الى غير ذلك من السمات الجديدة التي لا مجال لمناقشتها هنا

وهذه الاضافات لا تخرج اشتراكيتنا عن الاشتراكية العلمية ، ولا تقدم بديلا عربيا للاشتراكية العلمية ، ولكنها تضيف قيما جديدة الى النظرية الاشتراكية العامة

وفى تقديرى ان دراسة القسمات الجديدة الواقعية لتجربتنا الاشتراكية كانت اجدى على الدكتور سيف الدولة وعلينا من تحليقاته الفكرية الموغلة فى التجريد التى افضت به فى النهاية الى موقف غير علمى من هذه التجربة الاشتراكية ذاتها

انه يحرص على ان تكون الوحدة أساسا للاشتراكية ؛ ويرفض ان تكون الاشتراكية اساسا للوحدة ، كما تؤكد كل وثائقنا الثورية ، بل خبرتنا الثورية نفسها

ولهذا فهو — رغم هذا الجهد النظرى الكبير — ينتهى الى مخطط فكرى مناقض لحركة الاحداث ولواقع الخبرة الحية ، متجاهلا ما يحدث فى جمهوريتنا العربية المتحدة ، التى تبنى الاشتراكية قاعدة للوحدة العربية الشاملة

ان العيب الاكبر فى هذا الجهد الكبير والثقافة الواسعة التى يضمها كتاب الدكتور عصمت سيف الدولة ، هو التعالى والتجريد والتسرع العاطفى فى كثير من الاحكام

ولهذا فان الكتاب يثير من البلبلة أكثر مما يحقق من الوضوح

وهكذا كاد ينتهى الى ما انتهى اليه من قبل الدكتور زكى نجيب محمود. لقد اقام الدكتور زكى نجيب محمود تناقضا شكليا بين الحتمية وارادة التغيير ، فانتهى الى مفهوم غير علمى للاشتراكية، وكذلك اقام الدكتور عصمت سيف الدولة تخطيطا مجردا انتهى به الى موقف متعال مثالى من تجربة بناء الاشتراكية فى بلادنا باسم الدفاع المخلص الامين عنها والتأصيل النظرى لها

قضية الوضوح الفكرى

هل فى بلادنا ثورة فكرية وثقافية ، ترتفع الى مستوى ثورتنا السياسية والاقتصادية والقومية ؟

الاجابة هى : نعم ، ولا ..

وقد يزول العجب من هذه الاجابة المتناقضة فى ظاهرها ، لو تأملنا بعض الملابسات التاريخية الخاصة بثورتنا

فالثورات جميعا تكاد تشترك فى أن الوعى الفكرى والثقافى بها ، يسبق قيامها ويمهد له

ولسنا نستطيع ان نقول ان ثورة ٢٣ يولية قد بدأت مسلحة بالاجابات والحلول الجاهزة النهائية لكافة القضايا والمشاكل التى واجهتها

لقد تحركت ثورة ٢٣ يولية على أرضية تزخر بالمتناقضات الاجتماعية ، وتحتدم بالنظريات والافكار المختلفة

وقد تحركت ثورة ٢٣ يولية ، مستفيدة من كل هذه المعارك والافكار ، معبرة عن مصالح الشعب واشواقه ، الا ان الطابع المميز لها ، كان الطابع العملى الحاسم ، لا الطابع الفكرى . لقد بدأت بالسيطرة مباشرة على الدولة مستخدمة فى هذا جهازا من اجهزتها هو الجيش

على أن الجيش لم يتحرك بالمصادفة ، أو بالمغامرة ، ولم

(*) المصور : مارس سنة ١٩٦٥

يتحرك من فراغ وتلقائيــــة ، وانما قاده تنظيم هو تنظيم الضباط الاحرار • والتنظيم ليس مجرد علاقات شكلية ، بل هو مضمون سياسي وفكرى - يربط بين هذه العلاقات ويوحدها ويوجهها الى العمل

على أن الرباط التنظيمي بين الضباط الاحرار ، كان رباطا سياسيا أكثر منه رباطا فكريا • الا اننا لا نستطيع ان نغفل ما يتضمنه كذلك من خــــط فكرى عام • ان الاهداف الستة التى رفعتها قيادة الثورة منذ البداية ليست مجرد اعلام سياسية من اجل التحرر والديمقراطية ، بل كانت تتضمن موقفا فكريا محددا من العلاقات الاجتماعية كذلك ، موقفا مناهضا للاقطاع وسيطرة الاحتكار ورأس المال على الحكم

ورغم هذا الخط السياسي والفكرى العام ، فان سيطرة قيادة الثورة منذ البداية على جهاز الدولة واســــتنادها مباشرة على الجيش ، جعل الفعل يسبق الفكر ، والاجراء يسبق الكلمة ، والموقف العملى يسبق التوعية النظرية • كانت القيادة مطالبة منذ البداية باجابات وحلول ومواقف عملية ازاء ما تواجهه من مشكلات وعقبات

وهكذا غلب على الثورة منذ بدايتها الطابع العمــــلى والاجرائى • وظل الى عهد قريب الطابع العام للحـــركة الثورية فى بلادنا • لقد القى جمال عبد الناصر خطـاب تأميم شركة قناة السويس فى ذات الوقت الذى كانت فيه كتيبة مقدامة تنفذ اوامر التأميم • وكانت تشريعـــــات ١٩٦١ الاشتراكية سابقة على كل توعية فكرية بها ، اللهم الا الحيثيات النظرية السابقة على هـــذه التشريعات ، أو بعض المقالات غير المباشرة التى مهدت لها من بعيد

وتكاد هذا الطابع العملي ان يسم الثورة عند طائفة كبيرة من المفكرين بالتجريبية الخالصة ، وهذا غير صحيح

فالثورة كما ذكرنا لم تبدأ بفراغ فكرى ، ولم تــكن التجربة والخطأ وحدها هي العصا التى تجس بها طبيعة الارض التى تنطلق عليها • فمنهج التجربة والخطـأ لا يفضي وحده الى معرفة حقيقية جادة ، مالم يؤسس على علم ويتحرك فى اطار علم • ان منهج التجربة والخطأ بدون وضوح فكرى سابق ووعى بالاهداف البعيدة وحــرص عليها ، يصبح مغامرة محفوفة بالاخطار • ولقد عبر الميثاق أروع تعبير عن هذا بقوله

« العلم وحده هو الذى يجعل التجربة والخطأ فىالعمل الوطنى تقدما مأمون العواقب وبدون العلم فان التجربــة والخطأ تصبحان نزعات اعتبــاطية ، قد تصيب مرة ، ولكنها تخطىء عشرات المرات »

ان الثورة منذ البداية كانت تتحرك فى اطــار وعي فكرى عام ، باهداف ثورية محددة ، وكانت تتحركبمنهج علمى فى التحرك ، ورؤيا علمية للواقع

ولم يكن هذا يشكل نظرية متكاملة ، ولكنه كان يشكل اطارا فكريا ، يزداد وضوحا وعمقا ونضجا وتكاملا مــع التمرس الثورى نفسه

ولهذا ، فنستطيع أن نتبين خطا فكريا متصــلا ناميا عبر هذه السنوات • وعندما نتأمل اليوم « فلسفة الثورة » نكاد نجد فيها ارهاصا واضحا بميثاق العمل الوطنى • حقا ، لقد تعمقت النظرة ، ونضجت الخبرة ، واتســع الافق ، ولكن •• ما أكثر الجذور الممتدة المتصلة

منذ البداية كان هناك هذا الربط الواعى بين الثورة السياسية ضد الاستعمار ، والثورة الاجتماعية ضــد

الرجعية والاستغلال • وكان العمل السياسي يخدم هذا الوعي المزدوج • فكان الصراع ضد الاحتلال البريطاني مرتبطا منذ البداية بتوجيه الضربات الى الاقطاع ، وسيطرة الاحتكار ورأس المال

وفي الدوائر الثلاث – في فلسفة الثورة – نجد البدايات الفكرية الاولى لشعارات الوحدة العربية والحياد الايجابي وعدم الانحياز

وفي الصفحات الاولى عن فلسفة الثورة نجد بذور هذا الاحساس العلمي بحركة التاريخ ، نجد هذا التأكيد بأن قصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء ، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات •

ومن هذا الاحساس العلمي تبلورت الخبرة الناضجة في الميثاق بعد ذلك ادراكا لحتمية الثورة ، ومعرفة بقوانينها الموضوعية ، ووعيا بشروطها

وما زلت اذكر كلمات هادئة بسيطة قالها جمال عبد الناصر في صالة الاحتفالات بجامعة القاهرة عام ١٩٥٣ فيما أعتقد ، كان الهتاف من حوله بالدستور والديموقراطية وتحدث عبد الناصر عن المضمون الاجتماعي للحرية ، عن الديموقراطية الشكلية والديموقراطية الحقيقية ، وكان يبشر منذ وقت مبكر بمفهوم جديد دار عليه صراع حاد عام ١٩٥٤ ثم نضج وعبر عنه الميثاق بعد ذلك تعبيرا علميا واعيا في فصله الخاص بالديموقراطية

ما أحب أن أستطرد ، فأدرس بالمتابعة والمقارنة تطور فكر الثورة عبر وقائعها ومواقفها المختلفة ، منذ بدايتها حتى اليوم ، ولكن حسبي هنا أن أؤكد أن الثورة لم تبدأ بفراغ فكري • وانما كانت تتحرك دائما بوعي علمي ثوري ، يزداد نضجا وعمقا ووضوحا بالتجربة والخطأ ، بالممارسة والتطبيق

والميثاق فى الحقيقة ليس وثيقة نبتت فجأة فى تاريخ الثورة . انا لو تأملناه بعمق ، لوجدنا فيه عصارة مئات الخطب والاحاديث التى القاها وادلى بها جمال عبد الناصر عصارة مئات التشريعات والمواقف العملية التى اتخذتها قيادة الثورة منذ عام ١٩٥٢ ، عصارة امينة لاهداف الشعب ، وتاريخ نضالاته ، واشواقه . نستطيع ان نتبين وراء كل فقرة ، حادثة ، موقعة ، تجربة ، خبرة ، تشريعا ، والميثاق فى الحقيقة جاء تتويجا لمواقف واجراءات عملية وليس تمهيدا لها . ولكنه كان هناك قبل تلك المواقف وهذه الاجراءات ، فى صورة جنينية هناك فى ذهن قيادة الثورة يصوغ الموقف ويحدد الاجراء ، قبل أن يصبح هو حقيقة مكتوبة متكاملة على الورق ، تلتزم بهـا الثـورة والشعب التزاما جماعيا واعيا . وهكذا أصبح الميثـاق بلورة نظرية لتطبيقات سابقة ولكنه كذلك استشراف واع بمرحلة جديدة من مراحل النضال الثورى .

ولعلنا نستطيع ان نحدد التسمة الفكرية الاساسية للثورة فى نموها وتطورها منذ ١٩٥٢ حتى اليوم بانهـا النظرة العلمية للواقع ، والمعالجة العلمية الواقعية لمشاكله ، وهى نظرة علمية لا تفرض على الواقع قوانينها العامة ، وانما تكتشف هذه القوانين وتختبرها فى الواقع نفسه . وتكاد هذه النظرة العلمية الواقعية أن تكون جوهر المنطق الفكرى للميثاق .

وفى اطار هذه النظرة العلمية الواقعية ، تم الربط بين الثورة التحريرية والثورة الاشتراكية ، ثم الـربط بين حركة التوحيد القومى والثورة الاجتماعية ، ثم الربط بين معركة البناء الداخلى ومعركة التضامن العـالمى لتصفية الاستعمار وتأمين السلام ، وعلى ضوء هذه النظرة العلمية الواقعية ، احترمت الثورة الملكية الخاصة والفردية فى

غير تناقض مع الوظيفة الاجتماعية للملكية بصفة عامة ، وفى اطار هذه النظرة العلمية الواقعية ، يتخذ الدين وتتخذ القيم الروحية والمعنوية عامة مكانها الايجابى فى البنـــاء الاجتماعى نفسه ، وفى اطار هذه النظرة تحقق الثـــورة أهدافها تحقيقا ثوريا وسلميا فى وقت واحد • وفى اطار هذه النظرة العلمية الواقعية تفتح الثورة ابوابها لخبرات النضال والتقدم أيا كان مصدرها ، فى غير جمود او تزمت أو تقليد اعمى

بهذه النظرة العلمية الواقعية ، تحركت الثورة نحـــو أهدافها ، وواجهت مشكلاتها ، وخطت تاريخها المتصل

ونعود بعد هذا كله الى سؤالنا الاول :

هل الثورة الفكرية تواكب الثورة السياسية والاقتصادية والقومية ؟

نعم ــ كما رأينا ــ فى حدود القيادة والطلائع الثورية عامة • ولكننا لو تأملنا الواقع الفكرى والثقافى عامة بين الجماهير الشعبية ، لوجدناه متخلفـا عن ثورة الاجراءات والتشريعات

حقا ، ان الجماهير تتحرك خلف قيادتها بالحمـــاس والتأييد ، وتجد فى الميثاق والتشريعات الثورية والمواقف المختلفة لقادة الثورة تعبيرا عن ارادتها ومصالحها وأشواقها وأحلامها

ولا شك كذلك أن الجماهير نفسها قد ألهمت القـــادة أنفسهم وعلمتهم كثيرا من أسرار الحكمة والحنكة السياسية وصنعت بصمودها الانتصارات الحاسمة • الا أن الوضوح الفكرى والنضج الثقافى ما زالا متعا تحرم منها الملايين من أبناء الشعب

والقضية ليست قضية معرفة بالميثاق ، وفهم للاجراءات الثورية فحسب ، وانما هى كذلك طريقة للتفكير ، وأسلوب

لمواجهة مشكلات الواقع ، وهي كذلك قيم وأخلاق وعادات جـــديدة .

من هذه الناحية ، نؤكد أن الثورة الفكرية والثقافية في بلادنا لا تزال تحتاج الى كثير من الجهود

ان مجتمعنا ما زال يعيش مرحلة انتقالية ، يتنقل فيها من علاقات انتاج رأسمالية الى علاقات انتاج اشتراكية . ورغم كل المكاسب والانتصارات الاشــتراكية التي تحققت في بلادنا ، فلا تزال لعلاقات الانتاج الاقطاعية والرأسمالية، واقعها وآثارها ورواسبها وقيمها في الفكر والعمل والثقافة والاخلاق والعادات والاذواق والمواقف العملية

ان كل ما ورثناه من مجتمع الزراعة المتخلف ، من فكر زراعي يقوم على التواكل والغيبيات ، وكل ما ورثنــاه من المجتمع الملكي الاستغلالي الاستعماري من فردية وأنانيـــة وتناحر واستعلاء طبقي وتحلل أخلاقي ، لا تزال قيما باقية في وجداننا وأفكارنا وعاداتنا

وما أسهل بناء المصانع واتخاذ الاجراءات الثورية ، ولكن ما أصعب صياغة الافكار وبناء المشـــــاعر والضمائر والوجدانات والعادات الجديدة

لقد قامت في بلادنا مئات المصانع الجـــديدة ، وقامت أسس لمجتمع صناعي متقدم ، ولكن العقلية الصناعية ، العقلية العلمية ، لم تتحقق لها السيادة بعد . وقام التخطيط العلمي أساسا من أسس حياتنا السياسية والانتاجية . ولكن التخطيط ما زال غريبا عن حياتنا العامة والخاصة

ما زال الريف تسوده القيم الاقطاعية القديمة ، وما زالت الفردية هي الطابع المميز للحياة في المدينة الكبيرة

لقد استطاعت قيادة الثورة أن تقضي الى حد كبير على الاسس المادية والموضوعية للافكار والقيم المتخلفة ، مجنبة الشعب أهوال الحروب الاهلية والصراع الطبقي الدامي ،

محتفظة بقيمه الاساسية وتراثه الاصيل • وكان وسيلتها دائما سلاح المبادرة العملية والاجراء الحاسم ، الا أن هدم الماضي والتشريع للمستقبل لا يكفي وحده لبناء هـــذا المستقبل • وبناء المستقبل ليس بناء للمصانع والقرى فحسب ، وانما بناء للقيم والافكار التي تدير المصانع والقرى

وهذه المرحلة الجديدة من البنـــاء لا تتم بالاجراءات والتشريعات الحاسمة • وانما تتم بالوضوح الفـــكري وبالوعي الثوري ، واشاعتهما بين جماهير الشعب

هذا هو الطريق لازالة خرائب الماضي التي تسد الطريق نحو المستقبل ، الطريق لتحويل التشريعات الثورية الى حقائق حية ، واكتشاف أساليب خلاقة لانجازها ، الطريق لبناء الاشتراكية في بلادنا وانطلاقنا نحو افاق لا تحد من الرفاهية والسعادة والحرية

وقضية الوضوح الفكري في مجتمعنا الانتقالي الراهن ، انما تتحقق بالصراع الفكري السلمي بين الافكار • وبالنقد الذاتي فضلا عن العمل السياسي الجماهيري

والقضية ليست قضية وضوح فكري بين قادة الثورة أو بين طلائعه الثورية فحسب ، ولكنها أساسا قضية الوضوح الفكري بين جماهير الشعب • حقا ، اننا لا نستطيع أن نزعم أنه قد تحقق وضوح فكري بين الطلائع الثورية • بين المثقفين عامة في بلادنا ، فما أكثر ما بينهم من خلافات وتناقضات فكرية وثقافية ، على أن تصفية هذه الخلافات والتناقضات لن تتم بالحوار المقفل بين بعضهم البعض ، وانما تتم من خلال الحوار المفتوح مع جماهير الشعب ، من خلال معركة الوضوح الفكري بين جماهير الشعب ••

ولعل هذا أن يكون كذلك المعنى الموضوعي للديموقراطية في هذه المرحلة من حياتنا الثورية • انها ضرورة العمـــل

الجماهيرى من أجل البناء ، عملا يقوم على الاقتناع والحماس والوعى والوضوح الفكرى • ان معركة الوضوح الفكرى هى وسيلتنا لتحريك الجماهير وتعبئتها وتنشيطها من أجـــل تحقيق الاهداف الاساسية للثورة

ولكن ماذا يعنى الوضوح الفكرى بين جماهير الشعب ؟ هل يعنى أن ننشر الميثاق بينهم ، وأن ندرس فصوله المختلفه فى المدارس والمعاهد والمصاطب والحقول والمصانع والمجمعات والنوادى ؟

هذا جانب من غير شك من معركة الوضوح الفكرى ، وهو جانب بالغ الاهمية والخطورة • ان التوعية بالميثاق روحا ومنهجا ونظرة علمية وأهدافا ، هى سبيلنا للوضوح الفكرى والتوحيد الفكرى .

على أن هذا وحده لا يكفى • بل لو اقتصر الامر على هذا وحده لانتهى الميثاق الى غير ما يراد منه • فما أكثر ما يستخدم المياق استخداما جامدا آليا مما يفقده حيويته وجديته • ان دراسة الميثاق تحشر حشرا فى المدارس حتى يصبح موضوعا لمادة النحو والتطبيق وتحسين الخط ! وبهذا يصبح كذلك مادة للسخط والضيق بين التلاميذ

ينبغى أن نستعين بمختلف وسائلنا الثقافية والفنيـــة والفكرية لتحقيق الوحدة الفكرية والوضوح الفكرى بين جماهير شعبنا .

ولا شك أن التغيير الاقتصادى نفسه يبث فى المواطنين أفكارا وقيما جديدة ــ ان مجتمع الصناعة لم يعد يحتمل مثلا ــ نموذج المرأة المترهلة نؤوم الضحى ، ولم يعد يحتمل الشاب المخنث الضائع بين المقاهى والنـــوادى والازياء الجديدة • ان النشاط والعمل والانتاج والمشاركة الجماعية أصبحت قسمة أساسيه من قسمات حياتنــا التى تنعكس كذلك فى أفكارنا وقيمنا

على أن القضية لا يمكن أن تترك للتلقائية • انها تحتاج الى تدبير وتخطيط وتوجيه وتوعية وتعبئة ، فى غير تعسف أو جمود

وهناك جهود كبيرة مثمرة تبذل فى هذا الشأن بغير شك على أن القضية هى قضية ثورة ثقافية • ولهذا تحتاج الى مضاعفة الجهود ، وحسن تخطيطها ، ومتابعتها

ما أكثر المعارك الفكرية والثقافية فى بلادنا خـــلال السنوات المقبلة

ولكن مهما تنوعت هذه المعارك واختلفت مظاهرها فهى فى جوهرها معركة واحدة من أجل اشاعة الفكر العلمى بين جماهير الشعب • من أجل اللقاء الحى بين المثقفين وجماهير الشعب ، من أجل ارتباط الثقافة عامة بالثورة الاجتماعية والثورة العلمية على السواء

وعندما يتحقق هذا لا ندرى أى كنوز من الابداع سيتفجر بها وجدان الشعب ، أى كفاءات وقيم ومواهب خارقـــة ستتألق فى مختلف مجالات الفن والفكر والثقافة والعلم • ولا ندرى كذلك أى اندفاع وانطلاق سيحققه الحقل والمصنع

ان سنوات الصناعة الثقيلة فى مجال الانتاج ستكون سنوات الثورة الفكرية والثقافية فى حياتنا العامة

فلا تخطيط ولا تنمية ولا صناعة ثقيلة بغير هذه الثورة ، ولا قضاء على البيروقراطية والانانية والسلبية والتواكل بغير الوضوح الفكرى والوعى الثورى والنضج الثقافى الشامل

وليس معنى هذا أن التخطيط والتنمية والصناعة الثقيلة ستنتظر حتى يتحقق الوضوح الفكرى ويشيع • بل ستكون عاملا من عوامل الوضوح نفسه ، كما أن الوضوح سيكون عاملا من عوامل انضاجها وانجاحها وانطلاقها الى غير حد

وما أكثر ما يقع على عاتق الاتحاد الاشتراكى من أعبـاء ومسئوليات ، من أجل تحقيق هذا الهدف العظيم

فهرس

صفحة

مقدمة ٦

فى الفلسفة :

بلاش فلسفة ٨
دفاع عن الفلسفة ١٤
دفاع آخر عن الفلسفة ٢٢
ما وراء المدرك الحسى ٤٩

فى العلم :

السيبرنيطيقا ٥٠
دفاع عن العلم ٦٧
العلم والحرية ٧٨
التفكير العلمى عند العرب ٩٥
اليسار العربى والنظرية العلمية ١٠٩
دفاع عن التاريخ ١٢٧
دفاع عن حضارة الطين ١٤٣

فى الحرية :

معنى الحرية ١٥٤
معنى الحرية فى مجتمعنا الجديد ١٦٤
الديمقراطية والماركسية ١٧٤

فى التطبيق الاشتراكى :

أكثر من طريق الى الاشتراكية ١٨٨
قضايا فكرية فى طريق البناء الاشتراكى ٢٠١
قضية الوضوح الفكرى ٢١٥

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جـدة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد - ص.ب ٢١

البرازيل : Mr. Miguel Maccul Cry,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هـذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الادبية والفكرية .. كل دراسة منها تناقش مشكلة وتدخل فى معركة من معارك الفكر والحياة .. وهذه هى « شخصية » مؤلف الكتاب .. محمود أمين العالم . انه كاتب غير متردد ، وهو دائما من أصحاب المواقف التى تمتاز بالحسم والحدة والوضوح ...

وقد بدأ العالم « ٢٠ سنة »حياته الادبية شاعرا رمزيا رقيقا ، وأثمرت هذه البداية ديوانا من الشعر يعده للطبع قريبا . ودرس العالم الفلسفة فى كلية الاداب حيث تخرج من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ . ونال الماجستير بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الاولى من نفس الكلية سنة ١٩٥٣ عن بحث له بعنوان « المصادفة الموضوعية ودلالتها فى فلسفة الفيزياء »

وتفرغ « العالم » بعد ذلك للعمل الصحفى وتخصص فى النقد الادبى .. وهو فى نقده يجمع بين وضوح الرؤية الفكرية ، وعمق الثقافة الفلسفية ، وجمال التعبير الشعرى، وقد استطاع أن يكسب لقلمه جمهورا واسعا ، كما استطاع أن يعبر عن تيار جديد فى النقد الادبى المعاصر .. وهذا الكتاب ثمرة من ثمرات التيار الذى يتبناه « العالم » ويمثله خير تمثيل فى نقدنا المعاصر .. الا وهو « التيار الواقعى »

كتاب الهلال
١٠ قروش



سلسلة
ثقافية
شهرية

ابوذر الغفاري
الاشتراكي
الزاهد

عبد الحميد جوده السحار

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير رجاء النقاش

العدد ١٧٨ رمضان ١٣٨٥ - يناير ١٩٦٦

No. 178 — Janvier 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى - فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا - فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم - فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف - فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال

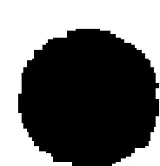


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـلاف بريشـــة
الفنان حلمى التـونى

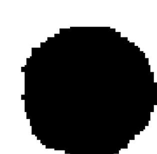
أبو ذر الغفاري

الاشتراكي الزاهد



تأليف

عبد الحميد جودة السحار



دار الهلال

تقـــديم

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

هو كتاب نفيس ، يعرف القارىء بشخصية صـــحابى زاهد جرىء لا يبالى فيما عرفه من الحق لومة لائم ، وقد كفر بالاصنام قبل أن يؤمن بالنبى ، وعرف الله بعقله قبل أن يعرفه من وحى الرسالة ، ولازم النبى فى مجلســـــه وغزواته واقتدى به فى تقشفه وتقواه ، وصار بعده يزجر الناس عن الكنز ويذمه ويدعوهم الى بذل المعروف ووصل ذوى القربى والاحسان الى الجيرة والاخوان ، واتقاء الله فى كل حال ، ويحمل على معاوية وهو على الشام حتى ضاق به صدرا ، فبعث به الى عثمان فأخرجه الى الربذة وأجرى عليه فيها عطاء كافيا فابتنى له مسجدا وظل يتعبد فيه ويعظ الناس حتى وافاه الاجل وصدق فيه قوله عليه الصلاة والسلام « يرحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ،ويموت وحده ، ويبعث وحده »

وقد مهد الاستاذ عبد الحميد السحار ، مؤلف الكتـــاب لترجمة أبى ذر ، بفصل طويل فى الاشتراكية فى الاسلام تناول فيه بايجاز شديد مذاهب الاقتصاد الحديثـــة فى أوروبا واستطرد من هذا الى بيان الفرق بين الاشـــتراكية فى الاسلام والاشتراكية الحديثة فى صورها المختلفـــة

وتكلم عن موارد بيت المال من خراج وجزية وزكاة وفيء وغنيمة وعشور ، وكيف كانت تنفق الامـــــوال ، وبين أعطيات المسنين والمواليد والمرض والمتعطلين أو المتبطلين وغيرهم ، وهو بحث أحسب أن القراء يوافقونى على القول بأنه يجيء في أوانه وهو لا يغنى عن سواه ولكنه يفتـــح الباب لاستيفاء الدرس وينبه الاذهان الى امكان الانتفـاع بهذا النظام الحكيم الذى أوجده الاسلام ..

أما القسم الاكبر من الكتـــاب فترجمة لابى ذر ، وهى قصة ممتعة وان كان ينقصها الاشباع ، وأكبر الظـن أن الاضطرار الى الاقتصاد على عدد معين من الصـــفحات هو الذى أدى الى هذا النقص ..

واستأذن المؤلف الفاضل فى ملاحظة :

وتلك أنه كان يحسن أن يخلى كتابه من روايات غـــير صحيحة مثال ذلك ما أورده من أن النبى عليه الصـــلاة والسلام أمر أبا ذر ذات ليلة أن يدعو اليه أصحابه ففعل ودخلوا على الرسول وكانوا قرابة ثلاثين رجلا ، فوضـع لهم الرسول صحفة فيها صنيع من شـــــعير ووضع يده عليها ودعاهم أن يأخذوا باسم الله ، فأكلوا منهـا ما شاءوا ثم رفعوا أيديهم فكانت الصحفة حين فرغوا مثلهـا حين وضعت الا أن فيها أثر أصابع ، أى أنها لم تنقص شـــيئا وظلت ممتلئة ..

ولا أحتاج أن أقول ان النبى لم يكن نبيا بمعجزات كهذه وانما كان نبيا رسولا لما بعث به الله من دين الحق ، والله تعالى يقول فى سورة الاسراء :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون »

وفى سورة العنكبوت :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انمـا الايات عند الله وانما أنا نذير مبين » ..

وفى سورة الرعـد :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، انما أنت منذر ولكل قوم هاد » ..

وفى سورة الاسراء أيضا :

« قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ..

وفى الكتاب أيضا أقوال معزوة الى النبى عليه الصلاة والسلام تروى ولكنها غير ثابتة والارجح أنها غير صحيحة

مثل عدد الانبياء وعدد الرسل الذين بعثوا وعـدد الكتب التى أنزلت وما يجرى هذا المجرى والله تعالى يقول: « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » ، وعندى أنه لو خلا الكتاب من هذه الروايات لما نقص شيئا بل لكان أحرى أن تزيد بذلك قيمته

وفيما عدا ذلك أود أن أثنى على المؤلف الفاضل وكتابه وأحض على اقتنائه ، فليس الخلفاء والولاة والقواد والملوك هم وحدهم الجديرون بالترجمة ، ومما يضاعف فضـل المؤلف أنه كما أسلفت اثار بحثا يحسن التوسع فيه لامكان الانتفاع بما نخرج به منه فى هذا العصر الذى تصطرع فيه المذاهب ويضطرب العالم اضطرابا لم يسبق له نظير فى التاريخ ..

وقد أحوجت الحرب كل أمة الى النظر فى شـئونها ومحاولة تنظيمها على نحو جديد يكون أعدل وأكفل بازالة الفوارق الكبيرة بين الطبقات وتحرير الخلق من رق الفاقة والمرض والبطالة وما الى ذلك ..

مقـــدمة

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم

وبعد ، فلم تبق اثارة من ريب لدى الباحثين الأحرار ، فى ان الاسلام قد تضمن من المبادىء السامية ، مايجعله أقسط ميزان تقوم عليه طبقات الناس ، وتنتظم أمورهم. ومن المشاهد انه كلما ارتقى العقل الانسانى الحاضر فى فهم حقائق الحياة ، واكتشاف خوافيها ، واقتراح شتى الحلول لما يواجه من مشاكلها ، عدنا نحن المسلمين الى ديننا — بعد رؤية هذه الحلول — عودة المرء الذاهل الى ماضيه الحافل ، وقد اتصل بهذا الماضى فجأة ما أشرقت به صفحته ، وتجددت به ذكرياته ، وسرت فيه كرة أخرى حياته ، لأن الخير الذى يبرق خلال طائفة من مناهج الاصلاح المعاصر ، انما هو بعض ميراثنا ،

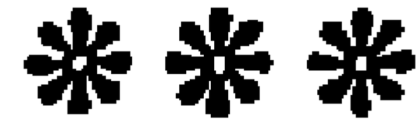
فيما آل الينا من دين عظيم ، « ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

وبين يدى القارىء بحث علمى دقيق فى الاشتراكية الاسلامية ، يجلو هذه الحقيقة ، ويؤكدها ، ويعرض فى صدق وانصاف للمذاهب الاشتراكية الحديثة التى تمخض عنها عهد اليقظة الأوربية الأخيرة ، فيمحص خيرها من شرها ، ثم يحكم على هذا التفكير الأوربى ، بما له وما عليه ، على حد قول القائل :

وقد يجىء بخلط فالنحاس له   وللأوائل مافيه من الذهب

ومن المهم ان يعرف الناس ان الاسلام لا يحارب الثروات العامة أو الخاصة ، وانما يحارب تجرد بعض الناس من الثروة على حساب تضخمها فى ناحية أخرى ، وان الاسلام لم يقرن الغنى بحق أدبى ولا بحق معنوى ، وفى آيات القرآن ونصوص السنة وأعمال الراشدين من الخلفاء ما أشار اليه المؤلف الباحث ، بل ما فصل الكثير منه تفصيلا ، وخصوصا فى حياة أبى ذر الصاحب الأمين لرسول الله . وقد وفق المؤلف الى ايضاح مواقف أبى ذر ، وأظهر بواعث الايمان الخالص فى حياته المليئة بالكفاح ، والنصح لدين الله ، والحدب على جمهور

المسلمين ، وشرح وجهة نظره رضوان الله عليه فى الاعتراض على مظاهر الترف ، وأخلاق الرفاهية التى كانت قد بدأت تعمل عملها بين المسلمين



ونحن يسرنا أن يتجه الشباب المثقف هذه الوجهة الصالحة ، ونهنىء المؤلف على هذا الانتاج الطيب ، مقدرين جهده الصادق فى مصادر بحثه المتشعبة ، مؤملين أن يكون له فى نفوس القارئين أثره المنشود



بصيص من نور

عن عبد الله بن الصامت قال : قال أبو ذر : « لقد صليت يا ابن أخى قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين » . قال : فقلت : « لمن ؟ » قال : « لله » فقلت : « فأين تتوجه » فقال : « حيث وجهنى الله عز وجل »

اجتمع رؤساء قبيلة غفار يتشاورون فى أمرهم ، فقد احتبس الغيث عنهم ، فشح الخير ، وهزلت الأنعام ، وحاق الضيق ، وتساءل الرجال : لم ودعهم الههم مناة وقلاهم ؛ على الرغم من انهم توسلوا اليه أن يمطروا ، ونحروا له الجزور قربانا وزلفى ؟ لقد انصرم أوان المطر ، فما اكفهرت السماء ولا تلبدت بالغيوم ، ولا سحت ، بل كانت عصية الدمع ، صافية الأديم

ترى هل ضلوا السبيل فحاق بهم غضب الاله ؟ ولكن علام يغضب ، وقد أهرقت له الدماء اكراما وتعظيما ؟ وفكر الرجال ما شاء لهم أن يفكروا ، وقلبوا وجوه الرأى ، ولكن ما يستطيع الرجال فى أمر السماء ؟ ومن

ذا يستطيع أن يزجى السحاب وينزل من السماء ماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها الا مناة الههم القادرالعظيم؟ فما عليهم الا أن يخرجوا جميعا ، رجالا ونساء ، حاجين متوسلين ضارعين ، راجين من منـــاة عفوه وغفرانه ، داعين اياه خوفا وطمعا ، لعله يتداركهم برحمته ، فيرسل الرياح مقلة سحابا ثقالا فيحيى به الأرض بعد موتها ، ويبدل بؤسهم رخاء ، وضيقهم فرجا ، وعسرهم يسرا

تجهزت القبيلة للخروج الى مناة ، ونهض القوم الى رواحلهم ، وتسنم أنيس راحلته وزجرها ، فنهضت ، وهمت لتندفع مع القافلة صوب ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكة ، حيث ينتصب صنم مناة ، ولـكنه تلفت حوله فلم يقع بصره على أخيه أبى ذر بين القوم ، فأناخ راحلته ، واندفع صوب الدار يهتف : « جندب .. جندب » . ثم دخل الدار ، فألفاه مضطجعا لا يريم ، فقال له :

ـــ ألم يقرع سمعك صوت المنادى يدعو للخروج ؟

ـــ بلى ، ولـكننى أشعر بثقل فى جسمى ، وكره فى الحج الى « مناة » هذا

ـــ صه واستغفره . ألا تخشى أن يسمعك ، فينزل

لعنته عليك ؟

ـ أو تظن انه يسمعنا ويرانا ؟

ـ مابك اليوم ؟ أمسَّتك جنة أو أصابك مرض ؟ هيا تب اليه ، عسى أن يقبل توبتك ..

وتململ أبو ذر فى مضجعه ، فقال أخوه :

ـ قم .. قم ، فقد فصلت العير وسبقنا القوم

وما زال به حتى خرج معه ، وركب أنيس راحلته ، وكذلك فعل أبو ذر على كره منه . والتفت أنيس الى أخيه وقال :

ـ اياك أن تجهر برأيك هذا ، والا أيقن القوم أنك السبب فى نقمة مناة عليهم ، ومنع الغيث عنهم ، فيعذبونك

وأخذ أنيس يذكر لأخيه فضل «مناة» على العرب ، ويعدد مناقبه . ولم يك أبو ذر يسمع له الا بأذن معرضة ، فقد كان شارد النفس ، ساهما مفكرا

وبعد أيام أشرفت العير على مناة ، فأناخ القوم رواحلهم ، واستصحبوا عتائرهم (ذبائحهم) ، وأقبلوا على ربهم بقلوب خاشعة مهللين معظمين داعين ، ونحروا عتائرهم ، فتدفق الدم الأحمر القانى الذى يحبه الاله غزيرا على الأرض ، واستمر أبو ذر يرقب ما يحدث ،

وينقل عينه بين مناة وقومه ، فيعجب لقومه وغفلتهم ، كما يعجب لذلك الاله الساكن ، الذى لا يشعر بما حوله ، ولا يسمع تلك الأدعية الحارة الصادرة من قلوب قانتة ، فكيف له أن يستجيب لها ، وأن يعمل على تحقيقها ؟ ..

وأقبل الليل فبسط أرديته السود على مناة وعباده ، وبات يمد فى هذه الأردية حتى غمر كل شىء ، وحجب كل شىء ، الا تلك النجوم التى تلمع فى السماء ، وهذه النيران الخافتة التى شبتها القوم ليتبين كلٌ مكانه ، وليعرف كلٌ مقامه ، وتكونت حلقات من السامرين ، وانضم أبو ذر الى حلقة جلها من المسنين، ودار الحديث حول الآلهة وعظمتها ، هذا يتكلم عن مناة ، وهذا يحدث عن الفلس ، وهذا يذكر طرفا عن اللات والعزى بنات الله وشفاعتهما اليه ..

وحدث رجل عن صنم سعد ومكانته ، فقال آخر :

ــ هل وصل الى سمعكم خبر ذلك الرجل الذى شتم سعدا ؟ ..

فقال الجميع باهتمام : لا ، وماذا قال ؟

ــ أقبل رجل من ملكان بابل له ليقفها على سعد ،

يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت ، فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه . وأسف الرجل ، فتناول حجرا ، فرماه به ، وقال : لا بارك الله فيك من اله ، أنفرت علىَّ ابلى .. ؟ !

ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عنه وهو يقول :

أتينــا الى سـعد ليجمع شملنــا
فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
وهــل سـعد الا صخرة بتنوفة
من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

فقال أحدهم : قد كفر الرجل والله . وما حدث له ؟

قال المحدث : لا شىء

وأطرق الجمع ساهمين الا أبا ذر ، فقد ملأ الحديث قلبه اطمئنانا وثباتا ، وشجع الحديث القوم على الخوض فى الأصنام ، فقال أحد السامرين : هل بلغ سمعكم رفض عدى بن حاتم عبادة الفلس ، وعبادة الأصنام ، وتنصره ؟ ..

فقال الجميع : لا ، وما حدث ؟

فقال المحدث : أخذ صيفى سادن الفلس ناقة لامرأة

من كلب ، من بنى عليم ، كانت جارة للشريف مالك بن كلثوم ، فانطلق السادن بها حتى أوقفها بفناء الفلس ، وخرجت جارة مالك ، فأخبرته بذهاب السادن بناقتها ، فركب فرسا عريا ، وأخذ رمحه ، وخرج فى اثره ، فأدركه وهو عند الفلس ، والناقة موقوفة عنده (أى الفلس) .
فقال مالك للسادن : خل سـبيل ناقة جارتى ، فقال السادن : انها لربك ، قال مالك : خل سبيلها ، قال السادن : أو تخفر الهك ؟ ! فقابله مالك بالرمح ، فخلى السادن عقالها ، وانصرف بها مالك . وأقبل السادن على الفلس ، ونظر الى مالك ورفع يده وقال وهو يشير بيده اليه :

يارب ان مالك بن كلثـــــــوم
أخفرك اليوم بناب (١) علكوم (٢)
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان بهذا يحرض الفلس على مالك ، ويطلب منه أن ينزل عليه نقمته وعقابه . وكان عدى بن حاتم جالسا عند الفلس هو ونفر معه ، فرأى وسمع ، فقال عدى : « انظروا ما يصيب مالكا فى يومه هذا » . فمضت له

(١) ناقة (٢) حسن

أيام لم يصبه شيء ، فرفض عدى عبادته وعبادة الأصنام وتنصر ..

وأطرق الجمع ثانيـــة ، وغشى وجوههم الاظلام ، وشعر أبو ذر بطمأنينة تشيع فى نفسه ، ووقع هـذا الكلام فى نفسه موقع الماء من ذى الغلة الصادى

وانتثر عقد السامرين ، واضطجعوا حول منـاة ، وأقبل سلطان الكرى ، فمس جفون الجميع فنـاموا وأمعنوا فى الرقاد الهادىء المطمئن ، الا أبا ذر ، فانه ضم يديه الى صدره ، وثبت عينيه فى السماء ، وأخذ يفكر فى حديث القوم وفى الأصنام ، فألفى نفسه ينكر الأصنام وقدرتها ويكفر بها ، وتمتم : « وهل مناة الا صنم لايدعو لغى ولا رشد ؟ » . وجال فى نفسه خاطر، فنهض من مضجعه خفيفا ، وجعل يمشى حتى انتهى الى مناة ، فتطلع اليه فوجده ساكنا لايحس شيئا ، ولا يرى شيئا ، فمال وتناول حجرا فرماه به ، فألفاه مغرقا فى البله والوجوم ..

فقال له : انك عاجز لا قادر ، مخلوق لا خالق ، لا حول لك ولا قوة ، فعلام تعبد ، ولم تنحر لك العتائر، وتقدم اليك القرابين ؟ ! ان قومى فى ضلال مبين

وعاد أبو ذر الى مضجعه خفيفا ، هادىء النفس ، مطمئن البال ، فأطبق جفنيه ، وراح فى سبات عميق

وتنفس الصبح ، وأطلت الشمس من خدرها ، فبعثت نورها ساطعا ، ودبَّت الحياة فى عبَّاد مناة ، فهبُّوا من نومهم ، وظل مناة مغرقا فى سكونه ، ثابتا فى مكانه ، لا يحس شيئا ، ولا يرى شيئا ، ولا يسمع شيئا ، وابتدأ القوم يطوفون حوله متبركين قبل رحيلهم ، الا أبا ذر ، فقد كذب وتولى ، وأتى راحلته فامتطاها ، وشرد ذهنه يفكر فى هذا الكون العريض : رفع رأسه الى السماء ، فراعته عظمتها واتساع رقعتها ، فراح يفكر كيف رفعت ، وما بناها ؟ وتطلع الى الشمس تطلعه الى شىء جديد ، فألفاها تسبح فى فضاء واسع لا نهائى ، فراح يفكر كيف تبزغ من خدرها ، فيشرق وجهها ، ثم تدرج فى منازلها ، حتى تستوى فى كبد السماء ، ثم تنحدر حتى تغوص فى الأفق وتختفى ، وكيف يتبعها ليل مدلهم ، يمزق سواده الحالك تلك النجوم الزهر ، التى ينبعث وميضها هادئا خافتا .. ظل غارقا فى تأمله وتفكره ، تأملا وتفكرا كانا طليعة لكتائب اليقين التى ستخذل أمامها فلول الشك فى نفسه

واتتهى القوم من طوافهم ، واتجهوا الى رواحلهم ، وأقبل أنيس وجعل يتفرس فى وجه أبى ذر،كمن يحاول أن يستشف ما فى نفسه ، فوجده غائصا فى لجج من الأفكار ، فتركه ولم يحادثه . وانطلقت القافلة عائدة الى غفار ، واستمر أبو ذر غارقا فى بحر من التأملات ، حتى وصلت القافلة الى فج ، فنظر حوله ، فوجد جبالا، ففكر كيف نصبت وما نصبها ؟ ثم أطرق ينظر الى الأرض ، ففكر كيف سطحت وما طحاها ؟ وتفاعلت الأفكار فى رأسه ، ودبت الحياة فى نفسه ، وشعر بأشعة من الهدى تتغلغل فى نفسه ، فتمحو فلول الشك التى سكنت فيها أعواما

وبلغ القوم غفارا ، فنزلوا عن رواحلهم ، واتجه أبو ذر الى غفار ، فاذا الدار ساكنة سكون الرموس ، فقصد الىمضجعه ، وحاول أن ينام ليستريح من وعثاء الطريق، ولكن النوم استعصى عليه ، وأدركه الأرق ، وجعل سيال الفكر ينتقل به من مكان الى مكان ، وأخذ يفكر فيمن رفع السماوات ، وبسط الأرضين ، ثم أخذ يفكر فى نفسه وفيمن خلقه ، وجعل له عينين يرى بهما ، ولسانا ينطق به ، ونفسا تلهمه الخير والشر ، والتقوى

والفجور . واعتدل أبو ذر فى مضجعه ، وقال فى نفسه : « ان مبدع السماء لاشك أكبر من السماء ، وخالق الانسان أعظم من الانسان . ان خالق هذا الكون عظيم متعال، وهو أحق بالعبادة من مناة ، ومن اللات والعزى، ومن اساف ونائلة وسعد ، بل هو أحق بالعبادة منهم مجتمعين ، فهو الخالق البديع المصور القادر ، وهى صخور لا حول لها ولا سلطان » . وأحس بالسرور يسرى فى قلبه ، واليقين يمزق تلك الغشاوة التى نسجتها أيدى الشك على عينيه ، فخر ساجدا لله رب العالمين ..

ولقد كان أبو ذر ظمآن الى اليقين ، حتى اذا ظفر به أصبح مبرود الغليل ، وعاد الى مضجعه ونام ، فانعكس على وجهه شعاع من النور السماوى ، تمازجه نفثة من الروح الالهى ، أنارالله بصيرته ، وأضاء سريرته

انبلج الفجر ، ومس بأنامله الرقيقة كل شىء حوله ، فنهض أبو ذر خفيفا ، ورفع يديه الى السماء ، وجعل يدعو الله بصوت خاشع قانت عذب حنون . ودخل أنيس ، فوجد أخاه قائما خاشعا ، فهم أن يحادثه ويحاوره ، ولكنه أخذ بما رأى وسمع ، فوقف يرقب

أخاه ، وأخيرا جمع شتات نفسه وقال : « ما تفعل ؟ »

فالتفت أبو ذر الى مصدر الصوت ، فوجد أخاه يدرج نحوه ، فقال : « أصلى .. »

ـ لمن ؟

ـ لله ..

ـ أى اله ؟ ان الصلاة لا تجوز الا هناك عند نهم أو مناة ..

ـ لا أصلى لمناة ، ولا لصنم سواه ..

ـ لمن تصلى اذن ؟

ـ لقد وجدت فى الطبيعة التى لا تحد ولا تحصر آية أرشدتنى الى اله ليس كآلهتكم ، فهو عظيم قادر ، لا مطمع فى أن يرقى اليه العقل ، أو يتناوله بالدرس والبحث والتحليل ، انما هو قوة آجلها ولا أحيط بها

ـ أتصلى لاله لا تجده ولا تراه ؟

ـ ان لم أجده فقد وجدت آيته ..

ـ ان هذا لشىء عجاب ، تترك الآلهة الماثلة أمام عينيك ، والتى ان أردتها وجدتها ، وان دعوتها كانت قريبة منك ! ؟

ـ ماهذه الآلهة الا صخور لاتفقه شيئا ، ولا تملك

نفعا ولا ضرا

ــ أتسفه عقولنا وعقول آبائنا ؟ ..

ــ وما ذنبي يا أنيس ان كان آباؤنا في جهالتهم يسهون ؟ ان ديننا يا أنيس واه أوهى من خيوط العنكبوت . تصور ان أحدنا اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعل الثلاثة الأخرى أثافي لقدره . تصور حجرا يصبح ربا ان أعجبنا ، ويصبح حاملا للقدر ان لم يرق أعيننا . ان هذا عجيب

ــ ان ما نفعل من ذلك في أسفارنا انما هو للاقتداء بما نفعل عند الكعبة ، وان الحجر المختار لا يعبد لذاته ، وانما يعبد على انه يقوم مقام اساف ونائلة ، وتلك الأصنام المنصوبة بالكعبة

ــ ما اساف ونائلة الا زانيان ، أتحب أن تعبد زانيا ؟

ــ ما هذا يا أبا ذر ؟

ــ أجلهما زانيان .. فقد كان اساف يعشق نائلة في أرض اليمن ، فأقبلا حاجين فدخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ، ففجر بها في البيت ، فمسخا ، فأصبح الحجاج فوجدوهما ممسوخين ،

فوضعوهما عند الكعبة ، ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما عبدا معها .. هذه هى آلهتكم ..

ـ وما تقول فى تلك الآيات التى صدرت عنها ؟

ـ لم يصدر عنها شيء ، فهى لا حول لها ولا قوة . وكل ما حدث فهو من عند الله ، ونسب الى تلك الآلهة بهتانا وزورا . قد خرجنا بالأمس حاجين الى مناة ، راجين منه ان يزجى الينا السحاب الثقال ، وذبحنا عنده الجزر قربانا وزلفى ، فما الذى فعله ؟ لا شيء ، لا لأنه غاضب علينا ، أو حانق لذنب اقترفناه ، أو لواجب قصرنا فيه ، بل لأنه لايستطيع أن يفعل شيئا

ـ كفى! كفى! كدت أركن اليك ، وأتشكك فى آلهتنا

ـ هذا ما كنت أبغى . انى يا أنيس لأرجو أن تسأم هذه الأصنام كما سئمتها ، وأن تتجه فى دعائك الى الله فاطر السماوات والأرض

ـ أمن السهل أن نخلع ديننا ونلقى به كما نلقى بالثوب الخلق ؟

ـ نعم يا أنيس ، من السهل أن نفعل ذلك اذا كان ديننا كالثوب الخلق

ودخلت أمهما عليهما ، فالتزما جانب الصمت ،

فقالت لهما : « ما رأى ولدىّ ؟ »

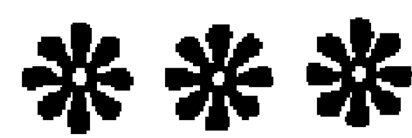
فقال أنيس : « فيم ؟ »

فقالت الأم : فيما وصلنا اليه من الحال ، فقد انحبس الغيث عنا ، وأجدبت الأرض ، وأصبحنا فى ضيق شديد ..

فقال أنيس : الرأى ما ترين ..

فقالت : أرى أن ننزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال ..

فقال أبو ذر : الرأى ما ترين ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..



خرج أبو ذر وأنيس وأمهما قاصدين خالهما ، وكان أبو ذر يتفكر ويتأمل فيما حوله ، ولا يمد طرفه الى شىء ، حتى يرى فيه عظمة الخالق ، فيزداد يقينا على يقين . مضوا ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد ، وطال بهم السفر ، وكان أبو ذر لايسمع سوى صوت نفسه ، وأنات المطايا التى كانت ترسلها كلما أحست التعب ، وحنت الى الراحة . وتكشفت لهم أرباض مكة ، فزجروا مطاياهم يستحثونها على الاسراع ، فأغذت

السير ، كأنما كانت تفقه أن مرحلتها هذه هى مرحلة النصب الأخيرة ، وبعدها الراحة والدعة والهدوء

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما فنزلوا على الرحب والسعة ، وأكرم الرجل وفادتهم ، وأحسن اليهم. وطال مقامهم وطاب ، وصاروا فى لين من العيش ، وغدت حياتهم سهلة ميسورة ناعمة ، وأصبحت بشرا متصلا ، ونعيما مقيما . ورأت القبيلة عطف الخال وحدبه على أنيس وأبى ذر ، وانزالهما من نفسه منزلة ولديه ، فحسدوهما ، واجتمعوا وفكروا فى أن يكيدوا لهما كيدا ، فينزعوا من قلبه الحب ، ليخلو لهم وجهه. وطالت محاورتهم ، وطال تداولهم ، وأخيرا قر رأيهم على أمر ، واختاروا رجلا منهم ليقوم بتنفيذه

دخل الرجل على خال أنيس وأبى ذر ، وجلس وأطرق ، فقال الخال : خيرا ؟

فقال الرجل متكلفا الحزن والاشفاق ، متصنعا التألم :

ـ قد جئت فى أمر ذى بال . ولولا محبتنا لك واعزازنا اياك ، ما فكرنا فى أن نفضى اليك بشىء ، أو نعلمك شيئا ، ولكن دفعنا اخلاصنا لك ، واجلالنا اياك ، أن نزيح الغشاوة عن عينيك ، حتى ترى بعض ما يجرى

خلفك ، فقد أحزننا وحز فى نفوسنا ، ان نرى مقـابلة الاحسان بالاساءة ، والجميل بالنكران

شعر الخال بأن وراء هذا الحديث ما وراءه ، وأحس بالقلق يسرى فى نفسه ، فقال :

ــ أفصح ! ما هناك ؟

ــ أنيس ...

ــ ما به ؟

ــ اذا ما خرجت جلس الى نسائك

ــ هذا كذب وبهتان !

ــ كنا نتمنى أن يكون كذبا وبهتانا ، ولكنها ويا للأسف الحقيقة بعينها

ــ وما برهانك ؟

ــ سل من شئت ، فالقبـيلة كلهـا لاحظت ذلك ، وعلمت به .. أتحب أن تسمع هذا من أفواه غيرى ؟

ــ لا .. وكفى !

وأطرق المطعون فى كرامته يفكر ، وشعر بغيرة لاذعة محرقة تأكل قلبه ، وانسل الآخر من الحجرة ، كما تنسل الأفعى ..

وحاول الرجل أن يردّ الى النفس دعتها ، وطمأنينتها ،

فلم يوفق ؛ ووقع فى نفسه حزن ثقيل ، وكان يتجرع كأس الغضاضة اذا أمسى ، ويتجرعها اذا أصبح وكان اذا قابل ابنى أخته ازور عنهما برغمه ، وأسبغ على الدار رداء من الوجوم . وفى ذات يوم رأى أبو ذر على وجه خاله شيئا غير ما كان قد تعود أن يراه . رأى قلقا وحيرة ، وهمًا مقيما ، فسأله :

ــ ماخطبك ؟ انى لأنكرك منذ أيام . أراك معرضا عنا ، قليل الحديث ، طويل التفكير

ــ لا شىء ...

ــ بل هناك شىء ، فما هو ؟ لعلى استطيع أن أخفف عنك بعض ما يهمك ، أو أشاطرك ما يقلقك

ــ قال لى قومى كلمة تملأ الفم

ــ وما قالوا ؟

ــ قالوا لى : ان أنيسا أتى أمرا ادًا ..

ــ وما زعموا ؟

ــ قالوا : اذا خرجت عن أهلى ، خلفنى اليهم أنيس

فظهر الغضب على وجه أبى ذر وقال :

ــ أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لنا فيما بعد

انبلاج الفجر

جلس أنيس وأبو ذر أمام دارهما بغفار ، وأقبل عليهما رجل ، فسلم وجلس ، فسأله أبو ذر :

ـ من أين ؟

ـ من مكة

ـ وكيف حالها ؟

ـ ظهر بها رجل يزعم انه نبى يأتيه الخبر من السماء

ـ وما فعلوا به ؟

ـ كذبوه وآذوه ، ومنعوا الناس عنه ، فلا يمر به أحد الا حذروه اياه

ـ ولم لم يستمعوا اليه ؟

ـ كيف يستمعون الى من عاب دينهم ، وسفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، وسب آلهتهم ؟

ـ أو قد فعل هذا ؟

ـ أجل ، ولقد جعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشيء عجاب ..

فأطرق أبو ذر مفكرا فى ذلك الذى جعل الآلهة الها واحدا ، ولكنه لم يجد هذا شيئا عجابا ، بل وجده ما وصل اليه هو بتفكيره وتأمله فى الكون . وطال اطراقه ، وطال صمته وتفكيره ، فنظر اليه الرجل ، فألفاه ساهما شارد الفكر ، فاستأذن وانصرف ، والتفت أبو ذر الى أخيه أنيس ، وقال :

ـ اركب الى هذا الوادى، فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم انه نبى ، يأتيه الخير من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم ائتنى بخبره ..

تجهز أنيس للرحيل ، وامتطى راحلته ، وانطلق حتى قدم مكة ، فاتجه الى الكعبة ، وطاف بها ، وخرج فوجد جمهرة من الناس ، فسأل رجلا كان قادما نحوه :

ـ ما هنالك ؟

ـ الصابىء يدعو الناس الى دينه الجديد

فما كاد يصل ذلك الى سمع أنيس ، حتى أسرع ، فوجد رجلا يقول :

ـ الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل

عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له

فقال أحد الحاضرين : كذبت

فقال الرجل : ان الرائد لايكذب أهله ، والله الذى لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة . والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون ، وانها الجنة أبدا ، أو النار أبدا

فقال أحدهم :كيف نبعث بعد أن نكون عظاما ورفاتا ؟

فقال الرجل : « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ! قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا »

وقف أنيس يستمع مأخوذا ، وابتدأ الناس ينفضون من حول النبى ، وقال أحدهم : « انه لكاهن »

ــ بل شاعر

ــ لا ، بل ساحر

استمع أنيس الى النبى والى قومه ، فأطرق مأخوذا ، ثم غمغم : « والله ان لقوله لحلاوة . والله انه لصادق ، وانهم لكاذبون »

وركب راحلته ، وراح طوال الطريق يفكر فى محمد ، ويعجب من أمره حتى بلغ غفارا ، فقابل أخاه أبا ذر ، فسأله هذا متلهفا : « ما عندك ؟ »

ــ لقيت رجلا يزعم ان الله عز وجل أرسله على دينك. ورأيته يأمر بالخير ، وينهى عن الشر

ــ ما يقول الناس فيه ؟

ــ يقولون انه شاعر وساحر وكاهن، وما هو بشاعر، فقد عرفت الشعر كله ، وقد وضعت قوله على أقراء الشعر ، فوالله ما يلتام . وما هو بساحر ، فقد رأينا السحار وسحرهم ، ونفثهم وعقدهم . وما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه

ــ وما يقول ؟

ــ يقول قولا عجبا

ــ أما تذكر شيئا مما يقول ؟

ــ والله ان لقوله لحلاوة ، ولكنى لا أذكر منه شيئا

ــ لم تشفنى من الخبر ، هل انت كافى حتى أنطلق فأنظر ؟

ــ نعم وكن من أهله على حذر ، فانهم قد شنفوا له وتجهموا

ولم يطق أبو ذر صبرا ، فحمل شنة له فيها ماء ، وامتطى راحلته ، وجعل يجد نحو مكة ، يحدوه الأمل ، وتخفق له الأماني العذاب فى نفسه ، وتتماثل له فى شكول وألوان . واحتل الدين الجديد فكره ، وغاص فى لجج من الأفكار ، فالى أين يقصد ؟ وكيف يتصل بذلك الرجل الذى يدعو الى مكارم الأخلاق ؟ ومن يرشده اليه ؟ واذا سأل عنه ، هل يأمن أذى معارضيه ومكذبيه؟ وقر قراره على أن يقصد الى المسجد ملتمسا ذلك النبى

بلغ أبوذر مكة ، فأتى المسجد ، وراح يبحث عن ذلك الرسول ، ولكنه لم يجده ، ولم يسمع به ، فمكث فى المسجد ، وطال مكثه . غابت الشمس وأقبل الليل يمد فى ردائه الأسود ، وضرب الله على آذان أهل مكة ، وما يطوف بالبيت غير قليل . وجاء على ليطوف ، فمر بأبى ذر ، فنظر اليه ، فألفاه جالسا ، فأقبل نحوه وقال :

ـ كأن الرجل غريب ؟ قال : « نعم .. » قال : « تعال معى .. »

فانطلق على الى المنزل ، وانطلق أبو ذر معه ، وسارا صامتين ، لايسأل أبوذر عن شىء ، حتى بلغا المنزل ، فبات أبوذر ليلته ، ولما أصبح الصباح ، خرج الى المسجد

يبحث عن النبى ، لا يسأل أحدا ، ولا يخبره أحد عنه بشيء ، وطال بحثه ، وطال انتظاره ، وتصرم النهار ، وسجا الليل ، وأقبل على ومر بأبى ذر فتوقف وقال :

ـ أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

ـ لا ..

ـ فانطلق معى ..

فانطلقا : وسارا صامتين ، الى أن قال على :

ـ ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟

ـ ان كتمت عليَّ أخبرتك ..

ـ فانى أفعل ..

ـ بلغنا انه قد خرج ههنا رجل يزعم انه نبى ، فأرسلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر ، فأردت أن ألقاه

ـ أما انك قد رشدت ، هذا وجهى اليه ، فاتبعنى . ادخل حيث أدخل ، فانى ان رأيت أحدا أخافه عليك ، قمت الى الحائط ، كأنى أصلح نعلى ، فامض انت

وانطلق الرجلان ، وأحس أبوذر بالسرور يشيع فى نفسه ، فقد هداه الجد الموفق الى أحد أصفياء النبى ، وقد شاء الله له الرشد والهداية ، وان يكون من السابقين

الى الاسلام ، المقربين من رسوله ، الناشرين لدينه ، العاملين على رفعته ، ونصرته وعزه

ودخل عليّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودخل معه أبوذر ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ـ السلام عليكم (١)

ـ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . ممن أنت ؟

ـ من غِفار ..

واتصل حبل الحديث بين النبى وأبى ذر ، وتشعبت فنون القول . وأخيرا قال أبو ذر :

ـ اعرض على الاسلام ..

ـ الاسلام : أن تشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة

فقال أبو ذر : أشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله

ـ يا أبا ذر اكتم هذا الأمر ، وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا فأقبل ..

قالها رســول الله رءوفا به رحيما ، ليبعد عنه أذى قومه . ولكن هل يستمع أبو ذر الى هذا ؟ وهل يرضى

(١) هذا اول سلام القى فى الاسلام

مثل أبى ذر أن يكتم اسلامه ؟ لا والله ، فليعلنه ، وليكن ما يكون ، وليفعل به القوم ما يفعلون . ليعلنه ابتغاء مرضاة الله ، ليعلنه ولو كره الكافرون ، فيقول للرسول بلغة المعتز بدينه ، الواثق بربه :

ـ والذى بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم

خرج أبو ذر قاصدا المسجد ، يملأ صدره ايمان قوى لايخشى بطشا ، ولا يهاب أحـــدا ، حتى بلغ المسجـد وقريش فيه ، فقال :

ـ يامعشر قريش ، انى أشـــهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

هــل يسكت القوم على ذلك الذى جاء يتحداهم مستخفا بهم ، عاملا على تحقير شأنهم ، والنيل منهم ؟ لا . فليقوموا الى هذا الصابىء وليضربوه حتى يموت . فمالوا عليه وضربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ، ثم أقبل على القوم ، فقال :

ـ ويلكم تقتلون رجلا من غفار ، وتجركم وممركم على غفار !

فأقلعوا عنه ، وارتفع أبوذر كأنه نصب احمر ، فأتى زمزم ، وشرب من مائها ، وغسل عنه الدم ، وخرج من

الكعبة قاصدا الرسول ، فوجده عند أبا بكر الصديق :

ـ متى أنت ها هنا ؟

فقال أبو ذر : كنت ها هنا منذ ثلاثة أيام

فقال أبو بكر : فمن كان يطعمك ؟

فقال أبو ذر : ما كان لى طعام الا ماء زمزم

فقال أبو بكر : ائذن لى يارسول الله فى طعامه الليلة

انطلق النبى وأبو بكر وأبو ذر معهما ، حتى فتح أبو بكر بابا ، فجعل يقبض لهما من زبيب الطائف ، فكان ذلك أول طعام أكله أبو ذر بمكة

وانبلج صبح اليوم التالى ، فأحس أبو ذر رغبة فى الجهر باسلامه ، ولم يزده ايذاء القوم الا عزما وتصميما، فانطلق الى المسجد ، ووقف وصاح بأعلى صوته :

ـ يا معشر قريش .. يا معشر قريش ..

فتطلع الناس اليه ، والتف بعضهم حوله ، فصاح فيهم:

ـ انى أشهد أن لااله الا الله ، وان محمدا رسول الله

فزمجر القوم ، وقاموا اليه ، وأشبعوه ضربا ، فخر مغشيا عليه . وأقبل العباس يواسيه ، فقام وراح يمر بيده على وجهه وجسمه ، ثم تأوه من الألم ، ولكنه أحس راحة تشيع فى نفسه ، وتملأ جوانبه ، أنسته آلام

جسمه المبرحة ، ثم اتجه الى حيث كان الرسول الكريم ، فسلم عليه وجلس ، وأخذ بأطراف الحديث

قال رسول الله : انى قد وجهت الى أرض ذات نخل ، فلا أحسبها الا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك ، لعل الله عز وجل ينفعهم بك ، ويأجرك فيهم ؟

فقال أبو ذر : نعم ، أفعل ..

وانطلق أبو ذر الى غفار ، يملأ قلبه الايمان بالله ، وبعظمة رسوله ، ويفكر فيما مر به من الأحداث حتى لقى رسول الله ، فتنبسط أسارير وجهه ، وتعلو شفتيه ابتسامة الرضا والاطمئنان ، ويحمد الله أن هداه الى الرشد ، الى دين الحق ، الى الدين الذى ترضاه النفوس الطاهرة ، الباحثة عن الهداية ، المقتنعة بما يقبله العقل ، المعرضة عما يتنافى مع المنطق وان كان فى ذلك تسفيه لأحلام الآباء ، وتحقير لمعتقداتهم . وشارف غفار فأحس بشوق للقاء أخيه وأمه ، وابلاغهما نبأ اسلامه ، فزجر راحلته يستحثها على الاسراع ، فانطلقت به ، حتى أتى أخاه أنيسا ، فقال له : « ما صنعت ؟ »

ـ انى قد أسلمت وصدقت ..

ـ أسلمت وصدقت ؟

ـ أجل يا أنيس ، انه دين الحق واني أدعوك اليه

وراح أبو ذر يقص على أخيه ما مر به ، منذ تركه الى أن عاد اليه . فأطرق أنيس لحظة ، فرن في أذنه ذلك الكلام الحلو ، الذى سمعه من رسول الله يوم خرج الى مكة ليستمع اليه ، فسرت في نفسه نشوة حلوة ، فرفع رأسه ، وقال :

ـ ما بى رغبة عن دينك ، فانى قد أسلمت وصدقت

ـ هيا الى أمنا نبلغها النبأ ...

فنهضا ، واتجها الى أمهما ، فلما اكتحلت عينـــاها برؤية أبى ذر قالت : « ما رأيت ؟ »

ـ رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا أبدا ، ولا مماريا أحدا ، حتى سماه قومه الأمين ، يدعو الى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله ، وأسلمت وأسلم أخى أنيس

فقالت أمهما : مابى رغبة عن دينكما ، فانى قد أسلمت وصدقت ..

سرَّ أبو ذر لاســلام أهل بيته ، فهل يرضى بهذا ويقنع ، وهل يقبع فى عقر داره مصليــا ذاكرا ربه ، عاملا على ارضائه ؟ لا ، لن يفعل أبو ذر ذلك ، ليخرجن الى قومه ، وليدعون الى دين الله الحق ، ولتكن مشيئة الله

وأتى أبوذر قومه ، فألفاهم جالسين عند خفاف بن ايماء ابن رحضة الغفارى سيدهم ، آخذين بأطراف الحديث ، فسلم وجلس ، لا ليتحدث مع السامرين ، ولا ليضحك مع الضاحكين ، بل ليبلغهم نبأ ظهور فجر جديد ، فجر سيخرجهم من الظلمات الى النور ، ويرفعهم من وهاد الفقر والذل ، الى الغنى والعز ، والسؤدد والسلطان

كان الحديث يسرى بين السامرين ، رقيقا كنسمات الأصيل ، الى ان تحدث أبو ذر ، فانقلب ريحا صرصرا عاتية ، وكثر الجذب والشد ، والأخذ والرد ، وطال حوارهم ونقاشهم ، حتى انتصر الحق الأبلج ، وبدد بنوره الساطع دياجير الباطل ، قال أبو ذر :

ـ خرج نبى فى مكة يدعو الى عبادة رب هذه السماء الصافية ، والأرض المترامية ، والنجوم المتلألئة ..

فقاطعه أحــدهم : أيدعى ان لهذا الكون ربا غير اللات والعزى ، وهبل ، ومناة ، ونهم ؟

فقال أبو ذر : انه يدعو الى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار الصماء

فقال آخر : أحجار صماء !.. أو تقول قوله ؟

فقال أبو ذر : نعم ، هى أحجار صماء ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا أو نفعا

فقال آخر : وهل صدقته ؟

فقال أبو ذر : انه يدعو الى دين يقبله العقل ، وتستريح اليه النفس . انه يدعو الى الأخاء والمساواة بين الناس ، فلا فرق بين السادة والعبيد أمام الله الا بقدر العقيدة والعمل . انه يخلي الطريق بين العبد وربه ، يدخل اليه بغير واسطة ، ويتقرب اليه بغير زلفى ، ويقول : ان الله قريب من عباده ، يسمع شكواهم ودعواهم ، ويعلم ما فى الصدور . انه يدعو الى دين الحق ، فكيف لا أصدقه ! ؟

فقال أحدهم : قد ضل أبو ذر

فقال أبو ذر : والله قد رشد أبو ذر وأنتم الضالون

وقال آخر : فتن أبو ذر ، بعد أن قابل الصابىء ، وأصبح صابئا مثله . كفر بأربابه ، وسفه أحلام آبائه

فقال أبو ذر : على رسلك ، لقد كفرت بالأصنام

جميعها ، باللات والعزى ، ومناة ، وهبل ، ونهم ، قبل ان ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديت الى انها صخور ، لا تدعى لغى ولا رشد

فحدثت ضـجة بين القوم ، وارتفعت أصـواتهم باستنكار ما يعيب به آلهتهم ، فقال أبو ذر :

ـ فلنتناقش فى هدوء ، ولنقرع الحجة بالحجة ، فما أبغى سوى هـدايتكم . دعونى أقص عليكم أول ما هديت الى عجز الأصنام

فقال أحدهم : لا ، هذا كثير

وابتدأ القوم يزمجرون ، فقال سيدهم خفاف ، دعوه يقص قصته ، والحق أبلج ، لايستعصى على البصائر ادراكه ..

فقال أبو ذر : أتيت يوما الى نهم أصب له لبنا ، وقدمت له قربتى المتواضعة خاشعا لأدرأ بها غضبه ، وأبتغى بها مرضاته ، وهممت بالانصراف ، فحانت منى التفاتة عارضة لمعبودى ، فما كان أشد دهشتى اذ رأيت كلبا يشرب اللبن المقدم للاله ، والاله مغرق فى البله والوجوم ، لايرى شيئا ، ولا يفعل شيئا ليذود عن لبنه المقدس . وتريثت قليلا أنظر مشدوها ، فرأيت أدهى

من ذلك وأمر ، رأيت الكلب لايكتفى باختلاس قربة المعبود العاجز ، بل يرفع رجله فيبول عليه . ذلك مبلغ نهم من الحول والقوة والعزة ، وهذه جلالته ، وهذا سلطانه ..

فأطرق الجميع ، وسكن المكان سكون الرموس ، وقال أبو ذر : « ها قد تمردت أفئدتكم على الايمان بالاله المهين، وقد بدا لكم ماكنا نخوض فيه من ضلال»

فقال واحد منهم : ومن يدرينا ان النبى الذى تتحدث عنه صادق لا كاذب ؟

فقال أبو ذر : لقد سألت نفسى هذا السؤال ، قبل ان ألقى رسول الله ، ولكن لما رأيت وجهه اذا وجهه ليس بوجه كذاب

فقال الأول : اذا قدم نظرنا فى أمره

فقال أبوذر : انه يدعوكم الى الخير ومكارم الأخلاق، يدعوكم الى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وينفر من الوأد ، فما ذنب طفلة صغيرة بريئة فى أن توارى فى التراب حية ؟.. لقد جاءكم بهناءة الدنيا وسعادة الآخرة

وما زال أبوذر بهم حتى أسلم خفاف بن رحضة سيد القوم ، وتبع كثير من القوم سيدهم فأسلموا ، وطمع

أبو ذر فى اسلام بقيتهم ، فقال لهم : « وأنتم ما يمنعكم من أن تدخلوا فى دين الله ، وتؤمنوا برسوله ؟ »

فلم يغلظوا له فى القول ، ولم يكذبوه . وكيف يكذبونه ، وقد حصحص الحق ، وتبين الرشد من الغى ، بل قالوا : « اذا قدم رسول الله أسلمنا »

وانصرف القوم ، ونامت غفار ليلتها الأولى فى كنف الدين الجديد ، هادئة مطمئنة ، راضية مرضية

زمار الحي لا يطرب

وقف خفاف بن ايماء يصلى بقومه صلاة العصر ، وقضيت الصلاة ، فاتجه كل الى حال سبيله ، وبقى أبو ذر وخفاف يتسامران ، فقال أبو ذر : « مضت مدة طويلة لم نسمع فيها عن محمد وأصحابه شيئا ، ترى ماحدث لهم؟

ـ عذبت القبائل من آمن منهم وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فهاجر بعضهم الى الحبشة

ـ هذا ما سمعناه من القافلة المتجهة الى الشام ، ولكن ما جد بعد ذلك ؟ انى لمتلهف لسماع أخبارهم ، أشفق من تعذيب الكفار لهم

ـ أيظن الكفار أنهم بتعذيبهم للمؤمنين يفتنونهم عن دينهم ، الى عبادة الأوثان ؟.. انهم لفى ضلال مبين

ـ ومتى كان الاضطهاد والتعذيب والتنكيل وسيلة للاقناع ؟ لقد سكن الايمان قلوبهم ، ولن يضلهم الله بعد اذ هداهم

ـ لقد حاولوا رد المسلمين الى حظيرتهم بكافة الطرق، فباءوا بخزى عظيم ، وأطلقوا آخر سهم فى جعبتهم ، فعذبوهم وسجنوهم ، وسيرتد سهمهم الى نحرهم ، وسينتشر الاسلام ولو كره الكافرون

ـ لن يخذل الله قوما يقولون : لا اله الا الله ؛ ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وسيظهر الله دينه ، ويعلى كلمته

وأقبل رجل على خفاف وأبى ذر ، فسلم ، فسأله أبو ذر : « من أين ؟ » قال : « من مكة » فقال : « وكيف حال محمد وأصحابه ؟ » قال : « يذوقون من العذاب ألوانا ، أما سمعتم بقصة الصحيفة ؟ » فقال : « لا » قال : « هاجر المسلمون الى الحبشة ، فجاوروا بها خير جار ، وأمنوا على دينهم ، وعبدوا الله لايؤذون ولايسمعون شيئا يكرهونه ، وأرسلت قريش «عمرو بن العاص» الى النجاشى يحمل هدايا كثيرة ، ويطلب اعادة الخارجين عن دين آبائهم ، ولكن النجاشى رفض تسليمهم لما سمع قول جعفر وأصحابه » فقال خفاف : « هل فعل النجاشى ذلك ؟ انه ملك عظيم » فقال الرجل : « بل أكثر من ذلك ، فقد أكرم وفادتهم وأنزلهم منزلة

حسنة » فقال أبو ذر : « وما فعلت قريش ؟ »

فقال الرجل : لمـا بلغ قريشا فعـل النجاشي لجعفر وأصحابه ، واكرامه اياهم ، كثر ذلك عليهم ، وغضبوا على رسول الله وأصحابه ، وأجمعوا على قتل رسول الله ، وكتبوا كتابا على بنى هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة

ثم حصروا بني هاشم فى شعب أبى طالب ، وانحاز بنو عبد المطلب بن عبد مناف الى أبى طالب فى شعبه مع بنى هاشم . وخرج أبولهب الى قريش ، فظاهرهم على بنى هاشم، وبنى عبد المطلب ، وقطعوا عنهم الميرة والماء ، فكانوا لايخرجون الا من موسم الى موسم ، حتى بلغهم الجهد ، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب ، فمن قريش من سره ذلك ، ومنهم من ساءه . ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وان الأرضة قد أكلت ما فيها من قطيعة وجور وظلم ، وبقى ما كان فيها من ذكر الله ، فذكر رسول الله ذلك لأبى طالب ، فقال أبوطالب : « أحق ماتخبرنى به يا ابن أخى ؟ » قال رسول الله : « نعم والله »

فذكر ذلك أبوطالب لاخوته ، فقالوا له : « ماظنك

به ؟» فقال أبوطالب : « والله ماكذبنى قط» ، قالوا : « فما ترى ؟ »قال أبوطالب : « أرى أن تلبسوا أحسن ما تجدون من الثياب ، ثم تخرجوا الى قريش ، فتذكروا لهم ذلك قبل أن يبلغهم الخبر » . فخرجوا حتى دخلوا المسجد ، فقصدوا الى الحجر ، وكان يجلس فيه أكابر قريش وأشرافها ، فترفعت اليهم المجالس ، ينتظرون ماذا يقولون ، فقال أبوطالب : « ان ابن أخى قد أخبرنى ، ولم يكذبنى قط ، ان الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست كل ماكان فيها منجور أو ظلم أوقطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر به الله ، فان كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وان كان كاذبا دفعته اليكم فقتلتموه ، أو استحييتموه »

فقال القوم : « قد أنصفتنا » ، فأرسلوا الى الصحيفة ففتحوها ، فلم يجدوا بها سوى اسم الله

فقال أبو ذر : وما فعلوا بعد ذلك ؟

قال الرجل : سقط فى أيديهم ، ونكسوا على رءوسهم فقال أبوطالب : « علام نحبس ونحصر ، وقد بان الأمر» ثم دخل هو وأصحابه بين الكعبة وأستارها ، فقال : « اللهم انصرنا ممن ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل

ما يحرم عليه منا » ، ثم انصرفوا الى الشعب . وتلاوم رجال من قريش على ماصنعوا ببنى هاشم ، ولبسوا السلاح ، ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب فأمروهم بالخروج الى مساكنهم ، ففعلوا

فقال خفاف : وما فعل بقيتهم ؟

فقال الرجل : قبلت ذلك على مضض

فقال خفاف : انى لأعجب كيف يلقى رسول الله كل هذا العنت من أهله وعشيرته

فقال أبو ذر : لا عجب فى ذلك ، فزمار الحى لايطرب

إسلام يثرب

انتشر خبر اسلام يثرب فى غفار ، انتشار النار فى الهشيم ، واجتاحت القبيلة موجة من البشر والسرور ، وأخذ المسلمون يهنىء بعضهم بعضا ، لاسلام الأوس والخزرج ، أطول الناس ألسنة ، وأحدهم سيوفا ، وأكثرهم مؤاساة . لقد أراد الله اظهار دينه ، ونصر نبيه ، وانجاز ما وعده

ودخل أنيس على أخيه أبى ذر يحمل اليه البشرى ، وقال : « قد فشا الاسلام فى المدينة ، وأسلم الأوس والخزرج » . فقال أبوذر : « وسيهاجر اليها رسول الله قريبا » . فنظر أنيس الى أخيه مدهوشا ، وقال : «أبلغك أنباء غير ما وصل الينا ؟ » . فقال : « لا ، ولم أسمع خبر اسلام يثرب الا منك » . قال : « ومن أدراك ان رسول الله سيهاجر الى يثرب ؟ » . قال : « لقد قال لى يوم قابلته : « اننى وجهت الى أرض ذات نخل ، فلا

أحسبها الا يثرب » . صدق رسول الله . فقال : « وهل يتركه قومه يهاجر ، ليقلب المسلمين عليهم ؟ » . قال : « سواء أتركوه أم منعوه فسيهاجر ، أما كيف ومتى ؟ فهذا من تدبير الله ، فدع ما لله لله » ..

وهمّ أبو ذر بالخروج ، فقال أخوه : « الى أين ؟ » . قال : « لقد فكرت فى الخروج الى يثرب ، لأسمع منهم خبر اسلامهم ، وأتنسم أخبار النبى الحبيب » . وانطلق أبو ذر الى يثرب ، حتى بلغ مسجد بنى زريق ، فسمع مقرئا يرتل القرآن ، فدخل وسأل عمن قابل رسول الله منهم ؟ فأرشده القوم الى رافع بن مالك الزرقى ، فاتجه أبوذر اليه وقال : « السلام عليك ورحمة الله » . قال : « وعليك السلام ورحمة الله » . وجلس أبوذر بجواره ، وقال : « أنا أبوذر الغفارى أخوك فى الاسلام» . قال : « نزلت أهلا ، هل من حاجة أقضيها لك ؟ » . فقال : «بلغنى انك أسلمت ، وأسلم الأوس والخزرج ، فاشتاقت نفسى لسماع أخبار الرسول ، فجئتكم عسى أن أجد عندكم ما يخفف من نار الشوق التى تأكل صدرى » . قال : « قد قابلنا رسول الله وسلمنا ، ولم يبق دار من دورنا الا فيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال :

« ومتى قابلتموه ؟ وأين ؟ وكيف هو ؟ » . قال : « كنا نزولا بمنى أنا وخمسة نفر من أهل يثرب ، فمر علينا رسول الله ، فوقف وقال : « أحلفاء يهود ؟ » قلنا : «نعم» ، فدعانا الى الاسلام ، وعرض علينا الاسلام ، وتلا علينا القرآن ، فأسلمنا . وقال لنا رسول الله : « تمنعون لى ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ » فقلنا له : «يارسول الله ، نحن مجتهدون لله ورسوله ، نحن فاعلم أعداء متباغضون ، فان تقدم ونحن هكذا لايكون لنا عليك اجتماع ، فدعنا حتى نرجع الى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا ، وموعدك الموسم العام المقبل. ولما كان العام المقبل ـ أى بعد مقابلتنا له بعام ـ خرجنا عشرة من الخزرج ومن الأوس رجلا الى مكة ، وقابلنا الرسول فأسلمنا ، وبايعنا على بيعة النساء ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف

فقال الرسول : « فان وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك كان أمره الى الله ، ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه » ، ثم انصرفنا الى المدينة فأظهر الله الاسلام

: وهل قابلت الرسول بعد ذلك ؟.. قال :

ـ أجل . لما حضر الحج ، مشينا بعضنا الى بعض ، تتواعد المسير الى الحج ، وموافاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا ونحن سبعون ، فى جماعة الأوس والخزرج وهم خمس مئة ، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لنا :

ـ اذا هدأت الرحل وافونى فى الشعب الأيمن ، اذا انحدرتم من منى أسفل العقبة

وأمرنا ألا ننبه نائما ولا ننتظر غائبا

فخرجنا بعد هدوء الرحل تتسلل ، الرجل والرجلان ، وقد سبقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك الموضع ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، وليس معه أحد غيره . اجتمعنا فقال العباس :

ـ يامعشر الخزرج : انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه منا من كان على غير قوله ، يمنعه للحسب والشرف . وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وتبصر بالحرب واستقلال ، العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة ، فارتئوا رأيكم وأتمروا أمركم . لاتفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه

فقال المعرور : « قد سمعنا ماقلت ، وانا والله لو كان فى أنفسنا ، غير ما تنطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله » . وتلا رسول الله القرآن ، ثم دعانا الى الله ورغبنا فى الاسلام ، فأجابه البراء بنَ معرور بالايمان والتصديق ، ثم قال : «يارسول الله بايعنا ، فنحن أهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر». وقال أبو الهيثم : «نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف» . وارتفعت الأصوات من كل جانب ، ولغط القوم ، فقال العباس : « أخفتوا جرسكم ، فان علينا عيونا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فانا نخاف قومكم عليكم ، ثم اذا بايعتم فتفرقوا الى محالكم » . وقال العباس : « ابسط يدك يارسول الله » ، فضربنا على يده جميعا وبايعناه . فقال أبو ذر : « وكيف كان رسول الله ؟ » . فقال رافع : « طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما أهل حرب وعدة ونجدة » . قال أبو ذر : « أما خف عداء قريش له ؟ » . قال : «لا يا أبا ذر» ، فقد بلغنى ان المشركين نالوا من أصحاب رسول الله بعد مقابلته لنا ، ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، وضيقوا عليهم ،

وتعبثوا بهم . فقال : « سيكون نتيجة هذا الاضطهاد وهذا الضغط ، خروج المسلمين من مكة وهجرتهم الى يثرب » . قال : « أو يقدم رسول الله معهم ؟ » . فقال : « أجل سيقدم ، فطوبى ليثرب وأهل يثرب »



غفار غفر الله لها

اكتست غفـار بحلة من البهجة ، وغمر القوم بشر وسرور ، فقد بلغهم ان رسول الله قادم اليهم مع أبى بكر خليل الرسول ورديفه بين مكة والمدينة ، وشعر أبو ذر بموجة من السعادة تجتاحه ، ووقف مع القوم يتحين قدومه ، وضربت حلقة حوله كان هو قطب رحاها ، وجعل القوم يسألونه عن النبى وكيف هو ، وماشكله ، فكان يجيبهم : «عما قريب سترون خير الناس وأفضلهم». واستبطأ الناس مرور الزمن ، وجعل أبو ذر يمد بصره يكشف الطريق لعله يلمح الرسول فيزف اليهم بشرى قدومه ، فيرد الى تلك النفوس الصادئة لرؤياه طمأنينتها، والى تلك الأفئدة التى تتفاعل فيها الأشواق لسماع حلو حديثه والخوف لتأخره هدوءها ودعتها

ومر الوقت بطيئا ، وبنو غفار ينتظرون قدوم الرسول متلهفين قلقين ، ومد أبو ذر بصره فلمح بعيرا قادما ،

فتأمله وأطال النظر، وتطلع الجميع الى حيث ينظر أبوذر، وأخيرا هتف : « هو والله رسول الله » . فردد الجميع : « جاء نبى الله » . وأسرع أبو ذر وسلم على الرسول ، وأخذ زمام راحلته ، وسار الناس من حولهم يتصايحون : «الله أكبر» . وجعل الولائد والصبيان والاماء يرددون : «هذا رسول الله قد جاء» ، ونزل رسول الله عن راحلته ، وجاء المسلمون يسلمون عليه . وجلس الرسول ، وقام أبو بكر يذكر الناس ، وقرأ النبى القرآن وجعل يدعو الناس الى الاسلام ، فأقبل الناس يبايعون ، ووقف أبو ذر بجوار الرسول فخورا مسرورا

وتفرس الناس فى النبى فرأوا رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخم البطن) ولم تزر به سعلة (نحول فى البدن) ، وسيم قسيم ، وفى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف ، وفى شعر أجفانه طول، وفى صوته صحل (صوت البحة) ، أحور أكحل ، أزج أقرن، شديد سواد الشعر ، وفى عنقه سطع (ارتفاع وطول) ، وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأن منطقه خرزات (جواهر) نظم ينحدرن ، حلو المنطق فصل ، لانزر ولا هذر ، أجهر

الناس وأجمله من بعيد ، وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة (وسـط ما بين الطويل والقصـير) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر

وطلب خفاف بن رحضـة الغفارى من الرسول أن يكتب كتابا لقومه ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى غفار : انهم من المسلمين ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ماعلى المسلمين . وان النبى عقد لهم ذمة الله وذمة الرسول ، على أموالهم وأنفسهم، والنصر على من بدأهم بالظلم ، وان النبى اذا دعاهم لينصروه أجابوه ، وعليهم نصره الى من حارب فى الدين ، ما بل بحر صوفة ، وان هذا الكتاب لا يحول دون اثم

أسلم بنو غفار ، وانشرح صدر أبى ذر لما رأى بنى قومه يدخلون فى دين الله أفواجا ، فرفع يديه الى السماء وتمتم :

ــ الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

فالتفت الرسول الى أبى ذر وقال :

ــ غفار غفر الله لها

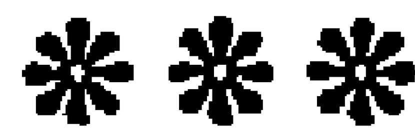
الانطلاق إلى يثرب

انطوى الزمن ، واتجه أبو ذر الى المسجد ، فى عصر يوم من الأيام ، ليصلى مع الجماعة صلاة العصر ، فدخل بقامته الطويلة النحيلة ، ولما قضيت الصلاة انتحى ناحية من المسجد ، وجلس بجوار رجل يقرأ القرآن بصوت شجى عذب ، فأنصت اليه ، وأطرق فى خشوع ، وجعل الرجل يرتل : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم »

كان أبو ذر يستمع الى الآيات بأذن واعية ، فحركت الدعوة الى الله والى دار السلام نفسه الأبية ، وجعلته يفكر فى حاله ، وفيما يقعده عن الانطلاق الى يثرب

والانضمام الى الرسول والجهاد فى سبيل الله ، وما الذى يضطره الى البقاء فى غفار ، بعيدا عن اخوانه المجاهدين العاملين على اعلاء كلمة الله ونشر دينه . لا شيء ! فليهاجرن الى رسول الله ، وليقاتلن الكفار معه ، فاما عز ونصر ، واما استشهاد وموت ، وجنات عرضها السموات والأرض . وبدا العزم على وجهه الأسمر ، فنهض وخرج الى الدار ، فوجد أخاه أنيسا ، فقال له : « سأخرج غدا الى يثرب » فقال له : « أتمكث بها طويلا ؟ متى تعود ؟ » . قال : « لعلى لا أعود أبدا » . فقال : «وماذا تفعل هناك ؟ » . قال : « أنضم الى الرسول ولن أفارقه بعد اليوم » . فقال له : « وعلى من تنزل ؟ » . قال : « أنام فى المسجد مع أصحاب الرسول ، الذين لا مأوى لهم غيره » . فقال له : « لقد أسلمت وصدقت ونلت ما تبغى ، فابق فى قبيلتك ، بالقرب من دارك ، فأهلك أولى بك » . قال : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . كفى يا أنيس ماضاع ، لقد غزا النبى غزوة بدر وأنا فى غفار ، وغزا غزوة أحد ، واستشهد من أصحابه من استشهد ، ونالوا الدرجة العليا ، وأنا قابع هنا فى عقر دارى ، ووقعت واقعة الخندق وأنا متقاعد عن الجهاد .

ألا كفى يا أنيس ما فاتنى من خير » . فقال له : « ابق فى دارك ، واذا دُعيت للجهاد فلبِّ النداء » . قال : «وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وقد وهبت نفسى لله ، ولا مطمع لى فى حطام هذه الدنيا الفانية ، وكل ما أبغى هو رضا الله ورسوله ، فما الذى يدعونى الى البقاء ؟ والله لأنطلقن الى يثرب ، والله يهدى الى سواء السبيل»



وهمَّ أبو ذر بالخروج ، ولم يتزود ، ولم يأخذ معه شيئا ، فقال أنيس : « أليس تتخذ من الزاد ما يصلحك ويبلغك ؟ » . قال : « تكفينى كسرة خبز طوال الطريق »

وانطلق أبو ذر الى يثرب ، وانضم الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصبح تابعا من أتباعه ، يغترف من معين علمه الذى لاينضب ، ويتأدب بأدبه ، ويحاكيه فى زهده ويتمثل به فى بره وعطفه وكرمه

أهل الصفّة

أصبح أبو ذر يقضى عامة يومه فى مسجد الرسول ، عاكفا على العبادة ، منقطعا الى الله تعالى ، معرضا عن زخرف الدنيا وزينتها ، زاهدا فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه وكان اذا جن الليل ، أوى الى المسجد مع ناس من أصحاب الرسول ، لا منازل لهم ، وما لهم من مأوى غيره . وكان الرسول يدعوهم اليه بالليل اذا تعشى ، فيفرقهم على أصحابه ، وتتعشى طائفة منهم معه. وقد كان أبوذر منهذه الطائفة ، وقد أراد الله به خيرا ، ففتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين والصدق ، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه سميعة ، وعينه بصيرة ، فسمع من الرسول ووعى ، وتعلم وحفظ ، وتحدث وروى ، فكان من أعظم المحدثين ، وحاكى الرسول فى زهده ، فكان أشهر الزاهدين

وفى ذات يوم دخل عمر المسجد ، واذا أبوذر جالس وحده ، فقال عمر : « لم تجلس وحدك؟» . فقال أبوذر: « اجلس ، الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السوء ، ومملى الخير خير من مملى الشر ، والأمانة خير من الخاتم ، والخاتم خير من ظن السوء»

وأخذ أبوذر وعمر بأطراف الحديث ، وتوافد الناس على المسجد . وأذن بلال لصلاة المغرب ، فخرج النبى وصلى بالناس . ولما قضيت الصلاة تكونت حلقات من الذاكرين الله ، والمستمعين الى الرسول . وجلس أبو ذر يسمع الى الرسول وهو يقول : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم . هو الفصل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولايخلق عن كثرة الرد ، ولا تقضى عجائبه . هو الذى لم ينته الجن اذا سمعته حتى قالوا : (انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به) . من قال به صدق ، ومن عمل

به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم »

وعقب صلاة العشاء انصرف الناس من المسجد ، وبقى أهل الصفة ليمضوا ليلهم فيه ، ودخل الرسول منزله ، ونام أصحابه . ولما انقضى من الليل ثلثه ، خرج الرسول الى المسجد وقال لأبى هريرة : « ادع لى أصحابى »

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقظهم ، وأيقظ أبا ذر ، حتى جمعهم ، فجاءوا باب الرسول ، فاستأذنوا ، فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا ، ووضع الرسول لهم صحفة فيها صنيع شعير ، ووضع يده عليها وقال : « خذوا باسم الله ، والذى نفس محمد بيده ما أمسى فى آل محمد طعام ليس شيئا ترونه »

فأكلوا ما شاءوا ، ثم عادوا الى المسجد ، ليستأنفوا نومهم . فما مست جنوبهم الأرض ، حتى مس سلطان الكرى جفونهم ، فأمعنوا فى الرقاد الهادىء المطمئن ، ونشر السكون غلالته على المكان ، وأطبق أبوذر عينيه ، ولكنه سمع حفيف ثوب ، ففتحهما ، فرأى رسول الله مقبلا الى المسجد من منزله ، فجعل يرقبه ، فألفاه يتجه الى القبلة ويأخذ فى الصلاة ، فأرهف أذنيه ، فسمعه

يقرأ بآية : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » . واستمر يرقب الرسول ، فوجده يركع ويسجد بها طوال الليـــل حتى أصبح ، فازداد عجبه ، واشتاق لمعرفة سر ذلك ، فلما انتهى رسول الله من صلاته ، قام أبوذر اليه وقال : « يارسول الله ، مازلت تقرأ هذه الآية ، حتى أصبحت ، تركع وتسجد بها » . قال الرسول : « فانى سألت الله الشفاعة فأعطانيها ، وهى نائلة ان شاء الله لمن لايشرك بالله عز وجل »

الوصـــية

دارت عجلة الزمن، واشترك أبوذر مع النبى فى جميع غزواته التى تلت الخندق ، فكان شجاعا ، ينفرد وحده ، فيقطع الطريق ، ويغير على الصرم كأنه السبع . وغزا مع النبى غزوة بنى لحيان وغزوة ذى قرد . وفى السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول لغزو بنى المصطلق من خزاعة ، لما بلغه انهم مجتمعون له ، فاستخلف أبا ذر على المدينة ، ولقيهم بالمريسيع من مياههم ، ما بين قديد والساحل ، فتزاحفوا وهزمهم

ونال أبو ذر الحظوة عند النبى ، فكان عليه الصلاة والسلام يبتدئه اذا حضر ، ويتفقده اذا غاب . وفى يوم أتى أبو ذر رسول الله وهو نائم ، وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاه وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر : « ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة» . فقال أبوذر : «وان زنى وان سرق؟» . قال الرسول : « وان زنى وان سرق » . فقال أبوذر:

«وانْ زنى وانْ سرق؟» . قال الرسول مؤكدا : « وانْ زنى وانْ سرق » . فقال أبو ذر مستنكرا : « وان زنى وان سرق ؟ » . فقال الرسول : « وان زنى وان سرق ، على رغم أنف أبى ذر » .

وخرجا الى المسجد ، فلما دخلاه قال النبى لأبى ذر: « يا أبا ذر ، ارفع رأسك . » فرفع أبو ذر رأسه ، فاذا رجل عليه ثياب جياد . وسارا بضع خطوات ، فقال الرسول له : « ارفعَ رأسك . » فرفع أبو ذر رأسه ، فاذا رجل عليه ثياب خلقة . فقال الرسول : « يا أبا ذر ، هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا »

واستمر أبو ذر يبيت فى مسجد الرسول ، حتى أعرس ، فاتخذ له منزلا . فدخل عليه رجل ، وجعل يقلب بصره فى بيته ، فلا يجد به شيئا ، فقال له الرجل : « يا أبا ذر ، أين متاعكم ؟ » . فقال أبو ذر : « لنا بيت نوجه اليه صالح متاعنا » قال : « انه لا بد لك من متاع ، ما دمت ها هنا » . فقال : « ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه » ونظر أبو ذر الى الرجل ، وقال : « والله لو تعلمون ما أعلم ، ما انبسطتم الى نسائكم ، ولا تقاررتم على فرشكم . والله لوددت أن الله عز

وجل خلقنى يوم خلقنى شجرة تعضد ويؤكل ثمرها »
قال : « أويمنع هذا من أخذك من الدنيا بنصيب ؟ »

قال أبو ذر : « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى لدار الغرور »

وخرج الرجل ، واتجه أبو ذر الى المسجد ودخل ، فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده ، فجلس اليه ، فقال الرسول : « يا أبا ذر ، ان للمسجد تحية ، وان تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما » . ثم عاد وجلس اليه ، ووجد الفرصة سانحة ليتفقه فى دينه ودنياه ، فقال : « يا رسول الله ، انك أمرتنى بالصلاة ، فما الصلاة ؟ » قال : « خير موضوع استكثر أو استقل » . فقال : « يا رسول الله ، فأى الأعمال أفضل ؟ » . قال : « ايمان بالله عز وجل ، وجهاد فى سبيله » . فقال : « فأى المؤمنين أكملهم ايمانا ؟ » . قال : « أحسنهم خلقا » . فقال : « يا رسول الله ، فأى المؤمنين أسلم ؟ » . قال : « من سلم الناس من لسانه ويده » . فقال : « يا رسول الله ، فأى الهجرة أفضل ؟ » . قال : « من هجر السيئات » . فقال : « يا رسول الله ، فأى الصلاة أفضل ؟ » . قال : « طول

القنوت » . فقال : « يا رسول الله ، فما الصيام ؟ » .
قال : « فرض مجزى ، وعند الله أضعاف كثيرة » .
فقال : « يا رسول الله ، فأى الجهاد أفضل ؟ » . قال :
« من عقر جواده ، وأهريق دمه » . فقال : « يا رسول
الله ، فأى الرقاب أفضل ؟ » . قال : « أغلاها ثمنا ،
وأنفسها عند ربها » . فقال : « يا رسول الله ، فأي
الصدقة أفضل ؟ » . قال : « جهد من مقل يسر الى
فقير » . فقال : « فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك
أعظم ؟ » . قال : « آية الكرسى . ياأبا ذر، ما السموات
السبع مع الكرسى الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » .
فقال : « كم كتابا أنزل الله ؟ » . قال : « مئة كتاب
وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل
على اخنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على ابراهيم عشر
صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف،
وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان » . فقال :
« يا رسول الله ، فما كانت صحف ابراهيم ؟ » . قال :
« كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المبتلى المغرور،
فانى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها الى بعض ، ولكن
بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فانى لا أردها ولو

كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا لثلاث : تزود لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا لزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله ، قل كلامه الا فيما يعنيه »

فقال : « يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ » . قال : « كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن اليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ، ثم لا يعمل » . فقال : « يا رسول الله ، أوصنى » . قال : « أوصيك بتقوى الله ، فهى رأس الأمر كله » . فقال : « يا رسول الله ، زدنى » . قال : « عليك بتلاوة القرآن ، فهو نور لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء » فقال : « يا رسول

الله زدنى » . قال : « اياك وكثرة الضحك ، فانه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « عليك بالصمت الا من خير ، فانه مطردة للشيطان عنك ، وعون لك على أمر دينك » . فقال : « يارسول الله زدنى » . قال : « أحب المساكين وجالسهم » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « انظر الى من تحتك ولا تنظر الى من فوقك ، فانه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عندك » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال « صل قرابتك وان قطعوك » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « لا تخش فى الله لومة لائم » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « قل الحق ولو كان مرا » . فقال : « يا رسول الله زدنى » . قال : « يردك عن الناس ما تعرف عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى به عيبا أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تأتى »

ثم ضرب بيده على صدر أبى ذر ، وقال : « يا أباذر ، لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسن كحسن الخلق »

إلى مكة

جلس النبى صلى الله عليه وسلم صامتا فى المسجد ، فصمت جميع الجالسين اليه ، حتى لم يعد تسمع فى المسجد لاغية ، وظنوا أن ينزل عليه الوحى ، فأقصروا عنه ، ومر الوقت وكأن على رءوسهم الطير ، حتى جاء أبو ذر ، فاقتحم فجلس اليه ، فأقبل عليه النبى صلى الله عليـه وسلم ، فقـال : « يا أبا ذر ، هل صليت اليوم ؟ » قال : « لا » . فقال : « قم فصل » .

فقام أبو ذر ، وصلى أربع ركعات الضحى . ثم أقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شـياطين الجن والانس » . قال : « يا نبى الله ، أو للانس شياطين ؟ » فقال : « نعم ، شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » .

وسكت النبى ، وسكت أبو ذر . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر ، ألا أعلمك كلمات من كنز

الجنة ؟ » فقال : « بلى . جعلنى الله فداءك » . قال :
ـ قل : « لا حول ولا قوة الا بالله » ..
ودخل عمرو بن سالم الخزاعى المسجد ، وأسرع نحو الرسول ، حتى وقف بين يديه ، فقال : « نقضت قريش عهد الحديبية ، يا رسول الله » . وتجاوبت أصوات فى المسجد تستفسر : « كيف ؟ كيف ؟ »
ـ لقد دخلت قبليتى خزاعة فى عهدكم ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش . وتعلمون أن بيننا وبين بنى بكر ثارات وحزازات قديمة ، سكنت بعد صلح الحديبية . فلما لم ينتصروا على الروم فى مؤتة ، خيل الى القرشيين أنه قضى عليكم ، وانه لن تقوم لكم قائمة بعد غزوتكم هذه ، فحرضوا بنى بكر علينا . فبينا نحن ذات ليلة على ماء لنا ، اذ فاجأنا بنو بكر ، فقتلوا منا ، فسارعت اليك يا نبى الله ، أستنصرك على من اعتدى علينا ، فقال النبى : نصرت يا عمرو بن سالم !
وأطرق النبى مفكرا ، ورأى ان ما قامت به قريش من نقض عهده ، لا مقابل له الا فتح مكة
وأرسل عليه السلام رسله فى أنحاء شبه الجزيرة ، ليكونوا على استعداد لتلبية ندائه ..

وراح النبى يستعد ليوم الفتح العظيم ، وفكر فى فتح مكة دون اراقة دماء ، وقلب وجوه الرأى ، فهداه تفكيره الى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك ، أن يبغت القوم فى غرة منهم ، فلا يجدوا له دفعا ، فيسلموا . وجعل الناس يتجهزون للقتال ، لا يعلمون أين وجهتهم

وخرج النبى وأبو ذر معه ، ليعلم القوم أنه سائر الى مكة ، ليضع يده على البيت الحرام ، الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين . وبينما هما فى الطريق ، مال النبى ، وأخذ بغصنين من شجرة ، فجعل الورق يتهافت ، فقال النبى : « يا أبا ذر ! » . قال : « لبيك يا رسول الله ! » . فقال : « ان العبد المسلم ليصلى الصلاة يريد بها وجه الله تعالى ، فتهافت عنه ذنوبه ، كما يتهافت هذا الورق عن هذه الشجرة »

وسارا حتى بلغا القوم ، فأمرهم الرسول بالجد الى مكة ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تقف من سيرهم على نبأ . . . . .

تحرك جيش المسلمين من المدينة قاصدا مكة فى عدد لا عهد للمدينة به . وأغذ الجيش السير ، وكان أبو ذر يخدم النبى طوال الطريق ، لا يفترق عنه ولا يتركه .

وخرج أبو سفيان يتنطس الأخبار ، فرأى نيرانا وعسكرا ما رأى مثلها من قبل قط . وقابل العباس عم النبى ، فسأله عن الخبر ؟ فقال العباس : « هذا رسول الله فى الناس ، واصباح الناس اذا دخل مكة عنوة »

رأى أبو سفيان من جيوش النبى ما أزعجه ، وخشى ما يحل بمكة اذا دهمها هذا الجيش الذى لا قبل لها به ، فسأل العباس أن يجيره ، فأركبه العباس فى عجز بغلة النبى . وفى الطريق لمح عمر أبا سفيان، فأسرع الى خيمة النبى ، وطلب اليه أن يضرب عنقه ، ولكن العباس قال : « يا رسول الله ، انى قد أجرته » . فقال الرسول : اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به .

وفى الصباح ، دخل كبار المهاجرين والأنصار على النبى ، وجىء بأبى سفيان ، فابتدره النبى : « ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ؟ » قال : « بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد . فقال : « ويحك يا أباسفيان . ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . أما هذه فان فى النفس

منها حتى الان لشيئا »

فتوجه العبــاس الى أبى ســفيان ، وطلب منه أن يسلم ، قبل أن تضرب عنقه ، فلم يسعه الا أن يسلم

وتحركت جيوش المسلمين نحو مكة ، ووقف النبى فوق ذى طوى ، وتطلع الى مكة ، فألفاها لا تقاوم ، فخر ساجدا لله رب العالمين . ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فجاء أبو ذر بجفنة فيها ماء ، وكان فى الجفنة أثر العجين ، فستر أبو ذر النبى حتى اغتسل ، ثم ستر النبى صلى الله عليه وسلم أبا ذر فاغتسل ، واتجه الى الكعبة ، فطاف النبى سبعا على راحلته . فلما قضى طوافه ، فتحت الكعبة ، فوقف النبى على بابها ، وخطب الناس وســألهم : يا معشر قريش ماترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء

ودخل الكعبة فجعل يشير الى الأصنام المنصــوبة حولها بقضيب فى يده وهو يقول : « قل جاء الحق وزهق البــاطل ، ان البــاطل كان زهوقا » . وكبئت الأصنام على وجوهها ، وهتف أبو ذر مع الهاتفين : « قل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا »

كن أبا ذر

دانت القبائل لمحمد ، ودخل النـاس فى دين الله أفواجا ، فرفرفت الراية الاسلامية على جزيرة العرب جميعها . واستعمل رسول الله رجالا على الصدقات ، أوفدهم ليجمعوا له عشر ايراد القبـائل التى دانت للاسلام ، من غير أن يتعرضوا لأصول أموالها . وجاء الله بالغنى ، وظهرت آثار الغنى على كثير من المسلمين ، فشبعوا بعد مسغبة ، واقتنوا الحلل . وبقى أبو ذر على زهده ، ليس له طعام الا من شعير

وفى يوم اتجه أبو ذر الى الربذة ، وأمضى بها ردحا من الزمن ، ثم عاد الى المدينة ، فقصد من فوره النبى الحبيب ، وجلس اليه صامتا لا يتكلم ، فقال : يا أبا ذر

فسكت أبو ذر ، ولم يحر جوابا ..

فقال النبى : ثكلتك أمك !

فقال أبو ذر بصوت خفيض : انى جُنِبت

فنادى رسول الله الجارية ، وأمرها باحضار ماء ،

فجاءت به . فأخذه أبو ذر ، واتجه به الى راحلته ، واستتر بها واغتسل ، وعاد الى حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى : « يجزئك الصعيد وان لم تجد الماء عشرين سنة ، فاذا وجدت الماء فأمسه جلدك »

وأخذ النبى يوصى أبا ذر ، وأبو ذر يسمع له بأذن واعية ، حتى أقبل ابن اللتبية وهو من الأزد ، كان النبى قد استعمله على الصدقة ، فقسم الرجل ما معه قسمين ، وقال للنبى : « هذا لكم ، وهذا أهدى لى »

فظهر الغضب فى وجه النبى . ولمح أبو ذر ذلك ، فقال للرجل : « كيف أهدى لك ؟ »

ووقف النبى ، وخطب الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فانى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم ، فيقول : « هذا لكم ، وهذه هدية أهديت لى . فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه ، فينظر أيهدى له أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد منه شيئا ، الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، ان كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر

فترك ابن اللتبية ما أهدى اليه ، ولم يمسه . فاتجه اليه أبو ذر ، وقال : « هذا أفضل ! » فقال الرجل : « ما كنت أدرى »

وأطرق الرجل ، فقال له أبو ذر : « لا تحزن ، واعلم ان الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يسعى من لا يقين له » ثم قال له : « اذهب واعتذر للنبى »

فقصد ابن اللتبية رسول الله ، واعتذر وطلب العفو ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل .. يا عبادى كلكم مذنب الا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . ومن علم انى أقدر على المغفرة ، فاستغفرنى بقدرتى ، غفرت له ولا أبالى . وكلكم ضال الا من هديت ، وكلكم فقير الا من أغنيت ، فاسألونى أغنكم . ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم ، اجتمعوا على أشقى قلب من قلوب عبادى ، ما نقص فى ملكى جناح بعوضة . ولو اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، ما زاد فى ملكى جناح بعوضة . ولو ان أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم ، اجتمعوا ، فسألنى كل سائل منهم

ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منهم ما سأل ، ما نقصنى ، كما لو ان أحدكم مر بشفة البحر ، فغمس فيها ابرة ثم انتزعها ، كذلك لا ينقص من ملكى . ذلك بأنى جواد ماجد حمد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، اذا أردت شيئا فانما أقول له كن فيكون »

ونهض النبى وانصرف ، ودار الحديث بين القوم ، وبقى أبو ذر يدير دفة الحديث ، ويمجد الزهد ، ويدعو الله ، ويحقر من هذه الدنيا الفانية ، ويبشر الذين يواسون الفقراء ، وينفقون أموالهم فى سبيل الله بجنات عرضها السموات والأرض ، تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك هو الفوز العظيم

وابتدأ القوم ينصرفون ، وخرج أبو ذر قاصدا داره ، فمر على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى ، فلم يسلم ، فقال جبريل : « هذا أبو ذر ، لو سلم لرددنا عليه » فقال النبى : « تعرفه يا جبريل ؟ » قال : « والذى بعثك بالحق نبيا ، لهو فى ملكوت السماوات السبع ، أشهر منه فى الأرض » فقال : « بم نال هذه المنزلة ؟ » قال : « بزهده فى هذاالحطام الفانى »

اتصل بالنبى نبأ من بلاد الروم ، انهـا قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصـحابه لسنة ، وأن لخم وجذام وعاملة وغسان ، قد خرجت معه . وأن هرقل عازم على غزو شمال شبه الجزيرة ، لينسى الناس ذكر العرب ، وسلطان المسلمين الزاحف فى كل مكان . فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج ، وأعلمهم المكان الذى يريد ، على خلاف عادته ، لطول الشقة بين المدينة وبلاد الشام ، وليتأهب الناس ، ويأخذوا لذلك عدتهم . وبعث الى مكة وقبائل العرب يستنفرهم ، وأمرهم بالصدقة ، وطلب من أغنياء المسلمين أن يشاركوا فى تجهيز هذا الجيش ، بما آتاهم الله من فضله

علم أبو ذر أن النبى سيخرج الى تبوك لغزو الروم ، فأراد أن يتجهز ، فاتجه الى بعيره ، فألفاه أعجف ، لا يقوى على قطع تلك المسافات الشاسعة ، بين المدينة وتبوك ، فقال فى نفسه : « أعلفه أياما ، ثم أخرج به مع النبى عليه الصلاة والسلام »

كان الحر شديدا ، والسفر طويلا ، فالتمس ضعاف الايمان الأسباب للبقاء بالمدينة ، وعدم الخروج . وجاء

بعض الفقراء الى المال ، الأغنياء بالايمان ، الذين لم يجدوا رواحل لهم ، الى النبى يستحملونه ، فلما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه ...

« وَلَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، ألا يجدوا ما ينفقون » .

وأقبل النـاس من كل حدب وصـوب ، فاجتمع المسلمون بالمدينة ، وجاء أبو ذر على بعيرهِ . وخرج المؤمنون فى حر شديد ، الرجلان والثلاثة على بعـير واحد ، للجهاد فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، وبقى المنافقون فى المدينة ، عليهم غضب الله ورسوله

تحرك الجيش فثار النقع ،وصهلت الخيل ، وارتفع رغاء الابل ، وسارعت النساء ، وارتفعن فوق سقوف دورهن ، ليشهدن جيش الله الجزار ، المندفع صوب الشام مخترقا الفيافى والقفار ، متجشـما الأخطار ، مستهينا بالحر والظمأ والمسغبة ، فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر دينه .

واستوت الشمس فى كبد السماء ، وارتفعت أشعتها المحرقة ، تشوى وجوه المسلمين ، فتفصـد العرق ،

وأحس الناس بضيق شديد ، وكان تبرم ضعاف الايمان شديدا ، فتخلف كعب بن مالك ، وقفل راجعا الى المدينة ، فقال أصحاب الرسول للرسول :

ـ يا رسول الله ، تخلف كعب بن مالك

ـ دعوه ، ان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه ..

وأخذ الجيش يسير ، وأبطأ بعير أبى ذر ، وتخلف عن الجيش . فالتفت المسـلمون الى النبى وقالوا : « يا رسول الله ، تخلف أبو ذر » فقال : « دعوه ، ان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه »

واستمر الجيش فى زحفه ، وترك أبا ذر خلفه . هل يتخلف أبو ذر عن النبى ؟ وهل يقفل عائدا الى المدينة ؟ ..

لا . ما كان لأبى ذر أن يتخلف عن النبى الحبيب ، وما كان لأبى ذر أن يعود الى المدينـة ، لينضم الى المنافقين . انه يشعر بالظمأ ، ويحس أن رقبته ستنقطع ، ولا ماء معه . لخير أن يموت ظمآن من أن يعود الى المدينة . لقد أبطأ به بعيره ، فليزجره ، وليحثـه على الاسراع ، لعله يلحق بالنبى . ولكنه لم ير ببعيره حركة ،

فماذا يفعل ؟ والى أين يتوجه ؟ فليترك بعيره هذا الذى لحقه البوار ، وليحمل متاعه على ظهره وليجد فى السير ، وليلحق باخوانه الزاحفين الغازين ، أو يموت فى الطريق

أخذ أبو ذر متاعه على ظهره ، ثم راح يتبع رسول الله ماشيا ، وأخذ منه التعب والعطش ، ولكن كانت نفسه المؤمنة بالله تشد أزره ، وتلهمه أن بعد الضيق فرجا ، وأن مع العسر يسرا ، فتقوى عزيمته ، وتصبر على الشدائد نفسه ، فيستأنف سيره بعزيمة لا تعرف الخور ، ونفس لا ترضى الا بلوغ الغرض

سار جيش المسلمين ترفعه النجاد ، وتحطه الوهاد ، وتلفحه الشمس بأشعتها الحامية . ونفد الماء قبل الوصول الى اليرموك ، فنزل الجيش منزلا ، وأصاب الناس عطش شديد حتى ظنوا أن رقابهم ستنقطع . بحثوا عن الماء فلم يجدوه ، وفكروا فيما يفعلون ، وقلبوا وجوه الرأى ، ولم يستطع كثير من المسلمين الصبر على الظمأ ، فقاموا الى ابلهم ، وجعلوا ينحرونها ، لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها . واشتد ظمأ القوم ، وأخذوا يترنحون من شدة العطش . ورأى أبو بكر أن يتجه الى الرسول يطلب منه أن يدعو الله

لهم ، فقصده وقال : « يا رسول الله ، ان الله قد عودك فى الدعاء خيرا ، فادع الله لنا » فقال النبى : « أتحب ذلك ؟ » فقال الصديق : « نعم » فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يديه نحو السماء ، وأخذ يدعو ربه ، فلم يرجعهما حتى غامت السماء ، فأطلت ، ثم سكبت ، فدبت الحياة فى المعسكر ، واستقبل المسلمون الغيث فرحين جذلين ، مهللين مكبرين ، وارتووا وملئوا ما معهم ، وشكروا الله كثيرا على ما آتاهم من فضله . وذهب بعضهم ينظر فلم يجدوا المطر قد جاوز المعسكر

ارتوى المسلمون وأصبحوا مبرودى الغليل ، بينما أبو ذر يمشى فى الطريق وحده ، لا يجد ما يطفىء به عطشه . لا يتمنى جرعة ماء ، بقدر ما يتمنى أن يلقى الرسول الخليل . ولمح أبو ذر معسكر المسلمين ، فأحيا ذلك فيه موات الأمل ، وأحس خفة فى جسمه ما كان يحسها قبل ذلك ، وتمنى أن يكون له جناحان ، يطير بهما الى الرسول ، فما كان يطيق أن يظن الرسول به الظنون ، أو يحسبه قعد مع القاعدين ، أو تخلف مع المتخلفين . فما تخلف أبو ذر ، وما كان لأبى ذر صاحب رسول الله ، أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله

ونظر ناظر من المسلمين ، فلمح رجلا قادما ، فقال : « يا رسول الله ، ان هـذا الرجل يمشى على الطريق وحده » فقال صلى الله عليه وسلم : « كن أبا ذر »

تأمل القوم الرجل القادم ، ولما اقترب منهم صاحوا : « يا رسول الله ، هو والله أبو ذر » فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « يرحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده »

وخف رسول الله اليه ، ولما قابله شاع السرور فى نفسه ، وقال النبى : « لقد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنبا ، الى أن لقيتنى »

ومد النبى يده ، ووضع متاعه عن ظهره . وسقط أبو ذر على الأرض من التعب والاعياء والعطش ، ثم استسقى ، فأتى باناء به ماء

واستأنف المسلمون زحفهم ، وقدم الرسـول الى تبوك فى ثلاثين ألفا ، والخيل عشرة آلاف فرس ، فأقام بها عشرين ليلة ، يصلى الصلاة ركعتين . ولم يلق كيدا فانصرف ، وقدم الى المدينة فى شهر رمضان سنة تسع ، فقال : « الحمد لله على ما رزقنا فى سفرنا هذا من أجر وحسبة »

أجاب ربنا دعاه

عاد أبو ذر من مكة بعد أن حج مع الرسول حجة الوداع ، مطرقا مفكرا ، وجعل يفكر فى خروجه مع النبى من المدينة الى مكة حاجا ، وفى اتمام النبي مناسك الحج فى حجه هذا ، وفي خطبته الجامعة . وجعل سيال الفكر ينتقل به من مكان الى مكان ، ورن فى أذنه صوت النبى وهو يرتل : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » . فوقع فى نفسه حزن ثقيل ، وأيقن أن النبى الحبيب أتم رسالة ربه ، ولم يبق الا القليل ليترك هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى . برم أبو ذر بهذه الأفكار السود التى تلاحقه ، ولم يطق التفكير فى فراق النبى ، وكيف يطيق الفراق ولم يتفارقا منذ قدم الرسول . ليته يفارق هذه الحياة قبله ، ولكن ما شاء الله يكون . وأحس رغبة فى لقاء النبى ، فنهض وترك الدار وانطلق

وقف النبى مع أصحابه يتحدث والجميع ينصتون

اليه ، وأقبل رجلان من الأنصار فلمحا النبى وأصحابه حوله ، فمال أحدهم على الآخر وقال : « أنظر الى أصحاب الرسول ، فهم هم على الدوام قلما ينقصون أحدا » فقال الآخر : « انهم رفقاؤه المقربون » قال : « ألا ترى أنهم ينقصون اليوم واحدا ! » فقال : « ترى من يكون ؟ »

وتفرس الرجلان فى أصحاب الرسول ، فقال الأول : « لا أرى أبا ذر بين القوم » قال : « لعله ذهب لقضاء حاجة » فقال : « أما لاحظت أن النبى يحبه ويقربه ؟ » قال : « أجل ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئه اذا حضر ، ويفتقده اذا غاب » فقال : « انه جدير بهذا الحب ، فهو رجل صالح » قال : « ان رسول الله يحبه لزهده وتقشفه »

وأقبل بلال على النبى وكان الغضب ظاهرا عليه ، فسلم ثم قال: « يا نبى الله ، لقد قامت بينى وبين أبى ذر مشادة الآن ، فقال لي يابن الحمراء »

وأقبل أبو ذر فقال له النبى : « يا أبا ذر ، بلغنى اليوم بأنك عيرت أخاك بأمه » فقال : « نعم » قال : « يا أبا ذر ، انك امرؤ فيك جاهلية ، يا أبا ذر ارفع

رأسك ، فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمـر فيها ولا أسود ، الا أن تفضله بعمل »

فطأطأ أبو ذر رأسه ، وأيقن أنه أساء الى بلال . وخشى من غضب النبى صلى الله عليه وسلم ، فاضطجع وقال لبلال : « قم فطأ على خدى »

فأسرع بلال الى أبى ذر ، وسلم عليه ، وعفا عنه . والتزم أبو ذر جانب الصمت ، الى أن سأله الرسول : لم سب صاحبه ؟ فقال أبو ذر : « لقد أغضبنى » فقال النبى : « غضبت وكنت قائما فاقعد ، وان كنت قاعدا فاتكىء » .

ودار الحديث بين الجميع ، والتفت الرسول الى أبى ذر ، وقال : « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ، ثقيل فى الميزان ؟ » فقال أبو ذر : « بلى يا رسـول الله » قال : « هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك »

وابتدأ أصحاب الرسول ينصرفون ، فاتجهوا الى دورهم . وبقى أبو ذر مع الرسول ، فسارا حتى بلغا السوق ، فألفيا الناس منكبين على تجـارتهم وبيعهم وشرائهـم ، فالتفت الرسـول الى أبى ذر ، وقال :

« يا أبا ذر ، انى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب »

واستأنفا سيرهما ، والتفت النبى الى أبى ذر، وقال :

ـ يا أبا ذر ، أنت رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى فقال : « فى الله ؟ » قال : « فى الله »

فلم يجزع أبو ذر ، ولم يرتجف ، بل نزل رد الرسول على قلبه بردا وسلاما ، وقال قولة الرجل الصالح : « مرحبا بأمر الله »

***

مرض رسول الله ، واستأذن زوجاته فى البقاء فى بيت عائشة ، فأذن له . وفى صحوة من صحوات مرضه ، طلب من عائشة أن تدعو له أصحابه الذين فى المسجد ، فأرسلت فى طلبهم ، فدخلوا على النبى ، ودخل أبو ذر معهم ، فسلموا عليه ، وجلسوا عنده ، فالتفت اليهم وقال : « مرحبا بكم ، حياكم الله بالسلام ، رحمكم الله ، حفظكم الله ، جبركم الله ، رزقكم الله ، نفعكم الله ، آداكم الله : (قواكم الله) ، وقاكم الله . أوصيكم بتقوى الله ، أوصى الله بكم، أستخلفه عليكم، وأحذركم

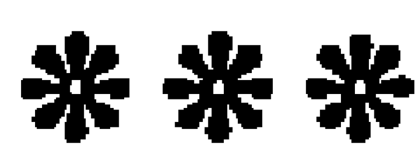
الله ، انى لكم نذير مبين ، ألا تعلوا على الله فى عباده وبلاده ، فانه قال لى ولكم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » . وصمت الرسول ، وصمت الجميع ، ثم قال : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟ »

وصمت ، فشمل السكون المكان ، ثم قال : « دنا الفراق والمنقلب الى الله ، والى جنة المأوى ، والى سدرة المنتهى ، والى الرفيق الأعلى ، والكأس الأوفى ، والحظ والعيش المهنى » فقال أحدهم : « يا رسول الله ، من يغسلك ؟ » فقال : « رجال من أهلى ، الأدنى فالأدنى » فقال آخر : « يا رسول الله ، ففيم نكفنك ؟ » فقال : فى ثيابى هذه ان شئتم ، أو ثياب مصر ، أو فى حلة يمانية » فقال ثالث : « يا رسول الله ، من يصلى عليك ؟ »

فبان على أبى ذر التأثر ، وغامت عيناه بالدمع ، ولم يستطع كتمان حزنه ، فانفجر باكيا ، فبكى أصحاب الرسول ، وبكى النبى . وخيم على المكان سحابة كثيفة من الحزن ، فقال الرسول : « مهلا رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيرا ، اذا أنتم غسلتمونى

وكفنتمونى ، فضعونى على سريرى هذا ، على شفة قبرى فى بيتى هذا ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فان أول من يصلى علىّ حبيبى وخليلى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم اسرافيل ، ثم ملك الموت معه جنوده من الملائكة بأجمعهم . ثم ادخلوا فوجا فوجا فصلوا علىّ وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكيــة ولا برنة ، وليبتــدىء بالصلاة علىّ رجال أهلى ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، واقرءوا السلام مع أصحابى ، واقرءوا السلام على من تبعنى على دينى هذا من قومى الى يوم القيــامة » فقالوا : « يا رسول الله ، فمن يدخلك قبرك ؟ » فقال : « أهلى مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم »

وصمت الرسول ، وأطرق الجمع فاذا الدار ساكنة سكون الرموس ، ووقع فى نفس أبى ذر حزن شديد ، فقد دنا وقت الفراق ، وأحس رغبة فى البكاء ، ولكن تحجرت عيناه ، وشعر بغصة فى حلقه ، فطأطأ رأســه وخرج ..



أذن بلال للصلاة ، وأقبل المسلمون من كل صوب وحدب الى مسجد الرسول. وأمّ أبو بكر الناس، وابتدأت

الصلاة ، وخرج الرسول الى المسجد معصوب الرأس ، واتجه الى حيث كان أبو بكر ، فلمح المسلمون النبى فسرت فيهم موجة من الفرح ، وانتعشت نفوسهم لرؤياه . وأحس أبو بكر بحركة بين الصفوف ، فعلم أن النبى قد أقبل ، فتراجع ليخلى للنبى مكانه . ولكن النبى دفعه بيده ليبقيه ، ووقف يصلى خلفه . لمح أبو ذر النبى ، فشعر بنشوة من السرور ، وظهر البشر على وجهه ، لابلال النبى من مرضه . ولما قضيت الصلاة انجفل الناس اليه ، وجعلوا يسلمون عليه . وأسرع أبو ذر فيمن أسرع للاحاطة به ، لسماع در حديثه . وبقى الناس يتجاذبون أطراف الحديث مع النبى ، حتى دخل داره ، فانصرفوا الى دورهم

انصرف أبو ذر قاصدا داره فرحان جذلان ، لابلال خليله من مرضه . وما كان أبو ذر يدرى أنه لن يراه بعد يومه هذا ، ولو علم ذلك لانقلب فرحه ترحا ، وسروره حزنا وغما . وانصرف أبو ذر وهو لا يدرى أن النبى الحبيب ، ما خرج الا ليعطى كل ذى حق حقه ، الا ليستعد للقاء ربه ، وما لأحد فى عنقه شىء . انطلق أبو ذر وهو لا يدرى ما سيصيبه من بلاء بعده ،

وما سيلاقيه من شدة وكرب ، لاستمساكه بوصيته له بقول الحق ، ولو كان مرا ، وبألا يخشى فى الله لومة لائم . انطلق أبو ذر وهو لا يعلم ما يخبئه القدر من مفاجأة فاجعة ، وأنى له أن يعلم ما يخبئه الله من أحداث وشدائد ، ليمتحن بها عباده ، وليجزي كلا بما قدمت يداه ، وان للصابرين لأجرا عظيما

وقابله فى طريقه الى داره رجل من أهله ، فسأله أبو ذر : « الى أين ؟ » قال : « اليك » فقال : « لمه ؟ » قال : « وضعت زوجك طفلة »

فصمت أبو ذر قليلا ، فقال الرجل : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجههُ مسودا وهو كظيم » فقال أبو ذر : « حاشا لله ، انما يولدون للموت ، ويعمرون للخراب ، ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى . ألا حبذا المكروهان : الموت والفقر »

***

ارتفع الصياح فى منزل الرسول ، فالتفت النـاس الى الدار مذعورين واجمين ، وراحوا يتساءلون غير مصدقين : « أمات رسول الله ؟! أمات رسول الله ؟! »

وارتفع صوت فاطمة تردد :

أبتاه يا أبتاه ! أبتاه
أجاب ربا دعاه ... يا أبتاه
الى جبريل ننعاه... يا أبتاه
جنة الفردوس مأواه.. يا أبتاه
من ربه ما أدناه .. يا أبتاه

فارتفعت أصوات الناس بالبكاء فى المسجد ، وراح أبو ذر يذرف الدمع الهتون ، وجعل بعض الصحابة يتكلمون ، والناس يبكون ، ويموج بعضهم فى بعض ولا يسمعون . وأسرع عمر الى حيث كان جثمان النبى ، وكشف عن وجهه ، فألفاه ساكنا فحسبه فى غيبوبة ، فأسرع الى المسجد وراح يخطب الناس :

ـ ان رجالا من الناقمين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى . وانه والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران

وأصبح الناس حيارى ، أيصدقون الناعين أم يكذبونهم. وكان أبو ذر يرجو أن يحقق الله مقالة عمر ، وأن يعود النبى ليهلك المنافقين . وأقبل أبو بكر ودخل على النبى وغاب قليلا، ثم عاد ، فألفى عمر لا زال يصخب ويتوعد المنافقين ، فقال أبو بكر :

ـ على رسلك يا عمر !

وأشار للناس فسكتوا ، ينتظرون القول الفصل . فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » ان الله يقول : « انك ميت وانهم ميتون » . ثم تلا :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... »

فأجهش عمر بالبكاء ، وأيقن أن رسول الله قد مات . وصاح أبو ذر : « وا خليلاه .. مات رسول الله ، مات الأخ الناصح الشفيق ، مات الجواد الكريم ، مات رسول الله الأمين »

وراح أبو ذر يبحث عن سلوى فلم يجد الا فى كلام الله سلواه وعزاءه ، فجعل يرتل :

« كل شىء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون » . « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة »

سار بخطا ثقيلة حزينة ، وجعل يردد فى نفسه :

« توفّى رسول الله ، والذى نفسى بيده . رحمة الله عليك يا رسول الله »

❊❊❊

خيم الحزن على مسجد الرســول ، ووقف عمــر وأبو عبيدة وأبو ذر والمسلمون يتحدثون ، وقد خيم الأسى على الوجوه . ودخل علىّ والعبــاس وأبو بكر الدار ، يُعِدون العدة لجهاز النبى . وأقبل رجل على عمر ، وقال : « اجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد بن عُبادة خليفة لرسول الله »

فأرسل عمر الى أبى بكر ان أخرج الينا . وعجب أبو ذر لهؤلاء القوم الذين يبايعون رجلا غير على بن أبى طالب ، وغمغم : « ان عليا أحق الناس بها ، فهو أول من صدق الرسول ، وابن عمه ، وخَتَنَه على ابنته . كيف يفكر هؤلاء القوم فى مبايعة غيره !؟ »

وخرج أبو بكر فابتــدره عمر : « أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا الأمر سعد بن عبادة ! »

فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، الى سقيفة بنى ساعدة ..

خرج أبو بكر الى سقيفة بنى ساعدة ، وبقى على والعباس وبعض بنى هاشم ، يشتغلون باعداد جهاز النبى . وأحس العباس أن فى الأمر شيئا ، وأن الناس يفكرون فيمن يخلف رسول الله ، فالتفت الى على ، وقال له : « امدد يدك أبايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله بايَع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يختلف عليك اثنان » فقال : « أو يطمع ياعم فيها طامع غيرى ؟ » قال : « ستعلم »

وسمع ضرب على الباب بشدة ، فقال على : « من ؟ » قال : « أبو ذر » فقال : « ما هنالك ؟ » قال : « قد بايع الناس لأبى بكر »

ففتح على الباب ، وقال : « كيف ؟ » فقال أبو ذر : « اجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ، لمبايعة سعد ابن عبادة ، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيـدة الى هناك ، وراح أبو بكر يخطب فى الأنصار ، فقـال الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، فقال أبو بكر : « فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء » .. ثم قال عمر : « والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ،

ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، الا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، أو متورط فى هلكة » . ثم نادى عمر : « ابسط يدك يا أبا بكر » ، وبسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر وهو يقول : « ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفة رسول الله . فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا » . وبايع أبو عبيدة وهو يقول : « انك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ »

صمت أبو ذر ، فطأطأ رأسه ، والتفت اليه العباس وقال : « أما انى قد أمرتكم فعصيتمونى » ، ثم أنشد :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد

فقال على : « وما العمل ؟ »

فقال أبو ذر : « لأجمعن المقداد وسلمان ، وعبادة

ابن الصامت ، وأبا الهيثم ، وحذيفة وعمارا ، لنرى لنا رأيا »

وأقبل الليل يجر رداءه الأسود ، ثم نشره على الكون ، فحجب كل شيء . واجتمع أنصار علي في الفضاء المجاور للمسجد ، فقال أبو ذر : « ان عليا أحق الناس بالخلافة ، فعلينا أن نعيد الأمر شورى بين المهاجرين ، وأن ننقض بيعة السقيفة »

فسأل أحدهم : « وكيف ذلك ؟ »

فقال أبو ذر : « زعموا للأنصار أنهم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منهم ، فأعطوهم المقادة ، وسلموا اليهم الامارة . فاذن نحتج عليهم بمثل ما احتجوا على الأنصار ، علي أولى برسول الله حيا وميتا »

ودارت قداح الرأى بين الجميع ، وأخيرا أجمعوا على أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين

وبرزت شمس اليوم التالي ، فخرج أبو ذر من داره ، وانطلق الى علي في دار فاطمة بنت رسول الله ، فألفى هناك الزبير بن العوام ، وعمارا ، والمقداد ، وسلمان ، فانضم اليهم ، وأقبل خالد بن سعيد ، وقال لعلي : « فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك »

وبلغ أبا بكر وعمر خبر اجتماعهم بدار فاطمة ،

فنهض عمر فى عصابة ، واتجه الى دار فاطمة ، وطلب الى على ومن معه أن يخرجوا فيبايعوا كما بايع الناس، فأبوا أن يجيبوا دعوته

وأقبل أبو سفيان وهو يقول : « أما والله انى لأرى عجاجة لا يطفئها الا الدم . يا لعبد مناف ؟ فيم أبو بكر من أمركم ؟ أين المستضعفان (على والعباس) ؟ أين الأذلان ؟ »

واتجه الى على وقال : « ابسط يدك أبايعك . فوالله لو شئت لأملأنها على أبى فضيل (أبى بكر) خيلا ورجلا »

فامتنع عليه على ، فأنشد :

ولا يقيم على ضيم يراد به
الا الأذلان: عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يشج فلا يرثى له أحد

فنظر أبو ذر الى أبى سفيان نظرة كلها غيظ ، فقد كان يعلم أن أباسفيان ما قال مقالته حبا فى على ، بل حبا فى تأليب المتلمين . لقد وجد الفرصة سانحة ، فأسرع ليهتبلها .. وتحركت شفتا على ، فالتفت اليه

أبو ذر ، فألفاه يقول ما نزل على قلبه بردا وسلاما :
« طالما غَشَشْتَ الاسلام وأهله ، فما ضررتهم شيئا .
لا حاجة لنا الى خيلك ورَجْلك »

وأطرق على مفكرا ، ومر الوقت وئيدا ، وارتفع صوت المؤذن يؤذن :

ــ الله أكبر ، الله أكبر .. الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد ان لا اله الا الله ، أشهد ان لا اله الا الله ، أشهد ان محمدا رسول الله ، أشهد ان محمدا رسول الله

فرفع على رأسه ، والتفت الى فاطمة ، وقال : «أتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟ » قالت : « لا »
قال : « اذن ، سأبايع أبا بكر »

خرج على والعباس والزبير وأبو ذر والمقداد وعمار وحذيفة ، وانطلقوا الى حيث كان أبو بكر ، وتقدم الزبير ، فقال أبو بكر له : « ابن عِمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أردت أن تَشُق عصا المسلمين ! »

ــ لاتثريب يا خليفة رسول الله

ومد أبو بكر يده ، فبايعه الزبير ، ثم دخل على فقال الصديق له : « ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته : أردت أن تشق عصا المسلمين »

قال : « لا تثريب يا خليفة رسول الله »

فقام فبايع ..

ووقف أبوبكر يخطب فى الناس، يزهدهم فى دنياهم ، ويدعوهم لأخراهم ، فأرهف أبو ذر أذنيه ، فسمع من خليفة رسول الله قولا عجبا ، سمعه يقول :

ـ ان الله لا يقبل الا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله بأعمالكم ، فانما أخلصتم لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم ، أين كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون الذين لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحروب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، وصاروا رمما . وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم ، وصاروا كلا شيء ، ألا ان الله عز وجل قد ألقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبعثنا خلفا بعدهم ، فان نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وان انحدرنا كنا مثلهم . أين الوضأة الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا ترابا ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها

الاعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا . أين من تعرفون من آبائكم واخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ماقدموا ، فحلوا عليه ، وأقاموا للشقوة أو للسعادة بعد الموت . ألا ان الله لاشريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ، ولايصرف به عنه سوءا ، الا بطاعته واتباع أمره . واعلموا انكم عبيد مدينون ، وان ماعنده لا يدرك الا بطاعته . اما آن لأحدكم ان تحسر عنه النار ، ولا تبعد عنه الجنة ؟

استمع أبو ذر الزاهد الى خطبة الخليفة الزاهد ، فانشرح صدره ، ووقع كلامه فى نفسه موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، ونزل أبو بكر من على المنبر ، فأسرع أبو ذر اليه وبايعه ، وأسرع المسلمون اليه ، ووقفوا يتحدثون اليه ، فقال : « والله ماكنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية »

قال أحدهم : إن هذا يرضى الله ورسوله

وقال آخر : لقد ولى الله خيرنا

أبو بكر

وضع أبو ذر خده على كفه ، وحمل رأسه بيده ، وأسبل عينيه وراح يفكر فى النبى الراحل ، وعاد بأفكاره الى يوم خرج النبى صلى الله عليه وسلم الى المسجد ، معصوب الرأس فى مرضه الأخير ، يخطب الناس قائلا : « أيها الناس انفذوا جيش اسامة . ان تطعنوا فى امارته ، فقد كنتم تطعنون امارة أبيه من قبله ، وأيم الله انه لمن أحب الناس الىّ بعده » . وراح أبو ذر يسأل نفسه : ترى هل ينفذ أبو بكر جيش اسامة لمحاربة قضاعة ؟ وهل يستمع الى الصحابة الذين يرون استبدال اسامة لصغر سنه ، فهو لم يبلغ العشرين بعد ، بقائد آخر ممن حنكتهم التجارب ؟ ولكن متى كانت السن حائلا دون الاضطلاع بعظائم الأمور فى الاسلام ؟ ألم يفرح النبى باسلام على بن أبى طالب ، وقال لقريش : هذا خليفتى فيكم ، وكان على يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ؟ ألم يدع النبى ربه ان يعز الاسلام بأحد العمرين ، وكان

عمر فى السادسة والعشرين من عمره ؟ ألم يقف سعد بن أبى وقاص يذود عن النبى ، ويحارب الكفار ، ويرمى نباله ، حتى بلغ ما رماه فى يوم ألف نبل ، وكان سعد يومئذ فى السابعة عشرة من عمره ؟ لقد قام الاسـلام وانتشر على أكتاف الشباب ، فلم يعترض الناس على اسامة ، مع أن النبى اختاره قبل ان يلحق بالرفيق الأعلى ؟ لابد من انفاذ جيش اسامة ، وسينفذه أبو بكر باذن الله ، فما أحسب أبا بكر الا منفذا وصية نبيه

وتململ أبو ذر فى جلسته ، ثم استأنف تفكيره ، فعاد به فكره الى يوم جلس الى النبى فى المسجد يستمع اليه وهو يوصيه ويعلمه . ثم نهض وخرج واتجه الى خليفة رسول الله ، فوجد عنده كثيرا من المسلمين ، يطلبون منه وقف مسير جيش اسامة ، محتجين بأن الأمور قد تبدلت بعد موت الرسول ، ولا يعلم أحد ما يستجد من الأمور اذا بلغ القبائل خبر موت محمد . انتظر أبو ذر رد خليفة رسول الله ، واستعد أن ينفذ وصية رسول الله له ، بأن يقول الحق ولو كان مرا ، وألا يخشى فى الله لومة لائم ، ان لم ينفذ خليفة رسول الله وصيـة نبيه . ولكن رد أبى بكر الفصل نزل على قلب أبى ذر بردا وسلاما ،

قال الصديق :

ـ والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت السباع تخطفنى لأنفذت بعث اسامة ، كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذتها

أثلج صدر أبى ذر هذا القول ، وارتاحت اليه نفسه ، ولكنه لمح عمر مقبلا ، وكان أبو ذر يعلم ان عمر من المعارضين فى امارة اسامة على الجيش ، وكان أبو ذر يعلم مكانة عمر من أبى بكر ، فأوجس خيفة ، ولكن ثقته بأبى بكر لم تتزعزع ، وانتظر ليستمع ما يدور بين الصديقين من حوار ، فطلب عمر وقف مسير جيش اسامة فقال أبو بكر : « لو خطفتنى الكلاب والذئاب ، لا أرد قضاء قضى به رسول الله »

فخرج أبو ذر مسرورا ، وألفى المسلمين مجتمعين منتظرين سفارة عمر ، فوقف معهم. فلما عاد عمر اجتمعوا حوله ، وعلموا ان خليفة الرسول قد عقد العزم على انفاذ جيش اسامة ، فطلبوا من عمر اقتراح اسناد القيادة الى أمير آخر أقدم سنا من اسامة ، فلا يليق ان يكون هذا الحدث قائدا فى جيش به خيرة الصحابة ، بل به عمر نفسه جنديا ، فدخل عمر على أبى بكر ، واقترح اسناد

القيادة الى أميرٍ آخر

سمع أبوبكر هذا ، فثار وغضب ، ووثب على عمر الذى كان الناس يخشونه ويهابونه ، وجذبه من لحيته جذبة شديدة ، وصاح فيه : « ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ، وتأمرنى أن أنزعه ؟ »

فانسل عمر من عند أبى بكر يرتجف ، ويعجب كيف ثار أبو بكر الهادىء هذه الثورة ، وكيف جذبه هـذه الجذبة القوية ، التى أفزعته ، وهزت كيانه

خرج عمر الى الناس مذهولا ، ولمح أبو ذر امارات الذعر على وجه ابن الخطاب ، فعلم كل شىء ، علم ان خليفة رسول الله مستمسك بوصيـة نبيه ، عامل على تنفيذها . وهل كان أبو بكر ليخالف النبى بعد موته ، ولم يخالفه قط فى حياته ؟

وأسرع الناس الى عمر يسألونه : ماذا فعل ؟ فصاح فيهم : « امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله ! »

فانطلق أبو ذر شاكرا ربه ، ان هيأ للاسلام أبا بكر خليفة لرسوله

انطلق أبو ذر ليتجهز للخروج فى جيش اسامة

ونفخ فى البوق ، وأقبل المسلمون ليخرجوا فى جيش اسامة ، وأقبل عمر بن الخطاب وأبو ذر والمسلمون ، وأقبل اسامة أمير الجيش معتليا جواده ، ولمح الجميع أبا بكر مقبلا راجلا ، ومن ورائه عبد الرحمن بن عوف يقود دابته ، وهمّ اسـامة بأن يترجل ، فأشـار اليه أبوبكر أن يبقى ، فقال اسامة :

ـ ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن

ـ والله لا تنزلن ، والله ولا أركب ، وما عليّ ان اغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فان للغازى بكل خطوة يخطوها سبع مئة حسنة تكسب له ، وسبع مئة درجة ترفع له ، وان ترفع عنه سبع مئة خطيئة

وأيقن أبو ذر ان خليفة رسول الله ما فعل ذلك الا ليلقن الجنود الذين تحت امرة اسامة درسا فى احترام القائد ، فمن ذا الذى يجرؤ بعد ان يرى توقير أبى بكر لأسامة إن يتطاول عليه او يعصى له أمرا ؟ !

وقال أبو بكر لأسامة : يا اسامة . اصنع ما أمرك به نبى الله ، ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت ابل ، ولا تقصرن فى شيء من أمر رسول الله ، ولا تعجلن لما خلفت من عهده

ـ سمعا وطاعة

ثم قال أبوبكر : « ان رأيت ان تعينني بعمر، فافعل»
. يا لله ! أبو بكر خليفة رسول الله الآمر الناهى ، لايأمر ببقاء عمر ، بل يستأذن قائد الجيش ورئيسه المباشر فى ابقائه ليعينه على أمور المسلمين ؟ يا للدرس النافع الذى ألقاه خليفة رسول الله على كبار الصحابة الذين كانوا جنودا فى جيش اسامة . أيستطيع أحدهم ان يعصى له أمرا ، أو أن يستخف به بعد ذلك ؟ لا والله

فأشـار اسامة لعمر بن الخطـاب ، فخرج من بين الصفوف ، وأشار أبو بكر لجيش اسامة بيده ، وقال :

ــ اندفعوا باسم الله

انطلق جيش اسامة قاصدا الشمال ليقتص لمقتل أبيه زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة

وكان الجيش كلما مر بحى من أحيـاء العرب رعبه وأفزعه ، وكان الناس يقولون كلما رأوا جيش اسامة :

ــ ما خرج هؤلاء بين قوم الا وبهم منعة شديدة

واستمر الجيش فى زحفه حتى بلغ قضاعة ، فأخضعها وقام بها سبعين يوما . وكان اسامة عند ظن النبى به ، فنجحت الحملة ، وجمع اسامة الغنـائم ، وقفل عائدا منتصرا الى المدينة ، ولم يفقد من جيشه جنديا واحدا

قفل الجيش عائدا الى المدينة ، ولما بلغها ألفى على انقابها حراسا يقيمون بالجيوش حولها ، فسأل المسلمون القادمون عن الخبر ، فعلموا ان كثيرا من الأعراب ارتدوا عن دينهم بعد موت محمد، ورفضوا تأدية الزكاة ، وطمعوا فى المدينة ، واستخفوا بها بعد خروج جيش اسامة ، فأغاروا عليها ، ولكن أبا بكر صمد لهم ، وخرج لقتالهم ، وعين على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن مسعود حراسا على المدينة ، فانضم جيش اسامة الى المسلمين ، وبقى بالمدينة يحميها، وانطلق الآخرون لقتال المرتدين، وقاتلوهم حتى انتصروا عليهم ، وأعادوهم الى دين الله ، وأجبروهم على تأدية الزكاة ..

استمر أبوذر طوال خلافة أبى بكر مجاهدا مع المجاهدين ، غازيا مع الغازين لفتح الأمصار ، وتأسيس امبراطورية الاسلام . وبقى أبوذر على زهده وتقشفه ، ولم ينكر على أبى بكر شيئا ، فقد كان أبوبكر الزاهد الأول فى الدولة ، وبقى على ما تركه النبى عليه ، ولقد كانت خلافته كفاحا كلها لاستتباب الاسلام وتمكينه ،

فلم تتهيأ للصحابة الفرص للتبــدل ، وترك زهــدهم وتقشفهم ؛ واقبالهم على الدنيا ، كما تهيأ لهم ذلك فى خلافة عثمان ، فلم يظهر أبو ذر الزاهد فى هذه الحقبة من الزمن على باقى الصحابة ، ولم يتميز عنهم بزهــده وتقشفه واعراضه عن الدنيا وزخرفها ، كما ظهر ذلك واضحا فى عهد عثمان ، لأن تعاليم النبى وأبى بكر كانت لا تزال متغلغلة فى النفوس ، ولأن زهد أبى بكر كان زهدا يحتذى به ، ولأن الأموال لم تكن بعد قد تدفقت على المدينة ، كما تدفقت فى عهد عمر ، وعثمان

قفل الفتنة

مرض أبو بكر مرض الوفاة ، وقبل ان يسلم روحه ، كتب عهده لعمر . وبلغ أبا ذر خبر موت أبى بكر ، فحزن عليه ، واتجه الى داره فرأى عليا واقفا على بابه ، يرثيه بخطبة بليغة ، وصف فيها ابا بكر خير وصف . قال على :

ـ رحمك الله ياأبابكر ، كنت والله أول القوم اسلاما ، وأخلصهم ايمانا ، وأشدهم يقينا ، وأعظمهم عناء ، وأحفظهم على رسول الله ، وأحدبهم على الاسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله خَلقاً وخُلقاً ، وهديا وسمتا ، فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله خيرا ..

صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صديقا (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) يريد محمدا ويريدك ، وكنت والله للاسلام حصنا ، وعلى الكافرين عذابا ، لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ،

ولم تجبن نفسك. كنت كالجبل الذى لاتحركه العواصف، ولا تزيله القواصف ، كما قال رسول الله : ضعيفا فى بدنك قويا فى الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك

وبقى أبو ذر بعد موت الخليفة الصديق بضعة أيام فى المدينة ، ثم حمل زوجه وابنته وانطلق بهما الى الشام

وفى يوم جلس فى المسجد ، وجلس الناس اليه ، ودار الحديث بينهم ، فقال أحدهم : « يا أبا ذر ، ألا تتخذ ضيعة كما اتخذ أبو هريرة، فقد أصبح واليا على البحرين؟»

فقال أبو ذر: «وما أصنع بأن أكون أميرا ؟ وانما تكفينى كل يوم شربة ماء أو لبن، وفى الجمعة قفيز (كيلة) من قمح»

فقال الآخر : « أما بلغكم ما صنع أمير المؤمنين عمر بأبى هريرة ؟ » . فقالوا : « لا .. »

فقال: «لقد أحصى عمر ثروته » ، وقال له: «استعملتك على البحرين وانت بلا نعلين، ثم بلغنى انك ابتعت أفراسا بألف دينار وست مائة دينار» ، فقال أبو هريرة : «كانت

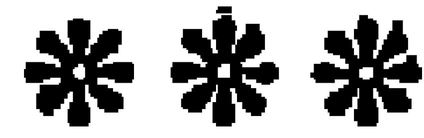
لنا أفراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت» ، فقال له عمر : «قد حسبت لك رزقك ومؤنتك ، وهذا فضل فأده» ، فقال أبوهريرة : « ليس لك» . قال عمر: « بلى والله أوجع ظهرك» . ثم قام اليه بالدرة ، فضربه حتى أدماه ، ثم قال له : « ائت بها » ، قال أبوهريرة : « احتسبتها لله » ، فقال عمر: « ذلك لو أخذتها من حلال ، وأديتها طائعا . أجئت من أقصى حجر البحرين تجبى الناس لك ، لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أميمة (أم أبي هريرة) الا لرعية الحمر » . فقال أبوذر: « لقد فعل عمر مايرضى الله ورسوله ، فعلى الوالى أن يعمل لمصالح الرعية لا لمصالحه » ..

ودار الحديث بين القوم ، وأقبل رسـول من قبل حبيبة بن مسلمة ، وهو أمير بالشام يسأل عن أبى ذر ، فوجده فى المسجد ، فدخل عليه ، وقال : « قد بعثنى مولاى اليك بثلاث مئة دينار، لتستعين بها على حاجتك»

فقال أبوذر: « قم بها اليه . أو ما وجد أحدا أعز بالله عز وجل منا ؟ ما لنا الا ظل تتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تصدقت علينا »

أخذ أبو ذر عطاءه ، فخرج مع عبد الله بن الصامت ،

واستصحب معه جارية ، واتجه الجميع الى السوق ، فجعلت الجارية تقضي حوائج أبى ذر ، وبقى معها بعض الفلوس ، فناولتها اياه ، فجعل أبو ذر ينفقها ، فقال له عبد الله بن الصامت : « لو ادخرتها لحاجة بيتك ، وللضيف ينزل بك » . فقال : « ان خليلى عهد الىّ ان أيما ذهب أو فضة أوكىء عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله »



رحل عمر الى الشام ليتفقد حال الرعية ، وليستمع لأصحاب الحوائج والشكايات ، وليرى مبلغ مايؤديه الولاة للناس من خدمة ، فما بعث عمر الولاة الى الناس ليضربوا أبشارهم ، ويأخذوا أموالهم ، ولكن ليعلموهم ويخدموهم . وبلغ عمر الشام ، ففرح الناس بلقائه فرحا شديدا ، وأقبلوا عليه مسلمين ، ولمح عمر أبا ذر، فأخذه بيده فعصرها . فقال أبو ذر: «دع يدى ، يا قفل الفتنة» فقال عمر : «يا أبا ذر، ما قفل الفتنة ؟» . فقال أبو ذر : « جئت يوما ونحن عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فكرهت أن تتخطى رقاب الناس ، فجلست فى ادبارهم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «لاتصيبكم فتنة مادام

هذا فيكم» ، وأشار صلى الله عليه وسلم اليك

واستمر أبو ذر ملازما لعمر ، وفى يوم لاحظ أبو ذر اطراق عمر ، فقال له : « مالى أراك كئيبا حزينا ؟ » . قال : « استعملت بشرا على صدقات هوازن ، فتخلف بشر ، فلقيته فقلت له : «ماخلفك ، أما لنا سمع وطاعة؟» فقال : « بلى ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولى شيئا من أمر المسلمين يأتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا انخرق به الجسر ، فهوى فيه سبعين خريفا » . فقال أبو ذر : « أو ماسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » . قال : « لا .. » . فقال أبو ذر : « أشهد انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « « من ولى أحدا من الناس أتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسرجهنم ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا انخرق به الجسر ، فهوى فيه سبعين خريفا ، وهى سوداء مظلمة » ، فأى الحديثين أوجع لقلبك ؟ .. قال عمر : « كلاهما قد أوجع قلبى ، فمن يأخذها (أى الخلافة) بما فيها ؟ » . فقال أبو ذر : «من سلت الله أنفه (أى جدعه) ، وألصق خده بالارض . أما

انا لا نعلم الا خيرا ، وغشى ان وليتها من لا يعدل فيها ألا تنجو من اثمها »

وانطلق عمر يجوب الشام ، يفتش على الاعمال ، ويحاسب الولاة ، ويواسى الفقراء ، ووقف فى المسلمين يخطب : « ألا انى قد وليت عليكم ، وقضيت الذى علىَّ فى الذى ولانى الله من أمركم ، ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا مالديكم ، فجندنا لكم الجنود ، وهيأنا لكم الفروج ، وبوأناكم ، ووسعنا عليكم مابلغ فيئكم ، وما قاتلتم عليه من شأمكم؟ فمن علم علم شىء ينبغى العمل به ، فليبلغنا نعمل به ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله »

وطلب الناس من عمر أن يأمر بلالا بالاذان ، فانه لم يؤذن لأحد بعد رسول الله ، وانهم فى اشتياق لسماع صوته الندى ، فالتفت عمر الى بلال وقال له : « أذن يا بلال » ؛ فقام فأذن فى الناس بصوته القوى الحنون ، الذى طالما سرى فى المدينة على عهد الرسول ، فأطرق أبو ذر وانتقل به سيال الفكر الى يثرب ، فرأى بعين خياله النبى وأصحابه حوله ، فهاجت ذكرياته ، وسالت عبراته ، وبكى عمر لذكرى النبى الحبيب ، حتى بل لحيته

أبو ذر المحدث

كلف الفقراء بأبى ذر لزهده وتقشفه ، وأصبحوا يجتمعون عنده ، ويجلسون اليه ، يستمعون الى أحاديث النبى وأبى بكر . وكان أبو ذر محدثا من الطراز الأول ، وكان يمتاز بفصاحة لسانه العربى ، وكان مثالا للمسلم التقى ، فأصبح قبلة الناس كافة . وفى يوم من الأيام جلس فى المسجد ، والتف به الناس ، وجعل يحدثهم عن النبى كعادته ، فقال أحدهم : « ياليتنى رأيت النبى » . فقال أبو ذر : قال رسول الله : « أشد أمتى لى حبا قوم يكونون بعدى ، يود أحدهم انه فقد أهله وماله وانه رآنى » . واستأنف أبو ذر حديثه ، فتحدث عن الاسراء ، فسأل أحدهم : « وكيف أسرى بالنبى ؟ » . فقال أبو ذر : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا ، فأفرغه فى صدري ، ثم أطبقه ،

ثم أخذ بيدى ، فعرج بى الى السماء الدنيا . فلما جئت الى السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن السماء : «افتح» قال : « من هذا ؟ » . قال : «جبريل» . قال : « هل معك أحد ؟ » . قال : « نعم ، معى محمد صلى الله عليه وسلم » . فقال : « أرسل اليه ؟ » . قال : « نعم » فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فاذا رجل قاعد على يمينه أسودة(جمع سواد وهو الشخص) وعلى يساره اسودة ، اذا نظر قبل يمينه ضحك ، واذا نظر قبل يساره بكى ، فقال : « مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح » . قلت لجبريل : «من هذا ؟» . قال : «آدم» ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه (أرواح أبنائه) فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار، فاذا نظر عن يمينه ضحك ، واذا نظر قبل شماله بكى».

ونظر أبو ذر، فرأى رجلا غريبا مارآه قبل يومه هذا ، فسأله : « من أنت ؟ » . فقال : « نافع الطاحى » . قال : « وممن أنت ؟ » . قال : « من أهل العراق » . فقال : « أتعرف عبد الله بن عامر ؟ » . قال : «نعم» . فقال : « فانه كان يتقرأ معى ويلزمنى ، ثم طلب الامارة ، فاذا قدمت البصرة فتراء له فانه سيقول : لك حاجة ؟

فقل له : أنا رسول أبى ذر اليك ، وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : انا نأكل من التمر ، ونشرب من المـاء ، ونعيش كما تعيش »

وأقبل أحد أصدقاء أبى ذر ، فسلم وجلس ، فقال له أبو ذر : «متىعدت منالمدينة ؟» . قال : «اليوم» . فقال : « وما عندك ؟ » . قال : « سمع عمر بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية ، فوقع فى نفس عمر انمعاوية قد زود والده فى عودته بمال . وجاء أبوسفيان مسلما ، فقال له عمر : « اجزنا يا أبا سفيان » . فقال : « ما اصبنا شيئا فنجزيك » فمد عمر يده ، ونزع خاتما من اصبع أبى سفيان ، وبعثه الى هنـد زوجه ، وأمر الرسول ان يقول لها باسم زوجها : « انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما » فما لبث ان عاد الرسول بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال . فقال أبو ذر : « والله انى لأعجب لهؤلاء الصحابة الذين يتكالبون على الدنيـا ويقيمون للذهب والفضة وزنا ، بعد أن سمعوا رسول الله يقول : « مالى وللدنيا ، ما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها » .

فقال أحد الحاضرين : « قال الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . فقال أبو ذر : « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى لدار الغرور. ما لنا وزينة الحياة الدنيا ؟.. فقد قال سبحانه وتعالى : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوبا وخير أملا »

***

بلغ نافع الطاحى البصرة ، واتجه من فوره الى دار الوالى عبد الله بن عامر ، ودخل عليه وسلم ، فسأله عبد الله عن حاجته ، فقال نافع : « كنت بالشام ، وقابلت أبا ذر ، وقد بعثنى رسولا اليك »

فلما سمع عبد الله بن عامر اسم أبى ذر ، خشع قلبه ، فقال نافع : « وهو يقرئك السلام ، ويقول لك انه يأكل من التمر ، ويشرب من الماء ، ويعيش كما تعيش »

فلما سمع عبد الله بن عامر مقالة الرجل ، بان عليه التأثر ، فحل أزراره ، ثم أدخل رأسه فى جيبه ، ثم بكى حتى ملأ جيبه بالبكاء .

الثائر

بلغ الشام ان أبا لؤلؤة ، أحد الموالى الذين قدموا من الكوفة الى المدينة طعن عمر فى أثناء تكبيره للصلاة فقتله ، وان عمر ترك الأمر شورى بين علي ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير وطلحة . فقال أبو ذر فى نفسه : «انها لعليّ ، والله ما أحد أحق بالخلافة منه » ، وعقد العزم على ان يرحل الى يثرب ، ليكون بجوار صديقه ، كما كان بجوار النبي الحبيب ..

وحمل أبو ذر زوجته وابنته ، ولحق بالقافلة المنطلقة الى يثرب ، وراح طوال الطريق يفكر فى على ، وما سينال المسلمون من العدل على يديه ، فيطمئن قلبه ، ويشيع الرضا فى نفسه . وفى الطريق تقابلت القافلة بأخرى ، قادمة من يثرب الى الشام ، فعلم أبو ذر أن عثمان بن عفان اختير خليفة للمسلمين ، فأطرق واكتأب وغمغم : « عثمان بن عفان رجل صالح ما فى ذلك شك ،

ولكنه ليس من القدرة والعزم والحزم بحيث يخلف عمر ، أو يملأ الفراغ الذى تركه عمر »

وراحت القافلة تخب خبا حتى دخلت يثرب ، فاتجه أبو ذر الى على ، وسلم عليه ، وجلس ودار الحديث بينهما ، فعلم أبو ذر كيف اختير عثمان ، وكيف كان على متهاونا فى حقوقه ، فالتفت اليه وقال : « انها مشيئة الله ، ولا راد لمشيئته »

وبقى أبو ذر بالمدينة ، ورأى ميل عثمان الى بنى أمية ، وتغلغل نفوذهم فى الدولة الاسلامية ، وانقلاب الحكم فى عهده ملكا له مظاهر الملك : من عظمة ، وترف ، وتهافت على الدنيا . ورأى كثيرا من الصحابة يتغيرون ، فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف اقتنوا الضياع والدور ، وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات ، فقام أبو ذر لايخشى خليفة ، ولا يهاب أميرا ، يدعو الناس الى الزهد ، ويهاجم عثمان

وفى يوم علم ان عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج افريقية ، والحارث بن أبى العاص ثلاث مئة ألف درهم ، وزيد بن ثابت مئة ألف درهم ، فجلس فى المسجد

وراح يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» . وبلغ مروان ان أبا ذر يهاجمه ويهاجم عثمان ، فرفع ذلك الى عثمان أمير المؤمنين ، فنادى مولاه نائلا، وأمره أن يدعو أبا ذر اليه ..

فدخل أبو ذر على عثمـــان ، الذى ما كاد بصره يقع عليه حتى قال : « يا أبا ذر ، اتته عما يبلغنى عنك» . قال : « وما بلغك عنى يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « بلغنى انك تحرض الناس علىَّ » . قال : « وكيف ذلك ؟» . فقال : «انك لا تقرأ فى المسجد الا : «والذين يكنزون الذهب والفضة » . قال : « أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعيب من ترك أمر الله ؟ .. فوالله لأن أرضى الله بسخط عثمان ، أحب الىَّ وخير لى من أن أسخط الله برضاه »

فبان الغضب على وجه عثمان ، ولكنه لم يدر بما يرد عليه ، فلزم الصمت ، وطال صمته ، فخرج أبو ذر من عنده وهو أكثر عزما على عيب من ترك امر الله

وتقابل أبو ذر وعلىٌّ كثيرا ، وازدادت مهاجمة أبى ذر لعثمان ، فأحفظ ذلك الخليفة ، وراح ينتهز الفرصة ،

ليبعد أبا ذر ، وواتته الفرصة المرتقبة ، فاهتبلها ولم يدعها تفلت ، ففى يوم من الأيام دخل أبوذر على عثمان ، وكان كعب الأحبار ـ وكان يهوديا ثم أسلم ـ جالسا عنده ، فسلم عليهما وجلس ، ودار الحديث بينهم ، وقال عثمان لصاحبه وهو يحاوره : « أيجوز للامام أن يأخذ من المال ، فاذا أيسر قضى ؟ » . فقال أبو ذر : « لا يجوز » . فقال كعب الأحبـــار : « لابأس بذلك » . فالتفت أبو ذر الى كعب ، وقال : « يابن اليهودية ، أتعلمنا ديننا ؟ » . فالتفت كعب الى عثمان ، فقـــال عثمان : « قد كثر أذاك لي ، وتولعك بأصحابى »

وارتفع الجدل بينهما واشتد ، فقال عثمان محنقا :

ـ ألحق بالشام

الاشتراكى

بلغ أبو ذر الشام ، وكان معاوية يبنى الخضراء ، وآلاف العمال يحملون مواد البناء ، يروحون ويغدون ، ووقف معاوية يتطلع الى الخضراء مزهوا ، ولمحه أبو ذر، فاتجه اليه ، وقال : « يا معاوية ، ان كانت هذه هى من مال الله ، فهى الخيانة ، وان كانت من مالك ، فهى الاسراف » ..

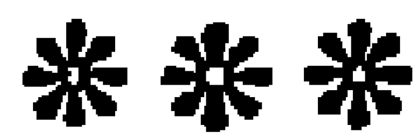
فأشاح معاوية بوجهه، ولم يرد عليه ، فاستأنف أبو ذر سيره ، وبلغ المسجد فجلس ، وأقبل بعض نفر من المسلمين يشكون معاوية لأبى ذر ، ويخبرونه انه قد انقضى الحول ولم يعطهم عطاءهم ، فأطرق أبو ذر قليلا، ثم نهض ، فتطلع اليه الناس ، فقال : « لقد حدثت اعمال ما أعرفها ، والله ما هى فى كتاب الله ، ولا سنة نبيه . والله انى لأرى حقا يطفأ ، وباطلا يحيا ، وصادقا مكذبا ، وأثره بغير تقى . يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء ، وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.
يا كانز المال ، اعلم ان فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أوموت ؛ والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم ؛ وأنت الثالث ، ان استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن . ان الله عز وجل يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . يا كانز المال ، ألا تعلم انه اذا مات الانسان انقطع عنه عمله الا من ثلاث : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان ربى عرض علىّ أن يجعل بطحاء مكة ذهبا ، فقلت لا يارب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه ، فأتضرع اليك وأدعوك ، أما اليوم الذى أشبع فيه ، فأحمدك وأثنى عليك » . اتخذتم ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمتم الاضجاع على الصوف الاذربى (المنسوب الى أذربيجان) ، وكان رسول الله ينام على الحصير ، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير

يا كانز المال ، ألا تعلم انه ما من يوم يصبح العباد

فيه الا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا ؟

استمع الناس اليه ، فولع الفقراء به ، وأوجس الأغنياء منه خيفة



شاهد جندب بن مسلمة الفهرى التفاف الناس حول أبى ذر ، فتمتم قائلا : « انها الفتنة الكبرى » ، وانطلق الى معاوية حتى أتاه ، فأخبره وقال له :

ـ ان أبا ذر مفسد عليكم الشام ، فتدارك أهله ان كان لكم حاجة فيه ، فأطرق معاوية يفكر ، أيأخذه بالشدة ؟ لا. ان ذلك مما يزيد النار لهيبا ، أيشكوه الى عثمان ؟ ولكن ما يقول عثمان ، عجز عن تقويم أحد رعاياه ؟ لخير له ان يبعده عن الشام ، وان يبعثه فى احدى الغزوات ، فما أحب الغزو فى سبيل الله الى نفسه ، واطمأن معاوية الى ذلك فأرسل اليه ، فجاء ووجد عند معاوية أبا الدرداء ، وشداد بن أوس ، وعبادة بن الصامت ، فانضم اليهم ، وقال معاوية :

ـ لقد كتبت الى عمر ـ رحمه الله ـ فى شأن فتح قبرص ، وقلت له : ان قرية من قرى حمص يستمع أهلها

نباح كلاب قبرص ، وصياح دجاجهم ، وهونت عليه الأمر ، لكن عمر ـ رحمه الله ـ كتب الى عمرو بن العاص : « صف لى البحر وراكبه » . فكتب اليه : «هو خلق كبير يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ؛ ان ركد أقلق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود ؛ ان مال غرق ، وان نجا برق » ، فكتب عمر اليه : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا » . ولقد عدت الآن وألححت على عثمان فى فتح قبرص ، فأجابنى على خيار الناس وطوعهم ، والأمر الآن لكم ، فاختاروا ما ترون .

فقال أبوذر: « رباط يوم فى سبيل الله ، خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل . لقد دعينا الى الجهاد فى سبيل الله ، فما علينا الا تلبية النداء » ..

ووافق على الغزو بعض الصحابة الموجودين ، فاستعمل عليهم معاوية عبد الله بن قيس حليف بنى فزارة

وأعدت المراكب وصـعد أبو ذر الى مركبه ، وأمر القائد بالسير ، فراحت المجاذيف تعمل ، وتحرك الاسطول الاسلامى للغزو

انطلق الاسطول ، ولما حل من البحر بين السحر والنحر ، صفرت الرياح ثم زأرت ، فجعل الموج يصفق لسماع أصواتها فيطرب ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعـد ويقتـرب ، فأشرفت نفوس المسلمين على التلف من خوفها واعتلالها ، وتراءى لهم المنون ، وخرست من القلق ألسنتهم . ولما هدأ البحر من ثورته ، وبش بعد حدته ، وجد أبو ذر لسانه فجعل يتلو: « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه »

وقضى الله بالنجاة ، فبلغ الأسطول قبرص ، ونزل بها ودارت معركة بين الغزاة والقبرصيين ، فتقارعت السيوف ، وراح المسلمون يحاربون كأسود كواسر ، فلم يسع أهل قبرص الا التسليم ، ودفع الجزية للمسلمين ..

وتم فتح قبرص ، فلم تعد هنالك حاجة لبقاء أبى ذر بها ، فعاد الى الشام ، ليقلق معاوية ، وليقض مضاجع الأغنياء ..

وعلم ابن سبأ ، وكان يلقب بابن السوداء ، وكان قد ورد الى الشام من المدينة ، وكان يهوديا ثم أسلم — علم ان أبا ذر عاد الى الشام فمشى اليه ، وكان ابن سبأ يدعو لأهل البيت ، ويعمل على تحريض الناس على عثمان وعماله ،

فلما قابل أبا ذر عمل على ايغار صدره على معاوية ، فقال له : « يا أبا ذر ، ألا تعجب من معاوية ، يقول المال مال الله ، ألا ان كل شى لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ، ويمحو اسم المسلمين ؟ »

فقال أبو ذر : « أو قد قال ذلك ؟ » . قال : « اجل، انه يقول ذلك فى كل خطبة » . فقال : « والله لأعتبن عليه » ..

ونهض أبو ذر من فوره الى قصر معاوية ، وطلب الاذن بالدخول . ولما دخل ، هش له وبش ، ولكن أبا ذر لم يلتفت الى كل ذلك ، بل اندفع الى غرضه ، وقال : « يامعاوية ، مايدعوك الى ان تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » . قال : « يرحمك الله يا أبا ذر .. ألسنا عباد الله ؟ والمال ماله » . فقال : « فلا تقله » . قال : « سأقول مال المسلمين » . وهمّ أبو ذر بالانصراف ، فقال معاوية : « يا أبا ذر ، ما الذى أوجدك علينا ؟ » قال : « ان أموال الفىء من حقوق المسلمين ، وليس لك ان تختزن منها شيئا ، ولكنك خالفت الرسول وأبا بكر وعمر ، وكنزتها لك ولبنى أمية » . فقال : « يا أبا ذر، انى لا أكنز المال كما تظن ، ولكنى أدخره لأصرفه فى

وجوه المصالح العامة ، وانى لا أبخل بالمال على المسلمين ، فما تركت من سبيل يجب ان ينفق فيها الا أنفقت فيها » قال : « انك لاتريد بعطاياك وجه الله ، بل تريد أن يقال انك جواد ، وقد قيل : يامعـــاوية لقد أغنيت الغنى ، وأفقرت الفقير » . فقال : « يا أبا ذر ، ارجع عما انت فيه ، فانك تقود الناس الى فتنة لايعلم الا علام الغيوب مداها » . قال : « والذى نفسى بيده ، لا أرجع حتى يبذل الأغنياء المعروف »

ثم ولاه ظهره وخرج ، وأطرق معاوية قليلا ، ثم راح يذرع الحجرة ذهابا وايابا ، ثم أمر باحضار صرة بها ثلاث مئة دينار ، ونادى أحد خدمه ، وأمره ان يلحق بأبى ذر ، وان يعطيه الصرة ، فأسرع الخادم خلفه ، ولما لحق به فى الطريق ، قال له : « ان معاوية بعث اليك بهذه » . فنظر أبو ذر الى اليد الممدودة بالصرة ، وقال : « ان كانت هذه من عطائى الذى حرمتمونيه عامى هذا قبلتها ، وان كانت صلة فلا حاجة لى فيها »

وظل الخادم واقفا والصرة فى يده ، فقال أبو ذر : « ردها عليه ، ولا حاجة لى فيها » . وانطلق حتى بلغ المسجد ، فانجفل الناس اليه ، فقال : « يامعشر الأغنياء ،

أنفقوا مما أعطاكم الله ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا ، واجعلوا فى أموالكم حقا للسائل والمحروم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مال الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » يا معشر الأغنياء ، لقد نهى الله عز وجل عن الكنوز ، وقال رسول الله : «تبا للذهب ! تبا للفضة ! تبا للذهب ! تبا للفضة!» فشق ذلك على أصحابه ، كما شق ذلك عليكم ، فقالوا : « فأى مال نتخذ ؟ » فقال لهم عمر رحمة الله عليه : « أنا أعلم لكم ذلك » ، فدخل على رسول الله ، وقال له : « ان أصحابك قد شق عليهم وقالوا : « فأى المال نتخذ؟» فقال النبى الحبيب : « لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه »

ان أموال الفىء من حقوق المسلمين ، ولكن معاوية قد احتجنها ، ليصرفها على خدمه وحراسه وأبهته ، ونسى معاوية انه لا يحل له من مال الله الا حلتان : حلة للشتاء وحلة للصيف ، وما يحج به ويعتمر ، وقوته وقوت أهله ، كرجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . هذا ما سنه عمر الصالح ، فلم لا يتبعه معاوية ؟.. ان مال الفىء

ينبغى أن يقسم على المسلمين ، كما كانت الحال فى عهد النبى وأبى بكر وعمر . أصبحت الضياع والدور تقتنى ، وتصرف لتجميلها آلاف الدنانير ، ويترك المسلمون . لقد حج عمر ، فأنفق فى ذهابه ومجيئه الى المدينة ستة عشر دينارا ، فالتفت الى ولده ، وقال : «لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا » . ان عمر أميرالمؤمنين يصرف ستة عشر دينارا فى حجة فيستكثرها ، ومعاوية يوزع الآلاف لبنى أمية ، فيستقلها ! »

فهمس أحد الجالسين بالقرب منه : « انك تخوض فى معاوية ، فحاذر » .

فالتفت أبوذر اليه ، وقال : « أوصانىخليلى أنأقول الحق ولو كان مرا ، وألا أخشى فى الله لومة لائم ، وانى أدعو دعاءه : « اللهم انى أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » . ثم استأنف :

« تفنن القوم فى اعداد الطعام ، وأصبح الرجل يأكل من ألوانه حتى يلتمس لذلك دواء يمرئه ، وقد خرج النبى من الدنيا ولم يملأ بطنه فى يوم من طعامين ، كان اذا شبع من التمر ، لم يشبع من الخبز ، وما شبع

آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات ، حتى لحق بالله . وكان يمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال ثم هلال لا يوقد فى شىء من بيوته نار ، لا لخبز ولا لطبخ »

فسأل واحد : « بأى شىء كانوا يعيشون؟» . قال : «بالتمر والماء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» . وقال صلى الله عليه وسلم : « اياكم والبطنة ، فانها مكسلة عن الصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية الى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم ، فهو أبعد من السرف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة»

ولا تحسبوا ان صحابة الرسول كانوا يزهدون فى الدنيا لأنهم لم يجدوا ماينفقونه ، لا ، بل ارضاء لله ، وطمعا فيما وعدهم الله به ، لقد قالت حفصة لعمر بعد أن وسع الله من الرزق ، وبعد أن تدفقت الأموال على المدينة : « يا أمير المؤمنين ، لو اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق ، وأكثر من الخير» فقال : « انى سأخاصمك الى

نفسك ، أما تذكرين ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من شدة العيش ، وكذلك أبو بكر ؟ » . فما زال يذكرها حتى أبكاها ، فقال لها : « أما والله لأشاركنهما فى مثل عيشهما الشديد ، لعلى أدرك عيشهم الرضى » .

كان رسول الله يأخذ خمس الغنائم ، فلم يكنز شيئا ولم يدخر شيئا ، بل كان يتصدق بما يصل اليه ، ولا يجد بعدها ما يأكله ، وقد رأته عائشة يتألم من الجوع ، فقالت له : « يارسول الله ، ألا تستطعم الله فيطعمك ؟» وبكت لما رأت به من جوع . فقال : « والذى نفسى بيده لو سألت ربى ان يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها . ياعائشة : ان الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد. ياعائشة، ان الله لم يرض لأولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر على محبوبها ، ولم يرض الا أن يكلفنى ماكلفهم ، فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . والله ما لى بد من طاعته ، وانى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ، ولا حول ولا قوة الا بالله

الخـــروج

استمر أبو ذر فى دعوته ، واشتد فى مهاجمة الأغنياء ، وجعل ينهى عن الكنز ، ويطلب مواساة الفقراء ، وتوزيع المال على المسلمين كافة،كما كانت الحال فى عهد النبى ، وأبى بكر وعمر ، فوجد الفقراء على الأغنياء ، والتجأ الأغنياء الى معاوية ، وجعلوا يشكون اليه ما يلقونه من الناس ، بسبب دعوة أبى ذر ، فأرسل معاوية فى طلبه ، وقد عقد العزم على ان يقطع دابر هذه الفتنة التى قد تقوض سلطانه وتحطم آماله

دخل أبو ذر على معاوية بقامته الطويلة النحيلة ، وقد ارتسمت على وجهه الأسمر آيات العزم ، فقام معـاوية لاستقباله ، وأجلسه بجواره ، ثم نادى على الخدم ، وأمرهم أن يحضروا الطعام ، فمد الخوان ، ووضع عليه ما لذ وطاب من ألوان الطعام الشهية ، التى تتحلب لها الأفواه ، وطلب معاوية من أبى ذر أن يأكل، فأبى وقال : « طعامى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، والله لا أزيد عليه شيئا حتى ألقاه»

ثم التفت الى معاوية ، وقال : « قد غيرتم : ينخل لكم الشعير ، ولم يكن ينخل، وخبزتم المرقق. جمعتم ادامين، واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب ، وراح فى آخر ، ولم تكونوا هكذا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـ لقد انقضى ذلك العهد ، ونحن هنا فى بلد الأعاجم، فان لم نظهر أمامهم بالمظهر اللائق ، استخفوا بنا

ـ أما أنا فلن أغير من هيئتى شيئا ، عسى ان أكون أقربكم مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وذلك انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، من خرج من الدنيا كهيئة ماتركته فيها » . وانه والله مامنكم من أحد الا وقد تشبث بشىء منها غيرى

ـ يا أبا ذر ، لقد اشتكى الأغنياء منك ، وقالوا انك تؤلب الفقراء عليهم

ـ انى أنهاهم عن الكنز

ـ ولمه ؟

ـ لقوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة

ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فانى أبشرهم بعذاب الله

ـ ان الآية نزلت فى أهل الكتاب

ـ بل نزلت فينا وفيهم

ـ انى آمرك أن تكف

ـ والله لأستمرن على دعوة الناس الى الزهد ، وعلى تحذيرهم الكنز ، ولأبشرن الكانزين بعذاب النار

ـ خير لك أن تنتهى عما انت فيه

ـ والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة

فقال معاوية مهددا :

ـ يا أبا ذر ، هذا فراق بينى وبينك ، فحاذر

ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا

توضأ أبو ذر ، وجلس فى المسجد ، وجعل يقرأ بعض ما تيسر من القرآن ، وأقبلت ابنته وعليها صوف ، سعفاء الخدين ومعها قفة لها ، فمكثت بين يديه ، وقالت :

ـ يا أبتاه ، زعم الخازنون والزارعون ان أفلسك هذه بهرجة

ـ يابنية ، ضعيها ، فان أباك أصبح بحمد الله لايملك من صفراء ولا بيضاء الا أفلسه هذه

وانصرفت ابنته ، وأقبل معاوية يحف به خدمه وحشمه

ثم نودى لصلاة الجمعة ، فصـعد معاوية المنبر ، يخطب الناس ، فقال :

ـ انما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه

فقام رجل اليه ممن حضر المسجد ، فقال :

ـ كلا ، انما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه ، حاكمناه الى الله بأسيافنا

فأطرق معاوية قليلا ، وخطر فى نفسه انه ما لقنه ذلك الا أبو ذر . فهل يبطش معاوية به ، ليجعله عبرة للناقمين عليه ؟ ألا يكون البطش به دافعا الى اندلاع لهيب الثورة ؟ فكر معاوية الداهية ، فعلم ان خير حل هو مصانعته ، فأرسل الى الرجل بعد أن قضيت الصلاة ، وقال للناس :

ـ ان هذا أحيانى ـ أحياه الله ـ سمعت رسول الله يقول : « سيكون من بعدى أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون فى النار كما تتقاحم القردة »

وانقضت صلاة الجمعة بسلام ، وانصرف معاوية بوجه باسر ، يعض على نواجذه ، ودخل قصره وهو يُرْغِى

ويتزيد ، ودخل عليه بعض أهله فأنكروه ، وقال له أحدهم:
ــ ما بك ؟ ومالى أراك اليوم محنقا ؟
ــ اعضل بى أبو ذر ، والله ليفسدن القوم علينا ان تركناه ..
ــ والله لأكفينكه
ــ لن تفلح الشدة معه
ــ من يدرى ؟

وانطلق الرجل الى دار أبى ذر ، وطرق بشدة ، وفتح الباب ، وتطلع أبو ذر الى الطارق فلم يعرفه ، ولكن عرف الشر فى وجهه فقال : « خيرا ؟ »

ــ بل شرا يا أبا ذر ، ان لم تنته عن مهاجمة معاوية ، وتأليب الناس عليه ، فلن تمشى على الأرض بعد اليوم

فقال أبو ذر بصوت كله هدوء ، وكله اطمئنان :

ــ انى لا أهاب الموت ولا أخشاه
ــ يا أبا ذر دع ما أنت فيه ، ولا تغضب معاوية خيرلك
ــ اغضاب معاوية خير لى من اغضاب الله
ــ ثب الى رشدك ، ولا توغر صدور القوم علينا ، وكف عن دعواك
ــ والله لا أكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين

ـ والله انا نعلم لحساب من تعمل ، والله ان لم تكف لنصبن عليك سوط عذاب

ـ والله لا أكف حتى ترجعوا الى كتاب الله

فأطرق الرجل وفكر فى استعمال سلاح الاغراء عسى ان يلين ذلك الرجل الذى لا يلين ، فقال :

ـ يا أبا ذر ثكلتك أمك ، ان عليا لايستطيع ان يجزيك أو يمنع عنك أذانا . أما معاوية فأمواله كالبحر الزاخر ، وهى طوع بنانك

ـ لا حاجة بى الى أموالكم ، وانى لا أطمع الا فى رضا ربى وما عند الله

ـ لقد أعذر من أنذر ، انك تسير الى حتفك بظلفك ..

ـ الموت أحب الىّ من الحياة

حاقت الخطوب بأبى ذر من كل جانب ، وأصابه بلاء شديد على أيدى بنى أمية ، فالاضطهاد وقع به ؛ والأموال منعت عنه ، فلم يهن ، ولم يضعف ، ولم يتزعزع ، بل ازدادت حملته على الأغنياء شدة ، وناوأ معاوية جهارا ، وفى يوم وقف يخطب الناس :

ـ ان بنى أمية تهددنى بالفقر والقتل ، والفقر أحب الىّ من الغنى ، ولبطن الأرض أحب الىّ من ظهرها .

يامعشر الأغنياء : أنفقوا مال الله على عباده ، ولاتقولوا « يد الله مغلولة » ، و « ان الله فقير ونحن أغنياء » .

« انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجرعظيم ، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم ، عالم الغيب والشهادة العزيزالحكيم»

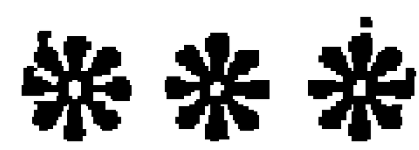
استمر أبو ذر فى الحملة على كانزى المال ، وفى الدعوة الى تقسيم المال على جميع المسلمين كافة ، وأسدل الليل سدوله فانطلق الى داره ، وفى الطريق تذكر انه ترك ابنته وقد اشتد المرض بها ، فأغذ السير ، وأحس كأن صوتا خافتا ينبعث من جوفه يردد : « انما أموالكم وأولادكم فتنة .. انما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وأخذ الهمس يشتد ، حتى أمسى صوتا يدوى فى أذنيه . ولما بلغ الدار دخل مسرعا ، فألفى ابنته مسجاة ، وبجوارها أمها وقد علا وجهها الاظلام ، وغامت عيناها بالدمع . ولما رأته سالت عبراتها ، وأجهشت بالبكاء ، فأطرق وغمغم :

ــ انا لله وانا اليه راجعون

ثم جلس وأطرق ، فعاد به فكره الى يوم كان فى يثرب

مع النبي قبل ان تسلم قريش ، يوم أغار القرشيون على المدينة صباحا ، وقتلوا ابنه ثم ولوا هاربين ، وتذكر مواساة النبي له فغمغم :

ـ لاحول ولا قوة الا بالله ، انما يولدون للموت ويعمرون للخراب



استأنف أبو ذر دعوته ، وراح يبشر الكانزين بعذاب أليم . وجعل معاوية يفكر فى التخلص منه ، والقضاء عليه بأية وسيلة ، فهداه تفكيره الى انه لو استطاع ان يثبت الكنز على ذلك الذى يعيب الكنز ، ويحمل على الكانزين ، لكان فى ذلك قضاء عليه مبرم ، وراح يقدح زناد فكره ، حتى وضع الخطة التىاطمأنإليها ، وحسب انها ستصل به الى غرضه المنشود ، وراح يسدد ضربته

دعا معاوية رسولا ، وأعطاه ألف دينار ، وأرسله بها فى جنح الليل الى أبى ذر ، ثم لما صلى معاوية الصبح ، دعا رسوله الذى أرسله اليه ، فقال له :

ـ اذهب الى أبى ذر ، فقل له أنقذ جسدى منعذاب معاوية ، أرسلنى الى غيرك ، وانى أخطأت بك ..

فانطلق الرسول ، وقابل أبا ذر ، وقال له ما لقنه معاوية ..

فقال أبو ذر : يابنى ، قل له : « والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار . ولكن أخرنا ثلاثة أيام ، حتى نجمعها

علم معاوية ان أبا ذر أنفق الألف دينار على الفقراء ، عقب تسلمها ، وانه لم يبقها فى داره ليلة واحدة ، فأيقن ان فعله يصدق قوله ، وان سهمه الذى سدده قد طاش

حاول معاوية اللين مع أبى ذر ، فلم يفلح ، وحاول الشدة ، فلم يفلح ، وحاول شراءه ، فلم يفلح ، فلم يبق أمامه الا اخراجه من الشام ، فكتب الى أمير المؤمنين عثمان:

« ان أبا ذر تجتمع اليه الجموع ، وقد ضيق على ، وأعضل بى ، ولا آمن ان يفسدهم عليك ، فان كان لك فى القوم حاجة فاحمله »

فرد عليه عثمان : « ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق الا ان تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجهز أبا ذر الى ، وابعث معه دليلا ، وزوده وارفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فانما تمسك ما استمسكت »

البــــلاء

بلغ كتاب أمير المؤمنين معاوية ، فحمل أبا ذر على بعير عليه قتب يابس، ومعه خمسة من الصقالبة ، يطيرون به ، ولا يدعونه يستريح فى الطريق ، حتى تسلخت بواطن أفخاذه ، وكاد يتلف ، وأصابه كرب شديد ، فأطرق وقد ارتسم على محياه الألم ، وحز فى نفسه أن يلقى كل هذا البلاء ، لأنه يدعو الى المعروف ، واتباع ماجاء به كتاب الله . ثم تذكر يوم كان يسير مع النبى فى دروب يثرب ، وقد قال له الرسول : « يا أبا ذر انك رجل صالح ، وسيصيبك بلاء بعدى » فيسأله : « فى الله ؟ » فيجيبه : « فى الله » فيقول : « اذن مرحبا بأمر الله » ، فامتلأ قلبه ثباتا واطمئنانا ، وانقشعت سحابة الألم التى كانت تغيم على وجهه ، وحل محلها هدوء وصفاء

وبلغ الركب المدينة ، ورأى أبو ذر المجالس فى أصل جبل سلع ، فقال :

ـ بشر أهل المدينة بغارة شعواء ، وحرب مذكار

ودخل أبو ذر على عثمان ، وكان عنده على وبعض المسلمين ، فلما رآه عثمان قال :

ـ لا أنعم الله بك عينا يا جنيدب

ـ أنا جنيـدب ، وسماني رسـول الله عبد الله ، فاخترت اسم رسول الله الذى سماني به على اسمى

ـ ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك ؟

ـ لقد كنز الناس فبشرتهم بمكاو من نار

ـ انت الذى تزعم أنا نقول ان يد الله مغلولة ، وان الله فقير ونحن أغنياء ؟

ـ لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مال الله على عباده ، نصحتك فاستغششتنى ، ونصحت صاحبك فاستغششنى

ـ كذبت ، ولكنك تريد الفتنة وتحبها . قد أنغلت الشام علينا

ـ اتبع سنة صاحبيك ، لا يكون لأحد عليك كلام

ـ مالك وذلك ؟ لا أم لك

ـ والله ما وجدت فى عذرا الا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر

فظهر الغضب فى وجه عثمان ، وقال :

ـ أشيروا عليّ في هــذا الشيخ الكذاب ، اما ان أضربه أو أقتله ، فانه قد فرق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الاسلام .. فقال علي :

ـ أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون : « فان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لايهدى من هو مسرف كذاب »

فأجاب عثمان بجواب غليظ ، اتهم فيه أبا ذر بأنه عين لعلى ، فأجاب على بجواب أغلــظ ، وارتفع الجدل ، فدخل الناس بينهما ، وأخيرا قال عثمان :

ـ انى أحظر على الناس ان يقاعدوا أبا ذر أو يكلموه

وخرج أبو ذر من عند عثمان ، فكثر عليه الناس ، كأنهم لم يروه من قبل ذلك ، وفى يوم جلس فى المسجد ، وأقبل رجل وسأله :

ـ ان مصدقى عثمان ازدادوا علينا ، أنغيب عنهم بمقدار ما ازدادوا علينا ؟

ـ لا ، قف مالك وقــل : « ماكان لــكم من حق فخذوه ، وما كان باطلا فذروه » ، فما تعدوا عليك جعل فى ميزانك يوم القيامة

فقال فتى من قريش :

ـ أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا ؟

ـ أرقيب أنت عليّ ؟ فوالذى نفسى بيده لو وضعتم الصمصامة (السيف) هنا (وأشار الى عنقه) ، ثم ظننت انى منفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تجزوا ، لأنفذتها

ثم استأنف أبوذر دعوته ، وراح يحمل على الأغنياء ، ويدعو الى مواساة الفقراء وتقسيم المال على المسلمين ، وبلغ عثمان ان الناس تجتمع به فأرسل اليه ، فأقبل ، وكان كعب الأحبار وبعض المسلمين عنده ، فقال عثمان :

ـ يا أبا ذر ، ألا تكف عما أنت فيه ؟

ـ حتى يواسى الأغنياء الفقراء

فالتفت عثمان الى الجالسين وقال :

ـ أرأيتم من زكى ماله ، هل فيه حق لغيره ؟

فقال كعب : « لا يا أمير المؤمنين .. »

فدفع أبو ذر فى صدر كعب ، وقال :

ـ كذبت يابن اليهودية ، ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وأتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »

فقال عثمان : « يا أبا ذر ، لايمكنني حمل الناس على الزهد ، ولكن عليّ أن أقضي بينهم بحكم الله ، وأرغبهم فى الاقتصاد »

فقال أبو ذر : « لا نرضى عن الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ، ويحسنوا للجيران والاخوان ، ويصلوا القرابات » ..

فقال كعب الأحبار : « من أدى الفريضة ، فقد قضى ما عليه » ..

فرفع أبو ذر العصا ، فدفع بها فى صدر كعب

وأتى بتركة عبد الرحمن بن عوف من المال ، فنصبت البدرة ، حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم

فقال عثمان : « انى لأرجو لعبد الرحمن خيرا ، لأنه كان يتصدق ، ويقرى الضيف ، وترك ما ترون »

فقال كعب : « صدقت يا أمير المؤمنين ، وقد كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا ، لقد أعطاه الله خير

الدنيا والآخرة »

فشال أبوذر العصا ، فضرب بها رأس كعب فشجه ، وقال : « يابن اليهودى ، تقول لرجل مات وترك هذا المال : ان الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، وتقطع على الله بذلك ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه ، فقال : « يا أبا ذر » . فقلت : « لبيك يارسول الله » ، فقال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال كذا وكذا ، عن يمينه ، وشماله ، وقدامه ، وخلفه ، وقليل ما هم » . ثم قال : «يا أبا ذر» فقلت : « نعم يارسول الله بأبى أنت وأمى » . قال : « مايسرنى ان لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين » . قلت : « أو قنطارين يارسول الله » . قال : « بل قيراطين » . ثم قال : « يا أبا ذر ، انت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » ، فرسول الله يريد ذلك ، وانت تقول يابن اليهودية ان لابأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف »

واستوهب عثمان كعبا شجته ، فوهبه ، فقال عثمان لأبى ذر : « ما أكثر أذاك لى ، دار عنى وجهك » ..

— أسير الى مكة ؟

ـ لا والله
ـ فتمنعنى من بيت ربى أعبده فيه حتى أموت ؟
ـ اى والله
ـ فالى الشام ؟
ـ لا والله
ـ البصرة ؟
ـ لا والله ، فاختر غير هذه البلدان
ـ لا والله ، ما أختار غير ما ذكرت لك ، ولو تركتني في دار هجرتى ما أردت شيئا من البلدان ، فسيرني حيث شئت من البلدان
ـ فاني مسيرك الي الربذة ..

فى الـــربذة

دعا عثمان مروان ، وأمره ان يخرج بأبى ذر الى الربذة ، ونهى الناس ان يصحبوه فى مسيره أو يشيعوه ، وامتطى أبو ذر راحلة ، وامتطى مروان أخرى ، وراحا يخترقان طريق يثرب ، وصدع الناس لأمر أمير المؤمنين ، فتجافوه ، وجعل أبو ذر يدير عينيه فيما حوله ، ويلقى عليها نظرة وداع ، وكان كلما مر بمكان تذكر ما مر به من أحداث فى عهد الرسول ، فهاجت الذكريات فى نفسه وأطرق حزينا . ولكن رن فى أذنيه الحوار الذى دار بينه وبين الرسول : « سيصيبك بلاء بعدى » . « فى الله ؟ » ، « مرحبا بأمر الله »

فرفع أبو ذر رأسه ، وانطلقا حتى أغمض الأفق جفنيه عليهما ..

وأقبل على ومعه ابناه الحسن والحسين وعقيل أخوه ، وعبد الله بن جعفر ، وعمار بن ياسر ، وعلموا ان عثمان

أمر باخراج أبى ذر من يثرب ، فأسرعوا خلفه ، وأغذوا السير حتى لحقوا به خارج المدينة ، وأقبل على ليحادثه ، فحاول مروان أن يمنعه ، وقال :

ـ يا على ، ان أمير المؤمنين قد نهى الناس ان يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فان كنت لم تدر بذلك ، فقد أعلمتك ..

فلم يلتفت على اليه ، فتقدم نحو أبى ذر ، وحاول مروان ان يحول بينهما ، فحمل على عليه بالسوط بين أذنى راحلته ، وقال : « تنح نحاك الله الى النار »

فلوى مروان عنان راحلته ، وترك أبا ذر لهم ، وقفل عائدا الى أمير المؤمنين ليشكو له ما لقى من ابن أبى طالب

ومضى على ورفقاؤه مع أبى ذر ، حتى بلغوا الربذة ، فنزلوا عن رواحلهم ، وجلسوا يتحدثون . وحان وقت الوداع ، فنهض على ، وأحس أبو ذر غصة فى حلقه ، وضم عليا الى صدره ، فانهمر الدمع من عينيه وغمغم :

ـ رحمكم الله أهل البيت ، اذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ، ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسرع مروان الى عثمان ، فشكا اليه ما فعله على بن أبي طالب ، فنهض عثمان وقال : « يامعشرِ المسلمين ،

من يعذرني من علي ، رد رسـولي عما وجهتـه له ، وضربه ، والله لنعطينه حقه »

ورجع علي بعد أن ترك أبا ذر بالربذة ، فاستقبله الناس وقالوا له : « ان أمير المؤمنين عليك غضبان ، لتشييعك أبا ذر »

قال علي : « غضب الخيل على اللجم »

وأتى المساء ، وجاء علي الى عثمان ، فقال عثمان : « ما حملك على ما صنعت بمروان ؟ واجترأت علي ورددت رسولي وأمري ؟ »

ـ أما مروان ، فانه استقبلني يردني ، فرددته عن ردي ، وأما أمرك فلم أرده

ـ أو لم يبلغك انى قد نهيت الناس عن أبي ذر وتشييعه ؟

ـ أو كل ما أمرتنـا به من شيء ـ نرى طاعة الله والحق فى خلافه ـ اتبعنا فيه أمرك ؟ بالله لا نفعل

ـ أقد مروان ..

ـ وما أقيده ؟..

ـ ضربت بين أذني راحلته

ـ أما راحلتي فهي تلك ، فان أراد أن يضربها كما

ضربت راحلته فليفعل ، أما أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمنك أنت مثلها ؛ بما لا أكذب فيه ولا أقول الا حقا

ـ ولم لايشتمك اذا شتمته ؟ فوالله ما أنت عندى بأفضل منه

فغضب على وقال : « الى تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك

فغضب عثمان ، واحمر وجهه ، فقام ودخل داره ، وانصرف على ، فاجتمع اليه أهل بيتـــه ، ورجال من المهاجرين والأنصار ، يحاولون تهدئته

وفى صبيحة اليوم التالى ، اجتمع الناس الى عثمان ؛ فشكا اليهم عليا ، وقال : « انه يعيبنى » ..

فدخل النـــاس بينهما ، وعادت الحال الى ما كانت عليه ، قبل نفى أبى ذر ، وقال على لعثمان : « والله ما أردت تشييع أبى ذر الا لله »

***

وبلغ معاوية ان عثمان قد نفى أبا ذر الى الربذة ، فقصد زوجة أبى ذر ليخرجها اليه ، فخرجت ومعهـــا جراب ، فالتفت معاوية الى من حوله وأشار الى الجراب

وقال ليشهر بأبى ذر :

ـ انظروا الى هذا الذى يزهد فى الدنيا : ما عنده ؟

فقالت امرأة أبى ذر: «أما والله ماهودينار ولا درهم ، ولكنهافلوس كان اذا خرج عطاؤه ابتاع منه فلوسا لحوائجنا»

وانطلقت امرأته حتى لحقت به بالربذة ، فألفتـه قد ابتنى مسجدا ، ورأت عثمان قد أقطعه صرمة من الابل ، وأعطاه مملوكين ، وأجرى عليه كل يوم عطاء

وفى يوم من الأيام ، اتجه نعيم الرياحى الى الربذة ، فوجد زوجة أبى ذر ، فسألها عن زوجها ؟ فقالت :

ـ هو ذاك فى ضيعة له

فانتظر نعيم ، وأقبل أبو ذر يقود بعيرين ، وكان قاطرا أحدهما فى عجز صاحبه ، وفى عنق كل واحد منهما قربة ، فوضع القربتين ، واقترب منه نعيم وقال : « يا أبا ذر : ما كان من الناس أحد أحب الى أن ألقاه منك ، ولا أبغض ان القاه منك »

ـ لله أبوك ، وما يجمع هذا ؟

ـ انى كنت وأدت فى الجاهلية ، وكنت أرجو فى لقائك ان تخبرنى ان لى توبة ومخرجا ، وكنت أخشى فى لقائك ان تخبرنى انه لا توبة لى

ـ أفي الجاهلية ؟

ـ نعم

ـ عفا الله عما سلف

وأقبل موسم الحج فكثر مرور الناس بالربذة ، وكانوا يصلون بمسجد أبى ذر ، ويتحدثون معه ، وأقبل بعض الحجيج ، فوجدوه قائما يصلى ، فانتظروه حتى فرغ من صلاته ، ثم أقبل بوجهه فقال : « هلموا الى الأخ الناصح الشفيق »

ثم بكى واشتد بكاؤه ، وقال : « قتلنى حب يوم لا أدركه »

ـ وما يوم لا تدركه ؟

ـ طول الأمل

وجلس ، فجلس الناس اليه ، ورأى بعض القوم ان يخوضوا فى عثمان ارضاء له ، ولكنه نهاهم ، ونهض وسار خلفه غلامه ، وكانت عليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسأله المعرور بن سويد عن ذلك ؟ فقال أبوذر:

ـ قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اخوانكم خولكم جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ،

ولا يكلفه ما يغلبه ، فان كلفه ما يغلبه فليعنه

واستأنف أبو ذر سيره ، حتى بلغ داره ، فجلس أمامه على قطعة جوالق، فأقبل نحوه رجل كان قد رأى زوجته ، فألفاها شعثة ، سحماء ، سوداء ، فجلس اليه ، وقال له :

ـ انك امرؤ ما تبقى لك ولد

ـ الحمد لله الذى يأخذهم من دار الفناء ، ويدخرهم فى دار البقاء

ـ يا أبا ذر ، لو اتخذت امرأة غير هذه ؟

ـ لأن أتزوج امرأة تضعنى ، أحب الىّ من امرأة ترفعنى ..

ـ لو اتخذت بساطا ألين من هذا ؟

ـ اللهم غفرا ، خذ مما خولت ما بدا لك

وذهب الحجيج ، وبقى أبو ذر وزوجته وغلاماه فى الربذة ، وجعل أبو ذر يقطع الوقت فى التعبد ، ودارت عجلة الزمن دورة ، فاستأذن عثمان فى الحج ، فأذن له ، فانطلق حتى بلغ مكة ، فقام عند الكعبة ، وقال :

ـ يأيها الناس ، انا جنـدب الغفارى ، هلموا الى الأخ الناصح الشفيق

فاكتنفه الناس فقال :

ـ أرأيتم لو أن احدكم اراد سفرا ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟

قالوا : بلى

قال : فان سفر طريق القيامة أبعد ما تريدون ، فخذوا مايصلحكم

قالوا : وما يصلحنا ؟

قال : حجوا حجة لعظائم الأمور ، وصوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، وصلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور . كلمة خير تقولها ، أو كلمة شر تسكت عنها ، لوقوف يوم عظيم . تصدق بمالك ، لعلك تنجو من عسيرها . اجعل الدنيا مجلسين : مجلسا فى طلب الحلال ، ومجلسا فى طلب الآخرة ، الثالث يضرك ولا ينفعك ، لاترده . اجعل المال درهمين : درهما تنفق على عيالك من حله ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، الثالث يضرك ولا ينفعك ، لا ترده

وحج أبو ذر واتجه الى منى ، فبينا هو جالس اذ أقبل رجال وأخبروه ان عثمان صلى أربعا فى السفر ، فظهر على أبى ذر الغضب ، وقال قولا شديدا ، ثم قال :

ـ صليت مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى

السفر ، فصلى ركعتين ، وصليت مع أبى بكر وعمر ، فكيف أتم عثمان الصلاة ؟

وقام فصــلى أربعــا ، فجعــل الموجودون يرمقونه متعجبين ، ولما فرغ من صلاته ، قالوا له :

ـ عبت على أمير المؤمنين شيئا ، ثم تصنعه ؟

ـ الخلاف أشد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا يوما وقال : « انه كائن بعدى سلطان فلا تذلوه ، فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الاســلام من عنقه ، وليس بمقبول منه توبة ، حتى يسد ثلمته التى ثلم ، وليس بفاعل »

إلى دار البقـاء

عاد أبو ذر الى الربذة ، وذهب الحاج وأقفرت الطرق من الناس ، فانقطع أبو ذر للعبادة ، وفى يوم أحس وهنا وضـعفا ، وشـعر بالموت يزحف نحوه ، فالتفت الى زوجه ، وقال : « دنا الفراق »

ـ ما بالك اليوم ؟

ـ والله لنتركن دار الغرور الى دار البقاء ..

وتصرمت الأيام ، ومرض أبو ذر ، وازدادت وطأة المرض عليه ، فأسبل عينيه ، وراح فى غيبوبة ، ولما أفاق فتح عينيـه ، فألفى زوجه تبكى والدموع تنهمر على خديها ، فغمغم : « ما يبكيك ؟ »

ـ ما لى لا أبكى وأنت تموت بفلاة من الأرض ، ولا يد لى بدفنك ، وليس عندى ثوب فأكفنك فيه ؟

ـ لا تبكى وابشرى ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايموت بين امرأين مسلمين

ولدان أو ثلاثة ، فيصبران ويحتسبان ، فيريان النار أبدا! » . أفلم يمت أولادنا وصبرنا واحتسبنا ؟ !

وصمت أبو ذر واستأنفت زوجه البكاء ، فقال :

ــ انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض ، تشهده عصابة من المؤمنين »

وليس من أولئك النفر أحد الا وقد مات فى قرية أو جماعة ، وانى انا الذى أموت بفلاة ، والله ما كذبت ولا كذبت فأبصرى الطريق

ــ انى وقد انقطع الحاج وتقطعت الطرق ؟

ــ انظرى !

فخرجت وتركته وراحت تشتد الى الكثيب ، ارضاء له ، ثم ترجع اليه فتمرضه ، فيأمرها ان تنظر ، فتشتد الى الكثيب ، فبينا هى على الكثيب اذ بها ترى رجالا على رواحلهم ، كأنهم الرخم ، فألاحت لهم فأسرعوا اليها ، ووضعوا السياط فى نحور رواحلهم ، يستبقون اليها ، ولما بلغوها قالوا : « مالك يا أمة الله ؟ »

قالت : « امرؤ من المسلمين يموت تكفنونه »

قالوا : « ومن هو ؟ »

قالت : « أبو ذر »
قالوا : « صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »
قالت : « نعم »
ـ بأبى أنت وأمى يا أبا ذر

وأسرعوا اليه ، حتى دخلوا عليه ، فسلموا غليه ، وقال بصوت خفيض : « لو كان عندى ثوب يسعنى كفنا أو لامرأتى ثوب ، لم أكفن الا فى ثوب هو لى أو لها ، وانى أنشدكم الله ، لايكفنى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا »

فتلفت القوم بعضهم الى بعض ، فليس من القوم أحد الا وقد قارف من ذلك شيئا ، الا فتى من الأنصار ، فقال : « أنا أكفنك فى ردائى هذا ، وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى »

ـ انت صاحبى فكفنّى ..

وحشرج أبو ذر حشرجة الموت ، ولفظ النفس الأخير ، وكفنه القوم ..

وأقبل ابن مسعود منصرفا من الكوفة ، فعلم بموته ، فصلى عليه وبكى وقال : « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك»

الاشتراكية فى الإسلام

ان الباحث فى النظم الاقتصادية السائدة اليوم يرى العالم أجمع يسير نحو الاشتراكية قدما ، فلم يعد الناس يطيقون رؤية الاموال تتكدس فى أيدى بضعة نفر من الاغنياء ، بينما ملايين من البشر يتضورون جوعا

المذاهب الاقتصادية الحديثة :

وقبل ان ابدأ الكلام عن الاشتراكية عامة ، واشتراكية الاسلام بوجه خاص ، أرى لزاما على ان أسرد هنا خلاصة المذاهب الاقتصادية الهامة التى سادت أوربا ، من وقت ان تكونت الدول الحديثة فى القرن السادس عشر ، حتى تسهل علينا التفرقة بين مذهب وآخر ، وحتى نلم بالتطورات التى طرات على المذاهب الاقتصادية، والعوامل التى اثرت فيها ، حتى وصلت آخر الامر الى اشتراكية متهافتة لا تستطيع الوقوف على قدميها ، الى جانب اشتراكية الاسلام ثابتة الدعائم ، موطدة الاركان :

(ا) مذهب التجاريين :

تكونت الدول العظمى فى القرن السادس عشر، وكشفت اسبانيا امريكا ، فتدفق الذهب والفضة الى اسبانيا ، فبلغت أوج مجدها وعظمتها . وحسبت الدول الاخرى ان

هذين المعدنين هما أعظم الثروات نفعا ، فراحت كل دولة تعمل على الاكثار منهما ، واصدرت التشريعات تحذر من تصديرهما ، حتى لا يقل ما هو موجود منهما فيهـــا . وراحت كل دولة تعمل على تنمية مواردها ، وتنظيـــم تجارتها الخارجية شغلها الشاغل ، واصبح لها المقام الاول لتحصل بذلك على الفرق بين قيمتى الصادرات والواردات بالعملة الذهبية . ولتدعيم هذا النظام ، فرضـــت على الواردات رسوما جمركية عالية ، واهتمت بالصناعة وعملت على ترقيتها ، لكي يتسنى لكلّ دولة أن تكفى نفسها بنفسها، وتصدر الكائض من انتاجها الى غيرها من الدول

جعل هذا النظام الدول كالتاجر سواء بسواء ، تعمـل على ترويج بضائعها وتصديرها الى الخارج ، حتى أصبحت تجارتها الخارجية شغلها الشاغل ، وأصبح لها المقام الاول فيها ، وسمى هذا المذهب الاقتصادي ــ الذى همـــه اغتناء الشعوب من تكديس المعادن النفيسة ــ مـذهب التجاريين ، وقد ساد هذا المذهب ذلك العصر ، ورفرف على اوربا بأسرها ، على الرغم من مثالبه الجمة . ومن مثالبة : تقييد حرية الافراد ، وتحريم تصدير الغلال (حتى ساءت حالة الزراعة) واقامة العقباب فى سبيل التجارة

(ب) المذهب الحر :

ظل مذهب التجاريين مسيطرا على اوربا حتى ظهـر فولتير ، وروسو ، وغيرهما ، يدعون الى الحرية ويمجدونها فاثرت دعوتهم فى الاقتصاديين ، فقـــام فى انجلترا آدم سميث « ابو الاقتصاد السياسى » وفى فرنسا الطبيعيون (الفزيوكرات) ، قاموا بنقد مذهب التجاريين ، ودعـوا الى حرية التجارة ، وتحطيم الحواجز الجمركية ، وكان

شعارهم « دعه يعمل ، دعه يمر » «Laisser Faire» «Laisser Passer» أى دع كل فرد يعمل فى حرية ، فلو ترك كل فرد ليعمل لمصلحته ، دون تدخل من الحكومة ، لخدم مصلحته على أكمل وجه ، ولخدم مصلحة المجموع فى الوقت نفسه . ولقد لقيت هذه الاراء من الحكومات أذنا واعية فطبقتها ، وأطلقت الحرية للاشخاص ، وازالت الحواجز الجمركية ، وعرف هذا المذهب بالمذهب الحر

وكان من ثمار تطبيقه ظهور فئة الاغنياء الرأسماليين ، وفئة الفقراء المعدمين ، وساعد على توسيع الشقة بين الفئتين ، ظهور الثورة الصناعية ، واختراع الآلات ، وانتشار استعمالها فى الصناعات الكبيرة ، الامر الذى در على أرباب الاعمال ارباحا وفيرة ، فزادوا على غناهم غنى ؛ وتخفيض أجر العامل لاحلال الآلات محله ، فزاد على فقره فقرا ..

(ج) الاشتراكية :

وتلفت بعض المعنيين بشئون الطبقات فهالهم انحطاط طبقة العمال ، وارتفاع طبقة الاغنياء على اكتافهم ، وعزوا الشقاء المخيم على العالم ، وذلك التفاوت الكبير بين الرأسماليين والعمال ، الى تطبيق المذهب الحر ، ذلك المذهب الذى اطلق الحرية لنفر من الرجال ، فراحوا يعملون على كسب المال ، وتكديس الثروات بين أيديهم ، دون الالتفات الى العمال الذين هم منبع هذه الثروات . وقد هيأ لهم ذلك المذهب الجائر الفرصة لتعسف العمال؛ فهم يحددون لهم أجر الكفاف ، والعمال يقبلون ذلك مضطرين تحت ضغط الحاجة ، ليدفعوا غائلة الجوع عنهم وعن عيالهم . وقد قال المشفقون على الطبقات الفقيرة :

ان النتيجة الطبيعية للمذهب الحر هى الاخلال بالتوازن الاجتماعى ، وان الثروات العظيمة التى يكدسها المولون ليست ثمرة جهودهم وحدهم ، بل ثمرة جهود العمـــال ايضا ، وان السلع الناتجة هي اشتراك بين جهود العمال وراس المال ، فينبغي على ذلك ألا يستحوذ صاحب رأس المال على الربح جميعه ، ويضيفه الى رأس ماله لينميه ، بل العدل يقضي أن يكون رأس المال اشتراكا بين العمال والمولين ، وقد عرف هذا المذهب الجديد بالاشتراكية

وكان رسول الاشتراكية ، كارل ماركس ، الالمانى ، وقد اخذ كثيرا من آرائه الاقتصادية عن اقتصـــــاديي القرن التاسع عشر ، ولكنه تميز عنهم بفلسفته الاجتماعية ، فقد اسس مذهبه الاقتصادى على أساس مذهب ســياسى يعرف بالمادية التاريخية . وهذا المذهب يرجع جميــــع التطورات والتقلبات التى تصيب المجتمع فى زمان ما ، ومكان ما ، الى كفاح الطبقات لتحسين حالها : ففي الازمان الغابرة ، قام الكفاح بين الاحرار والارقاء ، الى ان تحرر الرقيق . ثم انتقل الكفاح الى الاشراف والعامة ، فقامت الثورة الفرنسيةعلى أكتاف العامة ، حتى انمحق الأشراف . ونشأت طبقة متوسطة تملك اموالا ، وراحت هذه الطبقة تنمي هذه الاموال بتشغيل العمال ، ولم يلبث ان نشـــأ الكفاح بينها وبين العمال ، ولا يزال هذا الكفاح ناشبا حتى الان . ويرى كارل ماركس قياسا على ما مضى من كفاح بين الطبقات ، أن هذا الكفاح بين الراسماليين والعمال سيبقى ناشبا حتى يتلائم نظام الملكية مع نظام الانتاج ،أى حتى تصير الملكية اشتراكية ، لان الانتاج اشـــتراك بين العامل وبين رأس المال

وان الدارس للمذاهب الاشتراكية ، يرى اختلافا كبيرا بينها . فثم اختلاف بين الاشتراكية الديمقراطيـــــة ،

والاشتراكية الوطنية «النازية» ، والشيوعية ، والماركسية « اشتراكية رأس المال » . ولكنها على الرغم من هـــذا الاختلاف تتحد جميعا فى خواص ثلاث ، هى :

١ ـ تقويض النظام الحالى ، وتشييد نظام جديد على أنقاضه ، يضمن توزيع الثروة توزيعا عادلا بين الافراد

٢ ـ الغاء الملكية الخاصة « ثروات الانتاج » : كرأس المال ، والارض ، والمصانع ، على أن تستولى الدولة على هذه الملكيات جميعها ، وتجعلها ملكية عامة تديرهـــا للمصلحة العامة

٣ ـ يشتغل الافراد لحساب الدولة ، بأجور تعطى لهم بالتساوى ، على أساس قيمة العمل الذى ينتجه كل منهم، وتبعا لذلك لا يكون هناك دخل للافراد سوى الاجور

(د) الشيوعية :

وارى قبل ان انتقل من هذا الموضوع ، أن أذكر نبذة عن الشيوعية ، حتى يمكن التفرقة بينها وبين الاشتراكية، وحتى نلم بجميع المذاهب الاقتصادية الهامة :

فالشيوعية أقدم المذاهب الاشتراكية ، وتتميز عنهـا بشيئين :

أولهما ـ أنها تحرم الملكية الخاصة فى جميع صورها ، فهى لا تفرق بين ثروات الانتاج وثروات الاستهلاك ، كمـا تفعل الاشتراكية ، بل تنادى بالغاء الملكية الخاصة الغاء تاما . .

وثانيهما ـ أن لها فى التوزيع قاعدة خاصة ، وهى : « لكل على حسب حاجته ، ومن كل على حسب قدرته » ، أى ان على كل فرد ان يعمل على قدر قبوته ، وأن على الحكومة ان تمده بما يسد حاجته

هذه هي خلاصة المذاهب الاقتصادية التي سادت العالم منذ تكونت الدول العظمى الى اليوم ، وان الباحث في هذه النظريات والمذاهب يرى بجلاء ان التطرف كان صفتها اللازمة ، فلا قسط ولا اعتدال : فمذهب التجاريين غولي في تطبيقه ، والاشتراكية المتباينة غالت في طلباتها . ونرى ان كلا من انصار هذه المذاهب يزعم أن مذهبه هو المذهب الذي يضمن السعادة والرفاهية للجميع ، ولكن اغلب هذه المذاهب جرب وطبق ، فلم يأت بالنتيجةالمرجوة ولم يزدد العالم به الا سوءا على سوء

الاشتراكية ركن من أركان الدين الاسلامي :

ولو عاد أنصار هذه المذاهب كلها معنا الى صدر الاسلام، لرأوا اشتراكية عادلة معتدلة ، تجمع بين الحرية والاشتراكية ، ولا تترك الغنى يلتهم الفقير ، ولا الجاهل يتساوى مع العالم ، ولا الذين يعملون مع الذين لايعملون، بل كانت اشتراكية محببة ، ضمنت السعادة والرفاهية للجميع ..

ظهرت الاشتراكية الاوربية من نحو خمسين سنة ، ورأى بعض الاقتصاديين في ظهورها دليلا على ارتقاء البشرية ورفعتها ، فقد تعلم العالم أخيرا كيف تتضامن الطبقات لخير المجموع وسعادته . ويزعم الاقتصاديون الاوربيون أن الاشتراكية وليدة التفكير الاوربي ، ولا تعجب لزعمهم هذا ، فهم يدعون دائما ان كل رقي وليد التفكير الاوربي . ألم يقولوا بأن الحرية والاخاء والمساواة من نتاج الثورة الفرنسية ؟ ألم يمجدوا تلك الثورة التي أطاحت رءوسا كثيرة ، وجرت في سبيلها الدماء انهارا ؟ متجاهلين ان الحرية

والاخاء والمساواة من غرس الدين الاسلامى ، متناسين أن الاسلام هو الذى تعهد هذه المبادىء حتى نمت وترعرعت، وأظلت العالم ، ان كانوا يجهلون ذلك فها نحن أولاء نقص عليهم طرفا مما وقع فى صدر الاسلام ، قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ألف عام :

أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلت فرس ، فلما رآها الناس ، قام محمد بن عمرو بن العاص فقال :

ـ فرسى ورب الكعبة !

فلما دنت الفرس عرفها صاحبها المصرى فقال :

ـ فرسى ورب الكعبة !

فقام محمد بن عمرو الى المصرى فضربه بالسوط ، وقال:

ـ خذها وأنا ابن الاكرمين

بلغ ذلك عمرو بن العاص ، فخشى ان يشكو المصرى ماناله لامير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحبس الرجل ، ولكنه انفلت من سجنه ، وأتى عمر ، فأرسل عمر الى عمرو أن يأتيه من فوره ومعه ابنه محمد ، فلما مثلا أمام أمير المؤمنين اعطى عمر درته للمصرى وقال له :

ـ اضرب بها ابن الاكرمين

فأخذها الرجل وضرب محمدا ، ثم طلب منه أن يضرب بها عمرو بن العاص نفسه قائلا :

ـ فو الله ما ضربك الا بفضل سلطانه

فقال المصرى : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى

فقال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذى تدعه ٠ ثم وجه الكلام الى عمرو وقال قولته المدوية ، قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ألف عام :

ـ أيا عمرو ، متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

وفى الاخاء قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (انمـــا المؤمنون اخوة) ، وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار عقب الهجرة • ومن كلامه صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه - أى لاخيه المسلم - ما يحب لنفسه)

وقال صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : (أيهـــا الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، والمسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم)

وقال صلى الله عليه وسلم في المساواة : (ان المسلمين سواسية كأسنان المشط) ، وقال تعالى فى كتابه العزيز : (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)

وقامت مشادة بين أبى ذر وبلال ، وكانت أمه أعجمية ، فعير أبو ذر بلالا بأمه ، فشكاه الى النبى ، فقال صلى الله عليه وسلم لابى ذر :

- يا أبا ذر ، ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود ، الا أن تفضله بعمل

وقد مر عمر بمكة ، فرأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم ، فغضب وقال لســـاداتهم مؤنبا : « ما لقوم يستأثرون على خدامهم ! » ثم دعا بالخدم فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة

هذه أمثلة للحرية والاخاء والمساواة فى الاسلام ، ولا احسب أن الحرية والاخاء التى جاءت بها الثورة الفرنسية تتطال الى مثل هذا ، أو تطمع فى أن تصل الى مثله •ولكنها الاغراض تلبس الباطل ثوب الحق ••

رأينا أن أوربا لم تعرف الاشتراكية الا من خمسين سنة فقط ، أما الاسلام فقد كانت الاشتراكية ركنا من أركانه لا يستقيم الا به فقد جعل الاسلام للفقير حقا معلوما من

مال الزكاة ردفا للصلاة ، قال الله تعـــالى : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . لقد افترض الله على المسلمين صـــدقة أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، وفرض على الاغنيـــاء دفع ٢ر٥ فى المائة مـــن رءوس أموالهم كل عام ، يتسلمها بيت مال المسلمين ، ليوزعهـا على الفقراء والمساكين وابن السبيل ، كما فرض على الابل صدقة ، وعلى الغنم صدقة ، وعلى العروض صدقة ، وفى الفطر صدقة

الفرق بين اشتراكية الاسلام والاشتراكية الحديثة :

لم تقل اشتراكية الاسلام بالغاء الملكيات ، وتشـــغيل الناس جميعا لحساب الحكومة ، بأجر واحد متساو ، كما قالت الاشتراكيات الحديثة . ولكن جاءت اشتراكية الاسلام مخففة من الفوارق بين الناس ، دون الالتجاء الى مصـــادرة الملكيات ، لان الاسلام يعلم أن المساواة المطلقة بين الناس لا تتفق مع النواميس الطبيعية ، فكيف تساوى الجاهـل بالعالم ؟ والبليد والنشيط ؟ قال تعالى فى كتابه العزيز : (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) . لان فى وجـــود الطبقات المتباينة عمار الكون . وقال عز شأنه : (هـــل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . وقد نص القرآن على أن كل فرد لا ينال الا بقدر سعيه : (وأن ليس للانسان الا ما سعى)

ترك الاسلام لكل انسان رأس ماله ، وترك له حـــرية التصرف فيه ، لان الاسلام يعلم أن العمل هو رأس مال كل انسان بمفرده ، وهو مناط سعادة كل فرد فى نفسه ، فلو علم الفرد ان ثمرة عمله ستعود اليه ، لجد ونشط ، وعمل واجتهد ، أما اذا أيقن أنه يزرع ليجنى غيره ، ويكد ليشاركه

سواه ، فترت همته ، وقعد عن اجهاد قواه العقلية والجسمية فيما لا يجنى من ثمرته الا الكفاف

علم الاسلام كل هذا ، فلم يأت باشتراكية هدامة ، ولكن جاء باشتراكية معتدلة ، لم تقل بمساواة الناس بعضهم ببعض مساواة مطلقة ، تدعو الى التكاسل والتواكل ، وانمحاء آية التفاضل من صفحات الوجود ، ولم تترك للفرد الحرية المطلقة التى تؤدى الى استئثار طبقة من الناس بالمال والتكاثر به دون الفقراء ، بل تركت حق المالك له لا يشاركه فيه سواه ، على أن يؤدى زكاته للفقراء ، فكانت اشتراكية الاسلام ، التى شرعت من أكثر من ألف عام ، تجمع بين ما جاءت به المذاهب الجديدة .. تجمع بين ما جاء به المذهب الحر المتطرف ، والمذهب الاشتراكى المتطرف ، فجاءت اشتراكية عادلة ، لا تطرف فيها ولا معالاة

ولم يكتف الاسلام بما فرضه للفقير من مال الغنى ، بل حبب فى الانفاق ، وتوعد الذين يكنزون المال بعذاب أليم ، حتى ينفق الاغنياء مالهم على الفقراء ، فتقل الفوارق بين الناس ، قال الله تعالى تحبيبا فى الانفاق : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) . وقال يتوعد كانزى المال : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . وقال تعالى تحبيبا فى العطاء : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره للعسرى) وقال صلى الله عليه وسلم : (ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الاخر : اللهم اعط ممسكا تلفا) . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يعود جميع المسلمين التصدق

فقال : « على كل مسلم صدقة » ، فقالوا « يا نبى الله ، فمن لم يجد ؟» قال : «يعمل بيده ، فينفع نفسه ويتصدق» قالوا : « فان لم يجد ؟ » ، قال : «يعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا : « فان لم يجد ؟ » ، قال : « فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر ، فانها صدقة »

توزيع المال فى عهد الرسول :

لما عاد النبى الى المدينة بعد فتح مكة ، واستتباب الامر له ، أوفد عشاريه ليجمعوا له عشر ايراد القبائل التى دانت للاسلام من غير أن يتعرضوا لاموالها ، واتجه كل واحد وجهته ، فتقبلتهم القبائل بالترحاب . ولما عادوا الى المدينة جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يوزع ما جمع على المسلمين بالتساوى ، وكان النبى يعطى الجزية وما يصالح عليه من المال لكافة المسلمين ، وكان يأخذ الخمس مما يفىء الله عليهم ، فيقوم بتوزيعه على ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، فيزيد بذلك فى أنصبتهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم)

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم للاسلام رسولا ، وللاشتراكية اماما ، ولله در شوقى اذ يقول :

الاشتراكيون ، أنت امامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة
وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

والبر عندك ذمة وفريضـــة
لا منــة ممنونة وحيـــاء

جاءت فوحدت الزكاة ســـبيله
حتى التقى الكرماء والبخـــلاء

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فالكل فى حق الحيـــاة سواء

فلو أن انســـــانا تخير ملة
ما اختار الا دينـــك الفقراء

استمر المال يتدفق على المدينة فى عهد الرسول ، وكان عليه الصلاة والسلام يقوم بتوزيعه على الجميع بالتســـاوى، فرفرفت السعادة على المسلمين ، وأحب الفقراء الاغنياء ، وجعل الاغنياء ينفقـــون على الفقراء ، لانهم تعلموا أن ما ينفقونه باق لهم عند الله ، وسيؤجرون عليه فى الاخرة . ألم يقل الله تبارك وتعالى وهو أصدق القـــائلين : (ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم)

قانون التوريث :

نجحت الاشتراكية الاسلامية فيما أخفقت فيه جميع المذاهب الاقتصادية ، نجحت فى تحبيب الفقراء فى الاغنياء، وفى تحبيب الاغنياء فى الفقراء ، وفى العمل فى القضاء على الفروق الاجتماعية دون اثارة فريق على فـــريق ، او التضحية بمصالح فريق لمصلحة فريق . ومما ساعد على ايجاد التوازن بين الطبقات قانون الميراث الاسلامى ، الذى يقضى بأن يرث ابناء الميت تركته ، فساعد هذا على توزيع الثروة على اكبر عدد ممكن ، بعكس قـــانون التوريث الانجليزى الذى يقضى بأن يرث الابن الاكبر وحده ماتركه

والده المتوفى ، مما يكدس مال الاسرة جميعا فى يد فرد واحد ، الامر الذى ينتج عنه ، الى جانب وقوع النفرة بين الاشقاء ، اختلال التوازن بين الطبقات

محاولة التحرر من الاشتراكية الاسلامية .

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبويع ابوبكر خليفة للرسول ، وأراد بعض المسلمين أن يتحرروا من اشتراكية الاسلام بأن يمتنعوا عن تأدية الزكاة ، وقد احتج بعضهم بقوله تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) وقالوا : لسنا ندفع زكاتنا الا الى من صلاته سكن لنا ، يريدون بذلك الرسول ، وأنشد بعضهم :

اطعنا رسول الله اذا كان بيننا
فواعجبا ما بال ملك أبى بكر

اعتبر ابو بكر اولئك الذين يريدون التحرر من اشتراكية الاسلام بمنع الزكاة مرتدين عن دينهم ، لانهم بمنعهم الزكاة ، يقوضون ركنا من اركان الاسلام الخمسة، فعزم على محاربتهم ، فقال له عمر :

ـ كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه ، الا بحقه ، وحسابه على الله »

ونصحه عمر أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة ، ويتألفهم حتى يتمكن الايمان فى قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يزكون ..

فقال ابو بكر لعمر :

ـ أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ انه قد انقطع الوحى ، وتم الدين ، أو ينقص وأنا حى ؟ والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا (عنزا) كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعها

وعقد أبو بكر أحد عشر لواء لقتال هؤلاء المرتدين ؛ الذين يريدون التحرر من اشتراكية الاسلام ، فانتصر عليهم ، وأرغمهم على أن يأتوابالزكاة عن يد وهم صاغرون، وبذلك خرج المبدأ ظافرا منتصرا ، يقرر للفقير حقه على الغنى ، وللضعيف حقه على القوى ، وخرجت اشتراكية الاسلام من حروب الردة قوية مدعمة الاركان

الاشتراكية فى عهد عمر :

استمر أبو بكر يقسم الاموال التى تصل الى بيت المال بالتساوى على المسلمين كافة ، كما كان الحال فى عهد الرسول ، ولكن لما تولى الامر عمر بن الخطاب ، رأى أن تسوية المسلمين جميعا بعضهم ببعض اجحاف بالسابقين فى الاسلام ، والمجاهدين فى سبيل الله ، فقام يخطب الناس ، ليوضح لهم سياسته المالية الجديدة ، قال :

(والله ما أحد أحق بهذا المال من احد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله فى هذا المال نصيب ، الا عبدا مملوكا . ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الاسلام، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وعناؤه فى الاسلام ، والرجل وصاحبه ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه »

احصاء الممالك ، وتدوين الدواوين :

وضع عمر فى هذه الخطبة سياسته المالـــية ، وغب انتصارات المسلمين فى فتوحات الشمال ، تدفق المال على المدينة تدفقا عظيما • ولم يكن هناك أماكن يحفظ فيها ، فكان يوضع فى المسجد ، ويقام عليه الحراس . وقدم ابو هريرة عليه من البحرين ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة الف درهم . فقال عمر : أتدرى ما تقول ؟ قال : نعم ، مئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة ألف درهم • ومئة ألف درهم • فقال عمر : أطيب هو ؟ قال : لا أدرى • فصعد عمر المنبر ، فحمــد الله ، وأثنى عليه • ثم قال : أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير : فان شئتم كلنا كيلا وان شئتم أن نعد عدا ،فأشار بعض المسلمين ، الذين جابوا بلاد الفرس والروم عليه ، أن يدون الدواوين ، أى يكتب قوائم بأسماء النـــاس ، يوضح أمام كل اســـم رزقه الشـــهرى • قال : دونوا الدواوين • ولتنفيذ ذلك أمر عمر باحصاء جميع القبائل العربية ، فأحصيت ، ووضعت السجلات فى صـــناديق كبيرة • وقد بدأ عمر بالاقرب فالاقرب للنبى ، ثم فرض لاهل بدر ، ومن بعدهم لاهل الحديبية وبيعة الرضوان ، ثم لمن بعدهم ، ولاهل القادسية واليرموك ، وكذلك خص نساء النبى بعطاء كبير ، فأعطى أزواج النبى وعمه العباس ١٠٫٠٠٠ درهم الا عائشة فقد أعطاهــا ١٢٫٠٠٠ درهم ، لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول ، وقد فرض ٥٠٠٠ درهم للحسن والحسين ولمن شهد بدرا ، وفرض ٤٠٠٠ درهــم لمن كان اسلامهم كاسلام أهل بدر ولــم يشـــــهدوها ، و ٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبنــاء المهــــاجرين

والانصار ، ولاهل مكة ۸۰۰ درهم ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ۳۰۰ و ٤۰۰ درهم ، ولنساء المهاجرين والانصار مبالغ تتراوح بين ۲۰۰ و ۳۰۰ و ٤۰۰ و ٦۰۰ درهم ، وكان يعطى امراء الجيوش ۷۰۰۰ و ۸۰۰۰ و ۹۰۰۰ درهم بحسب الاعمال التى يقومون بها ، ونفذ هذا النظام فى الامصار

ولقد خطب عمر عقب توليته فى الناس ، خطبة طويلة جاء فيها ، فيما يختص بالمال : « لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى ، الا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ، ان شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم على الا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجمركم (أحبسكم) فى ثغوركم • أماكن المخالفة بين المسلمين وأعدائهم) ، واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم »

معارضة عمر فى تقسيم الاراضى :

استمرت الاشتراكية الاسلامية مزدهرة فى عهد عمر ، فكان يعطى كلا نصيبه المعلوم من المال الذى يتدفق على المدينة . ولما تم فتح العراق ، أشار عليه عبدالرحمن ابن عوف أن يقسم أرضها بين المسلمين ، فعارض على ابن أبى طالب وطلحة وآخرون فى ذلك • كان عمر يميل الى عدم تقسيم هذه الاراضى ، واشتد الاخذ والرد بين عمر وبين مؤيدى التقسيم ، فقال الذين يريدون تقسيم الاراضى : ان عمر يظلمنا حقوقنا . فما كان من عمر الا أن جمع خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج ، وقال لهم :

- انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى ، فيما حملت من اموركم ، وأنا واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى . لست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى معه ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله ان كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد الا الحق

لقد سمعتم كلام هؤلاء القوم ، الذين زعموا أنى اظلمهم حقوقهم ، وانى أعوذ بالله أن أركب ظلما ، لئن كنت ظالمتهم شيئا هولهم ، وأعطيتهم غيره ، لقد شقيت. لكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا بين أهله ، وأخرجت الخمس ، فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها ، المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ، لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لابد من أن تشحن بالجيش وادرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج ؟

درس المحكمون العشرة القضية ، فرأوا أن الحجج التى ساقها عمر حجج دامغة ، فهو ينظر الى الامبراطورية الاسلامية جميعها كشىء واحد ، ويعمل بما فيه مصلحتها، فاقر المحكمون رأيه ، وخالفوا المشيرين بالقسمة ، فأوفد عمر عثمان بن حنيف لمسح الاراضى ، وتقدير خراجها . ولقد تدفق خراج هذه الاراضى على المدينة ، وقسم على المسلمين . ولقد بلغ خراج الكوفة فى عام واحد مليونا من الدراهم ، وقسمت فيما قسم على المسلمين . فلو كان عمر قد اقر المطالبين بتوزيع الاراضى ، ألم تكن هذه الاموال جميعها قد ضاعت على المسلمين ؟

ميزانية الدولة الاسلامية :

الايرادات :

كانت جميع الاموال التى يحصل عليها المسلمون ترسل الى بيت مال المسلمين ، وكانت النفقات تدفع من بيت المال ، فكان بيت المال بمثابة وزارة المالية فى الدولة الحديثة ..

وكانت موارد بيت المال هى : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة ، والعشور ، وسنذكر نبذة عن كل منها :

الخراج :

هو : مقدار معين من المال ، أو الحاصلات ، يفرض على الارض التى صولح عليها المشركون ، ويؤخذ على الارض التى فتحها المسلمون عنوة ، أو الارض التى افاء الله بها على المسلمين ، أى التى استحوذوا عليها دون قتال ، فملكوها وصالوا أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم ، يؤدونه لبيت مال المسلمين .

وهناك بعض انواع من الارض لا يؤخذ عنها خراج ، بل يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها ومحصولاتها ، وهذه تسمى الارض العشرية ومن الارض التى لا يؤخذ عنها خراج : الارض التى اسلم اهلها وهم عليها دون حرب فهذه كانت تترك لهم ، على ان يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، ولا يجوز بعد ذلك ، ان يوضع عليها خراج

وقد قال الماوردى فى كتاب الاحكام السلطانية : « الارضون كلها تقسم أربعة اقسام ; احدها ، ما استأنف

المسلمون احياءه ، فهو ارض عشر ، لايجوز ان يوضع عليها خراج ، والقسم الثانى ما أسلم عليه أربابه ، فهم احق به ، فيكون على مذهب الشافعى أرض عشر ، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج ، والقسم الثالث ما ملك عن المشركين عنوة وقهرا ، فيكون على مذهب الشافعى رحمه الله ، غنيمة تقسم بين الفاتحين ، فيملكونها ويدفعون العشر من غلتها ، وحينئذ تكون ارض عشر ، لايوضع عليها خراج ، والقسم الرابع ما صولح عليه المشركون من أرضهم ، فهى الارض المختصة بوضع الخراج عليها »

وكان الخراج مقدارا من مال أو غلة ، فقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الارض ، قليلا كان او كثيرا ، وقد اخذ عمر ١٤ درهما عن الفدان المنزرع قمحا

جباية الخراج :

كان الخلفاء يعينون عمالا للقيام بجبـــاية الخراج ، فيدفعون منه أرزاق الجند ، وما تحتاج اليه المصالح العامة فى القطر المتحصل منه المال ، ويرسلون الباقى الى بيت المال ، ليصرف فيما خصص له

قانون من أين لك هذا :

لم يترك للولاة الحبل على الغارب ، ولم يترك لهم حرية التصرف فى ولاياتهم ، بل كان يرسم لهم السياسة التى ينتجونها ، وكان يأمرهم بتوزيع الاعطيات على جميع المسلمين فى ولاياتهم ، سواء أكانوا ممن خرج من جزيرة العرب ، أم ممن اسلم ، كل بحسب ما هو مدون له .

وكان عمر يكتب أموال عماله اذا ولاهم ، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك . وحدث ذلك مع سعد بن أبى وقاص لما ولاه الكوفة ، فانه قاسمه ماله ، وحدث مثله مع عمرو بن

العاص والى مصر ، فانه كتب اليـــه : « انه فشت لك فاشـــية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ، ولم يكـــن حين وليت مصر » فكتب اليه عمرو : « أن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلا عما تحتاج اليه نفقتنا» . فكتب اليه عمر : « اني قد خبرت من عمال السوء ماكفى، وكتابك الى كتاب من أقلقه الاخذ بالحق ، وقد سئت بك ظنا ، وقد وجهت اليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأطلعه طلعه ، وأخرج اليه ما يطلبك ، وأعفه من الغلظة عليك ، فانه برح الخفاء » ، فقاسمه ماله

وربما أخذه منهـــم ، وضـــمه جميعه الى بيت مال المسلمين . ولقد حدث ذلك مع أبى هريرة لما ولاه على البحرين ..

وكانت تصرف من خراج أرض الامصار ، أعطية الجند وسائر الكلف ، فكان خراج مصر يصرف فى مصر ، وخراج الشام فى الشام ، والكوفة فى الكوفة ، وهكذا . ويحمـل ما يفضل الى بيت المال

٢ ـ الجزية :

مبلغ معين من المال ، توضع على الرءوس ، وتســـقط بالاسلام . وقد قال الله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

فرضت الجزية على الذميين ، ولا غبن عليهم فى ذلك ، فقد فرضت الزكاة على المسلمين ، وبذلك تكافأ الفريقان اللذان يعيشان فى دولة واحدة . ويقول الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية عن الجزية : « واســـمها مشتق من

الجزاء ، فيجب على أولى الامر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ، ليقروا بها فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها بحقين : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحمـايـة محروسين . وقد كانت المبالغ الآتية تؤخذ من الذميـين ، وقد روعى فيها قدر كل منهم :

١ ـ أغنياء ، ويؤخذ منهم ٤٥ درهما

٢ ـ متوسطو الحال ، ويؤخذ منهم ٢٤ درهما

٣ ـ فقراء يتكسبون ، ويؤخذ منهم ١٢ درهما

٤ ـ ولا تؤخذ جزية من مسكين فمن يتصدق عليـه ، ولا ممن لاقدرة له على العمل ، ولا من الاعمى أو المقعد او المجنون ، ونحوهم من ذوى العاهات . ولا تجوز الجزية الا على الرجال الاحوار العقلاء ، ولا تجب على امراة او صبى ..

من هذا يتضح أن الخراج على الارض ، ولا يسـقط بالاسلام ، أما الجزية فعلى الرءوس ، وتسقط بالاسلام

٣ ـ الزكاة :

فرض الله الزكاة على المسلمين لتعطى للفقراء ، فقـال فى كتابه العزيز : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) . وقد فرضت الزكاة على الذهب والفضة ، فعلى كل مسلم أن يخرج ٢٫٥٪ مما يملك زيادة على النصـاب ونصاب الذهب عشرون مثقالا ، وهذا حوالى ١٢ جنيهـا بالعملة المصرية ، ونصاب الفضة مائتا درهم ، وهـذا حوالى ٦ جنيهـات مصرية . وفرضت زكاة على الابل بشروط ، وعلى عروض التجارة بشروط ، وعلى الزرع والثمر بشروط . ولا مجال لذكر ذلك هنا ، أما أوجـه صرف الزكاة ، فسنذكرها عند الكلام على المصروفات

٤ ـ الفيء :

هو مال وصل الى المسلمين من المشركين عنوة بلا قتال ، وقد نص الله تعالى على طريقة تقسيمه فى هذه الآية : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل) . وكان الرسول يأخذ خمس الفيء ، يقسمه على ذوى قرباه ، وأهل بيته ، والمسلمين ، وتقسم أربعة أخماس الفيء الباقية على الجند ، الى ان دون عمر الدواوين ، وحدد لكل عطاءه

٥ ـ الغنيمة :

عقب انتهاء غزوة بدر ، بدأ المسلمون يتساءلون عن الغنيمة لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : « نحن جمعناها فهى لنا » . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : « نحن والله أحق ، فلولانا لما أصبتموها » . وقال الذين كانوا يحرسون النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم ولا هم أحق منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ، ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه ما يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله كرة العدو ، فقمنا دونه » ، فأمر النبى الناس برد كل ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر أن تحمل الى أن يرى فيها رايا ، او يقضى فيها الله بقضائه ، فنزلت الاية: (وأعملوا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه)

قال الشافعى فى الغنيمة « كل ما حصل من الغنائم من اهل دار الحرب ، من شيء قل او كثر ، من ارض أو متاع أو غير ذلك ، قسم ، الا الرجال البالغين فان الامام مخير أن يمن ، أو يقتل ، أو يسبى

٦ ــ العشور :

قال صاحب صبح الاعشى : « المقرر فى الشرع أخذ العشر من بضائع تجار الكفار ، التى يقدمون بها من دار الحرب الى دار السلام ، اذا شرط ذلك عليهم » ، فكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر ، الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد اخرى ، وهذا النظام هو المعروف الآن بالضرائب الجمركية

المصروفات :

١ ــ كانت أعطيات الجند فى عهد النبى غير محدودة ، فكانوا يأخذون نصيبهم من أربعة اخماس الغنيمة ، الى أن ولى عمر ، فدون الدواوين ، وحدد لكل اعطيته كما رأينا سابقا

٢ ــ وكانت الزكاة تصرف على الفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، وذلك بحسب نص الآية : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم) . وقدسبق أن بينا أوجه صرف الفىء عند الكلام عن الفىء

٣ ــ وكانت الغنيمة توزع على الجيش المحارب ، بعد اخراج الخمس للنبى ، وقد فاضل صلى الله عليه وسلم بين الفارس والراجل ، فأعطى الفارس سهمين ، واعطى الراجل سهما واحدا . وقد قال الله تعالى فيما يختص بالغنيمة : (واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل)

٤ ـ وكان يدفع لكل مولود فى الاسلام مبلغ من المـال من بيت مال المسلمين ، كما سيرد بعد حين

٥ ـ وكان يصرف من بيت المال على مثـــل رى الترع وحفرها للزراعة ، وكانت نفقات المساجين ، والمرضى من الذميين ، وأسرى المشركين : من مأكل ، ومشرب ،وملبس، ودفن من يموت منهم : من بيت مال المسلمين

٦ ـ وكانت المعدات الحربيـــة ونحوها تدفع من بيت مال المسلمـــين

٧ ـ واعطيات المؤدبين والمدرسين والعلماء كانت تدفـع من بيت مال المسلمين.

هذه صورة مصغرة لابواب ميزانية الدولة الاسلامية ، وهى لا تختلف كثيرا عن ميزانيات الدول فى القرن العشرين

المسنون ، والمواليد ، والمرضى المتبطلون :

رأى عمر شيخا ضريرا يسأل على باب ، فلما علم انه يهودى قال له : ما ألجأك الى ما أرى ؟ »

ـ أسأل للجزية والحاجة والسن

فأخذ عمر بيده ، وذهب به الى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأسل الى خازن بيت المـال يقول :

ـ أنظر هذا وضرباءه ، فوالله ما انصفناه أن أكلنـــا شبيبته ، ثم نخزه عند الهرم ، (انما الصدقات للفقراء والمساكين) ، وهذا من مساكين أهل الكتاب

ووضع عمر عنه الجزية ، وعن ضربائه

لم يشأ عمر ان يأكله شابا ، ثم يخزه اذا كبر ، مع علمه انه يهودى لايدين بدينه ، فماذا عمل عمر المسلمين الذى قعدت بهم السن ؟ انه لاشك أجرى عليهم ما يكفيهـــم من بيت المـــال

لم يكتف عمر بحماية المسنين، بل فرض لكل مولود مئة

درهم من بيت المــال ، ولذلك قصة لا بأس من سردها :
سمــع عمر بكاء صبى ، فتوجه نحوه ، فقال لامه :
ــ اتقى الله ، واحسنى الى صبيك
ثم عاد الى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد الى أم الصبى . فقال لها مثل ما قال أولا ، ثم عاد الى مكانه ، فلما كان اخر الليل سمع بكاءه ، فأتى أمه فقال لها :
ــ ويحك ، انى أراك أم سوء .. مالى أرى ابنك لايقر منذ الليلة ؟ ..
ــ ياعبد الله ، قد ابرمتنى منذ الليلة ، انى أريغه عن الطعام ، فيــــأبى
ــ ولم ؟
ــ لان عمر لا يفرض الا للفطم
ــ وكم له ؟
ــ كذا وكذا شهرا
ــ ويحك تعجلينه
ثم صلى الفجر ، فلما سلم قال : « يا بؤسا لعمر ، كم قتل من اولاد المسلمين » ثم أمر مناديا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام
ولمــا سافر عمر الى دمشق ، مر فى الارض بقوم مجذمين من النصارى ، فأمر ان يعطوا من الصدقات ، وان يجرى عليهم القوت

مشروع بيفردج ليس بجديد على الاسلام :

وسعت اشتراكية عمر المتعطلين ، كما وسعت المسنين ، وفرض للاولاد من بيت مال المسلمين ، كماأمربعلاج المرضى، واجرى القوت عليهم ، ورصد الارزاق على معلمين يربون الصغار . وهذه اشتراكية عمر ، ثانى الخلفاء الراشدين، قامت بما لم تقم به أرقى الدول فى القرن العشرين

لقد حاولت انجلترا ، وهي أرقى دولة فى الخـــدمات الاجتماعية ، أن ترفه عن الفقراء بها ، فعجزت عن أن تصل الى ما وصل اليه الاسلام فى عهد عمر

الم يقدم السير بيفردج مشروعا الى البرلمان الانجليزى اهتزت له اسلاك البرق فى انحاء المعمورة ، لما احتواه من ترفيه عن الفقراء وتأمين اجتماعى لجميع الرعايا البريطانيين؟ ان الناظر الى الجدول الاول من مشروع التأمين الاجتماعى فى تقرير « بيفردج » ، يجده قد اشتمـــل على مايعطى للمتبطلين والمسنين والارامل ، وما يعطى فى حالة الولادة والدفن والعلاج الطبى . ان هذا جميعه عالجه عمر ، وفرض له من بيت مال المسلمين

***

لما مزق المسلمون ملك كسرى ، حملوا نفائســه الى المدينــة ، وقال عبد الله بن الارقم لعمر : اجعلها فى بيت المـال ، حتى نقسمها

فقال عمر : والله لا يظلها سقف بيت دون السماء

فطرحت بين صفتى المسجد ، صفة النساء ، وصفــة الرجال ، وطرحت عليها الانطاع ، وباتوا عليها يحرسونها ، فلما أصبح ، كشف عمر عنها ، فرأى الذهب والفضة ، فبكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

ــ ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ان هذا اليــوم ليوم شكر ، ويوم فرح وسرور

فقال عمر : لا والله ، مافتح الله على قوم هذا قط ، الا جعل بأسهم بينهم ، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء

وقام عمر وقسم الغنائم بين المسلمين ، ولقد كان عمـر صادق الفراسة عندما قال مقالته ، فان هذا المال المتدفق أوغر صدور المسلمين بعضهم على بعض ، وابتدأت العداوة والبغضاء فى عهد خلفه عثمان بن عفان

ولقد قال عمر فى أخريات أيامه : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء ، فقسمتها على الفقراء » ، ولكن عمر قتل قبل أن ينفذ هذا ، ومات عمر واشتراكية الاسلام فى أوج مجدها وعظمتها ..

اشتراكية الاسلام بعد عمر :

تولى أمر المسلمين بعد عمر عثمان بن عفان ، وكان ورعا تقيا ، ولكن لم يكن له حزم عمر ، وكان به لين لبنى أمية عشيرته ، فأعطى خيبر لمروان بن الحكم ، وكان النبى قد ترك خيبر فيئا للمسلمين ، وظلت كذلك فى عهد أبى بكر وعمر ، واعطى مروان خمس خراج افريقية كذلك ، وترك لمعاوية خراج الشام فاحتجنه ، ولم يوزعه على المسلمين ، فقام ابو ذر الغفارى صاحب رسول الله ، وكان فى الشام يناوىء «معاوية» وثار فى وجهه ، فكان ابو ذر أول ثائر اشتراكى فى العالم ، وقد سردنا تاريخ حياته فى كتابنا هذا

كانت سياسة عثمان المالية ومحاباته لبنى أمية سبب غضب الناس عليه ، فقتلوه ، وبويع على بن أبى طالب خليفة للمسلمين ، فعاد الى النظام الذى كان متبعا أيام النبى وأبى بكر وعمر ، فقسم الاموال على الناس كافة ، ولكن ناوأه معاوية فى الشام ، وقامت الحروب بين المسلمين ، حتى استتب الامر لمعاوية ، فانقلبت الخلافة الى ملك له جميع مظاهر الملك ، وانقلبت الحال من تقشف وقناعة ، الى عظمة وفخامة ، واقبال على الدنيا ، فصرفت الاموال على مظاهر الملك وأبهته ، وترك المسلمون ، فضعفت اشتراكية الاسلام فى دولة بنى أمية ، الى أن ولى الحكم عمر بن عبد العزيز ، فأعاد اليها عظمتها ، ورد حقوق المسلمين التى اغتصبها أسلافه الى أصحابها ، وعادت الحال فى زمانه الى ما كانت عليه أيام جده العظيم ، عمر بن الخطاب

اشتراكية الاسلام فى عهدها الزاهر :

شيع عمر بن عبد العزيز سلفه سليمان الى مقره الاخير، ولما خرج من قبره ، أقبل ركب الخليفة ، فرأى خيلا وبراذين وبغالا مطهمة ، لكل دابة سائس ، فقال :

ــ ما هــذا ؟

ــ مواكب الخلافة ، يركبها الخليفة أول ما يلى

ــ دابتى أوفــق

والتفت الى مزاحم تابعه ، وقال :

ــ يا مزاحم ، ضم هذه الى بيت مال المسلمين

وفعل ذلك بالسرادقات ، والحجر التى نصــبت له ، فضمها الى بيت مال المسلمين ، ولما بلغ منزل الخلافة ، قال أولاد سليمان له :

ــ هــذا لك ، وهذا لنا

ــ وما هــذا ؟ وما هذا ؟

ــ هذا ما لبس الخليفة من الثياب ، ومس من الطيب ، فهو لولده ، وما لم يمس ، فهو للخليفة من بعده ، هو لك

ــ ما هذا لى ، ولا لسليمان ، ولا لكم ، ولكن يا مزاحم ضم هذا كله الى بيت مال المسلمين ..

تلفت عمر حوله ، فألفى نفسه قد ورث عن أبيه ضياعا وأموالا ، وجعل يفكر فى كيفية حصول أبيه وآل بيته على تلك الضياع الواسعة ، فأيقن أن ما جمعه أبوه وآل بيته، لم يكن بالطرق المشروعة ، فعزم على التخلص مما ورثه ، ورده على من أخذ منه ، فقال لمزاحم :

ــ يا مزاحم ، ان هؤلاء القوم قد اعطونا عطايا ، والله ما كان لهم أن يعطونا اياها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وان ذلك قد صار الى ، وليس على فيه دون الله محاسب

ــ يا أمير المؤمنين ، هل تدرى كم ولدك ؟

ـ أكلهم الى الله

وأمر عمر مناديه أن ينادى : الصلاة جامعة ، ثم خرج الى المسجد والناس مجتمعة ، وقال لهم : ان أهله قد أقطعوه مالم يكن له أن يأخذه ، ولا لهم أن يعطوه ، وأخبرهم انه قد بدأ بنفسه واهل بيته ، فرد ما تحت يده الى بيت مال المسلمين

خرج عمر عما تحت يده من قطائع وضياع ، فحرق سجلاتها ، وبقيت مزرعتا خيبر والسويداء ، ولما علم ان خيبر كانت فيئا للمسلمين أيام النبى ، حرق سجلاتها ، واعادها فيئا كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابقى مزرعة السويداء اذ كان قد استنبطها بعطائه

ابتدأ عمر عهده باحراق سجلات الضياع التى اغتصبت من المسلمين ، وقطع الجوائز والمرتبات الباهظة ، التى كانت تصرف لبنى أمية فى عهود الخلفاء السابقين ، واجرى عليهم مرتبات تتناسب مع ما يحصل عليه سائر المسلمين

ودخلت عليه عمة له تعاتبه على قطع ما كان يجريه عليها أسلافه من عطايا ، فوجدت بين يديه أقراصا وشيئا من ملح وزيت وهو يتعشى ، فقالت :

ـ يا أمير المؤمنين ، أتيت لحاجة لى ، ثم رأيت أن ابدأ بك قبل حاجتى

ـ وما ذاك يا عمة ؟

ـ لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا ؟

ـ ليس عندى يا عمة ، ولو كان عندى لفعلت

ـ يا أمير المؤمنين : كان عمك عبد الملك يجرى على كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادنى ، ثم كان أخوك سليمان فزادنى ، ثم وليت انت فقطعته عنى

ـ يا عمة : ان عمى عبد الملك ، وأخى الوليد ، وأخى سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك

المال لى فأعطيكه ، ولكنى أعطيك من مالى ان شئت

ـ وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

ـ عطائى مئة دينار ، فهل لك ؟

ـ وما يبلغ منى عطاؤك ؟

ـ فلست أملك غيره يا عمة

لم يخرج عمر بن عبد العزيز المال الا فى حقه ، فكان لا يحابى أهل بيته ، ولا يعطى أقاربه ، ولا يبذر العطايا فى الاتباع والاذناب ، بل كان يبذل كل جهده فى زيادة مال بيت المال ، فزاد تبعا لذلك فى أرزاق الناس ، وازدهرت اشتراكية الاسلام ، ولم يعد فى دولة عمر بن عبد العزيز فقراء ، كما سترى بعد حين

وجاء عنبسة بن سعيد بن العاص يريد ان يكلم عمر فى عطية قدرها عشرون ألف دينار ، كان قد أمر بها سليمان ، ولم تصرف له بعد ، وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فدخل عليه وقال :

ـ يا أمير المؤمنين : ان أمير المؤمنين سليمان كان قد أمر لى بعشرين ألف دينار ، حتى انتهت الى ديوان الختم ، ولم يبق الا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وامير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان

قال عمر : كم ذلك ؟

ـ عشرون ألف دينار

ـ عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله ما لى الى ذلك من سبيل

وقد استاء بنو أمية من عمر بن عبد العزيز ، لانه قطع عنهم مرتباتهم الضخمة ، وقد بلغه أن يزيد بن عبد الملك قال ساخطا : « كانه يظن انى لا اكون من بعده » ، فأرسل عمر الى بنى أمية الواقفين ببابه ينتظرون الاذن ليكلموه فى

أمورهم : « ان عمر يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : أقسم بالله الذى لا اله الا هو ، ما زلت هذه الليلة الماضيةساهرا أناجي الله واستغفره ، حيث أعطيتكموها دون المسلمين، فلا والله ، لا اعطيكم درهما الا أن يأخذ جميع المسلمين ؛ وأما أنت يا يزيد ، فاذا وليت فشأنك بها »

ازداد سخط بني أمية ، وضجوا من الفقر الذىأوصلهم اليه عمر بن عبد العزيز ، فاجتمعوا اليه وقالوا : « انك قد أحييت بيت مال المسلمين ، وافقرت بنى أبيك فيماترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت»

فقال عمر : « ولكنى أرى ذلك ، والله لوددت الا تبقى فى الارض مظلمة الا رددتها ، على شرط ألا أرد مظلمة الا سقط لها عضو من اعضائى ، حتى يكون مع رد آخرمظلمة منها خروج نفسى معها »

لقد كان حكم عمر بن العزيز نقمة على الظـــالمين ، ورحمة على الفقراء والمساكين . ولقد اســــتطاع عمر بن عبد العزيز ان يوفر الخير لكل جائع ، وان يضمن العدل لكل مظلوم ، وكان المال يتدفق على بيت مال المســلمين ، والاموال تجبى للدولة من الامصار فى مختلف بقـــــاع الارض ، حتى امتلأ بيت المال وتضخم .

وكان عمر يستطيع ان يوسع على نفسه وأهله ، دونان يضر بيت المال شيئا ، ولكنه حرم على نفسه أن يتقــاضى درهما واحدا من أموال المسلمين ، بل تنازل كما رأينـــا عن أملاكه ، وضمها الى بيت المال ، لتــوزع على الســائل والمسكين وابن السبيل ، وكان يقتر على نفســـه ليوسع على غيره ، ويقتطع من أهله ليصل أفراد شعبه . كانيحرم الاغنياء ليعطى الفقراء ، لقد أغنى عمر بن عبدالعزيزالناس، حتى لم يعد فى دولته فقراء ، وحتى أصبح الرجليخرج

بزكاته ، ليعطيها الفقراء ، فما يلبث أن يعود بها ، لايجد من يأخذ زكاته ، وفى ذلك يقول يحيى بن سعد :

ـ بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيهم اياها ، فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز ، دخل الذميون فى الاسلام ، فقلت الجزية تبعا لذلك ، فكتب اليه عامل له فى مصر : « ان أهل الذمة قد أسرعوا الى الاسلام ، وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابت عشرين ألف دينار لاتم بها عطاء أهل الديوان » ، وطلب والى مصر الى عمر ، أن يأمر بوقف الذميين عن انتحال الاسلام ، فأجاب عمر : « لقد وليتك أمر مصر ، وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فان الله انما بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا »

وكتب اليه عامله فى العراق عدى بن أرطأة : « ان الناس قد كثروا فى الاسلام حتى خفت أن يقل الخراج » ،فكتب اليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب يدنا »

قل الخراج بدخول الناس فى الاسلام ، ولكن بقيت الزكاة اشتراكية الاسلام الحقة ..

***

هذه صورة اشتراكية الاسلام فى زمن عمر بن عبدالعزيز تكاد تظهره كأسطورة من الاساطير فى زمننا هذا ..

هذه صورة اشتراكية الاسلام زاهية ساطعة ، فهل بلغ مذهب من المذاهب الاقتصادية هذا المبلغ ؟ وهل يطمع

مذهب من المذاهب فى أن يصل الى هذا ، هل يطمع مذهب من المذاهب فى القضاء على الفقر قضاء مبرما ؟ كلا والله ، ان غاية ما يطمع فيه مذهب من المذاهب هو التخفيف بعض الشيء من ويلات الفقر ، لا القضاء على الفقر كما قضت اشتراكية الاسلام فى عهد عمر الزاهر

زيادة الاعطيات ، والغاء السخرة ، وانشاء مطاعم الشعب:

شمل عدل عمر الناس كافة ، فأبطل السخرة ، وزاد الناس أموالا وخيرات ، وأمر عامله فى مصر بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وجعل للفلاحين عشرات الالوف من الدنانير . وقد شمل عطفه المرضى وذوى العاهات ، فأمر باعطائهم ، كما أمر بانشاء مطاعم للفقراء ، واوصى الا يصيب من طعامها الا من طبخ لهم

وقد بلغ عمر ان بعض اولاده اتخذ خاتما ، واشترى له فصا بألف درهم ، فكتب اليه : « اما بعد فقد بلغنى انك اشتريت فصا بألف درهم ، فبعه واشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتما من حديد ، وأكتب عليه : « رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه »

الاشتراكية فى أيام عمر بن عبد العزيز اشتراكية مثالية :

لقد كان عمر بن عبد العزيز مسلما تقيا ، يخشى الله فى سره وعلانيته . فكان يقول لزوجته : « يافاطمة، انى أخاف النار ، يا فاطمة انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم » ، فكان مثال الحاكم المسلم التقى الذى طبق تعاليم الاسلام كما أنزلت ، لا تبديل ولا تحريف ، ولاظلم ولا جور ، بل أحقاق للحق ، ورد المظالم الى أهلها ، وبر بالفقراء والمساكين ، فجاءت حكومته مثلا أعلى للحكومة

الاشتراكية ، التى شرعها الاسلام لسعادة البشر ورفاهيته

اشتراكيـــة الاســـلام المعنوية :

وبجانب هذه الاشتراكية المادية المحببة ، جاء الاســـلام باشتراكية معنوية ، لا تقل عنها عظمة وأثراء فقد كان غرض اشتراكية الاسلام المادية ، ازالة الفروق المالية بين المسلمين، أما هدف اشتراكية الاسلام المعنوية ، فهو ازالة الفـروق الاجتماعية بينهم . شرع الدين الاسلامى الصلاة ، فاشترك المسلمون جميعهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، فى القيام بحركات واحدة ، من قيام وركوع وســـجود ، فأشعرهم انهم جميعا متساوون أمام الله . وشرع صلاة الجماعة ، فاجتمعوا جميعا ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهـم ومحكومهم ، فى مكان واحد ، يقف فقيرهم بجوار غنيهم ، بل قد يتقدم الفقير فيقف فى الصفوف الاولى ، ويتأخـر الغنى فيقف فى الصفوف الاخيرة ، فألف ذلك بين قلوبهم ، وأزال ما بينهم من فوارق اجتماعية ، وأشعرهم جميعـا أنهم سواسية امام الله . وشرع الدين الاسلامى الصوم، فصام المسلمون جميعا ، غنيهم وفقـيرهم ، حاكمهـــم ومحكومهم ، فجاع الاغنياء كما جاع الفقراء ، واحسوا فى صومهم بما يحس به الفقراء فى حياتهم ، فرقت لهم قلوبهم، فأجروا عليهم الصدقات مما رزقهم الله، فساعد هذا البذل على ازالة الفوارق الاجتماعية بين الناس

وشرع الدين الاسلامى الحج ، وأوجب خلع الثيـاب ، فخلع المسلمون جميعهم ثيابهم ، غنيهم وفقيرهم ، حاكمهم ومحكومهم ، ولبسوا جميعهم ثياب الاحرام، فزالت الفوارق بينهم ، واصبحوا جميعا حجاجا متســاوين ، لا تمييز ولا تفضيـــل

كانت الزكاة اشتراكية الاسلام المادية ، وكانت الصلاة والصوم والحج والعمرة من اشتراكية الاســـلام المعنوية

ولقد نجحت اشتراكية الاسلام المادية فى محو الفقر ، والقضاء عليه ، كما نجحت اشتراكية الاسلام المعنوية فى القضاء على الفوارق الاجتماعيـــة ، واحلال المســـاواة بين النـــاس

هذه هى اشتراكية الاسلام الحقة ، فهل يتطال اليها ، او يطمع فى أن يبلغ بعض ما بلغته ، مذهب من المذاهب الاقتصادية ؟ اللهم لا ، فمتى كانت القوانين الوضعيـــة تتسامى الى وحى السماء ؟

فهرس

صفحة

تقديم ٦
مقدمة ٩
بصيص من نور ١٢
انبلاج الفجر ٢٩
زمار الحى لا الطرب ٤٥
اسلام يثرب ٥٠
غفار غفر الله لها ٥٦
الانطلاق الى يثرب ٥٩
أهل الصفة ٦٢
الوصية ٦٦
الى مكة ٧٢
كن أبا ذر ٧٧
أجاب ربا دعاه ٨٧
أبو بكر ١٠٥
قفل الفتنة ١١٣
أبو ذر المحدث ١١٩
الثائر ١٢٣
الاشتراكى ١٢٧
الخروج ١٣٨
البلاء ١٤٧
فى الربذة ١٥٤
الى دار البقاء ١٦٣
الاشتراكية فى الاسلام ١٦٦

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

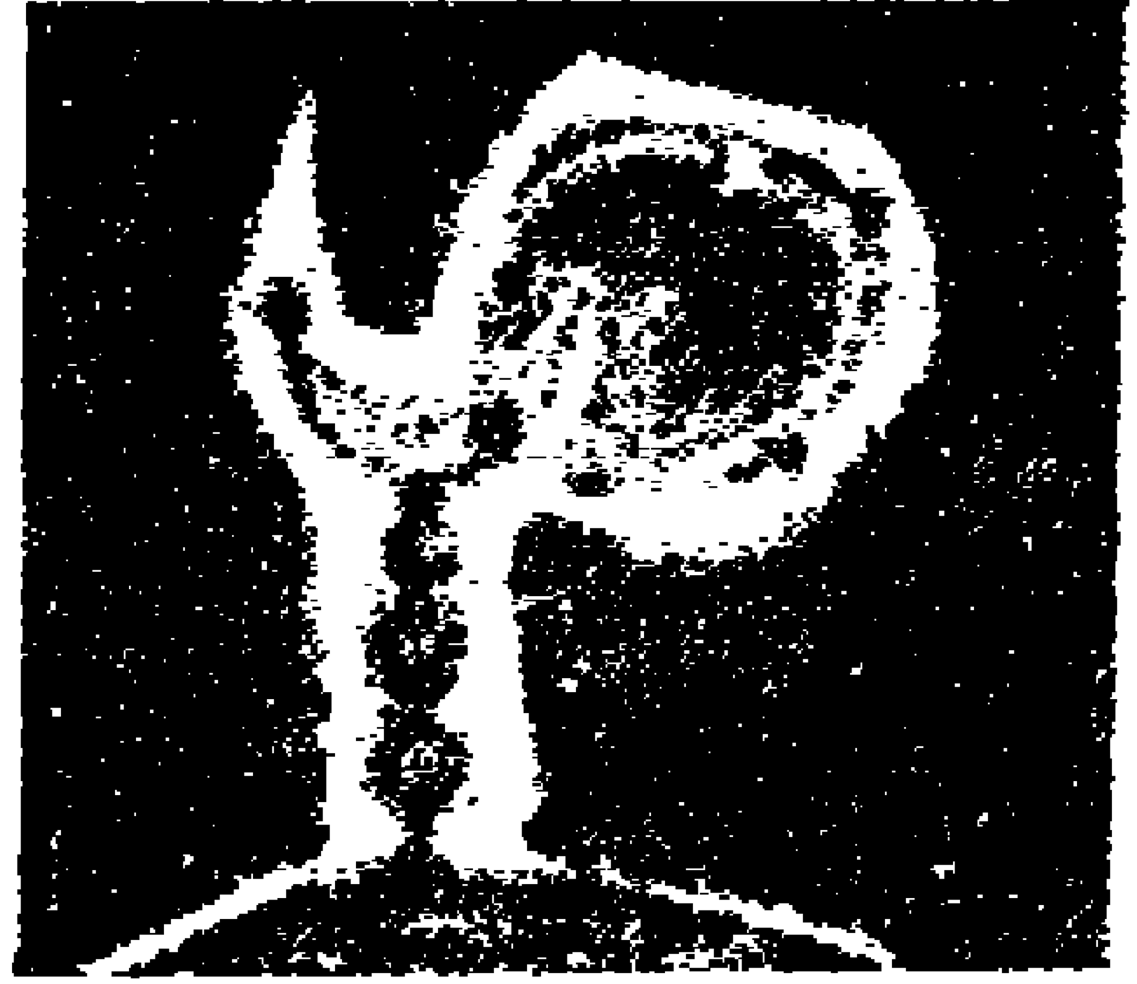
جدة : السيد هاشم بن علي نحاس – ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص.ب ٢١

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao, Paulo, BRAZIL

سنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Semait
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



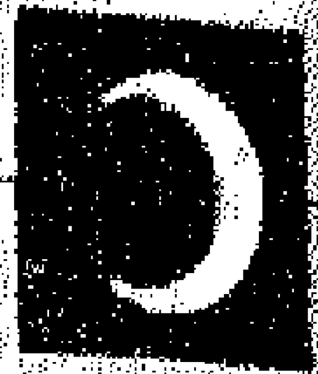
هذا أول كتاب يكتب عن الصحابي الجليل « ابي ذر الغفاري » صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوصى الرسول أبا ذر أن يقول الحق ولو كان مرا وأن لا يخشى في الله لومة لائم ، فلما قبض الرسول وانقضى عهد أبي بكر وعمر وكثرت الاموال في أيام عثمان قام ابو ذر يهاجم كنز الاموال ويبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب أليم

وقد كان أبو ذر أول من هاجم الاغنياء في الاسلام وأول من دعا الى حق الناس في أموال الدولة ، فكان الاشتراكي الاول الذي أراد ان يسوى في الاموال بين الجميع

وان هذا الكتاب يقص قصة هذا الصحابي الجليل في تفصيل وقصة كفاحه في سبيل توزيع الاموال على الناس بالسواء

وفي الكتاب بحث عن الاشتراكية في الاسلام ، وهو اول بحث كتب في اللغة العربية يربط بين الاسلام والاشتراكية ، وقد ظل هذا الكتاب منذ أن كتب حتى الان المرجع الاول للباحثين عن اشتراكية الاسلام .. اما مؤلف الكتاب عبدالحميد جودة فهو أحد كبار كتابنا المعروفين باتجاههم الفني ، وبدراساتهم الاسلامية التي تمتزج فيها الحقائق العلمية بالاحساس الفني الجميل .. والسحار يكتب الان بهذا الاسلوب الفني العلمي تاريخ الاسلام في عشرين جزءا صدر منها جزآن ..

كتاب الهلال



١٧٩

سلسلة
ثقافية
شهرية

دليل المتفرج الذكي إلى المسرح

الفريد فرج

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير : رجاء النقاش

العدد ١٧٩ شوال ١٣٨٥ – فبراير ١٩٦٦

No. 179 — Février 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم – فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

دليل المتفرج الذكي إلى المسرح

•

ألفريد فرج

•

دار الهلال

تقديم

الكتابة عن فن المسرح أمر عسير بحق . فان هذا الفن في بلادنا يزدهر عملا ، بينما الابحاث النظرية والعلمية قليلة جدا في السوق . ولا شك أن مثل هذه الابحاث هى العمد الاساسية التى تقوم عليها أية منصة للمسرح ..والا أفلست وتقوضت ، كما حدث فى تاريخنا الفنى الحديث أكثر من مرة ..

أستطيع أن أقول أن فن المسرح فى بلادنا بجهود فنانين حقيقيين نابغين قد ارتفع أكثر من مرة فى عشرات السنين الماضية الى قمم باهرة .. ولكنه فى كل مرة لم يكن يملك القوة على الاستمرار والنمو ، لانه رغم القيم الفنية العالية التى رفعته لم تكن تحوطه أو تحتضنه ثقافة مسرحية شعبية مناسبة ، تغذيه بالجمهور وتوجهه وتقوده الى العبقرية والخلود ..

والان .. يصعب على الباحث أن يحدد من أين يبدأ ، أو كيف يختار من بين الثقافات المسرحية الثرية ما يهم جمهورنا وما يناسبه . .

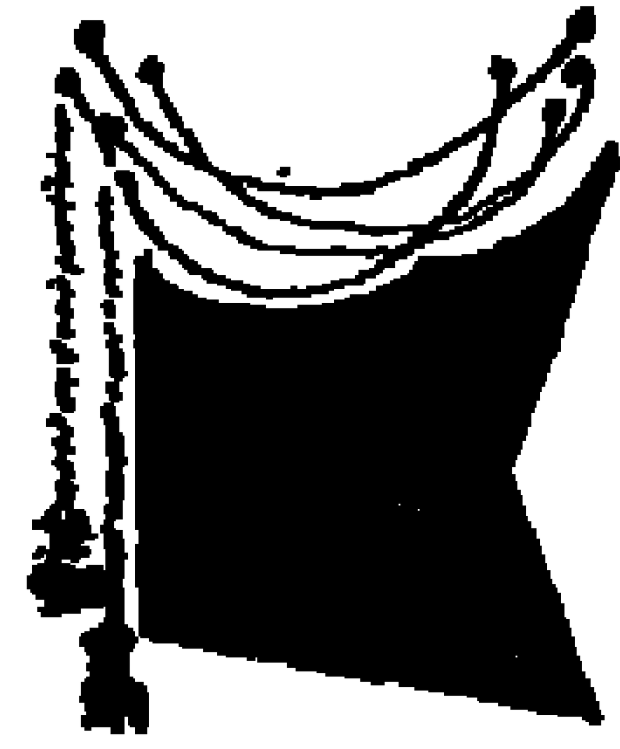
الا اننى مع ذلك لا أملك دفع هذا الحافز الذي يدفعنى ـ رغما عنى ـ للتعبير عن خواطر وخبرات وآراء مختلفة حصلتها من مكتبتى ، ومن كتاباتى للمسرح ، ومن متابعتى المتحمسة لقضايا ومشاكل الفنانين فوق المنصة

انني سأحاول هنا تبسيط الامور قدر الطاقة . فليس أحب الى قلبى أن يكون قراء هذا الكتاب من بين أفراد الجمهور العاديين الذين لا تشغل هـــذه القضايا من اهتمامهم الا قدرا ضئيلا

انني أحب أن يكون كتابى هذا فى متنــاول جمهور المسرح ، ليحب من خلاله فن المسرح ..

كما أتمنى فى نفس الوقت أن يضيف هذا الـكتيب الصغير الى خبرة المتفرج بحيث يستطيع أن يتلقى من فوق المنصة متعة روحية أكبر ..

المؤلف



ما هو فن المسرح ؟

ان هذا الفن يتألف بالطبع من عناصر مادية ظاهرة ..؛ فالداخل الى المسرح ، يجلس فى الصالة ، يواجهه ستار يحجب عنه ما يعده الفنانون لمتعته تلك الليلة ..؛

وهو جالس فى مقعده ، قبل العرض ، يفكر بالضرورة فى ان ما سيعرض عليه الان ما هو الا تمثيلية كتبها المؤلف الفلانى ، ويؤدى ادوارها ممثلون معروفون له ؛ اى انه يعرف سلفا ان ما سيجرى على المنصة امامه ليس هو الحقيقة . ان القتيل الذى سيطلق عليه النار فى الفصل الثالث لن يموت ، وان الزوجة التى ستخون زوجها لن تسبب له فى الحقيقة اى ألم ، لانها لن تخونه بالفعل .. بل ان الزوج ليس زوجها اصلا ، وان الدموع التى ستنهمر أمامه دموع غير حقيقية ، والالام التى سيكون هو شاهد العيان لها ليست آلاما على الاطلاق ..

ان الامر كله يبدو كلعبة قليلة التسلية ..

ولكن ما هذا السر العجيب الذى يجعل المتفرج نفسه ، وهو عارف بسر اللعبة المزيفة ، ينفعل بهذه السخونة ، ما الذى يجعل النساء يذرفن الدموع الحقيقية شفقة على البطلة ، وهن يعلمن بالتأكيد أن دموع البطلة دموع كاذبة ..

السبب يكمن فى ارادة التقمص . ان المحاكاة مظهر

من مظاهر هذه الارادة • وسواء أكانت المحاكاة مظهرا طفليا أو غريزيا ، فان الجهد الذى تبذله الممثلة لتتقمص دور الزوجة الخائنة يوازيه جهد من نفس النوع تبذله المتفرجة لتتقمص دور شاهدة العيان للخيانة الزوجية ••

ان الجهد الذى تبذله الممثلة لايهام الجمهور انهم يشهدون وقائع حقيقية يقابله ويوازيه جهد يبذله المتفرجون لايهام انفسهم بنفس الشيء

ان المتفرج فى المسرح ليس شخصا سلبيا باردا يستقبل ما يعرض عليه وهو هامد •• وانما هو شخص من نفس الجنس الذى ينتمى له الممثل والمؤلف ، من نفس الجنس النزاع الى افتراض المواقف المؤثرة ، ثم التأثر بها •• النزاع الى سماع ورواية الحواديت وتقمص شخصيات ابطالها ، واضمار الجزع على مصائر الفاضلين منهم واضمار السخط على الشريرين •• النزاع الى مشاركة المحزونين مشاركة وجدانية « حقيقية » •• وهو عارف تماما وقادر تماما على التمييز بين الافتراض والواقع ، والقص والحقيقة

ـ انه من نفس هذا الجنس النزاع الى « الكذب الفاضل» ـ الفن ـ والتأثر به •• بل الى الاتفاق الجماعى على هذا النوع من الكذب ، والتأثر به تأثرا جماعيا ••

ان عمل الممثل هو ان يوهمك بأن ما يجرى أمامك حقيقى • وعمل المتفرج هو ان يوهم نفسه بأن ما يجرى أمامه حقيقى • وكلا العملين لذيذ ممتع ، ويصبح أمتع والذ كلما كان الايهام محبوكا ، وكلما كان موضوع الايهام مما يشغل خواطر الناس بعنف ، ومما يؤثر فيهم بحق

ومن هذه الحقيقة يسعنا ان نفهم السبب الذى يجعل من المتفرج مشبوب العواطف ، الواعى بالحياة وظروف

المجتمع من حوله نوعا ممتازا من المتفرجين • انــه نفس السبب الذى يجعل الممثل او المخرج او المؤلف مشبوب العواطف ، الواعي بالحياة وظروف المجتمع من حوله نوعا ممتازا من الفنانين ••

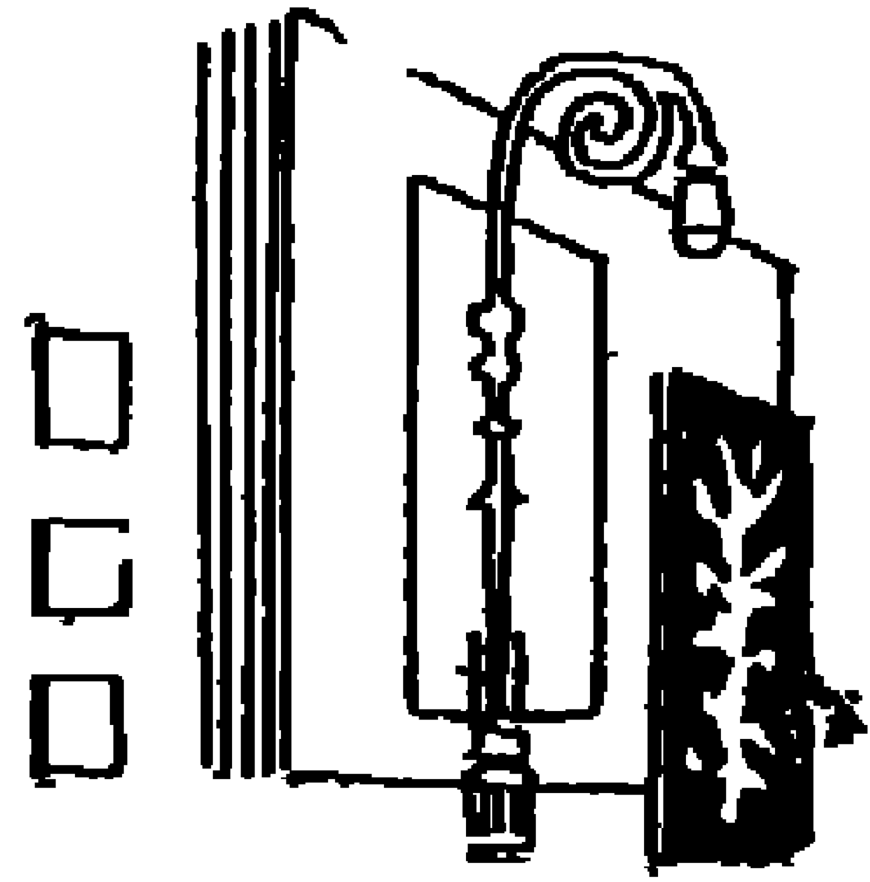
هو نفس السبب الذى يجعل من المسرحية المعنيـــة بالظروف الاجتماعية الجادة الحية ، الواعية بها ، المتعقلة لها ، أكثر تأثيرا فى الجمهور الواسع •• لان الافتراض فيها قريب التناول للجمهور العريض ، لان ثمة ايضا ما يحفز كل رجل وكل امرأة فى الصالة على مشاركة الفنانين هذا الافتراض ، والتجاوب معه ، والاندماج فيه • هذه دائما مسرحية أصلح من المسرحية التى يصعب أن تثير فى المتفرج العادى حافز التوهم ، ويصعب أن تحفـــزه على افتراض امكان حدوث وقائعها •• أو تثـــير لهفته على مشاركة أبطالها مصائرهم ••

ولذا فان التدريب والتربية الفنية والاجتماعيـــة والثقافية لازمة للفنان ، ولازمة للمتفرج سواء بسواء ••

ان الجمهور هو ايضا من العناصر المادية الظاهرة فى فن المسرح ، كسائر المكونات المادية لهذا الفن • وتدريب وتربية هذا الجمهور لازم كتربية وتدريب سائر الفنانين

ان الجمهور عنصر ايجابى فى فن المسرح •• ولا يمكن تصور العمل الفنى المسرحى بلا جمهـــور •• بالضبط كما لا يمكن تصور مثلث بلا أضلاع ثلاثة

ان الجمهور ضلع من اضلاع هذا المثلث ••



وظيفة الديكور

عندما تدق دقات المسرح ، وتنفرج الستار ، يشهد الجمهور على الفور الديكور والاكسسوار والممثلين ..

فاذا كانت حوادث المسرحية تجرى في صالون قصر ارستقراطي فالاغلب ان يصور الديكور حوائط ومنافذ هذا الصالون ، وان يكون الاثاث واللوحات المعلقة على الحوائط والثريات والسجاد وسائر ادوات الاكسسوار مصورة لهذه البيئة التى اختارها المؤلف لتجرى فيها حوادث المسرحية ..

ان فائدة الديكور والاكسسوار أولا .. هى ابلاغ المتفرج ان الحوادث التى سيشهدها تجرى فى بيت معين، في بيئة معينة ..

وقد شهد فن المسرح فى عصور مختلفة فنانين للديكور يتصفون بالمبالغة والتدقيق الشديد فى مطابقة فنهم للواقع .. فهم شديدو الكلف بزينة الحوائط وبأنواع السجاد وانواع اللوحات المعلقة .. شديدو التدقيق فى مطابقة الملابس والزينات لظروف العصر الذى تجرى فيه احداث المسرحية ، وكأنهم يلحون بشدة على المتفرج ليقتنع بأن ما يشهده بيئة حقيقية ستجرى فيها حوادث حقيقية .. !

حقا ان مطابقة الديكور للواقع تعين المتفرج فى جهده لتمثل احداث المسرحية •• تعينه فى جهده لاقنـــاع نفسه بأن ما يجرى أمامه حقيقى •• ولـــكن المتفرج وهو يبذل هذا الجهد لا ينخدع ابدا الى الحد الذى ينسى فيه انه دفع ثمن التذكرة ، وانه جالس هنا ليتفرج على تمثيل فى تمثيل •• ان وظيفة فنان الديكور هى أن يدل المتفرج ـ ليس الا ـ على المكان والزمان المفترضين ، ان يدله على ان هذه الاحداث التى يشهدها تجرى فى مكان معين فى عصر معين • ان مهمته الحقيقية لا تتعدى هذه الاشـارة البسيطة الواضحة ، ولا يمكن ان تكون مهمته أبدا المبالغة بقصد خداع المتفرج عن زمانه ذلك المساء ، وعن مكانه فى صالة المسرح •• !

بل ان المبالغة والافراط فى تزيين الحوائط وتراكم التفصيلات وقطع الاثاث فوق المنصة يؤدى اثرا غـــير مرغوب فيه ، فانه يسرق عين المتفرج ويصرفهـــــا عن الممثلين ، والممثلون هم العنصر الاساسى فوق المنصـــــة ، العنصر الذى لا ينبغى ان ينشغل عنه المتفرج لحظــــــة واحدة •• فهم حملة النص المسرحى •• هم حملة الافكار والعواطف والمواقف التى تكون العمل المسرحى ••

حدث فى احد مسارح لندن الكبرى ان بالغ المخـرج ومصمم الملابس فى تأكيد أثر من اثار بيئـــة مسرحيـــة عظيمة هى « مرتفعات وذرنج » فوضعوا نتفا من القطن على اكتاف البطل « هيتكليف » وهو داخل بيت حبيبته من جو عاصف فى الخارج ، فى مشهد من المشاهدالمحورية فى المسرحية • وتوجه البطل فور دخوله المنصـــــة الى المدفأة مادا يديه ليصطلى بينما هرولت اليه الحبيبـــــة لتشاركه مشهدا من اعنف المشاهد واعظمها تأثيرا •

وفى هذا المشهد لاحظ المخرج ان الجمهور قداستيقظ من حلمه فجأة ! وتمايلت الرؤوس على الرؤوس ، ودار الهمس الخافت والاشارات المستحيية :

ـ الثلج لم يذب ·· !

ان انصراف الجمهور عن مشهد كهذا كفيل ببث الرعب فى قلوب الفنانين · ولذا فقد سارع المخرج ليتلافى هذا الخطر ·· ليحقق تركز انتباه الجمهور والاستحواذ على عواطفهم والبابهم للمشهد الرائع ، فاستبدل بالقطن فى الليلة التالية مادة كيماوية بيضاء سريعة الذوبان ينثرها البطل على كتفيه قبل دخوله المنصة فسرعان ما تذوب وتختفى ··

ولكن خاب امل المخرج وصدم تماما ، حين لاحظ فى الليلة التالية انصراف الجمهور تماما عن المشهد وارتفاع نبرة الهمس المشدوه

ـ هذا ثلج حقيقى · ياللبراعة !

وآخرون يجادلون فى ذلك ··

حينئذ اكتشف المخرج بخبرته وتجربته انه لا لزوم اطلاقاً لهذه التفاصيل المتحذلقة · ما لزوم الثلج أو القطن ، والممثل نفسه قدير على التعبير عن المعنى كله برجفة خفيفة ولهفة طبيعية على بلوغ المدفأة ؟

ان هذا المثل يمكن أن ينسحب على سائر المكونات المادية التفصيلية للمكان والزمان فوق منصة المسرح ··

ما حاجتنا للتدقيق فى تصوير الديكور ·· وجمع قطع الاثاث وثقل الملابس ، ما حاجتنا للافراط فى تزيين كل شىء ، ما حاجتنا للهفة على ان تطابق هذه الاشياء الواقع ·· اذا كان المتفرج لا ينسى لحظة واحدة أن الساعة العاشرة مساء ، وانه موجود فى صالة دار الاوبرا يشهد مسرحية كذا ؟

ان ضروب البراعة والحيلة والخداع فى هذا المضمار حقيقة بالفشل واحداث عكس الاثر المطلوب ، ولا ينجم عنها الا شرود الجمهور وانصرافه عما ينبغى أن يشغله الى مالا ينبغى ان يشغله ..

ان الذى بين الفنان والجمهور عقد اتفاق من نوع غريب ، انه اتفاق على الكذب ، على الايهام والتوهم وهذا العقد يكفله استعداد طيب من قبل الجمهور للتمشى مع الافتراض الذى افترضه الفنان ، استعداد للتصديق بالاشارة المختصرة حيث تكفى الاشارة المختصرة ..

وكل جهد يبذله الفنان ظنا منه انه انما يخدع المتفرج عن زمانه ومكانه ويسلب يقظته سلبا تاما .. انما هو جهد خائب ، ومضيعة للوقت ..

فما بالك اذا كان هذا الجهد ذاته يخل بالتوازن المطلوب فى العمل المسرحي ، ويصرف انتباه الجمهور عن الاهم ليشغله بغير المهم ..

الديكور اذن مهمته الاشارة لزمان ومكان المسرحية . مهمته ان يدل المتفرج على البيئة التى تجرى فيها الحوادث من أقصر الطرق ، بأقل المواد وأبسطها ..

ولا يفوتنى هنا ان اؤكد ايضا ان تراكم الاثاث والاكسسوار فوق المنصة يعوق حركة الممثلين المطلقة ويقيدهم حيث يريدون التدفق فى حيوية ، ويخفى فى الاغلب اجزاء من اجسامهم .. والجسم الانسانى - بغض النظر عن اى اعتبار - هو اجمل ما فوق المنصه ، وأقدر جهاز للتعبير بالحركة وبالسكنة، بالاشارة وبالجمود تعبيرا حيا رشيقا

كما ان الوان الحوائط اذا كانت منبهرجة صارخةتميت شكل الممثل وتجعل منه ظلا كئيبا فى بحر الاضواء . ان الملابس الكثيفة ايضا ، والزينة المفرطة .. تسحق

الممثل وتلغيه تماما فوق المنصة • فاذا نحن في معرض ازياء ـ عصرية كانت أو تاريخية ـ لا في مسرح للدراما ..

انني أفضل دائما أن تختفي الاشياء الجـــامدة وراء الممثل الحي ، لا أن تخفيه • فالممثل هو اقدس العناصر المادية فوق المسرح .. وهو اقدر من كل ما عداه ـ بحيويته وملكاته المتنوعة ـ على ان يصور موضوع وجو وتفاصيل المسرحية .. ولا عجب في ذلك ، فانه فـــوق المنصة ، هو الانسان !

كيف يمكن ان يعول المخرج في تصوير جو مسرحيته على الكراسي والارائك والحوائط ، ولا يعول على الانسان الحي ؟ ..

من هذا المفهوم تنطلق مدارس وتيارات حديثة مختلفة تناصر الممثل وتخذل الديكور والاكسسوار ، داعيـــة لاطلاق الافاق امام الممثل وتضييق نفوذ الاشياء الجـامدة التي تحوطه • فمن هذه المدارس والتيارات ما اتجـــه الى الغاء الديكور والاكسسوار تماما حتى ليتحرك الممثل في أرض محايدة تمام الحياد ـ رمادية غالبا ، أو سوداء او بيضاء ـ ليس فيها ادنى ما يلفت نظر المتفرج • ومنها ما اتجه الى تلخيص الديكور تلخيصا شديدا ، ومنهـــا ما اتجه الى استخدام اشارات رمزية مقتصدة ..

ونستطيع ان نطلق على ناتج هذه المحاولات اســـــم الديكور المختصر او الملخص .. وأود ان انبه الى الفرق بين هذا الاسلوب في التبسيط وبين الاسلوب الرمزي في تصميم الديكور ..

والحقيقة ان اول ديكور ملخص من نوعه شهدناه في بلادنا في السنين الاخيرة قد صممه المخرج الملهم حمـــدي غيث لمسرحية تحت الرماد « أفول القمر لشتاينبك » سنة ١٩٥٦ ..

ففي ديكور هذه المسرحية جرد حمدى غيث غرفة الاستقبال فى بيت العمدة « حيث يجرى المشهد » من حوائطها واكتفى من الباب بهيكله المجرد ، وبذلك استطاع ان يظهر فى خلفية المسرح جزءا من الحديقة به شجرة صغيرة جرى تحتها تنفيذ حكم الاعدام على عامل نرويجى بيد سلطات الاحتلال النازية • وهو مشهد تمثيلى صامت استطاع حمدى غيث أن يضيفه للمسرحية بمجرد استغنائه عن حوائط الغرفة ، وكان احد الفوائد العديدة التى استفادها من أسلوب تلخيص الديكور ••

اذكر هذا المثل لما تواتر فى تلك الايام بين النقاد من أن حمدى غيث عمد الى الاسلوب الرمزى فى تصميم الديكور •• وهو خطأ ظاهر

فمثل هذا الاسلوب فى تصميم الديكور لا يعدو ان يكون تلخيصا او اقتصادا فنيا ، لا يخرج عن الاصول الواقعية الأساسية فى شيء ••

أما الاشارات الرمزية فى الديكور ، فلا أعرف صورة واضحة مشبعة لها الا فى انتاج المخرج الفنان القدير نبيل الالفى ••

وسأضرب مثلا على منزعه الرمزى بمسرحية « ايزيس » توفيق الحكيم حيث عمد نبيل الالفى الى ان يدخل جمهور الشعب فى الفصل الاخير ليحكم بين حوريس واخيه طيفون فى نزاعهما على الحكم فوق منصة وضع على أرضها قبة كروية قليلة الارتفاع كأنها شريحة من الكرة الارضية ، اشارة الى ان جمهور المحكمين ان هم الا البشر ساكنو الكرة الارضية ••

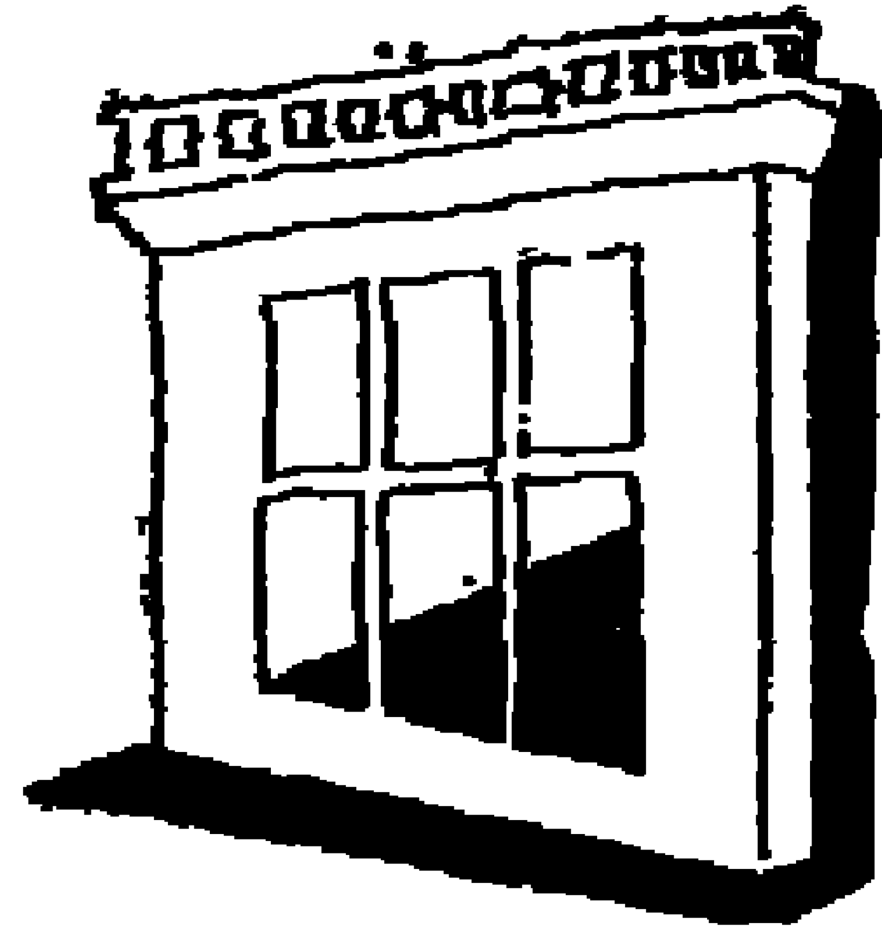
وامثلة الرمزية كثيرة فى ديكورات نبيل الالفى ••• الساعة الواقفة دلالة على جمود الحياة ، السلم الصاعد او الهابط فى خلفية المسرح لتدل حركة الممثلين عليه اما

على التسامى او التدهور .. الى آخر هذه الاشــارات الشاعرية الرقيقة ..

وارجو ان انوه هنا بأن اسلوب الديكور مهمــا كان مصممه فنأنا مبدعا انما يحكمه مزاج المخرج ورغباته . فالمخرج بالنسبة لكل فنانى المسرحية هو مايســترو الاوركسترا الذى يضبط كل جزئيات هذا العمل الجماعي العظيم ..

كما احب ان اؤكد ان هذه الاساليب المختلفة لابد ان تصدر عن منطق متكامل متنــاسق .. اى ان موقف المخرج من الديكور لابد ان ينسجم تماما مع موقفه من النص المسرحى ، وموقفه من اختيار منطق الاخراج . فلابد للمخرج من ان يقدم عمله الفنى متكاملا وعناصرهمنسجمة تماما . فيستحيل ان نتصور ديكورا رمزيا لمسرحية غير رمزية ، والاداء التمثيلى فيها طبيعى ! والا كان ذلك ترقيعا مثيرا للنفور ونوعا من النشاز ..





الخلفيّة التشكيليّة

اذا كان الحديث قد ساقنا لمقارنة عابرة بين مزاج وفن كل من نبيل الالفى وحمدى غيث ، فلا بأس من ان نسترسل فى هذه المقارنة بعض الاسترسال بقصدالتفريق بين اتجاهات طليعة مخرجينا المسرحيين فى صدد تكوين الخلفية التشكيلية المسرحية

الديكور يصممه رسام بالطبع

ولكن عمل الرسام محدد بعدة اعتبارات ..

اولها اسلوب المسرحية ، سواء أكانت رمزية او سيريالية او واقعية او طبيعية او خيالية « فانتازيا » .. الى آخر هذه الالوان ..

وثاني اعتبار يقيد الرسام هو اتجاه المخرج فى تفسير المسرحية واسلوبه فى عرضها

ومع ان مصمم الديكور أمامه المجال للابداع الفنى ، فالمخرج هو الذى يحكم الاسلوب والمنحى المتبع فى تصميم الديكور ..

ويميل نبيل الالفى الى المنحى الرمزى والشاعرى الرقيق ، والى الاهتمام بالقيمة الزخرفية للخلفية المسرحية والى استخدام الالوان الظاهرة الموحية بجو ودلالات المسرحية ..

ان مشاهدة مسرحية من اخراج نبيل الالفى يثير فى النفس متعة جمالية وزخرفية اكيدة ، وتتبع اشاراته الرمزية فى الديكور والاكسسوار ليس بالامر السهل للمتفرج العادى ولكن العارف بفن الالفى يلحظه ويزيد فهمه لمغزى عرض المخرج ويغتبط به ـ رغم انه قد يبدو مبالغا فيه أحيانا ..

أما القيمة التشكيلية التى يميل اليها حمدى غيث فهى نظام المجموعات ممثلين او كومبارس فوق المسرح . ان لحمدى غيث حسا تشكيليا رائعا فى تنظيم المجموعات فوق المنصة وفى استنباط الجمال من حركتها المتناسقة وتشكيلاتها المتغيرة ..

ولذا يميل حمدى غيث الى استخدام المستويات المختلفة فوق المنصة ، ودرجات السلالم العريضة ، لان حركة الممثلين والمجموعات صاعدة وهابطة تضفى على شكل العرض جمالا أخاذا ..

ان الجمال التشكيلى ، والمقابل الصوتى له عند المخرجين ، ينسجم تماما مع اهتمامهما التشكيلى أيضا بتوزيع النور والضوء على المنصة ..

ومع ان ميل نبيل الالفى الى حيل الاضاءة الساحرة يحكمه مزاجه التشكيلى ، فان ميل حمدى غيث فى هذا الصدد يحكمه مزاج تعبيرى ، ولذلك فحمدى غيث يميل اكثر الى الابيض والاسود فى الوان الاضاءة والى استخدام النور والظل فى النقلات الدرامية كعامل معبر اكثر منه مسحة جمال ..

أما المخرج المبدع عبد الرحيم الزرقانى فانه ينفرد بين مخرجينا المبرزين كلهم بمنحى اكثر بساطة واكثر جرأة فى نفس الوقت . ولا عجب ، فان الامكانيات الواسعة للعبة المسرح هذه كما تحتاج الجرأة لاستخدامها

تحتاج الجرأة ايضا للاستغناء عنها والاعتصام بالبساطة والسهولة ..

يميل عبد الرحيم الزرقانى للديكور الواقعى ، ولكنه حريص على بساطته فى الالوان وفى التركيبات ، وفى مطابقته بشكل عام للواقع ..

وعبد الرحيم الزرقاني فنان مقتصد جدا ، زاهد فى زخارف الخلفية المسرحية ، وفى حيل الاضاءة ، وميـــال بطبعه للمسرح الواقعي البسيط ..

ولكن عبد الرحيم الزرقانى مخرج مدقق فى قيـــادة الممثلين ، وهو كممثل قدير ، وكمعلم تمثيل قدير يميل الى ابراز جمال هذا الفن وقدراته غير المحدودة فـــوق المنصة ، والاعتماد عليه اولا فى التعبير ، والاعتماد عليه ايضا فى تيسير ما فى النص المكتوب من صعوبة ، وفى تلخيص الافكار من أى تعقيدات ...

ان عبد الرحيم الزرقانى مخرج يحب الوضوح ، والجلاء والبساطة والواقعية وله قدرة تلفت النظر على مخاطبة الجمهور العريض ..



الممثل

لعل أوضح ما فوق المنصة هو الممثل • أن الممثل هو ملك المنصة ••

لا أريد أن أقول ان النص المسرحي وان جهد المخرج وعبقريته تنتقل الى المتفرج عن طريق الممثل •• ولا أريد أن أقول ان الممثل هو حامل النص وحامل ملكات المخرج الى المتفرج •• فذلك معناه ان الممثل عنصر سلبى تماما ••

ان الممثل ليس مجرد سلك يصل المؤلف بالمتفرج ، ويوصل شحنات ليس هو مصدرها ، وانما هو شيء أهم من ذلك وأعظم ، فان له ملكاته الخاصة وعبقريته الخاصة التى يستطيع بها أن يثرى العمل المسرحى كله ، ويضيف اليه من عنده ، وان يحقق الصلة الروحية بين العمل المسرحى كله والجمهور • انه هو الذى يستقطب عواطف وانفعالات وأفكار الجمهور ، وهو المسئول ، وله الفضل كله ، فى أن يؤثر فى الجمهورتأثيرا يتفق مع أفكار المؤلف والمخرج • وهو الشخص الذى يستطيع بملكاته الخاصة ، فوق قيمة النص وفوق جهد المخرج ، أن يصنع من الكلمات المطبوعة ، ومن الحركة والاشارات التى يرسمها المخرج لتفسير النص ، استرسالا غير ميكانيكى •• غير هامد •• أن يصنع من كل

هذا شحنة وجدانية سحرية تأخذ المتفرج وهو مشـــدوه معلق الانفاس الى وديان التأمل والحس العميق ، وتلتقى به فى خضم الافكار والاحاسيس التى رســـمها وخططها المؤلف والمخرج على الورق ..

ويتساءل المتفرج فى البدء دائما : هل من الاوفق ان يؤدى الممثل دوره اداء .قـــرب الى الطبيعة ، أم أنه من الاوفق أن يضرب عرض الحائط بالاداء الطبيعى ويصطنع بعض المبالغة أو التحوير لزيادة التأثير على الجمهـــور ؟ وحول هذه القضية اراء مختلفة أبداها عدد من المثقفين والجمهور فى مختلف المجالات ..

ولكى نناقش هذه القضية لا مفر من أن نخوض فى مختلف الدعاوى التى أدعت بها مختلف التيارات الفنيـة ضد التصوير الطبيعى فى الفن .. وهذا لا أريده هنا .. وانما سأقتصر على الاستناد الى أن مختلف التيــــارات والمذاهب الفنية الحديثة والمعاصرة ترفض محاكاة الطبيعة فى الفن سواء أكانت هذه المحاكاة مذهبا للادب أو للتصوير أو للموسيقى أو للتمثيل ..

ويحسن بنا الآن أن نعود لما بدأنا به ، وهو التساؤل عما اذا كان المتفرج فى صالة المسرح يمكن خداعه عن زمانه ومكانه ، وايهامه ان الذى يجرى أمامه احـــداث طبيعية ينسجها ابطالها الحقيقيون فى الحياة ؟ ان ذلك مستحيل . فالمتفرج يعى دائما أنه انما يشاهد تمثيـــلا لمسرحية مؤلفة ، ويعى دائما انه جالس فى دار الاوبرا ، وانه سيتاح له بعد نهاية المسرحية أن يلحق بالمواصلات. فمن ضياع الجهد وطلب المستحيل الاستغاثة بأسلوب مطابقة الطبيعة فى الاداء التمثيلى بقصد خداع المتفـــرج وايهامه بغير ذلك ..

ان الممثل الذى يضرب عرض الحائط بالاداء الطبيعى

انما يسلم بالامر الواقع ، ويبدأ بالبديهية البسيطة التى وضحتها •• وان ذلك يتيح للمثل فرصة لا حدود لها ، أن يطوع اداءه ويلونه بأوفق اساليب الاداء لاحداث الاثر المطلوب على المتفرج ، ويتيح له فرصة واسعة جدا لاظهار ملكاته واضافة جهد من عنده ••

الفن ليس تصويرا للطبيعة ••

انه تحوير للطبيعة ، وتوفيق بين عناصرها المختلفة بقصد تمييز خصائصها الدالة عليها ••

ان المصور الذى يرسم مناظر الطبيعة لا يتقيد بنقلها حرفيا على لوحته كما هى فى الطبيعة ، وانما يعمد الى اختيار الاغراض التى يرسمها من بين مختلف الكائنات الطبيعية ، والى اختيار الزاوية والبعد ودرجة الاضاءة المناسبة لتحقيق موضوعه ، بل انه يعمد أيضا الى تحوير الالوان والمساحات واضافة ما يخدم هذا الموضوع ، حتى ليمكننا ان نزعم انه يصطنع من الادوات والاغراض الموجودة فى الطبيعة تكوينا خاصا متميزا واسلوبا خاصا متميزا يعكس فلسفته هو عن الطبيعة ••

كذلك فالممثل يستقى خاماته من الحياة اليومية للناس ولكن اسلوبه فى الاداء ينبغى أن تكيفه قدرته على التحوير والتوفيق والاختيار •• حتى لو كانت النتيجة النهائية لا تطابق الطبيعة •• بقصد تحقيق فهمه للدور ، وضمان التاثير فى الجمهور ، وكفالة الجرس العذب الجميل لكلمات المسرحية ••

أعرف ان ممثلين بعينهم ، أو تيارا من الممثلين ــ لو صح تسميتهم كذلك ــ يتكلفون المبالغة الشديدة فى التعبير ، وبخاصة التعبير عن الاحزان ، وان ذلك خليق بأن ينفر الجمهور نفورا شديدا ••

واعرف أن تحرير الممثل من التزام الاداء الطبيعى سيعقد

حرفته أمامه ، وسيدفع به فى متاهة لا نهاية لها ،ويوقعه فى الحرج • ولكن الحرية دائما كذلك • الحرية تجعل مهمة الانسان أعقد ومسئوليته أبهظ وتبعاته أعظم • ولا مفر للممثل من أن يخوض هـــذه التجربة ، وأن يبحث بنفسه ولنفسه عن بديل عن الاداء الطبيعى ••

ان الاقلاع عن الاداء الطبيعى هو الاقلاع عن بر الإمان الى البحر الواسع المتشعب المسالك المحفوف بالخطر • ولكن على الممثل ان يبحر بقلب ثابت ، وأن يتخذ من ثقافتـه وخبرته ووعيه وحسه هاديا وشراعا ••

كما لا يفوتنى أن انبه الى أن أسلوب الاداء الذى ينبغى للممثل لابد أن يكون منظرا تنظيرا جيـــدا ، وأن يكون صادرا عن ثقافة وعن وعى ، وأن يكون للممثل فى أدائه نظريته العاقلة ودفاعه المعقول ••

كما أن هذا الاسلوب لابد له أن ينسجم انسجاماً تاما مع طبيعة المسرحية وطبيعة الاخراج واســـلوب الممثلين الاخرين • فالعبقرية فى المسرح لا يمكن أن تكون عبقرية فردية ، والعمل المسرحى بالتأكيد عمل جماعى ، لا يحقق امتيازه أبدا الا بالتوافق والانسجام بين عناصره المختلفة

ويتساءل الجمهور عادة : هل ينبغى للممثل أن يندمج فى دوره بحيث يستغرقه الوهم الذى هو صانعه ، ويفقد الوعى تماما بحقائق اللعبة التى يلعبها ؟

أن الممثل ليندمج امامنا فى الموقف حتى ليخيل لنـــا أنه نسى نفسه تماماً ، وأنه قد عبر الخط الحرج الفاصـــل بين الحقيقة والوهم . انه توصل الى درجة ايهام نفسه بأنه هو هو المهدد بخطر القتل ، أو هو هو الزوج المخدوع، أو هو هو الحبيب الخائب .. أنه من فرط انفعـــاله وتقمصه قد أصبح فى النهاية هو البطل بذاته ولم يعــد هو الممثل المحترف الذى يتقاضى اجره ليلبس كل ليلــة

قناعا مختلفا ..

وهذا غير حقيقى ، ولا ينبغى للممثل ..

ان بعض الممثلين ينسون أنفسهم لحظة فوق المنصة ، وبالوقعة الممثل الاخر اذا كان هو الذى سيتلقى صفعات « زميله المندمج » فانه حينئذ سيتلقى صفعات حقيقية يطيش لها صوابه ..

من البديهى اننا مع افتراضنا أن المتفرج لايفقد وعيه ابدا بالزمان والمكان ، أن نؤاكد أن الممثل بالاحرى ، وهو المدرب المحترف ، لا يفقد ولا ينبغى له ان يفقد وعيه بالزمان والمكان لحظة واحدة . ان كل شىء فى المسرح ـ كما فى سائر الفنون ـ مخطط سلفا ومنفذ بوعى كامل ويقظة أكيدة . ان الغيبوبة هى متاهة المجذوبين لاالفنانين ، المتأثرين لا المؤثرين .. وينبغى للممثل كفنان الا يذهب وعيه أبدا ، والا يتأثر بدوره أكثر مما يؤثر بهذا الدور .. والا انقلب كل شىء الى أضحوكة ، مثيرة للهزء والرثاء ..

ينبغى للممثل أن يعى دائما بأنه انما يمثل .. وذلك ادعى ليقظة ملكاته ولقدرته الدائمة على الاستنجاد بكفاءته على التعبير والاحتفاظ بتوازنه العاطفى والانفعالى

ان انفعال الممثل ليس مدخلا الى الغيبوبة ، وانما هو انفعال ارادى يقظ يحكمه حكما اكيدا وعى الممثل ويقظته وعقله . والممثل بتحكمه الاكيد فى انفعاله يصبح سيدا للموقف يعطى بقدرته ما ينبغى ويقتصد حيث ينبغى ، بميزانه الدقيق الذى تكسبه اياه ثقافته وخبرته ..

ان الممثل اذا فقد هذا التحكم الواعى يفقد سيطرته على فنه وموهبته وقدرته على التأثير فى الجمهور

ان التمثيل وظيفة ككل الوظائف ، لايستطيع الانسان

أن يؤديها على أكمل وجه الا وهو فى تمام اليقظة والانتباه
ومع ذلك فالمفروض فى الممثل أن يتقمص دوره تقمصا، وان يعمل على ايهام المتفرج أو بالاحرى على مساعدة المتفرج على ايهام نفسه بأنه ليس فلانا الممثل وانما هو الامبراطور نابليون . ولكن هذا الايهام ايهام من نوع خاص . انه ايهام من قبيل الافتراض الذى قد اتفق عليه الممثل والمتفرج باختيارهما المحض ، وبما ينبغى من الاحتياط . وبما ينبغى له أيضا من السبك ولكنه مع ذلك ليس من قبيل التقمص المرضى الذى يجعل مجنونا فى الخانكة تتلبسه شخصية الامبراطور نابليون . الفنون ليست جنونا ، كما ليس الجنون فنونا

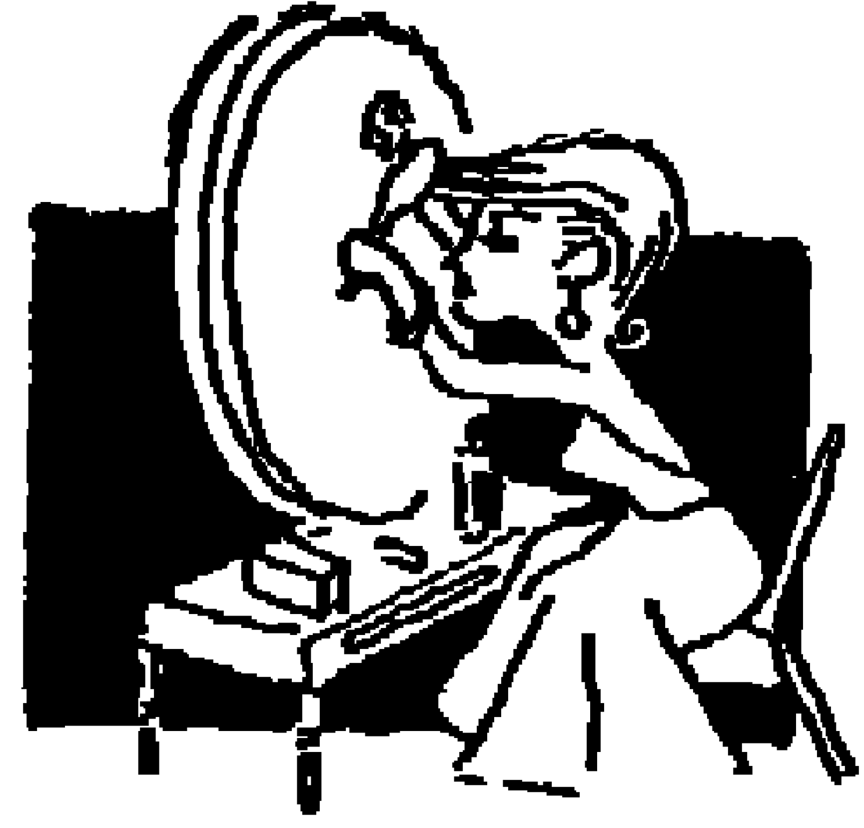
اننا نطلب من الممثل أن يبلغ بانفعاله واندماجه ذروة تساعد على توهمنا أنه الامبراطور نابليون ، مع احتفاظه بوعيه بالقدر الذى يتيح له أن يسمع دبة فار ضل طريقه الى المنصة قبل أن يراه ..

ان هذا التوازن بين اليقظة والاندماج يحققه الممثل بملكته التى تكفل له احكام الصنعة والسيطرة على أسرار وظيفته ودقائق عمله ..

هذا التوازن السحرى لايقدر عليه غير الفنان الحقيقى، حسن الخبرة بفنه ، دقيق الفهم مرهف الحس قوى الارادة ..

ان الممثل ليس ملك المنصة فحسب ، انه طاغيتها القوى . انه هو الرجل الذى يحكم العمل الفنى كله فوق المنصة ، ويحكم عواطف وألباب المتفرجين فى الصالة ، بينما يكون المؤلف والمخرج يحتسيان القهوة فى البوفيه بلا أدنى سيطرة داخل المسرح ..

ان قوة الشخصية والارادة والقدرة على التأثير فى الاخرين .. هى للممثل من أهم الملكات التى تحدد مستقبله



أدوات الممثل ..

الجمهور يدرك بوجه عام أن الممثل الذى يتحرك أمامهم انما يعبر عن دوره تعبيرا جيدا ، او بالاحرى يصور دوره تصويرا جيدا ، دون أن يعرف غالبـــا ما هى بالضبط الادوات التى يستخدمها الممثل ليحقق بها هذا التعبير أو التصوير • الجمهور فى الاغلب يعزو كل كفاءة الممثل لموهبته الالهية السحرية • ولكن هذه الموهبة كسائر المواهب يكمن سرها العظيم فى قدرة الفنان على استخدام أدوات عمله بميزان دقيق ، والسيطرة على هذه الادوات ••

من الطبيعى أن أدوات الممثل هى فى الدرجة الاولى جسمه وخلقته • فالممثل يستخدم أعضاء جسمه كلها فى محاولته تقمص الشخصية المطلوبة •• عن طريق الحركة والسكون ••

أبرز هذه الاعضاء حباله الصوتية ، فالانسان يتميز عن سائر الكائنات بقدرة متفوقة على تنويع صوته • ليس الانسان كفصائل العصافير التى تنشد طوال حياتها نغما واحدا او نغمين ، وليس من فصيلة الحيوانات التى لا تقدر الا على طبقة صوتية واحدة او طبقات قليلة ، وليس من قبيل الريح الذى لا يصدر عنه الا درجات صـوتية محدودة ••

الانسان يستطيع بسيطرته وادارته لجهازه الصوتى ذى الكفاءة العالية ، أن يطوع صوته ـ لا ارتفاعا وانخفاضا فحسب ـ بل تنوعا قادرا على اداء مختلف ألوان التعبير عن شتى الانفعالات البسيطة والمركبة ..

ومن الانفعالات ما هو بسيط كالحزن والفرح ، الدهشة والاسى ، أو السرور والغضب ، أو الحب والحنان .. ألخ وما هو مركب من عديد من هذه الانفعالات .. فغضب المحب من محبوبته يختلف عن غضب المنتقم من خصمه ، عن غضب الام من ابنتها ، وغضب الشيوخ المحكوم يختلف عن غضب الشباب الاهوج ، وغضب السيد يختلف عن غضب العبد ، وغضب الفقير يختلف عن غضب الثرى ، وغضب الضحية يختلف عن غضب ناصر هذه الضحية ، وغضب الرجل العصبى حاد المزاج يختلف عن غضب الرجل البليد .. الخ . لا أقصد اختلافا فى الكلمات التى تعبر عن هذا الغضب ، ولكنه بالضرورة أيضا اختلاف فى نبرة الصوت التى تؤدى هذه الكلمات

فى أحد اختبارات معهد تمثيل أوربى ، طلب من ممثلة ناشئة ان تنطق كلمة واحدة هى « ولدى » فى ثلاثين موقفا مختلفا ..

قال لها الممتحن : افترضى انك تستقبلين ولدك الصغير وهو خارج من غرفة العمليات بعد اجراء عملية ناجحة ، فكيف تنطقين كلمة : ولدى ؟

افترضى انه مات ..

افترضى أنك سيدة ثرية وتنتظرين على رأس السلم فى قصرك الريفى ولدك العائد من مدرسته الداخلية ..

افترضى انك كنت تداعبينه فى الشباك فسقط من بين يديك الى الشارع

أفترضى انه عبث بـ « فاز » أهداه لك زوجك ، الذى مات

من مدة قصيرة وكنت محبة له جدا ، فكسره ..
افترضى كذا وكذا ..
كيف تنطقين كلمة : ولدى فى كل مناسبة ؟ ..
الممثل اذن موكول اليه ان ينطق كلمات المسرحية بجهازه الصوتي الانسانى اللامحدود بحيث يعبر بدقة وبسيطرة كاملة ، وبفهم سليم ، وبحس مرهف .. عن الكلمات التى كتبها المؤلف ..
ولكن موهبة الممثل لا تنحصر فقط فى القدرة على التعبير بالصوت ، ولكنها تنطلق الى افاق واسعة من القدرات على التعبير بالوجه وبالعينين ، بالذراعين وبالكفين بالوقفة وبالجلسة ، بالمشية وبالسكنة ، بالكلام وبالصمت ..
ان الممثل جهاز كامل للتعبير وللتصوير متعدد الادوات. وهو بفهمه وبحسه وبملكاته يحرك او يجمد هذه او تلك من الادوات فى توافق وفى انسجام محسوب بحيث يؤدى دوره على الوجه الاكمل ..
ان الممثل الكفء ليستطيع اذا اقتضى الامر ـ وانه ليتدرب على ذلك خلال دراسته ـ أن يعبر عن أى من المواقف المطلوبة بسائر الادوات دون صوته ، اى انه يستطيع أن يعبر عن هذا الموقف او ذاك دون أن يتفوه بكلمة واحدة .. أى بالتمثيل الصامت ..
ولابد أن أنبه الى أن هذا التمثيل أو التعبير الصامت ليس من نوع قدرة البكم على التعبير عن طلباتهم . فقدرة البكم هذه انما هى قدرة على الاتصال بالعالم الخارجى من خلال اشارات رمزية ذات معنى مباشر وبسيط باستخدام أدوات محدودة هى فى معظمها اليدان واصابعهما ..
ان اشارات البكم شفرة من رموز جركية تحل محل

الكلمات .. أما تمثيل الممثلين الصامت فأدواته غير محدودة ووظيفته التعبير العميق المؤثر عن انفعالات وعواطف ومواقف مركبه يصعب فى أغلب الامر أن تعبر عنها مجرد الكلمات ..

ان امرأة بكماء من عامة الناس لا يمكن أن تعبر بالاشارة عن المواقف المفترضة من ابنها والتى كانت موضع اختبار الممثلة السالفة الذكر فى المواقف الثلاثين التى أشرت اليها ، أو أن تجتاز ذلك الامتحان الصعب ..

ولكن الممثلة الكفء تستطيع دون أن تنطق كلمة «ولدى» أن تعبر فى صمت عن انفعالها بهذه المواقف كلها ..

ان أروع مثل للتمثيل الصامت يمكن أن أسوقه هنا ، هو عبقريه العصر الفنان المتفرد شارلى شابلن فى افلامه الصامتة والناطقة على السواء ..

***

يتساءل المتفرج عادة وهو ازاء جورج أبيض فى دور يوليوس قيصر مثلا ، عما اذا كان من الاوفق فى فن التمثيل ، ان يتاح له باستمرار أن يرى يوليوس قيصر دون جورج أبيض ، أو أن يرى جورج أبيض دون يوليوس من الذى ينبغى له أن يختبىء خلف الاخر ، الممثل أم الشخصية ؟ من الذى ينبغى له أن يطغى على الاخر ؟ من الذى ينبغى له أن يخبىء الاخر ؟

بعض المتفرجين يخيل له أن كفاءة الممثل وقوة شخصيته وتميز طابعه فى التمثيل لابد أن يطغى بالضرورة على الشخصية ، وهذا ينسجم تماما مع ما تكتب اعلانات منتشرة فى الميادين العامة . اذ يعد الاعلان الجمهور بجورج أبيض فى دور يوليوس قيصر ، وهذا خطأ

ان من قدرات الممثل غير المذكورة ، قدرته على التلاشى وراء الشخصية ، فان الممثل لابد له أن يخضع كل قدراته

وكفاءته لغرض واحد ، هو تصوير شخصية رجل آخر ، ربما كانت تختلف اختلافا بينا وأكيدا عن شخصيته . كلما تفوقت قدرة الممثل اتضحت أكثر فأكثر معـــالم الشخصية ، واختبأت أكثر فأكثر معالم الممثـل . ان الممثل لا يخبىء شخصيته ويقدم شخصية البطل بالاســتعانه بفنون الماكياج فحسب . ان المكياج ابسط الفنون فيهذا المجال .. فاللحيه أو انشارب الكث .. صفرة الخدين أو توردهما ، خصلة الشعر او النظارة الســميكة على العينين .. لا تصنع شخصية البطل فوق المنصة .. انها مجرد مقدمات اوليه وشكلية ، ان قدرة الممثـــل على التصوير والتعبير والتقمص خلال المواقف والــكلام والصمت والسكون والسيطرة على معانى المسرحيـــة والتدفق لابراز معالم الشخصية الموكل اليها تصويرهـا هى التى تصنع شخصية البطل فوق المنصة ، هى التى تساعد المتفرج على ايهام نفسه أنه حيال قيصر أو بونابرت .. حيال قيس او بيشلينيا ..

وينبنى على ذلك أن الممثل يســتطيع بل وينبغى له بالضرورة أن يقوم بادوار شخصيات متباينة ، فهـــو يستطيع أن يقوم بدور القاتل كما يستطيع هو نفسه أن يقوم بدور المحقق أو رجل البوليس ، انه يستطيع انيقوم بنفس الكفاءة بأى من الدورين ، العاشق او الـــزوج المخدوع ، ويستطيع ان يقوم بدور البطل الوطنى وبدور الخائن لوطنه . بل ويستطيع ان يقوم بدور الفليسوف وبدور مهرج السيرك . لا يوجد فى فن التمثيـــل ما يسميه البعض « بتخصص الممثل » . فالتمثيل هـــو القدرة على التلون . لا يوجد فى فن التمثيل ذلك الوهم الشائع باختصاص الممثل فى دور الشرير او الممثلة فى دور البنت المعذبة . فهذا الوهم انتقل الينا والى العالم من

مدينة السينما فى هوليوود ..

لقد اخترعت مدينة هوليوود نظام اللون الخاص للممثل لتحقيق غرض رأسمالى . فالشركه من شركات السينما فى هوليوود تحتكر الممثل مدة طويلة او مدى الحياةوتصنع له « ماركه مسجله » كسلعة من السلع ..

انها تقدمه الى الجمهور « كأقسى الشريرين » وتركز دعايتها للترويج له على اساس هذه الصفه ، وتعتمد لذلك مئات الالوف من الدولارات . ويتبارى كتاب الاعلانات التجارية فى قص القصص المختلفه عن هواية هـــذا الممثل اثناء طفولته ان يخنق القطط او يذبح العصافير .. انه كان فى المدرسة يضرب المدرسين ، وأنه أطلق النار على غريم له فى سن الثانية عشرة .. الى اخر هذه الترهات التى وان كان ثمنها باهظا ، الا انها تمثل فى النهـــاية رصيدا ضخما للدعايه لسلسلة الافلام التى ســـيتولى بطولتها هذا الممثل . انها نوع من الدعاية بالجملة .. لافلام كثيرة مقبلة سيقوم فيها الممثل بدور تيمورلنك مرة ، وآل كابونى مرة ، وفومانشو مرة ، وفرانكشـــتين ، وسفاح اطفال .. الخ ..

ففى مذهب خبراء الدعاية ان من الاســـهل والاكثر اقتصادا فى التكاليف تركيز الدعاية لسلعة من الســـلع مثلا على أساس شعار واحد متكرر .. كبيرة ولذيذة .. يغسل أكثر بياضا .. الخ . من أن تبدأ حملات الدعاية كل ستة أشهر على أساس جديد ، فمرة تروج للممثل فى دور طاغية ثم تبدأ من جديد للدعاية له فى دور محب مشبوب العاطفة ، ثم فى دور مزواج متلاف مستهتر فى المرة الثالثة . وهكذا ..

ان نظام اللون الواحد للممثل انما يخـــدم غرضـــا رأسماليا لا غرضا فنيا . وانه يحقق فى السوق نجاحا لا

ينكر ، ولكنه لا يحقق بالضرورة نجاحا فى الفن ..

انه نظام يحدد ملكات الممثل ويضيق عليه السبل ويجمد قدرته على التقمص والتلون ..

ان هذا المفهوم سيحفز الممثل لان يطوع شخصية البطل لتوافق طابعه هو وشخصيته هو كما رسمتها له الدعاية .. لا أن يطوع شخصيته هو لتوافق طابع وشخصية البطل

ان الممثل فى هذه الحالة سيبرز معالمه ويخبىء معالم البطل .. غير أن فن التمثيل هو عكس ذلك تماما ..





تيارات فى فن التمثيل

لا أريد هنا ولا أستطيع أن أبحث بحثا محيطا بمختلف التيارات والمذاهب التى حكمت فن التمثيل منذ نشـأته والتى تحكمه فى أنحاء العالم اليوم ..

ولكننى أريد فقط ان أشـــير الى أهم التيارات فى فن التمثيل التى حكمت هذا الفن خلال عشرات السـنين الماضية فى بلادنا

كان من بين أهم هذه التيارات ذلك الفهم الكلاسـيكى المدرسى لفن التمثيل الذى تلقنه أغلبنا ونحن نمثل فى مدارسنا أيام الصبا ..

كان يطلب منا أن يكون القاؤنا للعبـــارات مفخمـــا رصينا واضح النبرات ، أن تكون اشـــارتنا بالذراع المفرود فى بطء وجلال ، أن تكون وجوهنـــا للجمهور على الدوام ، أن تكون خطواتنا على المنصة متئـــدة ..

ولا عجب أننا بهذا الاسلوب فى التمثيـــل كنا نجنح ونهوى فى الاغلب المسرحيات التـــاريخية ذات المواقف التى تنسجم مع الخيلاء فى الاداء والعظمة فى التـــاء العبارات الرصينة ..

ولا عجب أننا كنا نفضل اللغـــة الفصحى لانهاأنسب لاصطناع الفخامة ، ونولع بالمسرحية التى تزينها الاقوال المأثورة أو الحكم الغالية ، أو أبيات الشعر الجذلة ..

كان فن التمثيل عندنا فى المدارس أقرب الى فن الخطابة ، كان فنا حاشدا بالملوك الاجلاء والابطال الصناديد ، حاشدا بالبيانات المنمقة التى يلقيها الممثل وهو فى مواجهة الجمهور قبل أن يؤدى واجبا جليلا ، أو قبل أن يتمدم على تضحية عظمى ..

وكان هذا النوع من الاداء أخلاقيا بالضرورة . فالبطل حريص كل الحرص على تبيان المغزى الاخلاقى لموقفه ، والدافع المنطقى لثورته ..

البطل هنا مثالى متمسك بأهداب الفضيلة ، يصارع الرذيلة بالحكمة وبالسلاح وبالخلق القويم ، وهو يتصرف طوال الوقت وقد أحاط نفسه باطار كالاطار المحيط بلوحة ملك قديس صوره الفنان مبرزا أفضل ما فيه ..

وفى مقابل هذا البطل الجليل يتحرك الاشرار مقوسى الظهور « بالمعنى الحرفى للكلمة » حركة سريعة وهم مطاطىء الرؤوس يتحدثون دائما بصوت أجش مصطنع ويشهقون ليظهروا شهوانيتهم وجشعهم ..

هذا نوع من التمثيل غير الطبيعى أساسه الاخلاقى تقسيم الناس الى أخيار وأشرار ، وتفخيم أعمال البطولة الفاضلة وادانة الشر ، مع اظهار الابطال فى أحسن صورة من الاجلال والنورانية والرزانة والحكمة والصرامة ..

هذا نوع من التمثيل التقليدى يستهوى أولئك المولعين بأن يدرجوا فى حياتهم على مدارج الحكمة . ولقد نفرنا منه بعد الصبا نفورا شديدا لفرط الاصطناع فيه والتكلف ولضعف حيويته ، ولتزمته الشديد وتقيده بالقواعد المقررة وبعده الشديد عن الصدق والواقع ..

ونحن فى هذه المرحلة نتهافت ـ نافرين من هذا النوع

من التمثيل – على ذلك النـــوع الذى يمكن أن نســـميه الاداء الطبيعى ، وقد تحدثنا عن الاداء الطبيعى بما يكفى، وبينا ضعف حجته ..

واننا فى مراحل من حياتنا نولع بالعاطفية . وقدمرت عصور على البشر التهبت فيها عواطفهم بشدة ، وتمردوا على أصول الحياة العقلية والمنطق الخفى والتمثيـــــل التقليدى الذى وصفناه ، وزينوا لانفسهم وللناس اتباع العاطفة والوجدان الفطرى

أولئك أقاموا من احساسهم حكما ، وقدسوا الانفعال الانسانى الفطرى ، وقالوا بتغليب القلب على العقـــــل والاحاسيس على المعادلات المنطقية الجامدة

أولئك تبينوا الجمال فى الطبيعة الثرية الفطرية ، فى الشمس الساطعة وفى البحر الصخاب وفى الغابةالعذراء، فى الحب الاعمى كمـــا فى التضحية الهوجاء ، فىالرياح العاتية وفى سكينة النفس المنعزلة

أولئك أيضا كانت تعتورهم كآبة العاطفيين وتطوعهـم المتحمس لاقتسام هموم العالم كله ..

وسواء سميناهم بالرومانسيين أو بغير هذا الاســم ، فلقد كانت لهم قدم راسخة فوق المنصـــــة ذات عصر من العصور ، بل ذات عصور من العصور

ولا بد أنهم كانوا يختلفون تمام الاختلاف عمن سبقهم من الممثلين . فقد كان الممثل منهم يلتهب معبرا عن حبـه او عن سخطه التهابا سخنا . وكانت الكلمات المناسـبة لهـــذا الالتهاب السخن تواتيه من اضرابه من المؤلفـين الرومانتيكيين . وكانت الموضوعات التى يحفل بهاالمسرح هى بالضرورة الموضوعات العاطفية الانفعالية التى تصور وفاء المحبين ، وتضحية الأم ، وايثار الصديق لصديقه ، والكشف عن ينابيع الوجد والنبل والتضحية ..

التهب المسرح فى عصرهم . ولم يعد الجلال ولا الاقوال المأثورة هى ذراه الفنية وانما أصبحت ذروته الفنية هى المونولوج الذى يلقيه البطل فى مواجهة جمهوره معبرا عن أدق خلجات نفسه وملهبا عواطف الجماهير وباعثـــا احساسها العميق بالعطف على تضحيته ، والتدله فىوفائه، والانسحار بسخونة عاطفته وعمقها ..

ذهبت الرصانة والجذالة واشارات الذراع الفخمـــة ، ذهبت الفصاحة والعبارات المنمقة والالقاء الخطـــابى ، ليحل محلها التدفق الوجدانى السخن ، والوجوهالمحزونة بلا اقتصاد ، والعبارات النابضة بالاحساس والالقـــاء العذب المؤثر ، ذهبت الملوك والاشراف والقواد العظـــام بملابسهم الثقيلة وزينتهم الجليلة ، ليحل محلهم العشاق بذقونهم المهملة وشعرهم المهوش وعيونهم الدامعة وكآبتهم المؤثرة واشتعال وجدانهم ..

ولكن بقيت قاعدة من قواعد التمثيل القديم ، وهى : أن يقف الممثل وهو يكشف ذات نفسه على طـــرف المنصة فى مواجهة الجمهور ليبثه شكواه ، وقد استغرقه الحزن وغشيت عيناه بالدموع وشرد عما حوله شأنالمحبين فى ذلك الوقت ..

وكانت مقدمة المنصة فى القرن الماضى تضاء بمصابيـــح البترول العادية ــ فما كان أكثر ماتمتد النار الى بنطلون العاشق .. وما كان فى تلك الظروف ، وبهذا النـــوع من الاداء ، ليستطيع ان يشم الشياط فى الوقت المناسب . ولا عجب ، فقد كان هذا الاداء العاطفى يقتضى من الممثل شدة الاستغراق والاندماج ، على نحو لا يرضينا اليوم . وانما نحن نتطلب اليوم ــ كماأسلفنا فى أول هذاالكتاب ــ نتطلب من الممثل ان يقف على الحد الدقيق الفاصل بـــين اليقظة والاستغراق

لقد كانت هذه العاطفية عتبة لشيء خطير منى به الفن في ذلك العصر وفي عصور من بعده ..

فما كان أسهل التدحرج الى نهاية المنزلق

فالرومانتيكيون في عصرهم قد صنعوا ثورة فنيةعظمى، وكان لهم أساطينهم وأمجادهم ، ولكن هذه العاطفية منطقة حرجة جدا في الفن عموما وهي قمة منزلق خطر . فالدمعة الواحدة تؤثر بينما سيل الدموع ينفر . لا بأس بالانسان يعرض آلامه ، فهذا يجتذب العطف ، ولكن الإنسان اذ يعرض امعاءه في الطريق يثير الاشمئزاز والسخط . الانسان يحب ويهوى ان يعطف على شخص في محنة ، ولكنه ينفر نفورا شديداً من الندب ولطم الخدود والتفجع بلا ضابط .. والتدهور في ضعف النفس الى حد الدناءة والصغار

ان الانسان يهب لنجدة المحزون ، ولكنه ينفر نفورا شديدا منه اذا كان يصرخ صراخا مغالى فيه ويتسول عطف الناس بالمبالغة في عرض أحزانه

ان الدمع يؤثر في الناس ، ولكن محاولة كتم الدموع تؤثر اكثر ..

وقد كان الرومانسيون الاول أقوياء بتمردهم العاطفي ، الى أن ابتذل هذه العاطفية الجميلة فريق مولع باظهار التهافت والضعف العاطفي ، بالغ في التوجع والتثني والركوع تحت اقدام الحبيبة والابتهال والاسترحام .. بالغ في توسل الاب المأزوم لابنه ، واسترحام الام لبنتها والزوجة للعشيقة .. بالغ في نطق الكلمات نطق المتدله الغائب واظهار الحب أسخن مما ينبغي والفجيعة أفدح مما هي في الواقع والقسوة أقسى مما هي في الحياة ..

وصاحب هذه المبالغة ، ويمكن أن يكون قد سبقها ، مبالغة المؤلفين في استدرار رحمة الجمهور على أبطالهم

بمبالغة موازية فى حشد المسرحية بالفواجع وبالاحزان وبالمآسى على نحو فيه الكثير من « الرطرطة »

انتهى اذن المسرح الرومانسى الى الميلودراما وهى هذه المسرحية المحشودة بالكوارث والفواجع ، الفارقة فى الدموع ، الصاخبة بالاهات والتنهدات والابتهالات والتوسلات ورثاء النفس التى تدهورت بالمسرح تدهورا عظيما وان كانت فى بعض الاوقات قد أحرزت نجاحا جماهيريا لا يعلى عليه

وقد عاصر بعض شيوخنا هذه النقلة الخطرة فى بلادنا نفسها فى أواخر العشرينيات وهى نقلة حدثت أيضا فى أوربا ولكن قبل ذلك بزمن

وشهد شيوخنا الانتقال من مسرحيات « غادة الكاميليا » و « النسر الصغير » و « لويس الحادى عشر » الرومانتيكية السخنة ، والتى برقت فيها مواهب روز اليوسف وفاطمة رشدى وزينب صدقى » واننى لاحنى رأسى اجلالا لذكرى ايامهن الغالية » ـ اقول شهد شيوخنا الانتقال من هذه المسرحيات الخالدة الى مسرحية « الذبائح » وما تلاها من مسرحيات ميلودرامية نجحت أخطر نجاح جماهيرى فى تاريخ المسرح المصرى الحديث، ثم سرعان ما تقوضت بها خشبة المسرح وانتكست اخطر نكسة عرفها تاريخ المسرح المصرى الحديث !

انتقل فن التمثيل من مرحلة الى مرحلة انتقالا رأسيا او أفقيا .. وهو فى خلال هذه المراحل يستجمع أصوله الجمالية التى استقرت عليها التقاليد فى مختلف المدارس والمذاهب ..

استقرت التقاليد على كفالة الجمال الشكلى . وهذا يقتضى حسن الصوت ورشاقة الحركة ولباقة الاشارة وجمال القوام عند الممثل ، كما يقتضى من فن المخرج ان

يكون المسرح فى اى لحظة من لحظات التمشيل عبارة من لوحة فنية متناسقة لها قوامها التشكيلي • ومعنى ذلك اننا اذا كلفنا اى مصور صحفى بالدخول فى آية لحظةالي المسرح اثناء التمثيل ليلتقط للمنصة صورة عشوائية فلابد ان تكون هذه الصورة مظهرة للقيمة التشكيلية فوق المنصة ••

كما ان من التقاليد التى أرسيت فوق المسرح انيكون للممثل موهبة تعبيرية سواء بالصوت أم بالشكل تنبع عن دراسة وافية للشخصية التى يؤدى دورها ••

لقد سقطت الآن القواعد الداعية الى التفخيم والرصانة والاتزان المتكلف ، كما سقطت حجة العاطفيين الملتهبين ، وتهافتهم المرذول؛ وتسولهم الرخيص لعواطف الجمهور عن طريق اظهار الضعف او عن طريق التسابق فى التفجع ••

وسيتساءل البعض ما الذى يصنعه الممثل اذا كانمكلفا اليوم بالقيام بأحد أدوار مسرحية كلاسيكية أو مسرحية رومانسية عاطفية ؟ أليس من الاوفق له أن يكون أداؤه مطابقا لروح المسرحية ، أن يكون أسلوبه موافقا أسلوب المؤلف ؟

الجواب : لا ••

فما الذى جعل مسرحيات بعينها تعيش الى يومناهذا خلال عصور كثيرة ؟

الجواب : ان الفنانين فى كل عصر طوعوها لمطالب العصر ، فاذا حكمنا على المسرحية الكلاسيكية الا تؤدى بغير الاسلوب الكلاسيكى ، فقد حكمنا عليها بالموت بعد عصر الكلاسيكية ، واذا حكمنا على مسرحية رومانسية ان تؤدى قهرا وجبرا بالاسلوب الرومانسى ، فقد حكمنا

عليها بالموت فى العصر الحديث ..

وهذا مالا ينبغى ، كما أنه يخالف الواقع، فالمسرحيات العظمى تنطوى على امكانيات ذاتية تلبى مطالب كل عصر من العصور ، وتلبس ميزات كل عصر من العصور ،وقابلة للاداء بالاساليب المختلفة التى تقلبت على ممر العصور وهذا سر خلودها ..

اننا نقول بالقطع اننا احتراما منا للتراث ، وحفاظا عليه ، وثقة بقوته الذاتية ، وحرصا على اظهار هذه القوة الذاتية ، نقطع بوجوب أتباع المنشل لاى من الاساليب العصرية التى يفضلها فى اداء أى من المسرحيات قديمها وحديثها . ان ذلك حقه وواجبه ، كما ان حقه وواجبه دراسة ما تنطوى عليه المسرحية التى يؤديهامن قيم جمالية وفكرية تتفق مع أحتياجات عصره هو ليبرزها فوق سائر عناصرها الاخرى

وسأحاول تطبيق هذا الكلام بعد حين فى فصل مستقل عن مسرحية « مجنون ليلى » للشاعر الكبير احمد شوقى ..



الاوربيون يسمون « التمثيل » .. « لعبا » . ولا حرج من الاعتراف بأن الاطفال هم الذين علموا الكبار هــــذا الفن ..

فالطفل الذى يلتقط عود الكبريت من الارض ويضعه فى فمه ، ليحاول أيهام نفسه او ايهام الاخرين انه يدخن كأبيه ..

والاطفال الذين يلعبون العسكر والحرامية ، او لعبة العروس والعريس فوق سطح البيت ـ انما يمثلون

ففى الانسان غريزة ما تجعله يهوى المحاكاة والتقليد، ويهوى أيهام الاخرين ...

وحتى الاطفال يدركون بفطرتهم قواعد هــذه اللعبة . فالعروس الطفلة تحنى رأسها خفرا . والعســـــكرى الطفل يصطنع الصرامة والجد .. الخ

ان التمثيل الصامت أحد قواعد هذه اللعبة ..

كما أن التعبير التشكيلى من قواعدها الاساسية . وليس التعبير التشكيلى بمستعص على الاطفال ، اذا كانت صغار القطط تستطيعه ..

فلقد اشار الناقد المسرحى فرانسيس فيرجسون الى قدرة القطط الصغيرة على الايهام المسرحى بالتمثيـــل

الصامت ، والتعبير بالشكل ، وهى تلعب لعبة المبارزة ..
فالقط الصغير يتخذ وضع المتحفز ، فيفطن الاخر في الحال لحركة خصمه ويحتشد له ، ثم يدور حوله بخطى بطيئة واسعة حذرة .. كما يتسلل محارب بدائي حول خصمه في الغابة وبيده المقلاع . ثم تعقب المناورة حركة تصدى ، فيرفع القط ظهره على شكل قوس ، فيفر الاخر فزعا ..
وفجأة تتملكهما لا مبالاة الذى سئم اللعبة فينصرف كل منهما الى حال سبيله ، وقد انتهى العرض المسرحى
ان ادراك كل من القطين لمعانى حركة خصمه ، ولمرماها الذى لا ينطوى على معنى العدوان الحقيقى ، هو بذاته حس لفن التمثيل ، واستجابة مدهشة للعملية العقلية وراء حرفة الممثل .. القط يعبر عن استجابته هذه بتشكيل جسمه فى الحال تشكيلا نموذجيا رشيقا ومعبرا، فكأن روح الموقف قد تلبست جسده الناعم ، وصارت تطوعه تبعا لتغير مراحل التوهم والايهام فى اللعبة ..
هذه الحركات التى تؤديها القطط فى لعبة التمثيل هى من الفن ..
كما أن ما تعبر به هذه القطط عن المطاردة او التصدى او المناورة من حركات .. تتسم وتتميز بالايقاع والتوافق أكثر من حركات الصيد او التصدى الحقيقية . كما انها اشبه فى تجردها من النفع والمصلحة — اشبه بما تحفل به الاحتفالات الفنية الانسانية من رقصات للصيد والحرب أو غيرها
ولو أنك راقبت لعبة التحطيب كما يلعبها أهل الصعيد، ستلاحظ أن ذلك الاشتباك الوهمى ليس مجرد محاكاة لخناقة طبيعية ، وانما هو اشتباك ملىء بالاحساس الفنى العظيم ..

ففارس التحطيب لا يتراجع او يهجم او يناور كما كان يفعل فى خناقة نشبت في السوق · لعله فى الخناقة كان ليستجيب لدواعي الخطر استجابة تلقائية غير مدروسة . اما فى فن التحطيب ، فالفارس يقفز على قدم واحدة قفزات جليلة مليئة ، ويدع جسمه كله يميل على ايقاع خطوته وهو رافع قدمه الاخرى عن الارض شاهرا عصاه فى وضع رشيق ..

وانى لمتأكد أن اجدادنا الاول الذين خاضوا حروبهم بالعصا لم يكن فيهم من يشتبك بهذا الايقاع الرصين الجليل ، وبهذه المرونة والجمال التشكيلى

فمن اين جاء للفنان الشعبى هذا الاسلوب فى الخلق الفنى ..

انه نوع من الامتلاءبالبطولة والاحساس بالتاريخ .. فالمشاعر الاصيلة التى تكنها للسلف . المشاعر التى تحفزنا لنهوى القيم المثالية او تحفزنا لنبنى مبانى ضخمة ، أو لنقلد من هم أكبر منا ..

هذه المشاعر يرشدها ويشحذها احساسنا الغريزى بالتاريخ ..

الاحساس بالتاريخ هو الذى يلهمنا كمتفرجين مشاعر الاعجاب والحب للمسرح التاريخى والاسطورى ، للمناظر الضخمة والانتاج الكبير ·· وهو ما يمكن أن يجتذب عديدا من الجمهور الى مسرحنا لو أحسن توجيهه والانتفاع به · وهو الذى يلهم أعظم ممثلينا أعظم أدوارهم ·· فسميحة أيوب فى « انتيجونا » وسناء جميل فى «شمس النهار » وحمدى غيث فى « عطيل » ومحمد الطوخى فى « ياجو »وسعد أردش فى « تيرسياس » ·· يعكسون صورا من أفضل ما نعتز به فى مسرحنا المعاصر

ولو أتيحت لمسرحنا فرصة أفضل فى التخطيط والتوجيه

لاصبحت هذه الادوار التى تمثل محاور النهضة المسرحية الحقيقية هى بذاتها أعظم جاذب جماهيرى فى المسرح ..

ذلك أننا لا يمكن أن نطلب من الفنــــان أكثر من أن يعطى فنه ، ولكننا نتوجه للاجهـــزة الادارية حين نطالب العمل على ترويج الفن الافضل والاحسن مســتهدفين فى آخر الشوط أن يكون أفضل الفن هو أروجه جماهيريا

ولكن هذا حديث اخر ..

ان ألوان المسرح الضــــاحك بشكل عام تسبق ألوان المسرح الرصين الجاد ولن أبحث هنا أسباب هذا السبق والذيوع التى يحظى به فن الضحك دون الفن العاطفى أو الفلسفى الرصين ، ولكنى لا أجد فكاكا من البحث فى فن الضحك نفسه .. عناصره وأصـــوله وألوانه نزولا على الامر الواقع الذى جعل منه أروج فنون المسرح المصرى العصرى اليــوم ..



فنّ الضّحك

يذهب البعض الى تعريف الانسان بأنه حيوان ضاحك، فلا عتب على ان أنا اعتمدت على هذا التعريف وتجاوزته فأضفت اليه أن الانسان حيوان مضحك ..

فمن بين الكائنات جميعــا ، الجهمة أو ذات الملامح الرقيقة .. لا يضحك فيقرقر تعبيراً عن الانبساط الا ابن آدم. كما أنه من بين الكائنات جميعا، وحشها واليفها. . لا يضحك ابن آدم الا من ابن آدم ..

لا مضحك فى الدنيا الا الانسان. ولربما اعترض البعض بأن الناس تضحك أيضا من قرود حديقة الحيوان وهى تقزقز اللب ، أو من دببة السيرك وهى تركب الدراجات ، او من صغار الكلاب وهى تتشقلب وتتخانق .. ولكن فليلاحظ هؤلاء المعترضون أننا انمـا نضحك من هـذه الحيوانات فى حالة ضبطها متلبسة بتقليد الانسان

نحن انما نضحك من شيء انسانى انتقل الى ظـروف غير انسانية ..

نضحك من أن لازمة من لازمات الانسان ، وطبعا من طباعه اللاصقة به .. تتسامى الى تقليده الحيوانات ..

ان تحول اللاانسانى الى انسانى .. تحــول الشيء الى انسان ، يبعث على الضحك .. وقد عرف فنـانو

(*) اعتمدت فى هـذا الفصل على بعض آراء الفيلسوف الفرنسى برجسون

السيرك ومؤلفو الكوميديا وممثلو المسرح هذه الخاصية من قديم ، واستخدموها على أوجهها المختلفة ..

والذين شاهدوا جلفدان هانم مثلا فى المسرح او فى التليفزيون ضحكوا جدا من الهانم وهى تناجى صورة حبيبها الراحل المعلقة فى الصالون .. كانها تناجى رجلا سويا ! ..

وقد صعد أحمد باكثير ، مؤلف المسرحية ، بهذه المفارقة الى مستوى أعلى ـ أبعث على الضحك ـ فاختلق نقاشا وجدلا بين العجوز والصورة (من طرف واحد طبعا رغم توهم العجوز بأن الحوار متصل وفيه اخذ ورد) نقاشا وجدلا ينطوى على تسليم الهانم العجوز لصورة حبيبها بكافة حقوق المحبين !

والامثلة على هذا النوع من الاثارة المضحكة لا حصر لها

السكران يخاطب عمود النور ..

اللص اذ ضبط فى عشة الدجاج يقوقىء ليموه على مطارديه ..

الى آخره ..

هذه واحدة من بواعث الضحك ..

وقد اكتشف الكوميديون على مر العصور ، بالسليقة وبالملاحظة وبالدراسة عددا عديدا من بواعث الضحك .. فمن بين هذه البواعث قلب الاوضاع

ومن أمثلتها القريبة :

حكمدار مسرحية « السبنسة» الذى تكشف عن لص..

« دكتور كنوك » الذى جعل يوهم الناس بالمرض ليثرى بدلا من أن يبث فيهم الشعور بالصحة ، وهو يبرر مسلكه بمنطق غاية فى الغرابة والتضحيك ..

كما أن من أنجح الاوضاع المقلوبة التى عرضت على جمهورنا فى المواسم القليلة الماضية مشهد الجلاد والمحكوم

عليه بالاعدام فى « السلطان الحائر » للحكيم

الجلاد يطلب من المحكوم عليه التعس أن يرفه عنه !.. ان يعدل له مزاجه ! ان يسقيه خمرا على حسابه ، ويتملقه وأن يلح كى يغنى بصوته الاجش ثم يثنى على جمال صوته ، ويؤكد الثناء ! .. ذلك ان الجلاد ـ كما يزعم ـ اذا ما طلع عليه الفجر وهو رائق المزاج سيؤدى عمله على اكمل وجه ، بحيث لا يشعر المحكوم عليه بأدنى الم عند الموت ! ..

ان كل جهود المحكوم عليه « المكروب » لترويق مزاج الجلاد وتسكين خاطره تثير الضحك جدا .. ولكن يؤسفنى انه رغم الجهد الممتاز الذى بذله فنانو الفرقة القومية فى هذه المسرحية اخراجا وتمثيلا .. لم يلتفتوا للمفارقة الكوميدية الصارخة التى ينطوى عليها ذلك المشهد ـ وكانت خليقة بأن تثير الضحك بعنف ..

كيف تحول ذلك المشهد المضحك الى غير ذلك ؟

العاطفية !

العاطفية الد أعداء الضحك ، فلكى يحدث تأثير الضحك يجب ان يتوقف القلب عن الشعور برهة . لان ما هو مضحك انما يتوجه الى العقل المحض . ان كشف عيوب الناس او مكامن المفارقة فى موقف ما على نحو يثير الجزع او الشفقة أو الرحمة كفيل بأن ينسخ الضحك ويطرده ..

لقد اهتم فنانو الفرقة فى ذلك المشهد بما يثير شفقة وجزع الجمهور ويحرك عواطفهم ، بالنبرة واللهجة والحركة .. فتحول المشهد عن مرماه الاصلى الهازل وفقد تأثيره الحقيقى ..

ان الانسان اذا تأثر عاطفيا لا يضحك . والمشهد الكوميدى كى يثير الضحك لابد ان يتجرد من العاطفة .

المشهد الكوميدى مشهد عقلي بحت . الانسان يضحك من قلب المعقول او المألوف .. انه يضحك من « اللامعقول » ان صح هذا التعبير ..

والكلام اذن سينقلنا بالضرورة الى مسرح اللامعقول. ان مسرح « العبث » هذا يرمى الى الكشف عن العناصر اللامعقولة فى حياتنا . هو مسرح فلسفى و « عقلى » .. وهو من حيث ذلك مسرح كوميدى بالضرورة ..

ان قلب اوضاع اللغة ، ومنطقهـــا ومدلولاتهـــا واستخداماتها المألوفة ·· لابد أن يبعث على الضحك ··

وقد كنت أحسب قبل المشاهدة ان هذه بديهية بسيطة فمسرح العبث مسرح عقلي يجافى المؤثرات العاطفية ايا كانت .. ومسرح العبث يتداول القوالب العقلية والمنطقية تداولا لا معقولا ··

ولكنى دهشت حين شاهدت بنفسى متفرجين يكتمون الضحكات اشفاقا على أنفسهم من اتهامهم بالتبـــذل والخروج على الذوق السليم ، أو بقلة الفهم ..

ان مسرح العبث لون من ألوان المسرح الثقافى .. نعم ..

ولكن الثقـــافة ليست بالضرورة أخت الجهـــامة والصرامة ..

والكوميديا ليست بالشيء المبتذل او السوقى .. فأى شيء يدعو بعض الناس أن يتحرجوا من الضحك فى مسرح كوميدى ؟!...

***

نعود من مسرح العبث الى عديد الكوميـــديات التى تتلألأ القاهرة بأضوائها

نعود لنستأنف السؤال :

ما الذى يضحـــكنا فى شخصية الموظف المرتشى أو

السكرتير المنافق ؟ ..

ما الذى يضحكنا فى موقف الزوجة تضبط زوجها متلبسا بالخيانة ، أو موقف المدير اذ يتهالك على زوجة وكيله اللعوب ؟

ما الذى يضحكنا فى ذلك .. وقد كان ليمكن ان نتأثر وننفعل بالسخط فلا نضحك ..

« سر الصنعة » فى كشف مواطن الضحك فى تلك المشاهد هو :

الكاريكاتير ..

فى كل شخصية ، وفى كل موقف ، وفى كل وجه اعوجاج ما .. تلتقطه عين الفنان الفاحصة : فتضخمه لتجعله بارزا للعيان . هذا سر صنعة الكاريكاتير ..

الكاريكاتير يعتمد على المبالغة المتعمدة . ولكنه مع ذلك لا يختلق العيوب اختلاقا وانما يبالغ فى تصوير عيوب موجودة فعلا فى الشخصية .. وهذه العيوب كانت لتتضخم وتتفاقم — فى الطبيعة وعلى النحو الذى يصورها به فنان الكاريكاتير — لو أنها استسلمت لشهواتها أو لنموها الذاتى بلا ضابط ..

والكاريكاتير لا يضحكنا فى كل الاحوال . فتصوير عاهة رجل تعس خليقة باثارة الحزن لا المرح . كما أن السخرية مما يكن له الناس الاحترام سخرية غير مضحكة ، وقد يكون لها أثر مقزز

ذلك لان الضحك فعل اجتماعى . ولا يتحقق للكوميديا نجاحها الفنى الا اذا كانت تفى بأغراض اجتماعية عامة ..

اننى استطيع ان أحزن وحدى ، ولكنى لا استطيع أن اضحك وحدى .. فالضحك يلزمه صدى ، يلزمه مجتمع ولعل الممثلين يعلمون اكثر من غيرهم ان ضحك المتفرج

يكون أعمق وأعنف فى المسرح كلما كانت الصـــالة أغص بالناس ..

عجيب أمر الكوميديا ..

انها تخفى وراءها فكرة تفاهم جماعى ـ بل تآمر !.. ضد الناشزين عن المجتمع . والضحك هو الانتقـــام والقصاص الرادع لهؤلاء الناشزين ..

والعجيب ان الناس لا تردع بالضحك فاسدى الخلق وحدهم ، وانما تضحك ايضا من السذج والبلهـــــاء والغافلين حتى وهم فى موقف المجنى عليهم . النـــاس لا تعفى لا الزوجة السليطة ولا الزوج الخانع من سـياط الضحك . اشهدوا كيف يضحك الجمهور منهما كليهما فى « عيلة الدوغرى » ..

ذلك لان الضحك ليس انتقاما اخلاقيا ، ولكنـــــه انتقام اجتماعى . والمجتمع لا يرحم الســـذج والمغفلين وفاقدى الشخصية ، بل ويقتص منهم لانهم فاقـــدو التكامل الاجتماعى ..

المجتمع لا يحرص على مجرد البقاء ، انه يحرص على حسن البقاء ، وغايته هى التوافق العام والانسجام التام وأحد أسلحته فى التقويم والـــــردع هى الضحك ..

لذلك فالنقد الاجتماعى هو انجح صور الكوميـــديا وأنجح موضوع للسخرية . كم ضحكت الاجيـــال من «بخيل» موليير ومن شخصية « الشيخ متلوف » .. من الادعياء ومن مجون الشيوخ ومن المتزلفين والمنافقين !..

وكم حقق هذا الضحك من نفع اجتماعى ؟

ان الفنان الحق لا ينى يسأل نفسه : ممن أسخر ، وعلى أى شىء أضحك الناس ؟..

أساليب التضحيك كثيرة ولكن الفن الحق هو الذى يستخدم هذه الأساليب لنفع اجتماعى عام . ذلك أدعى

لنجاحه فنيا وجماهيريا ..
ما علينا ..
الناس تضحك ايضا من الاراجوز .. وما أن ترفع هذه الدمية ذراعها او تطأطىء رأسها حتى ينفجر النـــاس بالضحك ..
ذلك ان الاراجوز هو فى نفس الوقت بشر وآلـــة . والاطفال أكثر الناس قدرة على توهم هـــذا الازدواج فى تكوين الاراجوز . ولعل الكبار يستمتعون بهذا الازدواج استمتاعا اكبر فوق منصة المسرح ..
فالممثل الذى يتحرك حركة متصلبة يثير الضـــحك ، لانه يبرز هذا الازدواج العجيب .. فهو بشر وآلة فى نفس الوقت ..
لا حاجة بى الى ان أضرب المثل بمحمد عوض ، وهو يدور فوق المنصة يردد مثل الاسطوانة المشروخة : أنا عاطف الاشمونى مؤلف الجنة البائسة »
او كريمة « عيلة الدوغرى » « نادية السبع » اذ أثارت الشفقة أول ظهورها على المسرح باكية .. ثم لاحـــظ الجمهور انها تبكى كلما وجه اليها احد الخطاب ، فشرع الجميع يضحكون منها كلما بكت هى ، ويمعنون فى الضحك كلما أمعنت فى البكاء ــ كأنها دمية تبكى بمجرد اللمس!..
ان الانسان مرن بطبعه ، متجدد ويتميز بالحيوية . فالتصلب والآلية والتكرار توحى للجمهور كأن آلـــة ثقيلة قد استقرت فى روح الشخصية وأخذت تحركهـــا بمقتضى قوانينها الالية المضحكة
الانسان والشىء ..
التكرار الميكانيكى ..
البشر والآلة ..
هذه كلها عناصر متعلقة بعضها ببعض .. وتعتبر من

مفاتيح فن الكوميديا ، ولها صور لا حصر لها ..
تصلب الرأى ..
ثبات البخيل عند بخله رغم تغيير الظروف ورغم عديد النصائح والتحذيرات التى يتلقاها ، ورغم ما يتهدده من خسارة ..
ذهول الابله عن فهم الظروف المحيطة به والتكيف بها ووقوعه فى نفس المطب المرة بعد المرة
الى آخر هذه الصور المضحكة ..
ان القدرات الخلاقة لممثلينا فى مجال الكوميديا قد دفعت مسرحنا خطوات الى الامام . ونجومنا الساطعة : عبد المنعم ابراهيم فى « حلاق بغداد » وشفيق نور الدين فى « القضية » و « السبنسة » وحسين رياض فى « تاجر البندقية » وسعيد أبو بكر فى « مسمار جحا » وفؤاد شفيق فى « مضحك الخليفة » وتوفيق الدقن وعبد السلام محمد فى « الفرافير » وفؤاد المهندس فى « السكرتير الفنى » وصلاح منصور ومحمد توفيق فى « الزلزال » .. وغيرهم من الابطال المرموقين دعموا فن الكوميديا فى بلادنا وأتاحوا له بجدارة امكانيات وآفاقا لا حدود لها
ان فن الكوميديا قد سبق الفنون المسرحية الاخرى فى بلادنا ، من حيث الرواج فنحن شعب يحب النكتة ، ولا جديد فى ذلك . ولكن الجديد هو ما يقرره الفيلسوف الفرنسى برجسون من أن الشعب المولع بالنكتة شعب مولع بالمسرح ..
ان الصلة بين الاثنين ظاهرة وهى صلة — كما هى جديرة بالتأمل — فهى مثيرة للامل جدا ..
أما الامل فهو فى قلوبنا . أما التأمل فهو يشحذنا لمزيد من البحث فى أصول الكوميديا فى بلادنا ..
ما أصلها ؟ .. وما أصولها ؟ ..



الريحاني..
فنان المسرحية الواحدة المؤثرة

ستة عشر عاما مضت على وفاة الريحانى .. لعل نسبة كبيرة من قراء هذه الكلمات لم يشهدوا الريحانى فوق المنصة ولم يعرفوا عنه الا سماعا ..

حتى أفلامه بأسلوبها القديم ، ومذاقها الذى لا يثير عامة شباب هذا العصر .. لم تعد تجذب الجماهير كما كانت تجذبهم فى الاربعينيات ..

أمات الريحانى اذن ؟ .. اللهم الا تلك الذكريات الثمينة التى يحافظ عليها مسرحه باذلا كل الجهد ، والذكريات العزيزة التى يحفظها عنه معاصروه ومن أستمتعوا بفنه؟..

لا . لم يمت الريحانى على النحو الذى يتصوره البعض . فأولئك الذين عاصروه وامتلأت سهراتهم بفنه العظيم لا يزالون يلمسون آثاره وطابعه ـ لا فى مسرحه فحسب ، بل فى أحسن سمات الكوميديا المصرية كلها . انى لاتوهم انى أسمع صوته فى مشاهد من مسرحيات نعمان عاشور وسعد الدين وهبه .. فى نبرات شفيق نور الدين ومحمد عوض وفؤاد المهندس والمرحوم عادل خيرى وغيرهم ..

هؤلاء الفنانون : اذا لم يكن منهم من تأثر بفن الريحانى تأثرا مباشرا ، فهو قد امتص أثرا من هذا الفن من المزاج العام الذى ساهم الريحانى فى صنعه وتأكيد ميزاته خلال

ثلاثين سنة من العمل المستمر ، والنجاح الساحق ..

ان هذا الاشعاع الذى ملأ مصر بهجة ومسرات خلال ثلاثين سنة .. لم ينطفىء ولم يكن ليمضى هكذا دون ان يخلف أثرا وطابعا على غيره . وهذه من خصائص الفن الجيد .. انه ينتقل كما ينتقل الرخاء وتتداوله الناس وتتوارثه الاجيال ، او كما يقول عامة بلدنا : هو خير والخير يعم ..

هكذا انتقل فن الريحانى الى ورثته الطبيعيين ، كتاب وفنانى امته .. انتقل بعضه على الاقل .. انتقل خير وأبقى ما فيه وان اتخذ من بعده سمات جديدة أكثر تلاؤما مع احتياجات العصر وافكاره ..

ولن أعدد هنا ما انتقل من فن الريحانى الى خلفائه من الشباب . ولعلّ ذلك ان يكون سهل الاكتشاف بدراستنا لفن الريحانى نفسه ..

فما هى أركان هذا العمل الفنى الجبار الذى شارك فيه الاستاذ بديع خيرى ـ أطال الله بقاءه ـ والذى ملأ افاق بلادنا عشرات السنين ، وكان أروج فنوننا كلها فى عصره ؟ ..

اعتمد فن الاضحاك عند الريحانى وبديع على المفاجاة. فبعد التمهيد الطويل للزراية بالبطل الفقير والتنكيل به تهبط عليه الثروة المفاجئة فتنقلب الاوضاع ، والذى كان ينكل به أول من ينافقه ، والذى كان يزدريه أول من يتملقه ..

أو بعد التمهيد الطويل بجبروت الرجل الغنى، وتبجيل البسطاء له (ومن بينهم البطل طبعا) ينكشف عنه الستر فجأة ، فاذا هو لص أفاق متآمر على البطل الطيب البسيط ، وعندئذ يضيق البطل المخدوع بخديعته ويخزه بتهكمه المرير ويحمل عليه بلا هوادة ليمزق عنه آخر

الاقنعة ..

المفاجأة ، ثم انقلاب الاوضاع على أثرها (أو لعل الانسب ان نسميها اعتدال الاوضاع) كانا من أهم أركان فن الريحانى وبديع ..

المفارقة أيضا كانت مثيرا عظيما للضحك فى مسرحه . المفارقة التى ينسجها البعض بمعاملة الناس على مستويين الرضى بالاهانة وبالغش من الغنى ، والتحفز الابى ضد الفقير . اهدار الكرامة فى القصر ، والاستئساد فى غرفة السطوح ..

المفارقة بين معاملة الاغنياء للكلاب ومعاملتهم للبشر من الفقراء . بين الخضوع للظلم ثم التمرد عليه لان الحال اصبح غير الحال افتقر الغنى او اغتنى الفقير ..

وفى المواقف المنقلبة ، والتى تتمخض عنها المفاجأة ، او التى تتميز بالمفارقة .. تنتشر أجنحة الريحانى فوق منصة المسرح فاذا هو عملاق عظيم يفجر كل شيء بتهكمه وسخريته باحساس عميق للفكاهة وقدرة خارقة على السيطرة ، وعلى استنباط الضحك من ذات الموقف ـ لا بترصيع الموقف بنكت لا علاقة لها بالموضوع كما يفعل المتسرعون ..

التهكم هو أن يقول الريحانى للباشا اللص ، بعد هتك ستره :

ـ العفو يا سعادة الامين ، يا باشا يابن الاكابر . ياعفيف النفس يا منقذ الانسانية .. الخ

والسخرية هى أن يقول له :

ـ طبعا . ما هو السحت مفيش الذ منه . والباشا الكبير لازم يسرق سرقة كبيرة على قده ! ..

من فوق هذه الركائز الكوميدية انطلق الريحانى يضحك جيلين حتى لتدمع العيون وتتوجع البطون من كثرة الضحك .

ظاهرة عجيبة ومدهشة ! .. فالذى شهد بنفسه كيف كان الريحانى يضحك الجمهور فى الاربعينيات لا شك سيدرك أننا لم نضحك من بعده فى سهراتنا الفنية الا قليلا ..

ولننتقل من روح الفكاهة الحريفة وركائزها التى تميز بها فن الريحانى الى النظر فى بناء مسرحياته الفنية ..

ولن أناقش هنا قضية الاقتباس ، ولا تهمنا كثيرا ما دام الريحانى قد طبع المواضيع الفرنسية بطابع مصرى أصيل أو بالاحرى استخلص منها ما يمكن أن يبعث فيه الحياة والروح المصرية بأصالة ، ولكن الذى يلفت النظر بشدة هو أن الريحانى وبديع لم يكتبا الا مسرحية واحدة بأسماء متعددة ، ولم يرسما لها الا شخصية بطل واحد .. ففى كل مسرحياتهما يضطلع بالبطولة رجل واحد فقير مغلوب يطلب الرزق فتقوده قدماه الى محيط مادى نفعى حقير .. غابة تملاها الذئاب ، حيث تتلوث عواطف الحب نفسها بالاوساخ ، وتختل قيم الشرف والوفاء ، رجل يتعذب بفقره وقلة شأنه ومثاليته المصدومة حتى تهبه الاقدار فى النهاية قلب محبوبته أو تهبه ثروة مفاجئة ..

موضوع واحد من مسرحية الى مسرحية وبطل واحد محب للعدل ممتلىء بالامل ، متميز بالخلق والطيبة المصرية الاصيلة ، ويتطلع الى عالم نظيف ، ويختم المسرحية بموعظة حسنة ...

وقد كانت هذه الشخصية الواحدة ، مرسومة بحيث يؤديها الريحانى . ومن كثرة ما مثلها الريحانى فى عشرات السنين لاءمها ولاءمته واعطاها من دمه واعطته من حيويتها بحيث تشابها فى النهاية فاذا هما شخص واحد . الريحانى ودوره ، بحيث لم تعد تلك شخصية محروس أو حسنين أو غيره .. بل أصبحت هى هى نجيب الريحانى حتى ليمكن بسهولة أن تصبح أسماء مسرحياته ، الريحانى بين

حسن ومرقص وكوهين ، أو الريحاني يتزوج الدلوعة .. وهكذا ..

ذلك ما جعل خلفاءه على المسرح لا يجدون مفرا ولا فكاكا من تقليده . فمسرحياته التي كتبها لنفسه ولاءم شخصية بطلها على شخصيته لا تسمح للمثل ان يقوم ببطولتها على غير النمط والاسلوب والطابع الذى فرضه الريحاني عليها ..

لذلك لم يوفق خلفاؤه توفيقه ، فانه هو هو الريحاني وهم قلدوا الريحاني ..

ولعل الكثيرين منا سيتوقفون هنيهة امام الموعظة الحسنة التي كانت سمة مسرحيات الريحاني . وسيجد شبابنا المثقفون ومن امتلأوا بالفكر الاشتراكي ودرسوا الاختلال الاجتماعي الذى أعقب ثورة ١٩١٩ أن موعظة الريحاني على قدر من البساطة والسذاجة ، وبخاصة أن الريحاني اقتحم وعالج باصرار موضوعا اجتماعيا معقدا طرفاه فقير وغني . واذا كان لنا أن نضع الامور في مواضعها فلا بد ان نعترف أن فن الريحاني لم يكن بالفن الثوري ، ولكن نقده الاجتماعي مع ذلك كان منبرا اصلاحيا في عصره . وعلى أية حال فالريحاني لم يعلق مصائر الناس قط على طيبة الباشا أو توبته الاخيرة كما كان يفعل معظم معاصريه السينمائيين والمسرحيين . وكان لا يني يلهب ظهور المرائين والاثرياء بنكات لاذعة مؤلمة ..

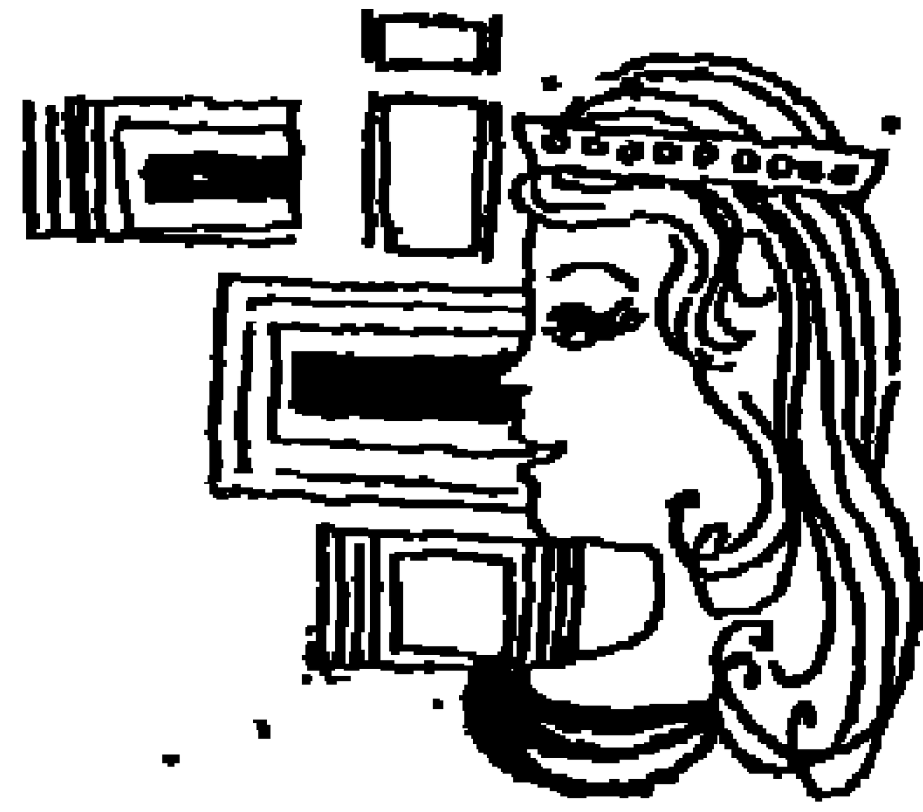
وأن كان الريحاني قد وسم فنه بالقدرية وميزه بهبوط الثروة المفاجئة ، فهو لم يستخدم هذه السمة ايضا كما استغلها بعض معاصريه لاشاعة الخدر اواحلام المراهقين ، وانما استخدمها لتفتيق الموضوع عن مزيد من السخرية والتهكم ، وتوجها بالموعظة الذكية ..

نعم . كان الريحاني داعية القناعة وللقدر الذى يفاجىء

الطيبين بحسن الجزاء ، وكان في ذلك متخلفا عن بعض تيارات الادب التى عاصرته .. ولكنه ايضا كان نصيرا للفقير ضد الغني على نحو أذكى من معاصريه من السينمائيين والمسرحيين ، وكان نصيرا للعدل ، ولم تشغله أمور السلوك .. بل توجه رأسا وبشجاعة وفهم لمسائل الخلق . وكان لاذعا وقاسيا في هتك أقنعة الاغنياء . كان من فنانى الطبقات الفقيرة الملهمين ..

فنان بحق .. كتب مع زميل عمره بديع خيرى مسرحية واحدة بأسماء عديدة واضطلع ببطولة واحدة .. ولكنها كانت عزاء للمعذبين فى بلادنا، وحربا على الفساد الاجتماعى وتسرية لالام الناس وتخفيفا لكروب المجتمع ..





الكوميديا ديللارتى

ولكن الريحانى نفسه لم يكن بدعا فى هذه الخاصية العجيبة ..

ولكى نرى ونلمس سر النجاح الساحق الذى حققه الريحانى بشخصية واحدة كررها عشرات المرات ، بمادة مسرحية واحدة كررها فى قوالب وعلى أوجه متعددة .. يهيب بنا البعض أن نرجع الى الاصول الفرنسية التى اقتبس منها الريحانى ـ ولكننى أطمح لما هو أبعد من ذلك ..

اننى أطمح لان أرجع بكم الى الاصول الجذرية التى اشتقت منها المسرحيات الفرنسية المذكورة أو الجزء العظيم منها ، وبالتالى تأثرت بها بشكل واضح مسرحيات الريحانى نفسه

سأرجع بكم الى عصر قديم جدا ..

فى النصف الثانى من القرن السادس عشر انتقلت من ايطاليا الى باريس فرقة تمثيل ايطالية تقدم مسرحيات مرتجلة عرفت فى تاريخ الفن باسم « الكوميديا ديللارتى» وقد اكتسح تيارها الفنى فرنسا بعد ايطاليا ، ثم سائر أنحاء أوربا الغربية ـ حتى اشتركت فى فنها ، او الهمت بفنها كبارا خالدين مثل كورنى وموليير ..

كان فن « الكوميديا ديللارتى » بسيطا للغاية ، ونافذ

الاثر للغاية أيضا • كان طابعه العام التهريج وارتجـال الحوار .. أى أن الممثل فوق المنصة يؤلف من الحوار ما يراه مناسبا للموقف المتفق عليه سلفا بين الممثلين

وقد ابتدع هؤلاء الفنانون انماط شخصيات محـددة لا تتغير أبدا مهما تغير الموضوع او المواقف التى يتفقون عليها ، أشهرها : شخصية العجوز الهزؤة « بنتالون : المغفل » ..

الخوجة المعلم « وقد بلغ من شهرة هـذه الشخصية وذيوعها ان الفيلسوف الفرنسى بسكال احتج عـلى استخدامها للسخرية من المتعلمين عدة مرات »

الخادم المخاتل المحتال .. (هارلاكان : المهرج) وهـو بطل العرض وفتاه الاول ..

العسكرى الفظ بشاربيه المرعبين وفهمه المحدود

حبيبان تحمل الرسائل فيما بينهما خادمة الحبيبـة اللعوب والتى غالبا ماتقع فى حب البلياتشو « هارلاكان »

وكان الممثل يقوم بأداء دور من هذه الادوار طـوال حياته الفنية ..

وسواء أكان موضوع الرواية هو سعى العجوز البخيل للزواج من العاشقة الشابة وانتزاعها من حبيبها .. أو كان الموضوع يتعلق بحرمان ابن مبذر عاشق من الميراث

أو كان موضوعها يتعلق بعشق الخوجـة قصـير النظر لابنة البخيل الشابة ..

أيا كان الموضوع .. فان الشخصيات لا تنحـرف عن مسارها او طابعها ولا تغير ملامحها او لازماتها ..

وكان لكل من هذه الشخصيات ملامح فى الجسم والملبس والماكياج لا تتغير هى الاخرى • فالعجوز دميم والمعـلم قصير النظر والخادمة بدينة .. وما الى ذلك

وفى بعض الاحيان كانت هذه الفرق تستخدم الاقنعـة

الكاريكاتيرية يلبسها الممثلون على وجوههم كعنصر من عناصر الاضحاك ، أو تستخدم الدقيق والطلاء لتطويع ملامح الممثلين فنيا بغرض التضحيك ..

ولا يظن أحد أن هذا التيار المسرحى كان قليل الشأن ، أو قليل الاثر خلال عصره او ما تلاه من عصور . فقد عاشت للكوميديا ديللارتى تقاليد من تقاليدها ، وانتشرت فى انحاء العالم انتشارا واسعا . فانك لترى اليوم فى كل انحاء العالم بلياتشو السيرك يجدد تقاليد من تقاليدها ، كما ترى فى انحاء العالم تمثيليات تعرضها صالات الموسيقى وفرق التمثيل الشعبية فى الموالد والكرنفالات ، تلتزم بتلك التقاليد القديمة لفنانى الكوميديا ديللارتى ..

بل ان آثارهم واضحة ومؤكدة فى فن الكاريكاتير ، وفى فن التشخيص فى الادب بشكل عام .. القصة والرواية والمسرحية . وحتى تيار الواقعية الحديثة ينحو بعضه الى خلط الواقع بسمات من الكوميديا ديللارتى ..

ان شخصيات كاتب عظيم جاد مثل جان انوى - فى مسرحياته الكوميدية - تتضوع بهذا العطر القديم .. هى ان لم تكن مطبوعة بأسلوب فن العرائس ، أو توحى بهذا الاسلوب فلا مفر من ان نزعم انها مطوعة او توحى بنماذج وانماط الكوميديا ديللارتى ، أو آثارها التى انتقلت منها الى كوميديا السلوك الانجليزية وكوميديا المكائد الفرنسية

لندع هذا جانبا ، ولننظر فى اثار الكوميديا ديللارتى على فن المسرح المصرى ..

كم ممثلا فى تاريخنا القصير مثلوا شخصية واحدة ، نموذجا واحدا ، نمطا واحدا طيلة حياتهم الفنية ، على تعدد المسرحيات والمواضيع التى مثلوها : نجيب الريحانى . على الكسار . يوسف وهبى . اسماعيل يس - ودع جانبا فن السينما ، والانتاج الكوميدى الحديث جدا ..

لم يكن مسرح الريحاني اذن بدعا فى فن التمثيل اذ واظب فى جميع مسرحياته على تقديم «طاقم» واحد من الشخصيات رغم اختلاف موضوعات ومواقف هذه المسرحيات . كانت فرقته تصب جميع ممثليها فى قوالب ثابتة من حيث الشكل وبناء الشخصية .. حتى اصبح الجمهور يكاد يعرف سلفا ما سيقوله الممثل ، بعد أن ألف الجمهور الشخصيات ، وتمرس بنوع المفارقات والمطبات التى سيتعثر فى حبائلها هذه او تلك ..

أصبحت شخصيات : ابن الذوات التالف ـ الغنى العبيط ـ الخادمة الشرشوحة اللعوب ـ البنته الدلوعة ـ المعلم لابس اللاسة ـ الافندى العجوز الخبيث .. فضلا عن شخصية الريحانى نفسه (كما عددها لنا الاستاذيحيى حقى فى مقاله عن فن الريحانى) ـ أصبحت هذه الشخصيات هى معالم فن الريحانى الثابتة ..

لم يكن الريحانى نسيجا وحده فى اتباع ذلك الاسلوب ولا اريد أن اشير فقط الى الكسار وسائر الفرق الكوميدية التى نافست الريحانى فى وقت من الاوقات .. وانما أشير أيضا الى أن يوسف وهبى ـ ولم يكن مسرحه كوميديا ـ اتبع نفس الاسلوب فى تثبيت الشخصيات ..

ولا بد أن أشير هنا الى أن هذا الاسلوب فى الخلق المسرحى يقتضى ان يحافظ الممثل مدى حياته على ملامحه ولازماته وطريقته فى الاداء . بل يقتضى هذا الاسلوب طريقة خاصة فى التمثيل اقرب الى « الذهول » .. الذهول عن هيئته المضحكة ، وعن صفته التى تضحك الناس فالدلوعة يجب أن تظل دلوعة كما يجب أن يظل البخيل بخيلا فى كل مواضع المسرحية ، لا يأبه .. ولا تأبه للمطبات أو لكلام الاخرين ، أو للمناقشات ، أو تستجيب لظروف أخلق بها أن تراعيها كوجودها فى حضرة

رجل دين أو جد عجوز أو ما الى ذلك ..

ان الشخصية تشع بخصالها المضحكة فى اى مكان وفى أى وقت كأنها ماسة تتلالأ ، ولا تملك أن تراعى أين ومتى تخبىء لمعتها ..

والحق ان خصلة الذهول هذه ، والاسترسال الذاتى للشخصية كأنها آلة تدور ولا تعقــل .. هى من عنـــاصر الاضحاك الهامة فى هذا اللون من الكوميديا ..

كما أن من عناصر الاضحاك فى هذه الكوميديا ـ وهى من العناصر التى انتقلت الينا كذلك ـ وقف التسلســـل الدرامى المتصاعد من وقت لاخر كى تتشاتم الشخصيات وتسب بعضهم بعضا بسباب مقذع ـ وقد كان هـــذا السباب عندنا فى مصر ، من سنين مضت يتـــزايد أو يتناقص حسب تشدد أو تهاون الرقابة • وفى وقت من الاوقات لم يكن المسرح خاضعا لاية رقابة • تصور ! ..

أن أسلوب الكوميديا ديللارتى ينطوى على امكانيــات واسعة ومتعددة • ومن الممكن احسان استخدامه كمــا أن من الممكن اساءة استغلاله • والمثل الحى على القوة الذاتية لهذا الاسلوب هو فن موليير كله .. فان هذا الفن الخالد مؤسس على تقاليد الكوميديا ديللارتى ..

ولا أدل على قوة ونفاذ ذلك المنهج المسرحى .. من انه انتقل الى بلاد بعيدة كمصر ، لا فى مسارح القاهرة فحسب، وانما تغلغل فى الاقاليم والريف واختلط اختلاطا حيــا بالتقاليد وبالمزاج الفولكلورى ، وبث روحا متميزة فى فنون فرق التمثيل الشعبية الطوافة واشهرها فرقتى احمــد المسيرى وحمام العطار ..

أما آثار الكوميديا ديللارتى على مسرحنا المعاصر فانى أدعها لفطنة القارىء ليكتشف بنفسه بصماتها المتميزة فى تيار انتاجنا الكوميدى ، ولى عودة الى مثل واضح جــدا

لها بعد حين

لقد تميزت الكوميديا ديللارتى بالشخصيات الثابتة ، بالكاريكاتير . بتسخيف السادة والاثرياء . بنصرة العشاق الصغار . بالنقد الاجتماعى . بحيل المهرج . بالشتائم والقافية . بالموعظة . بشرح المواقف والمآزق على لسان الابطال . بالتعليق على الحوادث وتوجيه الخطاب للجمهور . بالقفش والتنكيت ..

ان المسرح فى بلادنا فن استقيناه من أوربا . وحيث ان تيارا للكوميديا ديللارتى أثر على المسرح الاوربى الحديث ـ وبخاصة فن الكوميديا ـ آثارا ظاهرة .. الى جانب تيار التراجيديا الاغريقية الذى صنع خلال كل العصور قوام المسرح الجاد والرصين والفكرى .. الخ

.. فلا عجب اننا أيضا قد تأثرنا بتيار الكوميديا ديللارتى ، الى جانب تأثرنا بتيار المسرح الفلسفى والعاطفى الرصين ..

ولعل تأثرنا بالتيار الاول كان أوضح وانفذ لما تتميز به تقاليد الكوميديا ديللارتى من سهولة وبساطة وشعبية ..

ولكنى قبل ان انتقل الى موضع آخر أود من كل قلبى أن اقر فنانينا على التأثر بأى من تيارات الكوميديا ... ولكن على شرط ـ ان ينظروا ويتبينوا كيف تأثر فنان خالد عظيم مثل موليير ، وكيف تأثرت تمثيليات صالات الموسيقى الركيكة المهلهلة بنفس المصدر .. وهو الكوميديا ديللارتى

وشتان ما بين هذا وذاك

ان فنانا خالدا كموليير استطاع ان يحطم رتابة التكرار التى تعيب الكوميديا ديللارتى ، وان يفك أسر الشخصيات المثبتة .. فقدم ـ باستلهام الكوميديا ديللارتى نفسها ـ فنا غاية فى التنوع والابداع وابقى منها وأخلد



الفرافير .. بين المصرية والإنسانية

دار نقاش طويل حول مسرحية الفرافير التى فاجأ بها يوسف ادريس الوسط الفنى فى الموسم الماضى ، ولعل يوسف ادريس نفسه قد عين معظم اتجاه هذا النقاش ومنحاه بسلسلة المقالات التى نشرها فى « الكاتب » قبل عرض مسرحيته والتى أوحى بها الى القراء أنه اتجه فى تأليف «الفرافير» الى المصدر الشعبى الفولكلورى «عرض السامر » ..

وعلى الرغم من ان مسرحية الفرافير نفسها قد أثارت موجة عالية من النقد بالنسبة لمضمونها ، فان مناقشة أسلوبها الفنى حظى أيضا بتعليقات كثيرة ..

ان مناقشة مضمون الفرافير لا يكون من ضمن الموضوعات التى تنسجم مع فصول هذا الكتاب الذى يصرف جل عنايته للتكنيك وحرفية فن المسرح .. ومع ذلك أجد لزاما على أن أنوه هنا — على سبيل الاستطراد القصير — الى خطأ الافتراض العلمى الذى بنى عليه يوسف ادريس خاتمة مسرحيته ..

فقد شهدنا خلال فصلى المسرحية سيدا .. وفرفورا يحاول عبثا التملص من علاقة العبودية غير المتكافئة التى تربطه بسيده .. واسترسلت المسرحية تعرض مختلف

محاولات الفرفور عرضا شيقا ورائعـا .. حتى انتهت بالخاتمة التى مات فيها السيد والفرفور ، وبذلك تحولا الى جزء من جسم الطبيعة ذاتها يحكمه النظام الطبيعى العام ، وهو نظام يقضى بأن ترتبط الى الابد نواة الذرة « البروتون » بالالكترونات الاخف وزنا من النـواة .. فتدور الالكترونات دورانا أبديا فاجعا حول البروتون .. وبذلك صار الفرفور بعد الموت وهو الاخف وزنا مقضيا عليه — والى الابد — بالدوران حول سيده على هـذه الصورة المؤلمة ..

وهو افتراض يلمح بصورة بارعة وشيقة الى ان النظام الطبيعى الذى يحكم الكون كله هو المسئول عن بقاء العلاقة غير المتكافئة بين العبد والسيد بقاء أبديا ..

هذا هو القانون الطبيعى ..

وهل يمكن للكائنات الطبيعية الفكاك من أسر قوانـين الطبيعة والخروج على نظامها ؟

الماح رشيق له جماله الـدرامى المؤثر ، وقوتـه النفاذة ..

ولكنه الماح قد بنى على افتراض خاطىء .. هوافتراض تطبيق القانون الطبيعى حيث لا يصلح الا تطبيق ا قوانين الاجتماعية

ذلك ان العلاقات الانسانية لا يمكن الا ان تحكمها القوانين الاجتماعية . وتطبيق قوانين الطبيعة الصماء عليها أشبـه بقياس الارض بالاوزان او البرتقال بالمكاييل . ان القياس الصحيح يقتضى تقييم الارض بالمساحات والبرتقـال بالوزن . والقياس الصحيح يقتضى استخلاص القـوانين الاجتماعية من خلال اختبار العلاقات الاجتماعيـة ، والقوانين الطبيعية من خلال اختبار الظواهر الطبيعية .. كما يقتضى اكتشاف العلاقات الاجتماعية على ضوء قوانين

العلوم الاجتماعية ، واكتشاف الظواهر الطبيعية على ضوء قوانين العلوم الطبيعية ..

والفرق بين المجتمع والطبيعة الصماء ـ ذلك الفرق الذى ينسخ اية محاولة للخلط بين المجالين ـ هو ببساطة : الارادة الحرة التى يتميز بها الانسان ..

هذه الارادة الحرة والعقل الحر ، هما اللذان اطلقا الانسان من أسار القوانين الطبيعية الجبرية وصنعا تاريخه الملىء بالانتصارات الاجتماعية ، وهما اصل سيادته على الطبيعة وتحكمه فى ظروف معيشته ..

العلاقة اذن بين الانسان والقوانين الطبيعية ، التى انبنى عليها افتراض يوسف ادريس علاقة مخطئة .. وقد خطأها العلم نفسه ..

وهى الى خطئها غير ذات محتوى انسانى ، ومثيرة لانقباض فى غير موضعه ..

وبعد هذا الاستطراد .. ننتقل الى أسلوب المسرحية الفنى ـ وهو شغلنا الشاغل فى هذا الكتاب ..

يرى يوسف ادريس أن مصدر الهامه فى هذه المسرحية هو فن الفلاحين . وحصيلة استلهاماته لهذا الفن هى :ـ

شخصية الفرفور والسيد ..

طبيعة هاتين الشخصيتين المثبتتين ..

الغاء الزمن الحقيقى فوق المنصة .. بحيث يتزوج السيد وفى اللحظة التالية يظهر الاطفال من حوله. فالزمن مطرد ومتصل في المشهد بلا ضابط ومن غير حرج

الغاء الحائط الرابع الوهمى بين الصالة والمنصة ، واندماج الاثنين اندماجا تاما ..

الاهتمامات الشعبية المختلفة التى يتأسس عليها الموضوع : كعلاقة السيد بالفرفور ، والزوجة بزوجها ، والرزق ..

ورغم انى أوافق النقاد الذين كشفوا فى « الفرافير » لمحات من جو يونسكو ويوربيدس وذكروا فى صدد الغاء الحائط الرابع محاولات عالمية قديمة ومشهورة قلـــدها فنانون مصريون فى أواخر العشرينيات واوائل الثلاثينيات •• فانى اوافق بعضهم ايضا على ان هذه الاعتبارات كلها لا تنقص من قدر المسرحية بل تضيف اليها علاقة وثيقـة بالفن العالمى .. الذى يجب أن يعمل كل فنانونا وهـــو حاضر فى اذهانهم ..

ولكنى ادع هذا كله للنظر فى حقيقة مصدر الهـــام يوسف ادريس ..

والظاهرة المدهشة هى اننى يجب ان أوافـــق يوسف ادريس على رأيه فى ان مصدر الهامه هو فن الســـــامر الشعبى .. ويجب أن أخالفه فى نفس الوقت ..

ذلك ان العلاقة بين اركان الهامه الشعبية ، وأركان الفن المسرحى الشعبى الاوربى واضحة ..

فالشخصيات المثبتة ، وعلاقة الخادم بالسيد ،وشخصية الخادم المتمرد الذكى ، والاهتمامات الشعبية•• كلها ايضا من أركان فن الكوميديا ديللارتى التى عرفناها فى الفصل السابق ••



وسواء أكان فن السامر الشعبى المصرى قد انحدر الى مواطنه فى الريف او فى السيرك او على منصة المرحـــوم المسيرى او تلميذه حمام العطار ـ ابقاه الله ـ انحدر الى مواطنه عن روض الفرج عن تقاليد مسرحية عبرت مصر القرن التاسع عشر عن مسارح افرنجية اقامتها الحمـلة الفرنسية فى مصر او الجاليات الاجنبية احيى لياليهـــا هواة أو انصاف محترفين من الاجانب ••

سواء أكان هذا الافتراض التاريخي هو الحقيقة ، أو كانت الحقيقة فى الافتراض الانسانى الذى يدعى بوحدة العقل البشرى ويعزو التشابه الواضح بين نماذج الفنون الشعبية العربية والهندية والصينية بل والاوربية لوحدة الطبائع البشرية وتماثل العقل والوجدان البشرى ‥ لا لمجرد الاتصال والنقل بين الشعوب ..

سواء أكان هذا أو ذاك .. فلن يستطيع غير المسح التاريخي والعلمى الدقيق ان يقطع فى هذا الامر ..

نحن اذن امام ظاهرة فولكلورية ، استلهمها يوسف ادريس مسرحيته الجميلة المثيرة ، وامامنا ظاهرة تاريخية اوربية تماثلها تماثلا له مغزاه ..

ونحن فى موقفنا هذا حيال الظاهرتين وحيال نموذج مسرحية « الفرافير » لابد ان نتساءل عن مستقبل وعن قيمة استلهام هذا اللون من الفن فى المسرح ‥

وهذا هو أخطر ما فى الموضوع

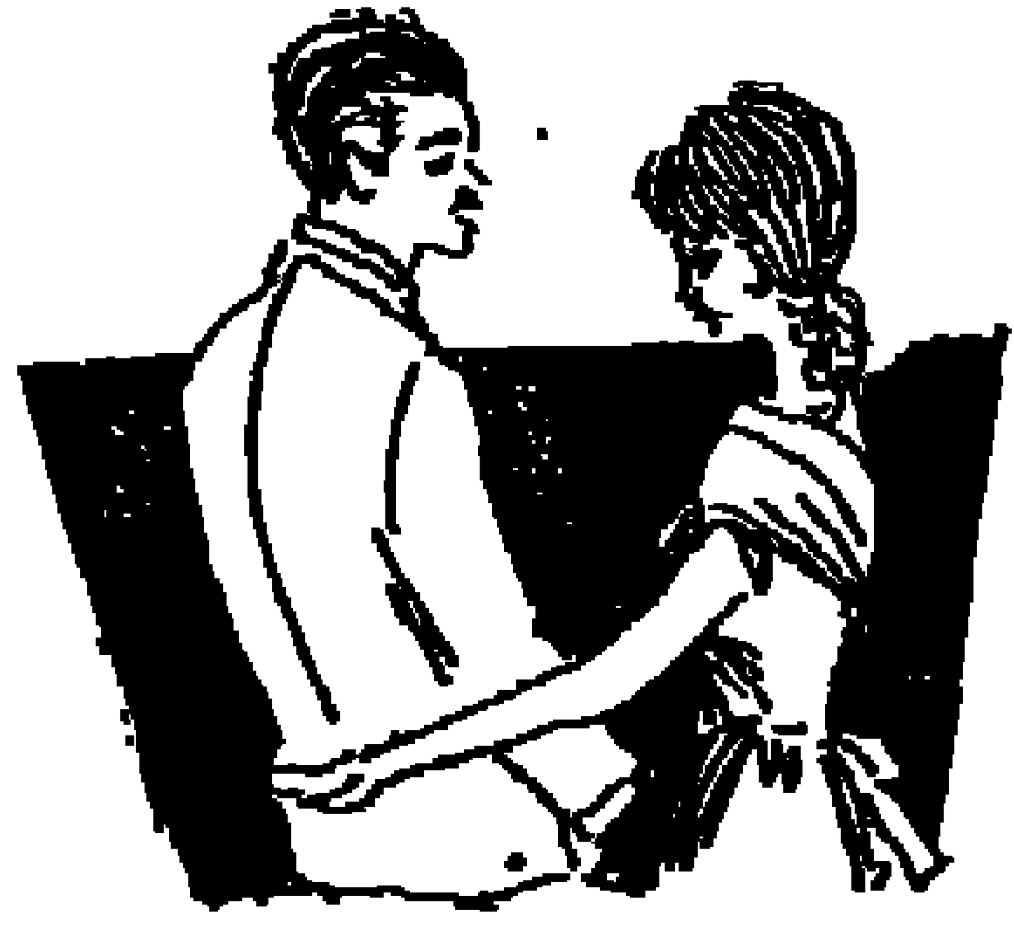
فان بعض المفكرين الذين أجلهم يرون ان تجديد يوسف ادريس فى « الفرافير » ليس الا تجديدا لمسرحية واحدة. وان هذا المنحى لا يمكن تكراره واتخاذه اسلوبا فىالتأليف المسرحى يثمر عديدا من المسرحيات ..

والواقع اننا اذا ربطناه بتمثيلية السامر التى تحتضر وتذوى فى الريف وفى السيرك الاهلى ، تصدق عليه هذه النبوءة · ولكننا اذا تتبعنا آثار هـذا المنحى الى الاصول الاوربية التى ازدهر بها فن عصر النهضة ، فاننا سنجد انفسنا حيال كنز لا حدود لعمقه وثرائه .. كنز ألهم كتابا خالدين خلال العصور عشرات ومئات المسرحيات ولا تزال اصوله تنبض بالحياة على منصة المسرح فى مصر والخارج الى يومنا هذا ..

أما أنا فأميل بطبعى الى الافتراضات والىقبولالقرائن،

التي تفتح أمام مسرحنا ابواب الامل الخصب ..

وان أنيت هذا المنحى فى التأليف المسرحى قدرة على الاستمرار والتنوع فسيان عندى ان يكون مصدره الفولكلور المصرى أو الفولكلور الانسانى العام .. فانى أنا أنتسب لكليهما ، وكلاهما مصدر زهو لى .. ولكننى مع ذلك سأنسب فضل انبعاث هذا التراث العظيم على المسرح المصرى الى يوسف ادريس من جهة ، والى غيره ممن استلهموا الفن الشعبي المصرى على أى نحو



الكوميديا الواقعية الحديثة

بعد أن أشرنا الى المنحى الخاص الذى تتميز بهمسرحية الفرافير لابد ان نصل الى وصف تيار فن التأليف المسرحي المصرى الحديث ذلك التيار الذى أثر طابعـــه على ذوق الجمهور وعلى الحركة الثقافية بوجه عام فى السبـنين الاخيرة . ومع ان كلا من مؤلفينا يتميز بطابعه الخـاص فاننا نستطيع أن نلمس فى مسرح نعمان عاشوروسعدالدين وهبه ولطفى الخولى بشكل خاص تلك الصفات الخاصة التى تميز تيار الكوميديا الواقعية الحديثة ..

اننا نريد هنا فقط أن نطل على هذا التيـــار الجديد الممتع ، أن نتقصى خطوطه العامة ان نكشف مزاياه الشعبية والفنية ، ليكون هذا الفصل دليلا للمتفرج الى العـــالم المسحور الذى يصفه معظم الكتاب الجـدد فى المسرح .. ومعينا على الاستمتاع والفهم لفنهما الذى لاقى ويلاقي رواجا عظيما من الجمهور ..

أول ما يميز هذه الكوميديا الواقعية هو اتجاهها فى تدفق وصرامة الى النقد الاجتماعى ..

ومن أول وهلة يشعر المتفرج بمقاصد المؤلف الاجتماعية فهذا هو المحتوى الاساسي الهام لكل من مسرحيات نعمان عاشور وسعد وهبة ولطفى الخولى . النقد الاجتمـاعي

هو بالنسبة للمسرحية سبب الوجود ذاته ، والعامل الاول والاخير فى تحديد شكلها الفنى ..

فلأن هذه المسرحية لا تنقد السلوك الشخصى ، ولا تقصد الى التصوير النفسى لفرد فى مأزق ، ولا تستهدف أن تضفى هالة البطولة على فرد ، او تظهر العطف على حكاية حب ، او تحلل أزمة ضمير الفرد .. وانما توجه كل تفاصيلها نحو نقد الفئات العريضة والخصال العامة فى المجتمع .. لذلك تتميز المسرحية بتجنب التركيز على بطل واحد ، وتصور بدلا من ذلك شريحةعريضةمنالمجتمع وتنعقد فيها البطولة لعدد غير صغير من الشخصيات ..

وحيث ان غرض المسرحية هو النقد الاجتماعى فلا مفر من ان تتكون هذه الشريحة الاجتماعية من شخصيات تمثل خصالا اجتماعية عامة ، ليس بينها شخصية تتميز بتركيب فردى خاص ..

فحكمدار السبنسة والزوجة الانانية الشرود فى عائلة الدوغرى ، ورئيس مجلس الادارة فى سكة السلامة وباشا الناس اللى فوق .. كلها شخصيات تدل على الفئات التى تمثلها فى المجتمع ، ولا تتميز بتركيب فردى خاص ..

انها اذن من قبيل الانماط والانواع ، وليست من قبيل الشخصيات الفردية كشخصية هاملت مثلا أو ماكبث..

سنقول اذن أن الشخصية فى هذا التيار المسرحى الجديد شخصية نمطية

والشخصية المسرحية النمطية تجمع بالضرورة كل الصفات المميزة لطائفة الناس الذين تمثلهم هذه الشخصية فرئيس مجلس الادارة مثلا (فى هذا النوع من التأليف المسرحى) لابد أن يجمع جميع الخصال التى تميزالطائفة البيروقراطية التى يمثلها فى مسرحية سكة السلامة . وقد رأيناه فى المسرحية متعجرفا انانيا ، يميز اهل طبقته

على حساب الفقراء مدققا لدرجة هزلية فى مراعاة اللوائح والقوانين فى بقعة نائية فى الصحراء ، كما لاحظنا منه ميلا للتسلط وفرض الرأى ، وميلا للمجون والمغامرة .. الخ

ان الشخصية النمطية بذلك تقف داخــــل حــــدود الكاريكاتير • فالكاريكاتير ما هو الا ابراز صفة معوجة فى الشخصية والمبالغة فى تصويرها من قبيل السخرية بهذا الاعوجاج ••

ولكن كاريكاتير نعمان او ســعد أو الخولى يختلف عن كاريكاتير موليير أو ديكنز بأنه ليس من قبيل « كاريكاتير الشخصية » أى المقصود به السخرية من شخصية بالذات تتميز وحدها بما يثير السخرية ..

ان حرص المؤلف على اجتماع كل التناقضات والصفات الشخصية والميول والطباع التى تميز طائفة من النــاس • اجتماعها كلها فى شخصية واحدة ماثلة فوق المسرح الذى يميز هذا اللون من الكاريكاتير بصفته الاجتماعية • انــه ليس سخرية من شخص ولكنه سخرية من فئة أو صنف من الناس ••

ان هذا الكاريكاتير يتميز بطابع الشمول والنقد العام••

وهذا الاسلوب يستدعى من المؤلف نوعا من التحفظ وعدم الاغراق والمبالغة فى تصوير اعوجاج الشخصية حتى لا تتفرد الشخصية بصفتها وتقصر عن تصويرها الشامل لاعوجاج عام شائع •• وتفقد مدلولها الواقعى ••

ان هذا الاقتصاد المحمود وتجنب الانسيــــاق وراء التضحيك غير الهادف هو الذى يربط الــــكوميـــديا الواقعية المصرية بالحياة ويحقق غايته من النقد الاجتماعى ويصون مضمونه السليم ..

الواقعية والنقد الاجتماعى والشخصيات النمطيــــة الاجتماعية هى مميزات هذا التيار المسرحى ••

واحب هنا ان اميز صفة الواقعية التى تنطوى عليها هذه المسرحيات عن المفهوم الدارج والشائع للواقعية ..

اذ أن بعض الناس يحسبون أن الواقعية هى مجرد تحرى الواقع ، وتصوير ما عن للمؤلف أن يصوره من حكايات وأوضاع تقع فى الحياة . الواقعية الحقيقية هى النظرة الواعية والفهم الصحيح لقوانين المجتمع والفن الواقعى هو الفن النابع عن فهم حركة الحياة المتطورة ، هو الفن الذى يتميز بالرؤية الواضحة للماضى والحاضر والمستقبل ، ويتميز بالحافز التقدمى لنقد العناصر الفاسدة فى المجتمع وتمييز العناصر الطيبة ..

لذلك فالفن الواقعى يختار أبطاله وموضوعاته بحيث تنسجم مع التطلعات الفكرية والانسانية للطبقات الفقيرة. وفن سعد وهبة ونعمان عاشور ولطفى الخولى من حيث ذلك واقعى بنظراته المستقبلية للحياة ، ونقده اجتماعى فى مجاله وفى أهدافه ..

ومن الظواهر المبرزة لهذا التيار المسرحى الحافل هو أن الصفة الغالبة عليه هى ما نسميه «التراجيكوميدى»

فهو كوميدى بسخريته وتهكمه ونقده اللاذع ، وحافل بالمقارنات وبعناصر الفكاهة من ناحية .. وهو من ناحية أخرى يتميز بالاحساس اليقظ بمأساة الطبقة الفقيرة التى تكالبت عليها سطوة الاغنياء والحكام والاوضاع الفاسدة المختلفة قبل الثورة ، أو رواسب الطباع والفساد التى لا تزال تعرقل سير الحياة بعد الثورة ..

ان المأساة المضحكة ، أو الملهاة المحزنة .. هى الصفة الغالبة لتراجيكوميديا نعمان عاشور وسعد وهبة ولطفى الخولى ..

ومن الظواهر الملفتة للنظر أن مزج الضحك بالحزن فوق المنصة ، أو الانقلاب المفاجىء من الضحك الى المأساة ..

يثير حماس الجمهور عندنا أكثر من أى شيء عداه . وقد لاحظت أن المنصة فى تلك اللحظات تلهم الصالة أعنف الانفعالات وأكمل التجاوب ..

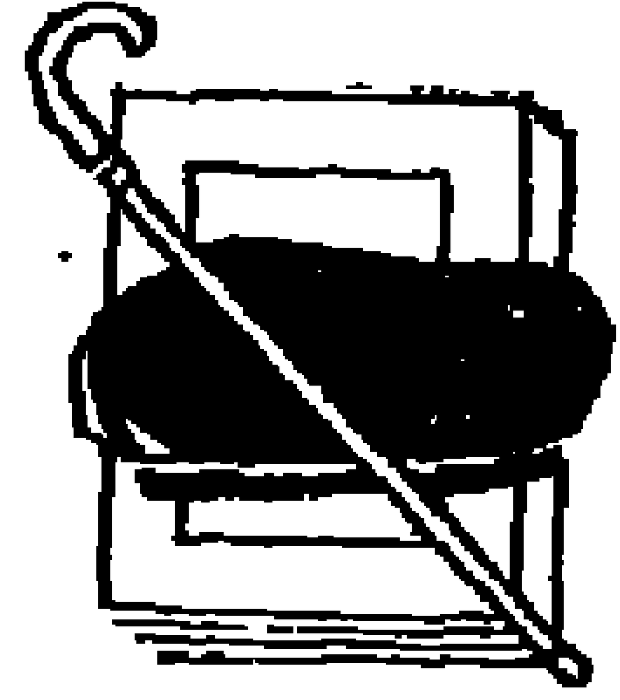
ولكنى أريد أن انبه الى أن هذا المزج او هذا الانقلاب لا يحدث الاثر العميق على الجمهور كحيلة مسرحية شكلية فقط .. لا . ان هذا الاثر العميق لا يحدث الا لان الجمهور يضحك من أول المسرحية وفى قرارة نفسه شعور متصل بمأساة أبطالها ، ولولا هذا الشعور الاصيل الذى تثيره المسرحية مع ما تثيره من بهجة الفكاهة لما استطاعت هذه الحيلة المسرحية الشكلية ان تثير انفعال الجمهور بعمق وبصدق . ولكانت حيلة فارغة ولا أثر لها على الاطلاق ..

ان النهضة المسرحية تتلألأ بمواهب فنانين أساليبهم متنوعة ، ويمثلون ابعاد هذا المد المسرحى الفكرى العام ، ويشيرون الى مستقبله العظيم ..

وجيلنا فى سنوات قصيرة قد أقام منصة المسرح العربى على أسس جديدة وحديثة .. ابتداء من على أحمد باكثير الى عبد الرحمن الشرقاوى ورشاد رشدى .. فضلا عن يوسف ادريس ونعمان عاشور وسعد الدين وهبة وغيرهم ولكل من هؤلاء أسلوبه واتجاهه وأفق الهامه ..

وقد كان للجيل الذى سبقنا أيضا رواده والهامه .. وهو الجيل الذى أرسى حجر الاساس للتأليف المسرحى العربى ، ابتداء من أحمد شوقى الى توفيق الحكيم ومحمود تيمور وعزيز أباظة وغيرهم

وكما استعرضنا بعض الملامح الاجمالية التى تميز جوانب من فن جيلنا ، يتعين علينا أن نلقى نظرة في الادب المسرحي لجيل الرواد ..



فن توفيق الحكيم

الان .. ننتقل الى القمة العالية فى فن التأليف المسرحى العربى ، الى مسرح توفيق الحكيم ..

ان مسرحيات الحكيم هى التى ألهمت فنانى ومثقفى جيلنا حب هذا الفن ..

اقترن أول لقاء بين جيلنا والمسرح بالدهشة والحب أمام « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « الخروج من الجنة » و « رصاصة فى القلب » و « حياة تحطمت »

وبرغم كل المناوءات والازمات حافظ توفيق الحكيم بجلد وداب على حبه للتأليف المسرحى ، وعلى أسلوبه الفكرى العالى .. حتى التقى بالنهضة الثورية والثقافية وهو أعظم ما يكون ثباتا واخلاصا لفنه ، نضجا وخصوبة ومقدرة ..

ومع ذلك لا يكاد الجيل الحاضر يعرف الظروف الشاقة والمضنية التى خاضها الحكيم ليحافظ على فنه وينميه فى بداية حياته الادبية ..

لقد كان المسرح قبل أكثر من ثلاثين سنة قد انحرف انحرافين خطيرين :

ـ الفارس الهزلى المغرق فى التبذل والاسفاف والتلفيق ..

ـ الميلودراما الحاشدة بالفواجع الملفقة ، الغارقة فى

دموع التماسيح ، الصاخبة بالصرخات الكاذبة ..

وبين هـــدين الانحرافين الشـــاذين جاهد فنـــانون فى سـبيل تكوين فرق تعف ولو على أطراف الاصـــابع فى « شارع عماد الدين » .. وسرعان ما كانت تتنوض فوق رؤوس اصحابها بفعل خيـــانات التنافس ، أو مختنـــقة بكساد الجو العام للفن

ليس هنا مجال الحكايات ..

المهم ان توفيق الحكيم عاد من اوربا فى ذلك الوقت وقلبه وعقله حاشدان « بفن المسرح الحديث »

كان قد درس ابسن وتشيكوف ونظر فى أدب شو ، وبهره كما بهر شباب أوروبا بعد الحرب العالمية الاولى فن بيراندللو .. وعرف عن المسرح وجهه الصـــحيح ، وتاريخه الصـــحيح ، وألحت عليه موهبتـــه الفيـــاضة أن يكتب ..

ماذا يكتب ؟ وكيف يكتب ؟ ولمن من الفرق يكتب ؟

لم يجد بدا من الكتابة للمطبعة وتجنب المعتركالمسرحى المتنافس على البوار والكساد والتدهور ..

وعندما طبع الحكيم اولى مسرحياته « اهل الكهف » حرص على الا يكتب فى غلافها أنها مسرحية ، أو أن يكتب فى صفحاتها الداخلية « الفصل الاول » و « الفصل الثانى» و « ستار » .. أو أى كلمة تشير الى أن « اهل الكهف » مسرحية ، لينأى بهـــا عن المعـــترك المسرحى العجيب ، ويلصقها بالادب البحت

وعندما تكونت الفـــرقة القومية ســـنة ١٩٣٥ بجهود وعلى اكتاف مثقفى العصر لم تجد خيرا من « أهل الكهف » لافتتاح برامجها ، عنوانا لرسالتها ..

وهـــكذا عرضت مسرحيـــة الحـــكيم الاولى . وكان لعرضها أثر الصدمة على المسرحيين المعاصرين فاحتشدوا

للتشهير بها وسد المسالك امام الفرقة القومية كلها بسببها «!» .. على نحو ادى فعلا الى اقصاء ادب الحكيم عن منصة المسرح أكثر من عشرين سنة « ! » رغم كل ما كان يتمتع به من مكانة فى الادب ..

فمنذ ١٩٣٥ لم تعرض الحكيم فوق المنصة غير مسرحية واحدة سنة ١٩٣٨ وثالثة سنة ١٩٥٣ .. ثم انتظم عرض انتاجه بعد ذلك ابتداء من سنة ١٩٥٧

أى خسارة لحقت بالمسرح ؟!

قال لى الحكيم مرة : لو كان فى مصر مسرح جيب سنة ١٩٣٥ بدلا من الفرقة القومية ، لاستطاع الادب الجاد أن يجد منصة بعيدة عن « سوق » المسرح ، يرسى عليها تقاليده ويشق طريقه الى الجمهور على مهل وفى ثبات

المهم ..

من مضاعفات المعركة التى شنها « المسرحيون » على الحكيم فى عام ١٩٣٥ وما بعدها .. راجت كل الاوهام الزائفة والافكار الخاطئة عن مسرح توفيق الحكيم ..

وبعض هذه الاوهام والافكار الخاطئة ، للاسف ، عاش فى أعطاف الحركة المسرحية والحركة الثقافية الى يومنا هذا ..

وسأحرص على مناقشة هذه الافكار والاوهام فى هذا الفصل

- يقولون ان مسرحيات الحكيم كتبت للقراءة لا للتمثيل ..

فهل هذا صحيح ؟

ليس هذا صحيحا ..

ان أدب الحكيم المسرحى مستوف لكل شروط وأركان فن المسرح .. الفكرة والصراع الدرامى والمواقف والحوار بدرجة عالية من التفوق

والحكيم أقل استرسالا فى المناقشات من برنارد شو ، ومسرحه فى اضعف مواضعه أكثر حيوية فى هذه الناحية من مسرح شو فى أضعف مواضعه

والحكيم أقل تجريدا للافكار وأكثر حيوية درامية من جيل المحدثين الذين انتهى بهم المطاف الى التجريد الكامل والركود الدرامى التام فى « نهاية اللعبة » و « انتظار جودو » وأمثالهما ..

والحكيم أقل غموضا من تشيكوف ..

ومع ذلك فقد وجد شو والتجريديون وتشيكوف وابسن من قبلهم من يتهمهم بمجافاة فنهم للاصول المرعية ، وانتقدهم بشدة .. ولكنهم ايضا وجدوا الجماهير الواسعة من المثقفين ورواد المسرح الذين اكتشفوا بعيون مبصرة مفتوحة أن مسرحهم انما يطور تقاليد المسرح بعمق وأصالة ليخلق فنا عصريا جديدا فى كل شىء ..

لقد أبصر القليلون أولا .. ثم الجميع بعد ذلك أن عصر المسرح العاطفى الميلودرامى يموت ، وأن عصر المسرح الفكرى العقلى يشرق على العالم

وما يتمتع به اليوم مسرح ابسن وتشيكوف وبيراندللو وبرناردشو .. ومن بعدهم المحدثون من مكانة هى الجواب بشكل عام على تساؤلنا فى مصر عن مسرح الحكيم .. وما يتمتع به مسرح الحكيم نفسه من مكانة فى أوروبا اليوم هو الجواب بشكل خاص على هذا التساؤل ..

ومع ذلك فقد عرفت أوروبا أيضا من اشكال العرض المسرحى ما قد تطير له عقول فنانين مصريين ما يزالون يتوهمون أن فن المسرح لا يخرج عن الفارس والميلودراما ، وان ما عدا ذلك لا يصلح للعرض على الجمهور !

لقد جربت مسارح فى اوروبا اخراج ما يسمونه

« القصائد الدرامية » وهى أقرب لبرنامج مسرح الجيب الذى قدمه هذا الموسم بنجاح على مسرح الازبكية والذى كان يتألف من قصيدة نجيب سرور الدرامية « بهية ويسن »

كما أن مسارح أخرجت « محاورات سقراط » الفلسفية فوق المنصة ، وأحبها الجمهور

فكيف بالله يقولون ان مسرحيات الحكيم انما كتبت للقراءة لا للعرض ؟!

***

ــ لماذا اذن لا تحظى مسرحيات الحكيم وبخاصة الفكرية بالاقبال الجماهيرى ؟

مع تقديرى الخاص لكل من تصدى من المخرجين والممثلين لعرض أعمال الحكيم على الجمهور ، أود أن اقول انهم وقعوا فى خطأ مشترك

ان فكر الحكيم غلبهم على فنهم ، فرأوا أن مسرحيات الحكيم ــ من حيث أنها مسرحيات فكرية ــ ينبغى أن تخرج بايقاع بطىء وأن يلتزم الممثل فى أدائها النبرة العميقة المتأملة الهادئة ..

والنتيجة .. انهم أضافوا الى هدوء وتأمل الحكيم مزيدا من الهدوء والتأمل ، والى ايقاعه البطىء الناجم عن تقليبه للفكرة على أوجهها .. مزيدا من البطء ..

ولعل سببا صحيحا دفعهم الى ذلك ، وجعلهم يحرصون على تمييز مسرحيات الحكيم الفكرية بالهدوء والبطء لتأكيد خواصها الذهنية

ولكنهم فى النهاية ينتجون فنا مسرحيا خالصا ، والمسرح الذى يتميز بـ « الصراع » يحتاج بالضرورة الى مخاطبة الجمهور بحرارة .. ولا أجد بأسا من أن يتجاوز المخرج عن هذا الالتزام الصارم بروح مسرحيات الحكيم

الذهنية ، التماسا للأقتراب والالتزام بروح فن المسرح نفسه ..

انني مع اعجابي العظيم بفن نبيل الالفى مخرج « ايزيس » و « أهل الكهف » و « بيجماليون » .. ومع اعجابى بفن فتوح نشاطي مخرج « السلطان الحائر » و « شمس النهار » .. ومع تقديرى للميزات الهامة التي ينطوى عليها أسلوبها في الاخراج ، الا أني أتصور انه كان من الممكن دائما اضافة مزيد من النبض الحار الى تلك المسرحيات التى أخرجاها للحكيم ، والتحرر من فكرة الالتزام بأسلوب البطء والهدوء والنبرة المتأملة العميقة التى التزما بها بدعوى ان مسرح الحكيم «مسرح ذهنى » ..



ـ يقولون ان مسرح الحكيم الذهنى لا يتميز بالامتاع، وليس فيه ما يخلب اللب من شخصيات متلونة متطورة، أو مواقف انفعالية مؤثرة ، أو انتقالات متنوعة في الأمكنة مما يضمن للجمهور فرجة ممتعة . فهل هذا نقص في مسرحه ؟

لا أقول أن هذا نقص أو ميزة لمسرح الحكيم ، ولكنه خاصية من خواصه . ورغم الديكور الجمالى الساحر الذى أخرجت أمامه مسرحيات الحكيم الذهنية في مصر .. استطيع ان ازعم ان فن الحكيم فن مثقف . لقد استقى الحكيم الهامه التكنيكى من المسرح الاوروبى الحديث ، وهو مسرح تخلص من الروح العاطفية واتجه الى العقل ـ وسأعرض للمسرح الحديث في فصول تالية

ان روح المسرح الحديث اقتربت بذلك من جذور المسرح الاولى في العصر الاغريقى .. نأت عن المواقف العاطفية السخنة ، والشخصيات الشكسبيرية المحورية

الى عرض وتفتيق قضايا انسانية شاملة ، قضايا فلسفية

ان مادة « أهل الكهف » ليست هى مصير « ميشلينيا » وحبه .. وانمـــا هى صراع الانســـان مع الزمن ، او الصراع بين الوجود التاريخى والوجود الواقعى

و « شهر زاد » ليست مادتها شخصية الملكة الفـاتنة اللعوب ، او قصة العلاقة بين شهريار وزوجته الجديدة التى أحبها فخلص بحبها من عاداته الدموية التى كانت تجعله يتزوج كل مساء ويقتل زوجته فى الصباح .. وانما مادتها الصراع بين الوجود الميتافيزيقى الذى هـو نبت العقل الفلســـفى المحض ، والوجـود الواقعى المـــادى البسيط

وهكذا ..

الحكيم اذن ــ فى تراجيـــدياته الكبرى ــ ليس مؤلف حواديت او مواقف مسرحية سخنة ، ليس مؤلف نماذج للشخصيات الفــــذة المتعددة الاوجه الغنيـــــة بالاهواء والنزوات ..

ليس هذا ميدان فن الحكيم ..

وهو متقشف جدا فى هذه المجالات ، الا أنه غنى جدا بفكره وبالتزامه الفلسفى . وليس هنا مجال مناقشـــة افكار وفلسفة الحكيم ، ولكنى اريد فقط ان انبه الى نوع المتعة التى ينبغى أن يركز المخرج والممثل مواهبهمـــا لتأكيدها بلا بهرج .. الى نوع المتعة التى يتعين ان يتطلع اليها المتفرج فى تراجيديات الحكيم حتى لا يحيد عن فهم مسرحه والاستمتاع به فيصيبه الضجر

اننى أزعم أيضـــا أن هـــذا اللون من المتعة الذهنيـــة والعقلية له عشاقه الكثيرون

الرياضة العقلية ، التى تتخذ أبسط صورها فى فوازير الاذاعة ، وأرقى صورها فى الشغف بالمعارف المختلفة من

علم وسياسة وفن وفكر وثقافة عامة .. هذه الرياضة العقلية هي بذاتها ـ غريزيا ـ الفضول وحب الاستطلاع الذى يتصف به الطفل الصغير ، وهى الحـافز الاساسى لكل تعلم اختيارى واستطلاع يتصف به قـراء الصحف ورواد السينما والمسرح واصحاب الهـوايات ·· ممن لا يقصدون مجرد « قتل الوقت » أو « مكافحه السـأم » أو التسلية واللهو ··

ان التطلعات الذهنيـة ومواجهة الحيـاة بالاستطلاع والذكاء ·· هى طبع انسانى اصيل ، ومن مظاهر الصحه الجسمانية النشاط والاستمتاع بتحريك العضلات ·· كما أن من مظاهر الصحة العقلية الذكاء والاستمتاع بالتفكير ـ اذا كان التفكير ملكة انسانية أصيلة ، ومتعة أكيدة .. فلماذا لا يحظى مسرح الحكيم بمـا تحظى به فنـون « التسلية وقتل الوقت » من اقبال ؟

هكذا عدنا الى السؤال الاول من جديد

وجوابه عندى بسـيط ·· الذى يحول بين المسرح الفكرى والجمهور هو أن فنـانى المسرح خـلال عشرات السنين من التخلف المسرحى قد خلقوا أوهاما عـامة أصبحت من بعض العادات الفكرية الجماهيرية ..

لقد اقترن فن المسرح عند الجمهور الواسـع بالعرض الهزلى الفاقع أو بالميلودراما الصـاخبة .. وقر فى ذهن الجمهور أن هذين اللونين همـا « فن المسرح » ·· وأن ما شذ عليهمـا ليس من فن المسرح الحقيقى ولا يعدو أن يكون محاولات ناقصة وفاشلة « ! ! » غير ممتعة

ان المتفرج الذى استقر فى ذهنه هـذا الوهم سرعان ما يضجر ويمل ·· ويجلس طوال الوقت فى انتظار أن يضحك ملء رئتيه ، أو أن يصخب المسرح أمامه بصرخات فاجعة تهزه هزا ·· فاذا مر الوقت ولم يحظ بهذا او

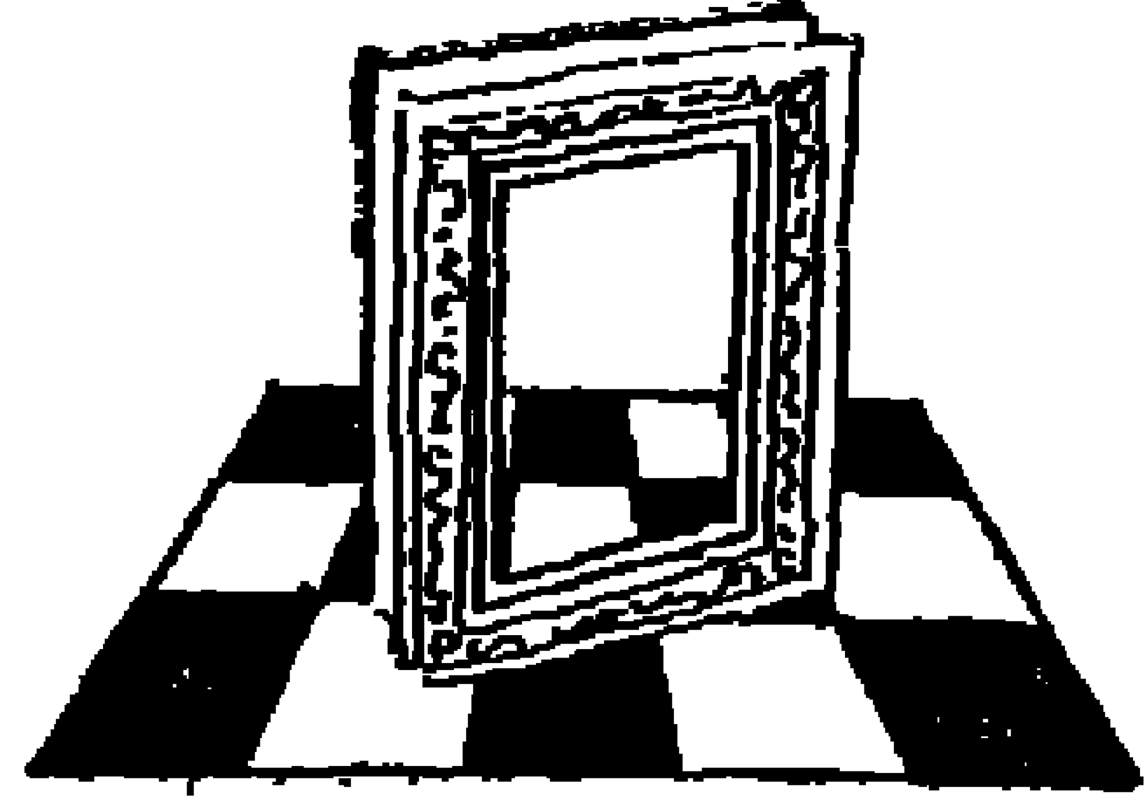
بذاك يتسلل الى نفسه الملل والضيق ويستعوض الله فى ضياع سهرته ٠٠ !

ان المسرح الحقيقى ، ومتعه العميقة ، وبهجتـــــه الاصيلة ، ومسراته الكثيرة التى لا تخطر على بال جمهور كبير من رواد المسرح ٠٠ بحـــاجة للدعـــاية والشرح والترويج حتى يكون لنا فى المستقبل مسرح حقيقى نابع من اقبـــال جماهيرنا الواســـعة وقائم على الاسس الصحيحة ، وقادر على الصمود والمنافسة مع مســارح الامم المختلفة فى كل أنحاء العالم ٠٠

ان مستقبل مسرحنا رهن بتكتيل جهـود فنـانيه ونقاده وعشاقه جميعا في اتجاه الترويج للفن الصحيح ودحض الاوهام واجتذاب الجماهير فى الطريق السليم٠٠

٠ ولا أستطيع أن أنكر جهود الكثيرين فى هذا السبيل ، وثمار هذه الجهود الماثلة فى الاحصـــائيات الاخيرة وفى الارتفاع المطرد فى المستوى الفنى ٠٠

ولكننا نتطلع لاكثر من ذلك جدا ٠٠



التراجيديا

يتين علينا الان أن ننتقل الى لون مسرحى خطير .. هو التراجيديا . ان التراجيديا أهم وأخطر الاشكال المسرحية على مر العصور ..

ما هى ؟ ما الصفة التى تنفرد بها وتميزها ؟

ان الصراع هو قوام المسرح كله .. الصراع بين قوتين متناقضتين على اتساع المجتمع ، أو فى داخل النفس الانسانية الواحدة ..

أما الصراع فى التراجيديا فيتميز بلون خاص متفرد. انه صراع مستحيل .. ونتيجته مقررة سلفا ..

فالانسان فى مواجهة القدر « كما فى التراجيديا الأغريقية » قد تقرر هلاكه حتى قبل أن يخوض المعركة، لانه يجابه قوة خارقة لا قبل لانسان بها ..

والانسان تحت سيطرة طبع متطرف ، أو هوس فى صميم شخصيته ومن مقوماتها « كما فى التراجيديا الشكسبيرية » قد تقرر هلاكه من اللحظة الاولى ..

والانسان المتمرد على قوانين الطبيعة الصارمة ، وأحكامها الازلية « كقانون اطراد الزمن .. مثلما فى تراجيديا أهل الكهف لتوفيق الحكيم » لا فكاك ولا نجاة له من مصيره المشئوم ..

التراجيديا شىء نظيف ومستقيم ، ليست تشويه

شائبة الامل فى احتمال الانتصار أو الفكاك من المصير.. لا يتقلب بطلها بين احتمالات النجاة أو الضياع ، ولا تؤثر فى مصيره صدفة حسنة أو صدفة سيئة ، أو نصرة الاصدقاء أو خذلانهم للبطل .. ان الذى يحسم مصير البطل التراجيدى هو قوانين الوجود ونظامه الصارم

ونبل التراجيديا يكمن فى هذا الموت المحتوم .. يكمن فى أن البطل المقضى عليه يقاوم مع ذلك حتى النفس الاخير .. لا بغرض الافلات الملفق ، ولا لغرض نفعى طارىء .. ولكنه يقف بقوة وعناد وصلابة متحديا أهوال المصير تحقيقا لذاته الانسانية ، ولطبعه البشرى الخالص ، وتأكيدا لموقفه الانسانى العصى على الاستسلام كاشفا فى صراعه المهيب أسرار النفس الانسانية وأسرار الوجود ..

ان أوديب نكب نكبته وهو يفتش بجسارة عن قاتل الاب بكل ما فى هذه القضية من شمول ..

وماكبث لقى مصرعه وهو يناضل فى استماتة لتحقيق أطماعه المستحيلة ومشلينيا « أهل الكهف » سقط فى هوة الزمن وهو يناضل فى دأب ليجعل من وجوده التاريخى حياة واقعية ..

الموت التراجيدى اذن موت فلسفى .. موت يطرح فوق منصة المسرح قضية فلسفية أو أخلاقية « أى تتعلق بالطبع وبطبيعة تكوين الشخصية الانسانية » ..

ولكل كاتب تراجيدى فلسفته الخاصة وفكره الخاص

وقد كانت فلسفة التراجيديا الاغريقية تتميز بتصوير الصراع الازلى بين الانسان وقوى الطبيعة المجهولة الغاشمة

وكانت فلسفة شكسبير التى تبسطها تراجيدياته هى أن الصراع الازلى ناشب بين الانسان وطبعه المتطرف بين الانسان وهوس فى صميم شخصيته .. يصرعه فى

النهاية .. فماكبث يصرعه طمعه ويوليوس قيصر يصرعه طموحه وعطيل تصرعه غيرته ، وهملت يصرعه تردده وامعانه فى التأمل .. الخ ..

لقد نقل شكسبير الصراع التراجيدى من السماء الى الارض ، ومن وراء الطبيعة الى مسرح النفس الانسانية

وحيث أن الشخصية المتوازنة السوية فى الطبع والخلق انما هى شخصية خيالية افتراضية .. افترضها العلماء لمجرد القياس عليها ، ولا وجود لها فى الحياة ، فقد تحقق بذلك للتراجيديا الشكسبيرية شرط شمولها واتساعها لكل نفس انسانية وهو شرط يجب ان يتوفر لفكرة الصراع التراجيدى ..

هذه اذن هى التراجيديا ..

وما أقل ما يمكن أن نحصيه فى أدبنا من هذا اللون المسرحى الجليل الشأن ..

وما أقل ما تقدر امكانياتنا الفنية المسرحية على عرض هذا اللون المسرحى ، وما اقل ما يقبل عليه الجمهور ..

لعل أعظم كتابنا المسرحيين الذين أنتجوا فى مجال التراجيديا هو توفيق الحكيم . فقد دأب هذا العقل النابغ وحده خلال عشرات السنين على التأمل والانتاج فى هذا المجال ، رغم كل ما كان يصده عن مواصلة هذا البحث الفنى الفلسفى الشاق ..

ولكنى مع ذلك لن أبحث هنا فى أصول فن التراجيديا عند الحكيم ، فذلك بحث تتلفه العجلة والاختصار وأتمنى أن ينهض به غيرى ، أو أنهض به أنا فى غير هذا الكتاب ..

الذى سأعرض له هنا .. ظاهرة غريبة لفتتنى أكثر من مرة ..

ظاهرة مسرحية « مجنون ليلى » لشاعرنا الحديث

أحمد شوقى
فهذه المسرحية قرأها .. فى تقديرى مئات الوف الناس وطربوا لها

ما من قارىء قرأ فى الادب ـ مهما كانت حصيلة قراءاته كبيرة او ضئيلة ـ الا واطلع على هذه المسرحية واستمتع بها وتأثر لها ..

وقد نجحت هذه المسرحية فوق المنصة فى عصرها نجاحا عظيما نقله لنا الرواة والمؤرخون ..

ومع ذلك فان جيلنا انكرها على المسرح ومجها ، وضحك من مواضع الالم فيها وسخر بابطالها ..

وقد يبادر الكثيرون لتفسير هذه الظاهرة تفسيرات متعجلة ، تزينها عبارات التغير الاجتماعى والتحول النفسى .. الخ

ولكنى لن استرسل مع هؤلاء : ذلك ان الناس لا تزال تقرأ مجنون ليلى بتأثر حقيقى لكنهم يضيقون بها على المسرح

ولم نلتمس التفسير فى قاموس التطور الاجتماعى وامامنا من يقول ان المسرحية تحسن فى القراءة ولاتحسن على المسرح ؟

وأينما سمعت أنا هذا القول أعطيته تفسيره البسيط المباشر • وهو أن المسرحية لا تنفذ فوق المنصة تنفيذا جيدا

نعم ان فنانى المسرح عندنا لا يولون هذه المسرحية العظيمة حقها من التفكير ..

فهذه المسرحية التى ذاعت خلال عدة اجيال ذيوعا لا يدانيها فيه أثر أدبى اخر ليست بالشىء الهين الذى قد نتجاوزه فلا نبالى به ..

واذا كانت حصيلتنا فى فن التراجيديا على هذه الضآلة فما أحوجنا للحفاظ على مسرحية كمجنون ليلى

وهذا هو موضوع الفصل لتالى ..



لماذا يموت قيس بني عامر؟

يجب علينا أن نعيد النظر فى فهمنا وتفسيرنا لشخصية هذا البطل العاشق المحزون ..

لقد درجت الفرقة القومية على اخراج « مجنون ليلى» على نفس النسق الذى اخرجت به منذ اكثر من ثلاثين سنة . وقد بهرت المسرحية جمهور ذلك العصر .. أما اليوم فهى لا تثير فى جمهورنا الا السخرية والاعراض ..

ولقد تكون « مجنون ليلى » ضعيفة البناء الدرامى ، ومليئة بالقصائد الطوال التى تنافى نظام الحوار المسرحى المتتابع .. او لعل مرجع ذلك انها لا تعبر عن أمورتشغلنا وتشغل عصرنا ..

كيف نعرف ؟

كيف نستطيع أن نوطن أنفسنا على أن مسرحيات شوقى ماتت وانقضى زمانها ؟

ان البحث هو السبيل الوحيد لاعلان موتها أو حياتها ..

وانى لأستطيع أن أزعم أن مسرح شوقى قابل لاستئناف تفسيره واعادة فهمه . فلقد كان شوقى يستسلم لتلك القوة الحادسة العجيبة التى اصطلحنا على تسميتها بالالهام . فقد كان أقدر على التعبير عن مكنونات فى نفسه وفى روح عصره قد لا يقدر ذكاؤه اليقظ على الاحاطة بها ..

ولذا يتعين علينا ازاء شوقى الا نقنع بظاهر مسرحياته فى كل الاحوال ، بل ان نعمد الى اكتشاف الرموز فى عالم وهمه والهامه ، واخضاع هذه الرموز للتفسير ..

ولربما تورطنا ونحن بسبيل ذلك فى ان نخلع عـــلى كلمات شوقى تفسيرات متعسفة . ونحملها مالا تحتمل من تأويل . ولكن هذا هو سبيلنا رغم كل شيء ، وعلينــا أن نجتازه — حذر نعم — ولكن علينا مع الحذر أن نعتمد على ان لشوقى بصيرة بالامور السياسية وضروب السلوك الانسانى تتضح فى اشعاره الكثيرة ..

وعلينا ان ننتبه الى أنه اذا كان النص المكتوب لمسرحية كمجنون ليلى لا يزال يطربنا ويثير وجداننا . فلا حول عن ان نحاول اكتشاف كنه هذه الاثارة وهذا الطرب..

كان قيس يحيا فى ظروف نقلة سياسية وحضــــارية خطيرة . تشير اليها مؤخرة الكتاب . وأنا أختــــار كلام المؤخرة وفى ظنى انه التعليق الذى وافق هوى شوقى نفسه ورضى به ..

« كان الحسين بن على كعبة القلوب والابصار فى جزيرة العرب بعد ان قتل ابوه ومات اخوه الحسن . وانتهت خلافة الاسلام الى معاوية بن أبى سفيان ..

« أصبح معاوية امير المؤمنين . وانداح السلطان عن بوادى العرب الى حواضر الشام ..

« وما كان فى الحجاز وما يليه يومئذ مسلم يســتطيع أن يبتسم للزمن الجديد وللدولة الجديدة ابتســـامة من اعماق نفسه ، وهو يرى الدين الذى هشت له عاطفتــه وقلبه ، وامتلأ منه يقينه وايمانه ، تعرض له الدنيــا التى اقبلت على دمشق محمولة على أسنة بنى اميــة واحلامهم فتنقله من حيث كان يراه هذا العربى فى مــكة ميزان العدل وآية الزهد والورع ، الى حيث قدر له هذا

العربى أن يكون فى دمشق ملكا دنيويا ..

وكذلك ظل الحسين قائما فى نفوس الناس هنـــاك صورة مقدسة لبداوة الاسلام تستمد انضر الوانها من صلتها القريبة بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنوته لرجل كان أشد الناس زهدا واستصغارا للدنياه ، وكذلك ظهرت بلاد العرب (فى المسرحية) وقلبها يخفق باسم الحسين ولسانها المغلول أما منافق يترضى الحاكم الجديد ، واما خائف تسنح له الفرصة فيهتف باســم الحسين فى معزل عن العيون والارصاد »

وبعد ذلك تعرض مؤخرة الكتاب خمســة مواقف فى المسرحية تدلل بها على ما تقدم ، غير أنها تستطرد فتقول : « على انه بالرغم من كل ماذكرناه فى هذه اللمحـــــة السياسية . يجب أن نعود فنقول انهذا التشيعالحزبى لم يظهر فى الرواية الا فى بضعة مواقف » !

ولكن هل أطات مسألة الحسين فى سبعة مواضع خلال ثلاثة فصول للمسرحية (١) بغير جدوى حقا ؟ وهل كانت معاودة شوقى لها بين الحين والحين من قبيل الحشــو والاطناب ليس الا ؟ .. أم أن بداهة شوقى وفطنتــــه هما اللتان الهمتاه حبك هذه الصورة الخلفية لمأســاة قيس ، وتكرار التنويه عنها وابرازها ؟

لا أظن ان كاتبا يقضى على بطله بالموت الفاجع عبثا. الا اذا كان كاتبا عابثا . وواجبنا ونحن حيال مجنـــون ليلى أن نتساءل من المبدأ : من أى شىء يموت قيس فى مسرحية شوقى ..

المطالع للمسرحية قد يدرك من الوهلة الاولى ان قيس قد جهر بحبه لليلى شعرا وروى موقفه منها وموقفها منه على الملأ فتعين على أبيها أن يرفض زواج العاشقين ،

(١) صفحات ٢ و ٣ و٣٥ و٣٦ و٣٨ و ٦٥ و٦٦

حتى لا يقال ان الزواج كان ستارا لفضيحـــة . واغتم العاشقان لذلك . وتقلبا على آلام الفراق فماتا ..

هذا ظاهر المسرحية القريب . ولـكنه لا يجيب على مسألة موت قيس . وإلا دهمنا سؤال اخر ألغز واغرب : لـماذا يجهر قيس بحبه على ملأ وهو ادرى الناس بأن ذلك يقصيه عن ليلاه ؟ لماذا يصبح قيس هو الواشى بقيس فى الاسواق .. وعزوله وقاتله ؟! ..

وينتقل بنا قيس غريب الاطوار من موقف لموقف حتى يصل بنا الى مشهد لقائه بليلى امام بيت زوجها ورد ..

وبينما العاشقان فى أحر المناجاة وأعذبها ، دعا قيس حبيبته للفرار معه فى الحال ، فاستكبرت ليلى انتجازى حسان زوجها بالخيانة ، وهو الزوج الذى احترم حبها لقيس فلم يقربها ، والذى استقبل قيس نفسه على باب بيته واعلنه بندمه وأسفه ودعا ليلى له ..

وما أن اعترضت ليلى على الفرار حتى انفجر قيس صارخا يتهمها بخيانة حبهما ويتوعـــدها بالقطيعـــة والهجرة ، ثم يندفع ماضيا عنها وهى فى أسوأ حال . ولو أنه تريث لحظة لسمع ليلى تقول كسيفة :

« والله لو جاء محاسنة يسأل ورد الطلاق ما منعا »

قيس اذن نموذج مضطرب وانسان غير متزن . هو « مجنون » ..

واظن أن جنونه هو محور المسرحية كلهـا ، ومفتاحها الذى يتعين أن نبدأ منه ..

واعود لمؤخرة الكتاب التى اظن ان شوقى نفسه قـد اطمأن لها والتى تعكس تفكيرا معاصرا للمسرحية . تقول المؤخرة ..

« الناس يصفون قيسا بالجنون أحيانا ، ثم يستنقذونه من هذا الجنون أحيـانا ، ثم يأخذهم فى امره كثـير من

الشك والحيرة أحيانا أخرى • وهم فى هذه الأحـــوال الثلاث يتحدثون عن قيس فى شىء من يقين الواثق بصدق ما يقول •• والمؤلف أشار الى ذلك • فمنازل يقول لزياد صاحب قيس وراوية شعره ••

« تؤدبنى زياد وأنت ظل   لمجنون وراوية لهاذى ؟! »

« ثم يعود منازل نفسه يخاطب جماهير بنى عامر :

« ان قيسا كامل فى عقله   أو آنستم على قيس الجنون؟! »

فيجيب الناس : « لا ورب البيت »

« وترى منازل فى مرة ثالثة حائرا فى أمر قيس يقول عنه :

« تشرد مستعظما فى البلاد   وجن فما ازداد الا نهى »

اما ليلى فتزعم :

« وقيس ذو جنة وان زعموا   جنونه مدعى ومصطنعا »

« تحير الناس فى جنون فتى   لا عقل الا بشعره ولمـا »

وبعـد أن هددها قيس بالقطيعة ومضى عنها مغضبا ثائرا ، تقول ليلى :

« وارحمتاه لقيس عاد ما كانا ! »

أى عاد مجنونا كما كان

ولا آخر للامثلة التى تدل على حيرة الشخصيات كلها فى مسألة جنون قيس

ولكنهم متفقون على أن عرضا غريبا يعـاوده فيملى عليه ما اضطرب من سلوكه وقوله . فما هو هذا الذى يعاود قيسا ؟

لعل الباحث المتعجل فى سطور المسرحية يزعم أن قيسا كان ضحية شعور بالندم على ما روى من شعر عن ليلى ، فلطخ سمعتها وعاق زواجهما

ولكن الندم لا يلغى السلوك ولا يفسره ، صحيح يقول

قيس لشيطان شعره اذ تبــدى له وهــو مكب على قبر ليلى :

« كنت قرين السوء لى ... وكنت شر من فضــح
لــولاك ما بحت بمــا ... خــدش ليــلى وجرح
كــأنه فى عرضــــها ... زيت على الثوب سرح »

ولكن الصحيح أيضا أن شــيطان قيس لم يكن كائنــا خرافيــا يعبث به ويوسوس له . لقـــد كان هو نفسه قيس . كان هو نفسه ذلك الوزع والهاجس الكامن فى قلب الشــاعر ونفسه . ولم يكن له كيــان مستقل عن نفس قيس . وكان قيس واعيا بذلك يردده . اذ يقول لشيطانه : « أنت وجدانى » !

ويقول له اذا ناداه : « لبيك قيس » !.. الخ

فشــيطان قيس لم يكن قوة خارجة عنه تحكمــه من الخــارج وتسلبه ارادته . كما أن نــدم قيس وعتابه لشيطانه لا يفسر سلوكه .. ولا مفر لنا من أن نحــاول استنباط أعراض « القيسية » ــ ان صح هذا التعبير ــ من روح عصره كما قدمته المسرحية

فى النبذة التاريخية التى تعرضها مؤخرة المسرحية ان البادية كانت تمر بمشاعر مكبوتة ، وبحب فياض مكبوت. وقد كانت تتجمع شعاعات من هذا الحب الملتهب عنــــد شــخص الحسين ، وتتخذه قبــلة ورمزا .. فهــو ابن الشهيد ورمز « بداوة الاسلام » و « ميزان العدل » و « آيه الزهد والورع » .. وهو البؤرة التى اجتمعت فيها ضياء الوجدان البدوى الاصيل .. الوجدان الدينى والسياسى ، وهو محصلة القوى لانضر ما فى صدر الاسلام من مثل ووجد وتضحية ، وهو زعيم الحضــارة البــدوية الافلة .. فى مواجهة باسلة لسلطــان الدولة الاموية التى تحولت فى

عاصمة الشام الى « كسروية دنيوية » طاغية

البادية تمتلىءبحب رمزها وترن بأغانى الوله والوجد له وتفيض عليه من وجدانها المتدفق

ولكنه حب عاجز ، تكبته خشية الموت . حب جبسته الناس فى قماقم وألقت به قاع النفس حبيسا

وفى هذه الظروف يشيع التصوف بمختلف أشكاله .

وعندى ان قيسا لم يكن الا متصوفا يرمز بليلاه لقوة محبوبة عليا

ولكن .. لو كان قيس شيعيا لاستقام وجدانه . انه لم يكن شيعيا كأهل البادية

فليلى تسوغ شدة الامويين وبطشهم بقولها :

«ابن ذريح لا تجر واقتصد   احلام مروان جبال رواس

« يؤسسون الملك فى بيتهم   والعنف والشدةعندالاساس

فتعلق احدى الفتيات على ذلك بقولها :

« ليلى على دين قيس   فحيث مال تميل

« وكل ما سر قيسا   فعند ليلى جميل »

وهذا شاهد على أن قيسا قد التفت للموقف التاريخى الذى كانت تعبر به الحضارة العربية ، ورأى فيه رأيه

وهو شاهد كذلك على ان قيسا كان يميل لتسويغ شدة الامويين فى سبيل تأسيس ملك عربى وطيد

ولكن كيف يفلت قيس بهذا المنطق من الاستجابة للوجدان البدوى الشائع السائد فى أهله ؟ .. كيف يستطيع أن يرفع رأسه فوق الماء ويقاوم التيار الفياض الذى يندفع من حوله معلنا أو مخفيا تعلقه بالنظام الاسلامى الاول ؟ ..

الحسين رمز بداوة الاسلام ، وكل ما فى الدعوة من نقاوة ومثل

وأمية تؤسس الدولة الاسلامية الوطيدة
وقيس ينقسم على نفسه

ولم تكن ظاهرة انقسام المجتمع على نفسه تنحصر فى مسألة الدين والسياسة فحسب .. بل كانت تمتـــد فتشمل التقاليد الاجتماعية أيضا • فبنو عامر ينقسـمون فى الحكم على « جـرم » قيس . وليلى نفسـها تتغنى بمحاسن الحضر وتنعى على الحياة البـدوية التخلف ، وأبـوها لا يغضب كل الغضب من « فعـلة » قيس بل يراود غضبه من حين لاخر حنان الاب وعطف القريب. وتعـلن أكـثر من شخصية ضعف احتفـالها بتقاليد الاسلاف .. الى آخره

ومجتمع المسرحية كله يتقلب فى محاور هذه النقلة الحضارية والتاريخية الخطيرة

وقيس ـ وجدان البادية المرهف ، وشاعرها المبين ـ يصبح نموذجا يدل على كل هـذا الاضطراب ويعانيه . نموذجا يعانى بحدة عظيمة تباريح هذا التناقض كله.. ولا يحتملها •• فيختل اتزانه ويعـاوده الغثيان وغرابة الاطوار . ويجاهد ليلوذ بالصحراء فاذا كل شيء فيها يفقد حقيقته الواقعة ، ليتلبس ما يسقطه عليه وجــدان قيس المضطرب

فهو فى شروده ورحلته فى القفار يخاطب الحيـوان والجماد ، ويفهم عنها ويستلهمها ويتـوهم من يخاطبه فيرد عليه ، ويضفى على الكون كله من ذات نفسه .. مستجيرا بذلك من انقســام نفسه وبلبلة وجـدانه . ولكن ذلك كله لا يجديه فتيلا

لا شيء يشفى قيسا من حبه واندفاعه لخصام هـذا الحب وتعويق الوصــال .. ففى حبه خطر مخوف . وفى التخلى عن هذا الحب خطر مخوف

ولا أقول أن قيسا يعبر تعبيرا ميكانيكيا مباشرا عن مجتمعه . فالانسان لا يمكن أن يكون تعبيرا ميكانيكيا بسيطا فصيحا نهائيا عن عصره ، ومع ذلك فبوسعنا أن نحاول استنباط لغز « جنون » قيس من محيطه المعاصر — كما رسمه شوقى

ان قيسا رجل شك وتردد . لا تطمئن روحه ليقين ما . يلوذ بالوساوس والظنون والتصورات .. فلا يزداد صدعه الا انفراجا

قيس رجل شك يتشبث بالنقيضين حتى ليختل ميزان حكمه على الأشياء . ويغرق يقينه فى خضم من الهواجس والاحتمالات

هو رجل شك ، قلم الشك أظفاره وسلبه كل قوة على البت والحسم ، وطرحه فى الفيافى رجلا موزع الارادة مختلط اللب

ولم تكن ليلى غاية قيس وبغيته العليا بكل معنى الكلمة . لقد كانت ليلى رمزا لقوة تاريخية تهجس نفسه بحبها .. وتهجس نفسه بالنكوص عن نيلها وبالتخلى عنها ..

انه نموذج من أبطال المأساة منتم الى فرع من الفصيلة التى ينتمى الى أحد فروعها الاخرى « هاملت » شكسبير

ولم نذهب بعيدا ؟ انه ليس أقرب لهاملت منه لشهريار توفيق الحكيم وميشلينيا بطل « أهل الكهف »

واذا كان بطلا توفيق الحكيم أفصح منه بيانا ، فانه اشحذ منهما وجدانا ، انه أقرب الى نماذج وروح العصر الذى كتب فيه شوقى « مجنون ليلى »

عصر النقلة التاريخية التى عبرت بها مصر فى أول فترة ما بين الحربين .. والتى كتب المازنى يصفها :

« أننا نعيش فى عصر تفـكير عميق وعهـد قلق عظيم واضطراب كبير وشـــك مخيف .. عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد فى حيرته مجهود القلب . وقد استولت الظلمة على عوالمنـا السياسية والخلقيـة والعقليـة ، وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه فى عشى ليـالينا المتجـاوبة بصيحات الشك والظمأ الى المعرفة والحنين الى النور »

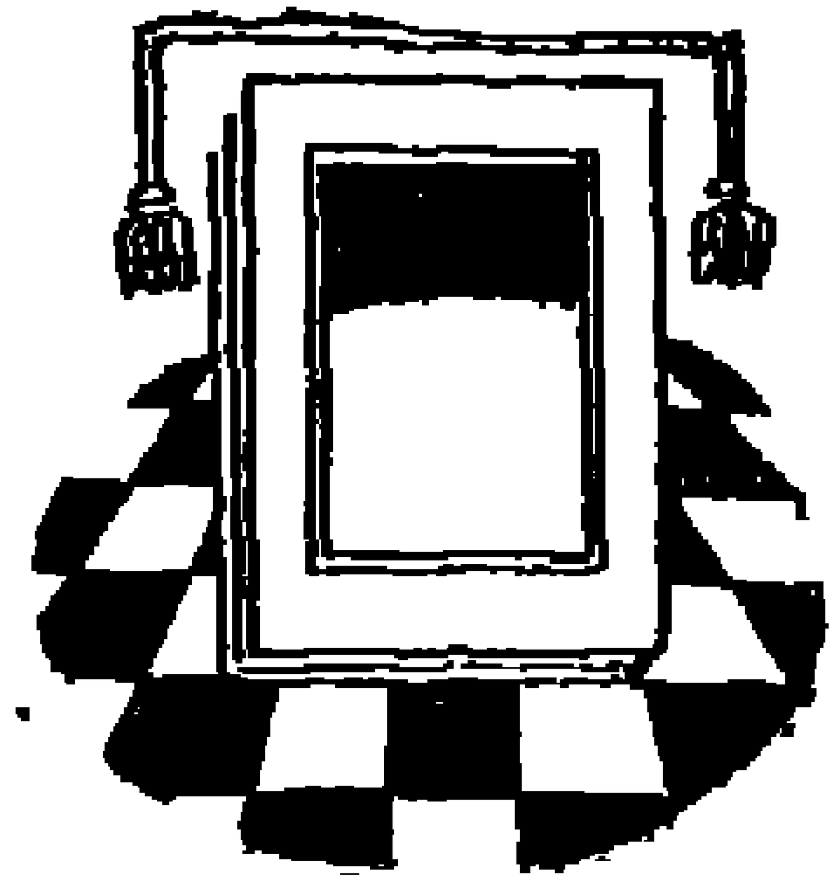
لعلى أسرفت ..

ولكن بودى لو يتطوع من يدلنى على اجابة تساؤلى : من أى شىء يموت قيس فى مسرحية شوقى ؟ وما لغز جنونه وشططه وعجزه ؟

اذا لم يك هذا هو السبب ، فلعل ثمة عاملا آخـر يحتم موت قيس ، ويفرضه ويعلله

أما الزعم بأن ظاهر المسرحية هو كل ما تتضمنه من معنى .. الزعم بأن قيس جن ومات حـزنا على أمرأة لم يزوجوها له ..

هذا الزعم لا يعنى غير أن « مجنـون ليلى » لا يمكن اخراجها على المسرح الا على النسق الذى أخرجت به منذ ثلث قرن .. ومعناه اذن أن المسرحية لم يقدر لهـا أن تتجاوز عصرها وأن تعيش الى اليوم



المسرحية

اذا كان الممثل هو العنصر المادى الحى الوحيد فوق المنصة ، فان النص المسرحى هو الاساس الذى يرتكز عليه كل التكوين الفنى الذى يستمتع به المتفرج . اننا نستطيع أن نتصور نهضة مسرحية شاملة تتميز بعبقريات متعددة فى فن التمثيل والاخراج والديكور .. نستطيع أن نتصور أساليب وتيارات فكرية مختلفة وفنانين عظاما لهذه الفنون ، ولكن يستحيل أن نتصور أن هذه النهضة وهذه العبقريات فى فنون التمثيل والاخراج يمكن ان تقوم لها قائمة من غير نهضة حقيقية لفن التأليف المسرحى . فالمسرحية المكتوبة هى عصب كل شىء . النص المسرحى هو الهواء والماء لسائر الفنانين المسرحيين . فلا يمكن أن تتبدى كفاءة الممثل الكفء الا من خلال نص جيد التأليف ، ولا يمكن ان تتبدى عبقرية المخرج العبقرى الا من خلال مسرحية عبقرية

أن المسرحية التافهة أو الركيكة لا يمكن مهما أغاثها المخرج والممثلون الا آن تكون فى النهاية شيئا تافها وركيكا. ان التأليف المسرحى هو المحرك الحقيقى لاية نهضة مسرحية مرجوة

ما هى العناصر التى تكون المسرحية ؟

من المألوف أن يتكون النص المسرحي من ثلاثة فصول أو نحو ذلك ، وكل فصل منها تجرى حوادثه فى مكان معين وفى وقت محدد

ان المؤلف المسرحي سـجين دوائر ثلاث أو أربع ، وليست له حرية الانطلاق التى للروائى أوكاتب السينما. لابد للمؤلف المسرحى أن يرتب حوادثه فى ثلاثة أو اربعة أمكنة ، وفى ثلاثة أو أربعة أوقات معلومة . ففى هـذه الامكنة ، وفى هذه الاوقات لابد ان تجرى الحـوادث بشخوصها فوق المنصة مبتدئة ببداية الموضوع منتهية باسدال ستار الختام -

أى أنه من غير المستحب أن تقع حوادث هامة ذات صلة بالموضوع فى أوقات أو أمكنة غير الاوقات والامكنة التى حددتها فصول المسرحية .. ثم يأتى ممثل أو ممثـلة ليقص أو لتروى حوادث وقعت خارج المنصة

ان ذلك مقبول وسهل فى الرواية وفى الفيـلم السينمائى ، حيث يستطيع مخرج السينما دائمـا أن يتحول بالكاميرا الى ماشاء من الاوقات والامكنة ليصور ما شاء من الحوادث الماضية أو المواقع البعيدة ، ثم يعود بالتالى ليستأنف المشهد الذى غادره منذ قليل

المسرح لا يعترف بهذا الانتقال ، ولا بوقـوع حوادث هامة خارج المنصة لغير ضرورة معلومة

ان ثمة حوادث قد اصبح من التقاليد المسرحيـة ضرورة وقوعها خارج المنصة كحوادث القتل والانتحـار والاغتصاب ، وذلك أسبابه معلومة واضحـة ، على ان يجرى ابلاغها للجمهور بوسائل فنية لبقة

أما ما عدا ذلك من الحوادث فلابد ان تقع فـوق المنصة . فالمتفرج كى يتابع المسرحية متابعة يقظـة ، وليتأثر بها الاثر المطلوب ، لابد له ان يشهد بالعين وبالاذن

وبالحضور جملة الحوادث والمواقف والانفعـــالات التى تكون المسرحية . لابد له ان يرى بعينيه الدموع ويسمع بأذنيه الانات ، وأن يلمس بجماع حواسه موقف التصدى، ومراحل هذا الصراع النامى الناشب بين الخصمين من اوله الى آخره

ان خاصية المسرح الاولى ، التى تجعله فنا منفـــردا نادر المثال هى خاصية « الحضور »

ان المتفرج يلتهب ويغضب، ويثور ويهدأ ويحب ويكره فى المسرح كما لا يلتهب ولا يحب ولا يغضب أثناء قراءته للقصة المكتوبة او خلال مشاهدته لفيلم من الافـــلام ، بسبب هذه الخاصية المدهشة

انك فى المسرح تشهد كل شيء أمامك لحظة وقوعه ، دون وسيط أو رواية أو كاميرا صورت لك المشـــاهد وتصورتها نيابة عنك . انك تسمع وترى وتكاد ان تلمس بيديك هذا العالم العجيب الحاضر أمامك فوق المنصة، الذى صنعه لك الفنانون

ان الحضور بالشخص وباللحم والدم ، ان الحضـــور بالآن وبالمكان هو ركن المسرح الركين

انك فى المسرح كمن رأى ، لا كمن سمع

ولكن هذا الحضور الذى ينبغى أن تتركز فيه كل حوادث ومواقف وشحنات العمل المسرحى ، محـــدد بالضرورة وحبيس هذه الدوائر الثلاث أو الخمس التى سلف ذكرها

وهذا يخلق أول صعوبة امام المؤلف المسرحى ؛ كمـــا انه هو أول العنـــــاصر الواجبة فى التأليف المسرحى

ومن البديهى ان الحـــوار المسرحى من أهم الادوات التى يستعين بها المؤلف . فهى الوعاء أو القالب الذى يصب فيه افكاره ومواهبه

فليس للمؤلف المسرحى كما للقصاص الروائى حـــرية

القص او وصف الشخصية او التحليـــل او التعريف بماضى البطل أو عاداته وخصاله ، او التـــدخل من آن لآخر للتعليق على المواقف واظهار الشرك الذى يعــــده الغريم لغريمه ، وكشفه امام القراء

بل ان المؤلف المسرحى فى بعض الاحيان يجـرى على لسان احد شخصياته وصفا لشخصية اخرى فيـــه كذب وادعاء تقتضيهما ظروف الخصومة بين الشخصين أو وصفا زائفا يأتى على لسان حبيبة مخدوعة ، أو زوج غافل ..

فحتى تحليل الشخصية ووصفها اذا ورد على لسان شخصيات أخري أو على لسان الشخصية ذاتها لايعول عليه ، وللمؤلف فيه مآرب واغراض بعيدة هى تحـديد العلاقات بين مختلف الشخصيات وتحليل ما تكنه نفس الشخص المتحدث لا الشخص موضوع الحديث

ان المسالك مسدودة امام المؤلف المسرحى وهوبسبيل تحليل وتقديم شخصياته سوى مسلك واحــــد وطريق واحد ..

هذا المسلك وهذا الطريق هو الكشف عن الشخصـية من خلال سلوكها هى ، ومواقفها هى ، وكلماتها هى ، التى تعبر عن موقف الشخصية من العالم

أمام المؤلف المسرحى أن يضع رسما واضحا وقاطعا لكل من شخصيات مسرحيته ، وكل اعتماده على سـلوك ومواقف وكلمات هذه الشخصية ، وعلى فطنة وذكاء المتفرج وقدرته على تصور الشخصية وفهمها فهما مباشرا وعلى تفسير سلوكها وكلماتها ومقاصدها ، ما تنشده وما تناصره وما تدفعه ، كما يفهم الرجل الرجل فى الحياة ، كما يكشف الرجل مخاتلة صاحبه بالمراس وبالمخالطة وبالذكاء .. لا للوهلة الاولي ، بل على مهل ومن خلال تسلســـل

الحوادث والمواقف بحيث يبين الصـــــدق من الرياء ، الباطن من الظـــاهر

ان اكتشاف حقيقة الشخصية فوق المنصة انما هى عملية يحققها ذكاء المتفرج ولباقة المؤلف . عمليةتجاوب فكرى هو مصدر من اهم مصادر المتعة فى فن المسرح.

الحوار اذن ليس وسيلة مباشرة لتحليل الشخصيات ودراسة المواقف ، وانما هو وســـيلة غير مباشرة لتحقيق هذا الغرض

ان المسرح بذلك فن منشط للذكاء وينمى فى متفرجه القدرة الاجتماعية والخبرة الانسانية



عناصر التأليف المسرحي

ومن أهم عناصر المسرحية : المواقف ..

ففى الامكنة المعينة ، والاوقات المحددة التى يلتزم بها المؤلف (الفصول) سيلتقى على مشهد منا ابطال وسائر شخصيات المسرحية ليصطرعوا حول الموضوع . وتنبنى المواقف من خلال التآلف والتنافر بين الشخصيات ،ومن خلال المواجهة أو المراوغة ، التصدى أو الملاحقة ، التعصب او الملاينة ، الصمود او الانهيار والتألم فى الظل والكشف المستمر عن حقيقة العلاقات الانسانية فوق المنصة ، وعن المعترك كله

ان هذه المواقف هى بذاتها البنيان المسرحى كله

أن المسرحية ببساطة تتألف من مواقف يجرى فيها حوار ..

ولكن هذه المواقف وهذا الحوار لحمهما ودمهما ، شرايينهما وأعصابهما وقوامهما الاساسى والنهائى هى : الصراع ..

ان فن المسرح كله يسميه الغربيون ، فن الدراما ، وهم يقولون ببساطة ، الدراما هى الصراع

فاول ما يلفت نظر المتفرج ، وآخر مايرن فى اذنه قبل اسدال ستار الختام ، هو هذا الصراع الذى تشب بين

غريمين ، بين عاطفتين ، بين عقيدتين ، بين فكرين ، بين جيلين «متناقضين»

إن الدفقة الساخنة التى تلهب العمـــل المسرحى كله مصدرها وأصلها هو الصراع

ولا أحب هنا أن يتبادر الى ذهن أحد أن مظهر هـذا لابد أن يكون شجارا مفتوحا صريحا • فالمشــــاجرة والامساك بالخناق والسب والصفع ليست مما يفخر بها أى مسرح فى العالم

كما أن المغالاة فى الصراخ والتوعد والتقريع والتحقير ليست من الادوات المسرحية المناسبة

ان الصراع فى المسرحية أعمق من هذه المظاهر السوقية المبتذلة ، وهو أكثر تركيبا وتعقيدا مما قد ينشــب فى السوق حول شروة برتقال • كما أن هذا الصراع لا يلزم بالضرورة أن يكون صاخبا صارخا ، وانما هو أعمــق من كل ذلك

ان الصراع قد يتخذ صورة ساخنة أقرب الى الصور السوقية فى بعض الاحيان ، ولكنه غالبا لا يكون كذلك • انه يبدأ كما تنطلق التيارات التحتية فى أعالى البحار عارمة متدفقة ، بينما سطح المحيط ســـــاكن هادىء

الصراع قد ينشب بين أم وابنها ، وهـــو حينئـــذ كما يأخذ من ألوان الغضب والسخط والنزعة للسيطرة ، يأخذ من ألوان الرحمة والحنان والاســـــتغاثة بعواطف الامومة والبنوة . فهو يدور ساخنا طوال الوقت ، ولكنه هادىء مكتوم معظم الوقت ، حتى تحين ساعة الانفجار

ان الصراع يحكم المسرحية من أولها الى آخرها ،ومع ذلك فالصدام بين الخصمين لا يتحقق بكامل عنفه الا فى ذروة المسرحية وقمتها

ان كل ما يحرك الصراع وينميه ويقربه من غايته وهى

الصدام فالتصفية .. كل ما يحرك شحنات الغضب أو الحب أو الانفعال أيا كان نحو غايتها يحقق للمسرحية نبضها الساخن

ان المسرحية عمل يتصاعد الى غايته بانتظام وباطراد . وما يشحذ الصراع فيها وينميه ليست مجرد حوادث تتراكم بعضها فوق بعض . ويحدث فى بلادنا وبين مثقفينا الخلط بين الحوادث والاحداث (الافعال) . ان الحوادث فى المسرحية شأنها قليل وان ما يسميه الغربيون بالاحداث أو الافعال (ان صحت هذه الكلمة) يختلف تماما عما نعنيه بكلمة حوادث . فالمسرحية قد لا تقع فيها حوادث كثيرة ، ومع ذلك تكون هذه المسرحية حافلة بالاحداث .. أى حافلة بما يحرك الصراع

ان الحوار قد يحرك الصراع ، والحوادث قد تعين على تحريك الصراع ، ولكن عناصر أخرى هامة وكثيرة هى التى يعول عليها فى هذا المجال .. عناصر بعضها ظاهر مادى واضح ، وبعضها مستتر مضمر

فحين يلتقى البطل بالبطل ، أو البطلة بالبطل فوق المنصة ، لينسجا موقفا من المواقف المسرحية ، يشتبك الفكر بالفكر والوجدان بالوجدان ، تتأجج المنصة حتى ولو لم يحدث الارتطام

ان الوقفة فى النور والانة فى الظلام ، أن همسة الديدبان القلق فوق حائط مدينة محاصرة ، واشارة بالذراع لاتقاء خطر مرتقب ، ان دمعة تلمع فى أضواء البروجكتور ، أو خطوة مفاجئة فى اتجاه الخصم ، أو دفعة فى صدر المحب ، أو جلسة اليائس أرخى ذراعيه ، أو اغلاق الشباك فى وجه الريح ..

كل هذه أحداث تصنع باطرادها نمو الصراع . ان كل «فعل» يقع فوق المنصة يدفع المسرحية ويقربها من غايتها

وهى احتدام الصراع ثم تصفيته

كما أن أى فعل يقع فوق المنصة لا يحقق هذا الغرض هو فضول وغثاثة وتطويل يضعف المسرحية

ونحن اذ نتحدث عن الصراع لا بد لنا أن نسلم بالبديهية الاولى التى يرتكز عليها مثل هذا الصراع ، وهى وجود التناقضات . فالصراع فى المسرح ، كما هو فى الحياة لابد وان يكون صراعا بين نقيضين

وأما المسرحية التافهة فتقوم على الصراع بين خصمين ، وليست ذات مرام ابعد من ذلك

وأما المسرحية الاكثر عمقا فانها تقوم على صراع بين ملكتين انسانيتين تتنازعان الابطال .. كالصراع بين الحب والواجب ، بين الشهوة والفضيلة بين الحب والكراهية

وأما المسرحية الاعظم عمقا والابعد غاية ، فتتناوله صراعا أعمق وابعد غاية ، كالصراع بين الانسان والقدر، بين الارادة الحرة والحتمية الطبيعية .. وهذه أرقى الوان المسرحيات

ومن البديهى أن هذه التناقضات لا يصح ان تفتت العمل المسرحى أو تقسمه بين اقطابه قسمة عادلة . فان وحدة الموضوع هى أقدس الوحدات الفنية للمسرح الى اليوم . ووحدة الموضوع لابد أن تسع هذه التناقضات وتؤكد الوان الارتباط بالتناسق والتنافر ، والوان العلاقات بين مختلف أطراف الموضوع .. بحيث تضم هذه التناقضات المصطرعة فى وحدة فنية أكيدة فوق المنصة

النص المسرحى اذن تبينه المواقف ، اداة التعبير فيه هى الحوار ، وينطوى بالضرورة على صراع يحتدم ويصفى



الحــــوار

يختلف حوار المسرحية اختلافا تاما عن أى لون من الوان النقاش .

صحيح ان الحوار والنقاش يدور كل منهما بين طرفين متناقضين ، ولكنهما جد متباينين

ان النقاش ينبثق عن خلاف فى الرأى . ولكن الحوار ينبثق عن اختلاف فى الشخصية

النقاش يدور حول قضية ما هى موضوع الخــــلاف . ولكن الحوار هو صراع بين حافزين انسانيين ، أو بين نظامين طبيعيين ، أو بين قانونين شاملين

النقاش غايته غلبة رأى على رأى . ولكن الحوارغايته غلبة قوة اجتماعية أو انسانية أو طبيعية .. على قوة أخرى اجتماعية أو انسانية أو طبيعية

النقاش يجرد الافكار ليبحثها ذاتها بينما الحـــــوار يجسد الافكار ويبرزها فى محيطها وبأثقالها الانسانية

ومن جهة اخرى فالحوار كقالب للصراع النامى باطراد لابد له أن يتميز بطابع هذا الصراع

فكما أن الصراع ينمو فى اتجاه الذروة ، لابد للحوارأن يغذى هذا النمو ويشحنه ويدفع به الى ذروته

ان اى ركود أو قصور عن التصاعد المستمر .. اى نقاش افقى حول قضية عقلية ما ، مهما كانت جدارة

هذه القضية ، أى انصراف للحوار عن غايته الاساسية الواحدة وهى شحن الصراع ودفعه باطراد الى ذروته يصيب المنصة بالركود والهمود ، ويفقد الممثل والمتفرج كل روح متوثبة

الحوار ليست غايته تصفية أى خلاف حول الرأى أو العقيدة سواء بالتوفيق أو الغلبة ، ولكن مهمته الوصول بالمتناقضات الى الذروة والصدام ، ثم التصفية على أساس الحياة لنمط من البشر ، والموت للاخرين .. كما فى المأساة • أو على أساس ضياع ثروة البخيل ، وزواج العاشقين .. كما فى الكوميديا

ان المناقشة تنتهى عند نصرة رأى ، ولكن الحوار ينتهى عند انقلاب كامل للقوى الاجتماعية أو الانسانية أو الطبيعية فى المسرحية .. وقد أصبح الملك الطاغية طريدا فى الجبل ، وقد انتحرت العاشقة فوق جثة حبيبها ، وقد وقع الخصم فى قبضة خصمه •• وقد انتصر شبح الضحية على قاتلها .. وهكذا

الحوار اذن ليست وظيفته حسم أى نزاع حول الرأى ، وانما وظيفته خدمة وتغذية وحفز الصراع ، وينبغى أن يلزم حدود هذه الوظيفة

النقاش يحتكم الى المنطق ويجرد المتناقشين من ظروفهم الموضوعية المختلفة ، هم يتجردون من هذه الظروف ليحققوا النزاهة فى احتكامهم للمنطق البحت

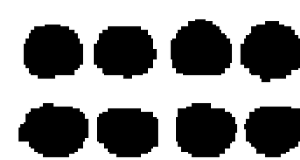
فمثلا اذا تناقش غنى وفقير حول موضوع مجانية التعليم ، واحتكموا الى منطق المصلحة العامة ، فلابد لكل منهما ، ويتعين عليهما ، أن يتجرد الغنى من غناه ، والفقير من فقره ليصلا بالقضية الى غايتها المنطقية التى تقررها المصلحة العامة

ولكن الغنى فوق المنصة لا يتجرد أبدا من غناه ، ولا

الفقير من فقره ، ولا المحب مما سلب لبه ، ولا المنتقم من دواعيه ، ولا الشهوانى من حوافزه ، ولا الام من غريزتها ولا الخصم من خصومته . لا يتجرد أى منهم من نزعاته وعناصر شخصيته لحظة واحدة . والذى يدور بين الابطال من حوار انما هو شحنات تغذى الصراع بينهم وتتغذى عليه ليصل الحوار فى النهاية - لا الى المصالحة او اتفاق الاطراف أو الحل الوسط كما فى المناقشة الهادئة الهادفة نحو تحقيق الحقيقة - ولكن الى الارتطام النهائى والصدام المحتوم بين مختلف الاقطاب ، والتصفية على أساس الغلبة لاحدهما على الآخر

الحوار مركبة الصراع ، وهذه المركبة متجهة بالضرورة الى الارتطام والصدام الاكيد

ولعلى أكون قد أوضحت بذلك الفرق الجوهرى البعيد بين الحوار والنقاش





لغة الحوار

من آن لاخر يثور نقاش وتحتدم المعركة بين من يفضلون اللهجه العامية لغه للحوار المسرحى ومن يفضلون الفصحى ..

هذه المعركة التى احتدمت اكثر من مرة فى السنوات الاخيرة ، لم تسفر عن نتيجة نهائية ، وانما هى تسفر عادة ـ بعد كل الضجيج والعجيج ـ عن فريق يغلب نزعة المصالحة على أساس « الاذن » لكتاب المسرح ان يتخذوا من العامية لغة للحوار فى المسرحيات العصريه ، والفصحى لغة للحوار فى المسرحيات التاريخية

ولا أعتقد أن عندى من الحجج الجديدة مالم يسبقنى اليه اى من الفرق الثلاث

وانما ارى هنا لزاما علينا أن ننتقل بموضوع اللغة الى ميدان جديد تماما ، وهام جدا ، أجدر من غيره بالمناقشة

اريد هنا ان ادل المتفرج على أن ثمة لغة للحوار المسرحى بلا شك • فالمسرحيات تكتب بالانجليزية وبالفرنسية وبالالمانية وبالفصحى العربية والعامية .. ومع ذلك فمن بينها مسرحيات مكتوبة بلغة مسرحية جيدة ، وأخرى لغتها ضعيفة ركيكة هامدة

والممثل فوق المنصة أول من يشعر بالكلمات وهى تسترسل من فمه ان كانت حية نابضة ، او هى خامدة

ميتة . كما أن المتفرج شديد الحساسية هو الآخر للغة المسرح ، والا فينبغي له أن يكون كذلك

لا اريد هنا ، ولا أستطيع ، ان احدد بانضبط العناصر الحقيقيه التى تضفى على الكلمات فوق المنصة حيويتها ، ولكن هذا الامر من البديهيات البسـيطة . فان الادب من روحه له أساليبه الكثيرة ، وللادباء قدراتهم المختلفه على استخدام الكلمات وابتداع التراكيب اللغويه التى تجعل من أدبهم شيئا ساخنا ـ واكاد اقول حيا . وهذا الامر لابد أن يكون فى المسرح كمـا هو فى الادب ، فالنص المسرحى ما هو فى البـداية الا نص أدبى ، وما هو فى النهاية الا كلمات يخاطب بها الممثل مشاعر الجمهور فوق المنصة ..

وانى اؤكد ان اللهجة العامية تصلح لغة للادب كما ان الفصحى لغة عريقة للادب . ولكنى مع ذلك احتفظ بحق التمييز التام اليقظ بين عامية بيرم التونسى الخـالدة ، وعامية السوق .. بين فصحى توفيق الحكيم والمـازنى وطه حسين وفصحى باب الحوادث فى أية صحيفة خبرية ..

ان لغة الادب ـ سواء أكانت فصحى أم عاميه ـ لهـا شروط جمالية وتعبيرية

ولغة المسرح لها غير هذه الشروط الادبية العـامة ، شروط خاصة أخرى كلغة لفن من نوع خاص

يذهب بعض الباحثين الى أن الشعر اوفق للمسرح من النثر . وبغض النظر عن صحة هذه الدعوى ، فانها تصدر عن نفس المفهوم القائل أن المسرح يقتضى لغة فنية من نوع خاص ـ سواء فى اللهجة العامية أم الفصحى

ان المسرح يقتضى لغة ذات طابع مركز ومعبر تعبـيرا مباشرا بلا تعقيد او لف او دوران .. بلا استطراد او تطويل ، لغة تنأى عن التراكيب المتداخلة المعقـدة ..

فالمتفرج لا يملك الفرصة ليلاحق المعانى فى مثل هـذا اللون من التعبير ..

لابد للمتفرج أن يسمع فيفهم على الفور ما يقال لكى يحدث له الاثر المطلوب .. ان الغموض والابهام لا يصلحان أسلوبا لمخاطبة الجمهور من فوق المنصة

والجمل المسرحية يحسن أن تكون قصيرة . فذلك أدعى لراحة الممثل وعدم ارهاقه .. كما أن الكلمات يحسن أن تكون أصرح وأدق وأوضح تعبيرا عن المعنى المقصود

ولا ينبغى أن يذهب عن بال الكاتب المسرحى ان كلماته ستصل الى الجمهور عن طريق السماع لا القراءة ، فلابد أن تكون واضحة المقاطع عند النطق ، وأن تكون متناسقة الجرس فى استرسالها

ان المسرح الحقيقى الرفيع لا يستعين البتة بما ألفناه فى بلادنا من موسيقى تصويرية تتخلل العرض ، فذلك فضول وترقيع . ان للمسرح موسيقاه الذاتية الخاصة التى تترقرق فى العمل كله

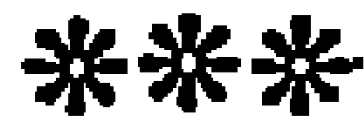
لا أقول انها موسيقى الموضوع فحسب ، او ايقاع الصراع والاحداث وحركة الممثلين فحسب .. وانما هى بعد ذلك الموسيقى المادية التى تتألف من الجرس العذب الذى تصنعه نبرات الممثلين مجتمعين وانتقالاتهم فى طبقات الصوت ودرجاته والوانه كآلات موسيقية مؤتلفة منسجمة

ان الصوت البشرى المعبر لهو أعظم الآلات الموسيقية كلها . وعلى المؤلف ان يراعى انه انما يكتب كلمات الحوار وتراكيبه اللغوية لتشدو بها أوركسترا بشرية فعليه ، فليساعدهم بالتدقيق فى الاختيار على أن يقدموا أفضل ما عندهم

ولا أريد أن يكون كلامي هذا تحبيذا لذلك اللــون من التمثيل الذى يحاكي التراتيل والانشاد الشعرى الرخيم ، والتغريد العاطفى ، والذى اشتهر به ــ وبجــدارة ــ المرحوم أحمد علام ، فانى لأعرف ألوانا من الموسيقى غير هذه الانغام العاطفية العذبة التى اشتهرت بها الاذاعة

فمن الموسيقى المنسجمة المؤثرة ألحان عاصـفة ، وألحان فلسفية متأملة ، ألحان مثيرة للحماس والحـان مصورة لسكينة النفس ، مصورة لثورة الانسان للفضيلة، وانفعاله الجاد للحب .. وهذه الموسيقى بمعناها الواسع وبما فيها أيضا من تغريد عاطفى خفيف هى ما أعنيه ..

لغة المسرح اذن لغة من نوع خاص ، ســواء أكانت عامية أم فصحى .. نثرا أو شعرا



وما دمنا قد بلغنا هذا الحد من التعريف بموسـيقى المسرح فلا بد لنا أن نلحظ أيضــا أن للمسرح مقامات مختلفة ــ اذا صح هذا التعبير ــ كما أن للموسـيقى مقامات ..

ان المسرحية المعينة تحكمها من أولها لاخرها نبرة معينة وجرس معين ومقام موسيقى معين ..

فالتراجيديا تختلف عن الكوميديا ، والكوميديا تختلف عن الفارس (المسرحية الهزلية جدا)

والمتفرج يستطيع بيسر أن يلحظ هذا الفرق فى المقام الموسيقى وفى الجرس بالنسبة لمختلف المسرحيات

التراجيديا تحكمها نبرة آسية جادة مهمومة ، ألمهـا مكتوم ، ويلتزم ممثلوها الاقتصاد الشديد فى التفجـع والتوجع ، بما ينسجم مع موضوعها الجاد الرصين ، ومع أبطالها الذين يتميزون بقوة ارادة خارقة وبسالة نادرة

بينما يعد كاتب الكوميديا الجو بنبرة لينة لطيفــة

بهجة ، مرحة فى غير مجون ، ذكية تشيع الحبور والانشراح والسرور ..

اما الفارس فيغلب عليها الصخب والمفارقات الصارخة المدوية ، ويحاو فيها الزعيق مع سرعة الايقاع ، أقـــرب الى موسيقى الجاز

ولابد ان يسوقنا هذا الكلام لوقفة عند تقســـيمات المسرحية . ومع ان هده التفسيمات قد تعارف عليهـــا دارسو المسرح من قديم ، فانها لا يمكن ان نكون تقسيمات قاطعه بالنسبة لجميع المسرحيات . فبعض المسرحيات يتنازعها قسمان من هده الاقسام ، او يختلف النقاد حول انتمائها لهذا القسم او ذاك

ولكن ما علينا

لقد قسم المسرحيون فنهم الى :

* **التراجيديا :** (المأساة) وهى قمة الفن المسرحى ، وميزتها أنها تصور الصراع بين ارادة الانسان الحـــر والحتمية المفروضة . وهى عند الاغريق قضية ميتافيزيقية يدور فيها الصراع بين ارادة الانسان الحر وجبرية الآلهة المتعسفة . وهى عند شكسبير قضية انسانية يحتـدم فيها الصراع بين نوازع الانسان المنطلقة وبين جبـــــرية وحتمية النظام الطبيعى والاجتماعى الذى تفرضه الحياة ، أو بين نوازع الانسان المتمردة ، وقصوره المحتوم . وهى عند بعض المعاصرين صراع بين الانسان الفرد المتطـــــلع لتحقيق هواه الانسانى ، وبين المنطق الجماعى المعادى له ، أى الصراع بين الفرد والجماعة . وفى التراجيـديا يواجه البطل قدره المحتوم ببسالة ويمـوت موتا لا فكاك منه ..

* **الكوميديا :** وهى المسرحيـــــة الخفيفة المرحة التى تتخذ موضوعاتها شـــــئون الحياة اليومية والعـلاقات

الاجتماعية والعاطفية العادية ، ويغلب عليها النقد الاجتماعي والسخرية وانفكاهة وغالبا ما تزينها قصه حب مؤثرة ، تدفل لها نهايتها السعيدة بلقاء العاشقين فى الختام وهذه المسرحية لا يشترط فيها أن تكون مثيرة للضحك العنيف ، انما غالبا ما تكون مسرحية لطيفة مثيرة للمسرة والبهجة ..

* **الفارس** : وهى مسرحية صاخبة مضحكة جدا ، غالبا ما تقوم على افتراض كاريكاتورى غير معقول منطقا ، انقصد منه الوصول بالموضوع الى مواقف تتميز بالمفارقة الشديدة جدا المثيرة للضحك جدا • والاغلب أن يستعين المخرج والممثل والمؤلف فى مثل هذا اللون من المسرحيات بتوابل حريفة ، كاستخدام الماكياج استخداما كاريكاتوريا القصد منه اثارة الضحك ، أو كمبالغة الممثل فى تصوير خوفه أو محبته أو ذكائه وهو الابله .. مبالغة غير معقولة، لتحقيق غرضه فى التضحيك

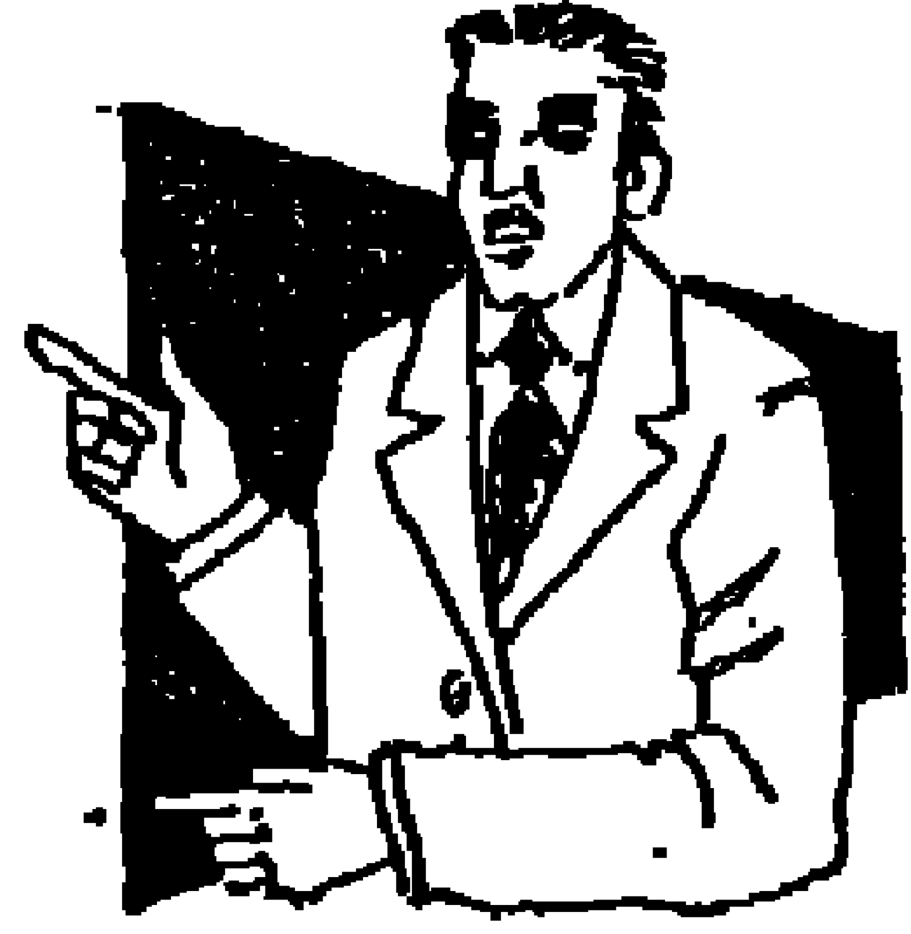
* **الميلودراما** : وهى نوع من التأليف المسرحى ازدهر فى أزمنة الاضطراب الاجتماعى وفى عصور التدهور الثقافى والفنى • والميلودراما مسرحية قائمة على استدرار العطف والرثاء للنفس وتتأسس على شدة المبالغة فى تصوير الكوارث التى تحل بالبطل أو البطلة أو الابطال ، ويجرى موضوعها فى بحر من الدموع وزوبعة من الاهات والانات والصرخات المحزونة لتنتهى نهاية اخلاقية بتوبة الجانى واستغفاره ضحاياه ، أو بوصول الثرى الطيب لينتشل الاسرة المنكوبة من الحضيض فى حفل حافل بآيات الحمد والشكر والعرفان بالجميل ، والدموع تنهمر لا تزال

* **الفودفيل** : وهى نوع من الكوميديا ، وان كان أقل منه مستوى ، يقوم على سوء التفاهم ويعمر بمشاهد

معينة كمشهد طالب شراء الجاموسة الذى يظنه صاحبها آتيا لخطبة ابنته أو اللص الذى يظنـــــه صاحب البيت الطبيب الذى أتى فى أعماق الليل لاغاثة زوجته المريضة أو ما الى ذلك من مفـــــارقات قائمة على سوء فهم الموقف بين الممثلين وما يتيحه ذلك من مفارقات مضحكة وقفشات مثيرة ..

وقد كان المسرح المصرى فى وقت من الاوقات تغلب عليه الميلودراما فى مضمار المسرحية الجـــــادة ، والفودفيل والفارس فى مجـــــال المسرحية الهزلية . وكان نجاحه حينذاك قائما على هذين العمودين من عمد المسرح . وقـــد حقق فى ذلك العصر نجاحا عظيما شعبيا واجتذب جمهورا واسعا بلا شك .. ولكن الواضح الان أن تعقد ظـــروف المجتمع والحياة وتنوع حاجات الناس ، والمد المدنى العام الذى ترتفع بلادنا على قمته يجعـــل من الميســـور على مختلف ألوان الفنون المسرحية أن تزدهر ازدهارا متعادلا





الفصحى فى المسرح

سيعترض البعض على مجرد اثارة هذه القضية ، لانهم يؤثرون السيادة الكاملة للهجة العامية على المسرح

ولكن طالما يكتب كتاب لهم مكانتهم المسرح بالفصحى ، وطالما يغلب على المترجمين للمسرح ميلهم للترجمة الى الفصحى .. فان تجنب قضية « الفصحى للمسرح » يصبح ضربا من التعامى عن الواقع

والا .. فما بالنا نحن العرب الذين نتكلم في حياتنا اليومية باللهجات العامية ، نطرب لوقع اللغة الانجليزية أو الفرنسية فوق المنصة — وهى ليست لغة حياتنا اليومية ، ولا تراثنا وحياتنا الثقافية ؟ وما بال الانجليز يطربون للغة شكسبير فوق المسرح ، وهى ليست لغة حياتهم اليومية ولا هى لهجتهم العصرية ؟

اننى لا أفاضل هنا بين الفصحى والعامية ولكنى أنبه الى الحق الاكيد للفصحى — وهى لغة معظم الادب العصرى — لاحتلال المنصة جنبا الى جنب مع العامية

ودفاعا عن هذا الحق أثير مشكلة الفصحى المسرحية ومشكلتها هى غالبا من صنع الكتاب المترجمين والممثلين أنفسهم

ان أهم خاصية تميز لغة المسرح هى أنها لغة يتكلمها الممثلون ، لا لغة يطالعها مطالعون أو يخطبها خطباء ..

وهي بذلك لابد ان تتميز بصفات لغة التخاطب

واللغة المتكاملة (بفتح اللام) يجب أن تتصف بالسيولة، وبالتموج المريح الذي يقي الحلق من تخبط الحـــروف الثقيلة او اختلاط الحروف المتشابهـة ويقي الاذن من الوقع الناشز

انك ان استطعت أن تكتب على الورق فيقرأ الناس بالعين •• عبارات مثل : « مضى بقضه وقضيضـــه » أو « دحض الادعاء دفاع المدعى عليه » أو « يقفقف الفقير من البرد » •• فلا تتوقع من مثل هذه العبارات فوق المنصة الا كل أذى للممثل وللمتفرج . فما أن يشرع الممثـــل فى القائها حتى تتصادم حروفها فى فمه،وتتداخل،وتتزاحم حتى لتحتبس ، فان دفعها دفعة قوية انطلقت فى قسوة وهرج لتصك اذن المتفرج فى غير نظام ولا رحمة

ومن أهم الشروط لفصحى المسرح .. الوضـــوح ، فكلماتها تقال بسرعة لتدخل الافهام بسرعة والقارىء ان كان يستطيع التوقف عن القراءة لاعادة النظر فى عبارة مبهمة ليفهمها بالتأني اللازم ، فالمتفرج لا يستطيع ذلك بالتأكيد ولا وقت عنده للتوقف والتأمل •• والا شرد عن المسرحية المسترسلة استرسالا متصلا

لذلك فان أخطر العيوب التى يمكن أن تتردى فيهـــا فصحى المسرح هى التراكيب المعقدة أو الجمـــل الاعتراضية ، أو التراكيب الشرطية الطويلة ، أو الجمل الطويلة بشكل عام ؛؛

ومن أخطر العيوب أيضا الاغراب في اختيار اللفظ بحجة الجزالة أو الفصاحة ••

وعنـــدكم في ترجمات خليل مطران الاف الامثلة على ما أقول ••

كما أن الجمل الطويلة والتراكيب المعقدة تنهك الممثل وتحط من قواه ، وتستنفد من جهده المخصص للتمثيل والتعبير •• فتراه فوق المنصة يمثل بنصف روحه ، بينما نصف انتباهه مشتبك مع لغة المسرحية فى معركة ضارية للسيطرة وللابانة عن معانى الكلمات وترويضها للنطق السريع !

ان وضوح الكلمات وبساطتها ، وقصر الجمل ، وتقطيعها تقطيعا مهذبا ، وليونة وتموج مقاطعها وتراكيبها •• من أهم شروط الكتابة للمسرح

ولان لغة المسرح لغة متكلمة « بفتح اللام » فمن أهم الامور أيضا التبصر بأن لغة التخاطب الفصحى تتميز عن لغة الكتابة الفصحى بتركيبها الخاص الذى يضمن مطابقتها لاسلوب التفكير العفوى ، غير المقيد بشروط البلاغة فى اللغة المكتوبة •• فنحن نكتب مثلا حتى فى خطاباتنا العادية للاصدقاء : « اننى قد قرأت خطابك » ولكننا بمنطق القول والتفكير العفوى لا نقول الا : « قرأت خطابك » • ووقع الثانية على المسرح أصدق وأنفذ وأكثر ليونة واشراقا من الاولى

اننى أزعم أن ألد أعداء الفصحى على المسرح كلمات مثل : ان ، قد •• وما اليهما

كما أن مترجمين كثيرين يتعثرون فى شباك التراكيب الاجنبية الخاصة وينقلونها الى العربية نقلا ثقيلا يعكر ذوق المتفرج بكلمات وصيحات مثل : « أوه ! » ، أو « حسن او حسنا » • فى حين يخلق بهم ان يتحروا فى الفصحى المنطوقة ما يقابلها متحررين من قيد الترجمة الحرفية • وفى وسعهم دائما أن يستخدموا الصيحات المصرية مثل : « اه ! » بكسر الهاء علامة على الاستخفاف ، أو « اه ! » للتعبير عن الالم ، أو « ايه ! » تعبيرا عن

الاحتجاج .. مثلا . وفى وسعهم استخدام كلمة « طيب » بدلا من « حسن » ترجمة لكلمة Well أو All right أو Bien .. وهكذا

ولا يفوتنى هنا أن أنوه بالبساطة والسيولة المشرقة التى تتميز بها فصحى توفيق الحكيم .. حتى أن بعض الناس يظنون أن الحكيم يقصد بها وضع احدى قدميه داخل حدود اللهجة العامية ، ويعيبون عليه موقفه المتردد بين العامية والفصحى . وهو فهم غير دقيق لموقف الحكيم الصحيح من اللغة . فالحكيم يكتب للمسرح بالفصحى الصريحة . لاشك ولا لبس فى ذلك . الا أن الحكيم قد أدرك بفطنته وخبرته وذكائه أن فصحى المسرح لا بد أن تتميز بموافقتها لمنطق اللغة المتكلمة « بفتح اللام » وببساطتها ووضوحها . هذا الى ما يتميز به أدب الحكيم بوجه عام من بساطة آسرة وبعد عن التكلف والافتعال

ان لغة الحكيم نموذج كامل للفصحى المسرحية ، وسأضرب مثلا لها هذا الحوار الشيق السلس فى مسرحية السلطان الحائر ، بين القاضى والوزير « الفصل الثالث صفحة ١٧٤ » :

القاضى : لم أنم فى ليلتى

الوزير : أنت أيضا ؟!

القاضى : كيف ؟ .. أنا أيضاً ؟!

الوزير : المدينة كلها هى الاخرى لم تنم هذه الليلة

القاضى : أعرف هذا

الوزير : والكل يتهامس ويلغط

القاضى : أعرف هذا كذلك

الوزير : وهل تعرف ما يقولون فى المدينة ؟!

القاضى : أسوأ ما يمكن أن يقال . ان موضع الاثارة والاهتمام عند الناس هو جانب الفضيحة فى المسألة

الوزير : مع الاسف
القاضي : انها غلطتي
الوزير : وغلطتي أنا أيضا . كان ينبغي أن أكون اشد حزما في الدفاع عن رأيي
القاضي : لكن .. من جهة أخرى .. كيف كنا نستطيع أن نتوقع هذا التدخل من تلك المرأة ؟
الوزير : كان ينبغي أن نتوقع كل شيء
القاضي : أصبت
.... الى اخره





المنولوج المسرحى

عرفنا أن قوام المسرح هو الصراع

وعرفنا أن الحوار المسرحى يختلف عن النقاش فى أن الغرض منه ليس التوفيق بين رأيين مختلفين ، وانما الغرض منه هو التصاعد بالمسرحية من خلال الصراع الى الصدام النهائى والتصفية .

فأين يقف المنولوج المسرحى من هذا كله ؟

المونولوج هو الكلام الذى ينفرد بقوله ممثل واحد ، غالبا ما ينفرد أيضا بالمنصة وبالجمهور ليكشف ذات نفسه ..

ونحن اذا اشترطنا على المسرحية أن يتصاعد الصراع فيها بلا توقف ..

واذا اشترطنا على الحوار أن يكون وسيلة هذا التصاعد، لا يفتر ولا يهمد ..

فاننا بذلك سننكر بقوة على أى من الشخصيات أن ينفرد بالمنصة ليقدم للجمهور مجرد عرض حال ..

ان أى جزء فى المسرحية خارج الصراع أو أى ثغرة لا تدفع بالجدل المتصاعد الى الامام .. انما هى فى نظرنا فترة همود وخمود ومطب فى المسرحية

فهل ينطبق هذا الحكم على المونولوج المسرحى ؟

بالطبع لا ..

النظرة العابرة للمونولوج قد تغرينا بالاعتقاد أنه ليس حوارا ، وبذلك فليس ينطوى على صراع ، وعليه فهـــو ليس من أدوات المسرح المثالية

ولكن نظرة ثانية ستثبت لنا أنه لا يعــــدو أن يكون « حوارا داخليا » بين وارعين يتنازعان الشــــخصية .. لا يعدو أن يكون « صراعا » فى داخل النفس الواحدة ، وينطوى على كل صفات الصراع المتصـــــاعد الى غاية المسرحية النهائية

واذا لم يتوفر فى المونولوج هذا الشرط ، فهو بالتأكيد نقطة ضعف في المسرحية . واذا لم يعكس الممثل فيأسلوب أدائه للمونولوج طبيعته هذه فهو المسئول وحده عمـــا سيلحظه في الصالة من فتور وتململ وضيق

وساضرب مثلا على ما أقول بأشهر مونولوج فى تاريخ المسرح .. مونولوج هاملت الرائع : « أكون أولا أكون »

فهاملت فى هذا الموقف بعد أن عرف أن عمه قتل أباه ليرث العرش والزوجة ، وقدر عبء الثأر من الملك الجديد ، وغشيه مع الحزن واستبشاع الجريمة شعور بهول التبعة الملقاة على عاتقه وحده .. انفرد بالمسرح ليتأمل هـــذا المأزق الصعب ، وقد استبد به وازعان قويان :

التصدى للتبعة وما يكتنفها من آلام وعذاب ورزايا ..

أو الفرار بالانتحار والموت والتخلص من بشـــاعة الحياة

صوتان فى سريرته يهيبان به

جاذبان قويان يتنازعانه ..

صراع ناشب فى ذات قلبه وفكره ، ولسانان يقولان فى فمه .. يقول هاملت :

« أكون أو لا أكون ، تلك هى المسألة :

أأنبل بالنفس أن تشقى

بقذائف وسهام الحظ الاهوج ،
أم تمتشق السلاح فى وجه بحر من المتاعب ، وبالمجابهة
تضع حدا لها ؟ الموت : النوم ،
لا أكثر • وبالنوم نقول قد انتهينا
من أوجاع القلب ومن ألف محنة طبيعية
ورثها الجسد ، ختام
حقيق بأن نشتهيه • الموت • النوم ،
النوم : ولربما تتخلله أحلام : آى ، فهذا موضع الالم ،
فأية أحلام لتطوف فى رقدة الموت هذه ـ وقد طرح المرء
شقاء حياته الفانية ـ وتمنحنا الراحة ؟ وهذا هو الاعتبار
الذى يجعل من حياتنا •• هذه المصيبة الطويلة ، لانه
من ذا الذى يؤثر أن يحتمل رزايا الدهر ، وبلاياه ،
وأذية الطغاة ، وصلف الرجل المتكبر ، وأوجاع الحب
الخائب وابطاء العدالة ، وسلاطة السلطة ، والقحة التى
يلقاها أصحاب الجدارة من التافهين ،
فى حين ان المرء نفسه قادر على أن يصفى حسابه
بخنجر صغير ؟ من ذا الذى يؤثر أن يرزح تحت الاعباء ،
يئن ويعرق تحت وقر الحياة ••
الا أن يكون الرعب مما وراء الموت ـ من تلك الاصقاع
المجهولة التى لم يتخط تخومها مسافر عائد ـ يحير الارادة
ويجعلنا نؤثر النكبات التى نلقاها عن الفرار الى تلك التى
لا نعرفها
وهكذا يجعل الادراك منا كلنا جبناء ،
ويحول لون العزيمة الحى
ويبهت فى ظلال التأمل ،
وتنحرف عن مسارها التطلعات السامية وذات الخطر
ويسلبها التفكير قدرتها على العمل »
وفى هذا المونولوج المدهش تطفو الى السطح مأساة

هاملت الحقيقية : التردد ٠٠ أكون أو لا أكون ؟ أفعل او لا أفعل ؟ اصبر واقاوم أم انتحر ؟ ٠٠ هذه هى الاشكال المتعددة التى تصور الصراع المحتدم فى داخل نفسه بين قوة العزم والعجز عن التحقيق

الصراع هنا بين هاملت وهاملت ، والحــوار الدائر بينهما ، وقد استكمل شروطه ، ينتقل أيضا من مرحلة الى مرحلة فى نظام متصاعد ومطرد الحركة

فهو يبدأ بالوقوف بين الوازعين ، والاصغاء لكليهما : الاحتمال والتجمل بالصبر ، أو الاستسلام للموت ، وهو نوم وراحة ٠٠

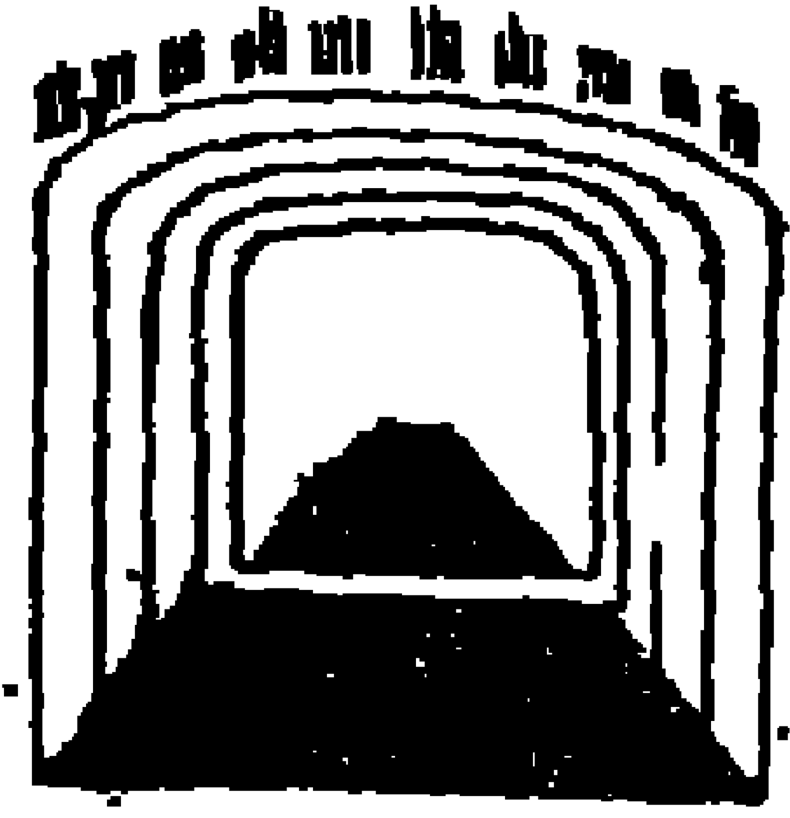
ولكن لا ، فالنوم تعتريه أحلام مخيفة ، وهذه الاحــلام هى مكمن الخطر الذى يغرى الشقى باحتمال حياة العذاب والنكبات خوفا من الموت

اذن فالوعى بهذه الحقيقة يجعلنا نجبن عن لقاء الموت ، والفكر يفل العزم ، ويسلب النفس ارادة العمل

المونولوج فى المسرح يشحذ الصراع ، وهو لون من ألوان الحوار الداخلى الحى المتصاعد ، الملتزم بكل شروط الحوار

واذا خرج المونولوج عن هذا الشرط وأصبح مجــــرد شكوى من طرف واحد ، أو عرض لوجهة النظر المستقيمة لاحد الشخصيات ٠٠ فقد صار ثغرة وعيبا فى المسرحية

ومهمة الممثل أن يبرز ما فى المونولوج من ازدواج ، فيضمن استمرار التصاعد الدرامى واطراده فى المسرحية ، ويتقى خطر الفتور والهمود فوق المنصة ، وهو خطر يهدده بأن يضجر الناس به وبما يقول



الحائط الرابع

يبدو الديكور لعين المتفرج مؤلفا من ثلاثة حوائط ،قاع المنصة وجانبيها ، بينما لا يوجد الحائط الرابع الذى يغلق غرفة الصالون تماما

لقد رفع الديكوريست هذا الحائط الرابع الذى يفصل الجمهور عن المنصة ليتسنى للجمهور مشاهدة الاحـــداث التى تجرى فى الصالون

والجمهور بذلك يشهد الاحداث الجارية أمامه ٠ ولكن الممثل الواقف فى الصالون لا يتصرف على أساس أن أحدا يراه ٠ فهو قد يسرق أو يختلس قبلة محـــرمة أو يعترف بذنب ٠٠ كأنه فى خلوة ، وكما لو أن أحدا لا يراه

ذلك أن الممثل فوق المنصة يتصرف كأن الحائط الرابع قائم بينه وبين الجمهور ٠ وقبل أن يأتى أمرا قد يؤخـذ عليه يتأكد من اغلاق الشباك عن يمين المنصة ، وينظـر خلف الباب في قاع المسرح ليتأكد أن أحدا لا يراقبه ، ثم يتصرف بحرية

ومغزى هذا كله هو افتراض وجود حائط حيث ارتفع ستار المسرح ٠٠ افتراض وجود حائط قائم فى الخـــط الفاصل بين أضواء المسرح الامامية وظلام الصالة ٠٠

الحائط الرابع حائط وهمى ، ولكن الامور تجـــرى

فوق المنصة مع افتراض وجوده ، والجمهور فى الصالة يعرف أن الامور تجرى فوق المنصة مع افتراض وجوده ، انه افتراض وهمى متفق عليه بين الفنانين وجمهورهم وشروط هذا الاتفاق، صارمة جدا

الشرط الاول ألا يتوجه الممثل بالخطاب الى الجمهور أبدا ، اذ أنه يفترض عدم وجوده

والشرط الثاني ، ألا يشترك أحد من الجمهورفيمايجرى أمامه فوق المنصة لا بالتعليق ولا بأى لون من ألوان التدخل ، اذ أنه ـ فرضا ـ لا يشهد ما يجرى خلف الحائط الرابع

هذا الحاجز بين المنصة والصالة حاجز مقدس ، ومن أركان الفن الركينة ، وهو أساس من أسس « الايهام » فى فن المسرح ، وشرط حبكة هذا الايهام

الا أن بعض فنانى هذا القرن قرروا تحطيم هذا الحائط وهدمه ، وبذلك وصلوا الصالة بالمنصة ، وعمدوا الى اعتبارهما معا وحدة واحدة

وقد نقل فنانونا هذه الخطوة التجديدية الجريئة الى مسرحنا ..

ففى مسرحية « شكسبير » « يوليوس قيصر » التى قدمت منذ أكثر من ثلاثين سنة فى الازبكية ، حمل أنطونيو جسد القيصر القتيل من الكابيتول الى الميدان حيث احتشدت الجماهير عبر ممشى صالة المسرح ـ من باب دخول الجمهور الى أن ارتقى المنصة على سلم ـ ثم وقف يخطب الجماهير من فوق المنصة ، فيرد عليه وتهتف له جماهير ـ ممثلين ـ وضعهم المخرج فى أماكن متفرقة من الصالة وخلطهم بالمتفرجين

كما أن يوسف وهبى جرب نفس التجربة فى مسرحية

رجل الساعة ، ولعل المسرح المصرى قدم تجارب أخرى من نفس النوع

هذه التجارب استهدفت احداث نوع من الالتحام بين المنصة والصالة ، بقصد تضخيم المشهد ومد أجنحةالمنصة فوق الصالة .

ولكن طالما كان الممثلون يتحركون فى عالمهم المستقل عن الجمهور ، ويقبضون بأيد حازمة على الاحداث المسرحية ويديرونها بنظام موحـــد ومخطط سلفا ، فهم أصحاب الايهام والجمهور صاحب التوهم .

وهذا الاسلوب فى الاخراج لا يقصــد به أبدا دحض الايهام المسرحى ، ولكن تعميقه وتأكيده وتضخيم أثره ، وشحذ حاسة الجمهور للتأثر به .

فالحائط الرابع اذن ، وان دمره المخرج من ناحيـــة الشكل ، قائم من ناحية الموضوع .. وهو الحاجز الفاصل لا يزال بين فريق الممثلين المؤثر والجمهور المتأثر . هؤلاء فى حدودهم يتحركون ، وأولاء فى حدودهم يستقبلون .

وقد جرب المؤلف يوسف ادريس والمخرج كرم مطاوع نفس التجربة فى السنة الماضية فى مسرحية « الفرافير »

فالفرفور يخاطب الجمهور فى الصالة ، ويجيبه بعض الممثلين المختلطين بالمتفرجين . ويختار لسيده عروسا من أحد البناوير ــ سهير البابلى ــ ويدعوها للمنصة فترتقيها، ويلبى نداءه « أحمد الجزيرى » من مقاعد المتفرجين .

والى هنا لا تخرج التجربة عما سبقها من تجـــارب ، ولا تحطم الحائط الرابع الا من ناحية الشكل .

ولكن .. فى بداية المسرحية ، يخاطب المؤلف (قــام بدوره كرم مطاوع نفسه) جمهـــور المتفرجين من فوق المنصة خطابا مباشرا متعمدا لا لبس فيه . وفى خــلال التمثيل ، يعمد الفرفور أو سيده أيضا الى التوجه بالخطاب

الى جمهور المتفرجين متسائلا : « بقى ده كلام معقـــول يا ناس ؟ » وما الى ذلك

ومع أن هذه حيلة درج عليها مسرحنا الهزلى منذ زمن ، حيلة لا تتجاوز التوجه ببعض الـــــكلمات أو صيحات الاستنكار أو الاستعطاف الهزلى الى جمهور المتفرجـــين مباشرة ، وكأنها ضربة معول مسددة الى الحائط الرابع ، ضربة واحدة لا تكفى ولا يقصد بها زعزعته .. فان الأمر بالنسبة ليوسف ادريس وكرم مطاوع وهما فنــــانان مفكران ، لا يمكن أن يكون من صنف مداعبـــات المسرح الهزلى ، وانما هى عندهما لمسات ذات مغزى

أيمكن أن يكون مغزاها نسف الحائط الرابع شــكلا وموضوعا ؟

الحائط الرابع شرط من شروط الايهام المسرحى

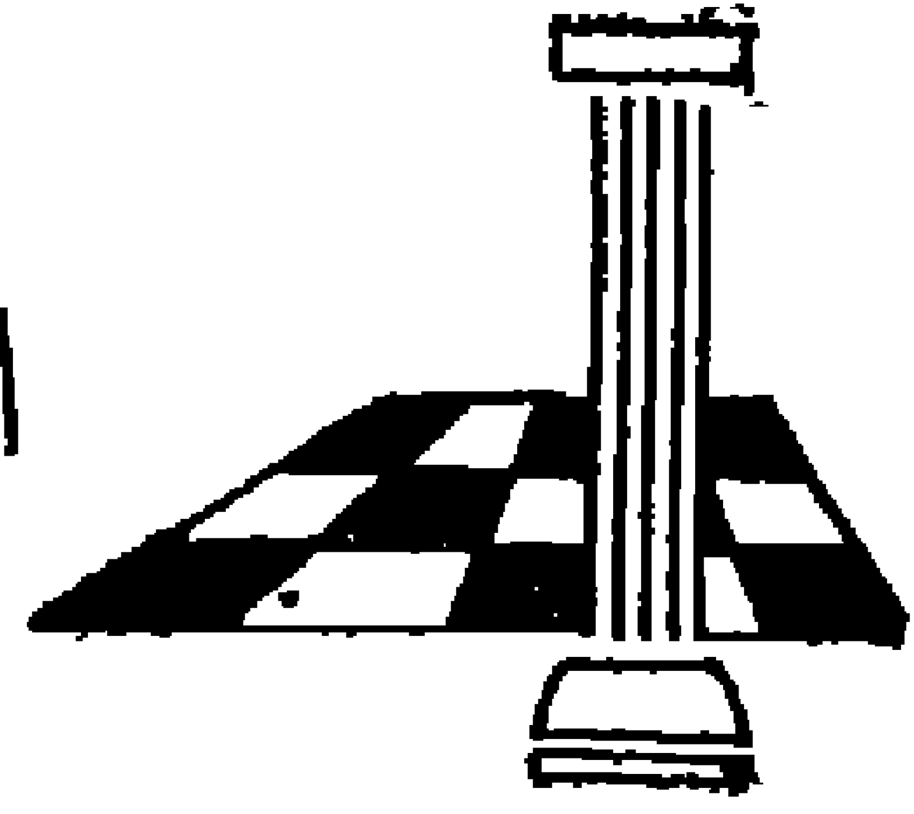
الحائط الرابع هو الضمان لتوهم المتفرجين أنهم شهود عيان لحادث حقيقى ، وأن الماثل أمامهم هو يوليوس قيصر نفسه ، وكليوباترة نفسها ، وأن المأساة انما تجرى بينهما الآن وهنا

الحائط الرابع هو ضمان تحقيق الغرض من اندماج الممثل ومن جهود الديكورست وحيل الاضاءة وكل ضروب السحر المسرحى الذى يستهدف حفز الجمهور على الاقتناع ومساعدته على التوهم والتأثر بأن ما يجـــرى أمامه ليس مجرد صورة للواقع ، وانما هو ما وقع فى التاريخ أوما يقع فى الحياة بذاته وبلحمه ودمه ..

فهل يكون القصد من هدم الحائط الرابع نسف هذا الايهام المسرحى العريق الركين والاستغناء عنه ؟

كيف يكون ذلك ؟ ولم ؟

هذا السؤال ينقلنا الى اتجاه هام جــــدا فى المسرح الحديث ..



المسرح من زاوية نظر حديثة

ان أرباب الفن لا يضعون القواعد والنظم لحـــرفتهم بقصد تستعبدهم هذه القواعد فى النهاية

والنقاد لا يكتشفون القوانين والاسس للفن بغـــرض أسر الفن فى أغلال هذه القوانين والاسس الى الابد

وكما أن الحياة متجددة على الدوام ، فالفن باعتبـــاره صورة ومعبرا عن الحياة ، لابد أن تتغير عليه الاشـــكال والمضامين ليواكب الحياة فى تجددها .. وهذا هو جوهر حريته وقدرته المرنة على الخلود

وقد رأينا انطلاقات فن المسرح الحرة فى مختلف فصول هذا الكتاب .. ابتداء من تطور الديكور

رأينا اتجاها للمدارس الحـــديثة يعمـــد الى اختزال الحوائط والابواب والاكسسوار والاقتصاد فى زخرفـــة تفاصيل الاشياء والملابس فوق المنصة ، والاستغناء عن تفاصيل التفاصيل بقصد تخفيف ثقل التركيبات فى بناء الديكور ، وضمان أن يكون الممثل البشر ركيزة التـــكوين التشكيلى كله فوق المنصة

ورأينا أن هذا الاتجاه فى الوقت الذى يضمن التوازن التشكيلى بين الممثل وبين الاشياء الجامدة فوق المنصـــة ، انما يصدر أيضا عن فهم عميق دقيق لحقيقة جلية :

هى أنه لا يمكن خداع المتفرج عن مـــكانه (فى مسرح

الازبكية مثلا) وزمانه (فى الساعة العاشرة مساء) وايهامه ايهاما كاملا بأنه في عاصمة الدانمرك حيث سقط هاملت مطعونا بسيف مسموم

ورأينا أن الايهام والتوهم في المسرح ليس الا عقـد اتفاق غريب بين الفنان والمتفرج تكفله الاشارة المقتصدة من الديكوريست الى المكان والزمان المفترضين واستعداد طيب من المتفرج للتصديق بالاشارة المقتصدة والاندماج فى الموضوع .

هذه هى الذريعة التى يتذرع بها الفنان للاقتصاد فى بناء الديكور ، وهذا هو منطقه ..

ولكننا نرى الفن يتجاوز هذا الاقتصاد ويفسح لنفسه في ميدان المسرح افاقا أبعد ويطمح الى مزيد من الجوازات

الفن حر ، وهو فى كل يوم يكسر قيدا ويكتسب فكرا جديدا

وفى المسرح الحديث يقوم فنانو الجيل - لا بمجرد اصلاح او تعديل فى حرفتهم - بل بثورة كاملة بناءة لخلق متع جديدة لحرفتهم

وسأضرب أمثلة قليلة

يكتب في وصف منظر الفصل الثانى من مسرحيته «زيارة السيدة العجوز » :

« البلدة . ملامح فقط . في المؤخرة فندق « الرسول الذهبى » من الخارج واجهة خربة وشرفة . الى اليمين لافتة : « الفريد ال محل تجارة » . تحتها منضدة محل تجارى قذرة ، ووراءها رف عليه بضائع قديمة . كلما مر شخص خلال الباب الوهمى للمحل دق جرس رقيق . والى يسار المسرح لافتة : « الشرطة » ، وتحتها منضدة خشبية عليها جهاز تليفون وكرسيان ... »

فوق المنصة اذن واجهة وشرفة الفندق فى القاع ، ومحل بقالة من داخله وخارجه الى اليمين ، ومركـــز الشرطة ، داخله وخارجه الى اليسار •• وما بين الثـلاثة مواقع هى الشوارع والميادين •• المنظر يمثل ببساطة « البـــلدة » ولكن بالملامح فقط

مجرد اشارات شديدة الاقتصاد ••

وخلال الفصل ، فى وضح النـــــور يحـــــدث الآتى (بالاشارات المسرحية للمؤلف) :

« يتحول المنظر الايمن (البقالة) ، وتنزل لافتة :« دار البلدية » فى موضعه • الثالث « ممثل » يأتى ويبعد رف البضائع ويغير وضع المنضدة فيصبح من الممكن استخدامها كمكتب • يدخل العمدة ••• »

هكذا •• ببساطة ، تحولت البقالة الى دار البلدية

وفى الفصل نفسه يتحول مركــــز الشرطة أيضا الى كنيسة ، بالاشارات المسرحية للمؤلف ، كما يلى :

« من اليسار يأتى القسيس • يفرش مفرشا أبيض عليه رسم صليب أسود على منضدة الشرطى • خادم الكنيســة يساعده على ارتداء رداءه الكهنوتى »

لقد تمزق المعنى القديم الذى ألفناه للايهام • وقطــع الديكور تتغير فى النور أمام المتفرجين ، واشاراتها جــد مقتصدة ولا تكاد تكفى للايهام الكامل الذى كان يطمــح اليه الفنان القديم ، أو المتوهم والاندماج الكامل الذى كان يطمح اليه المتفرج القديم

ولكن المسرح الحديث لم تفرغ جعبته بعد من المفاجآت • فاليكم فى نفس المسرحية لنفس المؤلف هــذه الارشادات المسرحية والحوار (الفصل الثالث) :

« الاربعة (أربعة رجال يقومون بدور كالكورس فى

المسرحية) يقبلون ومعهم مقعد خشبى ، يلبسون الآن فراك ويمثلون أشجارا »
الرجل الاول : مرة ثانية ، نحن أشجار الشربين ، أشجار الزان
... ألخ

ان هذا الاسلوب ليس مجرد امتداد لاسلوب تلخيص الديكور والاكتفاء بالاشارة البسيطةعن التفاصيل الكثيرة، أنه نقلة تجاوزت حدود المنطق الذى سوغ التخفف من ثقل الديكور والملابس ..

ان هذا الاسلوب الجديد قد تجاوز ببساطة حدود الايهام التى استقر عليها المسرح دهرا طويلا

وقبل أن نسمى هذا الاسلوب الجديد ، فلننتقل الى لون آخر من تجاربه الجريئة

لقد رأينا فى فصل سابق ان المونولوج المسرحى أسوة بالحوار ــ قوامه الصراع الدرامى ، الا أنه صراع أو حوار داخل النفس المفردة ، بين هاتفين يتنازعان الشخصية الواحدة ..

كما رأينا فى فصل سابق أن الحائط الرابع للمنصة احتفظ بصلابته رغم الحيل الكثيرة التى استعان بها المخرجون أوالمؤلفون لتزيين عملهم وتدعيم أثر ايهامهم بصورة تبدو ظاهريا كأنها انكار لوجود الحائط التقليدى، وهى فى الحقيقة غير ذلك

ذلك أن الحائط موجود طالما يقوم الممثلون بأدوارهم المرسومة ــ سواء فوق المنصة أو فى الصالة ــ دون أدنى التفات لوجود الجمهور ، وطالما يشهد الجمهور الاحداث الجارية ــ فوق المنصة أو فى الصالة ــ دون اتصال مادى مباشر بأبطال المسرحية

والان نصل الى تجربة اجتياز هذا الحائط العتيق .

بأن يولى أحد الممثلين المنصة بقضها وقضيضها ظهره لبخاطب الجمهور مباشرة ، وفى مونولوج – لا يحدث به نفسه جانبا – وانما يوجهه للمتفرجين ، لا يتميز بخاصية الصراع ولا ينطوى على روح الحوار ، وانما هو مونولوج مباشر موجه للنـــاس •• كالخطبة أو الحديث الموجـــه للجماهير ••

وغالبا ما ينطوى هذا المونولوج أو الحديث على مغزى المسرحية ومرماها

فى خاتمة مسرحية « الخاطبة » لثورنتون وايلدر تتقدم الخاطبة للجمهور بهذا الحديث :

مسز ليفى : (توجه الكلام للجمهور) لا قهوة ولا خبز بالزنجبيل ، ولا لعب بعد اليوم ، ولـــكن ثمة شيئا واحدا يجب أن نفعله • هلم الى هنا يا برنابى (تهمس له وتشـــير الى المتفرجين وتقول لهم :) أظن أن أصـــغر واحد فينا هنا عليه أن يقول لنا مغـــزى هذه التمثيلية

(تدفع برنابى على غير رغبته الى موضـــــع الانوار فى مقدمة المسرح)

برنابى : أظن انموضوع المسرحية •• اظن انموضوعها المغامرة • ولن تتحقق من أنك تغامر الا اذا قلت ، وأنت فى غمرة مغامرتك : « آه ، لقد أقحمت نفسى فى مأزق فظيـــع ، وأتمنى لو كنت أجلس الان فى بيتى قريرا » • ودليلك على أنك لست على ما يرام ، هو أن تجلس فى بيتك قريرا •• تتمنى لو أنك كنت فى الخارج منغمسا فى المغـــامرات • وعلى ذلك نود الان كلنا أن نشكوكم على حضـــوركم

الليلة ، ونأمل أن يصادفكم فى حياتكم القدر الذى صادفنا من المغامرات ..

وهكذا تقضت شروط الايهام

« نحن نمثل لكم مسرحية كذا ومغزاها كذا .. نحن لسنا مبسز ليفى الحقيقية وبرنابى الحقيقى ، نشكركم لحضوركم ونتمنى لكم أطيب التمنيات » !

ما علينا بعد ذلك الا أن نتوجه مباشرة الى الرجل الذى ارتكن الى هذا الابداع الجديد فى بناء مسرح عملاق ، وتكوين نظرية خطيرة جديدة فى فن المسرح ..

الى برتولد برخت

مسرحية برخت « القاعدة والاستثناء » التى أخرجها الفنان فاروق الدمرداش لمسرح الجيب منذ سنة يرتفع ستارها والممثلون كلهم واقفون فوق المنصة ينشدون للجمهور :

« سنروى لكم
حكاية رحلة
القافلة تضم تاجرا واثنين من أتباعه
افتحوا عيونكم لتروا كيف يتصرفون
قد يبدو سلوكهم مألوفا ،
وعليكم أن تكتشفوا شذوذه .
وقد يبدو لكم عاديا ،
مما يحدث كل يوم ،
وعليكم أن تتبينوا وجه الغموض فيه ،
وان تميزوا المحال
من وراء القاعدة المقدسة
ولا تأمنوا لاقل اشارة .
مهما بدت بسيطة فى ظاهرها ،
ولا تقبلوا العادة المتوارثة على ما هى عليه ..

بل فتشوا عن وجه الضرورة فيها ٠
نحن نناشدكم على الدوام ألا تقولوا :
« هذا أمر طبيعى » ،
ازاء ما يعترضكم من الاحداث كل يوم
ففى زمن يسوده الاضطراب وتسيل فيه الدماء
ويدين بالفوضى
ويقوم العسف والطغيان فيه مقام القانون
وتفقد الانسانية انسانيتها
لا يخلق بكم أن تقولوا :
« هذا أمر طبيعى » ٠٠
وفى نهاية المسرحية ، يجتمع الممثلون فوق المنصـــة
لينشدوا للجمهور :
« كما رأيتم وسمعتم ٠٠
شهدتم بأنفسكم حادثا مألوفا
مما يقع كل يوم
ومع ذلك ٠٠ نحن نناشدكم
أن تتكشفوا الامر الغريب فى طوايا المألوف ، وأن تتبينوا السر الغامض وراء ما يحدث كل يوم ، وليكن فى كل شئ عادى ما يصيبكم بالقلق ٠ تبينوا الشذوذ الذى يستتر خلف القاعدة ٠ وحيثما بدا لكم ٠٠
قدموا الدواء »

فى مسرح برخت تتقوض نظرية الايهـــام المسرحى القديمة ٠ اننا لا نفتح لكم شباكا على الحقيقة بمجرد رفع الستار ٠٠ اننا نمثل قصة جرت فى خارج هذا المكان منذ زمن ٠ نحن نشخصها لكم ٠٠ نحن ممثلون ، لا أكثر !

ويذهب أسلوب برخت الى حد أن الممثلين يخرجـون ليقرأوا مقدمتهم فوق المنصة بملابسهم العادية ٠٠ وبعد قراءة الافتتاحية يخلعون ملابسهم ــ فوق المنصة ، وأمام

أعين جمهور المشاهدين ـ ويرتدون ملابس التمثيل ..
فاذا ما انتهت المسرحية ، عادوا فخلعوا ملابس التمثيـــل ـ أمام الجمهور ـ وارتدوا ملابسهم العادية ، وانتظموا في حلقة لينشدوا للجمهور قصيدة الختام « التى ضربت المثل بها » .. بصفتهم ممثلين

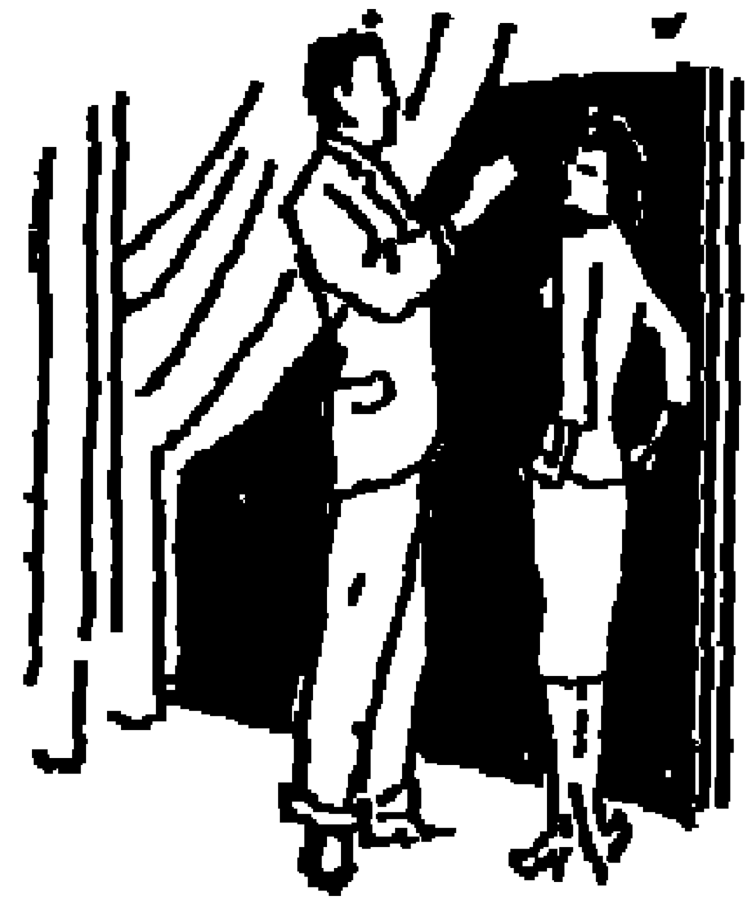
وهذا الاسلوب لم يكتف بنسف الحائط الرابع الفاصل بين المنصة والصالة ، وانما تحول الى نســف الكواليس أيضا بحوائطها الثلاثة التقليدية التى اجتهدت أجيـــال طويلة فى احكام ديكوراتها وأثقالها بالتفاصيل والحيل .. بقصد الذهاب بوهم الجمهور فى النهاية الى أننا لم نعـد فى مسرح الاوبرا أو الازبكية وانما نحن الان فى قصر الدوق فوق الجبل ، أو فى بقعة هادئة فى ريف مصر

أسلوب برخت يقول للجمهور : لا . نحن فى المسرح . نحن نمثل لكم . نروى لكم قصة ذات مغزى . استخدموا فطنتكم لفهم مغزاها ، لحل ألغازها ..

ولا يفوتنى هنا ـ قبل أن أنتقل لعرض نظرية برخت ـ أن أشير الى أقرب نقطة فى الادب المسرحى العربى لهـذا الاسلوب الحديث المعارض لنظرية الايهــــام ، تلك هى مسرحية الفرافير ليوسف ادريس

تفتتح الفرافير بمونولوج يلقيه المؤلف على الجمهور ، يقدم فيه شخصياته للجمهور ويمضى . ثم يظل المؤلف ماثلا فى الحوار والاحداث حتى وهو غير موجود ، يوجهها حيث يشاء ، وبلا خفاء

وهى تجربة فنية فطنة أذكرها باغتباط لمؤلفنا العربى



عودة إلى العقل المحض

الى أين يتجه المسرح الحديث ؟

لقد بدأ بالتراجيديا الاغريقية فى أحضان الدين ، ثم انطلق يتغنى بموقف الانسان الصامد أمام قوى القدر الغاشمة المالكة لمصيره ..

وانتقل فى عصر النهضة ، وبالهام شكسبير العظيم الى الكشف عن الانسان يغلبه على أمره هوس فى طبعه وفى شخصيته ، كالطموح المتطرف أو الجشع أو التردد أو الحمق ..

ثم تحول الى النقد الاجتماعى اللاذع ، وتقريع الرياء والبخل والادعاء والحمق والوصولية بالفكاهة

والى الرومانتيكية حيث يحتكم الناس الى انفعالاتهم الصرف ضد التقاليد ، والطبيعية حيث تتعقب المأساة الناس من الاب الى الابن كميراث محتوم ، ويجنى الابناء ما زرع الاباء من شرور .. والى المسرحية العاطفية الناعمة

الى أن انتهت الى ما ادع كاتبا مسرحيا حديثا عظيما هو ثورنتون وايلدر الى وصفه بكلماته . يقول :

« فصل جمهور (الطبقة المتوسطة) بنفسه مسرحا غير قادر على ازعاجهم . فتزاحموا على الميلودراما (وهى تعالج احتمالات تراجيدية بطريقة تجعلك من البداية تعرف انها

ستنتهى نهاية سعيدة) ، وعلى الدراما العاطفية (وهو جواز المرور الفعال لافتراض أن الرغبة أم التفكير) ، وعلى الكوميديات التى بنيت شخصياتها بالطريقة التى تضمن بعدها فى الشبه عن أى من افراد الجمهور فى الصالة (!)»

وقد تمرد المسرح الحديث على هذه الاساليب المسرحية، وثار عليها

وراية هذه الثورة •• هى العقل المحض

ومهما تنوعت الاساليب والافكار التى انضوت تحت راية الثورة العقلية الجديدة ، فان غايتها ومقصدها النهائى ، لحمها وسداها هو تغليب القيم العقلية فوق المنصة ••

وسواء اتجه هذا المسرح العقلى الحديث نحو اليمين ، « عبثيا » ينكر النظام فى الكون والمنطق فى الحياة بالمنهج العقلى •• أو اتجه ناحية اليسار ، ثوريا يستخلص من نظام الحياة والعلاقات والمواقف الانسانية منطقا عقليا وفلسفيا ـ كما عند سارتر وبرخت ••

فهذا المسرح العقلى والحديث ، قد ورث منحاه ومزاجه منذ ابسن ، وخلال فن شو وبيراندللو ، الى جيرودو وكوكتو حتى استقر أخيرا ناحية اليمين عند العبثيين والساخطين وناحية اليسار عند الثوريين وأنصار الحياة ••

المهم أننا نعيش فترة سيادة العقل

نعيش مرحلة فن الفكر

وقد أشرنا فى فصل سابق الى أن المسرح الكوميدى يخاطب العقل لا القلب ، وألمحنا الى أن مسرح (اللامعقول) يتجه لذلك الى الكوميديا •• فأحب أن أضم هنا تحفظا منطقيا واجبا

فمع أن المسرح الكوميدى مسرح عقلى بالضرورة ••

فالمسرح العقلي ليس مسرحا كوميديا كله وبالضرورة ، وأقرب مثل لذلك مسرح سارتر

ومن هذه البداية سننطلق الى ذلك العـــالم الجـــديد الغريب الذى يصنعه المسرحيون الجـــدد .. دورنيمات وفايلدر وبرخت .. الخ ، والجوازات الكثـــيرة التى يسمحون لانفسهم بها ، والتى اقتحمت فنون الاخـــراج والتمثيل فى بلاد كثيرة

هذه الاتجاهات بلورها برخت فى نظرية مسرحيةجديدة وهامة جدا ، ترتكز على انكار الايهام المسرحى بمعنـــاه القديم ..

تصدر النظرية عن بديهية أولى :

عبثا نحاول أن نخدع المتفرج عن زمانه ومكانه ونحاول أن نوهمه أنه انما يشهد هاملت بلحمه ودمه ، والاحداث الحقيقية التى خاضها ..

عبثا نحاول أن نغلب المتفرج اليقظ ، ونسلبه صحوه بالمطابقة الواقعية للديكور والملابس والاشياء والاضـــواء والمواقف ونوهمه بالانتقال فى الازمان والامكنة

انه يدرك دائما اننا نمثل ..

ونحن ندرك دائما أننا نمثل ..

فلم لا ؟!

« سنروى لكم حكاية رحلة .. »

« سيداتى وسادتى . مساء الخير . أنا مؤلف الرواية»

« أظن أن موضوع المسرحية هو المغامرة .. » لا ايهام !.

نحن نمثل لكم حكاية وقعت .. أو لعلها كان من الممكن أن تقع حوادثها فى مكان كذا وزمان كذا ..

هذا الذى ترونه فوق المنصة ليس قلعة الامير ولكنـــه مجرد ديكور أبدع رسمه الفنان .. وقد لخصـــناه غاية التلخيص ليسهل علينا رفعه ولنفسح للممثلين فوق المنصة

المتفرجون يعرفون اننا نغير الديكور من خلف الستار المسدل ، فلا بأس أن نغيره أمامهم وتحت أعينهم فننتقل بسرعة من منظر الى منظر ، اذا أتاحت لنا الاجهزة الميكانيكية أن نفعل ذلك بسرعة وبلا ازعاج

وعند برخت : نحن لا ننكر اننا نمثل ، نحن نؤكد اننا نمثل . سنرتدى ملابسنا ونخلعها فوق المنصة ، وسننبهكم الى مغزى المسرحية ومرماها ..

لا خداع ولا ايهام ..

واذن .. أيصلح لهذا المنطق نفس أسلوب التمثيل القديم والحديث الذى يرتكز على الاندماج الوجدانى والروحى وعلى الايهام ؟

لا طبعا . الممثل عند برخت لا يمثل هاملت ، ولكنه يمثل انه يمثل هاملت

لا يضع نفسه فى موضع هاملت ويسلك مسلكه .. وانما يضع نفسه فى موضع من يمثل هاملت ويسلك مسلكه ..

انه راوية من نوع جديد ، حرفته المسرح ويوصيه برخت بأن يقول فى التدريبات بصوت مرتفع أو لنفسه:

« وعندئذ هاجت نفس هاملت ورفع ذراعيه كأنه يصد العاصفة وكظم ما بنفسه وقال : هدوءا . هدوءا . أيتها النفس المظلومة »

مثلا ..

وعندما يضبط ايقاع كلماته ونبرته وانفعاله ويعتلى المنصة ينطق كلمات هاملت دون المقدمة التى تدرب على قولها فى البروفة ، فيحقق بذلك أسلوب تمثيل التمثيل ..

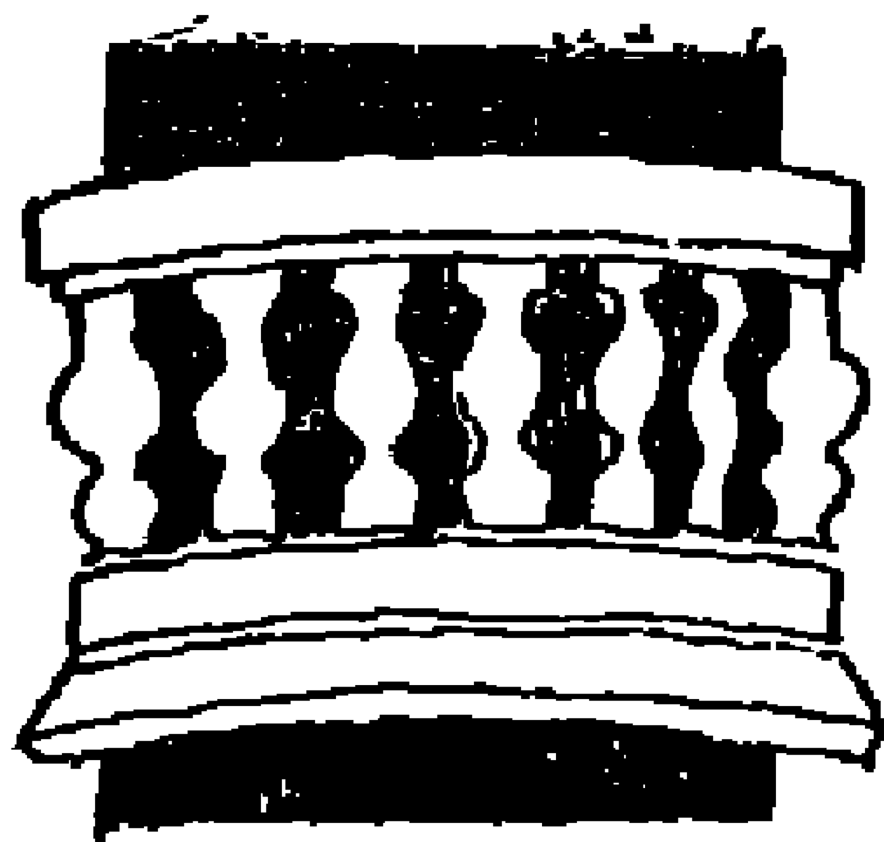
فى مسرح برخت يشهد الجمهور ممثلا يمثل دور امير

الدائمرك التعس ، الذى تطوف حكايته بالمكان ، ولكنه غير موجود بالمرة

ان النجاح الذى حققه مسرح برخت عالميا ،وانطباعات أفكاره الكثيرة الخطيرة على المسرح الحديث اخـراجا وتمثيلا وتأليفا تجعل منه ركنا من أركان الفن والفـكر المسرحى الحديث .. وتجعله من أهم واخطر المذاهب الحديثة فى الفن ..

ولكننا للاسف لم نحتفل به فى بلادنا بعد ..احتفالنا بغيره ، مع أنه الفنان الاشتراكى العمـــــــــــلاق ، الذى استقى مذهبه فيما استقى من مصادر ، من تقاليد مسرحين شرقيين عظيمين هما المسرح اليـــابانى والمسرح الصينى القديمين ..





هل شكل المنصة ثابت ؟

بعد أن القينا هذه النظرات الخاطفة على المسرح الحديث .. لابد ان نخلص من هذا كله بنتيجة أساسية: هى أن كل شىء يتطور ، كل شىء فى المسرح يخضع لقانون التغير ، استجابة لتغير الافكار . ليس فى المسرح قواعد يتعين ان تكون لها صفة الدوام ، ليس فى الفن كله مثل هذه القواعد الازلية ..

فحتى شكل منصة المسرح لم تكن هى هى بشكلها الراهن دائما ، ولن تكون دائما

فقد عرف الاوربيون أشكالا أخرى للمنصة أيضا

واشكال المنصة يمكن حصرها فى ثلاثة أنواع رئيسية :

● الشكل التقليدى المعروف عندنا فى مصر والذى يجعل المنصة تواجه صالة المتفرجين المستطيلة أو المربعة ، ويجعل المنظر فوق المنصة بعد رفع الستار أشبه بلوحة مستطيلة داخل برواز ضلعه الاعلى قناع من القماش ، وضلعاه الجانبيان كالوسين بمثابة الكتفين وضلعه الاسفل هو أضواء مقدمة المنصة

● الارينا .. وهى منصة اكثر بروزا داخل الصالة أشبه بنصف دائرة كاملة وتحيط بها مقاعد المتفرجين من ثلاث جهات .. والصالة حول الارينا تتخذ شكلا أقرب الى شكل الهلال العريض

● المنصة الدائرية وهى اشبه بحلبة المصارعة مثلا ويحيط بها الجمهور احاطة كاملة من كل الجهات

قد دارت مناقشات حامية حول الشكل الامثـــل للمنصة اخيرا فى بريطانيا لمناسبة انشاء الفرقة القومية البريطانية منذ عام • وقد تناهت الينا اخبار مباراة يشترك فيها مائة مهندس حول تصميم احدث وامثل دار مسرحية فى انجلترا لتكون مسرح الفرقة القومية الجديدة ولكن الذى سيقرر فى النهاية أى شكل للمنصة أوفق للفن المسرحى هو مجلس ادارة الفرقة القومية الانجليزية الذى أثار المسألة لهذه المناسبة وأجرى شبه استفتاء بين الفنانين

وقد أعلن لورانس أوليفييه مدير الفرقة نفسهـــا والفنان المشهور للصحف الفنية أن : « بمسرحيـــة الخال فانيا » « مثلا سبعة مواضع يفسدها العرض التقليدى من خلال برواز المنصة العادية » ثم حبذا شكل الارينا

كما صرحت الممثـــلة بلورايت : « بأن كل الامم تبنى « الارينا » للتمثيل اليوم •• وليس الامريكيون وحدهم • ولعل هذا هو طريق المستقبل للمسرح ، أو لعله لا يكون. فواجبنا ان نتبين ذلك بأنفسنا من تجربة الارينا عمليا »

أما الممثل فرانك فينلاى فقد روى للصحف تجـربته الخاصة فى التمثيل فوق « الارينا » واعترف أولا بأن الفزع اعتراه « حين رأيت الجمهور يحوطنى من ثـــلاث جهات اول ليلة مثلث فيها على الارينا . ولكنى اعتدت ذلك خلال اسبوعين ، ثم أصبحت الان أعشق الارينـــا وتثيرنى ككل جديد.» وهكذا •• وهكذا ••

وهذا المنحى الجديد الى تغيير شكل المنصة غـــير مستغرب . فشكل المنصة الحالى لم يكن هو شكلهـــا الثابت الدائم خلال كل العصور •• وانما ابتدع هـــذا

الشكل فى عصر النهضة ؛ منذ أربعة قرون أو أقل .

أما المسرح الاغريقى الذى كان حجر الاساس لفن المسرح كله فقد كان أشبه بالملعب الرياضى أرضه دائرية وتحيط به مدرجات عالية للجمهور . ولم يكن يقام على أرضه بالطبع ديكور بالمعنى المعروف حديثا .. وكان الممثلون تحيط بهم عيون الجمهور من كل جانب

وقد كانت تلك المنصة الدائرية الرحبة تتيح للممثلين حركة أوسع واكثر طلاقة ، كما تتيح حشد عدد كبير من الكورس والكومبارس مما يضفى على المشهد جلالا وفخامة

ولعل هذه المنصة كانت أوفق لابراز ما تنطوى عليه التراجيديا الاغريقية من ايحاء شامل مؤداه أن أحداثها انما تجرى على نطاق العالم كله أو الوجود كله ، وان بطلها هو الانسان بذاته ورمز للجنس البشرى كله ..

ثم ابتدع عصر النهضة المنصة ذات البرواز ، وأقام فوقها الديكور وزخرفه بما يعين مكان وزمان المسرحية ، ويحدد بيئتها الخاصة تحديدا قاطعا ، ويخصص للاحداث مكانا بالذات وزمانا بعينه تجرى أو جرت فيه ، ويميز البطل بشخصية محددة المعالم تضمن له صفة التفرد

بذلك جرد فنان عصر النهضة .. المسرحية من بعض ايحاء الشمول الذى ميزها فى العصر الاغريقى . ثم ضاق فنانو المسرح بعد ذلك وبخاصة فى العصر الحديث ، بالجدران المطبقة عليهم من كل جانب وتمردوا عليها بطرق مختلفة .. فمنهم من اتجه الى محاولة نسف الحائط الرابع ودمج الصالة بالمسرح

ومنهم من نحى للتجريد فى تصميم الديكور للفكاك من قيد الزمان والمكان قدر الطاقة ، والايحاء بأن أحداث المسرحية انما تجرى فى صعيد شامل وفى الزمان كله .. ولكن حتى هذه المحاولة كانت تحد الصعيد الشامل

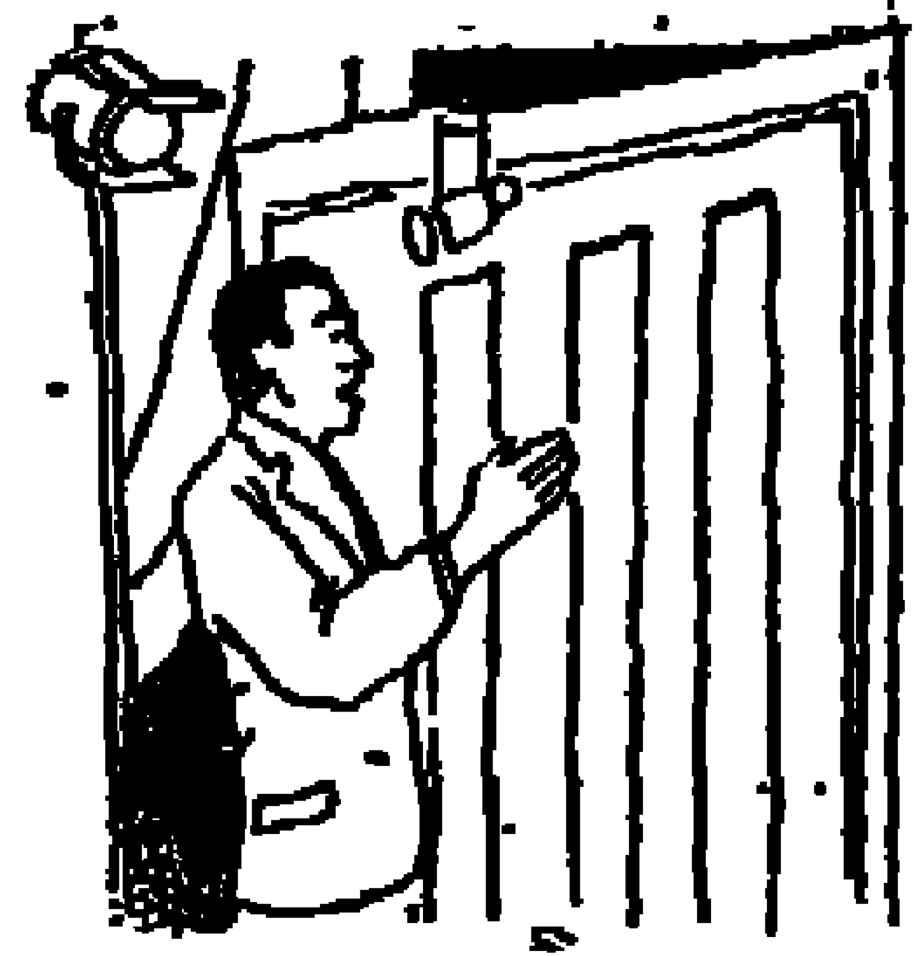
بأبعاد المستطيل التى توحى بالنهائية المحدودة ، بينما يرمى الفنان للايحاء باللانهائية واللامحدود ..

فلم يكن بد اذن من التفكير فى منحى جديد يضمن للمنصة رحابة وطلاقة جديدة ويكسر أحزمة الكواليس المطبقة على المنصة من جهات ثلاث

وهكذا نحى الفنان نحو البروز بالمنصة نحو الصالة، وتنحية كراسي وسط المقدمة واضافتها على الجانبين.. وبذلك اقتربنا من شكل الارينا وشكل المنصةالدائرية.. وفيهما يحيط الجمهور بالمنصة من جهات ثلاث أو من جميع الجهات .. لا تعود المنصة بذلك صورة فوق جدار أو « شباكا » يطل على الجيران أو ثقب مفتاح يكشف صالون الاسرة ، وانما تصبح المنصة هى قلب العالم ومركزه وبؤرة تتجمع فيها الحياة الاجتماعية والنفسية للبشر

ان الاخراج ـ فضلا عن التمثيل ـ فوق هذه المنصة الجديدة المقترحة سيتخذ أسلوبا جديدا .. اذ لابد أن يحرص المخرج على أن يكون للمشهد نفس التأثيرالجمالى والفكرى من أى زاوية للرؤية حول محيط نصف دائرة او على محيط الدائرة كلها فيما لو أصبح المسرح صورة مصغرة لحلبة المصارعة

الا أنى أود أن أنبه أولئك المولعين باقتناص مودات الاخرين والطنطنة لاخر صيحة وآخر طراز .. الى أن هذه الاشكال الحديثة كلها لا تجتذب الفنانين لمجرد غرابتها أو طرافتها ، وانما لانها الوعاء الموافق للفكر الجديد والمضمون الجديد لفن المسرح .. وأن الفنان يكشف أوفق وعاء وأنسب اطار وأحسن شكل من خلال المناقشة المستمرة والتفكير المتصل والتمحيص المستمر والتأمل العقلى العميق والاختيار المدعمبالاسانيدوالدفوع والذرائع الفكرية التى تبرهن على سلامة اختياره .



المخـــرج

ان مهمة المخرج الاولى هي أن يجعل من النص المسرحى المكتوب عملا حيا فوق المنصة انه يختار الممثلين والديكور والاكسسوار ويصمم الاضاءة والظـــلال ويرتب حركة الممثلين فوق المنصة بحيث تبرز هذه الحركة جو المسرحية ومعانيها ، وهو بالنسبة للممثلين كقائد الاوركسترا الذى يضبط طبقات صوتهم ودرجات انفعالاتهم وخطـــواتهم مقتربين او مبتعدين بحيث يعبرون جمـــاعة عن النص المسرحى فى حدود الفهم والتفسير الذى انتهى اليهمـــا المخرج • فالمخرج مسئول عن فهم المسرحية وتفســير معانيها ومراميها ، وما تنطوى عليه من أفكار فلسفية • كما هو مسئول عن ابلاغ المتفرغ هذا الفهم وهذا التفسير مســـتخدما فى ذلك امكانياته : من ممثلين وديكور واكسسوار وحركة وصوت واضاءة وظلال ، انه هوالذى يعد ويترتب جميع العناصر المادية للمسرحية على نسق يحقق فهمه وتفسيره للنص وجهده هـــذا مصـــدره فكرى وادواته مادية • انه بفكره يدرك ما تنطوى عليه المسرحية من المعـــانى ثم يترجمهـــا الى لغـــة المسرح الصرف . وهى لغة ليست ادواتها الكلمات ،وانما أدواتها أشياء ملموسة وحركة محسوبة ودرجة فى الاضاءة وايقاع فى الحركة ، وتناسق بين كل هذه المقومات المسرحية .

ان المتفرج العادى لا يلحظ بوضوح جهد المخرج ولكن المتفرج المتمرس يحظى بمتعة أعظم من المتفرج العادى فى نفس العمل المسرحى ، باستعداده لتلقى وتذوق افكار المخرج

ويظن البعض أن عمل المخرج يقتصر على رسم خطوات الممثلين بقصد عدم تصادمهم فوق المنصة أو بقصد عدم تجمعهم فى جانب من المنصة دون الاخر ، ويظن البعض أن مهمته مهمة ادارية تنحصر فى تنسيق العمل بين مختلف الفنانين المشتركين فى العمل المسرحى . وهذا غير صحيح .. ان المخرج عمله أجل شأنا من هذا . فاذا كان الممثل سيد المنصة فان المخرج سيد العمل الفنى كله ، فالمسرحية التى نراها فوق المنصة ليست بالضرورة هى هى افكار المؤلف بالمعنى الحرفى للكلمة .. فمع ان كلماتها لم تتغير الا أن ما يقدم لك ليس النص وانما هو فهم المخرج للنص ، وهذا قد يفسر لك ما تعرض له الصحف أحيانا من أن مسرحية واحدة تعرض فى مسرحين فى مدينة واحدة بأوربا بتفسيرين مختلفين جدا وكأن احداهما ليست هى الاخرى على الاطلاق

والى ذلك ففهم النص ووضع تفسير محدد لمغزاه العام ليس هو كل عمل المخرج .. والا لكان اقدر الناس على فهم النص المسرحى هو اقدرهم على اخراجها

وقد جر هذا الافتراض الخاطىء بعض زملائنا المؤلفين الى التفكير فى اخراج مسرحياتهم استنادا الى أن المؤلف نفسه هو أقدر الناس على فهم موضوعه وشخصياته

ان الاخراج ليس مجرد عملية فهم وتفسير للمسرحية، وانما هو يبدأ بالفهم لينتهى الى ترجمة هذا الفهم الى تكوينات العرض المسرحى . وعملية الترجمة هذه، عملية الإخراج وبناء العرض المسرحى الكامل مؤسسا على النص

المكتوب .. فن قائم بذاته وله أسسه العلمية ودراساته
وهناك عدد كبير من الناس تحتم عليه وظيفته ان يفهم المسرحية بالدقة الخليقة بالمؤلف .. كالناقد والمخـــرج والممثلين . وقد نجد ان ناقدا استطاع ان يفهم المسرحية اكثر مما فهمها ناقد آخر .. فهل يعنى هذا أن الناقد الاول أقدر على اخراج المسرحية من الناقد الثانى ؟!
ان وظيفة الاخراج تختلف عن سائر الوظائف تماما
انها تنطوى بالضرورة على فهم المسرحية وتبدأ به.. ولكن لحمها ودمها هو ترجمة هذا الفهم الى امكانيـات ومقومات العرض المسرحى
ومقومات العرض المسرحى لا حصر لها . فهى تتألف ظاهريا من : الممثلين والديكور والاضـــواء والظـــلال والاكسسوار ومنطوق الكلمات ، والموسيقى التـــأثيرية والمؤثرات الصوتية ..
ولكن هذه هى أدوات العرض المسرحى الظاهرية فقط
ان وراء هذا كله روح المخرج وفنه
وراء هذه المكونات للعرض المسرحى الايقاع الذى قد رسمه المخرج للعرض . سريعا فيثير المرح ، بطيئـــا فيشيع الاسى .. أو سريعا هنا وبطيئا هنا .. وليست السرعة والبطء هى كل محاور هذه الحركة الخفيـــة التى تتخايل فوق المنصة ، وانما قد ينطوى الايقاع أيضا على رتابة أو تغير أو انسياب متدفق ، على المفاجأة أو التمهيد .. على خفوت غامض أو وضوح صارخ ، او توقف جامد بعض الوقت .. الخ
وأدوات هذه الحركة العجيبة هى ضبط سرعة الالقاء، وحركة الممثلين ، وتغييرات الضوء وايحاء الديكور بل وحتى سرعة أو بطء نزول الستار فى ختام الفصـــل أو ختام المسرحية

والتعبير بالايقاع وبالانتقال من سرعة الى سرعة هـــو أحد أدوات الاخراج المسرحى

ولعل التعبير بالضوء أمره واضح ..

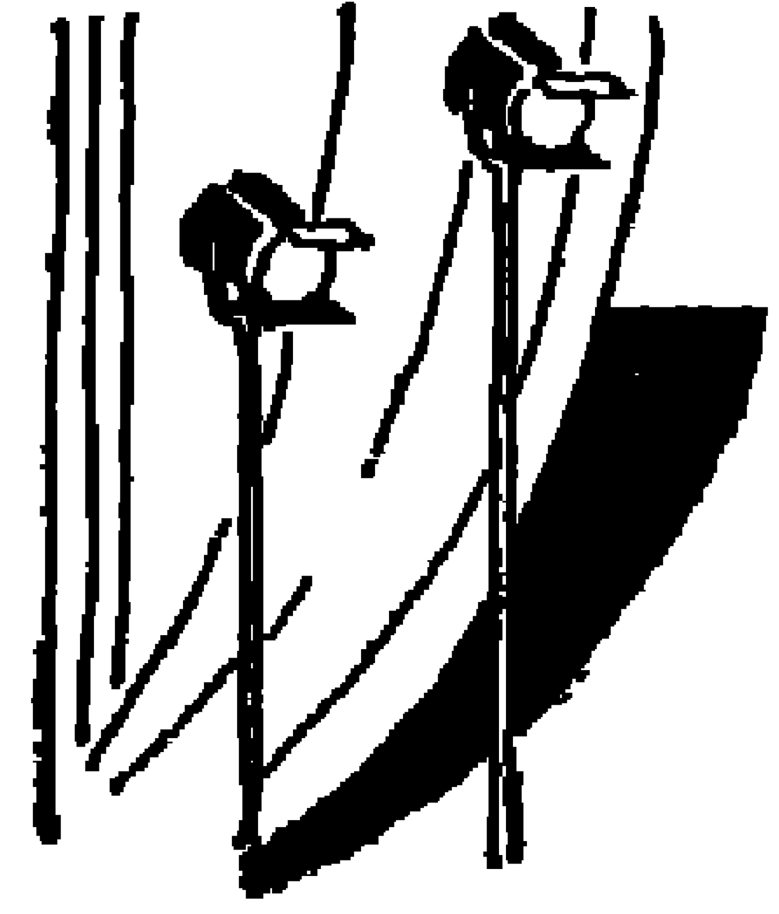
ولكن للمخرج قدرة أيضا على استخدام اللون فى صنع التأثيرات النفسية المعينة

ادوات المخرج هى كل المكونات الظاهرة وغير الظاهرة للعرض المسرحى فوق المنصة

وأسلوبه هو طريقته فى استخدام هذه المكونات استخداما يضبطه الايقاع المناسب والمؤثرات المناسبة

وغايته أن ينقل من خلال العـــرض المسرحى مغزى المسرحية المكتوبة على نحو يثير فى المتفرج اكبر قدر من المتعة ..

ان فن المخرج يلمس عين واذن المتفرج ، يلمس شعوره ولا شعوره ، يلمس عقله ووجدانه وسجيته .. وعلى قدر وضوح أفكار المخرج ، وجمـــال عرضـه يكون نجاحه ..



أضـــواء وظـــلال

أول ما تطفأ الاضواء فى الصالة ، تتضح أضواءالمقدمة للمنصة ، وكأن هذه اللحظة علامة على أن ما سنراه هذا المساء لعبة من لعب النور والظل . وهــــذا بالضــبط ما سيعرض عليك .. فان للنور والظل أثرا وجدانيا على الانسان كأثر الموسيقى وكأثر الالوان . ان درجات الضوء هى التى تصنع فن الرسم وفن التصوير . وما سيعرض عليك الان فيه بلا أدنى شك من فن الرسم وفن التصوير. فالمنصة امامك مضيئة حيث يجب ، وسابحة فى الظـل حيث ينبغى ، والشخصيات تتحرك فيها حركة ليست تعبيرية فحسب وانما هى أيضا حركة جمالية تضفى على المنصة صفة اللوحة الفنية المتحركة طيلة المساء . وانت لو دققت النظر فى أية لحظة فسترى بغـــاية السرور تناسقا فى الالوان وتناسبا فى الابعاد بين الاجسام والاشياء فوق المنصة ، واتساقا فى الاضواء .. ســـــترى بنفس راضية أن ما أمامك لا يعدو أن يكون لوحة فنية مستطيلة سابحة فى الاضواء والظلال على نسق لا يعبر فقط عن مكنون المشاعر الانسانية المؤثرة فوق المنصة وانما ينطوى أيضا على جمال فنى رفيع ، فى السكون وفى الحركة، جدير بأن يكون من خلق وتصميم مخرج فنان ذى حس

بفن التصوير

ان الاضواء هى احدى الوسائل التكنيكية فى المسرح ولها شبكات معقدة ومصممة بحيث تتيح للمخرج كافة احتياجاته

كما أن مسرح اليوم مزود بوسائل ميكانيكية حديثة لا حد لامكانياتها

قديما لم تكن وظيفة المخرج معروفة فى المسرح ، ولم تكن وسائل الايهام والضبط المسرحى تتعدى الملابس والماكياج والتوجيهات الساذجة للممثلين بحيث لا يتصادمون فوق المنصة أثناء الحركة • وكانت الحركة فى مجملها عفوية ومن وحى خاطر الممثل

ولكن الامكانيات الجديدة والتطور الهام لهذا الفن قد جعل للمخرج وظيفة خطيرة ثم أضافت الامكانيات المذهلة أعباء جديدة على المخرج وأدوات جديدة له . لعل أقلها تعقيدا هى لعبة النور والظل السحرية هذه .

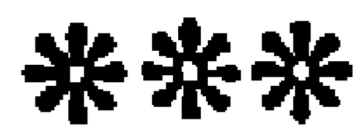
ورغم أن مسرحنا المصرى حديث النشأة وفقير فى الاته الميكانيكية ، فاننا نذكر أن مخرجا طموحا كالاستاذ عزيز عيد استطاع ان يبهر الناس منذ اربعين سنة فى عرض « شمشون ودليلة » بمنظر هدم المعبد . ففى هذا المشهد الختامى الرائع دفع شمشون بقوته الخارقة أعمدة المعبد فوق المنصة فانهارت جدران الديكور وسقطت فوق المنصة كتل متفاوتة الاحجام من الحجارة (الوهمية طبعا) على نحو آثار انفعال الجمهور

واظن أن عزيز عيد قد استخدم لذلك حيلة بسيطة جدا اذ كان الديكور من أعمدة وحوائط (من الورق أو الخشب او القماش) مقسم الى قطع منفصلة ومركبة فوق بعضها البعض بحيث أن مجرد الهزة تجعلها تتساقط

وقد شاهد جمهور المسرح فى الموسم الماضى حيلة

مدهشة كهذه صنعها مصمم الديكور الفنان احمد ابراهيم لمسرحية الزلزال . فقد أنشأ الديكورست أرضية فوق أرضية المنصة المعتادة وفصلهما بمحور أفقي كقضيب بين المنصتين يمكن ان تتحرك عليه المنصة العلوية حركة متأرجحة .. فاذا هبط يمين المنصة ارتفع يسارها واذا هبط يسارها ارتفع يمينها . كما ان الديكورست اقام حوائط الديكور من أجزاء منفصلة تصلها « مفصلات » . فعندما اهتزت أرضية المنصة وتأرجحت أثناء الزلزال سقطت أجزاء من الحوائط خلف الكواليس فأحدثت الاثر الذى يحدثه تهدم البناء

وباستخدام اضاءة مهتزة وموسيقى مناسبة وتمثيل موحى استطاع المخرج جلال الشرقاوى ان يصنع الايهام الحاذق المطلوب ، حتى لقد أشار بعض النقاد الى أن الجمهور قد صفق للديكورست فى هذه المسرحية مثلما صفق للفنانين الاخرين ..



من حيل النور والظل التى شهدناها أكثر من مرة فى مسرحنا استخدام ستارة من التل الخفيف مرسوم عليها جزء من الديكور .. فاذا سلطنا ضوءا قويا أمام الستارة ظهرت رسومها واضحة ، واذا سلطنا ضوءا قويا من خلف الستارة اختفت عن أعين الجمهور فى الصالة كأنها غير موجودة

ولا يمكننى فى هذا الفصل أن أحيط بكافة الحيل الميكانيكية التى وصل اليها فن المسرح اليوم فى العالم ، فقد تجاوزت هذه الامكانيات الميكانيكية حدود التصور

ولكن أبرز هذه الامكانيات فى بلادنا اليوم هى المنصة الدوارة الميكانيكية التى انشئت فى مسرح الازبكية منذ

أكثر من عام ، ولم تستخدم بطاقتها الكاملة الى اليوم(١)

تتالف هذه المنصة من قرص تحوطه حلقة فى وسط المنصة الثابتة . ويمكن لكل من القرص والحلقة أن يدورا يمينا ويسارا ، معا أو منفصلين ،بسرعةواحدةأوبسرعتين مختلفتين .. ومهمتهما ان يساعدا على تغيير المناظر بسرعة .. اذ أن فى امكانهما الدوران دورة كاملة فى ١٥ ثانية

ان الديكوريست يصمم ويبنى عدة ديكورات فوق الجزء المتحرك من المنصة ، لا يبدو منهاللتمفرجالاالديكور المواجه للصالة فاذا انتهى المشهد اطفىء النور ودارت المنصة ثم يضاء النور فاذا بالديكور الذى كان فىمواجهة الكواليس لا يراه الجمهور قد دار فاصبح فى مواجهة الصالة ، بينما الديكور الذى كان أمام الجمهور قد دار واصبح خلف الكواليس فى ثوان معدودات

هذه هى أبسط استعمالات المنصة الدوارة . وكما يمكن للمخرج أن يستخدمها فى المسرحيات ذات المناظر الكثيرة ، يمكنه ايضا أن يستخدمها لاحداث تأثيرات مختلفة على الجمهور .. كما استخدمها المخرج محمد عبد العزيز لاحداث تأثير مسرحى معين فى مسرحية « الطعام لكل فم »

ان امكانيات رفع الاشياء أو اسقاطها ببطء من أعلى المنصة .. وحركة الستارة الخلفية المرسومة لخلقتأثير يوهم المتفرج أن المنصة نفسها تتحرك ، وامكانياتصنع جو عاصف فوق المنصة أو استخدام خيال الظل وحيل الفانوس السحرى وامكانيات حركة أرضية المنصة نفسها أو جزء منها الى أسفل ينزل اليها الممثل كأنه نازل فىبئر

---

(١) استخدمت مؤخرا بطاقتها الكاملة فى مسرحية «سليمان الحلبى»

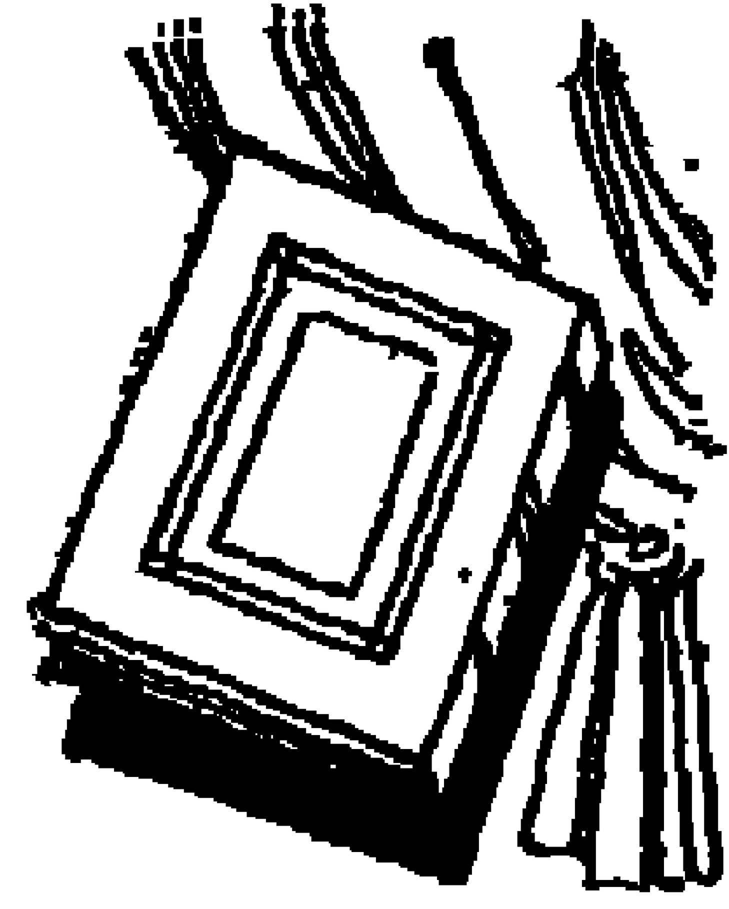
مثلا .. او الى أعلى لصنع مصطبة أو مستوى مرتفع.. امكانيات لا حدود لها

ولكن هذه الامكانيات غير المحدودة تنطوى أيضا على خطر فنى ومنزلق ينبغى تجنبه . فان فن المسرح الدرامى هو فن أفكار وكلمات ومواقف .. واغراقه بالحيل المسرحية بقصد الابهار والادهاش ينأى به عن ميدانه وعن جماله ومتعته الاصيلة . ان من أيسر الامور أن يتوسل المخرج بهذا الكنز من الامكانيات والحيل التى تتيحها الميكانيكية الجديدة فى المسرح لخطف انتباه الجمهور ولاستعراض براعته التكنيكية ، ولكن من أصعب الامور أن يختار المخرج من بين هذه الامكانيات الكثيرة ما يلائم موضوعه ، وما ينسجم مع الاسلوب الفنى للمسرحية ، باقتصاد وتحوط

أن بعض المخرجين فى بلادنا يبالغون فى استخدام لعبة النور والظل بالذات لسهولتها .. ولكن الاصول الفنية تقضى دائما باستخدام كل شىء فى موضعه

أن الفن الاكمل هو الفن الذى يتناسق أسلوبه وموضوعه وايقاعه وشكله

والفن المسرحى الامثل هو أيضا الفن الذى تتناسب عناصره هذا التناسب الجميل المعبر



العنصر الفكري للمسرحية

لاشك أن للعمل المسرحى مكونات مادية . فان الممثل والديكور والحوار والمواقف وجهد المخرج كلهـــا تعتبر اللبنات التى تشيد هذا الصرح العظيم ، ولكن وراء هذا كله عنصرا فكريا أكيدا هو الذى يحرك جهود مختلف الفنانين

فان المتفرج يحق له أن يتساءل دائما : لم كل هـذا الجهد العظيم ؟ والمؤلف خليق بأن يتساءل دائما : لماذا اكتب ؟ كما ينبغى للمخرج والممثل ان يتســـاءلا : لاى غرض نستخدم كفاءتنا السحرية لاضحاك النـــاس او لاستدرار دموعهم !

ان الفن له غايته بالضرورة ، فليست مهمة الفنان أن يضحك الناس لمجرد الضحك ، وانما عليه أن يعــرف لماذا يضحكهم .. من أى شىء يضحكهم ، وما جدوى أن يضحكهم ، او يجعلهم يذرفون الدموع

ان الفن فاضل بالضرورة . وهو بالضرورة لا يمكن أن يضحك الناس من الفضيلة أو يهزأ بها ، كما لا يمكن أن يستدر الدموع لحساب الظالمين ، والا سبب نفورا جماعيا شديدا

ان الوظيفة الاجتماعية للفن تحتم ان يكون الفــن دائما داعية للفضائل العصرية وللتقدم الاجتماعى،وعليه

أن يسخر قدرته على الاضحاك واستدرار الدموع واثارة وجدان الناس لخدمة هذه القضية الاجتماعية الجليلة ، وحتى دعاة الحرية الفردية من الكتاب الانسانيين يسخرون قدرتهم التكنيكية وامكانياتهم فى الاضحاك واستدرار الدموع لتركيز العطف على قضية هذا الانسان الحر الارادة ، وفى مواجهة الضغط الاجتماعى المتعسف ..

وعلى أية حال فليس هنا مجال للبحث فى قضية غاية الفن ، وانما أردت فقط أن أنبه الى المصادر الروحية والفكرية الاصيلة والاساسية التى يصدر عنها الفن المسرحى وسائر الفنون ، وأن أنبه جمهرة المتفرجين والفنانين المسرحيين الى أنه ما من فن على الاطلاق ـ جدير بهذه التسمية ـ الا وينطوى على هذا النبع الفكرى الروحى والانسانى ، ويصدر عنه : وينبغى لهم جميعا ـ وبخاصة الفنانين ـ ان يعوا وعيا كاملا المحتوى الفلسفى والروحى للنص المسرحى حتى يستطيعوا أداءه الاداء الكامل المتفوق بسيطرة واحكام وفهم واحساس

وعليهم أيضا أن يتيقنوا من أن التأثير فى الناس رسالة لابد أن تكون لها غايتها لكى تصبح من الفن

الفن الفارغ لا يعدو أن يكون مجرد « لا فن »

حوار مع الحكيم

توفيق الحكيم : يشرح
مسرحه - فكره - فنه

فن المسرح فى جوهره هو فن صياغة لها شـــكلها « الخاص » ..

وقد شرقنا وغربنا ، ونحن نستعرض « الشـــكل » المسرحى ، واسسه المتطورة .. واستعرضنا اســاليب وصياغات مؤلفينا وفنانينا العرب .. وادركنا من خـلال هذا الاستعراض المتنوع مدى الارتباط الوثيق بين « الشكل » و « الفكر » فى المسرح ، وسنختتم هذه السياحة بالبحث فى « فكر » توفيق الحكيم من خلال الحوار المباشر معه ..

والحكيم ، ذلك العملاق صاحب الخمسين مسرحيــة غير عودة الروح ويوميات نائب فى الارياف وعديد القصص والتأملات .. قد أثرى حياتنا العقلية والفنية بأفكار هى فى الحجم اعظم ذخائر هذا العصر ، وفى الاثر .. من أوقعها على النفس ..

ان بعضا من كتبه ، وافكارا من أفكاره قد صنعت روح هذا الجيل الذى إضطلع بالمسئوليات الجسيمة الرائدة

فما هى أفكار الحكيم ؟ ما خلاصة فلسفته ؟

قبل أن أستعرض مناقشاتي له حول هذه الافكار .. عدت اتأمل فى كتابه « التعادلية » .. وهو المدخل الحقيقى الى فكره وفلسفته . قرأت له :

« لا ينبغى أن تؤخذ كلمة التعادل بالمعنى اللغوى الذى يفيد التساوى ، ولا بالمعنى الذى يعنى الاعتـــدال أو التوسط فى الامور »

« بل ان معنى التعادل هنا هو التقابل . والقوة المعادلة هنا معناها القوة المقابلة والمناهضة »

« ان التعادلية فى هذا الكتاب هى الحـــركة المقابلة والمناهضة لحركة أخرى »

وقرأت أن أهل الكهف « تصور التناقض بين الوجـــود التاريخى والوجود الواقعى » ـــ

وشهر زاد « تصور التناقض بين الوجود الفلســـفى والوجود الواقعى »

ان الحكيم لم تضنه فكرة اقوى من فكرة القـــوتين تتجاذبان الانسان ..

الانسان يتجاذبه العقل والقلب ..

الانسان تتنازعه القوة والحكمة ..

الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل . العقل بمنطقـــه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وايمانه

جزاء الشر ينبغى أن يكون بمعادلته بقسط من الخـير لا بالقصاص منه .. حتى يتم التوازن بين الاثنين

ولكن هذه القوى ـ على ما أفهم ـ ليست خارجة عن الانسان ، أو مستقلة عنه .. وانما هى من قواه الذاتيه . والانسان تحت رحمة القوتين الجاذبتين له يصـــــارع ليحقق التعادل والتوازن بينهما

كلما ناضل الانسان لترجح كفة على كفة .. اقتضـاه الامر أن يبدأ من جديد ليعيد التوازن بين الـكفتين . والتوازن النهائى عند الحكيم هو الجمود والموت والمستحيل الذى لا يتحقق .. فالانسان بذلك فى صراع متصل وبلا نهـــاية ..

هل أفرغ بذلك الحكيم الصراع من غايتـــه وقصده ، فطبعه بطابع الحتمية الميكانيكية الجبرية .. ولم يدع لحرية الارادة الانسانية من ثمرة ؟

ما الانسان .. فى رأى الحكيـــم ؟

مأسر قوته وما موقفه من الكون ومن قوانين الطبيعة ؟

هل الحكيم مفكر سلبى ؟ هل هو من أنصار بين بين؟ هل سلم عقله وروحه لعبث العبثيين الاوروبيين ، ويأسهم العقيم ؟

***

وأسئلة كثيرة أخرى طرحتها عليه ..

*** أحب أن أناقشك فى أركان فلسفتك التى صبغت اعمالك الادبية بطابعها الفكرى ولنبدأ بالتعادلية التى نعتبرها جميعا محور وخلاصة فكرك**

ـ أريد أن نتجنب تسميتها بالفلسفة . فأنا لست فيلسوفا ، هذه دعوى لا أدعيها .. أنا لست الا صاحب فكرة أو عقيدة ..

*** قرأت لك أن التعادلية هى ارادة التوازن بين قوتين تتجاذبان الانسان .. فبأى قدر تنطوى هذه الارادة على الصراع ؟**

ـ لتحقيق التعادل البيولوجى للجسم بالشهيق والزفير، أو بين أسباب الصحة وأسباب المرض ليس ثمة حاجة لشن الصراع . وانما يتحقق التعادل هنا تحقيقا ميكانيكيا . اما فى شئون العقل والحياة ، فلابد من الصراع لطلب التوازن . لقد قلت ان التعادلية عقيدة ضد الطغيان . ضد طغيان القوة على الضعف والعقل على الوجدان ، او الوجدان على العقل . ومع ذلك أراد البعض أن يوقعنا فى فخ الكلمة اللغوية (التعادلية) ليوهم غيره بأنها فلسفة سلبية ، وانها فلسفة امساك العصا من الوسط . ولعل كلمة التعادلية تغرى غير العارفين بهذا الفهم السطحى . ولو انى وجدت كلمة اخرى تجنبنى هذا الفهم الخاطىء لفضلتها . والذين يريدون فهم التعادلية عليهم بالبحث فيما وراء الكلمة من افكار مكتوبة ومحتملة بدلا من مجرد تأويل الكلمة على هواهم

*** انني اهتم بموضوع الصراع اكثر من أى شيء آخر . لانى أريد ان أبحث جوهر مسرحك ، ولصراع قوام المسرح . واذا كنت اناقش (التعادلية) فقد اخترت ذلك وسيلة وسبيلا الى الفن**

نحن نعرف أن التراجيديا اليونانية تصور الصراع بين الانسان والقدر ، بين ارادة الانسان وارادة أعلى ، قوة خارجيه جزافية ظالمة تتحداه وتبطش به . وأنت تقول فى التعادليه ان الارادة الاعلى ليست قوة خارجية تتحكم فى مصائر البشر ، بل هى قوانين خفيه تسير فى اتجاهها العادى فتتحد من ارادة الانسان . ولقد كان الاغريق يعتبرون ان القدر قوة طبيعية .. فهم لم يتمردوا عليها بل سلموا لها . انهم يشكون منها .. لايتهمونها ولا يشتبكون معها . فهل تقف موقفهم من الارادة الاعلى ؟

ـ القدر او الآلهة عند الاغريق كانت لهم أهواء البشر . لقد احسوا بالغيرة من اوديب لتكبره واعتزازه . وهذه الفكرة التراجيديه لا تصلح للقرن العشرين ، لان إنسان القرن العشرين أصبحت مسئوليته أكبر وأخطر

وعندى أن الانسان يخوض صراعا أقوى وأفظع . لانه لا يصارع قوة خارجة عنه بل قوة مرتبطة بذات وجوده المادى والمعنوى . وهى ليست قوة مادية بل معنوية غير منظورة تتمثل فى أن الانسان سجين اطار معين هو الزمان والمكان والغرائز والطباع . وأن ارادته ترتطم أحيانا بكل هذه العوامل ، وهو يحاول المروق منها . وهو ينهزم ، ولكنه لا يسلم بهزيمته أبدا . فمثلا يبدو تأثير الزمن علينا حتى فى أوضاعه المبتذلة المهينة .. عندما يشيخ المرء فانه يعجز عن أن يرجع حياته الى الوراء ليتلافى أخطاء ارتكبها وندم عليها ، أو يعيد النظر فى مواقف اتخذها ولم يرض عنها بعد ذلك .. ان أى ترزى يستطيع أن يعمل بروفة للبدلة ويعدل فيها كما يشاء ، أى فنان يستطيع أن يعيد صياغة اناء صنعه ولم يعجبه .. أن يصوغه من جديد بشكل أحسن ولكن حياتك المقدرة بزمن معين يستحيل عليك أن توقفها لتعيد صياغتها من جديد على شكل أحسن . فانت خاضع

بالضرورة لنظام صارم هو توالى الزمن

اهل الكهف استسلم بعضهم بقوله : « اننا ملك التاريخ. ولقد هربنا من التاريخ لننزل عائدين الى الزمن ٠٠ فالتاريخ ينتقم . » ومن لم يستسلم منهم لفظه آلزمن الحاضر وطرده لانتمائه للزمن الماضى

*** ان تراجيديا شكسبير تتميز بالصراع داخل النفس ، فكلتا القوتين عنده ، الارادة الحرة والقوة الباطشة ، تتمكن داخل نفس البطل . والذى كان قدرا عند الاغريق أصبح عند شكسبير اختلالا فى الخلق والطبع . فقيصر يقتله طموحه المتطرف ، وماكبث يقتله جشعه ، وهاملت يقتله تردده .. الخ . الصراع هنا ليس فيه قوة خارجة ويتسم بطابع اخلاقى بالتطرف واختلال التوازن فى الشخصية . فهل تراك اقتربت منه ؟**

ـ لا ٠٠ ان الصراع عندى أقرب للصراع عند الاغريق فهو لا يمت بصلة للاخلاق والشخصية . وانما هو صراع ميتافيزيقى أو فلسفى . انى لاعتبر الصراع فى تراجيدياتى استمرارا للفلسفة المصرية القديمة . لقد تصورت انه لو كان عند المصريين القدماء مسرح لكانوا اقاموا التراجيديا على نفس الفكرة التى اقمتها عليها . لقد كان الاغريق يصارعون القدر .. وكان المصريون يصارعون الزمن أو « الفناء »

*** الن نعود لهذه القوانين الخفية التي تحد من ارادة الانسان . وقد سبق أن آشرت الى أن الاغريق كانوا يسلمون للقدر تسليمهم لقوانين الطبيعة التي لا راد لها . فهل تسلم انت أيضا لهذه القوانين الخفية التي تحكم ارادة الانسان ، فلا تتمرد عليها ولا تدينها ؟**

ـ الواقع أن الإنسان تركيب عجيب ٠٠ منطقى ولا منطقى .. معقول ولا معقول . انه الوحيد ، من بين المخلوقات الذى يسلم تسليما منطقيا بأنه لا حياة له بدون هذه القوى التي يحاربها ٠٠ ومع ذلك لا يكف عن محاربتها . لقد كان المصريون القدماء يعرفون ان الموت شيء طبيعى ومحتوم ومع ذلك يحاربونه بكافة الوسائل التى فى أيديهم ، كحفظ

الجسد فى المقابر الضخمة والتحنيط ، وهم بدون شك كانوا يعتقدون انهم انتصروا على الموت . وفى رأيى أنا أيضا أنهم انتصروا الى حد ما ، لاننا مانزال نرى اجسادهم .. ولكن هذا لا يمنع من ان الموت نفسه قوة طبيعية لا ننكره ، ولا هم أنكروه ولكنهم مع ذلك قاوموه بوسائلهم. والعلم الحديث اليوم له محاولات اخرى اشد فاعلية فى مقاومة الفناء . ولكن ترى هل يكون الغاء الموت نهائيا — اذا افترضنا جدلا امكان الوصول لذلك — ادعى لراحة الانسان ؟ أم أن الموت قوة طبيعية لازمة للانسان ؟

الواقع ان الانسان لا يفكر فى الطبيعى والضرورى ولكنه يفكر دائما فى مقاومة ما يقف فى طريقه . فهو قوة مقاومة مستمرة سواء كانت هذه المقاومة معقولة ام غير معقولة . والدليل على ذلك فى مسرحيتى « رحلة الى الغد » . فبطلاها رجلان حكم عليهما بالاعدام وكل أمانيهما ان يتفاديا الموت . وفعلا تمكنا بالتطوع من أن يستقلا صاروخا ويهبطا على كوكب اخر لا يعرف الموت . اتضح لهما أنهما مقضى عليهما بالخلود . وعندئذ لاحظا أن الخلود هنا ما هو الا فظاعة غير انسانية لانهما اصبحا شيئا كائنا باستمرار والى غير غاية مثل أى جبل من الصخر او بحر المحيط او قوة من قوى الطبيعة التى لا تتغير ولا تتبدل .. أى كائن غير انسانى . وهنا اتضح لهما أن من طبيعة الانسان ان يكون هناك زمن يحدد اقامته ويغير ويبدل فى أحواله ، فحاولا الرجوع الى الارض ..

ولما عادا للارض كان حلمهما قد تحقق .. حلمهما فى ان الانسان يجد طعامه وشرابه بلا عمل ، وهو الحلم القديم قدم الزمن .. فتغير الهدف . واصبحت المقاومة عندهما

هى البحث عن العمل والمشقة وما كانا يسميانه شقاء فى الماضى ..

اذن فالانسان لا يحكم حوافزه ما نسميه بالطبيعى او بغير الطبيعى ، بالقدر او القوى المعادية أو الاطمـــاع والاهداف .. وانما حقيقته الخالدة هى انه مخلوقابدى الطموح ، وابدى الصراع ، ومقاوم باستمرار لحالتـــه الراهنة . وذلك يرجع الى أنه عقل متحرك ، وما دام كذلك فهو لا يمكن ان يسلم تسليما تاما لاى وضع من الاوضاع ولابد ان يتحرك فى مختلف الاتجاهات لانه اذا وقف انقلب الى شىء ، الى جماد ، ولم يعد انسانا

*** معنى ذلك اننا نحارب قوانين الطبيعة بقانون طبيعى فى خلق الانسان يجعله ذلك المقاوم بلا هوادة .. وقد اقتربنا بذلك فى ناحية من النواحى من التراجيديا الاغريقية**

ـ ربما ..

*** ولكنك مع ذلك تعتقد انه ليس ثمة نصر نهائى للانسان . وانت تقول ، ان التوازن والتعادل لايضمنه ويحققه الا ارادة انسانية حرة مطلقة .. ثم تعتقد ان الارادة الانسانية تحكمها ارادة أعلى من قوانين الطبيعة الثابتة فكيف تفسر ذلك ؟**

ـ الانسان حر داخل اطار ارادة أعلى . ما هى ؟ هى النظم التى تحكم وجودنا .. اطار الزمان والمكان وقوانين الوراثة والغرائز وقوانين المجتمع وقـــانون الاجتماع .. الخ ..

مأساة الانسان وعظمته فى نفس الوقت هما انه ،مع اعترافه بهذه القوانين ، يقاومها ويتحداها .. او يعمل كما لو كان يستطيع الفكاك منها ودحضها ، مع انه عقليا يدرك استحالة ذلك

*** هل تعتبر التعادلية فلسفة غائية ؟ انت تقول ان « الحيوان يدرك فكره الاقوى بينما الانسان يدرك فكره الإرقى » .. اليست فكرة الارقى فكرة غائية ؟ ومع ذلك فان ديمومة الصراع التى تؤمن بها**

تدخلنا فى تروس الدوائر المفرغة المظلمة .. كأننا نقاوم بلا ثمرة مرجوة

ـ التعادلية تقريرية وغائية فى نفس الوقت • تقريرية من حيث انها تبين لنا كيف تعمل قوانا ، وغائيــة من حيث انها حافزة للضعف والهزيمة على الا يستسلما للنتيجــة الحالية المؤقتة •• وتذكرهما باستمرار بأن فى داخلهما عناصر قوة خفية ستتحول الى ارادة انتصار . أو بمعنى آخر ان التعادلية عقيدة او فكرة ترمى فى النهاية الى الغاء الهزيمة والغاء الضعف والغاء القبح والغاء الشر أيضــا وقت اللزوم ، لانها لا تسلم بوجود هذه الصفات بصفــة نهائية ، بل تعتبرها غير نهائية . والذى يجعل هــــذه الصفات نهائية تحديد لغوى لفظي لا طبيعى . ان كل هذه الصفات نعتت بها حالة مؤقتة جدا للهزيمة التى تــلازم المتصف بها ، ولكن على امتداد الصراع ينقلب الميزان . والتعادلية تنبه المنهزمين والمستضعفين الى عدم نهائيــــة حالة الهزيمة والى وجود قوى اخرى معادلة او معوضة موجودة وجودا خفيا فى تركيب صفات الضعف . وهذا يجعلها غائية

* أنت تعتقد الآن أن فلسفتك غائية من حيث انها حافزة للمهزوم على المقاومة .. لتحقيق التعادل والتوازن فى الحياة بين الإنســان وما يصدمه ويضنيه

ـ اذا توقف التعادل نموت • الحركة بين كفتى الميزان هى الحياة ، هى جوهر التعادلية ، هى ارادة منع طغيان كفة على كفة

ان الواحدة تتغلب على الاخرى فى وقت ما ولكن لا وجود لما يمكن أن نعتبره انتصارا نهائيا لاحدهما • لان قــوى مجهولة تتولد فى الحال فى ضمير المنهزم تحفزه للمقاومة. وهذا ما أفسر به وجود النقيضين دائما وحتميــــة التعويض . كما فى المقاومة السلبية من قوة اكيدة . . وكما

تولدت المقاومة الشعبية من الهزيمة فى فرنسا ١٩٤٠ وفى مصر على مدى التاريخ • كما أن الانتصار يلد الانحلال •• وهكذا ••

الانسان متحد بالطبع ، ومقـــاوم لا يكل • ويريد أن يتفوق دائما على أسباب هزيمته وضعفه ويعوضهما

*** هل تعتقد أن ثمة علاقة بين عقيدتك فى التعادلية وعقيدة أرسطو فى الوسط الذهبى بين الافراط والتفريط . فارسطو يرى ان السعادة تتحقق فى اختيار الانسان للوسط العدل بين البخل والسرف .. مثلا ، بين الزهد والاغراق فى الملذات .. الخ**

ـ ليس بين عقيدتى وعقيدة « خير الامور الوسط » من صلة • فعقيدة ارسطو اخلاقية وسلوكية ، ولا شــــأن لها بما فى التعادلية من قضـــــايا ترمى لتفسير موقف الانسان من قوى الطبيعة والصراع بينهما

أكدت لى ما فى فلسفتك من غائية وحفز .. فهلا يتنـــاقض ذلك مع قولك فى كتاب تأملات فى السياسة : ((ان فكرة التقدم العقلى المطرد هى من اوهام العقل . الخط المستقيم لايعرفه غير العقل . أما الطبيعة فلا تعرف الا محيط الدائرة)) ؟

ـ لقد قصدت (الدائرة) من حيث الشكل لا المغزى • ان شكل التطور الحضــــارى لا يماثل الخط المستقيم ، ولكن يماثل الدائرة • كدائرة الفلك • حضارة المصريين القدماء كانت دينية وأعقبتها حضارة الاغريق العقلية ، ثم موجة الحضارة المسيحية الدينية، ثم عادت أوربا تبنى حضارة عقلية ومادية .. وهكذا التفكير المادى يعقبه تفكير روحى. وبرغم هذه الدورة المتصلة فالتقدم الى الامام أكيـــد . كأجرام السماء تدور فى فلكها و فى نفس الوقت تســـافر فى الفضاء • ان تكنيك التقدم عند الانسان يماثله تكنيك الرحلة الفلكية . ان الصاروخ المنطلق فى الفضاء نفســه يدور فى فلك خاص ، وفى نفس الوقت يتقدم وهو يدور.. فيجاوز فلكه الى فلك أوسع وأبعد

ان الدائرة فى عقيدتى ليست مجرد شـكل هندسى . انها دورة ·· كالنقلة من المادة للعاطفة ، ومن العقـــل للقلب ، فى حركة دائرة ومتقدمة فى وقت واحد

ان التقدم سواء أكان فى الطبيعة أو فى البيولوجيا أو فى الانسان أو فى أى من نواحى الحياة لا يحدث فى خط مستقيم ولكن بعد دورة كاملة أو فى دوائر متحركة . بمعنى أن الانسان ينمو من الطفولة وينضج وينتهى الى الشيخوخة ثم يرتد للطفولة مرة أخرى فى صورة بذرة طفل صـــغير ويعود وينمو الي النضج فالفناء . والتقدم يحدث بدورات الاجيال المتعاقبة . والا لو كان التقدم فى خط مستقيم لظل الانسان الواحد هو هو والشجرة الواحدة هى هى ملايين السنين . أن كل كائن يكمل دورة عمر تعقبهـــا بذرة جديدة . كل كائن يدور حول نفسه أثناء ســيره كالارض تدور حول نفسها وهى تسير ، كالاطباق الطائرة· وهذه الدورة هى التى تكفل النشاط المستمر والقـــوة الدافعة ··

وهذا هو المقصود بأن التقدم يســـير فى دورات وان الطبيعة لا تعرف الخط المستقيم بل محيط الدائرة

*** انى أعود فأراك تعانى من مطبات اللغة . فالكلمة الواحدة تحتمل اكثر من تاويل . ولعل هذا التفسير لما تعنيه (بالدائرة) ان يكون جديدا على كثرة من الناس**

ـ ان اللغة أحيـانا تلعب دورا سيئا ومضللا · خذ مثلا استخدام كلمة الضعف او القبح او الشر فى مقابل كلمة الخير .. ان هذا الاســـتخدام فى حد ذاته ينطوى على تضليل لفظى . لان الصفة لا يمكن ان تتحقق للموصـوف الا فى نطاق زمن معين

الضعيف لا يمكن ان يكون ضعيفا بالاطلاق على مـدى الزمن .. وانما هو ضعيف الآن ، أو امس .. لقـــد

أضاف اينتشتين بعد الزمن الى الابعاد الثلاثة المعروفة من قديم . فأصبح هذا البعد الرابع أخلق بتقريبنا من الحقيقة . وأريد أنا أيضا ان أضيف عنصر الزمن الى الطابع والصفة التى نطلقها على الشىء فنجعل بذلك فى مجال الصفات نسبية كنسبية اينتشتين فى مجال الرياضة والطبيعة ..

وقد سقطت التعادلية فى شباك ومطبات اللغة أكثر من مرة . ولولا ان اللفظ غير سلس لفضلت أن أسميها « المقاومية » ، فهى حركة المقاومة فى الميزان ضد رجحان كفة على كفة وطغيان كفة على كفة

والتعادلية هى حركة المقاومة نفسها وليست هى حالة التوازن الختامية التى تنتج عن المقاومة . فالتوازن موت وجمود ومستحيل

ان الالفاظ تجمد الصفات ولكن الصفات قابلة للحركة والتغير والتبدل فى الامتداد الزمنى . فعندما نقول مثلا كلمة هزيمة أو قوة أو ضعف ، فهذه الألفاظ تدل على صفة ما فى وقت ما . ولكن ما دام الزمن يتحرك تتحرك الصفة تبعا له . وهذا من جوهر قضايا التعادلية . الضعف لا يؤخذ على أنه ضعف مطلق .. وانما تتغير صفته فى الامتداد الزمنى لوجود بذور القوة الكامنة فيه والاخذة فى النمو . وهذه هى حركة التعادل أو مقاومة رجحان الكفة فى وقت معين ومكان معين . ان كل صفة تحمل بذور نقضيها داخلها

* أرى أننا فى بعض المواضع (فكرة الصراع المستحيل مثلا) قد اقتربنا من العبثيين ولعل مسرحيتك « ياطالع الشجرة » ان تؤكد هذه الصلة . ومع ذلك فانى اريد ان اناقشك فى هذا الموضوع نظرا لانى لا اعتقد ان الموقف العبثى يمكن ان يطرا على الانسان بدون مقدمات . ولعلى ان يكون لى رأى خاص فى مسرحية الشجرة سأناقشك فيه فى حينه . اما الآن فانى سأكتفى بمناقشتك فى الجانب الفلسفى الجوهرى

الذى يتميز به العبثيون .. فالعبثيون يبدءون من أن الانسان يقف ازاء الكون ويطرح عليه الاسئلة ، والكون صامت غامض لايجيب . ويرتبون على ذلك عبث الكون وعبث الحياة فما رأيك أنت فى هذه القضية ؟

ـ أنا أوافق العبثيين على تساؤل الانسان وصمت الكون. وهذه حقيقة قائمة منذ الازل لا أستطيع أنا ولا يستطيعون هم ادعاء اكتشافها .. الحقيقة ان الكون صامت وأن الانسان يلقى عليه بالاسئلة :من أنا ؟ ما مصيرى ؟ ما أنت؟ ما الحياة والموت ؟ .. الخ ، ولا جواب . والذى جدده العبثيون فى هذه القضية استنتاجهم أن الكون عبث لا معنى له . وهذا نوع مزر من التسليم

نحن نفترق عنهم فى أننا لا نحب أن نلقى على الكون هذه الاسئلة البشرية . ان الكون تركيب غريب جدا وبديع جدا وأنا اتمتع بهذا (الجهاز الفاتن) واقنع بمتعتى به عن طرح الاسئلة عليه

ان الانسان يضفى على الكون صفات مختلفة حسب منفعته وضرره .. ولكن هذه الصفات من خلق الانسان وحده وليست صفات للكون

لماذا نفترض أن تتكلم الشجرة ؟ !

ان الشجرة تثمر ولا تتذوق أريجها .. فهل هذا عبث منها ؟ انها تؤدى وظيفة هامة جدا بالنسبة لنفسها . أن الكبد السليم القوى فى جسم الانسان يحقق ذاته بأن يفرز عصارته بانتظام وبقوة غير محتاج ان يشعر او يدرك أن فلانا الفلانى يتمتع بهذا الكبد .. ان غاية الوجود هى أن يؤدى كل كائن وظيفته على أكمل وجه . فهل هذا فى حد ذاته عبث ؟ !

انى افترق هنا عن العبثيين واعترض عليهم

*** ولكنى اعتقد انه لا مفر للانسان من الاسئلة وانت نفسك فى تراجيدياتك الكبرى كنت تلقى الاسئلة ، وتنتظر الجواب ..**

ـ فليطرح الانسان الاسئلة وليتقبل معذلك صمت الكون. ان الاسئلة تطلقها الافكار . من الجائز ان بعض الافكار عبث بينما الحياة قيمة وقوة فى حد ذاتها . ان العبثيين أمام الكون أشبه بطفل صغير أمام رجل كبير . الطفل يحاول أن يصغر الرجل ويقصر قامته حتى يتسنى له أن يلعب معه . ان الكون أكبر منهم

انا اختلف معهم فى مذهبهم واجتهد الا يجرجرونى الى الشكل الفنى الذى اشتهروا به . انني أضع قدما واحدة عندهم ـ فى حدود الشـــكل لا الفكر ـ واتفق معهم فى صمت الكون وهو المبدأ الذى يبدأون منه . أما اتخــاذى شكلا مماثلا لما يتخذونه من أشكال فى يا طالع الشجرة أو غيرها فلم يحفزنى له غير أنى أريد أن أجرب وأن أجوب ميدان التجارب المتحررة من الاسس التقليدية فى الفن . ان الفن التقليدى فى كل مجال قد وصل الى ذروته التكنيكية ولا بد من عملية تطعيم جديدة للفن كما يحدث عندماتبلغ شجرة القطن أو المانجو ذروتها فى صنف من الاصناف لابد من تطعيمها بأنواع جديدة . ان الفن حركة ـ من حيث أنه يصدر عن العقل الانسانى المتحرك ـ ولكنى أختلف عن العبثيين فى الغموض والكآبه والرغبة فى التعمية والادهاش لمجرد الادهاش باستخدام معميات تثير صدمة وتحدث ضجة. كل هذه الاعتبارات أراها غير جدية ووقتية بحتة . لذلك أريد أن يكون البحث فى ميادين جديدة على أســــاس الوصول الى شكل نافع ويتميز بالسلامة والوضــــوح الذى يضمن للناس أن تتذوقه وتشارك فى فهمه . فمثلا .. لعلك لاحظت ان مسرحية « رحلة قطار » لا تتســم بالصعوبة فى الفهم . ما هو التجديد فيها ؟ انه الخروج عن المنطق فى اختلاف الناس على الوان الاشــارات

اختلافا لا يمكن أن يحدث . ولكن المشاهد يتقبله ويساير القصة ..

ورغم هذا الاختلاف بين الناس حول لون الاشـــــارة فالمسرحية مرتكزة على حقيقةربما لا توافق هوى العبثيين وهى أنه حين آذن القطار بالمسير لم يختلف أحــــد على التعلق به والركوب .. فاذا كان القطار يرمز للحيـــــاة فان الناس قد لا تتفق على ألوان اشارات الطريق ولكنها لا تختلف أبدا على التعلق بالحياة ومواصلة الســــير فى رحلتها

*** ولكن يا طالع الشجرة تتميز بدرجة أعلى من الغموض**

ــ ربما كان اختفاء الجثة فى الصفحة الاخيرة واختفـاء السحلية .. هو ما يســـمها بالغموض . ومن رأيى اذا مثلت ان تنتهى المسرحية ويسدل الستار عند ذهاب بهادر ليحمل جثة زوجته لدفنها ولا تبين ما اذا كان وجــدها أو لم يجدها ولا نشير أى اشارة لاختفاء الســـحلية .. هه .. ما رأيك ؟

*** انا شخصيا لا اشارك من اعترضوا على يا طالع الشجرة فى كل اوجه اعتراضهم . فمثلا الغاء الزمان والمكان .. أو ماعبرت أنت عنه فى ارشادات المسرحية بقولك : « لاتوجد مناظر فى هذه المسرحية .. ولا توجد فواصل بين الازمنة والامكنة .. فالماضى والحاضر والمستقبل كلها فى نفس الوقت .. والشخص الواحد يوجد أحيانا فى مكانين على المسرح ويتكلم بنفس صوته مرتين فى نفس الوقت .. » الغاء الزمان والمكان هكذا يمكن أن تجد له سندا فى المسرح الواقعى نفسه .. فى مسرحية « وفاة بائع متجول » لارثر ميلر . فقد كان بطلها ويلى تخاطبه زوجته مثلا فى بيتها بنيويورك بينما هو يخاطب اخاه الساكن فى الاسكا ويدور بينهما حوار زمنه فى الماضى البعيد .. وهكذا . وقد اســتند ميلر فى ذلك الى اصابة بطله بنوع من الشيزوفرانيا . وعندى أن كل انسان مصاب بدرجة من الدرجات بداء أحلام اليقظة . وانه يمكن للفنان « الواقعى » أن يحطم حدود الزمان والمكان لخدمة موضوعه الفنى حتى لو لم يستند الى مرض ما يعانيه بطله ..**

بل انى اجد عندك أنت نفسك وقبل « ارثر ميلر » مقدمات لذلك

التحرر من الزمان والمكان فى أهل الكهف وشهرزاد . لعل من المسير ملاحظتها ولذيها موجودة . فى الموضوع لا فى الشكل . فان مشليميا مثلا ينتمى لزمن مضى ـ ويخاطب حبيبة لعلها ماتت منذ ثلاثمائة سنة وعفت ، ولكنه يوجه الخطاب مع ذلك سميتها وشبيهتها الماثلة أمامه ، ويحاول أن يقفز حاجز الزمن ليواصل غرامه القديم بعد مئات السنين مع سمية وشبيهة حبيبته .. ومع أنك تناولت هذه المفارقة على نحو « واقعى فى التشكل » الا أنك كنت تستطيع أن تكسر هـذا القيد « التشكلى الواقعى » دون أن يختل موضوع المسرحية ودون أن تتعرض لشاحنات كثيرة

أما مسألة اختفاء الجثة واختفاء السحلية فها انت ترى الغاءهمـا حتى يسلس فهم المسرحية لجمهور أوسع وحتى تخلصها من الاغراق فى الايهام . وهذا يشجعنى إن اقول باطمئنان انك طالب تجديد لا طـالب تجريد ..

ـ مضبوط ٠٠ ان المدرسة التجريدية تخلق لنا امساخا لا بشرا . ذلك فيما عدا مسرحية « فى انتظار جودو »التى تقترب من الخلق السوى . أما الباقى فامساخ معمليـة طبخت فى المعامل ، وليست مستقاة من حياة البشر ، ولا تقوم بذاتها . فالفن لا يمكن أن يقوم على معميات . والفرق عظيم بين المستوى الفكرى العالى وبين طبخ أمســـاخ معملية . ومع ذلك فهم أفادونا فائدة أكيدة . أن التقليديين أمثال أرثر ميلر يلتمسون حجة كحجة الشيزوفرانيــا يحتجون بها وهم بسبيل تحرير الموضوع من قيود الشكل، ولكن التجريديين أوحوا لنا الا ضرورة لنلتمس للجمهور تعليلات منطقية لما نريد أن نظهره فى أعمالنا الفنيــة من أوضاع لا منطقية . وقد أستفدت أنا منهم ان أضــع أشياء لا منطقية كالمحقق الذى يرى أشــياء فى الماضى والحاضر (فى يا طالع الشجرة) وغير ذلك من الاوضاع المستحيلة واللامنطقية دون أن يستغرقنى تعليلهـا أو اخضاعها للمنطق ٠٠ اننى أضعها على أساس أنها أجزاء من العمل الفنى ، لان العمل الفنى يريد أن يؤلف صورة معينة دون تعليلات ٠ وما دمنا لسنا فى المسرح الواقعى ٠٠ فان

القارىء أو المتفرج سيعتاد ـ بعد الصدمة الاولى ـ على هذا الاسلوب اللامنطقى ..

ولكننى أنعى على التجريديين أنهم أفرطوا وبالغوا . وأنا اريد ان أقتبس من أسلوبهم بقدر ضئيل لأصنع مسرحا يكاد يوهمك بأنه طبيعى وعادى .. ثم بعد التأمل فيه ستجد ان عناصره غير تقليدية وغير طبيعية ولكنهاتدخل نطاق فهمك واستمتاعك وتذوقك دون ان تصدمك أو تثير فيك النفور من غرابتها المفرطة .. هذا ما أريد ..

أريد أن يحصل التطعيم بين التجريديين أمثال بيكت ويونسكو وبين التقليديين أمثال سارتر وكامى.. وأن نخرج من ذلك بنوع سهل الاستساغة والتناول ويتميز فى نفس الوقت بالجدة والطرافة ..

***

ماذا قال الحكيم ؟

لقد أكد ان التعادلية تعنى الصراع وتحفز على المقاومة

انها فلسفة تقريرية وغائية .. غايتها حث الضعيف على التفوق على ظروف هزيمته

ان تراجيدياته تقترب من التراجيديا الاغريقية فى أن الانسان يخوض صراعا فلسفيا لا صراعا يتعلق بالخلق والشخصية كما فى تراجيديات شكسبير ومع ذلك فالقوة المعاكسة للانسان والباطشة به فى تراجيدياته ليست قوة خارجة عن الانسان كما هى عند الاغريق وانما هى مرتبطة بذات وجود الانسان المادى والمعنوى وتكمن داخل نفسه كما هى عند شكسبير

قال أن الانسان يشن صراعا مستحيلا لا نهاية له . ان عظمته ومأساته هى استحالة الصراع الذى يشنه وهو عارف باستحالته

قال ان ارادة الانسان الحرة هي من قوى الطبيعة .. وتحدها ارادة اقوى هي قوانين الطبيعـــة المحتومة : من زمان ومكان وغرائز وقوانين الاجتماع... الخ أكد الحكيم تطور الحياة المتصل وتقدمها

انه لا يوافق العبثيين على فلسفتهم ، ولا يقر لهم خلق امساخ معملية فوق منصة المسرح. ولكنه يريد أن يقتبس من مغامراتهم في « الشكل الفنى » فنا يتميز بالسهولة والجدة .. ووافقنى على أنه يصبح بذلك طالب تجديد لا طالب تجريد

في هذه السياحة الفكرية والفلسفية لخص لنا الحكيم خطوط فكره في مساحة محدودة المعالم .. ووضع هذه المساحة في موقعها على خريطة العالم الفلسفية

وانطلاقا من هذه الارضية الفلسفية كتب توفيق الحكيم مسرحه . وبعد اســـتعراض فكر الحكيم ننتقل لكشف اصول مسرحه الفنية ، أسرار صنعته وأركان أســلوبه الفريد ..

مسرح توفيق الحكيم

*** ما مذهبك فى المسرح ؟ هل مسرحك عقلى ؟ هل هو فكرى ؟ .. هل هو مسرح أقنعة ؟**

ـ مسرحى فكرى ، حيث أنه يقوم على أفكار ، ويمكن أن تعتبره عقليا ، وهو بالضرورة رمزى ، لان الرمز ما هو الا انعكاس لعمومية الفكرة التى تقوم عليها المسرحية ، وهذه الفكرة تتعدى فى مفهومها حدود وقائع الشخصية وصفاتها فهى ليست فكرة تخص أحد الناس ، دون غيره ولكنها رمز لطابع بشرى شامل .. كفكرة صراع الانسان مع الزمن مثلا « فى أهل الكهف »

والشخصية عندى نمط شامل هو وليد العقل لا النقل من بين عامة الناس . الشخصية عندى شاملة من حيث انها تمثل جمهرة كبيرة من الناس وتتكلم بلسانهم . فمشلينيا بطل اهل الكهف لا يتميز بصفات ينفرد بها عن سائر الناس ، وانما هو يمثل كل الناس فى مواجهتهم ومقاومتهم للزمن ونضالهم بأمل تحقيق الحياة خارج الزمن .. اى الخلود . فاذا شئت فقل ان مسرحى بذلك مسرح أقنعة . ان مسرحى خليط من كل هذه الصفات . لان أساس المسرح من حيث الشكل هو المسرح الاغريقى . والمسرح الاغريقى يتميز بكل هذه العناصر

*** لقد قيل ان ابسن يبدا فى مسرحياته من القضية لينتهى الى البشر بينما كان تشيكوف على العكس يبدا بتصوير الناس ويخلص من ذلك الى القضية الفكرية وقيل ان مسرح تشيكوف بذلك مسرح انسانى وواقعى فى حين أن مسرح ابسن مسرح فكرى . فهل ترى غير ذلك ؟**

ـ ان (المسرح) فى رأيى (هو القضية) . ولو أنى ميال للحرية فى الفن ، وأفضل أن يتسع الفن لكل مذهب وأسلوب .. أنا ضد الحصر من اى نوع بطبيعتى ، ولكنى

أريد ان انبهك الى انه لا الكثير من مسرحيات شكسبير ولا الكثير من مسرحيات تشـيكوف تعتبر من فن المسرح الحقيقى بمعناه الصارم . ان المسرح الحقيقى بهذا المعنى الصارم هو سوفوكليس وابسن وشو ـ الى حـد ما ـ وسارتر وكامى وكل من أعتبر القضية هى قوام المسرحية التى منها يبدأ . القضية هى التى تقوده الى الشخصية وليس العكس

(المسرح قضية) .. بشكل حاسم قاطع . ان منصة المسرح هى حلبة (مصارعة الثيران) .. ولكن المصارعة هنا ليست مصارعة مادية بين انسان وثور ، فى انتظـار حل أو لا حل للمأزق . نحن أمام مصارعة بين قوتين . ولا يهمنا فى الزمن الوجيز المتاح والمقدر بساعتين أن نعرف تاريخ حياة الثور ولا تاريخ المصارع ولا أن نعرف طرفا من حياة هذا أو ذاك .. أو ظروفهما وشخصيتهما لا .. لا يهمنا الا صراع القوتين المحتدم . كذلك عندما ننتقل الى المسرح .. انما ننتقل الى حلبة مصـارعة من نوع أرقى ، هو مصارعة الافكار والعواطف . الذى يهمنـا فحسب هو موقف الانسان فى مواجهة مشكلة كبرى أقوى منه أو فى الاقل ند له .. يقارعها بأقوى ما للانسـان من سلاح وهو العقل والفكر والطبع المقاوم

ان شيكسبير خرج عن هذا النطاق الصارم أحيانا ليعرض حدوتة جميلة جدا كاملة التفاصيل . فهو قصاص مسرحى أو روائى مسرحى وشاعر قصصى يعرض فـوق منصة المسرح عملا رائعا متبرجا شائقا ليتابعه الناس ، فهو (باستثناء هاملت) انما يعرض شخصيات وحكايات هى من صميم فن الرواية أو القصة . والدليل على ذلك نجاح اعماله نجاحا ساحقا عندما حولها تشارلز لام الى قصص راجت رواج المسرحيات واكثر

إما هاملت فهي تعرض قضية فكرية وفلسفية •• نعم ، ولكن شيكسبير مع ذلك باعدها كثيرا هي الاخـــرى عن الاطار والقالب السوفوكليسى المركز • وعن الإطاروالقالب التراجيدى لخلفاء سوفوكليس فى القرن السابع عشر : كورني وراسين • هؤلاء كانوا يركزون القضيه العمليـــة والعاطفيه • وهذا التركيز هو أهم ما يميـــز فن المسرح التراجيدى ••

ان تشيكوف هو الاخر لم يكتب مسرحياته على النسق التراجيدى • ان مسرحياته تكاد تكون قصائد نثريـــة للحياة اليومية وضعت فوق منصة المسرح

المسرح اذن فى جوهره قضية ومشكلة وليس حدوته ولا عرضا لحياة • فمن يريد أن يحكى حدوته ويعــرض حياة فليكتب قصة أو رواية • لكن ما يعرض لنا على مسرح هو مشكلة أو قضية منها تنبع رؤيا الحياة وتتكون ملامح الشخصيات • ان الكاتب المسرحى يبدأ من القضية الى الحياة بينما القصاص أو الروائى يبدأ من الحيـــاة الى القضية التى قد توجد فى روايته وقد لا توجد •• وهــذا هو الفرق بين أبسن وتشيكوف • أبسن كاتب مسرحى فى جوهره • وتشيكوف كاتب قصصى فى أعمـــاقه • وكلاهما بعد ذلك استخدم المسرح • وهذا هو الفرق أيضا بين سوفوكليس وشيكسبير • الاول شـــاعر مسرحى والثانى شاعر قصصى تأثر بقصص بوكاشيو وبلوتارك فى قصص السيرة التى كتبها •• أكثر مما تأثر بتراجيديات الاغريق وربما كان شيكسبير أمتـــع وأعجب وأرحب من سوفوكليس ولكنه أقل منه قدرة على التركيز الدرامى

ومع ذلك فلابد أن نفطن الى أن الفكر ليس الخطـــابة والقضية ليست المناظرة والمناقشة المملة كما عنـــد برناردشو أحيانا ••

ولا ينبغى أن ننسى الفن ويجب ألا نخلص المسرح من مباذل الحدوته والفرجة السهلة ، ليقــع فى المنــاظرة المملة • أن العاصم من ذلك هو الفن • هو الشــكل الفنى وما يقتضيه من مواهب • أيمكن لاى جزار أن يصــارع الثور ! ان مصارعة الثيران فن عظيم يتدرب له الميتادور والثوريادور سنين طويلة وتلزمه مواهب عديدة ليجعل المصارعة متعة خالصة • وكما لا يمكن لكل جزار أن يكون مصارع ثيران لا يمكن لكل مناظر أن يكون كاتب مسرح

*** فلنتوقف بعض اللحظات عند مسألة « الشخصية » فوق المسرح • كيف ننكر على الفنان بناء مايسميه النقاد عامة بالشخصية ((الفنية)) اى التى تتميز بعدد لا نهائى من الاوجه والسطوح تمييزا لها عن الشخصية المسطحة ذات الانفعال الواحد واللون الواحد والصفة الواحدة ؟ لقد دأب دارسو المسرح على دراسة سلامة بناء الشخصية ودرجة اقتنــاعها او واقعيتها •• الى آخر هذه التحليلات والبحوث • فهل كانت مثل هذه الدراسات ضربا فى الفراغ ؟**

ــ الشخصية المسرحية تتجلى من خلال القضية والمشكلة• ان الروائى هو الذى يصنع الشخصية أولا ثم ينسج من حولها الحوادث والمشكلات والحيوات الكثيرة والاطــارات المختلفــــة والبيئات •• حتى تراها أمامك فى أطوارها المختلفة وأدوار حياتها فى العمل والبيت والشـــارع • ولكن الشخصية المسرحية تتخلق من القضية والموقف • فنحن لا نعرف من أوديب الا ما له علاقة بقضيته ومشكلته •• أما ما عدا ذلك ففى الظلام لا نراه ولا نعلمه

*** الا يجرنا ذلك الى نوع من التجريد فى بناء الشخصية او على الاقل الى ذلك النوع من الشخصيات الذى يرمز لافكار معينة ولا يتحلى بصفات للبشر •• أى أن تكون الشخصيات رموزا فكرية بلا لحم ودم بعد أن جردناها من ظروف البيئة والروابط الاجتماعية العادية واضواء المواقف الصغيرة التى تتميز بها الحياة اليومية**

ــ المسرح الفكرى ليس مسرحا مجردا شأن مسرح التجريد بين بيكيت ويونسكو وأمثالهما ، المسرح الفكرى تقليدى

فى بنائه وفى رسم شخصياته ومنطق هذه الشخصيات والحوادث التى تتحرك فيه • ولكن العنصر المميز للمسرح الفكرى هو أن ما يشغل الشخصيات ليس موضوعا عاطفيا أو نزاعا ماديا •• بقدر ما هو قضية فكرية • هذا ما نجده فى مسرح أبسن وبيرانديللو وبرناردشو وجيرودو وستريندبرج وسارتر وكامى وشيكسبير الى حد ما فى هاملت • الذى يهمنا وكان يهم النقاد على مدى الاجيال فى شخصية هاملت ليس هو عاطفة كراهية زوج أمه أو حبه لاوفيليا ، فهذا الحب على شاعريته الرقيقة لم يكن المقصود بالمسرحية ولم يستلفت النظر بشكل أساسى • وانما الذى قامت عليه المسرحية هو قلق هاملت الفكرى نفسه وشكه المضنى ومناقشته للحقيقة والوهم وحيرته ازاء ما أطلعه عليه الشبح وتساؤله المعذب عما اذا كان الشبح من الحقائق التى يمكن أن يعول عليها فى اتخاذ موقف حاسم أم أنه مجرد خيالات • وكان لابد أن يموت هاملت فى النهاية لانه ما كان له أن يعيش مترددا بين الوهم والحقيقة • ان شخصية هاملت فى هذا الجانب أقرب للفلسفة والفكر ، وأنسب للبناء التراجيدى

ان كل مسرح محترم لابد أن يكون أساسه فكريا • فحتى تشيكوف وهو يعرض (الحياة) على المسرح ـ بل وفى قصصه ـ فان فكره الاجتماعى ، والفلسفى ، والانسانى هو العصارة الخفية التى تجرى داخل أعماله وأشخاصه • ما من عمل فنى عظيم على الاطلاق الا وكان الفكر نخاعه • بدون الفكر يصبح كل عمل فنى مجرد امتاع رخيص

*** هل استطيع أن أقول أن أهل الكهف والسلطان الحائر وشهرزاد من المسرحيات التى التزمت فيها بهذا المعنى الصارم ؟**

(ابتسم الحكيم ابتسامة الرضا والموافقة ، وقال لى :)
ــ يجوز • ربما • يصح

*** بماذا تعلل نجاح السلطان الحائر ذلك النجاح الواسع الذى لم تحظ به اهل الكهف ؟**

ــ لذلك سبب واحد واضح •• هو أن قضية السلطان الحائر أبسط وفى متناول أفهام الجمهور الواسع • سلطان حائر بين القوة التى تفرضه وتعرضه والقانون الذى يتحداه ويحميه • بينما قضية الصراع مع الزمان فى أهل الكهف قضية صعبة غير ملموسة للجمهور الواسع . والا .. فهل تعتقد أن السلطان الحائر نجحت مثلا للسبب الذى تنجح به المسرحيات التى تعتمد على الفرجة ؟ •• هل يرى الجمهور السلطان فى مباذله أو فى الميدان بكامل سلاحه يبارز الخصوم ؟ أين اذن يكمن سر نجاح السلطان الحائر •• مع أن أسلوبها أقرب للمناظرة المباشرة الصريحة من أهل الكهف

ان الموسيقى وملابس السلطان لم تكن هى العنصر الممتع للناس ، وانما القضية • بطل المسرحية هو القضية التى استحوذت على الناس • وهذا هو المثل الذى يوضح ما أقول

ان المتعة المسرحية تختلف عن متعة السينما أو الغناء أو القصة أو الرواية • انها متعة مستمدة من طبيعة المسرح الخاصة

*** هل تعتقد بتقسيم التاليف المسرحي الى نوعين : المسرحيات الاصلح للكتب والقراءة والمسرحيات الحافلة بالحدث والحركة والشخصيات •• وهى الاصلح للمنصة ؟**

ــ اذا كانت هناك مسرحيات أصلح للكتب والقراءة على نطاق واسع فهى مسرحيات شكسبير نفسه • وليس هذا رأيى أنا وحدى •• أنه رأى الكثيرين من النقاد ايضا

اذ انهم يجدونه امتع في القراءة

والدليل على أن مسرح شـــــيكسبير أقرب للرواية المقروءة هو تعدد المناظر الهائل كأنها فصول رواية ٠وهذا لم يكن ليخطر على بال سوفوكليس أوموليير

* **هل تعتقد ان ثمة مسرحا فكريا اخلق بالقراءة ولا يناسب المنصة ؟**

ـ في الحقيقة لا يوجد المؤلف الذى يضع في رأســه كتابة مسرحية للقراءة فقط دون التصور الاخراجى لهـــا على المسرح مهما كانت صعوبته ٠ حتى ذلك الذى يطبـع المسرحية أولا للقراءة هو في الحقيقة يقصد اخراجها فى رأس القارىء ما دام اخراجها على المسرح غير ميسر لسبب من الاسباب ٠ ولكن الذى يحدث هو أن المؤلف يختـــار لفكرته أو لقضيته القالب المسرحى الذى لا يناسبها غيره

ان كاتب المسرح الحقيقي يبدأ والقلم فى يده بنيـــة أن يعرض مشكلة وهذه المشكلة يجب أن تقف متجسدة نابضة أمام ناس سيتابعونها بحرارة ويندمجون فيها ٠٠

ان المؤلف المسرحى هو ذلك الذى يعرض لنا عرضـــا مشابها لذلك الرجل الذى نراه ينتحى ناحية على قارعـة الطريق ويخرج من جرابه سلسلة يقيد بها نفســـه ثم يحاول حلها ٠٠ لابد أن تتجمع حوله المــــارة فى مكانه الضيق المتواضع على الرصيف وهم مشوقون جدا لمشاهدة ذلك الصراع بين الرجل والسلسلة ٠٠ وهذا هـــو روح المسرح وحيزه ومكانه ومتعته ٠ الناس يتمتعـــون بذلك العرض ولكن لا يهمهم اسم الرجل أو صفته أو تاريـــخ حياته ٠٠ عندما نريد أن نعرف اسم الرجل وصفته وبيئته وتاريخه فاننا نذهب الى الكاتب الروائى والقصصى ليحكى لنا ذلك ٠٠ ولا نذهب لكاتب المسرح

اطلع الدكتور حسين فوزى على هذا الحوار فحفزه الحديث الخاص بشكسبير لمراجعة الحكيم على هذا النحو :

« سألت الاستاذ الحكيم : لا احسب قولك هذا يمثل رايك الذى اعرف عنه الكثير .. رجائى أن توضح لى هذا بنفسك ، لا سيما وقد أضفت الى اجابتك تلك قولك : « والدليل على ان مسرح شكسبير أقرب للرواية المقروءة هو تعدد المناظر الهائل كانها فصول رواية قصصيه ، وهذا لم يكن ليخطر على بال سوفوكليس أو موليير » . نعم انك صححت الرأى بقولك انك « لا تعتقد بوجود مؤلف يضع فى راسه كتابة مسرحية للقراءة فقط دون المقصود الاخراجى لها على المسرح » وشكسبير هو ما نعرف : رجل مسرح قبل كل شىء ، لا يكاد ينطلق قلمه الا ليصور كل شىء للمسرح . ولا يمكن تصور ان شكسبير قد كتب ليقرأ فحسب ..

ـ الحكيم : بدون شك ، وهذا رأيى بالبداهة ولا يمكن عقلا ان يكون غير هذا . بل اكثر من ذلك أقول أن شكسبير لم تخطر له قط فكرة أنه مؤلف سيقرأ ، لانه هو نفسه كان يعيش ويتنفس بين كواليس المسرح ، ويكتب المسرحية ليسلمها فى الحال للممثلين ولنفسه ، وكان ممثلا . اما طبعها وقراءتها فلم تكن وقتئذ مما يحفل به ، وهذا مصدر أختلاف بعض النصوص فى الطبعات الاولى ، فالواضح انها طبعت من نسخ الممثلين فشكسبير اذن كتب مسرحياته للمسرح اولا واخرا ، وراعى فيها كل مايمكن ان يجتذب الجماهير على اختلاف انواعها وطبقاتها . وهذه المراعاة لامزجة الجماهير المختلفة هى التى جعلته يحشد فى مسرحياته كل مايعتقد انه يرضى كل الاذواق من الدهماء الى العظماء الى المفكرين . فمسرحياته عالم مكتمل ، قائم بذاته ، كل هذا لاشك فيه . ولكن الذى حدث بعد ذلك خصوصا فى العصور الحديثة هو اكتشاف شكسبير ككاتب له متعة فى القراءة تعادل متعته فى التمثيل . وفى أيامنا هذه على الاخص ، بل فى نظر المعرفة الحديثة أصبحت قراءته ضرورية ، لعمق

مالوحى به من دراسات نفسية ، وافكار فلسفية واجتماعية ، فضلا عن التصورات والتعبيرات الشعرية التى تتطلب الدقة فى استيعابها حتى على الانجليزى المعاصر .. آه

والواقع ان الموضوع يحتاج الى توضيح كثير ، بل ان التوضيح والتفسير يجب أن يشملا قبل كل شيء كلمة المسرح ، ومعنى قولى « المسرح الحقيقى » .. فانا أعنى بالمسرح الحقيقى هنا المسرح الاصلى بمفهومه القديم الصارم الذى نشأ عند الاغريق ، وليس معناه المسرح الاكثر قابلية للتمثيل . لذلك فان قولى بأن ابسن فى نظرى اقرب الى المسرح الحقيقى الصارم من شكسبير ليس معناه انه اكثر قابلية وجاذبية على الخشبة امام الجماهير ، بل العكس هو مايحدث تماما ، فان شكسبير لا يقارن بأحد فى قابليته وجاذبيته للتمثيل أمام الجماهير ، فى حين ان ابسن لايروق للكثيرين ، بل ان فيه احيانا تطويلا واملالا فى بعض الحوار تتوقف معه الحركة على المسرح . ومع ذلك فان ابسن عندى بتركيزه الدرامى حول القضية والفكرة أقرب الى روح المسرح الحقيقى القديم الصارم من شكسبير الذى خرج من هذا النطاق الى نوع جديد من المسرح يزخر بكل انواع المتعة والفرجة . فمسرحه حانوت الف صنف : فيه الامتاع القصصى والشاعرى والفكرى والانسانى بل والترفيهى ايضا . وهو لهذا كما قلت متفوق تفوقا بارزا فى العرض التمثيلى امام مختلف انواع الجماهير . على أنه من جهة أخرى قد اثبت كما قلت ايضا تفوقه كذلك فى القراءة الى حد أبعد ، وعند جماهير أضخم

لنفس هذه الاسباب ، وعندما قلت :

« أن شكسبير أمتع وأعجب وأرحب من سوفوكليس، ولكنه اقل منه قدرة على التركيز الدرامى » .. لم يكن لهذا القول علاقة بالقابلية للتمثيل والامتاع والنجاح على المسرح ، الذى تفوق فيه شكسبير بلا منازع . وأظن ان قصدى هذا مفهوم . أن مسرح سوفوكليس كالمعابد الاغريقية بأعمدتها المتزنة الراسخة ، فن مركز فى شكله ومضمونه .. فى حين ان مسرح شكسبير مثل الكنائس القوطية ، يتوه فيها الخيال بين أبراجها المديدة ، ونقوشها العديدة ، وتماثيل القديسين فيها والصالحين تجاور أصنام الابالسة والشياطين . كل شيء يمكن ادخاله فى عالم شكسبير . انه فى عصره كان يحشد لجمهوره كل فرجة ومتعة القصة والسينما والسيرك ، وفى المسرحية الواحدة أحيانا . انه فعلا معجزة مسرحية ، وهو حقا خلاصة الانسانية كلها فى فنه . ومع ذلك فأنا شخصيا افضل سوفوكليس ، وانا حر فى مزاجى . انا اريد من المسرح ان يدخلنى فورا فى لب القضية . فأنا لا أطلب منه المتعة أيا كانت ، وانما اريد منه متعة خاصة به هو وحده صاحبها (دون القصة والسيرك والسينما) المتعة التى يستطيعها هو وحده ، وهى الصراع المركز داخل فكرة وقضية . هذا رأيى الخاص اذا شئت . انى أفضل الفن الفرعونى والاغريقى على الفن القوطى . ان التركيز الدرامى الشديد عند سوفوكليس يبهرنى . وعندما حاولت فى « أوديب » ان اضيف عمودا واحدا على معبد سوفوكليس اختل فى الحال التوازن فى مسرحيتى كلها ..

ولكن هل يستطيع الفن المسرحى فى زماننا أن يلتزم بروح المعبد الفرعونى او الاغريقى ، بكل هذه القوة

والصرامة ؟ انا نفسي لم أستطع ذلك ، وصرت أهيم في كل واد ، حتى وادى اللامعقول ، ولم يبق لى الا الحسرة على نفسي والاقرار بعجزى ، وصلاة الاعجاب الصامتة فى معابد العباقرة الاقدمين »

انتهى حوار الحكيم مع الدكتور حسين فوزى

***

نعود لمناقشة الحكيم فى مسرحه على ضوء ما سماه « بروح المسرح الحقيقى »

*** هل يعنى رأيك فى روح المسرح الحقيقى ، او روحه الاغريقى الاصيل، اى رفض للاتجاهات الاخرى التى اتجه اليها المسرح ؟**

ـ أحب ألا يفهم من كلامي معنى الرفض أو التقييد . فأنا كما قلت لك ميال للحرية فى الفن . ولكنى أعرض هذا الرأى كى نحسن فهم الاتجاهات المختلفة فى فن المسرح، ولكى ننطلق فى افاق التجديد والتنويع ونحن ندرك أصول هذا الفن القديم ومنابع جماله الخاص

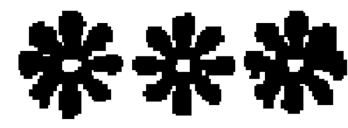
*** اود ان اسألك الآن عن مسرحيات لك لم تلتزم فيها بهذه الروح الاغريقية الصارمة وبخاصة المجموعة الشيقة التى سميتها مسرح المجتمع ..**

ـ فى بعض مسرحياتى لم ألتزم فعلا بما وصفته بالروح الاغريقى .. بل كنت أقرب الى تصوير بعض شخصيات المجتمع ونقد بعض مظاهر حياتنا العصرية . ذلك أن من واجب الكاتب المسرحى فى عصورنا الحديثة أن تكون له مهمة المساهمة فى تصوير ونقد وتطوير وتسجيل مظاهر وتحولات المجتمع الذى يعيش فيه ويرى انه فى حاجة الى قلمه كمواطن يساهم فى الاصلاح

*** سينقلنا هذا الرأى الى مسرحتك الهامة « شمس النهار » .. التى اعتبرها الكثيرون نموذجا راقيا للمسرح التعليمى عندنا .. وتستمد هذه المسرحية اهميتها من انها عمل فنى رائع من الناحية**

الجمالية ، وواضح فى هدفه الاجتماعى الاصلاحى فى نفس الوقت . فهل ترى لهذا الاتجاه المسرحى اهمية خاصة فى الوقت الراهن ؟

ـ فى الواقع ان المسرحية التعليمية فى نظرى ، وربما كل فن تعليمى اصلاحى هو فن ضرورة .. أى أن الفنان يصدر فيه عن ضرورة اجتماعية او اصلاحية ويشعر ان من واجبه أن يقوم به . والمهم فيه ان يكون القيــام به صادرا عن ارادة حرة وشعور صادق . على أن هذا النوع من الفن ، على الرغم من أهميته وضرورته وعظم نتائجه احيانا من الناحية الاصلاحية والاجتماعيــة ، فانه من الناحية الفنية يحتاج الى حذر شديد . فان الاكثار منه أو الافتعال فيه قد يؤدى الى مزالق تخرجه عن نطــاق الفن الجيد او عن نطاق الفن اطلاقا



ان فى رأى الحكيم عن (روح المسرح الحقيقى) روح تضحية لان ذلك الرأى لا ينطبق على جميع مسرحياته

وأحب ألا يضجر فنانونا الشبان بهذه الدعوة المخلصة التى يدعونا بها كاتبنا المسرحى الكبير الى التبصر بروح المسرح الاصيلة وجوهره الاول ..

ولا أجد أنا فى رايه ماينافض نزعته الاكيدة للتجــديد والتحرر من القيود التقليدية للفن ـ التى عبر عنها فيما حدثنى عن (ياطالع الشجرة) ..

فأى تناقض بين أن نفطن لاصل فن المسرح وأن ننزع للتجديد ؟

أن فهمنا السليم لجوهر فن المسرح .. ادعى لان يوجه نزعتنا للتجديد وجهة قويمة وسليمة

ان بعض الناس يظنون ـ لنجاح فنون السينما والرواية والقصة ـ ان المسرح يجب ان يتطور فى اتجاه هــذه

الفنون .. وهذا ظن خطير . فالمسرح فى مثل هذه المباراة لن يصادف الا الهزيمة والضياع . يجب أن يظل المسرح هو المسرح •• كى يعيش

ومهما كانت للسينما من متعة للحس يجب أن تبقى للمسرح متعة الفكر .. كى يصمد للمباراة

الحكيم ينفى أن مسرحه « الذهنى » كتب للقـــراءة لا للتمثيل . ان اتجاه كلامه يشير الى ذلك . لقد اعتبر مسرح شيكسبير هو المسرح الخليق بالقراءة بينما اعتبر المسرح الفكرى •• مسرح القضايا الذهنية •• مسرح ابسن وشو وبيرانديللو وجيرود وستريندبرج وسارتر وكامى هو الذى يلتزم بروح المسرح الحقيقية

وأى غرابة فى أن ينطوى حديثه على هذا المعنى - رغم تجنبه الحديث المباشر عن مسرحه فى هذا الصدد ؟ أى غرابة فى ان يكون هذا هو رأيه أو رأى كثيرين غـيره .. اذا كانت منصة المسرح لا تنوء بانتاج مسرح العبث الذى لا يتصف فحسب بانه مسرح عقـلى وذهنى بحت ، بل تنبنى افكاره العقلية والذهنية الصرف ايضا على المنطق المعكوس والتأمل اللامعقول ..

فأولى بالمسرح الذهنى « المعقول » الا تنوء المنصة بحمله

فهرس

	صفحة
تقديم	٧
ما هو فن المسرح ؟	٩
وظيفة الديكور	١٢
الخلفية التشكيلية	١٩
الممثل	٢٣
أدوات الممثل	٢٨
تيارات فى فن التمثيل	٣٥
خواطر أخرى فى فن اللعب	٤٣
فن الضحك	٤٧
الريحانى .. فنان المسرحية الواحدة المؤثرة	٥٥
الكوميديا ديللارتى	٦١
الفرافير .. بين المصرية والانسانية	٦٧
الكوميديا الواقعية الحديثة	٧٣

صفحة

فن توفيق الحكيم	٧٨
التراجيديا	٨٧
لماذا يموت قيس بنى عامر ؟	٩١
المسرحية	١٠١
عناصر التأليف المسرحى	١٠٦
الحوار	١١٠
لغة الحوار	١١٣
الفصحى فى المسرح	١٢٠
المونولوج المسرحى	١٢٥
الحائط الرابع	١٢٩
المسرح من زاوية نظر حديثة	١٣٣
عودة الى العقل المحصن	١٤١
هل شكل المنصة ثابت ؟	١٤٦
المخرج	١٥٠
أضواء وظلال	١٥٤
العنصر الفكرى للمسرحية	١٥٩
توفيق الحكيم يشرح :	
مسرحه ــ فكره ــ فنه	١٦١

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيــــة :	السيد نخلة سكاف
جــــــدة :	السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣
البحــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١
البـــرازيل :	Mr. Miguel Maccul Cury, R. 25 de Marco, 994, Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRAZIL
ســـنغافورة :	Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit Al Maktab Attijari Assharat, P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجلترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU 7, Bishopostthorp eRoad London S.E. 26 ENGLAND

هـذا الكتاب

عاش فن المسرح ألفين وخمسمائة سنة يلهم العقل ويلهب الوجدان . ومع أن المتفرج يعرف دائما أن دموع الممثل غير حقيقية ، وأن هزله وجده غير صادقين ، فان المتفرج يتأثر بكل هذا تأثرا حقيقيا وصادقا !

ماسر هذه اللعبة السحرية ؟ ما الصدق فيها وما الخداع ؟

ماهى وظيفة الممثل وسر صنعته الغريبة ، ما وظيفة المخرج وما وظيفة الديكور ؟

ان هذا الكتاب يعرض بأسلوب بسيط وشيق الكثير من أسرار لعبة المسرح ، ويكشف للمتفرج والهاوى عن خباياه .. ويتيح للمشاهد بذلك أن تكون متعته بالمسرح أكبر ، ويتيح للهاوى أن يكون حبه لفن المسرح أعمق ..

كما أن الكتاب يلقى أضواء على أساليب الجيل الجديد من كتابنا المسرحيين العرب ، وعلى اتجاهات المسرح العالمية الحديثة .. بالاضافة إلى دراسة خاصة عن توفيق الحكيم .. وهذه الدراسة تعتمد على مناقشة واسعة مع الكاتب الكبير ... وعن آرائه فى الفن والحياة

كتاب الهلال

١٠ قروش



سلسلة ثقافية شهرية

رسائل نهرو إلى أنديرا

أحمد بهاء الدين

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨٠ ذو القعدة ١٣٨٥ ـ مارس ١٩٦٦

No. 180 — Mars 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى ـ فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ـ فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف ـ فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة

الفنان جمال كامل

مختارات

من

رسائل نهرو إلى أنديرا

•

ترجمة

أحمد بهاء الدين

•

دار الهلال

مقدمة

منذ عشر سنوات بالضبط ـ مارس ١٩٥٥ ـ صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب الذى تجده بين يديك . يومها كان نهرو زعيما عالميا ملء السمع والبصر ، وداعية نشيطا يجوب انحاء العالم مبشرا بشعار الحياد الايجابى والتعايش السلمى .. وكانت انديرا فى نظر العالم مجرد الابنة ذات الوجه الباسم الوديع ، التى تظهر مع ابيها فى الحفلات ، وتقوم الى جوار الرجل الكبير بدور « ربة البيت » ، بعد ان ماتت زوجته « كمالا » وتركته وحيدا

وهذه الطبعة الثانية من الكتاب ، تظهر وقد مرت سنوات منذ ذلك اليوم الذى تحول فيه جثمان نهرو الى رماد محترق ينثر على صفحات نهر جومنا المقدس ، وقد اصبحت « انديرا » الابنة ذات الوجه الباسم الوديع ، تشغل منصب ابيها لا أقل : فهى رئيسة وزراء الهند .. واول امرأة فى التاريخ تحكم أمة كبرى يزيد تعدادها على الاربعمائة مليون ، وفى مرحلة تكاد تكون أخطر واحرج مراحل تاريخها الحديث ، منذ الاستقلال ..

وانديرا ليست ابنة نهرو بالدم فقط . ولكنها ابنته ايضا بالفكر والنضال والوجدان والمشاركة . والهند بملايينها الاربعمائة عندما اختارتها ، انما كانت فى الواقع تختار ذكرى الرجل العظيم ، وتتعلق بأذيال زعامته التى اختفت . كأن الهند تطلب انسانا تناسخت فيه روح نهرو . ولا احد يعرف بالضبط ، هل هذا الذى اختارته الهند حقيقة ام وهم . هل كانت الهند فى اختيارها

لانديرا تعيش فى الماضى ام تختار المستقبل . هذا هو الامتحان الكبير الذى تواجهه انديرا اليوم . ولعلها فى قرارة نفسها تعلم انه رغم انهم اختاروها لانها أوثق استمرار لنهرو ، فهى لا تستطيع ان تنجح اذا كانت مجرد استمرار لنهرو

وانديرا تقول عن نفسها انها بدأت الاشتغال بالسياسة وهى فى الثالثة من العمر . فجدها كان رئيسا لحزب المؤتمر ، وابوها نهرو كان من ابرز المناضلين فيه ، وأمها « كمالا » كانت عضوا نشيطا فى فرع حزب المؤتمر فى مدينة « الله اباد » ، من مدن ولاية كشمير . هكذا تفتحت عيناها على الاجتماعات السرية تعقد فى البيت ، والمظاهرات تطاردها قوات الاحتلال الانجليزية : اما لعبة طفولتها المفضلة فكانت أن تقف على المائدة وتخطب فى خدم البيت ، مقلدة المشاهد التى كانت تراها

ويروى هندى عجوز من أصدقاء الاسرة كيف انه زار بيت نهرو مرة فاستقبلته الطفلة انديرا لتقول له فى براءة: « اسفة .. فان بابا وماما وجدى ذهبوا الى السجن ! »

ولا شك ان هذا كله قد ألهب مخيلة الفتاة وأثار وجدانها .. ففى اول رسالة كتبها نهرو اليها من السجن، فى هذا الكتاب ، قال لها ابوها بمناسبة عيد ميلادها الثالث عشر « اتذكرين يوم قرأت لاول مرة قصة جان دارك وبهرت بها ، وكيف قلت لى أن أملك هو أن تكونى مثلها ذات يوم ؟ » . فهكذا كانت انديرا منذ الصبا الباكر تداعبها أحلام دور سياسى كبير ..

ومع التعليم والسفر الى أوروبا وسن الشباب ، عرفت انديرا طريق العمل السياسى الجدى ، من تنظيم فرق للشباب الى السير فى المظاهرات الى المشاركة فى العصيان المدنى ومراقبة حركة مقاطعة البضائع الانجليزية الى

ملازمة غاندى . وفى خلال دراستها فى انجلترا التحقت زمنا بعضوية حزب العمال البريطانى

وفى عنفوان الشباب ، عرفت انديرا التمرد على ابيها. فقد احبت شابا هنديا اسمه نيروز غاندى (لا يمت بصلة الى غاندى الكبير) وقررت ان تتزوجه . ولـــكن نيروز غاندى كان من طائفة « البارسى » احدى طوائف الهنـــد التى تختلف عن الهندوس الذين تنتمى انديرا اليهـــم . وعارض ابوها هذا الزواج بشدة ، ولكنها صممت على رأيها وتزوجت الشاب المحامى المغمور . وبعد شهـــور من الزواج قبض عليها تقود مظاهرة نسائية كمـــا قبض على زوجها ، وقضيا فى السجن أكثر من سنة . وبعد أن اطلق سراحهما ذهبا الى بلدتها « الله اباد » حيث عاشا وانجبا ولدين « كلاهما يدرس الهندسة الان فى انجلترا »

وفى سنة ١٩٣٦ ماتت أمها ، ومن جديد يعود نفـــوذ أبيها الطاغى عليها ليتقهر حتى نفوذ الزوج . فقد صممت رغم معارضة زوجها على أن يتركا الله اباد لكى تعيش فى دلهى الى جوار ابيها الوحيد وترعاه . وكأن هذا الانجذاب من جديد نحو الاب كان نقطة شقاق بينها وبين زوجها ، فقد اتفقا على الانفصال سنة ١٩٤٧ ، وعاشـــا منفصلين ثلاث عشرة سنة ، حتى مات سنة ١٩٦٠ ، قبل ان يموت أبوها بأربع سنوات

ومنذ سنة ١٩٤٧ ، لازمت انديرا اباها لم تفارقه . فهى ابنته وزميلته وتلميذته . وهى موطن سره وهى سكرتيرته وهى رسوله فى مهمات شتى .. وهى ربة بيته ومضيفة زواره وراعية اوراقه وملفاته

هكذا مرت السنون وهى فى قلب مركز السلطة ذاته ، حتى أصبح مكانها فى مركز السلطة طبيعيا ، وأصبحت علاقتها بزعماء الهند ورجالاتها تسمح لها بهذه المكـانة

وتجعلهم يتقبلونها تقبلا طبيعيا : فلما اراد نهرو قبل وفاته بقليل ان يعيد تنظيم حزب المؤتمر العتيق ، عهد لها بهذه المهمة ، وانتخبت رئيسة لحزب المؤتمر لمدة سنة

أما وقد مات نهرو ، وجاء بعده لال بهادور شاستري ، ومات بدوره ، فلماذا عادت الهند واختارت انديرا ؟

ان بعض الناس فى الهند ، لم يرتاحوا لاختيار انديرا لهذا المنصب ، وهم بوجه عام كل ممثلى الاتجاهات اليمينية داخل حزب المؤتمر وخارجه ، لانهم لا يحبون ماضى انديرا اليسارى ، وعلاقاتها بالعناصر الاشتراكية فى حزب المؤتمر ،حتى انهم يعتقدون انها كانت دائما الرئة اليسارية من رئتى نهرو نفسه ..

وهذه العناصر اليمينية بالذات ، منها من عارض نهرو فى السنوات الاخيرة لحكمه ، ومنها من وجد فى اختفاء نهرو بعد وفاته فرصة ذهبية لتدمير كل ملامح الاتجاه الاشتراكى فى سياسة الهند الداخلية، ولعدم الانحياز فى سياسته الخارجية

هذه العناصر قبلت على مضض اختيار لال بهادور شاسترى بعد وفاة نهرو ، بأمل الوصول الى سياسة أكثر اعتدالا من سياسة نهرو ، ولهذا تم اختيار شاسترى بالاجماع ، ورضى « موراجى ديساى » ممثل اليمين بأن يتنازل له . اما فى معركة انتخاب انديرا ، فقد توجس اليمين ان يكون فى هذا عودة الى سياسة نهرو والى سياسة اكثر منها انطلاقا الى اليسار ، فخاضوا المعركة حتى آخر لحظة ، ورفض ديساى التنازل ، فنال ما يقرب من المائتى صوت ونالت انديرا اكثر من اربعمائة

وفريق آخر من حزب المؤتمر ، لعلهم الفريق الوسط ، كان يختار انديرا وعينه على الانتخابات العامة المقبلة بعد سنة وبضعة شهور : فحزب المؤتمر قد شاخ وضعضعته الخلافات وسنوات الحكم والراحة والمشاكل الداخلية

الطاحنة واختفاء الزعامة الملهمة .. فكان من رأى هـــذا الفريق ان اسم انديرا نهرو بأثره العميق لدى الجماهير هو بالذات ما يحتاج اليه الحزب ليحتفظ بقــــوته فى الانتخابات النيابية المقبلة ..

يضاف الى هذا ان كل زعماء حزب المؤتمر القـــدامى تقترب اعمارهم من السبعين ، فى حين ان انديرا يقل عمرها عن الخمسين ، فهى بالنسبة لهم عنصر شاب ، وفى السنة التى قضتها على رأس الحزب اصطدمت انديرا كثـــيرا بالقيادات التقليدية القديمة ، لمحاولتها الدائبة ان تدفع بعض عناصر الشباب الى الامام

كتبت مجلة « لنك » الهندية اليسارية القوية النفوذ تروى قصة اختيار انديرا « ان زعماء حزب المؤتمر حين قرروا تأييد انديرا ، قرروا ذلك اولا لانهم يعـــرفون ان الناس يرغبون فى قيادة اكثر شبابا واندفاعاً ، وثانيالانهم يعرفون انهم لا يكسبون الانتخابات العامة القادمة الا فىظل اسم يمكن ان يقدم على عمل تغييرات جذرية . وثالثالانهم كانوا يعرفون انها سوف تكسب .. سواء أيدوها أو لم يؤيدوها ! » وتستطرد المجلة قائلة :

« ولكن هذا الاقتناع لم يكن سهلا . فالقادة التقليديون فى الحزب يخشون ما يسمونه بتطرف انديرا ويكرهون ما اشتهرت به من أنها « دوغرى » الامر الذى لا يناسب اساليب الساسة القائمة على اللف والدوران . هـــكذا كانوا مترددين اول الامر حتى استطاع « كاماراج » رئيس الحزب ان يغير فكرهم . وان يثبت لهم انها فائزة لامحالة وكان هم « كاماراج » فى الدرجة الاولى ان يحمى الحزب من تسلل سلطة كبار الاعمال الى مركز السلطة العليـــا . فرجال الاعمال هؤلاء لهم نفوذ قوى ، لا يوقفه عند حــده الا شخصية غير مدينة لهم ، وتسمح شعبيتها الواســعة

بأن تكون لها اليد العليا فوقهم

وفى نفس الوقت كان على «كاماراج» ان يقنع أنديرا ذاتها بدخول المعركة . فقـــــد كانت أنديرا مترددة . لا لعزوفها عن المنصب والمهمة ولكن لمعرفتها بكراهية معظم الزعماء القدامى لها ، فكانت تشفق من مرارة المعـــركة وآثارها . ولكنها حين رأت التأييد الطاغى لها بين صفوف اعضاء الحزب ، تشجعت وقبلت دعوة كاماراج لهـــا الى دخول المعركة .. وبالفعل ، كان فوز انديرا بأغلبيـــة الثلثين ، ضد ثلث الاصوات التى فاز بها « ديساى » دليلا الى المعركة التى تنتظرها بعد الفوز ..

وماذا تواجه انديرا فى السلطة ؟

تواجه اقسى امتحان تعرض له وضع الهنـــد الدولى بتحدى الصين لها . وتواجه أقسى امتحان فى وضع الهند الداخلى بشبه المجاعة الزاحف فى انحاء كثيرة من البلاد..

اقسى امتحان واجهته امرأة ، فى جميع بلاد الدنيا ، وعبر كل عصور التاريخ

وهذا الكتاب الذى بين يديك هو مختارات من الرسائل التى كتبها نهرو الى ابنته ، عندما كان هو فى الســـجن وكانت هى فى الثالثة عشرة من العمر

وقد جمع نهرو هذه الرسائل بعد ذلك فى كتاب ضخم من الف صفحة ، يضم ١٩٦ رسالة ..

وقد حاول نهرو فى هذه الرسائل ان يلقن ابنته درس السياسة والحياة عن طريق سرد تاريخ العالم . وعندمـــا وقفت ، منذ عشر سنوات ، أمام مهمة اختيار القليل من هذا الكثير ، آثرت ان اختار الرسائل التى تحدث فيها بها عن الثورات الكبرى التى تركت اثرها فى حياة العالم، خصوصا ما اتصل منها بمعالم الصراع فى عالمنا المعاصر..

احمد بهاء الدين



هدية عيد الميلاد

الى انديرا .. من السجن المركزى فى نايني ..

٢٦ أكتوبر ١٩٣٠ ..

فى عيد ميلادك ، تعودت ان تتلقى منى الهدايا والتمنيات الطيبة .. أما التمنيات الطيبة فهى لك كالعادة، ولكن أى هدية استطيع ان ارسلها اليك من سجن نايني ؟..ان التى أستطيع أن أبعث بها اليك من هنا لا يمكن ان تكون أشياء لا تستطيع حتى جدران السجن أن تمنعها ..

وأنت تعرفين يا حبيبتى كيف اكره التكلف والادلاء بالنصائح فانى كلما هممت ان اصنع شيئا من ذلك ذكرت قصة « رجل حكيم جدا » .. قرأتها مرة ..

نمنذ الف وثلاثمائة سنة وصل الى الهند رحالة عظيم ، آت من الصين ، باحثا عن المعرفة والحكمة ،كان اسمه « هيون تسانج » وقد عبر صحارى الشمال وجباله مقتحما فى بسالة أخطارا كثيرة ، مواجها ومتغلبا على عقبات كثيرة ، بقدر ما كان تعطشه الى المعرفة كان هائلا ..

وقد انفق فى الهند سنوات كثيرة مثقفا نفسه ومعلما غيره ، خصوصا فى جامعة نالاندا العظيمـــة التى كانت موجودة حينئذ بجوار المدينة التى كانت تسمى باتاليبوترا وتعرف الآن باسم «باتنا» ونال هيون تسانج من الثقافة حظا عظيماً وأصبح يسمى « أستاذ القانون » قانون بوذا ، وقد جاب الهند كلها ورأى ودرس الناس الذين كانوا يسكنون فى هذه البلدة العظيمة ، ثم ألف كتابا عن مشاهداته روى فيه هذه القصة التى تقفز الى خاطرى كثيرا .. انها تدور حول رجل من جنوب الهند جاء الى « كارنا سوفارنا » التى كانت مدينة تقع بالقرب من بيهار ، وكان هـــذا رجلا كما تقول القصـــة يلبس حول وســـطه حزاما من النحاس ، ويحمل على رأسه مشعلا مضيئا . وبعكاز فى يده ، ورأس مرفوع وخطوات فخورة ، كان يتجول فى هذه الهيئة الغريبة ، فاذا سأله احد عن سبب ظهوره فى هذا المنظر الغريب ، قال ان عقله عظيم لدرجة انه يخشى ان تنفجر بطنه لو لم يلبس هذا الحزام النحاس حولها ، ولانه يمضى مدفوعا بحبه للقوم الجاهلين الذين يعيشـــون فى الظلام ، فقد حمل على رأسه مشعلا مضيئا

على اننى متأكد تماما من انه لا خطر مطلقا من أن تنفجر بطنى من فرط المعرفة ، وعلى ذلك فلا داعى لان ألبس حزاما من النحاس ، كما اننى ارجو ان لا تكون حكمتى مهما كان شأنها فى بطنى وأيا كان مكانها فان هناك دائما مكانا واسعا للمزيد منها ، ولا يوجد أى احتمـــال لان أستغنى عن هذا المزيد ، وأن كنت محدود الحكمة الى هذا الحد فكيف أقف كالرجل الحكيم وأوزع مـواعظى على الآخرين ؟ ..

وقد كنت أعتقد دائما ان خير سبيل لمعرفة الخطأ من الصواب لنتبين ما يجب ان نصنع مما لا يجب ، ليس

فى التكلف والتظاهر ولكنه فى الحديث والمناقشة فمن خلال المناقشة نصل احيانا الى جانب صغير من الحقيقة . لقد كنت أحب أحاديثى معك . وكم ناقشنا سويا مسائل كثيرة ، ولكن العالم واسع ، وخارج عالمنا توجد عوالم اخرى غريبة ورائعة ، ومن أجل ذلك فاننا لانتوهم كما توهم ذلك الرجل الاحمق المعجب بنفسه ..

اننا قد عرفنا كل ما يستحق المعرفة واصبحنا حكماء .. ذلك ان الحكيم اذا وجد خليق بأن يحزن احيانا . لانه لم يعد هناك مزيد يمكن أن يتعلمه .. انه خليق بأن يفتقد فرحة الاكتشاف وادراك أشياء جديدة ـ وهى مغامرة يجب ان نبحث كلنا عنها

على اذا ان لا اتكلف .. ولكن ماذا اصنع اذا ؟ ان الخطاب يمكن أن يغنى ولو قليلا عن الحديث . انه على الاقل عمل فى جانب واحد وعلى ذلك فاذا حدث وقلت شيئا يشبه الموعظة الحسنة فلا تأخذيها على انها جرعة كريهه يجب ابتلاعها ، بل خذيها على أننى أقترح عليك شيئا لتفكرى فيه

كثيرا ما قرأنا فى التاريخ عن فترات عظيمة فى حياة الامم ، عن رجال عظماء ونساء عظيمات واعمال عظيمة وكثيرا ما تصورنا فى أحلامنا وأمانينا أننا قد عدنا الى تلك الايام ، وأننا نصنع أعمالا باسلة كالابطال والبطلات القديمات .. هل تذكرين كم كنت مفتونة وأنت تقرئين لاول مرة قصة جان دارك ، وكيف كان املك أن تصبحى مثلها ؟ .. ان الرجال والنساء العاديين ليسوا فى الغالب ابطالا .. أنهم يفكرون فى خبزهم اليومى فحسب ، فى أطفالهم ومشاكل بيوتهم وما الى ذلك . ولكن هناك فترات يؤمن الشعب كله فيها بهدف عظيم وحينذاك يصبح حتى الرجال والنساء العاديون ابطالا ، ويصبح التاريخ

حافلا لامعا .. والزعماء العظام عادة ينطوون على شيء يلهم الناس ويجعلهم يقدمون على الافعال المجيدة ..

وقد كانت السنة التي ولدت فيها أنت سنة ١٩١٧ من سنوات التاريخ المشهودة ، وفيها حظيت الهند بزعيم عظيم مليء بالحب لكل الذين يقاسون ، وبالرغبة في مساعدتهم .. زعيم ألهم شعبنا الاقدام على مغامرات عظيمة وتضحيات نبيلة ، حتى يعود كما كان حرا،وحتى يلقى الجوعى والفقراء والمظلومون ما تنوء به ظهورهم من أثقال ..

ان غاندى الآن فى السجن ولكن سحر رسالته يسرى فى قلوب ملايين الهنود الرجال والنساء ، بل الاطفال يخرجون من أكواخهم ويجعلون من أنفسهم جنودالحرية فى الهند ، اننا فى الهند اليوم نصنع التاريخ ، وانت وانا سعداء اذ نرى هذا يحدث أمامنا ، واذ نشارك فى هذه الدراما المجيدة ..

ترى أى عبء سنحمل فى هذه الحركة المجيدة ؟ أى دور سنلعبه؟ اننىلااستطيع أناقرر دورا سيقعمننصيبنا ولكن أيا كان هذا الدور ، فلنذكر اننا لن نصنع شيئا يبعث الشك فى هدفنا أو يجلب العار على مواطنينا ، فاذا كنا جنود الهند حقا فان شرف الهند فى حراستنا ، وهو شرف مقدس .. ومع ذلك فسوف نشك كثيرا فيما يجب علينا ان نصنعه ، فانه ليسمن السهل ان نقرر اين الخطأ من الصواب . ولكنى سأقترح عليك طريقة تلجئين اليها كلما خامرك الشك . طريقة قد تساعدك ، لا تصنعى أى شيء فى الخفاء ، أو أى شيء تتمنين لو ظل خافيا ، فرغبتك فى اخفاء أى شيء معناها انك خائفة ، والخوف شيء رديء وغير جدير بك ، كونى شجاعة ، وليكن بعد ذلك مايكون . فاذا كنت شجاعة

فانك لن تخافي قط ولن تصنعي أى شيء يمكن ان تخجلى منه وأنت تعرفين انه فى حركتنا التحريرية ، تحت زعامة غاندى ، لا محل هناك للسرية والاختفاء

انه ليس لدينا ما نخفيه . اننا لا نخاف مما نصنع أو مما نقول اننا نعمل فى النـــور تحت الشمس وحتى فى حياتنا الخاصة لنكن اصدقاء للشمس ولنعمل فى النور ، لنبتعد دائما عن الظلام

لقد كتبت لك خطابا طويلا . ومع ذلك فمازال لدى الكثير لاقوله لك ، ولكن كيف يمكن أن يضمه خطـــاب واحد ؟ ..

انت محظوظة ، كما قلت ، لانك تشهدين هذا الصراع المجيد من اجل الحرية الذى يجــــرى فى بلدنا . وأنت محظوظة ايضا لان لك هذه الام الباسلة الصغيرة ، فلو داهمك الشك مرة او الاضطراب فلن تجدى خيرا منهـا صـديقا ..

وداعا يا صغيرتى ، ولتصبحى مع الايام جندية باسـلة فى خدمة الهنـد ..

مع كل حبى ، وتمنياتى الطيبة ..



عبرة التاريخ

٥ يناير ١٩٣١

ماذا أكتب لك يا عزيزتى ؟.. ومن أين أبدأ ؟ اننى لا اكاد أفكر فى الماضى حتى يتزاحم فى رأسى عديد هائل من الصور، ولا املك نفسى من المقارنة بين هذه الاحداث الغابرة ، وبين ما يحدث اليوم ، محاولا ان أجد فيها عبرة ترشدنى ..

وأظن اننى كتبت اليك مرة أقول أن دراسة التاريخ يجب أن تعلمنا كيف أن العالم تطور ببطء ، ولكن بلا توقف . كيف ان الحيوانات الاولى البسيطة اخلت مكانها لحيوانات اكثر تعقيدا وتقدما . وكيف جاء أخيرا الحيوان السيدالانسان فانتصر بقوة ذكائه على الاخرين . ان تطور الانسان من الهمجية الى الحضارة موضوع التاريخ

وقد حاولت فى بعض خطاباتى ان أوضح لك كيف ان فكرة التعاون والعمل المشترك قد تقدمت وكيف ان مثلنا الاعلى يجب ان يكون : العمل المشترك للخير العام ..

ومع ذلك فانه يحدث أحيانا أن ننظر الى فترات معينة من التاريخ ، فلا نكاد نصدق أن هذا المثل الاعلى قد تقدم

فيها كثيرا ، أو اننا قد قطعنا شوطا فى الحضارة بعيدا ، فنحن اليوم مثلا فى اشد الحاجة الى التعاون .. ومع ذلك فقد نرى دولة تهاجم دولة اخرى وتضطهدها فى انانية ، أو انسانا يستغل انسانا اخر ، فنسأل انفسنا : اذا كنا بعد ملايين السنين من التطور ما نزال متخلفين ، ضالين الى هذا الحد ، فكم ترى يلزمنا من الزمن حتى نتعلم كيف نتصرف كأناس عاقلين ، ذوى ضمائر ؟ اننا كثيرا ما نقرأ عن فترات غابرة من التاريخ فتبدو لنا خيرا من زمننا هذا ، وأكثر ثقافة وتحضرا ، مما يجعلنا نشك فى أن عالمنا ماض حقا الى الامام ، لا الى الوراء ..

نعم لقد مرت ببعض البلاد عصور لامعة ، مصر ، الهند ، الصين ، اليونان ، وغيرها ، واغلب هذه البلاد قد انتكست وعادت الى الوراء .. ولكن حتى هذا لا يجب ان يفقدنا الامل . فالعالم كبير . وارتفاع امة او انهيارها لفترة محدودة من الزمن لا ينفى تطور العالم كمجموع ..

وكثير من المعاصرين يتباهون بحضارة هذا العصر وبما حققه العلم الحديث من معجزات .. والعلم الحديث قد صنع المعجزات حقا .. ورجال العلم خليقون فعلا بكل تقدير .. ولكن هؤلاء المتفاخرين قلما يكونون عظماء .. وانه يجدر بنا ان نذكر أن الانسان من بعض النواحى لم يتقدم كثيرا عن الحيوانات .. بل من المؤكد أن من الحيوانات ما تتفوق على الانسان من بعض الوجوه

وقد يبدو هذا القول سخيفا والذين لم تتسع معلوماتهم قد يسخرون منه .. ولكن يكفى أن تقرئى ما كتبه « ميترلنك » عن حياة النمل ، والنمل الابيض وسوف تعجبين للنظام الاجتماعى الدقيق لهذه الحشرات .. اننا نعتبر الحشرات ادنى انواع الكائنات الحية .. ومع ذلك فان هذه الاحياء التافهة قد تعلمت من التعاون والتضحية

فى سبيل الخير العام ، أكثر مما فعل الانسان . اننى منذ قرات عن حياة النمل الابيض وتضحية النملة فى سبيل رفاقهـــا وانا احتفظ له فى قلبى بمكان عزيز ، فاذا كان التعاون وايثار مصلحة المجموع هما معيار الحضـــارة فيجب ان نعترف بأن النمل الابيض من هذه الناحية ارقى من البشر .. فى بعض كتبنـــا السنسكريتية القـديمة ، نجد شعرا يمكن ترجمته كالاتى :

« من اجل الاسرة يضحى بالفرد .. ومن اجل الجماعة يضحى بالاسرة ، ومن اجل الوطن يضحى بالجماعة ، ومن أجل الروح يضحى بالعالم كله .. » وقليل من يستطيع أن يفسر ما هى الروح ، وربما فسرها كل واحد على نحو مختلف ، ولكن هذا الشـــعر السنسكريتى يلقننـــا نفس الدرس فى التعاون والتضحية من أجل الخير العام

ولقد نسينا فى وطننا هذا الدرس زمنا طويلا . ونسينا أن هـــذا هو طريق العظمة الحقيقية . ومن اجـل ذلك سقطنا ، ولكننا بدأنا نعود بالتدريج الى هذا السبيل .. ما أروع ان نرى الرجال والنساء ، والاولاد والبنات يضحون باسمين من أجل الوطن غير عابئين بأى شدة أو عذاب

اننا نحاول اليوم أن نحرر وطننا ، وهذا عمل عظيم .. ولكن أعظم من ذلك أن نعمل لتحرير الانسانية كلها . ولان صراعنا جزء من الصراع الانسانى العظيم لانهاء التعاســة والشقاء فاننا نستطيع أن نقول اننا بصراعنا الوطنى نقوم بدورنا فى العمل على تقدم العالم ..

أنت الان تجلسين فى أناند باداں .. وأمك فى سجن ملكا ، وانا هنا فى سجن نايني .. وكثيرا ما يفتقد كل منا صاحبه ، وبشدة ، أليس كذلك ؟ .. ولكن فكرى فى اليوم الذى سوف نلتقى فيه من جديد ، اننى اترقب هذا اليوم ، وأن تفكيرى فيه ليضىء قلبى وينعشه ..



اسـيا وأوروبـا ..

٨ يناير ١٩٣١

قلت لك فى خطاب سابق ان كل شيء يتغير ، وباستمرار، وان التاريخ ليس الا سجلا للتغيير ..

والتاريخ الذى نتعلمه فى المدارس والكليـات لا يعـد شيئا ، أنا شخصيا لم أتعلم من المدرسة الا القليل . لقد تعلمت شيئا قليلا ، قليلا جدا عن تاريخ الهند ، وعن تاريخ انجلترا ، حتى تاريخ الهند الذى نتعلمه كان بعيدا عن الحقيقة ، كتبه قوم ينظرون الى بلدنا من أعلى . أما عن تاريخ سائر الشعوب فلم أتعلم شيئا ، ولم أقرأ التاريخ الحقيقى الا بعد أن تركت الكلية . ومن حسن الحظ ، ان زياراتى للسجن اتاحت لى فرصة استكمال ثقافتى..

لقد كتبت لك فى بعض خطاباتى السابقة عن الحضارة القديمة فى الهند ، وعن قدوم الاريين ، ولم أكتب لك شيئا عما قبل ذلك لاننى لا اعرف كثيرا عنه. ولكنه قد يسرك أن تعرفى انه فى السنوات القليلة الاخيرة ، تم اكتشـاف بعض آثار الحضارة القديمة فى الهند هناك فى الشـمال الغربى بالقرب من مكان أسمه « موهن جوردارو » . لقد

حفر بعض الناس هناك وعثروا على اثار ربما رجعت الى خمسة آلاف سنة مضت ، واكتشفوا موميات تشبه موميات المصريين القدماء . تصورى كان ذلك منذ آلاف السنين حين كانت اوروبا ما تزال ارضا بدائية موحشة. واوروبا اليوم قوية وشعوبها تعتبر نفسها أرقى شعوب الارض ثقافة وتحضرا ، وهم ينظرون الى آسيا وشعوبها من عل ويحضرون ويأخذون منها كل ما يمكنهم الحصول عليه ..

حقا ، لكم تغير الزمن .. تعالى نلقى نظرة على أوروبا واسيا .. افتحى اى اطلس وتأملى اوروبا الصغيرة ملتصقة بالقارة الاسيوية الهائلة .. انها تبدو كما لو كانت امتدادا ضئيلا لها .. وحين تقرئين التاريخ ستجدين ان آسيا كانت المسيطرة مدى عصور طويلة من التاريخ ، وكان اهلها يذهبون افواجا لغزو اوروبا ، ينهبونها أو ينشرون الحضارة فيها .. الاريون والعرب والمغول والاتراك ، كل هؤلاء جاءوا من اماكن متفرقة فى آسيا وانتشروا فى اوروبا ، كانت آسيا تنتجهم فى اعداد هائلة كالجراد ، وظلت اوروبا زمنا طويلا وكأنها مستعمرة لآسيا ، وكثيرون جدا من ابناء اوروبا الآن انحدروا من سلالات الغزاة الاسيويين

آسيا تستلقى على الخريطة كالعملاق الضخم ، فى حين تبدو أوروبا صغيرة .. ولكن هذا لا يعنى أن آسيا أعظم الآن من اوروبا ، أو ان أوروبا غير جديرة بالاهتمام ، فالحجم هو احقر مقياس لعظمة الرجال ، أو البلاد . فنحن نعرف جيدا ان اوروبا على انها اصغر القارات الا انها أقواها كما نعرف ان كثيرا من بلادها مرت بعصور باهرة من التاريخ وانها اخرجت العلماء العظام الذين أستطاعوا باستكشافاتهم ومخترعاتهم ان يدفعوا الحضارة

الى الامام ، وأن يجعلوا الحياة أسعد للايين من الرجال والنساء وانها اخرجت العظماء من الكتاب والمفكرين والفنانين والموسيقيين .. أنه من الحماقة ان لا نعترف بعظمة اوروبا ..

ولكنه من الحماقة ايضا ان ننسى عظمة آسيا .. فمن الخطأ ان يبهرنا بريق اوروبا وينسينا الماضى .

فلنذكر انها آسيا التى اخرجت قادة الفكر الذين أثروا فى العالم اكثر من أى شىء آخر ، الا وهم انبياء الاديان الكبرى .. فالهندوسية أقدم دين على وجه الارض ، خرجت من الهند .. وكذلك البوذية التى تنتشر فى الصين واليابان وبورما والتبت وسيلان ـ واليهودية والمسيحية خرجتا من فلسطين على ساحل آسيا الغربى .. كما ان الدين الاسلامى ولد فى مكة فى بلاد العرب

حقا لقد تغير الزمن ولكنه يتغير الان مرة اخرى امام اعيننا . فالتاريخ يتحرك بطيئا خلال القرون ولكنه فى بعض السنين يسرع ويلهث . واليوم نرى التاريخ يتحرك بسرعة فى آسيا . فالقارة القديمة تستيقظ من سباتها الطويل . وعيون العالم كله مفتوحة عليها الان ، ذلك ان الناس جميعا يعرفون ان آسيا سوف تلعب فى المستقبل دورا خطيرا .



أين يذهب الثراء ؟

١٨ يناير ١٩٣١

وضحت لك مرة كيف تنمو طبقات من الناس ، كلما تقدم الانسان ، فالانسان البدائى كان يعيش عيشة صعبة ، حتى فى مجرد العثور على الطعام ، كان يصطاد ويجمع البندق والفواكه يوما بيوم ، وينتقل من مكان الى مكان بحثا وراء الطعام وشيئا فشيئا تكونت القبائل وكانت فى الواقع عبارة عن عائلات كبيرة تعيش سويا وتصطاد سويا .. ثم حدث تغير خطير .. ذلك هو اكتشاف الزراعة ..

فقد وجد الناس ان استنبات الطعام من الارض عن طريق الزراعة اسهل من الصيد طول الوقت . ثم ان الحرث والبذر والحصد تستدعى المكوث فى الارض ، فهم لا يستطيعون بعد أن ينتقلوا كما تعودوا من قبل ، بل أصبح عليهم أن يبقوا بالقرب من حقولهم . وهكذا نمت القرى والمدن ..

كذلك أدت الزراعة الى تغييرات أخرى ، فالطعام الذى تنتجه الارض أصبح اكثر من حاجة الاستهلاك . وبدأ

هذا الفائض يخزن ، فاصبحت الحياة اكثر تعقيدا مما كانت ايام الصيد الخالية .. وبدأت طبقـــات معينة من الناس تقوم بالعمل اليدوى فى الحقول وطبقات اخـــرى تقوم بالتنظيم والاشراف .. وشيئا فشيئا أصبح المنظمون والمشرفون اكثر قوة ، ثم اصبح منهم الحـــكام والملوك والنبلاء .. ثم بدأ هؤلاء يستغلون قوتهم ليحتفظوا لانفسهم بجانب كبير من فائض الطعام الذى كانت تنتجه الارض

وهكذا اخذوا يزدادون ثراء ، بينما ظل الذين يعملون فى الارض بأيديهم يتحصلون بالكد على الطعام الذى يسد رمقهم ..

ثم جاء الوقت الذى اصبح فيه هؤلاء المنظمون اكسل واجهل من ان يقوموا حتى بعملية التنظيم . صـــــاروا لا يصنعون شيئا ، ولكنهم يحصلون على نصيب الاســد من الطعام الذى ينتجه الفلاحون وبدأوا يعتقدون ان لهم الحق فى ان يعيشوا بهذه الطريقة ، من عمل الاخرين دون أن يصنعوا شيئا بأنفسهم

أنت ترين اذا أن ظهور الزراعة قد غير الحياة كثيرا ، كذلك فان تحسن وسائل الزراعة وسهولة الحصول على الطعام غيرت اساس المجتمع كله .. لقد منحت النـــاس الفراغ وصاروا طبقات مختلفة . ولم يعد كل فرد مشغولا بانتاج الطعام ، فاستطاع بعض الناس ان ينصرفوا الى اعمال اخرى .. فنمت انواع مختلفة من الحرف . وان ظلت القوة فى طبقة المنظمين

وسوف تعرفين فيما بعد مدى التغييرات التى خلقتها الطرق المستحدثة فى انتاج الاغذية وسائر الضروريات . لقد بدأ الانسان يطلب اشياء اخرى كما يطلب الطعام ، وكان كل تغيير فى وسائل الانتاج يؤدى الى تغير فى شـــكل المجتمع . ولاضرب لك مثلا باستخدام البخار فى ادارة

المصانع وتسيير السكك الحديدية والسفن . لقد أصبحت المصانع التى تدار بالبخار تنتج السلع بأسرع جدا مما يفعل الصناع وأصحاب الحرف بأيديهم ، أو بأدواتهم البسيطة . لقد كانت الآلة الكبيرة أداة هائلة حقا ثم ان السكك الحديدية والبواخر ساعدت على نقل الطعام ومنتجات المصانع بسرعة الى بلاد بعيدة .. ولك أن تتصورى ان تغييراً عظيما شمل العالم ..

ان التاريخ حافل باكتشاف الوسائل الجديدة والسريعة لانتاج الطعام وسائر الحاجات . ولعلك ستقولين أن استخدام الوسائل الحديثة كان كفيلا بأن يضاعف الانتاج وان يجعل العالم أكثر ثراء وان يتيح لكل فرد الحصول على ما يريد ، وهذا صحيح من ناحية وخطأ من ناحية أخرى . فتحسين وسائل الانتاج قد زاد بغير شك فى ثروة العالم .. ولكن أى جزء من هذا العالم ، اننا نرى بوضوح أن الفقر والبؤس مازالا منتشرين فى بلادنا ، بل فى بلاد غنية قوية كانجلترا نفسها فلماذا ؟ وأين تذهب الثروة ؟ ..

انه لغريب حقا أن تتضاعف الثروة المنتجة ثم يبقى الفقراء فقراء . لقد حقق الانسان تقدما هائلا فى بلاد معينة . ولكنه تقدم ضئيل جدا اذا قورن بازدياد الثروة .. ومن السهل أن نرى لمن تذهب هذه الثروات المتزايدة .. انها تذهب الى هؤلاء الذين تعودوا ــ بوصفهم المنظمين ــ أن يحصلوا على نصيب الأسد من كل شيء . وأنه لمن الغريب حقا أن نرى طبقات كاملة من المجتمع تتكون من قوم لا يحاولون القيام بأى عمل ، وهم يحصلون على نصيب الاسد من عمل الآخرين . بل ان هذه الطبقات بالذات ــ وصدقينى !! ــ تظفر بالتكريم !.. ومن الحمقى من يعتقدون أنه من الحطة للانسان أن يكسب رزقه من

عمل يده ..

تلك هي حال عالمنا العجيب . أليس غريبا أن يكون الفلاح في حقله والعامل في مصنعه فقراء ، مع أنهم هم الذين ينتجون للعالم الطعام والثراء ؟ اننا نطلب الحرية لبلادنا ، ولكن ماذا تساوي هذه الحرية اذا لم نضع حدا لهذا الوضع المقلوب ونعطي الرجل الذي يعمل ثمار عمله ؟ لقد ظهرت كتب كثيرة ضخمة عن السياسة وفن الحكم ، عن الاقتصاد وكيف يجب أن توزع الثروة القومية ، والأساتذة والعلماء يحاضرون كثيرا في هذه الموضوعات ، ولكن بينما الناس يتحدثون ويتناقشون يقاسي اولئك الذين يعملون

وبعد .. فقد مضى الانسان القديم يتقدم ويتغلب تدريجيا على الطبيعة ، فلح الارض وأزال الغابات وأقام البيوت والمفروض أن الانسان قد قهر الطبيعة الى حدما – والناس يتحدثون عن انتصارهم على الطبيعة ، ولكن هذا قول مرسل وليس صحيحا بحذافيره ، والاصح أن نقول أن الانسان قد بدأ يفهم الطبيعة وكلما زاد فهمه لها زادت قدرته على ان يتعاون معها وأن يفيد منها ..

فقديما كان الانسان يخاف الطبيعة وظواهرها ، وبدل ان يحاول فهمها كان يقدسها ويقدم لها القرابين . كمالو كانت الطبيعة وحشا كاسرا يجب تهدئته وتملقه . كان الرعد والبرق والامراض الوبائية تخيفهم . وكانوا يحسبون أنه يمكن اتقاء غضبها بالعطايا ، كانوا يعتقدون أن كسوف الشمس او خسوف القمر مثلا مصيبة رهيبة ، وبدلا من أن يحاولوا فهم الظواهر الطبيعية تراهم ينحرون الذبائح ويقيمون الولائم ويتطهرون لحماية الشمس والقمر مع ان الشمس والقمر كفيلان بالعناية بنفسيهما ، وليس لنا ان نقلق ابدا من ناحيتهما

لقد حدثتك عن تقدم الحضـارة والثقـافة . وقـد رأيت كيف ان هذا التقـدم بدأ حين اسـتقر الناس فى المدن والقرى . وحين زادت كميات الطعام الناتجة بحيث منحتهم مزيدا من الفراغ أتاح لهم ان يفكروا فى أشـياء اخرى غـير الصيد والاكل

وهكذا ظهرت الحرف ، والفنون ، والثقافة ، بوجه عام . وكلما زاد عدد السكان احتـاج النـاس الى أن يتقاربوا . وأن يتعاونوا .. وأن يعقدوا الصفقات ، ولما كانوا محتاجين الى أن يعيشوا سويا ، فقد وجب عليهم أن يتجنبوا اتيان مامن شأنه أن يؤذى الزملاء أوالجيران. والا أصبحت الحياةالاجتماعية مستحيلة . فالاسرة وهى مجتمع صغير ـ لا يمكن ان تعيش سعيدة الا اذا احترم كل فرد فيها الاخرين . ومع ذلك فكثيرا ما ننسى هـذه الروابط وننسى كيف نكون عقلاء مهذبين ، ونتصرف كما لو لم نكن مثقفين ولا متحضرين .. وهذا يحدث سـواء فى الاسرة ، أو بين ابناء الوطن الواحد ، أو بين الاوطـان المتجاورة ..

أن تزايد السكان قد ادى الى تنمية الحياةالاجتماعية. مما أحتاج الى مزيد من القيود ، ومزيد من مراعاة الواحد منا الاخر .. أن الحضـارة أو الثقافة يصعب تعريفها ولن احاول تعريفها ، ولكن ، لاشك أن من اهم ما تعنيه كلمة حضارة .. تلك القيود التى يفرضها الانسان على نفسه مراعاة للآخرين ..

فالانسان الذى لا يتحكم فى نفسه ولا يراعى الاخرين .. انسان غير متحضر ..



إنجلترا تقطع رأس ملكها..

٢٩ أغسطس ١٩٣٢

سوف ننفق قليلا من الوقت فى تاريخ انجلترا .. فقد اهملناها تماما طيلة العصور الوسطى ، اذ لم يكن لهـــا فى ذلك الوقت شأن يذكر .. كانت أكثر تأخرا من فرنسا .. ثم لم تلبث جامعة اكسفورد ان أصبحت مركزا شهيرا للعلم ، وبعد قليل ظهرت جامعة كامبريدج ..

واهم الاحداث فى تاريخ انجلترا القديم ، يدور حول نشأة البرلمان ، فمنذ عهد بعيد وجهود النبلاء تتجـــه الى الحد من قوة الملك ، حتى اعلنت « الماجنـــا كارتا » ــ أو العهد الاعظم ــ سنة ١٢١٥ وبعد ذلك بقليل نرى مقدمات ظهور البرلمان ، وهى كالعادة مقدمات غــــير ناضجة .. فمن النبلاء الكبار والاســاقفة تكون مجلس اللوردات .. ولكن الاهم من ذلك ظهور مجلس منتخب يتكون من الفرسان والملاك الصغار وبعض ممثلى المدن وهذا المجلس المنتخب هو الذى اصبح مجلس العمـــوم .. وكان كلا المجلسين يتكون من الملاك والاغنياء .. حتى أعضاء مجلس العموم كانوا لا يمثلون الا عددا قليلا من

الملاك والتجار والاغنياء فقط ..

وكان مجلس العموم ضعيفا ، ثم بدأ اعضاؤه يوجهون نظر الملك الى أخطائه ، وبالتدريج بدأوا يتـــدخلون فى شئون الضرائب ، ولمـا اصبح من المتعذر على الملك ان يفرض ضريبة جديدة أو ان يجمعها بغير موافقتهم ، بدأ الملك يسعى وراء موافقتهم على كل ضريبة قبل فرضها .. والسلطة المالية سلطة خطيرة دائما ، فلما اصبحت لمجلس العموم هذه السلطة زادت قوته وارتفع مستواه الى حد كبير .. وكثيرا ما كان الخلاف يثور بين الملك والبرلمان .. ولكن البرلمان كان ضعيفا الى حد ما ، فظل الملاك الانجليز ملوكا مستبدين ،وبان تجنبوا لوقت طويل .. أى صدام عنيف مع البرلمان

وقد استطاعت انجلترا ان تتجنب المنازعات الدينيــة الرهيبة التى عرفتها أوروبا ، حقا كان هنـاك كثير من الخلافات الدينية والاضطرابات والارهاب ، واحـــراق كثير من النساء وهن أحياء بدعوى انهن ساحرات ... ولكنا لو قارنا هذا كله بما كان يحدث فى أوروبا ، وجدنا أن انجلترا كانت تعيش فى سلام .. ومع تولى الملك هنرى الثامن العرش كان المفـروض ان تتحـــول انجلترا الى البروتستنتية ، وكان هناك فى انجلترا بالطبع كاثوليـك كما كان فيها بروتستنت متطرفون ، ولـكن الكنيســـة الانجليزية الجديدة جاءت شيئا بين الاثنين وقالت انهـا بروتستنتية ولربما كانت أقرب الى الكاثوليك منها الى البروتستنت ، وقد كانت فى واقع الامر «وزارة خارجية» يرأسها الملك نفسه ، وتم الانفصال النهائى عن البابا فى روما ، وانتشر احساس عام ضد البابوية ، وفى عهد الملكة اليزابيث « ابنة هنرى الثامن » تم اكتشاف طرق جديدة للمواصلات البحرية الى الشرق والى امريكا واغرت فرص

التجارة الجديدة كثيرا من الناس . وتحت تأثير النجاح الذى حققه رجال البحر الاسبان والبرتغاليون ، وأحلام الثراء الذى يمكن تحقيقه ، اتجه الانجليز الى البحر، بدأ ذلك بأن ظهر السير فرانسيس دريك وغيره من القراصنة وأخذوا يسطون على سفن الاسبان الاتية من أمريكا . ثم غامر دريك برحلة بارعة حول العالم .. وعبر سير والتر رالى المحيط الاطلنطى ، وأنشأ هناك مقاطعة على الشاطىء الشرقى أصبحت الان الولايات المتحدة الامريكية .. وقد أطلق على هذه الولاية الاولى اسم فيرجينا تكريما للملكة العذراء (اليزابيث) .. وكان رالى أول من نقل عادة تدخين الطباق من أمريكا الى أوروبا ثم ظهـــرت الارمادا الاسبانى وانتصر الانجليز على هذا الاسطول الفخور، مما شجعهم كثيرا .. ولم يكن لكل هذه الاحداث من أثر على الصراع بين الملك والبرلمان الا فى أنها صرفت اهتمام الناس هناك الى الشئون الخارجية .. وان ظل الخلاف بين الملك والبرلمان يضطرم من وراء ستار ...

والعصر الاليزابيثى من أزهى عصور انجلترا .. كانت اليزابيث ملكة عظيمة ، كما أن انجلترا أنجبت فى ذلك العصر رجالا عظماءعملوا فى ظل مملكتها ولكن أعظم من الملكة ومن فرسانها المغامرين ، كان الشعراء والمؤلفون الدراميون الذين بزغوا فى عصرها وعلى رأسهم جميعا شكسبير ، فمسرحياته الان معروفة فى جميع أنحاء العالم بالرغم من قلة معلوماتنا عن شخصيته .. وقد صدق الناقد الانجليزى ليتون ستراتشى حين قال عن ذلك العصر ان « فرقة هذا العصر الرائعةالتى استطاعت روحها القوية أن تعطى انجلترا فى جيـــل واحد نادر أعظم تراث من الدرامـــا عرفه العالم » ..

وماتت اليزابيث سنة ١٦٠٣ ثم خلفها ملك اسكتلندا

بوصفه أول واحد في سلسلة الوراثة ·· وأصبح الملك جيمس الاول اول ملك لانجلترا واسكتلندا بعد اتحادهما، وهكذا تم لانجلترا ببساطة ما عجزت عن تحقيقه بالقوة.. وكان جيمس الاول يؤمن بحق الملك الالهى ويكره البرلمان، ولم يكن فى مهارة اليزابيث ، فلم يلبث أن ثارت المشاكل بينه وبين البرلمان ··

وقد حدث فى عصره أن ترك كثيرون من البروتستنت المتشددين بلادهم على الباخرة « ماى فلاور » فى سنة ١٦٢٠ ليستوطنوا أمريكا ، معترضين بذلك على الطريقة الاوتوقراطية التى سلكها جيمس الاول فى الحكم ، وعلى الكنيسة الجديدة التى رأوا أنها لم تكن بروتستنتية كما يجب ·· ولذلك تركوا بلادهم ، وأبحروا الى العالم الجديد الواسع عبر الاطلنطى ·· وألقوا مراسيهم على الشاطىء الشمالى فى مكان أطلقوا عليه اسم « نيوبلايموث » ثم تبعهم مستعمرون اخرون وبالتدريج اتسعت المقاطعات حتى أصبحت ثلاث عشرة مستعمرة على طول الشاطىء.. كانت بذرة الولايات المتحدة بعد عصور طويلة ··

ثم جاء ابن جيمس الاول ، شارل الاول ، فازدادت الامور فى عهده توترا ، ووصل التوتر الى غايته سنة ١٦٢٥ ، قدم اليه البرلمان سنة ١٦٢٨ ·· « طلب الحقوق » وهى وثيقة بارزة فى التاريخ الانجليزى ·· وفى هذا الميثاق سجل البرلمان على الملك أنه ليس حاكما مطلقا ، وأن هناك أمورا كثيرة محرمة عليه ·· فليس من حقه أن يفرض ضريبة أو يسجن أحدا من الناس بغير حق ·· أى أنه ببساطة ليس له أن يصنع فى انجلترا ، فى القرن السابع عشر ما يصنعه الحاكم العام فى الهند ·· فى القرن العشرين ، اذ يصدر الاوامر ويسجن الناس بمقتضاها ··

وثار شارل غضبا من مواجهته بما له وبما ليس له ،

فأمر بحل البرلمان وبدأ يحكم بدونه .. وبعد سنوات اضطرته الحاجة الماسة للنقود الى أن يدعو برلمانا آخر للانعقاد . وكان السخط يتزايد على كل ما صنعه شارل بغير برلمان ، وبدأ البرلمان يستعد لقتاله ! .. وبعد سنتين أى فى سنة ١٦٤٢ بدأت الحرب الاهلية .. الملك فى جانب مؤيدا بالنبلاء ، وبجانب كبير من الجيش ، والبرلمان فى جانب مؤيدا بالتجار الاغنياء وأهالى مدينة لندن .. واتصلت الحرب بضع سنوات ، حتى ظهـــــر فى جانب البرلمان قائد عظيم ، أوليفر كرومويل ، كان منظما عظيما ، ورجلا يؤمن برسالته ايمانا مقدسا .. كتب كارليل عنه قائلا : «فى ساعات الخطر الحالكة ، وعلى هضبات الميدان، كان يشرق الامل فيه كعمود من النار ، ساعة انطفاء هذا الامل لدى الاخرين » ونظم كرومويل جيشا جديدا ، بث فيه من روحه ونظامه وواجه البيوريتان « المتطهرون » من جيش البرلمان ، فرسان شارل ، وانتصر كرومويل فى النهاية ، وسقط الملك سجينا فى أيدى البرلمان ..

وكان كثير من نواب البرلمان ما يزالون يريدون التفاهم مع الملك ، ولكن كرومويل لم يستمع اليهم ، وذهب ضابط من جيشه ، كولونيل برايد ، واقتحم مبنى البرلمان وطرد كل هؤلاء النواب ، وأطلق على هذه الحركة اسم حـــركة « تطهير برايدى » . كان علاجا عنيفا وغير مشجع للبرلمان . فاذا كان البرلمان قد عارض الملك من أجل استبداده فهذه قوى أخرى ، لا تلقى بالا الى حقوقه الشرعية ، وتلك طبيعة الثورات ..

وقرر النواب الباقون أن يحاكموا شارل ، بالرغم من معارضة مجلس اللوردات ، ثم حكموا عليه بالموت حيث أنه ثبت أنه « طاغية ، خائن ، قاتل ، وعدو للوطن » وفى سنة ١٦٧٩ فى هوايتهول بلندن ، قطعت رأس هذا الملك

الذى كان يتحدث عن حقه الالهى فى الحكم ..

والملوك يموتون كغيرهم من الناس ، ولكن كـــثيرين منهم كانت ميتتهم عنيفة .. وتاريخ الملكية والارستقراطية حافل بالقتل ، ولكن ، أن يجعل مجلس منتخب من نفسه محكمة ، وأن يحاكم الملك ويحكم عليه بالموت ، ثم يقطع رأسه ، كل ذلك كان يبدو وكأنه رواية غريبة جدا ..

وانه لغريب من الشعب الانجليزى الذى عرف بمحافظته ونفوره من التغير السريع أن يضرب لنا هذا المثل فى كيف يجب أن يحاسب الملوك الطغاة . ولكن هذا المثل فى الواقع لم يضربه الشعب الانجليزى فى مجموعه ، بقدر ما ضربه كروموبل ..

صدم الملوك والقياصرة والامراء فى أوروبا صدمة هائلة ، فماذا يحدث لو أصاب الغرور شعوبهم أيضا وصنعت كما صنع الانجليز ؟

لقد كان ممكنا أن يفكر هؤلاء الملوك فى غزو انجلترا ، لولا أنه لم يكن هناك من السلالة الملكية الانجليزية من يطالب بالعرش ..

وأصبحت انجلترا ، لاول مرة فى تاريخها جمهـورية وكان هناك كروموبل وجيشه يدافعـــــان عنها . وكان كروموبل قد غدا فى واقع الامر دكتاتورا . وأطلق عليه اسم « اللورد الحامى » وتحت سياسته الحازمة المنتجة زادت قوة انجلترا وتفوق أسطولها على أساطيل فرنســا وهولندا واسبانيا . ولاول مرة أيضـــا أصبحت انجلترا سيدة البحار ..

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعش طويلا ـــ لم تعش أكثر من أحد عشر عاما بعد قتل الملك شارل . فقد مات كروموبل سنة ١٦٥٨ ، وبعد سنتين من وفاته ســـقطت الجمهورية ، وعاد الى انجلترا ابن شارل الذى كان قـــد

هاجر الى الخارج ، وتوج ملكا باسم شارل الثانى • وكان شارل الثانى هذا رجلا تافها سيء السمعة ، لا هم له من الملك الا ان يقضي وقتا جميلا .. ولكنه كان من الذكاء بحيث حرص على أن لا يصطدم بالبرلمان ، وكان فى واقع الامر تابعا فى السر لملك فرنسا • وفقدت انجلترا مكانتها التى اكتسبها كرومويل ، وجاء اسطول هولنـــدا وأغرق الاسطول الانجليزى كله عند مدخل نهر التيمز • وخلف شارل الثانى أخوه جيمس الثانى ، فلم يلبث أن دخل فى متاعب مع البرلمان •• كان جيمس كاثوليكيـــا متطرفا ، فأراد أن يعيد سلطة البابا فى انجلترا وبالرغم من ضعف فكرة الانجليز عن الاديان الا انهم كانوا يكرهــون البـــابا وكل ما يصـــدر عنه أو يتصـــــل به • ولم يستطع جيمس الثانى شيئا ازاء ذلك وخاف من عاقبة خلافه مع البرلمان ففر من بلاده ولجأ الى فرنسا مرة أخرى وانتصر البرلمان على الملك ، انتصارا ساميا هذه المرة

لم يعد هناك ملك فى البلاد •• ولكن انجلترا لم تشأ أن تعود جمهورية ، فالانجليزى يحب أن يكون له رئيس ويحب مظاهر الملكية وفخفختها

وهكذا أخذ البرلمان يبحث عن ملك مناسب حتى وجد واحدا من أسرة أورانج التى أنجبت قبل ذلك بمائة سنة ، وليم الصامت الذى قاد الهولنديين ضد اسبانيا • وجـــد البرلمان « وليما » اخر من أسرة أورانج متزوج من « مارى » احدى بنات البيت المالك الانجليزى • وهكذا توج وليم ومارى ملكين سنة ١٦٨٨ وأصبح البرلمان الان هو صاحب السلطة العليا ، وتمت الثورة الانجليزية ، باعطاء السلطة للشعب ممثلا فى البرلمان ••

ومنذ ذلك الوقت لم يجسر ملك انجليزى واحـــد على معارضة سلطة البرلمان •• الا أنه هناك وسائل أخـــرى

للتآمر والتأثير دون معارضة أو تحد ، وقد لجأ كثير من ملوك الانجليز الى هذه الوسائل

أصبح البرلمان اذا هو صاحب السلطة العليا ، ولكن ما هو هذا البرلمان ؟ لاتظني انه يمثل الشعب الانجليزى ، ولكنه كان يمثل جانبا صغيرا منه فقط. فمجلس اللوردات كما هو واضح من أسمه كان يمثل اللوردات والاساقفة وكبار ملاك الاراضي . حتى مجلس العموم كان يضم الاغنياء فقط من الملاك أو التجار ، كان عدد الذين لهم حق الانتخابات من الناس قليلا جدا . وكان هؤلاء النواب يسمون حتى مائة سنة خلت باسم « أصحاب الجيوب » اذ كانت مقاعد النيابة فى جيوبهم دائما ، كانت الدائرة الانتخابية كلها قد لاتضم من أصحاب حق الانتخاب اكثر من واحد أو اثنين ، وقد قيل انه فى سنة ١٧٩٣ كان مجلس العموم يضم ٣٠٣ نواب انتخبهم ١٦٠ ناخبا فقط .. وكان هناك ناخب أسمه « ساروم » انتخب نائبين ، مرتين متتاليتين للبرلمان .. فالاغلبية الساحقة من الناس اذ كانوا لا يملكون حق الانتخاب ، اى كانوا غير ممثلين فى البرلمان .. كان مجلس العموم ابعد ما يكون عن الصفة الشعبية .. لم يكن يمثل حتى ولا الطبقة المتوسطة التى بدأت تنمو فى المدن ، كان يمثل فقط كبار ملاك الاراضى وقليلا من التجار الاغنياء وكانت مقاعد البرلمان تباع وتشترى وتدفع فيها الرشاوى ، وظل هذا الوضع قائما حتى سنة ١٨٣٢ ، وحين أقر البرلمان قانونا جديدا غير هذه الاوضاع ، بعد أضطرابات جسيمة ، وحصل مزيد من الناس على حق الانتخاب

هكذا ترين أن انتصار البرلمان آنئذ على الملك كان معناه انتصار حفنة من الاغنياء . وقد ظلت انجلترا محكومة فعلا بهذه الحفنة من أصحاب الاراضى والتجار الاثرياء ،

اما سائر الطبقات التى تتكون منها الامة فلم يكن من حقها ان تبدى الرأى ..

وعلى نفس الطراز كما لابد تذكرين ، كانت الجمهورية الهولندية التى انبعثت عن حرب الاستقلال الهولندية ضد اسبانيا ..

وبعد وفاة وليم وماري آن ، اصبحت مارى ملكة على انجلترا فلما ماتت سنة ١٧١٤ ثارت مشكلة البحث عن ملك مرة اخرى ، وعثر البرلمان على ملك فى المانيا ، وكان حاكم مقاطعة هانوفر ، وجعله الملك جورج الاول ، ولعل البرلمان اختاره ملكا لانه كان غبيا تماما ، اذ وجد ان اختيار ملك ذكى قد ينافسه فى سلطته ، وكان جورج الاول ملك انجلترا لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية . وكذلك كان ابنه جورج الثانى ، وهكذا اصبحت هذه الاسرة الالمانية هى البيت المالك الانجليزى الذى ما زال يحكم حتى الآن ، واقول يحكم تجاوزا ، لان سلطة الحكم الان كلها فى يد البرلمان

وبعد .. لعله قد يهمك ان تعرفى ان «جوناثان سويفت» مؤلف « رحلات جاليفر » قد عاش فى تلك الفترة من ١٦٦٧ الى ١٧٤٥ ، وكتاب « رحلات جاليفر » معروف جدا ككتاب للاطفال ولكنه فى الواقع نقد لاذع جدا لانجلترا فى ذلك العصر ، وفى نفس العصر ايضا عاش « دانييل ديفو » مؤلف « روبنسون كروزو »



الثورة الصناعية تبدأ فى إنجلترا..

٢٧ سبتمبر ١٩٣٢

يجب أن أحدثك الان عن بعض المخترعات الالية التى احدثت هذا التغيير الهائل فى وسائل الانتاج . أن هذه المخترعات تبدو لنا الان عادية بسيطة حين نراها فى المصانع . ولكن التفكير فيها واختراعها لاول مرة كان أمرا بالغ الصعوبة ، وقد جاء أول هذه المخترعات سنة ١٧٣٨ عندما ابتكر رجل اسمه « كاى » البكرة الطائرة أو المكوك الطائر الذى يستخدم فى نسج القماش . فقبل هذا الاختراع كان على النساج أن يضع الخيوط متشابكة ومتقاطعة فى الجهاز الذى اسمه « النول » ولكن المكوك الطائر أسرع بهذه العملية ، وضاعف انتاج النساج ، ومعنى هذا أن النساج أصبح قادرا على انتاج كمية أكبر من القماش ، وكان صعبا على الغزالين ان يزودوا هذا الانتاج الكبير من النسيج بمزيد من الغزل فأخذوا يبحثون عن طريقة لزيادة انتاجهم أيضا

وقد أمكن حل هذه الازمة فى سنة ١٧٩٤ عندما اخترع « هارجريفز » آلة جديدة للغزل وتلت ذلك اختراعات

اخرى اخترعها ريتشارد آن كرايت وآخرون ، ثم امكن استخدام قوة الماء وقوة البخار

وقد استخدمت كل هذه الاختراعات اولا فى صناعة القطن فازدهرت مصانع القطن . وكانت الصناعة التالية التى استخدمت هذه المخترعات الجديدة هى صناعة الصوف

وفى سنة ١٧٦٥ اخترع جيمس وات الآلة البخارية ، وقد كان هذا الاختراع حدثا عظيما ، اعقبه استخدام قوة البخار فى جميع المصانع ، وادى ذلك الى تزايد الحاجة الى الفحم الذى يستخدم فى توليد البخار ، فنشأت صناعة التعدين واستخراج الفحم . وادى استخدام الفحم الى اكتشاف طرق جديدة لتنقية الحديد بصهر الحديد الخام لفصل الصلب النقى ، وهكذا نمت صناعة الحديد بسرعة . واقيمت المصانع الجديدة بجوار مناجم الفحم حيث يتوفر الفحم بسعر رخيص

هكذا نشأت ثلاث صناعات هائلة فى انجلترا . القماش والحديد والفحم ، وقامت المصانع بالقرب من مناجم الفحم ، وفى غيرها من المناطق

لقد تغير وجه انجلترا ، فحيث كانت المروج الخضراء الفاتنة ، ظهرت تلك المصانع الجديدة بمداخنها العالية ، التى تنفث الدخان الاسود وتلقى ظلا قاتما على كل شيء . ولم يكن منظر هذه المصانع جميلا ، بما حولها من تلال الفحم واكوام الخردة والنفايات ، كما أن المدن الصناعية الجديدة التى نشأت حول المصانع لم تكن تمت للجمال بصلة فقد كانت تقام كيفما اتفق ، ولا هم لاصحابها الا جمع النقود ، كانت مدنا قبيحة قذرة ، وكان على العمال الذين يكادون يموتون جوعا أن يعيشوا فيها . كما كان عليهم أن يتحملوا جو المصانع البشع وكما يحدث عقب ظهور كل اختراع يؤدى الى استخدام

الالات بدلا من العمـــــل اليدوى ، انتشرت البطالة بين العمال الذين أصبحت الآلات تغنى عن الكثيرين منهم ، ومن أجل ذلك كره العمال هذه الالات الجديدة كرها شديدا ، بل وحاولوا تحطيمها • واطلق عليهم اسم مخربو الآلات

وتخريب الآلات له تاريخ طويل فى أوروبا ، يرجع الى القرن السادس عشر عندما اخترع فى المانيـــا « نول » آلى بسيط ..

وفى مخطوط قديم كتبه كاهن ايطالى سنة ١٥٧٩ ، ذكر عن هذا النول ان مجلس مدينة « واتيزيج » خشى أن يؤدى هذا الاختراع الى القاء عدد كبير من العمـــال فى قارعة الطريق ، فأمر بتحطيم هذه الآلة ، وقتل المخترع واغراقه سرا !

وبالرغم من المعاملة التى لقيها هذا المخترع ، فقـــد ظهرت هذه الآلة مرة أخرى فى القرن الســـابع عشر ، واضطرمت الاضطرابات فى أوروبا كلها من جراء هـــذه الآلة ، فصدرت قوانين كثيرة تحرم اســتخدامها ، وكان الناس يحرقونها علنا فى الشوارع والاسواق ، ولو أن هذه الآلة استخدمت بعد اختراعها لأول مرة لأعقبتهـــا اختراعات أخرى ، ولربما تقدم العصر الآلى كله عن الموعد الذى جاء فيه . ولكن عدم استخدام هذه الآلة فى ذاته يدل على أن الظروف لم تكن قد تهيأت لظهورها بعـد ، فلما تهيأت هذه الظروف ظهرت الآلة وفرضت نفســها فرضا فى انجلترا رغم الاضطرابات العنيفة التى قامت فى وجهها هناك ..

وقد كان طبيعيا أن يشعر العمال أول الامر بالكراهية نحو هذه الآلة . ولكنهم أخذوا يدركون شيئا فشـــيئا أن الغلطة ليست فى الآلة ذاتهـــا ، ولكن فى طــــريقة استخدامها بحيث تعود أرباحها على عدد قليـــل جدا

من الناس .. ولنعد بعد هذا الاستطراد الى نمو المصانع والآلات فى انجلترا

لقد قضت المصانع الجديدة على كثير من صناعات الاكواخ ، واصحاب الحرف ، فقد كان مستحيلا على الصناع اليدويين أن ينافسوا هذه الآلات .. واصبح عليهم أن يتركوا ادواتهم القديمة ويبحثوا عن عمل بالاجر فى هذه المصانع الجديدة التى يكرهونها أو ان ينضموا الى جيش العاطلين . ولكن انهيار صناعات الاكواخ لم يتم دفعة واحدة ولكنه مع ذلك كان سريعا الى حد كبير ، فلم تأت نهاية هذا القرن سنة ١٨٠٠ ، الا وكانت المصانع الكبيرة قد قبضت على ناصية الموقف. وبعد ثلاثين سنة ظهرت خطوط السكك الحديدية بعد أن اخترع « ستيفنسون » أول قاطرة . وهكذا امتد تأثير الآلة الى جميع أنحاء البلاد ، بل الى كل ناحية من نواحى الحياة فيها ..

ومن الطريف ان نلاحظ ان كل هؤلاء المخترعين ، ولم اذكر الا القليل منهم ، كانوا من طبقة العمال اليدويين . ومن هذه الطبقة ايضا خرج كثير من زعماء الصناعة . ولكن الآلات التى اخترعوها وما أعقبها من ظهور نظام المصانع الكبيرة ادى الى اتساع الهوة بين رب العمل والعامل . واصبح العامل فى المصنع الكبير مجرد«ترس» صغير فى آلة ضخمة ، عاجزا ازاء عوامل اقتصادية هائلة لا يستطيع فهمها فضلا عن التحكم فيها

وقد كان الصناع اليدويون واصحاب الصناعات الصغيرة هم أول من أدركوا ان ثمة خللا ما ، عندما وجدوا أن المصانع الجديدة تنافسهم وتبيع السلع بأسعار أرخص بكثير مما يبيعون بها السلع التى يصنعونها بأيديهم أو بأدواتهم البسيطة فى منازلهم . كان عليهم ان يغلقوا

دكاكينهم الصغيرة دون أي ذنب جنوه ، وانضـموا الى جيش العاطلين الجرار • ثم ساقهم الجوع الى المصـانع الجديدة يبحثون عن عمل • كان اصحاب العمل يتصرفون بغير شفقة ، وكان العمال من الرجال والنساء ، بـل والاطفال يعملون ساعات طويلة فى اماكن كريهة غـير صحية حتى يسقطوا اعياء على الارض ، وكان عمال مناجم الفحم يقضون نهارهم كله تحت سطح الارض ولربمـا تمضي عليهم شهور كاملة لا يبصرون فيها ضوء النهار

ولكن اياك ان تحسبى هذه الاشياء كلها كان منبعها قسوة اصحاب العمل • لقد كانوا فى الواقع قساة من حيث لا يشعرون اذ كان العيب الاساسى فى النظام نفسه• كانوا يعملون على مضاعفة اعمالهم • وغزو الاسـواق العالمية البعيدة وانتزاعها من بلاد اخرى • وفى سبيل تحقيق هذا الغرض كانوا مستعدين لعمل اى شيء • ثم ان شراء الآلات واقامة المصانع الجديدة يحتاج الى أموال طائلة ، لا يمكن استردادها الا بعد أن يتم انشاء المصنع ، ويبدأ فى الانتاج ويباع هذا الانتاج ، وهكذا كان اصحاب هذه المصانع يضغطون النفقات ويكرسون الارباح لبنـاء مزيد من المصانع ..

لقد سبقوا جميع بلاد العالم فى التصنيع وهم يريدون أن يستغلوا هذه الفرصة الفريدة فى كسب الارباح ، ومضوا فى غمرة هذا السباق الجنونى لمضاعفة اعمالهم يدوسون العمال التعساء الذين جلبوا بسواعدهم هذا الثراء

اذا فقد قامت الصناعة الحديثة على اساس استغلال القوى للضعيف • وقد رأينا الاقوياء يستغلون الضعفاء فى كثير من مراحل التاريخ • ولكن النظام الصناعى جعـل هذا الاستغلال اكثر سهولة • فلم يكن هناك رق من ناحية القانون • اما من ناحية الواقع ، فان عمال المصانع ، عبيد

الاجور ، كانوا فى حالة لا تختلف كثيرا عن حالة الرقيق فى العصر القديم ، كانت القوانين كلها فى مصلحة رب العمل • حتى الدين كان يؤيد رب العمل ويقول للعمال التعساء : انهم سوف يجنون ثمرة شقائهم فى نعيم العالم الاخر ، وابتكرت الطبقات الحاكمة فلسفة تتلخص فى أن وجود الفقراء امر ضرورى فى كل مجتمع وانه من اللازم بناء على ذلك ان يدفع رب العمل اجورا ضئيلة لعماله • لان العامل اذا اخذ اجرا كبيرا فسوف يحاول ان يستمتع بهذا المال وينصرف عن العمل وهى كما ترين فلسفة مريحة ، ملائمة لمصالح اصحاب المصانع وسائر الاغنياء

ان قراءة تاريخ تلك الايام حافلة بالمتعة والفائدة • اننا نتعلم منها ، اشياء كثيرة حتما • ونرى من خلالها الى اى حد أثر التقدم الآلى على المجتمع

لقد انقلب نظام الانتاج كله رأسا على عقب ، وظهرت طبقات جديدة قفزت الى المقدمة وقبضت على ناصية القوة واختفت طبقة الصناع اليدويين وتحولت الى طبقة من الاجراء الذين يعملون فى المصانع بل واثرت الظروف الاقتصادية الجديدة على أفكار الناس ومعتقداتهم فى الدين والاخلاق • فان معتقدات الناس تسير جنبا الى جنب مع مصالحهم الاقتصادية واوضاعهم الطبقية ، وهم يهتمون اذا اصبحت لهم القوة بوضع القوانين التى تحمى مصالحهم وهم يضعون هذا كله بالطبع فى ثوب من الفضيلة ، مؤكدين ان خير الانسانية هو الدافع الوحيد لهم على سن تلك القوانين • ونحن فى الهند نسمع الكثير عن عواطف الانجليز الذين يقولون لنا دائما انهم يعملون من اجل مصلحة الهند فى نفس الوقت الذين يحكموننا فيه بالارهاب كذلك فان الرأسمالية وكبار اصحاب المصانع يؤكدون لنا دائما نواياهم الطيبة نحو عمالهم ، ولكنهم لا يترجمون

هذه النوايا الطيبة ابدا الى اجـــور احسن وكل ارباح المصانع تنفق فى اقامة قصور احدث لا لتحسين اكواخ الطين التى يعيش فيها العمال ..

انه لغريب حقا .. كيف يخدع الناس انفسهم ويخدعون غيرهم عندما تحتاج مصالحهم الى هذا الخداع . لقد كان اصحاب العمل الانجليز فى القرن الثامن عشر وما بعده يقاومون كل محاولة تبذل لتحسين عمالهم

كانوا يقاومون اى تشريع يتصل بمصانعهم او بتحسين المساكن ويرفضون الاعتراف بحق المجتمع فى القضاء على أسـباب الشـقاء وكانوا يريحون ضمائرهم بدعوى أن الخاملين وحدهم هم الذين يشقون وقد اخترعوا فلسفة جديدة اطلق عليها اسم « دعهم يعملون » تتلخص فى أنه من حق صاحب العمل ان يتصرف فى أعماله كيفما شاء ، بغير اى تدخل من جانب الحكومة . وكانت هذه الفلسفة ملائمة تماما لمصالحهم فهم وقد سبقوا بمصانعهم بـلاد العالم جميعا ، ليسوا فى حاجة الا لميدان حر يجنون منه الارباح . واصبح مبدأ « دعهم يعملون » او مبدأ الحرية الاقتصادية مبدأ مقدسا لانه يبيح لكل فرد ان يصنع ما يشاء . الا يعطى هذا المبدأ كل رجل او امرأة الحق فى أن يصارع الدنيا كلها اذا شاء ؟ واذا كان هنـاك كثيرون يذهبون ضحايا هذا الصراع فماذا يهم ؟

لقد حدثتك فى خطابات كثيرة سابقة عن مبدأ التعاون بين البشر الذى كان اساس الحضارة الانسانية ، ولكن الرأسمالية الجديدة والحرية الاقتصادية عـادت بالبشر الى قوانين الغاب . وقد سماها «كارليل» بحق فلسـفة الخنازير .. فمن هم الذين وضعوا أساس هذا القانون الجديد للحياة والعمل .. انهم ليسوا العمال . فلم يكن لهؤلاء المساكين الحق فى أن يقولوا شيئا ما . انهم اصحاب

الاعمال الناجحين الذين لا يريدون أى تدخل فى نجاحهم ، باسم الحرية وحق الملكية عارضوا حتى التشريعات التى تضع شروطا صحية للمساكن او تحارب غش البضائع ..

لقد استعملت منذ بضعة سطور كلمة « رأسمالية » وقد عرف كل بلد من البلاد هذه الرأسمالية بصورة أو بأخرى ـ فكل صناعة اقيمت ولا شك ب « رأس مال » أى بأموال مدخرة من قبل ولكن ظهور الآلة الكبيرة وانتشار الصناعة أدى الى تراكم كميات هائلة من الارباح المدخرة واصبح اسم الرأسمالية يطلق على النظام الاقتصادى الذى ظهر بعد الثورة الصناعية . وهو النظام الذى بمقتضاه يسيطر الرأسماليون اى اصحاب رأس المال على المصانع ويأخذون الارباح . والرأسمالية منذ ايامها الاولى تحمل معنى التفرقة بين الغنى والفقير ، فالآلات الحديثة تنتج كميات أوفر فتأتى بأرباح أكثر . ولكن هذه الارباح الكثيرة تذهب الى عدد قليل من الافراد اولئك هم اصحاب هذه المصانع . اما العمال فقد ظلوا فقراء . وبشىء من التدرج البطىء تحسنت احوال العمال فى انجلترا بالذات تحسنا طفيفا ، نتيجة استغلال انجلترا للهند وغيرها من البلاد . ولكن نصيب العمال من هذه الارباح ظل تافها بوجه عام . فالثورة الصناعية والرأسمالية قد حلت اذا مشكلة الانتاج ، ولكنها لم تحل مشكلة توزيع الثــورة الجديدة توزيعا عادلا . وهكذا ظلت الفجوة القديمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون موجودة بل زادت اتساعا

وقعت هذه الثورة الصناعية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهو نفس العصر الذى كانت انجلترا فيه تحارب فى الهند وكندا

وقد تأثرت هذه الاحداث بعضها البعض الى حد كبير فالاموال الطائلة التى انتزعتها شركة الهند الشرقية وغيرها

من الهند ساعدت على اقامة صناعات جديدة فى انجلترا

وقد ذكرت لك منذ قليل ان التصنيع يحتاج الى نفقات طائلة وانه يلتهم النقود ولا يعيدها الا بعد وقت • وقد كان حظ انجلترا رائعا اذ وجدت هذه الكميات الطائلة من النقود فى الهند لتقيم بها الصناعات الضخمة

وقد أدى بناء هذه المصانع الكبيرة الى ظهور حاجات جديدة • فهذه المصانع فى حاجة الى الخامات التى تحولها الى سلع فمصانع الغزل والنسيج فى حاجة الى القطن لتحوله الى قماش • كذلك فان هذه المصانع فى حاجة الى اسواق لتصرف فيها السلع التى تنتجها • ومرة اخرى جاءت الهند لانقاذ الصناعة الانجليزية

لجأ الانجليز فى الهند الى كل وسيلة وكل اسلوب لتدمير الصناعات الهندية ولفرض الاقمشة الانجليزية على السوق • وسوف احدثك عنها بالتفصيل فى مكان اخر

انتشرت الصناعة فى جميع انحاء العالم خلال القرن التاسع عشر وقامت الصناعات الرأسمالية فى كل مكان على نفس الخطوط الاولى التى وضعتها انجلترا وادت هذه الرأسمالية الى ازدياد موجة الاستعمار مرة اخرى فكل مصنع فى حاجة الى مواد خام ليصنعها والي الاسواق الواسعة ليبيع فيها منتجاته ، وأسهل طريقة للحصول على الخامات والاسواق فى وقت واحد هى احتلال البلاد التى تتوفر فيها الخامات

وهكذا دخلت الدول الكبرى فى صراع جديد للاستيلاء على أراض جديدة • وكانت انجلترا بفضل سيطرتها على الهند وامتلاكها لاكبر قوة بحرية متفوقة على غيرها من الدول

أما انجلترا نفسها فقد اصبحت بعد الثورة الصناعية، يحكمها اصحاب مصانع النسيج فى لانكشير وأصحاب مناجم الفحم ومصانع الحديد



حرب الاستقلال فى أمريكا

٢ اكتوبر ١٩٣٢

ننتقل الان الى ثورة ثانية عظيمة وقعت فى القرن الثامن عشر الا وهى ثورة المستعمرات الامريكية على انجلترا .. وهى ثورة سياسية فقط ، ليس لها الاثر البعيد الذى للثورة الصناعية التى حدثتك عنها فى الخطابين السابقين، أو للثورة الفرنسية التى سوف أحدثك عنها بعد قليل ، والتى هزت القوائم الاجتماعية لاوروبا كلها .. ومع ذلك فقد كان مقدرا لهذه الثورة السياسـية التى وقعت فى أمريكا أن تؤدى الى نتائج هائلة .. فهذه المسـتعمرات التى ثارت لم تكد تصبح حرة حتى اصـبحت مع الايام أقوى واغنى صناعيا من جميع البلاد الاخرى ..

هل تذكرين « ماى فلاور » ؟ .. السفينة التى حملت عددا من البروتستنت الانجليز الى امريكا سنة ١٦٢٠ .. لقد ضاق هؤلاء البروتستنت ذرعا بأوتوقراطية الملك جميس الاول وبآرائه الدينية ، فنفضوا عن أقدامهم تراب انجلترا وذهبوا الى الارض الجديدة الغريبة عبر المحيط الاطلنطى ، حيث يجدون حرية أرحب ! .. وقد رست

بهم السفينة في الشمال ، في مكان اطلقوا عليه اسم « نيو بلايموث » أى بلايموث الجديدة ، وكان المستعمرون قد سبقوهم الى أماكن اخرى من الشاطىء الشمالى لامريكا، وفى أعقابهم جاءت أفواج جديدة من المهاجرين حتى امتلأ الشاطىء الشرقى كله بالمستعمرات المتراصة من الشمال الى الجنوب .. كانت هناك مستعمرات كاثوليكيـــة ، واخرى اقامها الفرسان النبلاء الانجليز ، وغيرها أقامهـا الكويكرز ، وكان هناك ايضا هولنديون وألمان وفرنسيون، وان ظل أغلبهم من المستعمرين الانجليز .. وقد اختـار الهولنديون بقعة اقاموا عليها مدينة سموها « نيو امستر دام » فلما استولى عليها الانجليز أطلقـوا عليهـا اسـم « نيويورك » ..

وقد ظل المستعمرون الانجليز على ولائهم لملك انجلترا والبرلمان الانجليزى .. حقا لقد هاجروا لانهم غير راضين عن كثير مما يفعله الملك والبرلمان ، ولكنهم كانوا لا يريدون قطع صلتهم نهائيا بالوطن ، خصوصا من كان منهم من النبلاء أى من فرسان الملك .. وكانت كل مستعمرة من هذه المستعمرات تعيش حياتها المستقلة لا يربطها بغيرها الا قليل من الروابط فلما جاء القرن الثامن عشر كانت قد تكونت على الساحل ثلاث عشرة مستعمرة كلها تحت سيطرة انجلترا .. والى الشمال منها كانت توجد كندا ، والى الغرب توجد اراض تابعة لاسبانيا

وتذكرت مرة اخرى أن هذه المستعمرات كانت كلها على الشاطىء ، اما الاراضى الشاسعة الى الغرب فقد كانت مسكونة وواقعة تحت ســيطرة الهنود الحمر ، بزعامة قبيلة « ايروكيوسى »

وفى منتصف القرن الثامن عشر ، نشب صراع عالمى بين انجلترا وفرنسا تبلور فى الحرب التى عرفت باسـم

حرب السنين السبع « ١٧٥٦ ــ ١٧٦٣ » استمر أوارها في اوربا وأمريكا في وقت واحد ، وقد انتصرت انجلترا في هذه الحرب وانسحبت فرنسا من كندا ..

وقد حدثتك من قبل عن تجارة الرقيق التيكانت تقوم بها بعض الدول الاوروبية عن طريق نقل العمال الزنوج من افريقيا الى امريكا .. وقد كانت هذه التجارة الرهيبة الشائنة في أيدي الاسبان والبرتغال والانجليز ، وكانت أمريكا في حاجة الى الايدى العاملة ، خصوصا في الولايات الجنوبية ، حيث نشأت مزارع التبغ الشاسعة .. والسكان الاصليون لهذه البلاد هم الهنود الحمر ، وهم بدو رحل ، رفضوا الاستقرار والزراعة ، كما انهم رفضوا العمل في ظروف الرق ، وفضلوا المقاومة والفناء ، وقد تمت عملية اقناعهم بالفعل مع مرور الايام .. ولا نجد أحدا يذكر ، ممن يرجعون الى سلالة ذلك الشعب الذى سكن تلك القارة زمنا طويلا ..

ولما كان الهنود الحمر يرفضون العمل في الزراعة ، والحاجة الى الايدى العاملة شديدة ، اخذ تجار الرقيق يأسرون أبناء أفريقيا التعساء ويضعونهم في أقفاص كما يصنعون بالحيوانات المتوحشة ، ثم يرسلونهم عبر البحار في قسوة ووحشية لا يمكن تصديقهما .. وهناك يرسل هؤلاء الزنوج الى ولايات الجنوب ــ فرجينيا وكارولينا وجيورجيا ــ حيث يعملون جماعات جماعات ، في حقول التبغ الشاسعة ..

اما في ولايات الشمال فالامر مختلف .. فهناك كان المتدينون الذين حملتهم « ماى فلاور » يحافظون على تقاليدهم النبيلة ، لا يزرعون الاقطاعات الهائلة بل يزرع كل واحد المساحة التى يحتاجها والتى يستطيع ان يباشرها بنفسه فلم تكن هناك حاجة الى العبيد ولا الى

الايدى العاملة الكثيرة ونشأ جو من المساواة بين أصحاب هذه الاقطاعات الصغيرة ..

هكذا نشأ فى تلك المستعمرات نظامان اقتصـــاديان مختلفان ، نظام يقوم على المساواة والمزارع الصـغيرة فى الشمال .. ونظام يقوم على الرق والاقطاعات الكبيرة فى الجنوب .. ولم يشارك الهنود الحمر فى هذا النظام او ذاك بل اضطروا الى الانسحاب نحو الغرب شيئا فشيئا امام ضغط الوافدين الجدد ، وسهل انقراضهم لما كان بين قبائلهم وزعمائهم من خلافات ..

وكان لملك انجلترا نفسه وكثير من الملاك الانجليز مصالح كبيرة فى هذه المستعمرات ، فحرصوا على استغلالها الى أقصى الحدود .. ولما انتهت حرب السنوات السبع زاد ضغط الانجليز لاســـتخراج اكبر قدر من النقود من المســـتعمرات الامريكية .. ولما كان البرلمان الانجليزى مكونا من كبار الملاك ، فقد تحـــالف مع الملك فى فرض الضرائب الباهظـــة والقيود الثقيلة .. تماما كما كانوا يصنعون فى الهند .. واعترض المســتعمرون فى أمريكا على هذه القيود وعلى الضرائب الجديدة ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت تشعر بالزهو والقوة عقب انتصارها فى حرب السنين السبع بحيث لم تبال بهذه الاعتراضات .. ولكن حرب الســـنين الســـبع كانت قد علمت ابناء المستعمرات شيئا جديدا ! ..

لقد التقى أبناء الولايات المختلفة وتعارفوا .. وقد حاربوا فى جيوش نظامية تحت الراية الانجليزية فاعتادوا على الحرب وعرفوا فنونها فهم أيضـــا قد خرجوا من الحرب فى حالة تسمح لهم برفض مالا يرونه عادلا !..

ووصلت الامور الى ذروتها فى سنة ١٧٧٣ . عندما أرادت انجلترا أن تفرض عليهم شراء الشاى الذى تبيعه

شركة الهند الشرقية ، وكان كثيرون من اصحاب النفوذ فى انجلترا يحملون اسهم شركة الهند الشرقية ، فهــم مهتمون بمصالحها ـ ولكن بيع الشاى الذى تنتجه شركة الهند الشرقية فى أمريكا يسىء الى الانتاج المحلى من الشاى فقرر ابناء المستعمرات مقاطعة هذا الشاى الاجنبى ..

وفى ديسمبر ١٧٧٣ ، عندما حاولت انجلترا تفريغ الشاى بالقوة فى ميناء بوسطن .. قاومها الاهالى ، وتنكر عدد من ابناء الولايات فى ثياب الهنود الحمر ، وصعدوا الى السفن المحملة بالشاى الاجنبى ، والقوا به إلى البحر ، وتم هذا العمل علنا امام الجموع المحتشدة الهاتفة فكان تحديا صريحا ادى الى نشوب الحرب بين ـ المستعمرات الثائرة وبين انجلترا ..

ان التاريخ لا يكرر نفسه بدقة ، ولكنه يلتزم هذه الدقة فى بعض الاحيان بشكل غريب .. ان حادث القاء الشاى فى ميناء بوسطن سنة ١٧٧٣ اصبح حادثا شهيرا يطلق عليهم اسم «حفلة شاى بوسطن» ، وفى الهند ، منذ سنتين ونصف قاد غاندى حملة الملح الشهيرة ، وسار على رأس الزحف العظيم الى داندى .. وفى أمريكا يقــارن الكثيرون بين حفلة شاى بوسطن وحملة الملح فى الهند ، وان كان هناك بالطبع فرق كبير بين الاثنين ..

وبعد عام ونصف من حفلة شاى بوسطن ، فى سنة ١٧٧٥ نشبت الحرب بين انجلترا ومستعمراتها الامريكية .. ومن اجل اى شىء كانت المستعمرات تحارب ؟ .. ليس من اجل الاستقلال ، وليس بقصد الانفصال عن انجلترا ، فحتى بعد ان نشبت الحرب واريق الدم بين الجانبين ، ظل زعماء المستعمرات يقولون عن جورج الثالث ملك انجلترا « ملكنا المعظم » ويعتبرون أنفسهم رعاياه المخلصين .. وقد تكرر هذا الوضع فى حالات كثيرة ، فى

هولندا ظلوا يعتبرون فيلب الثانى ملك اسبانيا ملكا عليهم بالرغم من اشتباكهم فى حرب عنيفة ضد جيوشه وقد مضت سنوات كثيرة قبل ان تضطره هولندا الى اعلان استقلالها .. وفى الهند ما زال البعض يتشككون فى امكان تحقق الاستقلال ، ويطالبون بالبقاء ضمن نطاق الدومنيون، ولكن التاريخ يعلمنا أن مثل هذا الموج لا يمكن أن ينحسر الا عن الاستقلال التام ..

ففى سنة ١٧٧٤ ، قبل أن تنشب حرب الاستقلال فى أمريكا بقليل ، ألقى جورج واشنجطن خطبة قال فيها انه لايوجد عاقل واحد فى أمريكا يريد الاستقلال.. ولكن واشنجطن نفسه أصبح بعد ذلك أول رئيس للجمهورية الامريكية المستقلة ..

وفى سنة ١٧٧٤ ، وبعد ان نشبت الحرب فعلا ،توجه ٤٦ عضوا بارزا فى الكونجرس بالخطاب الى ملكانجلترا بوصفهم رعايا مخلصين ، طالبين منه حقن الدماء ..كانوا يريدون باخلاص اعادة الصفاء بين انجلترا الام وابنائها الامريكان .. كان كل ما يريدونه نوعا من الاستقلال الذاتى ، وقد اطلق على هذا النداء اسم « عريضة غصن الزيتون » ..

ولكن ، بعد أقل من سنتين ، وقع اكثر من ٢٥ عضوا من الذين وقعوا عريضة غصن الزيتون وثيقة اخرى هى اعلان الاستقلال !

فالمستعمرات لم تبدأ إلقتال من أجل الاستقلال .. كانت كل شكوى المواطنين فيها من الضرائب وقيودالتجارة كانوا ينكرون فقط حق البرلمان البريطانى فى فرض الضرائب عليهم ما داموا غير ممثلين فيه ، فأرسلوا صيحتهم المشهورة « لا ضريبة بغير تمثيل » .. ولم يكن لابناء المستعمرات جيش ، ولكن كان لديهم وطن غنى يستطيع

ان يسعفهم عندما يريدون ، فأنشأوا جيشهم على عجل ، وغدا واشنجطن القائد العام لهذا الجيش ، وانتهـــزت فرنسا الفرصة لتكيد لانجلترا فأعلنت عليها الحرب وكذلك صنعت اسبانيا

لقد تحول التيار اذا ضد انجلترا ، ولكن الحرب ظلت مستمرة بضع سنوات ، وفى سنة ١٧٧٦ اذيع اعـلان الاستقلال المشهور ، وفى سنة ١٧٨٢ انتهت الحـــرب ووقعت معاهدة الصلح بين المتحاربين ســـنة ١٧٨٣ فى باريس ..

هكذا تحولت المستعمرات الثلاث عشرة الى جمهورية مستقلة اسمها الولايات المتحدة الامريكية ، ولكن التنافس والغيرة بين هذه الولايات ظل يحتدم وقتا طويلا قبل أن يولد الشعور العام بالوطن الواحد ..

كانت الولايات المتحدة اول جمهورية عظيمة يعرفهـا العالم فلم يكن توجد فى ذلك الوقت جمهورية اخرى فى العالم كله غير سويسرا الصغيرة .. فهولندا وان كانت جمهورية الا انها كانت فى قبضة الارستقراطيين القليلين، وانجلترا لم تكن ملكية فحسب بل كان برلمانها فى يـد طبقة الملاك الاغنياء ، فجاءت جمهورية الولايات المتحدة طرازا من الدول ليس لها ماض مثل دول آسيا وأوروبا ، وليس فيها اقطاع عريق ، فيما عدا نظام الرق فى الجنوب وليس فيها طبقة النبالة الموروثة .. فالبورجوازية او الطبقـة المتوسطة حرة ليس امامها عقبات تذكر تحول دون نموها .. وبالفعل كان نموها سريعا .. وكان تعداد الجمهورية عند استقلالها ٤ ملايين ، وصل ســنة ١٩٣٠ الى ١٢٣ مليونا ..

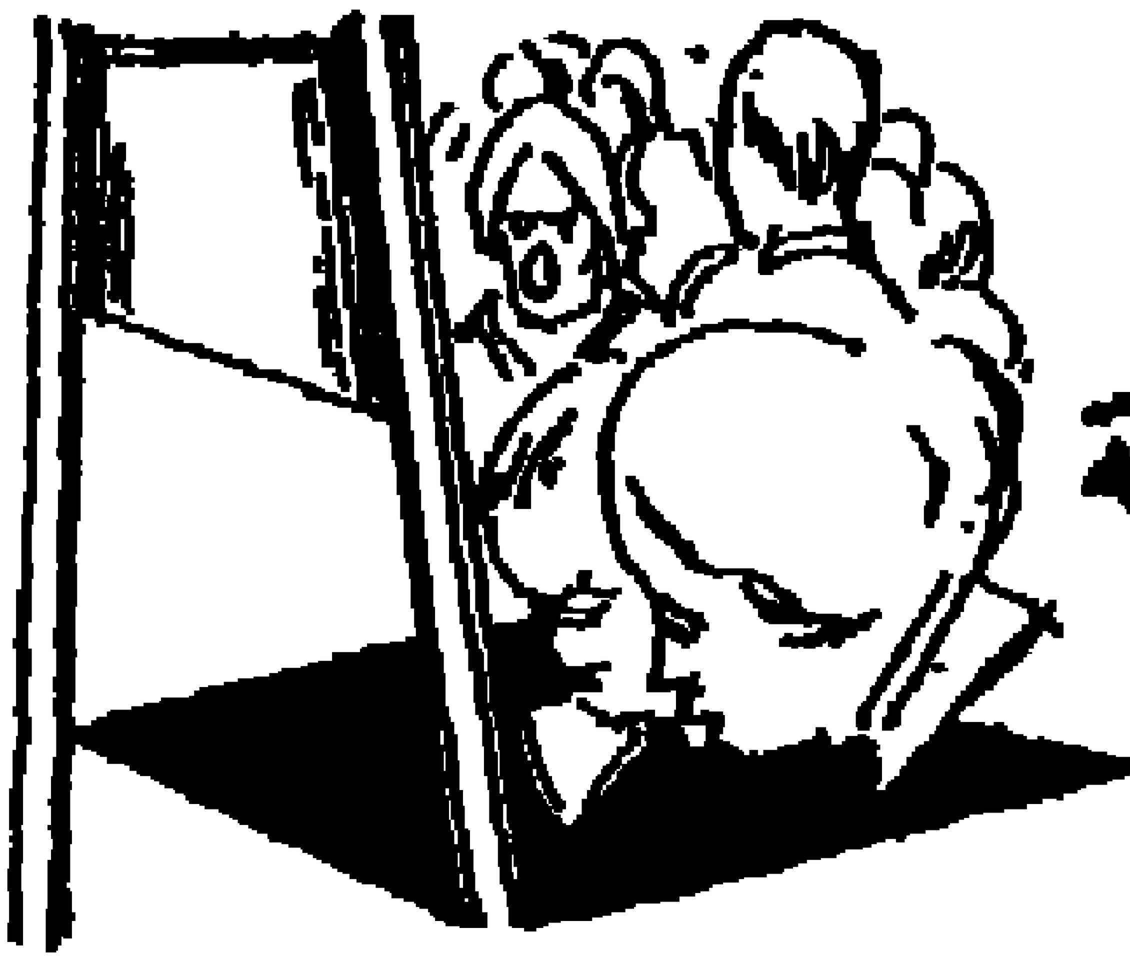
وأصبح جــورج واشنجطن أول رئيس جمهـــورية للولايات المتحدة .. وكان من كبار ملاك الأراضى فى ولاية

فرجينيا .. ومن بين عظماء ذلك العصر الذين يعتبرون بحق خالقى هذه الجمهورية .. توماس بين وبنيامين فرانكلين ، وباتريك هنرى وتوماس جيفرسون ، وآدمز وجيمس ماديسون ، وكان بنيامين فرانكلين عالما عظيما أثبت بواسطة استخدام ـ طائرات الورق التى يلعب بها الاطفال ـ أن البرق الناشىء عن اصطدام السحب هو نوع من الكهرباء ..

أما اعلان الاستقلال ، فقد سجل أن كل الرجال يولدون متساوين .. وكانت الفكرة من وراء هـــذا النص هى القضاء على الفوارق الاقطاعية التى كانت تعرفها أوروبا ، وهذا فى حد ذاته تقدم عظيم .. ولا شك أن كثيرين من الذين صاغوا هذا الاعلان كانوا متأثرين بالفلاسفة والمفكرين الفرنسيين مثل فولتير وروسو ..

كل الرجال يولدون متساوين ! .. ومع ذلك فمازال هناك الزنوج التعساء .. أرقاء بغير حقوق ، فماذا عنهم ؟ .. كيف يتلائمون مع الدستور الجديد ؟ ..

بعد سنوات كثيرة نشبت حرب أهلية عنيفة بين ولايات الشمال وولايات الجنوب انتهت بالغاء الرق ، ولـــكن مشكلة الزنوج ما زالت موجودة فى أمريكا الى اليوم ! ..



الثورة الفرنسية

١٠ اكتوبر ١٩٣٢

ما أصعب الكتابة عن الثورة الفرنسية ! انها صعوبة لا ترجع الى قلة المعلومات عنها ، بل الى كثرتها ..

لقدكانت هذه الثورة دراما رائعة منوعة مليئة بالاحداث الخارقة التى ما تزال تبهرنا وترعبنا وتهزنا ..

ان سياسات الامراء ورجال الدولة تدور فى المخادع والحجرات الخاصة ، يحيط بها جو من الغموض ، وعليها نقاب كثيف يغطى كثيراً من الخطايا ، ولغة مزخرفة زائفة ، تحجب صراع المطامع المتنافسة .. وحتى حين كان هذا الصراع يؤدى الى الحرب والى ارسال جيوش جرارة من الشباب الى حتفهم من اجل هذه المطامع والشهوات لا تسمع اذاننا اى اشارة الى هذه الدوافع الحقيرة .. بل تسمع كلاما عن الدوافع النبيلة والاغراض السامية التى تتطلب التضحية ! ..

ولكن الثورة شىء اخر تماما .. ميدانها ليس فى الحجرات المغلقة ولكنها فى الحقل والشارع والسوق ، ووسائلها غليظة خشنة ، فالناس الذين يصنعونهاليست

لهم ثقافة الامراء ورجال الدولة ، لغتهم ليست موشاه أو مهذبة ولا هى تخفى شبكة من المؤامرات والخطط الشريرة لا غموض هناك ولا نقاب يغطى ما تتجه اليه أفكارهم ، حتى أجسادهم ليس عليها الا القليل تتغطى به!

السياسة فى لحظات الثورة ليست مجرد رياضة للملوك والساسة المحترفين .. ولكنها تصبح تعاملا مع الحقائق ، صادرا عن الطبيعة الانسانية الخام ، والبطون الخاوية ..

وهكذا رأت فرنسا ، فى تلك السنوات الخمس الحاسمة من ١٧٨٩ الى ١٧٩٤ ، الجماهير الجائعة تعمل ، انهم الجائعون الذين أرغموا ايدى الساسة المرتعدة على الغاء الملكية والاقطاع وامتيازات الكنيسة ! .. انهم هم الذين قدموا القرابين الى المقصلة الرهيبة وانتقموا انتقاما قاسيا من أولئك الذين اضطهدوهم فى الماضى ، والذين اعتقدوا انهم يتآمرون على حريتهم الجديدة !.. ان هؤلاء الحفاة العراة هم الذين خفوا ليدافعوا عن ثورتهم فى ارض المعركة ، بأسلحة عتيقة ، قهروا بها الجيوش المدربة التى أرسلتها اوروبا المتحدة ضدهم ..

لقد صنع المعجزات هؤلاء الفرنسيون .. ولكنهم بعد سنوات رهيبة من التوتر والصراع ، كانت قوى الثورة قد انهكت فانقلبت على نفسها ، وأخذت تأكل بنيها ، ثم جاءت الثورة المضادة .. فابتلعت الثورة الاولى ، وأعادت الطبقات الممتازة لتتحكم فى أبناء الشعب الذين خاطروا وتحملوا كل هذا العناء ومن « الثورة المضادة » .. خرج نابليون وأصبح دكتاتورا وامبراطورا .. ولكن لا الثورة المضادة ولا نابليون استطاع ان يعيد الناس الى أماكنهم القديمة .. لا أحد استطاع أن يمحو الانتصارات

الرئيسية للثورة ، ولا أحد استطاع ان ينتزع من الشعب الفرنسي ، بل ومن سائر الشعوب الاوربية ، ذكرى تلك الايام التى حكم فيها رجل الشارع حقا ، ولو لفترة قصيرة جدا!

وفى أيام الثورة الاولى ، كانت هناك أحزاب وهيئات كثيرة تحارب من اجل السلطة .. كان هنـــاك الملكيون يحاولون عبثا ابقاء الملك لويس السادس عشر بسلطاته الاستبدادية القديمة وكان هناك الاحرار المعتدلون يريدون دســـتورا يبقى الملك بسلطات مقيدة ، ثم الجمهوريون المعتــدلون ، وكان اســـمهم « الجيروند » والجمهوريون المتطرفون ، وكان اسمهم « اليعاقبة » لانهم اعتادوا ان يجتمعوا فى قاعة دير يعقوب ..

تلك كانت المجموعات الرئيسية ، غير كثير من المغامرين وخلف كل هذه المجموعات الافراد ، كانت جماهير الشعب الفرنسي وجماهير باريس بصفة خاصة ، تعمـــل تحت زعامة قادة مجهولين خرجوا من غمارها .. وفى البـــلاد المجاورة ، خصوصا انجلترا ، كان يوجـــد المهاجرون ، وهم النبلاء الفرنســـيون الذين فروا من الثورة وأخذوا يتآمرون ضدها .. ووقفت كل القوى فى أوروبا متحدة ضد فرنسا الثائرة .. انجلترا البرلمانية الارستقراطية ، مثلها مثل ملوك القارة وأباطرتها ، كانوا كلهم خائفين من غضبة الرجل البسيط فى فرنسا ، ويحاولون كبتها ..

لقد تآمر الملك والملكيون ولـــكنهم لم ينجحوا الا فى التعجيل بآجالهم ..

وكان أقوى حزب فى الجمعية الوطنية فى أول الامر هو حزب الاحرار المعتدلين الذين كانوا يريدون دستورا على الطراز الانجليزى أو الامريكى ، وعلى رأسه ميرابو .. وقد ظل هذا الحزب مسيطرا على الجمعية الوطنية ما يقرب من السنتين ، فاستطاع مدفوعا بانتصـــارات

الايام الاولى من الثورة — ان يسجل وثائق رائعة ويحقق تغييرات هامة .. وبعد عشرين يوما من سقوط الباستيل فى ٤ أغسطس ١٧٨٩ ، شهدت الجمعية الوطنية دراما عنيفة .. كان الموضـــــوع المطروح للبحث هو : الغاء الحقوق والامتيازات الاقطاعية .. وكان جو فرنسا فى تلك الايام مشحونا بعقلية جديدة تماما، حتى امراء الاقطاع كانوا يبدون وكأنهم قد ثملوا أيضا بخمر الحرية الجديدة! .. فوقف كبار رجال الاقطاع ورجال الكنيسة يتنافسون فى التنازل عن حقوقهم الاقطاعية وامتيازاتهم الخاصة !.. كانت بادرة شريفة كريمة منهم ، وبالرغم من أنها لم تنتج أثرها لبضعة سنين . فانه ليحدث فى أحيـان نادرة أن تبدى الطبقات الممتازة مثل هذه الدوافع النبيلة ! .. أو لعلهم أدركوا أن وقت زوال امتيازاتهم قد حان فوجدوا أن سلوك هذا الطريق المتسم بالسخاء خير لهم وأبقى ..

وقد رأينا فى الهند منذ أيام قليلة بادرة رائعة من هذا النوع ، حين أعلن كهنة الهندوس الغاء التحريم الذى كان موضوعا على طائفة المنبوذين .. فكأن عصا سحرية مست تلك القيــــود التى وضـــعها الهندوس على أخوتهم فأسقطتها ، وانفتحت آلاف الابواب التى ظلت موصـــدة فى وجوه هؤلاء المنبوذين دهرا طويلا ..

وهكذا فى جو من الحماسة ألغى برلمان فرنسا الثائرة حقوق الاقطاع ، ومحاكم الاقطاع والغى اعفاء النبلاء من الضرائب بل وألغى حتى الالقاب .. وانصرفت الجمعية الوطنية الى وضع اعلان حقوق الانسان .. وربما كانت فكرة هذا الاعلان الشهير مأخوذة من اعلان الاستقلال الامريكى .. ولكن الاعلان الامريكى كان مختصرا بسيطا على عكس الاعلان الفرنسى الذى جاء طويلا .. وحقوق الانسان هذه هى الحقوق التى تكفل له الحرية والمساواة والسعادة

وقد كان هذا الاعلان بالنسبة لعصره عملا باسلا جريئا ، وقد ظل ما يقرب من مائة عام بعد ذلك هدفا للاحرار والديمقراطيين في أوروبا كلها .. ولكنه الان يبدو عتيقا ، وعاجزا عن حل أى مشكلة من مشاكل عصرنا الراهن .. فقد احتاج الناس الى بعض الوقت كي يكتشفوا ان المساواة امام القانون واباحة حق التصويت للجميع لا يكفيان لتحقيق المساواة الحقيقية أو الحرية أو السعادة .. ذلك ان أولئك الذين يملكون القوة لديهم وسائل كثيرة لاستغلال الناس .. وقد تغير الفكر السياسي وتقدم منذ الثورة الفرنسية ، حتى أصبح أشد المحافظين مغالاة يتمسكون اليوم بالمبادىء الرنانة التى انطوى عليها اعلان حقوق الانسان .. ولكن ليس معنى ذلك كما يظن البعض أن هؤلاء المحافظين يقبلون حقا المساواة والحرية الحقيقيتين .. فهذا الاعلان فى واقع الامر يحمي الملكية الخاصة فالمقاطعات المملوكة للنبلاء الكبار والكنيسة التي صودرت كانت مصادرتها لاسباب أخرى تتصل بالحقوق والامتيازات الاقطاعية أما حق الامتلاك فى ذاته فقد ظل حقا مقدسا لا يمس ..

وانت تعلمين أن المفكرين التقدميين الآن يعتقدون أن حق الملكية الخاصة شر يجب الحد منه ، بقدر الامكان !

قد يبدو اعلان حقوق الانسان لنا الان وثيقة عادية، ولكن كل الافكار الجريئة تصبح عادية بعد زمن . فحين أعلنت هذه الوثيقة اهتزت اوروبا كلها ، وبدت كأنها تحمل لكل المعذبين املا فى حياة أسعد . ولكن الملك لم يقبلها . كان يراها كفرا والحادا فرفض ان يصدق عليها . وكان مايزال يسكن فرساى . وهنا هب غوغاء باريس ، تقودهم النساء وزحفوا على فرساى حيث لم يكتفوا بارغام الملك على توقيع الميثاق فقط ، بل وعلى العودة

الى قلب باريس أيضا ..

ثم أقدمت الجمعية الوطنية على تغييرات أخرى نافعة . صادرت املاك الكنيسة الواسعة ، وأعادت تقسيم فرنسا الى ٨٠ وحدة اقليمية ، وهو التقسيم الذى مايزال ساريا الى الان فيما أظن ، ووضعت قوانين جديدة للمحاكم لتحل محل محاكم الاقطاع القديمة . ولكنها لم تذهب فى ذلك كله الى الحد الكافى . فلم تصنع شيئا يذكر للفلاحين المتعطشين الى الارض ولا لسكان المدن الباحثين عن الخير ، وبدت الثورة كأنها قد ألقى القبض عليها أو أن قوة ما قد اعتقلتها !

ولم تكن الجماهير من الفلاحين ، أو سكان المدن ممثلة فى الجمعية الوطنية قط . كانت الجمعية تحكمها الطبقة المتوسطة تحت زعامة ميرابو ، فلما شعرت هذه الطبقة بأنها حققت أهدافها ، بدأت تبذل كل جهدها لايقاف الثورة عند هذا الحد . وبدأ هؤلاء الزعماء يتحالفون مع الملك بل ويعدمون الفلاحين فى الاقاليم . وأصبح زعيمهم ميرابو المستشار السرى الخاص للملك ..

وبدأ العامة الذين اقتحموا الباستيل وظنوا انهم حطموا أغلالهم ، يتساءلون ماذا يحدث هناك ؟ ان حرياتهم ماتزال بعيدة عنهم ، والجمعية الوطنية تحكمهم بنفس الطريقة التى كان يحكمهم بها الاقطاعيون القدماء ! ..

واذ خاب أمل أهل باريس ، قلب الثورة النابض فى الجمعية الوطنية ، وجدوا لانفسهم متنفسا فى بلدية باريس ، فكل قسم من أقسام المدينة التى تنتخب مندوبا عنها فى المجلس البلدى ، كان فيه تنظيم نشيط وثيق الاتصال بالجماهير . وأصبح المجلس البلدى منبرا للثائرين ، يضم خصوم الطبقة المتوسطة والمعتدلين

وجاء يوم الذكرى الاولى لسقوط الباستيل ، واحتفل

اهل باريس احتفالا هائلا فى ١٤ يوليو . وانطلق اهل باريس يقيمون الزينات فى المدينة على حسابهم لان العيد عيدهم ..

هكذا وقفت الثورة فى سنتى ١٧٩٠ و ١٧٩١ : الجمعية الوطنية فقدت ثورتها تماما واكتفت بما صنعت من تغيرات وشعب باريس مازال معبأ بالطاقة الثورية ، والفلاحون ينظرون نظرة جائعة الى الارض . ولم يكن ممكنا ان يستمر الموقف على هذا النحو . فالثورة اما أن تمضى الى الامام او تموت

ومات ميرابو الزعيم المعتدل فى أوائل سنة ١٧٩١ . وكان بالرغم من عمله مستشارا للملك محبوبا من الناس وعلى صلة وثيقة بهم . وفى ٢١ يونيو سنة ١٧٩١ وقع حادث حدد مصير الثورة وحظها . ذلك هو فرار الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت متخفيين

وقد كاد الملكان الهاربان يصلان الى الحدود فعلا ، لولا ان بعض الفلاحين عرفوهما فى « فارنجان » بالقرب من فردان ، فأوقفوهما وأعادوهما الى باريس

لقد خط الملك والملكة حظهما بهذا العمل . فقد انتشرت الدعوة الى الجمهورية بسرعة هائلة ، وان ظلت الجمعية الوطنية بمنأى عن هذا الاتجاه ، بل انها أطلقت النار على الجماهير التى طالبت بخلع لويس . وانطلقت السلطات فى طلب « مارا » ، أحد أبطال الثورة الكبار ، لانه هاجم الملك بعد فراره واتهمه بالخيانة ، فاضطر « مارا » الى الاختفاء من مطارديه فى بعض مجارى باريس ، حيث أصيب بمرض جلدى بشع

ومع ذلك فقد ظل لويس ملكا ، ولو بالاسم ، سنة أخرى . . وفى سبتمبر سنة ١٧٩١ انتهت مدة الجمعية الوطنية وأخلت مكانها للجمعية التشريعية . وكانت معتدلة كسابقتها ولاتضم

الامميثلين للطبقات العليا . فلم تمثل قط الحمى المتزايدة فى فرنسا

وانتشرت حمى الثورة بين الناس على نطاق واسع ، وبدأ الجمهوريون المتطرفون اليعاقبة الذين خرجوا من غمار الناس يزدادون قوة ..

وفى نفس الوقت كانت القوى الاوربية تراقب هذه الاحداث لبعض الوقت ، مثل انهاء مملكة بولندا القديمة واقتسامها ، ولكن احداث فرنسا كانت تسير الى غايتها وتجتذب كل يوم المزيد من الانتباه ، وكانت النمسا تحتل بلجيكا ، وكانت لها تبعا لذلك حدود ملاصقة لفرنسا . وزحفت الجيوش الاوروبية الى ارض فرنسا وهزمت الجيش الفرنسى . وكان المفهوم أن الملك متحالف مع الاعداء الزاحفين ، وان الملكيين كلهم خونة . وكان الفرنسيون كلما تزايدت الاخطار أصبحوا أكثر حساسية وذعرا حتى اخذوا يرون الخونة والخيانة فى كل شيء . وتصدى مجلس بلدى باريس الثائر فى هذه الازمة ، ورفع الراية الحمراء ايذانا بأن الشعب قد أعلن الاحكام العرفية ضد خيانة القصر

وفى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ اصدر امر الهجوم على قصر الملك . وامر الملك حرسه السويسرى باطلاق النار على المهاجمين ولكن الشعب انتصر وأرغم المجلس البلدى الجمعية التشريعية على اعتقال الملك ووضعه فى السجن

والراية الحمراء كما يعرف الجميع هى الان راية الشيوعية . ولكنها فى ذلك الوقت كانت تستعمل فى اذاعة نبأ اعلان الاحكام العرفية

على أن وضع الملك فى السجن لم يكن كافيا . فانطلق شعب باريس فى سورة غضبه من اطلاق نار الحرس السويسرى عليه وقتل الكثيرين منه ، كما انطلق مدفوعا بخوفه من الخونة والجواسيس ، يعتقل كل من يشتبه فيه حتى امتلأت السجون ولا شك أن الكثيرين جدا من

هؤلاء المعتقلين كانوا مذنبين ، ولكن المؤكد أن كثيرين أيضا من الابرياء قد دخلوا السجون ، وبعد بضعة أيام هبت عاصفة اخرى من السخط ، فأخذت الجماهير تخــــرج المسجونين من سجونهم ، وبعد محاكمات صورية ، تحكم عليهم بالاعدام . وقد قتل أكـــــثر من الف شخص فى « مذابح سبتمبر » كما سميت

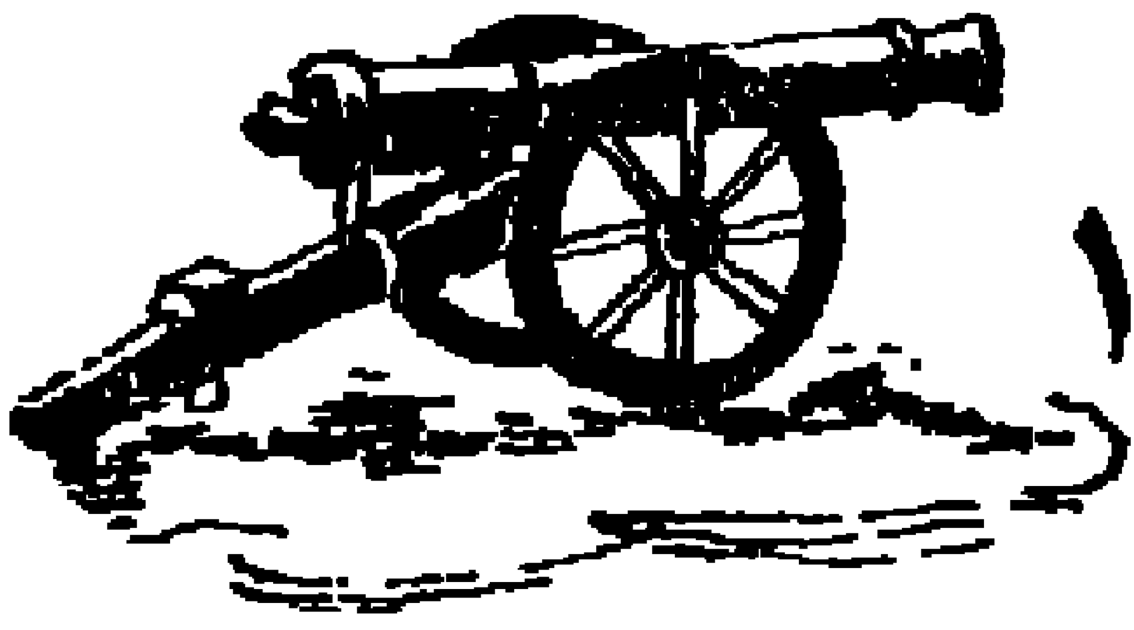
كانت هذه اول مرة يذوق فيها غوغاء باريس طعم الدم على نطاق واسع . وقد سال بعد ذلك دم كثير ، قبل أن يهدأ الظلم !

وفى سبتمبر هذا أيضا أحرز الفرنسيون أول نصر لهم على النمسويين والبروسيين الغزاة . وكان ذلك فى معركة صغيرة فى « فالما » .. صغيرة فى نطاقها ، ولكنهـا كانت كبيرة جدا فى نتائجها .. فقد انقذت الثورة ..

وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ اجتمع «المجلس الوطنى» وهو جهاز جديد حل محل الجمعية التشريعية . كان أكثر تقدما من الجمعيتين ، ولكنه ظل سائرا خلف المجلس البلدى . وكان أول عمل للمجلس الجديد هو اعـــلان الجمهورية . وبعد ذلك مباشرة تمت محـاكمة لويس السادس عشر ، وحكم عليه بالاعـدام ، وفى ٢١ ينـاير سنة ١٧٩٣ دفع رأسه ثمنا لاخطاء الملكية كلها !

وبذلك احرق الفرنسيون كل المراكب خلفهم ! لقــد أقدموا على هذه الخطوة الاخيرة ، معادين بذلك مــلوك أوروبا وأباطرتها الى الابد . لا رجعة الان الى الوراء . وعلى سلم المقصلة ، وقبل أن يغسل من دم لويس ، وقف دانتون ، قائد الثورة العظيم ، يخطب فى الجماهير المحتشدة موجها تحديه الى كل الملوك

ــ لقد تحدانا ملوك اوروبا . فالقينا اليهم برأس واحد منهم !!



ثورات سنة ١٨٤٨

٢٨ يناير سنة ١٩٣٣

أريد أن نلقى نظرة اخرى على الصورة التى لا تكف عن التغير لاوروبا خلال القرن التاسع عشر . واظن انى حدثتك منذ شهرين فى بعض هذه الخطابات عن الملامح البارزة لهذا القرن . ولعلك مازلت تذكرين بعض تلك الأسماء التي ذكرتها مثل: الرأسمالية الامبريالية والوطنية والاشتراكية والدولية .. الى آخره . واظن أنى حدثتك أيضا عن الديمقراطية وعن العلم وعن التطور الخطير في وسائل النقل وعن انتشار التعليم العام ، وعن الصحافة الحديثة . أن هذه الاشياء ـ وغيرها ـ هى التى صنعت حضارة أوروبا فى ذلك القرن .. الحضارة البورجوازية التى سيطرت فيها الطبقة المتوسطة على الصناعة الآلية ؛ فى ظل النظام الرأسمالى . وقد تنقلت هذه الحضارة البورجوازية الاوروبية من نجاح الى نجاح . وصعدت قمة بعد قمة . فلم يكد القرن التاسع عشر يصل الى النهاية حتى كانت قد سجلت تفوقها وسيادتها فى العالم أجمع .. ثم لم يلبث أن ظهر الخلل !

وقد رأينا أطرافا من آثار هذه الحضـــارة فى آســيا أيضا .. عندما ذهبت أوروبا ـ مدفوعة بصناعتهـــا النامية ـ تمد أيديها الى أراض بعيدة لكى تسيطر عليهــا وتستغلها لمصلحتها . وأنا أقصد بكلمة « أوروبا » هنــا أوروبا الغربية بالذات ، التى كانت متفوقة على غيرها فى حركة التصنيع وفى أوروبا الغربية كانت انجلترا الزعيمة التى لا تبارى ، متفوقة على الآخرين ، مستفيدة من هذه الزعامة الى أقصى الحدود ..

على أن كل هذه التغييرات الهائلة التى كانت تتــوالى فى غرب أوروبا ، لم تكن واضحة او مفهومة لدى الملوك والاباطرة فى مطالع القرن . فلم يدركوا أهمية القـــوى الجديدة الآخذة فى النمو . ومنذ القضاء على نابليون نهائيا كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة على أولئك الملوك هى أن يحافظوا على عروشهم وسلالتهم وان يجعلوا العالم ملائما لبقاء الاوتوقراطية . وكانوا فى الوقت نفســه لم يبرأوا بعد من الذعر الذى اصابتهم به الثورة الفرنسية ، فهم حريصون على أن لا يتيحوا الفرصة لنشوب ثــورة أخرى ..

وكما قلت لك من قبل ، عقدوا بينهم ما اســـموه ب « المحالفة المقدسة » للمحافظة عـــلى « الحق الالهى للملوك » ، ولمنع الناس من أن يرفعوا رؤوسهم ! وتحالفت الاتوقراطية ورجال الدين كالعادة . وكان الاسكندر قيصر روسيا هو الروح الموجهة وراء هذا الحلف .. ذلك أن بلاده ظلت حتى ذلك الوقت تعيش فى ظــلال القرون الوسطى ، لم تهب عليها نسمة واحدة من ريح الصناعة. كانت المدن الكبيرة هناك نادرة ، والتجـــارة تافهــة ، وحتى الصناعات اليدوية كانت فى مستوى خفيض ، مما جعل الارستقراطية قوة وحيدة لا ينازعها أحد . وعلى

العكس من ذلك كانت الاحوال فى سائر بلاد اوروبا . فكلما اتجه المرء غربا كان يجد الطبقة المتوسطة أكثر نموا ، حتى يصل الى انجلترا نفسها فلا يجد فيها أوتوقراطية على الاطلاق . فالملك مقيد بسلطة البرلمان ، والبرلمان فى يد حفنة من الاغنياء . وكان الفارق كبيرا بين الاتوقراطية فى روسيا والاغنياء الحاكمين فى انجلترا ، ولكنهما كانا يشتركان فى شىء واحد : الخوف من الشعب .. ومن الثورة

هكذا كانت الرجعية مسيطرة منتصرة فى أوروبا . وكان كل مظهر له اقل حظ من الحرية ، يحارب بأشد قسوة ، بل أنه بمقتضى قرارات مؤتمر فيينا ١٨١٥ ، الغيت بعض الجنسيات ، مثل ايطاليا ، وادخلت ضمن الحكم الاجنبى ، وكان لابد للاحتفاظ بهذا الوضع من استعمال العنف . ولكن مثل هذا الوضع لا يمكن أن يدوم ، فلابد من الاضطراب . وأصبحت اوروبا معبأة بالبخار ، الذى يعثر من حين الى آخر على منفذ له . وقد رويت لك من قبل قصة الاضطرابات التى وقعت سنة ١٨٣٠ ، والتى أدت الى بعض التغيرات ، مثل سقوط اسرة البوربون نهائيا فى فرنسا . ولكن هذه الاضطرابات أفزعت الملوك والاباطرة وأفزعت وزراءهم ، فاندفعوا يخمدون سخط الجماهير فى وحشية بالغة .

وقد رأيت خلال هذه الخطابات التغييرات الكبيرة التى كانت تحدث نتيجة للحروب او الثورات ..

أما الحروب فقد كانت فى الزمن الماضى اما دينية أو عائلية او وطنية . وان كانت تخفى وراءها عادة بعض الاسباب الاقتصادية أيضا

وبوصولنا الى العصور الحديثة نجد أن الحروب الدينية والعائلية قد اختفت . لم تنته الحروب طبعا ،

بل لعلها زادت فى نطاقها ، ولكن أسبابها أصبحت سياسية واقتصادية ـ الاسباب السياسية مرتبطة عادة بالوطنية . كغزو دولة لدولة اخرى ، أو كصراع بين وطنيتين . ولكن حتى هذه الخلافات نجد لها أسبابا أقتصادية ، كاحتياج الدول الصناعية الى أسواق وخامات تستأثر بها

وهكذا نجد أن العوامل الاقتصادية أصبحت ـ ومازالت الى الآن ـ هى الاسباب الاولى فى أشعال الحروب

وقد حدث نفس التطور بالنسبة للثـــورات . كانت الثورات قديما تحدث فى بلاط القصـــور : أفراد اسرة حاكمة يتآمرون ضد بعضهم البعض ويتبادلون المـــكائد والاغتيالات .. او انفجار يائس يقوم به الناس لانهـــاء حياة طاغية ، أو استيلاء جندى طموح على العرش بواسطة القوة المسلحة . مثل هذه الثورات كان ينهض بها أفــراد قلائل ، أما عامة الناس فكانوا لا يشـــاركون فيهـــا ، بل يهتمون بها .. فالحكام يتغيرون ولكن النظـــام يبقى وحياة الناس لا تتغير . نعم ، هناك الحاكم الطاغية الذى لا يحتمل والحاكم الذى يستطيع الناس احتماله ولــكن سواء كان الحاكم طيبا أو رديئا فان الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت تبقى على حالها . أى أن الثورات ، لم تكن اجتماعية

والثورات الوطنية تنطوى على تغير أكبر من ذلك : فحين تحكم احدى الدول دولة اخرى ، فمعنى ذلك ان طبقـــة حاكمة أجنبية هى التى تسيطر . وهذا الوضـــع يلحق بالدولة المحتلة أضرارا بالغة ، اذ معنى ذلك ان تكون الدولة المحكومة مكرسة لصالح الدولة الحاكمة والطبقة الاجنبية الحاكمة ..

هذا الوضع يؤدى الى الثورة الوطنية ، لانه من ناحية يؤذى كرامة أبناء الدولة المحكومة . ويحرم الطبقات البارزة

فيها من الوصول الى مراكز السلطة والنفوذ ، التى لولا الحكم الاجنبى لشغلها أبناء هذه الطبقـــات ، والثورة الوطنية الناجحة هى التى تطرد العنصر الاجنبى وتضـع العناصر الوطنية القوية بدلا منها . ومعنى ذلك ان مثـل هذه الثورة الوطنية تعود بالنفع اولا وقبل كل شىء على أبناء الطبقات العليا لانهم هم الذين يستفيدون مباشرة من خروج العنصر الاجنبى

أما الطبقات الفقيرة فلاشك أنها تستفيد أيضا اذ لاتعود بلادهم محكومة لحساب دولة أجنبية . ولكن فائدتهم تبقى ضئيلة ، مالم تكن الثورة الوطنية مصحوبة بثورة اجتماعية أيضا . .

والثورة الاجتماعية شىء يختلف تماما عن الثـــورات الاخرى التى لا تغير شيئا سوى الســـطح ، هى ثورة سياسية بغير شك ، ولكنها تنطوى على شىء أكـــثر من ذلك ، اذ تغير تكوين المجتمع ذاته . فالثورة الانجليزية مثلا ، التى جعلت سلطة البرلمان هى العليا ، لم تكن ثورة سياسية فحسب ، بل كانت اجتماعية فى بعض نواحيها ، اذ أدت الى مشاركة الطبقة الغنية للملك فى سلطة الحكم . وبذلك ارتفعت تلك البورجوازية سياسيا واجتماعيـا ، بينما لم ينل أبناء البورجوازية الصغيرة ولا عامة النـاس شيئا . والثورة الفرنسية كانت ثورة اجتماعية ، بل وربما اكثر من ذلك قليلا ، فقد قلبت نظام المجتمع كله رأسا على عقب ، ولعبت الجماهير فيها دورا هاما

وقد انتصرت البورجوازية هنـا أيضـا ، فقد أعادت الجماهير ــ بعد أن لعبت دورها ــ الى مكانها القديم ، وأخرجت فى الوقت نفسه النبلاء أصحاب الامتيازات . .

فالثـورات الاجتمـاعية اذا أبعـد أثرا من التطورات السياسية ، اذ انها وثيقـــة الصـلة بظروف المجتمع .

والثورة الاجتماعية لا يمكن أن يخلقها فرد طموح أو جماعة معينة ، ما لم تكن الجماهير مهيأة ومستعدة لهذه الثورة بحكم الظروف

ولست أقصد باستعداد الجماهير أن تكون متيقظة لما ستفعله بعد اخبارها به . ولكننى أقصد أن تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد وصلت الى حالة اصبحت حياتهم معها عبئا لا يجدون خلاصا منه الا بعد تفكير كبير . حقا ، لقد كانت الحياة خلال قرون طويلة عبئا رهيبا بالنسبة لجماهير ضخمة من الناس ، احتملت هذا العبء احتمالا غريبا . كانت هذه الجماهير تثور أحيانا ، ثورات فلاحين فى الغالب ، ولكنها كانت تفقد رشدها من الغضب فتنطلق مدمرة ما كانت تستطيع أن تضع يدها عليه . ولكن هذه الجماهير كانت تثور خالية من ايه رغبة فى تغيير النظام الاجتماعى . وان كان هذا الجهل لم يمنع انهيار تلك الاوضاع الاجتماعية مرة أخرى ، كما حدث فى روما القديمة . وفى أوربا فى العصور الوسطى وفى الهند والصين وغيرها من الامبراطوريات التى أندثرت

وفى الماضى ، كانت التغييرات الاجتماعية الاقتصادية تتم فى بطء نظرا لان وسائل الانتاج والتوزيع والنقل ظلت دهورا طويلة دون أن تتغير تغيرا يذكر . وعلى ذلك كان الناس لا يلحظون هذا التغيير البطىء ويبقون على اعتقادهم بأن النظام الاجتماعى القديم أبدى لا بديل له . كذلك ساهم الدين فى وضع هالة من القداسة حول هذه النظم ، وما يصاحبها من عقائد وتقاليد . وأصبح الناس على درجة من الاقتناع بدوام هذه الاوضاع حتى انهم لم يفكروا قط فى أى تغيير للنظام الاجتماعى بالرغم من تغيير الظروف تغيرا كبيرا . ولكن بظهور الثورة

الصناعية وتغير وسائل النقل هذا التغيير الرهيب ، أصبحت التغييرات الاجتماعية أسرع من ذى قبل ، لقد قفزت طبقات جديدة الى المقدمة وأصبحت واسعة الثراء . وظهرت طبقة من العمال الصناعيين تختلف تماما عن طبقة العمال اليدويين أو الزراعيين ، كل ذلك أصبح يقتضى تغييرا اقتصاديا وسياسيا عاجلا . وأصبحت أوربا الغربية فى حالة غريبة من القلق . والمجتمع الحكيم هو المجتمع الذى يقدم على التغييرات الضرورية اذا دعت اليها الحاجة وبذلك يفيد من التطور . ولكن المجتمعات ليست فى العادة عاقلة ، ولا هى تفكر تفكيرا جماعيا بل ان أفرادها يفكر كل واحد لنفسه ومن أجل مصلحته ، كما ان الطبقات التى تضم أفرادا تتشابه مصالحهم تعمل لحساب نفسها . فاذا كانت هناك طبقة تحكم مجتمعا من المجتمعات ، فأنها تريد أن تبقى حاكمة مسيطرة تستغل الطبقات الادنى منها . والعقل والنظر البعيد يؤكدان أن الخير فى المدى الطويل لا يصيب فردا الا اذا كان خيرا للمجتمع الذى يعيش فيه هذا الفرد ، ولكن الفرد صاحب السلطة أو الطبقة صاحبة السلطة لا تريد الا أن تبقى على سلطتها . وأسهل طريقة لذلك هى محاولة اقناع سائر الطبقات والافراد بأن النظام الاجتماعى القائم هو خير نظام يمكن قيامه . وفى ذلك يساهم رجال الدين ، ويساهم التعليم ، حتى يصل الى اقناع الناس بعدم جدوى أى تغيير على الاطلاق . وما أكثر ما ينجح رجال الدين ورجال التعليم فى ذلك . حتى الذين يقاسون أكثر من غيرهم يصلون الى الاقتناع بحق النظام الاجتماعى القائم فى الاستمرار .. ببقائهم جائعين خانعين بينما يستمتع الآخرون بالحياة المترفة

هكذا نجد أناسا يعتقدون أن النظم الاجتماعية شىء

لا يتغير وان فقر الاغلبية لا ذنب فيه لاحد · انها فى رأيهم « القسمة » أو « الحظ » أو « جـزاء ما قدمت أيديهم فيما مضى »[١] . فالمجتمع دائما محـــافظ يكره التغيير ، يحب أن يبقى حيث هو ويؤمن بأنه خـــلق ليبقى حيث هو . ومن أجل ذلك نرى المجتمع كثيرا ما يعاقب أولئك الذين يريدون أن يخرجوه من الوحل الذى يعيش فيه

ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية لا تنظر لحسن الحظ ، انهـــا تمضى وتتغـــير ولو بقيت آراء النـــاس جامدة . وبالتدريج تتسع مسافة الخلف بين الحقيقة الواقعة وبين المعتقدات القديمة بحيث لا يبقى هنـــاك مفر من عمل شيء لتقليل مسافة الخلف بين الاثنـــين والا تعرض النظام للكارثة والانهيار

تلك هى الظروف التى تخـــلق الثورة الاجتـــماعية الحقيقية . فاذا وصلت الامور الى هذا الحد فلا مفر من نشوب الثورة ، مهما تأخرت بفعل انتشار المعتقدات القديمة ..

أما اذا لم تتوفر هـــذه الظـــروف ، فان أى عدد من الافراد لا يمكن ان يخلق ثورة اجتماعية مهما بذلوا من جهود

أما اذا انفجرت الثورة فعلا فسرعان ما يسقط القناع الذى كان يخفى الاوضاع الحقيقية عن العيون وسرعان ما يدخل الفهم الى عقول الناس . والناس اذا خرجوا من الجحر لا يلبثون أن يزحفوا الى الامام . وهذا هو السبب فى أن الناس فى أيام الثورات يتقدمون بنشـــاط عجيب ..

هكذا تأتى الثورة نتيجة حتمية للرجعية المتحجرة . أما اذا تجنب المجتمع غلطة الاقتناع بدوام النظم الاجتماعية واحتفظ بمرونته وقدرته على التطور مع تغير الظروف ،

فأنه لا يتعرض للثورة الاجتماعية أبدا . اذ يحل محل الثورة : التطور المضطرد ..

لقد استطردت فى الحديث معك عن الثورات دون أن اقصد والواقع أن هذا الموضوع يثيرنى ويعجبنى ، فالعالم الآن يغمره القلق فى كل مكان ، والنظام الاجتماعى يقف فى كثير من البلاد على وشك الانهيار ، مما يدعو المرء الى الاعتقاد بأن العالم يقبل على تطورات خطيرة

ففى الهند ، كما فى غيرها من البلاد المستعمرة ، نجد الشعور الوطنى دافقا قويا . ولكن هذا الشعور القومى الدافق يتركز أساسا بين الطبقات الميسورة الحـال ، أما الفلاحون والعمال ، وغيرهم ممن يعيشـون فى عوز دائم ، فانهم بالطبع مهتمون بمـلء بطونهم اكثـر مما يهتمون بالاحلام الوطنية المجردة . الوطنية بالنسبة لهم لا تعنى شيئا ما لم تحمل اليهم مزيدا من الطعام . وعلى ذلك فالمشكلة فى الهند ليست سياسية فقط ، بل واجتماعية أيضا

لقـد اندفعت فى هذا الحـديث الطويل عن الثورات بمنـاسبة شروعى فى الحديث عن تلك الثـورات التى غمرت أوربا فى القرن التاسع عشر

وكثير من هذه الثورات كان من نوع الثورات الوطنية ضد الغاصب الاجنبى . الا أن الافكار الثورية فى البلاد الصناعية بالذات أدت الى مزيد من الخلاف بين طبقـة العمال الجديدة والرأسماليين أصحاب الصناعات . وبدأ النـاس يفكرون ويعمـلون فى انتباه من أجـل الثورة الاجتماعية ..

وجاء عام ١٨٤٨ الذى يسمى فى أوروبا عام الثورات. فقد نشبت الثورات فى كثير من البلاد ، ونجح بعضها وان كان أغلبها قد انتهى الى الفشل . كانت الوطنيـة

المقهورة وراء الثورة فى بولندا وايطاليا وبوهيميا وهنجاريا

كانت ثورة بولندا ضد بروسيا وكانت ثورة بوهيميا وشمال ايطاليا ضد النمسا . وقد أخمدت جميعا . اما الثورة الهنغارية ضد النمسا فقد كانت أكبرها جميعا ، وقد تزعمها « لوجوس كوساث » الذى يذكره تاريخ المجر كأحد الوطنيين وأبطال الحرية الخالدين . وبالرغم من سنتين كاملتين من المقاومة ، فقد أخمدت هذه الثورة أيضا

وبعد فترة أخرى من الزمن نجحت المجر فى نيل استقلالها بواسطة ثورة أخرى من نوع جديد قادها زعيم اسمه « دياك » . وقد أصبحت حركة المقاومة السلبية التى تزعمها دياك ، بعد نصف قرن ، نموذجا للحركة الايرلندية ضد انجلترا ، وفى سنة ١٩٢٠ عندما بدأت حركة عدم التعاون فى الهند ، ذكر كثيرون كفاح « دياك » .. وان كان ثمة فروق كثيرة بين الطريقتين ..

وقد نشبت ثورة أخرى فى ألمانيا أيضا سنة ١٨٤٨ ولكنها لم تكن ذات خطر ، فتم اخمادها مع وعد باجراء بعض التعديلات لتهدئة الخواطر

أما فى فرنسا فقد تم تغيير كبير . فمنذ طرد البوربون كان يحكم فرنسا الملك لويس فيليب ، وكانت ملكية شبه دستورية . وفى سنة ١٨٤٨ ثار الناس عليه وأرغموه على التنازل ، ثم أعلنت الجمهوزية مرة أخرى .. الجمهورية الفرنسية الثانية ، اذ كانت الاولى خلال الثورة ..

وانتهز ابن أحد أخوة نابليون ــ لويس بونابرت ــ فرصة الاضطراب ، فعاد الى باريس ، وتظاهر بأنه من أنصار الحرية الكبار ، فانتخبه الفرنسيون رئيسا للجمهورية الجديدة ، ولم يكن تظاهره بأنه من أنصار

الحرية الا خدعة ليصل الى القوة . فلما اطمأن الى قوته ، واطمأن الى سيطرته على الجيش ، عمد سنة ١٨٥١ الى عمل انقلاب ، حاصر باريس وأطلق الرصاص على الناس وأرهب أعضاء البرلمان ، وفى السنة التالية أعلن نفسه امبراطورا ، وسمى نفسه نابليون الثالث ..

وهكذا انتهت الجمهورية الثانية فى فرنسا ، بعد عمر قصير غير مجيد لم يدم أكثر من أربع سنوات

ولم تقع فى انجلترا خلال سنة ١٨٤٨ ثورة ما ، ولكنها تعرضت لاضطرابات ومتاعب خطيرة . ولانجلترا أسلوب خاص بها فى الرضوخ عندما تهددها بوادر اضطراب خطير ، وبذلك تتجنب وقوعه . فدستورها المرن يسهل لها ذلك من ناحية ، كما ان الخبرة الطويلة عودت الانجليزى على أن يقبل الحل الوسط اذا لم يعد ثمة طريق آخر أمامه .. وبذلك تجنبت انجلترا كثيرا من التغيرات الكبيرة المفاجئة التى تعرضت لها الدول الاخرى لان دساتيرها أكثر صلابة وأبناءها أقل مرونة ..

فى سنة ١٨٣٢ شهدت انجلترا اضطرابا كبيرا من أجل اصدار قانون الاصلاح الذى أعطى حق الانتخاب لعدد أكبر من المواطنين ، فبمقتضاه اقتصر حق الانتخاب على عدد من أبناء الطبقة المتوسطة ، أما العمال والاغلبية الساحقة من الناس فلم يكن لهم حق الانتخاب .. وكان البرلمان من اجل ذلك فى يد حفنة من الاغنياء الذين كانوا لا يريدون فقد هذه الميزة التى تعيدهم الى مقاعد مجلس العموم فى كل انتخاب دون أى عناء ..

وقد قاوم هؤلاء الاغنياء اصدار هذا القانون بكل قوتهم ومهارتهم ، وكانوا يرددون أن انجلترا سوف تنهار ، والعالم سوف ينتهى ، اذا تم اصدار ذلك القانون !.. ووصلت انجلترا الى مرحلة الخوف من وقوع حرب

أهليـــة .. قبل أن يوافق البرلمان على اصدار هـــذا القانون .. ولم تتمزق انجلترا بل ولم يتغير البرلمـــان كثيرا ، فقد ظل واقعا تحت ســيطرة نفس الحفنة من الاغنياء .. وان كانت الطبقة المتوسطة الميسورة الحال قد نالت مزيدا من القوة ..

فاما جاءت سنة ١٨٤٨ تعرضت البلاد لهزة جديدة.. نقد قامت حـــركة ضخمة تريد ارغام البرلمـــان على الموافقة على اصلاحات اخرى كثيرة .. وبعد ان افزعت هـــذه الحركة الطبقات الحاكمة الى حد بعيـــد ، تم اخمـــادها .. ولكن السخط بين طبقات العمال ظـــل محتدما .. فبدأ البرلمان يصدر أول قوانين للعمال .. وهي قوانين كانت لا تفيد العمال الا قليلا ..

وفى ذلك الوقت كانت انجلترا تحصل على أرباح هائلة من تجارتها المتزايدة .. كانت قد أصبحت « مخـــزن العالم » كله فى التجارة .. وكانت أغلب هـــذه الارباح تذهب طبعا الى أصحاب المصانع ، فلا يتسرب منها الى العمال الا التافه القليل ولكن هذا القليل على أية حال ساعد على تأجيل الثورة التى أوشكت على النشوب سنة ١٨٤٨ .. وان بقي خطرها معلقا فى الافق



داروين وانتصار العلم

٣ فبراير ١٩٣٣

تعالى نترك حديث الشعراء وننتقل الى حديث العلماء..
فانني أخشي ان يكون الشعراء ما زالوا معتبرين قوما غير نافعين .. اما العلماء فانهم صانعو المعجزات فى هذا العصر ..

هم الآن أصحاب القوة والشرف ولم يكن هذا شأنهم قبل القرن التاسع عشر ..

في القرون الاولى كانت حياة العلماء فى أوربا معرضة للخطر الدائم ، وكثيرا ما انتهت بفاجعة .. وقد رويت لك من قبل كيف أحرقت الكنيسة فى روما العالم « جيوردانو برونو » وبعد ذلك بسنوات ، فى القرن السابع عشر ، كاد جاليليو يلقى حتفه بنفس الطريقة ، لانه قال ان الارض تدور حول الشمس !.. فلم يفلت من الحرق بتهمة الكفر الا بعد أن اعتذر عن نظريته ، وسحب الآراء التى نادى بها !..

الى هذا الحد كانت الكنيسة فى أوروبا تخالف العلم وتقاومه وتكبت الآراء الجديدة .. أما العلم « الرسمى »

فى أوروبا وغيرها فقد كان يدين ببضع نظريات يجب على العلماء جميعا أن يسلموا بها دون أى مناقشة !..

ولكن العلم له طريقة أخرى فى النظر الى الاشياء ، أنه لا يأخذ شيئا قط على انه قضية مسلم بها دون مناقشة .. أنه يدعو الى التفكير الحر ومواصلة البحث عن الحقيقة ، بواسطة مزيد من التجارب والاختبارات ، وواضح أن هذا الاتجاه يختلف تماما عن أتجاه الكنيسة .. فليس غريبا بعد ذلك أن يحتدم الخلاف بين العلم والكنيسة الى أقصى الحدود ..

وما أحسب الا أن التجارب العلمية كانت شيئا عرفه كثير من الناس فى جميع العصور .. فانه يقال مثلا أن الهند القديمة كانت متقدمة جدا فى الطب والكيمياء ، ومثل هذا لا يمكن أن يتم الا بعد كثير من التجارب والابحاث .. كذلك أحرز الاغريق بعض التقدم فى هذا الميدان ..

أما الصين فقد قرأت منذ قريب ابحاثا مدهشة ، عن اكتشاف مؤلفات لبعض الكتاب الصينيين ترجع الى ١٥٠٠ سنة مضت ، تثبت أن هؤلاء الصينيين كانوا يعرفون شيئا عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن الدورة الدموية فى الجسد ، على أننا لا نعرف — حتى الآن — معلومات كاملة عن هذه الابحاث والنتائج الاخيرة التى وصلت اليها .. ولا يملك الانسان نفسه من التساؤل اذا كانت الحضارات القديمة قد عرفت المنهج العلمى ، فلماذا أهملته بعد ذلك ؟ .. لماذا لم تستخدمه لتحقيق مزيد من التقدم ؟ .. أم تراها لم تكن تعلق أهمية كبيرة على هذا النوع من التقدم ؟ ..

ما أكثر الاسئلة التى تخطر على البال .. لولا أننا لا نملك المعلومات الكافية للاجابة عليها ! ..

وقد كان العرب مغرمين الى أقصى حد بالتجارب ، وقد سارت أوروبا على نهجهم خلال العصور الوسطى .. على أن تجـارب العصور الوسطى لم تكن علميـة بالمعنى الصحيح .. كان هم النـاس فيهـا منصرفا الى البحث عما كانوا يسمونه بـ « حجر الفلاسفة » الذى كـانوا يعتقدون انه سوف يحول المعدن الرخيص الى ذهب ... وكثير من الناس من انفقوا أعمارهم فى تجارب معقـدة أملا فى العثور على سر تحويل المعادن الى ذهب ، وكانت هذه التجارب تسمى « الكيميـاء » .. كـذلك كانوا يبحثون فى دأب عن « اكسير الحيـاة » الذى يمنح الانسان الحياة الدائمة .. على أنه لا يوجد اى شيء يدل على عثور أى انسان على حجر الفلاسفة أو أكسير الحياة ، اللهم الا فى القصص الخرافية ..

كانت الابحاث اذا تجرى وراء أحلام الناس فى الثروة والقوة والعمر الطويل .. وليس هذا من روح العـلم فى شيء فالعلم شيء آخر غير السحر والشعوذة ..

وقد نشأ المنهج العلمى التحقيقى وتطور تدريجيا فىأوروبا ومن بين المع الاسماء فى تاريخ العـلم العـالم الانجليزى « أيزاك نيوتن » .. الذى عاش من سنة ١٦٤٢ الى سنة ١٧٢٧ ..

ولقد وضع نيوتن قانون الجاذبية .. أى شرح أنـا لماذا تقع الاشياء على الارض اذا تركت معلقة فى الهواء .. وعن طريقهذا القانون، وبعض قوانين أخرى تم اكتشافها، أستطاع ان يشرح حركة الشمس «والاجرام السماوية» .. وبدا أن كل شيء يمكن تفسيره على أساس هذه النظرية : ونال نيوتن عليها تشريفا كبيرا ..

ومضى العلم يعزز انتصاراته ضد الكنيسة .. ولم يعد ممكنا انكار اكتشافاته او الحكم على مكتشفيهابالموت ..

ومضى كثير من العلماء يعملون فى صبر ، ويجربون ويسجلون الحقائق والمعارف خصوصا فى انجلترا وفرنسا ، ثم فى ألمانيا وأمريكا ، وانك لتذكرين ان القرن الثامن عشر كان القرن الذى انتشرت فيه النظرة العقلية بين الطبقات ، والذى بزغ فيه فولتير وروسو وغيرهم من الفرنسيين العباقرة الذين كتبوا فى شتى الموضوعات ووضعوا خميرة التفكير فى عقول الناس .. انه ايضا القرن الذى تكون فى رحمه جنين الثورة الفرنسية ..

وقد أتفقت هذه النظرة العقلية مع النظرة العلمية التى أوجدها العلماء ، واتحد الاثنان فى جبهة واحدة ضد الكنيسة ..

ومن صفات القرن التاسع عشر الرئيسية ، أنه عصر العلم فالثورة الصناعية والتغيرات الهائلة فى وسائل النقل وغير ذلك من نتائج العلم .. فقد غيرت المصانع وسائل الانتاج ، وربطت السكك الحديدية والبواخر بين أجزاء العالم وضيقت المسافات ، وكان التلغراف الكهربائى أعجوبة اخرى ..

وأهتزت الافكار القديمة تحت ضغط هذه التغيرات الهائلة وتراخت قبضة الكنيسة الى حد بعيد ، فأنه من طبيعة الحياة الصناعية ـ على عكس الحياة الزراعية ـ أن تدفع الناس الى مزيد من التفكير فى العلاقات الاقتصادية ..

وفى منتصف ذلك القرن ، أو فى سنة ١٨٥٩ بالتحديد ، ظهر فى انجلترا كتاب خطير دفع بالخلاف بين النظرة العلمية والنظرة المؤمنة الى غايته .. ذلك هو كتاب « اصل الانواع » لمؤلفه شارلز داروين ..

وداروين لا يوضع عادة بين كبار العلماء ، ذلك أنه لم يأت بجديد ..

وكثير من علماء الجيولوجيا والطبيعة عملوا قبل داروين وحصلوا على معلومات كثيرة .. ومع ذلك فان كتاب داروين هو الذى صنع العصر كله .. فقد خلق تأثيرا عاما وساعد على تغير النظرة الى المشاكل الاجتماعية ، اكثر مما فعل أى كتاب علمى آخر ..

كان صدور هذا الكتاب بمثابة انفجار بركان عقلى ، جعل داروين رجلا شهيرا

لقد طاف داروين بجنوب أمريكا والمحيط الهادى كعالم طبيعى ، وجمع من كل مكان كمية هائلة من المعلومات والحقائق ثم استعمل كل ما جمعه فى شرح كيف أن كل نوع من الحيوانات تغير وتطور بالاختيار الطبيعى .. كان الناس قبل ذلك يعتقدون أن كل نوع من الحيوان حتى الانسان قد خلق منفصلا عن الانواع الاخرى وانه بقى كما خلق دون أن يتغير فأى نوع من المخلوقات ــ اذا ــ لايمكن أن يتحول الى نوع أخر ..

ولكن داروين أثبت بعديد من الامثلة الحقيقية ، أن الانواع تتغير من نوع الى أخر ، وان هذه هى الطريقة الطبيعية للتطور وهى طريقة الاختيار الطبيعى .. فأى تغير بسيط فى نوع من الانواع ، اذا كان نافعا لهذا النوع بأى صورة من الصور أو اذا ساعدة على ان يعيش أكثر من غيره من الانواع ، فانه يؤدى بالتدريج الى تغير مستمر .. لان مزيدا من هذه الانواع المتغيرة سوف يوجد .. وبعد قليل تصبح هذه الانواع المتغيره هى الاغلبية .. ثم تطغى على الانواع الاخرى ، فلا يمضى بعض الوقت الا وقد ظهر نوع جديد تماما .. وبمرور الزمن تظهر أنواع جديدة كثيرة عن طريقة البقاء للاصلح بواسطة الانتخاب الطبيعى .. وهذا التطور يمكن أن

يحدث بالنسبة للنبات والحيوان .. وللانسان أيضا .. ومن الممكن ــ بناء على هذه النظرية ــ أن يكون ثمة أصل مشترك لجميع النباتات والحيوانات التى نعرفها الان ..

وبعد سنوات قليلة نشر داروين كتابا آخر اسمه « سلالة الانسان » طبق فيه نظريته الاولى على الانسان ..

وهذه النظرية عن التطور والاختيار الطبيعى مقبولة الان من كثير من الناس ، وان لم تعد فى صورتها الاولى التى وضعها داروين وأتباعه .. ومن الامور العادية اليوم أن يستعمل الانسان مبدأ الاختيار صناعيا لاخراج أنواع أرقى من الحيوانات والفاكهة والزهور وسائر المزروعات .. وأغلب الحيوانات التى تنال الجوائز فى المسابقات الان تعتبر أنواعا جديدة ، تم خلقها صناعيا .. فاذا كان الانسان يحصل على هذه النتائج ، وفى مثل هذا الزمن القصير ، فأى شىء تعجز عنه الطبيعة فى عملية تطور مستمر ، وخلال مئات والاف من السنين ..

ان زيارة قصيرة لاى متحف للتاريخ الطبيعى كمتحف جنوب كنسجتون فى لندن مثلا ترينا كيف أن النباتات والحيوانات تعدل نفسها باستمرار لتتلائم مع الطبيعة..

كل هذا يبدو لنا الآن واضحا بسيطا .. ولكنه لم يكن واضحا بسيطا هكذا منذ مائة سنة بل أن أغلب الناس فى أوروبا ما زالوا يؤمنون حتى الان بأن العالم خلق قبل ميلاد المسيح بأربعة الاف سنة فقط .. وان كل زرع أو حيوان قد خلق كما تعرفه الان ..

وكل هذا لا يتلائم مع نظرية داروين فان داروين وعلماء الجيولوجيا يحسبون عمر الارض بملايين السنين ،لابفترة قصيرة تبلغ ستة الاف سنة .. وقد أدى ذلك الى اضطراب عظيم فى عقول الرجال والنساء .. وكثيرون جدا من

الناس الطيبين وقفوا حائرين لا يعرفون ما يصنعون ؟ .. ايمانهم القديم يطالبهم أن يعتقدوا فى أى شىء .. وعقلهم يقول شيئا آخر .. والناس اذا أمنوا بعقيدة ما، ثم تعرض ايمانهم لهزة عنيفة شعروا باليأس والتعاسة والضياع .. اد لا يجدون أرضا صلبة يقفون عليها ..

هكذا احتدم النقاش والخلاف بين رجال العلم ورجال الدين فى انجترا وغيرها من بلاد أوروبا .. وأظـن أنه ليس هناك شك فى النتيجة فان العالم الجديد عالم الصناعة والالات والنقل السريع يقوم على العـلم ، فليس من الممكن رفض هذا العلم ..

انتصر العلم اذا على طول الخط .. وأصبحت كلمات : « الاختيار الطبيعى » .. و .. « البقاء للاصلح » شائعة فى القاموس العادى للناس ، الذين كثـيرا ما يستعملون هذه العبارات دون أن يدركوا تماما أى معان تنطوى عليها

ومن الغريب أن الطبقات الحاكمة لم تتأخر عن تفسير نظرية داروين بحيث تناسب مصالحها .. وبحيث تجعلها دليلا جديدا يؤكد تفوقهم : انهم بغير شـك أقوى من الآخرين وأقدر فى معركة الحياة !.. انهم قد وصـلوا بحكم قانون « الاختيار الطبيعى » الى القمة وأصبحوا هـم الطبقة الحاكمة !.. الطبقة التى تحكم الطبقات الاخرى والجنس الذى يحكم أجناسا أخرى وجد فى هذه النظرية حجة جديدة له . بل لقد أصبحت هذه النظرية حجـة للاستعمار نفسه : فأبناء الجنس الابيض يعتقدون أنهـم كلما زادوا سطوة وقوة كانوا اكثر تقدما فى مـدارج الرقى الانسانى !! .. انها فلسفة كريهة بغـير شك ، ولكنها تفسر كثيرا من سلوك الاستعمار الغربى فى آسيا وأفريقيا

وقد تعرضت نظريات داروين لنقد كثير من العلماء .

ولكن الخطوط الرئيسية فيها ما زالت صـــامدة ·· ومن نتائج الاخذ بهذه النظرية أنها جعلت الناس يؤمنون بفكرة التقدم ، بأن الانسان والمجتمع بل والعالم كله يسير الى الامام ، من الحسن الى الاحسن ·· على أن هذه الفكرة لم تكن وليدة نظريات داروين وحدها .. فان الاكتشافات العلمية والثورة الصناعية كلها ساهمت في إعداد عقـول الناس لتقبل هذه النظرية ·· فلما جاءت نظرية داروين وجدت الارض مهيأة لها ·وأصبح الناس يتصورون أنفسهم سائرين الى الامام من نصر الى نصر نحو الكمال الانساني ، مهما كان نوع هذا الكمال !

ويجب أن نلاحظ أن فكرة التقدم هذه كانت جـديدة تماما ، انها لم توجد من قبل فى أوروبا أو اسيا ، اوفىأى حضارة قديمة ·· فى أوروبا حتى ظهور الثورة الصناعية ·· كان الناس ينظرون الى الماضى على أنه المثل الاعلى · كانوا يعتقدون أن عصر الاغريق والرومان هو أزهىعصور البشر وأكثرها حضارة وثقافة ، وأن العالم يتأخر وينحط ويسير من سيىء الى أسوأ ··

وفى الهند نجد نفس الفكرة ـ فكرة الانحطاط والعصر الذهبى الذى مضى والاساطير الهندية كلها تقدر الزمـــن دائما بالحديث عن عصر باهر مجيد « ستايا يوجا » ثـــم تنتهى الى العصر الحاضر وتسميه عصر الشـــيطان « كالا يوجا » ··

ففكرة التقدم الانسانى اذا فكرة جـــديدة تماما ·· ومعرفتنا الحالية بالتاريخ القديم تجعلنا نؤمن بهذهالفكرة

ومع ذلك فان معلوماتنا حتى الان يشوبها كثـــير من النقص وربما لو تكاملت لدينا المعلومات لتغيرت فكرتنا بعض الشيء بل اننا لا نجد اليوم فى هذا الايمان بالتقـدم نفس الحرارة التى كانت تملؤه فى النصـــف الثانى من

القرن التاسع عشر • ومن الناس من يقول الان : اذا كان هذا التقدم يدفعنا الى أن ندمر بعضنا البعض على هـذا النطاق الواسع الذى رأيناه فى الحروب العالمية ، فلا شك أن هناك عيبا ما فى هذا التقدم ••

وناس اخرون يقولون الان أن قول داروين بأن البقـاء للاصلح ، ليس معناه بالضرورة •• أن يكون البقــــاء للاحسن ••

على أن الذى يهمنا فى النهاية هو أن الاقتناع القــديم بوجود مجتمع ثابت لا يتغير ، قد نحاه العلم جانبا ، وحل محله الايمان بمجتمع ديناميكى متغير ••

وبمناسبة حديثى هذا عن نظرية داروين فى أصــل الانواع قد يكون من الطريف أن أروى لك ما كتبهفيلسوف صينى اسمه « تسون تسي » فى هذا الموضوع منذ٢٥٠٠ سنة أى قبل المسيح بستة قرون ، وفى زمن بوذا تقريبا قال الفليسوف الصينى :

« كل الاشياء مبتدعة من نوع واحد •• هذا النــــوع الواحد تعرض لكثير من التغيرات التدريجية المســتمرة ، حتى انتهى الى كل هذه الاشياء المختلفة الاشكال •• هذه الاشياء لم تتشكل وتختلف مرة واحدة ، بل على العكس ، قد اختلفت خلال التغيير التدريجى ، جيلا بعد جيل !! »

هذا الكلام كما ترين قريب جدا من نظرية داروين !•• وانه لمن الغريب أن يصل ذلك البيولوجى الصينى القديم الى هذه النتيجة التى كان على العالم أن يقضى ٢٥٠٠ سنة أخرى قبل أن يعود فيكتشفها من جديد ! ••

لقد ضاعف العلم من سيطرة الانسان على الطبيعة ولكن الانسان بكل قوته هذه لم يعرف كيف يسيطر على نفسه •• فمضى يسيىء التصرف ويضيع خيرات العلم فيـــما لا ينفع •• ولكن العلم بالرغم من ذلك مضى قدما فى موكبه ،

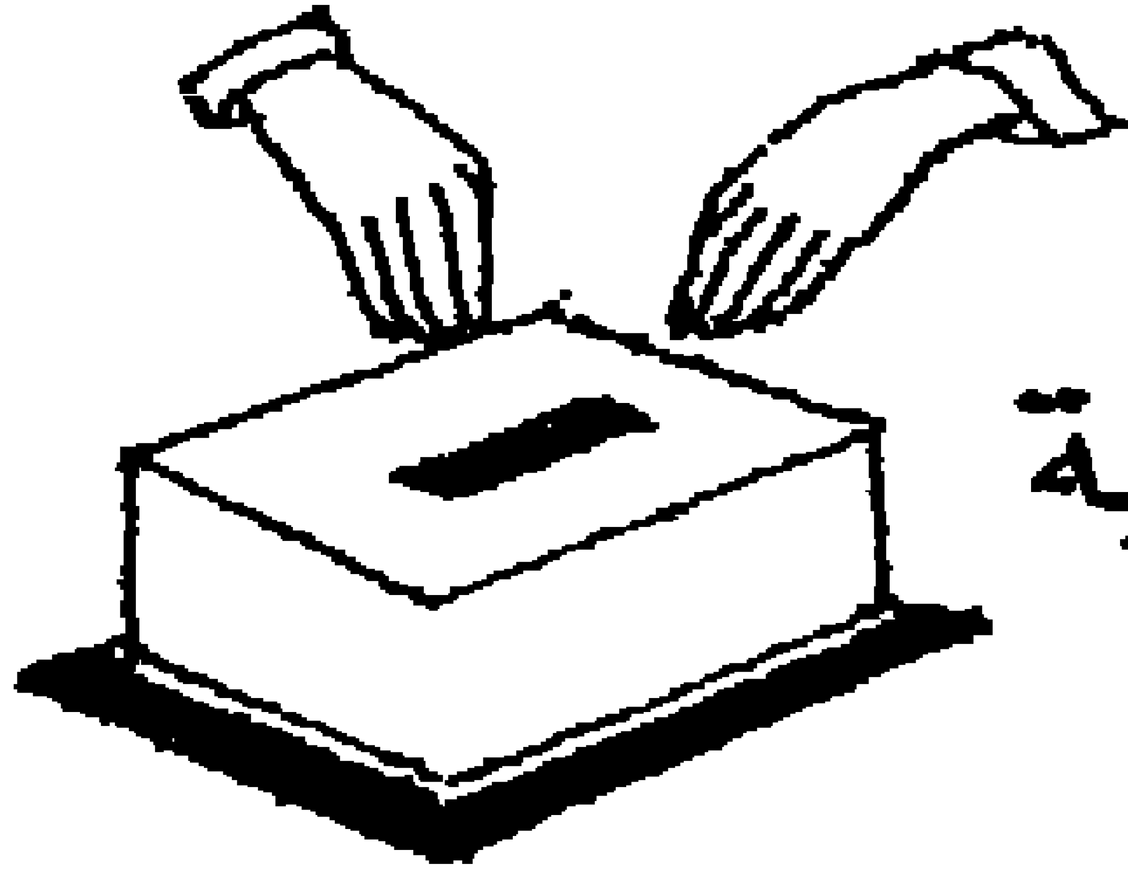
وفى خلال مائة وخمسين عاما أحدث العالم من التغيير مالم تحدثه الاف السنين من قبل ..

وما زال العلم ماضيا حتى الان الى الامام ، وربما بسرعة أكبر .. فلا يكاد الانسان يشترى آلة ويركبها ويعدها للعمل حتى تكون قد أصبحت طرازا قديما بما ظهر بعدها من آلات احدث وأقدر .. وها نحن نرى الكهرباء تحل محل البخار فى كل شىء .. مما سوف يؤدى الى ثورة أخرى فى الصناعة

واليوم .. نرى الافا مؤلفة من العلماء يعملون بغير كلل فى كل فروع العلم .. وأكبر اسم الان بين هؤلاء العلماء هو البرت اينشتين الذى نجح فى تعديل نظرية نيوتن التى أشرنا اليها من قبل ..

وقد بلغ من سرعة التقدم العلمى .. ان العلماء أنفسهم قد أخذهم الروع ، وفقدوا كبرياءهم الاول ! .. انهم يشكون الان فى كل نتيجة يصلون اليها ، وكل مستقبل يتنبأون به !

ولكن هذا الشك وليد القرن العشرين ووليد أيامنا الراهنة فحسب أما القرن التاسع عشر ، فقد ركع البشر فيه أمام العلم ، معتقدين أنه الرب الجديد !! ..



تقدم الديمقراطية

١٠ فبراير ١٩٣٣

رويت لك فى خطاب سابق لمحات عن تقـــدم العلم فى القرن التاسع عشر ٠٠ وأريد الان أن أحدثك عن ناحيـة من نواحي التقدم فى هذا القرن ، وأعنى تقدم الفـــكرة الديمقراطية ٠٠

ولعلك ما زلت تذكرين حديثى لك عن حرب الافكارفى فرنســـا فى القرن الثانى عشر ، وعن « فولتير » أعظم كتاب هذا العصر ومفكريه،وآخرين غيره من الذين تحدوا المعتقـــدات القديمة عن الدين والمجتمــــع ، والذين قدموا فى جرأة عجيبة أفكارا جديدة

وقد ساد هذا التفكير فى فرنســـا فى ذلك الوقت على نطاق واسع ٠٠ أما فى ألمانيا فقد كان الفلاسفة مهتمـين بمسائل فلسفية أشد تعقيـــدا ٠٠ وفى انجلترا كانت التجارة والاعمال فى تزايد مستمر ، والناس هناك غـير مغرمين بالتفكير ما لم تضطرهم الظروف الى التفـــكير اضطرارا ! ٠٠

ومع ذلك فقد ظهر فى انجلترا فى النصف الثانى من

القرن الثانى عشر كتاب خطير ، ذلك هو كتـــاب « آدم سميث » عن ثروة الامم •• وهو ليس كتابا فى السياسة، ولكن فى الاقتصاد الســـياسى •• فحتى ذلك الوقت كان الاقتصاد كغيره من العلوم ، مختلطا بالدين وبالادب ، مما جعله عرضة للكثير من الاضطراب والخلط •• ثم جاء آدم سميث فعالج الاقتصاد معالجة علمية ، متحاشـــيا كل التعقيدات الادبية ، محاولا أن يعثر على القوانين الطبيعية التى تتحكم فى الاقتصاد ، والاقتصاد ـ كما لابد تعرفين ـ يتحدث عن دخل الافراد ونفقاتهم ، أو دخل الدولة كلهـا ونفقاتها عما ينتج الناس وما يستهلكون ، عن علاقاتهـم بغيرهم من الدول وغيرهم من الناس •• وكان ادم سميث يؤمن بأن كل هذه العمليات المعقدة تتم طبقا لقوانين طبيعية محددة سجلها فى كتابه •• وكان يؤمن أيضا بأنه لابد من اعطاء الحرية الكاملة للحياة الصناعية حتى تؤتى هــذه القوانين نتائجها .. وهو مذهب « دعهم يعملون » الذى حدثتك عنه من قبل ••

وكتاب آدم سميث هذا لا شأن له بالافكار الديمقراطية الجديدة التى كانت تتبلور فى ذلك الوقت فى فرنسـا • ولكن هذه المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشـــاكل التى تؤثر فى مصائر الافراد والشعوب ، تدل على أن الانسان كان آخذا فى اتجاه جديد غير الاتجاه اللاهوتى القديم •• وادم سميث يعد الان أبو علم الاقتصـــاد ، وقد أثر فى كثيرين جدا من رجال الاقتصاد الانجليز فى القرن التاسع عشر ••

وقد ظل عام الاقتصاد الحديث قاصرا على الاساتذة وعلى عدد قليل من خاصة المثقفين ، ولكن الافكار الديمقراطية الجديدة كانت فى ذلك الوقت تنتشر بسرعة •• ثم جاء نجاح الثورة الامريكية والثورة الفرنسية فكان بمثابة دعاية واسعة

أكسبت هذه الافكار شعبية هائلة .. فقد هزت الناس تلك الكلمات الرنانة التي احتوى عليها اعلان الاستقلال الامريكي واعلان حقوق الانسان الفرنسي.. كانت هذه الكلمات بمثابة رسالة خلاص للملايين من المظلومين والمستعبدين ،فكل من الوثيقتين تتحدث عن الحرية والمساواة وحق كل فرد في أن يستمتع بالسعادة .. ومن أن اعلان هذه الحقوق الان لم يؤد مباشرة الى فوز الناس بها . (بل أن الذين يستمتعون بهذه الحقوق الان ، وبعد قرن ونصف من اعلانهـــــا ، ما زالوا قليلين) ! .. فقد كان مجرد اعلان هذه الحقوق عملا قيما ، باعثا على الامل ..

لقد كانت الفكرة القديمة في أوروبا وفي كل مكان ، والفهم السائد للمسيحية وغيرها من الاديان ، أن الخطيئة والشقاء قدر مكتوب على الانسان. وبدت الاديان ــ بهذا التفسير ــ وكأنها تخص التعاسة والشقاء في هذا العالم بمركز دائم ممتاز .. وكأن كل ما تعد به البشر من جزاء ، مكانه في عالم اخر .. أما في هذا العالم فقد كان علينـــا أن نصبر على قدرنا وأن لا نعمل على أي تغيير جوهري .. كانت تشجع الاحسان والتصدق على الفقراء ولكنها لا تقدم أي فكرة للقضاء على الفقر ذاته أو على النظم التي تؤدي الى هذا الفقر ..

والديمقراطية لا تزعم أن كل الناس سواء .. وهي لا تستطيع أن تزعم ذلك ، اذ أنه من الواضح جدا أن بين الناس فروقا كثيرة .. هناك فروق جسدية تجعل من الرجال من هم أقوى من غيرهم ، وفروق عقلية تجعل بعض الناس أذكى أو أحكم من سواهم ، وفروق أخلاقية تؤدي الى وجود من هم اقل انانية من الاخرين ، وان كان جانب كبير من هـــــذه الفروق يعود الى ظروف التربيـــــة والتعليم ..

خذى ولدين أو بنتين على درجة واحدة من الاستعداد ، واعطى أحدهما تعليما واحرمي الاخر من التعليم ، وسوف ترين بعد سنوات قليلة أن ثمة فارقا هائلا بين الاثنين ، أو اعطي الواحد طعاما صحيا كافيا والاخر طعاما رديئا ناقصا .. وسترين أن أولهما سينشأ قويا سليما صحيحا في حين يصبح الاخر ضعيفا يائسا عليلا . اذا فالتربية والثقافة ، والبيئة التي ينشأ فيها الانسان ، تتسبب فى خلق كثير من الفروق بين الناس الى حد كبير . كل هذا ممكن . ولكن فيما يتعلق بالفكرة الديمقراطية ، نجد أنها تعترف بأن الافراد ليسوا فى الحقيقة متساوين ، ولكنها مع ذلك تعطيهم جميعا نفس القيمة السياسية والاجتماعية . فاذا سلمنا بهذه الفكرة الديمقراطية كاملة فسوف يؤدى بنا ذلك الى نتائج ثورية خطيرة

ولسنا هنا بصدد تقصى النتائج جميعا ، ولكن أبسط نتيجة لها هى أن يكون لكل مواطن الحق فى أن يعطى صوته فى انتخاب الحكومة أو البرلمان الذى يمثل الشعب . فالصوت الانتخابى هو رمز القوة السياسية ، واذا أعطينا كل مواطن حق التصويت فمعنى ذلك أننا ساوينا بين الجميع فى القوة السياسية . وهكذا كان أول مطالب الديمقراطية خلال القرن التاسع عشر هو المساواة بين الجميع فى حق التصويت

ولكن الذى حدث ، أن معظم الذين نالوا حق التصويت اكتشفوا أن الامر بالنسبة لهم لم يتغير كثيرا ! فبالرغم من أنه قد أصبح من حقهم أن يشتركوا فى الانتخابات ، فقد ظلوا بعيدين عن أى نفوذ فى الدولة أو ليس لهم من النفوذ الا التافه القليل ..

كان الصوت قليل النفع بالنسبة للرجل الجائع ، وظل اصحاب السلطة الحقيقية هم أولئك الذين يفيدون من جوعه

ويجعلونه يفعل أى شيء يرونه فى مصلحتهم • وهكذا ظهر أن القوة السياسية التى يمنحها هذا الصوت ليست الا ظلا لا حقيقة له ، ما دام مجردا من القوة الاقتصادية ، وأن أحلام الديمقراطيين النبيلة عن المساواة التىسوف يحققها تعميم حق الانتخابات ، لم تسفر عن شيء !

على أننى قد سبقت الحوادث قليلا ، فهذا التطور الاخير لم يظهر الا فيما بعد ، أما فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد كانت حماسة الديمقراطيين لعقيدتهم هائلة ، وكان الاعتقاد سائدا بأن الديمقراطية سوف تجعل كل واحد من المواطنين حرا مساويا لغيره ، وأن الحكومة سوف تعمل من أجل سعادة الجميع ••

وكانت الحملة فى القرن الثامن عشر عنيفة على أوتوقراطية الملوك والحكومات وعلى الطريقة التى كانت تستغل بها سلطتها المطلقة •• وكان من نتائج ذلك أن نصت اعلانات حقوق الانسان على الحقوق الفردية • ولعل فى اعلان الحقوق الفرنسى والامريكى بعض الخطأ من هذه الناحية • ففى مجتمع معقد كالذى نعيش فيه ، ليس من السهل أن نفصل بين الافراد ونعطى كلا منهم حرية كاملة •• •

فهذا الوضع سوف يؤدى الى تصادم مصالح الافراد بمصالح المجموع • ومهما كان الامر فقد دافعت الديمقراطية دفاعا عنيفا عن الحرية الفردية

وقد تأثرت انجلترا التى كانت متخلفة فى التفكير السياسى خلال القرن الثامن عشر ، بالثورتين الامريكية والفرنسية • وكان أول أثر بدا عليها ، هو الخوف من أن تؤدى هذه الديمقراطية الجديدة الى ثورة اجتماعية فى الجزيرة نفسها ، فأصبحت الطبقات الحاكمة أكثر رجعية

ومحافظة من ذى قبل • ولكن الافكار الجديدة ظلت تنتشر بين المثقفين • وظهر فى ذلك الوقت رجل انجليزى مرموق اسمه « توماس بين » كان يعيش فى أمريكا خلال الحرب الاهلية ، وقام بمساعدة الثوار هناك • وكان مسئولا الى حد كبير عن توجيه الامريكيين نحو فكرة الاستقلال التام • فلما عاد الى انجلترا ألف كتابا اسمه « حقوق الانسان » دافع فيه عن الثورة الفرنسية التى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت ، وهاجم الارستقراطية ، ودعا الى الديمقراطية ومن أجل ذلك طاردته الحكومة الانجليزية ، ففر الى فرنسا وفى باريس لم يلبث أن أصبح عضوا فى المجلس الوطنى الذى كان يتزعم الثورة ، ولكن اليعاقبة المتطرفين ألقوا به الى السجن سنة ١٧٩٣ ، حين عارض فى اعدام الملك لويس السادس عشر

وفى سجون باريس ألف كتابا ثانيا أسماه « عصر العقل» هاجم فيه التفكير الدينى • ولما سقط روبسبيير وأعدم ، أطلق سراح توماس بين • ولما كان وجوده فى فرنسا قد جعله بعيدا عن متناول المحاكم الانجليزية ، فقد حكمت هذه المحاكم بالسجن على الناشر الذى قام بطبع هذا الكتاب فى انجلترا • فمثل هذا الكتاب كان يعد خطرا على المجتمع ، اذ كان التفكير الدينى يعتبر ضروريا لابقاء الفقــراء فى مكانهم ، وقد دخل السجن كثيرون ممن حاولوا نشر كتاب « بين » كان من بينهم عدد من النساء

ومن الطريف أن نذكر أن الشاعر شيللى كتب رسالة طويلة يعترض فيها على هذه الاحكام ••

كانت الثورة الفرنسية هى أم المبادىء الديمقراطيةالتى انتشرت فى أوروبا خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر وبالرغم من أن الظروف فى فرنسا قد تغيرت بسرعة الا أن مبادىء الثورة ظلت تتوالد وتنتشر ••

كانت هذه الافكار بمثابة رد فعل لطغيان الملوك وكانت مبنية على أسس سابقة على ظهور الصناعة • ولكن الصناعة الحديثة .. جاءت فقلبت النظم القديمة رأسا على عقب

ومن الغريب أن الديمقراطيين المتطرفين فى أوائل القرن التاسع عشر ، لم ينتبهوا لهـــذا التغير العميق ، وظلوا يرددون العبارات الاخاذة التى صاغتها الثورة وميثـــاق حقوق الانسان • فهل بدا لهم هذا التغير ماديا بحتا ، لا صلة له بالمطالب الروحية والسياسية التى كانت تنادى بها الديمقراطية ؟! ولكن الاشياء المادية لها واقع صارم يرفض أن يتجاهله أحد ! انه لمن الممتع أحيانا أن نلاحظ كم هو صعب على الناس أن يتركوا معتقداتهم القديمـــة المتداعية ويغلقون اعينهم عن الظروف المتطورة • يرفضون أن يروا شيئا • انهم قد يكافحون من أجل القديم ولو كان هذا القـــــديم ضارا بهم • انهم قد يقبلون أى شيء ، الا أن يسلموا بالافكار الجديدة ويكيفوا أنفسهم بما يلائمهـــا • أن للمحافظة على القديم سلطانا خارقا حتى على المتطرفين ، الذين يحسبون أنفسهم متقدمين •• انهم كثيرا ما يلتصقون بالمبادىء القديمة ليتقبلوا معتقدات جديدة ! انهم يغلقون عيونهم وعقولهم ولا عجب بعد ذلك أن يكون التطور بطيئا على الدوام ، وأن توجد مسافة واسعة من الخلف بين أحوال الناس الحقيقية وبين معتقداتهم ، الامر الذى يؤدى الى خلق هذه المواقف الثورية

هكذا بدت الديمقراطية للكثيرين ، مجرد اســـتئناف لمبادىء الثورة الفرنسية • وعجز هؤلاء الديمقراطيين عن مجاراة الظروف الجديدة هو الذى أدى الى ضعف الديمقراطية فى نهاية القرن التاسع عشر ، ثم الى كفر الكثيرين بهـــا خلال هذا القرن .. العشرين ..

وعندنا فى الهند اليوم ، ما زلنا نجد كثيرين من الزعماء المتقدمين يرددون كلمات الثورة الفرنسية وحقوق الانسان، غير معترفين بكل ما حدث منذ ذلك التاريخ ..

وقد كان طبيعيا أن يحتكم الديمقراطيون الاوائل فى كل شيء الى العقل ما داموا يدعون الى حرية الفكر والقول والتعبير ..

وفى هذا اتفقت الديمقراطية مع تقدم العلم ، وبدأ الناس يتجاسرون على انتقاد الانجيل نفسه ، كأنه كتاب كغيره من الكتب، لا يجب تقبله تقبلا أعمى دون تفكير . ووصل نقاد الانجيل الى نتيجة .. هى أن الانجيل عبارة عن مجموعة من الوثائق كتبها أفراد متعددون في عصور مختلفة ! .. وقالوا أيضا ، أن المسيح لم يكن يرمى الى ايجاد ديانة جديدة ! ..

وكانت الاسس الدينية القديمة قد تزعزعت تحت تأثير العلم ، فقد كان طبيعيا أن تبذل محاولات كثيرة لوضع فلسفة جديدة تحل محل الدين القديم . قام باحدى هذه المحاولات فليسوف فرنسي اسمه أوجست كونت عاش من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٥٧

كان كونت يعتقد أن المعتقدات الدينية القديمة قد أصبحت شيئا عتيقا ولكنه كان يعتقد أيضا أنه لا بد من وجود عقيدة ما ، كضرورة اجتماعية ، فدعا الى « دين الانسانية » وأطلق عليه أسم « الموضوعية » وقال ان هذا الدين يقوم على الحب والنظام والتقدم ، وأنه ليس فيه شيء خارق لانه يقوم على أساس ارتقاء الجنس البشرى . ولم يصبح دين « كونت » عقيدة الا لعدد قليل من المثقفين فقط ، ولكن أفكاره بوجه عام كان لها تأثير عظيم فى الفكر الاوروبى كله وقد كان فى الواقع بدء علم الاجتماع الذى يهتم بالمجتمعات الانسانية والثقافية

وبعد « كونت » ظهر نصير اخر له هو «جون ستيوارت ميل » الفيلسوف والاقتصادى الانجليزى الذى عاش من سنة ١٨٠٦ الى ١٨٧٢ كان ميل متأثرا بتعـــاليم كونت وبآرائه الاجتماعية

وقد حاول أن يدفع المدرسة الانجليزية فى الاقتصـــاد السياسى نحو وجهة جديدة ، غير التى كانت تسير عليها منذ آدم سميث بادخال جانب من التفكير الاجتماعى على التفكير الاقتصادى • وقد اشتهر بأنه زعيم نظرية جديدة بدأت قبل ذلك بقليل فى انجلترا ووصلت الى ذروتها على يده وهى مدرسة تتوخى تحقيق « أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس » كما يقول شعارها ، وكان هــذا الشعار عندها هو الامتحان الحقيقى للتفرقة بين الخـطأ والصواب ، فالعمل يعتبر صوابا بقدر ما يحقق للنـــاس من سعادة ، ويعتبر خطأ بقدر ما يحرم الناس من السعادة ، والمجتمع والحكومة يجب أن يقوم كل منهما على هـــــذا الاساس ، أساس تحقيق أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس ••

وهذه الفكرة ليست هى الفكرة الديمقراطيـــة الاولى بالضبط التى كانت تدعو الى حقوق متساوية لجميع الافراد فتحقيق أكبر قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس قد يعنى التضحية أو الشقاء لعدد أقل من الناس • وأنا أشير الى هذا الفارق فحسب ، دون أن أفكر فى مناقشـــته فالديمقراطية على أية حال تعنى حق الاغلبية

وكان جون ستيوارت ميل مدافعا قويا عن الفـــكرة الديمقراطية فيما يتعلق بالحرية الفردية • وقد وضع كتابا صغيرا أسماه « فى الحرية » لم يلبث أن ذاعت شـــهرته سأقتطف لك منه فقرة عن حرية القول والرأى ••

« ان أسوأ ما فى كبت الرأى هو أنه يعد سرقة للجنس

البشري فما زال الخير الناتج عن الفكر أكثر بكثير من الشر والرأى الممنوع اذا كان صوابا ، فقد أضعنا فرصة استبدال هذا الصواب بالخطأ القائم • واذا كان خاطئا فقدنا ما هو أهم ، الا وهو : الاقتناع بالصواب الذى نحن فيه بمقارنته بالخطأ • انه لا يمكن أبدا الجزم بأن الفكر الممنـــــوع خطأ •• ولو جزمنا بذلك ، فان منعه يعد شرا ، بالرغم من ذلك ! »

أنه كما ترين ليس تفكير رجل مؤمن ، ولكنه تفكير رجل فيلسوف ، باحث عن الحقيقة ! ••

وبعد •• لقد ذكرت لك عددا قليلا من أسماء المفكرين الكبار الذين ظهروا فى غرب أوروبا فى القرن التاسع عشر ، لاظهرك على الافكار التى كانت ســـــائدة فى ذلك الوقت ، ولتكون لك بمثابة علامات الطريق ، فى عـــالم التفكير • ولكن هذه الافكار لم تتعد أول الامر الطبقات المثقفة. ثم تسربت بعد ذلك عن طريق المثقفين الى الاخرين. وبالرغم من أن تأثير هذه الافكار المباشر على الجماهير كان ضعيفا ، الا أن اثارها غير المبـــاشرة كانت هائلة بل ان تأثيرها المباشر فى بعض الحالات كان عظيما ، اذ أدت الى تعميم حق الانتخاب ••

ولما تقدمت السن بالقرن التاسع عشر ، ظهرت حركات وآراء جديدة ، ظهرت حركة الطبقة العاملة، والاشتراكية. وقد اثرت هذه الحركات والنظريات الجديدة على التفكير الديمقراطى السائد كما تأثرت به • ومن الناس من ينظرون الى الاشتراكية كبديل للديمقراطية ومنهم من يعتبرها جزءا ضروريا متمما لها • وقد رأينا ــ كيف كان الديمقراطيون ممتلئين ايمانا بالحرية والمســـاواة ، وحق كل فرد فى السعادة ••

ولكنهم سرعان ما ادركوا أن السعادة لا تتحقق بمجرد

اعتبارها حقا للجميع . فبعد كل شيء ، كان لا بد من قسط مناسب من الحياة المادية . والانسان الجائع لا يمكن أن يكون سعيدا .. مما دفعهم الى التفكير فى أن السعادة تتوقف على وجود توزيع أعدل للثروات بين الناس ، وهذا أدى بهم الى الاشتراكية ، وهى نظرية يجب أن تنتظر رسالة تالية :

وفى النصف الاول من القرن الثامن عشر ، تحالفت الديمقراطية والوطنية فى كل مكان قام فيه الصراع من أجل الحرية . ومازينى الايطالى مثل دقيق لهذا النوع من الوطنيين الديمقراطيين . وحين تقدم هذا القرن فقدت الوطنية هذه الصفة الديمقراطية ، وأصبحت أكثرعدوانا وتسلطا . وأصبحت الدولة هى الاله الذى يجب أن يعبده كل مواطن ..

ولقد قاد رجال الاعمال الانجليز الصناعة الحديثة دون أن يكونوا معجبين اطلاقا بالمبادىء الديمقراطية العالية أو حق الناس فى الحرية . ولكنهم اكتشفوا أن اعطاء الناس مزيدا من الحرية يعود بالخير على مصالحهم ، فهى ترفع مستوى العمال وتعطيهم الاحساس بالاستقلال ، وتجعلهم أكثر صلاحية لعملهم الدقيق . كذلك انتشر التعليم الشعبى للحصول على مزيد من الكفاية الصناعية ..

ولما أدرك رجال الاعمال الانجليز هذه الحقيقة وافقوا على منح الناس هذه الحقوق !



ظهور الاشتراكية ..

١٣ فبراير سنة ١٩٣٣

حدثتك فى الرسالة السابقة عن تقدم الديمقراطية ، ومرة أخرى ، أحب أن أذكرك ، فى هذه الرسالة بأنه كان تقدما شاقا كافح الديمقراطيون من أجله كثيرا ، فالذين لهم مصلحة فى نظام قائم يرفضون أى تغيير له ، بل ويقاومونه بكل ما يسعهم من القوة • وكل تقدم أو تحسن معناه أن على النظام القائم ، أو الحكومة القائمة ، أن تخلى مكانها لما هو أحسن • والذين يريدون تقدما من هذا النوع لابد لهم من مهاجمة النظم القديمة والعادات الموروثة ••

وهكذا يؤدى بهم الطريق الى الانكار المستمر للظروف السائدة والى الصراع المرير مع أولئك الذين يستفيدون من بقاء تلك الظروف

ولقد قاومت الطبقات الحاكمة فى أوروبا التقدم خطوة خطوة ، فى انجلترا مثلا ، لم تسلم الطبقات الحاكمة بالمطالب السابقة الا حين أدركت أن مقاومتها لن تؤدى الا الى ثورة عنيفة

واذكرك بشىء آخر : ان هذه المبادىء الديمقراطية كانت

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر قاصرة تقريبا على المثقفين . أما عامة الناس فقد تأثرت حيـــاتهم تأثرا شديدا بنمو حركة التصنيع ، اذ هجروا الارض متجهين الى المصانع .. وبدأت طبقة من العمال الصناعيين تنمو فى مدن صناعية كريهة وغير صحية ، كانت تنشأ عـــلى الاغلب بجوار مناجم الفحم . وقد أخذ هؤلاء العمـــــال يتغيرون بسرعة ، وتتكون لهم عقلية جديدة ، حتى أصبحوا شيئا مختلفا تماما عن الفلاحين والصناع اليدويين ، الذين احتشدوا فى المصانع تحت وطأة الجـــوع . وكما كانت انجلترا أسبق الدول فى اقامة المصانع ، فقد كانت اسبقها فى نمو هذه الطبقة من العمال الصناعيين

وكانت الاحوال فى المصانع مرعبة ، وبيوت العمـــال او جحورهم رديئة جدا . كان البؤس ضاربا أطنـــابه بينهم . والأطفال الصغار والنساء يضطرون الى العمـل ساعات طويلة بلا شفقة . ومع ذلك فقد كانت كل المحاولات التي تبذل لتحسين حالة هذه المصانع والبيوت عن طريق التشريع، تقاوم بشدة من أصحاب المصانع، وكانوا يقولون أن مثل هذه التشريعات تعتبر اعتداء مخجلا على حقوق الملكية ! حتى محاولة ادخال الشروط الصحية فى البيوت التى يسكنها العمال ، كان اصحاب المصانع والبيـــوت يقاومونها على هذا الاساس ذاته !..

كان العمال الانجليز التعساء يموتون موتا بطيئـــا من الجوع وارهاق العمل ، وبعد الحروب النابليونية كـــانت انجلترا نفسها مرهقة ، واقتصادها محطما والعمـــــال يقاسون أكثر من سواهم . وفكر العمال فى انشاء هيئـــات تدافع عنهم وتكافح من أجل تحسين حالتهم . وفى الزمن القديم كانت هناك هيئات للصناع والعمال المهـــرة ، ولكنها كانت شيئا يختلف عن هذه المنظمات الجديدة تمام

الاختلاف . ومع ذلك فربما كانت ذكرى هذه الهيئـــات القديمة هى التى اوحت الى عمال المصانع فكرة تـكوين منظمات منهم . ولكنهم منعوا من ذلك. فقد كانت الطبقات الانجليزية الحاكمة ترتعد من الثورة الفرنسية ، حتى أنها سنت قوانين تحرم على العمال حتى مجرد الاجتمــاع لمناقشة الامهم الرهيبة

كان القانون والنظام فى انجلترا . . كما هو الان فى الهند هو السبب الوجيه الذى يبديه أولئك القابضـــون على السلطان للاحتفاظ بسلطانهم ، وبأرواحهم !

ولكن القوانين التى تمنع العمال من الاجتماع والمناقشة لم تحسن أحوالهم . كل ماصنعته أنها اسخطتهم ، ودفعتهم الى اليأس ، فأسسوا جمعيات سرية !

كانوا يقسمون فى تلك الجمعيات السرية على الكتمــان والاجتماع فى جوف الليل ، فى أماكن غير مطـــروقة . فاذا خانهم أحد أو ضبطوا مجتمعين تعرضوا لمحـــاكمات تتهمهم بالخيانة وتوقع عليهم عقوبات رهيبة . وكثيرا ما أحرقوا الآلات من فرط غيظهم ، أو أحرقوا المصانع بل وقتلوا بعض رؤسائهم . واخيرا فى سنة ١٨٢٥ ضعفت القيود الموضوعة على اجتماعاتهم ، وبدأت نقابات العمال تتكون . .

وقد تكونت أولا من العمال المهرة الذين يأخذون أجورا كبيرة نسبيا . .

ولكن الاغلبية الساحقة من العمال العاديين ظلت زمنا طويلا دون أى تنظيم . ثم بدأوا بدورهم فى تكوين نقابات تسعى لتحسين أحوالهم عن طريق الاتفاقات الجماعية أى أن يتفق صاحب المصنع مع النقابة على شروط العمل بدلا من أن يتفق مع العمال فردا فردا . .

وعلى هذا النحو مضى صراع الطبقة العاملة . تضحيات

هائلة من جانب العمال نظير مكاسب بطيئة من حين الى آخر . كانوا محرومين من حق الانتخاب ، فلم يكن لهم اى تأثير على البرلمان . بل ان قانون الاصلاح الذى صدر سنة ١٨٣٢ ، بعد معارضة عنيفة ، لم يعط حق الانتخاب الا لافراد الطبقة المتوسطة من المتيسرين اى انه لم يحرم العمال فقط من حق الانتخابات ، بل والطبقة المتوسطة الفقيرة ايضا

وفى هذه الاثناء ظهر من بين أصحاب المصانع فى مانشستر رجل انسانى النزعة ، كانت أحوال العمال التعيسة تؤلم ضميره هذا الرجل هو « روبرت اوين »

وقد ادخل اصلاحات كثيرة فى المصانع التى يملكها ، وعمد الى تحسين أحوال عماله ، وقاد حملة بين أصحاب المصانع محاولا أن يقنعهم بالمناقشة بأن يعملوا على تحسين أحوال العمل وبفضل جهوده هذه وافق البرلمان البريطانى على أول قانون يحمى العمال من جشع اصحاب الاعمال ذلك هو قانون المصانع لسنة ١٨١٩ الذى قضى بأن لا يعمل الاطفال الذين تقل اعمارهم عن تسعة أعوام ، اكثر من ١٢ ساعة فى اليوم الواحد ! ولعل هذا الشرط نفسه ، كاف ليعطيك فكرة بسيطة عن الظروف الرهيبة التى كان هؤلاء العمال يخضعون لها

وروبرت أوين هو الذى يقال عنه انه كان أول من استعمل كلمة « اشتراكية » فى سنة ١٨٣٠

وانت تعلمين أن فكرة المساواة بين الاغنياء والفقراء ، أو توزيع الثروة توزيعا عادلا على أى نحو ، ليست فكرة جديدة . لقد دعا اليها منذ قديم كثير من الناس ، وقد عرفت المجتمعات الاولى نوعا من الشيوعية . كانت القبيلة او القرية كلها تملك الارض وسائر الاشياء ملكية مشاعة ، وهذه هى التى يطلق عليها اسم الشيوعية البدائية . وقد

عرفتها كثيراً من البلاد القديمة ، ومن بينها الهند . ولكن الاشتراكية الحديثة شيء آخر غير مجرد الرغبة في التسوية بين الافراد . هي فكره اكثر تحديداً ظهرت أولا كي تطبق على نظام الانتاج الصناعي الحديث ، فهي اذا وليدة الثورة الصناعية . وقد كانت فكرة « أوين » ترمى الى تكوين جمعيات تعاونية للعمال ، والى ان يكون للعامل نصيب في المصنع الذى يعمل فيه . وقد انشأ بالفعل بضعة مصانع ومؤسسات نموذجية على هذا النمط فى انجلترا وامريكا ، ولكنه فشل فى اقناع زملائه اصحاب الاعمال اوالحكومة بهذه الاراء . على أن تأثيره على عصره كان قويا ، وقد خلق كلمة « الاشتراكية » التى ظلت منذ ذلك الحين معنى يخلب لب الملايين . .

وفى أثناء ذلك كله ، كانت الصناعات الراسمالية تنمو بغير انقطاع . . وكلما تزايد نجاحها تفاقمت مشكلة الطبقة العاملة . فقد أدت الراسمالية الى المزيد من الانتاج ، مما أدى الى تزايد عدد السكان بسرعة كبيرة ، اذ أصبحت زيادة الانتاج تسمح باطعام عدد اكبر من الناس . كانت الصناعات الكبرى تنمو فى تكامل معقد بين فروعها المختلفة ، بينما كانت الصناعات الصغيرة تموت تحت وطأة المنافسة . كان الثراء يتدفق على انجلترا ، ولكن معظمه كان يتجه الى اقامة مصانع جديدة ، أو مد خطوط للسكك الحديدية أو ما الى ذلك من المرافق . والعمال يحاولون تحسين أحوالهم عن طريق الاضرابات التى كانت تفشل فشلاً ذريعاً

كان نجاح الراسمالية يبهر الناس جميعا ، عدا قلة من ذوى النظر البعيد أو الافكار المتقدمة ، او النزعات الانسانية ، كان هؤلاء يكرهون ما فيها من منافسة قاتلة ، ويكرهون الشقاء الذى تسببه للعمال بالرغم من أن ثروة البلد تزداد

وأخذ هذا الفريق من الناس فى انجلترا وفرنسا والمانيا يقترحون حلولا مختلفة للموقف . وظهرت هذه الحلول والمقترحات تحت أسماء مختلفة مثل « الأشتراكية » أو « الجماعية » أو « الديمقراطية الاجتماعية » وكلها اسماء مجردة تعبر عن نفس المعنى تقريبا ..

كان هناك اتفاق عام بين دعاة الاصلاح هؤلاء على ان موطن الداء يكمن فى نظام الملكية الخاصة المسيطرة على الصناعة . وان الدولة اذا استطاعت أن تملك وان تدير هذه الصناعات ـ ولو وسائل الانتاج الرئيسية فقط ، مثل الارض والصناعات الهامة ـ اذا لما عاد هناك خوف على العمال من الاستغلال

هكذا كان الناس يفكرون تفكيرا عائما لتغيير النظام الراسمالى . ولكن النظام الراسمالى لم يكن مستعدا للتقهقر بل كان على العكس من ذلك يزداد قوة

وقد ظهرت هذه الافكار الاشتراكية اولا بواسطة المثقفين ، وواحد من أصحاب العمل هو روبرت أوين . أما نقابات العمال فقد كانت تسير فى طريق مختلف ، لم تكن تطلب شيئا اكثر من رفع الاجور وتحسين الاحوال المعيشية بوجه عام . ولكنها لم تلبث أن تأثرت بهذه الافكار ، ثم أثرت بدورها تأثيرا كبيرا على تطور الفكرة الاشتراكية ذاتها . وقد نمت الاشتراكية بطريقة مختلفة فى كل بلد من البلاد الصناعية الثلاث الاولى فى اوربا وهى انجلترا وفرنسا والمانيا ، تبعا لطبيعة الطبقة العاملة فى كل بلد وقوتها . كانت الاشتراكية الانجليزية مثلا « محافظة » تؤمن بالتطورالتدريجى البطىء ، فى حين كانت الاشتراكية فى القارة الاوروبية اكثر تطرفا وثورية . أما فى امريكا فقد كانت الاحوال مختلفة تماما ، فالبلاد هناك شاسعة والطلب على العمال كبير ، فلم تظهر أى حركة

عمالية قوية لزمن طويل ..

ومنذ منتصف ذلك القرن ، ظلت الصناعة الانجليزية تسيطر على العالم مدى جيل كامل ، وكانت الثروة تتدفق على انجلترا من أرباح صناعتها ومن أستغلالها لبلاد أخرى كالهند . وكانت هذه الثروة المتدفقة من الوفرة بحيث ذهب جانب منها الى العمال فارتفع مستوى معيشتهم الى حد لم يعرفوه أبدا من قبل وعلى ذلك فسرعان ما اختفت الروح الثورية القديمة التى كانت تملأ العمال الانجليز واصبحت الاشتراكية الانجليزية اكثر انواع الاشتراكية اعتدالا . واطلق عليها اسم « الفابيانية » ، نسبة الى قائد رومانى قديم اسمه « فابيوس » كان يرفض الاشتباك مع العدو فى معركة حاسمة ، مفضلا أن يتغلب عليه شيئا فشيئا

وفى سنة ١٨٦٧ حصل بعض عمال المدن على حق الانتخاب . اما نقابات العمال فقد كانت ناجحة ، تعامل معاملة حسنة ، حتى ان العمال كانوا يعطون اصواتهم فى الانتخابات البرلمانية لحزب الاحرار ..

وبينما كانت انجلترا مشغولة بنجاحها ظهرت فى القارة الاوروبية دعوة جديدة قوبلت بترحيب حار . تلك هى: الفوضوية . إنها كلمة تبعث الرعب فى نفوس الذين لا يعرفون عنها شيئا . ومعناها ايجاد مجتمع يستغنى الى اقصى حد عن الحكومة المركزية ، ويستمتع أفراده بقسط كبير من الحرية الفردية ، بحيث لا يكون هناك «أى ضغط او ارغام من ناحية الدولة » ، فالحكومة تبلغ أعظم درجة من النجاح حيث لا تحكم ابدا ! وحين يصبح الناس مستعدين لمثل هذه الحكومة ، فسوف نكون لهم !! هكذا قال الامريكى « ثورو »

لاشك ان هذا يبدو رائعا ! حرية كاملة لكل فرد ، كل

واحد يحترم الاخر ، لا أنانية قط ، بل رغبة خالصة فى التعاون ! ولكن عالمنا الحاضر بكل ما فيه من انانية وعنف، يبدو بعيدا عن هذه الفكرة تماما . ولا شك ان دعـــوة الفوضويين الى عدم وجود حكومة مركزية قط ، او وجود حكومة فى أضيق نطاق فقط ، لاشك ان هذه الدعوةكانت بمثابة رد فعل للاوتوقراطية والسلطة المطلقة التى كـانت طابع الحكومات ، والتى قاسى الناس منها كثيرا . فقـد طالما اضطهدت الحكومة الناس وأرهقتهم وطاردتهم ، حتى فكروا فى نوع من الحياة بلا حكومات !

ورأى الفوضويون ايضا ان الدولة فى ظل النظـــــام الاشتراكى سوف تكون مسيطرة على كلّ وسائل الانتاج مما يجعلها مستبدة مطلقة ..

فالفوضويون اذا نوع من الاشتراكيين . يعلقون اهمية بالغة على الحرية الفردية والمحلية . وقد كان هناك مـن الاشتراكيين أنفسهم من كانوا مستعدين للتســـليم بالفوضوية كهدف بعيد لمبدأهم ، يجب أن يسبقه وجود حكومة مركزية اشتراكية قوية

وهكذا نجد أن بين الاشتراكية والفوضوية فروقا هائلة من ناحية ، كما ان بينهما بعض ظلال من الشبه فى ناحية اخرى ...

وقد أوجدت الصناعة الحديثة فرصة ملائمة لتـكوين طبقة منظمة تنظيما محكما ، فكانت النتيجة أن عجـزت الافكار الفوضوية عن الانشار فى البلاد الصناعية حيث كانت تنمو النقابات وغيرها من التنظيمات . فلم يظهرفى انجلترا ولا فى المانيا عدد يذكر من الفوضويين . ولـــكن الفوضوية وجدت أرضا خصـــبة بعض الشىء فى شرق أوروبا وجنوبها حيث كانت الحياة الصناعية متخلفة .. وقد اصبح هذا المذهب الان ميتا تماما ، ماعدا فى بلـد

واحد مازال متأخرا وهو اسبانيا ..

ان الفوضوية قد تبدو مبدأ فاتنا له سحره الخاص ، ولكنه كما يعطى الفرصة للناس الساخطين العصبيين ، فانه يعطى الفرصة للافراد الذين يبحثون عن الربح الشخصى وراء ستار المبادىء ، كذلك فهى فكرة تقود الى نوع من العنف ، اقترن بعد ذلك باسمها فى كل اذن ، حتى اصبح اسمها يبعث على الرعب

ولما عجز الفوضويون عن انشاء مجتمع على الطراز الذى رسموه ، بدأ بعضهم يدعو لمبدئه بطريقة جديدة ، هى طريقة العمل .. أى طريقة ضرب المثل للناس عن طريق الشجاعة الخارقة ، والاعمال الباسلة فى مقاومة الطغيان ولو بالتضحية بالنفس ..

وبهذا الاسلوب انفجرت بعض الثورات فى أماكن متفرقة . ثورات لم يكن أصحابها يرجون لها اى نجاح ، ولكنهم بالرغم من ذلك خاطروا بحياتهم فى سبيل القيام بهذا النوع الجديد من الدعاية لمبدئهم !.. وقد فشلت هذه الثورات بالطبع .. واتجه الفوضويون بعدها الى أعمال الارهاب .. كالقاء القنابل واغتيال الملوك وكبار الرسميين . ولا شك أن هذا الصنف الاحمق كان دليلا على تزايد ضعفهم ويأسهم . فلم تأت نهاية القرن التاسع عشر حتى كانت الفوضوية كحركة قد انتهت . وتبرأ زعماء الفوضوية من كل اعمال الارهاب والدعاية العملية التى ارتكبها انصارهم !..

ولعله يهمك الان أن اذكر لك اسماء بعض الفوضويين المشهورين . وقد تدهشين اذا عرفت أن هؤلاء الزعماء الفوضويين كانوا فى حياتهم الخاصة مثالا للرقة والاخلاص ، والتمسك بالمثل العليا ..

كان أول القادة الفوضويين فرنسى ، اسمه « بين

برودويه » عاش من سنة ١٨٠٩ الى سـنة ١٨٦٥ ، وأصغر منه بقليل ، كان رجل أخر ، روسى نبيل اسمه « ميشيل باكونين » وكان قائدا محبوبا لجماهير العمال فى جنوب أوروبا . .

وقد أختلف باكونين مع ماركس . فأخرجه هـذا هو وانصاره من الاتحاد الدولى . والاسم الثالث لرجل عاصرناه هو الامير الروسى بيترو كروباتكين . وقد ألف مجموعة من الكتب الممتعة عن الفوضـوية وغيرها من الموضوعات . والاسم الرابع والأخير لايطالى كهل ، ذلك هو أنريكو مالاتستا ، اخر الفوضويين العظام الذين عرفهم القرن التاسع عشر . .

ومن النوادر التى تروى عن « مالاتسـتا » أنه حوكم مرة أمام احدى المحاكم فى ايطاليا . ووقف المدعى العام فى المحاكمة يقول أن مالاتسـتا له تأثير هائل على العمـال فى المنطقة التى يعمل فيهـا ، حتى أنه غـمر شخصياتهم تماما . . وانه استطاع أن يضع حدا للاجرام ، حتى اصبحت الجرائم فى هذه المنطقة نادرة جدا !

واستطرد المدعى العام قائلا : « واذا توقف الاجـرام تماما ، فماذا تصنع المحاكم ؟! من أجل ذلك فقط يجب أن يذهب مالاتستا الى السجن ! »

وفعلا حكم عليه بالحبس ستة شهور ! . .

انه لمن سوء حظ الفوضوية انهـا اقترنت بالعنف حتى نسى النـاس انها فلسفة وانها مبدأ أعتنقه عدد من عظماء الرجال الممتازين !. أنها ـ كمبـدأ ـ ما تزال بعيدة جدا عن عالمنا الراهن ، بعيوبه التى نعرفها ، وان حضارتنا الحديثة لاكثر تعقيدا من أن يعالجها هـذا المبدأ بمستحضراته البسيطة . .



كارل ماركس ..

١٤ فبراير سنة ١٩٤٢

فى منتصف القرن التاسع عشر ايضا ، ظهرت فى اوروبا وفى عالم العمل والاشتراكية ، شخصية خطيرة .. ذلك هو كارل ماركس . وهو يهودى المانى ، ولد سنة ١٨١٨ ، ودرس القانون ، والتاريخ والفلسفة. ثم اصطدم بالسلطات الالمانية بسبب مجلة اصدرها ، فسافر الى باريس ، حيث اتصل بناس جدد وقرا كتبا جديدة فى الاشتراكية والفوضوية ، حتى دان بالفكرة الاشتراكية وامن بها ايمانا عميقا ، وفى باريس التقى بألمانى اخر ، اسمه فريدريك انجلز ، استوطن فى انجلترا ، وأصبح من أصحاب المصانع الاثرياء فى صناعة القطن النامية ، وكان انجلز بدوره يستشعر التعاسة والالم من الظروف الاجتماعية التى رآها حوله ، وكان عقله يبحث جاهدا للعثور على حل لما يراه من فقر واستغلال . وقد اجتذبته فى أول الامر اراء روبرت أوين ومحاولاته للاصلاح ، واصبح من اتباعه . على ان

زيارته لباريس ، التى قادته الى التعرف بكارل ماركس غيرته أيضا . وأصبح ماركس وانجلز صديقين حميمين وزميلين لا يفترقان ، يحملان نفس الاراء ، ويعملان قلبا وقالبا من أجل غرض واحد . وكانا فى عمر متقارب .. وقد بلغ من تفاهمهما وتقاربهما أن أكثر ما أنتجاه من الكتب اشتركا فى كتابتها سويا ..

على أن الحكومة الفرنسية القائمة فى ذلك الوقت ـ حكومة لويس فيليب ـ طردت ماركس من باريس . فذهب الى لندن. حيث عاش سنوات كثيرة ، غارقا بين الكتب المكدسة فى المتحف البريطانى . كان يعمل عملا متواصلا فى صقل نظرياته والكتابة عنها . ومع ذلك فانه لم يكن قط فيلسوفا غارقا فى نظرياته منقطع الصلة بالمسائل العامة . فبينما كان يعمل فى تطوير وتوضيح المبادىء العائمة التى كانت توجه الحركة الاشتراكية ، ويضع اهدافا محددة قاطعة لها ، كان يقوم بدور قيادى هام فى تنظيمات الحركة والعمال . وكان طبيعيا أن تهزه جوادث عام ١٨٤٨ ، عام الثورات فى أوروبا ، وان تحركه الى حد بعيد

ففى تلك السنة بالذات اصدر مع انجلز البيان الذى أصبح بعد ذلك من اشهر البيانات .. ذلك هو « البيان الشيوعى » ، الذى ناقشا فيه افكار الثورة الفرنسية الكبرى ، كما ناقشا الثورات الاخرى التالية لها التى نشبت سنة ١٨٣٠وسنة ١٨٤٨ ، وأظهرا كيف أنهما كانتا مخالفتين وغير متلائمتين مع الظروف الحقيقية فى ذلك الوقت . وانتقد الصيحات الديمقراطية التى تصاعدت تنادى بالحرية والاخاء والمساواة ، وأكد أن هذه الكلمات لا تعنى الناس كثيرا ، وانها انما تصلح رداء طيبا للدولة البورجوازية ، وباختصار ، شرحا

نظريتهما الخاصة بالاشتراكية ، وختما بيانهمـــا بنداء شهير الى جميع العالم « يا عمال العالم ، اتحدوا انـــكم لن تخسروا شيئا الا قيودكم ، وامامكم عالم بأسره كي تكسبوه ! »

كان هذا البيان دعوة الى العمـــل . وقد أعقبـــه ماركس بدعاية نشيطة فى الصحف والكتب وبمحاولات متصلة للربط بين تنظيمات العمـــال المختلفـــة . ويبدو أنه شعر بأن أوروبا على وشـك ازمة خطـيرة ، فأراد ان يكون العمـــال مستعدين لهـــا ، متهيئين للاستفادة منهـــا الى اقصى حد . وطبقا لنظريتـــه الاشتراكية ، كان لابد ان تقع الازمة فى ظل النظـــام الرأسمالى . .

وكتب سنة ١٨٥٤ فى جريدة تصدر فى نيويورك : «نعم» ان فى اوروبا الان قوة سادسة تفرض سيطرتها فى بعض الظروف على القوى الخمس الاخرى الكبيرة وتجعلهـا ترتجف . تلك القوة السادسة هى الثورة . انها بعـد أن رقـدت طويلا نراها الآن تتجمـع فى أرض المعـركة بفعل الازمة والمجاعة . اشارة واحدة فقط ، وسوف تتقـدم بعدها تلك القوة السادسة والعظمى فى اوروبا لامعـــة الدروع ، سيفها فى يدها ، مثل مينرفا عندما هبطت جبل الاوليمب ، وستكون الحرب الاوروبية القـــادمة ، هى الاشارة الموعودة . .

على أن نبوءة ماركس عن الثورة الوشيكة الوقوع فى أوروبا لم تتحقق . فقد مرت ستون عاما بعد كتابة هذا الكلام ، وقامت حرب عالمية ، قبل ان تقوم تلك الثورة ، وفى جزء واحد من اوروبا فحسب . أما المحاولة التى حدثت فى باريس ، سنة ١٨٧١ ، فقد أخمدت بقسـوة بالغة . .

وفى سنة ١٨٦٤ نجح ماركس فى عقد مؤتمر مشترك فى لندن .. فقد كانت هناك جماعات كثيرة اشتراكية .. وكان هناك الديمقراطيون الوطنيون الذين أتوا من بلاد اوروبية خاضعة للحكم الاجنبى ، والذين كان اهتمامهم بالاشتراكية ضئيلا ، اذ كانوا أكثر اهتماما بتحقيق الاستقلال الوطنى

ومن ناحية أخرى كان هناك الفوضويون الذين يكافحون من أجل معركة سريعة وحاسمة . والى جانب ماركس ، كانت الشخصية الاخرى القوية هى شخصية باكونين ، زعيم الفوضويين ، الذى فر من سيبريا قبل ثلاث سنوات ، بعد أعوام طويلة من النفى والسجن . وكان أنصار باكونين يتركزون على الاغلب فى جنوب اوروبا ، فى الدول اللاتينية مثل ايطاليا واسبانيا ، التى كانت متخلفة صناعيا . وكانوا يتكونون من المثقفين العاطلين والعناصر الثورية الفردية التى لم تجد لنفسها مكانا فى النظام الاجتماعى القائم

اما أنصار ماركس فكانوا من البلاد المتقدمة صناعيا ، وخصوصا المانيا ، حيث كانت احوال العمال احسن قليلا . وعلى ذلك كان ماركس يمثل طبقة العمال النامية المنظمة المستعدة للعمل الايجابى ، وكان باكونين يمثل العمال الاكثر فقرا واقل تنظيما ، والمثقفين والساخطين

ودعا ماركس الى تنظيم العمال وتعليمهم فى صبر ، طبقا لنظرياته الاشتراكية ، حتى تجىء الساعة الموعودة ، والتى كان يعتقد انها قريبة . بينما دعا باكونين الى العمل فورا . وقد انتصر ماركس على طول الخط .. وتأسست « المنظمة الدولية للعمال » ، أول منظمة دولية للعمال ..

وبعد ثلاث سنوات اى فى سنة ١٨٦٧ ، صدر كتاب ماركس الضخم « رأس المال » باللغة الالمانية ..

كان هذا الكتاب ثمرة كدحه الطويل فى لندن .. وقد تناول فيه بالنقد النظريات الاقتصادية المعاصرة ..وشرح نظريته الخاصة شرحا مسهبا . كان هذا الكتاب عملا علميا محضا . حلل فيه التاريخ والاقتصاد تحليلا علميا خالصا بعيدا عن أى شائبة من شوائب العاطفة ، ومتجنبا كل اوهام المثالية . وقد ناقش فيه بنوع خاص نمو الحضارة الصناعية والآلة الكبيرة ، ووصل الى نتائج هامة فى التطور والتاريخ ، والصراع بين الطبقات فى المجتمع الانسانى ..

ومن اجل ذلك اطلق على اشتراكية كارل ماركس اسم « الاشتراكية العلمية » تمييزا لها عن الاشتراكية المثالية التى كانت منتشرة قبل صدور هذا الكتاب ..

وكتاب « رأس المال » هذا ليس من الكتب التى تسهل قراءتها ، بل أنه أبعد ما يكون عن القراءة السهلة . ولكنه بالرغم من ذلك من الكتب القليلة التى أثرت فى طريقة تفكير اكبر عدد من الناس ، وبدلت معتقداتهم ، وأثرت تبعا لذلك فى مجرى التاريخ الانسانى كله ..

وفى سنة ١٨٧١ وقعت مأساة « الكومون » فى باريس ، التى سبق ان أشرت اليها ، والتى كانت فيما أعتقد أول ثورة اشتراكية هامة . وقد أدت هذه المأساة الى ازدياد الفزع بين الحكومات الاوروبية ، وبالتالى الى ازدياد قسوتها فى معاملة حركات العمال ..

وفى العام التالى ، انعقدت منظمة العمال الدولية مرة أخرى ، ونجح ماركس فى نقل مقر قيادتها الى نيويورك . ويبدو أن السبب فى ذلك كان رغبة ماركس فى ابعاد انصار باكونين الفوضويين عنها ، وربما لأنه وجد أنها هناك سوف تكون آمن مما لو بقيت تحت سطوة الحكومات الأوروبية التى كانت متحفزة للبطش بها منذ مأساة

« كومون باريس »، الا أنه كان مستحيلا ان تعيش القيادة على هذا البعد من مركز نشاطها فى أوروبا ، وفى الوقت الذى كانت الحركة العمالية فى أوروبا تمر بأيام عصيبة .
وهكذا تلاشت « الدوليةالاولى » تدريجيا
وقد انتشرت الماركسية انتشارا عظيما بين الاشتراكيين الاوروبيين خصوصا فى المانياوالنمسا،حيث كانت تنتشر « الاشتراكية الديمقراطية » . اما انجلترا فلم تتقبلها بنفس الحماس . كانت انجلترا فى ذلك الوقت من النجاح والثراء بحيث يصعب ان تنجح فيها أى دعوة متطرفة . كانت الاشتراكية الانجليزية تتمثل فى « الجمعية الفابية » ذات البرنامج المعقول للاصلاح البطىء . ولم يكن الفابيون على صلة ما بالعمال ، بل كانوا طائفة من المثقفين التقدميين الاحرار . وكان برناردشو أحد الرواد الاوائل فى هذه الجمعية . .
أما خطة هذه الجمعية فيمكن ان نلخصها فى كلمة احد زعمائها ، سيدنى ويب : « حتمية التدريج » . .
اما فى فرنســـا ، فقد مرت على محاولة الكومون ١٢ سنة قبل ان تصبح الاشتراكية فيها قوة فعالة مرةأخرى ولكنها اتخذت فى هذه المرة شكلا جديدا ، بين الفوضوية والاشتراكية ، وأطلق عليها اسم « النقابية » : فالنظرية الاشتراكية تقول ان الدولة بوصفها ممثلة للمجتمع كله ، يجب أن تملك وان تدير وسائل الانتاج جميعا ـ أى الارض والمصانع وما اليها . وكان الخلاف منحصرا فى مدى تأميم وسائل الانتاج . اذ ان هناك وسائل انتاج شخصية مثــل الآلات اليدوية وما اليها ، من الحمــاقة طبعا التفكير فى تأميمها . على أن الاشتراكيين كانوا متفقين على تأميم أى شىء يمكن ان ينتج ربما فرديا عن طــريق اســتغلال الاخرين . .
اما « النقابيون » فقد كانوا ، كالفوضويين ، لا يحبون

« الدولة » ويحاولون الحد من سلطتها . كانوا يقولون أن كل صناعة يجب ان يديرها العمال المشتغلون فيها ، عن طريق نقابتهم . على ان تنتخب النقابات المختلفة ممثلين لها فى مجلس عام ينظر فى جميع مسائل البلد ، كنوع من البرلمان ، فى المسائل العامة فقط ، دون أن يتدخل فى المشاكل الخاصة بكل صناعة من الصناعات . اما الوسيلة التى دعا اليها « النقابيون » لتحقيق هدفهم فهى : الاضراب العام الذى يشل الحياة العامة تماما . وقد كان الماركسيون يرفضون هذه الدعوة رفضا باتا ، ولكن اصحاب هذه الدعوة ظلوا يعتبرون كارل ماركس « بعد وفاته » واحدا منهم !

وقد توفى كارل ماركس سنة ١٨٨٣ ، أى منذ خمسين سنة فقط (١) وفى خلال هذه المدة حدثت أشياء كثيرة : نمت اتحادات ونقابات قوية للعمال فى انجلترا والمانيا وسائر البلاد الصناعية ومرت الصناعة الانجليزية بأروع أيامها ، ثم بدأت فى الانحدار فى وجه المنافسة المتزايدة بين المانيا وامريكا .. وكانت امريكا بالذات تتمتع بمزايا طبيعية هائلة ساعدتها على تحقيق تقدم صناعى سريع

اما المانيا فكانت مزيجا غريبا من الاوتوقراطية السياسية (ممثلة فى برلمان هزيل فاقد السلطة) والصناعة المتقدمة وقد عملت الحكومة الالمانية فى عهد بسمارك وبعده ، على مساعدة الصناعة بمختلف الطرق ، كما حاولت ان تكسب الطبقة العاملة عن طريق الاصلاح الاجتماعى وتحسين احوالها . وفى انجلترا اتبع الاحرار الانجليز نفس الاسلوب فى الاصلاح الاجتماعى ، مثل تخفيض عدد ساعات العمل وتحسين احوال العمال بعض الشىء

وقد ظل الاسلوب ناجحا ، وظل العمال الانجليز معتدلين

---

(١) منذ خمسين سنة من تاريخ كتابة هذه الرسالة

مخلصين لحزب الاحرار طوال الفترة التى كانت الصناعة الانجليزية فيها ناجحة نامية فلما اقتربت نهاية القـــرن ووضعت المنافسة الاجنبية حدا لهذا النجاح والنمـو ، بدأت انجلترا تشعر بالكساد التجارى ، وبدأت اجـــور العمال تهبط .. وهنا تحركت الطبقة العاملة مرة أخرى ، وبدت الروح الثورية فى الافق ، والتفت كثير من الانجليز الى الماركسية ..

وفى سنة ١٨٨٩ ، بذلت محاولة اخرى لتكوين « دولية عمالية » جديدة ، وبعد ان أصبح هناك عدد من النقابات والاحـــزاب العمالية القوية ، يعمـــل فيها عـــدد كبير من الموظفين المحترفين . وقد اطلق على هـــذه المنظمة اســـم « الدولية الثانية » . وقد عاشت هذه «الدولية الثانية» ربع قرن حتى جاءت الحرب العالمية الاولى التى اختبرتها ووجدتها ضعيفة فعلا : بل كان من أعضاء هـــذه الدولية من تولوا بعد قليل مناصب هامة فى بلادهم

وقد كان هناك من استغلوا الحركة العمالية لمصلحتهم الخاصة ثم هجروا ، واصبحوا رؤساء وزارات ورؤســـاء جمهوريات . لقـــد نجحوا فى حياتهم ، أما الملايين التى ساعدتهم ووضعت ثقتها فيهم فقد بقيت فى مكانها . لقد اصبح هؤلاء الزعماء الذين اقســـموا يمين الولاء لمبادىء كارل ماركس ، اصبحوا أعضاء فى البرلمانات . او أصبحوا رؤساء نقابات يأخذون مرتبات كبيرة . واصـــبح من الصعب عليهم ان يخاطروا بمراكزهم المريحة فى صـــدام سياسى عنيف

وهكذا هدأوا شيئا فشيئا ، وحتى عندما كان العمال يندفعون تحت وطأة اليأس الى عمل عنيف ، كان هؤلاء الزعماء يحاولون تهدئتهم ..

وبعد الحرب .. أصـــبح رئيس جمهورية المانيـــا

ومستشارها من الاشتراكيين الديمقراطيين ، وفى فرنسا ، اصبح « أرستيد بريان » النقابى المتحمس وأفصح دعاة الاضراب العام ، أصبح رئيسا للوزراء احدى عشرة مرة ، واخمد اضرابا كبيرا تزعمه زملاؤه القدامى . وفى انجلترا اصبح رامزى ماكدونالد رئيسا للوزراء ، وترك حزب العمال الذى أظهره . وتكررت نفس الظاهرة فى السويد والدنمرك وبلجيكا والنمسا . وغرب أوربا اليوم (١) مملوءة بالديكتاتوريين الساسة الذين كانوا فى أول حياتهم السياسية ، اشتراكيين ، فلما تقدمت بهم السن نالهم الضعف ونسوا حماسهم القديم واهدافهم الاولى ، بل وكثيرا ما تحولوا ضد زملائهم القدامى . ان موسولينى دكتاتور ايطاليا ، كان اشتراكيا ، وكذلك بلسودسكى دكتاتور بولندا ..

ان الحركات العملية ، بل والحركات الوطنية أيضا ، تعانى دائما من هذا الداء ، داء الضعف فى قادتها

ان هؤلاء القادة يتعبهم الكفاح ، ويرهقهم الفشل وعدم النجاح ، والهالة المضيئة على رءوس الشهداء لا تغرى أصحابها زمنا طويلا ..

فهم يهدأون بعد حين وتتحول نار حماستهم الى رماد . فاذا كان الواحد منهم أكثر طموحا فانه يعبر الى الجانب الاخر ويعقد هدنة فردية مع أولئك الذين كان يعارضهم ويقاومهم . وأنه لمن السهل دائما ان يبرر الانسان لنفسه، ولضميره ، اى خطوة يريد أن يخطوها !

هكذا تقاسى الحركات العمالية والوطنية وتتعرض للنكسات من جراء هذا العيب . ولما كان أعداء الحركات العمالية والوطنية يعرفون ذلك جيدا ، فهم دائما يحاولون ان يكسبوا الافراد البارزين فيها الى جانبهم بكل وسائل

---

(١) سنة ١٩٣٣

الاغراء وانواع القول المعسول . ولكن القول المعسول لا يرضي جماهير العمال ، ولا يشفى غليل بلد تتعطش للحرية . ولهذا فبالرغم من فرار الفارين ، ونكسة المنتكسين ، فان الصراع يمضى دائما الى غايته المرسومة

بدأت الدولية الثانية اذا سنة ۱۸۸۹ ، ونمت فى العدد والهيبة . وبعد سنوات قليلة اخرج منها الفوضويون بزعامة مالاتستا بسبب رفضهم خوض المعارك الانتخابية لنيل الاغلبيات البرلمانية . .

وفضل الاشتراكيون فى الدولية الثانية البرلمانات على الاشتراك مع زملائهم القدامى فى صراع مشترك . واصدر بعضهم بيانات باسلة عما يجب ان يصنعه الاشتراكيون فى أوروبا اذا وقعت الحرب . وأعلنوا ان الاشتراكيين لا يعترفون بالحدود الوطنية ، وان كفاحهم مشترك ومصالحهم مشتركة . فهم لم يكونوا « وطنيين » بالمعنى القديم للكلمة . ولهذا أعلنوا أنهم يعارضون الحرب . فلما وقعت الحرب فعلا سنة ١٩١٤ ، تحطم بناء «الدولية الثانية » بأكمله . . وتحول الاشتراكيون، وتحولت احزاب العمال ، بل وتحول الفوضويون مثل كروباتكين ، تحولوا جميعا الى وطنيين متعصبين كارهين لغير بلادهم من البلاد، كالاخرين سواء بسواء . قليل جدا منهم هم الذين قاوموا وثبتوا على دعوتهم الاولى ، وقد عرضهم ذلك لاضطهاد رهيب ولايام عصيبة وسجن طويل

فلما انتهت الحرب ، أسس لينين « دولية ثالثة » فى موسكو سنة ١٩١٩ ، كانت هذه الدولية منظمة شيوعية صرفة ، أعلنت انها لا تقبل الا الشيوعيين . وهى المنظمة التى ما تزال موجودة الى اليوم

أما من تبقى بعد الحرب من أعضاء الدولية الثانية ، فمنهم من تحالف مع الدولية الثالثة ، ومنهم من ابدى

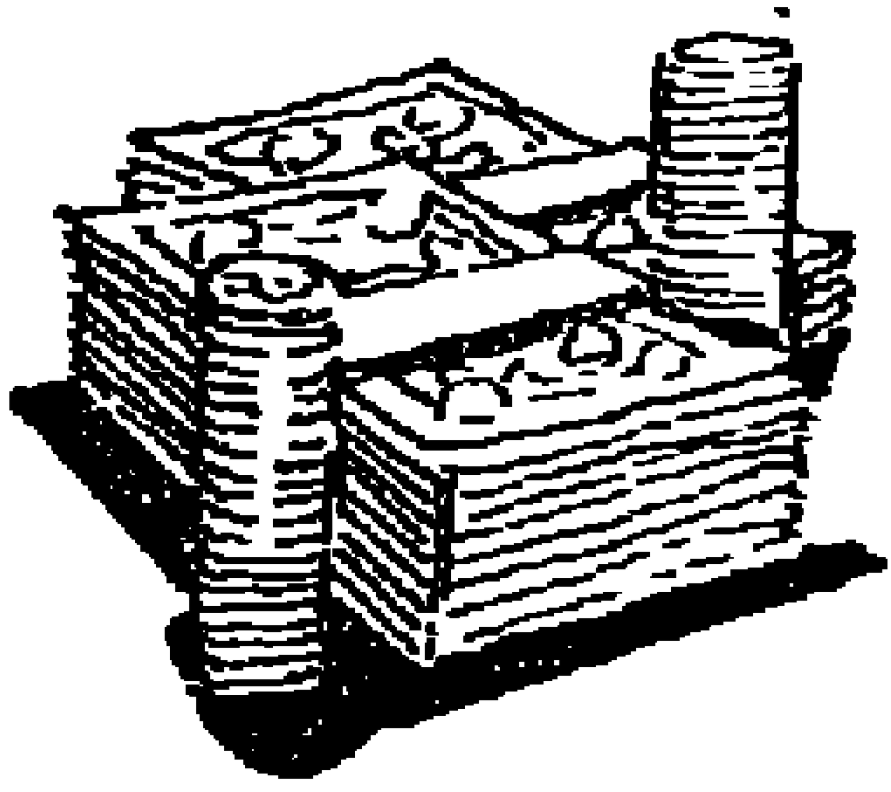
كراهيته لموسكو ورفض ان يرتبط بدوليتها الثالثة بأى شكل .. وقد استمر هؤلاء يكونون الدولية الثانية ..

والغريب أن كلا الهيئتين تدين بالماركسية ، ولكن كلا منهما تفسر الماركسية على طريقتها الخاصة ، بل انهما تتبادلان كراهية لا تقل عن كراهيتهما لعدوهما المشترك : الرأسمالية ..

على ان هاتين « الدولتين » لا تضمان كل نقابات العمال فى العالم ..

فهناك نقابات كثيرة جدا لا تتبع أيهما ، فنقابات العمال الامريكية مثلا تقف فى جانب خاص بها . لانها محافظة جدا ..

كذلك فان النقابات فى الهند لا تتبع أيا من هاتين الدولتين



إنجلترا تصبح دائنة العالم

٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣

قلت لك فى رسائل سابقة ان ثراء انجلترا ورخاءها فى القرن التاسع عشر يرجع الى صناعتها من جهة ، والى استغلالها لمستعمراتها من جهة اخرى ، ولكنه يرجع بوجه خاص الى أربع صناعات رئيسية هى : القطن والفحم والحديد وبناء السفن . وحول هذه الصناعات الاربع الرئيسية نمت أغلب الصناعات الاخرى ، الخفيف منها والثقيل ، ونشأت بيوت الاعمال الضخمة والبنوك ، وانتشرت السفن الانجليزية فى جميع أنحاء العالم ، لا تحمل المصنوعات الانجليزية وحدها بل ومنتجات الدول الصناعية الاخرى ، واصبح الانجليز بذلك سادة النقل التجارى ، وأصبح مكتب لويدز للتأمين فى لندن مركزا للنقل البحرى فى العالم ، واصبحت هذه الصناعات والاعمال هى التى تحكم البرلمان

وتدفق الثراء على انجلترا فغمر الطبقات العليا والمتوسطة ووصل جانب منه الى الطبقة العاملة فارتفع مستوى معيشتها ولكن ماذا يصنع الاغنياء بكل هذه

الاموال المتدفقة عليهم ؟ ان ابقاءها عاطلة بغير استثمار حماقة بلا شك. وكل واحد حريص على أن يستثمرها فى مزيد من الصناعة ، والحصول بالتالى على مزيد من الارباح . .

ولكن ، بعد فترة من الزمن ، وعندما امتلأت البلد كلها بعدد هائل من المصانع وتشبعت بالتصنيع الى أقصى حد .. بدأ معدل الارباح يهبط شيئا فشيئا بفعل المنافسة الشديدة . .

وهنا نظر الراسماليون الى خارج بلادهم باحثين عن ميادين أخرى لاستثمار اموالهم فوجدوا ان الفرص فى الخارج كثيرة .. وبدأت الاموال الانجليزية تتدفق الى الخارج ، لتبنى السكك الحديدية والتلفونية والتلغرافات والمصانع ، فى أوروبا وامريكا وافريقيا وجميع المستعمرات الانجليزية : الولايات المتحدة ذات الموارد الفنية والنمو السريع تنال جزءا هاما من المال الانجليزى لبناء السكك الحديدية . وفى أمريكا الجنوبية خصوصا الارجنتين ، يمتلك المال الانجليزى عددا من المزارع الشاسعة ، وفى كندا واستراليا يبنى كل شىء برأس المال الانجليزى ، وكذلك فى الصين ، وفى الهند طبعا ، حيث أقرض الانجليز أموالهم لشركات السكك الحديدية بفوائد باهظة

بذلك أصبحت انجلترا هى البنك الذى يقرض العالم ، وأصبحت لندن هى السوق الدولية للنقود ..

ولا تحسبى أن معنى ذلك ان انجلترا كانت ترسل النقود الى الدول الاخرى فى صورة حقائب مملوءة بالذهب أو الفضة أو البنكنوت . ان الاعمال التجارية الحديثة لاتتم بهذه الصورة البدائية ، والا لما وجدنا من الذهب والفضة ما يكفى هذه المعاملات. ان من الناس من يعلقون أهمية بالغة على الذهب والفضة ، والواقع انها ليست

سوى « وسيلة » للتعامل وتبادل السلع ، ان الذهب والفضة معادن لا تؤكل ولا تلبس ولا تنفع الا فى الزينة فحسب ، وهى شيء تافه . ان الثراء الحقيقى ليس فى اقتناء الذهب والفضة .. انه فى امتلاك البضائع التى يمكن استعمالها . وعلى ذلك فحين نقول ان الرأسماليين الانجليز استثمروا اموالهم فى الخارج فى الصناعة أو فى السكك الحديدية ، فمعنى ذلك انهم أرسلوا بضائعهم الى الخارج ، أى أرسلوا الالات والقطارات والقضبان وغيرها من المواد الى الدول الاجنبية ، ومعنى ذلك ربح جديد للصناعة الانجليزية ، وفرصة جديدة للطبقة المستثمرة فى انجلترا ، كما توظف الفائض من أموالها نظير ربح كبير ..

ان اقراض النقود عملية مربحة جدا . وقد أثرت منها ثراء هائلا حتى لقد نشأت طبقة مترفة تعيش على فوائد هذه القروض وحدها . وابناء هذه الطبقة لا يعملون شيئا على الاطلاق .. انهم فقط يحملون اسهما فى شركات السكك الحديدية ، وشركات زراعة الشاى وما اليها ، وفى نهاية كل عام تجيئهم الارباح بانتظام

ولكن ، ها هنا سؤال هام : هذه الدول التى اقترضت النقود من انجلترا بهذه الطريقة ، كيف تدفع ربح هذه القروض ؟ . .

مرة أخرى ، هى لا تدفعها ذهبا ولا فضة ولكنها تدفعها سلعا وهى لا تدفعها سلعا مصنوعة كتلك التى تبيعها انجلترا ، لان انجلترا نفسها هى سيدة الانتاج الصناعى، ولكنها تدفعها مواد غذائية وخامات أى ان الارباح كانت تتدفق على انجلترا فى صورة كميات هائلة من القمح والشاى والبن واللحم والفاكهة والقطن والصوف .. الخ

والتجارة بين دولتين من الدول لا تقوم الا على أساس تبادل السلع والمواد . فانه من المستحيل أن تقتصر دولة

ما على الشراء او تقتصر على البيع . واذا حدث واضطرت دولة الى أن تشترى من دولة أخرى سلعا دون أن تبيع لها ، فمعنى ذلك انها ستضطر الى دفع ثمن ما تشتريه ذهبا أو فضة ، ولن تجد هذه الدولة من الذهب أو الفضة ما يكفى . وهنا لابد لهذه التجارة من جانب واحد ان تتوقف . فالتجارة بين دولتين اذا لابد فيها من التبادل ولا بأس بعد ذلك من أن يميل الميزان لمصلحة هذه الدولة أو تلك ...

ولو فحصنا تجارة انجلترا خلال القرن التاسع عشر، لوجدنا انها تستورد كميات أكثر جدا مما تصدر ، مع فارق واحد ، هو انها تستورد الطعام والخامات وتصدر السلع المصنوعة وليس معنى ذلك ان انجلترا كانت تدفع ثمن ما تستورده زائدا عما تصدر ، كلا ، فهذا الزائد هو ربح اموالها التى تقرضها ولم تكن تأتى كلها الى انجلترا . كان جانب منها يظل فى البلد المقترض ، حيث يعاد استثمارها لحساب الرأسماليين الانجليز ايضا

وبذلك أخذ الاستثمار الانجليزى فى الخارج ينمو ويتزايد ، دون حاجة الى ارسال مزيد من الاموال أو البضائع . وفى الهند نعرف جميعا ضخامة الاستثمارات الانجليزية فى السكك الحديدية وغيرها

قلت لك ان انجلترا وجدت ان خير طريقة للمضى فى عملية الاقراض هذه ، هي أن تقبل فوائد اموالها فى صورة بضائع ، وقد أدى ذلك الى نتيجتين هامتين : الاولى هى تزويد شعبها بكل ما يحتاجه من طعام بكميات كافية ، وانصرافها انصرافا تاما عن الزراعة وتركيز كل جهدها فى انتاج السلع المصنوعة ، ذلك انه اذا كانت انجلترا تستطيع أن تحصل على الطعام من الخارج بأسعار زهيدة ، فلماذا تتعب نفسها فى استنباته ؟ واذا كانت الصناعة تدر ربحا

أكثر فلماذا تشغل نفسها بالزراعة ؟ وهـــكذا اصبحت انجلترا دولة صناعية تماما ، تعتمد فى الحصـــول على طعامها على ما يأتيها من الخارج ..

اما النتيجة الثانية فهى دعوتها لسياسة حرية التجارة اى لا تفرض الضرائب على السلع التى تأتيها من الخارج، أو لا تفرض عليها الا التافه البسيط . فما دامت هى الدولة الاولى فى الصناعة ، فليس لها أن تخشى منافسة الصناعات الاجنبية لها . كما أن فرض ضرائب على السلع المستوردة معناه فرض ضرائب على الطعام الذى تأكله ، والخامات التى تستخدمها ، مما يرفع اســـعار المواد الغذائية للمستهلكين ويرفع تكاليف الانتاج بالنســـبة للمنتجين ..

هذا الى أنها اذا فرضت ضرائب عاليـــة تمنع السلع الاجنبية من المجىء فكيف تدفـــع لها الدول الاولى فوائد أموالها ؟

لهذه الاسباب كلها تبنت انجلترا سياســـة حرية التجارة ، فى الوقت الذى كانت فيه سائر الدول تلجأ الى حماية صناعتها بواســطة فرض ضرائب ورســوم على السلع التى تستوردها .. مثل أمريكا وفرنســـــا والمانيـــا ..

وقد تبدو سياسة انجلترا خلال القرن التاسع عشر من الاهتمام بالصناعة واهمال الزراعة والاعتماد فى طعامها على ما تستورده فى الخارج ، قد تبدو هذه الســياسة سليمة ، الا ان لها مخاطرها التى بدأت تتضح فى هـــذا القرن ..

لقد بنيت هذه السياسة على أساس تفوق انجلتـــرا الصناعى وسيادة تجارتها فى الخارج ولكن ، لنفرض أن هذا التفوق قد ذهب . وان هذه التجارة قد هبطت تبعا

لذلك ، فماذا تصنع فى هذه الحالة ؟ كيف تدفــــع ثمن طعامها ؟ واذا استطاعت ان تدفع ثمنه فكيف تحمله الى بلادها اذا وقف لها فى الطريق عدو قوى ؟

لقد كاد أهل انجلترا يجوعون خلال الحرب العالميــة الاولى ، لان الطعام الذى يأتيها من الخارج قد انقطع ، واخطر من ذلك الهبوط المستمر فى تجارتها نتيجة لتزايد المنافسة . وقد بدت خطورة هذه المنافسة قرب نهـــاية القرن ، عندما بدأت الولايات المتحــــدة باحثــة عــن أسواق اجنبية . .

وما زال هذا الخطر يتزايد بانتشار الصناعة فى كل مكان من العالم ، اذ أصبحت كل دولة تريد ان تصـــنع بنفسها اكبر قدر ممكن من السلع التى تستهلكها ـ الهند مثلا تريد أن تستغنى عن استيراد الاقمشة من الخارج فماذا تصنع انجلترا فى هذه الحالة ، والمؤســـســــات الانجليزية التى تعتمد على تجارة القماش ؟

كل هذه أسئلة خطــيرة ، على انجلترا ان تبحث عن اجابتها قبل ان تواجهها الايام العصيبة بعد حين . انها لا تستطيع الانطواء على نفسها ، والانعزال عن العالم بحيث تنتج ما يكفيها من الزراعة والصناعة . فالعلم الحديث اكثر تعقدا من ان يتيح مثل هذا الاستكفاء الذاتى

هذه الاسئلة التى تبدو اليوم خطيرة ، لم تكن كذلك فى القرن التاسع عشر

فمضت انجلترا تقامر بمستقبلها وتلعب على تفوقها الصناعى انها مقامرة خطيرة حقا : ان تظل الدولة الاولى فى العالم كله أو ان تواجه الانهيار . ان لا يكون هناك حل وسط بين أحد الاحتمـــالين . ولكن الرجل الانجليزى فى العصر الفيكتورى لم تكن تنقصـــه الثقـــة المطلقة بالنفس ، بل ولا الغـــرور . فقد اقنعه نجـــاحه

وتقدمه فى الصناعة بأنه متفوق على سائر البشر . فهو ينظر الى ابناء البلاد الاخرى من عل . وشعوب آسيا وافريقيا فى اعتقاده شعوب همجيةمتخلفة، خلقت لكى تعطيه فرصة ممارسة عبقريته فى السيطرةعلى سائر الاجناس حتى ابناء اوروبا كانوا بالنسبة اليه جهلة حمقى . كان الانجليزى الفيكتورى يرى انه الرجل المختار لقيادة الحضارة وأن انجلترا هى الرائد الذى يتقدم أوروبا ، وأوروبا هى التى تتقدم سائر العالم وكان يرى ان الامبراطورية البريطانية نظام مقدس

وكان واحد من ابرز الانجليز قد اهدى كتابا الفه « الى اولئك الذين يؤمنون بأن الامبراطورية البريطانية هى بعد العناية الآلهية . اعظم قوة تعمل للخير عرفها العالم ..

ولا تحسبى اننى اتهكم بهذا الكلام على الانجليزفى العصر الفيكتورى . كلا على الاطلاق . فقد يكون من النادر فعلا ان نرى انسانا مثقفا يسلك مثل هذا السلوك المنطوى على الغرور والمباهاة ، ولكن المجتمعات الوطنية على العكس من ذلك مستعدة لتصديق اى شىء يرضى كبريائها . فالفرد لا يتصرف بهذه الطريقة المبتذلة ازاء جيرانه او معارفه ، أما الدول فليس لها مثل هذا الضمير ، ونحن جميعا لسوء الحظ نحمل فى نفوسنا عين الطباع ونتباهى بمدح فضائلنا الوطنية . فشخصية الانجليزى الفيكتورى موجودة فى كلّ مكان ، مع فوارق بسيطة فحسب

قلت لك ان ثراء انجلترا وغرب اوروبا كان مرجعه الى نمو الصناعة الرأسمالية التى ظلت ماضية الى الامام دون توقف بحثا عن الربح ..

كان الربح هو الرب الوحيد الذى يعبده الناس هناك . والرأسماليه لا شأن لها بالدين او الاخلاق . انها مذهب المنافسة حتي الموت بين الافراد والامم ، وليذهب المغلوب

الى الجحيم !

كان الفيكتوريون يتباهون باحتفاظهم بايمانهم الدينى . كانوا يؤمنون بالعلم والتقدم وكانوا يقولون ان نجاحهم في الاعمال وفى بناء الامبراطورية يثبت انهم الجنس الاصلح الذى فاز فى الصراع . ألم يقل داروين ان البقاء للاصلح ؟ وعلى هذا الاساس نفسه كان يقوم ايمانهم الدينى ، وقد وصف احد كتابهم « ر . هـ تادنى » هذا الايمان بقوله : « ان الله فى مكانه ، بعيد عن المشاكل الارضية .. ان ملكية الله ملكية مقيدة تماما كالملكيات الموجودة على الارض ! »

هكذا كان ايمان البورجوازية الغنية الدينى . ولكنها كانت فى الوقت نفسه تشجع مادونها من الجماهير على الذهاب الى الكنيسة والاستمساك بالدين ، لعل ذلك ان يصرفها عن الافكار الثورية !..

وقد وصلت الصناعة الراسمالية الى درجة هائلة من الضخامة والاتساع . فانه من الاربح دائما ان يكون الانتاج اكبر وعلى نطاق اوسع . وكلما كبر حجم المؤسسة واتسع نطاقها كانت تكاليف الانتاج لديها اقل منها لدى المؤسسات الصغيرة .. على ذلك نشأت الاتحادات الهائلة ، تتحكم فى صناعات باسرها وتبتلع المؤسسات الصغيرة المملوكة للافراد . وانهارت فكرة « دعه يعمل » القديمة واصبحت فرصة الفرد فى هذا الميدان ضئيلة جدا . بل ان هذه الاتحادات اصبحت تتحكم فى الحكومات ذاتها ..

وبازدياد المنافسة بين القوى الصناعية فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتقلت الرأسمالية الى مرحلة ثانية ، تلك هى التطلع الى الخارج للبحث عن الإسواق والمواد الخام . واحتدم التنافس الوحشي في كل

مكان على بناء الامبراطوريات . وقد رويت لك فى خطابات سابقة ماحدث بالتفصيل فى الهند والصين وايران .
والآن هبطت الدول الاوروبية كالطيور الجارحة على افريقيا ، تتقاسمها فيما بينها ، وفى أفريقيا ايضا فازت انجلترا بنصيب الاسد . استولت على مصر فى شمال القارة وعلى مساحات اخرى شاسعة . وفازت فرنسا بنصيب لا بأس به ، وارادت ايطاليا ان تشترك فى المأدبة. ولكنها لاقت فى الحبشة متاعب هائلة كادت تصل بها الى الهزيمة . واستولت المانيا على نصيب لم يرضها . .

الى كل مكان ذهبت الراسمالية صائحة مهددة : تغنى رديارد كبلنج ، شاعر الامبراطورية البريطانية بـ « عبء الرجل الابيض » . .

وتحدث الفرنسيون عن « مهمة فرنسا الحضارية » وتحدث الالمان طبعا عن ثقافتهم . هكذا ذهب حملة « مشاعل الحضارة والمدنية » ، ذهبوا فى تضحية رائعة، يجثمون على انفاس الاجناس الاخرى . دون ان يتحدث احد عن عبء الرجل الملون ! . .

ولم يكن العالم واسعا بحيث يتسع لكل هؤلاء الاستعماريين المتنافسين، فلم تلبث المصادمات ان احتدمت بينهم فى كل مكان وقع فيه التنافس على الاسواق

وكثيرا مابدت الحرب وشيكة الوقوع بين انجلترا وفرنسا . الا ان الصدام الحقيقى فى المصالح كان بين الصناعة الانجليزية والالمانية . .

لقد اصبحت المانيا تماثل انجلترا فى تفوقها الصناعى وفى بناء السفن بالذات واخذت تتحدى سيطرتها على الاسواق . ولكنها وجدت أن اسواق العالم محتلة فعلا بالانجليز . .

ولما كانت المانيا فخورة متحمسة عالية الروح ، جانفية

لإبعادها عن العالم الواسع بواسطة الدول الاخرى ، فقد بدأت تستعد فى أصرار من أجل صراع هائل مع تلك الدول الاخرى .. واخذت اوروبا كلها تستعد ، وتضخمت الجيوش والاساطيل ، وتتابعت الاحداث والمعاهدات بين الدول المختلفة حتى بدأ أن هناك معسكرين متنافسين مدججين بالسلاح ، والحلف الثنائى من جهة اخرى بين روسيا وفرنسا ، وكانت انجلترا مرتبطة به سرا، من جهة أخرى ..

وفى تلك الاثناء ، وعند نهاية القرن ، اشتبكت انجلترا فى حرب صغيرة خاصة فى جنوب افريقيا ، وهى حرب نشبت سنة ١٨٩٩ نتيجة لاكتشافات مناجم الذهب فى جمهورية الترنسفال . وقد حارب البوير ببسالة خارقة مدة ثلاث سنوات ضد انجلترا . ولكنهم انهزموا آخر الامر ، وكان عليهم ان يعترفوا بالهزيمة . وكانت انجلترا حكيمة فى سلوكها معهم بعد الحرب ، فلم تمض سنوات حتى اصبح اتحاد جنوب افريقيا دولة حرة فى نطاق الدومنيون البريطانى ..



الإمبراطورية الامريكية الخفية ..

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣

قضت الحرب الاهلية فى أمريكا على أرواح الكثيرين من شبابها ، وتركت لها عبئا باهظا من الديون . غير أن تلك البلاد كانت شابة مليئة بالنشاط فاستمر نموها السريع. كذلك فقد كانت تملك موارد طبيعية هائلة ، خصوصا فى المناجم الغنية بالموارد الرئيسية الثلاث التى تقوم عليها اليوم كل صناعة حديثة : الفحم والحديد والبترول . وكان ثمة كثير من مساقط المياه التى يمكن استغلالها فى توليد الكهرباء ، وشلالات نياجرا المعروفة لاشك ترد على خاطرك فى هذا المجال ..

كانت تلك الدولة قارة هائلة يقطنها سكان قليلون نسبيا ، فكان كل فرد يجد أمامه مجالا واسعا للثراء ، وعلى ذلك تهيأت لها كل الاسباب لاقامة دولة صناعية من الدرجة الاولى ، وقد اخذت فى ذلك بسرعة ملحوظة ، فلم تأت سنة ١٨٨٠ حتى بدأت الصناعة الامريكية تنافس الصناعات الانجليزية فى الاسواق الخارجية :

لقد وضعت الصناعة الامريكية والالمانية حدا للتفوق

الذى استأثرت به أنجلترا فى التجارة الخارجية مدى قرن كامل من الزمان ..

وتدفق المهاجرون على الدولة الجديدة من جميع الشعوب الاوربية : المان واسكندنافيون وايرلنديون وايطاليون ويهود وبولنديون .. جاء بعضهم طريد الاضطهاد السياسى فى أوطانهم الاصلية وجاء بعضهم الاخر بحثا عن مستوى افضل من الحياة ..

لقد ارسلت اوروبا المزدحمة الزائد من سكانها الى أمريكا فى صورة هذا المزيج الغريب من الاجناس واللغات والاديان .. كان هؤلاء المهاجرون يعيشون فى اوروبا منفصلين ، لكل واحد منهم عالمه الخاص الصغير ، وقلوبهم جميعا مليئة بالحقد المتبادل ولكنهم ذهبوا الى مكان جديد وجو جديد ، اختفت فيه معظم هذه الاحقاد القديمة ، وسرعان ما جاء نظام التعليم الاجبارى الموحد فمحا الرواسب الوطنية القديمة ، وبدأ الطابع الامريكى يظهر ، من خلاصة هذه البوتقة الغريبة ، وان بقى الانجلو سكسون القدامى يعدون أنفسهم الطبقة الارستقراطية ، ويستأثرون بالزعامة الاجتماعية

وقد حاولت الولايات المتحدة ان تبقى بعيدة عن مشاكل ومؤامرات القوى الاوربية المتنازعة ، وان تبقى أوروبا بعيدة عن الامريكتين الشمالية والجنوبية جميعا • وقد حدثتك فى رسالة سابقة عن « مبدأ مونرو » ، المبدأ الذى وضعه الرئيس مونرو عندما حاولت بعض القوى الاوربية ــ دول الحلف المقدس ــ ان تتدخل فى أمريكا الجنوبية لحماية مصالح الامبراطورية الاسبانية فيها • فقد اعلن مونرو ان الولايات المتحدة لن تقبل تدخل اى قوة اوروبية فى نصف الكرة الامريكى • وقد انقذ هذا التصريح جمهوريات أمريكا الجنوبية من براثن اوروبا الى حد بعيد

وقد كانت امريكا الجنوبية دائما مختلفة عن أمـريكا الشمالية • ولم تفلح مائة سنة فى القضاء على وجـــوه الاختلاف هذه • ففى حين نرى كندا تزداد شبها بالولايات المتحدة يوما بعد يوم • لا نرى ذلك بالنسبة لجمهوريات أمريكا الجنوبية : فالحدود التى بين الولايات المتحـــدة والمكسيك تفصل نوعين من الناس والثقـــافة •• والى الجنوب نجد اللغات الاسبانية والبرتغالية هى الطاغية •• وقد بقيت اللغة الاسبانية حتى اليوم من اللغات الاولى فى العالم ، لسبب واحد هو انتشارها فى هذه البقعة من الارض ، وامريكا اللاتينية ما زالت تنظر الى اسبانيا على أنها أم روحية لها •• وهناك ، لا يعلق المواطنون اهمية كبيرة على الاجناس كما يفعلون فى كندا والولايات المتحدة وقد تزاوج الاسبان مع الهنود الحمر اصحاب البـــلاد الاصليين ، ومع الزنوج أيضا ، وأخرجوا عنصرا مولدا ••

وعلى الرغم من مرور مائة سنة من الحرية على هذه البلاد ، فانها فشلت حتى الان فى تحقيق الاستقرار • فالثورات والدكتاتوريات العسكرية هناك دورية ، حتى أنه ليصعب جدا تتبع الخطوط السياسية الدائمة التغيير •• واقوى هذه الجمهوريات هى الارجنتين والبـــرازيل وشيلى والمكسيك

منعت الولايات المتحدة ـ بتصريح مونرو ـ اوروبا من التدخل فى شئون أمريكا اللاتينية • ولكنها ما أن ازدادت ثراء حتى بدأت تمد بصرها الى الخارج بحثا عن أرض بكر تتوسع فيها ••

وكان من الطبيعى ان يقع بصر الولايات المتحـــدة على أمريكا اللاتينية •• ولكنها لم تحاول ان تستولى على أى من هذه الجمهوريات بالقوة ، اى بالطريقة القديمة لبناء الامبراطوريات ولكنها ارسلت بضائعها اليها واستولت

على اسواقها ..

كذلك وظف الامريكيون رؤوس أموالهم هنـــاك فى السكك الحديدية والمناجم ، وفى اقراض الحكومات ، بل وبعض الاحزاب فى اوقات الثورات ! والذين وظفوا أموالهم على هذا النحو هم الرأسماليون الامريكيون واصـــحاب البنوك ، ولكن ، خلفهم ، كانت تقف دائما حكومةالولايات المتحدة نفسها !

وشيئا فشيئا ، أصبح هؤلاء الرأسماليون يسيطرون على حكومات امريكا اللاتينية بواسطة نقـــودهم التى يقرضونها لها ويوظفونها فى بلادها ، بل لقد صنع هؤلاء الرأسماليون بعض الثورات والانقلابات عن طريق تقديم النقود لهذا الحزب او ذاك . وخلف هؤلاء الرأسماليين ، كما قلت ، كانت تقف حكومة الولايات المتحدة القوية ، فماذا تفعل الجمهوريات اللاتينية الصغيرة ، الضعيفة ؟ . لقد حدث فعلا ، أن أرسلت الولايات المتحدة جيوشـــها لنصرة حزب معين من الاحزاب ، بدعوى العمل على اعادة الامن والنظام !

بهذه الطريقة اذا ، أصبح للرأسماليين الامريكيين سيطرة قوية على تلك الدول الصغيرة فى الجنـــوب . فقد أداروا بنوكها وسككها الحديدية ومناجمها ، مستغلين ذلك كـله لمصالحهم الخاصة . اى ان الولايات المتحدة استـــولت على ثروة هذه الدول . وهـــذا هو الشكل الجـــديد للامبراطوريات : امبراطورية اقتصادية ، خفية ، تحـكم وتستغل دون اى مظهر خارجى للحـــكم والاستغـلال ، فجمهوريات امريكا الجنوبية ــ من الناحية السياسيـــة والدولية ــ دول حرة مستقلة . وعلى الخريطة لا شىء يدل على انها فاقدة لحريتها . ومـــع ذلك ، فان الولايات المتحدة تستعمر معظمها استعمارا كاملا . .

لقد عرفنا انواعا مختلفة من الاستعمار فى شتى العصور: فى البداية كان انتصار دولة على اخرى فى الحرب يعنى أن المنتصر يستطيع ان يفعل مايشاء بالارض المفتوحة والشعب المنهزم ، الذى يتحول افراده كلهم الى عبيد . ثم أخلى هذا النظام مكانه لنوع جديد من الاستعمار ، من مقتضاه ان يستولى المنتصر على الارض وحدها دون الافراد ، فلا يصبح المهزومون عبيدا . ذلك ان الاستعمار قد اكتشف أنه من الاسهل استنزاف اموالهم عن طريق الضرائب وغيرها من وسائل الاستغلال

وكثيرون منا لا يعرفون الاستعمار الا على هذه الصورة، كاستعمار الانجليز للهند ، معتقدين انه اذا تخلى الانجليز عن نفوذهم السياسى فى الهند ، تصبح الهند حرة تماما . ولكن هذا النوع من الاستعمار اخذ بدوره فى الزوال ، تاركا مكانه لنوع ثالث من الاستعمار اكثر تقدما واتقانا : لا يحتكر حتى الارض .. بل يستولى فقط على الثروة ووسائل الانتاج فى البلد المستعمر . فبذلك تستطيع الدولة المستعمرة ان تستغل مستعمراتها لمصلحتها الخاصة ، وتسيطر على مصائرها ، دون أن تتحمل مسئولية حكم المستعمرة واضطهاد شعبها . فهى تحكم الارض والشعب على السواء .. وبأقل قدر من المتاعب !

على هذا النحو تطور الاستعمار على مر الايام ، حتى اصبح استعمارا خفيا ، اقتصاديا . فحين قضى على الرق، ثم على رقيق الارض فى عهد الاقطاع ، حسب الناس ان الانسان صار حرا ، ولكنهم سرعان ماادركوا ان الانسان ما زال مستعبدا مستغلا ، يحكمه الذين يملكون قوة المال ، فبعد العبودية ، ورق الارض ، أصبح الناس « عبيد الاجر » ومازالت الحرية بعيدة عنهم

وكذلك الحال بالنسبة للدول : فالناس يحسبون أن

المشكلة كلها فى الحكم السياسى الذى تفرضه دولة على أخرى ، فاذا أقصينا هذا التحكم السياسى جاءت الحرية حتما ، وهذا غير صحيح ، وكثيراً مانجد اليوم دولا حرة سياسيا .. ولكنها خاضعة تماما لدولة أخرى نتيجة للسيطرة الاقتصادية

ان الاستعمار الاقتصادى هو اقل انواع الاستعمار كلفة ، بالنسبة للدول الاستعمارية ، فهو لا يثير المتاعب التى يثيرها الاستعمار السياسى ، ذلك لان كثيرا من الناس لا يلحظونه ..

والامبراطورية الأمريكية الخفية تمتد حتى تصل الى جزر الفلبين ، وهى الجزر التى « حررتها » امريكا فى حرب خاضتها ضد اسبانيا

وقد بدأت هذه الحرب فى جزيرة كوبا سنة ١٨٩٨ ، واليوم أصبحت كوبا دولة مستقلة ، بالاسم فقط . لان الولايات المتحدة ما زالت تحكم كوبا وهايتى تماما (١)

ومنذ عشرات السنين ، تم شق قناة بناما ، فى تلك الرقعة الرقيقة من الارض التى تربط بين الامريكتين ، وقد وضع مشروع حفر القناة ، فرديناند دى لسبس ، نفس الرجل الذى شق قناة السويس ، ولكنه لم يلبث ان اصطدم فى بناما بمتاعب جمة منعته من اتمام عمله ، فأتمه الامريكيون

والقناة تقع فى جمهورية بناما الصغيرة . ولكن الولايات المتحدة اليوم تحكم القناة والجمهورية على السواء . ورغم ان القناة بالغة الاهمية من الناحية التجارية الا انها ليست فى مثل أهمية قناة السويس

وهكذا مضت الولايات المتحدة تزداد كل يوم قوة ، ويزداد انتاجها من المليونيرات وناطحات السحاب !

---

(١) كتب هذا الكلام قبل ثورة كاسترو وماتلاها من احداث بثلاثين سنة !



سقوط القيصرية في روسيا..

٧ ابريل ١٩٣٣

عندما كنت أحدثك عن الحرب العالمية (الاولى) أشرت اشارة عابرة الى الثورة الروسية وأثرها على هذه الحرب. وبصرف النظر عن تأثيرها فى نتيجة الحرب ، فقد كانت هذه الثورة فى حد ذاتها حادثا خطيرا ، فريدا فى تاريخ العالم كله . وبالرغم من انها كانت الاولى من نوعها ، فانها لن تظل الوحيدة زمنا طويلا . لقد أصبحت خطرا بالنسبة لسائر الحكومات ومثلا احتذاه كثير من الثوريين فى مختلف أنحاء العالم . فهى اذا خليقة بدراستها عن قرب

ولا شك أن هذه الثورة كانت أهم نتائج الحرب العالمية جميعا . ومع ذلك فهى نتيجة لم يتوقعها ، ولم يرغب فيها، أى حاكم او حكومة من الحكومات التى خاضت غمار هذه الحرب . او ربما كان من الادق ان نقول أن هذه الثورة كانت وليدة الظروف التاريخية والاحوال الاقتصادية فى روسيا ، والتى وصلت الى غايتها بسرعة نتيجة للخسائر الفادحة والشقاء الهائل الذى جلبته الحرب

وفى هذه الظروف ، استطاع رجل ذو ارادة هائلة وكفاية

ثورية فذة أن يجد فرصته ، ذلك هو لينين

وقد وقت في روسيا خلال عام ١٩١٧ ثورتان ، الاولى فى مارس والثانية فى نوفمبر . ولكن لاشك أن هذه الفترة كلها كانت ثورة متصلة ، لها قمتان ، فى مارس ونوفمبر

وقد حدثتك فى خطاب سابق عن الثورة التى قامت فى روسيا سنة ١٩٠٥ ، فى أعقاب فترة من الحرب والهزيمة ايضا . وقد أخمدت هذه الثورة بقسوة ، واستمرت حكومة القيصر فى سياستها الاوتوقراطية المطلقة ، تتجسس على كل فرد وتخمد كل محاولة للتفكير الحر ..

وقد شمل هذا الاضطهـاد الماركسيـين ، وخصوصا البلاشفة ، حتى بات كل المهمين من رجالهم ونسائهم فى معسكرات الاعتقال فى سيبيريا أو منفيين فى الخارج .ولكن هذه الحفنة من المنفيين ظلت تواصـل نشاطها ودراساتها فى الخارج بزعامة لينين . وقد كانوا جميعا ماركسيين . ولكن النظرية الماركسية وضعت لتلائم البـلاد المتقدمة صناعيا مثل انجلترا او المانيا ، اما روسيا فقد كانتمازال اقطاعية ، زراعية . مع قليل من الصناعة فى المدن الكبيرة. وانطلق لينين يعمل ليوفق بين أسس الماركسية وبين ظروف روسيا الخاصة . وقد كتب لينين كثيرا ،واتصلت المناقشات بين الروس المنفيين ، فكانوا بذلك يعدون أنفسهم نظريا للثورة . وكان لينين يعتقد ان اى عمل لايمكن أن يتم الا اذا قام به خبراء متخصصون لا مجرد متحمسين . وانه اذا اريد للثورة ايضا ان تتم فيجب على الذين يريدون القيام بها أن يتدربوا عليها ، حتى اذا جاءت ساعة العمل ، كانوا على دراية واضحة بما يجب عليهم أن يعملوه

وهكذا مضى لينين فى سنوات الكبت التى اعقبت ١٩٠٥ يعد نفسه وزملاءه للعمل المقبل

وفى سنة ١٩١٤ كانت طبقة العمال الزراعيين فى روسيا

قد أخذت تستيقظ وتتحول الى الثورة مرة اخرى. ووقعت اضطرابات سياسية كثيرة

ثم جاءت الحرب ، فاستغرقت كل الاهتمام ، وأرسل اكثر العمال وعيا الى جبهة القتال كجنـود ، وقد عارض لينين وأنصاره (وكان أغلبهم فى المنفى) عارضوا الحرب منذ البداية ، ولم يجرفهم تيارها الذى جـرف سـائر الاشتراكيين فى البلاد الاخرى

كان من رأيهم انها حرب بين الرأسماليين ، وان الطبقة العاملة لا شأن لها بها ، الا بقدر ما تستطيع أن تفيد من ظروفها لكسب حريتها

وقد أصيب الجيش الروسى فى الميدان بخسائر رهيبة . ربما كانت أفدح مما تحمله أى جيش فى الحرب كلها .. وكان الجنرالات العديمى الكفاءة يقذفون الجنود وهم بغير سلاح تقريبا الى الموت المحقق بمئات الالوف

وفى بتروجراد (لينينجراد الان) وغيرها من المدن الكبرى كانت الصفقات الضخمة تعقد والارباح الهائلة تتدفق على بعض الوصوليين والانتهازيين ، وكان هؤلاء الانتهـازيون بالطبع يتخذون مظهر الوطنية المتطرفة ، وينادون بمواصلة الحرب حتى النهاية

ولاشك أنه كان مما يناسبهم ان تظل الحرب قائمـة باستمرار !

ولكن الجنود والعمال والفلاحين الذين كانوا يمونون الجنود ، اصابهم الارهاق والجوع وامتلأت نفوسهـم بالسخط ..

وكان القيصر نيقولا رجلا أحمق ، واقعا تحت سيطرة زوجته القيصرة ، وهى مخلوقة أقوى منه شخصية ، ولكنها لا تقل عنه حماقة ..

وقد أحاط الاثنان نفسيهما بالحمقى والسفلة ، ولم يكن هناك من يجرؤ على توجيه النقد اليهما ..

ووصل الامر الى حد أن محرما عتيدا ، عرف باسم جريجورى راسبوتين ، أصبح هو أقرب المقربين الى القيصرة ، وبالتالى الى القيصر . وكان راسبوتين (وراسبوتين كلمة معناها « الكلب القذر ») كان فلاحا فقيرا قبض عليه فى تهمة سرقة بعض الجياد ، ثم قرر ان يتخذ سمت القديسين ، وأن يحترف الشعوذة ، وكانت الشعوذة فى روسيا - كما هى فى الهند - وسيلة لكسب الرزق ..

وهكذا أطلق شعره ولحيته ، وذاعت شهرته كرجل مقدس حتى وصلت الى البلاط القيصرى

وكان الابن الوحيد للقيصر والقيصرة مصابا بمرض مستعص ، وبطريقة ما أقنع راسبوتين القيصرة بأنه قادر على علاج ولى العهد ثم لم يلبث ان أصبحت له سيطرة مطلقة على القيصر والقيصرة ، وأصبحت جميع المراكز العليا فى الدولة رهن اشارته . وقد عاش حياة مليئة بالفسق ، وتلقى رشاوى هائلة ، واصبح الحاكم المطلق لروسيا كلها ..

كان راسبوتين يثير اشمئزاز الجميع .. حتى المعتدلون والارستقراطيون بدأوا يتهامسون ، وترددت اقوال عن التفكير فى ثورة تقع داخل القصر لتغيير القيصر ، وفى هذه الاثناء عين القيصر نيقولا نفسه قائدا عاما للجيش . وكان هذا كافيا لكى تدب الفوضى الى كل شىء فى جبهة القتال. وقبل نهاية سنة ١٩١٦ بأيام قليلة اغتال أحد اقارب القيصر راسبوتين . دعاه فريق من رجال القصر الى الغداء ، ثم امروه بأن يطلق على نفسه النار ، فلما رفض ، اطلق عليه احدهم النار . وقد قوبل اغتيال راسبوتين بارتياح عام من

الجميع ، ولكن البوليس السرى التابع للقيصر أمعن عقب هذا الحادث فى التنكيل والاضطهاد ..

وتفاقمت الازمة ، وسارت المظاهرات فى شوارع بتروجراد تطالب بالطعام . وفى الايام الاولى من مارس ، ومن خلال السخط الشامل الذى عم العمال ، وفجأة وبغير سابق انتظار انفجرت الثورة

وفى خلال خمسة ايام — من ٨ الى ١٢ مارس — انتصرت الثورة . لم تكن ثورة داخل القصر ، كما ارادها البعض . ولم تكن ثورة منظمة طبقا لخطة وضعها قادة معينون . ولكنها انفجرت من اسفل ، من بين أشد فئات العمال تعاسة وسخطا ، وانطلقت عاتية مغمضة العينين بغير هدف واضح أو قيادة واضحة

وكان الانفجار مفاجئا لجميع الاحزاب الثورية ، بما فيهم البلاشفة المحليون ، فلم يعرفوا لاول وهلة كيف يوجهونها . لقد بدأت الجماهير بالخطوة الاولى من تلقاء نفسها ، وفى اللحظة التى انضم فيها الجنود المرابطون فى بتروجراد الى الثوار ، كتب النصر للثورة . ولكن هذا لايعنى ان هذه الجماهير الثائرة كانت من نوع جماهير الغوغاء التى تستهدف التخريب والتى عرفناها فى الثورات السابقة ، فالجديد فى ثورة مارس هذه ان القيادة لاول مرة فى التاريخ ، كانت فى يد فئة عمال المصانع ، او «البروليتاريا» كما يسمونها . وبالرغم من ان هؤلاء العمال لم تكن لهم قيادة واضحة (اذ كان لينين ورفاقه فى السجن او المنفى) الا انه كان بينهم الكثيرون من العمال المجهولين الذين دربهم لينين ورفاقه . هؤلاء العمال المجهولون المدربون ، هم الذين كانوا العمود الفقري لهذه الحركة كلها ، وهم الذين وجهوها الى مجاريها الحاسمة

وفى هذه التجربة ، نستطيع ان نرى بوضوح ، دور

الطبقة العاملة فى هذا العمل ، كانت روسيا كما قلت لك دولة زراعية بل وكانت الزراعة فيها متخلفة ، متفقة مع نظام الاقطاع .. وكانت الصناعات الحديثة قليلة ، مركزة فى مدن بذاتها . وكانت بتروجراد غاصة بهذه المصانع ، مما أوجد فيها عددا ضخما من العمال الصناعيين . وقد كانت ثورة مارس من صنع عمال بتروجراد وفرق الجيش المرابطة فى المدينة

سمعت المدينة أول صيحات الثورة فى ٨ مارس . وكان البدء للنساء . اذ خرجت العاملات من مصانع الغـزل والنسيج وسرن فى مظاهرات ضخمة الى قلب المدينة

وفى اليوم التالى انتشر الاضراب فى سائر المصـانع ، وانضم العمال من الرجال الى الحركة ، كانت الصيحـات تطالب بالخبز وبسقوط « الاوتوقراطيـة » ، وأرسلت الحكومة فرق القوزاق ، التى كانت دائما سند القيصر ، لمهاجمة العمال المضربين وتشتيتهم . ولكن جنود القوزاق أخذوا يدفعون المتظاهرين دون أن يطلقوا عليهم النـار ، ولاحظ العمال فى فرح ان الجنود انما هم أصدقاء لهم ، وان اختفت وجوههم خلف الاقنعة الرسمية ، وتزايدت حماسة الجماهير ، وانطلق المتظاهرون يحاولون كسب صداقة الجنود

وفى اليوم الثـالث ، ١٠ مارس ، اتضحت الزمالة بين الجنود والمتظاهرين ، وسرت اشاعة تقول ان القوزاق أطلقوا النار على البوليس عندما حاول أن يتصدى للمظاهرات

وانسحب البوليس فعلا من المدينة . وتقدمت النساء العاملات الى الجنود يستعطفن ، وخفض الجنود مابأيديهم من بنادق وحراب !

وكان اليوم التالى ، ١١ مارس ، يوم أحد ، وتجمـع العمال فى قلب المدينة . وبدأ البوليس يطلق عليهم النار

من مخابئه . وأطلق بعض الجنود النار أيضا فذهب الناس الى مقر هؤلاء الجنود واحتجوا على ذلك . وتحركت بعض الفرق ، تحت قيادة بعض الضباط ، لحماية الجماهير ، وأطلقت النار على البوليس

وقد ألقى القبض بعد ذلك على هذه الفرق ، ولكن الوقت قد فات ، فقد تطاير شرر الثورة الى الفرق الاخرى ، فخرجت يوم ١٢ مارس وانضمت الى المتظاهرين ، حاملة بنادقها الرشاشة . وغمر الرصاص شوارع المدينة دون أن يميز أحد بوضوح من الذى يطلق النار ، وعلى من . وتوجهت جموع الجنود والعمال للقبض على الوزراء الذين هرب بعضهم - وعلى رجال البوليس والجواسيس ، كما أطلقوا سراح المسجونين السياسيين

انتصرت الثورة اذا فى بتروجراد • ثم لم تلبث موسكو أن تبعتها • وبقيت الاقاليم تنتظر التطورات • وشيئا فشيئا تقبل الفلاحون الحركة الجديدة ، ولكن بغير حماسة . كان اهم مايشغلهم هو : ان يملكوا الارض ، وان يتحقق السلام

ماذا عن القيصر ؟ ماذا كان يصنع خلال تلك الايام الحافلة ؟ لم يكن فى بتروجراد . كان بعيدا فى بلدة صغيرة ، المفروض انه كان يقود جيوشه منها . ولكنه سقط بسهولة ، دون أن يلحظ احد ، كما تسقط الثمرة الفاسدة على الارض . لقد اختفى القيصر . الاوتوقراطى العظيم . . وحاكم روسيا باكملها . . والرجل الذى كان يرتجف أمامه الملايين . . سقط فى سهولة تامة واختفى فى رماد التاريخ ، انه لمن العجيب حقا أن نرى كيف تنهار النظم الضخمة اذا بلغت غايتها واستنفدت مهمتها !

عندما سمع القيصر نبأ اضرابات العمال فى بتروجراد أمر باعلان الاحكام العرفية . . وكان المفروض أن يصل الامر

الى حكام المدن والاقاليم لتنفيذه ، ولكن الامر لم يصل الى أحد ، اذ لم يكن هناك من يقوم بتوصيله ! لقد تحطم جهاز الحكومة وتمزق ، الى قطع صغيرة

وحاول القيصر ، وهو غير شاعر بكنه مايحدث ، ان يعود الى عاصمته . ولكن عمال السكك الحديدية أوقفوا قطاره فى الطريق وكانت القيصرة فى بلدة ريفية قريبة من بتروجراد ، فأرسلت برقية الى القيصر ، فأعادها اليها مكتب التلغراف . بعد أن كتب عليها احد الموظفين بالقلم الرصاص « عائد ، لعدم معرفة عنوان المرسل اليه ! »

وأدرك القواد فى الجبهة والزعماء المعتدلون فى بتروجراد خطورة الموقف فطلبوا من القيصر أن يتنازل عن العرش ، عساهم ان ينجحوا فى انقاذ مايمكن انقاذه

وتنازلَ القيصر على الفور ، وعين احد أقربائه ليتولى مكانه . ولكن زمن القياصرة قد مضى ، وبعد ٣٠٠ سنة من الحكم المطلق . كان على أسرة رومانوف كلها ان تبرح مسرح الحياة فى روسيا

اما الارستقراطيون ، والملاك الزراعيون ، والطبقات المتوسطة الكبيرة . وحتى الزعماء الاحرار والمصلحون ، فقد نظروا الى حركة الطبقات العاملة فى كثير من القلق والرعب ، وشعروا بأنهم تجردوا ازاءها من كل سلاح ، عندما انضم سندهم التقليدى — وهو الجيش — الى العمال . كانوا عاجزين فى أول الامر عن التكهن بمن سوف يكتب له النصر ، فقد كان محتملا ان يعود القيصر الى العاصمة على رأس جيشه ويخمد الثورة

ومضت عليهم أيام من التأرجح المرهق ، بين احتمال عودة القيصر واحتمال انتصار العمال ، ومن الرغبة الملحة فى ان ينجو كل منهم ولو بجلده فقط . وكان هناك « الدوما » وهو مجلس نيابى يمثل الملاك الزراعيين والطبقة المتوسطة

الكبيرة ، وقد مرت لحظة تطلع فيها العمال الثائرون الى هذا المجلس ليقودهم ولكن أعضـــاء المجلس بدلا من أن يقبضوا على زمام القيادة فى هذه الازمة ، جلسوا خائفين مرتعدين عاجزين عن اتخاذ أى قرار ..

وفى هذه الاثناء بدأت مجالس السوفييت تتكون . واضيف الى ممثلى العمال ممثلون من الجنود ، واحتلت المجالس السوفييتية الجديدة جنـاحا كبـيرا من قصر « توريد » الذى كان يشغل مجلس الدوما جناحا اخر منه. كان الثائرون تملؤهم الحماسة والثقة بعد أن كتب لهـم النصر . ولكن لم يلبث ان واجههم السؤال الهام : ماذا يصنعون بعد ذلك ؟ لقد استولوا على السلطة ، فمن هو الذى يمارسها ؟ لم يخطر ببالهم قط أن هـــذا المجلس السوفييتى نفسه يمكن أن يمارس السلطة ، كانوا يعتقدون ان الوضع الطبيعى هو أن تتولى الطبقة المتوسطة الحكم . وذهب مندوب من السوفييت الى مجلس الدوما يطلب منه أن يختار من يحكم

وقد ظن اعضاء مجلس الدوما اول الامر ان هذا المندوب قد جاء ليقبض عليهم ! وكان الاعضاء جميعـا عازفين عن تحمل المسئولية ، والتعرض للمخاطرة التى تنطوى عليها . ولكن ماذا يصنعون ؟ ان ممثل السوفييت مصر على أن يتولى المجلس السلطة ، والاعضاء خائفون من عاقبة الرفض ايضا . وخوفا من النتائج التى لايمكن التنبؤ بها ، قبلت جماعة من الاعضاء تولى السلطة ، وبدا للعالم الخارجى أن مجلس الدوما هو الذى يقود الثورة ! . أليس هذا كله غريبا ؟ . اننا لا نصدق مثل هذه الاحداث لو قرأناها فى احدى الروايات ، ولكن هذه هى الحقيقة ، وهى كثـيرا ما تكون أغرب من الخيال !

كانت الوزارة التى شكلها الدوما وزارة محافظة جدا ،

وكان رئيسها من أمراء بيت رومانوف . وفي الجناح الاخر من نفس المبنى كان يوجد مجلس السوفييت ، يتدخل باستمرار في أعمال الحكومة . ولكن السوفييت نفسه كان معتدلا ، وكان البلاشفة فيه حفنة قليلة فحسب . وبذلك كانت في روسيا أكثر من سلطة : الوزارة ، ومجلس السوفييت ، ثم الجماهير الثائرة التي حملت عبء الثورة، والتي كانت تنتظر نتائج سريعة باهرة !

ولكن الشيء الوحيد الذي تلقته الجماهير الجائعة الثائرة هو نداء الحكومة لها بضرورة مواصلة القتال حتى يتم النصر الاخير على ألمانيا ! فمضوا يتساءلون .. امن اجل هذا خاضوا غمار الثورة ، وعزلوا القيصر ؟

وفي هذه اللحظة بالذات، في ١٧ ابريل ، وصل لينين الى مسرح الحوادث . كان يقيم أثناء الحرب في سويسرا ، متحرقا للعودة الى روسيا منذ أن سمع أنباء الثورة .ولكن كيف يعود الى روسيا ؟ لا الانجليز ولا الفرنسيون ولا الالمان أو النمسويون سيسمحون له بالمرور من أراضيهم . ولكن الحكومة الالمانية عادت فوافقت على أن يجتاز ألمانيا من سويسرا الى روسيا في قطار مغلق

وكان السبب الذي دفع الحكومة الالمانية الى الموافقة هو علمها بأن لينين يعارض الحرب ، فوصوله الى روسيا سوف يضعف مركز الحكومة ، ويرجح كفة الذين يدعون الى عقد الهدنة ، الامر الذي يوفر على ألمانيا مئونة القتال في الجبهة الشرقية . ولم تكن حكومة ألمانيا تتوقع طبعا أن تسفر هذه الثورة الغامضة عن المارد الجديد الذي هز أوروبا والعالم بأسره

ولم يكن في ذهن لينين أي شك أو غموض ، كان له النظر الثاقب الذي يعرف به حقيقة التيارات بين الجماهير، والذهن الواضح الذي يوفق به بين المبادىء الثابتة

والمواقف المتغيرة ، والارادة الصلبة التى تتشبث بما تريد ، بصرف النظر عن النتائج القريبة العاجلة • وفى يوم وصوله بالذات ، هز الحزب البلشفى فى عنف ،وحمل على ركود أعضائه ، ورسم فى كلمات ملتهبة ما يجب عليهم • قال لهم : « يجب أن نرتبط برغبات الجماهير ، واذا كان لا مفر من أن نبقى أقلية فلنكن كذلك ، انه لمن الخير أحيانا أن نبتعد عن مركز القيادة لبعض الوقت ، ولا يجب أن نخاف من بقائنا أقلية »

وهكذا تمسك بمبادئه ورفض أى مساومة • ووجدت الثورة التى بدأت غامضة معصوبة العينين قائدها • وخلقت الظروف رجلها المناسب

ولكن •• ما هو الخلاف الذى كان يفرق بين البلشفيك وبين المانشفيك وسائر الاحزاب الموجودة على المسرح ؟ وما الذى غير وضع البلاشفة بعد وصول لينين ؟ وما الذى جعل مجلس السوفييت بعد أن حصل على القوة ، يعود فيسلمها الى أعضاء الدوما المحافظين ، من الطراز القديم ؟ لا أريد أن أخوض وراء هذه الاسئلة الى أعماق بعيدة • ولكنه لابد لنا على أى حال من أن نقف عندها قليلا ، حتى نفهم تطور الدراما التى جرت على مسرح بتروجراد ، وروسيا كلها ، سنة ١٩١٧

ان فكرة كارل ماركس عن التطور الانسانى والتقدم ، وهى التى يطلق عليها اسم « التفسير المادى للتاريخ » تقوم على أساس أن هناك علاقات اجتماعية جديدة تأخذ مكان العلاقات القديمة بمجرد أن تستنفد هذه الاخيرة أغراضها ••

وان تطور وسائل الانتاج يؤدى الى تطور نظام المجتمع السياسى والاقتصادى • أما وسيلة هذا التطور ، فهو الصراع المستمر بين الطبقات ، بين الطبقات الحاكمة

والطبقات المحكومة وعلى هذا الاساس أخلت الطبقة الاقطاعية القديمة مكانها للطبقة البورجوازية التي تحكم الان في غرب أوروبا ، والتى يجب عليها ، طبقا لهذه النظرية ، أن تخلى مكانها للطبقة العاملة • وفي روسيا ، عندما نشبت الثورة ، كانت الطبقة الاقطاعية ما زالت قابضة على السلطة ، ولم يكن التغير الذى نقل السلطة الى الطبقة البورجوازية فى غرب أوروبا قد تم فى روسيا بعد • وعلى هذا الاساس رأى أغلب الماركسيين الروس أن روسيا يجب أن تنتقل أولا الى البورجوازية والبرلمانية قبل أن تنتقل الى مرحلة الجمهورية العمالية • أى أن المرحلة الثانية فى التطور لا يمكن القفز عليها وعدم المرور بها ، ولينين نفسه ، قبل ثورة مارس هذه ، كان قد وضع سياسة تقضى بالتعاون مع الفلاحين والطبقة المتوسطة ، للقضاء على القيصر وكبار الملاك ، أى بقيام ثورة « بورجوازية »

كان البلشفيك والمانشفيك والماركسيون جميعا اذا مؤمنين بفكرة تحقيق ديمقراطية « بورجوازية » على الطراز الفرنسى مثلا ، وكان زعماء العمال وممثلوهم أيضا يؤمنون بهذا الرأى • ومن أجل ذلك سلم مجلس السوفييت السلطة الى مجلس الدوما بدلا من أن يحتفظ بها لنفسه ، كان هؤلاء الناس ـ كما يحدث ـ قادرين على ادراك أن ثمة موقفا جديدا قد ظهر، وأن الموقف الجديد يحتاج الى خطة جديدة ، أو الى تعديل الخطة القديمة على الاقل • كانت الجماهير أكثر ثورية فى تلك اللحظة من قادتها • ونادى « المانشفيك » والذين كانوا يمثلون أغلبية فى مجلس السوفييت ان الطبقة العاملة يجب أن لاتثير الان أى قضية اجتماعية ، وان الطلب الاول المباشر هو تحقيق الحرية السياسية

وبوصول لينين ، تغير هذا كله • لقد أدرك ـ بعبقرية الزعيم الحقيقي ـ الموقف كله من الوهلة الاولى ، وعرف كيف يغير البرنامج الماركسى بما يناسب الموقف الجديد • وأعلن أن الصراع يجب أن يكون ضد الرأسمالية نفسها • بقصد وضع مقاليد الحكم بين يدى الطبقة العاملةوالفلاحين الفقراء ••

وأعلن أن الشعارات الاولى للبلشفيك يجب أن تكون :

(١) جمهورية ديمقراطية (٢) مصادرة الاقطاعات الزراعية (٣) ٨ ساعات عمل فقط فى اليوم الواحد

وبظهور هذه الشعارات تبلورت الثورة بالفعل حول أهدافها •• وأصبحت تعنى بالنسبة للناس مصالح واضحة محددة

وكانت خطة لينين أن يحرز البلشفيك الاغلبية فى صفوف العمال ،وبالتالى يسيطرون على مجلس السوفييت، ثم يعمل مجلس السوفييت على أخذ السلطة من الحكومة المركزية •• لم يكن من رأيه أن تنشب ثورة أخرى على الفور ، وصمم على أن يحصل على أغلبية العمال أولا ، ثم على الاغلبية فى السوفييت • قبل أن يحاول اسقاط الحكومة • وكان قاسيا فى معاملته لمن أرادوا التعاون مع الحكومة ، حتى رماهم بخيانة الثورة • وكان قاسيا بالمثل على الذين أرادوا اسقاط الحكومة قبل أن يحين الوقت ، وكان يقول « ان عدم التنظيم ، هو أكبر جريمة »

وهكذا ، بهدوء عجيب ، وكأنه رسول قدر لا مفر منه ، انطلق هذا الرجل الذى يشبه كرة الثلج التى تخفى فى باطنها نارا مستعرة ، الى غايته المرسومة



الثورة السلمية فى الهند

١١ مايو ١٩٣٣ ..

يجب أن أروى لك شيئا عن الاحداث الاخيرة فى الهند. ولا شك أن كلانا مهتم بما يجرى فى بلادنا أكثر من اهتمامنا بما يجرى خارج الحدود . لذلك فان على أن أجاهد نفسى حتى لا أدخل ، وأنا أكتب لك هذا الخطاب ، فى تفاصيل كثيرة ..

وبصرف النظر عن اهتمامنا الخاص بالهند ، لانهـــا بلادنا ، فان الهند قد أصبحت بالفعل احدى مشاكل العالم كله ، ان بناء الاستعمار البريطانى كله يستند على الهند . وقد كان استعمار انجلترا للهند مثلا ناجحا احتـــذاه الاستعمار فى غيرها من البلاد ..

وقد حدثتك فى خطابات سابقة عن التغـــيرات التى حدثت فى الهند خلال الحرب العالمية (الاولى) ، وعن نمو الصناعة الهندية ونمو الطبقة الرأسمالية فى الهند ، وعن تحول موقف السياسة الانجليزية من الصناعات الهندية . كان الضغط الصناعى والتجارى من الهنــد على انجلترا يتزايد باستمرار ، كالضـــغط السياسى سواء بسـواء .

وكان الشرق بأكمله تغمره يقظة جديدة ، منذ أن انتهت الحرب . وبدت فى الهند عدة بوادر تنم عن نشاط ثورى عنيف . وتضخمت أحلام الناس . وشعرت الحكومة الانجليزية نفسها بأنه لابد من عمل شيء ، وبدأت تتخذ عدة خطوات فى الميدان السياسى بواسطة عمل تحقيق انتهى الى تقرير حوى بعض الاقتراحات وعرف باسم تقرير مونتاجو ـ شلمسفورد ـ كما اتخذت فى الميدان الاقتصادى عدة خطوات أرادت بها اعطاء بعض المزايا والمسكنات للطبقة المتوسطة النامية وان بقيت حريصة على بقاء جميع عناصر السلطة والاستغلال فى يدها كالمعتاد ..

وقد أعقبت الحرب فترة قصيرة من الرواج التجارى ، أدت الى تحقيق أرباح ضخمة ، خصوصا فى تجارة الجوت فى منطقة البنغال

ووصلت الارباح الى نسبة مائة فى المائة . وارتفعت الاسعار وارتفعت الاجور نتيجة لذلك ، ولكن بنسبة أقل . وبارتفاع الاسعار ارتفع الايجار الذى يجب أن يدفعه المستأجرون للملاك الزراعيين .. ثم جاءت الازمة ، وبدأت التجارة تميل الى الركود .. وساءت أحوال العمال الصناعيين والزراعيين وأخذ السخط يزداد بسرعة وانتشرت الاضرابات فى المصانع وكانت الحالة فى « أوده » بالذات بالغة السوء نظرا للنظام الزراعى الموجود هناك ، فنشبت حركة زراعية ناجحة انبثقت من تلقاء نفسها .. وبين المتعلمين من أبناء الطبقات المتوسطة الصغيرة ، انتشرت البطالة ، وأدت الى كثير من صور الاملاق ..

تلك هى الظروف الاقتصادية التى كانت سائدة فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب . فاذا استطعت أن تضعى هذه الظروف فى تقديرك ، فسوف يسهل عليك فهم

تطورات السياسة التى أعقبت ذلك • لقد كانت الروح الثائرة تسود البلاد ، وتعبر عن نفسها فى صور كثيرة ، كان العمال الصناعيون ينظمون انفسهم فى نقابات ،ثم فى مؤتمر لنقابات كل الهند ، وكان المزارعون وصغار الملاك الزراعيين ساخطين على الحكومة ، مترقبين أى صدام سياسى • حتى المستأجرين ، كالحرباء كانوا يحاولون التلون ، أما الطبقات المتوسطة ، خصوصا المتعطلين من أفرادها ، فقد كانوا مصممين على الاتجاه نحو العمل السياسى ، بل والى النشاط الثورى ايضا ••

كان الهندوس والمسلمون والسيخ يتساوون جميعا فى هذه الاحوال ، لان الظروف الاقتصادية فى ضغطها لاتفرق بين دين ودين ! ولكن المسلمين كانت ثورتهم على انجلترا أشد ، لدخولها الحرب ضد تركيا ، وما بدا من محاولتها الاستيلاء على جزيرة العرب ، وبلاد الشرق الادنى ، وما فيها من مدن مقدسة مثل مكة والمدينة والقدس

بدأت مقدمات السياسة الانجليزية الجديدة تظهر فى صورة اقتراحات بقوانين خاصة أريد بها السيطرة على الحركات الثورية التى كانت تبدو فى الافق •• أى أن انجلترا بدلا من أن تقدم للهنود مزيدا من الحرية ، عمدت الى مزيد من الكبت •• وكانت مشروعات القوانين هذه مبنية على أساس تقرير اسمه « تقرير رولات » ولكنها لم تلبث أن أطلق عليها اسم « القوانين السوداء » وهتف الجميع بسقوطها فى كل مكان ، واشترك فى هذا الموقف حتى أكثر الناس اعتدالا ، كانت القوانين تعطى الحكومة حق اعتقال من تشاء من الناس ، ووضعهم فى السجون بلا محاكمة أو محاكمتهم سرا •• وكان معنى هذا بالطبع وضع كل من لا ترضى عنه الحكومة فى السجن ••

وفى نفس الوقت الذى انتشرت فيه الحملة على هذه القوانين

ظهر فى أفق السياسة الهندية عامل جديد ، أو سحابة جديدة لم تلبث أن اتسعت حتى غطت سماء الهند كلها

كان هذا العامل الجديد: موهنداس كرامشاند غاندى. وكان غاندى قد عاد من جنوب افريقيا الى الهند خلال الحرب، وأقام فى مستعمرة صغيرة فى « سابرماتى » وبقى طوال فترة الحرب بعيدا عن السياسة ، بل انه ساعد الحكومة فى حض الناس على التطوع للحرب ، وكان له صيت واسع فى الهند منذ تزعم حركة المقاومة السلبية فى جنوب افريقيا وفى سنة ١٩١٧ قاد بنجاح حركة الفلاحين التعساء الذين كانوا يعملون فى اراضى الاوروبيين فى بيهار . ثم وقف الى جانب الفلاحين مرة أخرى فى « كايرا » فى « جوجرات »، وفى بداية سنة ١٩١٩ كان مريضا جدا

وعندما اقترب من الشفاء وجد حركة مقاومة قوانين رولات تملأ البلاد ، فضم صوته الى أصوات الملايين الساخطين

ولكن صوته كان مختلفا عن أصوات الاخرين . كان صوتا هادئا خفيضا ، ولكنه كان أعلى من جميع الصيحات التى يطلقها الاخرون . كان صوتا ناعما مهذبا ، ولكنه يخفى فى ثناياه نصلا حادا لايخطئه النظر . كان صوتا رقيقا مليئا بالرجاء ، منطويا على شىء مخيف ، كانت كل كلمة منه تحمل معنى ، وتحمل اخلاصا لا حد له. كانت لغة السلام والصداقة التى يتحدث بها تنم فى الوقت نفسه عن القوة ، والرغبة فى العمل ، والاصرار على عدم ارتكاب أى خطأ . ونحن الان معتادون على هذا الصوت اذ سمعناه كثيرا خلال الاربعة عشر عاما الماضية. ولكنه كان يبدو جديدا تماما علينا فى فبراير ومارس سنة ١٩١٩، وقد تأثرنا به جميعا ، وان لم نعرف فى البداية كيف نفيد منه . كان شيئا اخر يختلف تماما عن أحاديثنا الحماسية

فى السياسة وخطبنا المليئة بكلمات الاتهام ، التى كانت تنتهى دائما بنفس الاحتجاجات التى لا يحملها احد على محمل الجد • كان هذا الصوت الجديد يقدم لنا سياسة العمل ، لا سياسة الكلام

نظم غاندى حركة عصيان مدنى من اولئك الذين ابدوا استعدادهم لعصيان قوانين معينة ، ولدخول السجن بهذه الجريمة . كانت هذه الفكرة جديدة تماما . آمن بها الجميع ، وفزع منها الكثيرون ولكنها الآن اصبحت شيئا عاديا ، وأصبح كل واحد منا يعتبرها جزءا من روتين حياته !

بدأ غاندى – كالعادة – بارسال طلب مهذب وتحذير الى الحاكم العام ، ونائب الملك . وعندما وجد ان الحكومة الانجليزية عازمة على تنفيذ القانون برغم معارضة الهند كلها ، دعا الى الاضراب يوما كاملا ، بحيث تتوقف الحياة تماما فى الهند كلها فى اليوم التالى لاصدار هذا القانون. كان هذا الاضراب تمهيدا لحركة الساتياجراها . وبذلك اعتبر يوم ٦ ابريل سنة ١٩١٩ يوم الساتياجراها فى البلاد كلها ، المدن والقرى على السواء

كانت هذه الحركة أول مظاهرة تشترك فيها الهند كلها . وقد كان تأثيرها عظيما . خصوصا وقد اشترك فيها جميع الناس من جميع الفئات

وقد دهشنا نحن الذين اشتركنا فى تنظيم الحركة من النجاح الذى حققته . كنا نظن اننا لن نستطيع أن نؤثر الا فى عدد قليل من الذين يسكنون المدن . ولكن الجو كانت تملؤه روح جديدة ، وبطريقة ما وصلت الدعوة الى أبعد قرية فى بلادنا الواسعة • ولاول مرة ، اشترك الفلاح كالعامل الصناعى فى حركة سياسية على هذا النطاق الهائل ••

وقد اخطأت دلهى فى التاريخ ، فجعلت يوم اضرابها يوم السبت السابق على ٦ ابريل ، اى فى ٣١ مارس ، وكانت تلك الفترة أياما رائعة من الاخوة والزمالة بين الهندوس والمسلمين فى دلهى

وفى ٣١ مارس هذا ، حاول الجيش والبوليس أن يفرق الجماهير التى تجمعت فى الشوارع ، واطلق عليهـــا النيران ، وسقط الكثيرون قتلى

وكان « سوامى شارد هاناند » يخطب فى الجمـــع الذى احتشد فى مســـجد «جام » فواجه ، بقامتـــه الطويلة النحيلة ، مفتوح الصدر ، ثابت العينين ، حراب الانجليز وبنادقهم . وقد نجا من هذه الحراب، واهتزت الهند كلها للحادث ، ولكنه لسوء الحظ ، قتل غيلة بعد ذلك بست سنوات ، وهو راقد على فراش مرضه ، بيد احد المسلحين المتعصبين !

وأخذت الاحداث تمضى بسرعة بعد يوم الساتياجراها فى ٦ ابريل

ففى ١٠ ابريل ، فى ارمتسار ، ســـارت مظاهرة من المواطنين غير المسلحين ، يحتجون على اعتقال زعمائهم ، الدكتور كيتشلو والدكتور ساتيا بال وغيرهم ، وأطلق الجنود عليهم النيران وقتلوا الكثيرين، وانتقمت الجماهير لنفسها بالهجوم على بعض المؤسسات الانجليزية وبقتل خمسة او ستة من الانجليز الابرياء ، وهم جالسون الى مكاتبهم ، وباحراق البنك الذى يعملون فيه

وكأن ستارا حديديا نزل فعزل البنجاب عن ســـائر الهنـــد . الناس لا يخرجون منها ولا يدخلون اليها . والانباء الخاصة بها مقطوعة تماما . كان الانجليز قد أعلنوا الاحكام العرفية ، هناك ، وظلت معلنة بضعة شـــهور . وبعد عدة شهور من الترقب المتوتر القلق ، ارتفع الستار

شيئا فشيئا ، عن الحقيقة المرعبة

لن أروى لك الفظائع التى ارتكبت فى البنجاب ، فى ظل الاحكام العرفية ، فالعالم كله يعلم قصة المذبحة التى جرت يوم ١٣ ابريل فى أرمستار ، حيث سقط آلاف من القتلى في تلك المصيدة التى أقيمت بحيث لا ينجو منهـا أحد . لقد أصبح اسم « أرمستار » قرينا فى أذهاننا لكلمة « مذبحة » ، ولم تكن هذه هى المذبحة الوحيدة ، أو الاكثر بشاعة ، التى حدثت فى البنجاب كلها ..

انه لمن العسير على أى نفس أن تعفو عن هذه البربرية الشائنة ، ولو مضت عليها السنون ، وانه لمن العسير أيضا تفسيرها . لقد كان الانجليز فى الهند يشعرون دائما بأنهم على فوهة بركان ، ولكنهم لم يحاولوا أبدا أن يفهموا ما فى رأس الهند وما فى قلبها ، كانوا يعيشون حياتهم فى الهند منعزلين معتمدين على تنظيمهم الكبير ، وعلى القوة التى تسندهم ، ولكن خلف كل هذه الثقة التى يتذرعون بها ، كان يكمن فى نفوسهم خوف غامض من المجهول . لقد ظلت الهند ، وبالرغم من هذا الاستعمار الطويل ، أرضا مجهولة بالنسبة لهم ، كانت ذكريات ثورة عام ١٨٥٧ حية على الدوام فى مخيلتهم ، وكانت هذه الذكريات كافية لكى يشعروا على الدوام بأنهم يقيمون فى أرض غريبة عنهم ، وبلاد كارهة لهم ، قد تنقلب عليهم فى اى لحظة .. تلك كانت عقيدتهم ، فلما رأوا حركة معادية واسعة تنشب فى الهند ، تحركت مخاوفهم وتنبهت . حتى اذا تلقى الرسميون فى البنجاب أنباء الحوادث الدامية التى جرت فى ارمتسار يوم ١٠ ابريل ، فقدوا السيطرة على أعصابهم تماما ، وظنوها ثورة دامية أخرى على نطاق واسع ، مثل ثورة ١٨٥٧ ، تهدد حياة السكان الانجليز بالخطر . لم يروا الا اللون الاحمر ، ولم يفكروا الا في

الاعمال المرعبة . ولم تكن مذابح البنجاب والاحـــكام العرفية الا نتيجة لهذه العقلية ..

وقد يكون مفهوما أن يقدم الانسان وهو تحت سيطرة الخـوف على تصرفات خاطئــة ، حتى ولو لم تكن ثمـة اسباب جدية تبرر هذا الخوف

ولــكن الذى أثار الهند أكثر من اى شيء آخر ، هو الطريقة التى برر بها الجنرال ديار ، المسئول عن المذبحة، تصرفه هذا بعد وقوعه بشهور ، وأسـلوبه البربرى فى اهمال العناية بآلاف الجرحى ، اذ قال « ليس هـذا من شأنى!» وقد انتقدت بعض طوائف الشعب الانجليزى سلوك الجنرال ديار ، أما فى مجلس اللوردات ، فقد كان تصرفه محل ثناء عاطر ، اذ أمطره الاعضاء بوابل من كلمات التقريظ . كل هذا ضاعف من تأجج الحقد الملتهب، بين الهنود ، فتكونت لجان للتحقيق ، وظل الناس يترقبون النتيجة ..

ومن ذلك الوقت ، أصـبح ١٣ ابريل يوما قوميا فى الهند . وأصبحت الايام من ٦ الى ١٣ ابريل اسـبوعا قوميا كذلك . وأصبحت منطقة « جاليانوالا باج » التى وقعت فيها المذبحة مكانا للحج السياسى . وقد تحولت الآن الى حديقة جميلة ، ولكن الذكريات مازالت ترفرف فى سمائها الى الآن

وقد انعقد المؤتمر فى تلك السنة ، بمحض المصادفة ، فى « أمريتسار » نفسها . ولم يصل المؤتمر فى تلك الدورة الى قرار هام

ولكن كان واضحا ان هذا المؤتمر قد تغير تغيرا كبيرا. فقد أصبحت له الآن شخصية جماعية ، وحيوية جديدة دافقة ، بل ومزعجة بالنسبة لرجال المؤتمر القدامى . كان هناك « لوكامانيا تيلاك » الذى لا يقبـل مساومة ،

يحضر آخر دورة لحزب المؤتمر ، اذ أنه مات قبل أن تنعقد دورة العام التالى . وكان هناك غاندى معبود الجماهير ، فى بدء سيطرته السياسية الطويلة على المؤتمر بل وعلى الهند كلها

وجاء الى المؤتمر أيضا ، من السجن رأسا ، كثير من الزعماء الذين لفقت لهم قضايا كثيرة فى فترة اعلان الاحكام العرفية ، وحكم عليهم بالسجن مددا طويلة ، ثم أطلق سراحهم . والاخوة « على » المشهورون الذين أفرج عنهم بعد اعتقال دام سنوات طويلة ..

وفى العام التالى ، أقدم المؤتمر على المخاطرة ، وقـــرر الاخذ ببرنامج غاندى الخاص بعدم التعاون

كانت خطة الصراع التى رسمها غاندى خطة ســلمية تماما ، تقوم على «عدم العنف» وهو الوصف الذى عرفت به .. وتتلخص فى رفض التعاون مع الحكومة فى ادارتها واستغلالها للهند بأى صورة من الصور . وكانت الخطـة تقضى بأن تبدأ المقاطعة ببعض الصور البسيطة مثل رفض الالقاب المعطاة من الحكومة الاجنبية ، والمناصب الرسمية ، ومقاطعة المحاكم سواء من المحامين أو المتقاضين ، والمدارس والكليات الحكومية . ثم تمتد المقاطعة بعد ذلك الى الخدمة العسكرية ، ودفع الضرائب . وكان للحركة جانب بنائى ، أو ايجابى ، أول بنوده اقتناء المغازل اليدوية واســتعمالها فى غزل الاقمشة ، وتكوين هيئات تحكيم أهلية تحل محل المحاكم فى الفصل فى المنازعات وكان ثمة فى البرنامج بندان هامان : الاول هو التآخى والوحدة بين الهنـدوس والمسلمين ، والثانى هو رفع الحاجز الذى يفصل المنبوذين ، ويقضى بعدم لمسهم أو مشاركتهم الطعام ..

وفى نفس الوقت غير المؤتمر قانونه الاساسى ، بحيث تحول الى هيئة قادرة على العمل الايجـــابى ، وأصبحت

عضويته مفتوحة للجميع ..

كان هذا البرنامج جديدا تماما على المؤتمر ، بل انه كان جديدا تماما على العالم كله ، ذلك أن حركة «الساتياجراها» التي جرت في جنوب أفريقيا كانت في نطاق محدود جدا . وكان هذا البرنامج أيضا يتطلب تضحيات كبيرة عاجلة من كثير من الناس ، كالمحامين مثلا ، الذين كان عليهم أن يهجروا عملهم ، والطلبة الذين كان لابد لهم من ترك الكليات الحكومية . كان من الصعب جدا توجيه هذه الحركة والتحكم فيها . فلم يكن غريبا أن يتردد أمامها رجال المؤتمر القدامى المجربين وأن تمتلىء نفوسهم بالشك. فلم ينضم الى غاندى فى المراحل الاولى من رجال المؤتمر القدامى غير واحد فقط ، هو موتيلال نهرو (١) أما رجل المؤتمر العادى ، أما رجل الشارع ، أما الجماهير كلها ، فلم يكن هناك أى شك فى موقفها ، لكأنما دفع غاندى هذه الجماهير الى التحرك بنوع من السحر والتنويم المغناطيسى ! فانطلقت تعبر بهتافها « مهاتما غاندى » عن تأييدها للدعوة الجديدة ، دعوة المقاطعة وعدم التعاون . وكان المسلمون فى حماستهم لهذه الخطة كالاخرين تماما . بل ان مجلس الخلافة ، بزعامة الاخوة « على » أقر البرنامج ووافق عليه قبل أن يوافق عليه حزب المؤتمر . ولما تبدى تأييد الجماهير للبرنامج على هذا النحو ، ونجحت خطواته الاولى ، انضم الى الحركة أغلب القدامى من زعماء المؤتمر ، الذين كانوا مترددين ..

ولست بمستطيع أن أوضح فى هذه الرسائل ، مزايا هذه الحركة وعيوبها ، أو أن أشرح فلسفتها ، فتلك مسألة معقدة حقا ، وربما لا يقدر على تقديم اجابة صحيحة لها غير رجل واحد ، هو غاندى . ولكن لا بأس من أن ننظر

---

(١) والد نهرو

اليها ولو من الخارج فحسب ، وأن نحاول فهم سر نجاحها وانتشارها بهذه السرعة

لقد حدثتك عن ضغط الظروف الاقتصادية على سواد الناس وعن تطور أحوالهم من سيء الى أسوأ ، نتيجة للاستغلال الاجنبى وعن انتشار البطالة بين فئات الطبقة المتوسطة ، فما هو علاج هذه الاحوال ؟ لقد أدى انتشار الوعى الوطنى الى اقتناع الناس بحاجتهم الملحة الى الحرية السياسية ، ولم تكن الحرية شيئا ضروريا لمجرد أنه من المهانة أن يكون الناس عبيداً غير مستقلين ، ولا لمجرد أن الحرية حق طبيعي ولد مع كل انسان ، ولكنها كانت ضرورية أيضا لتخفيف عبء الفقر الذى تنوء تحته كواهل المواطنين • فكيف نحصل على هذه الحرية ؟ اننا بالطبع لن نحصل عليها بالرضوخ والهدوء والانتظار

ومن الواضح أيضا أن وسائل الرجاء والاحتجاج التى جرى المؤتمر على التوسل بها كانت غير مجدية ، ومثبطة لهمم الجماهير • فلم يحدث فى التاريخ كله أن نجحت هذه الوسائل فى اقناع الطبقات الحاكمة بترك مقاعد الحكم • ولم يحدث فى التاريخ أن نجحت الجماهير المستعبدة فى نيل حريتها الا بوسائل العنف والثورة والاضطراب

أما عن الثورة المسلحة ، فانها كانت بعيدة عن تفكير الشعب الهندى • فقد كنا جميعا غير مسلحين ، وأكثرنا لا يعرف كيف يستعمل السلاح • هذا الى أنه ، فى أى صراع مسلح ، يكتب الفوز دائما للقوة الحكومية المنظمة على أى قوة يمكن أن تقوم في وجهها • قد تعمد الجيوش الى العصيان فتنجح ، أما الجماهير العزلاء فانها لا تقدر أبدا على مواجهة القوات المسلحة ••

وأما عن خطة الارهاب الفردى ، بواسطة الاغتيال والقاء القنابل على الجنود ، وهم فرادى ، فانها خطة افلاس ! انها

خطة تنطوى على الدباغة ، ومن الحماقة أن نتصور أنها قد تهز حكومة قوية منظمة ، مهما نجحت فى افزاع أفراد هذه الحكومة ..

اذا .. فماذا بقى ؟ لقد نجحت روسيا فى ثورتها وأقامت جمهورية عمالية ، وكان أسلوبها العمل الجماعى الذى يسنده الجيش .. ولكنه حتى هذه الثورة انما نجحت فى فترة وصلت الحكومة الروسية فيها الى ذروة الانهيار والتمزق ، نتيجة للحرب ، فلم يبق أى جهاز قوى يمكن أن يقاوم الثورة ..

هكذا كان يبدو أن كل الطرق للخلاص من هذه الاحوال مسدودة . وشعرت الجماهير الحساسة بهذا الموقف فركنت الى الانهيار واليأس . وفى تلك اللحظة بالذات، أعلن غاندى خطة عدم التعاون . وكانت كخطة « السين فين » فى ايرلندا تدعونا الى الاعتماد على أنفسنا ، كما كانت مؤدية بغير شك الى ايقاع نوع من الضغط الشديد على الحكومة ، فلا شك أن كل حكومة تعتمد اعتمادا أساسيا على تعاون المواطنين ، راضين أم كارهين فلو أن هذا التعاون توقف ، والمقاطعة نفذت ، فانه من المؤكد ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ أن يتحطم البناء الحكومى كله . حتى ولو لم تمض حركة عدم التعاون الى نهايتها ، فلا شك أن أى قدر منها كاف للضغط على الحكومة من ناحية ، وتنمية قوة الجماهير من جهة أخرى

ان حركة عدم التعاون هذه حركة سلمية تماما ، ولكنها ليست كما يتصورها البعض مجرد « عدم مقاومة » . انها نوع صارم عنيف من المقاومة ، ولكنها مقاومة بغير عنف . انها ثورة سلمية ، وحرب هى أكثر أنواع الحروب تحضرا ، وسلاح قادر على الحاق الضرر ببنيان الدولة الى أقصى الحدود . انها أسلوب فريد فى تحريك الجماهير الى العمل .

وهي تجعلنا نحن الثائرين في جانب حق واضح ، وتجعل خصومنا هم المعتدون • وقد خلقت فينا هذه المقاومة معرفة كيف نتخلص من الخوف الذى كان يملؤنا ، وجعلتنا ننظر الى الناس في عيونهم كما لم نفعل قط ، ونقول كل ما يدور فى رؤوسنا بصراحة لكأن كابوسا ثقيلا ارتفع عن عقولنا ! وكأن هذه الحرية الجـــديدة •• حرية الكلام والعمل ، قد ملأتنا قوة وثقة ، وأخيرا ، فان هذا الاسلوب السلمي ، حال دون ظهور الحزازات الدينية والعنصرية التى كانت تظهر عندنا فى كل صراع •

فلم يكن غريبا اذا ، حين اقترن هذا البرنامج الجـــديد بشخصية غاندى الساحرة ، أن تتحمس الجمـــاهير له وتمتلىء بالامل • لقد انتشرت هذه الدعوة بسرعة وقضت على كل خوف قديم • واجتذب المؤتمر فى صورته الجديدة كل العنــــاصر الحيوية فى البلاد ، فأصبح أكثر نفوذا وأعظم قوة ••

وفى نفس الوقت ، كان الانجليز يطبقون برنامج مونتاجو شلمسفورد للاصلاح ويكونون المجـــالس • وقد رحب المعتدلون الذين يسمون أنفسهم الان « الاحرار » بهـــذه المجالس ، وأصبحوا وزراء وتولوا كثيرا من المناصب • أى أنهم انضموا فى الواقع الى جهاز الحكومة ولم يعد لهم أى وزن شعبى • أما المؤتمر فقد قاطع هذه المجالس التشريعية ، مما جعلها هزيلة تافهة ، لا يهتم بها أحد

لقد اتجهت كل الانظار الى الكفاح الحقيقى الذى أخـذ ينتشر فى المدن والقرى • ولاول مرة فى تاريخ الهنـد ، ذهب كثيرون من العمال أعضاء المؤتمر الى القرى يكونون فيها « مؤتمرات صغيرة » لايقاظ الوعى الســـياسى بين الفلاحين ••

وأخذت الاحـــداث تتطور بسرعة ، حتى وصلت الى

ذروتها ، ووقع الصدام الذى لا مفر منه ، فى ديســمبر سنة ١٩٢١ ..

أما مناسبة هذا الصدام فقد كانت زيارة أمير ويلز ولى عهد انجلترا للهند ومقاطعة المؤتمر لها ، فقد ألقت الحكومة القبض على الناس بالجملة فى جميع أنحاء الهند حتى امتلأت السجون بالساسة .. واجتاز معظمنا أول تجربة له فى داخل السجن . حتى الرئيس المنتخب للمؤتمر ، وشباندو شيتا رانجان داس ألقى القبض عليه ، فشغل مكانه حكيم اجمل خان ، ولكن غاندى نفسه لم يقبض عليه .ونجحت الحركة ، وزاد عدد الذين تقدموا يريدون دخول السجن على عدد الذين سجنتهم الحكومة بالفعل ، وكلما قبضت الحكومة على أحد من الزعماء المعروفين حل محله زعيم غير معروف ، وفى بعض الاحيان غير مرغوب ، « من البوليس السرى مثلا » ، مما أدى الى تحويل الحركة فى اتجــاه الفوضى ، والعنف .. وفى أوائل عام ١٩٢٢ وقع صدام بين البوليس وجماهير من الفــــلاحين فى « شــوزا شورى » انتهى باحراق الجماهير لمركز البوليس بما فيه من جنود ..

وقد أصيب غاندى بصدمة عنيفة من جراء هذا الحادث وغيره من الحوادث المشابهة ، التى دلت على أن الحركة بدأت تتسم بالعنف وعدم التنظيم ، وبناء على اقتراح منه ، أوقف المؤتمر العمل بالبند الخاص بخرق القــوانين فى برنامج عدم التعاون .. وبعد ذلك بقليل القى القبض على غاندى ، وقدم الى المحاكمة وحكم عليه بالسجن ست سنوات وبذلك انتهت المرحلة الاولى من مراحل حركة المقــاطعة وعدم التعاون ..



الفاشية ..

٢١ يونيو سنة ١٩٣٣

رويت لك فى الخطابات السابقة كل شيء عن أوروبا حتى سنة ١٩٢٩ ، على ان هناك نقطة هامة أغفلتها عامدا ، كى أخصص لهاهذه الرسالة . تلك هى قصة الاحداث التى جرت فى ايطاليا بعد الحرب العالمية ، وليست اهمية هذه الاحداث فى أنها جرت فى ايطاليا ، ولكن فى أنها نوع جديد من انواع الصراع فى العالم كله . وعلى ذلك فسوف احدثك فى هذا الخطاب عن الفاشية ، وعن موسولينى ، أحد الشخصيات البارزة فى عصرنا هذا

كانت ايطاليا قبل ان تنشب الحرب العالمية « الاولى » فى حالة اقتصادية سيئة

وقد اشتبكت مع تركيا فى حرب انتهت بانتصارها واستيلائها على ليبيا ، مما ارضى الاستعماريين فيها . على ان هذه الحرب الصغيرة لم تحل شيئا من مشاكلها الاقتصادية . بل لقد تفاقمت الحالة الاقتصادية فيها حتى بدت فى سنة ١٩١٤ ، وكأنها على وشك ثورة عارمة : انتشرت الاضرابات الضخمة فى المصانع ، فلم يكن يمسك بزمام العمال ويخفف من حدتهم الا الزعماء الاشتراكيون المعتدلون الذين نجحوا فى اخماد هذه الاضرابات ..

ثم جاءت الحرب ، ورفضت ايطاليا ان تنضم الى حليفتها المانيا ، وحاولت أن تقف موقفا حياديا بغية الكسب من التعامل مع المعسكرين ولا شك ان هذا الموقف الذى ينطوى على المساومة بين المعسكرين والانضمام لمن يدفع اكثر ، ليس بالموقف الشريف ، ولكن الدول تعودت أن تتجرد من الاخلاق التى يلتزم بها الافراد وهى لذلك كثيرا ما تتصرف على نحو يخجل منه الافراد العاديون وقد استطاعت انجلترا وفرنسا أن تدفعا رشوة اكبر ، وبذلك دخلت ايطاليا الحرب الى جانبهما فى

مايو سنة ١٩١٥ ، وكان الثمن معاهدة سرية تعطى ايطاليا قطعة من الارض فى آسيا الصغرى والبلقان ..

ولكن الثورة الروسية نشبت قبل أن تنفذ هذه الاتفاقية فضاعت الصفقة ، وكان ضياع هذه الصفقة سببا فى سخط الايطاليين ..

وقد ضاعف من سخطهم انهم خرجوا مغبونين من سوق المساومات فى مؤتمر الصلح بفرساى ، بعد ان كانت الراسمالية والبورجوازية الايطالية قد وضعت املها فى المستعمرات التى سوف تظفر بهـا ، وتخفف ــ على حسابها ــ حدة الازمة فى ايطاليا ..

وساءت الاحوال فى ايطاليا بعد الحرب اكثر مما ساءت فى أى مكان آخر . وبدا أن النظام الاقتصادى يتداعى ، وان أنصار الشيوعية والاشتراكية يتزايدون . وكان شبح الثورة الروسية ماثلا للعيان ..

كان هناك من ناحية عمال المصانع الذين يقاسون قسوة الحياة ومن ناحية اخرى كان هناك الجنود المسرحون بعد الحرب بلا عمل .. وحاول زعماء الطبقة المتوسطة ان ينظموا هؤلاء الجنود ليقاوموا بهم قوة العمال النامية ..

وفى سنة ١٩٢٠ بدات الازمة . اعلن اتحاد عمال المعادن الذى يضم نصف مليون عامل ، مطالبته بزيادة الاجور . ورفض هذا الطلب ، فقرر العمال أن يضربوا واختاروا نوعا جديدا من الاضراب ، هو : ان يذهبوا الى المصانع دون أن يعملوا شيئا . وهو نوع من الاضراب ابتكره النقابيون فى فرنسا قبل ذلك بزمن . ورد اصحاب المصانع على ذلك باغلاق مصانعهم . وهنا استولى العمال على المصانع وحاولوا ان يديروها على أسس اشتراكية ! ..

كان هذا العمل من العمال ثوريا تماما . ولو استمر لادى اما الى ثورة اجتماعية واسعة ، واما الى كارثة شاملة .. اذ لم تعد هناك فرصة لاى حل وسط ..

وكان الحزب الاشتراكى فى ذلك الوقت قويا جدا فى ايطاليا ، فالى جانب سيطرته على نقابات العمال ، كان يسيطر على ٣٠٠٠ بلدية ومجلس محلى وكان له ١٥٠ نائبا فى البرلمان . والحزب اذا كان قويا ، شرعيا ، يمتلك مؤسسات كبيرة ، ويشغل مراكز هامة فى الدولة ، فانه من الصعب عليه جدا ان يكون ثوريا . ومع ذلك فان هذا الحزب ــ رغم كثرة عدد المعتدلين فيه أيد تصرف العمال . أيده ثم لم يصنع أى شىء آخر ..

ولم يشأ الحزب أن يتراجع ، ولكنه لم يجرؤ على المضى الى الامام .. فاختار موقفا وسطا . وكما يحدث لكل من يتشكك ويتردد فى اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب ، تعرض الحزب لهزيمة ساحقة واضطهاد بالغ . وبسبب هذا التردد من الزعماء ، فشلت حركة العمال فى الاستيلاء على المصانع

وقد شجع هذا الفشل اصحاب المصانع وكشف لهم عن ان تقديرهم لقو العمال وزعمائهم كان مبالغا فيه ! فبدأوا يفكرون فى خطة للانتقام ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكى

وكانت اول قوة فكروا فى الاستعانة بها ، جماعة المغامرين التى تكونت سنة ١٩١٩ ، من الجنود المسرحين ، بقيادة بنيتو موسولينى ، كانت تدعى « الفرق الفاشية » وهدفها انتهاز كل فرصة لمهاجمة الاشتراكيين ومؤسساتهم كأن يحطموا مطبعة احدى الصحف الاشتراكية ، او يهاجموا مجلسا بلديا او تعاونيا يسيطر عليه الاشتراكيون ، واخذ كبار الرأسماليين وابناء الطبقة المتوسطة الكبيرة يمولون هذه الفرق الفاشستية ، ويحاولون استخدامها فى مقاومة الاشتراكية . حتى الحكومة كانت تشجعها من أجل تحطيم قوة الحزب الاشتراكى ..

فمن هو بنيتو موسولينى ، الرجل الذى نظم هذه الفرق ؟ ..

كان فى ذلك الوقت شابا مغامرا . وكان ابوه اسكافيا اشتراكيا مما جعل موسولينى نفسه يشب وفى ذهنه كثير من الافكار الاشتراكية . وفى صباه اصبح مهيجا عنيفا ، وطرد اكثر من مرة من عدة مقاطعات سويسرية من أجل دعايته الثورية . وكان يهاجم الزعماء الاشتراكيين المعتدلين بشدة على اعتدالهم ، وكان يدعو علنا الى استخدام القنابل وشتى وسائل العنف ضد الدولة

وفى خلال حرب ايطاليا مع تركيا كان اكثر الزعماء الاشتراكيين يؤيدون الحرب . ولكن موسولينى لم يؤيدها . وألقى فى السجن عدة مرات لأنه استخدم وسائل عنيفة فى معارضتها

وقد اشتد فى حملاته على الزعماء الاشتراكيين لتأييدهم هذه الحرب حتى نجح فى اقناع الحزب بطردهم من حظيرته ، واصبح هوورئيس تحرير الجريدة اليومية الاشتراكية « افانتى » ، وكانت تصدر فى ميلان ، ومضى يكتب فيها داعيا العمال الى العنف وهى دعوة كانت تقابل بالمعارضة القوية من الاشتراكيين المعتدلين ..

ثم جاءت الحرب العالمية « الاولى » ولبضعة شهور ظل موسولينى يعارض اشتراك ايطاليا فى الحرب ويدعو الى الحياد . ولكنه فجأة غير آراءه جميعا ، وأعلن انضمامه الى الحلفاء ، وترك الجريدة الاشتراكية ، وأصدر جريدة جديدة يدعو فيها الى سياسته الجديدة ، فطردوه من الحزب الاشتراكى . وبعد قليل تطوع فى الحرب كجندى عادى وحارب فى الجبهة الايطالية ، حتى سقط جريحا

ولما انتهت الحرب ، لم يعد موسولينى يسمى نفسه اشتراكيا اصبح شخصا عائما لا يربطه شىء . لا يحبه الاشتراكيون ولا صلة له بالعمال . وبدأ يهاجم الاشتراكية بل والدولة البورجوازية ايضا . هاجم كل شكل من اشكال الدولة ، وسمى نفسه « فرديا » ، ودعا الى الفوضوية . كتب فى ذلك مقالات صريحة . أعلن بعدها عن تكوين « الفاشية » ..

ن مارس سنة ١٩١٩ ، جند الجنود المسرحين فى فرق مقاتلة وكان اسلوب هذه الفرق هو العنف ، ولما كانت الحكومات تساعد هذه الفرق ولا تقاومها ، فقد زاد عدوانها وجرأتها ، وكثيرا ماكان العمال فى المدن يشتبكون مع هذه الفرق فى قتال منظم ويطردونها . ولكن الزعماء الاشتراكيين قاوموا فكرة مقابلة العنف بالعنف .. ودعوا العمال الى مقابلة الارهاب الفاشى بالسلم والهدوء ، أملا فى أن تتعب الفاشية وتسكن ، ولكن الفرق الفاشية على العكس تزايدت قوتها بفضل أموال الاغنياء وتغاضى الحكومة ، بينما فقد الراى العام روح المقاومة التى كانت لديه ضد هذه الفرق ..

وقد اتجه الفاشست بزعامة موسولينى الى الخلط بين دعوتين متعارضتين : الاولى انهم أعداء الاشتراكية والشيوعية . وبذلك ضمنوا تأييد الطبقات الغنية . ولكن موسولينى كان اشتراكيا سابقا، وسطوره مملوءة بالشعارات المعادية للرأسمالية ، مما كان يعجب الطبقات الفقيرة .. وهكذا اصبحت الفاشية مزيجا يمكن تفسيره بأكثر من معنى! فهى حركة رأسمالية تصيح بهتافات معادية للرأسمالية . أما العمود الفقرى لها فكان من الطبقة المتوسطة ، خصوصا الصغيرة منها. كذلك جذبت هذه الحركة العمال العاطلين والذين تنظمهم نقابات . وبما انه لاشيء ينجح مثل النجاح ، كما حدث عندما استطاع الفاشست ان يرغموا التجار بالقوة مثلا على تخفيض الاسعار ، فكسبوا عطف رجل الشارع ، لقد انضم الى الحركة كل المغامرين وان ظلت بالرغم من ذلك لا تمثل من الناس الا اقلية بسيطة

وهكذا ، بينما كان القادة الاشتراكيون يتشككون ويترددون ويتنازعون فيما بينهم ، وتقع الانقسامات فى حزبهم ، نمت قوة الفاشية .. وقد كان عجيبا أن يجمع موسولينى فى حزبه كل هذه المتناقضات ، وأن يقنع كل فئة بأن الحركة الفاشية هى حركتها .. الاغنياء يرون فيه المدافع عن أملاكهم ، ويعتبرون كلماته وشعاراته المعادية للرأسمالية مجرد سطور جوفاء لخداع الجماهير ، والفقراء يعتقدون انها حركة ضد الرأسمالية ، وان الباقى ضحك على ذقون الاغنياء !

وهكذا مضى موسولينى يتكلم للفقراء يوما ، وللاغنياء يوما أخر، وان كان فى حقيقته صنيعة للطبقة الغنية التى تموله والتى تستخدمه لتحطم قوة الاشتراكية التى باتت تهدد مصالحهم ..

وأخيرا ، فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، زحفت الفرق الفاشستية على روما . وحاول رئيس الوزراء — الذى كان يعطف على هذه الفرق — أن يعلن الاحكام العرفية ، ولكن الملك نفسه كان قد اصبح فى صف موسولينى .. فرفض التوقيع على قرار أعلان الاحكام العرفية، وقبل استقالة رئيس الوزارة .. ودعا موسولينى الى تشكيل الوزارة الجديدة ...

ووصل الجيش الفاشيستى الى روما فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢وفى

نفس اليوم وصل موسوليني من ميلانو بالقطار ، ليصبح رئيســـا للوزارة

انتصرت الفاشية اذا ، واستولي موسوليني على الحكم . لكن لاية غاية ؟ وما هو برنامجه وسياسته ؟ ان الحركات الكبرى لابد ان تقوم على أساس مذهب واضح ينمو ويتبلور حول مبادىء ثابتة واهداف ينظمها برنامج محدد . ولكن الفاشية تنفرد بأنه ليس لها مذهب تدين به ولا فلسفة تقف خلفها .. اللهم الا اذا كان مجرد مقاومةالاشتراكية والحرية يمكن ان يكون فلسفة !

لقد اعلن موسوليني سنة ١٩٢٠ — بعد عام واحد من تكوين المنظمات الفاشستية : « ان الفاشيين ، وان كانوا غير مرتبطين بمبادىء معينة ، الا انهم يسعون باستمرار نحو هدف واحد ، ذلك هو رخاء الشعب الايطالي ! » وواضح ان هذا الهدف لا يعتبر سياسة معينة . فانه من السهل على اى مخلوق ان يقول انه يسعى الى رخاء شعبه . وفي سنة ١٩٢٢ ، وقبل الزحف على روما بشهر واحد قال موسوليني : ان برنامجنا بسيط جدا .. اننا نريد أن نحكم ايطاليا !

وقد اوضح موسوليني هذه الحقيقة مرة اخرى في مقال كتبـــه في « الانسكليوبيديا الايطالية » عن أصل الفاشية .. فقد قال انه لم تكن لديه خطط معينة للمستقبل عندما قرر الزحف على روما ! ولكنه فقط قرر استغلال الازمة للقيام بمغامرته متأثرا في ذلك بما تعلمه أيام كان اشتراكيا ..

والفاشية ، وان لم يكن لها اى مبدأ او عقيدة الا ان لها أسلوبا اكيدا في العنف والارهاب وانه ليكفي ان نعرف نظرتها الى التاريخ حتى نفهمها على حقيقتها

اما رمزها آخذوه من رمز قديم كان يحمله الاباطرة الرومان القدامى وهو عبارة عن حزمة من العصى في وسطها بلطة ، وهذه الحزمة اسمها اللاتيني « فاسش » ومن هنا جاء اسم الفاشستية . أما المنظمـــات الفاشستية فقد أخذ نظامها ايضا من التشكيلات الحربية في روما القـــديمة

والسلام الفاشستي هو نفس السلام الذى كان مستعملا في روما القديمة برفع الذراع مبسوطا الى الامام ..

اذا فقد كان الفاشيست ينظرون الى امبراطورية روما القـــديمة ويستلهمونها ! أى أن نظرتهم استعمارية ، وقد كان شعارهم «لامناقشة بل طاعة فقط ! » وهو شعار قد يناسب الجيوش المحاربة ولكنـــه قطعا لا يناسب الشعوب ! . وكان اسم قائدهم موسوليني «الدوتشي» وهى الترجمة الايطالية لكلمة «دكتاتور» وكان زيهم الرسمي عبارة عن قميص اسود ومن اجل ذلك عرفوا باسم « القمصان السود »

ولمـا كان برنامج الفاشيست الوحيد هو الحصول على السلطة فقد تحقق لهم هذا البرنامج فعلا بتعيين موسوليني على الفور يدعم مركزه

من طريق تحطيم المعارضة وتدمير الخصوم . وبدأت موجة عاتية من العنف والارهاب تجتاح ايطاليا . وقد استعمل العنف فى التاريخ كثيرا ، ولكنه كان يستعمل دائما مصحوبا بالاعذار والمبررات ، باعتبار انه ضرورة مؤلمة . أما الفاشية فانها لا تقف من هذا العنف موقف الاعتذار . ان الفاشيين يدعون الى العنف ويشيدون به علنا . وهم يمارسونه ، حتى ولو لم توجد أى مقاومة

لقد لجأ موسولينى الى ارهاب اعضاء البرلمان عن طريق الاعتداء عليهم بالضرب المبرح ، فأرغمهم بهذا الاسلوب على اقرار قانون انتخابى . كان بمثابة الغاء للدستور . وحصل موسولينى على هذا الاقرار بأغلبية كبيرة .. !

وقد كان غريبا حقا أن يستمر الفاشيون فى أعمال العنف غير المشروعة حتى بعد أن أصبحوا فى الحكم ، يسيطرون على البوليس وشتى أجهزة الدولة ..

نعم لقد ظلوا يزاولون العنف غير المشروع بعد ان اصبح من حقهم ان يمنعوا البوليس من التدخل . لقد ارتكبوا جرائم القتل والتعذيب والضرب وتدمير الممتلكات . وكان هناك أسلوب فريد تميزوا به هو ارغام المعارضين على تعاطى كميات فظيعة من المسهلات !

وفى سنة ١٩٢٤ اهتزت اوروبا كلها بحادث اغتيال « جياكوموماتيوتى » عضو البرلمان الايطالى ، والزعيم الاشتراكى الكبير . لقد وقف فى البرلمان وهاجم الاساليب الفاشية خلال الانتخابات التى أجريت فى ذلك الوقت وبعد خطبته هذه بأيام قليلة تم اغتياله . وحوكم القتلة محاكمة صورية ، انتهت بتركهم دون عقاب . كذلك مات زعيم من زعماء الاحرار اسمه « أمندولان » نتيجة للضرب المبرح ، واستطاع رئيس وزارة سابق أسمه « نيتى » أن يفر من ايطاليا . وهذا كله غير الوسائل الشرعية للكبت والقهر . ولم يكن الارهاب ارهابا جماهيريا ، بل ارهابا حكوميا منظما لم يقتصر على الشيوعيين أو الاشتراكيين وحدهم ، بل لقد شمل الاحرار المعتدلين أيضا ..

كانت تعليمات موسولينى لاتباعه هى : أن يجعلوا حياة المعارضين صعبة ومستحيلة ..

وقد نفذ الاتباع هذه التعليمات بأمانة . فكل شىء يجب أن يكون فاشيا .. وكل الوظائف يجب أن يشغلها الفاشيون ..

أصبح موسولينى الحاكم المطلق فى ايطاليا . ولم يكن رئيس الوزارة فحسب بل ووزير الخارجية والداخلية والمستعمرات والحرب ، والبحرية والطيران والعمل !

كان فى الواقع مجلس وزراء بأكمله . اما البرلمان فقد تحطمت اختصاصاته شيئا فشيئا حتى صار شبحا . كان المجلس الفاشيستى الاعلى يحكم الدولة وموسولينى يحكم المجلس الفاشيستى الاعلى !

وقد لفتت الانظار فى أوروبا الخطب الاولى التى القاها موسولينى من السياسة الخارجية . كانت خطبا غريبة انفجارية تهديدية ،لاتمت بصلة الى خطب الساسة والدبلوماسيين ورؤساء الدول . كان يبدو دائما متحديا طالبا للنزال ! كان يتحدث عن الامبراطوريةالتىستبنيها ايطاليا ، والطائرات الايطالية التى سوف تملأ الجو ! وكثيرا ما هــدد جارته فرنسا ، بغير مناسبة . وكانت فرنسا بالطبع أقوى بكثير جدا من ايطاليا ، ولكن لا احد فى فرنسا كان مستعدا للحرب ، وعلى ذلك فقد اهملوا خطب موسولينى وتركوه يتكلم . واصبحت عصبة الامم هدفا رئيسيا لهجوم موسولينى وتنديده واحتقاره ،بالرغممنانايطاليا كانت عضوا فيها . ومع ذلك فقد سكتت العصبة والامم المشتركةفيها على هذا العدوان ..

وقد تغير الكثير فى ايطاليا خلال هذه الفترة ، واصبح السائحيعجب بما يراه من مظاهر النظام فى كل شىء . واصبحت روما منأجملالبلاد بما أدخل عليها من منشآت ، وبات حلم الامبراطورية الرومانية يتهادى أمام أعين موسولينى !

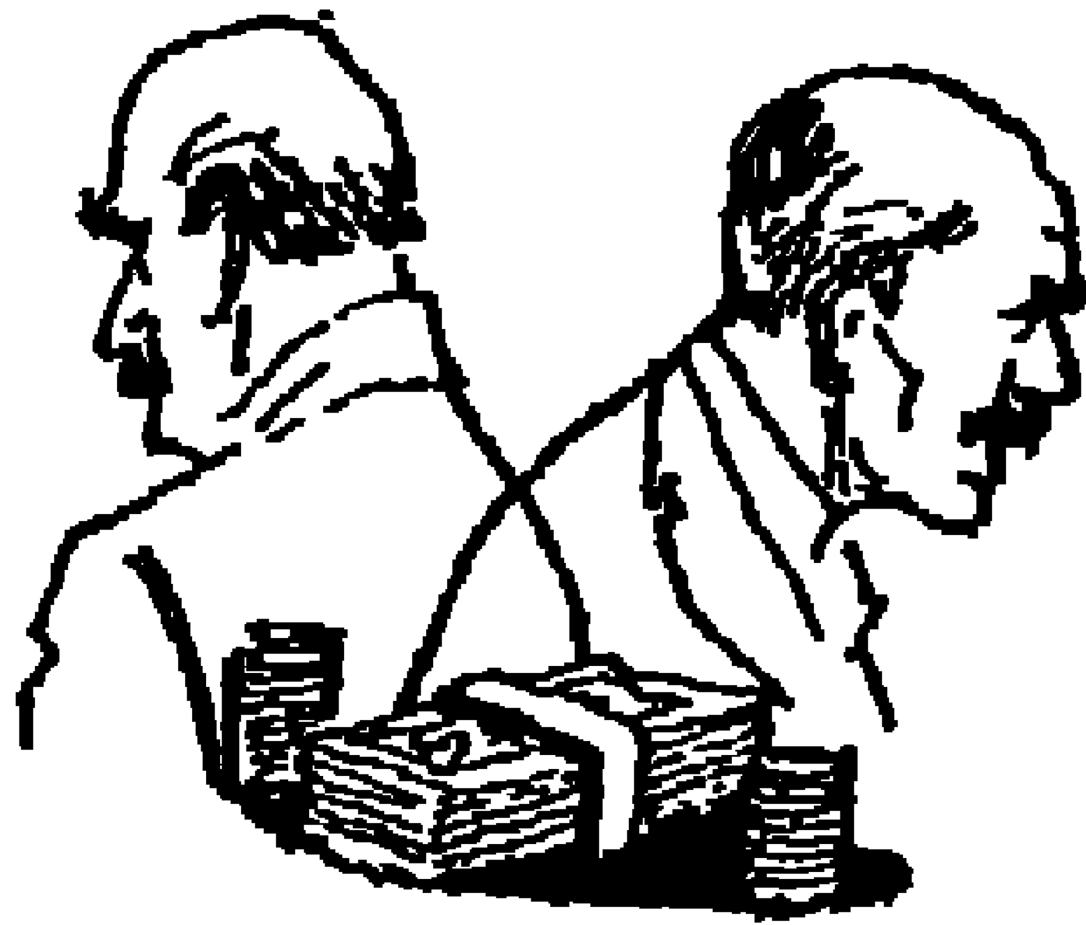
وقد استمر هذا الارهاب حتى سنة ١٩٢٦ ، وفى هذه السنة أصدر موسولينى عدة قوانين استثنائية ، أعطت الدولة سلطات هائلة للقضاء على المعارضة ، فأصبح هذا الارهاب لا لزوم له . وفى ظل هذه القوانين الاستثنائية كان الناس يسجنون ويعاقبون ويطردون من بلادهم بالمئات . والاحصاءات الرسمية تقول ان عدد الذين حوكموا طبقا لهذه القوانين فى الفترة بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٣٢ بلغ ١٠ر٠٤٤ شخصا . وخصصت ثلاث جزر قريبة من ايطاليا لنفى غير المرغوب منهم ، هى جزر بونزا وفنتولين وترميتى ، كانت أحوال المعيشة فيها فظيعة

وقد استمر الضغط والاعتقالات حتى النهاية وعلى نطاق واسع . ومعنى ذلك أن المقاومة السرية والثورية ظلت ملتهبة فى تلك البلاد ، رغم كل المحاولات التى بذلت لاخمادها

وفى خلال ذلك كله تزايدت الاعبــــاء المالية فى الدولة .. وساءت الاحوال الاقتصادية الى حد قارب الانهيار (١)

---

(١) كتب هذا الفصل قبل انهيار نظام موسولينى بسنوات



« العالم الرأسمالي يفشل في الاتحاد

٢٨ يوليو ١٩٣٣

ما أطول القصة التي رويتها لك من التنافس والتآمر المالي ! انى لاخشى أن يكون شكرك لي عليها قليلا ! انها أكثر نواحي الصراع الدولي تعقيدا ، الامر الذي يجعل الخروج منها أكثر صعوبة من الدخول فيها ! ومع ذلك فانني لم أقدم لك الا محصول لمحة سريعة على السطح فحسب ، ذلك ان أكثر ما يحدث في هذا الميدان من ميادين الصراع يبقى خافيا ، لا يخرج الى السطح أبدا ولا يرى في وضح النهار

أن رجال المال والبنوك يلعبون في هذا العالم الحديث دورا بالغ الاهمية ، حتى ملوك الصناعة . ذهبت أيامهم ، وأصبح رجل المال الكبير هو الذي يحكم الصناعة والزراعة والنقل ، وكل شيء ، حتى الحكومات نفسها ! ذلك أن الصناعة والتجارة مع تقدمها وازدهارها أصبحت تحتاج الى مزيد من النقد ، والبنوك هي التي تمول الصناعة والتجارة بهذا النقد . فأغلب الاعمال الصناعية والتجارية في العالم تتم الآن بواسطة الاقتراض ، والبنوك الكبيرة هي التي تتوسع في الاقراض أو تقلل منه ، وتسيطر عليه في جميع الاحوال. رجل الصناعة ورجل الزراعة على السواء ، كل منهما مضطر للذهاب الى البنوك كي يقترض منه ما يستطيع أن يواصل به عمله ..

ولا يأتي ربح البنوك من فوائد هذه القروض فحسب ، بل من ازدياد سيطرتها تبعا لذلك على الصناعة والزراعة ، فالبنك يستطيع أن يدمر رجل الاعمال ، ويستطيع أن يرغمه على قبول الشروط التي يمليها عليه ، بمجرد امتناعه عن اقراضه ، أو بمطالبته — في لحظة حرجة —

برد ما عليه ، وهذا النوع من الضغط يقع فى الحياة الداخلية لكل بلد وفى الحياة الدولية أيضا ، فالبنوك المركزية الكبيرة تقرض كثيرا من الحكومات فى بلاد مختلفة كما تقرض الافراد تماما . وبهذا الاسلوب يسيطر رجال البنوك فى نيويورك على كثير من حكومات أمريكا الوسطى والجنوبية ..

ومن ابرز خصائص هذه البنوك ، انها تكسب فى حالات الرواج والكساد على السواء ؛ فهى فى حالات الرواج تشارك فى الرخاء العام ، وتكسب من حركة النقود ، ومن اقراض المشروعات نظير فوائد مجزية . وهى فى حالات الازمة والكساد تقبض يدها على اموالها ولا تخاطر بها « وبذلك تضاعف حدة الازمة ، لان الاعمال لا تستطيع الاستمرار بغير الاقتراض » ولكنها تكسب من ناحية أخرى : ففى فترات الازمة تهبط أسعار كل شىء .. الاراضى والمصانع على السواء .. وتفلس كثير من المنشآت ..

وهنا يستطيع البنك أن يتقدم ويشترى كل شىء ، برخص التراب ! اذا فمن مصلحة رجال البنوك أن تكون ثمة دورات متتابعة ، من الرواج والكساد !

وفى خلال الازمة العالمية التى حدثتك عنها ، ظلت البنوك الكبيرة ناجحة ، توزع أرباحا كبيرة . حقا ، قد أفلست كثير من البنوك فى امريكا والنمسا والمانيا ، ولكن البنوك التى أفلست فى أمريكا هى البنوك الصغيرة . والظاهر أن نظام البنوك فى امريكا كان يعانى من نقص معين . اما انجلترا فلم يتأثر فيها أى بنك ..

رجال البنوك اذا هم السادة فى العالم الرأسمالى اليوم ، الامر الذى حدا بكثير من الناس أن يطلقوا على هذا العصر اسم « العصر المالى » ، تمييزا له من العصر الصناعى الذى سبقه ..

وقد رأينا كيف أن الصراع على الزعامة المالية بين انجلترا وأمريكا قد انتهى — حتى الآن — بفوز مدينة لندن . ولكن ماذا كانت ثمرة هذا النصر ؟ ان ثمرة هذا النصر التى استغرق الصراع من أجلهـــا سنوات ، تتلاشى شيئا فشيئا . لقد هبطت تجارة انجلترا الدولية ، وهبطت معها الارباح التى تدعم هذه الزعامة المالية !

وفى مارس سنة ١٩٣٣ تعرضت امريكا لازمة مالية أخرى . وقـــد دفعت هذه الازمة أمريكا الى أن تتخلى عن قاعدة الذهب وتخفض قيمة الدولار ، بالرغم من أن أمريكا تملك من الذهب أكثر من اى دولة أخرى فى العالم . وقد كان هذا التخفيض بقصد تخفيف العبء عن الصناعة والزراعة ، وتحســين حالة المدينين على حســاب البنوك الدائنة

وفى يونيو سنة ١٩٣٣ ، بذل العالم الرأسمالى محاولة أخرى للتعاون على حل المشاكل التى تواجهه . وعقد مؤتمر اقتصادى دولى فى لندن ، تحدث المندوبون فيه عن « الرعب الذى يغمر العالم » وحذروا من أن

فشل هذا المؤتمر قد يؤدى الى تداعى البناء الرأسمالى كله

وبالرغم من كل هذه الاخطار والتحذيرات ، فقد عجزت القوى الكبرى من التعاون ، وظلت كل واحدة منها تحاول أن تشق طريقها الخاص بها . وبذلك فشل المؤتمر ، وأخذت كل دولة تواصل سياستها الاقتصادية الوطنية ..

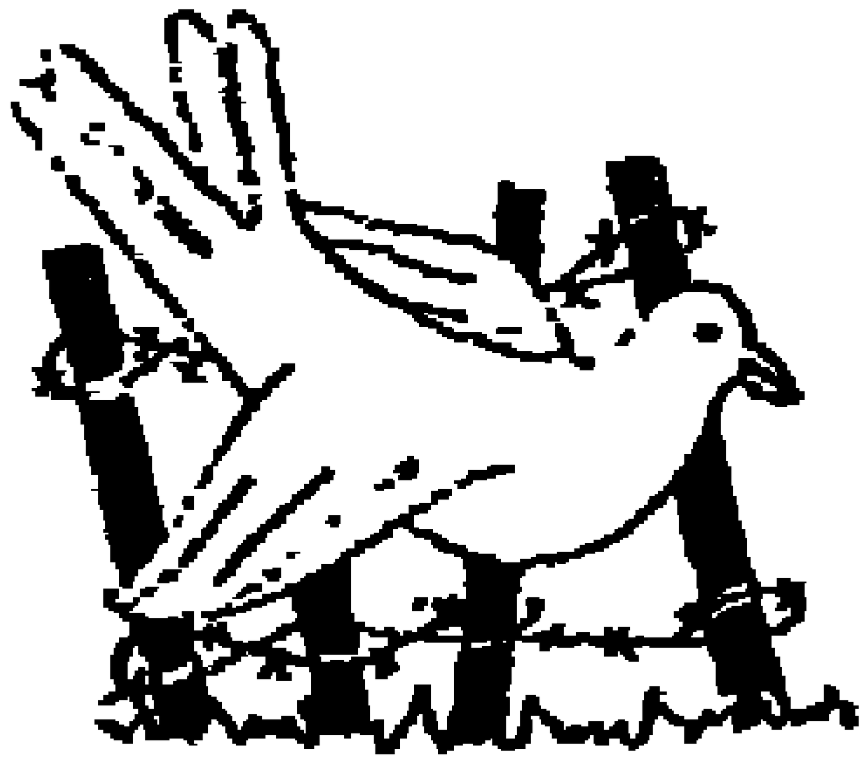
كان من المستحيل - مثلا - بالنسبة لانجلترا أن تكفى نفسها ، ما دامت لا تنتج الطعام اللازم لها ، وما دامت الخـــامات اللازمة لصناعتها تأتيها من الخارج . ومن أجل ذلك عمدت انجلترا الى الاخذ بسياسة اقتصادية وطنية على أساس يشمل الامبراطورية كلهـــا ، بقصد جعل الامبراطورية البريطانية وحدة اقتصادية واحدة ، أو كتلة استرلينية واحدة . وبهذه الفكرة عقدت انجلترا مؤتمرا اقتصاديا للامبراطورية فى أوتاوا . ولكنه حتى فى هذا المؤتمر ثارت الصعوبات . فان كندا واستراليا وجنوب افريقيا لم تكن مستعدة لكى تفرط فى اى مصلحة لها من أجل انجلترا . بل لقد كان على انجلترا أن ترضخ لبعض طلبات هذه الدول . وقد جعلت انجلترا الهند - رسميا فقط - توافق على معاملة البضائع الانجليزية معاملة خاصة ، بالرغم من المعارضة الشعبية الواسعة لهذا الوضع

وفى نفس الوقت ، ظهرت بوادر خطر آخر يهدد صناعات الامبراطورية البريطانية وأسواقها . لقد بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تتدفق فى كل مكان ، وكانت رخيصة بحيث أن أى رسوم جمركية لم تكن كافية للحد من انتشارها . وهذا الرخص يرجع الى هبوط قيمة الـ « ين » ، والى تفاهة الاجور التى تدفع للفتيات العـــاملات فى المصانع اليابانية ، والى أن شركات النقل البحرى اليابانية لا تأخذ الا أجورا بسيطة

واذ فشلت الرسوم الجمركية فى درء منافسة البضائع اليابانية ، عمدت انجلترا الى اغلاق بعض الاسواق اغلاقا محكما فى وجه هــذه البضائع ، أو الى عدم السماح لها بالدخول الا بكميات محددة

ولكن ، اذا تم طرد البضائع اليابانية من الاسواق بهذه الطريقة ، فماذا يصيب صناعة اليابان الضخمة ؟ اما أن يتحطم كيانها الاقتصادى كله ، واما أن تعمد الى خلق أسواق لها بالقوة .. وبذلك تنشب الحروب !

وتلك هى المراحل التى لا مفر منها . فى عالم المنافسات الرأسمالية !



رسالة ختام..

٩ اغسطس ١٩٤٣

ها نحن ، يا عزيزتي ، قد وصلنا الى ختام القصة . وليس لدى الآن ما أقوله ، ولكن رغبتي في أن أنهي خطاباتي اليك بنوع من التفاؤل ، هي التي تدفعني الى كتابة هذا الخطاب ـ آخر خطاب !..

وقد انتهيت من كتابة هذه الخطابات في الوقت المناسب ، ذلك أن مدة السجن المحكوم بها علي ـ وهي سنتان ـ قد قاربت الانتهاء .

فبعد ثلاثة وثلاثين يوما سوف يفرج عني ، هذا اذا لم يفرج عني قبل ذلك .. كما يهددني السجان أحيانا ! والسنتان اللتان حكم بهما علي لم ينته أجلهما بعد ، فقد خصموا من مدة سجني ثلاثة أشهر ونصف ، كما يصنعون مع المسجونين الذين يسلكون في السجن سلوكا حسنا ، وهم يعتبرونني من بين المسجونين المؤدبين ، بالرغم من أني لم أصنع شيئا أستحق عليه هذا اللقب ! ..

هكذا ينتهي السجن السادس لي ، وبعده أخرج الى العالم الواسع ولكن لاية غاية ؟ ان معظم أصدقائي وزملائي موزعون بين السجون ، وبلادي كلها تبدو وكأنها سجن كبير !

ما أكثر كمية الخطابات التي كتبتها ! وما أكثر ما استهلكت من الحبر والورق ، المصنوع صناعة وطنية ! ترى هل يستحق هذا كله شيئا ؟ هل وجدت في كل ما حمله اليك كل هذا الحبر والورق شيئا يهمك ؟ ستقولين نعم بغير شك ، لانك تعرفين أن أي اجابة أخرى قد تؤلمني . وأنت تحابينني بحيث لا يمكن أن تقدمي على هذه المخاطرة . ولكن ، سواء أعجبك ما كتبته لك أم لم يعجبك .. فانك لن تبخلي علي بالسعادة التي كنت أشعر بها وأنا أكتب هذه الخطابات ، يوما بعد يوم ، خلال عامين طويلين ..

لقد جئت الى هنا فى الشتاء ، ثم لم يلبث الشتاء أن أخلى مكانه لربيعنا القصير الذى سرعان ما اختنق فى حرارة الصيف . ولما جفت الارض وتشققت ، واصبح الناس والحيوانات على الســواء يلهثون بحثا عن نسمة هواء يستنشقونها ، جاء موسم المطر ، بمياهه الباردة المنعشة . وبعد ذلك جاء الخريف ، وأصبحت السماء زرقاء صافية ، والليالى جميلة رائعة . وهكذا انتهت دورة العام ، لكى تبدأ من جديد : الشتاء ثم الربيع ثم الصيف ثم فصل الامطار .. كل هـذا وأنا جالس هنا ، أكتب اليك ، وأفكر فيك ، وأرقب الفصول تمر ، واستمع الى حبات المطر وهى تطرق سطح الثكنة التى أقيم فيها ..

« ما أجمل صوت المطر ..
« على الارض وفوق السقوف ..
« ما أجمل غناء المطر ..
« للقلب الحزين الاسيف » ! .. (١)

لقد كتب بنيامين دزرائيلى ، رجل الدولة الانجليزى الشهير فى القرن التاسع عشر « ان الرجل العادى اذا حكم عليه بالنفى أو الاسر ، ضاع لبه . أما رجل الادب ، فانه يعتبر أيام السجن اسعد أيام حياته ! » .. قال دزرائيلى هذا الكلام وهو يكتب عن « هوجو جروشيوس » ، وهــو قاض وفيلسوف هولندى شهير ، عاش فى القرن السابع عشر ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، ولكنه فر من سجنه بعد سنتين . وقد قضى هاتين السنتين فى كتابة أعمال أدبية وفلسفية هى التى خلدت ذكره . والتاريخ يذكر لنا كثيرا من البلابل التى غردت وراء قضبان الســـجون ، مثل الاسبانى سرفانتس مؤلف « دون كيشوت » ، والانجليزى « جون بنيان » ..

ولكننى لست من رجال الادب ، ولا أنا أزعم ان السنوات الكثيرة التى قضيتها فى السجن كانت أسعد أيام حياتى ، ولكن الذى يجب أن أعترف به هو ان القراءة والكتابة قد ساعدتنى مساعدة رائعة على اجتياز هذه السنين ، نعم ، اننى لست أديبا ولا مؤرخا .. اذا ، فمن أنا ؟ ما أصعب الاجابة على هذا السؤال لقد جربت أشياء كثيرة . بدأت بدراسة العلم فى الكلية ، ثم اتجهت الى القانون ، وبعد أن مررت بمهن كثيرة فى الحياة ، اتجهت الى المهنة الشعبية الواسعة الانتشار فى الهند ، وهى التردد على السجن !!

واياك أن تأخذ شيئا مما حدثتك به فى هذه الخطابات على أنه قضية مسلمة ، أو على انه كلام خبير .. ان رجل السياسة فى العادة يحب الادلاء برأيه فى كل موضوع ، وهو عادة يتظاهر بمعرفة أكثر مما يعرف فعلا ! » ولذلك فانه يجب مراقبته بدقة ! ..

وهذه الخطابات التى بعثت بها اليك ليست سوى خطوط أولية يربط بينهما خيط رفيع ..

وفى رحلتى هذه حول العالم ، كنت أقفز أحيانا على قرون وأحداث بالغة

---

(١) أبيات من الشعر الفرنسى

الاهمية ، فاذا وصلت الى حادث يهمني نصبت خيمتي وأقمت عنده زمنا طويلا . وسوف تلاحظين ان هذه الرسائل تدل بوضوح على ما أكره وما أحب ، كما تدل أحيانا على تغير حالتي النفسية في السجن ..

ولست أحب أن تأخذي ما حدثتك به هنا قضية مسلما بها ، فقد يكون ثمة خطأ في بعض حسابي .. هذا الى أن السجن ـ حيث لا توجد مكتبات ولا مراجع في متناول اليـــد ، ليس المكان الملائم للكتابة في الموضوعات التاريخية ، فكان على أن اعتمد الى حد كبير على الملاحظات التى تعودت ان ادونها منذ اثنتي عشرة سنة مضت ، حين بدأت أتردد على السجون .. وقد استطعت أن أقرأ هنا كتبا كثيرة . ولكن هــذه الكتب كانت تجيء وتذهب ، اذ كان من المستحيل على أن أقتنى مكتبة في هذا المكان . وقد أخذت من هذه الكتب ، وبلا تحرج ، الكثير من المعلومات والافكار، فليس فيما كتبت شيء من ابتكاري ..

وقد تجدين صعوبة في متابعة بعض رسائلي .. فدعيها جانبا ، ولا تهتمي بها ..

انني لم أقدم لك في هذه الرسائل تاريخا .. بل مجرد خطوط فاذا اعجبتك دراسة التاريخ ، اذا وجدت في قراءته بعض المتعة ، فسوف تجدين بغيتك في كتب التاريخ الكثيرة التى تساعدك على فهم العصور الغابرة ..

ولكن قراءة الكتب وحدها لا تكفي . فلكي تعرفي الماضي يجب أن تنظري اليه في مشاركة وفهم .. لكي تفهمي انسانا عاش منذ زمن يجب أن تفهمي البيئة التى أحاطت به ، والظروف التى عاش فيها ،والافكار التى كانت تملأ رأسه . فانه لمن السخف ان نحكم على الذين عاشوا قبلنا كما لو كانوا يعيشون في عالمنا ويفكرون كما نفكر

ففي عصرنا هذا مثلا لا نجد مخلوقا واحدا يدافع عن الرق ، ومع ذلك فان مفكرا عظيما مثل أفلاطون كان يعتبر وجود الرق ضروريا ..

وقد يتفق الجميع على أنه من المستحيل أن نحكم على الماضي بالمعايير الحاضرة . ولكننا نجد من لا يعترف بسخف الجانب المقابل ، وهو الحكم على الحاضر بالمعايير الماضية

فاذا نظرت الى التاريخ القديم بعين العطف ، فسوف تجدين أن العظام الجافة في كيانه قد أصبحت جسدا حيا نابضا من اللحم والدم .. الاحياء رجالا ونساء .. سوف ترين موكبا باهرا من الاحياء رجالا ونساء وأطفالا ، من جميع الاعمار والاجواء ، يختلفون عنا ولكنهم يشبهوننا تماما .. في كل ما يتميز به الانسان من قوة وضعف !

أن رؤوسنا لتزدحم بالصور المعلقة في أبهاء التاريخ ! .. مصر ـ بابل ـ نينوى ـ الحضارة الهندية القديمة ـ قدوم الآريين الى الهند وانتشارهم في أوربا وآسيا ـ الثقافة الصينية الرائعة ـ الاغريق ـ امبراطورية روما وبيزنطة ـ الغزو العربي الظـــافر عبر قارتين ـ الحضارة الازتكية المجهولة في أمريكان ـ فتوحات المغول الواسعة ـ العصور الوسطى في أوربا وكتدرائياتها القوطية الباهرة ـ قدوم الاسلام

الى الهند والامبراطورية المغولية ـ النهضة الفنية والعلمية فى غرب اوربا ـ اكتشاف أمريكا والطرق البحرية الى الشرق ـ الغزو الغربى للبلاد الشرقية ـ ظهور الآلات الكبيرة ونمو الرأسمالية ـ انتشار الصناعة وسيطرة الرأسمالية الاوروبية ـ وكل عجائب العلم فى العالم الحديث

كثير من الامبراطوريات قامت وسقطت ونسيها الانسان آلافا من السنين ، قبل أن يعثر عالم صبور مرة أخرى على حفرياتها المطمورة فى الرمال .. وكثير من المبادىء والاحلام عاشت ، وأثبتت أنها أقوى وأثبت من أى امبراطورية

« لقد سقطت حضارة مصر ..
وسقط اليونان ، ومدينة طروادة ..
وفقدت روما تيجانها ..
وفقدت فينيسيا كبرياءها ..
ولكن الاحلام التى طافت بأطفالها ..
العابرة ، الوهمية ، النابضة ..
هى التى بقيت » ..
هكذا تغنى مارى كولردج ..

حقا ان الماضى ليمنحنا الكثير .. فكل ما لدينا الان من ثقافة وحضارة وعلم ، هبات ماض بعيد أو قريب .. فمن الحق اذا أن نعترف بديننا نحو هذا الماضى ..

ولكن الماضى لا يجب أن يستغرق عرفاننا . فان فى أعناقنا نحو المستقبل واجبا لا يقل ، بل لعله يزيد ، عما ندين به لهذا الماضى .. فما فات قد مضى .. ومن المستحيل أن نغيره .. أما المستقبل فانه لم يأت بعد ، ولعلنا نستطيع أن نشارك فى تشكيله .. فاذا كان الماضى قد أعطانا جزءا من الحقيقة ، فان المستقبل يخفى جوانب أخرى منها ويدعونا الى البحث عنها .. ولكن الماضى يغار دائما من المستقبل ، وهو يمسك بنا دائما بقبضته القوية ، وعلينا نحن أن نصارعه حتى نتحرر ونواجه المستقبل ، ونتقدم اليه ..

ومن الاقوال المألوفة ان التاريخ يعلمنا دروسا كثيرة .. ومن الاقوال المألوفة أيضا أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا .. وكلا القولين صحيح .. ذلك اننا لن نتعلم منه شيئا بمجرد النقل عنه ، أو بتوقعنا منه أن يعيد نفسه .. ولكننا نستطيع أن نتعلم منه بالاسترشاد به وبمحاولة اكتشاف القوى التى تحركه ، وحتى فى هذا الصدد ، لانظفر عادة باجابات مستقيمة ! وقد قال كارل ماركس : ان التاريخ يجيب على الاسئلة القديمة بطرح أسئلة جديدة ! ..

كانت الايام الخالية أيام ثقة عمياء ، لا تساؤل فيها ولا تشكك .. هذه المعابد والمساجد والكاتدرائيات القديمة الباهرة ، كان من المستحيل أن تبنى بغير الايمان الفياض فى نفوس المهندسين والبنائين والناس أجمعين .. والاحجار التى كانوا يضعونها حجرا فوق حجر ،

أو يحفرون عليها الرسومات الجميلة تنبئنا بهذا الايمان ، حتى الان ، نجد أبراج المعابد ، ومآذن المساجد ، والكاتدرائيات بارتفاعها الشاهق الى السماء ، فى اخلاص ، كأنها ترفع الى السماء صلاة صامتة من الحجارة والمرمر ، ما زالت تؤثر فينا الى الان ، حتى ولو كان ينقصنا ذلك الايمان الذى أقامها ، ولكن أيام هذا الايمان قد ذهبت ، وذهبت معها تلك الروح التى كانت تسحر الحجر .. آلاف المعابد والمساجد والكاتدرائيات ما زالت تبنى الى اليوم ، ولكنها تفتقر الى تلك الروح التى كفلت للآثار القديمة هذا البقاء .. ان المعابد هذه الايام لا تختلف كثيرا عن بناء المؤسسات التجارية ، التى تمثل عصرنا الراهن خير تمثيل

ان عصرنا الراهن هذا عصر لا وهم فيه .. انه عصر الشك والتردد والسؤال .. ونحن ابناء هذا العصر لم نعد نقبل الكثير من المعتقدات القديمة ، لم نعد نؤمن بها ، سواء لما فى آسيا أو أوروبا أو أمريكا .. ولهذا فنحن نبحث عن طرق جديدة ، عن جوانب أخرى للحقيقة ، تكون أكثر ملاءمة لما يحيط بنا من ظروف .. نحن لا نكف عن توجيه الاسئلة ، أو عن المناقشة والصراع والخوض فى عديد من الآراء والفلسفات نحن الان نعيش فى عصر يشبه عصر سقراط ، عصر تساؤل مستمر ، ولكن تساؤلنا ليس مقصورا على مدينة واحدة كأثينا بل انه يشمل العالم بأسره ..

وانه ليحدث كثيرا ان يضغط على عقولنا ما نراه فى العالم من ظلم ، وتعاسة ، ووحشية ، فتسود الدنيا فى عيوننا ولا نرى طريقا للخلاص .. ونشعر انه لا أمل فى هذا العالم على الاطلاق ..

ومع ذلك ، فان الاستسلام لهذه النظرة القاتمة ، معناه أننا لم نفهم درس الحياة والتاريخ فهما صحيحا ..

ان التاريخ يعلمنا التقدم والنمو ، وامكان تطور الانسان الى الاحسن ، والحياة عنيفة حافلة ، فقد يكون عليها كثير من الطين والماء الآسن والمستنقعات ، ولكن هناك أيضا البحار العظيمة ، والجبال والثلج ، وضوء النجوم الباهر فى حلكة الليل « خصوصا فى داخل السجن ! » .. وهناك الحب .. حب الاهل والاصدقاء ، وزمالة العاملين لاجل غاية واحدة ، وهناك الموسيقى ، والكتب ، وعالم الافكار بأسره ..

وانه لمن السهل دائما أن يحب الانسان ما فى هذا الكون من جمال ، وأن يعيش هائما فى عالم الفكر والخيال .. ولكن الفرار — بهذه الطريقة — من شقاء الآخرين ، وعدم الاهتمام بما يصيبهم ، ليس من علامات الشجاعة .. فالفكر لكى يحقق نفسه ، يجب أن يقود صاحبه الى العمل . وقد قال رومان رولاند « ان العمل هو نتيجة الفكر .. وكل فكر لا يؤدى الى العمل يعد خيانة » ..

والناس يتجنبون العمل عادة ، خوفا من العواقب ، لان العمل معناه المخاطرة .. والخطر يبدو من بعيد شيئا رهيبا حقا ، ولكنك

لو نظرت اليه عن قرب فلن تجديه مفزعا الى هذا الحد .. بل انه كثيرا ما يكون زميلا رائعا ، يضاعف متعة الحياة

ان الحياة الرتيبة العادية كثيرا ما تصبح مملة ، نأخذ فيهـــا الاشياء ، على انها أمور طبيعية لا تستوجب الفرح ، ولكن ، ما اعظم ما نقدر هذه الاشياء ونحبها عندما نحيا بدونها قليلا من الوقت ! .. ان كثيرا من الناس يتسلقون الجبال ويخاطرون بحياتهم بحثا عن المتعة التى يجدونها فى هذا التسلق ، والنشوة التى يمنحها اياهم اقتحام الخطر والتغلب على الصعاب ، والفرحة بالحياة المثيرة المعلقة بخيط رفيع ! ..

وكل واحد منا يستطيع أن يختار بين الحياة فى الوديان المنخفضة ، بما فيها من ضباب غير صحى ، لانها تمنحنا نوعا من السلامة ، وبين سكنى الجبال العالية بما فيها من مخاطر من أجل استنشاق الهـواء الطلق ، وتأمل المناظر البعيدة واستقبال الشمس المشرقة ..

وقد لاحظت انني كتبت لك فى هذا الفصل كثيرا من مقتطفات الشعر، ولكنى أحب أن أختم خطابى هذا بأبيات أخيرة ، من قصيدة ، أو صلاة ، كتبها رابندرانات طاغور :

حيث العقل لا يخاف والراس مرفوعة عالية ..
حيث المعرفة حرة ..
حيث العالم لم تمزقه جدران التعصب ..
حيث تخرج الكلمات من أعماق الحقيقة ..
حيث تجد المحاولة التى لا تمد ذراعيها الى الكمال ..
حيث لا يفقد جدول العقل مجراه فى صحراء التقاليد الميتة ..
حيث العقل فى تقدم دائم نحو ساحات افسح من الفكر والعمل ..
فى هذه السماء من الحرية ، يا ابت ، دع وطنى يصحو ! ..

لقد أنهيت قصتى ، وهذا هو خطابى الاخير ..

خطابى الاخير ؟.. كلا .. فسوف أكتب لك المزيد .. فهذه السلسلة وحدها هى التى انتهت ..

فهرس

	صفحة
مقدمة	٧
هدية عيد الميلاد	١٣
عبرة التاريخ	١٨
آسيا وأوروبا	٢١
اين يذهب الثراء ؟	٢٤
انجلترا تقطع راس ملكها	٢٩
الثورة الصناعية تبدأ فى انجلترا	٣٨
حرب الاستقلال فى أمريكا	٤٧
الثورة الفرنسية	٥٥
ثورات سنة ١٩٤٨	٦٤
داروين وانتصار العلم	٧٦
تقدم الديمقراطية	٨٦
ظهور الاشتراكية	٩٧
كارل ماركس	١٠٧
انجلترا تصبح دائنة العالم	١١٨
الامبراطورية الامريكية الحقيقية	١٢٨
سقوط القيصرية فى روسيا	١٣٤
الثورة السلمية فى الهند	١٤٧
الفاشيية	١٦١
العالم الراسمالى يفشل فى الاتحاد	١٦٨
رسالة ختام	١٧١

كتب هلال صدرت فى سنة ١٩٦٥ ، ١٩٦٦

رقم الكتاب		
١٦٦	محمد رسول الحرية	: عبد الرحمن الشرقاوى
١٦٧	البحث عن شيكسبير	: د. لويس عوض
١٦٨	اسرائيليات	: أحمد بهاء الدين
١٦٩	حقائق الاسلام واباطيل خصومه	: عباس محمود العقاد
١٧٠	مختارات من برناردشو فى النقد والسياسة	: د . عمر مكاوى
١٧١	أساطير الحب والجمال عند الاغريق	: درينى خشبة
١٧٢	عشرة ادباء يتحدثون	: فؤاد دوارة
١٧٣ ـ ١٧٤	مذكرات شارلى شابلن ج ١ ، ج ٢	: صلاح حافظ
١٧٥	كتابات لم تنشر	: د . محمد مندور
١٧٦	ثورة الزنوج فى امريكا	: د . عبد الملك عودة
١٧٧	معارك فكرية	: محمود أمين العالم
١٧٨	أبو ذر الغفارى	: عبد الحميد جودة السحار
١٧٩	دليل المتفرج الذكى الى المسرح	: الفريد فرج

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص٠ب ٢١

البرازيل :
Mr. Miguel Macoul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRAZIL

سنغافورة :
Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Al Maktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجلترا :
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorp eRoad
London S.E. 26
ENGLAND

هذا الكتاب

سنجد في هذه الرسائل لمسة الاب نهرو وهو يخاطب ابنه انديرا فى حنان ومحبة . ولكننا سنجد كذلك لمسة نهرو المفكر والمناضل والثائر والمحب للهند وللانسانية ..انه يكتب هذه الرسائل من السجن ، ليدافع بها عن الحرية وليصوغ المستقبل ، للهند وللعالم

يقول لابنته فى رسالة منها : وداعا يا صغيرتى .. لتصبحى مع الايام جندية باسلة فى خدمة الهند..ويقول لها في رسالة اخرى : اننا نعمل على تحرير وطننا ، ولكننا نعمل كذلك على تحرير الانسانية ..

وبهذه الرسائل صاغ نهرو فكر ابنته وضميرها وهى ما تزال فى الثالثة عشرة من عمرها ..

واليوم تقف انديرا فى مكان ابيها، على راس الهند ..لتشارك فى صياغة مستقبل الهند ومستقبل العالم ،وفى فكرها وفى ضميرها عصارة هذه الرسائل

وفى هذا الكتاب مختارات من هذه الرسائل تعبر عن راى نهـــــرو فى الثورات البشرية التى غيرت مجرى التاريخ ، الثورات السياسية والاجتماعية والفكرية ..

انها وصية نهرو الى ابنته انديرا.. ولكنها فى الحقيقة وصية نهرو الى كل اب ، والى كل أم ، والى كل ابن ، والى كل ابنة ، والى كل انسان ..

انها دعوة مخلصة الى التحرر والتقدم والعلم والسلام